طه حسين

إسلاميات

منشورات دار الآداب - بيروت

اسلاميـــات

طه حسين

إسلاميات

- مرآة الاسلام
- على هامش السيرة (٣ اجزاء
- الوعد الحق
- الفتنة الكبرى (عثمان)
- الفتنة الكبرى (علي وبنوه)

الطبعة الأولى
شباط (فبراير) ١٩٦٧

مرآة الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

\- ١ -

في أواسط القرن السادس للمسيح كانت الأمة العربية متخلفة أشد التخلف بالقياس إلى الأمم التي كانت تجاورها ، لها في الجنوب بقايا حضارة كانت قد درست ، ولم يكن أهل الجنوب أنفسهم يعلمون من أمرها إلا أخلاطاً هي إلى الأساطير أقرب منها إلى الحق .

كانوا يذكرون حمير وملوكها من التبابعة ، وكانوا يذكرون سبأ ، وكانوا يذكرون الأذواء ، بل كان الأذواء ما يزالون يحتفظون بشيء من سلطانهم يعيشون في حصونهم ويتسلطون على أهلها وعلى من حولها في حواضر الجنوب وبواديه .

وكانت هناك مع ذلك قبائل متبدّية لا تخضع لأحد منهم ، وإنما تعيش عيشة الأعراب في بواديهم . وكانت في الجنوب مدن كبار أو صغار فيها بقية من حضارة ، ولكنها لا تغني عن أصحابها شيئاً . ولم يكن الجنوب العربي خالصاً للعرب وإنما كان الحبشة يتسلطون على جزء عظيم منه ، وعجز العرب عن إجلاء هؤلاء المحتلين فاستعانوا بالفرس على ذلك وأعانهم الفرس، ولكن لا ليردوا عليهم سلطانهم ولا ليخلّصوا لهم وطنهم ، بل ليقوموا مقام الحبشة الذين أجلوهم .

وكان أهل الجنوب مع ذلك قد وصلت إليهم دعوة الدّينَين : اليهودي والمسيحي. وأكبر الظن أن يهوديتهم ومسيحيتهم كانتا تتأثران بجهلهم وغلبة البداوة عليهم . كالذي سنراه حين نتحدث عن شمال الجزيرة .

ومهما يكن من شيء فمن الإسراف في الخطأ أن نظن أن أهل جنوب الجزيرة العربية في ذلك الوقت قد كانوا على شيء ذي خطر من الحضارة بمعناها الصحيح . ولكنهم على كل حال كانوا يحيون حياة خيراً من الحياة التي كان يحياها سائر الأمة العربية في قلب الجزيرة وشمالها .

كانت لهم بقية من زراعة وكانت تصل إليهم تجارة الهند وأشياء من تجارة الحبشة والفرس، وكان أهل الشمال كما سنرى يلمّون بهم كل عام فينقلون ما عندهم من التجارة لينشروها في العالم المتحضر . وكان هذا كله يُتيح لهم شيئاً من ثراء ، فلم يكن عيشهم قاسياً ولا غليظاً كعيش غيرهم من العرب .

وكان ما ورثوا من بقايا حضارتهم الدارسة وما وصل إليهم من الديانتين السماويتين وما أتيح لهم من هذا الثراء المتواضع - كان كل ذلك قد جعلهم أرق قلوباً وأصفى طباعاً من أهل الشمال . ولكنهم على هذا كله كانوا متخلفين بالقياس إلى الأمم المتحضرة فكانت كثرتهم الكثيرة أمية وكان أقلهم يكتبون ويقرؤون .

فإذا تركنا الجنوب إلى قلب الجزيرة العربية - أي إلى نجد - فالحياة القاسية والعيش الغليظ والجهالة المطبقة ، ونظام القبائل الذي يقوم على العصبية أكثر مما يقوم على أي شيء آخر

ولم يكن حال الشمال في تهامة والحجاز خيراً من حال نجد . وإن وجدت في الحجاز مدن أو قرى ، كما كان يقال في تلك الأيام ؛ وإن عاش أهل هذه المدن أو القرى عيشة الاستقرار والدعة لا يرحلون عن مدنهم أو قراهم تتبعاً للغيث والتماساً للكلأ ، وإنما يرحلون تجاراً إلى الجنوب في الشتاء وإلى الشمال في الصيف ، كما يحدثنا بذلك القرآن عن قريش .

كان لأهل الطائف وأهل يثرب شيء من زراعة ، ولكن حياتهم كانت تقوم على زراعتهم هذه اليسيرة وعلى تجارتهم أيضاً ؛ وكانت حياة مكة تقوم على التجارة من جهة وعلى الحج من جهة أخرى ، يفد اليها العرب من أقطار الجزيرة في موسم الحج فيقضون نسكهم ويتجرون أيضاً وتنتفع مكة بما يحملون من ألوان التجارة .

ومن حول هذه المدن أو القرى كانت البوادي بما فيها من شظف العيش وقسوة الحياة والتنقل في التماس المراعي ، والخصومات المتصلة التي تثيرها العصبية بين القبائل، والتي تنتج الغارات والحروب . ومع ذلك فلم يستطع أهل هذه المدن أو القرى أن يبرأوا من العصبية ؛ ولا أن يعيشوا عيشة المتحضرين بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ؛ وإنما

كانت العصبية قوام حياتهم ، يعيشون عيشة القبائل في البادية ، وقــد تثار بينهم الخصومات ، وقد تشب بينهم الحروب .

وكان هـذا كله يستتبع كثيراً من جفاء الأخلاق وغلظ القلوب ، بحيث لم تكن حياة أهل القرى تمتاز من حياة أهل البادية إلا بشيء من ثراء كانت تستأثر به قلة من الأغنياء ، الذين يتسلطون على من يعيش معهم من النـــاس تسلطاً لا يخلو من عسف وظلم وأثرة واستعلاء . وكانت اليهودية قد استقرت في شمال الحجاز لأسباب لا نحققها ولا يبينها التاريخ ، فإلى جانب الأوس والخزرج في يثرب كانت تعيش قبائل يهودية ، وفي خيبر كذلك وهذه القبائل اليهودية كانت تحيا نفس الحياة التي كان العرب يحيونها من حولها ، قليل من حضارة وكثير من بداوة .

وكانت كثرة اليهود في الحجاز أمية كالعرب، لا يقرأ ولا يكتب منهم إلا أحبارهم. وكان هؤلاء الأحبار أقرب إلى الجهل منهم إلى العلم ، وقليل منهم من كان يحسن العلم بدينه فكيف بسائر اليهود !

وسنرى فيما يأتي من هذا الحديث كيف صور القرآن الكريم جهل اليهود من أهل الحجاز دينهم وكتابهم . ولسنا نعـــلم على سبيل التحقيق متى وصلت بعض القبائل العربية إلى أطراف الشام وأطراف العراق .

ولكن الحقق أن العرب في ذلك العصر الذي نتحدث عنه كانوا قـــد جاوزوا الجزيرة العربية شمالاً إلى الشام واستقروا في أطرافه ، وأنهم كذلك كانوا قد جاوزوا جزيرة العرب شرقاً إلى العراق وإلى الجزيرة . وغلبت النصرانية على أولئك وهؤلاء ، ولكنها كانت نصرانية خاصة يجهل أصحابها حقائقها ولا يكادون يعرفون منهـا إلا مظاهر وصوراً .

وكما أن الإمبراطورية البيزنطية قـــد حمت هؤلاء العرب في الشام واتخذت منهم حرساً للحدود بينها وبين الجزيرة العربية وجعلت منهم ملوكاً وسادة ، وأجزلت لهم العطاء ويسرت لهم سبل العيش ؛ فكذلك صنعت الإمبراطورية الفارسية بالعرب الذين استقروا في العراق ، اتخذتهم حرساً للحدود بينها وبين الجزيرة العربية وجعلت منهم ملوكاً وسادة وملكت بعضهم الأرض وأغدقت عليهم العطاء .

وإذن فقد عرف العرب النصرانية في الشام والعراق ، وربما عرفوها في مكة أيضاً وفي الطائف بفضل التجارة من جهة وبفضل من كان يصل إليهم من الرقيق من جهة ثانية ، وبفضل بعض التجار الذين غامروا بأنفسهم وبتجارتهم فوصلوا إلى مكة واستقروا فيها . وكذلك عرف العرب المسيحية في الجنوب في مدينة نجران التي اضطُهِد المسيحيون من أهلها وعذبوا في دينهم كما يحدثنا المؤرخون ، وعرف العرب اليهودية في جنوب الجزيرة وشمالها .

فليس صحيحاً إذن أن الأمة العربية في ذلك العصر كانت تعيش في عزلة لا تعرف من أمر الأمم المجاورة لها شيئاً ؛ فاليهودية والمسيحية لم تتنزلا على أهل الجنوب ولا على أهل الشمال من السماء وإنما جاءتا أولئك وهؤلاء من الاتصال بالأمم المتحضرة المجاورة.

وليس من شك في أن بعض العرب الذين جاوروا الفرس وخضعوا لسلطانهم خضوعاً ما قد عرفوا المجوسية والفارسية واتخذوها لهم ديناً . وقد يقال إن أهل البادية في نجد وتهامة والحجاز كانوا بمعزل من هذا كله قد انقطعوا لأنفسهم وفرغوا لحياتهم تلك الغليظة القاسية ؛ ولكن هذا أيضاً لا يستقيم ؛ فمن عرب البادية والقرى ظهر شعراء كانوا يُلمّون بعرب الشام وعرب العراق ويأخذون جوائز ملوكهم وسادتهم ويعودون بعد ذلك إلى قومهم في البادية فيحدثونهم بما رأوا وما سمعوا .

وهذه التجارة المتصلة بين أهل القرى وبين الأمم المجاورة كانت جديرة أن تُعرِّف العرب كثيراً من شؤون الفرس والروم والحبشة ايضاً . ولأمرٍ ما تنصَّر أفراد من قريش كورقة بن نوفل وزيد بن عمرو ؛ ولأمرٍ ما نجد فيما يُنسب إلى بعض الشعراء في ذلك العصر من الشعر ما يدل على أنهم قد عرفوا أطرافاً من المسيحية واليهودية كالذي نجده عند النابغة الذبياني وعند زهير وعند الأعشى وعند أمية بن أبي الصلت الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى الشيخان : « كاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلم » .

ونحن لا نجد عند الشعراء هذه الأطرافَ من الديانتين اليهودية والمسيحية فحسب وإنما نجد عندهم – إن صح ما يُنسب إليهم من الشعر - وصفاً لأطراف من حضارة تلك الأمم كوصفهم لمجالس اللهو والشراب والغناء وغير ذلك .

فعزلة الأمة العربية إذن سخف من السخف لا ينبغي أن يقبل أو يطمأن إليه . وكل ما في الأمر أن قلب الجزيرة العربية وشمالها لم يخضعا لسلطان أمة متحضرة وإنما خلّي بينهما وبين الحياة الحرة يحياها أهلها كما يريدون او كما يستطيعون . فعاشوا عيشتهم تلك الغليظة الجافية لم تصل إليهم الحضارة وإنما وصلت إليهم أطراف منها . فهموا بعضها وقصروا عن فهم بعضها الآخر - فسيطرت عليهم جاهليتهم بكل ما فيها من الآثام والشرور والمنكرات .

- ٣ -

وكان لهم دين غليظ كحياتهم هو هذه الوثنية الساذجة الغليظة التي لم تفكر فيها عقولهم ولم تمتزج بقلوبهم وإنما كانت أخلاطاً ورثوها عن آبائهم فلم يغيروا منها شيئاً بل أنكروا كل من حاول أن يغير منها شيئاً كالذي صنعت قريش بزيد بن عمرو حين اظهر السخط على دينها . وإذا أردنا أن نحلل هذا الدين الذي كانت العرب تدين به في غير فقه ولا تعمق ، فسنرى أولا أنهم لم يكونوا ينكرون أن للسموات والأرض وما فيهن خالقاً هو الإله الأعظم . واقرأ إن شئت قول الله عز وجل :

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّموات والأرْضَ لَيَقُولُنَّ الله)

ثم اقرأ إن شئت هذا البيت الذي أحبه النبي صلى الله عليه وسلم من شعر لَبيد فيما روى الشيخان :

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ وكل نعيم لا محالةَ زائلُ

ولكن علمهم بوجود الله كان ساذجاً لم يبلغ أعماق قلوبهم ولم يصل إلى دخائل ضمائرهم ولم يمتزج بنفوسهم . فاتخذوا من دون الله آلهة قريبة منهم يرونها بأبصارهم ويلمسونها بأيديهم بل قد يصنعون كثيراً منها بأيديهم كهذه الأصنام التي كانوا يتخذونها

من الحجارة أو من الخشب وكهذه الأشجار التي كانوا يعظّمونها ويُطيفون بها . ثم لم يكتفوا بذلك بل اعتقدوا أن الأرض التي يعيشون عليها ليست خالصة لهم وإنما يعيش عليها معهم كائنات أخرى حية هي أقوى منهم قوة وأشد منهم بأساً ، كائنـــات لا يرونها ولكنهم قد يسمعونها وقد يخيل إليهم أنهم يرون آثارها ، وهي كانت - فيما زعموا - تخالط آلهتهم وتجري على أيديها بعض الأحداث وربما خالطت أفراداً منهم فأنطقتهم بأشياء فيها أنباء بما كان وأنباء بما سيكون ، وهذه الكائنات هي الجن أي الكائنات المستخفية المستورة التي لا يراها الناس ولكنهم يرون - فيما زعموا - بعض ما تفعل ويتلقون منها - فيما زعموا أيضاً - بعض ما تقول .

ربما اعتقدوا أن الآلهة التي كانوا يتخذونها ليست في أنفسها خالقة لشيء ولا مدبرة لشيء ولكنها واسطة بينهم وبين الإله الأعظم الذي خلق السموات والأرض والذي يدبر الأمر كله فهم لا يعبدون هذه الآلهة لأنها تستطيع وحدها أن تنفعهم أو تضرهم وإنما يعبدونها لتشفع لهم عند الله ولتقربهم إلى الله زلفى كما نقرأ في القرآن الكريم .

فهم مشركون لا يجحدون الله ولا يعبدونه وحده وإنما يعبدون معه آلهة أخرى يتخذونها واسطة بينهم وبينه .

وتمضي القرون على هذا النحو من الوثنية فتضاف إليـه على مَرّ الزمان الخرافات والسخافات ، وإذا هم يقرّبون الى آلهتهم كأنهم يرشونهـا لتشفع لهم عند الله ، وهم يستشيرونها في أكثر أمرهم ويستقسمون عندها بالأزلام ، وهم يرضون عنها حين تُرضيهم ويسخطون عليها حين تسخطهم لا يخطر لهم أنهـا أعجز من أن ترضى أو تسخط وإنما يحاولون الأمر ويستعينون بآلهتهم ، فإن تم لهم ما حاولوا من الأمر رضوا وزعموا أن الآلهة قد سمعت لهم وأجابتهم إلى مـا طلبوا ، وإن لم يتم ما حاولوا سخطوا وزعموا أن آلهتهم لم تستجب لهم ولم تُعنهم .

كذلك كانت الوثنية ساذجة إلى أقصى حدود السذاجة سخيفـــة إلى أبعد غايات السخف . ولم يفكر هؤلاء العرب الوثنيون فيما يمكن أن يكون بعد الموت بل قدروا أن لهم حياتهم هذه التي يحيونها على الأرض وأن آلهتهم وسطاء بينهم وبين الله على أن يقضوا آرابهم وينفقوا حياتهم هذه كأحسن مـا يحبون ، فإذا أدرك الموت جيلاً منهم مضى لسبيله وجاء جيل بعده وقد ورث عنه دينه وآراءه في الله الذي خلق السموات والأرض ، وفي هذه الآلهة التي تسعى لهم عند الله فيما يريدون من الخير ، وفي رد ما يخافون من الشر والمكروه .

وكثير من هؤلاء العرب الوثنيين كانوا يتصلون بالمسيحيين واليهود يسمعون منهم ويقولون لهم ويعاملونهم في شؤون الحياة على اختلافها ، ولكنهم على ذلك لا يتأثرون بما يرون من دينهم ومن مذاهبهم في الحياة .

- ٤ -

ولا أكاد أشك في أن وثنية أهل مكة لم تكن صادقة ولا خالصة وإنما كانوا يتجرون بالدين كما كانوا يتجرون بالعروض التي كانوا يجمعونها من الجنوب ومن أنحاء الجزيرة العربية لينقلوها إلى أقطار أخرى من الأرض كانت محتاجة إليها فهم كانوا أذكى قلوباً وأنفذ بصيرة وأكثر ممارسة لشؤون الحياة في قريتهم تلك وفي غيرها من المواطن التي كانوا يختلفون اليها بتجارتهم . وهم كانوا بحكم ممارستهم للتجارة يتصلون بأمم متحضرة في الشام ومصر وفي العراق وبلاد الفرس أيضاً . وكانوا يرون مذاهب هذه الأمم في الحياة ومذاهبهم في الدين أيضاً . فلم يكن من الممكن أن يؤمنوا لهذه السخافات التي كان يؤمن بها العرب الوثنيون .

فإذا أضفت إلى ذلك أن الكعبة كانت بين ظهرانيهم وأن العرب كانوا يحجّون إلى هذه الكعبة من جميع أنحاء الجزيرة وأنهم لم يكونوا يأتون مكة للحج وحده، وإنما كانوا يأتون للحج والتجارة أيضاً في تلك الأسواق التي كانت تقام كل عام قريباً من قريتهم ، عرفت أنهم إنما كانوا يظهرون الإيمان بتلك الوثنية والتعظيم لتلك الآلهة ترغيباً للعرب في الحج وتحقيقاً لمنافعهم منه .

والذي نراه من حياة قريش قبيل الإسلام وحين بعث النبي صلى الله عليه وسلم فيهم يدلنا أوضح الدلالة وأقواها على أنهم لم يكونوا أهل إيمان ولا أصحاب دين ، وإنما كانوا قبل كل شيء أصحاب تجارة واسعة يسعون فيها عامهم كله ، تسافر قوافلهم في جمع العروض ثم تعود فتستقر في مكة وقتاً لتسافر بعد ذلك بهذه العروض تحملها إلى الآفاق . ولم يكونوا يؤثرون على تجارتهم شيئاً ، ولم يكن يشغلهم إلا التفكير في جمع المال من أغنيائهم وأوساطهم وفقرائهم أيضاً لجلب العروض ثم بيعها وجلب عروض أخرى لبيعها في الجزيرة العربية نفسها وفي توزيع الأرباح التي تحققها التجارة على أصحاب الأموال فكانوا ينفقون عامهم في أخذ وعطاء وانتقال واستقرار يتحدثون في المال

والتجارة إذا خلوا إلى أنفسهم ، وإذا شغفت النفوس بالمال وجدّت في جمعه واستثماره شغلت به عن كل شيء وملك عليها أمرها كله وأوشك أن يكون لها إلهاً تعبده وحده لا تشرك به شيئاً .

والمال فتنة لقلوب الرجال يفسد عليها كل شيء ويوشك أن يصرفها عن كل خير ، وكذلك كانت قريش في ذلك العصر : مؤمنة بالمال مذعنة لسلطانه لا يَعنيها إلا أن تستثمره وتكثّره وتضيف بعضه إلى بعض وتستمتع أثناء ذلك بما يمكن أن يتيح لها من طيبات الحياة وخباثتها أيضاً . فقريش كانت تحب الترف بمقدار ما يتاح لمثلها منه ، وتحب التسلط بشرط ألا ينقص من مالها شيئاً .

وإذا أردت أن تصور مكة كما كانت في ذلك العصر ، فاذكر مدينة من مدن الفينيقيين الذين لم يكن يعنيهم الا التجارة والمال ، واذكر بعد ذلك ان المدن الفينيقية لم يكن في واحدة منها بيت يجمع الناس اليه من الآفاق كما كانت الحال في مكة .

وكان سكان مكة في ذلك العصر يأتلفون من طبقات ثلاث :

طبقة لها كل الحقوق وهي قريش تستند حقوقها إلى ما كانت ترى من شرف أصولها أولاً ومن أنها صاحبة البيت ثانياً : وكانت هذه الطبقة الشريفة المستأثرة بالحقوق كلها تنقسم في نفسها إلى : فئة الأغنياء أولي الثراء العريض . وفئة الذين يملكون من المال ما يتيح لهم أن يتجروا سواء سافروا للتجارة أو اكتفوا بإعطاء أموالهم للمتجرين .

وفئة أخرى فقيرة قد تملك القليل وتتجر فيه وقد لا تملك شيئاً فهي مضطرة إلى أن تعمل لتعيش .

وهذه الفئات الثلاث من قريش كلها متساوية في الشرف وفي الاستمتاع بالحقوق ، وهي من أجل ذلك تكوّن فئة ممتازة لطبقة السادة .

وتأتي بعدها طبقة أخرى هي طبقة الحلفاء وهم ناس من العرب على اختلاف قبائلهم آووا إلى مكة ليأمنوا فيها ، فهي مدينة حرام يأمن اللاجىء إليها مهما تكن جنايته وجرائره على قومه ، وناس من العرب آخرون تسامعوا بغنى قريش ودعة الحياة في مكة فأقبلوا يبتغون فضلاً من رزق . وكل هؤلاء وأمثالهم لم يكن يُتاح لهم المقام المطمئن في مكة إلا إذا حالفوا حياً من أحياء قريش أو فرداً من أفرادها . فهم أحرار إذا حفظوا حق الحلف والجوار تحميهم قريش فيأمنون ويسعون في الرزق . ولكنهم ليسوا من قريش ، وإنما هم طبقة دونها تعيش في ظلها ولا تشارك في حقوقها .

وطبقة ثالثة : هي الرقيق الذي لا حق له حتى في نفسه يملكه سيده كما يملك ما في بيته من أداة يسخره فيما يريد من أمره كما يشاء ، ليس له أن ينكر ولا أن يعترض، وإنما عليه أن يسمع ويطيع . وسيده يملك أن يحرره بالعتق كما يملك أن يبيعه أو يهبه، كما يملك أن يعاقبه أشد العقوبة وأيسرها وله عليه حق الموت والحياة ، ولكن قريشاً لم تكن تغلو في استعمال هذا الحق .

وإلى جانب هذه الطبقات الثلاث كان يعيش بمكة شُذّاذ من الآفاق ليسوا عرباً ولكنهم عجم من أمم مختلفة ، أقبلوا متجرين بتجـــارة تحتاج إليها الطبقة الغنية والوسطى . بعض هؤلاء كان يتجر باللهو : يسقي الخمر ، ويُسمع الغناء ، ويلهي من احتاج إلى اللهو من شباب قريش بألوان من المتاع ليس من السهل أن يوجد في البيئات العربية ، وبعضهم كان يتجر بالنقد يصرف الدنانير والدراهم ويقوم الذهب والفضة بهذين النقدين .

وكان هؤلاء الأجانب يعيشون في أمن لا يعرض لهم أحد بمكروه لمكان الحاجة إليهم ، وأكثرهم كانوا من المسيحيين أقبلوا من بلاد الروم ، وربما كانوا ينفعون قريشاً بمـــا يحدثونهم من أحاديث بلادهم وبما يفتحون لهم في هذه الأحاديث من أبواب التجارة والربح .

كذلك كانت تعيش مكة في ذلك العصر ،يضطرب فيها هؤلاء السكان على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم وأجناسهم . وواضح أن أكثر الرقيق لم يكونوا عرباً فلم تكن قريش صاحبة حرب ؛ لأن المال والتجارة لا يحبان الحرب .

فكانت تشتري هؤلاء الرقيق فيما كانت تشتري من العُروض ، وربما اتجرت فيهم أحياناً . ولكنها كانت تشتريهم في أكثر الأحيان لمنافعها ومآربها وحاجاتها المختلفة . وواضح أن هؤلاء الرقيق لم يكونوا يدينون دين سادتهم وإنمـــا كان منهم المسيحي واليهودي والمجوسي حسب البلاد التي نشئوا فيها واجتلبوا منها . ومن الطبيعي أن أغنياء قريش وأهل الطبقة المتوسطة منهم لم يكونوا يعملون إلا في التجارة ، فكان الرقيق يكفونهم حاجاتهم اليومية : يرعون عليهم ما كانوا يملكون من الإبل والغنم ويعنون بما كانوا يملكون من الخيل ، ويعملون فيما كانوا يملكون من الأرض خارج مكة في الطائف أو في غيرها ويقومون بخدمتهم في دورهم ويخدمونهم في أسفارهم في الصيف والشتاء وربما كان بعضهم يحسن حرفة من الحرف ، فكان سادتهم يسخرونهم في اصطناع حرفهم هذه والاكتساب منها على أن يكون كسبهم لسادتهم لا يملكون

لأنفسهم شيئاً إلا ما يقوتهم ويُقيم أوَدهم .

وكذلك اجتمعت في مكة أجناس مختلفة من الناس وألوان مختلفة من الديانات . وكان من الطبيعي أن يؤثر هذا كله في حياة قريش . وليس شيء أشد تأثيراً في حياة الناس من اتصالهم بالأجناس المختلفة ذوي الحضارات والديانات المختلفة . وهذا هو الذي يفسر لنا ما امتازت به قريش من العرب كافة - في ذلك العصر - من ذكاء القلوب وسعة الحيلة ونفاذ البصيرة وبعد النظر وحسن السياسة لأمورها كلها والبراعة في القيام على المال واستثماره وفي فهم الناس والنفوذ إلى أعماقهم .

ولكن قريشاً على ذلك كانت تسكن قرية في واد غير ذي زرع ، قرية منقطعة انقطاعاً تامّاً من البلاد المتحضرة . كل شيء كان يؤهل قريشاً وقريتهم للحضارة والحضارة الممتازة لولا هذا الانقطاع الذي فرض عليها .

ومن الحق أن قريشاً كانت تتصل اتصالاً منتظماً بالبلاد المتحضرة بحكم أسفارها في التجارة ولكن الحضارة لا تنقل من مكان إلى مكان كما تنقل العروض ؛ وإنما تنشأ في بيئة من البيئات تنبت من الأرض ثم تقوى وتشتد ويزيدها الاتصال بالأمم المتحضرة نموّاً وازدهاراً .

- ٥ -

كذلك كانت تعيش قريش في القرن السادس للمسيح ، ليس من اليسير أن نحدد لها نظاماً من نظم الحكم التي يعرفها الناس فلم يكن لها ملك ولم تكن جمهورية أرستقراطية بالمعنى المألوف لهذه الكلمة ولم تكن جمهورية ديمقراطية بالمعنى المألوف لهذه الكلمة أيضاً ، ولم يكن لها طاغية يدبر أمورها على رغمها ، وإنما كانت قبيلة عربية قد احتفظت بكثير من خصائص القبائل البادية . فهي منقسمة إلى أحياء وبطون وفصائل ، والتنافس بين هذه الأحياء والبطون والفصائل قائم يشتد حيناً ويلين حيناً آخر ولكنه لا يصل إلى الخصومات الدامية كما كانت الحال في البادية ، وأمور الحكم - إن صح أن يذكر لفظ الحكم - تجري كما كانت تجري في القبيلة البادية . وكل ما وصلت إليه قريش من التطور في شؤون الحكم هو أنها لم يكن لها سيد أو شيخ يُرجع إليه فيما يشكل من الأمر ، وإنما كان لها سادة أو شيوخ يلتئم منهم مجلس في المسجد

الحرام أو في دار الندوة وأمام هذا المجلس تُعرض مشكلات التجارة وتُعرض المشكلات التي تكون بين أحيائها ؛ وقد تعرض المشكلات التي تُثار بين الأفراد إن بلغت من الخطر أن تثير خصومة بين حيّين أو أكثر .

ومضى أمر قريش على هذا النحو إلى آخر العصر الجاهلي . وكأنها أحست قُبيل البعثة أن هذا النظام لا يكفل العدل الشامل الذي يطمئن إليه الأقوياء والضعفاء جميعاً وإنما يكفل العدل بين السادة وأنصاف السادة ويخلي بين هؤلاء وبين شيء من الظلم يقع على الضعفاء من الحلفاء ومن أووْا إلى مكة ليقيموا فيها إقامة تقصر أو تطول .

ومن أجل هذا اجتمعت طائفة من خيار هؤلاء السادة وأقويائهم وتحالف أعضاؤها على أن يرفعوا الظلم ويقوموا دون المظلوم حتى ينتصف من الظالم ودون الضعيف حتى يأخذ حقه من القوي . وهذا الحلف هو المعروف بحلف الفُضول الذي شارك فيه النبي صلى الله عليه وسلم فيمن شارك فيه من بني هاشم قبل البعثة . وقد ذكر النبي بعد ذلك هذا الحلف وأثنى عليه .

– ٦ –

وكانت ثقيف تعيش نحو هذه العيشة في الطائف إلا أن أمرها لم يكن كأمر قريش على الحج والتجارة . فلم يكن إلى الطائف حج لمكان الكعبة من مكة .

وكانت ثقيف قد رزقت شيئاً من الخصب فاصطنعت الزراعة وزراعة الفاكهة خاصة ، واعتمدت او كادت تعتمد في زراعتها على قريش ، فكانت قريش تشتري عروض الطائف وتنشرها فيما تنشر من تجارتها ، وربما أسهم بعض الأغنياء من ثقيف بأموالهم في تجارة قريش . فكانوا كغيرهم من أهل مكة في ذلك .

على أن شيئاً من حسن الصلة كان قائماً بين قريش وثقيف ، فكان بينهم الصهر من جهة ، وربما اشترى بعض الأغنياء من قريش أرضاً بالطائف واغترس فيها الحدائق والكروم ، وربما اتخذ بعض الأغنياء من قريش لأنفسهم دوراً في الطائف يفزعون اليها من مكة بحيث نستطيع أن نقطع بأن قريشاً وثقيفاً كان بينهما شيء يشبه الحلف ويقوم على المصالح المشتركة في الزراعة والتجارة جميعاً .

ولم تكن ثقيف على قوتها في الجاهلية تمتاز بمثل ما كانت قريش تمتاز بــه من ذكاء القلوب ونفاذ البصيرة وإنما كانت ثقيف تمتاز بشيء من القوة والمنعة وتمتاز بالمكر والدهاء وحسن المداورة والبراعة في الكيد للخصم أو العدو .

- ٧ -

أما يثرب فقد كان شأنها يختلف عن شأن هاتين القريتين اختلافاً شديداً، فهي أولاً بعيدة عنهما بعداً يحول بينها وبين مشاركتهما في كثير أو قليل من الأمر ، وهي ثانياً لم تكن خالصة لقبيلة واحدة كما كانت مكة خالصة لقريش وكما كانت الطائف خالصة لثقيف وإنما كان يسكنها قبيلتان من العرب ترجعان إلى أصل يمني واحــــد ولكنهما تختصمان دائماً ويشتد التنافس بينهما أحياناً حتى يورطها في حرب تتصل وقتاً طويلا .

وهاتان القبيلتان هما الأوس والخزرج ، وكانت كل قبيلة منهما تمضي أمورها على طريقة القبائل لا يفرق بينها وبين أهل البادية إلا أنهما مستقرتان في مدينتهما لا تنتجعان الغيث وإنما تنتظرانه ، ولا تنتقلان في التماس الكلأ . وكلتا القبيلتين كانتا تعيشان على الزراعة وعلى استثمار النخل خاصة .

ثم هناك فرق آخر بين يثرب من جهة وبين مكة والطــائف من جهة أخرى وهو أن يثرب لم تكن خالصة لأهلها من العرب وإنمــا كان اليهود يشاركونهم فيها . وكانت المعاملات في الزراعة والتجارة تجري بين اليهود وبين هاتين القبيلتين بحكم الجوار والاشتراك في الأرض وفي المصالح على اختلافها ، وكان لكل قبيــلة من الأوس والخزرج حلفاؤها من اليهود يحاربون معها إن حاربت ويسالمون معها إن سالمت .

ومن أجل هذا كله كان الفرق عظيماً بين أهل يثرب من العرب وأهل مكة والطائف، فأهل يثرب أصحاب زراعة متصلة يزرعون ليعيشوا ولا يكادون يتجرون خارج الجزيرة العربية إلا قليلاً ، وهم بعد ذلك مخالطون لأهل الكتاب من اليهود مخالطة متصلة .

فلا غرابة في أن يؤثر هذا كله في أخلاقهم وفي طبائعهم فيجعلهم ألين عريكـــة وأرق شمائل وأسمح أخلاقــاً . ولكنهم على ذلـــك ظلوا كغيرهم من العرب مشركين يعبدون الأوثان ويؤمنون بكثير مما كان أهل البادية يؤمنون بـــه من السخافات

والخرافات ، وظلوا كغيرهم من العرب يعظمون البيت الحرام بمكة ويحجونه في الموسم مع غيرهم من الحجيج .

وكانوا في هذا العصر الذي نتحدث عنه قد بلغ منهم الجهد لكثرة الاختلاف بين القبيلتين وما كان ينشأ عن ذلك من الخصومات والحروب ، ثم لأن اليهود على ما كان بينهم وبين القبيلتين من الجوار واشتراك المصالح كانوا يستظهرون على هؤلاء العرب الجهال الأميين ، يستظهرون عليهم بما عندهم من كتاب ، وبما لهم من دين مهما يكن أمره فقد كان أرقى من هذه الوثنية الغليظة التي كان العرب يدينون بها .

- ٨ -

وليس غريباً – بعد هذا الذي عُرض عليك في إيجاز من شؤون الأمة العربية في وبرها ومدرها – أن تنشأ عن هذه الحياة التي كانوا يحيونها أخلاق غليظة كغلظ هذه الحياة ، وعادات منكرة كنكر هذه الحياة أيضاً؛ فهؤلاء الذين يعبدون الأصنام التي يصنعونها بأيديهم ، ويعبدون الأشجار التي لا يتحرجون من أن ينتفعوا بثمارها وغصونها إن احتاجوا إلى ذلك ، لا يُنتظر منهم أن تصفو طباعهم وتمتاز أخلاقهم وتلين قلوبهم وتحسن شمائلهم بل عكس هذا كله هو الذي ينتظر منهم .

فإذا أضفت إلى ذلك ما كانت البداوة تفرض على أهلها من الفقر والعوز وقسوة الحياة وأن أهل القرى إنما هم قوم عاشوا بُداة أولاً ثم استقروا في قُراهم بعد ذلك دون أن يضيعوا من خصائص البداوة إلا أقلها – فليس غريباً بعد هذا كله أن نعرف من عادات هؤلاء العرب ما نعرف من الغلظة والقسوة والجفاء ، وليس غريباً أن نعرف أنهم كانوا يقتلون أولادهم خشية الفقر والإملاق ، ويئدون بناتهم خشية الفقر والإملاق والعار أيضاً . وليس غريباً أن نعرف أن العلاقة بين رجالهم ونسائهم لم تكن مهذبة ولا نقية ولا مُبرأة مما يعاب إلى غير ذلك من العادات الكثيرة التي غيّرها الإسلام وحفظ الشعرُ منها شيئاً غير قليل .

ومن الطبيعي أن أهل القرى كانوا أرق طباعاً من أهل البادية إلى حدٍّ ما فلسنا نعرف أن أهل مكة أو الطائف أو يثرب كانوا يقتلون أبناءهم أو يئدون بناتهم ، حال بينهم وبين هذا ما أتيح لهم من لين العيش وسعة ذات اليد . ولكن أهل القرى كانوا قلة ضئيلة بالقياس إلى أهل البادية فلا ينبغي أن يُتخذوا عنواناً لهم .

ومهما يكن من شيء فقد كان أهل الوبر وأهل المدر سواء في وثنيتهم تلك الغليظة، لم يكادوا يتأثرون تأثراً ذا بال بمن جاورهم من اليهود والنصارى . وعسى أن يكون اليهود والنصارى الذين استقروا بين العرب هم الذين تأثروا بالحياة العربية وغلظها وما كان يشوبها من العادات والأخلاق .

فقد يكون من النافع حقاً أن نقيس نصرانية نجران إلى النصرانية التي كانت منتشرة في البلاد المتحضرة وأن نقيس يهودية يثرب وخيبر إلى يهودية اليهود الذين كانوا متفرقين في البلاد المتحضرة ايضاً . كلا الدينين انقطعت الصلة أو كادت تنقطع بينه وبين الذين كانوا يقومون عليه من الأحبار فتبدّى ، وإن استقر في هذه القرى ؛ لأن هذه القرى نفسها كانت أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة .

وعلى كل حال فلم يكد العرب ينتفعون بما كان بينهم وبين اليهود والنصارى من اتصال وإنما ظلوا كما كانوا حتى جاءهم دينهم الجديد .

– ٩ –

وكان بين قريش رجل من أشرافهم يتجر كما يتجرون ويحضر مجالسهم في المسجد وفي دار الندوة . هو عبد المطلب بن هاشم ولكنه كان يمتاز من قومه بكثير من الوقار وميل إلى الدين والنسك، يعظم ما كان قومه يعظمون من هذه الآلهة ولكن عن إخلاص وصدق لا عن تكلف ورياء . وقد اتيحت له أشياء زادته امتيازاً من قومه فخاصموه أول الأمر ثم أكبروه بعد ذلك : فهو قد احتفر بئر زمزم .

وحدث أصحاب الأخبار بأنه لم يحتفرها من عند نفسه وإنما أتاه آت في نومه فأمره باحتفارها وبيّن له مكانها ، فأقبل على ما أمر به حتى أنفذه .

ويقول أصحاب الأخبار إنه وجد كنزاً أثناء احتفار البئر قبل أن يصل إلى الماء فخاصمته فيه قريش فجعله للكعبة ولم يأخذ هو ولا غيره منه شيئاً ثم أنبط الماء فخاصمته فيه قريش ترى أن البئر لها ، ويرى هو أنها له لأنه احتفرها بيده وأنبط ماءها بجهده . ولجت قريش في الخصومة – فيما يقول أصحاب الأخبار – حتى أجمعوا على أن يحتكموا إلى أحد الكهان فأوفدوا مع عبد المطلب وفداً يخاصمونه إلى ذلك الكاهن ولكنهم لم يحتاجوا إلى هذا الاحتكام لأن آية ظهرت لهم في الطريق أقنعتهم بأن عبد المطلب ليس متكذباً ولا متكلفاً .

قال الرواة : وفي أثناء هذه الخصومة أحسَّ عبد المطلب أنه وحيد ليس له من الولد من ينصرونه فنذر لئن أتيح له عشرة منهم ليقربن أحدهم إلى الآلهة .

وقد أتيح له عشرة من الولد فأزمع أن يقرِّب أحدهم وهمَّ بذلك ولكن قريشاً أبت عليه لأنها استبشعت عمله هذا . وما زالت به حتى أقنعته بأن يقرع بين ابنه وبين عشرة من الإبل . فجعل كلما أقرع خرج السهم على ابنه حتى بلغت الإبل مائة فقربها إلى الآلهة ونجا ابنه ذاك الفتى .

فإذا صورت هذه القصة شيئاً فإنما تصور نزوع عبد المطلب إلى شيء من الدين وإخلاصه فيه وإسماحه في سبيله بالولد والمال جميعاً . وتصوِّر كذلك عزوف قريش عن المُفظع من الأمر وإنكارها في عنف وإلحاح هذا القُربان البشع الذي يضحي فيه بالإنسان للآلهة .

على أن ذلك الفتى الذي افتداه أبوه بالإبل فأغلى في الفداء لم يعمِّر وإنما زوجه أبوه ثم أرسله إلى الشام مع قومه للتجارة . فذهب ولم يعد ، أدركه الموت بيثرب في عودته من الشام . وقد وُلد له بعد موته صبي هو الذي اختاره الله ليأتي العرب بدينهم الجديد .

وفي تلك الأيام نفسها تعرضت مكة لخطر شديد : أقبل الحبشة إليها من اليمن غزاة يريدون أن يملكوا الحجاز كما ملكوا اليمن وأن ينشروا في الحجاز دين المسيح كما حاولوا نشره في اليمن بعد أن انتقموا لتلك المدينة المسيحية : نجران . وكانوا بالطبع مزمعين أن يهدموا الكعبة وأن يحطموا ما نُصب عليها من الأوثان ولكن الله بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدراً ؛ فهو يصد الحبشة عن مكة ويمنعهم أن يدخلوها ويردهم إلى اليمن مدحورين قد بلغ منهم الجهد وأصابهم ما أصابهم من الشر الذي صوره عز وجل في السورة الكريمة : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) .

وما أحب أن أعرض لتأويل هذه الطير الأبابيل التي رمت الحبشة بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول. لأني أؤثر دائماً أن أقبل النص وأفهمه كما قبله وفهمه المسلمون الأولون حين تلاه عليهم النبي صلى الله عليه وسلم .

وفي هذه الموقعة أظهر عبدُ المطلب من الصبر والجَلد ومن الشجاعة والثقة ما لم يظهره غيره من أشراف قريش . فضلاً عن أوساطها وعامتها ؛ ذلك أنه أشار على قريش

أن تخلى مكة وتلوذ بشعاف الجبال وتخلي بين هذا الجيش العظيم وبين ما يريد. فسمع له قومه وتجنبوا الحرب وأقام هو بمكة لم يعتزلها فيمن اعتزلها وإنما قام عند الكعبة يدعو الله ويستنصره .

ويقول الرواة إن الجيش أغار فيما أغار على إبل قريش فاحتازها وجاء عبد المطلب حتى استأذن على أبرهة عظيم الحبشة وقائد جيشها . فلما أدخل عليه لم يكلمه إلا في إبل له أخذها الجيش فيما أخذ من إبل قريش .

قال الرواة : فصغُر عبد المطلب في نفس أبرهة ، وقال له : كنت أظن أنك جئت تكلمني في شأن مكة وفي شأن بيتكم هذا الذي تعظمونه ، فإذا أنت لا تسألني إلا أن أرد عليك إبلك !

قال عبد المطلب : فاني أكلمك في مالي الذي أملكه فأما البيت فإن له رباً يحميه إن شاء .

فرُدت عليه إبله وعاد إلى مكانه من الكعبة يدعو الله ويستنصره .

قال الرواة : وأصبح أبرهة من غد مزمعاً دخول مكة وهدم البيت ولكن الله حال بينه وبين ذلك بما أرسل عليه وعلى جيشه من تلك الطير الأبابيل التي رمتهم بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول .

وعادت قريش إلى مكة موفورة لم ُترزأ شيئاً فازداد إكبارهم لعبد المطلب وشجاعته وثقته وثباته حيث لم يثبتوا وإنما فروا فلاذوا بشعاب الجبال .

في نفس هذا العام — الذي سمته قريش وسماه الرواة بعد ذلك عامَ الفيل — ُولد هذا الصبي يتيماً كما رأيت آنفاً فسماه عبد المطلب محمداً وكفله واسترضعه في بني سعد من هذيل . حتى إذا أتم الرضاعة واحتفظت به المرضع بعد رضاعه وقتاً ردته إلى أمه . فجعل ينشأ بمكة في ظل جده الشيخ ثم سافرت به أمه — حين كان في السادسة من عمره — إلى يثرب تريد أن تزور وأن ُتزير الصبي قبر أبيه عبد الله بن عبد المطلب ولكنها خرجت من مكة ولم تعد إليها كما خرج زوجها عبد الله من قبل فلم يعد إلى وطنه .

أدركها الموت في بعض الطريق منصرفَها من يثرب عائدةً إلى مكة . وعادت بالصبي حاضنتُه بَركة — التي عُرفت في الإسلام بأم أيمن — فقامت على خدمته في ظل جده وأصبح الصبي يتيماً لأبيه وأمه جميعاً . على أنه لم يبلغ السابعة حتى فقد جده أيضاً فأخذه اليتم من جميع أقطاره : فقدَ أباه وأمه وجده ولكن الله آواه كما يقول

في سورة الضحى : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى) .

وكفل الصبي بعد موت الشيخ عمّه أبو طالب فكان له نعم الكافل ونعم الوليّ . وكان أبو طالب صاحب سفر في التجارة كغيره من أشراف قريش وأوساطها .

فيقول الرواة ؛ إنه همّ بالسفر في تجارته إلى الشام ذات عام والصبي في الثانية عشرة من عمره فتعلق به الصبي وألحّ في أن يصحبه في سفره ذاك ، ورق له قلب عمه فحمله معه إلى الشام .

ويقول الرواة : إنه لم يكد يبلغ به مشارف الشام حتى عاد به مسرعاً إلى مكة عن أمر راهب من رهبان النصارى علم من أمر الصبي ما لم يعلم عمّه ، فأوصاه أن يردّه إلى وطنه وأن يحرزه في مكة من مكر النصارى واليهود .

وشب الصبي في كفالة عمه حتى إذا بلغ الرابعة عشرة من عمره شهد حرب الفجار التي كانت في حرم مكة بين قيس وقريش

شهد الحرب ولكنه لم يشارك فيها ؛ كان أصغر سناً من ذلك فكان ينبّل على أعمامه . وأكبر الظن أنه حين أينع جعل يسعى في رزقه فكان يرعى الغنم على قومه حتى إذا نيّف على العشرين سلكت الحياة به طريقاً أخرى .

كان فقيراً لا يكاد يملك شيئاً وكان يكتسب قوته من رعي الغنم ولكنه فتىً من قريش ومن أشرافها . ورعي الغنم قد يليق بالصبية وبأمثالهم من الذين لم يتقدم بهم الشباب فأما إذا شبوا واستتموا قوتهم فليس لهم بد من أن يسلكوا طرقاً أخرى إلى الرزق . وعمه صاحب تجارة وقد مات أبوه تاجراً وجده كان صاحب تجارة أيضاً . فما يمنعه أن يسلك الطريق التي ألفت قريش سلوكها .

وقد أقبل عليه عمّه ذات يوم فأنبأه بأن خديجة بنت خويلد امرأة غنية من أكثر قريش مالاً وأوسطهم نسباً قد جهزت تجارة ضخمة إلى الشام ونصح له بأن يكون رسولها بتجارتها تلك . وأنبأه بأنه يستطيع أن يسعى له في ذلك عند خديجة إن صحّ عزمه على السفر . فقبل الفتى ورضيت خديجه . ورأته مكة ذات يوم خارجاً في قافلتها إلى الشام يصحبه غلام لخديجة يقال له : ميسرة . وقد بلغ الشام فباع واشترى وعاد مع القافلة فأدى إلى خديجة تجارتها وأدى إليها مع هذه التجارة ربحاً لم يتح لها في تجارة قط . وكأن الله لم يجعل هذه التجارة إلا وسيلة لشيء آخر وراءها فقد وقع الفتى من قلب خديجة وإذا هي ترسل إليه مغرية له بخطبتها واذا هو يخطبها ثم يصبح لها زوجاً . وهي تكبره بخمس عشرة سنة فيما يقول الرواة .

ومنذ ذلك اليوم عاش في مكة عيشة الموفورين لا يشكو حاجة ولا يجد ضيقاً كما قال له الله عز وجل في سورة الضحى : (وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى) .

وقد أتيح له من خديجة الولد وأتيح له معها الأمن والدَّعة . ولكنه في ذلك الطَّور من أطوار حياته ظهرت فيه خصال لم تكن مألوفة في شباب قريش : فهو شديد النفرة من اللهو وشديد النفرة من اللغو أيضاً ؛ وهو أبعد الناس عن التكلف وأقربهم إلى الإسماح واليسر ؛ وهو أبغض الناس لهذه الأوثان التي كان قومه يعبدونها مخلصين أو متكلفين ، وهو أصدق الناس إذا تكلم وأوفاهم إذا عامل وأبعدهم من كل ما يزري بالرجل الكريم . وهو بعد ذلك أوصل الناس للرحم وأرعاهم للحق وأشدهم إيثاراً للبر . فهو يجد عمه الذي كفله صبيًّا ويافعاً قد كثر ولده وقل ماله ويريد أن يعينه دون أن يؤذيه فيأخذ منه صبيّه عليًّا ويرد عليه من العناية واللطف والبر بعض ما أدى إليه أبوه حين كان صبيًّا يتيماً . وقد شاعت عنه هذه الأخلاق وعرف بهذه الخصال حتى أحبته قريش وسمته الأمين وعاملته على أنه الأمين حقًّا .

وفي ذات عام همت قريش أن تعيد بناء الكعبة فعزمت بعد تردد . ونقضت البناء وأخذت في إعادته وشاركها الأمين فيما فعلت . حتى إذا بلغت موضع الحجر الأسود اختلفت أحياء قريش فيمن يضع هذا الحجر في موضعه ، يرون أن من يتاح له ذلك سيظفر بشرف أي شرف . وما هي إلا أن يتحول الخلاف إلى خصومة تشتد وتعنف حتى يخشى شرها ولكن ذوي أحلامهم وأولي رأيهم يشيرون عليهم بالتحكيم وبأن يحكّموا أول داخل عليهم فيحكمونه ، فيقضي بينهم قضاء يرضيهم ويكون له مع ذلك ما بعده . يبسط رداءه ويضع الحجر في وسطه ثم يأمرهم بأن يأخذوا بأطراف الرداء فيحملوه ويمشوا به حتى إذا بلغوا البناء أخذ الحجر فأقره بيده في موضعه .

على أنه قد أخذ يميل إلى العزلة شيئاً فشيئاً ثم اشتد عليه حب العزلة فجعل يترك مكة بين حين وحين ويمضي وقد تزود لعزلته حتى إذا بلغ غار حراء خلا فيه إلى نفسه الأيام والليالي فإذا انقضى زاده أو كاد ينقضي عاد إلى أهله فتزود من جديد ورجع إلى غاره فأوى إليه ومكث فيه ما شاء الله أن يمكث . أصبحت هذه الخلوة له عادة ولكنه يعود إلى أهله ذات يوم ولهان مفجّعاً شديد الاضطراب ويقص على خديجة شيئاً عجباً .

أنبأها بأنه كان خالياً إلى نفسه في غار حراء . ولكنه ينظر فيرى شخصاً أمامه ويسمع فإذا هذا الشخص يكلمه يقول له : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء - يريد لا أعرف القراءة - فضمه ضماً شديداً - أو غطه غطاً شديداً - كما يقول حديث الشيخين فيما يرويان عن عائشة - حتى بلغ منه الجهد . ثم أسلمه وقال :اقرأ . قال : ما أنا بقارىء . فغطه غطاً شديداً حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله فقال : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) .

ثم استخفى حتى لا يرى النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ولا يسمع شيئاً . فيخرج من الغار وقد أخذه روع أي روع . وهو في طريقه مسرع إلى أهله ولكنه يسمع صوتاً يناديه فينظر أمامه فلا يرى شيئاً وينظر عن يمينه فلا يرى شيئاً ، وينظر عن شماله فلا يرى شيئاً وينظر خلفه فلا يرى شيئاً فيرفع رأسه فيرى ذلك الشخص الذي أتاه في الغار جالساً على كرسي بين السماء والأرض فيبلغ به الروع أقصاه . ويمضي أمامه لا يلوي على شيء حتى يأتي أهله مرتاعاً مذعوراً : يقول زملوني زملوني - أو دثروني دثروني - وصبوا علي ماء بارداً . فتفعل خديجة ما طلب إليها حتى يذهب عنه الروع . فيقول لزوجه بعد أن أنبأها نبأه : لقد خشيت على نفسي . تقول له خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق .

قال المحدثون ورواة السيرة : فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزي ابن عم خديجة - وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي - فقالت له خديجة : يابن عم اسمع من ابن اخيك .

فقال له ورقة : يابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى صلى الله عليه وسلم ، يا ليتني فيها جذع ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : « أوَ مخرجيّ هم ؟ » . قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

وكأنه لزم داره واجتنب غار حراء منتظراً ما يكون من أمره بعد ما رأى وما سمع فأوحى إليه : (يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ . وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ] .

ومنذ ذلك الوقت ظهر له ما يراد به ، فلم يكن ما جاءه في الغار إلا إيذاناً له بأن مهمة ثقيلة خطيرة قد ألقيت على عاتقه ، وأن عليه أن يؤديها صبوراً جلداً محتملاً في سبيل أدائها ما قد يعرض له من العنت والمشقة والأذى ، وهو على كل حال مكلف أمرين ليس أحدهما بأقل خطراً من الآخر :

فأما أولهما ، فهو ان يجاهد نفسه ويأخذها راضية أو كارهة بما سيدعو الناس إليه من تكبير الله بالقلوب والألسنة ومن التطهير من كل دنس ظاهر أو خفي ، ومن هجر الرجز واجتناب المن واستكثار ما يأتي من طاعة الله والاجتهاد في ذاته ومن الصبر لربه على ما يبلوه به من ألوان البلاء وعلى ما يكلفه حمله من ثقال الأعباء .

وأما ثانيهما فهو أن ينذر الناس بأن حياتهم التي يحيونها ليست كما يظنون لهواً ولعباً واستمتاعاً بما يتاح لهم من اللذات واحتمالاً لما يعرض لهم من الآلام والمحن والخطوب إنما هي شيء وراءه أشياء وله ما بعده . فليس لهم بد إذن من أن يحتاطوا لما وراء حياتهم من الأمر ، ومن أن يأخذوا له أهبتهم ويتزودوا بما ينبغي من الزاد .

وقد تجرد النبي صلى الله عليه وسلم لأداء ما كلف من مهمة ، وما حمل من أمانة ، فأخذ نفسه بأشد ما يأخذ الرجل به من الجهد والمشقة في ذات الله ، وأنفذ أمر الله في نفسه فيما اختصه به من التكاليف كما أنفذ أمر الله في كل ما كُلف أن يأمر الناس به . وقد بدأ بأهله وذوي قرباه فأنذرهم وبشرهم واستجاب له منهم من استجاب وأبى عليه منهم من أبى. ثم أمر بتعميم دعوته فأنذر قومه وبشرهم ودعاهم إلى الإيمان والبر والمعروف فلم يستجب له منهم إلا أقلهم، وامتنع عليه أكثرهم . ثم لم يكتفوا بالامتناع بل لم يلبثوا أن ضاقوا به وبدعوته وجعلوا يردونه رداً رفيقاً أحياناً ويردونه رداً عنيفاً في أكثر الأحيان . ثم تألبوا عليه وجعلوا يؤذونه في نفسه وفيمن تبعه من الناس بأيديهم وألسنتهم . ثم أصبحت الحياة بينه وبين قومه جهاداً متصلاً عنيفاً أشد العنف وأقواه. ولكنه صبر لهذا الجهاد كما أمر أن يصبر واحتمل فيه من ألوان المشقة ما ينوء بالرجال

أولي العزم كما أُمر أن يحتمل، وجعل يصبّر أصحابه ويهوّن عليهم ما كانوا يلقون وما أكثر ما كانوا يلقون من ضروب الفتنة والعذاب .

وفي أثنــــاء ذلك كان الوحي يتنزّل عليه من السماء فيُعلن كل ما يوحى به إليه يتلوه على من آمن معه وعلى من لم يؤمن ؛ فهو مكلف أن يبلّغ رسالات ربه . وهو يبلغها أميناً عليها مجتهداً في تبليغها يبشر وينــــذر ويرغب ويرهب ويجادل المخاصمين ويقرع حجتهم بحجة الله لا وانياً ولا مستأنياً ولا مقصراً .

وقد هابت قريش أن تؤذيه إيذاء ثميلاً أو أن تخرجه من وطنه أو أن تقتله مخافة أن يغضب له قومه من بني عبد مناف فيفسد عليها أمرها كله . فجعل حلماء قريش يصانعونه ويرفقون به . يعرضون عليه أن يملّكوه عليهم إن كان يفعل ما يفعل ابتغاء الملك ، ويعرضون عليه أن يعطوه صفْو أموالهم إن كان يفعل ما يفعل ابتغاء الغنى، ويعرضون عليه التماس الطبّ له إن كان له رئيٌّ من الجن يأتيه بهذا الكلام الذي يتلوه عليهم وبهذا الأمر الذي يدعوهم إليه . فلم يكن يجيبهم إلا بأن يتلو عليهم بعض ما كان ينزل عليه من القرآن .

وكان حلماء قريش والمنصفون منهم يسمعون القرآن حين يتلى عليهم فيبهرهم بألفاظه ومعانيه ونظمه ورقته حين يرق وشدته حين يشتد . ولكنهم على ذلك لا يؤمنون له؛ بعضهم يمنعه الحسد وبعضهم تمنعه الكبرياء وكلهم يشتد عليهم ما كانوا يُدعون إليه من البر والمعروف والعــــدل والمساواة وإنصاف الفقراء من الأغنياء والضعفاء من الأقوياء ومن ترك آلهتهم وعاداتهم وكثير من الأخلاق التي وجدوا عليها آباءهم وتوارثتها أجيالهم جيلاً بعد جيل . وقد استيأسوا منه فلجأوا إلى عمه ذلك الذي كفله صبياً ويافعاً والذي قام دونه يحميه منذ جعل يدعو دعوته هذه الجديدة وطلبوا إليه أن يراجع ابنَ أخيه لعله يكف عن ذم آلهتهم وتسفيــــه أحلامهم وإنكار ما تعارفوا عليه من عاداتهم وأخلاقهم ومن إفساد عبيدهم وإمائهم وحلفائهم عليهم .

وقد قبل منهم أبو طالب فراجع ابن أخيه وعرض عليه ما يقول قومه وما يعرضون عليهم من الملك وكرائم الأموال وما ينذرونه به من البطش والعذاب. فلم يكن جوابه لعمه إلا أن قال مقالته تلك المشهورة : « والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أرجع عن هذا الأمر ما رجعت » .

وعــــاد أبو طالب إلى مشيخة قريش بقول ابن أخيه . فلم يزدهم ذلك إلا عناداً وإصراراً واستكباراً . فعمدوا إلى إيذائه في أصحابه وفي الرقيق والضعفاء منهم خاصة

لعلهم أن يصدوهم عن الإقبال عليه ويردوهم بعد إيمانهم كفاراً . ولعله حين يرى ذلك أن يحس ما يشقى به أصحابه فيؤثر لهم ولنفسه العافية فجعلوا يعذبونهم بالضرب حيناً وبالماء حيناً وبالنار حيناً وبالموت حيناً آخر. ولكنهم لم يبلغوا بذلك منه ولا من أصحابه شيئاً. قتلوا ياسراً وزوجه سمية ذات يوم وابنهما عمّار يرى فلم يصرفوا الأبوين ولم يصرفوا ابنهما عما أراد الله لهما من الكرامة بالإيمان وإذا كان ياسر وزوجه نموذجاً رائعاً للصبر والجلد واحتمال الأذى في غير شكاة ولا تضعضع . ويقال إن النبي ﷺ مر بآل ياسر وهم يعذبون فلم يزد ياسر على أن يقول : الدهر هكذا يا رسول الله .

ويُحدث رواة السيرة أن النبي ﷺ قال لهم : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » . وكان ياسر وامرأته سمية أول شهيدين في الإسلام . فلم يجزع عمار ولم يجد الوهن إلى نفسه سبيلاً بل ازداد إيماناً مع إيمانه وصبراً إلى صبره حتى استيأس منه معذبوه واضطروا إلى أن يرفعوا عنه العذاب .

ويتحدث الرواة أن عمار بن ياسر كان أول من اتخذ مسجداً في بيته وفيه نزلت هذه الآية من سورة الزمر : (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ . قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ . إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ) .

وعذبوا « بلالا » أشد العذاب ونكلوا به أعظم التنكيل وجعلوه هزؤاً للصبية والسفهاء فلم يرفع عنه العذاب حتى اشتراه أبو بكر وكان رقيقاً فأعتقه .

وعذبوا كثيراً غير هؤلاء - تجد أسماءهم في كتب السيرة - ألواناً من العذاب وفتنوهم ضروباً من الفتنة مكثوا على ذلك أعواماً لا يرقبون في هؤلاء المستضعفين عهداً ولا ذمة ولا تعطفهم عليهم رحمة .

وكان موقف قريش من المسلمين مختلفاً فأما ضعفاؤهم وفقراؤهم فكانوا يصبون عليهم العذاب صباً لا يخافون في تعذيبهم لوماً ولا إنكاراً . وأما أولو الشرف منهم الذين يأوون من قومهم إلى ركن شديد فكانوا يؤذونهم بألسنتهم ويؤذونهم بالقطيعة ويغرون قومهم أن يشتدوا عليهم ، ويفتنوهم عن دينهم ما استطاعو إلى فتنتهم سبيلا . ولكنهم على ذلك لم يبلغوا منهم شيئاً ولم يصدوهم عن دينهم وإنما وجدوا منهم صبراً وجلداً واحتمالاً ، ووجدوا من بعضهم مقاومة وتحدياً ورداً عنيفاً ، كالذي كانوا يجدونه من عمر بن الخطاب ومن حمزة بن عبد المطلب .

وكذلك مضى الأمر بين النبي ﷺ وأصحابه القليلين وبين قريش ذات العدد

والقوة والثراء لا يهن النبي ولا يضعف ولا يستخفي بدعوته . وأصحابه منهم القوي الذي يجالد عن دينه ومنهم الضعيف الذي يلقى العذاب صابراً عليه . ومنهم الغريب الذي يستحب الأذى يراه قُربة إلى الله فيتصدى لمجالس قريش ويعلن إليهم إسلامه ويحتمل منهم إيذاءهم له كالذي كان من « أبي ذر » حين أسلم وهو غريب في مكة . فلم يرضه إلا أن يغيظ قريشاً ويتلقى منهم اللكز والوكز واللطم والصفع حتى يغشى عليه . يفعل ذلك مرة ومرة حتى يأمره النبي أن يعود الى قومه ويظل بينهم حتى يأتيه أمره .

وقد علمت قريش أنها لن تبلغ من النبي شيئاً بهذه الفتنة فأزمعت أن تؤذي بني هاشم كلهم ، على أنهم لم يكونوا قد أسلموا جميعاً ولكنهم أولو عصبية النبي ورهطه الأدنون . فأجمعوا ألا يبايعوهم وألا يصهروا إليهم وألا يزوجوهم وألا تكون بينهم وبين بني هاشم معاملة ما . واضطر بنو هاشم إلى شعبهم يعيشون فيه عيشة المحاصرين لا يكلمهم أحد ولا يعاملهم أحد ولا تصل أرزاقهم إليهم إلا بعد المشقة الشاقة والعسر العسير .

وكتبت قريش بهذه المقاطعة صحيفة جعلتها عهداً بين أحيائها حتى يخلع بنو هاشم محمداً ويسلموه إليها ، ولكن بني هاشم صبروا على الحصار واحتملوا الجهد والمشقة والعناء إيثاراً لأحسابهم . ومكثوا على ذلك عاماً وعاماً وعاماً حتى شق ذلك على الذين يحاصرونهم أنفسهم وسعى بعضهم إلى بعض في إلغاء هذا العهد الآثم وجعل أفراد منهم ترق قلوبهم لإخوانهم هؤلاء الذين يحاصرون ظلماً فيجتهدون في أن يوصلوا إليهم أرزاقهم يستخفون بذلك من قومهم .

وإنهم لفي ذلك وإذا أبو طالب يغدو على قريش ذات يوم فيحدثهم – فيما يقول أصحاب السيرة – بأن ابن أخيه قد زعم له أن صحيفتهم تلك التي كتبوها بينهم وأودعوها جوف الكعبة قد أدركها البلى وعدت عليها الأَرَضَة فلم تُبق فيها مما كتبوا إلا اسم الله الذي ذكروه في أولها . قال أبو طالب : فانظروا يا معشر قريش إلى صحيفتكم تلك فإن وجدتموها كما ذكر ابن أخي كان هذا إيذاناً لكم بأنكم تعتدون على فريق من قومكم بغير الحق . وتظلمونهم ظلماً منكراً وبأن قد آن لكم أن ترفعوا هذا الظلم وتكفوا عن ذلك العدوان وتثوبوا إلى المعدلة بينكم وبين إخوانكم . وإن وجدتم صحيفتكم تلك كهيئتها يوم كتبتموها ووضعتموها في جوف الكعبة أسلمنا إليكم محمداً تصنعون به ما تشاءون .

فتسارع الذين رقت قلوبهم لبني هاشم يقولون : يا معشر قريش لقد أنصفكم أبو طالب وأعطاكم الرضى فالتمسوا صحيفتكم تلك وانظروا ، فإن كانت كما قال محمد فأجيبوا أبا طالب إلى رفع الظلم عن إخوانكم وإلا فقد آذنكم بأنه سيُسلم إليكم ابن أخيه .

وتنظر قريش في الصحيفة فإذا كل ما كتب فيها قد محي ، ذهبت به الأرضة ، إلا اسم الله فإنه كما كتبوه . هنالك يُرفع الحصار ويعود القوم إلى العافية .

ولكن هذا كله إن خفّف عن بني هاشم فلم يخفف على المسلمين من أصحاب النبي شيئاً . فإيذاؤهم متصل وفتنتهم ماضية على عهدها .

ثم يُمتحن النبي امتحاناً شاقّاً فيفقد زوجه خديجة تلك التي كانت أول من نصرته وآزرته وأجابته إلى دعوته . ثم يفقد عمه أبا طالب ذلك الذي كفله صبيّاً ويافعاً وقام دونه يحميه ويذب عنه وإن كان لم يؤمن له ولم يرجع عن دين آبائه ، وإنما فعل ما فعل حبّاً لابن أخيه وعطفاً عليه وأداء لحق العصبية والحسب .

ويشتد البلاء على المسلمين وتطمع قريش في النبي ، فيأذن النبي للمسلمين في أن يهاجر من استطاع الهجرة منهم إلى بلاد الحبشة ، حيث يستطيعون أن يعبدوا الله آمنين لا يلقون فتنة ولا عذاباً . فيهاجر منهم من استطاع ، ويأمنون على دينهم في تلك الأرض البعيدة ، ويبقى النبي ومن أبى فراقه من أصحابه بمكة يلقون ما يلقون من الشدة والبأس ، لا تزيدهم الفتنة إلا إيماناً وتثبيتاً .

وفي ذات يوم يخرج النبي من مكة إلى الطائف يرجو أن يجد عند ثقيف من العون والجوار ما يمكّنه من أداء رسالته ، ولكنه لا يلقى من ثقيف إلا أعنف الرد وأثقله ، وإذا هم لا يكتفون برده والإعراض عنه ، وإنما يُغرون به السفهاء والصبيان يؤذونه حتى يجهدوه وحتى يضطروه إلى ظل بستان ليستريح .

وكان في البستان صاحباه : رجلان من قريش — هما عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة — يريان النبي وقد بلغ منه الجهد وأوى إلى ظل بستانهما يستريح مما أدركه من العناء .

قال أصحاب السيرة : فيرق قلب هذين القرشيين له ، ولكنهما متحفظان على ذلك ، لا يؤويانه فتغضب قريش ، فيدعوان «عداساً» غلاماً لهما ويرسلانه إليه بطبق فيه عنب . ولكن «عداساً» لا يكاد يتحدث إلى النبي ويسمع منه حتى يراه سيّداه مغرقاً في البكاء مكبّاً على النبي يقبله ويتلطف له . فإذا عاد إلى سيديه سألاه ، فإذا هو قد

مال إلى ما يدعو إليه هذا الرجل الذي آذته ثقيف وأبى سيداه أن يضيفاه . وقد رجع النبي إلى مكة فلم يستطع أن يدخلها حتى استجار بشريف من أشرافها ، وهو مُطعم بن عدي ، فأجاره .

ثم جعل النبي يترقب موسم الحج يعرض نفسه فيه على قبائل العرب أيها يؤويه ويمنعه حتى يبلّغ رسالات ربه ، فترده قبائل العرب جهلاً منها أولاً ، وكراهة أن تعادي قريشاً ثانياً ، حتى إذا كان في موسم من المواسم عرض نفسه على قوم من أهل يثرب فوجد عندهم ميلاً إليه وإيثاراً له فيضرب لهم موعداً من قابل ، ويصبر عامه ذاك على الأذى ثم يلقى وفد يثرب فيبايعونه على أن يؤووه ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ، وقد استوثق العهد بينه وبينهم وعاد الى مكة راضياً محبوراً.

ثم جعل يأذن لأصحابه في الهجرة إلى يثرب فيهاجرون أرسالاً ، يهاجر الضعفاء منهم خفية ويهاجر الأقوياء منهم جهرة ، وقد فشا الإسلام في يثرب ، وقُرىء القرآن في كثير من دورها ، والنبي مع ذلك مقيم في مكة لا يبرحها ينتظر أن يؤذن له في الهجرة . وقد استأذنه صاحبه أبو بكر في أن يكون صاحبه في سفره فقبل منه. وقد عرفت قريش ما كان من العهد بينه وبين أهل يثرب وما كان من هجرة أصحابه إليها فكرهوا أن يهاجر النبي فيصبح هو وأهل يثرب لهم عدوّاً. فاجتمعوا وتشاوروا وانتهى رأيهم إلى أن يرصدوا له عند بيته ليلاً نفراً من أحياء قريش على اختلافها ليقتلوه ؛ فيضربوه ضربة رجل واحد فيضيع دمه في القبائل ولا يستطيع قومه من بني عبدمناف أن يثأروا لدمه .

وقد أرصد هذا النفر من قبائل قريش عند بيت النبي ليلاً ، وآذنه الله بمكر قريش فلم ينم في فراشه ليلته تلك وإنما أمر ربيبه وابن عمه « علياً » أن ينام في فراشه ويتسجى ببرده وخرج على النفر الذين أرصدوا له ، فاذا هم قد غشيهم النعاس .

قال الرواة : فوضع على رءوسهم شيئاً من تراب ومضى لميعاده مع أبي بكر . فخرجا من مكة مستخفيين حتى انتهيا إلى غار ثور ، فأويا إليه ينتظران أن ينقطع طلب قريش لهما ، ومكثا في الغار ثلاثة أيام يأتيهما قوتهما كل يوم .

قال أصحاب السيرة : وأصبح الرصد فعلموا أن النبي قد خرج وأنه قد فاتهم ، فسقط في أيديهم . وجدّت قريش في طلب النبي وصاحبه .

ويتحدث أصحاب السيرة : بأن فريقاً من الذين جدوا في طلبهما قد بلغوا غار ثور، ذاك الذي أويا إليه، فلم يخطر لهم أنهما يستخفيان فيه، ولو قد نظروا تحت أقدامهم لرأوهما.

والشيء الذي ليس فيه شك هو أن أبا بكر قد كان قلقاً في الغار يخشى أن يدركهما الطلب ، وأن النبي كان يهدئ من روعه . بذلك جاءت الآية الكريمة في سورة التوبة :

[إلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إذْ أخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إذْ هُمَا فِي الغَارِ إذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا . وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] .

وكان أبو بكر قد أعد للسفر كل شيء ، فلما قدّرا أن طلب قريش لهما قد انقطع مضيا في طريقهما إلى يثرب فبلغاها . واستقبل النبي فيها أحسن استقبال ، فرح به أنصاره من الأوس والخزرج في يثرب ، وفرح به أصحابه الذين هاجروا قبله إليها . ومنذ ذلك اليوم الذي بلغ النبي فيه يثرب ، فتحت أمامه وأمام دعوته طريق جديدة .

- ١٣ -

وكان مقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة منذ نُبّيء إلى أن هاجر ثلاث عشرة سنة - فيما يقول جمهور الرواة - لقي فيهن من الجهد ما لقي ، وصبر فيهن على الجهد ما صبر ، وتأسى به أصحابه ما استطاعوا إلى التأسي به سبيلاً ، وأنزل فيهن من القرآن شيء كثير .

كان في مكة يدعو إلى التوحيد وينهى عن الشرك ويأمر بالعدل وينهى عن الجور ويجهر بأن الناس جميعاً سواء عند الله لا يمتاز بعضهم من بعض إلا بالبر والتقوى . ويحذّر الذين يشركون بالله ويجعلون له أنداداً عذاباً شديداً بعد الموت ، وينبّىء بأن لهذه الدنيا التي يعيش الناس فيها نهاية لا بد من أن تبلغها يوم تقوم الساعة ، ويهوّل من أمر الساعة هذه تهويلاً شديداً تنخلع له القلوب ، وينبّىء بقربها وبأنها تفجأ الناس على حين غفلة منهم فتذهل الآباء والأمهات عن أبنائهم وتنسي الإنسان كل شيء إلا نفسه ، ويضطرب لها الكون اضطراباً أي اضطراب ، فالسماء منفطرة ، والكواكب منتثرة ، والبحور مفجرة ، والقبور مبعثرة ويومئذ تعلم كل نفس ما قدمت من عمل وما أخرت .

وعلى هذا النحو كان يهوّل من أمر الساعة وما يكون بعدها من حساب الناس على ما قدموا وما أخروا من أعمالهم وقد سُجل كل عمل أتاه الإنسان في كتاب ينشر أمامه يحصي له حسناته وسيئاته والنار معروضة عليه والجنة مزلفة له فهو يرى الجحيم كأبشع ما يكون ويرى النعيم كأروع ما يكون ، يتمنى هذا ويشفق من ذاك ولكن كتابه قد نشر بين يديه يحكم له بالنعيم أو يحكم عليه بالجحيم لا يظلم مثقال ذرة مما عمل ، تضاعف له حسناته ولا تضاعف له سيئاته وإنما تحصى عليه كما هي لا يزاد فيها ، وقد ينقص منها إن ثقل ميزان الحسنات . فالإنسان على نفسه بصيرة وإن ألقى معاذيره . ويومئذ يروّع الكافرون حين يرون الكتاب منشوراً فيقولون : (يا وَيْلَتَنَا ما لِهَذَا الكِتَابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حاضراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) .

فإذا قضي بين الناس بمقدار أعمالهم ذهب أصحاب النعيم إلى نعيمهم خالدين فيه أبداً وذهب أصحاب الجحيم الى الجحيم خالدين فيه ابداً إن كانوا مشركين بالله لا يخلصون له قلوبهم ولا نفوسهم ولا ضمائرهم ، وماكثين فيه دهراً يقصر أو يطول لا يقاس ذلك إلا بعفو الله عن الذين أذنبوا واقترفوا السيئات بعد أن آمنوا .

وكانت قريش تسمع هذا كله فتنكره أشد الإنكار وتبغض من يتلوه عليهم أشد البغض فهو ينبئهم بأن المشركين من آبائهم مخلدون في العذاب وبأنهم سيلحقونهم في النار ويشاركونهم في هذا العذاب المقيم إن لم يجحدوا آباءهم ويجحدوا دينهم هذا ويؤمنوا بالله وحده ولا يشركون به شيئاً ولا يجعلون له نداً ويؤمنوا بأن محمداً هذا الذي يتلو عليهم ما يتلو من القرآن رسول الله قد جاءهم من عنده بالحق والبينات. وليس لهم بد بعد هذا الايمان من أن يلائموا بين حياتهم وبينه ومن أن يأتوا ما يأمرهم به النبي ويجتنبوا ما ينهاهم عنه ، فإن خالفوا عن ذلك فالله لهم بالمرصاد والنار لهم معدة يُسلكون فيها مع المشركين من آبائهم لا يقبل منهم عدل ولا صرف ولا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون .

وكان العُتاة منهم والجبارون ربما سخروا من النبي ومما يتلو عليهم وربما سألوه أن يأتيهم بآية تثبت لهم صدقه . فكان يتلو عليهم من القرآن ما يرد على سخريتهم وكان ينبئهم بأنه لا يأتيهم بآية إلا هذا القرآن الذي يتلوه عليهم والذي جاءه من عند ربه، ويتحداهم فيسألهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن وكان عجزهم عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن هو الدليل على أنه ليس من كلام الناس وإنما هو من كلام الله الذي لا سبيل إلى

تقليده ولا إلى محاكاته فضلاً عن الإتيان بمثل ما يأتي به . وكان يتلو عليهم فيما يتلو هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً). وكانوا لا يفهمون ولا تسيغ عقولهم أن تتصل الأسباب بين الله وبين واحد من الناس يوحى إليه هذا الكلام الذي كان يتلوه عليهم ويتحداهم به ويسألهم أن يأتوا بمثله . فيطلبون إليه آيات تكرههم على أن يؤمنوا له : يسألونه أن يفجر لهم الأرض ينبوعاً أو أن ينشىء لنفسه جنة من نخيل وعنب فيفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو يسقط السماء عليهم كسفاً أو يأتي بالله والملائكة قبيلا أو يبتكر لنفسه بيتاً من زخرف أو يرقى في السماء فيأتيهم منها بكتاب يقرأونه . وكان الله يأمره أن يجيب على هذا التحدي بهذه الجملة اليسيرة الرائعة :(سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً).

وكان بعضهم يأتيه أحياناً بالعظام البالية فيفتتها بيده وينثرها في الهواء . ثم يسأله ساخراً : من يحيي العظام وهي رميم ؟ فكان جوابه حاضراً من القرآن في هذه الآيات الكريمة من سورة يس (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ . أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) .

وكانوا يجادلونه في البعث أشد الجدال ، يقولون كما يحكى عنهم القرآن الكريم في سورة الإسراء : (أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً) فكان الجواب حاضراً كذلك من القرآن في السورة نفسها : (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا . قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً . يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً) .

كان إذن يخوفهم قيام الساعة ، ويخوفهم البعث والحساب ، ويخوفهم العذاب الذي أعد للمشركين والمذنبين ، وكان يخوفهم أشياء أخرى أيضاً : يخوفهم أن يجري عليهم مثل ما جرى على أمم من قبلهم ، جاءتهم رسلهم بالبينات فكذبوهم وقالوا فيهم مثل

ما تقول قريش فيه ، قالوا : إن بهم جِنة، وقالوا : إنهم مسحورون ، وقتلوا بعضهم، وأنذروا بعضهم بالقتل فصُبّ عليهم عذاب عاجل في هذه الحياة الدنيا توطئة لما أعد لهم من عذاب آجل خالد في الحياة الآخرة .

كان يقص عليهم أمر الطوفان الذي أغرق العصاة من قوم نوح ، ويقص عليهم أمر الريح التي أهلكت عاداً حين عصوا أخاهم هوداً وأمر الصيحة التي أهلكت ثمود حين عصوا أخاهم صالحاً . ويقص عليهم ما جرى على قوم لوط حين أمطرتهم السماء حجارة مسومة، ويقص عليهم ما جرى على أهل مدين حين أهلكتهم الرجفة لما عصوا شعيباً، ثم يقص عليهم في تفصيل ما أصاب فرعون وقومه حين عصوا موسى . وكان يأمرهم أن يسيروا في الأرض لينظروا كيف كانت عاقبة المفسدين ، وكان يخوفهم أن يُلم بهم مثل ما ألمّ بهذه الأمم من ألوان العذاب في الدنيا إلى ما ينتظرهم في الآخرة من العذاب المقيم .

يتلو عليهم هذا كله من القرآن فيسمعون أحياناً ويسخرون ويجادلون ويعرضون أحياناً ويأبون أن يسمعوا ويعقلوا وكان يتلو عليهم من القرآن خلق آدم وإسكانه هو وامرأته الجنة ونهيه إياهما أن يقربا الشجرة المحرمة وإغراء الشيطان لهما بالمعصية وإخراجهما من الجنة . ويقص عليهم كذلك من أخبار السماء ما كان من مجاهرة إبليس بالمعصية وإبائه أن يسجد إعظاماً لخلق آدم كما سجدت الملائكة وما حل به من غضب الله عليه وما زعم من أنه سيفسد ولد آدم وسيحملهم على المعصية ؛ في أشياء أخرى كثيرة كان يقصها عليهم يعظهم بها لعلهم أن يهتدوا ، فلا يحفلون بشيء مما يسمعون إلا هذه القلة القليلة التي كانت روعة القرآن تبهر قلوبهم ، وكانت قوة الحجة تسحر عقولهم فيؤمنون جهراً أو سراً ؛ كالذي كان من أمر عمر — رحمه الله — حين أنبىء بأن أخته وزوجها قد أسلما . وقد ألقي إليه هذا النبأ وهو في طريقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليبطش به فيما زعم . فلما سمع أمر أخته وزوجها عدل إليهما ليبدأ بهما ولكنه ينتهي إلى أن يقرأ عندهم الآيات الأولى من سورة طه فيلين قلبه بعد قسوة ورقّ نفسه بعد غلظة . وإذا هو يذهب إلى النبي لا ليقتله بل ليشهد على انه مؤمن بالله وبأن محمداً رسوله .

وكذلك جرت الأمور بين النبي وأصحابه وبين قريش : جهاد لا ينقضي وجدال لا يكاد ينقطع واتصال للوحي أثناء ذلك وتلاوة لهذا القرآن الذي كان يوحى إلى النبي واجتماع إلى أصحابه قبل أن يهاجروا الى الحبشة وبمن بقي منهم معه بعد ان هاجر أصحابه

يعلمهم الدين ويقرئهم القرآن ، وينصح لهم في أمر دنياهم كما ينصح لهم في أمر دينهم .

وفي ذات يوم قامت قريش وقعدت وانطلقت ألسنتها بالسخرية ووصل الشك إلى قلوب بعض الذين آمنوا . ذلك أن النبي أصبح فأنبأ بأنه أسري به من ليلته إلى المسجد الأقصى . وتلا هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء :

(سُبْحَانَ الَّذي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إلى المَسْجِدِ الأقصَى الَّذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِير) .

وواضح أن قريشاً لم تكن لتصدق أن يُسرى بالنبي من ليلته الى المسجد الاقصى ويعود منه قبل أن يُسفر الصبح . وهم الذين يُنفقون في رحلتهم إلى الشام ما ينفقون من الأيام الطوال ويلقون في رحلتهم ما يلقون من المشقة والجهد فكيف بهم حين ينبئهم النبي بأنه ذهب إلى المسجد الاقصى في القدس وعاد إلى مكة في ساعة من ليل . ولكنه يصف لهم الشام والقدس والمسجد فلا ينكرون من وصفه شيئاً هنالك اضطربت قلوبهم وفكروا في أن يعجزوه فأرسلوا إلى اليهود ينبئونهم نبأه ويلتمسون عندهم من المسائل ما يلقونها عليه يمتحنون بها صدقه .

قال رواة السيرة : فأمرهم اليهود أن يسألوه عن أمر الفتية الذين أووا إلى الكهف ما خطبهم ؟ وألقيت عليه المسألة . ولكن الوحي أبطأ عليه شيئاً حتى ظنت قريش انها قد أعجزته . ثم أقبل عليهم ذات يوم فتلا عليهم قصة أهل الكهف كما عرفوها من اليهود .

فلا غرابة بعد هذا كله في أن يضيقوا به وفي ان تضيق مكة بالنبي نفسه وفي ان يثبته الله ويعزيه عن جحود قومه وعصيانهم بعد ما جاءهم الحق واضحاً جلياً . فالله يقول له في سورة الكهف :

[فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفاً . إنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . وَإنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً] .

وعلى رغم هذا كله فقد أقام فيهم حتى عرض عليهم أصول الدين وبيّن لهم ما ليس منه بد ليأمنوا سوء العاقبة في الدنيا والآخرة : بيّن لهم أن إلههم واحد لا شريك له ، وأن الإشراك به ظلم وجحود يضطر صاحبه إلى الخلود في العذاب المقيم ، وبيّن لهم أن الله قد أرسله رسولاً كما أرسل الرسل من قبله إلى قومهم ، وأن الإيمان لا يستقيم لصاحبه حتى يشهد من أعماق قلبه بوحدة الله وصدق رسوله وحتى يكون الإيمان بالله ورسوله

ملء قلوبهم وعلى ذكر منهم في كل ما يأتون وما يدعون؛ وبين لهم أن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى والرفق باليتامى والمساكين والبر بالوالدين وطاعتهما إلا في الكفر بالله أو معصيته ؛ وبين لهم أن الله ينهاهم عن آثام فليس لهم بد من أن يجتنبوها : ينهاهم عن القتل ظلماً ، وينهاهم عن وأد البنات وقتل الولد خشية الإملاق، وينهاهم عن الزنى وعن الخيلاء والمرح ، وعن الغرور والكبرياء ، وعن الكذب وقول الزور ، وعن شهود اللغو والمشاركة فيه .

بيّن لهم هذا كله وأكثر من هذا كله وبشرهم بالمثوبة الحسنى عند الله إن آمنوا وأصلحوا وأطاعوا ، وأنذرهم العقاب الشديد في الدنيا والآخرة إن كفروا وعصوا .

صدع بما أمره الله أن يصدع به وأدى مهمته كأحسن ما يكون أداء المهمات لم يقصر ولم يفتر ولم ييأس حتى أذن الله له في الهجرة ، فهاجر بعد أن أعفى نفسه من كل تبعة. وأدى حق الله وحق قومه عليه ، وبر بهم فلم يلق منهم إلا جحوداً وعقوقاً ولم يؤمن له منهم إلا القليل كما رأيت .

- ١٤ -

وبلغ « يثرب » فاستأنف حياة جديدة . وفتحت له إلى نشر دعوته طرق جديدة أيضاً . وجد في « يثرب » مسلمين قد آمنوا بالله ورسوله قبل الهجرة وفشا الإسلام بينهم حتى كثروا ، ووجد بينهم مشركين لم يدخل الإيمان في قلوبهم فنهم من هدى الله إلى الحق فآمن وصدق إيمانه ومنهم من أشفق من عواقب العناد فأظهر الإسلام وأبطن الكفر وعاش منافقاً . ووجد فيهم يهوداً قد استمسكوا بما توارثوا من دينهم . فلم يكن له بد من أن يلائم بين حياته الجديدة في «يثرب» وبين هذه الطوائف المختلفة من الناس .

ولم تكن حياته في « يثرب » أهون ولا أيسر من حياته في مكة ولعلها كانت أشق منها مشقة وأحفل منها بالخطوب، ولكنه استقبلها راضياً بها شاكراً لها وحامداً لربه على أن أتاح له الأمن والنصر والمأوى حتى يبلّغ رسالته ويؤدي حق الله عليه .

وقد بدأ بالمؤاخاة بين المهاجرين من أهل مكة والأنصار من أهل يثرب ، فأنشأ بينهم صلة قوية بعيدة الأثر في حياتهم هي صلة الإخاء بأوسع معانيه وأدقها . ثم عقد

نوعاً من الحلف بينه وبين أصحابه من جهة وبين اليهود من جهة أخرى على أن يكون بينهم النصر على العدو والعون على الكوارث والأحداث .

ثم جعل هو ومن تبعه من المهاجرين والأنصار يعبدون الله جهرة لايستخفون بدينهم ولا يخافون فتنة عنه . وقد اتخذ النبي مسجداً عاماً لأول مرة في الإسلام يدعو فيه إلى ربه ويقيم فيه الصلاة ويجلس فيه للناس فيعلمهم ويؤدبهم ويبصرهم بما يجب عليهم أن يأتوا وينهاهم عما يجب عليهم أن يجتنبوا ويبين لهم محاسن الأخلاق وخير الأعمال ويدلهم على ما يليق بالرجل المؤمن الكريم على نفسه وعلى غيره وما لا يليق به كل ذلك في أمن ودعة وهدوء. ولم يكشف المنافقين من أهل « يثرب » ستراً وانما اكتفى منهم بما أظهروا الإسلام ، فلم يَعْرض لهم بشيء مما يكرهون وإن كان الله قد أعلمه بمكانهم من النفاق . وكان كثيراً ما يقول لأصحابه : إني لم أومر بأن أفتش عما في القلوب . وكان جديراً أن يظل كذلك في أمنه وهدوئه وما أتيح له من هذه الحياة الوادعة على قسوتها ولكنه لم يلبث ولم يلبث أصحابه معه أن وجدوا أنفسهم بين عدوين ليس أحدهما بأقل خطراً من صاحبه :

فأما أولهما فهم هؤلاء اليهود الذين لم يؤمنوا به ولم يستكرههم على أن يؤمنوا به وإنما اكتفى منهم بالمسالمة والموادعة وحسن الجوار والمناصرة عند الحاجة ولكنهم لم يخلصوا لما كان بينه وبينهم من عهد وإنما أظهروا المسالمة وأضمروا الغدر ثم لم يكتفوا بذلك بل أظهروا التكذيب لدينه وجادلوا فيه فأكثروا الجدال .

وأما العدو الآخر فقريش تلك التي تركها محفظة عليه أشد الحفيظة . كانت تحب أن تقتله أو تُثبته أو تخرجه من مكة جهرة طريداً على رؤوس الأشهاد ، ولكنها تنظر فإذا هي لم تبلغ مما أرادت به شيئاً ، لم يغن عنها كيدها له وائتمارها به ، وإنما كانت كما وصفها القرآن الكريم في الآية الكريمة من سورة الأنفال : [وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ] . مكروا به حين كان بين أظهرهم ، ولكنهم لم يقدروا عليه ، قد أنجاه الله منهم وأبدله بهم قوماً آووه ونصروه ؛ فلا يمكن أن تطيب نفوس قريش عما أتيح له من الأمن والدعة ، وهي بعد ذلك تعرف أنها قد ظلمته وظلمت أصحابه معه أبشع الظلم وأشنعه ، فهي لا تأمن أن ينتقم منها لما أصابه بل تحذر أن يتخذ من أمنه في يثرب ومن أنصاره هؤلاء الجدد وسيلة إلى نصب الحرب لها وهي من أجل ذلك حذرة أشد الحذر، قلقة أشد القلق ، تريد أن تتقيه مهما تكن

وسيلتها إلى ذلك ؛ فهي تؤلب عليه وتغري به وتكيد له بعيداً عنها كما كادت له قريباً منها ، تؤلب عليه العرب وتغري به اليهود ، ثم هي بعد ذلك تؤذي من لم تتح له الهجرة من أصحابه أشد الأذى وأنكره . فلا غرابة في ألا يحول الحول على هجرته إلى المدينة حتى يظهر الشر بينه وبين قريش ، ويتبين أن الأمر بينهما صائر إلى الحرب لا محالة ؛ فقريش عدوه وهي تراه لها عدواً ، وترى مكانه من « يثرب » خطراً على تجارتها إلى الشام ولا يكاد العام الثاني من هجرته يبلغ ثلثه حتى تكون الحرب بينه وبينهم يوم « بدر » .

كانوا كثرة وكان هو وأصحابه قلة . كان هو وأصحابه يوم التقى الجمعان يرون عدوهم مثليهم رأي العين ، ولكن شتان بين قوم يقاتلون عن دينهم وعن إيمانهم بهذا الدين وهم مستيقنون أنهم إن ينصروا نعموا بانتصارهم في الحياة الدنيا وظفروا بأجرهم على الجهاد ، وإن يقتلوا فهم شهداء عند الله قد ضمن لهم نعيماً ليس مثله نعيم . نعيمٌ صفو خالد لا كدر فيه ولا انقطاع له – وبين قوم يقاتلون عن أموالهم وعما يملؤهم من الغرور والكبرياء .

فلم تنشب الحرب بين الفريقين حتى أنزل الله نصره على نبيه وعلى المؤمنين وانهزمت قريش هزيمة منكرة قُتل صناديدها وأسرت جماعة من سادتها وكثرت الغنيمة ، وعاد المنهزمون إلى مكة قد أحرزوا تجارتهم تلك التي نجا بها أبو سفيان ولم يكد ولكنهم عادوا بخزي أي خزي يشقون بنار الهزيمة وفقد الصناديد والسادة والإخوان والآباء والأبناء والأخلاء . وقد قص الله هذه الموقعة أروع القصص في سورة الأنفال .

ومنذ ذلك اليوم – يوم بدر – تسامعت العرب بالنبي وأحست قوته وبأسه وامتلأت قلوبهم منه رعباً . على أن قريشاً لم تصبر على هزيمتها ولم تتعز عمن فقدت من سادتها وأحبائها . فجعلت تتهيأ للثأر ترصد لذلك المال وتجمع الجموع وأخذتها العزة بالإثم فحظرت إعلان الحزن على من قتل من رجالها .

وأقبلت حين دار العام إلى المدينة تريد أن تثأر وأن تنتصر على الذين انتصروا عليها ، وقد كادت تعود إلى مكة بالخزى والخسار وخيبة الأمل ، لولا أن هم بعض المسلمين بالفشل وطمع بعضهم في الغنيمة حين أراهم الله من النصر ما يحبون؛ فكرت عليهم قريش كرة كانت ابتلاء من الله لهم وتمحيصاً لقلوبهم ودرساً قاسياً عرف المسلمون كيف ينتفعون به فيما استقبلوا من أيامهم ، وفيما أثير لهم من الخطوب والمشكلات .

ولكنهم على كل حال لم ينتصروا في تلك الوقعة يوم أحد ، فكانت عليهم الدائرة :

قتل منهم من قتــل ، وجرح منهم من جرح ، وفر منهم كثير ولم يثبت إلا النبي ونفر قليل من أصحابه وأصيب النبي نفسه إصابة ضعيفة ، ورزىء بعمه « حمزة » وكثير من أصحابه واستطاع أبو سفيان قائــد قريش أن يقول للنبي ومن بقي معه من أصحابه : اعل هبل ، الحرب سجال ، يوم بيوم بدر وقد أجاب عمر أبا سفيان عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله أعلى وأجل ، وبأن الله قد أبقى من المسلمين من سيكونون له ولقومه بلاء أي بلاء . وعلى رغم الهزيمة التي امتحن الله بها المسلمين في ذلك اليوم ، وعلى رغم مـــا رزىء النبي وما أصابه من الأذى ومـــا أصاب أصحابه من الثكل والجراحة فقــد أبى النبي أن يقبل الهزيمة كما قبلتها قريش يوم بدر . فأمر أصحابه أو من قدر منهم على الرحيل أن يتبعوا قريشاً . ومضى على رأسهم في إثر المنتصرين ، لم يحفل بقلة أصحابه وكثرة عدوه وإنمـــا مضى في إثرهم لا يلوي على شيء حتى أمن كرتهم على المدينة ، فعاد موقوراً . وقص الله وقعة « أحد » كما كانت مؤنباً لمن فشل من المسلمين وعاتباً على من انصرف عن الحرب إلى الغنيمة مخالفاً بذلك عن أمر النبي وعافياً مع ذلك عن أولئك وهؤلاء وآمراً للنبي ان يعفو عنهم ويستغفر لهم ويشاورهم في الأمر ومعزياً للمسلمين بعد ذلك عمن فقدوا من أصحابهم بأنهم أحيـــاء عند ربهم يرزقون ، ومهيئاً للمسلمين لما سيمتحنون به في أنفسهم وأموالهم ولمـــا سيسمعون من الأذى الذي يؤذيهم به المشركون والذين أوتوا الكتاب من اليهود .

قص الله هذا كله كأحسن ما يكون القصص في سورة آل عمران . على أن قريشاً قد أطمعها انتصارها فلم تكد تستريح من غزوتها تلك وتفرغ لما كانت فيه من التجارة والحياة اللاهية اللاعبة ، بـــل فكرت في غزو المدينة مرة أخرى . وجعلت تتأهب لذلك وتؤلب العرب وتحالف القبائل واليهود موقنة بأنها لن تأمن ما بقي للنبي وأصحابه شوكة ، فليس لها بد من أن تزيل هذه المدينة أو أن تتهيأ لزوال مكة .

وكذلك أقبلت قريش بعد عام وبعض عام — ومعها كثير من قبائل نجد ، وقــد أحكمت أمرها مع اليهود - غازية للمدينة تلك الغزوة التي قصها الله في سورة الأحزاب والتي سميت بهذا الاسم .

وقد عرف النبي والمسلمون تأهب قريش وأحابيشهـــا وحلفائها من أهل نجد لغزو المدينة فتشاوروا في هذا الأمر وأشير على النبي أن يحتفر خندقاً يمنع المشركين من بلوغ المدينة فتأذن في أصحابه بذلك وشاركهم في احتفار الخندق كما شاركهم من قبل في بناء المسجد يعمل بيده كواحد منهم يحتمل في ذلك من المشقة ما يحتملون ويلقى فيه من

العناء ما يلقون صابراً جاداً مثبتاً قلوب أصحابه مغرياً لهم بالصبر والجد حتى بلغوا من احتفار الخندق ما أرادوا .

أقبلت قريش في جموع كثيرة جداً من أحابيشها وأحلافها ، جموع تأتي من أسفل من المسلمين وهم قريش ومن جاء معهم ؛ وجموع أخرى تأتي من فوقهم وهم أهل نجد من حلفاء قريش وجلهم من غطفان .

ورأى المسلمون ذلك فأكبروه واستكثروه ولا سيما أنهم علموا أن بني قريظة من اليهود قد نقضوا عهدهم وغدروا بحلفائهم من المسلمين . وخلطوا أمرهم بأمر قريش وحلفائها بغياً وغدراً ونقضاً للحلف والجوار .

وكان المسلمون يعلمون إلى هذا كله أن بين أظهرهم من المنافقين فريقاً إن لم يظهروا تأييدهم لقريش فهم يضمرون خذلانهم للمسلمين ويأبون على كل حال أن ينصروهم . فلا غرابة في أن يصف الله عز وجل موقف المسلمين من هذا كله أبرع الوصف وأنفذه إلى القلوب في هذه الآيات الكريمة من سورة الأحزاب ، وان يذكر المسلمين بذلك بعد الموقعة ليعرفوا حسن بلائه فيهم وعظيم نعمته عليهم :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً . إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المؤمنونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً. وإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ، وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً) .

ولم يكن بين جماعة المسلمين وبين هذه الجموع الضخمة من المشركين تزاحف ولا لقاء، وإنما كان بعض الأفراد من المسلمين والمشركين تكون بينهم المبارزة من حين إلى حين . ولكن المسلمين كانوا مع ذلك في بلاء عظيم . يمتحنون في إيمانهم وثقتهم بما وعد الله ورسوله ويمتحنون في صبرهم على اليأس والمكروه . ذلك أن قريشاً وحلفاءها كانوا جديرين أن يقيموا فيطيلوا المقام ويفرضوا على المسلمين حصاراً شديداً متصلاً، وكان بنو قريظة من اليهود جديرين أن يأخذوهم من ظهورهم فلا يعرفون من يقاتلون ولا من

أي وجه يقاتلون . ولكن الله يتيح للنبي من عدوه من يأتيه ناصحاً له .

يريد أن ينصره ، فيأمره النبي أن يخذل بين قريش واليهود . ويفعل الرجل ذلك على أحسن وجه ، فيقنع اليهود بأن قريشاً خليقة أن تغدر بهم حين يجد الجد ويشتد البأس ، ويشير عليهم بألا يشاركوا قريشاً في أمرها حتى تعطيهم رهائن من أنفسها ؛ ويقنع قريشاً بسوء نية اليهود وان حلفهم لا يخلو من دخل ، ويستحكم الشك عند قريش فتطالب اليهود بالقتال ، ويطلب اليهود الرهائن فلا تشك قريش في أنهم قد غدروا . وبينا هم في ذلك يرسل الله ذات ليلة ريحاً عاصفة أي العصف باردة أي البرد تطفىء نيران الحلفاء وتكفأ قدورهم وتنزع خيامهم فيأخذهم الذعر ويشتد فيهم الاختلاط والاضطراب حتى لا يعرف الرجل منهم صاحبه . فلا يكادون يستقبلون الصبح حتى يجلس أبو سفيان على راحلته وينادي في القوم بالرحيل. فيتفرق الأحزاب.

تعود قريش إلى مكتها ويعود حلفاؤهم من العرب إلى بواديهم ويصف الله ذلك في الآية الكريمة : (وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً) .

وبعد هذه الخيبة التي منيت بها قريش وحلفاؤها لم تحاول قريش غزو المدينة مرة أخرى ولكنها مضت تبث كيدها في جزيرة العرب تحرض على النبي وأصحابه المشركين من أهل نجد والحجاز وكان النبي وأصحابه من أجل ذلك لا يستريحون وإنما تأتيهم الأنباء بين حين وحين بأن هذه القبيلة أو تلك – من قبائل العرب القريبة منهم والبعيدة عنهم – تتهيأ لبعض الشر فيغزوها النبي بنفسه أو يرسل اليها من يغزوها . كانت قريش تبث الكيد وكان النبي وأصحابه يبثون الهيبة لهم والخوف منهم حتى إذا كان العام السادس للهجرة خرج النبي وفريق من أصحابه قاصدين إلى مكة لا يريدون قتالاً ولا يفكرون في حرب وإنما يريدون العمرة كما كان سائر العرب يقصدون إلى مكة حاجّين ومعتمرين.

ولكنهم لا يبلغون الحديبية حتى تعلم قريش بقدمهم فتأبى أن يدخلوا عليها مكة ، ويسعى السفراء بين النبي وبينهم في ذلك؛ يؤكد النبي وأصحابه أنهم لا يريدون إلا العمرة ، وتأبى قريش أن يدخلوها عليهم وتنذر بالقتال وتتهيأ له ؛ ثم يكون الصلح الذي يعرف بصلح « الحديبية » والذي امتحن الله به قلوب المسلمين وزلزل به قلوب بعض خيارهم ؛ ذلك أن النبي قبل من قريش ألا يدخل عليهم مكة عامهم ذاك ، وقبلت قريش أن يدخلوها من قابل لا يحملون من السلاح إلا السيوف في أغمادها . وشق ذلك على المسلمين حتى أقبل « عمر » على النبي يسأله : ألسنا على حق ؟ قال

النبي : بلى . قال عمر . أليسوا على باطل ؟ قال النبي : بلى . قال عمر : فلم نعطى الدنية في ديننا ؟ قال النبي : أنا عبد الله ورسوله ولن يضيعني .

وأعاد « عمر » سؤاله هذا على أبي بكر فأجابه أبو بكر بمثل ما أجابه النبي به .

ولما عقد الصلح أمر النبي أصحابه أن يحلوا من إحرامهم فأبطأوا ولم يستجيبوا . واغتم النبي لذلك ولكنه لم يلبث أن أحل من إحرامه حتى صنع أصحابه صنيعه .

وأنزل الله : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً . لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً . وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً . هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً . لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً . وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً . وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً) .

ويقول الرواة : إن بعض المسلمين حين تليت عليهم هذه السورة سألوا النبي : أوَفتح هذا ؟ قال النبي : نعم .

وكان النبي قد أرسل من « الحديبية » عثمان – رحمه الله – سفيراً إلى قريش . فأبطأت عودته وقيل : إن قريشاً قد قتلته ، فبسط النبي يده للبيعة على الموت وبايعه أصحابه لم يختلف منهم أحد . وأنزل الله في سورة الفتح : (لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً) .

وفي يوم « الحديبية » ذاك تمت الهدنة بين النبي وبين قريش عشر سنين على أن يدخل في عقد قريش من العرب من شاء ويدخل في عقد النبي منهم من شاء وتكف الحرب بين الفريقين وعلى أن من جاء قريشاً من أصحاب النبي لاجئاً إليهم لم يردوه ومن جاء النبي من قريش مؤمناً به أو لاجئاً إليه رده عليهم .

وعلى أن يأتي النبي وأصحابه من قابل معتمرين فتترك لهم قريش مكة ويدخلونها

لا يحملون من السلاح إلا السيوف في أغمادها ، ثم لا يقيمون فيها إلا ثلاثة أيام .

وهذه الشروط التي قامت عليها الهدنة هي التي أحفظت فريقاً من المسلمين ولكنهم لم يفطنوا لأن الهدنة بينهم وبين قريش ستكفيهم مكرها من جهة وستطلق أيديهم فيمن لم يحالف قريشاً من العرب يسالمونهم إن سالموا ويحاربونهم إن حاربوا ، وستريحهم إلى حين من خصومة الأعداء هؤلاء الألداء ؛ ذلك إلى ما وعدهم الله من الفتح القريب ومن مغانم كثيرة يأخذونها .

ومهما يكن من شيء فقد طابت قلوب المسلمين آخر الأمر وعرفوا أنهم قد أسرعوا إلى الحفيظة والغضب وأنهم لو استأنوا بأنفسهم لكان خيراً لهم وأرضى لنبيهم. ولكن الله ونبيه قد عوّداهم العفو عن مثل هذه الهفوات .

- ١٥ -

ولم يكن أمر النبي مع اليهود أهونَ من أمره مع قريش فهم كانوا على قلتهم في المدينة جيراناً للنبي والمسلمين . ولم يكونوا جيران خير . كان كفرهم شديداً ومكرهم أشد ، وكانوا على اتصال بالمنافقين من أهل المدينة يشجعونهم ويغرونهم بالنفاق، وكانت بينهم وبين كثيرين من هؤلاء المنافقين علاقات حلف في الجاهلية فكان هذا يزيدهم كفراً وطغياناً ، وكانوا بعد هذا كله أهل كتاب يقرأون التوراة أو يقرأها أحبارهم على أقل تقدير ويرون أنهم على شيء من الدين وأنهم سبقوا المسلمين الى هذا الدين، فلهم سابقة علم بشؤون النبوات . وكانوا يعظمون موسى ويرون المسلمين يعظمونه ويسمعون تعظيمه في القرآن فتأخذهم الكبرياء ويظنون أنهم أهدى سبيلاً من المسلمين كما ظنوا من قبل أنهم أهدى سبيلاً من النصارى ، وكانوا يتيهون بدينهم وما عندهم من علم قليل على المسلمين ، كما كانوا يتيهون بذلك على العرب في الجاهلية . وكانوا أصحاب جدال لا ينقضي وأصحاب عناد لا قرار له ، وكانوا ذوي جرأة على الحق وافتنان على الباطل يعلمون أن المسلمين لا يقرأون التوراة في لغتها العبرانية فيحرفونها كما يشاءون وكما تشاء أهواؤهم لا يحفلون بما في ذلك من نكر ولا يأبهون لما له من عواقب . وكانوا يسألون النبي عن أشياء ، فإذا أجابهم بما كان الله يوحي إليه ماروا في ذلك وأسرفوا في المراء .

ثم كانوا لا يفون بالعهد إذا عاهدوا ولا يصدقون في القول إذا قالوا ولا يستطيع أحد من المسلمين أن يأمن لهم في قول أو عمل .

ثم لم يلبثوا أن بينوا عن غدرهم تبييناً لا يترك سبيلاً إلى الشك في أن جوارهم غير مأمون : همّ فريق منهم – وهم بنو النضير – بقتل النبي وقد أقبل عليهم ذات يوم يستعينهم على بعض الحق ، كما كان الحلف يقضي بذلك ، فأظهروا حسن اللقاء وهموا بالغدر وأزمعوا أن يلقوا عليه من عَلٍ صخرة تودي به لولا أن نبأه الله بما كادوا له. فانصرف عنهم ثم أجلاهم عن المدينة ولم يرزأهم شيئاً .

ونكص فريق آخر – وهم بنو قينقاع – عن الوفاء بالحلف . أهانوا امرأة واستنصرت المرأة المسلمين فكان خصام قتلوا فيه رجلاً مسلماً واعتلّوا في ذلك بعلل لا قيام لها . فأجلاهم النبي عن المدينة لم يرزأهم إلا السلاح .

وغدر الفريق الآخر يوم الأحزاب فلم يمتنعوا عن نصر المسلمين فحسب ولكنهم أعانوا عليهم وانضموا لحلف قريش . فحاصرهم النبي والمسلمون حتى أنزلهم على حكمه ثم حكم فيهم سعد بن معاذ – رحمه الله – بأن تقتل المقاتلة وتحتاز الأموال وتسبى الذراري والنساء . فأنفذ النبي هذا الحكم .

ووصف الله عز وجل في القرآن ما أصاب بني قريظة هؤلاء في سورة الأحزاب حيث يقول :

(وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً) .

وكانت لليهود بقية قوية غنية في « خيبر » وفي « وادي القرى » فسلط الله رسوله عليهم بعد يوم « الحديبية » وهو الفتح القريب الذي وعد به المؤمنين فغزاهم في أصحابه ولم ينصرف عنهم حتى فتح حصونهم وغنم أرضهم وأعملهم فيها على أن لهم نصف ما تخرج من الثمرات وللمسلمين نصفها .

وكذلك قضى على اليهود في الحجاز ، خلت منهم المدينة وبقي منهم من بقي في خيبر ووادي القرى خاضعين للمسلمين يعملون في أرضهم ويعيشون من عملهم لا يملكون قوة ولا مكراً ولا كيداً .

وقد أمر الله نبيه ومن آمن معه ألا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ،

وأن يقولوا لهم آمنا بالذي أنزل إلينا ومـا أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحـد ونحن له مسلمون .

لم يستثن من هذا الأمر بالرفق والجدال الرقيق من أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا الذين ظلموا وبينوا بظلمهم أن الرفق والرقة لا يجديان معهم شيئاً ، وذلك في الآية الكريمة من سورة العنكبوت :

[وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ] .

فلما هاجر النبي إلى المدينة واستقر فيها مع أصحابه من المهاجرين والأنصار لم يعاد اليهود ولم يبادهم بسوء وإنما رفق بهم كل الرفق وأراد أن تقوم الصلات بينه وبينهم على حسن الجوار وعلى التعاون والنصر عند البأس . وقبل اليهود منـه ذلك ولكنهم لم يلبثوا أن أظهروا أنهم كانوا حقاً من الذين ظلموا واستثناهم الله في الآية الكريمة السابقة فاشتد الجدال بينهم وبين النبي في الدين أولاً وأنزل الله فيهم قرآناً كثيراً :

يقص عليهم أحياناً سابقتهم في الكفر به والجحود له والتنكر لمن أرسل إليهم من الأنبياء ، ويقص عليهم كذلك عقاب الله لهم على هذا الكفر والجحود ، وأحياناً أخرى يرد عليهم ما كانوا يفترون من الكذب ويزعمون أنهم يقرأونه في التوراة . ويصفهم بأنهم لا يقرأون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون ؛ ويصفهم مرة أخرى بأنهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ؛ ويصفهم مرة ثالثة بالنفاق لأنهم يلقون الذين آمنوا فيقولون : إنا معكم ، فإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم . ومرة أخرى يوبخهم لأنهم يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب ، ويذكرهم غير مرة بأنه نجاهم من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم وبأنه أغرق آل فرعون أمامهم وهم ينظرون . ثم لم يلبثوا أن جحدوا هذه النعمة وكفروا بالذي أنعمها عليهم وعبدوا العجل من بعده ظالمين لأنفسهم . ويذكرهم غير مرة أيضاً بجبنهم وكراهيتهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي اختصهم الله بها وقالوا لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون .

ويُحصي عليهم كثيراً من آثامهم ومن تكذيبهم للرسل وقتلهم للأنبياء وما أصابهم في سبيل هذا كله من المحن وألوان البلاء . وربما تحداهم حين كانوا يزعمون لأنفسهم من

الخصائص ما ليس لهم ، فهم كانوا يزعمون أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات فيأمر الله نبيه أن يسألهم : هل اتخذوا عند الله عهداً أم يقولون على الله ما لا يعلمون .

ويأمر نبيّه أن يقول لهم : إن كانت الدار الآخرة خالصة لكم من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ثم يؤكد الله عز وجل أنهم لن يتمنوا الموت أبداً لأنهم يعلمون ما قدمت أيديهم من السيئات ؛ فهم يكذبون على الله حين يزعمون أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات ، أو ان الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس .

ويؤكد الله لنبيه أنهم أحرص الناس على حياة ، وأن احدهم يود لو يعمّر ألف سنة . ولو أتيح له ما يتمنى من طول العمر لما زحزحه ذلك عن العذاب .

وكذلك يمضي القرآن الكريم ناعياً على اليهود تلك الخصال التي أشرنا إليها في أول هذا الفصل ولائماً لهم على تاريخهم المليء بالجحود والغدر والكفر وراداً عليهم ما كانوا يثيرون من المشكلات أو يلقون عليه من الأسئلة التي كانوا يرون أنها ستحرجه وتقطع حجته . فيفحمهم ويلزمهم الحجة .

ولذلك كله ظهر أول انحراف عن الرفق بهم حين حُولت قبلة المسلمين في الصلاة عن بيت المقدس إلى المسجد الحرام . وكان النبي يتمنى لو غُيرت قبلته عن بيت المقدس انحرافاً عن اليهود ، أولئك الذين وصفهم الله بما وصفهم به في آيات كثيرة جداً من القرآن ، والذين مضوا في العناد والجحود إلى غير غاية فأنزل الله هذه الآية من سورة البقرة : (قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا . فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ . وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ . وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِّهِمْ . وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) .

ثم سخر الله منهم في هذه الآية من السورة نفسها : (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ . وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ . وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ . وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ . وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) .

ثم بين بعد ذلك في نفس السورة أن البر ليس في أن يولي الإنسان وجهه قبل المشرق والمغرب وإنما البر خصال أخرى فصلها الله في هذه الآية .

[لَيْسَ البِرَّ أنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ . وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلائِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ، وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُولَئِكَ الذِينَ صَدَقُوا وأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ] .

وبعد خلوّ « المدينة » من اليهود وفتح « خيبر » و« وادي القرى » خفّ الجدال بين النبي وبين اليهود وقل ذكرهم في القرآن لانقطاع الحاجة اليه ؛ ولأن الله قد ذكرهم بما أخزاهم في الدنيا وبيّن أنه سيخزي الظالمين منهم في الآخرة .

-١٦-

ولم يكن أمر النصارى ظاهراً في جزيرة العرب وإنما كانت لهم جماعة في نجران وكان منهم أفراد متفرقون هنا وهناك في الجزيرة . فلم يكن الجدال بين النبي وبينهم متصلاً ولم يعنف إلا حين كان النصارى ينحرفون في مقالاتهم وما يظهرون من دينهم عن التوحيد الخالص الذي جاء به النبي ودعا اليه وأمر أن يقاتل الناس حتى يعلنوه فيقولوا : لا إله إلا الله ، فان قالوها عصموا منه دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان .

وقد أنزل الله من القرآن ما يصور النصارى أقرب الناس مودة إلى المؤمنين . فقال في سورة المائدة :

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ وَالذِينَ أَشْرَكُوا. وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إنَّا نَصَارَى، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ . وإذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إلى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ. يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحَقِّ وَنَطْمَعُ أنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِينَ . فَأَثَابَهُمُ

اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) .

وقد قرر القرآن الكريم أن المسيح عيسى بن مريم رجل لا كالرجال لم يلده أب وإنما هو كلمة الله وروح منه ألقاها إلى مريم . ووصف الله تبشير الملائكة لمريم بالمسيح ومولده في سورة آل عمران وفي سورة مريم . واختصه الله بمعجزات لم يؤتها أحداً من رسله : فاختصه بإحياء الموتى واختصه بإبراء الأكمه والأبرص واختصه بأن يجعل من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً ؛ كل ذلك بإذن الله .

وأنزل عليه وعلى أصحابه مائدة من السماء كانت لهم عيداً لأولهم ولآخرهم . واختصه قبل ذلك بتكليم الناس في المهد وأرسله إلى بني إسرائيل يدعوهم إلى الإيمان بالله وأداء حقه والخروج مما ورّطوا أنفسهم فيه من السيئات والآثام ، ويخفف عنهم بعض ما امتحنوا به من الأعباء الثقال . ولكن اليهود كذبوه وآذوه وهمّوا بصلبه وقتله ، فلم يصلبوه ولم يقتلوه وإنما شبّه لهم ورفعه الله إليه وطهره من الذين كفروا .

وكان مما غضب الله به على اليهود قذفهم لمريم وقولهم عليها بهتاناً عظيماً ، وزعمهم أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ؛ وما كان لكلمة الله أن تقتل وما كان لروح من الله أن يصلب . وقد ذكر الله ذلك في الآيات الكريمة من سورة النساء :

(وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً . وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ ، وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً . بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً . وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً)

وقد شدد الله النكير على النصارى في شيئين خطيرين :

أحدهما ، تأليهم المسيح وعبادته وذلك في قوله من سورة المائدة :

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً . وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

وقوله في السورة نفسها :

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)

وهو في هذه الآية يبرىء المسيح من عبادة النصارى إياه ويقرر أن المسيح لم يدع بني إسرائيل إلا إلى عبادة الله ربه وربهم وأنه نهاهم عن الشرك .

وهو في آية أخرى من السورة نفسها يقرر هذا ولكن في صراحة لا تدع إلى الشك سبيلاً وذلك حيث يقول : (وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ . قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

الأمر الثاني الذي أنكره الله على النصارى أشد الإنكار تثليث المثلثين منهم وقولهم : إن الله ثالث ثلاثة . وذلك في الآيات من سورة المائدة :

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) .

ولم يكن بين النبي والنصارى جدال - فيا نعلم - إلا ما كان بينه وبين نصارى نجران حين وفد عليه بعضهم . وعسى أن يكون الله عز وجل قد أشار إلى هذا الجدال في سورة آل عمران حين قرر أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون . يريد عز وجل وهو أعلم بما يريد أن ليس في مولد عيسى دون أن يكون له أب شيء من غرابة ؛ فالله قد خلق آدم من تراب ثم قال له : كن فكان . لم يكن له أب ولم تكن له أم فمن خلق إنساناً لغير أب وأم قادر على أن يخلق إنساناً ليس له أب .

ثم قال عز من قائل – يأمر نبيه بمباهلة الذين يجادلونـــه في ذلك ويصف طريق المباهلة :

(فَمَنْ حَاجَّكَ فيه مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنا وأَبْنَاءَكُم ونِسَاءَنَا ونساءَكُمْ وأنْفُسَنَا وأنْفُسَكُمْ ثم نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ . إنَّ هَذَا لَهُوَ القَصَصُ الحقُّ وَمَا من إلهٍ إلاَّ الله ، إنَّ اللهَ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيم . فَإنْ تولَّوْا فَإنَّ اللهَ عَلِيم بالمُفْسِدِينَ) .

ثم أمره أن يدعو أهل الكتاب من النصارى واليهود إلى كلمـــة سواء بين المسلمين وبينهم وهي ألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله وأمره إن أبوا أن يجيبوا إلى هذه الدعوة أن يُشهدهم على أنه هو وأصحـابه مسلمون قد أخلصوا دينهم لله وحده . وذلك حيث يقول :

(قُلْ يأهْلَ الكِتَاب تَعَالَوْا إلَى كَلمةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ ولاَ نُشْرِكَ بِه شَيْئاً ولاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأنَّا مُسْلِمُون) .

وكأن النصارى حاجوا النبي في إبراهيم كما كان اليهود يحاجونه فيه فقـــال الله : (يَأهْلَ الكتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ في إبْرَاهيمَ ومَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ والإنْجِيلُ إلاَّ مِنْ بَعْدِه أفلا تَعْقِلُونَ هأنْتُمْ هؤلاَءِ حَاجَجْتُمْ فيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِه عِلْمٌ واللهُ يَعْلَمُ وأنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً ولاَ نَصْرانِيّاً ولَكنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً ومَا كَانَ من المُشْرِكِين. إنَّ أوْلَى النَّاسِ بِإبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوه وَهَذَا النَّبِيُّ والَّذِينَ آمَنُوا واللهُ وَلِيُّ المؤْمنِين) .

ويقول الرواة : إن النصارى من أهـــل نجران نكلوا على المباهلة التي دعاهم إليها النبي عن أمر الله وعادوا إلى بلادهم كما أقبلوا منها دون أن يعطوه الرضى من أنفسهم . ولم تكن بين النبي وبين النصارى في جزيرة العرب حرب وإنما تسامع المسلمون العرب ذات يوم أن نصارى العرب في مشارف الشام يتهيئون لغزو المسلمين في المدينة . يدل على ذلك ما تحدث به عمر – رحمه الله – حين اعتزل النبي نساءه – من أن صاحباً له من الأنصار جاءه بليل فطرق عليه الباب . فلما خرج إليه أنبأه الأنصاري بأن قد حدث شيء عظيم . قال عمر : أوَجاء الغساني ؟ وكانوا قـد تسامعوا بأن غسان تتهيأ

لغزوهم . قال الأنصاري : لا ، بل حدث أعظم من ذلك . ثم مضى عمر في حديثه .

فهذا يدل على أن أهل الشام من نصارى العرب قد أكبروا مـــا بلغهم عن النبي وانتشار أمره في الجزيرة بالسلم حيناً وبالحرب حيناً آخر ، فهمّوا بغزوه كراهيـة أن ينشأ في جزيرة العرب ملك منظم يصبح خطراً على حدود الإمبراطورية البيزنطية . وهذا في أكبر الظن هو الذي حمـل النبي على أن يرسل جيشاً إلى « مؤتة » على حدود الشام والجزيرة العربية وهي الموقعة التي امتُحن فيها المسلمون وقتـــل فيها ثلاثة من أصحاب اللواء . وكادت الكارثة أن تكون أخطر من ذلك لولا براعة خالد بن الوليد — رحمه الله — حين أخذ اللواء وانحاز بالمسلمين حتى أمنوا . وعسى أن يكون هذا أيضاً وما انتهت إليه موقعة « مؤتة » هو الذي حمل النبي أن يغزو غزوة « تبوك » التي فصل الله ذكر ظروفها في سورة التوبة كما سترى .

وكان أمر النبي مع المنافقين معقّداً أشد التعقيد لأنه اتصل منذ هاجر النبي الى المدينة إلى أن آثره الله بجواره . ولأن النبي والمسلمين لقوا منه شرّاً أي شر وبلاء أي بلاء . كان أمر المنافقين من جهة أيسر من أمر المشركين واليهود فلم تكن بينهم وبـــين المسلمين حرب ولم تسفك بينهم دماء . ولكنه كان من جهة أخرى أشد من أمر المسلمين مع المشركين واليهود عسراً ؛ ذلك لأن المنافقـــين لم يصنعوا صنيع أولئك ولا صنيع هؤلاء ؛ لم يبادوا النبي وأصحابه بالكفر وإنمـا أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر ؛ ولم يبادوا النبي واصحابه بالعداوة الصريحة وإنما أظهروا المودة وأضمروا البغضة والعداء . ولم يخطىء الشاعر القديم حين قال :

فإما أن تكون أخي بحق ... فأعرف منك غثي من ثميني
وإلا فاتركني واتخذني ... عدواً أتقيـك وتتقيني

ويوشك النفاق أن يكون أبعد من الكفر الصريح والعداء البين أثراً في إفساد حياة الناس .

وقد كان النبي والمسلمون يعرفون من كفر المشركين واليهود وعدائهم ، ومن كيدهم لهم ومكرهم بهم ما يضطرهم إلى أن يحتاطوا لدينهم ولأنفسهم من أولئك وهؤلاء . وكانوا جديرين ألا يعرفوا من بغض المنافقين لهم شيئاً لولا أن خبر السماء كان يأتي النبي حين ينزل بما في قلوب المنافقين من حقد عليهم وبغض لهم . وكان النبي مع ذلك قد أمر أن يقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ؛ فإذا قالوها عصموا منه دمـاءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله كما روينا آنفـاً . وكان المنافقون يقولون : لا إله إلا الله

فيعصمون دماءهم وأموالهم من النبي والمسلمين ولا يجعلون لهم على أنفسهم سبيلا ؛ ثم يستخفون بكفرهم وجحودهم . ولو قد اكتفوا بإخفاء الكفر والجحود بعد أن أظهروا الإسلام ثم لم يزيدوا على ذلك لكان أمرهم هيناً يسيراً ؛ ولكنهم يضيفون إلى الكفر والجحود استهزاءهم بالنبي والمسلمين حين يخلو بعضهم إلى بعض وإصرارهم على الكيد للنبي والمسلمين وتوليهم المشركين واليهود دون النبي والذين اتبعوه وإطلاقهم كلمة السوء في النبي والذين آمنوا معه كلما أتيح لهم إطلاقهم ، وكان الحسد مصدر هذا كله فيما يظهر .

فلم تكن كلمة العرب في المدينة مؤتلفة قبل هجرة النبي وإنما كانوا فئتين مختصمتين أشد الاختصام : كانوا قبيلتين عربيتين تنتسبان إلى أصل يمني قحطاني ، وتشتد المنافسة بينهما حتى تثير الخصومة دائماً وتثير الحرب أحياناً .

وقد احتربت القبيلتان – الأوس والخزرج – في آخر العصر الجاهلي حرباً متصلة مضنية . وكانتا جديرتين أن تستأنفا حربهما لولا أن هداهما الله إلى الإسلام بالنبي ﷺ ، فألغي ما كان بينهما من خصومة وكف أيدي بعضهم عن بعض . وكان من إحدى القبيلتين – وهي الأوس – رجل قد عظم شأنه وارتفعت مكانته في قومه حتى كادوا يتوجونه ملكاً عليهم . فلما جاء الإسلام وهاجر النبي وأصحابه إلى يثرب سقط أمر هذا الرجل وأصبح كغيره من أهل المدينة رجلاً من الأوس وضاعت آماله وضاعت كذلك آمال أتباعه فيه . فليس غريباً أن يضيق هذا الرجل « عبدالله بن أبي سلول » والذين اتبعوه بقدم النبي إلى المدينة وانتشار الإسلام فيها وانصراف المسلمين من الأوس والخزرج عن التفكير في الملك وفيمن يصير الملك إليه ، إلى التفكير في الإسلام والنبوة وإلى الاستجابة للنبي في كل ما يدعوهم إليه ويأمرهم به والانتهاء عما كان ينهاهم عنه ويخوفهم منه .

وليس غريباً أن يمتلىء قلب هذا الرجل والذين لاذوا به حقداً وحسداً للنبي ومن جاء معه من المهاجرين ومن اتبعه من الأنصار من الأوس والخزرج جميعاً .

وليس غريباً – حين ظهر الإسلام في المدينة وفشا في أهلها – أن يضطر هؤلاء الناس إلى أن يسلموا فيمن أسلم ، لم يكونوا يستطيعون مقاومة لأن الإسلام كان قد دخل في كل دار من دور الأوس والخزرج ، ولم يكونوا يستطيعون أن يخرجوا من المدينة ويتركوها للدين الجديد ومن جاء به . تمنعهم من ذلك مصالحهم وأموالهم وتمنعهم من ذلك كبرياؤهم أيضاً . ولم يكونوا آخر الأمر يستطيعون أن يظلوا كفاراً وأن يجاهروا

بذلك فيجعلوا للنبي وأصحابه سبيلاً على أنفسهم وأموالهم . لم يشرح الله صدورهم للإسلام ولم يجرؤوا على أن يظهروا الكفر فعاشوا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء كما وصفهم الله في الآية الكريمة من سورة النساء .

شقوا بنفاقهم هذا وآذوا به المسلمين إيذاء متصلاً مختلفاً كانوا خطراً في أيام السلم يعرف النبي والمسلمون إسلامهم بأطراف ألسنتهم وكفرهم في أعماق قلوبهم . ثم يرون منهم ويسمعون ما يكرهون في أوقات كثيرة ولا يستطيعون أن يعرضوا لهم بسوء لأن الله لم يسلطهم عليهم بل عصمهم منهم بكلمة التوحيد التي تنطلق بها ألسنتهم وتغلق من دونها قلوبهم . وكان أحدهم ربما غلب عليه كفره وبغضه فأظهر من القول والعمل مما كان جديراً أن يحل دمه ولكن النبي كان يسرع إلى العفو عن هذه الهفوات على خطورتها . كالذي كان – حين أعلن عبد الله بن أبي ابن سلول في غزوة بني المصطلق – من تلك الكلمة التي ذكرها الله في القرآن حين قال : (لَئِنْ رَجَعْنا إلى المَدِينَةِ لَيُخرِجَنَّ الأعزُّ مِنْها الأذلَّ) يريد مباداة المسلمين بالحرب إذا عادوا إلى المدينة وما يتبع ذلك من الاستعانة عليهم بأوليائه من الكفار .

وقد بلغت هذه الكلمة النبي صلى الله عليه وسلم واستأذنه عمر في قتل هذا الرجل لأنه أحل دمه حين أعلن في صراحة عداوته للمسلمين وإزماعه على أن ينصب لهم الحرب إذا عادوا إلى المدينة . ولكن النبي أبى على « عمر » وكره أن يتحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان .

وقد وصف الله المنافقين واشتد عليهم في غير سورة من القرآن ، فضح أمرهم كله وأظهر دخيلة نفوسهم في الآية الكريمة من سورة البقرة وذلك حيث يقول : (ومِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِاللهِ وبِاليَوْمِ الآخِرِ ومَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللهَ والذِينَ آمَنُوا ومَا يَخْدَعُونَ إلاّ أنْفُسَهُمْ ومَا يَشْعُرُون . في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ولَهُمْ عَذابٌ ألِيمٌ بِمَا كانُوا يَكْذِبُون)

ثم يصف عنادهم وما ملأ قلوبهم من الكبرياء والغرور فيقول :

(وإذَا قِيلَ لهم لا تُفْسِدُوا فِي الأرْضِ قالُوا إنّما نَحْنُ مُصْلِحُون . ألاَ إنّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ ولكنْ لاَ يَشْعُرُون. وإذا قِيلَ لهم آمِنُوا كما آمَنَ النّاسُ . قَالُوا: أنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهاءُ ألاَ إنّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ ولكنْ لا يَعْلَمُون) .

ثم يصف ذلة نفوسهم واضطرارهم إلى المخادعة وإباءهم بأن يعترفوا بهذه المخادعة ؛ فيقول :

(وإذا لَقُوا الَّذينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وإذا خَلَوْا إلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إنّا مَعَكُم إنَّما نحنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ويَمُدُّهُم في طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُون) .

ثم يشبههم بأصحاب التجارة الذين يبذلون أغلى الأثمان وأنفسها ليشتروا بها أخس المتاع وأشده عليهم وبالاً ثم يعودون بعد ذلك بالخسران ؛ فيقول : (أُولئِكَ الَّذينَ اشتَرَوا الضَّلالَةَ بالهُدَى فما ربِحَتْ تِجارَتُهُمْ وما كانوا مُهْتَدِين) .

ثم يصورهم أروع تصوير وأبرعه حين يمثلهم مرة بالذي يبذل الجهد ويجد كل الجد ليستوقد النار فإذا اضطرمت وارتفع لهبها وأضاءت ما حوله وحول أصحابه ، ذهب الله بما أتيح لهم من نور وتركهم في ظلمات لا يبصرون فيقول : (مَثَلُهُم كَمَثَلِ الَّذي اسْتَوْقَدَ ناراً فلَمَّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بنورِهِم وتَرَكَهُمْ في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُون . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُون) .

ثم يصور حيرتهم واضطرابهم بين الخوف والأمن وبين اليأس والأمل فيضرب لهم مثلاً قوماً أدركهم صيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، فهم وجلون قد ملأ الخوف قلوبهم وخيل إليهم أنهم يرون الموت فهم يضعون أصابعهم في آذانهم إشفاقاً من الرعد والصواعق وحذراً من الموت . وهم يرون البرق يضيء ما حولهم فيمشون في ضوئه . فاذا انقطع البرق وعادت الظلمة قاموا في أماكنهم لا يدرون أين يذهبون ؛ فيقول : (أوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فيهِ ظُلُماتٌ ورَعْدٌ وبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أصابِعَهُمْ في آذانِهِم مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الموْتِ واللهُ مُحِيطٌ بالكافِرِين . يَكادُ البرْقُ يَخْطَفُ أبْصارَهُم كلَّما أضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فيهِ وإذا أظْلَمَ عَلَيْهِم قَامُوا ولوْ شاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأبْصارِهِمْ إنَّ اللهَ عَلَى كلِّ شيءٍ قَدِير) .

وذكرهم الله في صورة النساء فصور ترددهم بين الإيمان والكفر ، فهم يؤمنون ثم يكفرون ثم يرجعون إلى الإيمان ، ثم يعودون إلى الكفر ، ثم يزدادون كفراً قد ملكت عليهم الحيرة أمرهم فهم لا يعرفون أي طريق يسلكون .

وذكر توليهم للكافرين من دون المؤمنين كيداً لهؤلاء والتماساً للعزة عند الكافرين.

وذكر أنهم إذا قاموا للصلاة قاموا كسالى لأن صلاتهم ليست صلاة صدق وإنما صلاة خداع ورياء فهم يراؤون الناس ليكفوا أيدي المسلمين عنهم ، وهم يخادعون الله والله خادعهم ، وهم مذبذبون بين الإيمان والكفر . ليسوا مع المؤمنين تأبى عليهم ذلك

قلوبهم المدخولة وليسوا مع الكافرين صراحة يخافون أن يجعلوا للمؤمنين عليهم سبيلا وهم يحاولون أن ينتفعوا بذبذبتهم هذه . فإذا أتيح النصر للمؤمنين قالوا : ألم نكن معكم ؟ لينتفعوا بثمرة الفتح . وإن يكن شيء من النصر للكافرين قالوا : ألم نحطكم ونحمكم من المؤمنين ، يريدون أن ينتفعوا من انتصار الكفار . وهم يستهزئون بآيات الله إذا خلوا إلى أنفسهم والله يحذر المؤمنين إن سمعوا بعض هذا الاستهزاء أن يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره حتى لا يكونوا مثلهم ولا يلقوا مثل ما يلقى المنافقون من العذاب لأن الله سيجمع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً

والله يأمر نبيه أن يبشر المنافقين بالعذاب الأليم ويعلن أنهم في الدرك الأسفل من النار ، وأنهم لم يجدوا من ينصرهم أو يرد عنهم هذا العذاب .

والله يقول في هذا كله :

(إنَّ الَّذينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُم ولا لِيَهْدِيَهُمْ سَبيلاً . بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأنَّ لهُم عذاباً أليماً الَّذينَ يَتَّخِذُونَ الكافِرينَ أولِياءَ مِنْ دُونِ المؤمنين أيَبْتَغُونَ عندهم العِزَّةَ فإنَّ العِزَّةَ لله جميعاً وقدْ نَزَّلَ عليكم في الكِتابِ أنْ إذا سَمِعتم آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بها ويُسْتَهزأُ بها فلا تَقعُدوا مَعَهُم حتَّى يخوضُوا في حديث غيره إنَّكم إذاً مِثْلُهُم إنَّ اللهَ جامِعُ المنافِقِينَ والكافرين في جَهنَّمَ جميعاً . الَّذين يتربَّصُونَ بكم فإنْ كانَ لكم فَتحٌ من الله قالوا ألَمْ نَكُنْ معَكُم ، وإنْ كان للكافرين نَصيبٌ قالو ألَمْ نَسْتَحْوِذْ عليكم ونَمْنعكم من المؤمنين ، فاللهُ يحكُمُ بينكم يوم القيامة ، ولن يجعَلَ الله للكافرينَ على المؤمنينَ سبيلا . إنَّ المنافِقين يُخادِعون اللهَ وهُو خادِعُهم وإذا قاموا إلى الصَّلاة قاموا كُسالى يُراءُونَ الناس ولا يَذْكرُونَ اللهَ إلاَّ قليلا . مُذَبْذَبينَ بينَ ذلكَ لا إلى هؤلاءِ ولا إلى هَؤلاءِ ، ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فلنْ تجِدَ لهُ سبيلا . يأيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذوا الكافِرينَ أولِياءَ مِنْ دُونِ المؤمنين أتُريدون أن تَجْعَلوا لله عليكم سُلطاناً مُبينا . إنَّ المنافقينَ في الدَّرْكِ الأسفل من النار ولن تجِدَ لهم نصيراً . إلا الذين تابُوا وأصْلَحوا واعتصمُوا باللهِ وأخلصوا دينَهم لله فأولئكَ مع المؤمنينَ وسَوفَ يؤتِي اللهُ المؤمنينَ أجراً عظيماً ما يَفعَلُ اللهُ بعذابكم إن شكرتُم وآمنتُمْ وكَانَ الله شاكراً عليما) .

فانظر كيف ذكر أمرهم على هذه الصورة من النكر والبشاعة ومن الكفر والغدر ، وكيف أنذرهم هذا النذير الشديد بالعذاب الأليم وبأنهم في الدرك الأسفل من النار لا

يجدون لهم نصيراً . ثم عاد بعد هـــذا الوصف القوي المؤنس ففتح باب الأمل أمامهم وأعلن أن من تاب منهم وأصلح واعتصم بالله وأخلص له دينه فهؤلاء مع المؤمنين . والله يعد المؤمنين أجراً عظيماً .

وكذلك القرآن يشدد النكير على المنافقين وعلى الذين يقترفون الآثام ويجترحون الكبائر حتى يشرف بهم على اليأس . ثم يفتح لهم بعد ذلك أبواب الأمل واسعة ويجعل التوبة الخالصة الصادقة النصوح سبيلهم إلى الأمل في النجاة ، بل في أكثر من النجاة في الاستمتاع بما أعد الله للمؤمنين الصادقين الناصحين من النعيم .

كان المنافقون إذن خطراً أيام السلم وكانوا أشد خطورة أيام الحرب فهم كانوا أضعف إيماناً بالله والرسول والدين من أن يقاتلوا العدو على بصيرة إذا لقوه وأن يثبتوا له إذا أغار عليهم في المدينة ، وهم كانوا يظهرون هذا الضعف ولا يخفونه ، وكانوا حين يجد الجد لا يجدون حرجاً ولا حياء في أن يظهروا الجبن ومـا يستتبع الجبن من انخلاع القلوب واضطراب النفوس وضمور العزائم وفتور الهمم وانهيار الصبر على المقاومة .

وهم كانوا بذلك ينشرون الخوف ويشيعون الذعر بين ذوي قرباهم وجوارهم من المسلمين ؛ وأي شر في أوقات الحرب أعظم خطراً من انقسام الجيش المحارب أمــام العدو وفي أوقات الحصار خاصة إلى فريقين : فريق يستقبل العدو في ثقة بالله وإيمان بوعده ، وفريق آخر يظهر الجبن ويحتال للفرار ما وجد إلى الفرار سبيلاً ، ثم يشكك في عواقب الحرب ويملأ قلوب المدنيين فرقاً وخوفاً .

وكذلك صنع المنافقون في غزوة الأحزاب خرجوا مع النبي وأصحابه لمواجهـــة العدو ، فلما رأوا كثرته وما ظهر من قوته وبأسه ورأوا أن المشركين لا يأتون المدينة من قبل مكة فحسب وإنما يأتونها من مكة ومن نجد ، يأتونها من فوقها ومن أسفل منها ، انخلعت قلوبهم وأخذ الرعب منهم كل مأخذ وملك عليهم الهلع أمرهم كله حتى منعهم من الاحتياط في القول والعمل ، فقال بعضهم - كما نقرأ في سورة الأحزاب : (مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إلا غُرُوراً) ، يذيعون الشك ويثبطون الهمـــم . وقال بعضهم : (يا أهلَ يَثْرِب لا مُقامَ لكمْ فارْجِعُوا) ، يغرون المسلمين بالفرار . وترك النبي وحده مع المهاجرين تجاه العدو . ثم لم يكتفوا بما قالوا وإنما أقبل بعضهم على النبي يستأذنونه في الرجوع ويعتلون بأن بيوتهم عورة مكشوفة للعدو . ويظهر الله جلية أمرهم فيرد عليهم معاذيرهم بقوله : (وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إنْ يُرِيدُونَ إلاَّ فِراراً) .

ثم يفضح الله ما انطوت عليه قلوبهم من الكيد والغش والاستعداد لإجابة العدو ولما يريد ، فيقول : (ولوْ دُخِلت عَلَيهم من أقطارِها ثم سُئِلُوا الفتنَةَ لآتَوْها وما تَلَبَّثُوا بها إلاَّ يَسيراً) . وينبئهم الله بأنهم لم يريدوا أن يفروا وحدهم وإنما أغروا غيرهم بالفرار ولم ينتظروا مقدم العدو لإظهار الجبن والفرق والكيد معاً وذلك حيث يقول من سورة الأحزاب أيضاً : (قَدْ يَعْلَمُ اللهُ المُعَوِّقين منكم والقائِلين لإخْوانهم هَلُمَّ إلينَا ولا يَأتُون البَأسَ إلاَّ قَلِيلاً) .

وما أعرف أن الجبن والمكر معاً وصفا بمثل ما وصفهما الله في القرآن حيث يقول في المنافقين في سورة الأحزاب : (أشِحَّةً عَلَيْكُم فإذَا جَاءَ الخَوْفُ رَأيتَهم يَنْظُرُونَ إليْكَ تدُورُ أعْيُنُهم كالذِي يُغشَى عَليه مِنَ المَوتِ فإذا ذَهبَ الخوفُ سَلَقُوكُم بِألْسِنَةٍ حِدَادٍ . أشِحَّةً على الخَير أولئك لم يُؤمِنوا فأحْبَطَ اللهُ أعمالَهم وكانَ ذَلكَ على الله يَسيراً) .

فانظر إليهم بخلاء بالنصر والتأييد على المؤمنين ، جبناء يُذهب الخوف إذا جاء نفوسَهم وعقولهم وأفئدتهم ، فهم ينظرون إلى النبي تدور أعينهم كالذي تأخذه غشية الموت قبل أن يأتيه الموت . ثم انظر إليهم ماكرين بالمؤمنين كائدين لهم ، قد ملأت البغضاء قلوبهم فأطلقوا في المسلمين ألسنتهم حداداً بمقالة السوء في النبي وفي المؤمنين ، حين يذهب الخوف ويعود الأمن .

وصور الله في سورة الأحزاب أيضاً إفراط المنافقين في الجبن وإغراقهم في الفَرَق. فقد انصرف الأحزاب عن المدينة ولكن خوف المنافقين يخيل إليهم أنهم ما زالوا محاصرين للمدينة ، وهم من أجل ذلك وجلون . ثم ينبىء الله نبيه والمؤمنين بأن الخوف قد ملأ قلوب هؤلاء المنافقين أن جعلهم يشفقون من الأحزاب حتى بعد انصرافهم ، يخافون أن يعيدوا الكرة ولو قد فعلوا لود المنافقون لو أنهم تركوا المدينة وعاشوا مع الأعراب في باديتهم ، لا يرون ما يكون بين المؤمنين وبين الأحزاب من حرب ولا يرون عواقب هذه الحرب، وإنما يسألون عن أنباء المؤمنين وهم بعيدون عنهم في باديتهم تلك ، قد أمنوا أن يمسهم من شر الحرب كثير أو قليل .

وقد ظهرت نيات المنافقين كأبشع ما كانت حين هم النبي بغزوة تبوك ، ووصف الله نياتهم هذه وقلوبهم وأعمالهم في روعة أي روعة ، وتفصيل أي تفصيل ، واشتد عليهم كل الشدة من أجل نياتهم وقلوبهم وأعمالهم في أكثر سورة التوبة .

وكانت غزوة تبوك مصدر محنة عامة للمنافقين جميعاً ، ولفريق من المؤمنين أيضاً .

ذلك أن النبي أخذ يتجهز لها في وقت لم يكن أشد على الناس فيه من ترك المدينة والمضي إلى الحرب وإلى الحرب في مكان بعيد .

كان ذلك في أشد الصيف حين يشتد القيظ على المقيمين فكيف بالمسافرين ، وحين تنضج الثمار ويود الناس لو فرغوا لاجتنائها . وكان ذلك في وقت عسرة قل فيه المال واشتدت فيه الحاجة إليه فهذه الحرب البعيدة التي لا تعرف عواقبها ، والتي لا تحمل إلى قبيلة من قبائل الأعراب قريباً من المدينة وإنما تحمل إلى عرب الشام في حدود الجزيرة العربية .

كل هذا كان يحتاج إلى النفقة الكثيرة وكان يكلف المسلمين أن يجاهدوا بأنفسهم وأموالهم وأن ينفقوا على هذه الحرب عن سعة ومن أجل هذا دعي المسلمون إلى الإنفاق ودعوا إلى الجهاد بأنفسهم ؛ فأما الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فأجابوا إلى ما دعوا إليه وأبلى عثمان في الإنفاق على هذه الحرب أحسن البلاء . وتجهز المؤمنون الصادقون للحرب وأعانوا من احتاج منهم إلى المعونة . وجاءت جماعة من المؤمنين إلى النبي متطوعين للجهاد ولكنهم لا يجدون النفقة . فأقبلوا يسألونه أن يحملهم ، وأجابهم النبي بأنه لا يجد ما يحملهم عليه . فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون كما ذكر الله في سورة التوبة .

ومن أجل هذا كله شدد الله على المؤمنين في أن ينفروا مع النبي ولامهم فيما أظهر بعضهم من الفتور والتثاقل فقال : (يأيُّها الذين آمَنوا مَالكُم إذا قِيلَ لكُمُ انفِروا في سَبيلِ اللهِ اثّاقَلْتُمْ إلى الأرْضِ أرَضِيتُمْ بالحياةِ الدُّنيا من الآخرة فما متَاعُ الحَياةِ الدنيا في الآخرةِ إلاَّ قليل إلاَّ تنفِروا يُعذِّبكُم عَذاباً أليماً ويَسْتَبْدِلْ قوماً غيركم ولا تَضُرُّوهُ شيئاً والله على كلِّ شيءٍ قَدير. إلاَّ تَنصُرُوه فقد نَصَرهُ اللهُ إذْ أخْرجَهُ الذين كَفَرُوا ثانيَ اثْنَيْنِ إذْ هُمَا في الغَارِ إذْ يقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ معنا . فأنزلَ الله سكِينَتَهُ عليهِ وأيَّدَهُ بِجنُودٍ لمْ تَروها وجَعَلَ كَلِمَةَ الذين كفرُوا السُّفْلَى وكَلِمَةُ الله هيَ العُلْيا واللهُ عَزِيزٌ حَكيم . انفِرُوا خِفافاً وَثِقالاً وجاهِدُوا بِأمْوالكُمْ وأنفُسكم في سبيلِ الله ذَلِكُم خَيْرٌ لكُم إن كنتُم تَعلمُون) .

فإذا كان الجهاد قد ثقل على المؤمنين الصادقين الذين أخلصوا دينهم لله ، وآثروا رسول الله على أنفسهم فهو على المنافقين أشد ثقلاً .

والمنافقون لا يجاهدون ابتغاء مرضاة الله ، لأن قلوبهم لم تؤمن به ؛ ولا يجاهدون

إيثاراً للنبي على أنفسهم ، لأنهم لم يحبوا النبي ولم يخلصوا له؛ وإنما يجاهدون إن جاهدوا ابتغاء للغنيمة واتقاء لعاقبة القعود. ولذلك قال الله فيهم: (لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمِ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) .

فهم إذن كارهون للخروج يؤثرون الراحة والأمن وإحراز أموالهم وهم يحلفون للنبي والمؤمنين لو استطاعوا لخرجوا معهم ولكن الله ينبىء نبيه بأنه يعلم أنهم كاذبون وأنهم لو صح إيمانهم لم يستأذنوا . وقد أذن النبي لهم في القعود فعفا الله عنه وسأله في شيء من العتاب :

(لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) .

ثم بين له أن المؤمنين لا يستأذنون وإنما ينفرون للجهاد إذا دعوا إليه ، وأن الذين لم يصح إيمانهم هم الذين يتكلفون الإذن يتخذونه تعلة لقعودهم عن الجهاد .

ويبين لله كذب المنافقين حين زعموا أنهم كانوا يودون لو يخرجون مع النبي وأصحابه ولكنهم لا يستطيعون الخروج . فهم لم يتهيئوا للخروج ولم يحاولوا أن يعدوا له عدة وإنما كانوا مزمعين على القعود حين دعوا ولم يكن استئذانهم واعتذارهم إلا تكلفاً . ومع ذلك فقد كان الله كارهاً لخروجهم فثبطهم وحبب إليهم التخلف لأنه كان يعلم من أمرهم ما يخفى على المؤمنين . كان يعلم أنهم لو خرجوا مع المؤمنين لأفسدوا عليهم أمرهم بالغش والكيد والخيانة ولسعوا بينهم بالفتنة يحرجون صدور بعضهم على بعض ومن المؤمنين من كان يسمع لهم لمكانهم من قومهم.

وقد عرف الله وعرف النبي والمؤمنون ما كان من أمرهم قبل هذه الغزوة ، وكيف كانوا يكيدون للنبي وأصحابه . وكيف كانوا يقلبون الأمور ابتغاء الإساءة إليهم والإيقاع بهم حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون .

وفي ذلك يقول الله عز وجل : (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ) .

ويمضي القرآن في تعديد سيئاتهم وآثامهم حتى ينبئ النبي بأن منهم من يلمزه في الصدقات إذا لم ينله حظ منها، فيقول: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ).

ويبين الله بعد ذلك أن ما يجتمع للنبي من الزكاة لا ينبغي أن يعطى الأغنياء الذين لا يحتاجون إليه وإنما يوضع في المواضع التي بينت في القرآن فينفق منه على الفقراء والمساكين والذين يعملون على جمعها وإحصائها والذين يريد النبي أن يتألف قلوبهم وعلى تحرير الرقيق الذين يسلمون ولا يجدون ما يشترون به حريتهم من سادتهم، وعلى الذين تقع عليهم المغارم فلا يستطيعون النهوض بها وتنفق على الجهاد في سبيل الله وعلى الذين تنقطع بهم الطريق من أبناء السبيل، فأما القارّون في المدينة العاملون في أموالهم والمنتفعون بثمراتها فليس لهم من الصدقات حظ.

وقد كان النبي يضع الصدقات في المواضع التي بينها الله ولا يعطي منها الأغنياء والقادرين على أن يكسبوا ما يغنيهم عن المسألة. فأما المؤمنون الصادقون فيرضون عن ذلك ويرون أنه الحق، ويستعفون عما يعلمون أن غيرهم أشد حاجة إليه، وأما المنافقون الذين في قلوبهم مرض فكانوا يرون أن ما يجتمع للنبي من الصدقات مال وأن لهم فيه نصيباً. وكانوا من أجل ذلك يلمزون النبي في هذه الصدقات. وكانوا كذلك يلمزون المتطوعين فيها من الأغنياء، يقولون: إن صدقتهم رياء؛ ومن الفقراء، يقولون إن الله غني عما تصدقوا به.

وفضح الله في القرآن هذا كله من أمرهم. وفضح من أمرهم شيئاً آخر وهو أن منهم من كانوا يؤذون النبي ويقولون هو أذن أي يسمع لما ينقل إليه. ورد الله عليهم ذلك بأن النبي أذن خير لهم ثم أنذرهم بأن الذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم.

فقال: (وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

وبعد أن أحصى الله من سوء أعمالهم وفضح من ذات نفوسهم ما تستطيع أن تقرأه فيما بعد هذه الآية من سورة التوبة أظهر من غضبه عليهم شيئاً عظيماً فقال: (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ

يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ . وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) .

ويقول المحدثون – وفيهم الشيخان – إن عبد الله بن أبي بن سلول لما مات جاء ابنه إلى النبي ﷺ فأنبأه بموته وسأله الصلاة عليه فأجابه النبي إلى ما سأل . وكان عمر حاضراً فراجع النبي في ذلك وذكر هذه الآية فقال النبي : إن ربي خيرني واختار الصلاة عليه ، فأنزل الله بعد ذلك نهيه عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم فقال :

(وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُون) .

ثم نهى الله نبيه عن أن يقبل منهم عذراً بعد عودته إلى المدينة وبعد أن بيّن الله له من أمرهم ما بين : (يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ . قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

ونهى الله نبيه كذلك عن إخراجهم معه وإشراكهم في قتال العدو . فقال : (فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُود أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ) .

وعلى ما في سورة البقرة والنساء والتوبة من وصف المنافقين وتشديد النكير عليهم والوعيد بالتغليظ عليهم في العذاب ، وصفهم الله في سورة أخرى سميت باسمهم فعرفهم أصدق تعريف .

وصف هيئتهم حين يسكتون وحين يتكلمون وذكر من أقوالهم وأعمالهم ما يبين في وضوح أنهم عادوا إلى جاهليتهم الأولى ولم ينتفعوا بالإسلام الذي قبلوه ثم كفروا به . فقال : (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) .

يريد عز وجل أنهم كذبوا على النبي فيما زعموا له من إيمانهم برسالته لأنهم لا يؤمنون بها فيما بينهم وبين أنفسهم وإنما يضمرون الكفر ويستخفون به ويتخذون إيمانهم دريئة يتقون بها غضب النبي والمؤمنين عليهم وبطشهم بهم ويسترون بها كيدهم للمسلمين وصدهم

عن سبيل الله كما يقول الله عز وجل : (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ) .

ثم وصف هيئتهم حين يرون لأول وهلة وحين يتكلمون بعد ذلك أبرع وصف ؛ فمنظرهم معجب ومخبرهم مكذب لمنظرهم . ومن أجل ذلك قال الله : (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ . وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

أي لأنهم حين يتكلمون لا يصدر كلامهم عن قلوبهم وإنما هو شيء تنطق به ألسنتهم نطقاً آلياً لا يصور ذات نفوسهم . وهم إلى ذلك جبناء يرهبون كل شيء ويحسبون كل صيحة عليهم ، وهم إلى هذا كله خطرون بما يكيدون ويمكرون حين يخلون إلى أنفسهم وإلى شياطينهم ومن أجل ذلك يأمر الله نبيه أن يحذرهم .

ثم هم بعد ذلك مستكبرون . إذا دعوا إلى التوبة وإلى رسول الله ليستغفر لهم لوّوا رؤوسهم واستجابوا لكبرياء نفوسهم كما يقول الله : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) .

وهم ينهون من يسمع لهم عن أن يعينوا النبي على نفقة من يحتاج إلى النفقة من أصحابه ، لعلهم يستيئسون منه فينفضوا عنه ، ويأمر الله نبيه أن يقول : إن لله خزائن السموات والأرض وهو جدير أن يغني نبيه وأصحابه عن معونتهم . وذلك حيث يقول الله : (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا . وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ)

وكذلك كانت حياة النبي ﷺ في المدينة جهاداً كلها ، فهو يجاهد المشركين من قريش والمشركين من العرب ويجاهد اليهود في المدينة وخارج المدينة، ثم يجاهد المنافقين الذين يظهرون أنهم له أولياء وليسوا من ولايته في شيء وإنما هم أولياء أعدائه من المشركين واليهود. وهو يجاهد المنافقين بالصبر على ما يقترفون في ذاته وفي ذات المؤمنين وفي ذات الله عز وجل من السيئات والآثام وبالاحتياط لكيدهم ومكرهم وإغرائهم به وتأليبهم عليه . وهذا الجهاد المتصل المختلف كان جديراً أن يستغرق حياة النبي كلها وأن يشغله عن كل شيء غيره . ولكنك سترى مما يأتي في هذا الحديث أنه لم يستغرق من حياة النبي إلا بعضها بل أقلها وأنه أنفق سائرها ناشراً للدين معلماً للمؤمنين والمسلمين مبيناً لهم حقائق دينهم ومرشداً لهم إلى ما يجب عليهم ما لا ينبغي لهم في سيرتهم من

خطير الأمر ويسيره .

ولا بد بعد هذا الحديث الطويل الموجز على ذلك عن المنافقين من أن نعود مرة أخرى إلى جهاد النبي للمشركين

- ١٨ -

ذلك أن الهدنة التي عقدت بين النبي وقريش يوم الحديبية لم ترح النبي والمؤمنين من الجهاد . ولم تتح لهم سلماً كاملة . لقد كف الله أيدي قريش عن المؤمنين . وكف أيدي المؤمنين عن قريش بهذه الهدنة إلى حين ولكن مكر قريش ما زال كما هو يتبث في قبائل العرب مغرياً ومحرضاً . ونحن لم نذكر لك من الجهاد بين النبي وبين مشركي العرب من غير قريش شيئاً وإنما أشرنا إليه إشارة لا تصوره ولا تحققه ، لأننا لا نكتب السيرة في هذا الحديث وإنما نصور في إيجاز شديد ما ليس بد من تصويره لنعرض عليك مرآة صادقة للعصر والبيئة اللذين عاش فيهما النبي وأصحابه ولنشأة الإسلام وانتشاره قليلاً قليلاً حتى شمل جزيرة العرب كلها قبل أن يختار الله نبيه الكريم لجواره.

والواقع أن الجهاد بين النبي وبين المشركين من العرب كان متصلاً وكان شاقاً ، كان النبي يريد أن ينشر الإسلام من جهة وكان أعداؤه المشركون يحاولون أن يمنعوه من ذلك ما استطاعوا إلى منعه سبيلاً ، يغيرون على المدينة حيناً ويتهيئون للاغارة عليها حيناً آخر .

ولم يكن بد للنبي وأصحابه من أن يردوهم إن أغاروا ومن أن يسبقوهم ليكفوهم إن هموا بالإغارة . وكان في أهل البادية من العرب مكر وكان فيهم غدر أيضاً وكانوا يؤثرون المال على كل شيء . وكان كيد قريش وإغراؤها يصبان عليهم في كل وقت يغرونهم بالمال أحياناً وبغير المال أحياناً أخرى . فكان منهم من يأتي النبي يزعم أنه قد أسلم وأن قومه من ورائه قد أسلموا وأنهم في حاجة إلى من يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين . فكان النبي يرسل إليهم النفر من أصحابه فلا يكادون يبعدون بهم عن المدينة حتى يظهروا ما أضمروا من الغدر ويوقعوا بمن أرسل النبي معهم من المسلمين . فيقتلون بعضهم ويأسرون بعضهم يتقربون بأسره إلى قريش ويقدمونه إليها ويأخذون جائزتهم على هذا الغدر كالذي كان من « لحيان » يوم « الرجيع » حين أرسل النبي معهم مفقهين

لهم في الدين فلما بعدوا بهم عن المدينة أظهروا الغدر . فقاتلهم المسلمون حتى قتل منهم من قتل وأسر منهم من حملوه إلى قريش فقتلته .

ولم يحدث هذا مرة واحدة وإنما حدث غير مرة . ذلك إلى ما كان يحدث من تجمع وتهيؤ لغزو النبي . فيعلم النبي علمهم ويضطر إلى أن يسبقهم إلى الغزو ليوقع بهم مرة وليشعرهم بقوته وتأهبه ويقذف في قلوبهم الرعب مرة أخرى .

فكانت حياة النبي والمسلمين جهاداً كلها واضطر النبي أحياناً إلى أن يرسل السرايا وأحياناً أخرى إلى أن يخرج بنفسه لهذه الأغراض التي بيناها ؛ أضف إلى ذلك أن قريشاً لم تقم على هدنتها تلك إلا قليلاً ثم نكثت عهدها وأغارت على بعض حلفاء النبي من خزاعة فلم يكن بد من أن تعود الحرب بينها وبين النبي والمؤمنين جذعة .

وأحست قريش أن النبي قد غضب لحلفائه واعتبر الهدنة بينه وبينها منقوضة ، فأرسلت أباسفيان إلى المدينة ليعلم علم النبي وأصحابه من جهة وليشد أمر الهدنة ويقويه من جهة أخرى . ولكن أبا سفيان جاء إلى المدينة وعاد إلى مكة فارغ اليدين لم يبلغ مما أراد شيئاً . وجعل النبي يتهيأ لعقارب قريش حتى كان العام الثامن للهجرة فخرج النبي إلى مكة في جيش لم يجتمع له مثله من قبل قوة وكثرة عدد حتى إذا كان غير بعيد من مكة خرج أبو سفيان في نفر من قريش يتحسسون الأخبار . فلما رأوا نيران الجيش راعهم ما رأوا وعرفوا أن قد حاق بهم مكرهم السيء. وأخذ أبو سفيان إلى النبي ، أخذه العباس بن عبد المطلب الذي جعل ينصح له في الطريق ويحثه على الإسلام حتى أدخله على النبي ﷺ فشهد بين يديه : لا إله إلا الله وأظهر التردد في الشهادة بأن محمداً رسول الله . ولكنه اضطر آخر الأمر إلى أن يعلن الشهادة . فأمنه النبي على نفسه وعلى كل من دخل داره من قريش وعلى كل من دخل المسجد الحرام منها وعلى كل من لزم داره وأغلق بابه منها أيضاً .

وعاد أبو سفيان إلى قريش بهذا الأمان فلم يسعها إلا الإذعان؛ فقوم دخلوا دار أبي سفيان وقوم دخلوا المسجد الحرام وآخرون لزموا دورهم وغلقوا أبوابهم . وأصبح النبي فدخل مكة بعد أن أمر قواده ألا يقاتلوا أحداً إلا من عرض لهم بسوء . ولم يخالف عن هذا الأمر من القواد إلا خالد بن الوليد – رحمه الله - كان فيه شيء من عنف فأعمل السيف فيمن لقيه ورفع ذلك إلى النبي فتبرأ مما صنع خالد وأرسل من أصحابه من كفه عن القتل والقتال ، ودخل النبي والمسلمون مكة . فأقبل النبي على المسجد الحرام فحطم ما كان حول الكعبة من الأوثان وهو يقول : « جاء الحق وزهق

الباطل إن الباطل كان زهوقاً » .

ثم أمر «بلالاً» فأذّن فوق ظهر الكعبة إعلاناً للاسلام وإعلاء لكلمة الله . واجتمعت قريش – فيما يقول الرواة – للنبي ﷺ ، فقال لهم فيما قال : « يا معشر قريش مـــا تظنون أني فاعل بكم ؟ » . قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال النبي ﷺ : « فإني أقول لكم ما قال يوسف لإخوته : (لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وأسلمت قريش : منهم من أسلم طائعاً ومنهم من أسلم لأنه لم يجد من الإسلام بدّاً .

وكذلك استقر الإسلام في مكة بعد أن خرج منها، هاجر به النبي والمسلمون اتقاء للفتنة وابتغاء للأمن والعافية ونشر الدين ، لا خائفين ولا وجلين .

عاد الإسلام إلى مكة واستقر فيها ظافراً منصوراً موفوراً ودخلت قريش فيـــه طوعاً أو كرهاً وصدق وعد الله في قوله الكريم : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) .

ولكن النبي ومن هاجر معه من أصحابه لم يقيموا بمكة ولم يستقروا فيها وإنمـــا آثروا مهاجرهم في المدينة وكرهوا أشد الكره أن يستبدلوا به مكاناً غيره مهما يكن وأن يخرجوا من المدينة إلا وفي نيتهم أن يعودوا إليها إن أذن الله لهم بالعودة إليها.

ويقول الرواة : إن سعد بن أبي وقاص – رحمه الله – مرض بمكة وثقل المرض عليه حتى هم بالوصية واستشار النبي في ذلك فدعا له النبي وكان يشفق من أن يدركه الموت بعيداً عن الأرض التي هاجر إليها وصارت هذه سنة بين المهاجرين من أصحاب النبي حتى كانوا يكرهون إن ألموا بمكة أن يصنعوا فيها صنيع المقيمين : كانوا يرون أنفسهم على سفر – وإن نزلوا بين عشائرهم من أهل مكة – فيقصرون الصلاة ، ومن أجل ذلك راجعوا عثمان رحمه الله حين أتم الصلاة بمنى لأنهم كانوا يرونه مسافراً يجب عليه قصر الصلاة ؛ وإن كان أهله بمكة لأن دار إقامته في المدينة لا في غيرها .

ولم يعد النبي بعد الفتح إلى المدينة وإنما بلغــه أن «هوازن» تجمع له جموعها فخرج لقائهم في الجيش الذي أقبل معه إلى مكة وفيمن انضم إليه من طلقاء قريش أو مسلمة الفتح كما كان يقال إذ ذاك . والتقى الجمعان يوم «حنين» فامتحـن المسلمون امتحاناً شديداً وجالوا جولة حتى قام النبي وحده في الموقعة على ظهر بغلته . والعباس آخــذ بزمامها والنبي يدعو أصحـــاب سورة البقرة ويقول :« أنا النبي لا كـــذب أنا ابن عبد المطلب» .

ثم ثاب اليه الأنصار وثاب إليه بعدهم سائر المسلمين وأنزل الله نصره على نبيه وعلى المؤمنين فانهزم المشركون هزيمة منكرة قتل منهم من قتل وأسر منهم من أسر وسبيت النساء والذراري وعاد النبي وأصحابه موفورين ، ولكن «هوازن» عادوا إليه بعد هزيمتهم يسألونه أن يمن على سبيهم ويذكرونه بأنهم أخواله لأنه أرضع فيهم إذ كانت حليمة منهم .

وقد أطلق النبي من السبي من كان في أيدي رهطه الأدنين من بني عبد المطلب ووعدهم إذ صلى بالناس من غد أن يسألوه في ذلك ويذكروا خؤولتهم له . فلما فعلوا شفع النبي لهم عند المسلمين فلم يبق أحد منهم إلا أطلق من كان عنده من السبي ورده على قومه .

وكان آخر حرب للنبي مع المشركين حين حاصر الطائف بجيشه ذاك . وقد أطال الحصار ولكن الله لم يسلطه على هذه المدينة . فرفع الحصار وعاد بجيشه إلى دار هجرته ثم لم تلبث ثقيف أن أرسلوا إليه وفدهم يطلبون الصلح فقبله منهم على أن يدخلوا في الإسلام ويرفضوا الشرك ويمحقوا آثاره .

ومنذ ذلك الوقت جعل العرب يتسامعون في قلب الجزيرة وأطرافها بالإسلام وما أتيح للنبي وأصحابه من نصر فجعلت وفودهم تفد عليه يعرضون إسلامهم وإسلام قومهم ، فيقبل النبي منهم ويعلمهم دينهم . وربما أرسل معهم من يعلم قومهم شرائع الإسلام .

وكذلك عظم أمر الإسلام وانتشر في الجزيرة العربية كلها . ونظرة سريعة إلى ما بدأ الإسلام عليه في مكة وما انتهى إليه في المدينة في هذا الوقت القصير تبين في جلاء أن قوة عليا أرادت لهذا الدين أن يقوى وينتشر أولاً وأن يجمع كلمة العرب ويوحد أهواءهم ويجعلهم أمة واحدة مؤتلفة تتعاون على البر والتقوى ولا تتعاون على الإثم والعدوان بعد الذي كان بينهم من اختلاف أي اختلاف واختصام أي اختصام ؛ ومن حرب بالألسنة دائماً وبالسيف والسنان في أكثر الأحيان .

وأرادت كذلك أن تغير من أخلاقهم وعاداتهم وسننهم الموروثة فتحل الوفاء في نفوسهم محل الغدر والأمانة محل الخيانة والبر مكان الجحود والرقة والرحمة مكان الغلظة والقسوة .

وأرادت أن تبين لهم الخير فيسلكوا إليه سبلهم وتدلهم على الشر فيتنكبوا طرقه وأن تبين كبائر الآثام فيجتنبوها ومحاسن الأعمال فيجدوا فيها .

كل ذلك وأكثر جداً من كل ذلك أتيح الإسلام في أقل من ربع قرن ، في ثلاثة وعشرين عاماً. أنفق النبي منها ثلاثة عشر عاماً بمكة لا يكاد ينشر الإسلام إلا قليلاً، وعشرة أعوام في المدينة أتمّ الله فيها على يده جل هذه المعجزة الكبرى. فخلق العرب خلقاً جديداً وجعل منها أمة بأدق معاني هذه الكلمة وأوسعها . أنشأها إنشاء جديداً وهيأها للنهوض بالمهمة الكبرى التي تتجاوز حدود جزيرتها وتحول وجهة التاريخ وتغير وجه الأرض في أقل من نصف قرن .

وكان النبي على هذا كله لا يدعي لنفسه معجزة إلا القرآن . وقد صدق النبي وبر في ذلك . فقد كان القرآن معجزة أي معجزة . كان معجزاً بألفاظه ومعانيه ونظمه . لم يستطع أحد من العرب أن يحاكيه أيسر المحاكاة وكان معجزاً بآثاره التي ظهرت في حياة النبي أشرنا إليها آنفاً وبآثاره التي ظهرت بعد وفاة النبي والتي لايزال كثير منها باقياً إلى الآن وإلى آخر الدهر . وصدق الله حين قال في سورة النور :

(وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ) .

وصدق الله كذلك حين قال في سورة الحشر : (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ . وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

فقد خشعت قلوب العرب للقرآن آخر الأمر ؛ نفذ إلى قلوبهم واستأثر بضمائرهم وفتح لهم آفاقاً كانت مغلقة أمامهم قبل أن يُتلى عليهم وحررهم بعد الرق ، رق النفوس للشهوات ؛ وطهرهم بعد الرجس ، رجس الخطايا والآثام ، ووحدهم بعد الفرقة وأعزهم بعد الذلة وملأ قلوبهم نوراً فانبثوا في الأرض ينشرون نور الله ما وجدوا إلى نشره سبيلاً .

وزاد إقبال العرب على الإسلام وإذعانهم له بعد الحجة التي حجها أبو بكر – رحمه الله – بالناس عن أمر النبي سنة تسع . ففي هذه الحجة أرسل النبي علياً ليلحق بأبي بكر ويتلو على الناس قرآناً أنزل فكان فصلاً بين عهدين : عهد كان الإسلام يقوى فيه شيئاً فشيئاً وكان للشرك مع ذلك بقاء في بعض قبائل العرب ، وعهد آخر خلصت فيه الجزيرة كلها للاسلام .

وهذا القرآن الذي فرق الله به بين هذين العهدين هو الآيات الكريمة الأولى من سورة التوبة ، فأعلن فيها براءة الله ورسوله من المشركين ، وحرم فيها أن يقرب المشركون البيت أو يلموا به أو يطوف به عريان .

وأمره فيها نبيه والمؤمنين معه أن يلغوا ما كان بينهم وبين المشركين من العرب من عهود الهدنة ؛ وألا يتموا من هذه العهود إلا ما كان بينهم وبين قوم لم يظهر منهم غدر ولا نقض للعهد فهؤلاء أمر الله أن يتم المؤمنين لهم عهدهم إلى مدته ثم لا يجددوا لهم عهداً آخر ، وأجل الناس أربعة أشهر يأمنون أثناءها . فإذا انقضت فعلى المسلمين أن يقتلوهم حيثما وجدوهم وأن يقعدوا لهم كل مرصد لأنهم أهل غدر لا يؤمن لهم . وأمر ألا يكف المؤمنون عن قتلهم وعداوتهم حتى يتوبوا من شركهم ويدخلوا في الإسلام كما دخلت كثرة العرب .

ومعنى ذلك أن الله حرم الشرك في جزيرة العرب وأمر النبي أن يقاتل المشركين من أهل الجزيرة حتى يثوبوا إلى الحق ويدخلوا فيما دخل فيه الناس . لم يأمر الله بذلك إلا لأنه علم أن هؤلاء المشركين إن أتيح لهم أن يظهروا على المسلمين بما في قلوبهم من الغدر والكيد وما يسلّط عليهم من الإغراء لم يرعوا فيهم إلاً ولا ذمة ولم يحفظوا عهداً ولا وفاء .

وهذه الآيات الكريمة هي قول الله عز وجل في أول سورة التوبة : (بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ ورَسُولِه إلى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ المُشْرِكِين . فَسِيحُوا في الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُر واعْلَمُوا أَنَّكمْ غَيرُ مُعْجِزِي الله وأَنَّ الله مُخْزِي الكافرين . وأذانٌ من اللهِ ورسُولِه إلى الناس يَوْمَ الحجِّ الأَكْبَر أنَّ الله بريءٌ منَ المُشْركينَ ورسولُه فإنْ تُبْتُمْ فهو خيْرٌ لكم . وإنْ تَوَلَّيْتُم فاعلَموا أنكم غيرُ مُعجِزي الله . وبشّر الذينَ كَفَروا بعذابٍ أليم . إلاَّ الذين عاهدتُم من المشركين ثمَّ لمْ يَنقُصوكُم شيئاً ولمْ يُظاهروا عليكم أحداً فأتِمُّوا إليهم عَهْدَهُم إلى مدَّتِهم إنَّ الله يُحبُّ المُتَّقِين فإذا انسلَخَ الأشهُر الحُرُم فاقتُلوا المُشْركينَ حيثُ وَجَدْتُمُوهم وخُذُوهم واحْصُرُوهم واقْعُدُوا لهم كُلَّ مَرْصَد. فإنْ تابوا وأقامُوا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاة فخَلُّوا سبيلَهم إنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيم . وإنْ أحدٌ منَ المُشركين أستجاركَ فأجِرْهُ حتّى يَسمَعَ كلامَ الله ثمَّ أبْلغهُ مَأمَنَهُ ذلك بأنَّهم قومٌ لا يَعلَمون . كيفَ يكونُ للمشركين عهدٌ عندَ اللهِ وعند رَسوله إلاَّ الذينَ عاهَدْتُمْ عندَ المَسجِد الحَرامِ فما استَقاموا لكُمْ فاستَقيموا لهم إنَّ الله يُحب المُتقين. كَيفَ وإنْ

يَظْهَرُوا عليكم لا يَرْقُبُوا فيكم إلاً ولا ذمةً يُرْضُونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساءَ ما كانوا يعملون . لا يَرْقُبُونَ في مؤمن إلاً ولا ذمةً وأولئك هُمُ المعتدون . فإنْ تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين وَنُفصّلُ الآيات لقوم يعلمون. وإنْ نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاءُ والله عليمٌ حكيم . أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجةً والله خبيرٌ بما تعملون . ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) .

ثم يشدد الله عز وجل في رد المشركين عن المسجد الحرام بعد ذلك العام الذي حج فيه أبو بكر بالناس فيقول في الآية الكريمة من السورة نفسها : (يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليمٌ حكيم) .

وكذلك حج النبي ﷺ حجة الوداع فلم يلق في الموسم مشركاً ولم ير عند البيت عرياناً . وألقى في هذه الحجة خطبته المشهورة التي توشك أن تكون وصيته إلى المسلمين والتي حرص فيها بعد كل أمر أو نهي على أن يردد جملته الخالدة : « ألا هل بلغت . اللهم اشهد » .

وقد أتم النبي رسالته كأكمل ما تتم الرسالات وأدى أمانته كأحسن ما تؤدى الأمانات .

وصدق الله حين أنزل على نبيه في الآية الكريمة من سورة المائدة أثناء حجة الوداع : (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم

الإسْلاَمَ ديناً) .

وصدق الله كذلك حين أنزل عليه بمنى في حجة الوداع هذه السورة الكريمة يبشره فيها بأن رسالته قد تمت وأن مهمته في الدنيا قد بلغت غايتها ويهيئه لما أعد له عنده من النعيم المقيم في أرفع الدرجات :

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً) .

وقد تحدث النبي ذات يوم على المنبر إلى أصحابه ، فقال – فيما روى الشيخان – : « إن عبداً قد خيره الله بين زهرة الدنيا وما عنده ، فاختار ما عند الله » فلم يفهم عنه من أصحابه إلا أبو بكر . فقال : بل نفديك بآبائنا وأمهاتنا . فعجب الناس لمقالة أبي بكر ولم يحققوا مغزاها إلا حين اختار الله رسوله للرفيق الأعلى .

ولم يلبث النبي بعد حديثـه ذاك أن أحس الوجع ، فكان يمرض في بيت عائشة رحمها الله ؛ وكان يخرج للصلاة كلما وجد خفة . فلما ثقل عليه المرض أمر أبا بكر أن يصلي بالناس .

وتوفي ﷺ في نفس الشهر الذي وصل فيه إلى المدينة مهاجراً في ربيع الأول لعشر سنين مضين منذ هجرته .

وقد ارتاب المسلمون حين نبئوا بوفاة النبي لم يصدقوا ذلك بل شكوا فيه وماج بعضهم في بعض . وكان عمر أشدهم شكاً حتى أنذر – يقول الرواة – من قال إن النبي قد مات . ولكن أبا بكر تلا عليهم الآية الكريمة من سورة آل عمران : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ) .

هنالك ثاب إلى المسلمين صوابهم فرجعوا إلى الحق وآمنوا لما لم يكن بد من أن يؤمنوا له وذكروا قول الله لنبيه : (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) .

- ١٩ -

ولم يكد النبي ﷺ يفارق أصحابه حتى ظهر بينهم خلاف أوشك أن يكون

عظيم الخطر على وحدتهم ، ذلك أنهم أحسوا الحاجة إلى من يخلف النبي في سياستهم وتدبير أمورهم .

فأما الأنصار فظنوا أن الأمر ينبغي أن يكون فيهم وأن شؤون الحكم يجب أن تصير إليهم لأنهم أصحاب المدينة وليس المهاجرون إلا ضيفاً عليهم طرءوا على المدينة منذ عشر سنين . وهم قد آووا النبي والذين هاجروا معه من قريش والذين هاجروا إليه بعد ذلك من قريش ومن سائر العرب . وهم قد خاضوا في سبيل النبي وفي سبيل الدين ما خاضوا من الحروب واحتملوا ما احتملوا من مشقة الجهاد . فهم أولى الناس بأن يكون منهم خليفة النبي وقد اجتمعوا بالفعل وأزمعوا أن يبايعوا بالخلافة رجلاً ، ورشحوا « سعد بن عبادة » زعيم الخزرج لهذا المنصب .

ولكن الأمر انتهى إلى زعماء المهاجرين فأسرع أبوبكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح إلى الأنصار ليعلموا علمهم وليصرفوهم عما أزمعوا . فكانت محاورة وشيء من جدال ثم عرضوا أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير فأبى ذلك أبو بكر وقال لهم : نحن الأمراء وأنتم الوزراء . واحتج عليهم بأن النبي من قريش فيجب أن يلي أمره بعده أولو قرابته . وروى لهم عن النبي أنه قال : « الأئمة من قريش » . فثاب الأنصار إلى سماحة نفوسهم وكرهوا أن يأخذوا الخلافة أجراً على ما أبلوا في ذات الله ورسوله من البلاء .

وأذعنوا آخر الأمر لما حدثهم به أبو بكر عن النبي من أن الأئمة من قريش . ثم اقترح عليهم عمر أن يبايعوا أبا بكر وأسرع هو إلى بيعته فتبعه الأنصار ولم يخالف عنهم إلا سعد بن عبادة لم يقتنع بقول أبي بكر ولا بإسراع القوم إلى بيعته بل اعتزل الأنصار والمهاجرين جميعاً وعاش في عزلته حتى قتل في الشام أصابه سهم لم يعرف من رماه به .

وتحدث الناس بعد ذلك بأن الجن هم الذين قتلوه وأضافوا إلى واحد من الجن بيتين من الشعر زعموا أنهم سمعوها ولم يروا قائلها :

قد قتلنا سيد الخزرج سعد بن عباده ورميناه بسهمين فلم نخطىء فؤاده

وبايع سائر المسلمين في المدينة أبا بكر واستقام له الأمر .

ولكن خلافاً آخر شجر . وكان أشد على أبي بكر من خلاف الأنصار ذاك ، وكان هذا الخلاف بينه وبين فاطمة . رحمها الله – بنت رسول الله ﷺ . جاءته تطلب إليه ميراثها من أبيها . فأبى عليها ذلك وقال لها : إنه سمع النبي ﷺ يقول : « نحن

معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » . ثم قال : إنه لن يخالف أبداً عن قول رسول الله .

فغضبت فاطمة وشاركها زوجها في غضبها وتأخرت من أجل ذلك بيعة « علي » رحمه الله لأبي بكر . على أن فاطمة – رحمها الله – لم تعمر بل توفيت بعد أبيها بستة أشهر . فأقبل « علي » فبايع كما بايع الناس .

ويقال إن بني هاشم كانوا يرون لأنفسهم الحق في خلافة النبي ﷺ . فهم رهطه الأدنون وهم أقرب إليه من تيم قوم أبي بكر ومن عدي قوم عمر ومن أمية قوم عثمان. ولكنهم رأوا إجماع الناس على أبي بكر كما رأوا إجماع الناس على عمر من بعده وعلى عثمان من بعد عمر فكرهوا أن يثيروا الفتنة أو أن يحدثوا في الإسلام حدثاً وأذعنوا لإجماع المسلمين .

ويقال كذلك إن النبي قال لبعض أصحابه في مرضه الذي توفي فيه : « إيتوني بصحيفة أكتب لكم ما لا تضلون بعده أبداً » . فاختلفوا وتنازعوا . يقول بعضهم : إن النبي قد اشتد عليه الوجع وعندنا كتاب الله . ويقول بعضهم الآخر : بل دعوا رسول الله يكتب . فلما أكثروا قال لهم النبي ﷺ : قوموا عني . قالوا : فكان ابن عباس يرى أن الرزية كل الرزية أنهم لم يخلوا بين رسول الله وبين ما أراد .

وأكاد أقطع بأن هذا الحديث – مهما يكن سنده – غير صحيح . فما كان للمسلمين أن يخالفوا عن أمر رسول الله . وما كان لرسول الله نفسه أن يخلي بينهم وبين هذا الخلاف وهو الذي لبث فيهم ثلاثة وعشرين عاماً يتلو عليهم القرآن ويعلمهم شرائع الدين ويأمرهم وينهاهم وينبئهم بخبر السماء . وأكبر الظن أن هذا الحديث وضع بأخرة حين تفرق المسلمون شيعاً وأحزاباً .

– ٢٠ –

ومهما يكن من شيء فقد تمت بيعة أبي بكر وصحت وإن كان المسلمون لم يتشاوروا فيها حتى كان عمر رحمه الله يقول : إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها .

ولكن أبا بكر واجـه خلافاً كاد شره أن يستطير ويصبح خطراً على الإسلام نفسه لولا أن الله عز وجل تأذن أنه هو الذي نزل الذكر وأنه حافظ له. فقال في سورة الحجر : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) . ولولا أن أبا بكر قد ثبت لهذا الخلاف أروع الثبات وصمم على حسمه تصميماً أذعن له المهاجرون والأنصار ومسلمة الفتح من قريش ، فقد انتفض العرب على أبي بكر انتفاضاً مختلفاً . قال كثير منهم : نقيم الصلاة ولا نؤتي الزكاة . رأوا أن الزكاة نوع من الإتاوة ولم يتعودوه بل كانوا يأنفون منه أشد الأنفة ويرون أنه ضرب من الذلة والخضوع . ولم يقبل منهم أبو بكر ذلك بل صمم على أن يؤدي الناس إليه ما كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ وقال : إن هؤلاء يفرقون بين الصلاة والزكاة مع أن الله لم يفرق بينهما بل ذكرهما معاً في القرآن مرات كثيرة . فهم يؤمنون ببعض القرآن ويكفرون ببعضه . وكان عمر قد قال له : كيف تقاتل العرب وهم يقولون لا إله إلا الله فقد قال النبي ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

كأن أبا بكر أراد أن قول لا إله إلا الله بطرف اللسان ليس إيماناً ولا إسلاماً وإنما يجب أن تقال باللسان ترجمة عما في القلب من الإيمان بالله والتصديق للنبي والائتمار بما أمر الله ورسوله به والانتهاء عما نهى الله ورسوله عنه ، وقد أمر الله ورسوله بإيتاء الزكاة فالنكول عن أدائها كفر والالتواء بها جحود.وليس للكفار الجاحدين إلاالقتال.

وقوم آخرون من العرب ظهر فيهم كذابون زعموا لأنفسهم النبوة وتلوا على قومهم كلاماً زعموا أنه وحي من الله .

ظهر الأسود العنسي في اليمن وظهر مسيلمة في بني حنيفة باليمامة وظهر طلحة في بني أسد وظهرت سجاح في أحياء من بني تميم وتبعهم خلق كثير من العرب الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم . وصدق الله حين قال في الآية الكريمة من سورة الحجرات :

(قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

ولم يشك أحد من المهاجرين والأنصار والذين استقاموا على الإسلام في أن قتال هؤلاء واجب لا منصرف عنه. والمهم أن أبا بكر نظر فإذا جزيرة العرب قد انتفضت

عليه إلا أقلها ، فلم ير بدًّا من أن يجاهد المرتدين كما كان النبي ﷺ يقاتل المشركين من قبل .

وقد جد أبو بكر في الحرب واستجاب له المسلمون استجابة صادقة فقاتلوا المرتدين عن إيمانهم وعلى بصائرهم صادقين مستبسلين لا يبخلون بأموالهم ولا بأنفسهم حتى قتل كثير من خيارهم ولا سيما في حرب مسيلمة . وأنزل الله نصره عليهم وعادت الجزيرة خالصة للاسلام واستطاع أبو بكر أن يجند من أصحابه ومن الذين عادوا إلى الإسلام بعد الردة تلك الجيوش التي رمى ببعضها العراق ورمى ببعضها الشام .

الكتابُ الثَّاني

- ١ -

يقول الله عز وجل في أول سورة الكهف : (الحَمْدُ للهِ الَّذي أنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الكِتابَ ولمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً . قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ ويُبَشِّرَ المُؤمِنينَ الَّذينَ يَعْمَلُونَ الصَّالحاتِ أنَّ لهمْ أجْراً حَسَناً . مَاكِثِينَ فيهِ أبَداً . ويُنْذِرَ الَّذينَ قالُوا اتَّخَذَ اللهُ ولَداً . ما لهم بِهِ مِنْ عِلمْ ولا لآبائِهِم كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ منْ أفْوَاهِهِمْ إنْ يَقُولُونَ إلا كَذِباً)

ويقول في سورة المدثر :

(يَاأيُّها المُدَّثِّر قُمْ فَأنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّر . وثِيابَكَ فطَهِّر . والرُّجْزَ فاهْجُر . ولا تَمْنُن تَسْتَكْثِر . ولِرَبِّكَ فاصْبِر) .

ثم يقول في سورة الأحزاب :

(يَاأيُّها النَّبي إنَّا أرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ومُبَشِّراً ونَذِيراً . وداعياً إلى الله بإذْنِهِ وسِراجاً مُنيراً . وبَشِّر المُؤمِنِينَ بأنَّ لهم منَ الله فَضْلاً كَبِيراً . ولا تُطِعِ الكافِرينَ والمُنافقينَ ودَعْ أذاهُم وتوكَّل عَلى الله وكَفَى بِاللهِ وكيلاً) .

ويقول في سورة الجمعة :

(هُوَ الَّذي بَعثَ في الأُمِّيِّينَ رَسُولاً منْهم يَتْلُو عَلَيهِم آياتِهِ ويُزكِّيهِم ويُعَلِّمُهمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وإنْ كَانُوا منْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِين . وآخَرِينَ مِنْهُم لمَّا يَلْحقوا بِهِم وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيم . ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤتِيه مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيم) .

فمن هذه الآيات وآيات أخرى كثيرة في القرآن الكريم نفهم أن الله أرسل رسوله لينذر الذين لا يؤمنون به بما أعد لهم من بأس شديد عنده ، ويبشر الذين يؤمنون به بما لهم عنده من أجر كريم خالدين فيه أبداً .

والله يفصل هذا البأس الشديد في القرآن حين يصف البعث وما يكون بعده من حساب عسير للكافرين به . وما يكون بعد هذا الحساب العسير من عذاب شديد متصل

لا انقطاع له .

والله يفصل كذلك في القرآن هذا الأجر الكريم الذي أعده للمؤمنين به حين يصف الجنة ونعيمها وخلود المؤمنين في هذا النعيم المقيم .

والنبي حين ينذر ويبشر يعلم أوسع العلم وأعمقه وأدقه ما ينذر بـه وما يبشر ، يعلمه من ربه من طريق الوحي حين ينزل عليه القرآن ليتلوه على الناس وحين يلهمه من العلم والحكمة ما يتحدث به إلى الناس حديث الواعظ المخوف وحديث المؤدب المعلم . فهو بشير ونذير ومعلم أيضاً .

وتعليمه نوعان : أحدهما : كلام أوحاه الله إليه وأمره أن يبلغ نصه للنـاس وأن يتلوه عليهم ليسمعوه أولاً ويفقهوه بعد ذلك ، وعليه أن يفسر لهم بالقول أو بالعمل ، أو بهما جميعاً ، ما قد يقصرون عن فهمه من هذا النص .

والثاني : علم ألهمه الله إياه ألقاه في قلبه لينتفع بـه هو أولاً وليعلم الناس منه ما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم جميعاً .

وقد أنفق النبي ثلاثة وعشرين عاماً منذ بعثه الله إلى أن اختاره لجواره ، أنفـق هاته السنين مبشراً ومنذراً ومعلماً لم يقصر في ذلك ولم يكف عنه يوماً ؛ فكان معلماً لا كالمعلمين ، كان تعليمه متصلاً نهاره كله وجزءاً غير قليل من ليله . كان يعلم الناس حين يلقاهم ويعلمهم بالأمر والنهي والتبشير والإنذار وبكل ما كان يقوله لهم ، وكان يعلمهم بسيرته فيهم وسيرته في غيرهم ، وبكل ما يـأتي من الأمر أو يدع . فهو لهم قدوة وهو لهم أسوة وعليهم أن ينظروا إليه وأن يعملوا مثل ما يعمل ويجتنبوا مثل ما يجتنب وأن يسمعوا منه ويطيعوا . وقد أمرهم الله في سورة الحشر أن يأخذوا كل ما يؤتيهم وأن يدعوا كل ما ينهاهم عنه : (ومَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) .

كذلك هو حين يبرز للناس وهو حـين يروح إلى أهله معلم أيضاً يقول فيحفظ عنه أزواجه،ويعمل فيحفظن عنه أيضاً ويصنعن من صنيعه كل ما ينبغي لهن .

ولأمر ما أخـذ المسلمون كثيراً من العلم عن أزواجه بعد وفاتـه ولا سيما عائشة وحفصة وأم سلمة . ثم هو معلم في السفر والحضر جميعاً لا يأتي شيئاً إلا وفي نفسه أن الناس سيصنعون صنيعه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

ومن أجل ذلك كان يرعى فيهم الرفق بهم والنصح لهم كان يطيـق من العبادة في الصلاة والصوم أكثر مما يطيقون فكان يستخفي ببعض عبادته حتى لا يراها النـاس

فيكلفوا أنفسهم فوق ما يطيقون .

ولم يكن له من حياة المعلم هذه بُدٌّ فالله يقول له : (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) .

فلا يسعه إلا أن يذعن لأمر الله . والله ينزل عليه من القرآن ما هو مجمل ويترك له تفصيله بما يلهمه من العلم . فهو يأمر بالصلاة والزكاة مثلاً ، ولكنه لا يبين كيف تكون الصلاة ولا كيف تكون الزكاة لا يفعل ذلك في القرآن وإنما يلهم نبيه من العلم ما يبين به للناس كيف يصلون وكيف يؤدون الزكاة في أموالهم .

والقرآن يذكر الركوع والسجود ولكنه لا يحدد الركوع والسجود في القرآن تحديداً دقيقاً فليس بُدٌّ للنبي من بيان ذلك كله بالعمل والقول جميعاً . فهو يقيم الصلاة للمسلمين ويأمرهم أن يصنعوا صنيعه وأن يقوموا حين يقوم ويركعوا ويسجدوا ويجلسوا حين يركع ويسجد ويجلس . وهو علمهم ما يقرءون في صلاتهم وما يقولون في السجود والركوع والجلوس . وقل مثل ذلك في مجملات القرآن كلها ، وهي كثيرة. فكان النبي إذن مفسراً للقرآن بقوله وعمله وكان منبئاً للناس بما يلقي الله في قلبه من العلم بما ينبغي لهم وما يجب عليهم وما يجب ان ينتهوا عنه .

ومن هنا نتبين أن السنة التي تثبت عن النبي ثبوتاً قاطعاً أو راجحاً هي الأصل الثاني من أصول الدين بعد القرآن الكريم .

فليس بد إذن من أن نقف وقفة عند كل واحد من هذين الأصلين .

- ٢ -

أما القرآن الكريم فهو المعجزة الكبرى التي آتاها الله رسوله الكريم ، آية على صدقه فيما يبلغ عن ربه .

والقول في إعجاز القرآن يكثر ويطول وتختلف وجوهه وتختلف فنونه أيضاً . فالقرآن كلام لم تسمع العرب مثله قبل أن يتلوه النبي . فهو في صورته الظاهرة ليس شعراً لأنه لم يجر في الأوزان والقوافي والخيال على ما جرى عليه الشعر . ثم هو لم يشارك الشعر الذي ألفه العرب في قليل أو كثير من موضوعاته ومعانيه. فهو لا يصف الأطلال والربوع ولا يصف الحنين إلى الأحبة ولا يصف الإبل في أسفارها الطوال والقصار ولا يفرق فيما كان الشعراء يفرقون فيه من تشبيهات الابل والصحراء والرياض

والأشجار والحيوان والصيد وأدواته لا يعرض لشيء من هذا كله . وليس فيه غزل ولا فخر ولا مدح ولا هجاء ولا رثاء ، وهو لا يصف الحرب وما يكون فيها من الكر والفر وهو لا يبالغ ولا يغلو ولا يعدو الحق. لا يعرض من هذا كله لشيء وإنما يتحدث إلى الناس عن أشياء لم يتحدث إليهم بها أحد من قبله ، يتحدث عن التوحيد فيحمده ويدعو إليه ، ويتحدث عن الشرك فيذمه وينهي عنه ، ويتحدث عن الله فيعظمه ويصف قدرته التي لاحد لها وعلمه الذي لاغاية له وإرادته التي لا ترد وخلقه للسموات والأرض وما فيهن من يسير الأشياء وخطيرها ومن صغير الأشياء وكبيرها . ويدعو الناس إلى عبادة الله والائتمار بما يأمر به والانتهاء عما ينهي عنه والتنزه عما لا يليق بكرام الناس . ثم يصف ما أعد الله من النعيم المقيم للذين يؤمنون به وحده ويخلصون له دينهم ويصف ما أدخر من العذاب الأليم الخالد للذين يشركون معه إلهاً آخر ويجعلون له أنداداً ويكفرون بآياته ويجحدون نعمه عليهم . وهو يبشر المؤمنين بما أعد لهم من نعيم وينذر الكافرين ما أدخر لهم من جحيم . وهو يصف قيام الساعة وما يكون فيه من هول يذهل المرضعة عما ترضع ويضطر ذات الحمل إلى أن تضع حملها ويجعل الناس كأنهم سكارى وما هم بسكارى وهو يعظ الناس ليطهر أنفسهم ويزكيها ويتلو عليهم من أنباء الغيب ما يثبت به قلوب المؤمنين ويخلع بـه قلوب الكافرين . فيقص عليهم أنباء الرسل الذين أرسلوا قبل محمد ﷺ وجاءوا قومهم بالآيات البينات. فأعرض عنهم أكثر قومهم ولم يؤمن منهم إلا قليل فعذب الذين أعرضوا وأخزاهم في الدنيا والآخرة ونجى الذين آمنوا وأرضاهم في الدنيا والآخرة أيضاً .

كل هذا وأكثر جداً من هذا يتحدث بـه القرآن إلى الناس على لسان رجل من قريش لم يتعلم قط كتابة ولا قراءة ولا حساباً ولم يجلس قط إلى أحبار اليهود ولا رهبان النصارى ولا أصحاب الفلسفة وإنما هو رجل عربي أمي كأكثر العرب لا يعلم من أمر الدنيا إلا مثل ما كان أوساط العرب يعلمون . وهو مع ذلك يجادل اليهود في التوراة ويجادل النصارى في الإنجيل ويصفهم بأنهم يكذبون على موسى ويقولون على المسيح غير الحق ويحرفون ما عندهم من التوراة والإنجيل . كل ذلك وهو لا يقرأ التوراة ولا الإنجيل وإنما ينبئه الله نبأ الحق بما في كليهما وهو لم يأت لنسخ التوراة ولا لنسخ الإنجيل وإنما جاء مصدقاً لما بين يديه منهما ومضيفاً إليهما ما أمره الله أن يضيف من العلم والدين . وهو يحاج المشركين في آلهتهم تلك التي كانوا يعبدونها ويجعلونها لله أنداداً ويتخذونها عنده شفعاء والتي لا تجيبهم إن دعوها ولا تسمح لهم إن تحدثوا

إليها ولا تنفعهم ولا تضرهم ولا تغني عنهم من الله شيئاً إن أراد بهم سوءاً ولا تمسك عنهم رحمة الله إن أراد بهم رحمة وإنما هي أشياء صنعوها بأيديهم أو صنعت لهم من قبل بأيدي الرجال ثم خلعوا عليها ما ليس لها من القوة والبأس والسلطان .

ثم هو يشرع لهم من الدين والشرائع ماينفعهم في الدنيا ويعصمهم من عذاب الآخرة إن استمسكوا به وأنفذوه على وجهه . فيشرع لهم في أمر الزواج والطلاق والميراث والوصية والبيع والشراء وغير ذلك مما تقوم عليه حياتهم الاجتماعية وحياتهم الفردية أيضاً . ثم هو يفرض عليهم من أنواع العبادة ما يطهر نفوسهم ويزكي قلوبهم ويحضر في ضمائرهم حب الله والإخلاص له وخوف الله والإشفاق منه . ويبين لهم ألا سبيل إلى أن يستخفوا من الله بكبيرة أو صغيرة فهو يسمع كل شيء ويرى كل شيء ويعلم كل شيء . وهو معهم حين يجتمعون وحين يخلو كل واحد منهم إلى نفسه وهو يعلم ما يثور في قلب الإنسان من عاطفة وما يضطرب فيه من هوى وما يخطر في ضميره من خير أو شر . بل هو يعلم أكثر من ذلك : يعلم كل ما كان وكل ما هو كائن وكل ما سيكون . وهو يحصي عليهم أعمالهم وكل ما تحدثهم به أنفسهم من الخير والشر ومن الفجور والبر ومن الطاعة والمعصية . وهو يسجل كل هذا في كتاب مدخر عنده . فيعرض على كل إنسان كتابه يوم الحساب ويجزيه عما سجل في هذا الكتاب من أعماله الظاهرة والباطنة إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً .

ثم ينبىء الناس في الدنيا بما تقول ألسنتهم وما تعمل جوارحهم وما تضمر نفوسهم. نجد هذا كله في القرآن الذي يتلوه هذا الرجل الأمي والذي أخذ في تلاوته فجاءة ذات يوم بعد أن بلغ الأربعين وأنفق ثلثي عمره في الدنيا يحيا كما يحيا غيره من قريش. فلا غرابة في أن يبهر قريشاً وسائر العرب هذا العلم الذي جاءه فجاءة . ولا غرابة في أن يعجزهم فهم هذا كله، فهم في حيرة من أمر هذا الرجل وما يتلو عليهم من الآيات.

يقولون إنه شاعر ثم يستبين لهم أنه لا ينشدهم شعراً . ويقولون إنه كاهن ثم يتبين لهم أنه لا يسجع لهم سجع الكهان . ويقولون إنه ساحر ثم يتبين لهم أنه ليس من السحر في شيء . وإنما هو رجل مثلهم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً يسعى في الأرض كما يسعون ويكسب قوته كما يكسبون أقواتهم ويصارحهم بأنه لا يعلم من أمر الغيب إلا ما يعلمه الله حين يوحي إليه القرآن . فيريحون أنفسهم كما يريح الباحث الجد نفسه بعد الكد والعناء اللذين لا يغنيان عنه شيئاً فيقولون : إنه مجنون . ولكن هذا لا يريحهم فهم يقولون له ويسمعون منه ويرقبونه مصبحين وممسين فلا ينكرون منه شيئاً

إلا هذا الكلام الذي يتلوه عليهم . فتخشع له قلوب فريق منهم ويعرض عنه أكثرهم . فلا يجدون لهم مخرجاً إلا أن يجاهروه بالعداء وينصبوا له حرباً منكرة. ولكن القرآن ينزل عليه وهو مضطر إلى أن يتلوه عليهم .

قد أعياهم أمره كل الإعياء أرادوا أن يأخذوه باللين فلم يفلحوا ، وأرادوا أن يأخذوه بالشدة فلم يفلحوا . وأكثر من هذا أنه يتلو عليهم من القرآن ما يتحداهم ويسألهم أن يأتوا بمثله وهم يحاولون فلا يستطيعون ولكنهم مصرون عن العناد فيطالبونه بالآيات العظام يسألونه أن يغني نفسه من فقر فينشيء لنفسه جنة من نخيل وعنب ويفجر فيها الأنهار والينابيع ويسألونه أن يأتيهم بالله والملائكة ويسألونه أن يسقط السماء عليهم كسفاً ويسألونه أن يرقى في السماء ويأتيهم منها بكتاب يقرءونه ، ويسألونه أن يتكر لنفسه بيتاً من زخرف أو أن ينزل عليهم من السماء كنزاً ، فلا يسمعون منه إلا رداً واحداً وهو أنه لا يملك أن يأتيهم من هذه الآيات بشيء لأنه بشر مثلهم لا يمتاز منهم إلا بأن الله اختصه برسالته وأرسله إلى الناس بشيراً ونذيراً .

فهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن لا سبيل إلى الجدال فيه . فقد جادل فيه العرب من قبل فلم يفلحوا ولم يبلغوا شيئاً . وإذا عجز العرب الذين عاصروه عن أن يأتوا بقليل مثل ما جاء به فالذين جاءوا بعدهم أعجز وغيرهم من الأمم أشد عجزاً .

ولكن للقرآن وجهاً آخر من وجوه الإعجاز لم يستطع العرب أن يحاكوه أيام النبي ولا بعده ، ذلك هو نظم القرآن أي أسلوبه في أداء المعاني التي أراد الله أن تؤدى إلى الناس . لم يؤد إليهم هذه المعاني شعراً كما قدمنا ولم يؤدها إليهم نثراً أيضاً وإنما أداها على مذهب مقصور عليه وفي أسلوب خاص به لم يسبق إليه ولم يلحق فيه . ليس شعراً لأنه لا يتقيد بأوزان الشعر وقوافيه . وليس نثراً لأنه لا يطلق إطلاق النثر ولا يقيد بهذه القيود التي عرفها الكتاب في الإسلام وإنما هو آيات مفصلة لها مزاجها الخاص في الاتصال والانفصال وفي الطول والقصر وفيما يظهر من الائتلاف والاختلاف ، تتلو بعض سوره فإذا أنت مضطر في تلاوتها إلى الأناة والتمهل لأنها فصلت في ريث ومهل لأداء معاني تحتاج إلى البسط والريث . كالتشريع مثلاً ووصف ما كان يثار بين المسلمين والمشركين من الحروب والمواقع . وتتلو بعض سوره الأخرى فإذا أنت مضطر إلى شيء من السرع لأنها تؤدي معاني يحتاج أداؤها إلى القوة والعنف ، قد فصلت آياتها قصاراً ملتئمة الفواصل تقرؤها فكأنك تنحدر من عل . وذلك حين يخوف الله عباده ويشتد في تخويفهم فيأخذهم من جميع أقطارهم ويقطع عليهم طريق الجدال والحجاج .

وربما يقص من أنباء الرسل فيمضي القصص في هدوء ومهل لأنه يتجه إلى إثارة التفكير والاعتبار والتروية فيما جرى على الأمم من قبل والحذر من أن يجري عليهم مثله .

ثم يقص في سورة أخرى نفس الأنباء فتقصر الآيات وتسرع وتتسق الفواصل وتنسجم وتتكرر عبارات بعينها في آخر كل قصة لأنه يتجه إلى الارهاب والاثارة والإحاطة بالسامعين والقارئين وإعجالهم عن التفكر والتدبر كأنما أخذتهم من كل مكان ريح عاصفة لا يجدون منها مهرباً ولا يرون لأنفسهم عنها مصرفاً فهي تصب عليهم العبر والعظات والمثلات صبّاً أو كأنهم يمطرون من السماء صخوراً متتابعة فهم لا يملكون إلا أن يذعنوا لما يصب عليهم لا يجدون من الوقت ولا من القوة ما يتيح لهم رجع الجواب أو الجدال في بعض ما يصب عليهم . وإنما هي الآيات تتابع قصاراً أشد القصر ملسقة أروع الاتساق والعبر القاصمة تستنبط منها في سرع سريع أيضاً . وهم لا يكادون يفرغون من قصة حتى تتبعها قصة أخرى ، تأتي في إثرها في سرعة خاطفة وقوة مذهلة .

واقرأ إن شئت سورتين كسورة الشعراء وسورة القصص فستجد السرعة كل السرعة والقوة كل القوة في السورة الأولى ، وستجد الأناة والمهل في السورة الثانية ولكنك ستجد الروعة في السورتين جميعاً تروع أولاهما بما اختصت به من هذه السرعة وتروع الأخرى بما امتازت به من الأناة ، وذلك في القرآن كثير .

وسواء قرأت السور السريعة أو السور المستأنية فسترى من جمال اللفظ وروعة الأسلوب واتساق النظام ما يسحرك ويبهرك ويملك عليك أمرك كله . فإذا أنت خاشع لما تسمع أو تقرأ معجب به مستزيد منه حتى حين يستأثر بك العناد وتتكلف ما تتكلف من إظهار الإصرار والاستكبار والإعراض والإباء .

وأخص مزايا القرآن أن الذين يقرءونه أو يسمعونه دون أن يؤمنوا يكذبون على أنفسهم ، فقلوبهم خاشعة وأذواقهم راضية وعقولهم هي المعارضة المكذبة فهم حين يقرءونه أو يسمعونه يناقضون أنفسهم يظهرون الإباء ويضمرون الاستجابة قد اختلفت قلوبهم وألسنتهم ووجوههم فقلوبهم تذعن وألسنتهم تنكر ووجوههم تعرض إلا أن يطبع الله على قلوبهم ويطمس على عقولهم ويجعل في آذانهم وقرا .

ووجه آخر من وجوه إعجاز القرآن وهو هذا الأثر الباقي الذي يتركه في قلوب الناس وعقولهم وأذواقهم على تتابع القرون واختلاف الأجيال .

فالعربي القديم من أهل الفصاحة واللسن والبراعة في تصريف القول قد سمع القرآن فراعه منه ما راعه واستجاب له هذه الاستجابة التي يعرفها التاريخ ، ولكن أجيالاً أخرى لا تحكم ولا تصرف القول ولا تذوق روعة البيان قد جاءت بعد أولئك القدماء من العرب فسمعت القرآن وقرأته ، فإذا هو يستأثر بعقولها وقلوبها وإذا هي لا تقرؤه أو تسمعه إلا خشعت له واستيقنت أنه كلام لا كالكلام بل له شأن آخر يختلف أشد الاختلاف عما يكتبه الناثرون وينظمه الشعراء ويقوله الخطباء . وأغرب من ذلك أن أمماً أخرى ليس بينها وبين العرب قد قرأت القرآن وسمعته في القرون المتطاولة والأجيال المتعاقبة فدانت له وآمنت به واستحبت قراءته والاستماع له على كل شيء غيره يقرأ ويسمع أو يمتع الأسماع والقلوب والعقول معاً .

ونحن نعلم أن أروع البيان وأبرعه وأعلاه درجة في الحسن إنما يروع من يقرؤه أو يسمعه من أصحاب اللغة التي أنشىء فيها . فإذا تجاوزهم إلى غيرهم من الأمم فقد كثيراً من روعته ولا كذلك القرآن حين يقرؤه أو يسمعه من لم ينشأ تنشيئاً عربياً بل هو يحتفظ بروعته على اختلاف الأزمنة والأمكنة وأجيال الناس .

ولست أذكر هنا تأثير القرآن في تغيير التاريخ وتحويله أمة جاهلة غافلة أمية شديدة التنافر والتدابر يضرب بعضها رقاب بعض ، وينهب بعضها أموال بعض . فإذا هي تصبح أمة قد خلقت خلقاً جديداً فألفت النظام والأمن والعدل وطمحت إلى الرقي وظفرت منه بحظ موفور ونشرت هذه الخصال كلها في أمم كثيرة في الأرض ثم مزجتها وجعلت منها أمة واحدة تتعاون على الخير والبر وترقية الحضارة — لا أذكر هذا كله ولا أطيل فيه لأنه أظهر من أن يحتاج إلى ذلك . والقرآن وحده مصدر هذا كله فلولاه لظلت الأمة العربية على جهلها وغلظتها وانقسامها ولطمع فيها غيرها من الأمم المتحضرة فاستذلها واستغلها وبسط عليها سلطانه

وقد ألفت كتب قديمة وحديثة في إعجاز القرآن ولكنها على كثرتها لم تقل في إعجازه كل ما يمكن أن يقال لأنه أروع روعة وأبهر جمالاً من أن يستنفد فيه القول .

وقد نزل القرآن منجماً ولم يوح إلى النبي جملة وإنما كان ينزل بين وقت ووقت يتتابع أحياناً ويبطىء أحياناً أخرى . وقد تساءل المشركون من قريش لماذا لم ينزل القرآن جملة ؟ ولو قد أنزل عليه مرة واحدة لما أطاقوه . وإنما أراد الله أن ينزله منجماً ليتابع به حياة النبي والعرب وما اختلفا عليهم من الأطوار في هذا الأمد الذي قضاه النبي بينهم مبشراً ومنذراً .

وكان ما ينزل منه يكتب في إثر تنزيله . ثم جمع القرآن أيام أبي بكر ثم نسخ في المصاحف وأرسل إلى الأمصار أيام عثمان . وجعل المسلمون يروونه سماعاً ويقرءونه في المصاحف حتى وصل إلينا كاملاً كما هو الآن . فهو متواتر لا يجد الشك إلى شيء منه سبيلاً لم يختلف فيه المسلمون وإنما تناقلوه مجمعين عليه . وتناقلوه مسموعاً ومكتوباً فجملته وتفصيله فوق الشك وفوق الجدال .

وقد تختلف قراءة المسلمين لبعض ألفاظه مدّاً وقصراً وإمالة وإطلاقاً ولكن سبعاً من هذه القراءات وصلت إلينا متواترة وأجمعت عليها الأمة ولا بأس منها على النص لا في لفظه ولا في معناه .

وقد رتب القرآن – كما هو بين أيدينا – سوراً منذ أيام النبي وقدمت في المصحف طوال السور على أوساطها ، وأوساطها على قصارها . ولم يراع في هذا الترتيب نزول السور والآيات في مكة أو في المدينة ولا تاريخ نزول الآيات وإنما وضعت الآيات حيث كان النبي يأمر أن توضع من السور .

ونحن نجد البقرة وآل عمران والنساء والمائدة في أول المصحف بعد الفاتحة مع أنها مدنية . ونجد الأنفال والتوبة – وهما مدنيتان – بين سور مكية وربما وجدنا في السورة المدنية آيات أنزلت بمكة وفي السّور المكية آيات أنزلت بالمدينة . ذلك أن هذا الترتيب حسب مكان النزول وزمانه لم يراع . وإنما القرآن واحد جاء كله من عند الله وتلاه النبي على المسلمين كله كما أنزل .

وقد بين الرواة الأولون والعلماء من بعدهم أماكن نزول الآيات والسور وتاريخها وحاول بعض المستشرقين أن يرتب القرآن حسب تاريخ نزول السور ، فلم يصنعوا شيئاً . وترجم القرآن إلى بعض اللغات الأجنبية أحياناً على هذا الترتيب التاريخي فكان هذا النحو من الترجمة والترتيب عبثاً لا يدل على شيء وإنما ينأى عما ألف المسلمون من الترتيب المعروف في المصحف .

وما أكثر العلم الذي استنبطه المسلمون من القرآن . فهم استنبطوا منه شرائع الدين وجزءاً غير قليل من تاريخ المسلمين بمكة والمدينة وهم جعلوا من تفسير ألفاظه وتوضيح معانيه علماً مستقلاً هو علم التفسير وهم درسوا لهجات القراء كما تظهر في القراءات المختلفة ، وجدوا في توجيه هذه القراءات توجيهاً نحوياً . وهم استخرجوا علم تلاوة القرآن كما سمع من القراء الأولين ونظموا قواعد المد والقصر واللغة وإخراج الحروف لأحسب القراءات المختلفة . وهم اعتمدوا عليه اعتماداً شديداً في تسجيل اللغة العربية في المعجمات

ووضع الأصول التي يقوم عليها النحو والصرف . وهم اعتبروه مثلاً أعلى لروعة البيان، وعسى أن يكونوا قد اعتمدوا عليه أشد الاعتماد فيما وضعوا من علوم البلاغة ولا سيما البيان والمعاني ، إلى آخر العلوم الكثيرة التي استنبطت منه ، وألفت فيها وما زالت تؤلف فيها كتب لا تحصى .

ومع ان علم الكلام قد اعتمد على الفلسفة ، والفلسفة اليونانية خاصة ، فإنه يعتمد اعتماداً شديداً على القرآن في قسم السمعيات من أقسامه وفي أبوابه النظرية .

والمتجنبون من المتكلمين للتأويل والاغراق فيه قد اعتمدوا على القرآن والسنة وحدهما في العقائد الإسلامية ، واتخذوا الفلسفة خادماً له يدافعون بها عن نصوصه ويخصمون بها المؤولين والمتكلفين ويردون بها على الذين قصروا جهدهم على الفلسفة الخالصة ولم يعرضوا للنصوص وإنما اعتمدوا في إثبات الله ووجوده على النظر وحده يذهبون في ذلك مذهب القدماء من فلاسفة اليونان .

وربما أثارت العناية بالقرآن بعض الخصومات بين المسلمين . كالذي كان حين ذهب المعتزلة إلى أن القرآن مخلوق . وتابعهم على ذلك بعض الخلفاء من بني العباس ، فأثاروا بين الناس شراً عظيماً وامتحنوا خيار العلماء بألوان من البلاء شداد .

على أن هذه الخصومات الخطيرة لم تلبث أن صارت إلى ما ينبغي أن تصير إليه الخصومات من الجدل الخالص بين العلماء ، وذلك حين انصرفت السياسة لما يسرت له ، ولم تدخل في شؤون ما يكون بين العلماء من اتفاق واختلاف .

وما أكثر ما توارثت الإنسانية من آيات الأدب وروائع البيان في اللغات المختلفة منذ العصور القديمة . لكنا لا نعرف شيئاً من هذا التراث عني به الناس على نحو ما عني الناس بالقرآن . فهم يقرءون روائع البيان هذه ويشرحونها ، ويكثرون البحث والدوران حولها ، ولكن هذا كله لا يتجاوز الخاصة الذين يقفون أنفسهم على هذا النحو من الدرس .

فأما القرآن فالعناية به لا تشبهها عناية . فليس من المسلمين على كثرتهم واختلاف أجناسهم وتعاقب أجيالهم من لا يحفظ من القرآن قليلاً أو كثيراً لأن أداء الصلاة لا يتم ولا يستقيم إلا بقراءة شيء من القرآن فيها .

فليس بد للمسلم من أن يحفظ منه ما يؤدي به صلاته . وما نعرف أحداً يحفظ أثراً من الآثار البيانية عن ظهر قلب كما يحفظ كثير من المسلمين القرآن ، يحفظه كثير منهم حفظاً يصاحبه فهم النصوص ويحفظه أكثرهم حفظاً دون أن يفهموه فهماً واضحاً

أولئك وهؤلاء يرون حفظه تعبداً وقربى إلى الله . ومـا أكثر المسلمين الذين يحفظون القرآن ليتخذوا تلاوته مهنة يكسبون بها قوتهم . ولولا أن المسلمين جميعاً يحرصون على أن يسمعوا القرآن تتلى عليهم آياته في كل يوم وفي بعض الظروف الخاصة لما وُجدت هذه الصناعة ولما نفقت سوقها ولما كثر أولئك الذين يدخلون بالقرآن كثيراً من البيوت يصبحون الناس بآيات منه ويمسونهم . ولما كثر المصوتون به أولئـك الذين يجتمع لهم الناس ليسمعوهم ويعجبوا بأصواتهم وتلاواتهم في ظروف الحزن والفرح .

وجاء اختراع الإذاعة فكثرت إذاعة القرآن يصوت به أصحاب الأصوات الحسان في البلاد الإسلامية وفي البلاد الأجنبية التي توجه الإذاعـة إلى المسلمين لأسباب سياسية وغير سياسية .

فالقرآن يتلى في الإذاعات الأوروبية والأمريكية وهو يتلى على أنه إمتاع المستمعين بحسن الأصوات . ولكن كثيراً من المستمعين يسمعونه لنفسه أولاً وللأصوات التي تتلوه ثانياً وما يكون فيها من التطريب . وقد تذاع بعض روائع البيان في اللغات الحيـة ولكنها لا تذاع في نظام واضطراد كما يذاع القرآن .

وجملة القول أن القرآن قوام لحياة المسلمين يرضون به ربهم حين يأتون ما أمر به ويجتنبون ما نهى عنه وحين يقيمون صلاتهم مجتمعين أو متفرقين يقرءونه أو يسمعونه متعبدين بقراءته أو سماعه وحين يستنبطون منه العلم ويلتمسون فيه الروعة والجمال ويستمتعون بقراءته أو سماعه بالأصوات العذاب .

وليس في التراث الإنساني كله شيء يشبه القرآن في تقويم الألسنة العربيـة حين تلتوي باللهجات العامية المختلفة ، والأجنبية حين تلتوي بلغاتها المتباينة ، فالذين يحفظون القرآن في الصبا ، ويكثرون قراءته ويجودونها أصح الناس نطقاً بالعربية وأقلهم تخليطاً فيها . ومن أجل ذلك كانت الأجيال السابقة إلى عهد قريب تأخذ الصبية حين يتعلمون الكتابة والقراءة بحفظ القرآن كله أو بعضه وتجويد قراءته ، يرون في ذلك محافظة على الدين وتقويمـاً لألسنة الصبية والشباب وكان الذين يحفظون القرآن أو شيئاً منه أجود نطقاً بالعربية حين يتكلمون ، وأجدر أن يفقهوا دقائق اللغة حين يتعلمونها . وقد أهمل حفظ القرآن وتمرين الصبية على قراءته وتجويده في المدارس الحديثة حينـاً ، فالتوت ألسنة الشباب وفسد نطقهم وضاقوا بدروس اللغة في مدارسهم ثم أعرضوا عنها بعـد الخروج من المدارس ثم مال كثير منهم إلى العامية فآثروها على الفصحى وحاولوا أن يجعلوها لغة الكتابة فلم تستقم لهم . ولأمر ما عاد القائمون على شؤون التعليم فراجعوا

مناهج المدارس وبرامجها وجعلوا لقراءة القرآن وحفظه فيها مكاناً مرموقاً .

والقرآن بعد هذا كله هو الذي حفظ اللغة العربية أن تذوب في اللغات الأجنبية التي تغلبت على اللغة العربية بحكم السياسة في عصور كثيرة وظروف مختلفة . فقد تفرقت كلمة المسلمين في السياسة وانحلت الخلافة العربية القديمة وخضع العرب لاستعمار الأعاجم . حكمهم الفرس في دار الخلافة نفسها أولاً وحكمهم الترك بعد ذلك قروناً متصلة وجاء العصر الحديث فخضع العرب لسلطان الأجنبي الأوربي يقهرهم مرة بالاستعمار والحكم المباشر لهم ويقهرهم مرة أخرى بالتفوق في الحضارة المادية والمعنوية جميعاً ويضطرهم إلى أن يتعلموا اللغات الأوربية إرضاء لحكامهم من الاوربيين والتماساً لما في هذه اللغات من علم وأدب وفلسفة وفن . وكان هذا كله جديراً أن يمحق اللغة العربية محقاً ويذهب شخصية الشعوب العربية ولكن القرآن عصم هذه اللغة من الضياع وحال بين الخطوب الجسام وبين التأثير فيها . حرص العرب على القرآن لأنه يحفظ عليهم دينهم ولأنه قوام حياتهم فقرأه عامتهم وخاصتهم وحفظوا منه القليل والكثير ودرسه علماؤهم في المساجد والمدارس واختلف إليهم ألوف كثيرة من الطلاب على تباعد الأمكنة والأزمنة واضطروا من أجل فهم القرآن ودرسه في تعمق أن يدرسوا اللغة التي أنزل بها.

وأكثر من ذلك أن بعض الأمم الإسلامية التي خضعت لسلطان العرب في وقت مضى طوت قلوبها على بغض العرب والعروبة وآذتهم حين استطاعت إيذاء شديداً ولكنها على رغمها احتفظت بالقرآن لمكان الإسلام منها او لمكانها من الإسلام فدرست القرآن ودرست لغته العربية .

وإذا كانت هناك الآن وحدة إسلامية عامة أو شيء يشبه هذه الوحدة فبفضل القرآن وجدت وبفضل القرآن ستبقى مهما تختلف الظروف وتدلهم الخطوب . واذا كانت هناك وحدة يحاول العرب أن يعودوا إليها ويقيموا عليها أمرهم في الحياة الحديثة كما قامت عليها حياتهم القديمة . فالقرآن هو أساس هذه الوحدة الجديدة كما كان أساساً للوحدة القديمة .

وليقرأ العرب إن شاءوا قول الله عز وجل في الآية الكريمة من سورة آل عمران:

(واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جميعاً ولا تفرَّقوا واذكُروا نِعْمةَ اللهِ عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّفَ بين قُلوبِكم فأصبحتم بنعْمَتِهِ إخواناً وكنتُم على شَفا حُفرَةٍ من النار فأنقذَكم منها كذلك يُبيِّن الله لكم آياته لعلَّكم تهتدون) .

فهذه الآية الكريمة التي أنزلت وتلاها النبي صلى الله عليه وسلم على قوم من العرب

كانوا يخرجون من جاهليتهم ويدخلون في الإسلام فهم حديثو عهد بالكفر وحديثو عهد بالعصبية القديمة وحديثو عهد بتفرق القبائل واختصامها واحترابها لأيسر الأمور وأهونها شأناً - هذه الآية الكريمة ما زالت قائمة بعد قريب من أربعة عشر قرناً وستظل قائمة . وهذا الأمر للمسلمين بأن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا لم ينقض بانقضاء عهد الخروج من الجاهلية والدخول في الإسلام وإنما هو قائم دائماً ما دام في الأرض مسلمون . فمثل هذا الأمر في القرآن لا يخص قوماً بأعينهم ولا عهداً بعينه ولا مكاناً بعينه ، وانما هو أمر شامل عام واجب الاحترام في كل زمان وفي كل مكان . والعرب أجدر الناس أن يفهموه وينفذوه فهو أنزل فيهم وأنزل في لغتهم واتجه إليهم أول ما أنزل .

ولو مضينا نعدد آثار القرآن الباقية في المسلمين عامة وفي العرب خاصة لما قضينا الحديث ولا فرغنا . فحسبنا ما أشرنا اليه منها على قلته .

ولنعد إلى نص القرآن فنقف عند بعض سوره ونحاول - إن أتيحت لنا المحاولة - أن نبين بعض المظاهر المختلفة لما امتاز به القرآن من روعة البيان . وما اختص به من هذه الملاءمة بين المعاني والألفاظ والأساليب . وقد أشرنا في هذا الفصل الى ما يكون من اختلاف بين بعض السور في اداء المعاني الواحدة او المتقاربة أشد التقارب بالآيات الطوال المبسوطة حيناً وبالآيات الخاطفة حيناً آخر .

فلنقرأ معاً قصة نوح وقومه وما جرى عليهم في الآيات الكريمة من سورة هود فسنرى هذه القصة قد فصلت تفصيلاً كاملا في غير تزيد ولا اسراف وأديت معانيها في آيات ليست بالطوال ولا بالقصار ولكنها تؤدي المعاني في دعة وهدوء ؛ يكون فيها الإطناب حين يحتاج المقام إلى الإطناب ، ويكون فيها الإيجاز حين يكون الايجاز آخذ للقلب وأدل على ما أريدت الدلالة عليه من الهول الذي يصوره الايجاز أكثر مما يصوره الإطناب ومن الأمر الذي يصدر فينفذ إثر صدوره في غير تردد أو إبطاء . وانظر إلى أول القصة كيف أدى فيه الحوار أداء يسيراً يصور ما يكون بين رجل ينذر قومه وقومه ينكرون عليه ويجادلونه ، ثم يشتدون في الإنكار وينتهون إلى إنذاره كما كان ينذرهم . واقرأ هذه الآيات في أول القصة : (ولقدْ أرسلْنا نُوحاً إلى قومه إني لكم نَذير مُبين . أن لا تَعبُدوا إلا الله إنّي أخاف عَليكم عذابَ يوم أليم) .

فانظر إلى نوح كيف أدى رسالته في إيجاز فأنبأ قومه بأنه نذير لهم في الآية الأولى

وأظهر الرفق بهم والإشفاق عليهم فدعاهم إلى أن يعبـدوا الله لأنه يخاف عليهم عذاب يوم أليم في الآية الثانية :

(فقال المَلأُ الذين كَفَروا من قومه مــا نَراك إلاّ بَشَراً مثْلنا وما نَراك اتَّبَعك إلا الـَّذين هم أَرَاذلُنا بادي الرأي وما نَرَى لكم علينا من فَضْل بَلْ نَظنُّكم كاذبين) .

ورد عليه الملأ من قومه فأنكروا دعوتــه لهم وأنبئوه بأنهم لا يرونه إلا بشراً مثلهم . لا يمتاز منهم بشيء فكثير عليه أن يزعم لنفسه التحدث عن الله والدعوة اليه والإنذار لهم باسمه . ثم أضافوا إلى ذلــك بأنهم لا يستطيعون أن يتبعوه لأن الذين اتبعوه هم أراذلهم وأهونهم شأنــاً ، وهم أكبر في أنفسهم من أن يؤمنوا بما آمن به الأرذلون . أعلنوا إليه أنهم يكذبونه ويكذبون من اتبعه .

وانظر كيف رد عليهم نوح في الآيات الثلاث التاليـة ، فسألهم في الأولى : ماذا يصنع إذا كان الله قد آتاه بينة من عنده وآتاه رحمة منه ، فلم يعقلوها ، وبين لهم أنه لا يستطيع أن يلزمهم رحمة الله وهم كارهون لها . فالإيمان لا يكون بالإكراه وإنما يكون باستجابة القلب ورضى الضمير . وأنبأهم في الآية التي تليها بأنه لا يسألهم مــالا جزاء على دعوته لهم إلى الحق وإنما أجره على الله ، فليس لهم أن يعتلوا عليه ولا أن يشفقوا من دعوته على أموالهم .

وجادلهم في الذين اتبعوه فقال إنه لا يستطيع أن يطردهم لأن ذلك ليس إليه وإنما هو إلى الله الذي يعلم دخائل نفوسهم وسرائر ضمائرهم . وأفهمهم بأنهم إنما يستجيبون لحميتهم وكبريائهم حين يعتلون عليه بازدراء الذين آمنوا معه . ثم أنبأهم في الآية التالية بأنهم لا يستطيعون نصره ولا يستطيع غيرهم نصره من الله إن طرد الذين آمنوا معه لأنهم ليسوا من الطبقة الممتازة .

ثم تبرأ من كل الغرور فأنبأهم بأنه لا يزعم لنفسه السيطرة على خزائن الله ولا علـم الغيب ولا أنه ملك وإنما هو رجــل مثلهم ولا يستطيع أن يزعم أن الذين اتبعوه لن يؤتيهم الله خيراً لأن الممتازين من قومه يزدرونهم :

(قال يا قَوْمِ أرأيتُم إنْ كُنْتُ على بَيِّنة من ربِّي وآتاني رَحْمَة منْ عِنْــده فعُمِّيَت عليكم أنُلْزِمكموها وأنـتم لها كارهُون . ويا قَوْم لا أسألكم عليه مالاً إنْ أجريَ إلا على الله وما أنا بطَـارد الذين آمنُوا إنهم ملاقو ربِّهم ولكني أراكم قوماً تَجْهلون . ويا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرني من الله إنْ طَردتُهم أفلا تَذكرون. ولا أقولُ

لكُمْ عنْدي خزائن الله ولا أعلَمُ الغَيب ولا أقول إنّي ملك ولا أقـول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم اللهُ خيراً الله أعلمُ بما في أنفُسهم إنّي إذاً لَمنَ الظّالمين) .

وقد ضاق به قومه بعد هذا الحوار فأنبئوه بأنه قد جادلهم فأكثر وأطال، وسألوه إن كان صادقاً أن يأتيهم بمـا خوفهم منه . فرد عليهم بأن الله وحده قادر على أن يأتيهم به إن شاء وأنهـم أهون من أن يكونوا معجزين لله . واستيأس منهم أو كاد فقال لهم : إن نصحه لن ينفعهم إن كان الله قد كتب عليهم الغواية وهو ربهـم وهم صائرون إليه آخر الأمر :

(قالوا يا نُوح قَدْ جادَلْتَنَا فأكثَرْتَ جِدالَنا فأتنا بمَا تَعدُنا إنْ كُنتَ منَ الصّادقين . قالَ إنّما يَأتيكم به اللهُ إن شَاءَ وما أنتُم بمُعجِزين . ولا يَنفَعُكم نُصْحي إن أردتُ أن أنصح لكم إنْ كان الله يُريـد أن يُغْويكم هـو ربُّكم وإليه تُرْجعون) .

وهنا تعترض آية ليست من القصة ولكنها تمت إليها بسبب كأن المشركين من قريش قد ارتابوا حين تليت عليهم هذه الآيات في صدق النبي وفي أن ما يتلوه عليهم قـد أتاه من عند الله فأمره الله أن يقول لهم : لا عليكم إن كنت مفترياً فعلي وحدي تبعة مـا أفترى . وأنا على كل حال بريء من جرائمكم :

(أم يقُولون افْتَراه قُل إنِ افتَريتُهُ فعليّ إجْرامي وأنا بريءٌ ممّا تُجْرَمون)

وينبىء الله نوحاً بما يُشعره في وضوح بأنه لم يعجل حين استيأس من قومـه ، فهم لن يثوبوا إليه ولن يقبلوا منه دعوته ، ويعزيه الله عن هذا الإعراض ، فيقول :

(وَأوحِيَ إلى نُوحٍ أنّهُ لَنْ يُؤمنَ منْ قَوْمِكَ إلا مَنْ قَدْ آمن . فَـلا تبْتَئِسْ بما كانُوا يَفعَلون) .

ثم يأمره الله أن يتهيأ لما كتب له من النجاة هو وأهله والذين آمنوا معه فيأمره أن يصنع الفلك برعايته وعن أمره وينهـاه أن يتوسل إليه في الذين ظلموا أنفسهم من قومه وأعرضوا عن دعوته فيقول :

(واصْنَع الفُلْكَ بأعيُنِنـا ووَحْيِنا ولا تخَاطِبْني في الّذين ظَلَموا إنّهم مُغْرقون) .

ثم ينبىء الله نبيه بما كان بين قوم نوح وبينه أثنـاء صنعه للفلك فهم كلما مروا به سخروا منه ، قد أوغلوا في الشك بل وثقوا بأنهم آمنون من عذاب الله وبطشه، وبأن نوحاً يصنع فلكه عبثاً أو إمعاناً في تخويفهم من هول موهوم . ويرد نوح عليهم ساخراً

أيضاً متوعداً لأنه واثق بما أنبأه به ربه : (ويَصْنَعُ الفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عليه مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فإنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرون . فَسَوْفَ تَعْلَمُون من يأتيه عذاب يُخْزِيه ويَحِلُّ عَلَيْه عَذَابٌ مُقِيم) .

ثم أتى أمر الله وآن للظالمين من قوم نوح أن يعلموا حين لا ينفعهم العلم ، بأن نوحاً لم يكذب عليهم ولم ينذرهم عبثاً . فقد فار التنور وأخذ الماء يغمر الأرض ، وأمر الله نوحاً أن يحمل في سفينته من كل زوجين اثنين وأن يحمل أهله إلا من كتبت عليه الشقوة منهم وأن يحمل تلك العصبة القليلة التي آمنت معه : (حَتَّى إذا جَاء أمرُنا وفَار التَّنُّور قُلْنا احْمِلْ فيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ ومَن آمَن ومَا آمَن معه إلا قليل) .

وهذا نوح يأمر الناجين من أهله وأصحابه أن يركبوا في السفينة . وهو يسمي الله على مجرى السفينة ومرساها :(وَقَالَ اركَبُوا فِيهَا بِاسْمِ الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إنَّ ربِّي لَغَفورٌ رحيمٌ) .

وهنا ينبغي أن نقف عند هذا الإيجاز الرائع المألوف كثيراً في القرآن والذي يقتضي أن يحذف من القصة كل ما يمكن أن يستحضره السامع والقارىء من أحداثها لأنه طبيعي لازم لما تلي من القصة . فهذا الماء قد غمر الأرض ولقي الظالمون من قوم نوح ما لقوا من الجهد وحاولوا كل محاولة ممكنة لينقذوا أنفسهم من الغرق فلم ينفع جهدهم ولم تغن عنهم محاولاتهم من الله شيئاً . ذلك لأن الله إذا أراد بقوم سوءاً فلا مرد له ولا سبيل إلى اتقائه . ولكن القرآن هنا يهمل هذا كله فلا يتحدث عن المغرقين ولا عن جهودهم ومحاولاتهم ولا عما لقوا من الألم في أنفسهم ولا عما أحسوا من الندم لإعراضهم عن نوح ودعوته . لا يتحدث الله عن هذا وإنما يستأنف الحديث عن السفينة فإذا هي تجري بأصحابها في موج كالجبال ، وإذا نوح يفتقد ابنه فيراه مع الكافرين وإذا ابنه قد حق عليه العذاب فهو لا يستجيب لأبيه وإنما يزعم أنه سيأوي إلى جبل يعتصم به من الماء . ونوح يحاول أن يقنعه بألا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . ولكن الموج يحول بين الابن وأبيه فيصير ابنه إلى الغرق مع المغرقين .

(وهيَ تَجْرِي بِهِم فِي مَوْجٍ كالجِبَالِ ونادَى نُوحٌ ابْنَهُ وكانَ فِي مَعزِلٍ يا بُنَيَّ اركَبْ مَعَنَا وَلاَ تكُنْ مَعَ الكَافرِين . قَالَ سَآوِي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ قالَ لاَ عَاصِمَ اليَومَ مِنْ أَمْرِ الله إلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ

بَيْنَهُما المَوْجُ فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِين) .

كم من يوم ظل الماء غامراً للأرض ؟! وكم من يوم جرت السفينة في هذه الأمواج المتلاطمة قبل أن تستقر على الجودي ؟! هذه أشياء لا يتحدث الله بها في هذا الموضع من القصة وإنما يتركها لفهم السامع والقارىء وتقديرهما . وفي هذا الإيجاز المعجز ما يصور هول القصة . وربما صور الهول بالإعراض عن وصفه تصويراً أروع وأشد من وصفه .

وانظر إلى فعلي الأمر هذين اللذين يوجه أحدهما إلى الأرض بأن تبتلع ماءها ووُجه ثانيهما إلى السماء بأن تكف عن صب الماء . وإذا الماء يغيض وإذا الأمر كله قد قضي وإذا السفينة قد استقرت على الجودي وإذا نداء ببعد القوم الظالمين . فعلا أمر في أول الآية . ثم أنباء قصار أشد القصر موجزة أروع الإيجاز قاطعة لا معقب لها تلقى في أفعال بُني أكثرها لما لم يسم فاعله .

وتنتهي بهذه الأنباء قصة ما أصاب قوم نوح من العذاب .

(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلى الجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلقَوْمِ الظَّالِمِين) .

على أن قصة نوح نفسه لم تنته بعد. فهو محزون على ابنه الذي أُغرق وكأنه يعاتب ربه فيه ولكن في إيمان به وإذعان لحكمه فيقول :

(إنَّ ابْني مِنْ أَهْلي) .

كأنه يذكر أن الله قد أمره أن يحمل أهله في السفينة ولكن ربه يرد عليه رداً فيه الشدة والرفق جميعاً . فينبئه بأن ابنه ليس من أهله لأنه عمل غير صالح ، ويعظه ناهياً له عن أن يسأله ما ليس له به علم . وإذا نوح يثوب إلى نفسه ويتوب إلى ربه ويعوذ به من أن يسأله ما ليس له به علم ويلتمس منه الرحمة والمغفرة :

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إنَّ إبْنِي مِنْ أَهْلي وَإنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وأنتَ أَحْكَمُ الحاكِمِينَ قالَ يا نُوحُ إنَّهُ لَيسَ مِنْ أَهْلِكَ إنَّهُ عَمَلٌ غيرُ صالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ ما ليسَ لكَ بِهِ عِلْمٌ إنِّي أَعِظُكَ أنْ تَكُونَ مِنَ الجاهِلِين. قالَ رَبِّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ أنْ أَسْأَلَكَ ما ليسَ لي بِهِ عِلم وإلاَّ تَغْفِر لِي وَتَرْحَمْني أَكُنْ مِنَ الخاسِرِين) .

ثم يؤمر نوح أن يهبط إلى الارض بسلام من الله عليه وعلى فريق ممن معه وينبأ بأن فريقاً آخر ممن معه يستمتعون في الحياة الدنيا ثم يضطرون إلى عذاب أليم . آمنوا

بدعوة نوح فنجوا من الغرق ولكنهم محتاجون الى أن يمتحنوا في الدنيا فإن احسنوا نجوا وإن أساءوا فعذاب الله مدخر الذين يخالفون عن أمره ويظلمون أنفسهم :

(قِيلَ يا نُوحُ اهبِط بِسَلام ٍ مِنَّا وبَرَكاتٍ عَليكَ وعلى اُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُم ثمْ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيم) .

وهنا تنتهي قصة نوح في هذه السورة الكريمة وينبىء الله نبيه بأن أحداث هذه القصة إنما هي بالقياس إليه وإلى قومه من الغيب لم يعلمها النبي ولم تعلمها قريش إلا بعد أن أوحيت إليه في هذه الآيات ؛ ثم يأمر الله نبيه أن يصبر على ما يلقى عن إعراض قومه عنه وإيذائهم له كما صبر نوح على ما لقي من قومه فكانت له العاقبة لأن العاقبة دائماً للمتقين :

(تِلْكَ من أنباءِ الغَيْبِ نُوحِيها إليكَ ما كُنْتَ تَعلَمُها أنتَ ولا قَوْمُكَ من قَبْلِ هَذا فاصْبِر إنَّ العاقِبَةَ للمُتَّقِين) .

وما أشك في أنك حين قرأت هذه الآيات لم تعجل في قراءتها لأنها مبسوطة قد اطمأنت وتتابعت في رفق وفي مهل أيضاً . فأنت تقرؤها مفكراً فيها معتبراً في أحداثها لا يعجلك عن ذلك شيء . وأنت معجب بانبساط الحديث ومضي القصة في أناة تؤدي المعاني مستوية ، ويأتي الإيجاز حين يجب أن يأتي ، فلا يضيع عليك شيئاً من تمهلك ولا يعجلك عن التأمل والتدبر .

ولكن لنقرأ معاً هذه القصة نفسها في سورة أخرى هي سورة الشعراء . ولنوازن بين الأناة هنا والسرع هناك ، وسترى أن من العسير أن نقف عند كل آية من ايات القصة في سورة الشعراء كما وقفنا بإزاء الآية والآيات في القصة نفسها من سورة هود . وسترى سبب ما يكون بين القصتين من فرق في السورتين .

وسورة الشعراء كلها تروع وتبهر بقصر آياتها وانسجامها في هذا القصر وفي اتساق الفواصل في الآيات كلها حتى الآيات الأخيرة التي يقال انها أنزلت في المدينة . وإن كانت الآية الأخيرة من السورة أطول شيئاً من سائر الآيات . وهي منسجمة كذلك بآيتين تأتيان بنصها في اخر كل قصة، بل في اخر كل حديث ما عدا اخر السورة وهما قول الله عز وجل : (إنَّ في ذلكَ لآيةً وما كانَ أكثرُهم مؤمنين . وإن رَبَّكَ لَهُوَ العَزيز الرَّحيم) .

فهما تأتيان ختاماً لكل حديث . وتوطئة للانتقال إلى حديث آخر أو قصة أخرى وقد فصلت آيات السورة على قدر واحد حتى كأن إحداها لا تزيد على الأخرى أو تنقص عنها .

وهذا الأسلوب مألوف في القرآن، تراه في سورة الصافات مثلا، وترى شيئاً منه في قصار السور التي أنزلت بمكة والتي تقرؤها في آخر المصحف .

وفي سورة الشعراء هذه يتجه الحديث أولا إلى المشركين من العرب وإلى قريش منهم . فيذكرون بآيات الله ويعاب جحودهم وإصرارهم على العناد والكفر . ويختم هذا القسم من الحديث بالآيتين اللتين تلوناهما آنفاً . ثم تأتي قصة موسى وإرساله إلى فرعون وما كان من حديث موسى لبني إسرائيل من مصر عن أمر الله ، واتباع فرعون لهم وانجاء الله لموسى وقومه ، وإغراقه فرعون ومن معه . وتختم القصة بالآيتين نفسيهما . ثم تأتي قصة إبراهيم ومن بعدها قصة نوح ثم قصة ثمود فقصة قوم لوط فقصة شعيب وقومه. ثم يعود الحديث فيتجه إلى قريش ، حتى توشك السورة أن تنتهي فتختم بالآيات المدنية التي يذكر فيها الشعراء .

وقصة نوح هنا موجزة أشد الإيجاز ، لا يذكر فيها تفصيل العذاب الذي أخذ الله به الظالمين من قوم نوح ، وإنما يكتفي بذكر إغراق الله لهم ولا يذكر فيها صنع الفلك وحمل من حمل نوح فيه ولا وصف الموج الذي جرت فيه السفينة ولا قصة ما أصاب ابن نوح من العذاب ولا الحديث بين نوح وبين ربه ؛ لا يذكر من هذا كله شيء وانما يقص الحوار بين نوح وقومه وإعراض قومه عن دعوته وإنذارهم نوحاً بالرجم إن لم ينته عن دعوته ودعاء الله نوحاً أن ينجيه وما كان من نجاته في الفلك المشحون ونجاة من آمن معه وإغراق الظالمين فقد اختصرت القصة هنا لأن ما قصد إليه من القصص كلها في هذه السورة إنما أريد به إلى تذكير المشركين بآيات الله فيمن سبقهم من الأمم وتخويفهم أن يصيبهم مثل ما أصاب تلك الأمم وإظهارهم على بطش الله بالظالمين وعلى الآيات الكبرى التي آتاها الأنبياء قبل محمد ﷺ .

ومن أجل هذا اكتفي بما يؤدي هذه الأغراض في قوة وعنف يملكان على السامعين والقارئين أمرهم كله ، ومن أجل هذا أيضاً أديت هذه الأغراض في هذه الآيات القصار المتتابعة في نسق واحد كأنها السيل المندفع الذي يغمر كل ما يلقاه أو كأنها الريح العاصفة التي لا تدع شيئاً تأتي عليه إلا دمرته تدميراً .

واقرأ إن شئت هذه الآيات التي صورت فيها قصة نوح وقومه وقسها إلى الآيات التي أثبتناها من سورة هود فسترى أنك حين تأخذ في قراءة الآيات هنا ستجد نفسك منساقاً بل مدفوعاً إلى المضي في القراءة حتى تبلغ آخر القصة لا تقف بين آية وأخرى وإنما تقف حين تبلغ ختام القصة لتتدبر وتتفكر. وأكاد أقطع بأنك إذا بدأت السورة

من أولها فستمضي فيها إلى آخرها ثم تراجع نفسك بعد ذلك في جملتها وتفصيلها وفي روعتها وإعجازها : (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ . قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ . قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ . قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ . فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

وهذا الأسلوب الرائع مألوف في القرآن كما قدمنا يلتزم فيه تكرار آية بعينها أو غير آية للانتقال من حديث إلى حديث ، كما في سورة الصافات وسورة القمر ، وأحياناً لا يلتزم هذا التكرار وإنما يرسل نظام الآيات إرسالاً مع اتحاد الفواصل ، كما في سور كثيرة من المفصل .

وفي القرآن أسلوب آخر من التكرار للتخويف حيناً وللتعجيز حيناً آخر كما ترى في سورة المرسلات من ختام الآيات دائمـــاً بقول الله عز وجل : (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) . والسورة كلها تخويف . وكما في سورة الرحمن حيث تنتهي الآيات كلها بهذا الاستفهام الرائع (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) . والسورة كلهـــا تصف قدرة الله وتعدد آلاءَهُ على الناس .

وأسلوب آخر في القرآن تلتسق فيه فواصل الآيات ويلزم فيها أو في أكثرهـــا نسق بعينه كالذي تراه في سورة مريم من ختام الآيات أو أكثرها بكلمات تنتهي باليـــاء المشددة المفتوحة .

(كهيعص . ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا . قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا . وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) .

وعلى هذا النسق تمضي آيات السورة حتى تذكر قصة يحيى ومريم والمسيح وطائفة أخرى من الأنبياء لا تخالف عنه إلا في آيات قليلة .

والتزمت في قصة يحيى والمسيح آية بعينها مع شيء من الخلاف بين آخر القصتين . كان الحديث عن يحيى حديثاً عن الغائب فقيل في آخر قصته : (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً) .

وكان المسيح يتكلم في المهد بني إسرائيل فقيل في آخر كلامه : (وَسَلَامٌ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً) .

وأسلوب آخر من الفواصل لا يلتزم فيه حرف بعينه كما التزمت الياء في مريم ، أو حرفان كما التزمت الياء والنون في الشعراء مثلاً ، وإنما تلتزم حركة بعينها هي الفتحة ، وإن اختلفت الحروف في أواخر الكلمات ، كالذي نرى في سورة الكهف من التزام الكلمات المنصوبة أو المفتوحة الآخر .

(الحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً . قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً . مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً . وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً . مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً . فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفاً . إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً . أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً . إِذْ أَوَى الفِتْيَةُ إِلَى الكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً . فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً . ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) .

وتمضي السورة على هذا النحو إلى آخرها .

وكذلك التزمت الفتحة في سورة الإسراء ، وكادت الراء أن تلتزم معها في أكثر فواصل السورة .

والتزمت الفواصل المقصورة في أكثر سورة طه والنجم والأعلى والضحى .

وحديث الفواصل في القرآن أطول وأكثر تنوعاً من أن نحصيه في هذا الفصل . وربما كان من الممكن أن يخص لها كتاب كامل .

وما نجده فيها من التنوع إن دل على شيء فإنما يدل على أن القرآن قد أنزل ليتلى ، ويتلى في صوت يسمع . ذلك يظهر تنوع الآيات في خواتيمها وفواصلها . ويظهر ألواناً مختلفة تروع باختلافها من الموسيقى . فإذا أضيف إلى ذلك عذوبة الألفاظ واتساق النظم واختلاف الاسلوب باختلاف المقامات شدة وليناً وترغيباً وترهيباً وتبشيراً وإنذاراً ، لم يشك سامع او قارىء في أن فنون الإعجاز في القرآن أكثر وأروع من من أن تحصى او يحاط بها .

وأكبر الظن أن التزام هذه الفواصل المتسقة إنما يكون حين يتحد موضوع السورة أو يأتلف ائتلافاً شديداً . فسورة الشعراء مثلاً قد اختلفت فيها قصص الأمم التي كذبت رسلها ولكن موضوعها واحد هو التخويف والإرهاب وإنذار قريش وغيرها من مشركي العرب بأن ما أصاب تلك الأمم التي أصرت على تكذيب الرسل قد يصيبهم إن أصروا على تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم .

وسورة طه توشك قصة موسى أن تستغرقها . وفي سورة مريم تمجيد للأنبياء وتخويف للجاحدين :

وأكبر الظن أيضاً ان الفواصل حين تلتزم على هذا النحو يدل التزامها على ان السورة أنزلت مرة واحدة ولم تنجّم آياتها كما تكون الحال في سور أخرى لم تلتزم فيها الفواصل على هذا النحو ولم يتحد موضوعها أو يشتد الائتلاف بين موضوعاتها ان تعددت . واتحاد الموضوع نفسه وشدة ائتلاف الموضوعات حين تتعدد قد يشعر بأن السورة أنزلت جملة واحدة وإن لم يلتزم في فواصلها ما نراه قد التزم في السور التي أشرنا اليها .

فسورة يوسف مثلاً قد اتحد موضوعها اتحاداً لا شك فيه ، قد قصرت على قصة يوسف . وما أرى إلا أنها أنزلت جملة .

وقل مثل ذلك في سورة هود . او فيما اشتمل عليه أكثرها من قصص الأمم التي كذبت رسلها . فبعد أن بدئت بآيات فيها الإنذار والتخويف وضرب الأمثال للموعظة قصت فيها قصة نوح في الآيات التي أثبتناها منذ حين . وعند الفراغ من قصة نوح عطف عليها قصة عاد وبدئت هذه القصة بالآية الكريمة : (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ) .

ثم عطف عليها قصة ثمود بنفس الأسلوب : (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ).

ثم عرض طرف من حديث إبراهيم وقصة لوط وقومه ثم قصة شعيب وقومه أهل مدين في قوله عز وجل : (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)

ويلاحظ أن قصة قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب ختمت كلها بخواتم متشابهة . فنرى في آخر قصة المغرقين من قوم نوح : (وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) . وفي آخر قصة عاد وقوم نوح نقرأ . (وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ).

وفي آخر قصة ثمود قوم صالح نقرأ : (كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ) .

ونقرأ في آخر قصة أهل مدين : (كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ) .

وبعد هذا القصص ، الذي يحدث أخبار الأمم التي كذبت نوحاً وهوداً وصالحاً ولوطاً وشعيباً وموسى ، تختم السورة بآيات الله وإثبات أن النبي صادق فيما يحدث به لأنه يتلو أنباء لم يكن يعلمها ولم يكن قومه يعلمونها : (ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ) .

وتنتهي السورة بتثبيت النبي ﷺ بكل ما قص عليه في السورة وتخويف الذين لا يصدقون من المشركين وإعلان أن الله مستأثر بغيب السموات والأرض وأن مصير كل شيء وكل إنسان إليه .

(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ . وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

وسور أخرى في القرآن تشبه سورة هود في خصائصها هذه وفي أنها أنزلت جملة

واحدة كسورة الأنفال التي أنزلت في غزوة بدر ولم تتجاوزها إلا إلى ما يتصل بقريش وكفرها ومكرها بالنبي بما كانت وقعة بدر نتيجة له .

وكذلك سور أخرى في القرآن تكثر موضوعاتها وتتباعد الصلة بين هذه الموضوعات ولا يلتزم في فواصلها ولا في أسلوبها نسق بعينه منذ تبدأ إلى أن تنتهي . فسورة البقرة مثلاً كثرت فيها الموضوعات وتباينت ، فدل هذا على أن السورة لم تنزل مرة واحدة وإنما نجمت تنجيماً فهي تبدأ بذكر المؤمنين الذين يتقون الله ويؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله ويؤمنون بما أنزل على النبي وما أنزل على الأنبياء من قبله ويوقنون بالآخرة وما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب .

(أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

ثم تتحدث عن الذين كفروا ، والذين لا يجدي إنذارهم أو إمهالهم ، والذين لا يؤمنون على كل حال ، وقد ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وغشيت أبصارهم وكتب عليهم عذاب عظيم . ثم تتحدث عن المنافقين الذين يقولون آمنا وليسوا بؤمنين والذين يريدون أن يخادعوا الله والذين آمنوا فلا يخدعون إلا أنفسهم والذين في قلوبهم مرض فيزيدهم الله مرضاً ويدخر لهم عذاباً أليماً عقاباً على كذبهم بإظهارهم الإيمان وإضمارهم الكفر . ثم تصف بدء الخلق وخلق آدم وتذكر إبليس حين أبى أن يسجد مع الملائكة إعظاماً لخلق آدم ، وطرده من الجنة ، وإغواءه آدم وزوجه حتى أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عن أن يقرباها ، وإخراجهما من الجنة وتوبة الله على آدم آخر الأمر .

ثم تذكر اليهود فتطيل في ذكرهم وتفصل من أنبائهم وسيرتهم مع المسلمين ومحاجتهم للنبي شيئاً كثيراً .

ثم تذكر طرفاً من قصة إبراهيم حين أنزل من ذريته بواد غير ذي زرع وحين بنى البيت بمكة ، وتذكر طرفاً من حديث الأنبياء ثم تذكر تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى المسجد الحرام ، ثم تذكر الصفا والمروة وأنهما من شعائر الله ، وتذكر طرفاً من حساب الكافرين يوم القيامة ، ثم تذكر البر وتبين حقائقه ثم يشرع فيها القصاص وبعض أحكام الوصية ويشرع الصيام وصيام رمضان خاصة ، ثم يجاب فيها عن الذين يسألون عن الأهلة . ويذكر فيها شيء من أمر القتال ومن أمر الحج ومن أسر المعاندين من مشركة قريش . ثم يذكر فيها إثم الخمر والميسر ويبين فيها للناس ما ينبغي لهم أن ينفقوا في صدقاتهم . ثم تشرع فيها طائفة من أحكام الزواج والطلاق والعلاقة بين الأزواج وعدة المرأة إذا طلقت وإرضاع الوالدات أولادهن وما لهن على أزواجهن من

حق في ذلك ، واسترضاع الأولاد عند غير أمهاتهن وحق المرضعات على آباء من يرضعن من الطفل .

ثم يرجع الحديث إلى اليهود ويقص مـا كان بين طالوت وجالوت من القتال وقتل داود لجالوت وإيتائه الملك والحكم والنبوة . ثم تعظ المؤمنين وتذم الكافرين وتعلن ألا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ، وتذكر طرفاً من حديث إبراهيم حين حاج الملك الذي كفر فحجه ، وحين سأل الله ان يريه كيف يحيي الموتى ، فأراه الله من ذلك ما أراد . ثم تأمر المؤمنين بالصدقة ملحة عليهم فيها مبينة لهم أحكامها ومرشدة لهم إلى خيرها وأكملها ومواضعها .

ثم تحرم الربا وتشدد في تحريمه . ثم تأمر المؤمنين إذا تداينوا وتبايعوا أن يكتبوا ما تداينوا عليه أو ما تبايعوه وأن يستشهدوا على ذلك رجلين أو رجلاً وامرأتين ممن يرضون من الشهداء . وتحظر كتمان الشهادة وتبين أن من يكتمها فإنه آثم قلبه . ثم تختم السورة بإعلان مـا اجتمع عليه النبي والمؤمنون من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، غـير مفرقين بين أحد من رسله ، ومن إذعانهم لربهم وإنابتهم إليه وسمعهم وطاعتهم لأمره حين يأمرهم ونهيه حين ينهاهم وتضرعهم إليه في ألا يؤاخذهم إن نسوا أو أخطئوا وألا يحمل عليهم إصراً كما حمله على الذين من قبلهم وألا يحملهم ما لا طاقة لهم به وأن يعفو عنهم ويغفر لهم ويرحمهم وينصرهم على الكافرين .

وواضح أن كل هذه الموضوعات إنمـا فصلت آياتها للناس في إبانها وحين اقتضت حياتهم وظرفهم أن تتلى عليهم وتبصرهم بمـا يحتاجون إلى أن يبصروا به حين تنوب النوائب وتعرض الأحداث .

ومثل هـذا يقال في سورة آل عمران التي لم تكثر فيها الموضوعات كما كثرت في سورة البقرة ، ولكنها اختلفت وتباعدت .

فالسورة تبدأ بإثبات التوحيد وأن الله الذي لا إله إلا هو نزل على رسوله الكتاب بالحق وجعل فيه آيات محكمات وأُخَر متشابهات ؛ فالذين زاغت قلوبهم يتبعون مـا تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله مع أن الله وحده هو العالم بتأويله ، وأمـا الراسخون في العلم من المؤمنين فيؤمنون بالكتاب كله محكمه ومتشابهه ، وبأنه جاء من عند الله يفهمون ما يستطيعون ويكلون ما تشابه منه إلى الله .

ثم أخذت السورة في ذم الكافرين وتخويفهم ، وبينت مـا يفتن الناس في الحياة الدنيا ويوبق بعضهم في الكفر وبعضهم في المعصية .

وذكرت اليهود وذمت بعض أعمالهم ونهت المؤمنين أن يتولوا الكافرين ورغبتهم في اتباع النبي لأنه دليل على حبهم لله وحذرهم الله نفسه فيها وعلم نبيه والمؤمنين مـا يدعون الله به من أنه مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ومن أن بيده الخير ومن أنه على كل شيء قدير . ومن أنه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويرزق من يشاء بغير حساب .

ثم قص الله فيها ما كان من استجابته لزكريا حين وهب له يحيى ، وما جعل له آية على ذلك ، ثم قص أنباء مريم والمسيح في شيء من التفصيل واسع ، ثم جادل أهل الكتاب من النصارى وأمر النبي أن يباهلهم إن حاجوه فيما جاءه من عند الله في أمر المسيح ، وأن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة سواء ألا يعبدوا إلا الله وألا يشركوا به شيئاً وألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله وأن يشهدهم إن أبوا أنه وأصحابه مسلمون لله .

ثم مضى في حديث أهل الكتاب من النصارى واليهود ، فذكر شيئاً من أخلاقهم وسيرتهم ، وفرق بين الأمناء منهم والخائنين ، ثم ذكر اسرائيل وأنه أحل له الطعام كله إلا ما حرم هو على نفسه من قبل أن تنزل التوراة . ثم فرض الحج على المسلمين من استطاع إليه سبيلاً . وذكر أن فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأن من دخله كان آمناً وأنه أول بيت وضع للناس .

ثم أمر المؤمنين أن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا . وأن يذكروا ما كانوا عليه من القلة والضعف قبل أن يكثرهم ويؤيدهم وكلفهم أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، وذكر المؤمنين والكافرين يوم القيامة وما يكون فيه من نجح للمؤمنين وخزي للكافرين .

كل هـذا يأتي أثناء محاجة اليهود . ثم يفرق بين أهل الكتاب فمنهم المؤمنون الصالحون الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات . ومنهم الكافرون الذين يجحـدون الحق وينسون نعمة الله عليهم ويشاقون الله ورسوله . ثم يحذر المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين الذين يبغضونهم ، ويعضون عليهم الأنامل من الغيظ ، ولا يألونهم خبالا ، يفرحون إن أصابت المؤمنين سيئة ، ويستاءون إن أصابتهم حسنة ، ويودون لو استطاعوا أن يردوا المؤمنين بعد إيمانهم كفاراً ، وهم مع ذلك يعلنون الإيمان ويجهرون به . ثم ينهى الله المؤمنين أن يأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة

ويحذرهم النار ويأمرهم بطاعة الله ورسوله والمسارعة إلى مغفرة من ربهم وإلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . ثم يذكر وقعة أحد ويلوم المهزمين فيها من المسلمين ويعفو عنهم ويمضي في أنباء هذه الوقعة وما كان بعدها وتثبيت قلوب المؤمنين وتهيئتهم لما سيبلون به في أنفسهم وأموالهم ولما سيسمعون من أذى المشركين واليهود ويبشرهم بما أعد للشهداء عنده من حياة راضية . ويذكرهم بآياته ثم يرغبهم في الصبر ويأمرهم أن يصبروا ويصابروا ويرابطوا ويتقوا الله لعلهم يفلحون .

فهذه السورة اشتملت فيما عدا الوعظ والتخويف على ما قص الله من أمر المسيح وأمه وعلى محاجة النصارى واليهود وعلى قصة أحد ، فمن البيّن أن هذه الموضوعات لم تنزل آياتها جملة وإنما نزلت منجّمة حسب الظروف والأحداث .

وقل مثل هذا في سائر سور القرآن الكريم .

فكل سورة يتحد موضوعها أو تتداعى موضوعاتها تداعياً شديداً ويلتزم فيها نسق بعينه فيرجح أنها نزلت جملة .

وكل سورة تختلف موضوعاتها وتتباعد ولا تتداعى ولا يلتزم في آياتها نسق بعينه فيرجح أنها نزلت منجّمة .

والقرآن كله من عند الله ، وهو وحدة في روحه وفي إعجازه مهما يختلف تنزيل سوره ، ومهما تختلف موضوعات السور ومذاهب القول فيها .

واختلاف مذاهب القول في القرآن دليل قوي من دلائل الإعجاز . فللقرآن وحدته من حيث أنه يدعو دائماً إلى أصول معينة : إلى توحيد الله ، ونبذ الشرك على اختلاف صوره والإيمان بمحمد ﷺ وما جاء به من القرآن والإيمان بالرسل الذين جاءوا قبل محمد وما أنزل عليهم من الكتب ، والإيمان بالبعث وبالحياة الآخرة بعد هذه الحياة الأولى وما يكون فيها من ثواب ونعيم لمن أبوا دعوة الله ومن عذاب وجحيم لمن أعرضوا عن هذه الدعوة ونفروا منها واستكبروا على الله ورسوله ، ثم هو يأمر الناس بأن يقيموا حياتهم على هذه الأسس ، حياتهم فيما بينهم وبين نفوسهم بحيث يبرءون من الرذائل كلها كبارها وصغارها فلا يضمرون في انفسهم منها شيئاً ، وحياتهم الظاهرة فيما يكون بينهم وبين غيرهم من الناس فلا يظلمون ولا يستطيلون ولا يؤثرون الشر وإنما ينبذونه ما استطاعوا إلى نبذه سبيلاً ويؤثرون عليه الخير وحده فيحسنون إلى الوالدين ويتجنبون الإساءة إليهما حتى ولو كانا مشركين ففي هذه الحال يخالفونهما إلى الإيمان ويعاشرونهما في الدنيا معروفاً ويبرون أولي القربى ويرحمون اليتامى والمساكين ويعطفون على الفقراء

أوولي الحاجة ويعدلون فيما بينهم وبين نظرائهم من صلة والناس جميعاً نظراؤهم مهما تكن منزلتهم الاجتماعية فالفقير نظير الغني والضعيف نظير القوي والرقيق نظير الحر لكل حقوق يجب أن تؤدى إليه وعلى كل واجبات يجب أن يؤديها . والمهم أن يلائم الإنسان بين إيمانه بالله الواحد القوي العالم بكل شيء وما أعد من خير للمحسنين وما أعد من شر للمسيئين ، أن يلائم بين إيمانه الصادق بهذا كله وبين ما يخفي وما يظهر من ذات نفسه وما يأتي من الأعمال وما يدع منها. ومن أجل هـــذا يشرع الله للناس في القرآن من الأحكام والأصول ما يبين لهم السبيل إلى هذه الملاءمة ويمهد لهم الطريق إلى أن يقيموا حياتهم على السلم الكاملة بينهم وبين الله ما عاشوا في هذه الدنيا .

والنفس المطمئنة التي ذكرها الله في سورة الفجر ودعاها إلى أن ترجع إلى ربهـــا راضية مرضية وإلى أن تدخل في عباده وتدخل جنته إنما هي هذه النفس التي صدقت في إيمانها بالله ورسله وكتبه وثوابه وعقابه وأخلصت هذا الإيمان واطمأنت إليه فعاشت في سلم مع الله لا تحاربه بالمعصية حرباً ظاهرة أو باطنة .

وأما النفوس الأخرى التي لم تطمئن إلى إيمان ولم تستقم على ما أمرت به وإنمـــا جـــارت عن القصد والتوت بها السبل فهي تظهر السلم وتضمر الحرب فتعلن الإسلام وتضمر الكفر أو تضمر الإيمان ولكنها لا تثبت له ولا تنوى عليه وإنما تقترف الآثام وتجترح السيئات وتستجيب لشهواتها فتجور وقد أمرت بالعدل وتفجر وقد أمرت بالبر وتعصى وقد أمرت بالطاعة .

كل هذه النفوس محاربة لله حرباً خفية أو ظاهرة بالقياس إلى الناس ولكنها جلية بينة بالقياس إلى الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . وفي بيان ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم – فيـــما روى الشيخان – : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حـــين يشربها وهو مؤمن » . يريد أن ارتكاب الكبائر لا يكون من الإنسان وهو مستحضر إيمانـــه بالله ورسوله وما أعد من ثواب وعقاب . فلو قد استحضر الإنسان هذا الايمان لصده عن الفواحش . ولكن غرائزه تطغى على نفسه كلهـــا فتجور بها عن الطريق ثم يثوب الإنسان إلى نفسه أحياناً فيندم ويأسى ويتوب إلى الله ويسأله العفو والمغفرة .

إلى هذا كله وإلى أكثر من هذا كله ، دعا الله في القرآن في تفصيل أي تفصيل ، وفي ترغيب للراهبين ، وتخويف للذين تغرهم أنفسهم وتزدان في أعينهم زهرة الحياة الدنيا فيفتنون بها.فلا غرابة في أن تختلف مذاهب القوم في القرآن باختلاف الموضوعات

وباختلاف المقامات أيضاً . وإنما الغرابة في التزام مذهب واحد من مذاهب القول في التشريع والقصص والتبشير والإنذار والموعظة اللينة واللوم العنيف . وهذا التنوع في مذاهب القول بتنوع الموضوعات والمقامات هو الذي يسميه أصحاب البيان في اللغة العربية وفي غيرها أيضاً مطابقة الكلام لمقتضى الحال . فالإنذار بقيام الساعة وما يكون فيه من الهول ، وبيوم الحساب وما يكون فيه من الشدة يقتضي أن يكون القول من القوة والأيد بحيث يملأ القلوب رعباً ولا سيما حين يكون النذير متجهاً إلى الملحين في الإنكار والعناد والمكابرة وأنت تقرأ من هذا الإنذار الشديد المروع في القرآن شيئاً كثيراً . واقرأ إن شئت طائفة من السور القصار في آخر المصحف فترى تصوير الهول قد بلغ من القوة ما يملأ النفوس رهباً ورعباً .

واقرأ إن شئت ما جاء في سورة التكوير والانفطار والانشقاق ، وانظر إلى ما فيها من هذه الآيات القصار المتلاحقة التي تنصب على السامعين كأنها الصواعق المتتابعة . واقرأ إن شئت في السور الطوال والقصار جميعاً بعض الآيات التي يستحضر فيها يوم الحساب وما يكون فيه من الهول المروع للمجرمين ومن الأمن الآمن للمؤمنين فترى الشدة كل الشدة واللين كل اللين وستراهما متجاورين وستحس كأنك تشهد ما أعد للمؤمنين من أمن فتضطرب نفسك أشد الاضطراب بين الرهب والرغب وبين الخوف والأمن. وقلما يفترق الترهيب والترغيب في القرآن وإنما يوشكان أن يجتمعا دائماً. ولأمر ما كان هذا الاجتماع ، فالله لا يؤنس الكافرين من رحمته حتى يفتح لهم باب الأمل فيها ويمد لهم أسبابه إليها . فليس بين الكافر الجاحد المعاند الذي يرى عذابه كأنه حاضر بين يديه وبين الجنة ونعيمها إلا أن يؤمن .

فالكافر بين شيئين يكاد يراهما رأي العين حين يتلى عليه القرآن عن يمينه جنة فيها الأمن والرضى والنعيم وعن شماله النار فيها الهول والروع والعذاب وما عليه إلا أن يختار . والله لا يؤنس المؤمن العاصي وإنما يجعل بين يديه خطيئته التي تكبه على وجهه في النار وتوبته التي تسعى به إلى الجنة. والله يبين للكافرين وللعصاة من المؤمنين أنه غفور رحيم وأن رحمته وسعت كل شيء وأن السبيل إلى رحمته هو أن يؤمن الكافر وأن يتوب المؤمن ويصلح . وكلاهما مختار بين ما يدخله الجنة وما يوقعه في النار .

وقف إن شئت عند كل موضوع عرض له القرآن فسترى من ملاءمة القول للموضوع وللمقام مثل ما بينت لك آنفاً .

ولو ذهبت أصف فنون الإعجاز في القرآن وملاءمة كل مذهب من مذاهب القول

فيه لما فرغت من هذا الحديث . والقرآن بعد ذلك بين يدي كل ذي بصيرة يستطيع أن يقرأه وأن يقف عند سوره و آياته متدبراً متأملاً مستبصراً فيرى من غير شك أني لم أبلغ من وصف القرآن وإعجازه بعض ما أريد ، وإعجاز القرآن شيء يشعر به القلب وتمتلىء به النفس ويذعن له الضمير ويعجز عن وصفه القلم واللسان .

وواضح أني لم أرد في هذا الحديث إلا أن أصور تصويراً مقارباً موقع القرآن من قلوب الذين سمعوه حين كان النبي يتلوه على الذين استجابوا له والذين امتنعوا عليه ، ولم يكن امتناعهم عليه إلا إمعاناً في العناد ولجاجاً في المراء .

ولننتقل الآن إلى الأصل الثاني من أصول الإسلام وهي السنة .

— ٣ —

أشرت في أول الكتاب الثاني أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أرسل بشيراً ونذيراً وشاهداً على أمته وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً كما نص الله عز وجل ذلك في سورة الأحزاب .

وأريد أن أبيّن في هذا الفصل أن ما ثبت من سنة النبي قولاً وعملاً إنما هو خلاصة تبشيره وإنذاره وشهادته ودعوته إلى الله ، وأن أبيّن أيضاً أن النبي كان كما أشرت إلى ذلك في أول هذا الكتاب معلماً حياته كلها منذ بعث إلى أن آثره الله بجواره . كان يتلو القرآن على المسلمين ويفسر لهم منه ما يحتاج إلى تفسير ويفصل لهم منه ما كان مجملاً يحتاج إلى التفصيل وكان يعلم أحياناً عن أمر الله له في القران نصاً . فالله يأمره أن ينبىء عباده بأنه هو الغفور الرحيم وبأن عذابه هو العذاب الأليم ، وذلك في قوله من سورة الحجرة : (نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ . وأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ) .

ويأمره أن يقول لعباده إن سألوه عن الله إنه قريب يجيب دعوة الداعي اذا دعاه ويأمرهم أن يستجيبوا له ويؤمنوا به لعلهم أن يرشدوا، وذلك في قوله من سورة البقرة: (وإذا سَأَلَكَ عِبَادي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُون).

ويأمره أن يقول لعباده الذين يسرفون على أنفسهم باقتراف الذنوب : لا تقنطوا من رحمة الله لأنه يغفر الذنوب جميعاً ، ولأنه الغفور الرحيم . وذلك في قوله من سورة

الزمر : (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ) .

وفي غير آية من القرآن الكريم يأمر الله النبي أن يعلم عباده أشياء كثيرة مما يريد أن يعلموها . سواء في ذلك ما كان أمراً لهم بالخير ، أو نهياً لهم عن الشر ، أو تثبيتاً لقلوبهم ، أو عصمة لهم من اليأس والقنوط .

وأحياناً يأمره أن يقول لهم أشياء ليس فيها أمر ولا نهي ولا تثبيت للقلوب ، وإنما فيها مجرد العلم ، مثل قوله في سورة الكهف :

(قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً) .

فهو في هذه الآية لا يأمرهم ولا ينهاهم ، ولا يثبت قلوبهم ولا يذود عنهم اليأس ، وإنما يعلمهم أن كلامه أزلي خالدٌ لا سبيل إلى إحصائه ولا إلى انقضائه ، حتى ولو حاول الناس كتابته بمداد يشبه في كثرته ما في البحر من الماء ، حتى ولو مدَّ هذا البحر ببحر آخر مثله .

وفي موضع آخر من القرآن يذكر الله هذا المعنى في تفصيل أكبر وأشمل،ويتحدث هو إلى الناس في الآية الكريمة من سورة لقمان :

(وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

وأحياناً أخرى يوجه الله عز وجل الحديث إلى الناس ولا ينص أمره بتكليف النبي أن يعلمهم كذا أو كذا . ولكنه على ذلك قد اختاره لرسالته وأمره أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه وأن يبلغه كاملاً كما أنزل إليه لا يزيد فيه ولا ينقص منه .

وهذا الأمر نفسه يقتضي أن يبلغ النبي نص ما أنزل إليه كما ألقي في قلبه ، وأن يبينه للناس حين يحتاجون إلى بيانه ، وهو يبينه للناس بما يلقي الله في قلبه من العلم .

فالله يأمر المؤمنين أن يقيموا الصلاة ، ويأمرهم أن يؤتوا الزكاة ، ولكنه لا يبين لهم القرآن كيف تؤدى الصلاة ، ولا يبين مواقيتها في تفصيل ولا يبين لهم عدد الركعات في كل صلاة ، وإنما يعلم نبيه هذا كله بما يلقي في قلبه من المعرفة . وعلى النبي أن يعلم الناس مما علمه الله ، ولا يخفي عليهم منه شيئاً يمكن أن ينفعهم في الدنيا والآخرة إن فعلوه ، أو يمكن أن يضرهم في الدنيا او الآخرة إن اقترفوه . فالنبي حين يصلي الصبح ركعتين بعد طلوع الفجر وقبل طلوع الشمس إنما يفعل ذلك عن أمر

ربه ، ويفعله لأداء واجب عليه ، ثم ليعلم الناس يؤدون ما يجب عليهم من الصلاة لله تعالى .

وقل مثل ذلك في سائر الصلوات المكتوبة . وهو حين يصلي بعض النوافل قبل أداء المكتوبة أو بعدها إنما يفعل ذلك عن تعليم الله له ، وليعلمه للناس على أنه ليس حتماً عليهم بل هو مستحب منهم . وهو حين يبين النصاب الذي تجب فيه الزكاة من المال ، ومقدار ما يطلب في هذه الزكاة ، إنما يبين ذلك للناس عن أمر ربه أيضاً .

وقل مثل ذلك في كل ما أجمله القرآن وفصله النبي بتعليمه للناس بالقول أحياناً وبالعمل أحياناً وبهما جميعاً أحياناً أخرى .

وقد بين الله للناس كيف يؤدون إليه حقه عليهم من صيام رمضان ، فأمرهم أن يحيوا حياتهم المألوفة ليلاً حتى إذا تبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر صاموا عن الطعام وعن أشياء أخرى مما ألفوا إلى الليل .

ولكن هذا الصيام الذي بينه الله وبين ما رخص فيه لمن كان مريضاً أو على سفر لم يفصل في القرآن كل التفصيل . فالناس يألفون أشياء كثيرة في حياتهم كلها مباح لهم ولم يحظر الله على الناس من هذه الأشياء في القرآن إلا الطعام والشراب والرفث وفصل النبي للمؤمنين سائر ما يجب عليهم أو يحسن بهم أن يجتنبوه وما لا حرج في أن يأتوه ، وقل مثل ذلك في الحج وفي كل ما أمر الله به أو نهى عنه إجمالاً أو تفصيلاً .

فقد كان النبي ﷺ إذن أول مفسر للقرآن ، وهو فسر القرآن بالقول وبالعمل ، ولأمر ما جعلت كتب الحديث بين أبوابها باباً نقلت فيه ما روي عن النبي ﷺ من قول أو عمل بمناسبة سورة أو آية من القرآن . والله قد طلب إلى الناس في القرآن أن يؤمنوا به وبرسوله محمد ﷺ وبالأنبياء والرسل الذين جاءوا قبل محمد وبما أنزل من كتب قبل القرآن وأن يؤمنوا باليوم الآخر وما يكون فيه من الحساب والثواب والعقاب وأن يؤمنوا بالملائكة . فقال في الآية الكريمة من سورة البقرة : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) .

وقال في أول السورة نفسها في بيان المتقين : (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ

وأُولئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ) .

والله ذكر الإسلام فقال في سورة آل عمران : (إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسْلاَم) .

وقال في سورة الأنعام: (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ الإسْلاَم ومَنْ يُرِدِ أن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كأنَّما يَصَّعَّدُ في السَّماءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤمِنُون) .

وذكر الله في غير موضع من القرآن أن إبراهيم قد أسلم وجهه لله ، وأنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وإنما كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ، وقال في سورة آل عمران : (مَا كَانَ إبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً ولا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِين. إنَّ أولَى النَّاسِ بإبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ والَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ المُؤْمِنِين) .

وقال في سورة البقرة على لسان إبراهيم: (رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إنَّكَ أنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيم . رَبَّنَا وَابعَثْ فِيهِم رَسُولاً مِنْهُم يَتْلو عَلَيْهِم آياتِكَ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ ويُزَكِّيهِم إنَّكَ أنْتَ العَزِيزُ الحَكِيم . وَمَن يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ولقد اصْطَفَيْنَاهُ في الدُّنيَا وَإنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِين . إذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أسْلِم قَالَ أسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ .وَوَصَّى بِهَا إبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ويَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوتُ إذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إلهَكَ وإلَهَ آبَائِكَ إبْرَاهِيمَ وَإسْمَعِيلَ وإسْحَقَ إلَهاً واحِداً ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون. تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ ولَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ولاَ تُسْألُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وقَالُوا كُونُوا هُوداً أو نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ. قُولُوا آمَنَّا باللهِ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إلى إبْرَاهِيمَ وإسْمَعِيلَ وإسْحَقَ ويعْقُوبَ والأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّون مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْهُم ونَحْنُ لهُ مُسْلِمُون . فَإنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وإنْ تَوَلَّوا فَإنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ).

فالله يثبت في هذه الآيات دعاء إبراهيم وإسماعيل أثناء رفعهما القواعد من البيت أن

يجعلهما الله مسلمين له ، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة له ، وأن يبعث في هذه الأمة رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وينبئنا بعد ذلك بأن أبناءه وأحفاده ظلوا مسلمين من بعده وأن يعقوب قد وصى بنيه بالإسلام وامتحنهم فيه حتى حضره الموت .

ثم ينبئنا بأن أهل الكتاب يزعمون أن من أراد الهدى فعليه أن يكون يهودياً أو نصرانياً . ثم يأمر الله نبيه أن يرد عليهم بقوله : (بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ) .

ويأمر المؤمنين بأن يعلنوا إيمانهم بالرسل والنبيين من قبلهم ، وبما آتاهم ربهم من كتاب وعلم دين وأنهم مسلمون لله .

ويقول الله في سورة الحج (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا واسْجُدُوا واعْبُدُوا رَبَّكُم وافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ المُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُم وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُم فَنِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) .

فإبراهيم إذن هو الذي سمى المؤمنين مسلمين ، وهو أبوهم ، وقد كان مسلماً . وقد قرأت آنفاً ما قص الله من دعائه في سورة البقرة ، ودعاء إسماعيل معه ، حين سألا ربهما أن يجعلهما مسلمَيْن له ويجعل من ذريتهما أمة مسلمة له .

فالله إذن قد ذكر الإيمان والإسلام في هذه الآيات التي تلوناها ولم يفرق بينهما . كلاهما فيه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والجهاد في سبيل الله وفعل الخير ، وأداء كل ما يأمر الله به ، واجتناب كل ما نهى الله عنه . والله قد ذكر الإيمان والإسلام في آيات أخرى كثيرة من القرآن ولم يفرق بينهما . فقال في سورة « المؤمنون » يصف الذين آمنوا حق الإيمان وهو بذلك يعرف الإيمان تعريفاً عملياً بأنه أداء ما أمر الله واجتناب ما نهى الله عنه : (قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ والَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِم حَافِظُونَ . إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِم أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهِم فَإِنَّهُم غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ . والَّذِينَ هُم لِأَمَانَاتِهِم وَعَهْدِهِم رَاعُونَ . والَّذِينَ هُم عَلَى صَلَوَاتِهِم يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوسَ

هُمْ فِيها خَالِدُون) .

ويقول الله في سورة الأحزاب : (إِنَّ المُسْلِمِينَ والمُسْلِمَاتِ والمؤْمِنِينَ والمؤْمِنَاتِ والقَانِتِينَ والقَانِتَاتِ والصَّادِقِينَ والصَّادِقَاتِ والصَّابِرِينَ والصَّابِرَاتِ والخَاشِعِينَ والخَاشِعَاتِ والمُتَصَدِّقِينَ والمُتَصَدِّقَاتِ والصَّائِمِينَ والصَّائِمَاتِ الحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ والحَافِظَاتِ والذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً والذَّاكِرَاتِ أعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وأجْراً عَظِيماً) .

فهو في هذه الآية يعطف المؤمنين على المسلمين وفي هذا العطف إشارة إلى أن بين الإسلام والإيمان شيئاً من الاختلاف . وليس من الضروري أن يكون هذا الاختلاف تناقضاً أو تغايراً بين اللفظين وإنما يمكن أن يأتي الاختلاف من أن بين معنى هاتين الكلمتين شيئاً من الافتراق في الزيادة والنقص . فمعنى إحدى الكلمتين أكمل من معنى الكلمة الأخرى . ثم يعدد الله في هذه الآية الكريمة صفات كلها يدخل في معنى الإيمان وفي معنى الإسلام. فهي تدل على أوامر من الله يجب أن تؤدي ونواهي الله يجب أن يُجتنب ما تنهى عنه .

على أن الله يوضح الفرق بين الإسلام والإيمان توضيحاً لا يحتمل نزاعاً في قوله من سورة الحجرات : (قَالَتِ الأعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مِنْ أعْمَالِكُمْ شَيْئاً إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

فأولئك الأعراب الذين أعلنوا أنهم آمنوا ، يأمر الله نبيه أن يرد عليهم بأنهم لم يؤمنوا ، ويأذن لهم في أن يقولوا أسلمنا ، وإن كان الإيمان لم يدخل في قلوبهم بعد . ثم يعلن إليهم أنهم إن يطيعوا الله ورسوله لا ينقصهم الله من أعمالهم شيئاً وإنما يوفيهم أجر ما عملوا كاملاً يوم القيامة ذلك أن الله غفور رحيم .

وإذن فقد كان في عهد النبي ﷺ مؤمنون ومسلمون . فما عسى أن يكون الفرق بين الإيمان والإسلام ؟ فأما الإيمان فالظاهر من هذه الآية الكريمة نفسها ، أنه شيء في القلوب قوامه إخلاص الدين لله من دخيلة النفس واستقرار التصديق بوجوده وبإرساله النبي وبكل ما أوحى إليه في أعماق الضمير . ونتيجة هذا الإيمان الاستجابة لله ولرسوله في كل ما يدعوان إليه ، من غير جمجمة ولا لجلجة ولا تردد مهما تكن الظروف والخطوب والكوارث والأحداث على نحو ما ذكر الله من أمر المؤمنين الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح يوم أحد ، فخرجوا مع النبي في أعقاب

المشركين من قريش ، على ما أصابهم من حزن ، وما بذلوا في الموقعة من جهد وما كانوا عليه من قلة وضعف ، والذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم هذا القول إيماناً ، وصمموا على اتباع النبي وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل .

وذلك في قول الله عز وجل في سورة آل عمران ، بعد أن ذكر حياة الشهداء عنده : (فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ القَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجرٌ عَظِيمٌ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيماناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ ، وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) .

ولازمة أخرى من لوازم هذا الإيمان ذكرها الله في سورة الأنفال ، هي الخوف العميق من الله إذا ذُكر اسمه ، والثقة العميقة بالله إذا جد الجد وازدياد التصديق إذا تُليت آيات الله ، وذلك في قوله :

(إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

فهذا هو الإيمان صورناه تصويراً مقارباً ، فأما الإسلام فهو الطاعة الظاهرة لما يأمر الله ورسوله به وما ينهيان عنه ، بأداء الواجبات واجتناب المحظورات ، وإن لم يبلغ الايمان الصادق من القلب المبلغ الذي وصفه الله في الآيات الكريمة التي أثبتناها آنفاً. فمن الناس من يسلمون خوفاً من البأس ، كما أسلم الطلقاء من قريش يوم فتح مكة ، ومنهم من يسلم خوفاً وطمعاً كالأعراب الذين ذكرهم الله في سورة الحجرات ، وجائز أن يصير هذا الإسلام إلى الإيمان على مر الزمن ومن أجل ذلك اصطنع الله لفظ « لما » في قوله في الآية الكريمة التي أثبتناها آنفاً بشأن هؤلاء الأعراب : (وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ). فكل مؤمن مسلم ، لأنه يصدق تصديقاً عميقاً ويطيع الطاعة الظاهرة والباطنة . وليس كل مسلم مؤمناً . والإسلام كما شرحناه آنفاً هو الذي يعصم نفوس أصحابه وأموالهم من النبي ومن أولي الأمر بعده إلا بحقها وحسابهم على الله .

ذلك أن النبي كان كثيراً ما يُستأذن في قتل المنافقين أو من يظهر منهم الشك فيأبى ويقول إني لم أؤمر بالتنقيب عما في قلوب الناس .

والإيمان يزيد وينقص ولا داعي لتكلف الدليل على ذلك . فقد نصّ الله ذلك في القرآن في الآية التي أثبتناها آنفاً من سورة الأنفال حيث يقول : (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً) . وفي الآية التي أثبتناها أيضاً من سورة آل عمران حيث يقول الله : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُم فَزَادَهُم إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيل) .

وما تجوز عليه الزيادة يجوز عليه النقص ومن أجل هذا يُذكر في حديث الشفاعة أن الله يقول لنبيه حين يشفع عنده في أمته : اذهب فأخرج من النار من كان في قلبه مقدار حبة من إيمان . ثم يقول له آخر الأمر : اذهب فأخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان .

والإسلام كذلك يضيق ويتسع . فإسلام إبراهيم عليه السلام لم يكن طاعة ظاهرة تؤديها الجوارح وإنما كان طاعة واسعة عميقة تملأ القلب وتمتزج بالنفس وتسخر لها الجوارح ويقدم لها على ما لا يُقدم الناس عليه إلا بالجهد كل الجهد واستكراه النفس عليه أشد الاستكراه . ومن أجل ذلك قدم إبراهيم ابنه ضحية ، وكاد يبلغ من ذلك غايته لولا أن كفه الله عن ذلك فناداه : أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ؛ ثم فداه بذبح عظيم.

وكان النبي ﷺ مسلماً وكان سائر الأنبياء مسلمين كما رأيت منذ حين . فلم يكن إسلام الأنبياء جميعاً طاعة ظاهرة . وإنما كان إسلامهم أوسع وأعمق وأصدق ما يمكن أن يكون الإسلام وإسلام الصالحين من أصحاب النبي كذلك لم يكن كإسلام الأعراب ضيقاً يقف عند الطاعة الظاهرة وإنما كان أوسع وأعمق من هذا .

ومن أجل ذلك تحدث الله عنهم في القرآن حين قال في سورة الفتح : (لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) . فهم قد كانوا بايعوا رسول الله على الموت ، طابت أنفسهم عن ذلك استجابة لله ورسوله.وتحدث الله عنهم أيضاً بأنه رضي عنهم ورضوا عنه .

والإسلام بعد ذلك معنى آخر أخص جداً من هذا ، فهو علَم على الدين الذي يرضاه الله لعباده .

وقد نص الله ذلك في قوله منسورة المائدة: (الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً) .

وفي قوله من سورة آل عمران : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَام) .

وقد ذكر الله شيئاً ثالثاً في القرآن وهو الإحسان وذلك في قوله من سورة النحل: (إنَّ اللهَ يَأْمرُ بِالعدْلِ والإحْسانِ وَإيتَاءِ ذِي القُرْبى وينْهى عَنِ الفَحْشاءِ وَالمُنكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون) .

وفي الآية التي أثبتناها من سورة آل عمران حيث يقول :

(الَّذينَ اسْتَجَابُوا لله والرَّسُولِ مِنْ بَعْدِما أصَابهُمُ القرحُ لِلذينَ أحْسَنُوا مِنْهم واتَّقَوْا أجرٌ عظيم) .

وفي كل آية ذكر الله فيها (لا يُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنِين) أو أنه (يَجْزِي المُحْسِنِين) أو أنه (يُحِبُّ المُحْسِنِينَ) كل هذا يدل على الإحسان لأن لفظه مشتق منه ولأن معناه يلائم ما أمر الله به .

والإحسان هو أن يبلغ الإنسان في الطاعة حتى يصل منها إلى أقصى ما يطيق لا يفتر ولا يكسل ولا يقصر بل يجتهد بقلبه ونفسه وجوارحه ما وجد إلى الاجتهاد سبيلاً .

فهذه كلمات ثلاث في القرآن ، الإيمان والإسلام والإحسان، يكثر استعمالها وتتقارب معانيها . وقد عرّفها النبي صلى الله عليه وسلم فلم يجعل في واحدة منها شكاً .وذلك في الحديث الذي رواه الشيخان عن طلحة ابن عبيد الله قال : جاء رجل الى رسول الى صلى الله عليه وسلم من أهل نجد ثائر الرأس يُسمع دوي صوته ولا يُفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خمس صلوات في اليوم والليلة . فقال : هل عليّ غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تتطوع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وصيام رمضان . قال : هل عليّ غيره ؟ قال : لا ، إلا أن تتطوع . قال وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة . قال : هل عليّ غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تتطوع . قال : قال : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفلح إن صدق » .

فهذا الحديث يفسر الإسلام الذي كان عليه الأعراب . وهو هذه الطاعة الظاهرة في أداء الفرائض واجتناب المحظورات .

ولكن لأبي هريرة حديثاً أجمع من حديث طلحة وإن كنت أخشى أن يكون في آخره شيء من تزيُّد ، وقد رواه الشيخان أيضاً . قال أبو هريرة : كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً للناس فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه وبرسله وتؤمن بالبعث . قال : وما الإسلام ؟ قال : الاسلام أن

تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان . قال : ما الاحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : متى الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربها ، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان ، في خمس لا يعلمهن إلا الله . ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) الآية . ثم أدبر فقال : رُدُّوه . فلم يروا شيئاً . فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم .

والقسم الأول من الحديث هو الذي يعنينا لأنه مطابق للقرآن فالايمان – كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم – هو الذي ذكره الله في الآية المتقدمة من سورة البقرة . وكذلك الإسلام والإحسان . والله عنده علم الساعة – ما من ذلك شك – لأنه منصوص في القرآن. فأما أشراطها التي جاءت في الحديث وأن الرجل الذي جاء يسأل النبي كان جبريل أقبل يعلم الناس دينهم فإنا نتركه لأبي هريرة ولمن روى عنه يحملون تبعته .

وفي حديث آخر – يرويه الشيخان عن عبدالله بن عمر – يذكر النبي الأركان الخمسة للإسلام فيقول : بُني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان .

وهذه الأركان كغيرها من الأعمال التي أمر الله بها أو ندب إليها . والتي علمها النبي لأصحابه لا تُقبل من أصحابها إلا إذا حسنت نيتهم وصدق إيمانهم حين يؤدونها . ومن أجل ذلك قال النبي في الحديث الذي يروى عن عمر ، والذي يوشك ثقات المحدثين أن يجمعوا على صحته حتى قال بعضهم إنه متواتر : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . ومعنى ذلك أن إخلاص النية لله فيما يؤدي الإنسان من الفرائض وما يأتي من أعمال الخير والبر شرط لصحة ما يأتي وما يدع ، وقبول ذلك من الله عز وجل . والنية لا تكون بالألسنة وحدها وإنما يجب أن تكون في أعماق القلوب سواء أنطق بها الإنسان أم لم ينطق .

ومن أجل ذلك كله تأذن الله أن أعمال المنافقين لا تقبل وأنبأ بأنهم في الدرك الأسفل من النار وقال لنبيه :

(اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أو لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ) .

ونهاه آخر الأمر عن أن يصلي على أحد منهم مات أبداً أو يقوم على قبره . ذلك لأنهم كانوا يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، يعلنون الإيمان ويبطنون الكفر . وكانوا إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى لا ينشطون لها ولا يقبلون عليها من قلوبهم . كأنما كانوا يستكرهون عليها استكراها .

ولم يكتف النبي بتعليم الناس حقائق الإيمان والإسلام والإحسان وإنما كان يعلمهم خصائص هذه الخصال الثلاث وما ينبغي لأصحابها من العمل وما يجب عليه أن يجتنب في خاصة حياته وفي صلاته بالناس . فكان يعلمهم أن الإنسان لا يؤمن حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه وكان يعلمهم أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلاينبغي له أن يؤذي جاره ولا أن يقصر في إكرام ضيفه . وكان يعلمهم أن جائزة الضيف يوم وليلة وأن الضيافة ثلاثة أيام وأن ما زاد على هذه الأيام الثلاثة من القرى فهو صدقة على الضيف .

وكان يعلمهم حتى الأشياء التي بيّنها الله في القرآن بياناً لا لبس فيه . فالله قد بين الوضوء في الآية الكريمة من سورة المائدة :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

فالله قد بين للناس في هذه الآية كيف يتوضأون للصلاة وأن عليهم أن يغتسلوا إن كانوا جنباً فإن لم يجدوا الماء للوضوء أو للاغتسال أو كان الماء يؤذيهم إن اصطنعوه لمرض يمنعهم من اصطناعه أو كانوا مسافرين فلهم أن يمسوا صعيداً طيباً وأن يمسحوا منه وجوههم وأيديهم إلى المرافق فذلك يجزئهم عن الوضوء والغسل جميعاً . ثم بين الله تعالى في آخر الآية أنه لا يريد أن يشق على عباده وإنما يريد منهم أن يطهروا .

وعلى رغم ما في هذا من الوضوح فقد كان النبي ﷺ يتوضأ للناس ليريهم كيف يتوضأون . وكان يتيمم لهم أيضاً ليريهم كيف يتيممون . وكان يذكر لهم كيف يغتسلون . كل هذا ليكون المسلمون على ثقة مما يأتون ويدعون ، وليكون النبي مؤدياً لرسالته على أتم وجه وأحسنه ، وكان يلح عليهم في النظافة نظافة أجسامهم وثيابهم

ومجالسهم بل نظافتهم في حياتهم مع الناس فكان ينهي الذين يأكلون البصل أو الثوم أو أي شيء تؤذي رائحته أن يدخلوا المسجد ويشهدوا صلاة الجماعة ، حتى لا يؤذي بعضهم بعضاً . وكان يرخص لهم في الصلاة فرادى في بيوتهم حتى يذهب عنهم ما يمكن أن يؤذي جلساءهم . وكان يلح عليهم في أن تكون طرقهم التي يمشون فيها نظيفة ، وينبئهم بأن إماطة الأذى عن الطريق فضيلة يكمل بها الإيمان .

وكان يكره لمن عنده فضل من الماء أن يمنعه ابن السبيل ومن تشتد حاجته إليه .

ثم كان يحثهم على الأمانة في معاملاتهم كلها في حفظ الودائع وأدائها إلى أصحابها وفي البيع والشراء وفي جميع أقوالهم وأعمالهم ، وكان يشدد عليهم في العدل في صلاتهم كلها ويحرج على المختصمين بين يديه أن يجور بعضهم على بعض ولو بفصاحة الألسنة والبراعة في الجدل . وكان ينبئهم بأن من غلب خصمه باللسن أو قوة العارضة ثم قضى له بغير ما يستحق فإنما قضى له بقطعة من النار .

وكان بهذا كله ينفذ فيهم قول الله تعالى في سورة النساء :

(إنَّ اللهَ يَأمُرُكُم أنْ تُؤدُّوا الأمَانَاتِ إلىَ أهْلِها وَإذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أنْ تحكمُوا بِالْعَدْلِ إنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً) .

وكان يشدد في تخويف الحكام من الأئمة والولاة والقضاة بالعذاب الشديد إن جاروا في الرعية ولم يرفقوا بها ولم يرعوا العدل في أحكامهم تنفيذاً لقول الله في الآية الكريمة من سورة النحل : (إنَّ اللهَ يأمُرُ بِالْعَدْلِ والإحسانِ وَإيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكرِ والبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُم تَذكَّرُون) .

ولم يكن شيء أبغض إليه من نقض العهود والحنث في الإيمان يبين للناس قول الله من سورة النحل : (وأوْفُوا بعَهْدِ اللهِ إذَا عَاهَدْتمْ ولا تَنْقُضُوا الأيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَد جَعَلْتُم اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ . ولاَ تَكُونُوا كالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أنْكاثاً تَتَّخِذونَ أيْمَانَكم دَخَلاً بينكم أنْ تَكونَ أمَّةٌ هِيَ أرْبَى من أمَّةٍ إنما يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لكم يَوْمَ الْقِيَامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) .

وكان شديد الحياء جداً وكان شديداً فيه على أصحابه ، وكان يقول لهم إن الحياء شعبة من الإيمان ثم كان لا يدع صغيرة أو كبيرة من أعمال الناس في حياتهم العامة والخاصة إلا بين لهم ما يحسن أن يأتوا منها وما يحسن أن يتركوا وكان يعظهم فيبلغ

في الموعظة حتى يوشك أن يشرف بهم على اليأس . ثم يبشرهم فيبلغ في تبشيرهم حتى يفتح لهم أبواب الرجاء على مصاريعها . وكان كثيراً ما يقول لأصحابه : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً .

ثم كان يحب اليسر في الأمر كله لا يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، وكان يقول لأصحابه إنما بعثتم ميسرين لا معسرين . وكان يكره الغلو في الدين وتجاوز القصد في العبادة . بلغه أن رجلاً من أصحابه ومن خيارهم هو عبد الله بن عمرو بن العاص أزمع أن يصوم الدهر ويقوم الليل فراجعه في ذلك أشد المراجعة ، وذكره بأن لجسمه عليه حقاً ولأهله عليه حقاً وما زال به حتى ألزمه بعد ما رأى من تشدده أن يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وأنبأه أن ذلك كان صيام نبي الله داود .

وأبى على رجل من كرام أصحابه — هو عثمان بن مظعون — أن يترهب ويعتزل أهله.

وكان هو يشتد على نفسه في العبادة فيقوم كثيراً من الليل وربما واصل بين الليل والنهار في صيامه، وكان أصحابه يريدون أن يصنعوا صنيعه فينهاهم عن ذلك أشد النهي كراهة أن يشددوا على أنفسهم فيشدد الله عليهم . ويقول لهم في مواصلة الصوم إني لست كهيئتكم إني أظل يطعمني ربي ويسقيني يريد أن الله يمنحه من الصبر والجلد وحسن الاحتمال ما لا يمنح غيره من أصحابه .

ونحن نروي لك شيئاً من موعظته لأصحابه لترى كيف كان يبلغ بوعظه أعماق النفوس ودخائل الضمائر .

قال لأصحابه ذات غداة : « إنه أتاني الليلة آتيان وإنهما ابتعثاني وإنهما قالا لي : انطلق ، وإني انطلقت معهما ، وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه فيتهدهد الحجر ها هنا ، فيتبع الحجر ، فيأخذه ، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان . ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى .

قال : قلت لهما : سبحان الله ! ما هذان ؟

قال : قالا لي : انطلق .

قال : فانطلقنا ، فأتينا على رجل مستلق لقفاه ، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد ، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه .

قال : ثم يتحول إلى الجانب الآخر ، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول فما

يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ثم يعود عليه فيفعل مثل مافعل المرة الأولى .

قال : قلت : سبحان الله ! ما هذان ؟

قال : قالا لي : انطلق . فانطلقنا ، فأتينا على مثل التنور ، فإذا فيه لغط وأصوات .

قال : فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة ، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم ، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضَوْا [١] .

قال : قلت لهما : ما هؤلاء ؟

قال : قالا لي : انطلق ، انطلق .

قال : فانطلقنا . فأتينا على نهر أحمر مثل الدم ، وإذا في النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجراً. فينطلق يسبح ثم يرجع إليه ، وكلما رجع إليه فغر له فاه فألقمه حجراً .

قال : قلت لهما : ما هذان ؟

قال : قالا لي : انطلق ، انطلق .

قال : فانطلقنا ، فأتينا على رجل كريه المرآة ، كأكره ما أنت راء رجلاً ، مرآة ، وإذا عنده نار يحشها ويسعى حولها .

قال : قلت لهما : ما هذا ؟

قال : قالا لي : انطلق . انطلق .

قال : فانطلقنا ، فأتينا على روضة معتمة ، فيها من كل نور الربيع ، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء ، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط .

قال : قلت لهما : ما هذا ؟ ما هؤلاء ؟

قال : قالا لي : انطلق . انطلق .

قال : فانطلقنا فانتهينا إلى روضة عظيمة ، لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن.

قال : قالا لي : ارقَ فيها .

قال : فارتقينا فيها فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة ، فأتينا باب

---

(١) أي : ضجوا وصاحوا .

المدينة فاستفتحنا ، ففتح لنا ، فدخلناها فتلقانا فيها رجال ، شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء ، وشطر كأقبح ما أنت راء .

قال : قالا لهم : اذهبوا فقعوا في ذلك النهر .

قال : وإذا نهر معترض يجرى كأن ماءه المحض في البياض . فذهبوا فوقعوا فيه . ثم رجعوا إلينا وقد ذهب ذلك السوء عنهم ، فصاروا في أحسن صورة .

قال : قالا لي : هذه جنة عدن وهذا منزلك .

قال : فسما بصرى صعداً ، فإذا قصر مثل الربابة البيضاء .

قال : قالا لي : هذاك منزلك .

قال : قلت لهما : بارك الله فيكما ، ذراني فأدخله . قالا : أما الآن فلا ، وأنت داخله .

قال : قلت لهما : فإني قد رأيت الليلة عجباً . فما هذا الذي رأيت ؟

قال : قال لي : أما إنا سنخبرك . أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر ، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة . وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق . وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزواني . وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر ، فإنه آكل الربا . وأما الرجل الكريه المرآة الذي عند النار ، يحشها ويسعى حولها فإنه مالك خازن جهنم . وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم ﷺ . وأما الولدان الذين حوله فكلّ مولود مات على الفطرة .

قال : فقال بعض المسلمين : يا رسول الله أوَ أولاد المشركين !

فقال رسول الله ﷺ : وأولاد المشركين .

وأما القوم الذين كانوا : شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم .

وهذا الحديث يرويه البخاري بالنص الذي رويناه ويوافقه عليه مسلم وتظهر فيه الصحة لأنه لا يعدو ما أنذر الله به المذنبين من ألوان العذاب إلا أن يتوبوا ويصلحوا، ولأن قوة لفظه وحسن تمثيله وإشراق عبارته كل ذلك يلائم ما نعرف من فصاحة النبي وروعة بيانه .

ففكر في موقع هذا الكلام من قلوب أصحاب النبي حين سمعوه وكيف خوف

حتى ملأ القلوب رعباً وكيف رغب حتى ملأ النفوس أملاً .

وكان النبي ﷺ ربما عاقب بعض أصحابه فأبلغ في عقابهم عن أمر الله له بذلك إمعاناً في تأديبهم وضناً بهم أن يشبهوا المنافقين في قليل أو كثير .

فهؤلاء الثلاثة الذين كانوا من خيار أصحابه والذين تخلفوا عن النبي ولم يخرجوا معه في غزوة تبوك وإنما أقاموا في المدينة وانتظروا فيها عودة النبي إليها فصنعوا صنيعاً يشبه صنيع المنافقين من أهل المدينة وممن حولها من الأعراب أولئك الذين رغبوا بأنفسهم عن رسول الله واستحبوا الراحة على العناء والجهد وأشفقوا على أنفسهم من عواقب الحرب وأولئك الذين ذكرهم الله في آيات كثيرة من سورة التوبة يلومهم ويعنفهم ويأمر نبيه ألا يصلي عليهم إن ماتوا ولا يقوم على قبورهم ويأمره كذلك ألا يقبل منهم الخروج معه بعد هذا الذنب .

وقد كره الله ورسوله لهؤلاء الثلاثة من المؤمنين الصادقين أن يظهر من صنيعهم شيء يشبه قليلاً او كثيراً صنيع المنافقين .

وقد ذكر الله توبته على هؤلاء الثلاثة ولكن بعد أن أدبهم النبي فأبلغ في تأديبهم نصحاً لهم أولاً وموعظة للمؤمنين الصادقين بعد ذلك .

والآيتان اللتان ذكرت فيهما توبة الله على هؤلاء الثلاثة هما قول الله عز وجل : (لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلى النَّبِيِّ والمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيم وَعَلى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إذا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أنْفُسُهُم وَظَنُّوا أنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إلاَّ إلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِم لِيَتُوبُوا إنَّ اللهَ هوَ التَّوَّابُ الرَّحِيم) .

وكان كعب بن مالك الأنصاري ، وأحد المنافحين عن النبي بشعره ، أحد هؤلاء الثلاثة . وقد حفظ لنا الشيخان قصة تخلفه ، كما تحدث هو بها . وليس أبلغ منها في بيان تأديب النبي لأصحابه ، فنرويها لك هنا لترى كيف كان النبي يشتد على الصادقين من أصحابه حين تجب الشدة عليهم ، تمحيصاً لقلوبهم وتنقية لضمائرهم .

قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ ، في غزوة غزاها ، إلا في غزوة تبوك . غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها . إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش . حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الاسلام . وما أحب أن لي بها

مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها . كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة . والله ! ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط ، حتى جمعتهما في تلك الغزوة . ولم يكن رسول الله ﷺ ، يريد غزوة إلا ورّى بغيرها . حتى كانت تلك الغزوة ، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومفازاً وعدوّاً كثيراً . فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم . فأخبرهم بوجهه الذي يريد . والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير . ولا يجمعهم كتاب حافظ – يريد الديوان – .

قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن يستخفي له ، ما لم ينزل فيه وحي الله . وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة ، حين طابت الثمار والظلال. وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه. فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم. فأرجع ولم أقض شيئاً . فأقول في نفسي : أنا قادر عليه . فلم يزل يتمادى بي، حتى اشتد بالناس الجد ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه . ولم أقض من جهازي شيئاً . فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم. فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئاً . ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئاً . فلم يزل بي حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم . وليتني فعلت ! فلم يقدر لي ذلك . فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصاً عليه النفاق، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء. ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك . فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعب » ؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله ! حبسه برداه ونظره في عطفه. فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت . والله يا رسول الله ! ما علمنا عليه إلا خيراً . فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همي . وطفقت أتذكر الكذب ، وأقول : بماذا أخرج من سخطه غداً ؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي. فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب ، فأجمعت صدقه . وأصبح رسول الله ﷺ قادماً . وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس . فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا . فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ، وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله .

فجئته . فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب . ثم قال : « تعال » فجئت أمشي حتى جلست بين يديه . فقال لي : ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر . ولقد أعطيت جدلاً . ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ، ليوشكن الله أن يسخطك علي . ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه ، إني لأرجو فيه عفو الله . لا والله ، ما كان لي من عذر . والله ، ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدق . فقم حتى يقضي الله فيك ، فقمت . وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني. فقالوا لي : والله ! ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا . ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون . قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك فوالله ! ما زالوا يؤمنونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي . ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم . رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك . فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمري ، وهلال بن أمية الواقفي . فذكروا لي رجلين صالحين ، قد شهدا بدراً فيهما أسوة . فمضيت حين ذكروهما لي .

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا ، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين ليلة .

فأما صاحباي فاستكانا ، وقعدا في بيوتهما يبكيان . وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم . فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد . وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، وهو في مجلسه بعد الصلاة . فأقول في نفسي : هل حرّك شفتيه برد السلام عليّ أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر . فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ وإذا التفتُ نحوه أعرض عني . حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه . فوالله ما رد عليّ السلام . فقلت : يا أبا قتادة ! أنشدك بالله ! هل تعلمني أحب الله ورسوله ! فسكت فعدت له فنشدته فسكت . فعدت له فنشدته . فقال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناي ، وتوليت حتى تسورت الجدار .

قال : فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام

بيبعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق النـاس يشيرون له . حتى إذا جاءني ، دفع إلي كتاباً من ملك غسان . فإذا فيه : أما بعـد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك . ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة . فالحق بنا نواسك . فقلت لما قرأتها : وهذا أيضاً من البلاء . فتيممت بها التنور فسجرته بهـا . حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا رسولُ الله ﷺ يأتيني . فقـال . إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها ؟ أم ماذا أفعل ؟ قال : لا بـل اعتزلها ولا تقربها . وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك . فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك ، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر .

قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسولَ الله ﷺ فقالت : يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ! قال : لا . ولكن لا يقربك . قالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء . والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان ، إلى يومه هذا . فقال لي بعض أهـلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ! فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم.وما يدريني مايقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها . وأنا رجل شاب ؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليـلة من حين نهى رسول الله صلى عليه وسلم عن كلامنا . فلما صليت صلاة الفجر ، صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا . فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قـد ضاقت على نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع ، بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ، قال فخررت ساجداً وعرفت أن قـد جاء فرج. وآذن رسول الله صلى عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر . فذهب الناس يبشروننا وذهب قِبَل صاحبيّ مبشرون وركض إلى رجل فرساً وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل . وكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ ، فكسوته إياهما ببُشراه . والله ! ما أملك غيرهما يومئـذ . واستعرت ثوبين فلبستهما . وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئونني بالتوبة يقولون . لتهنك توبة الله عليك .

قال كعب : حتى دخلت المسجد . فإذا رسول الله صلى الله عليـه وسلم جالس حوله الناس . فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول وهنأني والله ما قام إليّ رجـل من المهاجرين غيره . ولا أنساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال : قلت أمن عندك يا رسول الله ، أم من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر. وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك . قلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر .

فقلت : يا رسول الله ! إن الله إنما نجاني بالصدق وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت . فوالله ! ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث ، منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني ، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول ﷺ إلى يومي هذا كذباً . وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت .

وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم: (لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ) - إلى قوله - (وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) . فوالله ! ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام ، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا . فإن الله قال للذين كذبوا ،حين أنزل الوحي ، شر ما قال لأحد . فقال تبارك وتعالى : (سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إذَا انقلبتم) إلى قوله (فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ) .

قال كعب : وكنا قد تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبِل منهم رسول رسول الله صلى عليه وسلم حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه .

فبذلك قال الله :(وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا) وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو ، إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه ، فقبل منه .

فانظر إلى هذه القصة الرائعة وإلى ما فيها من العبر والموعظة ، وإلى تأديب النبي لمن يحب من أصحابه الصادقين حين يحتاجون إلى التأديب فهؤلاء الثلاثة قد تخلفوا ولم يكن لهم عذر من ضعف أو فقر أو عجز عن السفر، وإنما امتحنهم الله ببعض أعمالهم ليبلوهم ويطهر قلوبهم ، وكان كثير من الناس قد تخلفوا عن هذه الغزوة ، يعدهم كعب نيفاً وثمانين رجلا . فلما عاد النبي إلى المدينة أقبل المتخلفون فجعلوا يتكلفون المعاذير

ويقولون للنبي غير الحق ، وجعل النبي يقبل معاذيرهم ويستغفر لهم لأنه – كما كان يقول دائماً – لم يؤمر بالتنقيب عما في قلوب الناس . ولكن هؤلاء الثلاثة كانوا أشد الناس إيماناً بالله ورسوله ، وأصدق حباً لهما من أن يضيفا إلى تخلفهم خطيئة الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم . وهم يعلمون حق العلم أن ضمائر المتخلفين المنافقين لم تكن لتخفى على الله ، وأن الله جدير أن ينبىء رسوله بسرائرهم . فآثروا الصدق وفاء لدينهم، وإشفاقاً أن يفضح الله كذبهم وتخلفهم فاعترفوا بذنوبهم وسمع النبي منهم وأعلن أنهم قد صدقوه ولم يعف عنهم مع ذلك . ترك أمرهم إلى الله يقضي فيه بما يشاء ، ثم لم يلبث أن أمعن في عقابهم فأمر المؤمنين ألا يكلموهم . وينظر هؤلاء الثلاثة فإذا هم قد اقتطعوا من الناس اقتطاعاً ، وإذا هم في عزلة بغيضة إلى نفوسهم كان السجن أهون منها . ومن أجل ذلك لزم اثنان منهم بيوتهما فلم يخرجا منها ولم يتعرضا لجفوة الناس، وإنما أقاما يؤديان الصلاة في بيوتهما ولا يشهدان جماعة المسلمين . ثم يبكيان أكثر وقتهما .
وأما كعب فقد كان جلداً يحسن الاحتمال ، فجعل يخرج ويغدو على الأسواق ويحتمل جفوة الناس متأذياً بها ، كأنه يبالغ في تأديب نفسه بالعقاب الذي فرض عليه . وهو يذهب إلى ابن عم له من أصحاب النبي فينشده الله ثلاثاً : أيعلم من أمره أنه يحب الله ورسوله؟ فيسكت عنه ابن عمه حتى إذا ألح عليه كعب في المسألة أجابه بهذا الجواب اللاذع الممض : الله ورسوله أعلم . وما كان له أن يجيب بغير هذا فالنبي غاضب على هؤلاء الثلاثة وغضبه من غضب الله . ثم كان كعب يذهب إلى المسجد ويشهد صلاة المسلمين ويصلي بعض النوافل قريباً من مجلس النبي ، ليرى أينظر النبي إليه أم يعرض عنه . وإذا هو يستكشف أن النبي ينظر إليه حين يقبل على صلاته . فإذا نظر إلى النبي أعرض النبي عنه ولكن النبي يرسل إليه ذات يوم وإلى صاحبيه من يبلغهم أن النبي يأمرهم أن يعتزلوا نساءهم .

وليس في هذا شيء من الغرابة ، فنساؤهم مؤمنات وقد صدر الأمر إلى المؤمنين باعتزالهم ، فليعتزلهم نساؤهم أيضاً . فأما كعب فقد أرسل زوجه إلى أهلها حتى يقضي الله في أمرهم . وبعد أن مضت عليهم خمسون ليلة في هذه العزلة ، وقد أخذ الندم من قلوبهم أقوى مأخذ، أنزل الله توبته عليهم في الآيتين الكريمتين اللتين أثبتناهما منذ حين . وابتهج المؤمنون كلهم لذلك ، فكانوا يهنئون هؤلاء الثلاثة بتوبة الله عليهم. وقد فرح كعب بهذه التوبة فرحاً لم يفرح مثله لشيء قبلها ، وهمّ أن يتصدق بماله كله، فانظر إلى النبي يرفق به ويقبل منه الصدقة في وقت واحد . فيأمره أن يمسك بعض

مـــاله ليعيش منه وينفق على أهله ، وأن يتصدق بسائره ، فأمسك سهمه من خيبر وتصدق بما عداه .

وعاهد النبي على ألا يتكلف ولا يكذب متعمداً في حديث حتى يموت .

وتبلغ روعة هذه القصة أقصاها حين تقرأ في سورة التوبة تعذير الله للمتخلفين من المنافقين ، بين أهل المدينة ومن حولها من الأعراب . فترى شدة هذا التعذير وعنفه ، وتقرأ قصة هؤلاء الثلاثة فترى كيف نزلت عليهم رحمة الله كما ينزل الغيث على الأرض الميتة فيحييها بعد موتها .

وقد صورنا لك في كثير جداً من الإيجاز مكان النبي بين أصحابه بشيراً ونذيراً ، وشاهداً وداعياً إلى الله بإذنه ، ومفقهاً للمؤمنين في دينهم ، ومعلماً لهم في عظـــائم أمورهم ودقائقها .

فلا غرابة في أن تكون السنة هي الأصل الثاني بعد القرآن الكريم، من الأصول التي تبنى عليها حياة المسلمين . فكل ما يعرض للمسلمين من الأمر في حياتهم من المشكلات يجب عليهم أن يردوه إلى الله ورسوله . يلتمسون له الحل في القرآن، فإن وجدوا هذا الحل فهو حسبهم، وإن لم يجدوه فعليهم أن يلتمسوه في سنة النبي، فيما صحت به الرواية عنه من قول أو عمل . ذلك أن النبي لم يكن ينطق عن الهوى وإنما كان يعلم الناس مما علمه الله ، ويعلمهم في أكثر الأحيان عن أمر الله له بتعليمهم ويستشيرهم فيما لم يعلّمه الله من الأمر ويقبل مشورتهم . فـــإذا التُمس حل المشكلات في القرآن فلم يوجد ، والتُمس في السنة فلم يوجد ، فالمسلمون يرجعون إلى أصل ثالث من أصول الأحكام في الدين ، وهو اجماع أصحاب النبي . ذلك أن أصحاب النبي إن أجمعوا على شيء فأكبر الظن أنهم لم يجمعوا عليه إلا لأحد أمرين : فإما أن يكونوا قد عرفوا من قول النبي أو عمله ما لم يصل إلينا ، وإما أن يكونوا قـــد اجتهدوا رأيهم واختاروا لأنفسهم ، وهم خيار المسلمين وهم قدوة لهم ، ولا سيما قبل أن ينجم بينهم الخلاف وتفسد الفتنة عليهم كثيراً من أمرهم . فإن لم يجد المسلمون في القرآن ولا في السنة ، ولا فيما أجمـــع عليه أصحاب النبي ، حـــلاً لبعض مشكلاتهم فعليهم أن يجتهدوا رأيهم ، ناصحين لله ورسوله وللمسلمين .

– ٤ –

وأمر السنة بعد ذلك يختلف عن أمر القرآن أشد الاختلاف ، ذلك أن القرآن

قد وصل إلينا متواتراً مجمعاً عليه ، من أجيال المسلمين منذ حياة النبي إلى الآن ، وإلى آخر الدهر ما بقي في الأرض مسلمون . توارثته الأجيال كما تلاه النبي ، وكما كتبه عنه كتاب الوحي وكما جمع أيام أبي بكر ، وكما نسخ في المصاحف أيام عثمان ، وعلى ما كان بين المسلمين من اختلاف وانقسام وافتراق إلى فرق متباينة في الرأي ، من خوارج وشيعة وجماعة ، ثم على ما كان من الاختلاف بعد ذلك بين المسلمين في أصول الدين وفروعه وانقسام المتكلمين في الأصول إلى الكثرة المعروفة ، وانقسام الفقهاء وأصحاب الفروع كذلك إلى شيع تتباعد حيناً وتتقارب حيناً ، وعلى ما نزل بالمسلمين من الأحداث وما تتابع عليهم من الخطوب ، وما كان من تنقل الحكم فيهم بين الأحزاب أولا وبين الأمم والأوطان ثانياً .

على هذا كله ظل القرآن كما هو ، لم يختلف المسلمون في نصه ، فهو باق على الدهر لا يضره ان يختلف المسلمون في فهم نصوصه وفي تأويلها ، ولا كذلك السنة لأن النبي لم يأمر بكتابتها بل يروى أنه كان يكره ذلك . فالاعتماد في روايتها على الذاكرة ، وعلى ذاكرة الصالحين من المؤمنين . وكان أصحاب النبي يتشدد اكثرهم في رواية الحديث عن النبي ، بل كانوا لا يقبلون حديثاً عن النبي إلا أن يشهد اثنان من عدول المسلمين أنهما سمعاه من النبي أو رأياه يعمله . وكان عمر رحمه الله أشد الخلفاء في ذلك ، فكان ينذر من يتحدث عن النبي بالعقاب إلا أن يأتي بعدل من المسلمين ، يشهد معه بأنه سمع من النبي أو رأى منه مثل ما يروي المتحدث ، هنالك كان عمر يقبل الحديث ويعمل به.

ولكن الأمور لم تمض على ذلك دهراً طويلاً ، فلم تكد الفتنة تظل المسلمين حتى اشتد الخلاف بينهم ، وجعل بعضهم يكفر بعضاً وجعلت الأحزاب على مر الزمن تكثر الحديث عن النبي يريد كل حزب أن يثبت أنه أشد استمساكاً بسنة النبي من غيره ، ونشأ القصّاص الذين كانوا يجلسون لوعظ الناس مرغبين ومرهبين ، فأكثروا من الحديث وأضاف كثير منهم إلى النبي ما لم يقل ، يرغبون في فضائل الأعمال وينفرون من سيئاتها ولا يجدون حرجاً في أن يضيفوا إلى النبي ما لم يقل ما داموا لا يريدون إلا النصح للمسلمين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ والنبي أول ناصح للمسلمين ، وأول آمر بالمعروف وناه عن المنكر ، فكل أمر بالخير أو نهي عن الشر يمكن عند كثير من القصّاص أن يحمل على النبي . ثم نشأ الأشرار من المتكلفين وذوي النيات السيئة فأسرفوا في رواية الحديث وأكثروا من الكذب ، وعرف ذلك خيار المسلمين فأخلصوا أنفسهم لتصحيح الحديث ، وتنقيته من كل مكذوب أو مشكوك في كذبه . وذهبوا

في ذلك مذاهبهم المعروفة ، فجعلوا يتتبعون رواة الحديث ينقدون حياتهم ويتحرون أمرهم ، فمن وجدوا فيه مطعناً بالكذب ، أو الانحراف عن العدالة في السيرة، أو ضعف الذاكرة ، أو قلة التثبت مما يروى ، أو الأخذ عمن لا يصح الأخذ عنه،أعرضوا عنه ونبذوا حديثه ، ونبهوا على ما فيه من علة ، حتى نشأ عند المحدثين علم خاص بتصحيح الحديث .

وعلى رغم هذا كله من الواجب على كل مسلم،حين يُروى له الحديث عن النبي ﷺ ، أن يحتاط قبل الأخذ به ، وأن يعرضه على القرآن ، فإن كان لا يناقض القرآن في قليل ولا كثير ، ولا يناقض المألوف من سيرة النبي وعمله ، أخذ به وإلا وقف فيه .

وكذلك كان يفعل الصالحون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد قيل لعائشة — رحمها الله — إن بعض أصحاب النبي يروي عنه أنه قال إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه . فأنكرت هذا الحديث وقالت : اقرأوا قول الله عز وجل : (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) . وقيل لها : إن بعض أصحاب النبي يزعمون ان النبي رأى ربه . فأنكرت هذا أشد الإنكار وقالت لمحدثها : اقرأ قول الله عز وجل: (لا تُدْرِكُهُ الأبْصارُ وهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ وهُوَ اللطِيفُ الخَبِيرِ).

وقد رأيت كيف كان عمر يتشدد في رواية الحديث . فليس بد إذن كما قدمنا من الاحتياط في قبول الحديث ، حتى حين يرويه المصححون من المحدثين .

ولا بد من أن نلاحظ أن بعض أعمال النبي قد وصلت الينا متواترة لا معنى للشك فيها . فقد علمنا بالتواتر أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي الصبح ركعتين . والظهر والعصر والعشاء كل منها أربع ركعات ، والمغرب ثلاث ركعات .

وعلمنا أنه كان يركع مرة في كل ركعة ، ويسجد مرتين في كل ركعة ، ويجلس بعد كل ركعتين . كل هذا في الفرائض المكتوبة ، فلا معنى للجدال في ذلك. وعلمنا كذلك ما بيّن من نصاب الزكاة وما فرض فيها . وعلمنا من القرآن ومن السنة العملية كيف كان يصوم ، وكيف اعتمر وكيف حج ، فجملة أركان الإسلام ثابتة بالقرآن أولاً ، وببيان النبي العملي لها ثانياً .

وكثير من أعمال النبي وصل إلينا على نحو يقطع الشك ، فقد عرفنا كيف كان يصلي صلاة العيدين ، وكيف كان يصلي للاستسقاء ، ولما يعرض من كسوف الشمس وخسوف القمر .

فجملة الأصول وتفصيلها بمعزل عن الشك ، وإنما يكثر الشك ويختلف قوة وضعفاً

في بعض الفروع ، وفيما يتصل بالترغيب في الفضائل وفي التنفير من الشر ، ولا سيما أن بعض أئمة الحديث – كأحمد بن حنبل رحمه الله – كانوا لا يرون بأساً برواية الحديث الضعيف ، إذا كان متصلاً بالفضائل .

ومهما يكن من شيء فالقرآن جامع لما يحتاج إليه المسلمون من أصول الدين وأكثر فروعه ، والسنة الثابتة تفصل مجمله وتبين ما يحتاج منه إلى البيان . فليس على خلاصة الإسلام وأصوله بأس من ضعف الضعفاء ، وكذب الكذابين ، وزيغ الزائغين .

– ٥ –

وكذلك استقامت للمسلمين حياتهم صافية نقية مبرأة من الاختلاف والتنازع ، كأصفى وأنقى وأصدق ما تكون الحياة ، كان النبي بين أظهرهم يردون إليه أمرهم كله ، فيعلمهم مما علمه الله ، فإذا جاءه من أمرهم ما ليس عنده علم فيه ردّه هو إلى الله عز وجل ، فلا يلبث أن يأتيه الخبر اليقين من السماء . فلم تتصل الأرض بالسماء قط كما كانت متصلة أثناء حياة النبي . ومن أجل ذلك كان كعب بن مالك وصاحباه مشفقين من أن يعتذروا إلى النبي بغير الحق ، فيكذبهم الله بقرآن يتلى على الناس ، أو بوحي يلقى إلى النبي فيتحدث به إلى أصحابه . ومن أجل ذلك أيضاً أنبأ الله نبيه أثناء غيبته عن المدينة بكل ما كان المنافقون يعملون ويقولون . وأنبأه كذلك بأنهم سيعتذرون إليه وإلى أصحابه من تخلفهم حين يرجعون إليهم ، وأمره أن يقول لهم لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم . وذلك في قوله عز وجل في سورة التوبة :

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ . قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ، وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون) .

وكثيراً ما كان المسلمون يعرضون على النبي بعض أمرهم ، فيقول لهم أحياناً : ما عندي في هذا شيء ، ثم لا يلبث أن يدعو من عرضوا عليه الأمر فينبئهم بحكم الله فيه وأحياناً يظهر الإعراض عن سائليه بأنه لم يأته علم من الله بما سألوه عنه ، ثم ينزل القرآن فيقضي فيهم بحكم الله ، كما كان من أمر ذلك الرجل الذي زعم لرجل من أصحاب النبي أنه وجد عند أهله غيره ولم يدر ماذا يصنع ، وأشفق أن يقتله فيقتل

به . فكلف صاحبه ذاك أن يسأل النبي في أمره . وذهب صاحبه فسأل النبي، فأعرض عنه وأظهر الكراهية للسؤال . وقص الرجل على صاحبه ما رأى من كراهية النبي للمسألة ، فأبى الرجل إلا أن يسأل النبي ففعل ، وأجابه النبي بأن الله قد أنزل فيه وفي صاحبته قرآناً ، وأمره أن يدعو صاحبته . فأنفذ فيهما ما قضى الله بالآية الكريمة من سورة النور : (والَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ . والخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الكَاذِبِينَ . وَيَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الكَاذِبِينَ . والخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ) .

ولست أعرف أبلغ من قول أم أيمن ، حين كلمت في بكائها بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : إنها إنما تبكي لانقطاع خبر السماء. ذلك أن وفاة النبي قطعت عن المسلمين هذا الخبر حقاً . فلم يكن وحي بعده . ولم يكن للذين قاموا بأمر المسلمين من الخلفاء إلا أن يصرفوا الأمور بما نزل من القرآن ، وبما ثبت لهم من حديث النبي ، بسماعهم هم أو بسماع العدول من أصحابهم .

وقد ظلت حياة المسلمين نقية صافية أيام أبي بكر – رحمه الله – كدرتها ردة العرب . فلما قمعت ثورتهم ، وعادوا إلى ما كانوا عليه أيام النبي من الطاعة في كل ما أمر الله ، برئت حياة المسلمين من الشوائب ، ورمى بهم أبو بكر الشام والعراق ، ثم جاء عمر – رحمه الله – بعد أبي بكر فاشتد إلى أقصى حدود الشدة في المحافظة على صفاء الحياة الإسلامية ونقائها ، على نحو ما كانت عليه أيام النبي وأبي بكر ، وبذل في ذلك من الجد في دقيق الأمور وجسامها ما لم ينسه التاريخ بعد، وما أرى أنه سينساه آخر الدهر . ذلك أن المشكلات الجسام التي عرضت للمسلمين في حياة عمر كانت جديدة كل الجدة ، لم يعرض مثلها ولا شيء قريب منها أيام النبي وأيام أبي بكر . فقد كانت غزوات النبي على خطرها يسيرة بالقياس إلى فتح بلاد الفرس ، واقتطاع الشام ومصر من بلاد الروم . وكانت الغنائم التي تتاح للمسلمين أيام النبي شيئاً لا يكاد يقاس إلى ما أتيح لهم من الغنائم أيام عمر . فكان من أيسر الأشياء أن ينفذ النبي فيها حكم الله الذي بينه في سورة الأنفال :

(واعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ ولِلرَّسُولِ ولِذِي القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينِ وابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ ومَا

أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ) .

فكانت الغنائم تجمع للنبي فيحتجز منها الخمس ، ينفق منه على ما بين الله في الآية الكريمة ، ويقسم سائرها على المسلمين للراجل سهم وللفارس سهمان .

ومع أن الأمانة أيام النبي كانت كأقوى ما يمكن أن تكون في قلوب المسلمين ، فقد كان النبي ﷺ كثيراً ما ينهى عن الغلول ، ويخوف منه أشد التخويف وأهوله . وأنزل الله في الغلول قرآناً ، فقال في سورة آل عمران : (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ومَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيامة ثم تُوَفَّى كُلُّ نفسٍ ما كَسَبَتْ وهُمْ لا يُظلَمُون . أفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ ومَأْواهُ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المَصِير) .

ومع هذا كله فقد غل بعض الناس من الغنائم أيام النبي ، فذكر الرواة أمر ذلك الذي قتل بخيبر ، فجعل الناس يتباشرون له بالشهادة أمام النبي ، وقال ﷺ : إن الشملة التي غلها لتشتعل حوله ناراً . أو شيئاً بمعنى ذلك .

قال الرواة فقام رجل فجاء بشراكين فألقاهما وكان قد احتجزهما . فلما سمع ما سمع من النبي خاف فردهما .

كذلك كانت أمور الجهاد والغنائم أيام النبي ، وأين هذا مما عرف المسلمون في حروبهم مع الفرس والروم ، وفيما ملئوا به أيديهم من الغنائم التي لا يكاد المؤرخون يحسنون تصويرها ولا إحصاءها .

وجيوش المسلمين بعيدة عن مركز الخلافة بعداً شديداً ، والخليفة قارّ بالمدينة لا يرى ما يصنع المسلمون بعد أن ينزل الله نصره عليهم ، وإنما تأتيه أنباء النصر وترسل إليه أخماس الغنائم . فيقسمها على من حضره من المسلمين ، وينفق منها على نوائب الأمة .

والمسلمون في تلك الأيام لا يغنمون الأموال التي تنقل فحسب، وإنما يغنمون الأرض التي تفتح وما عليها من العقار ، وكل ذلك بعيد عن الخليفة ، وأموره معقدة أشد التعقيد . فالغنائم التي تنقل يمكن أن تخمس ويرسل خمسها إلى الخليفة ، ويقسم سائر أخماسها على الجند . ولكن الغنائم الثابتة ماذا يصنع بها قائد الجيش ، لا يستطيع أن ينقلها ولا أن يقسمها ؛ ولا يستطيع الجند إن قسمت فيهم أن يقوموا عليها ، فهم لم يرسلوا ليكونوا زراعاً، وإنما أرسلوا للحركة المتصلة، لا تفتح عليهم مدينة إلا تجاوزوها

إلى غيرها . فكل هذا كان جديداً بالقياس إلى الخلفاء

ولم يكن بُد لعمر من أن يضع نظاماً يحصر هذه الغنائم ويكفل القيام عليها ، ويكفل حقوق الجند فيها . وهذه الجيوش التي ترسل تباعاً إلى الأرض البعيدة في الشرق والغرب ، لم يكن بد من تهيئتها للحرب قبل أن ترسل ، ولم يكن بد من إمدادها بكل ما تحتاج إليه بعد إرسالها . ولم يكن بد من حكم المدن والأقاليم التي تفتح ، ومن نشر الإسلام فيها ، وأن يجري الحكم فيها على ما أمر الله أن تجري عليه الأحكام إلى غير ذلك من المشكلات التي لا تحصى ، والتي جعلت تظهر ويتبع بعضها بعضاً كلما أمعن المسلمون في الغزو وأبعدوا في الأرض ، وقد جد عمر - رحمه الله - في حل هذه المشكلات وتدبّر أمور هذه الدولة الناشئة ، التي كانت تكبر وتتسع رقعتها ، وتزداد مشكلاتها يوماً بعد يوم .

وقد وفق عمر إلى كل ما حاول من حل المشكلات وتدبير الأمر ، وحكم الأقطار البعيدة عنه والقريبة منه ، توفيقاً لم يكن ينتظر من رجل من أهل مكة لم يعرف من أمور الدنيا إلا أيسرها ، ولم يبل شؤون الحكم قبل خلافته . وهو بعد ذلك يحكم أمماً ليست على حال العرب من البداوة ، وإنما هي متحضرة ممعنة في الحضارة ، قد عرفت من أنظمة الحكم ضروباً وألواناً .

وما رأيك في خليفة ينبئه أحد عماله بأنه قد حمل إليه خمسمائة ألف من الدراهم ، فلا يصدقه وإنما يظن به الجهد والإعياء ، ويأمره أن يذهب فيستريح ، ثم يأتيه من غد . فإذا جاءه من الغد وأنبأه بما حمل إليه من المال صعد المنبر وأعلن إلى الناس : أن قد جاءه مال كثير ، فإن شاءوا كاله لهم كيلاً ، وإن شاءوا هاله لهم هيلاً ، كل ذلك لنصف مليون من الدراهم ، فكيف به حين جاءته الملايين الكثيرة والعروض المختلفة التي لا تكاد تحصى . وإذا كان النجح قد أتيح لعمر ، لما آتاه الله من عبقرية ، فهو كذلك قد أتيح لقواده الذين فتحوا الأرض ، وعماله الذين حكموا الأقاليم ، وكلهم كان كهيئة عمر لم يبل من الحرب إلا أيسرها وأهونها شأناً ، ولم يعرف من شؤون الحكم إلا أدناها إلى السذاجة البدوية ، فكيف بهم حين حكموا الشام ومصر والعراق وفارس . وأتيح هذا النجح أيضاً للجند الذين قهروا أعظم دولتين في الأرض حين ذاك : دولة الفرس ودولة الروم . وهم لم يعرفوا قط من شؤون الحرب إلا ما كانوا يألفون من هذه الحرب الأولية ، التي كانت تثار بين القبائل . لم يعرفوا الجيوش الضخمة ، ولا أداة الحرب التي ابتكرتها الحضارة ، ولا حصار المدن ولا اقتحامها ، وهم مع ذلك قد

انتصروا أي انتصار . ونشروا لواء الإسلام في أقطار الأرض شرقاً وغرباً ، وأزالوا من الأرض دولة عظيمة لم تستطع جيوش روما ولا جيوش قسطنطينية أن تزعزعها ، وهي دولة الفرس الساسانيين .

وقد عرفت أن أكثر هؤلاء الجند كانوا قد ارتدوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام مع قبائلهم . وأبوا أن يؤدوا الزكاة حتى قاتلهم عليها أبو بكر . فانظر إليهم بعد أن عادوا إلى الإسلام كيف أحسنوا في سبيله البلاء . وكيف جاهدوا فأمعنوا في الجهاد وكيف صبروا فأبلغوا في الصبر ، وكيف جنوا نتيجة هذا كله نصراً مؤزراً .

وما أشك في أن القرآن هو المؤثر الأول في هذا كله . كانوا يقرءونه أو يقرأ عليهم فيملأ نفوسهم روعة ، وقلوبهم إيماناً ، ويدفعهم هذا كله إلى أن يفعلوا الأعاجيب ، وإلى أن يتيحوا لقائد من قوادهم — هو خالد بن الوليد — أن يكتب إلى بعض محاربيه حين دعاهم إلى الإسلام أو إلى الخضوع وأداء الجزية ، ثم قال لهم بعد ذلك : فإن أبيتم فإني قد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة . واقرأ إن شئت حديث الفتح في كتب التاريخ ، وفي تاريخ الطبري خاصة ، فسترى فيما تقرأ من العبر والعظات والأعاجيب ما يقنعك بأن بلاء المسلمين في تلك الحروب ، وما أتيح لهم من الظفر ، إنما كان نتيجة لأثر الإسلام والقرآن خاصة في نفوس أولئك المجاهدين .

وانظر إليهم حين يتلو عليهم القاص الذي كان يطوف على الجنود ، فيعظهم ويحمسهم للحرب حين يتهيئون للقاء العدو .

انظر إليهم حين يتلو عليهم هذه الآية الكريمة ، من سورة التوبة مثلاً : (ما كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) .

فأي غرابة في أن تملأهم هذه الآية ، وأمثالها من آيات القرآن الكريم ، ثقة وأمناً وأملاً واطمئناناً إلى أنهم من غير شك ظافرون بإحدى الحسنيين . فإما الانتصار على العدو ، والفوز بما في أيديهم من الملك وزهرة الحياة الدنيا ، مع الأجر العظيم عند الله ، وهو خير من كل ما ظفروا به ؛ وإما الفوز بنعمة الشهادة والحياة عند الله ، فرحين بما

أتاهم الله من فضله ، ومستبشرين بالذين لم يلحقوا بهم من بعدهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . كما يقول الله عز وجل في الآية الكريمة من سورة آل عمران .

وانظر إليهم حين يقرءون أو يتلى عليهم قولُ الله من سورة الأنفال : (يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الأدْبارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أوْ مُتَحَيِّزاً إلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ومأواهُ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المَصِيرُ) .

كيف تمتلىء قلوبهم ثقة بأنهم حين أزمعوا الخروج للجهاد ، قد باعوا الله أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً على الله حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن . كما يقول الله عز وجل في الآية الكريمة من سورة التوبة: (إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المؤمنينَ أنفسَهُمْ وأمْوالَهمْ بِأنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقاتِلونَ في سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ ويُقْتَلونَ وعْداً عليهِ حَقّاً في التَّوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ . ومَنْ أوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ، فاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الذي بايَعْتُمْ بهِ وذلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ) .

فهم يُقبلون على الجهاد وهم مطمئنون إلى أنهم قد باعوا نفوسهم وأموالهم لله بالجنة . فالموت أحب إلى الصادقين منهم من الحياة ، لأن نعيم الحياة زائل ونعيم الله باق خالد . وكلهم يرهب الفرار من العدو ، أكثر مما يرهب الموت ، فهم واثقون بأن أمام الفارين منهم جهنم يُضطرون إليها وبئس المصير . وهم بذلك يصدقون ما كتب خالد – رحمه الله – من أن جنوده يحبون الموت كما يحب عدوهم الحياة .

ومن أجل ذلك أقبل بعض قواد المسلمين ، وهو أبو عبيد بن مسعود ، أيام عمر بجنده متعرضاً لعدوه من الفرس فعبر إلى العدو بجيشه نهراً ، وغامر فإذا العدو أكثر منه قوة وأعظم منه بأساً ، وكان يستطيع حين رأى ذلك أن يعبر النهر ويرجع بجنده إلى مواقعهم ، ويلتزم خطة الدفاع أو ينتظر المدد . ولكنه ذكر الآية الكريمة من سورة الأنفال فكره الفرار ، وأقدم فقاتل حتى قتل رحمه الله ، وامتحن المسلمون في تلك الوقعة محنة عظيمة ولم ينج من نجا منهم إلا بعد الجهد كل الجهد . وبلغت قصة هذا الجيش عمر – رحمه الله – بالمدينة فبكى واسترحم لقائده وقال: لو انحاز لكنت فئته ، يريد أنه لو رجع واستمد الخليفة لما كان ذلك فراراً ، وإنما هو التحرف للقتال والتحيز إلى من وراءه من المسلمين ، ينصرونه ويمدونه بالقوة والعتاد .

والله قد أذن للمسلمين في الآية الكريمة ، التي أثبتناها آنفاً من سورة الأنفال ، أن

يرجعوا عن العدو متحرفين للقتال أو متحيزين إلى فئة تنصرهم . كذلك كان بلاء المسلمين في الفتوح ؛ لا يقبلون بلاء أقل منه حتى عاب بعضهم سعد بن أبي وقاص لما عجز عن القتال مع جيشه يوم القادسية ، فأدار الموقعة من حصن كان فيه ، لما أعجزه المرض عن الحركة والخروج ، فقال قائلهم :

ألم تر أن الله أنزل نصره ... وسعد بباب القادسية معصم

فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ... ونسوة سعد ليس فيهن أيم

وكذلك استقامت حياة المسلمين أيام الشيخين : أبي بكر وعمر ، كلاهما ساس الناس كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يسوسهم أثناء حياته ، والتزم عمر القرآن وسيرة النبي وأبي بكر ورأي الصالحين من الصحابة، في حل ما عرض له من المشكلات التي نشأت عن الفتوح واتساع الدولة وانتشار الجيوش وكثرة الغنائم والفيء ، وتنظيم أمور الأرض التي ظهر عليها المسلمون في البلاد المفتوحة ، فكان كلما عرضت له مشكلة التمس حلها في كتاب الله ، فإن لم يجد ففي سنة رسول الله وسيرة الخليفة من قبله ، فإن لم يجد دعا أولى الرأي من المهاجرين والأنصار فشاورهم حتى يجد الحل للمشكلة أو المشكلات التي عرضت له .

وكان تفوق عمر في جهاده نفسه حتى قهرها وذللها، وألزمها سيرة النبي وأبي بكر، من الزهد والقناعة ، ومن الصبر والاحتمال ، ومن إيثار المسلمين على نفسه والاكتفاء بما يقيم الأود ، على رغم ما كان يجبى إليه من كرائم الأموال ونفائسها ، وعلى رغم ما كان يغري الناس من زهرة الدنيا ونعيمها ، كان تفوق عمر في جهاد نفسه وقهرها على هذا النحو أروع من تفوقه فيما حاول من إقامة الدولة الناشئة ، ثم كان يشتد على الناس ولا سيما الذين رأوا النبي وصاحبوه، وعرفوا كيف رفض الدنيا، وكيف آثر عليها الآخرة. فكان يمسك كبار الصحابة في المدينة ولا يأذن لهم بالخروج منها . فإذا هم أحدهم بالجهاد أبى عليه . وقال : قد كان في جهادك مع رسول الله ما يجزئك . كان يخاف عليهم أن يفتتنوا إذا رأوا الأقاليم التي فتحت على المسلمين . وكان يخاف منهم أن يفتتن الناس بهم في الأمصار والأقاليم . فكان يمسكهم في المدينة حماية لهم ولعامة الناس من الفتنة . وكان في هذا موفقاً أشد التوفيق وسترى الدليل على ذلك واضحاً حين أذن عثمان لكبار الصحابة بالتفرق في الأرض، فكان ذلك من مصادر الفتنة التي حادت بالمسلمين عن الجادة ، وضربت بعضهم ببعض ، وجعلت بأسهم بينهم شديداً على قريش خاصة ، وعلى مسلمة الفتح منهم بنوع أخص. كان يعرف ذكاءهم ومهارتهم في اكتساب

المال وإيثارهم للثراء ورغد العيش ، فكان يحميهم من أنفسهم ومن أن يتهافتوا في النار كما كان يقول

وكان شديداً على أسرته من آل الخطاب ، يكره أن يفتروا أو أن يفتر الناس بأنهم رهط أمير المؤمنين . ثم كان شديد المراقبة لأهل المدينة ومن حولها ، يريد أن يعرف من قرب حاجاتهم وأن يبلغ من رضاهم ما يستطيع ، ولم يعرف المسلمون خليفة كان أشد منه على ولاته في الأقاليم يدعوهم إلى لقائه في الموسم من كل عام ، ويدعو مع كل واحد منهم ذوي الرأي في إقليمه . فإذا التقوا في موسم الحج سأل الولاة عن رعيتهم وسأل الرعية عن ولاتها . وكان كثيراً ما يبرأ إلى الله مما يمكن أن يتورط الولاة فيه من جور أو خطأ أو تقصير ، ولذلك كانت نكبة المسلمين بقتله حين قتل أعظم وأكبر من أن توصف وما أشك في أن عمر – رحمه الله – لو مدت له أسباب الحياة لأقام الدولة الاسلامية على أسس تعصمها من التفرق والانقسام ، ولكن الله بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدراً .

وولي أمور المسلمين بعده عثمان ، فاستقامت له الأمور أعواماً فيها رضي عن الناس ورضي الناس عنه ، ومضت جيوش المسلمين في الفتح شرقاً وغرباً ، ولكنه وسع على الناس فأسرف الناس على أنفسهم ، ولان لقريش فطمعت فيه قريش . ووصل بني أمية رهطه فأغراهم بالغنى ، فتح أمامهم أبواب الطمع واسعة حتى طمعوا فيه هو فاستأثروا به ، وتسلطوا عليه حتى غلبوا على أمره كله . فجعلوا يولون ويعزلون والخليفة يقر ما يفعلون .

وكان عثمان حين ولي الأمر قد تقدمت به السن فبلغ السبعين أو جاوزها فلم يلبث أن ضعفت مقاومته للطامعين من قريش عامة ، ومن بني أمية خاصة .

وما هي إلا أن تنتشر في الأقاليم كلمة السوء ، فيفتن الناس بمن رأوا من كبار الصحابة ، كطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام . ويعسف الولاة فتظهر الفتنة ولا تلبث الأقاليم والأمصار أن تنكر من أمور الحكم أشياء ، وتنتهي أمور الأقاليم إلى الثورة ، واذا الجنود تأتي من البصرة والكوفة ومصر ، فيشكون ويحتال بعض الصحابة – وعلي خاصة – في أن يأخذ لهم الرضى من عثمان وتوشك الأزمة أن تنحل ولكن البطانة من بني أمية ينقضون ما أبرم الخليفة ويغرون بعض الولاة برعيتهم سراً ، ويستكشف الثائرون هذا الإغراء الذي ختم بخاتم الخليفة عن غير علم منه ، فيرجعون إلى المدينة ويحتلونها ثم يحاصرون الخليفة في داره ، وما يزالون على حصارهم حتى

يتسوروا الدار ويقتلوا الخليفة في النهار المبصر .

ويقتل عثمان – رحمه الله – تفتح أبواب الفتنة على مصاريعها. وليس من شك في أن السخط على حكم عثمان لم يكن مقصوراً على الأمصار والأقاليم ، بل كان في المدينة نفسها منكرون لنظام الحكم ضائقون بغلبة بني أمية للخليفة على أمره . وكان من أهل المدينة مشنعون على عثمان ومشهرون به . فلما قتل عثمان حكم الثوار المدينة حكماً عسكرياً أياماً حتى دفن الخليفة سراً بليل .

ثم أقبل الناس على عليّ رحمه الله فبايعوه ، بايعه أكثرهم عن رضى، وبايعه بعضهم عن كره ، وأبى معاوية في الشام أن يؤمن لهذه البيعة وذهب فريق من أصحاب النبي إلى البصرة مغاضبين ، على رأسهم أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وكلاهما من كبار الصحابة ومن رجال الشورى الذين اختاروا عثمان للخلافة ومن العشرة الذين توفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض وبشرهم بالجنة . واعتزل فريق من المهاجرين والأنصار أمر الناس فلم يشاركوا في الفتنة وكان منهم سعد بن أبي وقاص وعبدالله بن عمر من أكابر قريش وكان سعد من العشرة الذين بشروا بالجنة ، وهو القائد المظفر الذي أبلى أحسن البلاء في فتح بلاد الفرس . وقد جيء به ليبايع علياً فأبى البيعة وقال لعلي : ما عليك مني من بأس . فأمر علي بتخليته وكفله هو . وجيء كذلك بعبد الله بن عمر فأبى أن يبايع فأمر عليّ بتخليته وقال له بين الجاد والمازح : ما علمتك إلا سيء الخلق .

ولم تتم البيعة لعلي حتى نظر فاذا هو بين عدوّين : أحدهما بالبصرة برأسهم طلحة والزبير وعائشة ، والآخر بالشام برأسهم معاوية بن أبي سفيان . فلم ير بدأ من أن يقاتل هذين الفريقين ليردهما إلى الطاعة ولتجتمع كلمة المسلمين بعد ان تفرقت . فيعودوا أمة واحدة كما كانوا أيام النبي وأيام الشيخين أبي بكر وعمر ، ولا بد من الاعتراف هنا بأن علياً – رحمه الله – لم يبدأ بحرب قط إلا بعد أن دعا إلى الصلح ورغّب فيه وألح في الدعوة وحاجّ مخاصميه حتى أظهر عليهم حجته وأثبت في وضوح لا لبس فيه أنه لم يشارك في قتل عثمان ولم يظاهر عليه ، وانما نصح له ما استطاع النصح ، ورد الثائرين عن المدينة وكاد يحسم الفتنة لولا غدر بني أمية من بطانة الخليفة . وأنه كذلك حاول ان يعين عثمان وان يحميه من الثائرين به والذين ظاهروهم عليه ولكن خصوم عليّ كانوا حراصاً على الحرب يظهرون المطالبة بدم عثمان ويطلبون أن يسلم إليهم عليّ من قتل عثمان أو شارك في قتله

وكان عليّ يأبى إلا أن ينفذ حكم الله على وجهه ، فيخضع النـاس قبل كل شيء لإمام واحد ثم يحتكمون إليه في قتل الخليفة المقتول فيقيم حد الله كما ينبغي أن تقام الحدود، في ظل النظام والأمن لا في ظلمة الفتنة والانقسام .

وكذلك لم يجد عليّ بدّاً من الحرب بعد أن بذل الجهد كل الجهد في الإصلاح بينـه وبين طلحة والزبير وعائشة ومن تابعهم من أهل البصرة . فكان يوم الجمل الذي عظمت فيه المحنة على المسلمين وقد اقتنع الزبير بن العوام – رحمه الله – بخطئه فرجع عن الحرب ولكنه قتل غيلة في طريقه إلى الحجاز .

ومضى طلحة في القتال حتى قتل غيـلة هو الآخر أثناء الموقعة ، رماه رجل من بني أمية – هو مروان بن الحكم – الذي أفسد على عثمان أمره كله فقتله .

ويقول الرواة إن طلحة نقل من مصرعه ودمه ينزف ، وهو يقول : اللهم خـذ لعثمان مني حتى ترضى . فقد اعترف هو أيضاً بخطئه قبل أن يموت . وثبتت عائشة في هودجها على جملها ذاك الذي قتل حوله من المسلمين عدد غير قليل ، وكان من خيارهم محمد بن طلحة بن عبيد الله ، قتل وهو آخذ بزمام الجمل ، وقال قاتله :

وأشعث قوام بآيات ربـه قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
شققت له بالرمح جيب قميصه فخر صريعـاً لليدين وللفم
يذكرني حاميم والرمح شاجر فهلا تـلا حم قبل التقدم
على غير شيء غير أن ليس تابعاً علياً ومن لا يتبع الحق يندم

وصرع عبدالله بن الزبير فلم ينج إلا بعد مشقة وجهد . وكان المسلمون يقتتلون حول الجمل وعائشة تحمس أهل البصرة للقتال ، حتى أشار عليّ بعقر الجمل ، فلما عقر تفرق الناس وانهزم أهل البصرة ونقلت عائشة في هودجها لم يمسها أذى . وبعد أيام ردها عليّ مكرمة إلى المدينة ، فقرت في بيتها الذي ما كان لها أن تفارقه ، بعد أن قال الله لنساء النبي في الآيتين الكريمتين من سورة الأحزاب: (وَقَرْنَ في بيوتِكُنَّ ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهليةِ الأُولى وأَقِمْنَ الصَّلاةَ وآتِينَ الزَّكاةَ وأَطِعْنَ اللهَ ورسُولَهُ إنما يُريدُ اللهُ ليُذهِبَ عَنكمُ الرِّجْسَ أَهْـلَ البَيْتِ ويطهِّرَكم تطهِيراً ، واذْكُرْنَ ما يُتْلى في بُيُوتِكُنَّ من آياتِ اللهِ والحِكمةِ إنَّ اللهَ كانَ لَطيفاً خَبيراً) .

وأقام علي بالبصرة حتى ضبط أمرها، ثم عاد إلى الكوفة فأقام فيها وجعلها عاصمة للخلافة . وأكبر الظن أنه نقل عاصمة الخلافة إلى الكوفة ليعصم المدينة من أن تكون

دار حرب ، فهو قد كان يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حرم المدينة كما حرم إبراهيم مكة ، وأعلن أن من أحدث في المدينة حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً .

وجعل علي يسفر إلى معاوية من الكوفة ، يعرض عليه الطاعة ويدعوه إلى الصلح ، وإلى جمع كلمة المسلمين وحقن دمائهم والدخول فيما دخل فيه الناس . وكان المسلمون قد قبلوا بيعة علي في جميع أقطار الأرض الإسلامية شرقاً وغرباً ، إلا الشام فقد أقام معاوية في دمشق يطالب بدم عثمان ويرفض كل صلح يعرض عليه .

فلم يجد علي بدّاً من حربه ، فسار بجيشه حتى بلغ صفين ، فوجد معاوية قد سبقه في أهل الشام إلى الماء . يريد أن يظمىء عليّاً وجيشه . فاقتتل القوم على الماء حتى غلب أصحاب عليّ عليه . ولكن عليّاً رحمه الله أبى أن يظمىء معاوية وأهل الشام ، فتركهم يشربون ويسقون أنعامهم ، ويأخذون من الماء حاجتهم ، وسعى السفراء بين الفريقين وعليّ يعرض الصلح دائماً ويظهر حجته وحجة من معه على أهل الشام ، ولكن معاوية وعمرو بن العاص أبيا إلا القتال فكان القتال ، وجعل المسلمون من الفريقين يتفانون وكانت الحرب سجالاً تدور الدائرة على أهل الشام يوماً وعلى أصحاب عليّ يوماً آخر . ولكن عاقبة الحرب كادت تكون لعلي ، وكاد جيش الشام ينهزم ، وزعم الرواة أن معاوية همّ أن يركب فرسه للهرب ، لولا أنه ذكر شعراً فثبت هذا الشعر قلبه ، وهو هذه الأبيات :

أبت لي عفتي وأبى بلائي	وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإجشامي على المكروه نفسي	وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت	مكانك تحمدي او تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات	وأحمي بعد عن عرض صحيح

وقد وجد له عمرو بن العاص مخرجاً من هذا الحرج ، فاقترح أن ترفع المصاحف على الأسنة ، وأن يدعى عليٌ وأصحابه إلى كتاب الله يحتكمون إليه ، فيحقون ما أحق ويبطلون ما أبطل . وجازت الحيلة على كثير من أصحاب عليّ ، وعلى أهل اليمن منهم خاصة ، فاستكرهوا عليّاً على الهدنة. وحاول عليّ أن يمتنع عليهم وعرف أنها خدعة ، ولكن أهل اليمن أبوا إلا قبول الهدنة وأنذروا عليّاً ؛ فاضطر كارهاً إلى الإذعان لرأي الكثرة من أصحابه ، وتقررت الهدنة بين الفريقين ، على أن يرسل كل فريق منهما حَكَماً يرضاه ، وعلى أن يجتمع هذان الحكمان فيقضيان بما قضى به القرآن

بين الفريقين المختصمين . واشتد معاوية وأصحابه في كتاب الهدنة ، فأبوا أن يلقب عليّ نفسه أمير المؤمنين ، واضطر عليّ إلى أن يمحوها ، وذكر صلح الحديبية حين أبت قريش على النبي في كتاب الهدنة أن يسمي نفسه رسول الله ، فمحا هذا الوصف واكتفى باسمه. ولست أدري أتفاءل عليّ حين ذكر يوم الحديبية أم لا . ولكن عاقبة الهدنة على كل حال لم تشبه عاقبة الهدنة التي أمضاها النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل مكة ، كانت عاقبة الهدنة الحديبية فتحاً قريباً ونصراً مؤزراً ، وكانت عاقبة الهدنة في صفين فرقة واختلافاً على عليٍ أي اختلاف . وفي هذه المواقع التي كانت بصفين قتلت ألوف كثيرة من المسلمين من أهل العراق وأهل الشام . .

وكان بين قتلى أصحاب عليّ عمار بن ياسر الذي كان يقاتل في حماسة أي حماسة ، وهو شيخ قد بلغ التسعين أو جاوزها . وكان يقاتل عن إيمان أي إيمان بأنه يدافع عن الحق ، وكان يرتجز :

نحن ضربناكم على تنزيله والبوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله

وكان يوم قتل يحرض الناس ويقول : من رائح إلى الجنة ؟ اليوم ألقى الأحبة : محمداً وحزبه .

وكان قتل عمار تثبيتاً لعلي والصالحين من أصحابه وتشكيكاً لمعاوية ومن معه ، ذلك أن كثيراً من المهاجرين والأنصار قد سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقول ، وهو يمسح رأس عمار أثناء بناء المسجد : ويحك يا بن سمية ! تقتلك الفئة الباغية .

وكان رجل من صالح الأنصار ، هو خزيمة بن ثابت يشهد صفين مع علي ولكنه لم يكن يقاتل كأن قلبه لم يخل من بعض الشك . فلما رأى مقتل عمار بسيوف أهل الشام قال : الآن ظهر الحق . وقاتل حتى قتل .

فأما معاوية وعمرو بن العاص فما أسرع ما وجدا مخرجاً من هذا الحرج ، فقالا : لم نقتله وإنما قتله الذين جاءوا به إلى الحرب . وأذاعا مقالتهما هذه في أهل الشام ، تثبيتاً لقلوب الذين أدركهم شيء من الشك والقلق .

ورجع عليّ إلى الكوفة مرجعاً لم يكن ينتظره ، ذلك أن جيشه اختلف عليه ، رضيت كثرة الجيش بالهدنة وفرضت على عليّ أن يقبل اختيار أبي موسى الأشعري حكماً . وقد اختار معاوية عمرو بن العاص . وأبت قلة من جيش عليّ هذه الهدنة

ورأتها مخالفة للقرآن ، فكان الناس يقتتلون ويتضاربون ويتشاتمون في طريقهم إلى الكوفة ، ثم وصل علي إلى الكوفة فلم ير فيها إلا مظاهر الحزن والحداد ، لكثرة من ذهب معه من أهل الكوفة ثم لم يعد بعد أن لقي مصرعه بصفين .

ولم يلبث المنكرون لأمر الهدنة أن نظموا أمرهم وخرجوا من الكوفة أرسالاً ، وكتبوا إلى إخوانهم في البصرة فانضموا إليهم وأعلنوا العصيان ، بل أعلنوا أكثر من العصيان . أعلنوا أن علياً وأصحابه ، الذين قبلوا الهدنة ، قد كفروا لأنهم خالفوا عن أمر الله حين قال في الآيتين الكريمتين من سورة الحجرات : (وإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما . فإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلى الأُخْرَى فَقاتِلُوا الَّتي تَبْغي حَتَّى تَفِيءَ إلى أَمْرِ الله . فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بالعَدْلِ وأَقْسِطُوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ . إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ) .

ولما كان عليّ قد عرض الصلح غير مرة على معاوية وأصحابه فرفضوه ، ثم كانت الحرب بينهم ، فكان يجب على عليّ وأصحابه فيما رأى الخوارج أن يمضوا في الحرب حتى يقضي الله أمره ، فيحق الحق ويبطل الباطل . ولكنهم لم يمضوا في الحرب وإنما قبلوا التحكيم فحكموا الرجال في دين الله ، والله وحده هو أحكم الحاكمين . وما كان ينبغي لعلي وأصحابه أن يضعوا السيوف حتى يفيء معاوية وأهل الشام إلى أمر الله.

ومن هنا اتخذ الخوارج لأنفسهم شعاراً من هذه الكلمة : لا حكم إلا لله . أي لا حكم إلا لله بواسطة الحرب ينصر الحق ويهزم الباطل . وكانوا كثيراً ما يجهرون بدعوتهم هذه في مسجد الكوفة ، وربما قاطعوا بها علياً أثناء خطبته . وكان علي يقول : كلمة حق أريد بها باطل . ثم قوي أمر هذه الفئة حين التقى الحكمان فلم يصنعا شيئاً ، إنما اختلفا وتشاتما وافترقا كما التقيا ، لأن عمراً أعلن خلعه لعلي وإثباته لمعاوية ، ولأن أبا موسى زعم أنه كان اتفق مع عمرو على خلع الرجلين جميعاً وجعل الخلافة شورى بين المسلمين . فلم يتحرج عمرو بن العاص من أن يخالف عما تراضى عليه الحكمان . وقد رفض عليّ هذا الحكم طبعاً وقبله معاوية . وعادت الحرب بينهما سيرتها الأولى .

هنالك ازداد الخوارج ثقة بأنهم على الحق ، وبألا حكم إلا الله . وكثر خروجهم من الكوفة سرّاً حتى أصبح لهم شيء من قوة .

وقد تجهز عليّ مرة أخرى للقاء أهل الشام ، ولكن أشير عليه أن يفرغ من هذه

الفتنة التي خرجت عليه ، وجعلت تفسد في الأرض وتسفك الدماء ، ترى كل من تبع علياً ومعاوية كافراً حلال الدم والمال .

وقد أرسل عليّ إلى الخوارج عبدالله بن العباس ليحاورهم ويحاول إقناعهم بالرجوع إلى الجماعة ، ولكن ابن عباس لم يصنع شيئاً . فذهب إليهم عليّ بنفسه فناظرهم وأقنع كثيراً منهم بالرجوع ولكن آلافاً منهم أبوا عليه فاضطر إلى قتالهم ، فقاتلهم وظهر عليهم . وهمّ بعد ذلك بالمضي إلى الشام ، ولكن المنافقين من أصحابه أشاروا عليه بالعودة إلى الكوفة ليصلحوا من أمرهم بعد هذه الموقعة ، وليذهبوا إلى عدوهم بما ينبغي لهم من العدد والعدة . فعاد بهم إلى الكوفة ولكنه لم يخرج منها : تفرق أصحابه إلى أهلهم وأقبلوا على أعمالهم ، وزهدوا في الحرب حتى أيئسوا علياً منهم ، فجعل يدعوهم ويلحّ في دعائهم ، ولكنهم لا يسمعون منه ولا يستجيبون لدعائه ، حتى قال ذات يوم في خطبة : لقد أفسدتم عليّ رأيي بالعصيان حتى قالت قريش : ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب . لله أبوهم ! ومن يكون أعلم بها مني ؟ ثم أنشد – فيما زعم الرواة – هذين البيتين :

تلكم قريش تمناني لتقتلني ... فلا وربّك ما بروّا ولا ظفروا
فإن قتلت فرهن ذمتي لهمُ ... بذات ودقين لا يعفو لها أثر

وكثيراً ما كان علي – رحمه الله – يحرض أصحابه على القتال ويثيرهم إليه ويتهمهم بالجبن تحميساً لهم حتى أنشدهم ذات يوم ذلك البيت القديم :

القوم أمثالكم لهم شعر ... في الرأس لا ينشرون إن قتلوا

ولكنه – رحمه الله – لم يبلغ من أصحابه شيئاً حتى طمع معاوية وأهل الشام في العراق وفي جزيرة العرب نفسها . فكان معاوية يرسل الكتائب تغير على أطراف العراق فتقتل وتنهب ، وكان عليّ يرسل في إثر هذه الكتائب قطعاً من جيشه تردهم عن أطراف دولته .

وقد أسرف معاوية في ذلك فأرسل بسر بن أرطاة في جيش إلى الحجاز ، فأفسد فيه كثيراً وأفسد في اليمن أيضاً واقترف من القسوة ما لم يكن للمسلمين به عهد .

ثم ما زال معاوية بمصر حتى أخذها وقتل والي علي : محمد بن أبي‌بكر ، وأهداها إلى عمرو بن العاص حياته . وقد جعل أمر علي يضعف شيئاً فشيئاً ويقوى أمر معاوية بما يتتابع على عليّ من هذا الضعف . ثم كانت الكارثة التي امتحن بها علي – رحمه الله – حين خالف عن أمره ابن عمه عبدالله بن العباس والي البصرة . فأخذ كل ما في بيت

المال وفرّ به إلى الحجاز ، فأقام بمكة آمناً مغاضباً لابن عمه لعرض من أعراض الدنيا. وأطمع ذلك معاوية فأرسل رسله إلى البصرة فأثاروا أكثر أهلها ، واضطر علي إلى أن يرسل إلى البصرة جيشاً يخضعها ويردها إلى الطاعة .

وفي أثناء ذلك عظم أمر الخوارج فأتمر نفر منهم بقتل هؤلاء الثلاثة ، الذين ملئوا الأرض شراً بزعمهم ، وهم : عليّ ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص . ولم يبلغ أربه من هؤلاء الثلاثة إلا صاحب عليّ : عبدالرحمن بن ملجم قتله في المسجد وهو خارج للصلاة.

وكذلك أصبحت هذه الأمة الإسلامية التي تركهـا النبي صلى الله عليه وسلم مجتمعة الكلمة ، والتي همت أن تتفرق فردّها أبو بكر إلى الوحدة ووجهها إلى الفتح ، والتي قهر بها عمر أعظم دول العصر القديم وتركها مجتمعة الكلمـة متحدة الرأي – أصبحت هذه الأمة منقسمة أشنع انقسام وأبغضه إلى الله ورسوله . نسيت قول الله عز وجل في سورة آل عمران : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا) . ونسيت قول الله عز وجل في سورة الأنفال أيضاً : (ولاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُم) . ثم نسيت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا لا ترجعوا بعـدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

نسيت كل هذا واستجابت لفتنة المـال وحب السلطان والاستئثار بخيرات الدنيـا فضرب بعضها رقاب بعض يوم الجمل ، ويوم صفين ، ويوم حروراء ، وفي تلك الأيام التي كان معاوية يرسل فيها كتائبه لتغير على الآمنين في المدن والقرى والبوادي أيضاً على نحو ما كانت العرب تفعل في جاهليتها . وقد صدق علي – رحمه الله – في البيتين اللذين أنشدهما ذات يوم على منبر الكوفة ورويناهما آنفاً وفي الثاني منهما بنوع خاص :

فإن قتلت فرهن ذمتي لهم   بذات ودقين لا يعفو لها أثر

فقد قتل رحمه الله ، ومنذ قتله أظل المسلمين شر لم تنقشع سحبه إلى الآن ، فقـد انقسمت الأمة إلى فريقين عظيمين : فريق يرى أن علياً هو الإمام الشرعي للأمة وأن الإمامة يجب أن تكون في ولده؛ وفريق آخر يذهب إلى ما ذهبت إليه جماعة المسلمين بعد وفاة النبي حين اختاروا أبا بكر للخلافة ، وحين بايعوا بعده عمر لا يرون أن الخلافة تورث في أهل البيت ، وإنما يليها من كان كفئاً لولايتها من صالحي المؤمنين . واشتد العداء بين هذين الفريقين وجعل بعضها يكفر بعضاً . ونجم بينهما فريق ثالث ، وهو فريق الخوارج الذين ذهبت ريحهم الآن ، والذين كانوا يكفرون الشيعة والجماعة معاً ويستبيحون دماءهم وأموالهم .

صدق عليّ في بيته ذاك، وصدق عثمان - رحمه الله من قبله - حين قال لمحاصريه: إن تقتلوني لا تصلُّوا جميعاً أبداً وقد قتلوه فلم يصلّوا جميعاً أبــداً ، انقسموا شيعاً وأحزاباً. وكان كل فريق منهم لايستحل الصلاة مع الفريق الآخر. وكانت الدنيا وزهرتها مصدر هذا الخلاف، ومصدر ما جرى من دماء ، ومصدر ما بقي من آثاره إلى اليوم .

فلولا أن بني أمية طمعوا في الدنيا وغلبوا ذلك الشيخ على أمره لمـا كانت الفتنة بقتل عثمان . ولولا أن معاوية قد كان رجلاً من بني أمية ، طمع كما طمعوا وألف حكم الشام فكره أن يتركه، ثم طمع في أن يضم إليه سائر أقطار المسلمين، لما كانت الحرب بينه وبين علي ، ولولا أن طلحة والزبير طمعاً في الخلافة ، أو في أن يشاركا علياً فيها ، ولولا أن عائشة كانت تكره علياً منذ قصة الإفك ، لما كانت الفتنة يوم الجمل.

وقد اجتمعت لمعاوية أقطار البلاد الإسلامية كلها بعد أن صالحه الحسن بن علي رحمه الله، فسمى نفسه أمير المؤمنين، ولكنه لم يسر سيرة من عرفنا من أمراء المؤمنين ، وإنما جعل الخلافة ملكاً وأورثها ابنه من بعده ، واستباح أشياء حرمها الله في القرآن، فاستلحق زياداً ورغب به عن أبيه عبيد ، والله ينهى أشد النهي في القرآن عن هــذا الاستلحاق وأمثاله في قوله من سورة الأحزاب: (ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ في جَوفِهِ. وما جَعَلَ أزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُم . ومَا جَعَلَ أدْعِياءَكم أبْنَاءَكم . ذلـكمْ قولـكم بأفواهِـــكمْ واللهُ يقولُ الحقَّ وهُوَ يَهْدِي السَّبِيل . ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أقْسَطُ عِنْدَ اللهِ ، فإنْ لم تَعلمُوا آباءَهم فإخْوَانكمْ في الدِّينِ ومَوالِيكمُ وليسَ عليكمْ جُناحٌ فيما أخْطأتُمْ بهِ ولكن ما تَعَمَّدَتْ قلوبُكمْ وكانَ اللهُ غَفوراً رَحِيماً).

وكان زياد يعرف أباه عبيداً الرومي قبل هذا الاستلحــاق ، وفرح به . وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الاستلحاق وأمثاله حين قال - فيما روى الشيخان -: « ومن ادعى لغير أبيه فليتبوأ مقعده من النار» . وحين قال - فيما روى الشيخان - أيضاً : « من رغب عن أبيه فهو كافر» .

ثم تتابع الخروج على الكتاب والسنة ، لأن الإثم يدعو الإثم ، ولأن حب الدنيا لا يقنع صاحبه . فالله قد حرم مكة في القرآن ، وحرم النبي المدينــة فيما روى الشيخان عن علي . وقد استباح بنو أمية المدينة ومكــة جميعاً . بــدأ يزيد بن معاويه فاستباح المدينة وأنهبها ثلاثاً ، وثنى عبد الملك بن مروان فأذن للحجاج في أن يستبيح مكة ، واستباحها الحجاج ففعل فيها الأفاعيل . كل ذلك لتخضع البلاد المقدسة لبني أبي سفيان

ولبني مروان من بعدهم . واستباح ابن زياد عن أمر يزيد بن معاوية قتل الحسين وأبنائه وإخوته ، وسبى بنات النبي . وكان من الممكن أن يستجيب ابن زياد للحسين حين سأله أن يسيره إلى يزيد ، ولو قد فعل لعصم أحفاد النبي من هذه المذلة . ولكن الشر يدعو الشر والإثم يستتبع الإثم . وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له .

وأصبح مال المسلمين ملكاً للخلفاء ، ينفقونه كما يحبون لا كما يحب الله، وفيما يريدون لا فيما يريد الله من وجوه الانفاق . فكان معاوية يشتري ضمائر كثير من أهل الكوفة والبصرة ليفسدهم على عليّ ، ثم ظل على ذلك بعد أن استقام له الأمر ، وجعل يتألف قلوب الناس حول عرشه بمال المسلمين، لا يرى بذلك بأساً ولا يرى فيه جناحاً. ومضى الخلفاء من بني أمية على سنته فأسرفوا في أموال المسلمين ، وتجـــافوا عن سيرة النبي والشيخين من بعده وعليّ رحمه الله .

وكان عليّ كثيراً ما يقول لأهل الكوفة : إني لأعرف ما يصلحكم ولكني لا أفسد نفسي بصلاحكم . وصدق عمر رحمه الله حين قال : لو ولوها – يريد الخلافة – ابن أبي طالب لحملهم على الجادة . وقد همّ عـليٌ أن يحمل المسلمين على الجادة ، ولكن المسلمين أبوا عليه، أو أبت عليه ظروف الحياة الجديدة التي أتيحت للمسلمين بعد الفتح من إحياء سنة النبي وصاحبيه . ومن أجل ذلك قال كثير من المتأخرين : إنه رحمه الله لم يكن محسناً للسياسة ، وقصوره في السياسة هو الذي فرق عنه الناس وعرضه لما تعرض له من القتل .

وما أشك في أنه – رحمه الله – كان يحسن السياسة كل الإحسان ، وكان جديراً لو اصطنعها أن يجمع إليه الناس ويوحد كلمتهم ، ولكنه آثر الدين على الدنيا . فلم يشتر ضمائر الناس ، ولم يستبح ما حرم الله ورسوله ، وأبى أن يصلح الناس ويفسد نفسه . وذكر أنه سواء مات أو قتل فسيلقى الله وسيحاسب عما عمل في حياته ، وذكر قول الله للمؤمنين في سورة المائدة :

(يأيُّهــا الَّذينَ آمَنُوا عَلَيْـكُمْ أَنْفُسَـكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) . فحرص رحمه الله على أن يهتدي ، وبلـغ من ذلك ما أراد ، وفارق الدنيا راضياً مرضيّاً لم يحتمل خطيئة ولم يقترف إثماً .

وعن انقسام المسلمين إلى هذه الأحزاب الثلاثة : الشيعة والخوارج والجماعة ، لم ينشأ ما أشرنا إليه من الشر المادي في حياتهم فحسب ، بل نشأ شيء آخر ليس أقل مما ذكرنا خطراً ، وهو تفرق المسلمين في الرأي وتفرقهم في الدين نفسه . فقد جعل بعضهم يكفر بعضاً، وجعل رأي بعضهم يسوء في بعض ، حتى لم يأمن خارجي لرجل من الشيعة أو الجماعة ، ولم يأمن رجل الشيعة او الجماعة لخارجي ، ثم لم يأمن رجل من الشيعة لرجل من الجماعة ، ولم يأمن رجل من الجماعة لرجل من الشيعة . فسد رأي بعضهم في بعض ، وقامت الحياة بينهم على السيف احياناً وعلى الغش والنفاق أحياناً أخرى . وأصبح شرق الدولة ينكر غربها ويثور به كلما وجد إلى الثورة طريقاً ، وأصبح غرب الدولة يبغض شرقها ولا يظفر بطاعته إلا بالعنف كل العنف والاستبداد كل الاستبداد وأصبح الطغيان أصلاً من أصول الحكم بين الشرق والغرب . فجعل زياد وبنوه يفسدون في الأرض ليضبطوها لبني أمية ، وأباح لهم بنو أمية هذا الفساد ، وجاء الحجاج بعد زياد وبنيه فملأ العراق شراً ونكراً

ولم يكف هذا كله بل فسدت الحياة العقلية للمسلمين نفسها ، فهذه الأحزاب المختصمة كانت تقتتل بالسيف حين يتاح لها الاقتتال بالسيف ، وكانت تختصم بالألسنة حين تضطر إلى الأمن والدعة فنشأت المناظرات بين الجماعة والشيعة والخوارج ، وجعلوا يلتقون في المساجد وفي مساجد العراق خاصة ليختصموا ، ويحاج بعضهم بعضاً .

وما أسرع ما نشأت الفرقة في داخل الأحزاب ، فتفرقت الشيعة فرقاً ، وانقسم الخوارج إلى طوائف ، وانشق من الجماعة من انشق وألفوا فرقاً وأحزاباً ، حتى كان بيت الحماسة مصوراً لأمرهم أبرع تصوير ، وهو :

وتفرقوا شيعاً فكل جزيرة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر

وعن هذه المناظرات نشأت الفرق الكلامية ، فللشيعة فرقها ، وللخوارج فرقهم ، ومن الجماعة نشأت المرجئة ونشأت المعتزلة ولم تلبث المعتزلة أن انقسمت فرقاً ايضاً ، وأهل السنة أنفسهم لم يعصموا من هذا التفرق ، فذهب بهم الجدل مذاهبه ، وإذا نحن أمام فرق من المتكلمين تتجاوز السبعين ، كلها يقول : لا إله إلا الله ، فيعصم دمه ونفسه وماله ، وحسابه بعد ذلك على الله ، كما قال النبي ﷺ لأصحابه في بعض الحديث . ولكنهم على ذلك يكفر بعضهم بعضاً ، ويستبيح بعضهم دم بعض ، ويستبيح

السلطان امتحان المخالفين له في المذهب بالفتنة العظيمة والبلاء الشديد . وليس من شك في أن هذا الجدل والاختلاف وتفرق الرأي قد ملأ الدنيا علماً ، وجعل للأمة الإسلامية تاريخاً فكرياً رائعاً خصباً .

ولكن ليس من شك أيضاً في أن هذا كله قد ضر الدين أكثر مما نفعه ، وأساء إلى الإسلام أكثر مما أحسن إليه .

وتستطيع أن تتصور هذا في وضوح حين توازن بين أصحاب النبي ، الذين كانوا يسمعون القرآن وحديث النبي فتصدق عقولهم وتؤمن قلوبهم ، ولا يخطر لهم أن يجادلوا فيما سمعوا ، لأن القرآن واضح كل الوضوح ، ولأن الحديث الصحيح الذي يثبت عن النبي واضح كل الوضوح أيضاً ، ولأن سفة النفس وسخف الرأي أن يقول الله أو يقول رسوله فيختصم الناس فيما قال الله ورسوله .

تستطيع أن توازن بين أصحاب النبي الذين سمعوا القرآن ينبئهم بأن الله سميع بصير ، وبأنه عليم حكيم ، وبأنه واحد ، وبأنه قدير ، فلم يخطر لواحد منهم أن يسأل عن هذه الصفات التي وصف الله بها نفسه : أهي زائدة عن ذاته أم هي عين ذاته ، كما اختلف المسلمون حين جعل المعتزلة ينكرون أن تكون لله صفات تقوم بذاته ، وإنما صفاته هي ذاته . وسمّوا أنفسهم من أجل ذلك أصحاب التوحيد . وحين جادلهم خصومهم في ذلك فأكثروا وأسرفوا وسموهم معطلين . وكما اختصموا في قول الله : (يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم) وجعلوا يتساءلون عن هذه اليد التي أضافها الله إلى نفسه ، استعملت في القرآن مجازاً أم حقيقة . كذلك في السمع والبصر وما إليهما من الصفات التي ذكرت في القرآن . وتستطيع كذلك أن توازن بين أصحاب النبي حين سمعوا الله يوعد الكافرين بالعذاب الخالد المقيم . ويعد المؤمنين بالنعيم الخالد المقيم ، ويخوف المذنبين من المسلمين عقابه الشديد ولا يؤئسهم مع ذلك من عفوه ومغفرته ، ويعدهم عفوه ومغفرته إن تابوا وأصلحوا .

سمع أصحاب النبي هذا كله فلم ينكروا ولم يسرفوا في السؤال ولم يتورطوا في الجدال ، وسمع المتكلمون ذلك فجعلوا يسألون، أو جعل فريق منهم يسأل عن مقترف الكبيرة : أمؤمن هو أم كافر ؟ ثم لم يستطيعوا أن يقولوا إنه كافر ، لأنه يعلن أن لا إله إلا الله ، ولم يستطيعوا أن يقولوا إنه مؤمن ، لأنه خالف عن أمر الله باقتراف الكبيرة ، فزعموا أنه ليس مؤمناً ولا كافراً ، وانما هو في منزلة بين المنزلتين، وقالوا: إنه فاسق . وحظروا على الله العفو عن مقترف الكبيرة لأنه إن عفا لم يكن عادلاً

والعدل واجب لله كما حظروا على الله عقاب المؤمن الذي لم يذنب لأنه إن عاقبه لم يكن عدلا . ولجوا في هذه المقالات حتى أسرفوا على أنفسهم وعلى الناس ، وحتى أغروا بأنفسهم شاعراً كأبي نواس الذي قال لبعض المعتزلة :

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة ... حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء
لا تحظر العفو إن كنت امرأ فطناً ... فإن حظراً له بالدين إزراء

وقال قائلهم : إنه لا تقبل شهادة طلحة والزبير – رحمهما الله – في باقة بقل ، لأنهما في زعمه قد خالفا عن أمر الله ولم ينسوا إلا شيئاً واحداً وهو أن الله عز وجل يقول في سورة النساء : (إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً) .

ويقول في سورة الزمر : (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) .

فهؤلاء الوعيدية ييأسون ويؤيسون الناس من عفو الله ورحمته ومغفرته إذا أذنبوا، على حين أن الله في هاتين الآيتين ، وفي آيات أخرى من القرآن يفتح لهم أبواب الأمل واسعة . وقد بيّنا فيما مضى من هذا الحديث أن الله عز وجل يوعد الناس إن اقترفوا الذنوب حتى يشرف بهم على اليأس، ثم يفتح لهم باب الأمل يعصمهم من هذا اليأس، ويغريهم بالتوبة والإقلاع عن الذنوب . وما أكثر ما يقرن الله وعده بوعيده . كما قال في سورة الحجر : (نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنا الغَفُورُ الرَّحِيمُ . وأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ) .

وهذا الاختلاف بين الفرق الإسلامية يرجع قبل كل شيء إلى الفتنة التي سادت بقتل عثمان – رحمه الله – وبما كان من الحرب بين أصحاب النبي بعد مقتله . فالفرق الأولى التي نشأت عن هذه الفتنة اختصمت فيما بينها أشد الاختصام . حتى قالت الخوارج بكفر عليّ وأصحابه ، وكفر معاوية وأصحابه . وقالت الشيعة بكفر معاوية ومن ناصره من أهل الشام وجعلت هذه الفرق تتقاذف بالكفر . وأبى المعتزلة من أصحاب النبي ، كسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة أن يشاركوا في شيء من هذه الفتنة وأبوا كذلك ان يكفروا أحداً من المسلمين حتى كان بعضهم يقول : لا أقاتل حتى تأتوني بسيف ينطق فيقول : هذا مؤمن وهذا كافر ، وكره قوم هذا التقاذف بالكفر ، والحكم فيما لا ينبغي ان يحكم فيه إلا الله وحده فوقفوا موقف الإرجاء ، وتركوا أمر هؤلاء المختصمين الى الله يقضي بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه ، فيحسن

ثواب البر ويشدد عقاب الفاجر إن شاء او يخففه او يعفو عنه .

وتجاوزت المعتزلة التي نجمت فيا بعد ما ألف الصالحون من القصد فأغرقوا في تحكيم العقل فيا لا يستطيع العقل أن يحكم فيه . تكلموا اولاً فيا تكلمت فيه الفرق القديمة من هذا التقاذف بالكفر . فاخترعوا المنزلة بين المنزلتين وقرروا أن مقترف الكبيرة ليس مؤمنا ولا كافراً ، وإنما هو فاسق خالف عن أمر الله فلم يعد مؤمناً ، وأظهر الإسلام واعترف بوحدة الله وصدق نبيه فلم يصر إلى الكفر ورتبوا على هذا المذهب أن مقترف الكبيرة لا تقبل شهادته في الدنيا وانه مخلد في النار بعد الموت .

وبينا كان المسلمون يختصمون في هذه المسائل لقوا اليهود والنصارى وغيرهم من الفرس والهند ، وجادلوهم في دياناتهم كما جادلهم أولئك في الإسلام . فعرفوا من مذاهبهم في الدفاع عن دياناتهم أشياء لم يكونوا يعرفونها ، ثم لم يلبثوا ان عرفوا ألواناً من الثقافات الاجنبية ، والثقافة اليونانية خاصة ، والفلسفة اليونانية على وجه أخص . فتأثروا بهذا كله واتخذوه وسيلة الى الدفاع عن دينهم كما فعل النصارى واليهود ، ثم مضوا الى أبعد من ذلك فآمنوا بالعقل وحكموه في كل شيء ، وزعموا أنه وحده مصدر المعرفة ، وأنه هو الذي يحسن ويقبح من أعمال الناس حسنها وقبيحها . وأنه يستطيع أن يعرف الله ، وأن يعرفه بقوته ، سواء جاءته الأنبياء الهداة إلى الله أو لم يجيئوا . وقد غرهم إيمانهم بالعقل فدفعهم الى شطط بعيد . ولم يخطر لهم أن العقل الإنساني ملكة من ملكات الأنسان ، وأن هذه الملكة كغيرها من ملكات الانسان محدودة القوة ، تستطيع أن تعرف أشياء وتقصر عن معرفة أشياء لم تهيأ لمعرفتها . وهذا هو الذي فتح عليهم ابواب هذا الاختلاف الذي لا ينقضي ، وجعلهم فرقاً نيفت على السبعين .

ثم لم يكفهم هذا كله فزعم الزاعمون منهم أن النبي ﷺ قد نبأ بهذا الاختلاف ، ونبأ بعدد الفرق التي ستنشأ في الاسلام ، ونبأ بأن فرقة واحدة منها هى الناجية — في الحديث الذي رواه رواتهم — وأن سائرها هالك . وذلك كله في الحديث الذي رواه رواتهم ، والذي أكاد أقطع بأنه اخترع بأخرة ، مهما يكن السند أو الأسانيد التي ركبت له ، هو قولهم عن النبي : ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة والباقون هلكى . قيل : ومن الناجية ؟ قال : أهل السنة والجماعة . قيل : ومن أهل السنة والجماعة ؟ قال : « ما أنا عليه اليوم وأصحابي » .

والشيء الذي لا شك فيه أن كثرة هذه الفرق ، وما يضاف إليها من المقالات ،

إنما نشأت عما كان من التقاء الإسلام بالديانات والثقافات الأجنبية على اختلافها ، ونحن نعلم كيف فتن كثير من المسلمين بالفلسفة اليونانية ، وبما رأوه من أن فلاسفة اليونان قد استكشفوا ألواناً من المعرفة لم تكن تخطر للعرب على بال ، في شؤون الرياضة والطبيعة والطب . وهم قد رأوا فلاسفة اليونان قد تجاوزوا بعقولهم ما تستطيع أن تعلم إلى ما لا تستطيع أن تعلم ، فبحثوا عن الله وعن صفاته وخصائصه وذهبوا في ذلك مذاهبهم المعروفة ، فما يمنع المتفلسفين من المسلمين أن يذهبوا مذهب هؤلاء الفلاسفة من اليونان ، وأن يحاولوا أن يستكشفوا بعقلهم الطبيعة ، وما وراء الطبيعة ، وما يمنع المتكلمين من أن يذهبوا مذهب الفلاسفة فيعملوا العقل فيما لا يحسن العقل أن يعمل فيه من البحث والنظر ، ويتخذوا وسائل الفلسفة سبيلا إلى محاجة غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى ، فيعود عليهم هذا كله بالاختلاف فيما بينهم ، كما اختلف غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى حين عرفوا الفلسفة وأقحموها في شؤون الدين . وهذا هو الذي جعل المعتزلة مثلا يقرأون القرآن والسنة فيرون أن الله قد وصف نفسه بصفات فيبحثون عن هذه الصفات ، ويأبون إلا أن يصلوا فيها إلى ما يرون أنه الحق ، وهم قد قرأوا في القرآن أمر الله للناس أن يتفكروا ويتدبروا ، ليعلموا أن هذا العالم بما فيه من العجائب والنظام الدقيق لا يمكن أن يوجد من غير موجد له ، فظنوا أن العقل يستطيع أن يعرف كل شيء ، وأن يعرف الله ذاته ، وحقائق ما يصف به نفسه من الصفات . فتورطوا في أشياء أساغتها عقولهم ولا تستطيع عقولنا نحن أن تسيغها ، ولسنا في حاجة إليها لنحسن الإيمان بالله والعلم بقدرته ، وبما وصف نفسه به من الصفات ، لأننا قد عرفنا أن العقل الإنساني ليس من القوة والنفوذ بحيث ظن فلاسفة اليونان ومن تبعهم من متفلسفي النصارى واليهود والمسلمين ، وإنما هو كما يقول أبو نواس : قد حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء .

وانظر إلى رجل حكيم كأبي العلاء ، كيف غره الإيمان بالعقل فظن أنه هو الإمام ولا إمام غيره ، وأنه وحده يهدي الناس في المسير والإرساء ، فقال في الرد على بعض غلاة الشيعة :

كذب الظن لا إمام سوى العقـ ... ـل مشيراً في صبحه والمساء
فإذا ما أطعته جلب الرحـ ... ـمة عند المسير والإرساء

وكيف انتهى به إيمانه بالعقل إلى مقالة لا يسيغها الدين ولا يقرها الإسلام في قوله:

قلتم لنا خالق حكيم ... قلنا صدقتم كذا نقول

زعمتموه بـــلا مكان ولا زمان ألا فقـــولوا
هذا كلام له خبـــيء معنـــاه ليست لنا عقول

فعقله لم يستطع أن يتصور الخالق الحكيم في غير زمان ولا مكان ، فاضطره ذلك إلى أن يصف الخالق الحكيم بما يصف به سائر المخلوقات من الخضوع للزمان والمكان ، وهذا سخف لا يقول به مؤمن .

وأكبر الظن أن أبا العلاء نفسه لم يثبت عليه فهو يقول في قصيدة أخرى :

أما ترى الشهب في أفلاكها انتقلت بقدرة من مليك غير منتقل

وما يجوز عليه التحيز في مكان يجوز عليه الانتقال منـــه إلى مكان غيره ، ولا يجوز أن يقضي أبو العلاء على الخالق الحكيم القادر الذي يؤمن به بالعجز ، وبالتزامه مكاناً واحداً لا يريمه ، إن كان مستقراً في مكان .

وكل هذا وأمثاله عند أبي العلاء وغيره ، ومن الذين غرهم العقل فأسرفوا في الإيمان به ، وحكموه فيما لا يستطيـــع أن يحكم فيه ، لايدل إلا على الحيرة والعجز ، والقصور عن بلوغ الحقيقة التي حاولوا أن يبلغوها .

ومثل ذلك يقال في المجسمة والمشبهـــة وكل الذين حاولوا أن يعرفوا الله بعقولهم معرفة دقيقة . ولم يكتفوا بما اكتفى به النبي ﷺ وأصحابه - رحمهم الله - من قبول نص القرآن وفهمه في يسر وإسماح ، وفي غير تكلف ولا إسراف في التأويـــل والله عز وجل ينبئنا في القرآن بأنه أنزل الكتاب فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، وبأن الذين في قلوبهم زيغ يتبعون مـــا تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، مع أن العلم بتأويله موقوف على الله عز وجل ، وبأن الراسخين في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وذلك في قوله عز وجل من سورة آل عمران :

(هُوَ الذي أنـْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أمُّ الكِتَاب وأُخَرُ مُتَشَابِهات . فَأمَّا الذينَ فِي قُلوبِهمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشَابَهَ مِنْه ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تأويلِهِ . وما يَعْلَمُ تأويلَهُ إلاَّ الله . والرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقولونَ آمنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وما يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولو الألْبَاب . رَبَّنا لا تُزِغْ قلوبَنَا بَعْدَ إذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إنَّكَ أنْتَ الوَهَّاب) .

وهذه هي المقالة التي يجب على كل مؤمن أن يقول بها ويتخذها ديناً . ولست أدري أيصل العقل يومـــاً إلى أن يبلغ ما لم يبلغه إلى الآن من القوة أم لا ، ولكن

الشيء المحقق هو أن عقل القدماء وعقل المحدثين من أصحاب الفلسفة والعلم ما زالا أضعف وأقصر باعاً من أن يصلا إلى استكشاف حقيقة الله ، أو البحث عن صفاته وإصدار هذه الأحكام التي أصدرها الفلاسفة والمتكلمون ، اغتراراً بالعقل واستجابة لما لا تنبغي الاستجابة له .

ومن أجل هذا أقول : إن المؤولين من المحدثين كالمؤولين من القدماء قد استجابوا لعقولهم القاصرة واغتروا بها ، وقالوا فيما ليس لهم أن يقولوا فيه ، وطمعوا فيما ليس لهم أن يطمعوا فيه . ولو قد تواضع أولئك وهؤلاء ، ووقفوا أنفسهم حيث تنتهي بهم قوتهم ، لكان خيراً لهم وللذين افتتنوا بهم من الناس .

فهؤلاء الذين يزعمون أن الطير الأبابيل ، وما رمت به جيش الحبشة أمام مكة ، إنما كانت وباء من الأوبئة ، وكانت الحجارة ضرباً من الميكروبات . إنما يقولون هذا من عند أنفسهم ، وهم يعلمون حق العلم أن النبي وأصحابه لم يفهموا هذه السورة على هذا النحو ، وما كان لهم أن يفهموها على هذا النحو ، فهم لم يكونوا يعرفون الميكروب ، وما كان لهم أن يعرفوه . والذين يقولون إن السموات السبع التي تذكر في القرآن هي الكواكب السيارة ، إنما يرجمون بالغيب ويقولون ما لم يقله النبي وأصحابه . ومصدر هذا أنهم يريدون أن يلائموا بين القرآن ومستكشفات العلم الحديث ، فيضطرهم ذلك إلى تكليف النصوص من التأويل ما لا تحتمل . وليس على الدين بأس أن يلائم العلم الحديث أو لا يلائمه ، فالدين من علم الله الذي لا حد له ، والعلم الحديث كالعلم القديم محدود بطاقة العقل الإنساني ، وبهذا العالم الذي يعيش الإنسان فيه .

ومن أسخف السخف أن نحاول الملاءمة بين ما لا حد له وما هو محدود بطبعه . وصدق الله حين أنبأ بأن الراسخين في العلم يقولون : ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

وشر آخر نشأ عن اختلاف هذه الفرق فملأ حياة المسلمين فساداً أي فساد ، وهو الغلو في التأويل إلى أبعد ما يتصور العقل ، وإلى غير ما يفهم صراحة من نصوص القرآن . وذلك حين اضطرت بعض الأحزاب إلى أن تسر دعوتها ، وتستخفي بمذهبها في السياسة أولاً وفي الدين بعد ذلك كهؤلاء الباطنية الذين زعموا أن العلم بالدين علمان : علم الظاهر وهو ما عليه الناس في كثرتهم وعلم الباطن وهو ما هم عليه . وجعلوا يتركون ظاهر النص لأنه لا يليق إلا بعامة الناس ولا يلائم خاصتهم، ثم يلتمسون للنص تأويلاً يخالف كل المخالفة ما يفهم منه لغة ، وما فهمته جماعة المسلمين حين سمعوا النبي يتلو

عليهم القرآن ويبين لهم ما أنزل إليهم ، وغلوا في ذلك كل الغلو حتى أحدثوا لأنفسهم ديناً لا يدين به غيرهم من المسلمين فأفسدوا الدين والعقل معاً. ثم نشأ التصوف ونشأ في أول أمره زهداً غلا فيه أصحابه وأنكره النبي ﷺ ، فهو قد رد على عثمان بن مظعون – رحمه الله – رهبانيته ، وشدد على عبد الله بن عمرو بن العاص حين أزمع أن يصوم الدهر وحين غلا في قراءة القرآن ، وأراد أصحابه على أن يأخذوا دينهم بالرفق وبالإسماح ، وذكرهم بما أنبأهم به القرآن من أنه يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر ، ومن أنه لم يجعل عليهم في الدين من حرج ، وأمر الغلاة منهم في الصيام والقيام أن يصوموا ويفطروا وأن يقوموا ويناموا ، ولا يحرموا على أنفسهم ما أحل الله لهم ، بل بالغ النبي ﷺ في ذلك حتى استخفى من أصحابه ببعض عبادته مخافة أن يشق عليهم، وأن يتقيدوا به فيتكلفوا ما لا يطيقون ، ونهاهم عن أن يواصلوا في صومهم فيصوموا الليل والنهار جميعاً . فلما قالوا له : إنك تواصل . قال : إني لست كهيئتكم ، إني أظل يطعمني ربي ويسقيني ، يريد أن الله قد منحه من القوة والجلد على عبادته ما لم يمنحهم .

وعلى رغم هذا ظهر الزهد ، وأبى فريق من صالحي المسلمين إلا أن يرفضوا لين الحياة ، ويشددوا على أنفسهم في العبادة والتقشف والإعراض عن اللذات . وليس بهذا كبير بأس ، فالناس أحرار في أن يزهدوا إن أطاقوا الزهد ولم يسوءوا به أحداً ، ولكن هذا الزهد لم يلبث أن تطور حين نشأت الفرق وجعل أمره يتعقد شيئاً فشيئاً، حتى نشأ عنه التصوف الذي عرف في أواخر القرن الأول وازداد تعقيداً حين اشتد اتصال المسلمين بالثقافات الأجنبية ، فلم يلبث التصوف أن تأثر بما عرف المسلمون من ثقافة الهند والفرس ، ومن ثقافة اليونان خاصة ، وتحول الزهد من تفرغ للعبادة وإمعان فيها إلى محاولة الاتحاد بالله أو الاتصال به ، أو معرفته من طريق الإشراق . ثم اختلط التصوف بمذاهب الباطنية فازداد تعقيداً إلى تعقيد ، وانحرف عما عرف الناس من شؤون الدين ، وأصبح مذهباً بعينه بل أصبح مذاهب يختلف فيها المختلفون، وتكلم المتصوفون بأشياء أنكرها الفقهاء والمحدثون والمتكلمون ، وامتحن فيها بعضهم محنة شديدة انتهت أحياناً إلى القتل والصلب كما جرى على الحلاج .

وليس التصوف مقصوراً على الإسلام بل هو معروف في الديانات الأخرى وفي المسيحية خاصة . ولكن متصوفة الإسلام أسرفوا على أنفسهم . ثم أسرفوا بعد ذلك على الناس ، فصار أمر التصوف بعد أن فشا الجهل والجمود إلى ألوان من الشعوذة

والدجل حتى أصاب عامة الناس منه شر كثير ، لو رآه أئمة الصوفية الأولون لضاقوا به أشد الضيق وأنكروه أعظم الإنكار .

ثم لم يقف أمر الاختلاف بين المسلمين عند ما وصفنا ، ولكنهم اختلفوا في استنباط الأحكام التي يحتاج إليها الناس في حياتهم الاجتماعية ، بل في عباداتهم أيضاً اختلافاً كثيراً نشأ عنه جدل لا يحصى بين الفقهاء . فكان أهل الحجاز في القرن الأول والثاني يستنبطون الأحكام من القرآن والسنة ، وما أجمع عليه أصحاب النبي ، وما عمل به الممتازون منهم ، يرون أن أصحاب النبي لا يجمعون على شيء إلا أن يكونوا قد استندوا في إجماعهم على سنة النبي ، ويرون أن الممتازين من الصحابة قد اشتد اتصالهم بالنبي حتى فقهوا الدين حق فقهه وتحروا سنته في أحكامهم . وكان أهل العراق يستنبطون الأحكام من القرآن والسنة والإجماع ، ولكنهم لا يكرهون أن يلجئوا إلى الرأي إذا أعوزتهم هذه الأصول واشتد الجدال بين أولئك وهؤلاء ، وكثر الخلاف بين أصحاب الرأي أنفسهم ، فكثر الكلام في الفقه ، كما كثر الكلام بين الذين اشتغلوا بأصول الدين إلى اختلاف الفرق القديمة في استنباط الأحكام .فللشيعة فقههم ،وللخوارج فقههم . كل يقيم مذهبه في استنباط الأحكام على مذهبه في السياسة وفي أصول الدين أيضاً .

وكذلك بلغ الخلاف بين المسلمين في الأصول والفروع أقصى ما كان يمكن أن يبلغ . ثم أدركهم ما يدرك الأمم قبلهم وبعدهم من الضعف والجهل والانحطاط . فصار أمرهم إلى شر عظيم .

وقبل الحديث عن الجهل وما ترك في حياة المسلمين من شر يشقون به إلى الآن ، لا بدّ من وقفة قصيرة عند ألوان من التعصب نشأت عن كثرة الفرق في الأصول والفروع جميعاً ، فكما كانت الأحزاب السياسية في أول الأمر تتقاذف بالكفر ، ويستبيح بعضها دم بعض حين تمكنه الفرصة ، أو يتاح له الخروج على السلطان ، جعلت فرق المتكلمين تتقاذف بالكفر أحياناً وبالفسق غالباً ، وتستبيح امتحان الناس بالسجن والضرب والقتل، إن أتيح لها الاتصال بالسياسة والاستيلاء على عقول الحكام وقلوبهم، كالذي كان حين غلب المعتزلة على عقل المأمون ، وألقوا في قلبه مقالتهم هذه السخيفة، التي لا تقدم ولا تؤخر في فقه أصول الدين وفروعه والتي لم يدفع إليها إلا الغلو في البحث والإمعان في الجدل ، وهي مقالتهم في خلق القرآن . فهم قد أنكروا أن تكون لله صفات تقوم بذاته ، وقرروا أن الله عالم بذاته وقادر بذاته إلى آخر ما قرروا فيما

يسمونه التوحيد. ونظراً لأن الله قد أنبأ في القرآن بأنه كلم موسى تكليماً وبأنه أنزل القرآن على محمد ﷺ، وأمر النبي أمراً مباشراً بأن يبلغ الناس عنه ما أنزل إليه، وأمره أمراً مباشراً غير مرة بأن يقول لهم أشياء مختلفة، يوجه بعضها إلى المسلمين ويوجه بعضها إلى الكافرين ويوجه بعضها إلى الناس جميعاً، فقد استنبطوا من كل هذا أن كلام الله مخلوق محدث قد أنشأه الله بعد أن لم يكن وأنزله على أنبيائه فهو كغيره من الكتب التي ينشئها الناس إلا أنه هنا قد أنشأه الله كما أنشأ غيره من المخلوقات ولو قالوا مقالتهم هذه ولم يفتنوا بها الناس لكان حسابهم إلى الله وحده، ولكنهم سيطروا على المأمون وأقنعوه بمقالتهم هذه، وأقنعوه أيضاً بأن القول بغيرها إشراك بالله وخروج من الدين، لأن قدم القرآن معناه أن يكون هناك قديمان، مع أن القديم واحد لا شريك له ولا نظير له في القدم، وهو الله عز وجل. ثم لم يكفهم ذلك فحملوا المأمون على أن يفرض رأيهم هذا على المسلمين، ويبدأ بعلمائهم وفقهائهم ومحدثيهم. واستجاب لهم المأمون بعد تردد وجعل يمتحن علماء المسلمين ويفرض هذه المقالة على كل من يعمل في خدمة الدولة بل في خدمة الأمة من القضاة والعمال والشهود. وقرر أنه ليس في حاجة إلى أن يستعين على خدمة الدولة الإسلامية بالمشركين. وألزم العمال أن يمتحنوا القضاة في ذلك فمن أجاب إلى رأيه أقر على عمله ومن أبى صار إلى العزل. وأمر القضاة أن يمتحنوا الشهود ولا يقبلوا إلا شهادة من يقول برأيه ويعلن إيمانه بأن القرآن مخلوق. ثم جعل يمتحن الفقهاء والمحدثين، فمنهم من أجاب إلى رأيه تقية وتجنباً لاحتمال المكروه، ومنهم من أبى فتعرض للسجن وتعرض للضرب، ولو قد عاش المأمون لتعرض خصومه من العلماء للقتل، فهو قد أمر عامله على بغداد أن يمتحن جماعة من العلماء، فمن أجاب إلى رأيه أطلقه ومن خالف عن رأيه ضرب عنقه وأرسل إليه رأسه.

وكان حين أصدر هذا الأمر إلى عامله على بغداد قد خرج من العراق محارباً للروم. والناس جميعاً يعرفون أن أحمد بن حنبل - رحمه الله - لقي في هذه المحنة بلاء عظيماً فصبر صبر الأبطال واحتمل السجن الطويل والحرمان الشديد والضرب المبرح الذي أضعفه إلى أن توفي. وأكبر الظن أن المعتزلة صاروا بالمأمون في هذه المقالة إلى شيء يشبه الجنون، ولولا أنه قد مات في سفره ذاك لملأ الأرض شراً ونكراً، ولكن الواثق والمعتصم سارا في هذه المسألة سيرة المأمون مع شيء من القصد، فلم يصلا بالممتحنين إلى القتل كما هم المأمون أن يفعل، وإنما اكتفيا بالسجن والضرب والحرمان.

ولولا أن المتوكل ألغى هذه المحنة وعاد إلى القصد في حكم المسلمين لتعرض أمر الخلافة العباسية لخطر أي خطر .

وكذلك الأمر كلما اتصل رجال الدين، والغلاة منهم في الرأي ، بالسلطان وسيطروا عليه . فقد أشرنا آنفاً إلى الحلاج وقتله وصلبه . وقد حدث شيء من هذا الامتحان لبعض العلماء في الغرب الإسلامي ، فمنهم من سجن ، كابن رشد ، ومنهم من حرقت كتبه ، كابن حزم . وليس لهـذا كله مصدر إلا أن الغلاة من الأحرار كالمعتزلة في المشرق ، والغلاة من المحافظين كالفقهاء في المغرب الإسلامي ، قد استطاعوا أن يستأثروا ببعض الحكام ويفرضوا عليهم غلوهم في الرأي ، وأخذهم الناس بما لم يعرف عن النبي ﷺ . والذين يقرأون القرآن والسنة يعرفون ما لقي النبي وأصحابه المؤمنون من المنافقين في المدينة وفي باديتها . ويعرفون أن النبي ﷺ لم يعرض لأحد منهم بسوء ، وإنما احتملهم صابراً عليهم مطاولاً لهم ، طامعاً في أن يثوبوا يوماً إلى الرشد ، أو أن تمسهم رحمة من الله فتخلص قلوبهم الدين ، وكان يستغفر لأحيائهم ويصلي على موتاهم ، حتى قال الله له :

(اسْتَغْفِرْ لهمْ أوْ لا تَسْتَغْفِرْ لهم إنْ تَسْتَغْفِرْ لهم سَبْعِينَ مرّةً فَلَنْ يغفِرَ اللهُ لهم) .

وقال له : (ولا تُصَلِّ عَلى أحَدٍ منْهُمْ ماتَ أبَداً ولا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ) وربما عرض عليه عمر بن الخطاب أو غيره من أصحابه أن يقتلوا بعض المنافقين فلم يأذن لأحد منهم في ذلك .

وقد روى الشيخان أن شيئاً من الخصومة وقع بين رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار في غزوة بني المصطلق ، وتعصب لكل واحد منهما نفر من أصحابه ، فبلغ ذلك عبدالله بن أبي بن سلول ، رأس المنافقين من أهل المدينة ، فقال : لئن رجعنا المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . وارتفعت القصة إلى النبي ﷺ فسأله عمر بن الخطاب أن يأذن في قتل هذا المنافق ، فأبى وقال : لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه . وذكر الله هذه المقالة التي قالها عبد الله بن أبي بن سلول فقال في سورة المنافقون :

(يَقولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إلى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْها الأذَلَّ وللهِ العِزّةُ ولِرَسُولهِ وللمُؤمِنِينَ ولكِنَّ المنَافِقِينَ لا يَعلمُون) .

واعترض رجل على إعطاء النبي من غنائم حنين لبعض المؤلفة قلوبهم ، وواجه النبي

باعتراضه ، فقال : اعدل يا محمد فإنك لم تعدل . فلم يزد النبي في جوابه على أن قال : ويحك ! فمن يعدل إذا لم أعدل ؟ واستأذنه بعض أصحابه في قتل هذا الرجل فأبى .

وإذن فقد علم الله ما اضمر المنافقون من الكفر في قلوبهم فلم يحرض النبي عليهم ، ولم يأذن له في قتل أحد منهم ، وإنما نهاه أن يصلي عليهم إن ماتوا أو يقوم على قبورهم.

ولم ينطق النبي عن الهوى حين قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

وحين قال : « ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

وكان الفقهاء والمحدثون الذين هم المأمون بقتلهم يقولون : لا إله إلا الله . فيعصمون بها دماءهم وأموالهم . ثم لم يكونوا يقولون هذه الكلمة بألسنتهم وإنما كانوا من صالحي المؤمنين وأصحاب الورع والزهد فيهم . ومن الخلفاء العباسيين من غلا في امتحان بعض الناس وأسرف في قتلهم . يأخذ بعضهم بالشبهة والوشاية وسوء المقالة ، كالذي صنع المهدي حين تتبع الزنادقة . فقتل منهم أفراداً لم يتثبت من كفرهم وإنما أخذهم بسوء المقالة وسعى بعض الناس فيهم بالسوء . وغلا في ذلك حتى أمر بعض وزرائه أن يقتل ابنه بيده . وقال له : قم فتقرب إلى الله بدمه .

وكل هذا إسراف لم يأته النبي ولا نعرف أن خلفاءه الراشدين قاتلوا ، أو قتلوا المسلمين ، إلا حين جاهروا بالخروج من الدين وأظهروا له العداوة ولم يعصموا دماءهم وأموالهم بالإسلام .

ولست في حاجة إلى أن أذكر زياداً ، ذلك الذي أعلن في خطبته المشهورة أنه سيأخذ البريء بالمسيء والصحيح في دينه بالسقيم . ولا أذكر الحجاج الذي اسرف في القتل بغير الحق . فقد كان زياد والحجاج طاغيتين أطلق خلفاء بني أمية أيديهما وأيدي غيرهما من ولاة العراق في دماء الناس وأموالهم فأفسدوا وأمعنوا في الفساد .

وجملة القول أن الغلو في الرأي ، حمل الناس على ما لا يؤمنون به . وأخذ الناس بالشبهة وقتلهم أو تعذيبهم بالظنة ، كل هذه أشياء ينكرها الإسلام ويأباها أشد الإباء ويبرأ الله ورسوله منها . ولا يعمد إليها من حكام المسلمين إلا الذين يطيعون الهوى ويمتنعون على العقل ويخالفون عن القوانين الصريحة للدين .

وعن اختلاف الأحزاب واختصامها بالسيف أحياناً ، وباللسان غالباً في القرن الأول وصدر من القرن الثاني . وعن اختلاف الفرق بعد ذلك ولجاجها في الخصومة ، نشأت الدعوة السرية لبعض المذاهب السياسية ، وكان هذا مصدر اضطرابات كثيرة

زعزعت أحياناً مركز الخلافة في دمشق أولاً ، وفي بغداد بعد ذلك .

كانت قوة السلطة المركزية في العصر العباسي خاصة تمنع الناس من الجهر بآرائهم في السياسة والنضال عنها، فلم يكن لهم بد من أن يسروا آراءهم، ويستخفوا بدعوتهم، ويديروا ثوراتهم من وراء الحجب الصفاق. أضف إلى هذا أن الثقافة في العصر العباسي تجاوزت طبقة العلماء المتخصصين وطبقة الأغنياء الذين كانوا يستطيعون أن يأخذوا منها بحظوظ مختلفة ، وتغلغلت في بعض طبقات الشعب. فلم يلبث الناس أن عرفوا حقوقهم، وشعروا بما كان يفرض عليهم من ظلم السلطان ، واستئثار الأغنياء دونهم بطيبات الحياة ، واستذلالهم للفقراء ، واستغلال الأقوياء للضعفاء . فنشأت عن ذلك الدعوة إلى لون من الثورة ، لم يخلص للسياسة ولم يخلص للدين أيضاً ، وإنما كان مطالبة بالحقوق الاجتماعية ، وجهاداً في سبيل تحقيق العدل وشيء من المساواة . فكانت ثورة الزنج في البصرة ، تلك التي ثار فيها الرقيق بالسادة ، والتي عرضت مركز الخلافة لخطر عظيم . واضطر أولو الأمر في بغداد إلى أن ينفقوا في مقاومتها جهداً مضنياً ومالا مبهظاً ، ولم يستطيعوا إخمادها إلا بعد حرب عنيفة شديدة العنف ، طويلة مسرفة في الطول.

ولم تكد هذه الثورة تخمد حتى نشأت ثورة اجتماعية أخرى، كانت أشد منها خطراً وأعظم منها انتشاراً ، وهي ثورة القرامطة التي دعت إلى شيء من العدل والمساواة ، يوشك أن يكون هدماً للنظام الاجتماعي الذي كان قائماً . وقد ملأت الدنيا شراً في العراق والشام وبلاد العرب ، وكادت ترد كل شيء إلى الفوضى . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل عمل الشيعة العلويين سراً وجدّوا واجتهدوا ، وأتقنوا الكتمان والاستخفاء بدعوتهم ، حتى أتيح لهم أن ينشئوا لحزبهم دولة في شمال إفريقيا ، لم تلبث أن انتشرت وقوي أمرها ، حتى سيطرت على مصر والشام وبلاد العرب .

ونظر المسلمون ذات يوم فإذا هم خاضعون لثلاثة من الخلفاء ، أضعفهم الخليفة العباسي في بغداد . ذلك الذي لم يكن له من الحكم إلا ظاهره . وكان الخليفة الثاني في مصر ، بعد أن أنشأ الفاطميون مدينة القاهرة واستقروا فيها ، وكان الخليفة الثالث في قرطبة بالأندلس ، حيث أوت سلالة الأمويين التي فرت حين نشأت الدولة العباسية في المشرق . فأنشأت دولتها في الأندلس ضعيفة أول الأمر قوية بعد ذلك .

وكانت هذه الدول الثلاث تتنافس أشد التنافس ، ويبغض بعضها بعضاً أعظم البغض ، قد انقسم بنو هاشم إلى خلافة عباسية في بغداد وخلافة علوية في القاهرة ، وقام بنو أمية في قرطبة يبغضون العباسيين والعلويين جميعاً ، وظهر بين علماء الأندلس

رجل كابن حزم لم يتردد في الجهر بأن تعدد الخلفاء جائز لا بأس به . وقد رأيت من قبل أن الله أمر المسلمين أن يعتصموا بحبله جميعاً ولا يتفرقوا .

فانظر إلى ما صار إليه اعتصامهم بحبل الله من الفرقة والانقسام ، واستباحة الحرب بينهم ، مع أن النبي والصالحين من أصحابه لم يكونوا يبغضون شيئاً كما كانوا يبغضون الفرقة والانقسام ، حتى روي عن النبي ﷺ قوله : « من حمل علينا السلاح فليس منا » . وقد روينا لك غير مرة قوله ﷺ : « ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » . وليس لشيء من هذا كله مصدر إلا افتتان الناس بزهرة الحياة الدنيا ، وانحرافهم عما أراد الله للمسلمين من أن يقيموا أمرهم كله على العدل والمساواة والإنصاف . واختلافهم في فهم القرآن تأثراً بالأهواء ، واستجابة لما كان يملأ نفوسهم من الطموح .

- ٧ -

على أن هذا كله لم يلبث أن صار إلى شر عظيم حين غلبت العناصر الأجنبية على شؤون الحكم ، فأقامت هذه الشؤون على المنافع ، غير حافلة بما يأمر به الله من العدل والإنصاف والمساواة ، والشعور المتصل بهذه الرقابة الرهيبة التي فرضها الله على الناس، فراقب أعمالهم الظاهرة ونياتهم الباطنة ، وأنبأ بأنه سيسأل الناس عما تعمل جوارحهم وما تضمر قلوبهم — أعرضوا عن هذا كله وأقاموا أمور الحكم على المنافع العاجلة ، وعلى المنافع العاجلة لأنفسهم ولأعوانهم ذوي خاصتهم ولم يحفلوا بالعامة ولم يفكروا في أن للأمة حقوقاً يجب أن تؤدى إليها ، وعليها واجبات يجب أن تحمل على أدائها . بل نظروا إلى الأمة على أنها وسيلة لإرضاء المطامع ، وأداة لتحقيق المآرب . والأصل الديني في كل حكم صالح أن تكون الأمة غاية وتكون الحكومة وسيلة ، وتكون الغاية الكبرى التي تشترك فيها الحكومة والأمة هي إرضاء الله بتحقيق العدل ومحو الجور حيثما وجد ، وشعور الحاكمين والمحكومين جميعاً بأنهم لم يخلقوا عبثاً ولم يتركوا سدى. لم يستخلفوا في الأرض ليفسدوا فيها ويسفكوا الدماء ، ويطغى بعضهم على بعض ويستغل بعضهم نشاط بعض . وإنما خلقوا ليصلحوا ويحسنوا ويعملوا على أن يلقوا ربهم كما يحب أن يلقوه أتقياء أنقياء مبرئين من الذنوب والآثام ، التي تعرضهم لها الفتنة، وإيثار المنافع العاجلة الفانية على المنافع الآجلة الباقية .

ثم لم يكتف الحكام الأجانب بهذا كله ولكنهم جهلوا اللغة العربية فلم يقدروها حق قدرها ، ولم يلتفتوا إلى أنها لغة القرآن والسنة والثقافة وأن إهمالها إهمال لهذا كله ، وأن عاقبة هذا الإهمال إنما هي الجهل : جهل الدين أولاً ، وجهل الثقافة والعلم ثانياً ، والانتهاء آخر الأمر إلى أن تقوم أمور الناس على الجهل الذي يناقض العلم ، وعلى الجهل الآخر الذي يناقض الحلم والأناة وكبح الشهوة وقهر النفس ، وأخذها في أمرها كله بالحق والعدل والمساواة بين الناس . وأداء الواجبات مهما تثقل .

وإلى الجهل بهذين المعنيين صارت أمور المسلمين آخر الأمر ، جهل الحكام شؤون الدين وشؤون الثقافة والعلم فلم يحفلوا بنشر الدين والثقافة والعلم ، فانتهى أمر الأمة نفسها إلى الجهل العام . وعن هذا الجهل العام نشأ الشر الذي يحاول المسلمون في هذا العصر الحديث أن يخلصوا منه ، فلا يبلغون من ذلك بعض ما يريدون إلا بأشق المشقة وأعظم الجهد . وإذا أهملت الحكومة شؤون الدين فلم تشجع العلماء على أن ينشروه بين أصحابه ، وبين الذين لم تصل إليهم دعوته بعد ، ولم تشجع الناس على أن يتعلموا دينهم ، هان أمر العلماء بالدين على الحكومة أولاً ، وعلى الأمة ثانياً ، وعلى أنفسهم آخر الأمر . فأهملوا ما كان يجب عليهم أن يمتوا به من الدرس والبحث وتعمق الأصول ، واستخراج فروع الأحكام التي تلائم حياة الناس على مر الأيام وتطور الظروف .

ومن أجل هذا كله غاضت تلك الينابيع الغزيرة التي كانت تمد عقول الفقهاء بهذا الإنتاج الخصب الرائع ، الذي لا نعرف أنه أتيح لأمة قديمة قبل الأمة الإسلامية ، حتى الأمة الرومانية التي برعت في الفقه وتعمقته . وقد كان فقهاء المسلمين في أول أمرهم يجتهدون في فهم القرآن والسنة وسيرة الصالحين من أصحاب النبي ، ويستنبطون الأحكام من هذا كله ، لا يصدهم عن ذلك شيء ، ولا يردهم عنه رضى السلطان عنهم أو سخطه عليهم ، ولا التفاف الناس حولهم أو انصرافهم عنهم ، فأنشأوا هذا العلم الخصب وذهبوا فيه المذاهب ، وكان اختلاف مذاهبهم نافعاً للناس في حياتهم العامة ، وفي حياتهم الخاصة كان مذكياً لعقولهم وقلوبهم أولا ، وكان بعد ذلك يوسع عليهم ألوان الحل لما كان يعرض لهم من المشكلات .

وكان الناس يجدّون ، حين يطلبون العلم ، في العناية بالفقه وتعمقه : والتصرف في معضلاته ، حتى إذا أهمل العلم والدين وجمد العقل وانقطع التفكير الخاص صار الناس إلى هذا التقليد ، وفرضت على الأمصار والأقاليم مذاهب هؤلاء الأئمة الأربعة : مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد ابن حنبل ، رحمهم الله .

وفرغ الفقهاء لدرس مذهب من هذه المذاهب يجادلون عنها ويتكلفون التعمق لها ، يقلد كل جماعة منهم إماماً من هؤلاء الأئمة ويضعون مذهبه موضع التقديس، لا ينحرفون عنه ولا يغيرون فيه. ثم انتهى أمرهم إلى التعصب لأئمتهم والتنكر لغيرهم من المجتهدين ، حتى أضاعوا علماً كثيراً ذهب مع الزمن لشدة الانصراف عنه وقلة التفكير فيه ، ثم تعصب أصحاب الأئمة الأربعة لأئمتهم فثارت بينهم الخصومات السخيفة التي لا تغني عنهم ولا عن عامة الناس شيئاً . ثم صار العقل الفقهي إلى شيء من التحجر ، وجعل الفقهاء يبدئون ويعيدون فيما قال قدماؤهم ، لا يزيد متأخر على متقدم شيئاً ، ثم صار الفقه إلى كتب تقليدية مختصرة توضع لها الشروح وتضاف إليها الحواشي . وجعل شباب الطلاب يحفظون المختصرات عن ظهر قلب ، ويختلفون إلى أساتذتهم ليسمعوا منهم شروحاً وحواشي ، يفهمون منها ما يستطيعون ويتركون منها ما لا يحسنون فهمه ، وأتيح لبعض البلاد الإسلامية حكام يقلدون مذهباً من المذاهب ، فيفرضونه على المحكومين ، ويختارون القضاة من فقهاء هذا المذهب لا يتجاوزونه إلى غيره . وجمدت العامة مع الفقهاء فأصبح هذا الشعب يدين بمذهب أبي حنيفة ، لا يستبيح أن تحل مشكلاته بحكم مذهب آخر .وشعب آخر يدين بمذهب مالك لا يعدوه إلى غيره ، وأتيح لبعض الشعوب أن يكون من أبنائه الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة ، ولم يحفل الحكام بذلك ولم يهتموا له،وإنما اكتفوا بأن يختاروا لكل أصحاب مذهب قضاة من أهل مذهبهم .

وكذلك كان في مدينة كالقاهرة قاض للحنفية، وآخر للشافعية ، وثالث للمالكية، وعلى هذا النحو . وأي شر أعظم أثراً في حياة الناس من ألا يجمعهم قانون واحد تقوم عليه الأحكام فيهم ، وتحل به المشكلات التي تعرض لهم .

ولم يكن الكلام أحسن حظاً من الفقه . فقد انتهى أمره إلى الجمود والعقم . وفرض على الناس مذهب بعينه من مذاهب المتكلمين ، يراه علماؤهم ديناً ويرون ما عداه من المذاهب انحرافاً عن الجادة وجوراً عن الطريق . وأصابه ما أصاب الفقه من اختصار الكتب ووضع الشروح والتعقيب عليها بالحواشي ، حتى أصبحت العقول أدوات لا عمل لها إلا أن تبدىء وتعيد ، وتهذي في غير انقطاع كما يهذي المحمومون .

وصار أمر العلوم كلها إلى ما صار إليه أمر الفقه والكلام ، مختصرات تحفظ عن ظهر قلب ، وشروح تفسر هذه المختصرات ، وحواشي وتقارير تردها إلى الغموض والتعقيد بعد اليسر والإسماح . وإذا جمدت عقول العلماء على هذا النحو جمدت عقول

تلاميذهم ، وأصبح الجمود شيئاً تتوارثه الأجيال جيلاً بعد جيل .

ثم تعرضت العقول للخرافات والسخافات والأساطير ، التي يتراكم بعضها إلى بعض ويتراكب بعضها فوق بعض ، وصار العلم إلى شيء من الإعجام وأغلق بابه على أوساط الناس فضلاً عمن هم أقل منهم ، وأطبق على علماء الأمة وعامتها سحب متكاثفة من الجهل والتواء التفكير ، ثم الاستسلام والإذعان لكل ما يقال لهم وكل ما يراد بهم . وبعد الأمد إلى أقصى حدود البعد بينهم وبين قديمهم ، فنسوا تاريخهم ونسوا علومهم وما ترك الأولون فيها من الكنوز التي لا تقدر ولا تحصى والتزموا كتباً بعينها تتوارثها أجيالهم يفهمونها أو لا يفهمونها فليس الفهم هو الشيء المهم وإنما المهم هو أن تقرأ الكتب الطوال في مجالس الدرس ، وتحفظ الكتب القصار قبل الاختلاف إلى مجالس الأساتذة .

والأستاذ مقيد بما يقرأ من ألفاظ الشراح وأصحاب الحواشي لا يضيف إليها شيئاً ، قد وقف عقله عن التفكير واقتصر جهده كله على قراءة النص المختصر وتفسيره بالشرح المكتوب والتعقيب عليه بالحواشي المكتوبة أيضاً على هذه الشروح .

وأصبح الأساتذة والطلاب أشبه شيء بالببغاء يحكي كل واحد ما سمع من شيخه ويحكيه بلفظه ما وجد إلى ذلك سبيلاً . وقد أتيح للمسلمين لحسن حظهم أفراد من العلماء في عصور مختلفة لم يجحدوا التقليد جملة ، وإنما حاولوا أن يعملوا عقولهم ويثبتوا شخصيتهم وينشروا النور من حولهم ، وينظروا من علم القدماء فيما أعرض الناس عن النظر فيه .

وكان هؤلاء العلماء يجدون نفوراً منهم وإعراضاً عنهم وربما وجدوا تشهيراً بهم ومقاومة لهم وربما أصابهم أذى يكثر ويقل باعتبار الظروف التي تحيط بهم وتحيط بالناس من حولهم .

وانظر إن شئت إلى سيرة ابن تيمية وما أصابه من إنكار العلماء الجامدين عليه ، وبطش الحكام المستبدين به .

وكذلك صار أمر المسلمين إلى هذا النكر الذي عرضهم لألوان من المكروه ما كانوا ليتعرضوا لها لو سلكوا طريق قدمائهم . فلم يتركوا عقولهم تصير إلى هذا الجمود والخمود .

والكوارث السياسية بالطبع هي مصدر هذه المحنة التي امتحن بها المسلمون قروناً طوالا ، والتي أطمعت فيهم دولا أجنبية لم تكن من الإسلام في شيء ، رأتهم جاهلين

غافلين مذعنين للظلم راضين بما كان يصب عليهم من الجور والهضم والاستذلال . وإذا بلغت الشعوب هذا الحد من الضعف ضعفت حكوماتها فلم تجد من القوة إلا ما يمكنها من ظلم الرعية واستذلالها واستغلالها . ولم تستطع أن ترد عن نفسها ولا عن شعوبها طمع الطامعين فيها ، وكيد الكائدين لها ومكر الماكرين بها واعتداء المعتدين عليها ، بل ربما وجدت الشعوب شيئاً من السرور والرضى بسقوط حكوماتها وانهزامها أمام العدو المغير ، يئست من عدل هذه الحكومات ونظرت إليها على أنها شر سلط عليها ، فتمنت أن يزول عنها هذا الشر ، فهي طامعة في شيء من العدل قليل أو كثير عند المغيرين عليها والمحتلين لبلادها ، نسيت كرامتها وجهلت هذه الكرامة وغفلت عن حقوقها وعن واجباتها أيضاً ، وطمعت في شيء واحد هو أن تخلص من هذا الشر الجاثم عليها .

وكذلك كثر المغامرون أولا ، وكثر معهم الاضطراب والفساد ، ثم جاء المستعمرون فوجدوا كل شيء قد مهد للاستعمار . ففتحوا واستعمروا ، وفتحوا أبواباً من الآمال الكاذبة أمام هذه الشعوب البائسة . حتى إذا استقرت لهم الأمور تبين البائسون البائسون أنهم لم يخرجوا من بؤسهم ذاك إلا ليفرض عليهم بؤس أشد منه . وأي بؤس أشد نكراً من أن يتحكم الأجنبي في حياة الناس وأرزاقهم ومصالحهم ، وفي آمالهم ومستقبلهم .

وكانوا عبيداً أو كالعبيد لقوم يمتون لهم ببعض الأسباب ، فأصبحوا عبيداً أو كالعبيد لقوم ليسوا منهم في قليل ولا كثير ، يختلفون عنهم في كل شيء ولا يقاربونهم في شيء .

وإذا هم يعودون إلى شر مما كانوا فيه من البؤس واليأس والقنوط .

ولم يصر شأن علوم اللغة العربية والعلوم العقلية إلى خير مما صارت إليه أمور الفقه والكلام ، تقليد في هذه كالتقليد في تلك ، وجمود مطبق في هذه كالجمود المطبق في تلك . شمل القصور ملكات العقول كلها ، فلم تبتكر شيئاً ولم تحسن التفكير في شيء ، بل لم تحتفظ بقديمها نفسه ، وإنما خلت بينه وبين الجهل يلقي من دونه حجباً كثافاً وأستاراً صفاقاً .

ولو أن هذا الجهل المطبق رد عقول الناس إلى فطرتها الأولى ، وجعلها متهيئة لتلقي ما يمكن أن ينقل إليها من علم جديد ، لكان قليل هذا العلم الجديد جديراً أن يذكرها بكثير علمها القديم . ولكن الناس أحبوا الجمود واطمأنوا إليه ، وحرصوا على الاستمساك

به ، ورأوا كل جديد بدعة أي بدعة وإثماً أي إثم ، بل رأوا إحياء التراث القديم نفسه شراً يجب اجتنابه ، وينبغي للرجل الكريم أن يتقي شره ، ووصفوا إحياء القديم العربي في الأدب واللغة والفلسفة بأنه عناية بالقشور وإهمال للباب ، واللباب بالطبع هو ما يبدئون وما يعيدون فيه من الكلام المقصد الذي لا يغني عنهم ولا عن غيرهم شيئاً . ولم يقصر هذا الجمود على وطن بعينه من الأقطار العربية والإسلامية ، ولكنه جثم على العالم الإسلامي كله كما تجثم ظلمة الليل على الأرض ، وأبطأ إسفار الشمس التي تذود هذه الظلمة عن القلوب والعقول جميعاً ، حتى أصبح العالم الإسلامي نهباً للطامعين فيه والمعتدين عليه من المستعمرين الغربيين .

ثم كان الاتصال بهؤلاء الغربيين حين أقبلوا عليهم مستعمرين لهم ، فنبههم أو نبه أقلهم من هذا النوم العميق ، وإذا هم يشعرون على مر الزمن بما تتابع عليهم من الكوارث وما أطبق عليهم من الجهل ، حتى ناموا واستيقظ الناس ، وسكنوا وتحرك الناس . وإذا هؤلاء الأقلون يحاولون إيقاظ الكثرة النائمة ، ويبلون في ذلك أحسن البلاء ، ويحتملون في سبيله فنوناً من النكير والتشهير والأذى .

وما أظن المصريين نسوا جهاد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده – رحمهما الله – في هذا السبيل ، وما لقيا من السخط عليهما والمكر بهما ، والتنكر لمن ذهب مذهبهما أو اختلف إلى دروسهما . وليس لهذا مصدر إلا أن النائمين يكرهون اليقظة ، ويكرهون بالطبع من يدعوهم إليها ، كما أن الذين استراحوا إلى الجمود لا يبغضون شيئاً كما يبغضون الحركة والداعين إليها .

مع ذلك فقد نامت الأمة الإسلامية قروناً طوالاً ، ولكنها حين استيقظ بعض الممتازين منها ودعوها إلى اليقظة في إلحاح ، أتيح لها في الوقت القصير شيء لا بأس به من التنبه ، بل شيء لا بأس به من التقدم وإن لم تزل بعيدة أشد البعد عن أن تكون جديرة بتاريخها الإسلامي البعيد .

وما أحب أن أثبط الهمم ، ولا أن أفل العزائم ، ولا أن أشيع اليأس ، ولكني أقول ما أقول تقوية للأمل وتقضية للعزم وإلحاحاً مع الملحين في أن يثوب الناس إلى أنفسهم ، ويتمثلوا هذه الآماد البعيدة أشد البعد بينهم وبين قدمائهم من جهة ، وبينهم وبين الأمم الحديثة المتحضرة المسيطرة على العالم الحديث من جهة أخرى . ليعلموا أن الطريق بينهم وبين الرقي الصحيح طويلة شديدة الطول ، شاقة عظيمة المشقة ، وأنهم قد أتيح لهم الآن شيء من يقظة تمكنهم من أن يختاروا بين اثنين : إحداهما أن يظلوا

كما هم الآن أيقاظاً كالنيام ونياماً كالأيقاظ ، فيتعرضوا لخطوب أشد هولاً وأعظم أثراً من الخطوب التي تتابعت عليهم . والثانية أن يستيقظوا حقاً ويستدركوا ما فاتهم حين وقفوا ومشى الناس ، ليصبحوا أكفاء لقدمائهم من جهة ، وأنداداً للذين يحاولون أن يستذلوهم من جهة اخرى . ويجب عليهم أن يذكروا أن حكامهم من الأجانب في العصور الماضية كانوا جهالاً ففرضوا عليهم الجهل ، وأن الطامعين فيهم الآن بعيدون كل البعد عن الجهل ، فسيكون ظلمهم لهم أقوى وأعنف من ظلم حكامهم الأجانب فيما مضى .

والمستعمرون في هذا العصر الحديث يوشكون أن يفرضوا عليهم ضروباً من العلم قد تخرجهم من الجهل ، ولكنها ستقطع الأسباب حتماً بينهم وبين تاريخهم وتفنيهم في الأمم المستعمرة إفناء .

فلينظروا بين هاتين الخطتين وليختاروا إحداهما ، وما أرى إلا أنهم سيختارون ، بل عسى أن يكون كثير منهم قد اختار بالفعل ، خطة اليقظة والنهوض .

- ٨ -

وسبيلهم إلى هذه اليقظة الخصبة واحدة لا ثانية لها ، وهي أن يذكروا ما نسوا من تراثهم القديم ، لا ليقولوا إنهم يذكرونه ، بل ليعرفوه حق معرفته ، ويفقهوه جد الفقه ، ويحسن المتخصصون منهم العلم بدقائقه وتيسيره لغير المتخصصين .

هذه واحدة ، والثانية أن يستدركوا ما فاتهم من العلم الحديث ، ويبتغوا اليه الوسائل التي تتيح لهم أن يتحققوه كما يتحققه أصحابه، وأن يوطنوه في بلادهم ويجعلوه ملكاً لهم ، وأن يبذلوا من الجهد ما يمكنهم في يوم قريب من ألا يكونوا فيه عيالاً على المستأثرين به ، بل من أن يشاركوا فيه مشاركة الأنداد الأكفاء .

بهذه الخطة وحدها يستطيعون أن يسلكوا سبيل قدمائهم . الذين عرفوا حق المعرفة كيف يحافظون على ما ورثوا من العرب القدماء : الجاهليين والمسلمين الأولين . وكيف يدرسونه أحسن الدرس وأوسعه وأعمقه . وعرفوا في الوقت نفسه كيف يأخذون الثقافات الأجنبية . وكيف يسيغونها ويتمثلونها ويضيفون إليها من عندأنفسهم، وكيف ينشرون نور المعرفة بهذا كله في البلاد التي تستأثر بالعلم الآن ، وتريد أن تفرض عليهم سيطرتها .

وواضح أن هذا الحديث لا يطمع في أن يرسم للمسلمين خطة دقيقة للرقي ، وإنما يطمع في شيء هو أهون من ذلك ، ولكنه عظيم الخطر إلى أبعد ما يمكن أن يعظم

الخطر لأمر من الأمور ، وهذا الشيء متصل بالإسلام وحده . فالقرآن بين أيدي المسلمين يقرأونه ويسمعونه ويتعبدون به ، ولكن الذين يفهمونه حق فهمه من بينهم يمكن إحصاؤهم ، ويجب أن يكونوا من الكثرة فوق الإحصاء ، ويجب أن يتجاوزوا به أنفسهم ، وأن ينشروا العلم الصحيح به بين الناس .

والثابت من سنة النبي صلى الله عليه وسلم محفوظ قد نشر في الكتب ، وجعل كثير من الناس ينظرون فيه ، ولكن الذين يفقهونه أقل من القليل. ويجب أن يكثروا وأن ينشروا منها على الناس ما يبين لهم حقائق القرآن أولا ، ويفقههم في أمور دينهم ثانياً .

وسيرة الخلفاء الصالحين من المسلمين معروفة منشورة يقرأها المؤرخون ، ولكن العلم بها لا ينبغي أن يقصر بها المؤرخين ، وإنما يجب أن يشيع بين الناس ، ون تيسر لهم قراءته وفهمه . علم العلماء سجل في الكتب ينشر قليله ، وأكثره ما زال نائماً كما نامت الأمة الإسلامية ، فيجب أن يفيق من نومه ، وأن يكون قريب التناول للذين يحسنون درسه وفقهه من العلماء .

وهذا كله لا يكفي ، لأنه لايزيد على أنه ترقية للعقول وتزكية للأفهام.وويل للعلم بشؤون الدين وحقائقه إذا لم يتجاوز العقول والأفهام إلى القلوب والأمزجة ، ويؤثر في الضمائر أعمق التأثير ، ويؤثر في السيرة الظاهرة لهم أعمق التأثير أيضاً .

وقد عرضت في هذا الحديث صورة إن تكن شديدة الإيجاز ، فإنها شديدةالوضوح لحياة النبي ﷺ وأصحابه ، رحمهم الله .

فلو لم يكن لهذا الحديث أثر إلا أن يقرأه الناس ، ويجتهدوا ما استطاعوا في أن يحملوا أنفسهم على أن يسيروا في أمور دينهم ودنياهم سيرة النبي وأصحابه والصالحين من المسلمين ، وينفوا عن أنفسهم وعقولهم وقلوبهم ما أصابها من التقليد والجمود وما استقر فيها من السخف والأوهام - لو لم يكن لهذا الحديث أثر إلا هذا لكان قد بلغ بعض ما أردت ، حين أخذت في إملائه ، وصدق الشاعر القديم حين قال :

وما أدري إذا يممت أمراً ... أريد الخير أيهما يليني

أألخير الذي أنا أبتغيه ... أم الشر الذي هو يبتغيني

والله يعصمنا من الشر ويوفقنا إلى الخير ، وهو قد قال في كتابه العزيز : (وإذَا سَألَكَ عِبادِي عَنّي فإنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِي إذَا دَعان) فعسى أن يجيبنا إلى هذه الدعوة ، وله الحمد أولا وآخراً .

علىٰ هامش السّيرة

(١)

مقدمة

هذه صحف لم تُكتب للعلماء ولا للمؤرخين ؛ لأني لم أرد بها إلى العلم ، ولم أقصد بها إلى التاريخ . وإنما هي صورة عرضت لي أثناء قراءتي للسيرة فأثبتها مسرعاً ، ثم لم أر بنشرها بأساً . ولعلي رأيت في نشرها شيئاً من الخير ؛ فهي تردّ على الناس أطرافاً من الأدب القديم قد أفلتت منهم وامتنعت عليهم ، فليس يقرأها منهم إلا أولئك الذين أتيحت لهم ثقافة واسعة عميقة في الأدب العربي القديم . وإنك لتلتمس الذين يقرأون ما كتب القدماء في السيرة وحديث العرب قبل الإسلام فلا تكاد تظفر بهم .

إنما يقرأ الناس اليوم ما يكتب لهم المعاصرون في الأدب الحديث بلغتهم أو بلغة أجنبية من هذه اللغات المنتشرة في الشرق ، يجدون في قراءة هذا الأدب من اليسر والسهولة ، ومن اللذة والمتاع ، ما يُغريهم به ويرغبهم فيه ، فأما الأدب القديم فقراءته عسيرة ، وفهمه أعسر ، وتذوقه أشدّ عسراً . وأين هذا القارىء الذي يطمئن إلى قراءة الأسانيد المطولة ، والأخبار التي يلتوي بها الاستطراد ، وتجور بها لغتها القديمة الغريبة عن سبيل الفهم السهل والذوق الهيّن الذي لا يكلف مشقة ولا عناء .

ذلك إلى أن الأدب القديم لم ينشأ ليبقى كما هو ثابتاً مستقراً ، لا يتغير ولايتبدل ، ولا يلتمس الناس لذته إلا في نصوصه يقرأونها ويعيدون قراءتها ، ويستظهرونها ويمعنون في استظهارها . إنما الأدب الخصب حقاً ، هو الذي يلذّك حين تقرأه ؛ لأنه يقدم اليك ما يُرضي عقلك وشعورك ، ولأنه يوحي إليك ما ليس فيه ، ويلهمك ما لم تشتمل عليه النصوص ، ويعيرك من خصبه خصباً ، ومن ثروته ثروة ، ومن قوته قوة ؛ ويُنطقك كما أنطق القدماء ، ولا يستقر في قلبك حتى يتصور في صورة قلبك ، أو يصور قلبك في صورته ؛ وإذا انت تعيده على الناس فتلقيه اليهم في شكل جديد يلائم حياتهم التي يحيونها ، وعواطفهم التي تثور في قلوبهم ، وخواطرهم التي تضطرب في عقولهم .

هذا هو الأدب الحي . هذا هو الأدب القادر على البقاء ومناهضة الأيام . فأما ذلك الأدب الذي ينتهي أثره عند قراءته ، فقد تكون له قيمته ، وقد يكون له غناؤه ، ولكنه أدب موقوت يموت حين ينتهي العصر الذي نشأ فيه . ولو أنك نظرت في آداب القدماء والمحدثين لرأيت منها طائفة لا يمكن أن توصف بأنها آداب عصر من العصور أو بيئة من البيئات ، أو جيل من الأجيال ، وإنما هي آداب العصور كلها ، والبيئات كلها ، والأجيال كلها ؛ لا لأنها تعجب الناس على اختلاف العصور والبيئات والأجيال فحسب ، بل لأنها مع ذلك تلهم الناس وتوحي إليهم ، وتجعل منهم الشعراء والكتاب والمتصرفين في ألوان الفن على اختلافها .

وليس خلود الإلياذة يأتيها من أنها تقرأ فتحدث اللذة وتثير الإعجاب في كل وقت وفي كل قطر ؛ بل هو يأتيها من هذا ، ومن أنها قد ألهمت وما زالت تلهم الشعراء ، وتوحي إليهم أروع ما أنشأ الناس من آيات البيان . ولقد كان « إيسكولوس » أبو التراجيديا اليونانية يقول إنه إنما يلتقط ما يسقط من مائدة هوميروس . وما زال القصاص وشعراء التمثيل والغناء في الغرب خليقين أن يقولوا الآن ما كان يقوله إيسكولوس منذ خمسة وعشرين قرناً . ولم تكن قصص إيسكولوس وغيره من شعراء التمثيل اليوناني أقل خصباً من الإلياذة ؛ بل هي قد ألهمت من الكتاب والشعراء قديماً وحديثاً ، وما زالت قادرةً على أن تلهمهم إلى اليوم وإلى الغد .

وإني لأذكر أني قرأت منذ أعوام قصة تمثيلية هي الثامنة والثلاثون من نوعها ، وقد سماها صاحبها « جيرودو » بهذا الرقم ؛ فوضع لها هذا العنوان «انفيتريون رقم ٣٨» . كانت أسطورة تتصل بمولد هرقل فصورها سوفوكل قصةً تمثيلية في القرن الخامس قبل المسيح . وما زال الشعراء والكتاب من اليونان والرومان والأوربيين المحدثين يتأثرون ويذهبون مذهبه أو غير مذهبه ، في تصوير هذا الموضوع ، حتى انتهت القصص التي كتبت فيه شعراً ونثراً إلى هذا العدد الضخم .

ولم يحجم فحول التمثيل عن طرق هذا الموضوع لأنهم سبقوا إليه ، بل زادهم ذلك حرصاً عليه ورغبة فيه . وكان بين الذين طرقوه الشاعر اللاتيني « بلوت » والشاعر الفرنسي « موليير » . ثم لم يشفق جيرودو من أن يطرق موضوعاً سبق إليه الفحول من شعراء التمثيل في العصور القديمة والحديثة ، فصوّر قصته هذه الثامنة والثلاثين وعرضها على النظارة في باريس سنة ١٩٢٩ فكان فوزها عظيماً ، وإعجاب النظارة والقراء بها لا حدّ له .

وفي أدبنـا العربي على قوته الخاصة ، وما يكفل للناس من لذة ومتاع ، قدرة على الوحي ، وقدرة على الإلهـام . فأحاديث العرب الجاهليين وأخبارهم لم تكتب مرةً واحدة ، ولم تحفظ في سورة بعينها ، وإنما قصها الرواة في ألوان من القصص ، وكتبها المؤلفون في صنوف من التأليف. وقل مثل ذلك في السيرة نفسها ؛ فقد ألهمت الكتاب والشعراء في أكثر العلوم الإسلامية وفي أكثر البلاد الإسلامية أيضاً ؛ فصوروها صوراً مختلفة تتفاوت حظوظها من القوة والضعف والجمال الفني وقل مثل هذا في الغزوات والفتوح ، وقل مثل هذا في الفتن والمحن التي أصابت العرب في العصور المختلفة ، ولم يقف إلهام هـذا التراث الأدبي العظيم عند الكتّاب والشعراء الذين ينمقون النـثر ويقرضون الشعر ، في اللغة العربية الفصحى ، بـل جاوزهم إلى جماعة من القصاص الشعبيين الذين تحدثوا إلى الناس في صور مختلفة وأشكال متباينة ، بما كان لآبائهم من مجد مؤثل ، وبما أصاب آباءهم من محن مظلمة وفتن مدلهمّة ، عرفوا كيف يثبتون لها ويصبرون عليها ، ويخرجون منها كراماً ظافرين . ولا خير في حيـاة القدماء إذا لم تلهم المحدثين ولم توح إليهم رائع البيان شعراً ونثراً . وليس القدماء خالدين حقاً ، إذا لم يكن التماسهم إلا عند أنفسهم ، ولا تعرف أنباؤهم إلا فيما تركوا من الدواوين والأسفار . إنمـا يحيا القدماء حقاً ، ويخلدون إذا امتلأت بصورهم وأعمالهم قلوب الأجيال مهما يبعد بها الزمن ، وكانوا حديثاً للناس إذا لقي بعضهم بعضـاً ، وكنوزاً يستثمرها الكتاب والشعراء لإحياء ما يعالجون من ألوان الشعر وفنون الكلام .

إلى هذا النحو من إحياء الأدب القديم ، ومن إحياء ذكر العرب الأولين ، قصدت حين أمليت فصول هذا الكتاب . ولست أريد أن أخدع القراء عن نفسي ولا عن هذا الكتاب ؛ فإني لم أفكر فيـه تفكيراً ، ولا قدّرته تقديراً ، ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه كما يتعمد المؤلفون ؛ إنما دفعت إلى ذلك دفعاً ، وأكرهت عليه إكراهـاً ، ورأيتني أقرأ السيرة فتمتلىء بها نفسي ، ويفيض بها قلبي ، وينطلق بها لساني ، وإذا أنا أملي هذه الفصول وفصولاً أخرى أرجو أن تنشر بعد حين .

فليس في هذا الكتاب إذاً تكلف ولا تصنع ، ولا محاولة للإجادة ولا اجتناب للتقصير ، وإنما هو صورة يسيرة طبيعية صادقة لبعض ما أجد من الشعور حين أقرأ هذه الكتب التي لا أعدل بها كتباً أخرى مهما تكن ، والتي لا أملّ قراءتها والأنس إليها ، والتي لا ينقضي حبي لها وإعجابي بها ، وحرصي على أن يقرأها الناس . ولكن الناس مع الأسف لا يقرأونها ؛ لأنهم لا يريدون أو لأنهم لا يستطيعون . فإذا استطاع

هذا الكتاب أن يحبب إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة ، وكتب الأدب العربي القديم عامة ، والتماس المتاع الفني في صحفها الخصبة ، فأنا سعيد حقاً ، موفق حقاً لأحبَّ الأشياء إليّ ، وآثرها عندي .

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يُلقي في نفوس الشباب حبَّ الحياة العربية الأولى، ويلفتهم إلى أن في سذاجتها ويسرها جمالاً ليس أقلّ روعة ولا نفاذاً إلى القلوب من هذا الجمال الذي يجدونه في الحياة الحديثة المعقدة ، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد .

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يدفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى ، واتخاذها موضوعاً قيماً خصباً لا الإنتاج العلمي في التاريخ والأدب الوصفي وحدهما ، بل كذلك الإنتاج في الأدب الإنشائي الخالص ، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد .

ثم إذا استطاع هذا الكتاب أن يلقي في نفوس الشباب أن القديم لا ينبغي أن يهجر لأنه قديم ، وأن الجديد لا ينبغي أن يطلب لأنه جديد ، وإنما يهجر القديم إذا بريء من النفع وخلا من الفائدة ، فإن كان نافعاً مفيداً فليس أقلّ حاجةً إليه منهم إلى الجديد ، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد .

وأنا أعلم أن قوماً سيضيقون بهذا الكتاب ؛ لأنهم مُحْدَثون يُكبرون العقل ، ولا يثقون إلا به ، ولا يطمئنون إلا إليه . وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التي لا يسيغها العقل ولا يرضاها . وهم يشكون ويلحَون في الشكوى حين يَرَوْنَ كلَفَ الشعب بهذه الأخبار ، وجدّه في طلبها ، وحرصه على قراءتها والاستماع لها. وهم يجاهدون في صرف الشعب عن هذه الأخبار والأحاديث، واستنقاذه من سلطانها الخطر المفسد للعقول . هؤلاء سيضيقون بهذا الكتاب بعض الشيء ؛ لأنهم سيقرأون فيه طائفة من هذه الأخبار والأحاديث التي نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها من نفوس الناس . وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء ، وأن للناس ملكات أخرى ليست أقلّ حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل، وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل، ولم يرضها المنطق، ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمي، فإنّ في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة ، واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها ، ما يحبب إليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها ، ويدفعهم إلى أن يلتمسوا عندها الترفيه على النفس حين تشقّ عليهم الحياة . وفرقٌ عظيم بين من يتحدث بهذه الأخبار إلى العقل على أنها حقائق يقرّها العلم وتستقيم لها مناهج البحث ، ومن يقدّمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير ، صارفة عن بواعث الشر ، معينة على

إنفاق الوقت واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش .

وأحب أن يعلم الناس أيضاً أني وسّعت على نفسي في القصص ، ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأســـاً ، إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي ، أو بنحو من أنحاء الدين ؛ فإني لم أبح لنفسي في ذلك حرية ولا سعة ، وإنما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث ، ورجــال الرواية ، وعلماء الدين .

ولن يتعب الذين يريدون أن يردّوا فصول هذا الكتاب القديم في جوهره وأصله ، الجديد في صورته وشكله ، إلى مصادره القديمــة التي أخذ منها . فهذه المصادر قليلة جداً ؛ لا تكاد تتجاوز سيرة ابن هشام ، وطبقات ابن سعد ، وتاريخ الطبري. وليس في هذا الكتاب فصل أو نبأ أو حديث إلا وهو يدور حول خبر من الأخبار ورد في كتاب من هذه الكتب . فإذا اتصل الخبر بشخص النبي فــإني أردّه إلى مصدره ليستطيع من شاء أن يرجع إليه ، لا أحتمل في ذلك تَبِعةً خاصة ، لأني لا أذهب فيه مذهباً خاصاً ، إلا أن يكون تبسطاً في الشرح والتفسير واستنباط العبرة والوصول بها إلى قلوب الناس .

فليسر اللهُ سبيل هذا الكتاب إلى النفوس ، وليحسن الله موقعه في القلوب .

طه حسين

- ١ -

حفر زمزم

كان عبد المطلب سمح الطبع رضيّ النفس ، سخيّ اليـــد ، حلو العشرة عذب الحديث . وكان عبدالمطلب أيضاً قويّ الإيمان ، تملك قلبه وتسيطر على نفسه نزعــة دينية حادة عنيفة ، ولكنها غامضة ، يحسها ويخضع لها ، ولكنه لا يتبينهـــا ولا يستطيع لها فهماً ولا تفسيراً . وأبوه من مكة ، حيث التجـــارة والثروة ، وحيث المكر والدهاء ، وحيث الوثنية السهلة التي لا تحرّج فيها ولا مشقة . وأمّه من يثرب حيث الزراعة والصناعة اليسيرة ، وحيث اليهودية تجاوز الوثنية فتضعفهـا ، وتنقص من ظلها وتكاد تمحوها ، وحيث الأخـــلاق اللينة والشمائل الحلوة ، وحيث الظرف ونعومة الحياة .

ولد في يثرب ، ومات عنه أبوه فلم ينقله إلى مكة ، فنشأ بين اخواله وتأثر بحياتهم وتخلق بأخلاقهـم وسار سيرتهم ، حتى بلغ الشباب أو كاد . ثم أقبل عمه فانتزعه من إقليمه السهل الهين ، إلى إقليم آخر صعب عسير ، تجدب فيه الأرض ، ولا تبتسم له السماء إلا قليلاً ، ويرحل أهله الى الآفاق ويفد على أهله الناس من جميع الآفاق ، فهم يأخذون من الناس ويعطونهم ويبادلونهم الأخلاق والشمائل كما يبادلونهم المنافع وعروض التجارة . ولعل أخلاق يثرب وخصال مكة قد اختصمت في نفس هذا الغلام . ولعل اختصامها قد طال . ولعل اختصامها قد قصر ، ولكنهـا على كل حال قد انتهت إلى شيء من الاعتــدال آخر الأمر . فلم يكتمل للفتى شبابه حتى كان فتىّ من قريش ، ولكنه يمتاز من بقيـــة فتيان قريش : فيه ذكاؤهم وفطنتهم ، وفيه إباؤهم وعزتهم ، ولكن فيه دعة لم تكن مألوفـــة عندهم ، وفيه شدة في الدين قلما كانوا يرضونها أو يبسمون لها . على أن خصلة أخرى ميزته منهم أشدّ التمييز ، فلم يكن يصدر في حياته كما كانوا يصدرون ، عن الروية والتفكير وطول التدبر ، وإنما كانت تدفعه الى العمل

والاضطراب في الحياة قوة خفية يحسها ويأبى عليهـا ويغلو في الإباء ، ولكنه يضطر الى ان يذعن لهـــا ويأتمر أمرها . وكانت هذه القوة تصدر إليه أمرها في أشكال مختلفة : تدفعه الى العمل حيناً وكأنها إرادته الخاصة ، قد ملكت عليه حسه وشعوره ، فهو لا يستطيع عنها انصرافاً ، ولا يملك لها خلافاً . وتتمثل له حينـــاً آخر شخصاً واضح المخـايل ، بيّنَ الصورة ، يلمُّ به اذا اشتمله النوم ، فيأمره أن يأتي كذا وكذا من الأمر . وتنتهي اليه مرة ثالثة صوتاً رفيقاً ، ولكنه ملحّ يملأ أذنيه يقظانَ ، ويملأ أذنيه نائماً ، يحثه على ان يأتي كذا وكذا من الأمر . وكان في هـذا الصوت غموض ، وكان في هذا الصوت إبهام ، وكان في هذا الصوت جلال مصدره هذا الغموض والإبهام . وكان الفتى ينكره ويرتاع له ، وكان الصوت يغمره ويلحّ عليه . وكان الفتى يخـاف هـــذا الصوت ويهواه ، وكان الصوت يتجنب الفتى حتى يؤيسه من نفسه ، ويلمّ به فيكثر الإلمام . ولم يكن هذا الصوت يقع في أذن الفتى بألفاظ كالتي تقع في آذان الناس إنما كان يصطنع ألفاظاً خاصة غريبة الجَرْس غريبة المعنى .

كانت إليه رِفادة الحاجّ وسقايته بعد عمه المطلب ، فكان يُطعم الناس إذا حجّوا البيت ويسقيهم ، يجمع لهم الماء في أحواض من الأدَم . وكان يجد في جمع هـذا الماء لسقاية الحجيج جهداً وعسراً . فبينا هو نائم ذات يوم أو ذات ليـــلة أتاه آت رأى شخصه ولم يتبين له سمةً ولا شكلاً ، وقال له في صوت رفيق غريب ، فيه أنس وفيه وحشة : « احفرْ طيبة » . قال : « وما طيبة ؟ » فانصرف الشخص ، وانقطـــع الصوت . وأفاق الفتى وفي نفسه ذعر وعجب وأمل ، وحاول أن يعود إلى النوم ، لعله يرى هذا الشخص ، أو يسمع هذا الصوت ، أو يتبين هذا الحديث ، ولكن كان النوم قد خاصم عينيه ، وانصرف عنه هذا الشخص الغريب . ففكر وأطال التفكير ، وقدّر وأطال التقدير ، وتقلب في مضجعه فأكثر التقلب ، حتى ضاق بالنوم واليقظة وسئم مضجعه ، فجلس يرقى ببصره الحائر إلى السماء ، لعل شمس النهار أو نجوم الليل تفسر له هذه الرؤيا . ويخفض بصره الى الأرض لعله يجد في اطراقه تفسير هذه الرؤيا ويمدّ بصره نحو الكعبة ، لعل صنماً من هذه الأصنام المنصوبة يوحي إليه تعبير هذه الرؤيا . ولكن السماء صامتة والأرض ساكنة ، وعلى أصنام الكعبة شيء كأنه الوجوم فيرتدّ إلى الفتى بصره متعباً مكدوداً . وتهوي نفسه إلى قرارة ضميره ، لعلها تجد لهذا الرمز تأويلاً فلا تجد شيئاً ؛ فيشتد بهـــا الذعر ، ويزداد فيها العجب . ويبقى الأمل . وينهض الفتى فيضطرب مع الناس فيما يضطربون فيه من أمور الحياة .

ثم يُقبل الليل ويأوي الفتى إلى مضجعه ، وقد أنسي كل شيء ، إلا أنه قد مشى كثيراً ، وأجهد نفسه كثيراً ، وأنه أشدّ ما يكون حاجة إلى أن يبسط عليه النوم جناحيه . ها هو ذا مغرق في نوم هادىء مطمئن ، وقد هدأ من حوله كل شيء، واطمأن في نفسه وجسمه كل شيء . ولكن ما هذا الشخص الغريب يقبل ساعياً إليه في أناة ، حتى إذا دنا منه قال له في صوت رفيق غريب فيه أنس وفيه وحشة : « احفر بَرّةَ » ؟ وجسم الفتى هادىء مطمئن ، ولكن نفسه ثائرة مضطربة ، ولسانه يتحرك في ثقل ، وصوته ينبعث من بين شفتيه خفيفاً رقيقاً بهذه الكلمة : « وما بَرّةُ ؟ » . فينصرف الشخص ، وينقطع الصوت ، ويفيق النائم وَجِلاً مذعوراً ، مُعجباً آملاً ، ويفكر ويقدّر ويتقلب . ثم ينهض فيسأل السماء ولكنها صامتة ، ويسأل الأرض ولكنها ساكنة ، ويسأل أصنام الكعبة ولكنها مغرقة في البله والوجوم . ويضيق الفتى بنفسه وبالسماء والأرض والأصنام ؛ فيهيم على وجهه يلتمس في الحركة والاضطراب نسيان هذا الطائف الذي يُفزعه ويغريه . ثم يعمل الناس في أمور الحياة ، وينقضي النهار بخيره وشرّه، وحلوه ومُرّه ؛ ويقبل الليل شيئاً فشيئاً، فيبسط أرديته السود على ما يحيط بمكة من جبال وآكام ، وما يزال يمدّ في هذه الأردية حتى يغمر كل شيء ويستر كل شيء ، لولا هذه المصابيح الضئيلة التي تشبّ في الأرض ، وهذه النجوم القليلة التي تضطرب في السماء . وقد سَمَر الفتى مع السامرين، فسمع أحاديث التجار عن غرائب الأقطار : هذا يحدّث عن صور بُصْرَى وعظمتها ، وهذا عن الخَوَرْنَق والسدير،وهذا يذكر غُمدان،وهذا يصف أخلاق اليمانيين ومكرهم بالتجار،وهذا يتحدث عن سذاجة أهل الشام وانخداعهم لغربان العرب،وهذا يذكر ما أفاد من ربح حين باع الأدمَ في الحبشة،وهذا يذكر للقوم ما حمل لهم من خمر بَيسان. وهم في أثناء هذا كله يتندرون على العجم والأعراب،ويتفكهون بأحاديث أولئك وهؤلاء، ويسخرون من أولئك وهؤلاء . حتى إذا تقدم الليل واطمأن كل شيء تفرقوا ،ونهض الفتى ثقيلاً . فمشى إلى بيته متباطئاً يودّ لو فرّ من النوم ، ويودّ مع ذلك لو نام فألمّ به هذا الطائف . انظر إليه ! إنه ليتردّد : أيقذف بنفسه في أمواج النوم هذه التي تتمثل امام عينيه ؟ أم يبقى على الشاطىء يقظان يداعبه النوم ولا ينام ؟ ليتردد ما استطاع ، ليمتنع على النوم ما وسعه الامتناع ؛ فان هذه الأمواج المصطخبة أمامه تستطيع أن تطغى على الشاطىء فتغمره ، وتغمر معه كل شيء . وكيف يستطيع هذا الفتى أن يمتنع عليها ، وما استطاعت أن تمتنع عليها جبال مكة هذه التي تحيط بها

من كل ناحية !! انظر ! أترى حركة ؟ اسمع ! أتحس نبأة ؟ كل شيء هادىء ، كل شيء مطمئن ؛ فما نبوك وما امتناعك !! هلمّ إلى النوم لا تخف شيئاً ؛ إن هذه الأمواج تريح ولا تغرق . أقبل إلى هاتين الذراعين اللتين تمدان إليك ، فستنسى بينهما كل شيء . ومن يدري ! لعلك تجد بينهما شفاء لنفسك الحائرة . وأطبق الفتى جفنيه واندفع أمامه ، فاشتملت عليه أمواج النوم كما اشتملت على غيره من الناس والأشياء . ولكن ماذا ؟ هذا شخص يتقدم ساعياً هادئاً كأنه يمشي على الهواء ، حتى إذا دنا من الفتى ، قال في صوت رفيق غريب ، فيه أنس وفيه وحشة : « احفر المضنونة » جسمُ الفتى هادىء ولكن صورة من الحيرة قد ارتسمت على جبهته ، وهذا صوت خفيف رقيق ينبعث بين شفتيه وهو يقول : « ما المضنونة ؟ » فينصرف الشخص ويفيق الفتى مذعوراً مأخوذاً ، قد أظلم في نفسه كل شيء ، وأحاط اليأس بعقله وقلبه وضميره ، لا يرتفع بصره الى السماء ، ولا ينخفض إلى الأرض ، ولا يمتد إلى أصنام الكعبة ، ولكنه يدور حائراً . وينهض الفتى وهو يقول : ما أرى إلا أني سأجنّ ؛ لئن أصبحتُ لآتينّ الكاهن ، فلعلي أجد عنده من هذا العارض شفاء .

أقبلْ أيها الصبح! أسرعْ في الخطو، أرفُقْ بهذه النفس الحائرة ؛ هلمّ إلى سوطك المشرق المضيء ، فبدد به هذه الأشخاص الماثلة ، فرّقْ به هذه الظلال المضطربة من حولي . ويقضي الفتى ليلاً طويلاً ثقيلاً ، حتى إذا كست الشمس بضوئها النقي ظواهر مكة وبطاحها . أسرع الفتى إلى المسجد يريد أن يقص أمره على الكاهن . ولكنه لا يكاد يبلغ مجالس قريش في فناء المسجد ، حتى تذهب عنه حيرته ، ويفارقه وجومه ، ويمتلىء قلبه اطمئناناً وثباتاً . ماذا . أأزعم للكاهن أني مجنون ، وتشيع فيّ هذه المقالة ، ويضحك مني حرب بن أمية ولداته ، ويتندّر عليّ فتيان مخزوم !! كلا ! ما أكثر هذه الخيالات التي تسكن الى نفسها في قبور الموتى ، وتختبىء في الكهوف والأغوار ما اضاءت الشمس واستيقظت الطبيعة ، فاذا أظلم الليل ونام الكون ، انتشرت هذه الخيالات في الجو ، فمنها ما يصعد في السماء يرعى النجوم ، ومنها ما يهبط الأرض يروّع الناس . وما أرى أن هذا الطائف الذي يؤرّقني منذ ثلاث إلا خيالاً من هذه الخيالات ، لعله ظلّ ميت من موتى قريش قد أنسيه قومه ، فهم لا يزورونه ولا يقرّبون إليه . لعله شيطان من هذه الشياطين التي تلحّ على الإنس فتتقاضاهم الطاعة وتُخضعهم لسلطانها كرهاً . لعله نذير من أحد الآلهة يطالب بالتضحية والقربان . لقد مضت أيام ولم تُقدَّم إلى الآلهة شاة ولم يُنحر لهم جزور ، ولم تصطبغ أرض المسجد بهذا الدم الحار القانىء الذي

تحب الآلهة لونه ورائحته إيه يا عبد المطلب ! تقرّب الى الآلهة بضحية ترضيهم لعلهم يرضون ، ولعلهم يكفون عنك هذا الشر . وأقبل الفتى على مجلس من مجالس قريش ، فتحدث وسمع ، ولكنه كان شارد النفس، فلم يُطل الحديث ولا الاستماع ونهض مولياً. فلما انصرف عن القوم قال حرب بن أمية لمن حوله : أرأيتم إلى مرّي بني هاشم ! إني لأراه محزوناً ، وإني لأعرف في وجهه الهمّ ، لم يحدثنا اليوم عن مآثر أبيه ومفاخر عمه .

ومضى الفتى إلى أهله . فلما دخل على امرأته أنكرت عودته إليها من الضحى ، فاستقبلته دهشة وهي تقول : إيه ياشيبة ! ما خطبك ؟ إني لأنكرك منذ أيام ، أراك مؤرّق الليل ، قلق النهار ، قليل الحديث ، طويل التفكير . ولقد هممت أن أسألك مرات ، ولكني خشيت ردّك عليّ وانتهارك لي ؛ فإني لأعلم فيكم معشر قريش رقة للنساء ، ودعابة معهن ، ولكني لا أجد عندك ما أجد عند قومك، فأنت صامت إذا خلوت إلى أهلك،وأنت مقطب الجبين إن ظلك معهم سقف. تحدّث! ما يحزنك ؟ اخرج عن هذا الصمت الذي لزمته ، كن رجلاً من قريش ، أشرِك أهلك فيما يعنيك . لقد أذكر يوم أنباني أبي أنك خطبتني إليه . لقد فرحت بهذا النبأ ، لقد كنت أتحدث إلى أترابي في البادية بأني سأصبح امرأة من قريش ، أجد من نَعمة الحياة ولينها،ومن ظَرْف الزوج ورقته ما لا يجدن تحت خيام بني عامر بن صعصعة. ولكني وجدت نَعمةً ولينا ، ووجدت حبّاً وعطفاً ، ووجدت عناية لا تعدلها عناية ، ولم أجد أحبّ ما كنت أطمح إليه : لم أجد منك ابتسام الثغر ، ولا انبساط الجبين ، ولا انطلاق اللسان . قالت ذلك وانتظرت هنيهة . فأجابها زوجها بصوت هادىء حزين : عزيز عليّ يا سمراء ما تجدين من حزن ، وما تحسين من خيبة أمل ! إني لأحبّك كما يحب الظمآن ما ينقع غُلته من الماء العذب . إني لآنس إليك أنساً يزيل عن نفسي كل همّ ، ويحبّب إليّ الحياة ويرغبني فيها . إني لأشتاق إلى التحدث إليك والاستماع لك والأنس بك . ولو خيرت لما عدلت بمجلسك مجلس قريش ، ولا ببيتك فناء المسجد ودار الندوة . ولكن قوة خفية عاتية طاغية تملك عليّ نفسي ، وتأخذ عليّ كل سبيل وتدفعني إلى حيث لا أدري ولا أريد . إيه يا سمراء ... ! إني لمؤرق الليل ، قلق النهار ، مفرّق النفس منذ ليال ، وإني لأخشى على نفسي شرّاً . هذا طائف يلمّ بي إذا أغرقت في النوم ، فيأمرني بصوت رقيق غريب ، فيه أنس وفيه وحشية ، أن أحفر شيئاً يسميه طيبة ، ويسميه بَرّة ، ويسميه المضنونة . فإذا سألته

عما يريد ، انصرف شخصه، وانقطع صوته، وأفقت حائراً مذعوراً ، لقد هممت يا سمراء أن أقص رؤياي هذه على الكاهن، وأن أصف له ما أرى، ما أجد، ولكني أشفقت أن يتحدث الناس عني أني مجنون أو أن يتندر بي فتيان قريش فيقولون. إن له رئياً من الجن. أشيري ماذا ترين ؟ قالت سمراء : هون عليك ولا تغلُ في الخوف ولا تسرف في الإشفاق . ما أكثر ما يلم أمثال هذا الطيف بالناس عندنا في البادية ، فلا يحفلون ولا يأبهون . ومع ذلك فما يمنعك أن تتقرب أنت إلى الآلهة في غير توسط للكاهن ولا توسل به ؟ قم فضحّ لهم ، وقرّب إليهم ، فسيرضون وسيرضى الفقراء والجائعون ، وسيغيظ ذلك قوماً من قريش .

وما هي إلا ساعات حتى كان فناء المسجد يموج بالناس ، فيهم الفقراء قد أقبلوا من البطاح والظواهر ، وفيهم الأغنياء قد أقبلوا يقدّمون الضحايا بين أيديهم . هؤلاء يتنافسون أيهم يُغلي الضحايا ويكثر منها ، وأولئك ينتظرون ويمنّون أنفسهم بغريض اللحم وجيده . لقد سمعوا أن عبد المطلب يريد أن يضحي ، وأن بني هاشم قد حفلت لذلك ، فكرهت أمية ألا تفعل فعلهم ، وكرهت مخزوم أن تسبقها عبدمناف، فأقبل أشراف قريش يستبقون في التضحية ويتنافسون في القربان . تنافسوا ! تنافسوا أيها الأشراف ! استبقوا أيها الأغنياء ! فإن في ذلك شبع الفقراء وسعادة الأشقياء .

وقضت مكة يوماً دامياً سميناً ، كثر فيه الطعام ، وكثر فيه الشراب ، ورضيت فيه الأصنام . وسعد الفتى بما رأى ، ونسي الفتى ما كان يهمّه وينغصه ، وقدّر الفتى أن قد صُرف عنه الشر ، ورُدّ عنه المكروه . ورضيت سمراء ، فتحدثت كثيراً وسمعت كثيراً ، وأضحكت زوجها وابنها الحارث بملح الأعراب ونوادر البادية ، وقالت لزوجها وهي تمسح رأسه : أحببْ إليّ بهذا الطائف الذي أرّقك وأضناك ، فقد حقق أملي وأراني ما كنت أطمح إليه ، ورسم في قلبي صورتك جميلة خلابة، فلن أراك منذ اليوم – مهما تكن الخطوب – إلا باسم الثغر ، منبسط الجبين ، منطلق اللسان . وهل السعادة إلا لحظات قصار ، تصيبنا ولم ننتظرها ولم نقدّر لها حساباً ؟ فما أسعد القلب الذي يحتفظ بهذه اللحظات حين تمر ، ويتخذها ذخراً للأيام ومايعرض فيها من الخطوب !

قال عبد المطلب : إذاً فأنت راضية يا سمراء . إن رضاك ليقع من نفسي المحزونة موقع الماء من الأرض الجدبة . انعمي بما أنت فيه ، وانتظري أن يقدر الله لك خيراً منه . فلو قد صُرفت عني هذه القوة العاتية الطاغية ، لأريتك يا سمراء كيف تطيب

الحياة ، وكيف ترقّ حواشي العيش !

وأوى الفتى إلى مضجعه راضياً مسروراً ، واستقبل النوم مبتهجاً له راغباً فيه . ولكن هذا الشخص يقدم عليه ساعياً في هدوء ، كأنما يمشي في الهواء ، حتى إذا دنا منه انحنى عليه ، ووضع على جبهته يداً باردة خفيفة وقال في صوت رفيق غريب ، فيه أنس وفيه وحشة : « احفر زمزم » . واضطرب جسم الفتى كله ، واضطربت نفس الفتى كلها ، وانفتحت شفتاه عن هذه الكلمة : « وما زمزم » ؟ . قال الطيف بصوت رفيق مؤنس ، قد فارقته الغرابة والوحشة ، ومازجته سخرية ورحمة : « لا تُنزَح ولا تُذَمّ ، تَسقي الحجيجَ الأعظم ، وهي بين الفرْث والدّم ، عند نقرة الغراب الأعصم » . قال الفتى : « الآن قد وَعيْت » . فتولىّ عنه الطيف باسماً وهو يقول . « لله أنتم أيها الناس ! لا يكفيكم الوحي ، ولا تفقهون إلاّ سجع الكهان ! رويداً ! عما قريب سيضيء الصبح ! » . ونهض الفتى مبتهجاً مسروراً . فلما أصبح دخل على سمراء مشرقَ الوجه مضيء الأسارير .

قالت وهي تسعى إليه : أيهما أحبّ إلى نفسي إشراق وجهك أم إشراق الشمس! ما أرى إلا أنك قضيت ليلاً هادئاً .

قال : انعمي صباحاً يا سمراء ! لقد طابت الحياة منذ اليوم . إن هذا الطائف الذي يلمّ بي منذ ليال ، طائف خير يأتي بالنعمة والغيث . إنه يأمرني أن أحتفر في فناء هذا المسجد بئراً ، فلأفعلنْ منذ اليوم . ولئن ظفرت بها ليشربن الحجيج في غير جهد ولا عسر . هلمّ يا حارث خُذْ معولاً (١) ومكتلاً (٢) ومسحاة (٣) واتبَع أباك .

- ٢ -

التحكيم

لا هُمّ قد لبَّيتُ مَنْ دَعاني	وجئتُ سَعيَ المُسرع العَجْلان
ثَبْتَ اليقين صادقَ الإيمان	يتبعني الحارثُ غيرَ واني

(١) المعول : الفأس العظيمة .

(٢) المكتل : زنبيل من خوص .

(٣) المسحاة : المجرفة التي يجرف بها التراب والطين من على وجه الأرض .

جذلانَ لم يحفل بما يُعاني لا هُمّ فلتصدُقْ لنا الأماني
ما لي بما لم ترضه يدان

كان صوت عبد المطلب يندفع بهذا الرجز عريضاً يملأ الفضاء من حوله ، نقياً يكاد يبعث الحنان فيما يحيط به من الأشياء . وكان كل شيء مستقراً لا يضطرب فيه إلا هذا الصوت العريض النقيّ ، وإلا هذه الذراع التي ترتفع بالمعول قوية ، ثم تهوي به محتفرة ، ثم تدعه إلى المسحاة فتغرف بها التراب في المِكتل ، وإلا هذا الغلام الناشىء يرقب حركة أبيه ، ويسمع صوته ويردّ عليه رجعَ هذا الصوت كلما وصل في الدعاء إلى هذا البيت :

لا هُمّ فلتصدُق لنا الأماني !

حتى إذا امتلأ المِكتل حمله بذراعيه الضعيفتين ، وأسرع في شيء من الجهد الى خارج المسجد ، فألقى ما فيه ثم عاد ، وأبوه يرفع المِعوَل في الجو ويهبط به الى الأرض ، ويملأ فضاء البيت بصوته العريض ، والعرق يتصبب على جبينه ، ولكنه لا يحسّ جهداً ولا يجد إعياء . وكانت الشمس قد ألقت على الأرض رداء من النور نقيّاً ، ولكنه ثقيل همّد له كلّ شيء ، وأوى له الناس إلى بيوتهم يَقيلون ، وانقطعت له الحركة ، وخفتت الأصوات، إلا هذه الجنادب التي يروقها وَهج الشمس ، ويُسكرها لهب القيظ ، فتصدح بالغناء إذا سكت كل شيء . وقد أخذ الغلام يحسّ لذع الجوع وحرّ الظمأ ، ولكنه لا يقول شيئاً ، بل لا يكاد يفكر في شيء ، إنما سمعه وقلبه لصوت أبيه ، وعيناه للمكتل والتراب ، ونشاطه لإفراغ المكتل إذا امتلأت . وهما في ذلك ، إذا غلام يسعى قد أرسلته سمراء ، يحمل إلى الرجل والغلام شيئاً من طعام وشراب ، حتى إذا انتهى إليهما وضع ثقله وقال : مولاي، هذا غذاؤك وغذاء الصبي، قد أعدّته سيدتي العامرية ، هيأته بيدها ، وهي تعزم عليك لتصيبنّ منه ، ولترفقن ولترفقَنّ على هذا الصبي الحدث ! لقد قال الناس جميعاً ، وهدأ كل شيء لهذا الوَهج الذي يصهر الأبدان ويحرق الجلود ، وأنت فيما أنت من جدّ يضنّي ، وجهد يُهلك ، لا تقيل ولا تستريح ، ولا تُريح هذا الطفل الذي لم يتعوّد الجهد والعناء ، بعض هذا يبلغك ما تريد . ولكن عبد المطلب لم يسمع للغلام إلا بأذن معرضة ، ولم يستقبله إلا بوجه مُشيح ، إنما هو ماض في رجزه واضطراب يده بالمعول ارتفاعاً في الجو وهبوطاً إلى الأرض ، والصبي يتبعه بسمعه وقلبه ، ولكن عينه ربما اختلست نظرة قصيرة ملؤها الجوع والظمأ والنهم إلى هذه السلّة وما فيها ، وربما وقف ذهنه الصغير عن

متابعة أبيه . وانصرف إلى ما في هذه السلة يعدّده ويحصيه ويتمثله : إنّ فيها لشواءً غريضاً وإن فيها للبناً يمازجه عسل هُذَيل الذي حمله خاله فيما حمل من هدايا البادية حين أقبل يزور أخته منذ أيام ، وإنّ فيها لماء عذباً . ومن يدري ! لعل سمراء قد نقعت فيه شيئاً من زبيب الطائف ؛ فإنها تجيد ذلك وتحسنه . وعبد الملك ماض في رجزه وفي حركة يديه بالمعول والمسحاة ، وقد امتلأ المكتل ، فيهمّ الصبي أن يحمله ليلقي ما فيه . ويدنو الغلام يريد أن يعينه في ذلك ، ولكن عبد المطلب ينهره نهراً عنيفاً : « إليك يا غلام ! فما لهذا الأمر إلا عبد المطلب وابنه » .

ويمضي الصبيّ بالمكتل ويعود ، ولكن الرجز قد انقطع ، وذراع عبد المطلب لا تضطرب بالمعول صعوداً وهبوطاً ، وإنما هو مُطرق إلى الحفرة ينظر فيها فيطيل النظر ، ثم يرفع بصره إلى السماء فيطيل رفعه ، ثم يدير عينيه من حوله كأنه يريد أن يلتمس شيئاً أو أن يلتمس أحداً ، ثم يدعو ابنه في صوت ملؤه الدهَش والحيرة والرضا والإشفاق : هلمّ يا حارث انظر ! أترى ماء ؟.

— كلا يا أبت ! وإنما أرى ذهباً وسلاحاً .

— ومع ذلك فلم أوعد بذهب ولا سلاح ، وإنما وُعدت بالماء لسقي الحجيج . إن وراء هذا الأمر لسرّاً ! ولكن هلمّ يا بُني ، فما أرى إلا أن الظمأ والجوع قد أجهداك .

وأقبل الرجل وابنه على السلة فأصابا مما فيها ذاهلَيْن واجمَيْن ، ما أحسب أنهما وجدا لما يصيبان طعماً أو أحسّا له ذوقاً ، يصرفهما عنه هذا الذهب الذي يتوهج في الحفرة ، وهذا السلاح الذي يظهر أنه كثير ثقيل . حتى إذا فرغا من طعامهما عاد عبد المطلب إلى الحفرة فيستخرج ما فيها ، فإذا غزالان من ذهب نقي ثقيل وإذا سيوف ودروع فيكبّر ، ويرفع صوته بالتكبير ويسرع إليه أفراد قليلون كانوا قد بدأوا يفدون إلى المسجد ، كدأب قريش حين كانت تخفّ وطأة القيظ ، فإذا رأوا هذا الكنز دهشوا ثم تصايحوا ، ثم يفيض الخبر فيتجاوز المسجد ، وإذا شباب قريش وشيوخها يُقبلون سراعاً مزدحمين ، يُسرع ببعضهم حبّ الاستطلاع ، ويسرع ببعضهم الآخر الطمع في الغنيمة ، ويسرع بفريق منهم باعث ديني غامض ، فيه خوف وفيه رجاء وفيه إكبار الآلهة ، وتوقع للمعجزة الخارقة . حتى إذا توافوا جميعاً ، واستوثقوا من أن عبد المطلب قد وجد كنزاً ، وعرفوا حقيقة هذا الكنز ، وقوّموا ذهبه الخالص ، وصناعته البارعة ، وما فيه من سيوف ودروع ، أداروا أمرهم بينهم : لمن يكون الكنز ؟ قال هشام بن المغيرة : إنما هو لقريش ! فقد وُجد في المسجد ، وكل ما وُجد

داخلَ الحرم في أرض عامـــة فهو لقريش . وقال حرب بن أمية : إنما هو لبني عبد مناف خاصة ؛ فهم الذين احتفروا وهم الذين ظفروا ، وما ينبغي لقريش أن تغلبنا على خير ساقته إلينا الآلهة. وتنازع القوم وطال النزاع، واختصم القوم واشتدت الخصومة، وعبد المطلب صامت مطرق ، لا ينطق بكلمة ولا يأتي بحركة. هنالك صاح به حرب: مالك لا تقول وأنت الذي وجـــد الكنز ، وأنت أحقنا بأن ترى رأيك فيه ؟! قال عبد المطلب في هدوء وأناة : ما ينبغي أن يكون الكنز لأحد حتى نستشير الآلهة ؛ فما حفرت ولا ظفرت إلا بأمر خفي ، وما أرى إلا أن للآلهة في ذلك إرادة وقدراً لا نبلغهما حتى نسأل الكهان . هنالك وجمت قريش وغضب بنو عبد مناف ، وأنكروا جميعاً في أنفسهم أن يُشرك عبد المطلب معهم الآلهة في هذا الكنز الدفين . ولكنهم لم يقولوا شيئاً ، وما كان لهم أن يقولوا شيئاً . ومن الذي يستطيع أن يردّ قضاء الآلهة ؟ حُمِلَ الكنز إذاً إلى الكعبة . وأقبـل القوم إلى الكاهن يسألونه أن يضرب بالقداح . وها هو ذا يضرب بقداحه ، ثم يضرب ، ثم يضرب بـــين قريش والكعبة ، فتخرج القداح للكعبة ثلاثاً ، فيصيح عبد المطلب : لقد ظهر قضاء الله ، فليكن مـا أراد ! تفرقوا يا معشر قريش ؛ تفرقوا يا بني عبد مناف ! فليس لأحد منكم في هـذا الكنز نصيب ! أما هذا الذهب فسيضرب صفائح علىباب الكعبة. وأما هذه السيوف فستُعلَّق عليها . وأما هذه الدروع فستُدّخر في خزائنهـا . ثم التفت إلى ابنه وقال : هلمّ يا حارث ، اتبعني لنمضي فيما كنا فيه . وتفرقت وفي صدورها غـــلّ وحنق ولكن ثلاثة نفر من أهل الظواهر انتحوا ناحية ، وأقاموا يردّدون الطرف بين الكنز والكعبة وعبد المطلب ، ثم انصرفوا وقـــد فهم بعضهم بعضاً . وأصبح الناس ذات يوم وإذا بالكعبة قد جُرّدتْ مما عُلق عليها من ذهب وسلاح .

وراح عبد المطلب مـــع المساء إلى أهله محزوناً مكدوداً ، راضيـــاً مع ذلك ، لم يفارق قلبه الأمـــل . فاستقبلته سمراء فاترة لم تسع إليه ولم تبتسم له ، ولكنها لم تُعرض عنه ولم تتجهّم له . فلما سألها عن هذا الفتور أطالت الصمت . ولمـــا ألح في السؤال ، قالت : وبمَ تريد أن أبتهج ؟ ولم تريد أن أبتسم ؟ لقد علمت منذ زفّني أبي إليك أني قد تزوجت رجلاً لا كالرجال. لقد أحببتك ولكني أنكرتك. لقد أمّلت فيك ويئست منك ، ثم عاد إليّ الأمل أول أمس، ثم ها أنت ذا تردّ إليّ اليأس مظلماً حالكاً قبيح الوجه . بَشع المنظر كأنه الغول . ماذا !؟ يلمّ بك الطائف أربع ليال ، يهيب بك ويلحّ عليك ، رمزاً حيناً ومصرحاً حيناً ومصرّاً دائماً ، حتى

إذا أذعنت لأمره وانتهيت إلى ما سبق إليك من خير وادّخر لك في الأرض من غنى، زهدتَ فيه وانصرفت عنه ، وأشفقت أن تُسلمه إلى قريش أو إلى بني عبد مناف ، فيقال : ألقى بيده ونزل عن غنيمته ؛ فصرفتَ ذلكَ عنك وعنهم إلى هذه البَنِيَّة[1] تحلّيها بالذهب وتُعزّها بالسلاح ! وماذا تصنع الأحجار القائمة بذهبك وسلاحك !! لله أنتم يا معشر قريش ! إنكم لتتكبرون من هذا البناء المنصوب ما لا نكبر نحن في البادية . ولولا حاجاتنا ومنافعنا لما هبطنا بطاحكم حاجّين ولا مُعتمرين ، ولكنكم قوم ضعاف تتكبرون ما لا يكبر ، ويغرّكم أنّ أفئدة الناس تهوي إليكم، تحسبونهم يقبلون إليكم بالدّين وينصرفون عنكم بالطاعة ، وإنما يقبلون عليكم بما عندهم من عروض، وينصرفون عنكم بما تحملون لهم من الآفاق . هلاّ طاولت قريشاً وانتظرت بهذا الكنز حتى تروح إليّ ! لقد كان فيه غنىً لك ولهذا الصبي الذي تعنّيه وتضنيه منذ ألمّ بك ذلك الطائف . هلاّ تريثت أو اصطنعت الأناة ! إذاً لاحتويت الكنز ولأصبحت أغنى قريش وأكثرهم مالاً ، ولما استطاع بنو عبد شمس أن يكاثروك بما يملأ خزائنها من الدراهم والدنانير . إذاً لأقبلت إليك بنو عامر بقوتها وبأسها فأعزتك ومنعتك من قريش ولكنك أشفقت وملأ قلبك الفَرَق ، وعبثت بنفسك بقية من كبرياء ، فأفقرت نفسك ، وقضيت على ابنك هذا أن يكون دون بني حرب ثروة ومالاً .

قال عبد المطلب محزوناً هوّني عليك يا سمراء ، وأقلّي اللوم ، فما أرى أنك تفقهين مما ترين شيئاً . لا أحب لوجهك هذا النضر أن تعلوه غبرة الحرص على المال . وما أحبّ لصوتك هذا العذب أن تشوبه مرارة الحديث عن المال . وما أرضى وإن نَسلتك أشراف بني عامر أن تغضّي من أمر قريش . إن فيكم أهلَ البادية لطباعاً غلاظاً ونفوساً يملؤها الطمع . أنتم لا تحسبون الدين ولا تقدرون الغيب ، ولا تؤمنون إلا بما ترون ، ولا تخافون إلا القوة الظاهرة . لقد كنت أحسب أن مُقامك الطويل بمكة قد غير نفسك بعضَ الشيء ، فإذا أنت اليوم كما كنت يوم انحدرت من بادية نجد إلى هذه البطحاء . هوّني عليك ولا تشغلي نفسك بما لستِ منه في قليل ولا كثير . لقد أمرني الطائف أن أحتفر ، ووعدني أن أجد الماء لأسقي الحجيج لا أن أجد الذهب لأغنيك وأدخل الخصب على بني عامر ؛ فليس هذا الذهب لي ولا لقريش وإنما مخبوء لأمر يُراد . وإني لمن قوم لا يحبون الغصب ولا يستأثرون بما ليس لهم ، ولا يغنمون الحقوق. فإن تكن غلظة الأعراب وجفوة البادية وجحودها قد شاقتك فزمّي رحالك

(١) البنية : الكعبة .

غداً وألمّي بأهلك ! فهم أحق بك وأدنى إليك . قال ذلك ونهض غاضباً ، وتركها واجمة بهذا الحديث العنيف تقاوم غيظاً لم يلبث أن استحال إلى دموع غلاظ تحدّرت على خديها كأنها لؤلؤ العقد قد خانه النظام .

وارتفع صوت عبد المطلب بالتكبير حتى امتلأ به المسجد وفاض من حوله، وحتى اضطربت له مجالس قريش في فناء البيت ، فخف الناس إليه وهم يقولون : ما نرى ابن هاشم هذا إلا مطروقاً يلقى من الجن شططاً ، ويريد أن نلقى منه شططاً . أقبلوا إليه سراعاً يزدحمون وقد آلى أشرافهم لئن وجدوه قد ظفر بكنز وعثر على غنيمة ليغبُننّه عليها ، ولَيُعْطِنُنّه منها نصيب رجل من قريش . وانتهوا إليه وهو يكبر ويصيح : هذا طويّ إسماعيل ! هذه بئر زمزم ! هذه سقاية الحاجّ ! لقد صدق الوعد وتحقق الأمل .

فنظروا فإذا عبد المطلب قد وجد الماء ، وإذا هو يستقي فيشرب ويسقي ابنه ، ويرسل الماء بيديه من حوله كأنه يريد أن يسقي الأرض والهواء والناس . هنالك ابتسموا له ورفقوا به ، وقالوا : لقد بررت بقومك يا شيبة ، وأنبطتَ لهم هذا الماء يستقون منه ، إذا ضنّت عليهم الينابيع ، فوصَلَتْكَ رحم ! لتعرفَنّ لك قريش هذه اليد . قال : ما أنتم وذاك ! هذه بئري قد حفرتها ، وكشفت طيها بأمر هبط إليّ من السماء . وهذا شرْب ساقه الله إليّ سأسقيكم منه إن أردت ، ولكني أسقي الحجيج منه قبل أن أسقيكم ، فبذلك أمرت وأنا على ذلك قائم . قالوا : يا ابن هاشم ! إنك لتسرف على نفسك ، وتشطّ على قومك ، وتختلق على السماء ! إن هذه الأرض ليست لك ، وإنما هي لله ثم لقريش ، وإن كل ما وجد فيها فهو لله ثم لقريش ، وإنا لم نشهد أمر السماء حين تنزّل إليك . ومتى تنزّل أمر السماء على الناس إلا من طريق الكهان! فأين الكاهن الذي أمرك أن تحتفر ؟ ! قال : يا قوم ! خلوا بيني وبين الماء ، فوالله لن تبلغوا مني شيئاً . إنكم تكاثرونني بعددكم وعديدكم ، ولكن الذي أمرني باستنباط هذا الماء حريّ أن يردّ عني كيدكم ويحميني من ظلمكم . إنكم تستضعفونني حين ترون أني أبو واحد ، ولكن الذي سخرني لهذا الأمر خليق أن يمنحني من الولد مَن أكاثركم به . وإني أقسم لئن منحني من الولد عشرةً ذكوراً أراهم بين يديّ لأضحين له بواحـد !

وسمع بنو عبد مناف مقالة عبد المطلب فثارت نفوسهم وتعصبوا له وقاموا من دونه يردّون عنه عدوان قريش . وكاد الشرّ يقع بين القوم ، ولكن عبد المطلب قال يا قوم فيمَ قطعُ الأرحام ، وخفرُ الذمام ، وإراقةُ الدماء ! إني والله ما أوثر نفسي من

دونكم بشيء . فإن أبيتم أن تؤمنوا لي فهلمّ إلى حكَمٍ فليقض بيننا . قال الملأ من قريش : لقد أنصفكم ابنُ أخيكم من نفسه ، فليكفّ بعضكم عن بعض ، وانحتكم إلى كاهنة بني سعد هُذَيم ، فما نعرف أبصر منها بمواقع الحكم .

وكانت قافلة قريش تتجهز للرحلة إلى الشام ؛ فأجمع القوم أن يصحبها رُسلهم إلى الكاهنة في مُعان . فلما فصلت العيرُ صحبها عبد المطلب في عشرين من بني عبدمناف، وأرسلت قريش معها عشرين من بطونها المختلفة ، ومضى القوم ترفعهم النجاد وتحطهم الوهاد حتى طال بهم السفر ، ونَفِدَ ما كان معهم من ماء ، واشتد بهم الظمأ وأحرق أكبادهم الصَّدى ، وغدَوا ذات يوم في فلاة مبسوطة يحار فيها الطرف دون أن يهتدي إلى أمد، ليس فيها عين ولا بئر ، ولا شجرة ولا عشب ، وإنما هي أرض ملساء جرداء تقع عليها أشعة الشمس الملتهبة فتلهبها تحت الأقدام . وقد يئس القوم من كل رَوْح ، وقنطوا من كل وجهة ، فاجتمعوا يتشاورون . قال قائل منهم : يا قوم ، إنما هو الموت فأنتم بين اثنتين : إما أن تموتوا ضيعةً وتصبح أجسامكم نهباً لسباع الأرض والجو ، لا تواريكم يدٌ في التراب ، ولا تأوى نفوسكم الى جَدَث تطمئن فيه ؛ وإما أن يقوم بعضكم على بعض ، ويُواري بعضكم بعضاً ، فيكون لكل منكم حفرته ، وتعرف نفوسكم اذا هامت في الفضاء الواسع ، وأَلِمَتْ بأهلها في بطاح مكة وظواهرها كيف تهتدي الى أجسادها فتلِمّ بها وتسكن اليها . والرأي أن يحتفر كلّ منكم حفرته، وأن تُقيموا ، فأيكم ذهب الصدى بنفسه وأراه أصحابه وبكوا عليه ، فلا يذهب منكم ضيعةً إلا رجل واحد تمتدّ به الحياة الى أقصى أجل .

قال ذلك قائلهم ونهض فأخذ يحفر حفرته ؛ وتثاقل القوم بعض الشيء ، يفكرون في أولادهم وآخرتهم ، ويذكرون مكة ومَن تركوا فيها من أهل وولد ومال ، ويذكرون الشام وينظرون الى ما كانوا يحملون اليها من تجارة ، ويفكرون فيما كانوا ينتظرون أن يحققوا فيها من ربح . وتقدّمَ رُسل قريش الى الكاهنة يتلاومون في البئر وفي خصومتهم لصاحب الحق . ثم ينهضون والموتُ يُثقل نفوسهم ، فيعمِد كلّ منهم الى سنان يخط به حفرته في الأرض .

كل ذلك وعبد المطلب ساكت ساكن لا يقول ولا يومىء ، ولكنه نهض فجأة وقال بصوته العذب العريض : « يا معشر قريش ، ما أعجزكم ! ها أنتم أولاء تُلقون بأيديكم وتنتظرون الموت ، وتقطعون ما بينكم وبين أهلكم وولدكم من أسباب الحياة، وإن فيكم لبقية من قوة ، وإن في إبلكم لقدرة على الحركة وفضلاً من النشاط !

لا والله ما أنا بمُسلم نفسي للموت حتى يُكرهني عليها . هلمّ فاضربوا في هذه الأرض ! فلعل الله أن يجد لكم من هذا الضيق فرجاً » .

ووقعت ألفاظ عبد المطلب هذه من نفوس الناس موقع الغيث ، وإذا الآمال تحيا، وإذا النشاط يتجدد ، وإذا القوم ينهضون الى رواحلهم، وإذا هم يؤثرون أن يتخطفهم الموت على أن يسعوا هم اليه . وينهض عبدالمطلب الى راحلته ، حتى اذا جلس عليها وزجرها نهضت وهمّت لتندفع . ولكن ماذا ! ماذا يسمع القوم ؟ ماذا يرون ؟ هذا عبدالمطلب يصيح بأعلى صوته مُكبراً وهم يلتفتون ، فإذا عين غزيرة قد انفجرت تحت خُف الراحلة ، واذا هي تفور ، واذا الماء ينبسط من حولها فينقع غُلة الأرض المحترقة قبل أن ينقع غلة القوم الظمّاء !

هلمّ يا معشر قريش الى الماء الرَّواء ! قد فجّره الله لكم من الصخر الصلد ! هلم فاشربوا واسقوا إبلكم واملأوا مزادكم . هلمّ فانعموا بهذا الماء الصافي النقي البارد في في هذه الفلاة القائمة المحرقة . والقوم يضجّون بالرضا والغبطة ، وإن للابل من حولهم لأطيطاً ملؤه الرضا والغبطة ايضاً . ومن ذا الذي زعم أن نفوس الناس وحدها هي التي تجد اللذة والألم، وتشعر بالسرور والحزن ! روي الناس، ورُويت الإبل، ورويت الأرض . وقالت رُسل قريش لعبدالمطلب : عدْ بنا يا شيبةُ الى مكة فقد قُضي علينا ، وان الذي أسقاك في هذه الصحراء وأنقذنا بك من الهلاك ، هو الذي أسقاك في مكة وساق إليك ما تُروى به الحجيج .

وأقبل البشير على سمراء ينبئها بأن زوجها قد عاد إليها سالما موفوراً مظفّراً ! فقالت وعلى ثغرها ابتسامة الكئيب المحزون : « حبذا شيبةُ مسافراً ! وحبذا شيبةُ مُقيماً ! ولكن شيبةَ لن يخلص لي منذ اليوم ؛ إنه ليريد كثرة الولد ! وأيّ نساء قريش تستطيع أن تمتنع عليه ! ؟ » .

ثم أشرقت شمس الغد على عبد المطلب وهو يسعى إلى عمرو بن عائذ المخزومي ليخطب إليه فاطمة ، وهي أمّ جماعة من ولده بينهم عبدالله .

- ٣ -

الفداء

أصبحت سمراء محزونةً كاسفة البال ، تبدو على وجهها المتجعد وجبينها المقطب

كآبة مظلمة ، لم تحاول في هذا اليوم أن تخفيها أو تخفف من حدتها كما تعوّدت أن تفعل منذ أعوام وأعوام . فقد عرفت سمراء ألم الحزن منذ احتُفرت زمزم ، ومنذ ظهر حرص زوجها على الولد ، ورغبته في كثرة العدد ، ومنذ خطب فاطمة المخزومية فأحبها وكلف بها ، وانصرف إليها عن كل شيء وعن كل إنسان ، ومنذ كثر ولد فاطمة من البنين والبنات ، واشتدّ لذلك حبّ عبد المطلب لها وكلفه بها وانصرافه إليها ، وتجافيه عن زوجه الأولى ، تلك التي أضاءت له سبيل الشباب ، وأعانته على احتمال أثقال الحياة الأولى .

نعم ! عرفت سمراء ألم الحزن في هذه الأعوام الطوال من حياتها ، ولكنها كانت على بداوتها امرأة لبقة بارعة الجمال ، ذكية القلب ، تعرف كيف تخفي على زوجها ما يكره ، وكيف تلقاه بما يحب .

وكانت توفّق بفضل هذه اللباقة وهذا الذكاء لأن تستميل إليها زوجها وربما اضطرته إلى أن ينقطع إليها وقتاً ما ، وينسى زوجه الأخرى إلى حين .

ولكنّ يوماً أقبل يحمل إلى سمراء شرّاً ليس فوقه شر ، وألماً ليس بعده ألم ؛ أصبح هذا اليوم مظلماً ، لما أمسى حتى أظلمت له حياة سمراء كلها . ذلك أنه مضى بموت ابنها الوحيد ، فأذاقها مرارة الثكل واليتم والترمّل جميعاً . فقد كان الحارث لها ابناً تجد عنده قرّة العين ، وأباً تحسّ منه العطف وحنو الآباء : وكان هو يحسّ ألمها ويعرف أسراره ، ويجدّ في الطبّ لهذا الألم؛ فكان يبالغ في رعاية أمه وحمايتها. وكان شديد الحرص على أن يلقاها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وعلى أن يطيل المكث معها والتحدث إليها ، يُشركها في جدّ أمره ولعبه ، يستشيرها ويظهر قبول مشورتها والاستماع لنصحها . فكان يقوم منها في أكثر الأحيان مقام أبيه ؛ وكان يعزّيها بحبه وبرّه عما كانت تجد من الوحشة حين يصدّ عنها زوجها فيطيل الصدود . فلما مات الحارث مات معه أمل سمراء ولم تلق الحياة إلا بوجه محزون كئيب يصور قلباً مكلوماً مظلماً . وقد جزعت سمراء لهذا الخطب واشتدّ جزعها وطال . ولكن أيّ شيء يبقى على الأيام ! ولقد ذهبت الأيام الطوال بحدّة هذا الجزع وشدته كما ذهبت بنضرة شباب سمراء ، وكما ذهبت بحياة ابنها الحارث ، وكما ذهبت بحب زوجها عبد المطلب وأصبحت وقد تقدمت بها السن وامتحنتها حوادث الدهر ، امرأةً مذعنة لحكم القضاء ، لا تنكر شيئاً ، ولا يسرّها شيء ، محزونةً ولكن في دعة ، ملتاعة ولكن في هدوء !

وقد أحست إنكار الناس من حولها لما يرون من حزنها وكآبتها ، وما يجدون من انقباضها عنهم ، فجدّت ما استطاعت في إخفاء ما تجد وكتمان ما تحس ؛ واحتفظت لنفسها بهذا الكنز الحزين ، كنز الذكرى وما تثيره من العواطف ، وما تهيجه من اليأس . وتركت للناس من نفسها شخصاً عادياً يبتسم حين يبتسمون ، ويرضى حين يرضون ، ويشاركهم في أكثر ما يجدون من عاطفة أو شعور . على أنها كانت تجد شيئاً من الرضا وراحة النفس حين تجد من زوجها عطفاً عليها وأنساً إليها .

وكان زوجها منذ أصابها هذا الخطب شديد الرفق بها ، كثير الزيارة لها ، يُصفيها مودّة خالصة قوية ، ولكنها خالية أو كالخالية من هذا الحب الذي يحيي قلوب النساء. أصبحت سمراء في هذا اليوم محزونةً ظاهرة الحزن ، كئيبة بادية الكآبة ، أقبل عليها إماؤها الثلاث يحيينها تحيــة الصباح ، فردت عليهن تحيتهن ردّاً فاتراً ؛ ثم جلست وجلسن ، وأخذت مغزلهـا وأخذن مغازلهن ، وعملت أيديهن في الغزل ، وسكنت ألسنتهن عن الكلام . وكانت سمراء تدع مغزلها من حين إلى حين وتظل ساكنةً واجمة ، وربما انحدرت من إحدى عينيها دمعة حارة فاسرعت إليها تزيلها بيدها دون أن تقول شيئاً . والإماء صامتات ينظرن في حزن عميــق إلى مولاتهن الحزينة ، ولا تستطيع واحدة منهن أن تبدأها بالكلام . فلما طال عليهن هذا الصمت وهذا الحزن ، وثقل ما كنّ يجدن من ألم ، وما كان يملأ قلوبهن من حب للاستطلاع ، ورغبــة في الكلام ، وميل إلى تعزية مولاتهن ، اجترأت «ناصحة» وكانت أشجعهن قلباً ، وأطولهن لساناً ؛ لأنها كانت تعرف مكانتها عند سمراء ، فقالت : لقد أصبحت يا سيدتي على حال ما رأيناك عليها منذ زمن بعيد. فقد كنا نراك محزونة كئيبة ولكنك كنت تجاهدين الحزن وتدافعين الكآبة وتتكلفين الرضا ، وكنا نجد من ذلك مايشجعنا على تسليتك وتلهيتك بالحديث حيناً وبالغناء حيناً آخر ؛ تقصّ عليك كل واحدة منا ما حفظت من أخبار بلادها ، وتغنيك كلّ واحدة منا بما تعلمت من الغناء في رطانتها الأعجمية ؛ وكذلك كنت تسمعين أقاصيص سوريــة ، وأخرى حبشية وأخرى يونانية ، وكنت تسمعين أغاني في لغات أجنبية قليلا مـا تعجبك ، ولكنها كانت ترسم على ثغرك الابتسام في أكثر الأحيان . أما اليوم فلم نرَ منك إلا حزناً قاتماً ، ولم نسمع صوتك العذب ، ولم يَرُعنا إلاّ هذه الدموع التي تسفحينها في صمت أليم ! تكلمي يا مولاتي ! أبيني ! ماذا تجدين ! ماذا أحزنك اليوم ؟ تكلمي وأحسني ظنك بنا ؛ فقد نستطيع أن نعينك على الحزن كما كنا نستطيع أن نبعث في قلبك السرور . نحن إماء ، ولكننا نساء نجـــد

الحزن كما تجدينه، ونحس اللوعة كما تحسينها ! ولعل حبنا للبكاء أشد من حبنا للضحك! ولعل حرصنا على الحزن أشد من رغبتنا في السرور ! ولعلنا إن شاركناك في الحزن والألم جارينا طبائعنا ، وأرسلنا نفوسنا على سجاياها . فليس في حياتنا وإن كنت لنا مكرمة ما يسر أو يرضي . وأي شيء يسر أو يرضي في حياة الأمة الغريبة التي لا تملك نفسها ، ولا تحس إلا ذل الرق ، ولا تستطيع أن ترضى حقاً ، أو أن تسخط حقاً ، إلا إذا خلت إلى نفسها . وأنى لها أن تخلو إلى نفسها ؛ تكلمي يا سيدتي ! ماذا يسوءك ؟ وماذا يغشي وجهك بهذا الغشاء الحزين ؟

قالت « ناصعة » ذلك وانتظرت أن تجيبها سمراء ، ولكنها لم تظفر بجواب ، وإنما رأت دموعاً تنحدر ثم تنهمر ، ثم تستحيل إلى زفرات حارة ونحيب غير منقطع .

وهنا محا الحزن ما بين السيدة وإمائها من فروق ، فأسرعن إليها يهدئنها ويرفقن بها : هذه تقبلها ، وهذه تمسح دمعها ، وهذه تمر يدها على رأسها ، وهن جميعاً يبكين لها ويبكين لأنفسهن . وقد هدأت سمراء بعض الشيء ، وسكنت نفسها الثائرة إلى هؤلاء الإماء الرفيقات ، فابتسمت لهن في حزن ، وشكرت لهن ما أظهرن لها من مودة وعطف؛ وطلبت إليهن العودة إلى ما كن فيه من عمل ، وأخذت هي مغزلها وجعلت تديره في يدها . ولكن «ناصعة» لم تلبث أن عادت إلى الكلام ، فقالت وهي تتكلف الابتسام وتتصنع الضحك : ليس يغني عنك الصمت يا مولاتي ؛ فإنا نعلم ما تسرين كما نعلم ما تعلنين . ولولا خوفنا منك وإكبارنا إياك لقصصنا عليك القصة التي تحزنك وتجري دموعك الحارة على خدك النقي ، ولكن أنى لنا أن نبلغ منك هذه المكانة ، وإنما أنت سيدة ونحن إماء ! .

قالت سمراء : كفي عن هذا الحديث يا ناصعة ! فقد أنسيت اليوم أن بيني وبينكن فرق ما بين السيدة وإمائها، ولست أرى منكن الآن إلا نساء تعسات مثلي؛ إنما نحن أخوات في الشقاء والبؤس ؛ وما ينفعني أنني حرة وأنا مثلكن مقيمة على الضيم ، محتملة الذل ، مذعنة لصروف القضاء ، لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرراً ، ولا أستطيع أن أبرح هذه الدار وإلى أين أبرحها ! لقد ذهبت غارة بني أسد بأبي وأخي ، وأصبحت أمي وأخواتي إماء مثلكن ، لا أعرف من أمرهن شيئاً ، ولم ينهض فتيان بني عامر وكأنهم للثأر ! ليت شعري ماذا يصنع أبو براء بأسنته !! ما له لا يلاعبها! لقد ذهب الموت بابنتي ، وأصبحت أسيرة في يد عبد المطلب ، اسيرة لا كالأسرى ؛ يجفوني ولا أستطيع له بغضاً ولا قلى كما يفعل الأسرى ، وإنما أحبه ولا أجد عن

داره منصرفاً . ها هوذا قد عاد من رحلته إلى اليمن منذ ثلاث ، فلما بلغ مكة أسرع إلى هالةَ بنت وُهيب ، فقضى عندها أولى لياليه وأول أيامه ؛ لأنها أحدث زوجاته به عهداً . ثم أصبح فانتقل إلى نتيلة فأقام عندها يوماً وليلة . ثم أصبح فانتقل إلى فاطمة فأقام عندها يوماً وليلة . وما أرى إلا أنه سيقبل بعد حين قبلَ بهذه الدار إلمامةً قصيرة ، ثم يسرع إلى هالة ، فما أشدَّ شوقه إليها ! وقد حُدثت أنه أقبل من اليمن كأحسن ما يكون الرجال سمةً ، وأبرع ما يكونون جمالاً . وحُدِّثت أنَّ هالة أنكرته حين رأته ؛ فقد ودعنا أبيضَ الرأس وعاد فاحمَ الشعر كأنه لم يتجاوز الثلاثين[1] . وقد أنكرتْه من الغد قريش كلها لما رأت من سواد لمته . ولكنه أزال عجب قريش حين أظهر لها هذا الخضاب الذي حمله من اليمن ، والذي يردّ الشيب شباباً ، والذي أسرعت قريش إليه فاشترت منه ، واختضب بها شيبها فإذا أهل مكة كلهم شباب . كل ذلك ولم أرَ عبد المطلب ، ولم أحس منه ذكراً لي وحنيناً إليّ . وماذا يصنع بي ؟ ليس لي شباب هالة ، ولا جمال نُتيلة ، ولا ولد فاطمة ! وإنما أنا عجوز فانية ، يتيمة وحيدة، ليس لها أب ولا أمٌ ولا ولد . أنا هذا الحمل الثقيل الذي يَضيق به صاحبه،ولكنه يأبى أن يُلقيه ويتخففَ منه مخافة أن يصفه الناس بالضعف أو القصور .

قالت ذلك وأغرقت في بكاء طويل شاركها فيه إماؤها الثلاث . ولكن « ناصحة » لم تلبث أن قالت : أهذا كل ما تعلمين من أمر زوجك يا سيدتي ! إنك إذاً لتجهلين كل شيء ، ولا تعلمين إلا أقلَّ أمره خطراً . وإنّ عندي من أمر سيدنا ما لو قصصته عليك لأرضاك ، ولخفف لوعة الحزن هذه التي تحرق فؤادك الكئيب . لن تريْ زوجك اليوم يا مولاتي فهو عنك في شغل . لقد كان راضياً مسروراً حين كان يرى نساءه يُنكرن سواد لِمّته ويُعجبن بشبابه الجديد ، وحين كانت قريش تستبق إليه تشتري منه هذا الخضاب بما أحب من مال . ولكنه محزون منذ أمس ، مغرق في حزن لا قرارة له ، فهو خليق بالرثاء . إنك تحبينه يا سيدتي وستنْسين إعراضه عنك وسترْثين له ، وإني أخشى أن تخفيّ إليه حين تعرفين نبأه . قالت سمراء في شيء من الجزع بدأ هادئا، ولكنه لم يلبث أن اشتدّ قليلاً قليلاً حتى بلغ أقصاه: ماذا تقولين ؟ وبم تتحدثين ؟ هو محزون ! هو خليق بالرثاء ! لماذا ؟ أبيني متى علمت بذلك؟ كيف أخفيته عليّ ؟ ما الذي يحزنه ؟ ما الذي يسوءه ؟ ما الذي يجعله أهلاً للرثاء ؟ ما الذي

---

(١) انظر طبقات ابن سعد : ص ٥٢ ج ١ ق ١

يضطرني إلى أن أخِفَّ إليه لأعزّيَه وأواسيه؟ قولي ، أسرعي ، لا تُخفي عليَّ شيئاً.

قالت ناصعة : مهلاً يا سيدتي ! ارفقي بنفسك ولا تذهبي بها في الخيال كلَّ مذهب ! لا بأس عليه في نفسه ولا في ماله ، ولكنه يُمتحنُ منذ أمس في بنيه . هوّني عليك ! إنّ في هذه المحنة لعزاء لك عن فقد حارثك العزيز أتذكرين يوم احتفر زمزم فنذر لئن أوتي من الولد عشرةً ذكوراً ... قالت سمراء : يرام ليضحينّ بواحد . يابؤس هذا اليوم ! فقد عرفت هذا النذر فكان مصدر شقائي كله ، عرفت أنه سيستكثر من النساء ، ورأيت مدية التضحية ممدودة إلى عنق قد يكون عنق ابني العزيز . منذ ذلك اليوم كرهت النساء جميعاً ؛ لأني رأيت في كل واحدة منهن ضرة لي . ومنذ ذلك اليوم رأيت شبح الموت مقيماً بهذا البيت ما أقام فيه ابني ، مُفارقاً لهذا البيت ما فارقه ابني . ومنذ ذلك اليوم لم أرَ ابني في يقظة ولا في نوم إلاّ رأيت الموت ظلاً . اتمّي حديثك يا ناصعة .

قالت الفتاة : لقد ذكر زوجك أمس وهو يتحدث إلى فاطمة نذره هذا ، وذكر أنّ أبناءه الذكور قد بلغوا عشرة أحياء يرام بمولد طفله حمزة ، فأقسم ليوفينّ نذره، وليضحين بأحد أبنائه ، وليجعلنهم تسعة منذ اليوم ، حتى تتمهم له هالة أو نتيلة أو غيرها عشرة أو تزيد بهم على العشرة ، ولم يكد يعقد هذه اليمين حتى جزعت فاطمة وشاركها بناتها في الجزع . أشفقت على الزبير وأبي طالب وعبد الله وغيرهم من بنيها . وبلغ الخبر نتيلة فخافت على العباس . وبلغ الخبر هالة فجزعت على حمزة . وثارت لكل امرأة قبيلتها ، وألحّ الناس على الشيخ : تأبى كل قبيلة أن تكون التضحية منها . ومضى الشيخ في يمينه ، فجمع إليه بنيه وأنبأهم بنذره ، فكلهم أقرّه وكلهم أطاعه ، وكلهم ألحّ عليه ليُوفين بالنذر ، وليقدِّمَنّ التضحية . وليس لقريش منذ أمس حديث إلاّ هذا النبأ ، هم يتناقلونه ويُكبرونه وينكرونه ، وقليل منهم من يُقرّ الشيخ على هذا العزم الفظيع .

ثم قالت الفتاة : ثم أقبل الشيخ ببنيه إلى الكعبة مع الصبح ، فأجال فيهم قداحه ، فخرج القدح على أحبّ بنيه إليه وآثرهم عنده قالت سمراء وهي مضطربة ، وقد سالت من عينها دمعتان محرقتان : خرج القدح على عبدالله ؟ قالت الفتاة : نعم ! فأخذ الشيخ بيد ابنه يقوده إلى المذبح وفي يده المدية . ولكن بناته جميعاً وأمهنّ قمن دون الفتى صائحات يستصرخن بني مخزوم ويستصرخن قريشاً كلها ، ويمنعن الفتى بحياتهن . وأقبلت إحداهن إلى الشيخ ضارعةً ثائرة معاً فقالت : إذا كان قلبك قد استحال إلى صخر، فلا ترقّ

لابنك الشاب ، ولا لأمه الشيخة ، ولا لأخواته البائسات ، وإذا كانت شريعة قريش قد قست وجفت وغلظت ، حتى جعلت الآباء على أبنائهم حقّ الحياة والموت كأنهم الرقيق أو الحيوان ، فدعنا نحتكم في هذا الفتى إلى رب هذا البيت ؛ فهو أوسع منك رحمةً وأجدر منك أن يضنّ بهذا الشاب على الضياع ، وأن يربأ بهذا الدم الزكيّ أن يُراق . لنحتكم الى رب هذا البيت في أمر هذا الفتى . لنقْرع بينه وبين هذه الإبل الكثيرة التي تُسيمها في الحرم ، ولنبلغن من ذلك ما يُرضي رب هذا البيت .

وكانت قلوب قريش قد تفطرت حزناً ، وتصدعت أسىً لقول هذه الفتاة وهي تبكي ، وقد التزمت أخاها تعانقه وتقبله وتغسل وجهه الناصع بدمعها الغزير وهي تصيح : لأموتن قبل أن تموت ! فما زالت قريش بالشيخ تلاينه حيناً وتخاشنه حيناً ، حتى اضطرته أن يقبل تحكيم الآلهة .

قالت سمراء وقد بلغ بها الهلع أقصاه : ثم ماذا ؟ قالت الفتاة : ثم لا أدري ! تركتهم يتأهبون لإجالة القداح بين الفتى والإبل ، وأقبلت أقصّ عليك النبأ فرأيتك فيما كنت فيه من حزن عميق .

قالت سمراء : يا بؤساً لهذه الحياة ! لا يسعد فيها الناس بخير — مهما يكثر — كل السعادة ولا يشقى فيها الناس بشرّ — مهما يعظم — كل الشقاء . أسعيدة أنا بموت الحارث أم شقية ؟ لو قد عاش لذقت الآن ما تذوقه فاطمة من هذا الحزن اللاذع والخوف المهلك . ولكني كنت أوثر مع ذلك أن يعيش ، فقد كان يمكن ان تخطئه القداح ، وقد كان يمكن إن لم تخطئه في المرة الاولى أن تخرج على الإبل من دونه، وقد كنت استمتعبه أعواماً. ولكن هلمّ لا مُقام لنا الآن ، لنسرع الى حيث هم لمشاركتهم فيما يجدون . واحسرتاه ! إني لصادقة الحزن ! اني لصادقة الخوف ! اني لشديدة الاشفاق ! اني لشديدة الرجاء ! ولكن فاطمة ستظن بي سوءاً ، وستقدّر أني أقبلت غير بريئة النفس من الشماتة . قالت ذلك ونهضت يدفعها حزنها الخالص ويردها خوفها من سوء الظن . ولكنها أسرعت مع ذلك ، وأسرع معها إماؤها . ولم تكد تتقدم في الطريق نحو المسجد حتى سمعت أصواتاً ورأت اضطراباً ، ثم تبينت في الاصوات فرحاً ، ورأت على الوجوه بشراً ، وعرفت ان القدح قد خرج بعد لأي على مائة من الإبل ، وأن عبد المطلب يؤذن في الناس أنه سينحر هذه الابل بين الصفا والمروة ، وأنها حرام عليه وعلى بني هاشم ، مباحة لغيرهم من الناس والحيوان والطير .

فأسرعت سمراء حتى اختلطت بفاطمة وبناتها ، وهن سائرات يحطن بالفتى ، ويحلن بينه وبين غيره من الناس ، حتى اذا بلغن البيت ألفين فيه امرأتين تبكيان ، احداهما هالة بنت وُهيب أم حمزة وزوج عبدالمطلب ، والأخرى بنت عمها اليتيمة آمنة بنت وهب .

هنالك أقبلت سمراء هادئة باسمة الى الفتاة ، فكفكفت من دموعها ، ضمتها إليها وقبّلت جبينها الطلق . ثم التفتت الى عبدالله وهي تقول : « هلمّ يا فتى فقبّل أهلك ، فيها تغلُ لها في المهر فلن تبلغ هذه الدموع التي ذرّفتها حزناً عليك » . ثم نظرت الى فاطمة وهي تقول : « ألا ترين أنها أحقّ فتيات قريش أن تكون له زوجة ! »

– ٤ –

الإغراء

أقبل أبناء عبد المطلب فهيّئوا لأبيهم مجلسه في المسجد غير بعيد من بئره التي كشفت له . وأقبل الشيخ بعد قليل مُشرقَ الوجه باسمَ الثغر ، فأسرع إليه أبناؤه يلقونه بالتحية ويقرأون عليه السلام . وأقبل عليهم يحيّيهم ويدعو لهم ، حتى إذا أخذ مكانه أشار إليهم فجلسوا من حوله ، قال قائل منهم وعلى ثغره ابتسامة فيها حبّ وفيها دعابة ، وفيها غيرة لا تكاد تبين : لم يأت بعدُ ، وما علمناه منذ حين إلا نؤوم الضحى . قال الشيخ وابتسم كالمغضب : حَسبك ! فكلكم قد أدركه الضحى ولما يرفع رأسه عن الوساد . ثم أخذوا في حديث القافلة التي كانت تتهيأ للرّحلة إلى الشام، وأخذ أبناء الشيخ يتحدثون إلى أبيهم بما أعدّ أغنياء قريش من عُروض التجارة لتحمل إلى بُصرَى وما يليها من بلاد الروم .

وهم في الحديث وإذا الفتى يُقبل وَسيماً قسيماً مستقيمَ القدّ مُعتدلَ القامة ، قريب الخُطا شاخصاً بصره إلى السماء ، حتى إذا دنا من أبيه أقبل عليه فحياه، وتلقاه الشيخ رفيقاً به عطوفاً عليه ، ثم أذن له بالجلوس وأدنى مكانه منه ، وأعرض عنه حيناً كأنه يسمع لحديث أبنائه عن القافلة كيف تُهيأ ، وممن تكون ، ومتى تفصل . ثم التفت إلى ابنه الشاب وقال وهو يبتسم : ما أرى يا بُنيّ إلا أنك أحببت النعمة وآثرت لين العيش ! وكلنا قد أحبّ النعمة كما تحبها ، وكلنا آثر اللين كما تؤثره ،

وكلنا قد لزم أهله حتى كاد ينسى كل شيء ، ولكن الأيام تُنبه الغافل ، وتوقظ النائم وتُذكر الناسي . وإني لأحبّ أن أنبهك قبل أن تُنبهك الأيام ، وأن أوقظك قبل أن تُوقظك الأحداث ، وأن أذود عنك النسيان قبل أن تذوده عنك الخطوب . وخيرٌ لك بني أن تترك النعمة الآن لتعود إليها بعد حين من أن تظل فيها مُغرقاً وعليها حريصاً ولها لازماً ، حتى تضيق بك وتنفر منك ، وتنصرف عنك إلى غير رجعة . وفي الرحلة يا بني مع عمك الأدنين رياضةٌ لك يسيرة على احتمال الصعاب واقتحام العقاب ، وتسلية لك هينةٌ عن هذه اللذة المتصلة والنعيم المقيم . وما أشكُّ في أنك ستترك أهلك كارهاً لذلك ضيّقاً به ، ولكنك ستستعذب الفراق وتستلذّ النوى ، وتجد من ذكر أهلك على نزوح الدار وبُعد المزار ، مثلَ ما تجد من حب أهلك والدار قريبة والمزار يسير . فهيىء نفسك للرحيل مع العير ، واحرصْ على ألاّ تعودَ أقلّ ثراء من أمثالك الذين سيرحلون إلى الشام من شباب قريش وقد أجمعتَ وأجمع إخوتك أن نكل إليك ما عندنا من هذه العروض التي تجمعت لنا منذ أشهر لتحملها لنا الى بلاد الروم ، فتتاجر لنا فيها ، وتقاسمنا ما تُغلّ علينا من ربح . والرأي أن تسعى في أصهارك بني زُهرة بمثل ذلك ، فتحمل عنهم عُروضهم وتقضي لهم حاجاتهم . وما أظن أنك صفر اليد ؛ فقد تستطيع أن تتخذ لك حظاً من تجارة تقصرها على نفسك ، حتى إذا رجعت إلينا كنت موفورَ الحظ من المال بما يجتمع لك من ربح هذه التجارة كلها . كلنا يا بني قد رَحل إلى الشام حيناً وإلى اليمن حيناً وإلى العراق حيناً آخر ، ومنا من أمعن في الرحلة حتى بلغ مصر . ومنا من أغذّ [1] السير حتى عبر البحر إلى بلاد الحبشة . ومنا من أبعد السفر حتى انتهى إلى أعماق فارس . ولكني أرى لك أن تُمعن في غير إسراف ، وأن تبعُد دون أن تنقطع عن جماعة من قومك . والأيام خليقة أن تغريك بالأسفار البعيدة والرحلة المتصلة . فقم يا بني فأصلح من شأنك ، وهَيىء أهلك لهذا الفراق ، فما أظن أنّ آمنة سترضاه أو تستريح إليه .

قال ذلك في لهجة ملؤها الحنان المقنع ، والجِدّ الذي لا يحتمل الجدال ولا يُبيح رَجْع الجواب وكان الفتى يسمع له راضياً ، تظهر على وجهه آثار الطاعة والثقة . حتى إذا فرغ من حديثه أطرق الفتى غيرَ طويل ، ثم رفع رأسه وهمّ أن يتكلم فلم يجد ما يقول ، فنهض مسرعاً حتى خرج من المسجد ومضى أمامه لا يلوي على شيء . وكانت شمس الضحى قد ارتفعت حتى قاربت أن تستوي في كبد السماء ، وكانت

(١) أغذ السير وفي السير : أسرع .

أشعتها الحارّة المحرقة قد أخذت تُلحّ على الأرض والناس ، حتى قهرتها وقهرتهم أو كادت . والفتى ماض في طريقه كأنه السهم لا يلتفت يَمْنةً ولا يَسرةً ، ولا يكاد ينظر إلى أبعد من مواقع قدميه . وإنه لفي ذلك وإذا صوتٌ عَذْب يأتيه من قريب بهذا البيت :

يا مُسرعاً والناسُ من حوله   يَسعون لم يأن لغاد رَوّاح

فيهمّ أن يقف ، ولا يكاد يفعل حتى يأخذه صوتٌ آخر ليس أقل عذوبةً ولا حسنَ وقع في النفس من ذلك الصوت الأول :

يا مطرقاً والأرضُ من حوله   يَزينها حسنُ الوجوه الصباح

هنالك يقف الفتى ويلتفت صوبَ الصوت ، ولكنه لا يكاد يفعل حتى يمسه صوت آخر فيه نعومة الحرير ، وعذوبة الماء النمير :

عرج عَلينا فأقمْ ساعةً   فعندنا إن شئت رَوحٌ وراح

هنالك وقف الفتى والتفت وهو يقول : ما رأيت كاليوم دُعاء ولا إغراء ! وقد اتصل طَرفُهُ بوجوهِ ثلاثةِ حسان ، تُشرق بها كوًى ثلاث في دار فاطمة بنت مُرّ الخثعمية . قال الفتى : ما خَطبكن ؟ قالت إحدى الفتيات : ما خَطبك أنت ؟ فيمَ إرقالك على هذا النحو ولما يَئنْ لشباب قريش أن يروحوا إلى أهلهم ؟ وفيم تركت أباك وإخوانك وأترابك في المسجد ؟ هلا بقيت كما بقوا وانتظرت كما ينتظرون ! قال الفتى في صوت فيه دعابة الطامع ويأسُ المضطر إلى الإسراع : ما أنتِ وذاك ؟ إن إدَعْهم فلأمر ما . قالت فتاة أخرى : إن تدَعْهم فلتخلُ إلينا فتحدثنا وتسمع منا ساعة من نهار . قالت ثالثة : هلمّ يا فتى أقبل ، فما هذه ساعة حديث يُلقى من الكوى ! إنّ الشمس لمحرقة وإنّ القيظ لشديد ، وإني لأوثرُ ما كنت فيه من الإرقال آنفاً على ما أنت فيه من الوقوف الآن . قالت أحداهن وكأنها تتغنى :

عرّجْ علينا فأقمْ ساعةً   فعندنا إن شئتَ رَوحٌ ورَاح

وهمّ الفتى أن يأبى ولكنهن ألححن عليه ، ومضين يدعونه ويُغرينه حتى استجاب لهنّ .

وما هي إلا أن دخل الدار وأغلق من دونه بابها ، وأقبل الفتيات عليه مبتهجات له رفيقات به : هذه تمسح رأسه ، وهذه تمسّ وجهه ، وهذه تأخذ بطرف ردائه ، وهو يحاول أن يتقيهن وأن يمتنع عليهن ، فلا يجد إلى شيء من هذا سبيلا . وكانت فاطمة الخثعمية أطول هؤلاء الفتيات قامةً ، وأوسمهنّ وجهاً ، وأعذبهن حديثاً ،

وكانت على جمالها الرائع وحسنها البارع ذكية القلب ، نافذة البصيرة ، ضخمة الثروة ، تعيش في مكة مُترفة ناعمة ، من حولها عدد غير قليل من الموالي والأحلاف والرقيق على اختلاف أجناسه وتباين حظوظه من المهارة في الفنون المختلفة التي كان يحسنها الرقيق بمكة في تلك الأيام .

وكانت فاطمة الخثعمية بَرْزَة [1] متبدّية في مكة بعض الشيء ، لا تكره أن تظهر للرجال وتأخذ معهم في ألوان الحديث . وكان شباب قريش يحبون منها ذلك ويكلفون به ، ويختلفون إليها إذا كان المساء ، فيقولون لها ويسمعون منها حتى يتقدم الليل ، وربما أديرت عليهم في الشتاء أقداح من خمر بيسان وفي الصيف أقداح من زبيب الطائف . ولم يكن عبد الله من هؤلاء الفتيان الذين يألفونها ويختلفون إلى مجلسها . وأين هو من ذلك وإنه لمن قوم حظهم من اللهو وتصيبهم من الاستمتاع بالحياة الفارغة الناعمة ضئيل ! وكان عبد الله حديث مكة في هذه الأيام منذ همّ ابوه أن يتقرب به إلى الآلهة وفاء بنذره القديم ، فأنقذه الفداء من هذا الموت المنكر ، كان حديث مكة وحديث نسائها خاصة ، يذكرون شبابه الغضّ الذي كاد يُذويه الموت ، ويذكرون جماله الفاتن الذي كاد يحتويه القبر ، ويذكرون هذا الخفر الجادّ الصارم الذي لم يكن يُعرف في فتيان قريش ، ويذكرون هذه الفتاة السعيدة التي قُدّر لها أن تكون له زوجاً . وكانت فاطمة الخثعمية أكثرهنّ حديثاً عنه وأعظمهنّ إعجاباً به ، وأشدهنّ شوقاً إلى لقائه . رأته يوم الفداء جَلداً صبوراً مبتسماً للموت ، لا يظهر على وجهه أثر من آثار الجزع حين كان أبوه يُقْرِع من دونه بالإبل ؛ فكانت القداح تأبى أن تخرج إلا عليه . ورأته بعد أن تمّ الفداء ورُفع عنه نذير الموت ، فعاد بين أمه وإخوته مبتسماً للحياة كما كان يبتسم للموت في هدوء واطمئنان ، لا يزدهيه فرح ولا يستخفه طرب ، ولا يخرجه عن طوره أمل في الحياة السعيدة والنعيم المقيم .

من ذلك اليوم وقع الفتى من نفس فاطمة موقعَ قطرة الندى من الزهرة الغضة عند إشراق الصبح ، فأحبته وتمنته ، وكلفت به وحرصت عليه . وقضت أياماً لا تتحدث إلا عنه ، وليالي لا تفكر إلا فيه . وقد تحدّث إليها الناس من مساء ذلك اليوم بأن آمنة بنت وهب قد خُطبت له وستزفّ إليه عما قريب ، فرأى الناس على وجهها جزعاً بادياً وحزناً عميقاً ؛ وكانت كثيراً ما تتحدث إلى أترابها بما تجد من حب وما

---

(١) البرزة من النساء : التي تبرز للقوم يجلسون إليها ويتحدثون معها ، أو الموثوق برأيها وعفافها . والبرزة أيضاً : بارزة المحاسن .

تحتمل من ألم . ولست أنا الذي شبه موقعَ الفتى من نفسها موقعُ قطرة الندى من الزهرة ، إنما هي صاحبة هذا التشبيه . فقد كانت تقول لصاحبتها عاتكة بنت سَهْم : أتعرفين كيف تنعم الزهرة حين يمسها الندى إذا أسفر الصبح ؟ ! فكذلك نعمتُ حين مسني حبُّ هذا الفتى يوم الفداء. وكانت تقول لها : أتعرفين كيف تشتاق الزهرة إلى قطرة الندى إذا ارتفع الضحى واشتدَّ عليها حر الشمس كلما تقدم النهار ؟! فكذلك أشتاق أنا إلى هذا الفتى كلما بَعُدَ العهد بيني وبينه ، وكانت تقول لها : أتعرفين كيف تهيم الزهرة بقطرة الندى إذا أظلها المساء وأقبل الليل ، وأحست بَرْدَ السحر وعرفت أن سقوط الندى قريب ؟! فكذلك أنا أهيم بهذا الفتى إذا أشرق الصبح وقرُب غدوّ قريش إلى مجالسها في المسجد ، أو إذا اعتدل النهار وآن لقريش أن يروحوا إلى أهلهم . وكانت عاتكة بنت سهم ترثي لها وتشفق عليها ، وربما يبلغ منها الرثاء والإشفاق أن تسخر منها بعض الشيء ، فكانت تقول : ويحك يا فاطمة ! إنك لمن قوم بُداة جفاة فيهم خشونة وغلاظة ، وما أعرف أن تجار قريش يخافون على أنفسهم وأموالهم في رحلة الشتاء أحداً كما يخافون هذا الحي من خثعم . ولولا خوفهم من هذا الحي ، وإكبارهم لبأسه وبطشه ، لما أيسر أبوك ، ولما كان له هذا المال الضخم ، وهذا العدد الكثير من الرقيق والأحلاف ، ولما اتخذ لك هذه الدار الأنيقة الواسعة في مكة تقيمين فيها كأنك أغنى بنات قريش فكيف نبتت هذه الزهرة الرقيقة الأنيقة في تلك القبيلة التي لا تشتاق إلّا إلى الدماء ! وكانت فاطمة إذا سمعت هذا الحديث ابتسمت عن نفس حزينة وقالت : ما أشد جهلكم يا أهل المدَر بما يُظلّ الوَبَر من نفس حية وقلوب رقيقة وأكباد يعبث بها الحب ويعصف بها الغرام .

فلما طال على الفتاة أمر هذا الحب وثقل عليها ، رقّت لها عاتكة بنت سهم ، ورقت لها سلمى بنت خُزَيم ، وقالت لها : أقلّي عليك الخطب وَهوّني عليك الأمر ، فليس هذا الفتى إلا غلاماً من قريش له رقة قلوبهم وفيه حبهم للحياة وكلفهم بلين العيش . وقد أصهر اليوم إلى بني زُهرة ، وما أيسرَ أن يُصهر غداً إلى خثعم . وما نحسب أنك تكرهين أن تكوني زوجه الثانية . وما نحسب أنك تخافين أن تغلبك آمنة على قلبه ؛ فقد يكون لآمنة جمالها ومكانها من قريش ، ولكن لك جمالك ، ومالك ، ومكانتك من خثعم . فالرأي أن نجمع بينك وبين الفتى ، وأن يحس منك حباً له وميلاً إليه ، فلعل ذلك أن يغريه بالخِطبة . وأي شيء أحب إلى أبيه وإخوته من أن يُصهروا إلى عظيم خثعم فيأمنوا شياطينها وشياطين مُراد ، وهذه الأحياء التي تأخذ

عليهم طريقهم إلى بلاد اليمن !! وكذلك دبّر الفتيات أمرهن وجعلن يرصدن للفتى إذا غدا ويرصدن له إذا راح ، حتى ظفرن به في هذا اليوم .

فلما أغلق من دونه ومن دونهن الباب لم يلبثن إلاّ قليلاً حتى نظر الفتى فإذا فاطمة وحدها قائمة أمامه ، ترسل إليه من عينيها الحادتين ناراً محرقة عَذْبة ، فيها حبٌّ لا حد له ،ورغبةٌ لا حدّ لها ، وحنانٌ لا حدّ له أيضاً. قال:ياهذه ُغضّي جفونك عني، فإني أجد للحظك مَسّاً لاذعاً.قالت وأنت،فامدُدْ إليّ عينيك ؛ فإني أجد فيهما شفاء لما يعذبني من سقم، وريّاً لما يُحرق فؤادي من صدى، قال ما لهذا أقبلت،فأين صاحبتاك؟ قالت : ما أنت وصاحبتاي ! إنما كانتا صديقتين أعانتا على أمر ، ثم مضت كل واحدة منهما إلى وجهها . أقم معي ساعة أو بعض ساعة ، فقد طالما تمنيتُ هذا اللقاء ، واشتقت إلى هذه الخلوة ، وسمتْ نفسي إلى أن يتصل بينك وبيني الحديث. قال : يا هذه ، ما أحبَّ هذا إليّ وآثره عندي ! إنّ في وجهك لإشراقاً حلواً، وإن في طَرفك لَسحراً فاتنا ، وإنّ في صوتك لعذوبةً تخلب العقول وتستهوي الألباب ؛ ولكنني عن هذا كله عَجِلٌ . قالت : فما يُعجلك عنه ، وإلى أين كنت تريد ؟ قال : يُعجلني عنه شغلٌ شاغلٌ طارىء. ولقد كنت أريد إلى أبي قُبيس حيث يقيم أهلي. قالت : أقم يا زينَ قريش ! إن أبا قُبيس لن يَريم[1] ، وإن أهلك لن يبرحوه ، وإنّ خير ما في الأمكنة والدور أنها ثابتة باقية لا تتحول ولا تزول إلا في بطء، وإنّ شر ما في الزمان أنه لا يعرف الهدوء ولا الاستقرار ولا يحب السكون والاطمئنان ، إنما هو انتقال دائم وحركة متصلة لا تستطيع الجمع بين أطرافه بل لا تستطيع الجمع بين أجزائه . أقم ! فستبلغ أبا قبيس في أي وقت شئت ، وستلقى أهلك في أي لحظة أحببت ، ولكن هذه الساعة إن ُتفلت منك فلن تعود اليك ، ولعلك لا تحرص عليها ولا تحفل باستدراكها ، فاعلمْ أني عليها حريصة ولها ُمحبة . واعلم أني مشفقة أن تضيع ، فقد تعلقت نفسي بها منذ يوم الفداء . لقد رأيتك مقبلاً إلى المسجد، ورأيتك منصرفاً عنه ، ورأيت على وجهك ابتسامةً واحدةً للموت وللحياة جميعاً . لم يكن وجهك مظلماً حين كنت تنتظر الموت ، ولم يزددْ وجهك إشراقاً حين رُدّت إليك الحياة . ولقد ارتسمت في نفسي ابتسامتك هذه فلم تفارقها ، ولم أرَك منذ ذلك اليوم ولن أراك إلا مبتسماً . أقمْ يا فتى ! إن وجهك لَوَضيء وإن جبينك لمضيء ، وإن عينيك لتسرعان إلى القلب ، وإنّ صوتك لَيسبغ عليّ حناناً حلواً يُدنيني

---

(١) لن يريم : لن يبرح ولن ينتقل .

منك ويدفعني اليك . أقمْ ! وليكنْ بيني وبينك طرَفٌ من حديث . فمن يدري! لعل هذا الحديث أن ينتهي بـك وبي إلى شيء . قال : وما عسى أن يكون هـذا الشيء ؟ إن شخصك ليثبتني في هذا المكان ، وإني لأجد في قلبي شيئاً يدفعني عنه، وإن نفسي لمضطربة بين هذين الداعيين الملحين : يُهيب بي أحدهما أن أقمْ ، ويهيب الآخر أن أنصرف قالت : أقمْ يا فتى ، وخلاك ذمٌّ ، فما ينبغي وقد دخلت دارنا أن تخرج منها ولما تُصبْ عندنا شيئاً من القِرى . قال لست ضيفاً ولا طارقاً ، وليست الساعة ساعة قرى ، دعيني أنصرف الآن كارهاً ، وما أظن إلا أني عائد اليك اذا كان المساء . ثمّ همّ أن ينصرف ولكنها أقبلت عليه ورَنتْ اليه بطرف ساحر فاتر أثبته في مكانه، فمسته بيدها مساً رفيقاً وقالت : وكذلك يذهب عبثاً ما أنفقت من جهد، ويمضي سدًى ما بذلتُ من حيلة ، وتنصرف ولما يتصل بينك وبيني الحديث، ولما تتصل بين قلبي وقلبك الأسباب !! أقمْ فلا بدّ أن أسألك ، ولا بد من أن تجيب. انظر الى هذه الوسائد ، لقد هيئت لك منذ اليوم فاجلس . وانظر الى هذه الجارية ! لقد أقبلت تحمل شيئاً من شراب . فجلس الفتى وجلست منه غير بعيد . وأقبلت جارية سوداء تحمل ابريقاً وأقداحاً فوضعت ما في يدها وملأت قدحين وقدمت اليه أحدهما وهي تقول : دونك شيئاً من زبيب الطائف يا زين قريش ، ثم قدمت الى مولاتها قدحاً آخر وانصرفت . قالت فاطمة : أنبئت منذ حين أنك قد خطبت آمنة بنت وَهب وأنها قد زفّت اليك . أسعيدٌ أنت منذ أعرستَ ؟ أناعمُ البال أنت منذ استأنفت حياتك الجديدة ؟ قال : وما يمنعني أن اكون سعيداً ناعم البال ، وإنني لأجد عند آمنة اكثر مما كنت أريد ؟! قالت : ولكنك لا تجد عندها المال والثراء ولين العيش . قال : فإن ذلك شيء يكسبه الرجال وينفقون حياتهم في السعي اليه ، وإني لآخذ في أسباب ذلك ، فقد كنت حين رأيتني رائحاً قبل أن يأتي لي أن أروح ، ذاهباً الى حيث أهيىء للرحلة . قالت وقد ظهر عليها الخوف : أمرتحل أنت ؟ والى أين ؟ قال : الى حيث ترتحل قريش . قالت : فإنّ مثلك لم يُخلق لهذا العناء . أقم يا فتى : فإن المال كثير ، والثراء موفور ، وإن لك من ذلك ما أحببت ، وانّ لك من ذلك لفوق ما تحب . إنك لتعرفُ لمرّ الخثعمي ابلاً ترعى خارج مكة لا يكاد يحصيها العدّ ، وانك لتعلم ان لمرّ الخثعمي عند تجار قريش وصيارفهم من الذهب والفضة والعروض شيئاً كثيراً ، وانك لتعلم أن يد فاطمة بنت مُرّ في هذا كله مطلقة ، فليس لي أخ وليست لي أخت ، فثروة أبي خالصة لي

لا يشاركني فيها احد ، وهي لمن سأختاره بَعلا . أفترضى ان تكون هـذا البعل ؟ قال : هذا شيء تتحدث به النفس اليَّ منذ رأيتك وقبـــل ان تذكري لي مالك الضخم وثراءك الموفور . وان فيما أرى من جمالك وعقلك وكمال خُلقك وحُسن منزلك من ختمم ، لما يحبّبك اليَّ ويغريني بما تعرضين عليَّ ، فهل لك في أن تمنحيني سعةً من وقت وشيئاً من مُهلة ، لا لأفكـّر ولا لأروّى فقد فكرت وروّيت ، ولكن لأتحدث في ذلك الى أبي ، ولأنظر كيف يقع ذلك من آمنة ، فإن عهـدها بالعرس حديث ، وعزيز عليَّ أن أسوءها ولما يمض على زواجنا الا أمَدٌ قليل . قالت : لك ما شئت من سعة ، ولك ما شئت من مهلة . وعزيزٌ عليَّ أن أروع آمنة او اسوءها ، فما جنتعليَّ شراً ، ولا قدمت اليَّ سوءاً . ولكنني أحببتك وآثرتك وكرهت لك ما يذهببنضرة كثير من فتيان قريش من هــذا الرحيل المتصل الذي يضيع عليهم الصيفوالشتاء . ولتَعْلمِنَّ آمنــة اني لا أريد لكما الا خيراً ولا آوثركما الا بأحسن ما تُحبـان ، ولن اكون لآمنــة عَلة (١) ، ولأكونن اقرب اليها واعطف عليهـا من هالة بنت وُهَيب . فكِّرْ اذا ما وسعك التفكـير ، وروِّ اذا ما وسعك الترْوِيَة ، وتحـدّث الى اهلك والى أبيك ، وانتظر بالخطبة والزفاف ما شئت ان تنتظر ولكن أقمْ عندي هـذا اليوم ، فإني أجد في جوارك لذة وفي حديثك متاعاً ، واني أحسّ أنك تجـد مثل ما أجد وتحب مثل ما أحب .

ثم دنت منه وأقبلت عليه بوجهها المشرق الجميل ، وهي تقول في صوت هادىء عذب ادنى الى الهمس منه الى الجهر : هلمّ ، فقد خلت لنا الدار ونأى عنا الرقيب ، وقد وهبت لك نفسي فهبْ لي نفسـك ، ولنقضه يوماً حلواً سعيداً هنالك ارتد الفتى عنها وقد أخذه خوف رفيق واشفاق هادىء وهو يقول :

أمّـــا الحرامُ فالمماتُ دُونَـهُ والحِلُّ لا حِـــلَّ فأستبينَهُ
فكيفَ بالأمر الذي تَنوينه

قالت : ما أشدّ ما ترتاع لما لا يروع ! إني لأعرف فيـــك نُسْك أبيك . قال : لا رَوْع ولا نُسك ، ولكن دعيني أنصرف ، ولأعودنّ إليك مع المساء بما ترضين وبما أنا عليه حريص . قالت : أصادقٌ هذا الوعد ، أم حَيلَةٌ تخرج بها مما نحن فيـــه ؟ قال : بل وَعْدٌ صادق أنا على صدقه أحرص منك .

نهض ونهضت ، ومضى متثاقلاً ، وتبعته وهي تقول : لقد صبرتُ أياماً وأياماً ،

---

(١) العلة : الضرة .

فما يمنعني أن أصبر بعض يوم ! اذهبْ سالمــاً وَعُدْ موفوراً ! فلن أبرح مجلسي هذا حتى تعود !

وما كاد يتجاوز باب الدار حتى مضى في سرعة تشبه العــدو ، لا يحسّ وَهَجَ الشمس الذي كان يلفح الوجوه ، ولا يكاد يرى من حوله شيئاً ، قد امتلأت نفسه بما رأى ، وامتلأت بما سمع ، وجاشت في قلبه الآمال العراض . لقــد كان يقيس ما كان يمده أبوه من ثراء بعد طول الرحلة وثقل الجهد وكثرة الاحتمال وفراق الأهل ، إلى ما رتبتْ له فاطمة في غير نأي ولا مشقة ، ولا اغتراب ولا فُرقة ، فكان يأخذه شيء يشبه الدّوار حين يرى هذا الفتى وقد أنضاه سفر غيرُ قاصد، ثم عاد مجهوداً مكدوداً ولم يُفد إلا دراهم ودنانير ؛ وهــذا الفتى الذي يسعى في مكة رَخيَّ البال موفور النعمة ، لم يلقَ جهداً ولم يتعرض لأذى ، وإنما قال كلمة ليس غير ، فإذا هو أكثرُ قريش مالاً ، وأعظمها ثراء ، وأعزّها جانباً ، إليه حماية قريش حــين تأخذ طريقها إلى اليمن .

وأنساه هذا التفكير نفسه حتى مرّ بدُور بني هاشم فلم يَلو على أحد ولم يقف عند شيء ، لولا أنّ صوتاً ناداه إلى أين يا عبد الله ؟ وما هذا المضي إلى غير غاية؟ ولكنه سمع لهذا الصوت فالتفت ، فرأى سمراء تسعى قريبةَ الخطا ، كئيبةَ الوجه ، كاسفةَ البال ، فوقف لها حتى دنتْ منه وهي تقول : لشدّ ما تُسرع في العدو ، ولشد مـا تذكرني بأخيك ! قال : ما أرى أنـك تُريدين هالة أو فاطمة بنت عمرو ؟! قالت : بل إلى فاطمة أريد ، فقد مسها منذ حين ما مسني منذ دهرفانصرف عنها أبوك بعضَ الشيء إلى عروسه الجديدة. ولولا أن لفاطمة فيك وفي إخوتك عزاء عما تجد من هجر عبد المطلب لكان الخطب عليها أثقل ولها أفجع . فأنا أختلف إليها في مثل هــذا الوقت من كل يوم لأسليها وأسرّي عنها . فقد أخــذ عبد المطلب لا يروح إلى هالة . وأنت فما أعجلك عن أبيك وعن إخوتك ؟ أمشوقٌ أنت إلى آمنة ولما يعتدل النهار؟ قال : إنك لتعلمين ضعف سلطان الشوق علينا آل عبد المطلب ، وإن أحدنا ليتحرق شوقاً ويتفطر جَوّى فلا يبلغ منه ذلك أن يتحول عن مجلسه أو ينصرف عن وجه قصد إليه ، ولكن عبد المطلب قــد لقيني منذ اليوم بحديث أعجلني عنه وعــن إخوتي ، ودفعني إلى أن أسرع إلى الرواح . إنــه يريد أن أفصلَ مــع القافلة إلى الشام ، فــلا بدّ من أن أتهيــأ لذلك وأهيىء له آمنــة ، وإني لأخشى أن يكون موقع ذلك منهــا شديداً . قالت : لا بأس عليك ، إن تكن فتىً

من قريش فآمنة فتـــاة من قريش ، وما أظنها إلا هيـأت نفسها لحياتنا جميعـــاً ، وأخذتْ نفسها بالصبر على فراق البعل أكثر العام . اذهب مُصاحباً . فلن ترى من آمنة الا ما يحبُّ أبوك وما ستحب أنت بعد حين وان كرهته الآن . وكانا قد بلغا بيت فاطمة ، فدخلتْ هى ، ومَضى الفتى أمامه لم يعرّج على أمّه ليحييها أو ليقدّم اليها بعضَ العزاء . فلما انتهى الى آمنة في بيتها قامت اليه طلقةَ الوجه مُشرقةَ الجبين ، وتلقته مبتهجةً بلقائه ، ولم تسأله عما أعجله عن قومه . وهل كانت تشكّ في ذلك أو ترتاب ! انما هو الحبّ الذي كان يخرجه من البيت وقد خلت دور بني هاشم من الكهول والشباب، ويرده الى البيت ولما ينهضْ كهول بني هاشم وشبابُهم من أنديتهم ومجالسهم. ولكن آمنة رأت على وجه زوجها شيئاً غير ما كانت قد تعودت أن تراه: رأت حيرة لا تكاد تظهر ، وهمّاً لا يكاد يبين . فهمّت أن تسأله ، ولكنه سبقها الى الجواب فقـال : عزيز عليّ يا ابنة وهب أن القاك بغير ما تعودّت أن ألقاك بـه من البشاشة والبشر ، ولكن حياة قريش لا تعرف البشاشة الدائمة ولا البشر المتصل قالت: فأنت مرتحل اذاً مع القافلة؟ كذلك يريد أبوك، وكذلك يريد اخوتك وكذلك يريد مكانك من قريش. ثم كفكفت عَبرة كانت تريد أن تنهمر، وردّت الى صوتها ما كان قد فارقه من الثبات والهدوء، وقالت وهي تبتسم في كثير من التجلد والصبر : وهل عزّت قريش وأثرَتْ الا بالرحيل ! انما عزّ قريش وثَراؤها ثمرة لجهد الرجال وصبر النساء : أولئك يشقونَ بالرحلة المتصلة وهؤلاء يشقَين بالصبر الطويل . وماذا أعددت لهذه الرحلة ؟ قال : ستتحدث في ذلك بعد حين ، ولكني أريد أن تستقبلي هذا الفراق بصبر لا يشوبه التصبر ، وَجَلَد لا يشوبه التجلّد ، وقلب لا يُفسد عليه الحزنُ أمرَه . انتظري عودتي ، فلعلي أعود موقوراً مُوسراً ، ولعلّ ذلك أن يهيىء لنا حياة أيسرَ وعيشاً أدنى الى اللين مما نحن فيه ، فلو تعلمين ما ألقى من الأذى وما أردّ نفسي اليه من الاحتمال حين أرى جيدَك عاطلا لا تزينه هذه العقود التي تزين أجياد أترابك من نساء قريش ، ولو تعلمين ما ألقى من الأذى وما أردّ نفسي اليه من الاحتمال حين أرى أنك لا تستمتعين من طيبات الحياة بمثل ما يستمتع به غيرك من نساء بني هاشم ! قالت : ومـــا ذاك ، وأين يكونَ الحَلي وأين يكون النعيم من هذه الساعات الحلوة التي نقضيهـا إذا كانت القائلة أو اذا جَنّ الليل !.. وأخذ الحديث يصفو ويعذب ويرقّ ويلين بين الزوجين ، حتى أنسى عبدالله أمرَ الرحلة ، وأنسى حديثَ فاطمة وما وعدته وما صوّرت له من أماني وآمال ، ولم يذكر عبدالله الا هذا الوجه الجميل ، وهذه النفس السّمحة . وهذا الخلق الرّضيّ ،

وهذا الحديث العذب يقع من قلبه مواقع الماء من ذي الغلة الصادي . هنالك وعاد الى وجه الفتى اشراقه وبهجته ، وعاد الى قلب الفتى غرامه وحبه . وهنالك انتصر الشباب على الحزن والسرور معاً ثم أقبل الأصيل فأسبغ على مكة وما حولها رداء خفيفاً من الحزن . وخرج الفتى من عند آمنة راضياً ناعم البال ، ولكن صوتاً بعيداً يبلغ قلبه فيمسه مساً خفيفاً . خرج الفتى ليسعى في تهيئة رحلته ، ولكن هذا الصوت البعيد أخذ يدنو من قلبه قليلا قليلاً :

عرّج علينا فأقمْ ساعةً فعندنا إن شئت روحٌ وراح

ومع أن الفتى قد ولى وجهه شطرَ بني زُهرة ومضى في طريقه إليهم ، فقد شغله هذا الصوت عن بني زهرة وعن عُروضهم وتجارتهم ، وشغله عن القافلة ورحلتها من غد ، وشغله عن نصح أبيه وتشجيع إخوته ، وشغله عن كل شيء . ولم لا ! لقد كان يدنو منه شيئاً فشيئاً ، وكان كلما دنا منه ارتفع واتسع وأخذ عليه كل سبيل ، حتى لكأنه كان يسمعه من كل ناحية ، وينظر فإذا هو في طريقه لا إلى دور بني زهرة ، بل إلى دار فاطمة بنت مُرّ وينظر الفتى فإذا هو أمام الدار ، وإذا هو يدخل من الباب ، وإذا هو يرى الجارية السوداء تلقاه باسمةً وتحييه قائلة: أسرعْ يا زينَ قريش، فقد أبطأتَ وطال انتظار مولاتي لك وينظر الفتى فإذا هو في ذلك المجلس الذي ترك فاطمة فيه آخر الضحى ، وإذا فاطمة قد قامت له وأقبلت عليه ، ولكنه لم يَفطنْ لشيء ما كان ليفوته لو أنّ أمره كله كان اليه حقاً. لم يفطن لهذا الفتور السريع الذي ظهر على فاطمة حين وقع بصرها عليه . على أنه لم يلبث غير قليل حتى أحسّ هذا الفتور وأنكره ؛ فقد تلقته الفتاة فرحةً بلقائه أول الأمر ، ولكنها لم تكد تثبت بصرّها فيه حتى هدأ هذا الفرح ، ودعته في رفق إلى أن يجلس . وما كاد يستقر في مكانه حتى أقبل عليها جذلانَ مسروراً وهو يقول : رأيت أني لم أكذبك ولم أخلفك ، وإنما أقبلت مع المساء ! لئن كانت الدار قد خلت لنا في الضحى لهي الآن أدنى إلى الخلو . ولئن كان الرقيب قد نأى عنا في الضحى لهو الآن أمعن في النأي . ولئن كان النعيم قد عزّ لنا في الضحى لهو الآن أدنى منالا . قالت وقد أطالت النظر اليه والتحديق : ليتك لم تعد ، وليتك إذا وعدتَ أخلفت موعدَك!.. فحدثني ماذا صنعت منذ فارقتني ؛ فاني لا أرى في وجهك ما كنت أراه في الضحى من الإشراق ، ولا أرى في جبينك ما كنت أراه في الضحى من الضوء ، ولا أسمع في صوتك ما كنت أسمع في الضحى من هذه النغمات الحلوة التي كان يملؤها الحنان ! إنما

أنت الآن فتى من فتيان قريش يبتغي لذة ومالاً . إن في أحداث الزمان لعجباً ! ما أسرع ما يتغير الرجال ! قال : وأين ترينَ هذا التغير ؟ وماذا تنكرين مني ؟ لقد كنت بك مشغوفاً في الضحى ، وكنت أدافع هذا الشغف ، ولقد كنت مقبلاً عليك في الضحى ، وكنت أخفي هذا الإقبال . فالآن وقدأرسلتُ نفسي على سجيتها، وتركت قلبي يعرب عما يجد ، ويصوّر ما يحس تلقينني هذا اللقاء ؟! هلم ! لقد خلت لنا الدار ، ونأى عنا الرقيب وأمكنت لنا الفرصة .

قالت : لقد كنتَ تفكر في الضحى أو تريد التفكير ، وكنت تروّي في الضحى أو تريد التروية ، فالآن دعني أفكر ، وهب لي سَعة من وقت ؛ فإني لا أدري ما الذي يصرفني عنك ويخيفني منك . ولو أنصفت نفسك وأنصفتني لانصرفتَ عني الآن ومضيت فيما كنت فيه من تهيئة رحلتك إلى الشام .

قالت ذلك ونهضت متثاقلة ، فمضت حتى اختفت . ولبث الفتى حائراً لا يدري ماذا يأتي من الأمر ، وكأن حجاباً قد أزيل عنه ، وأمراً قد كشف له . فوثب ومضى مسرعاً حتى جاوز الباب وأخذ طريقه الى بني زُهرة . وقضت فاطمة ليلاً ثقيلاً . حتى اذا كان الصبح أقبلت عاتكة تسعى تريد ان تعلم علمها . فرأت فتاة محزونة كئيبة ؛ فلما سألتها عن خطبها قالت :

اني رأيتُ مَخيلةً عرَضتْ	فتلألأتْ بحَنَاتم [1] القَطر
فلمأتها [2] نوراً يُضيء لهُ	ما حولهُ كإضاءة الفجر
ورأيتُه شرفاً أبوء به	ما كل قادح زَندهُ يُوري
لله ما زُهْريّةٌ سلَبَت	ثوبيكَ مااستلبت وماتدري !

قالت عاتكة : لقد ظننتُ أن حبكن في البادية كحبنا في الحاضرة ، وما كنت أحسب انه يتجاوز الشبابَ ، ويرقى الى السحاب !

قالت فاطمة : لا تهزئي . فقد ذهبت آمنة بخير ما كنت أحب !

- ٥ -

البيـن

لم تظهر آمنة ارتياعاً للوداع ، ولا التياعاً للفراق ؛ ولم تصعدْ من صدر آمنة زفرة

(١) الحناتم : السحائب السود .
(٢) لمأتها : ابصرتها ولمحتها .

ولا انحدرَتْ من عين آمنة عبرة ، وإنما كان وجهها هادئاً منبسطَ الأسارير ، وكان صوتها مطمئناً لم تفارقه عذوبته الحازمة حين أقبل زوجها عليها يودّعها آخرَ السحر ، وقد أخذ الفجرُ يتنفس في دعة ، ويمسّ بأصابعه الرقيقة ما حــول مكة من الرّبا . وكان عبد الله يدافع حزناً عميقاً كان يريد أن يظهر على وجهه وينطلق على لسانه ، وكان يتكلّف من التجلد والتصبر ما لا بدّ منه ليكون فتىً من فتيان قريش ، ليس للجزَع على نفسه سلطان ، ولا للضعف إلى قلبه سبيل . ومع ذلك فقد اتصلت عيناه الحادّتان بوجه امرأته الجميل اتصالاً طويلاً ، كأنما كانتا تريدان أن تطبعا صورته الحلوة الهادئة في نفس الفتى لتكون له رفيقاً مؤنساً في سفره الشاق الطويل . ولم تجرؤ آمنة على أن تطيل النظر في وجه زوجها كما كان هو يطيل النظر في وجهها ، إنمـــا كانت عيناها ترتفعان إلى وجه الفتى ، ثم لا تلبثان أن تنخفضا حيـــاء واحتشاماً وصبراً . حتى إذا خرج الفتى ليلحق بإخوته الذين كانوا ينتظرونه غيرَ بعيد ليصحبوه إلى حيث يودّع أباه وأمه ، ثم إلى حيث عسكرت القافلة تنتظر الإيذان بالرحيل ، نظرت آمنة فإذا عيناها لا تبكيان ، وإذا قلبها لا يخفق ، وإذا شخصُها كله هادىء مطمئن ، لا تظهر عليه آيات الجزع ولا أمارات الذهول . ومع ذلك فقــد كانت نفسها تبكي بُكاء مرّاً ، وكان قلبها يشكو شكاةَ الطائر المهيض، ولكن أصدقاء هذا البكاء وهذه الشكاة لم تكن تتردّد إلاّ في أعماق الضمير . كانت آمنة ثابتة للخطب مطمئنة له ، كأنمـــا أذعنت للحوادث إذعاناً ، وكأنما أخذت تروض نفسها على صبر لم تعرفه نساء قريش ، وتُهيىء نفسها لحزن طويل لم تألفه أترابُها اللاتي لم يَكدْنَ يذقن لذّة الحياة .

وما أشرقت الشمس وما ارتفع الضحى حتى كانت القافلة قد بدأت طريقها الطويلة إلى غايتها البعيدة ، وحتى كان كثير من شباب مكة وأحداثها يشرفون من كل مرتفع ويمدّون أبصارهم إلى حيث مضت العير ، ليروا منها ما يستطيعون أن يروه قبل أن تتقطع بينهم وبينها الأسباب .

وكان بيت آمنة في هذا الوقت قد امتلأ بنساء بني هاشم وبني زُهرة ، أقبلن عليها يعزّينها ويسلينها ويعاونّها على احتمال هذا الحزن الجديد . ولكنهـا لقيتهن كما تعوّدت أن تلقاهن من قبل : باسمة في حزن ، نشيطة في هـــدوء ، ولم تُعنهن على أن يُطلنَ الحديث في الوداع والرحيل ، وفي القافلة وما يتصل بها من الأمر ، فأخذن فيما كنّ يأخذن فيه من أحاديثهن المألوفة في كل يوم .

وكان عبد المطلب قد ذهب إلى مجلسه من المسجد كدأبه في كل يوم ، فتلقاه أبناؤه

بالتحية وتلقاهم هو بالدعاء ، وجلس وجلسوا من حوله يتحدثون عـــن القافلة كما كانوا يتحدثون عنها من قبل . وكان الشيخ يسمع لهم ويردّ عليهم ، ولكنه كان يجد في نفسه حزناً عميقاً لاذعاً لم يكن تعوّد أن يجده حين كان يرحل أبناؤه غير عبدالله مع القوافل إلى اليمن أو إلى الشام ، ولا حين كان يرحل هو تاركاً أبناءه وأهله .

وكان الشيخ يحسُّ كأن له شخصين مختلفين : أحدهما حاضر بمكة يأخذ مع أبنائه وغيرهم من قريش بأطراف الحديث ، والآخر غائب عن مكة قد فَصَل مع العير ، وأخذ قصد الشام يصاحب هذا الفتى الذي ارتحل ولم يكن من الحق أن يرتحل لو أنّ عبد المطلب طاوع نفسه واستمع لصوت الضمير . وكان هذا الشخص الغائب يرسل إلى الشيخ صوراً قوية متلاحقة تمثّل الطريق التي تسلكها العير ، والأحياء التي تمر بها ، واستقبالَ هذه الأحياء للعير ، واحتفاءَها بها ومُتابعتها لها . وتمثل له ابنَه آخذاً في الحديث مع رفاقه كاتماً ما يجد من حزن لفراق أهله وإخوته وبلده ، وكثيراً ما كان هذا الشخص الغائب يسبق العير في طريقها إلى الشام ، ويعود إلى عبد المطلب بصُوَر هذه الطريق ، فيثير في نفسه ذكرى ، ويثير في نفسه أملاً ، ويثير في نفسه إشفاقاً ؛ لأنه كان يستحضر ما كان يلقى في سفره إلى الشام من خير وشر ، ومن راحة وجهد . وكان يرى أن ابنه سيلقى مثل ما لَقِي ، وسيحسّ مثل ما أحسّ ، فيبتهج حيناً ويبتئس حيناً آخر .

وكان على هذا كله لا يستطيع أن يدافع خاطراً يُلمّ به من حين إلى حين ، فيصوّر له يوم الفِداء ، ويصوّر له هذا الصراع العنيف الذي كان بينه وبـــين الموت في ذلك اليوم ، والذي كان موضوعه هـــذا الفتى الذي تُرقِل به مطيته الآن نحو بلاد الروم . وكان كلما فكر في ذلك أحسّ خوفاً مرّاً تظهر آثاره على وجهه المشرق الوقـــور ، كأنما كان يسأل نفسه : أفي الحق أنْ قد انتهى هذا الصراع بيني وبـــين الموت ؟ أفي الحق أني قد استخلصت هذا الفتى ووهبته للحياة المتصلة والبقاء الطويل ؟ إنّ الدهر لكثيرُ الغدر مشغوف بالخداع ، وإنّ من حولنا لقوًى خفية إن يكنْ منهـــا الخيِّر المسعِف فإن منها الشرّير الخاتل. وإن هذه القوى الشريرة لتجدُ لذّة سيئة في تضليلنا والعبث بنا ودَفعنا إلى الشيء كأنه الخير كلّ الخير ، حتى إذا اندفعنا إليه وتورطنا فيه ، انصرفت عنا ساخرة منا ، وتكشفت لنا الأحداث عن الشر والنُّكر والبلاء . ومن يدري ! لعلّ قوة خفية من هذه القوى الخاتلة قد خدعتني ومَكرت بي، وخيلت إليّ أنّ في حمل هذا الفتى على الرحلة مع شباب قومه وكهولهم نفعاً له وإصلاحاً، على

حين لم تكن تريد به إلاّ الشر ، ولم تكن تريد به إلاّ النكر .. ولعلها أن تكون قد أرصدت له في الطريق رصداً وكادت له في السفر كيداً. وكان الشيخ إذا ألمّ به الخاطر وانتهى به التفكير إلى هذه الصورة امتلأ قلبه بهمّ شاغل عنيف ، يكاد يقطع عليه حديثه مع من كان حوله من قومه ، ويكاد يُنهضه قائماً ويسعى به إلى حيث يركب أسرع نجائبه ليلحق بابنه ويردّه إلى مكة ، فكان الوقار وحده يكفه عن ذلك ويردّه إلى أن يأخذ نفسه بالصبر والاحتمال، ويحتفظ بما في قلبه من الهمّ سراً مكتوماً لا يظهر عليه أحدٌ غيره ، ولا يناجي به إلا ضميره .

وكذلك اتصلت حياة الشيخ منذ ارتحل ابنه مضاعفةً : يحيا مع أهل مكة ويضطرب فيما يضطربون فيه ، ويمضي مع القافلة ويشاركها فيما تجد من مشقة الرحيل وراحة المقام ، وربما شاركها في أحاديثها وآمالها ، وربما شاركها في خوفها وثقتها . ثم ربما فكر في آمنة فأطال التفكير . وماله لا يفكر فيها وقد كانت في حجر عمها وُهيب ، فلما زُفت إلى عبد الله أصبحت في كَنَفه هو ولا سيما بعد أن سافر زوجها وبقيت هي وحيدة محزونة ليس لها مُسلٍّ عن الوحدة ولا مُعين على الحزن ! لذلك كان الشيخ شديد العطف على هذه الفتاة ، يزورها فيكثر زيارتها ويطيل المقام عندها، ويلحّ على هالة في أن تفعل فعله فتزور آمنة وتستزيرها ، ولا تُخلي بينها وبين الوحدة ما وجدت إلى ذلك سبيلا

وفي الحق أنّ الأسابيع الأولى التي تبعت رحلة عبد الله قد مرّت على آمنه مرّاً سريعاً يسيراً . فما أكثر ما كان يزورها نساء بني هاشم ويستزرنها ! وما أكثر ما كانت تجد عزاءً وراحة فيما كان ينالها من برّ الشيخ وأزواجه، ومن ودّ سمراء خاصة. على أن حياتها كانت كحياة عبد المطلب مقسمة بين مكة وبين الطريق التي كانت تسلكها القافلة . فكانت تحيا حياة النساء من حولها في قليل من العمل وشيء من الحديث وكثير من الصمت ، وكانت تتبع عبد الله في طريق تتخيلها ولا تُحققها . وأنى يكون لها تحقيق الطريق وهي لم ترتحل ولم تَجُب أقطار الأرض ! إنما كانت تسمع أحاديث الناس عما يجدونه في طريقهم إلى الشام وإلى اليمن ، فتصوره لنفسها كما استطاعت ، وترى زوجها في أطوار (١) المسافرين فتبتهج لذلك قليلا وتشقى به كثيراً .

وأصبحت آمنة ذات يوم تجد في نفسها شعوراً غريباً لا تدري أألمٌ هو أم لذة ؟

---

(١) أطوار المسافرين : أحوالهم المختلفة ، الواحد طور وهو الحال .

أحزنٌ هو أم سرور ؟ رأت فيما يرى النائم كأن آتياً قد جاءها فوقف منها غير بعيد، وحاولت أن تتبين شخصه فلم تستطع ، وحاولت أن تحقّق صوته فلم تستطع . وما كانت تدري أكان رجلاً أم امرأة ، وما كانت تدري أكان شيخاً أم شاباً ، وإنما كانت تعلم أنه كان شبحاً مُؤنساً عذبَ الصوت . دنا منها حتى إذا كاد يمسّها تحدّث إليها في رفق كأنه يناجيها ويُسِرّ إليها سرّاً ، فقال : أتعلمين أنك ستصبحين أمّاً ؟ قالت : ماذا تقول ؟ لم أفهم عنك . قال : أتعلمين أنك حامل ؟ قالت لا ! قال : فاعلمي إذاً أنك ستكونين أمّاً لخير مَنْ حملت الأرضُ من الناس . ثم نظرت فلم ترَ شيئاً . ثم استيقظت ونظرت من حولها فإذا الصبح قد أخذ يشرق ويضيء كلّ شيء. هنالك فكرت آمنة فيما رأت وفيما سمعت ، وأنكرت آمنة ما رأت وما سمعت . وسألت نفسها ، فإذا هي لا تعلم أنها قد أنكرت من أمرها شيئاً ، إنما هو اضطراب يسير كان يُلِمّ بها من حين إلى حين قبل العرْس ، فلا غرابة في أن يلمّ بها بعده . وما كانت تقدّر أن الحمل يسيرٌ إلى هذا الحدّ ، لا تشعر المرأة به ولا تجد له عرضاً من الأعراض غير مألوف . على أنها لم تصدّق ما سمعت ، ولم تستطع مع ذلك أن تكذبه، فظلت منه في شك مُريب ، واستشعرت له خوفاً مقلقاً وأملاً لذيذاً . وظلت في حيرتها هذه الحلوة المرّة حتى ارتفع الضحى . وأقبلت إليها نساء بني هاشم وفيهن سمراء وفاطمة بنت عمرو وهالة بنت وُهيب . فقصت عليهن في استحياء ما رأت وما سمعت ؛ وسألتها عن بعض الشيء ، ثم رجحن لها صدق الرؤيا . ووصفت لها سمراء تمائم تقدمت إليها في أن تحملها لتردّ عنها الشر ، وتذود عنها مزعجات الأحلام .

من ذلك اليوم ازدادت نفس آمنة رضاً واطمئناناً ، واحتملت بُعدَ زوجها عنها في شجاعة لا مرارة فيها ولا حرمان . وأخذت تفكر في زوجها مبتسمةً له ، وتنتظر عودته القريبة في شيء من الغبطة والسرور عظيم ، وأخذت تقدّر ابتهاجه حين يعود فيعلم من أمرها ما لو علمه الآن لهوّن عليه السفر ومشقة النوى . وعلقت آمنة ما وُصفَ لها من تمائم ، ولكنها لاحظت أنها ما كانت تفيق من نوم إلاّ وجدت تمائمها وقد انقطعت أسبابُها وسقطت عنها . فلما تكرر ذلك أعرضت عن التمائم ولم تَحفل بها ، وأخذت تنتظر أعراض الحَمْل ، وتهيء نفسها لمثل ما احتملت هالة من ألم حين كانت تنتظر حمزة . ولكنها انتظرت وأطالت الانتظار ، فلم تجد شيئاً ولم تشكُ ألماً ولم تضق بالحياة ، ولم ترغبْ عما كان يُتاح لها من لذّاتها اليسيرة .

ومع ذلك فقد مضت الأيام والأسابيع ، ولم تشكّ آمنة في أن الأحلام لم تكذبها

وإذن فممتازة هي من النساء! يألمنَ ويشكونَ ويَضقنَ بكلّ شيء ، ويزهدن في كل شيء . وهي لا تألمُ ولا تشكو ، وهي لا تضيق ولا تزهد ولا تجد ثقــلاً . وهي تتحدث بذلك إلى هالة وإلى سمراء وإلى فاطمة فينكرنه ، ويعجبن له ويستبشرن به . على أنها لم تكن تتحدث إليهن بكل شيء . وأكبر الظن أنهــا كانت تشفق أشد الإشفاق – إن وصفت لهن كلّ مـــا تجد أو بعض ما تجد – أن يسخرن منها ويتهمن عقلها ويَظنن بها الظنون . فقد كانت آمنة في حياة سعيدة لم تعرف مثلها : ما أحست من رضا النفس واطمئنان القلب وراحـة الضمير مثل ما كانت تحسّ في تلك الأيام ، وما ذاقت من عذوبة النوم ولا استمتعت من جمال الأحلام مثل ما كانت تذوق وتستمتع به في تلك الليالي . إن كانت لتأوى [1] إلى فراشها فيأخذهـــا نوم هادىء رفيق ، ثم تتمثل لعينيها مناظر فيها جمال وروعة وتلقى في أذنيها أصوات حلوة كأنها غناء الملائكة ، وتقضي الليل كله في لذة غريبــة نادرة ، حتى إذا انجلى جبين الصبح أفاقت موفورةَ القوة شديدة النشاط ، لا تجد كسلا ولا فتوراً . وما هي إلا أن تستعذب آمنة أحلام الليل، فتودّ لو قضت وقتها كله نائمة مغرقة في هذه الأحلام . ثم تودّ لو لم يزرها أحد ولم يتحدث إليها أحد لتستحضر في اليقظة ما كانت تبتهج بــه أثناء النوم . ولكنها قرشيـــة تعرف كيف تملك نفسها ، وتضبط أهواءها ، وتلقى الناس بمثل ما كانت تلقاهم به من البشر الهادىء البرىء من الإسراف في الابتئاس أو الابتهاج .

وأخذت قريش تنتظر قفول العير وتستعـدّ له ، وأخذت الأسر تهيء لاستقبال العائدين . وكانت آمنة كغيرها من نساء قريش تنتظر رجوع زوجها ، وتتمنى لهسعيدة مرتين : سعيدةً بمقدمه ، وسعيدةً بهذا النبأ الذي ستلقاه به إذا خلا إليها . ولم يكن عبد المطلب أقلّ قريش انتظاراً للقافلة ، وتحدثاً عنها ، وتحرقاً إلى لقاء بعض من كان فيها . وأقبل البشير فأذّن في مكـــة أنّ مقدّم العير قريب . وخف شباب قريش يلقون العير قبل ان تبلغ الحرم ، واستعد كهول قريش للقاء العير متى دخلت مكة . وازّينت نساء قريش للقاء الأزواج والإخوة والأبناء . وخرج إخوة عبد الله فيمن خرج ، وانتظر عبد المطلب فيمـــن انتظر ، وازّينـــت آمنة فيمن ازّين ، وأعـــدت فاطمة بنت عمرو طعامـــاً غير مألوف . ولكن إخوة عبدالله كانوا أسرعَ مَن عاد من استقبال العير ، ولم يعودوا مبتهجـــين ولا مغتبطين ولم يكد يراهم عبدُ المطلب حتى وقع في نفسه حزن ثقيل .ولم يكد يسألهم عبد المطلب حتى عرف

(١) أي أنها كانت تأوى : و « إن » للتوكيد وقد سكنت .

أن ابنه قد مرض في الطريق ، فتخلف في يثرب ليمرّض عند أخواله من بني النجار . واضطرب الشيخ وبنوه بين حزنهم للمريض وحزنهم لأنفسهم . وخاف الشيخ على آمنة، وخاف أبناؤه على أمهم فاطمة . وقضى الشيخ وبنوه ساعة كانت فيها حيرة سوداء مظلمة ثقيلة الحمل ثم ثاب إلى الشيخ حلمه ، وعاد إليه بصره بالأمور وحزمه في تصريفها ، فلم يفكر في نفسه ، ولم يفكر في آمنة ولا فاطمة وإنما فكر في المريض ، فندب أكبر بنيه ليرحل من فوره إلى يثرب ، ويشهد من قرب تمريض أخيه . وأبى الشيخ أن يهمّ بشيء أو يفكر في شيء حتى يفصل ابنه من مكة . وما هي إلا ساعة من نهار حتى كان أكبر أبناء عبدالمطلب في طريقه إلى يثرب لا يلوي على شيء هنالك رجع الشيخ إلى نفسه ، فذكر يوم الفداء ، وذكر ضحوة ذلك اليوم الذي أغرى ابنه فيها بالسفر وحضه عليه،وذكر يومَ الرحيل ، وذكر خوفه وإشفاقه ، وذكر القوى الخفية الماكرة التي كان يخافها ويشفق منها. وحاول الشيخ أن يردّ إلى نفسه طمأنينتها ودعتها فلم يوفّق . فينهض متثاقلاً كالمأخوذ حتى دخل على سمراء . فلما رأته سمراء لم تشك في أن حادثاً قد حدث ، على أنها تلقته مبتهجة بلقائه في شيء من العتب والمرارة . ولكنه لم يلبث أن أنبأها بما علم وما فعل ، وبأنه مشفق على الفتى ، وبأنه لا يدري كيف يلقى بهذا النبأ أمّ الفتى وزوجه .

قالت سمراء وهي تبكي وقد ذكرت ابنها : فابدأ بنفسك فالقها بهذا النبأ كما ينبغي أن يلقاها به الشيخ الوقور ، فما أحب لك هذا الجزع ، وما أعرف أنه يليق بك أو يجمل منك وما أرى أنّ على الفتى بأساً ، وما أعرف أنه يليق بك أو يجمل منك. وما أرى أنّ على الفتى بأساً ، وما أظنّ إلا أن الفتى قد اتخذ هذه العلة اليسيرة سبباً إلى زيارة أخواله في يثرب والمقام عندهم قليلاً . ومضت سمراء تعزّي الشيخ وتهون عليه الخطب ، والله يعلم ما كان الخطب عليه هيناً ولا يسيراً . ومضت سمراء تعزي أم الفتى وزوجه وتهون عليها الخطب . وقد سبقت إليها به الأنباء .

وكانت طوالاً ثقالاً تلك الأيام وتلك الليالي التي قضاها آل عبد المطلب ينتظرون أنباء المريض ، وكان مراً ذلك الحزن الذي كان يتجرعه الشيخ إذا أمسى، ويتجرعه إذا أصبح ، ويتجرعه كلما تقدم النهار . وكانت غزاراً حارة تلك الدموع التي كانت تسفحها فاطمة في غير هدوء ولا انقطاع . وكانت لاذعة محرقة تلك اللوعة التي كانت تجدها آمنة كلما خلت إلى نفسها وفكرت في زوجها . ولكن ! أكانت تخلو إلى نفسها حقاً ؟! أكان يتاح لها أن تفكر في زوجها حقاً ؟! يا له من جنين هذا الذي

تحمله بين أحشائها ! إنه ليصرفها عن الحزن ، وإنه ليوقع في قلبها عزاء حلواً ، وإنه ليملأ نفسها صبراً جميلا ! ومع ذلك فهذا الجنين أحق الناس بالرثاء إن حدث لمريض يثرب حدث . أليس قد يولد يتيماً ؟ بلى ! لم يبق في ذلك شك . ولا بدّ من أن تؤخذ النفوس باحتماله والصبر عليه ؛ فقد عاد رسول عبد المطلب ينبىء قومه بأنه قد بلغ يثرب فلم ير فيها أخاه المريض ، وإنما رأى قبره في ناحية من دور بني النجار !

وجلس شبابٌ من قريش ذات ليلة عند فاطمة بنت مرّ الخثعمية يسمرون، فانتهى حديثهم إلى مرض عبد الله وموته في يثرب . فلما سمعت فاطمة هذا الحديث غشيت جبينها المشرق سحابةٌ رقيقة من حزن، وتحيرت في عينها دمعة لم تلبث فاطمة أن كفكفتها وهي تقول في صوت كأنه يأتي من بعيد : نذرٌ وفداء ، ورحلة ومرض، وموت في يثرب ؛ ان للقدر في هذا الفتى من قريش لسرّاً !

ثم مضى القوم فيما كانوا فيه من لهوا الحديث .

- ٦ -

القضـــاء

خرج تُبّعٌ من اليمن غازياً في جيش لم تعرف الأرض مثله عدداً وعدة ، وبأساً وحدة ، وغنى وثروة ! فلم يدَع تُبع في طريقه شيئاً أتى عليه إلا احتـواه ، ولا بلداً مرّ به إلا أذلّه . وقد دان له النجد والغوْر ، وأذعن له الحجاز والشام، وعَنَتْ لسلطانه مصر وإفريقية ، وأمعنَ في المغرب حتى مرّ بعمود هِرَقْل، ووطىء ساحل البحر المحيط ، ذلك الذي كانت تُقيم عليه ظُلمات دائمة لا تفرقها نجوم الليل ولا شمس النهار . فلما رأى تُبع أن قد ملَك مَغرب الأرض عادَ أدراجــه قاصداً الشرق ، فأمعن فيه غزواً وفتحاً ، وثلّ العروش وهزم الجيوش، وأسَرَ الملوك واسترقّ السادة العظماء ، وملأ يديه من السبي والمال . وما زال ماضياً أمامه يخرج من نصر إلى نصر ، وينتقل من فوز إلى فوز ، وجيشه المظفر يتبعه فرحاً مَرحاً ، تُغريه الحرب بالحرب، ويُطمعه الظفر في الظفر ، ويُوَاتيه الحظ ، حتى انتهى إلى أقصى الشرق ، ووطىء ساحلَ البحر المحيط ، ذلك الذي تخرج منه نجوم الليل إذا كان المساء ، وشمس النهار إذا كان الصباح .

هنالك انقلبَ تُبَّع راجعاً إلى اليمن، وفي نفسه حزن ألا يُتاحَ له من الظفر أكثر مما أتيح له ، وألا تُهيأ له الوسائل ليغزو هذا البحر الذي انتهى إليه من ساحل إلى ساحل ، ويرى هذه الطريق التي تقطعها الشمس وتقطعها النجوم حتى تأوي إلى حد ساحليه لتنام ، فتنام ولكن في غير سكون ، وتهجع ولكن في غير استقرار ؛ إنما تعبرُ بها زوارق من ذهب وفضة ، وأخرى من لؤلؤ وياقوت . وما تزال هذه الزوارق تعبر في دعة وهدوء حتى تبلغ الساحل الآخر ، فتصعد في السماء لتبعث الضوء والحياة إلى الناس والأشياء . ونفس الإنسان واسعة الأمل بعيدةُ أمَدِ الرجاء ، ولا سيما حين يُواتيها الحظ ، ويُقدّر لها الفوز ببعض ما تريد ، وكانت نفس تُبَّع في أكبر الظن تؤمل فتبعد في الأمل ، كما عملت فأبعدَتْ في العمل ، وكانت تتمنى لو أتيح لها أن تطأ أمواج هذا البحر بهذا الجيش الذي وَطِئَتْ به أكناف الأرض . ومَن يدري ! لعلها أن تظفر بزورق أو غير زورق من هذه الزوارق التي تعبر عليها النجوم . ومن يدري ! لعلها أن تقطع طريق النجوم في السماء بعد أن قطعت طريقها في البحر ، وبعد أن قطعت طريق ضوئها على الأرض . على أنّ نفس تُبَّع لم تكن تعرف اليأس وإن كانت تعرف الإرجاء ! فلم ييأس تُبَّع من غزو النجوم في عُقر دارها ، وإنما أرجأ ذلك إلى أن يتخذ له العدّة ، ويهيىء له الوسيلة ، ويعدّ له الأسباب .

عاد إذاً تُبَّع سعيداً يرافقه الظفر والأمل . حتى إذا كان قريباً من اليمن وقف عند هذه المدينة الصغيرة التي كانت تسمى « يَثْرب » ، والتي ملكها لأوّل عهده بالخروج ، والتي تَرك فيها أحدَ أبنائه يُشرف منها على بلاد العرب. أنكر شيئاً لم يكن يَقدّره ولا يفكر فيه : لم يخرج ابنه للقائه من بعيد ، ولم يخرج للقائه من قريب ، ولم يرَ من حوله استبشاراً بمقدمه ولا اكباراً لمنزله ، وانما رأى حصوناً مغلقة وآطاماً قام عليها الجند كأنهم يتأهبون للقتال . لم يحتج تُبع الى بحث واستقصاء ليعلم ان القوم قد غدروا ومكروا ، وقتلوا ابنه غيلةً ، وأبوْا ان يتسلط عليهم احد غيره ، او ان يسود فيهم من ليس منهم . وهم الآن يستعدون للحرب ، ويتأهبون الدفاع عن أنفسهم مستميتين في ذلك ، مزدرين ما سيلقون من جهد ، وما سينزل بهم من بلاء .

ولم يكن من اليسير على تُبع ان يتبين العواطف التي كانت تثور في نفسه ، والخواطر التي كانت تزدحم في قلبه ، فقد كان محزوناً أشدّ الحزن ، ملتاعاً أشد اللوعة لفقد ابنه العزيز الذي كان يراه زينة الملكه وذخراً لدولته ، وقُرّة لعينه قبل كل شيء . وقد كان مُغضَباً أشد الغضب مُحْفَظاً أشد الحفيظة أن يثور به هؤلاء

النفر من الأوس والخزرج فيخرجوا عن طاعته ويجهروا بمعصيته ، ويقتلوا ابنه ، ويضربوا للأحياء من حولهم مَثَلَ التمرّد والثورة . وكان على هذا كله معجباً بهذا النفر من الأوس والخزرج الذين لم يخافوه ولم يخشوا بأسه ، ولم يمنعهم بطشه العظيم وسلطانه العريض أن يثوروا به ويخرجوا عليه ، ولم يدفعهم مقدَمه ومعه الظفر والأمل ومن ورائه هذا الجيش الضخم المنتصر ، الى ان يسرعوا فيقدموا له الطاعة والمعذرة ، ويلتمسوا عنده العفو والمغفرة ، وانما ثبتوا له كراماً ، وتلقوه أباة للضيم ، حُماةَ للحُرَم ، مستعدين لاحتمال المكروه .

على أنه لم يطل الوقوف عند هذا الاعجاب بالأوس والخزرج ، والاكبار لحفاظهم وذَوْدهم عن الذمار ، وانما مضى يتبعه حزنه وغضبه ، فأقسم ليدمرنّ يثرب تدميراً ، وليسوينّ حصونها وآطامها بالارض هدماً وتحريقاً ، وليجعلنّ ما كان يحيط بها من الحدائق والرياحين ، ومن الشجر والنخيل ، صحراء جرداء كأن لم تعرف من قبلُ خُضرة ولا ظلا .

ولم يُرد ان يستأنيَ بذلك او يُبطيء فيه ، فما هي إلا ان يأمر كتائبه بالزحف ، مقدّراً أن الأمر لن يحتاج الى وقت ولا الى جهد ، ولن يكلف جيشه الظافر مشقة ولا عناء . وأين يقع هؤلاء النفر من الأوس والخزرج من دُوَل عظيمة أفناها ، وبلاد عريضة احتواها ! وأين يقع قادتهم وسادتهم من هؤلاء الملوك الذين يرسفون في السلاسل والأغلال ، وقد جاء بهم أسرى من أقصى الشرق ومن أقصى الغرب ، ليجعلهم ملهى لأهل صنعاء حين يعود الى صنعاء !

ولكن كتائبه لم تكد تتقدم حتى تأخرت ، ولم تكد تهجم حتى ارتدت ، واذا هؤلاء النفر من الأوس والخزرج أشدّ مضاء وأحسن بلاء مما كان يظن ، ومن كل مَن لقي في فتحه البعيد من الجيوش والأجيال . لقد كان استهان بأمرهم واستصغره ، لأنهم لم ينصبوا له الحرب حين مرّ بهم غازياً ، وانما تلقوهُ مذعنين له مؤمنين لسلطانه . رأوا فيه رجلاً منهم فلم يمكروا به ولم يكيدوا له ، حتى اذا رأوا من بغي ابنه وتجبره ما أحفظهم ثاروا للعزة ، وغضبوا للكرامة ، وقتلوا الطاغية وتأهبوا لحرب أبيه .

رأى تُبع هذا فازداد بالقوم إعجاباً ولهم إكباراً ، ونصبَ لهم حرباً تلائم هذا الاعجاب والاكبار . ولكنه لم يلبث ان اشتد اعجابه وعظم اكباره حين أقبل الليل ، فإذا هو لم يبلغ من القوم شيئاً ، وإذا هم يعلنون إليه أن قد أقبل الليل ، وأن حرب الليل ويل كلّ الويل ، وأنهم يُضيفون عدوهم في الليل ، ويقاتلون عدوّهم

في النهار . هنالك لم يتمالك تبع أن عطفته الرَّحِمُ على قومه ، وأخذته الكبرياء بما فيهم من عزة وكرم ، وصاح : « إنّ قومنا لكرام » . ثم أمرَ من أذّن في الجيش بالموادعة حتى يُشرق الصبح .

واتصلت الحرب طويلةً مُضنية بينه وبين هذا الحي من أهل يثرب : يقتتلون أشدّ القتال ما أضاءت الشمس ، ويتوادَعون أحسن الموادعة مـا أظلم الليل ، حتى أخذ السأم يسعى إلى هذه النفس التي لا تعرف السأم وحتى هَمَّ أن يستقبل الصباح بغارة مُطبقة لا تُبقي ولا تذر ، فإما قهرَ القومَ وإما قهره القومُ .

وهو في هذا النحو من التفكير والتقدير ، وإذا حاجب من حجّابه يدخل عليه فيلثم الأرض بين يديه ، وينبئه أن شيخين من هذا الحي الحالف للأوس والخزرج من يهود يستأذنان على الملك ، ويلحّان في لقائه ، ويتقدمان بما يتقدّم به السفراء من حق الأمن والعافية والتكرمة ، فيأمر الملك بإدخالهما . فإذا كانا بين يديـه لم يركعا ، ولم يسجدا ، ولم يلثما أرضاً ، ولم يعفّرا خدّاً بالتراب ، وإنمـا هي تحية فيها الإكبار والإجلال ، وفيها عزّة وأنفة ، وفيها شيء من التواضع والخشوع لم يألفهما الملك من أهل هذه البلاد . فإذا أذنَ لهما بالجلوس وسألهما عما أقبلا به ، قال أحدهما : أيهـا الملك ! لم نأتك سَفيرَين ، ولم نحمل إليك رسالةً من عدوّك ، ولو قد عرفوا أنا نسعى إليك لحالوا بيننا وبين ذلك ، وللقينا منهم شرّاً . قال : فأنتما إذاً لاجئان إليّ ، كارهان للقوم ؟ وحدّثَ نفسه بأنه سيجد عندهما مـا يُعينه على ما يريد بالقوم ومدينتهم . قالا : كلا أيها الملك ! ما لجأنا إليك ولا كرهنا من قومنا شيئاً ، وإنمـا أقبلنا ناصحين لك رفيقين بك ، نريد ، لو سمعت لنا ، أن ننهاك عن هذه الحرب التي لن تُجدي عليك شيئاً ، وأن تبلغك من هؤلاء الناس شيئاً . لقد أدركتَ وِتْرَكَ بمن سقط في ميدان القتال من هؤلاء الناس ، فحسبك ما بلغت ، وانصرف راشداً ، فإنك إن نصبت الحرب لهذا الحيّ ما بقي من عمرك ، وهو طويل ممدود لك فيـه ، لم تجدْ إلى قهرهم سبيلاً . ولقد أبليتَ فأحسنتَ البلاء ، ولقد غزوتَ فأمعنتَ في الغزو ، ولقد أزلتَ الممالك وأمرت المـلوك ، ولقد نصبت لأقوى دول الأرض وأعظمها بأساً ، فلم تثبت لك ولم تمتنع عليك . ثم هـا أنت ذا أمام هـذه المدينة الصغيرة ، وهؤلاء النفر القليلين من قومك ، لا يُتاح لك الظفر ولا يتأتى لك الانتصار . ألم يكن لك في هـذا عبرة تدعوك إلى التفكير وتحملك على أن تسأل نفسك كيف دانت لك الأرض كلها وامتنعت عليك منها هذه الرقعة الضيقة ؟! قال : لقد سألتُ

نفسي وأطلت السؤال ، ولكني لم أجـد له جواباً . ولقد فرحت بكما حين علمت أنكما لا تحملان إليّ سفارة ولا رسالة ، وقـدّرت أنكما ستدلاني على مكان يؤتى منه هؤلاء الناس . قالا : لو شاء الله لأتيَ هؤلاء الناس من كل مكان ، فليست حصونهم ولا آطامهم بالمنيعة المؤشّبة ، وليست السبيل إليهم بالعسيرة ولا الملتوية ، ولكن الله لا يشاء لأمر قضاه . قـال الملك : أفصحا ؛ فإني لا أفهم عنكما منذ اليوم . فما الله ؟ وأين يكون ؟ وكيف له أن يشاء ولا يشاء ؟ هل لكما في أن تدلاني عليه لعلي اتخذ اليه من الأسباب ما يُرضيه أو يسلطني عليه ؟ فتضاحكَ الحبران وقالا : حقاً أيها الملك إنك لا تفهم عنا منـذ اليوم ، فليس الله ملكاً كالملوك ، ولا قائداً كالقادة ولا عظيماً كالعظماء . وما ينبغي لك ولغيرك من الناس أن تسأله عما يشاء أو عما لا يشاء ، إنما ينبغي لك ولغيرك من الناس أن تعرف سلطانه وعظمته ، ثم تُذعن له وتؤمن به ، وترضى بما يريد لا مُجادلاً ولا مُمانعاً قال : فمن هو ؟ أين هو ؟ قالا : هو رب السموات والأرض وهو الذي يتسلط على كل شيء ، ولا يتسلط عليه شيء ، وهو الذي يخلق كل شيء ، وهو الذي منحـك هذا الملك الواسع السلطان العريض ، وهو الذي ان شاء ردّك كواحـد من رعيتك ، وهو الذي ان شاء سلبك ما أنت فيه وسلبك الحياة أيضاً . أرأيتَ إلى ما حولك كيف كان ومَن أحدثه ؟ قال : هذا شيء قلما فكـرتُ فيه أو سألت عنـه ، وإنه مع ذلك لخليق بالتفكير حريٌ بالسؤال ، فمن يكون قد خلق الأشيـاء ، وقدّر لها نظامها ؟ قالا : فاسمع أيها الملك ! فإنا سنقرأ عليك نبأ الخلق كيف كان ، وأمر الخلق إلامَ يصير ثم قرأ عليه صُحفاً من التوراة لم يكد يسمعها ويَفقهُ بعضَ ما فيها ، حتى لان قلبـه وانبسطت نفسه ، وكشف عنه الغطاء ، فقال : يا هذان إنّ ما تقولان لحقّ ، فعلماني علمكما ومُراني قبل ذلك بما أصنع مع قومكما . قالا : أما قومُنا فالرأي أن تدعهم؛ فان الله لم يقدر لك أن تقهرَهم ، ولا أن تملك أرضهم ، إنما ادّخرهم وادخر أرضَهم لشيء سيكون في آخر الزمان تجده عندنا مكتوباً في هذه الأسفار التي نتلوها عليك. قال : وما ذاك ؟ قالا : نبيٌ يخرج من هذا الصوب – وأشارا نحو مكة – فيمكر به قومُه ويأبَون عليه ، ويكيدون له ويُخرجونه من الأرض ، فيأوي إلى هذا البلد، فيجد النصر والمنع ، ويجد العزة والقوة ، وينشر دينه من هذه الآطام فيملأ به الأرض كلها، ويخرج به الناس من الظلمات إلى النور . وما كان الله ليُمكنك من أرض أعدّها داراً لنبيه ، ومهبطاً لوحيه ، ومصدراً لنوره المبين . قال : أوتجدان هذا عندكما مكتوباً ؟

قالا : نعم ، ونجد عندنا مكتوباً أنك ستسمع لنا ، وتقبل نُصحنا لك ، وتنصرف عن هذا الحي ، وأنّ قوماً من هذيل سيلقونك إذا قرُبت من مَخرَج هذا النبيّ ، فيغرونك به وببيت لله فيه ، وسيزعمون لك أنّ في هــذا البيت كنوزاً من الذهب والفضة ومن الدرّ والجوهر . فاحْذَر أن تسمعَ لهم أو تأتيَ ما يدعونك إليه . ولكن اذهب إلى هــذا البيت فأكرمه وعظمه ، وطُف به سَبعاً ، وامنح أهله من العطف والبر والرعاية ما تقدرُ عليه . قال يا هذان إني مصدق لكما، مؤمن بما تقولان، سامع لما تأمران به . ولكني لا أستطيع أن أنصرف إذا لم تصحباني ، فمالي من صُحبتكما بُدٌّ . ولا بد من أن أعلم علمكما كله، ولا بد من أن أتخذكما لي وزيرَين أستنصحكما ، وأستعين برأيكما وفقهكما على ما يَعرض لي من الأمر . قالا : لك ما تحب من ذلك أيها الملك ، فسرْ راشداً فنحن معك .

وأمر الملك مَن أذّن في الجيش بأنه مُرتحل مع الفجر . وارتحل الجند غيرَ آسفين ولا محزونــين . وأيهم لم تكن تضيق نفسه بهذا الحصــار الطويل العقيم ، والدار قريبة وهو إلى أهله مشوق ! فلما قارب الملك مكة أقبل جماعة من هُذيل يستأذنون . فلما أذنَ لهم قالوا : أيها الملك ، إنما سعى بنا إليك نُصحنا لك ، وإيثارُنا لرضاك . قال الملك في نفسه : فهذه نبوّة الَحبرين قد صَدقت . ثم أصغى إلى الهذليّين ، فقالوا: وستمر بمكة وفيها بيت يُعظمه أهلها ، يعبدون ما ادخروا فيه من مال ، وما كنزوا فيه من ذهب وفضة ومن درّ وجوهر ، يطوفون حَوله ويَنحرون له ، وقــد نصبوا عليه الأوثان . قال الملك : فماذا تأمرون ؟ قالوا : ما نحب أن يفلت منك هذا الكنز فلو قد هدمته واحتويت ما فيه وأخذت أهله عبيداً لك ولأهل صنعاء ! قال الملك في نفسه : الآن قد تمتّ نبوّة الَحبرين . ثم قال للهذليــين : لقد قبلتُ نصحكم وسمعت أمركم ، وإني ماض فيما تُريدون ، وسأعرف لكم حقكم علي ، ولكني أريد أن تقدموا معي على أهل مكة فتكونوا أوّلَ من يعمل في هدم هذا البيت . فلم يكد الهذليون يسمعون منه هذا القول حتى أُخــذوا . وظهر على وجوههم الفزع والروع . فلما ألحّ الملك أظهروا من التلكؤ والتردد مالم يدَعْ للريب في أمرهم سبيلاً، فأمر الملك بتعذيبهم حتى يعترفوا بالحق . فلما ألحّ عليهم العذابُ قالوا : أيها الملك ما أردنا بك إلا شرّاً إنا لنكبر هذا البيتَ ونعظمه ، ونرى له علينا حُرمة ، ونعلم أنه لم يحاول أحــدٌ أن يَمسه بسوء إلاّ أهلكه الله . وقــد وَترْتنا في مَخرَجك الأوّل ، فقتلتَ الرجالَ ، وسُقتَ المال ، وسبيتَ الحرائر ، وأذللتَ هُذيلاً ، ولم تكن قد عَرفت الذل . فلما

أعجزنا أن نثأر لأنفسنا بأيدينا أردنا أن نَنكل ثأرَنا إلى من هو أقوى منك ومنا ، فأغريناك بهذا البيت واثقين بأن صاحبه لن يُخلي بينك وبينه، ولن يُمهلك إن حاولتَ الاعتداء عليه . قال الملك : إنما جزاؤكم على هذا الكيد أن تُقطعَ أيديكم وأرجُلكم من خلاف ، ولكني قد قسوتُ عليكم في خَرْجتي الأولى ، وأسرفت فيكم قتلاً وسبياً ، فسأهبكم الآن لأنفسكم ولأهلكم ، ولعلّ الله أن يجعل عفوي عنكم كفارةً لما قدّمتُ فيكم من سُوء ، فاذهبوا فأنتم أحرار !

قال الحَبران للملك : لقد أحسنت أيها الملك حين وضعتَ العفو عند القدرة موضع اليأس والانتقام. وما نشك في أنك تجد لهذا العفو لذةً وراحة ، ولكن لذتك وراحتك لن تَعدل ما نجد من غبطة وسرور ، وقد أخــذ دينُ الله سبيله إلى نفسك ، وبسط سلطانه على قلبك ، فأنزل فيه اللين منزلَ القسوة ، والرحمةَ مكانَ العنف والشدة ، وكنا نحن وسيلته إلى ذلك . وإنا لنرجو أن يغفر الله لنا بهـذا السعي بعض ما قدمنا من سيئة في حياتنا . قال الملك : أومثلكما يُقدم السيئات أو يقترف الآثام ، ومـا رأيت خيراً منكما ولا أهدى إلى الحق ؟! قال الحَبران : أمعنْ أيها الملك في قراءة كتب الله وتدبرها ، وأنعمْ أيها الملك النظرَ فيما حولك من خلق الله وفيمن حولك من الناس ، فسترى أنّ الإنسان صغير مهما يكبر ، ضئيل مهما يَعظم ، ضعيف مهما يَقو ، مُعرض للخطيئة مهما ينصح لنفسه ومهما يأخذها بالمعروف ويجنبها المنكر . قال الملك وقد كبرَ الحبران في نفسه : ليتني عرفتكما في أوّل العمر ومُبتدأ الحياة إذاً لاجتنبتُ كثيراً من الشر ، ولتنكّبت كثيراً من الذنب . ولكن سأكون عندما تُحبان ، ولن تَريا مني منذ اليوم إلا ما يُرضيكما .

وأقبل الملك على مكة فدخلها خاشعاً منيباً ، وطاف بالبيت وأعظم أمرَه ، ونَحرَ للناس وأطعمهم ، وأذاع فيهم الخير والمعروف . فلما كان من الغد قال للحبرين : إني أريتُ أن أكسوَ هذا البيت . قالا : فافعل ما أمرت . فكساه خَصفاً(١) . ومضى يُعظم البيت ويُكرم أهله بياضَ يومه . فلما أصبحَ قال للحبرين : إني أريتُ كأنّ هذه الكسوة لا تليق بهذا البيت . قالا : فاكسه خيراً منها. فكساه وَشياً ، ومضى نهاره يُعظم البيت ويُجزل المعروفَ لأهله . فلما أصبح قال للحبرين : إني أريتُ كأنّ هذه الكسوة لا ترضي الله . قالا : فاجتهد في إرضائه ما وسعك الاجتهاد . فكساه حريراً وديباجاً ، وزينه بالذهب والفضة والجوهر ، وفرّق العطـايا بين الناس . ثم

(١) الخصف : سفائف تسف من سعف النخل .

أصبح فقال للحبرين : لم أرَ الليلة شيئاً . قالا : فقد رَضيَ اذاً رب البيت .

وارتحل الملك بعد ذلك الى اليمن وقد سبقته اليها الأنباء بأنه قد ظفر ظفراً لم يظفره ملك من قبله ، وسبقته اليها الأنباء بأنه قد صبأ عن دينه وترك عبادة الآلهة التي كان يعظمها ويسعى لها . وكان أهل اليمن قد تأهبوا للقائه في َحفل حافل وزينه بارعة بالغة . فلما انتهت اليهم الأنباء بأنه قد َصبأ[1] تنكروا له ، وأبوا إلا أن ينصبوا له الحرب ، وأن يصدّوا عن بلادهم ويردّوا عن حمير شر هذا الدين الجديد الذي جاءهم به من يثرب .

فلما بلغ الملك أطرافَ اليمن لقيته طلائع الأقيال[2] والأذواء منكرة له مُزورّةً عنه . وقال قادتهم : لقد فارقتنا وأنت أبر اهل اليمن باليمن ، وأحب حمير لآلهة حمير ، وها انت ذا تعود إلينا وقد آمنتَ لإله لا نعرفه وجحدت آلهتنا ، وقد استوزرتَ غريبين من عدوّنا تسمع لهم وتطيع ، واعرضت عن رأي الأشراف والقادة من الأقيال والأذواء ؛ فلن ُنخلي بينك وبين هذه البلاد التي انكرت اهلها وجحدت آلهتها. فارجع أدراجَك فاتخذ لك ملكاً حول هذا البيت الذي لم يرضكَ أن تكسوه الوشي ، حتى كسوته الحرير والديباج ، أو اتخذ لك مُلكاً في يثرب حيث دَم ابنك ينتظر من يثأر له ، وحيث صدى[3] ابنك يدعو من يسقيه . قال الملك : يا قوم! لا تعجلوا ولا تسرفوا على أنفسكم ، ولكن اسمعوا لي واسمعوا لهذين الحبرين ، فلو قد علمتم ما نعلم ورأيتم ما نرى ، لسلكتم سبيلنا ، واقبلتم ديننا ، ولآمنتم بإلهنا الذي خلق السموات والأرض ، وآمن له من فيها من الإنس والجن ، ومن الحيوان والطير ، ومن الماء والهواء ، ومن الزهر والشجر . قالوا : ما نريد أن نسمع لك ولا لهما ، فانصرفوا عنا . قال الحبران للملك: فما يمنعك أن تدعوهم إلى ما يتداعون إليه إذا شجر بينهم خلاف أو كانت بينهم فرقة ؟ قال الملك : أوَ تعلمان هذا ايضاً ؟ قالا : نعم أليسوا يختصمون إلى النار إذا اختلفوا ؛ فخاصِمْهم إليها . قال الملك . يا قوم ! هذان الحبران يدعوانكم إلى الإنصاف ويأخذانكم بالعدل . إنكم لتختصمون فيما بينكم فتحتكمون إلى ناركم تلك المقدسة ، التي تخرج من أعماق الغار لها زفيرٌ وشهيق ، وقد

(١) صبأ : خرج عن دينه .

(٢) الأقيال : ملوك حمير . والأذواء : ملوك اليمن .

(٣) كانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لم يدرك بثأره تصير صدى ـ ويدعى الهامة أيضاً ـ فيزقو عند قبره يقول : اسقوني حتى يدرك بثأره .

ارتفع لهبُها في السماء ، فلا يكاد يراهــا الظالمُ حتى يصعق ، ولا يكاد يراها المظلوم حتى يُحِس المنعة والقوّة . هلمّ فلنحتكم إليها ، فأينا استطاع أن يثبت لها ويصبر على حرها فهو صاحب الأمر ، وأينا فزع منها وفرّ من أوارها فهو الظالم المعتدي . فأدار القوم أمرهم بينهم ساعة ، وقال بعضهم لبعض : لقد دعاكم الملك إلى الإنصاف ، ومــا ينبغي أن نأبى على ملكنا ما لا يأباه أحد منا على صاحبه ، ومــا لا تأباه ملوك اليمن على سُوقها ، فتعالوا نُجبه إلى ما يدعونا إليه ، وتعالوا نخاصمه إلى النــار . ثم أجمعوا أمرهم ليختصمُنّ إلى النار إذا كان الغد، ولـيُقْبِـلَنّ كل فريق معه حجته وسلطانه.

وما أشرقت شمس الغد حتى كانـ أقيال حمير وأذواؤها قـــد أقبلوا في عددهم وعُدّتهم ، وفي حفلهم وزينتهم يحملون أوثانهم وأصنامهم ، وأقبل الملك ومعه الحبران قد تقلدا مصاحف التوراة . وكانت نارهم المقدسة لا تُرى ولا تُحس من بعيد ، وإنمــا تُجيب إذا دُعيتْ ، وتخرج إذا نُوديت . فلما دَنوْا من الغــار الذي كانت تقيم فيه ، دَعوْا وأطالوا الدعاء ، ونادوا وألحوا في النداء . وإنهــم لفي دعائهم وندائهم ، وإذا دُخانٌ كثيف ضيق يخرج من الغار كأنه السهم ، فلا يبلغ الهواء حتى يمتـــدّ طولاً ويتسع عرضاً ، وحتى يملأ الجو كثيفاً ثقيلاً ، قد حجب الشمس ، وكاد يأخذ أنفاس الناس ؛ وما يزال الدخانـ يخرج من الغار . ثم يمتد في الجو وينتشر ، وحمَير تتقهقر كلما ألحّ عليها ، والملك والحبران قد ثبتوا في مكانهم لا يجدون ألماً ولا يلقون ضرّاً حتى أخذ صوتٌ يسمع كأنه فَحِيحُ الحيات ، ثم أخذ هذا الصوت يعظم كلما دنا من فوهة الغار ؛ وإذا زفير وشهيق ، ثم لهب يندلع من الغار ولا يلبث أن يحيط بكل شيء ، ويلتهم كل شيء؛ وحمير جادة في الهرَب قد تركت أوثانها وأصنامها، وتخففتْ من زينتها وسلاحها ، والنار تتبعهم مُلحة في اتّباعهم ساعةً من نهار ؛ ثم أخذت النار تتراجع شيئاً فشيئاً حتى دنت من فم الغــار ، وإذا هي تقصر وتضيق وتتضاءل حتى كأنها لسان الغار ، ثم لا تلبث أن تختفي كأن الغار قد أطبق عليهـــا شفتيه ، وإذا الشمس مشرقة والجو صفو ، والملك والحبران قائمــون في مكانهم لم يُصبهم أذى ، ولم يَمسَسْهم ضر ، ولم تتغير نضرة وجوههم ، ولم يُفارق ثغورهم الابتسام . وتثوب حمير إلى ملكها مسرعةً مُذعنة ، وقد افتقدت آلهتها وسلاحها وزينتها فلم تجد شيئاً مــا ؛ لأن النار التهمت كل شيء .

هنالك هادَتْ حميرُ وآمنت للملك والحبرين . ومنذ ذلك اليوم استقرّ في بــــلاد اليمن كتاب من كتب السماء .

- ٧ -

الرِّدة

عاش تبّع ما شاء له الله أن يعيش ، ومات تُبع حين قضى الله عليه الموت . وكان قد أنفق حياته منذ عـــاد إلى اليمن في صلاح ونسك ، وتفقّه للتوراة ونشر للدين . فلما فارق هذه الدنيا ، نهض بملك حمير من بعده اكبر ابنائه حسّان ، وكان تقيّاً ، وكان ورعاً ، وكان ديّاناً ، وكان قد ورث عن أبيه وعن أجداده حبّاً للغزو وكلفاً بالفتوح . وكان الناس يتنبأون قبل تهوّد أبيه بأنه سيكون أبعد ملوك اليمن أثراً في الغزو والفتح ، وأعظمهم بسطة في الملك والسلطان . فلما هاد تبع اقتفى حسان أثره ، فظهر عليه حب للنسك وانقطاع للعبادة ، ورغبة في الفقه بالدين ، خدع الناسَ عنه ، وغير رغبتهم فيه . حتى إذا نهض بأمور الملك لم يشكّ أصحابه في أن اليمن ستنفق أياماً هادئة وادعة ، تنعم فيها بالأمن والسلم واللين . ولكن الميل القديم الذي كان يجده حسان إلى الحرب والتسلط ، والميل الجديد الذي كان يجده إلى الفقه والدين ، لم يلبثا أن التقيا وامتزجا ، وأصبحا ميلاً واحداً يوفق بـــين هاتين النزعتين المختلفتين أشد الاختلاف . وأصبح حسان ذات يوم ماضي العزم ، شديد البأس ، عظيم النشاط ؛ فلم يكد يخرج للناس حتى دعا إليه الحبرين ، وكان لهما معظماً يستشيرهما في كل ما يأتي من الأمر . فلما أدخلا عليه قام لهما وأدنى مكانهما ، ثم قال : قد علمتما أني أعظّم من أمركما ما كان يُعظّم أبي ، وأشاوركما في كلّ ما أنشط له من همّ قريب أو بعيد . وقـــد جعلت منذ أيام أسمع داعياً قويّاً ملحاً لا يفارقني يقظان ، ولا يفصل عني دائمـــاً ، وهو يُهيب بي في كل لحظة أن جَرّد نفسك وجيشك لجهاد الكافرين ونشر الدعوة إلى الدين حتى يؤمن بكتاب الله أهلُ الشرق والغرب ، وحتى يُذعنَ لسلطان الله كل جيل في الأرض ، وحتى يُصبح حُكم التوراة حُكم الناس جميعاً .

وقد أنكرت دعوة هـــذا الداعي أوّل الأمر ، فلم يزده الإنكار إلا إلحاحاً في الدعاء . وأبيتُ عليه بعد ذلك فلم يزده الإباء إلا إصراراً على ما كان يدعوني إليه . وإني لأتحدث إليكما الآن وصوته الملحّ الحازم يملأ سمعي وقلبي وعقلي ، ويكاد يلهيني عنكما ويصرفني عما أريد أن أقول لكما . وقـــد عزمت بعد طول التفكير أن أستجيب لهذا الداعي ، وأن أخرج بالجيش غازياً في سبيل الله ما يليني من الأرض ؛

فإن قضى الله لي بالنصر مضيت أمامي حتى يأذن الله لي بالوقوف . ثم سكت ينتظر جواب الحبرين وهو يقدر أن كلامه قد وقع منهما موقع الرضا . ولكن َعظُمَ دهشه حين سمعها ينصحان له بالقعود ويلحان عليه في ألا يسمع لهـذا الصوت ولا يستجيب لهذا الدعاء ، وهما يقولان له : أيها الملك ؛ إياك والغرور الذي يصيب الملوك إذا عظم بأسهم ، واشتدت قوتهم ، ودانت لهم الأرض بمن فيها وما عليها ، فيغريهم بالحرب ، ويدفعهم إلى الفتح ، ويحبب إليهم العدوان . قال : أعدوانٌ أن أنشر دين الله وآخذ الناس بالإذعان له والإيمان به، وأذودَ عنهم شر الأوثان وأطهّرهم من رجس الشيطان؟! قد دعوتكما وما أنتظر منكما إلا حثّاً لي على أن أمضي فيما عزمت عليه ، فإذا أنتما تصدانني وتخذلانني ، وتؤثران لي حياة الخمول والجمود والتقصير . قالا : فإنا نخشى أن يكون هذا الصوت الذي يدعوك ويلح عليك صوت الغرور والكبرياء ، لا صوت الطاعة والتقوى ، وأن يكون هذا الحديث الذي يلقيه في ُروعك تزييناً لما ورثت عن آبائك حب الغلب وبسط السلطان ، يدفعك إلى الحرب باسم الدين، ويصور لك الفتح في صورة الدعوة إلى الله . ونحن نجد فيما عندنا من العلم أن هذا الدين لا ينشر ولا يذاع على هذا النحو الذي تريد أن تنحوه ونجد مكتوباً عندنا في الكتب أن الدين الذي سيبسط سلطانه على الأرض فيملؤها عدلاً بعد ما ُملئت جوراً ، ويملؤها عزّاً بعد أن ُملئت ُذلاً ، ويردّ إلى الإنسان حريته وكرامته ، ويرقى بنفسه إلى أسمى ما تطمح إليه من الكمال ، وُيحقّق الأخوة بين الناس وُيلغي ما بينهم من الفروق ، لن يخرج من صنعاء ، وإنما سيهبط به الوحيُ في آخر الزمان على رجـل بمكة من قريش ، ثم يخرج من يثرب فيطبّق أقطار الأرض . فإذا شئت أيها الملك ، فاسمع لنا وأعرض عن داعيك ؛ فإنه لا يدعوك إلى خير . قال الملك : ما رأيت كاليوم صدّاً عـن الحق ، ولا صرفاً عـن الواجب ، ولا تثبيطاً للهمم ! وهمّ أن ُيعرض عن الحبرين ، ولكنهما قالا له : فكر أيها الملك فيما أنت مقدم عليه؛ فقد أدخل أبوك دينَ الله في هذه البلاد وأذاعه فيها ، ومضيتَ أنت على سنته دهراً ، ولكنك لم تبلغ من ذلك ما ينبغي ؛ فما زالت في حمير قلوبٌ لم ُتخلص لهذا الدين، وما زالت في أعماق اليمن أوثانٌ منصوبةٌ تهفو إليها قلوب قوم لم تبلغهم دعوة الله الله بعدُ ؛ فثبّتْ هذا الدين في بلادك قبل أن تخرج به إلى غيرها من البلاد ؛ فذلك آمنُ لك ، وأحرى ألا تؤخذ على غرّة ، وألا ينتقض عليك قوم ليس لهم من الإيمان واليقين مثل ما لك ، أو يغدر بك قوم ما تزال في نفوسهم بقية من حنين إلى دين آبائهم الأولين . قال الملك ُمعرضاً عنهما : قد سمعتُ

قولكما وسأنظر فيه . ثم لم ينظر بعد ذلك إلا في التهيؤ للحرب والاستعداد الرحيل . وانقطع الحبران عـــن الملك ولم يَدْعهما الملك إليه . وأذّن مؤذن الملك في الجيش بالرحيل . وفصَل الملك عن صنعاء لم يلقَ الحبرين ولم يودّعها . ومضى الملك أمامه في طريق سهلة وشعوب سلم لا يلقى خوفاً ولا يتعرض لكيد حتى بلغ البحرين .

فلما أحس قادة الجيش من الأقيال والأذواء أن الأمد يبعدُ بينهم وبين اليمن من يوم إلى يوم ، وأنهم مشرفون على بلاد لم يألفوها ، وأنهم يُدفعون إلى حرب لا يفقهون غايتها كما كانوا يفقهون غايات الحرب من قبل ، وانهم سيضيّق عليهم حين يظفرون فيما تحتوي ايديهم من سبي ومال، ضاقوا بهذه الرحلة ، وثقلت عليهم هذه الحرب . وطال عليهم عمر الملك ، فسعى بعضهم إلى بعض وتحدث بعضهم الى بعض ، وما هي إلا أن تجتمع كلمتهم على الكيد لحسان والبغي عليه ، فيلقون اخاه عمراً ، وكان خفيف الحلم سريعاً إلى اللهو متعجلا الملك ، لم تخلص نفسه لهذا الدين الجديد ، ولم تطب عما كان لحمير من سُنة موروثة وعـــادة مألوفة وتراث قديم . فلما أظهروه على ما في أنفسهم ، وعاهدوه على أن يملكوه إن قتل أخاه ، ولم يقتضوه على ذلـــك أجراً إلا أن يردّهم الى بلادهم ويرفع عنهم ثقل هذه الحرب ، نشط لذلك وجدّ فيه . ولم يجد من خاصته وأصفيائه من يرده عن ذلك او يخوفه من شره إلا رجلاً واحـــداً من الأذواء يقال له ذو رُعين ؛ فإن هذا الرجل خوّف عمراً عاقبـــة البغي وحذّره من العدوان على الاخوان ، وجدّ في صرفه عن سفك دم أخيه : يذكره بالرحم حيناً ، وبشرف الملوك حيناً آخر ، وبحرمة الدين مرة ثالثة ، ولكنه لا يجد منه إلا إعراضاً يكاد يبلغ الغضب ويثير الريبة وسوء الظن . فلما يئس منه دفع اليه كتاباً مختوماً وقال له : احفظ لي هذا الكتاب . ثم أتمّ عمرو كيده ، فأغمد النصل في صدر اخيه ، وارتقى على جثته الى العرش ، وأسرع بالجيش قافلاً الى صنعاء ، معلناً إبطال ما كان أبوه وأخوه قد أقاما من معالم الدين الجديد ، مزمعاً قتل الحبرين ، ولكنه لم يجدهما فقد هلكا بعد ان فصل الجيش من صنعاء .

ولم يستمتع عمرو بالملك ولا ذاق لذة السلطان : فقد أخذ الحزن يلزمه منـذ بلغ صنعاء ، لا يفارقه ما ابيضّ النهار ، ولا يفارقه ما اسودّ الليل . وأخذ هـذا الحزن يشتد ويقسو . وأخذ هذا الحزن يعظم ويطغى ، حتى ذاد عن نفس الملك كل راحة ، وردّ عن عين الملك كل نوم ، وأحاط شخص الملك بصور مروعة مزعجة : فكان تارة يرى حيات عظاماً ذوات رؤوس عدة يخرج من أفواهها اللهب وهي تسرع اليه

فاغرة أفواهها ، كأنما تريد ان تزدرده ازدراداً . وكان يرى تارة اخرى انهـــاراً من الدم قوية عنيفة ، تنحدر ولها هدير وزئير ، كأنما تريد ان تأخذ عليه كل مكان وان تلتهمه التهاماً . وكان يرى تارة اخرى اشباحاً تدنو منه لتبعـــد عنه ، ثم ترتد اليه فتطيف به وتدور حوله وقد كشرت عن انياب حادة، ومدت اظافر دامية ، كأنما تريد ان تنهسه [١] نهساً وتمزقه تمزيقاً . وكان في اثناء هذا كله يسمع أنين أخيـــه ، ويرى الدم يتفجر من صدره كما يتفجر الينبوع الضئيل القوي من الصخرة الصلبة الملساء. وأخذ الملك يستشير الأطباء فلا يجد عندهم دواء ، ويستعين الكهان فلا يلقى عندهم عوناً ، ويسأل العرافـــين فلا يظفر منهم بجواب مريح . وما زال فيما هو فيه من استشارة واستغاثة وسؤال حتى أُدخل عليه رجل حكيم من اقاصي اليمن. وقص عليه ما يأتي من الأمر ، وصوّر له الملك ما يلقى من الشر ، وألحّ عليه الملك في ان يجـد له من هذا الضيق مخرجاً ومن هذا الأذى شفاء . واطرق الرجل الحكيم غيرَ قليل ، ثم قال في صوت حازم وقد ظهرت على وجهه صرامة الجد والبأس : ايهـا الملك ، لأنبئنك بالحق وان كان من دونه الموت، فما تعودت كذباً ولا ميناً . انه والله ما قتل رجل اخاه ، ولا غمس رجل يده في دم ذي رحم إلا سُلط عليه الحزن والغم ، ووُكّل به الفرق والأرق حتى يقضي . قال الملك انصرف راشداً فلا بأس عليك ! انما السبيل على هؤلاء الذين كادوا الكيد ، ومكروا مكرهم السيء بي وبحسان . ثم أمعن في خاصته ومشيريه قتلاً وتمثيلاً حتى انتهى الى آخرهم ذي رُعين . فلما قُدِّمَ هذا القاتل للقتل قال للملك:ان لي عندك براءة. قال الملك:وما ذاك ؟ قال ذو رُعين : ذلك الكتاب المختوم الذي دفعته إليك . وأخرج الملك الكتاب وقرأ فيـه هذين البيتين :

ألا من يشتري سهراً بنومٍ سعيدٌ من يبيت قريرَ عين
فإما حِمْيَرٌ غدرت وخانت فمعذرةُ الإله لذي رُعين

قال الملك : لا بأس عليك ، فقد نصحت وبررت وبرئت ذمتك . فليتني قبلتُ نصحك واستمعت لدعائك ! قال ذو رُعين : وليت أخاك قبل نصح الحبرين. وأصبح القصر ذات يوم فإذا عمرو ملقى على الأرض مُضرَّجاً بدمائه ، قد اغمد في صدره ذلك النصل الذي أغمده في صدر أخيه ... هناك تفرق أمر حمير وانتقض سلطانها، وعادت الى شر ما عُرفت به في قديم الزمان من الفساد والاضطراب .

---

(١) النهس بالسين : كالنهش بالشين .

- ٨ -

الطاغية

وكان عمرو قد أصهرَ إلى قَيل من أقيال اليمن يقال له ذو الشناتر ، فظٌّ غليظ القلب ، جافي الطبع، سيىء الخلق مدخول الضمير . على أن خصاله هذه لم تكد تبدو منه للناس حين كان قَيلاً من الأقيال لا ينبسط سلطانُه إلا على المخلاف الذي كان يعيش فيه ، فقد كان ماهراً عظيم المهارة ، مُداوراً شديدَ المداورة ، يلقى الرجلَ فيخدعه ويُخيل اليه أنه اكرمُ الناس واصدقُ الناس، وارحمُ الناس ، وأوفاهم واشدهم استقامة واعتدال مزاج . لذلك انخدع فيه اقرانه من الأقيال والأذواء ، وحسنَ فيه رأي تُبع حتى قدمه وعظمه واختار ابنته تُماضر زوجاً لابنه عمرو. وكانت تماضر بارعة الجمال ، ذكية القلب ، رضية النفس، شديدة الحنان أنكرت في زوجها الغدر، ولكنها لم تجرؤ على أن تباديه بهذا الإنكار ، ولو قد فعلت لأصابها شرٌّ عظيم . فلما خضّب زوجها يده بدم اخيه نفرت منه وازْوَرّت عنه ، ولكنها على ذلك أظهرت طاعة وإذعاناً . حتى إذا سُلطت على عمرو شياطين الانتقام فأخذ منه الفزعُ والجزَع وألح عليه البؤس واليأس ، ثابتْ إلى تماضر رقةُ قلبها ورضا نفسها وميلها إلى الحنان ، فلزمت زوجها ورفقت به ، وآست زوجها وعطفت عليه . حتى إذا حلّ به الموت كانت وحدَها التي سكبت عليه الدمع وذاقت لموته الحزن والغم. وكان لها صبيٌّ لم يبلغ الرابعة ، وكان لزوجها أخ لم يبلغ السابعة ، فجمعت أخا زوجها إلى ابنها، وقامت على تربية الطفلين ، فمنحتهما من الحب والحنان ما كان يملأ قلبها الرّحب الرقيق ، ووقفت عليهما البر والرفق والعطف ما تمنحه الأم أبناءها ، وما تقدمه الزوج إلى زوجها . ولو قد خُيّرت في ذلك الوقت لما تمنت إلا أن تُترَك في ناحية من نواحي القصر أو تنحاز الى مخلاف من مخاليف اليمن بعيد عن صنعاء ، ومعها هذان الصبيان ، تسعد بهما ويسعدان بعطفها وبرّها . ولم تكن تفكر لنفسها ولا لأحد الصبيين في ملك ولا وراثة ، إنما كان همُّها أن تنفق نشاطها كله في العناية بهذين الطفلين ، وان تجد جزاءها على ذلك في هذه النظرات الحلوة التي كانت ترتفع اليها من أعين هذين الصبيين فتملأ قلبها غبطةً وحبوراً ، وفي هذه الأصوات العذبة التي كانت تقع في أذنها موقع

الموسيقى وتصيب من قلبها مواقعَ الرضا والابتهاج . ولكنّ أباهـا فكر في الملك لها ولابنها في ظاهر الأمر ، وفكر فيه لنفسه في أقصى ضميره ودخيلة قلبه . وما هي إلا ان اعلن ان حماية الأسرة المالكة قد صارت اليه ، وأنه ناهضٌ بها على احسن ما ينهض به الأوصياء بأمر الذين يقومون عليهم من القاصرين . وأظهر ذو الشناتر أول أمره سيرةً حسنةً ونهجاً صالحاً في الملك . ولكن تفرّق حمير ، وانفصال اطراف اليمن عن صنعاء ، واستبداد الأقيال والأذواء بما كان في ايديهم من المخاليف والقصور ، وطموح العظماء بين هؤلاء الأقيال والأذواء إلى سعة الملك وبسط السلطان ، كل ذلك اغراه بالشدة ودفعه الى البأس .

فما أسرع ما قَبِل الإغراء واندفع الى الطغيان ، واذا هو يصطفي لنفسه من الجند والقادة قوماً يؤثرهم بالمودة ، ويختصهم بالمعروف ، ويسبغ عليهم النعمة ويُجزل لهم العطاء ، ثم يستعينهم على غيرهم من الجند والقادة . وما يزال يغري ويغوي ، ويمكر ويكيد ، حتى تخلص له صنعاء وما حولها من الأرض ؛ ثم إذا هو يضرب بمن اطاعه من عصاه ، ويبعث الهيبة والخوف كما يبعث الرغبة والرجاء ، حتى يعظم أمره ، ويظهر أشرافُ حمير له الطاعة إشفاقاً منه أو أملاً فيه . وانفق ذو الشناتر أعواماً على هذا النحو رفيقاً شديدَ الرفق بمن رجا منه الخير وانتظر منه النفع ، عنيفاً شديد العنف على من يئس من نُصحه ولم يتوسم فيه خيراً ولا نفعاً . حتى إذا دانت له اليمن كلها ، وآمن له العظماء والأشراف ، ولم يبق له بينهم مُنازع أو مدافع أظهر ما كان قد أخفى من أمره ، وأعلن ما كان قد كتم من سره ، فاغتصب الملك لنفسه خالصاً من دون ابنته وسِبْطه ، ومن دون أهل البيت من أبناء تُبع وذويه . وألقى بتماضر والصبيين في قصر بعيد هو بالسجن أشبه منه بالقصر ، وأقام عليهم الحراس والرقباء يعدّون عليهم ما يقولون وما يعملون ، ويضيّقون عليهم فيما كان ينبغي أن يتسع لهم من سُبل الحياة .

وفرغ ذو الشناتر بعد ذلك للأشراف والعظماء ، فأعمل فيهم مكره وكيده ، ثم سلط عليهم بطشه وبأسه ، وأخذ يطغى عليهم ويسيء السيرة فيهم ؛ فإن أذعنوا لطغيانه واستكانوا لسوء سيرته أمعن في الطغيان وأسرف في سوء السيرة ، وان أظهروا نبوّاً أو همّوا بإباء الضيم ، بطش بهم بطشاً عنيفاً لا يُبقي ولا يذر . وما هو إلا عام وبعض عام حتى كان ذو الشناتر قد أراح نفسه من سادة حمير وذوي المكانة والسن فيها . ثم نظر فلم يرَ لنفسه قريناً ولا ضريباً ، فازداد لنفسه إكباراً وبها إعجاباً . وازداد لحمير إذلالاً وعليها تسلطاً

وتجبراً . وأقبل على اللذات بمقدار ما كان يُعرض عنها ، وتهالك عليها بمقدار ما كان يُظهر النفور منها . وما أسرع ما تجاوز في ذلك كلّ حد ، وخرج على كل سنّة ؛ وأسرف في الأعراض يعتدي عليها ، وفي الحرمات ينتهكها ، وفي الأموال يستصفيها ويؤثر نفسه بخيارها حتى خافت حمير أشدّ الخوف ، وضاقت به أشد الضيق ، وتمنت له أشد التنكر وأظهرت له أشد الحب .

فلما طال ذلك على حمير لم تزدد له إلاّ خوفاً. ولم تُضمر منه إلا إشفاقاً وذُعراً . ولكن الشباب من أبناء السادة والقادة عجزوا عن ضبط العواطف والأهواء ، وكرهوا عيشة الذّل والخضوع ، فجمجموا وغمغموا أولّ الأمر ثم انطلقت ألسنتهم بعد ذلك بالنكير واللوم ، ثم سعى بعضهم إلى بعض وأخذوا يمكرون ويدبرون . ولكنّ الطاغية كان أشد منهم مكراً ، وأنفذ منهم أمراً ، وأحسن منهم تدبيراً فما هي إلا أن يستهوي فريقاً منهم بالمال ، ويغوي فريقاً آخرين بالوعد وإظهار المودة ، حتى إذا ظفر من بعضهم بالطاعة والهوى استعانهم على من لم يظفر به . حتى استقام له أمره ، وإذا هو ينتقم لنفسه من هؤلاء الشباب بما يستطيع أن ينتقم به من ضروب الكيد وألوان الإذلال .

وكان كلما تقدمت به السن واستوثق له الأمرُ وأسرعَ الفساد في خلقه وطبعه ومزاجه ، فذاق من اللذات ما يباح ، وذاق منها ما يحظّر ، وجرّبَ من اللذات ما يُعرَف وجرب منها ما يُنكر ، وأصبح قصره بيئةً للشرّ والإثم لم تعرف مثلها صنعاء فيما مضى من الدهر . وأفاق ذو الشناتر من سُكره ذاتَ يوم ، فخطر له على غير انتظار ولا تفكير ذكرُ ابنته تُماضر وابنها عُمير وأخي زوجها زُرْعة ، وكان قد فارقهم منذ أعوام طوال حتى نسي أمرَهم أو كاد ينساه . فلما خطر له ذكرهم في هذا اليوم أنكرهم ، ثم هابهم ، ثم اشتد خوفه منهم فاشتد مكره بهم وكيده لهم . ولم يحتج إلى تدبير طويل ، حتى استقر رأيه على أن يخلصَ منهم ويُزيلهم من طريقه . فأقدم ، ويا شرّ ما أقدم ! وعزم ، ويا سوء ما عزم ! ثم أنفذ ويا نكر ما أنفذ ! أمر أن تُقتلَ ابنته وسبطه خنقاً حيث هما في القصر ، وأن يُحمل إليه ابنُ تُبع الشاب . وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى أنفذَ أمرُ الملك فرأتْ تماضرُ ابنها يُصرَع بين يديها ، ورأى زُرْعةُ ابنَ أخيه وأمه الثانية يُقتلان بمرأى منه ، وانتظر أن يسعى إليه الموت ، ولكن الموت أعرض عنه، ولم يسع إليه إلا القيدُ والغُل !

فلما انتهى الفتى إلى القصر وأُدخل على الملك، فهشّ له الملك وبش وتلقاه بالعطف والبر،

أومر فحطمت عنه الأغلال والقيود ، وأمر فأصلح من زيه ورُفه عليه ثم دعاه فما زال يلاطفه ويؤنسه ويؤكد له أنه لا يريد به إلا خيراً ، ولا يُعدّ له إلا نعيماً وملكاً عظيماً وأنه لم يفعل ما فعل ولم يجن ما جنى إلا ليخلص مُلكُ تبع لابن تُبع هذا الذي لم يقترف إثماً ولم يقطع رَحماً ولم يَغمسْ يدَه في دم بريء ، وأنه لم يستطع ولن يستطيع أن يغفر لعمرو قتلَ أخيه ، ولا لتاضر ابنته رضاها بهذا الإثم وصمتها عليه. ولم يستطع – وما كان ينبغي له – أن ينقل الملك عن عمرو الآثم إلى عمير الذي وُلد في الإثم ونُشِّيء عليه . لقد قتل عمرو حساناً ، ثم قتل نفسه ، وقتل هو ابنه عميراً ، وخلصتْ بذلك حمير واليمن من هذا الإثم المنكر الذي كان يوشك أن يجرّ عليها شرّاً لا ينقضي ...!

والآن وقد طَهُرَت اليمن من هذا الرّجس ، وخلصت صنعاء من هذا الشر ، فقد آن لملك تُبّع أن يؤول إلى ابنه البريء . وإنما هي أعوام أهيئك فيها للنهوض بأمر الملك ، وأعلمك فيها ما لم تعلم في أعماق ذلك القصر ، وأقرّبك فيها إلى الجند والعظماء وأقرّب فيها الجند والعظماء إليك ، حتى إذا تمّ لك من هذا كله ما ينبغي ، أصبحتَ – بَعدُ – قيلاً من أقيالك ، وقدّمتُ إليك عرش أبيك وتاجه وصولجانه . وما زال يقول ذلك للفتى وكثيراً مثله ، وما زال يزيّن له من الوعود والأماني ، والفتى يُظهر أمناً بعد خوف ، وثقةً بعد شك ، ورضاً بعد إنكار ، حتى استيقن الشيخ الآثم أن قد استأثر بالفتى البريء .

هنالك أخذ يُغريه ويغويه ويحبب إليـــه اللذة ويزين له الفجور ، والفتى يُظهر إقداماً حيناً وإحجاماً حينــاً آخر ، ويطمعه مرةً ويؤيسه مرّات ، ولا يُضمر له في نفسه إلاّ أقبح المكر والكيد . وأصبح ذو الشناتر ذات يوم وقـــد همّ بأمر عظيم . وأصبح الفتى ذلك اليوم وقد تهيأ لأمر عظيم . وما ارتفع الضحى حتى أقبـل رسول الملك يدعو الفتى إلى منادمته . فأظهر الفتى طاعةً سريعة واستجابة ليس فيها تردّد ولا التواء . ومضى الفتى إلى تلك الشرفة التي كان يجلس فيها الملك للهوه ويخلو فيهـا إلى نديمه . وما كان يخلو قطّ إلى غـير نديم . وصَعدَ الفتى إلى تلك الشرفة وإنّ الموتَ لكامن بـين قدميه ونعليه . حتى إذا بلغ مجلسَ الملك حَيا فأحسنَ التحية ، ولقيه الملك فأحسنَ اللقاء . وكان بين الشيخ الآثم والفتى البريء حـــديث لم يطل ، ومعاقرة لم تتصل .

ثم همّ الشيخ بأمر ، وأقدَم الفتى على الأمر ، وانصرف الفتى بعـد ساعة فلما رآه

الجندُ خارجاً من عند الملك نظروا إليه مُشفقين ساخرين ، وتندّروا به وإنّ قلوبهم لتنفطرُ حزناً وحسرةً أن ينتهي ابن تُبع إلى هذا الذلّ والهوان ! ولكنهم نظروا فإذا الفتى لا يخفض رأساً ولا يَغضّ طرفاً ولا يُسرع في طريقه . هنالك تقدّم إليه أحد الجند مزدرياً متكبراً في وقت واحد ، وسأله : كيف تركتَ الملك ؟ قال الفتى في صوت حازم لا عوجَ فيه : دونك الملك فسله كيفَ تركته . فمضى الفتى في طريقه هادئاً مطمئناً . وأنكر الجند هذا الحزم وهذا الهدوء ، فصعد بعضهم إلى الشرفة ، وما كاد يبلغها حتى صاح صيحة اضطربت لها أرجاء القصر : ألا إن ابن تُبع قد قتل الطاغية واستردّ ملك أبيه !

فلما كان من غد كان زُرْعةُ قد جلس على عرش تُبع ، وتسمى يوسف ، وتلقبَ ذانُواس ، واتخذَ اليهودية له ديناً ، وأخذ يردّ حمير إليها .

- ٩ -

البشــير

أقبلن مع ضوء النهار يسعين سعيَ النسيم يسبقهن عرفُ المسك ونشر القَرَنفُل ، ويحملن من ندى الازهار وشهيّ الثمار ، ومن رطب الأغصان وجنى الريحان ، ما يصوّر الطبيعة وقد أيقظها بردُ السحر ومسّ النَدَى وغناء الطير ، فجرَتْ فيها رعدة الحياة . ثم استقبلت ضوء الصبح باسمة له مُقدِمة عليه ، ثم منغمسة فيه تريد أن تعبر ما بين ساحليه من مطلع الشمس الى مغيبها . وكنّ قاصرات الطرف فاترات اللحظ ساحرات العيون ، وكنّ واضحات الجباه فاتنات الشعور ، وكنّ مشرقات الوجوه باسمات الثغور ، وكنّ أسيلات الخدود جميلات القدود نحيلات الخصور . وكنّ عُذابَ الأصوات ملاح الالفاظ فاتنات الألحان . وكنّ يتغنين في يونانيتهن الحلوة أغنية الصباح ، تلك التي تعوّدن أن يحملن بها تحية النهار الى سيدهن الشاب الفتى المترف كيمون بن اركيتاس .

وكنّ يقلن له في أغنيتهن الرقيقة الظريفة : « أفق أيها الفتى المترف ! تنبّه أيها الفتى السعيد ! قم أيها الفتى المجدود ، أفق كيمون ! فقد وفَتْ لك آلهة الليل بعهدها فرعتك وحفظتك ، ويسرت نوماً هادئاً واحلاماً حساناً ، ثم انصرفت عنك

وقد أسلمتك الى آلهة النهار لتفي لك بعهدها كما تعوّدت ان تفي الك به منذ ذقتَ الحياة ! أفق فلن ترى من هذا اليوم إلا ابتساماً أجمل وأعذب من ذلك الابتسام الذي رأيته أمس والذي رأيته أول من أمس والذي تعودته مذ عرفت الحياة ! أفق فستلقى مودة وحباً ، وستلقى توفيقاً ونجحاً ، وسيزورك الاصدقـــاء مسرعين اليك ، مقبلين عليك وقد اتخذوا على رؤوسهم أكاليل من الزهر ، وسيتخذ رأسك إكليلا كأكاليلهم ، وستفرحون وتمرحون ، وستجدّون وتمزحون . أفقْ ايها الفتى السعيد ! تنبّه ايهـــا الفتى المترف ! قم أيها الفتى المجدود!»

ولكنهن بلغن الغرفة التي كان يأوي اليها كيمون اذا جنّه الليـــل وانصرف عنه الرفاق ، فلم يرينَ سيدهن كما تعوّدن ان يرينه كل صباح مغرقـــاً في النوم او متعلقاً بأسباب اليقظة يريد ان ينجو بها من بحر الرقاد ، انما رأينه قائمـــاً يذهب في غرفته ويجيء متعباً مكدوداً ، مظلم الوجه كأنه قد أنفق ليله مُسهّداً لم يذق النعاس . فلما رأينه هممن أن يسألنه . ولما رآهن انكرهن . ولكنه منحهن ابتسامة فيهـا عطفٌ عليهن حزين ، ورفقٌ بهن لا يخلو من ألم ، وانصرافٌ عنهن يشوبه شيء من التبرّم وإحساس الشقاء . ثم أشار اليهنّ فلم يسعهن إلا ان يَعدُنَ من حيث أتين ، صامتات كئيبات قد سقط في أيديهن كأنما أتين من الأمر شيئاً عظيما .

وكان الفتى في حقيقـة الأمر ينكر نفسه اشدّ الانكار ، ويضيق بما حوله كل الضيق بعـــد تلك الليلة الطويلة الثقيلة التي انفقها وحيداً محزوناً يفكر في تلك الدماء التي كانت تجري قريبـاً من داره كأنها السيل ، وفي تلك الأشلاء الـــتي كانت منتثرةً من حول داره آخر النهار، وفي تلك الأصوات التي كانت ترتفع بالصلاة والدعاء قوية رائعـــة مبتهجة بالموت ، حتى يسعى الموت إلى أصحابها فيخرّون صرعى ، وتستحيل تلك الأصوات القويـة الرائعة المبتهجة إلى حشرجة فظيعة مروّعة . ويرى تلك الوجوه الـتي كانت تستقبل الموت وعليها ابتسامة حلوة فيها جَلدٌ وثقة ، وفيها يقين وأمن وفيها أمل وإيمان ، فما تزال هذه الوجوه تدنو من الموت باسمة له ، ومايزال الموت يدنو منها عابساً لها ، حتى يكون اللقاء المنكر الشنيع ، فإذا عبوس الموت قد استحال إلى ابتسام حين مسّ هذه الوجوه الباسمة . وكانت المدينة قد شهدت يوماً من أعظم أيامها شرّاً وأشد أيامها نكراً : يوماً من أيام الاضطهاد ، جُمع فيه النصارى من كل وجه وأخذوا من كل مكان ، فيهم الرجال والنساء ، وفيهم الشباب والشيب ، وكلهم من ضعفاء الناس وذوي المنازل الخاملة فيهم: أخذوا من الدور حيث كانوا آمنين

وأخذوا من الحقول حيث كانوا يعملون ، وأخذوا من البِيَع التي أقاموها في الأنفاق حيث كانوا يجتمعون للصلاة والدعاء. فلما حُشد منهم المئات امتحنوا في دينهم امتحاناً يسيراً قصيراً ، فلم يكن منهم من أجاب إلى وثنية الإمبراطورية الرومانية ، ولم يكن منهم من أظهر العبادة لقيصر أو الخضوع لدين روما . هنالك أمر بهم الحاكم فقتلوا تقتيلاً ، ونُكل بهم أشد التنكيل ، وعبثت بهم السيوف والخناجر ، ولعبت فيهم السهام والحراب ، وأشراف المدينة المقيمون على دين الدولة ، وعامة المدينة المتعصبون لدين الدلة ينظرون إلى ذلك فرحين به ، مستمتعين بجماله البشع الفظيع . وكان كيمون بين الأشراف في الصف الأول من النظارة سمعَ ورأى ، فأنكرت نفسه ما سمع وما رأى ، ولكن صوته لم يستطع إلا أن يصيح صيحات الرضا ، ولكن يديه لم يستطيعا إلا أن تصفقا تصفيقَ الإعجاب . حتى إذا انتهت المجزرة وتفرّق الناس سُكارى لكثرة ما رأوا وشموا من منظر الدم وريحه ، عاد الفتى إلى قصره ذاهلاً واجماً كئيباً حزيناً . ثم خلا إلى نفسه فقضى في غرفته بقية النهار وسواد الليل ، ورأى في هذه العزلة الطويلة أهوالاً وأوجالاً لم يكن تعوّد أن يراها . وأنّى له ذلك ولم يشهد قط ما شهد أمس من الاضطهاد ! وأنّى له ذلك ولم يشترك قطّ في حرب ولم ير قط نزالاً ولا قتالاً. على أنه لم يستطع البقاء في غرفته بعد أن انصرف عنه الإماء ، فخرج من داره لا يدري إلى أين يقصد ، ولا يعرف إلى أين يريد . ومضى أمامه لايلوي على شيء ولا ينظر إلى شيء ، ولم ينتبه إلا وهو يستأذن على صديقه نكياس .

فلما أذن له دخل على صاحبه ، فلم ير في وجهه إشراقاً ولا ابتساماً ، ولم يحس منه ابتهاجاً ولا نشاطاً ، وإنما رأى وجهاً عابساً مظلماً ، وشخصاً كئيباً فاتراً ! فابتدَر صديقه قائلاً : إنّ أمرك لعجيب ! أفتراني قد حملتُ إليك حزني وبؤسي ، ونقلت إليك كآبتي وشقائي ؟! قال نكياس : أمحزون أنت ؟ أما أنا فلم أذق النوم ! قال كيمون : ولم أذقه أنا أيضاً ... وكيف يذوق النوم مَن رأى مثل ما رأينا ، أو سمع مثل ما سمعنا ، أو شهد مثل ما شاهدنا من كيد الناس للناس ، ومكر الناس بالناس وقسوة الناس على الناس ! قال نكياس : هوّن عليك ! لقد نام أهل المدينة ملء جفونهم آمنين مُطمئنين . وما يمنعهم أن يناموا وأن يأمنوا وأن يطمئنوا وقد كانوا يخافون هؤلاء النصارى على أمن الدولة ودينها ، وعلى نظام الدولة وسلطانها ، فقد أراحتهم سيوفُ الجند ورماحُ الشرطة وسهامُ الرّماة من هؤلاء النصارى ، فأخلت منهم الدار وعفت منهم الآثار، وقدّمتهم ضحايا دامية إلى «جوبيتير» إله روماالعظيم!

قال كيمون : إنّ عجبي من هؤلاء النصارى لا ينقضي ! كلهم كان ضعيفاً ذليلاً، وكلهم كان فقيراً مُعدماً ، وكلهم كان بائساً محروماً ، وكلهم كان قد تعوّد الطاعة وألفَ الخضوع ، فكيف قويت قلوبهم بعد ضعف ، وكيف عزّت نفوسهم بعد ذلة ، وكيف اجترأوا على أن يعصوا سادتهم وقادتهم ويخالفوا عن أمر الحاكم والإمبراطور ؟! ما هذا السحر الذي غيّرهم هذا التغيير ، وبدّلهم هذا التبديل ، ومنحهم هذه الشجاعة والعزّة ، وهذا الصبر والبأس . وكلّ هذه الخصال التي لم تكن تُعرف إلاّ للأشراف؟!
قال نكياس : وما يُدهشك من هذا ؟ إنما هو الإيمان خليق أن يحوّل الأشياء إلى أضدادها ، والنفوس إلى نقيضها أوَ تظن أن أمر هؤلاء الناس هو وحده الذي يثير هذا الدّهش ويدعو إلى العجب ! أليس كل شيء الآن يتغير ويتبدّل ؟! ألستَ تحسّ من حولك إنكاراً لكل شيء ، وضيقاً بكل شيء وسُخطاً على كل شيء، واستعداد لثورة عنيفة توشك أن تشبّ فتقلب الأشياء كلها رأساً على عقب ؟! إنك تعجب من الناس ، فماذا تقول إن أنبأتك بأني أعجبُ من الآلهة ؟!

قال كيمون : وأنت أيضاً تعجب من الآلهة ؛ أفرأيتَ إذاً ما رأيتُ ، وسمعت إذا ما سمعت ؟! لقد كنت أحسبه حلماً من هذه الأحلام التي تروّع الناس في النوم إذا روّعتهم الحوادث وهم أيقاظ ، وكنت أجادل نفسي في هذا الحلم المخيف ، فما أذكر أني ذُقت النوم منذ أمس .

قال نكياس : فاقصُص عليّ ما رأيتَ أحدّثك بحديثي وإنه لعجيب ، قال كيمون : طال عليّ الليل ، وثقل عليّ الهمّ ، وضاقتْ بي الغرفة بما فيها من الجدران القائمة ، والسقف المطبق ، والباب المغلق ، فخرجت كأنما كنت ألتمس في الحركة فرجاً من مَخرَج ، وفي الفضاء الواسع فُسحةً من ضيق ، وأشرفتُ أرفع طرفي إلى السماء كأنما كنت أسأل نجومَها عن سرّ ما لا أفهم من أمر الحياة والأحياء ، وأمدّ عيني إلى البحر كأنما كنت أدعوه مُلحاً عليه إلى أن يطغى بعضَ الشيء على المدينة ، فيغسل ما علقَ بأرضها من دماء القتلى ، ويحمل ما انتثر على أرضها من أشلائهم . وإني لفي ذلك حائرَ الطرف مُفرّقَ النفس ، كاسفَ البال محزونَ الضمير ، وإذا شيء يعرض لي لا أتبينه أوّلَ الأمر لأنه كان بعيداً عني، ولكنه يروعني وتقف عيني عليه، ويدنو مني شيئاً فشيئاً حتى أتبين — وما أعجب ما أتبين — جماعة من الفرسان كأجمل وأروع وأجهر ما رأيت ، قد عَلوا صَهَوات جياد عربية ، ما رأيتُ قطّ مثلها ولا سمعت قط عن مثلها إلا فيما أقرأ من شعر الشعراء ومن قصائد « بندار » حين كان

يتغنى تلك الخيلَ التي كانت تسبق ألعاب أولمبيا . جيادٌ مجنحة كانت تعبرُ إلى البحر بمن عليها من الفرسان ! لا أدري أكانت تركض على المـــاء أم كانت تطير في الهواء . حتى إذا بلغ الجماعة شاطىء البحر وكادت حوافر جيادهم تطأ الأرض وقفوا . وقد تبينت أشخاصَهم فإذا هم أربعة ، فيهم رجلان وامرأتان . ومـــا أقربَ الشبه بين هؤلاء الأشخاص وبين هـــذه التماثيل التي نراها في المعابد لأبلُّون وأرتميس ، ولأتنا وآريس !

أكنت يقظانَ حين رأيت ! أكنت يقظان حين سمعت ! ولكن أشخاصهم مـــا زالت ماثلةً أمام عينيَّ ، ولكنَّ حديثهم ما زال مستقرّاً في صدري كأنما نُقش على قلبي نقشاً . سمعت أشبههم بأبلُّون يقول : ما أبشع هذه المدينة التي نحبها ونصبو إليها ! وما أقبح هذه الريح التي تصعد إلينا منها ! قالت أشبهُ هؤلاء الأشخاص بأتنا: لقد كنا نحب أن نُلمّ بهذه المدينة فنطيل فيها المقام ، وكنا نستعذب حديث أهلهـــا ونستحبّ أخلاقهم ، ونستلذ ما كانوا يقدّمون إلينا من الضحايا والقرابين. قالت شبيهة أرتميس : وكم كنتُ أحب أن أتجوّل في غاباتها وأستمتع فيها بلذة الصيد ! قال شبيه آريس : أما أنا فكانت تُعجبني حصونها المحصّنة ، وقلاعها المؤشبة ، وهذا الجيش الباسل المرابط فيهـــا والمستعد في كل لحظة للدفاع والهجوم . قال شبيه أبلُّون : فقد آن لنا أن ننصرف عنها على ألاّ نرجع إليها ، وأن نُلقي عليها نظرةَ وداع لا لقاء بعده . قالت شبيهة أرتميس : لم أستطع بعدُ أن أفقه ما ألم بأهل هذه المدينة : أفتنةٌ أتتْ على عقولهم فحالت بينهـــا وبين الفهم والتفكير ، أم قسوةٌ غلبت على قلوبهم فحرّمتها الحسّ والشعور ؟ إنهم يظنون أنه الدّين وما يدفعهم إليه من حبنـــا والتعصّب لنا ، وحماية معابدنا وأوثاننا وسلطاننا أن يطغى عليها هذا الدين الجديد الذي أقبل من الشرق ، ولكنهم يكذبون ، فما أكثر من وَفدَ علينا من آلهة الشرق قديماً ، وما أكثر من يَفد علينا منهم في هذه الأيام ! وما أحسنَ ما تلقيناهم ! ومـــا أحسن ما نتلقّاهم الآن ! لم نضق بهم ولم يضق بهم النـــاس ! فما ضيقهم بهذا الدّين الجديد وبهذا الإله الشرقي الجديد ؟!

قال شبيه أبلّون : إنهم يخدعون أنفسهم ويريدون أن يخدعونا ولكنهم يعلمون ، لو فكروا ، أنهم لا يثورون لنا ، ولا يغارون علينا، ولا يغضبون الدّين ؛ إنما يثورون لقيصر ، ويغارون على روما ، ويغضبون للسياسة . ولولا أن قيصر قـــد ألّه نفسه وأخذ الناس بعبادته ، ولولا أن روما قد ألهت نفسها وفرضت مـــا لم تفرض مدن

اليونان حين كان إليها الأمر من هذا الدِّين الغريب الذي تقــام له المعابد بها ، ويؤمر الناس فيها أن يقدّموا إليه الطاعة ، ولولا أن هؤلاء الرومان قد اتخذوا الدين وسيلة من وسائل السيادة وأداةً من أدوات الحكم وبسط السلطان ، يكذبون به على أنفسهم ويكذبون به على الناس – لولا هذا كله لما أريقت الدمــاء ولا انتثرت الأشلاء ، ولا أزهقت النفوس ، ولا قتلَ الناسُ بعضُهم بعضاً على هذا النحو .

قال شبيه آريس : إنكم لتعلمون حبِّي للدماء ، ونشوتي بالقتال والحرب ، ولكني شديد البغض لما أرى ، شديدُ النفور مما أجد . وكم ضقتُ بما رأيتُ أمس من هــذا التقتيل والتنكيل والتمثيل ! ومع ذلك فكم شهدتُ من حرب وكم اشتركتُ فيها ! وكم أغريتُ بها ! وكم دفعتُ إليها ! وكم أبليت فأحسنت البلاء ! قالت شبيهة أثنا : واي غرابة في ذلك ؟ اناايضاًاحببت الحربَ وما زلتاحبها،ولكن الحرب شيء وهذا النكر شيء آخر . واين الحرب التي تصدر عن الشجاعة والبأس من هذا الإجرام الذي لا يصدر إلا عن الجبن والبغي والعدوان ! واي فرق بين تقتيــل العُزْل والأبرياء ، وبين ما فعله ايَّاس حين جُن جنونه ، فأعمل سيفه في قطعان البقر والغنم التي لا تملك عن نفسها دفاعاً ؟ وقال شبيه ابلّون : وما بقاؤنا في هذه الأرض التي ليست لنا بدار بعد ما ازمع الآلهة ان يدَعوا هذا الإقليم لدين قيصر ولهذا الدين الجديد ؟! لقد وقفنا فأطلنا الوقوف ، وودعنا فأطلنا الوداع ، وآن لنا ان نلحق بمن سبقنا من الآلهــة إلى تلك الأرض الموعودة التي لم تُفسد عقول أهلها حيلة بروميثوس ، ولا فلسفة سقراط، ولا سياسة قيصر ، هلم . ثم ترتفع بهم افراسهم في الجو ، وما هي الا لحظة حتى أرى سحاباً رقيقاً يمضي امامي مسرعاً ، ثم انظر فلا ارى شيئاً . اكنت نائماً ارى ما يرى النائم ، ام كنت يقظان ارى ما يرى الأيقاظ ؟

قال نكياس : لم تكن نائماً ولا حالماً : فقد كنت اسمع حديثك الآن وما اشك في انك قد كنت تقرأ ما كان قد نُقش على قلبي ورسـخ في قرارة نفسي . الصورة هي الصورة ، واللفظ هو اللفظ ، ومقدم الفرسان ورحيلهم ووقوفهم بين ذلك كما وصفته، لم تزد فيه ولم تنقص منه ؛ ولكني لم يطل عليّ الليل ولم يثقل عليّ الهم . ولم يضق بي المكان . لقد انفقت بقية النهار واكثر الليل في قصر الحاكم مع اغنياء المدينةواشرافها نستمتع بلذات هذا الحفل الذي دعانا اليــه . ولم تنشط انت له . واشهد لقد اسرفت في الطعام ، واسرفت في الشرب خاصة ؛ لأني كنت اريــد ان تفرق الخمر بيني وبين نفسي ، وان تَسل الخمر ما كان يملأ صدري من الهم والحزن . ولكن الليل عجز عن

ان يُسلمك الى النوم ، وعجزت الخمر عن ان تسلمني الى السكر . فلما انقضى الحفل وانصرف الناس لم استطع ان اعود الى داري ، فمضيت امشي على ساحل البحر اتنسم الهواء وانظر في السماء ، حتى رأيت مثل ما رأيت ، وسمعت مثل ما سمعت . وعدت وإني لأسأل نفسي، منذ ذلك الوقت : اكان حقاً ما رأيت وسمعت ، ام كان لوناً من ألوان السكر وخيالاً من هذه الخيالات التي تسلطها الخمر على النفوس ؟ قال كيمون : واذاً ..؟ قال نكياس : وإذاً ..! ثم سكت الصديقان وقتاً طويلاً . ثم استأنف نكياس حديثه وهو يقول : وإذاً فنحن بين اثنتين : إما أن نرحل كما رحل الآلهة ، وإما ان نقيم كما أقام الناس . وفي السياحة لذة ، وفي الخمر واللهو عزاء . قال كيمون اما انا فمرتحل . قال نكياس : اما انا فمقيم . قال كيمون : فكن اذاً خليفتي في مالي حتى يأتيك امري فيه . قال نكياس : اجادٌ انت ؟ وما يمنع ان يكون ما رأينا وسمعنا عبثاً من عبث الآلهة ؛ فقد علمت أنهم يحبون العبث بنا والسخر منا وما يمنع أن يكون ما رأينا وسمعنا أثراً من آثار هذه الصدمة التي دهمتنا أمس حين رأينا ما سُفك من دماء وما أزهق من نفوس ! أقم فإنّ في اللهو واللذة وفي الخمر والغناء ، وفي جمال هؤلاء الإماء اللاتي يملأن قصورنا نعيماً وبهجة ، وفي هذه الثروة التي تتيح لنا من ألوان الشرف والمجد ما لا يُتاح إلا لقليل من الناس ، ما هو خليقٌ أن ينسينا ما شهدنا منذ أمس . أقم ! ولنضاعف ما نحن فيه من عبث ولهو ؛ فما أرى حياة الناس تستقيم إلا على العبث واللهو: شُرْبٌ في النهار ، ونومٌ في الليل، حتى إذا سئمنا الحياة خرجنا منها مزدرين لها. قال كيمون : أنت وما تحبّ من هذا ، أما أنا فمرتحل عن هذه الأرض ولو إلى حين ...

ثم افترق الصديقان بعد ذلك ، فلم يلتقيا ولمّ يعرف أحدهما من أمر صاحبه شيئاً . أما التاريخ فقد عرف من امر كيمون شيئاً كثيراً .

على أنّ الذي حدّثني بحديث كيمون لم ينس ان يصطنع الصدق والأمانة في الحديث ولم يرضَ ان يتكلف ما يتكلفه القصّاص وكثيرٌ من المؤرخين من التزيّد في الرواية ، والتحدّث بما لا علم لهم به ؛ فقد أنبأني بأن جزءاً غير قليل من حياة كيمون لم يصل عنه إلى الرواة والمؤرخين إلا أطرافٌ قصيرة من الحديث ، وأنّ التاريخ لم يعرف تفصيل حياته إلا في آخرها حين تقضى شبابه وأقبلت عليه الشيخوخة بما تحمل الى الناس من هذه الهدايا البغيضة التي تتألف من الضعف والمرض وأعراض الفناء والانحلال ولو قد عُرفَ التفصيلُ من أمر كيمون لوجد الناسُ في قراءته لذةً لا يجدون مثلها

كثيراً حين يقرأون حياة الشهداء والقدّيسين . فقد انصرف كيمون عن صاحبه محزوناً مُوزّعاً بين اليأس البيّن إن أقام ، والرجاء الغامض المبهم إن ارتحل . وكان قد كره المدينةَ والحياة فيها كرهاً شديداً . وكان قد سئم قصره ومَا فيه سأماً ساء لهُ خلقه حتى أنكر نفسه ، وحتى كره ما كان يسمع من صوته وألفاظه حين كان يتحدث إلى أهل القصر من الأحرار والأرقاء .

ولم يكد يُتمّ يومه في القصر حتى عرف أن بقاءه في المدينة أمر لا سبيل إليه ، وأن الموت آثر عنده وأحب إليه من هذه الحياة الحمراء اللاغطة المزقة التي لا يرى فيها إلاّ دماء وأشلاء ، ولا يسمع فيها إلا صلاة ودُعاء وحشرجةً ونداء ، فلما جَنّه الليل وهدأ من حوله كل شيء وكل إنسان ، خرَج من القصر ينساب كأنه الحية ، وينسلّ كأنه اللص ، وأخذ يمضي في طُرق المدينة متنقلاً من طريق إلى طريق حتى جاوز أسوارها وأرباضها [1] ، ودفع [2] إلى الفضاء الواسع ، وإلى هذا الريف الذي تسكن فيه الطبيعةُ إذا تقدّم الليل سكوناً رهيباً ، ولا يكاد يُحسّ الإنسان فيه إلا هذه الأصوات الضئيلةَ التي تنبعث من حين إلى حين ، عن بعض الحشرات المنبثّة في ثنايا العشب والزرع ، وعن بعض الطير المستقرّة على الأغصان ، حين يمرّ بها طائف الحلم فتهمّ بالغناء والتغريد، ثم يقطع عليها النوم غناءها وتغريدها، وإلاّ هذه الأصوات الخفية التي لا تسمعها الأذن وإنما تسمعها النفس ؛ لأنها أدقّ من السمع ، وألطف من الحسّ ، وهي نجوى الهواء حين تتحدث أجزاؤه وطبقاته بعضها إلى بعض إذا سكن الليل وأطبق الظلام، كأنما يقصّ بعضها على بعض أحاديث الطبيعة في حياتها وحركتها قبل أن تنام ، وقبل أن يضطرها الليل إلى السكون . ومع أن هذا الهدوء الرهيب ، وهذا الصمت المهيب ، يروعان أهل المدن إذا دُفعوا إليهما دفعاً على غير تعوّد لها ، فإنهما لم يبعثا في نفس الفتى رَوْعاً، ولم يُدخلا في قلبه رُعباً ؛ لأن نفسه كانت مشغولة حتى عن هذا الرعب وذلك الروع بما كان يزدحم فيها من الخواطر والأحاديث . وكان الفتى يمضي أمامه لا يعنيه أمهتد هو قَصْدَ السبيل أم جائرٌ هو عن هذا القصد ؛ لأنه لم يكن في حقيقة الأمر يعرف إلى أين يريد ، ولم يكن قد رسم لنفسه طريقاً يسلكها أو غايةً ينتهي إليها ، إنما كان همّه أن يفر من هذه المدينة التي جرت فيها الدماء أنهاراً ، وانتثرتْ فيها الأشلاء انتثاراً ، وجنى فيها بعض الناس على بعض هذه

---

(١) الربض « بالتحريك » : ما حول المدينة من بيوت ومساكن .

(٢) يقال : دفع فلان إلى المكان « بصيغة المعلوم والمجهول » : إذا انتهى إليه .

الجرائم والآثام . وكان حديث الآلهة قد ملأ نفسه دهشاً وعجباً . واضطر إلى أن يسأل نفسه من حين إلى حين : إلى أين ذهب الآلهة . وايّ طريق سلكوا ، وفي أي مكان من الأرض أو من السماء أقاموا قصورهم الخالدة ؟ وكيف هان زُوس أن يدع أولمب وما كان فيه من حياة فيها الجد الرائع والعبث اللذيذ ؟! وكيف هان على أبلون أن يترك معبده الخالد في « دلف » ؟ وكيف استطاعت أثنا أن تتعزى عن الأكروبول؟ وأين يجد آريس مدناً تقتتل وتحترب كما كانت مدن اليونان تقتتل وتحترب؟ وكان يسأل نفسه عن سلطان هؤلاء الآلهة الذين لم يستطيعوا أن يثبتوا لعدوان الانسان على الانسان ، فضلاً عن أن يمحوا هذا العدوان ويبطشوا بالمعتدين . وكان يسأل نفسه عن هذا الدين الجديد الذي يؤثره أصحابه على الحياة ولذاتها وآلامها ، وعن هذا الإله الجديد الذي أخذ يغزو العالم اليوناني الروماني ، فيحبب إلى أهله الألم والصبر والتضحية، ويُزهّد أهله في الثروة والغنى ، ويُزيّن في قلوبهم حب الفقر والإعدام ، ويُنشّئهم تنشيئاً جديداً لا صلة بينه وبين ما ألِف الناس منذ أنشدوا شعر هوميروس ، وتغنوا شعر سافو وبندار ، واستمتعوا بشعر سوفوكل وأرستوفان ، وتفكروا في فلسفة سقراط وارسطاطاليس .. ؟ وكان يسأل نفسه وهو يمضي في طريقه لا يلوي على شيء ، والليل من حوله مطبق قد غمر بظلمته المخيفة كل شيء : أماضٍ هو في أثر الآلهة الذين ارتحلوا ليلحق بهم ويقيم معهم . لأنه لا يستطيع أن يعيش من دونهم ، أم ساعٍ هو إلى دار هذا الإله الجديد لعله يلقى من كهانه وقساوسته من يُعلّمه أسرار دينه ؛ فقد سئم حياة اليونان ، وتمنى لو ظفر بلون من الحياة جديد ؟! وكان الفتى يمضي، وكانت هذه الخواطر تزدحم على نفسه وتضطرب فيها... وكان الليل يمضي هو أيضاً في طريقه دون أن يتبين الفتى أكان مسرعاً في سيره أم بطيئاً . وإنه لكذلك يسير ويسير ، ويفكر ويفكر ، قد نسي نفسه ونسي الليل ، وإذا هو يثوب إلى نفسه لحظة فيقف ويرفع رأسه ، وإذا الضوء قد غمره وغمر الأرض من حوله ، وإذا هو ينظر أمامه فلا يرى إلا سهلاً مشرقاً ، وإذا هو لا يدري من اين جاء ولا إلى اين يريد . ينظر وراءه فلا يرى للعمران أثراً ، وينظر من كل ناحية فلا يرى للعمران اثراً ، فقد انقطعت الصلات والأسباب بينه وبين مدينته التي خرج منها امس حين اظلم الليل ، فكأنه لم يعرف هذه المدينة ولم يعش فيها ولم يقاسم اهلها ما نعموا به من لذات وما ابتأسوا به من آلام ، وكأنه لم يشهد فيها ما شهد ، ولم ينكر من اهلها ما انكر ، وكأنه شيء فذّ لا صلة بينه وبين شيء ، وكأنه شيء ضائع بين هذه الارض التي لا حد لها ، وهذه السماء التي لا حد لها ، وهذا الضوء الذي

يضطرب بينهما إلى غير حد . هنالك أحسّ الفتى راحة لم يحسسها قط كأنه قد ألقى عن نفسه أعباء الحياة كلها ، هذه الأعباء التي لا تختصر حياة الفرد وما لقي فيها من شر وخير فحسب ، وإنما تختصر معها أيضاً حياة هذه الأجيال التي سبقته وأورثته الحضارة أثقالها . أحسّ الفتى راحة قلما نستطيع نحن أن نتصورها ، وأحسّ هدوءاً ونشاطاً قلما نستطيع نحن ان نذوقهما . ووقف يستمتع بهذه الرحلة ويستلذّ هـــذا النشاط وحاول أن يدعو اليه تلك الخواطر التي كانت تزدحم على نفسه في ظلمـــة الليل ، فلم يستجب له منها خاطر واحد ، كأنما طردها هذا الضوء المشرق مع ذلك الليل المظلم الكثيف .

ما أجمل هذا الشعور الذي امتلأت به نفس كيمون حين أحسّ أنه قد خلق خلقاً جديداً ! لقد امتزجت نفسه الجديدة بهذا النور الجديد ، ولقد نسي الآلهـــة الذين كان يمضي في أثرهم ، ونسي الإله الذي كان يسعى ليعلم علمه . وما له ولهـــذا الإله الجديد ولأولئك الآلهة القدماء ، وقد استيقن انه قد وجد في هذه الطبيعة المطلقـــة الحرة ، التي لا تُحصر ولا تُحد، آيةً أرشدته إلى إله ليس كما تعوّد أن يرى الآلهـــة؛ لا سبيل إلى أن يُحصرَ ولا إلى أن يُحدّ ، ولا مطمعَ في أن يَرقَى اليه العقـل ، او يتناوله الفكر بالدرس والبحث والتحليل . إنما هو قوة يُكبرها ولا يفهمها ، يُجلّها ولا يُحيط بها ، يشعر أنها تأخذه من كل مكان وتأخذ كل ما حوله ، وأنه إن يمضِ أمامه فهو مقبلٌ عليها ، وإن يرجع أدراجه فهو خاضعٌ لها ، وأنّى يذهب يمينـاً او شمالاً فهو في ظلها الظليل وفي كنفها الرحب . سبحانك اللهم ! إن لم أجدك فقد وجدتُ آيتك ، وإن لم أرَك فقـد رأيت خلقك ؟ لك عليّ ألا أومنَ إلا بك ، ولا أخاف إلا إياك !

ثم يمضي الفتى أمامَه في شيء من الذهول ليس إلى تصويره من سبيـــل ، حتى يشتد حرّ الشمس ويبلغ منه الإعياء ، وهو على ذلك جـلدٌ صبور لا يحسّ كلالاً ولا فتوراً . وما يزال يمضي ويمضي ، حتى يُرفـع له بناءٌ يراه فيأنس به ويتنكر له في وقت واحد : تأنس به طبيعته الفانية التي قد أحستْ الجهـــدَ والكد ، وذاقت ألم الظمأ والجوع . وتتنكر له نفسه الخالدة التي تُشفق أن يخرجها من هذه الحياة الروحية الزاقية الحلوة التي لم تألفها من قبل . ويهمّ الفتى أن يقف ، ولكن هـذا البناء الذي يرفع له يدعوه إليه في إلحاح أن أقبلْ أيها الفتى ولا تخفْ ، فليس عليك من بأس فيمضي الفتى صوب هذا البناء ، حتى اذا دنا منه سمع أصواتاً عذبة ترتّل ترتيـلاً

عذباً فيسرع اليها ، وما هي إلا أن يلحق بجماعة من الرهبان يصلون ويرتلون ، وإذا هو يصلي معهم ويرتل ، لم ينكروه ولم ينكرهم ، كأنه واحد منهم ، وكأن العشرة بينه وبينهم متصلة منذ عهد بعيد . ذلك أنه قد وقع الى دير من هذه الأديرة التي كانت تقام في الصحراء ، حين كان النصارى يفرّون الى الصحراء بدينهم من تلك المدن التي كانت تسيطر عليها آلهة اليونان والرومان ، وديانات روما والإمبراطور .

ثم سكت محدّثي ساعة كأنه يفكر او كأنه يستريح . فلما طال عليّ صمته قلت له في لهجة المشوق الى ما عنده من الأنباء : هَلُمّ انبئني كم لبث الفتى في الدير ؟ وكيف كانت حياتُه فيه ؟ قال محدّثي : لو علمتُ ذلك ما بخلتُ به عليك ، وقد سألت عنه أشياخنا كما سألتني ، فكلهم أجابني بما أجبتك به ، وكلهم قالوا هذه الجملة التي يقولها الرواة والمؤرخون إذا اضطرهم النسيان وضياعُ الحوادث إلى الإجمال والإبهام : أقام كيمون في هذا الدير ما شاء الله أن يقيم قلت لمحدّثي : فإنك علمتَ من أشياخك في غير شك أطرافاً من حياة هذا الفتى بين هؤلاء الرهبان ، وعلمت منهم في غير شك أيضاً ، إلى أي الأحوال صار أمرُه بعد أن عاشر أهلَ الدير وتعلم منهم دين المسيح قال محدّثي : لم أكد أعلم منهم شيئاً ؛ لأنهم كانوا لا يكادون يعلمون شيئاً، وكانوا إذا انتهوا من حديث كيمون إلى حيث انتهيت ، قالوا هذه الجملة التي تشبه ما تقوله العامةُ حين تنسى أو حين يُعييها التفصيل : وما أسرع مـــا تقدم السن بأبناء الأحاديث . فقد تقدّمت السنّ بكيمون بعد أن قضى في الدير ما شاء الله من الدهر ، مجتهداً في طاعة الله والفقه في الدين ، والانصراف عـــن غير ذلك من شؤون الحياة . قال أشياخنا : والناس يتحدثون أن كيمون ضاق آخر الأمر بحياته في الدير لأنه رأى نفسه قد أصبح فتنةً لرفاقه وخلطائه من الرّهبان ، ورأى ديره قد أصبح فتنةً لأديار كثيرة كانت تقع على آماد بعيدة منه في الصحراء ، وأصبح فتنة لأهـــل الريف الذين كانوا يقيمون على أطراف الصحراء ، وفي داخل الأرض الخضراء ؛ فقد تسامع هؤلاء جميعاً بما كان الله عز وجل قد اختصّ به كيمون من الكرامة وآثره به من الفضل، وبما أجرى على يده من العجائب والأمور الخارقة ؛ فقد كان لا يدعو لمريض أو ذي ضرّ بالشفاء إلا شفاه الله من فوره . وكانت بركته قد عمّت أهل الدير ومست ما حوله من أرض الصحراء إلى أمد بعيد ، فإذا أهله لا يشكون جوعاً ولا ظمأ ، ولا يلقون جهداً ولا عناء ، وإذا ديرُهم قائم في وسط جنة خضراء قد أنبت الله فيها من ألوان الشجر والزهر ، ومن فنون الحبّ ما فيه غنىً عن كل جهد ودفعٌ لكل مشقة ، وإذا الناس

يحجون إلى هذا الدير في كلّ عام مرة أو مرات فيتبركون ويلتمسون الدعاء، ويلحّون في لقاء كيمون : هذا يريد أن يمسه ، وهذا يريد أن يلثمه ، وهذا يريد أن يسمع صوته ، وهذا يريد أن يملأ عينه من منظره الجميل ؛ حتى ضاق الشيخ بذلك وأشفق منه على نفسه وعلى دينه. وقد أصبح كيمون شيخاً . وما أسرعَ ما تتقدّم السنّ بأبناء الأحاديث ! فلما شق عليه ذلك أزمع أن يخلص منه ويَفرّ بدينه من إكرام المكرمين وإيثار المؤثرين ، كما فرّ قبل ذلك من تلك المدينة التي كان الناس يُفتنُون فيها عن دينهم بالتقتيل والتنكيل والتمثيل. وأصبح أهل الدير ذات يوم يفتقدون وليّهم المبارك فلم يجدوه حيث تعوّدوا أن يروه في كلّ صباح ، والتمسوه في كل مكان : في الدير وفي جنة الدير ، وفي الصحراء من حول الدير ، فلم يظفروا به ولم يجدوا له أثراً . فذهبت ظنونهم وظنون غيرهم من الناس في هذه الغيبة كلّ مذهب ، وأوّلوها كل تأويل . ولكن كيمون نفسه لم يظن ولم يؤوّل ، وإنما استعان الله على أن يخلصَ من هذا الضيق ، ودعا الله ان يُخفيه عن الناس حتى يبلغ مأمنه ، فاستجاب الله له . ومضى في طريقه هارباً من الدير ، كما مضى في طريقه هارباً من المدينة، لا يلوي على شيء حتى خرج من الصحراء المجدبة ، وأمعن في أرض خصْبة فيها خيرٌ وثراء كثير ، فمضى فيها لا يُغريه ما كان يرى من حياة الناس ونعيمهم ولم يمسّ قلبه ولا حسّه ما كان يرى من تلك المدن العامرة التي كانت تذكره بمدينته ؛ لأنها كانت تشبهها بما كان يقوم فيها من القصور الفخمة ، والملاعب الواسعة الضخمة ، وبما كان يُنصب فيها من الأسواق التي تُحملُ إليها ألوان التجارة من أطراف الأرض ، وبمن كان يضطرب فيها من هؤلاء الشبان المترَفين ، ومن هؤلاء النساء المتهالكات الداعيات باللحظ واللفظ إلى الإثم والفتون .

وكان الشيخ يمضي بين هذا كله لا مُنكراً له ولا راغباً في شيء منه ؛ لأنه كان مشغولاً بنفسه ودينه عن هذا كله حتى إذا قطع هذه الأرض من حَدّ إلى حدّ ، وقف عند قرية فقيرة في طرف من أطرافها تمسّ الخِصْبَ من ناحية ، وتمسّ الصحراء من ناحية أخرى . أقام كيمون في هذه القرية وقد أعجبه فقرُها وشظَفُ أهلها وأعجبته هذه الصحراء التي كانت تمتدّ أمامه إلى غير حدّ . وكان كيمون كلفاً بالصحراء لا يستطيع أن يسلوّها ؛ لأنه لا يستطيع أن ينسى أنه وجد فيها الهدى ، وتبين فيها وجهَ الصواب . فكان ينفق أيام الأسبوع أجيراً لأهل القرية يعمل فيما يحتاجون إلى إقامته من البناء . حتى إذا كان يوم الأحد خرَج مع الصبح فأبعدَ في

الصحراء حتى تنقطع الصلة بينه وبين الناس ، ثم ينفق نهاره كله في ذكر الله ويعود إلى القرية مع الليل . وكان كيمون رحيماً للبائسين رفيقاً بأهل الضرّ : فكان إذا مر به البائس أو المحروب أو المريض رقّ له قلبه ودعا له في نفسه ، فما أسرع ما يزول البؤس ويُكشف الضر ويُرفع المرض ؛ وكان الناس ينكرون ذلك ويعجبون له . فلما كثر ذلك واتصل وعرّفه الناس أحبوا هذا البنّاء وكلفوا به ، ثم استحال حبهم وكلفهم إلى شيء يشبه الفتنة . وأحسّ كيمون أنه صائر إلى مثل ما صار إليه في الدير ، فارتحل عن هذه القرية تحت الليل ، وافتقدّه الناس من الغد فلم يجدوه . وكذلك أخذ الشيخ ينتقل من قرية إلى قرية ، ويرحل من مكان إلى مكان ، حريصاً على أن يُلازم الصحراء ليقضي فيها الأحد من كل أسبوع ، يقيم في القرية ما يجهله الناس ، ويفرّ من القرية حين يُحسّ أنهم قد عرفوه . حتى إذا كان في قرية من قرى الشام في آخر العمران وأول البادية عرّفه رجلٌ من أهلها كأنه عربي كان يُسمى صالحاً : عرّفه وعرف تستره وتنكره للناس . فلزمه عن بعد . وخرج كيمون في يوم من أيام الأحد فأمعن في الصحراء كعادته وصالحٌ يتبعه عن بعد . حتى إذا انتهى إلى مكان من الفلاة ، قام يصلي وصالحٌ يلحظه . وإنه لفي صلاته وإذا حيّة عظيمة ذات رؤوس سبعة قد أقبلتْ تسعى إليه ، ، فاغرة أفواهها ولها فحيحٌ مزعج مخيف . فلم يحفل بها كيمون ، ولكنه دعا الله عليها فأماتها الله في مكانها . وجزّع صالح حين رآها تسعى إليه فصاح : إياك والحية ؛ ومضى الشيخ في صلاته حتى أتمها . ثم أقبل على صالح يسأله عن أمره . قال صالح : شهد الله ما أحببتُ أحداً ولا شيئاً حُبّي لك ، وما أردت إلاّ أن ألزمك وأتعلم منك . فأذَن لي في ذلك . قال كيمون : لستُ أرى بذلك بأساً . ولكني أشفق أن تشقّ عشرتي عليك . فدونكَ ما أحببت إن قدَرت على صحبتي . وعادوا إلى القرية في المساء . فلم يقم فيها كيمون اياماً حتى عرف اهلها منه ما عرف اهل القرى التي اقام بها من قبل . وجاءه رجل من اهل القرية فقال : إني اريد ان اصلح بعض البناء في بيتي ، فهل لك ان تنظر في هذا البيت لأشاطرك على ما اريد ؟ . فلما انتهى معه الى الدار ادخله في حجرة واخذ يتحدث اليه عما يريد تغييره . ثم نظر كيمون فإذا الرجل يهوي الى الأرض فيرفع ثوباً كان مبسوطاً وإذا صبيٌّ ضرير سيىء الحال . فلما رآه كيمون رقّ له ودعا الله ، فنهض الصبي وليس به بأس . واستيقن البناء انّ امره قد افتضح ، فقال لصاحبه صالح : لا مُقام لي بعد اليوم في هذه القرية ، إني ماض في الصحراء ، فإن شئت فاتبعني وإن شئت

فأقم . ولم يدركهما صُبحُ غد إلا وقد انقطعت الصلة بينهما وبين الحواضر . ولكن وحدتهما لم تطل، فما اكثر القوافل التي تتردد بين الشام وبلاد العرب آخذةً في الصحراء كل طريق ! مرت بهما قافلة من هذه القوافل ، فعدَت عليهما واتخذتهما بضاعةً ، حتى إذا عادت إلى نَجْران من ارض اليمن باعتهما الرجلين من اشراف المدينة . فأما صالح فقد نسيه التاريخ ، واكبرُ الظن انه ذهب مع الذاهبين في تلك الفتنة المنكرة ، التي اظلّت اهل نجران بعد ذلك بأعوام . واما كيمون فقد اكرم سيده مثواه ، وافرد له حجرةً في داره. فكان يعمل لمولاه بياض النهار ، ويقوم للصلاة اكثر الليل . ولاحظ سيده مرة ومرةً انّ حجرة هذا العبد مضيئةٌ في الليل من غير مصباح . فأنكر ذلك أول الأمر ، ولكنه استيقنه بعد طول الملاحظة . فلما اصبح دعا اليه كيمون وسأله عن ذلك ، فلم يُجبه بشيء . فسأله عما يصنع في حجرته . قال : لا اصنع شيئاً إنما أصلّي واذكر الله . قال : فحدثني عن دينك وعن إلهك هذا الذي تعبده ؛ فإني لا اراك تعكف على نخلتنا هذه الطويلة التي نعكف عليها ، ولا اراك تتقدم اليها كما نفعل بالعبادة والتكريم ؟! وانما هي نخلة كغيرها من النخل، تختلف عليها الأحداث والخطوب، ولا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعاً ولا ضراً ، ولو دعوت الله لأراكم فيها ما تكرهون. قال : فافعلْ ! فإنك إن تبلغ ما تريد ، دخلنا جميعاً في دينك . هنالك دعا كيمون، واذا ريح عاصفة تُقبل فتقتلع النخلة اقتلاعاً ، وتجتثّها من اصلها اجتثاثاً. هنالك آمن السيد بدين العبد، واقبل اهل نجران على هذا الشيخ يسألونه ويتعلمون منه . ولم ينقض النهار حتى كان كيمون قد هدى المدينة كلها إلى دين المسيح . وكذلك استقرت النصرانية في بلاد العرب .

وهمّ اهل المدينة ان يكرموا كيمون ويُكبروه ، ويتخذوه لهم سيداً وإماماً ، ولكنه كره ذلك ونَفَر منه ، وفر بدينه من المدينة كما فر به من الدير ، وكما فر به من القرى . فخرج مهاجراً حتى بعد عن العمران وابتنى لنفسه في الصحراء خيمةً اقام فيها ما شاء الله ان يقيم، منقطعاً للعبادة والطاعة، عاكفاً على الدين والنظر في الإنجيل. والناس يقدمون عليه من نجران ومن حولها ، فيعلمهم ويبصرهم في دينهم ثم يصرفهم عنه في رفق حازم ، لا يرضى منهم لزوماً له ، ولا يقبل ما كانوا يحملون اليه من ضروب الهدايا .

وعظم أمر المسيحية في نَجْران ، حتى لم يبق من أهلها الوثنيين رجل ولا امرأة ولا غلام ولا فتاة إلاّ دخل في الدين الجديد ، واجتهد فيما كان يأخذه به من عبادة

وتقرب إلى الله ، وحتى ضاق بذلك عدد يسير من اليهود كان مستقراً في هذه المدينة، يعمل فريق منه في التجارة وفريق آخر في الصناعــة . فأخذ هؤلاء اليهود يجادلون نصارى نجران في دينهم ويُشددون عليهم النكير ، وينالون شيخهم ومُعلّمهم بألسنة حداد ، حتى اغتاظ لذلك النصارى فغضبوا لدينهم . وكان فريق منهم وبين اليهود خصامٌ عَظُمَ شره بعض الشيء ، وارتفع أمره إلى ملك اليمن في صنعاء ، وهو الذي كان يُعرف بذي نُواس .

وكان ذي نواس هذا قد نَهض بملك آبائه من حمير ، بعد فتنة طويلة مُلحّة ، فجدّ في جمع الكلمة وتوحيد الرأي ، وكان قد ورث يهودية أبيه تُبّع ، فحمل الناس عليها حملاً ، وأحيا سنتها ، وأنفق في ذلك نشاطاً عظيما ، وأقام حُكم التوراة بين أهل المدن وبين القبائل في السهل والجبل . ثم عاودَه حُلم أخيه حسان، فأخذ يفكر في أن يتهيأ للخروج من اليمن بيهوديته لينشرها في الآفاق ويفرضها على أهل الشرق والغرب ولم يكن في قصره حبْران كاللذين كانا في قصر أخيه ، فلم يردّه أحدٌ عما كان قد همّ به وتهيأ له . وإنه لفي ذلك ، وإذا يهودي من أهل نجران أقبل مُسرعاً مُروّعاً حتى دخل صنعاء ، وانتهى إلى القصر ، واستأذن على الملك شاكياً باكياً مستغيثاً لليهود ، مستنجداً للتوراة . فلما أذن له ومَثلَ بين يدي ذي نُواس ، زعم له أن رجــلاً من الروم أقبل في قافلة من القوافل فأفسد نجران وما حولها . وحمل المشركين من العرب والأعراب على دين المسيح ، وأن هؤلاء النصارى قد اعتزّوا على اليهود وعَلوا عليهم. ثم بغوا وطغوا ، وأسرَفوا في البغي والطغيان ، حتى أهانوا التوراة ونالوا مَن ذادَ عنها بالسوء ، وحتى قتلوا من اليهود نفراً ، وأخافوا مَن بقي منهم في المدينة .

وقد قدمت عليك أيها الملك فزعاً مُستصرخاً ، فإما نصرتنا ، وإما حولتنا عن هذه المدينة ، التي لم يبق لنا فيها مقام .

قال الملك وقد أخذ منه الغضب وملكه الغيظ : أفتراني آذَنُ لغير اليهودية من الدين في أن يستقرّ ببلاد العرب وأنا عظيم حمَير ، ووارثُ تبع ، وذو صنعاء ؟! ثم أذّن في الجيش بالرحيل . وما هي إلا أيام ، حتى كانت نجران قد أحيط بها . ودعا الملك إليه جماعةً من قوّاده وعُظماء جنده، فأمرهم أن يجمعوا له أشراف المدينة وأهل الرأي والمكانة فيها . فلما حشدوا له حشداً خيرهم بين اليهودية والموت ، ولم يَدَعْ لهم مخرجاً من هذين الأمرين ، ولم يُمهلهم ليفكروا أو ليدبروا أمرهم بينهم . ومـا كانوا في حاجة إلى التفكير ، وما كانوا في حاجة إلى التروية ؛ فقد ملكت النصرانية

عليهم قلوبهم وعقولهم واختلطت بدمائهم . فما أسرع مـا أجابوا : أيها الملك إذا لم يكن بدٌّ من الاختيار فإنا نختار الموت. فلما رأى الملك منهم ذلك أمر منادين أن يؤذنوا في المدينة: ألا إن الملك قد خير أشرافكم بين اليهودية والموت، فآثروا أن يموتوا، فأيكم اختار اليهودية وأشفق من الموت فله أن ينحاز إلى الجيش . وطال نداء المنادين وتأذين المؤذنين فلم ينحز الى الجيش احد . هنالك أمر ذو نواس فاحتفرت الأخاديد (١) ، وجمع فيها الحطب والخشب ، وألقي فيها الزيت ، وأضرمت فيها النار ، ودفع أهل نجران اليها دفعاً . وهنالك أطلق ذو نواس أيدي حمير في اهل نجران ، ينالونهم بالقتل والمثلة (٢) ، ويحتازون من اموالهم ونسائهم ما يشاءون . وهنالك جرت الدماء أنهاراً ، وانتثرت الأشلاء انتثاراً ، وارتفع اللهب الى السماء ، بنفوس الشهداء .

وفي أثناء هذا كله كان شيخ فانٍ ضعيف قد خرج من خيمته وأشرف من مكان مرتفع ، فأخذ ينظر الى النار ترتفع في السماء ، والى الدماء تجري على الأرض ، وأخذ يسمع أصوات المصلين وهم يقبلون الى الموت ، وأصوات المعتدين وهم يدفعونهم اليه ، وأخذ يذكر عهداً بعيداً ، بعيداً جداً ، ويستحضر صورة منكرة جداً ، رآها أثناء الشباب في مدينة من مدن البحر ، جرت فيها الدماء ، وانتثرت فيها الأشلاء ، واضطرمت فيها النار ، وصلّى فيها الشهداء ، وسخر فيها المعتدون . وأخذ الشيخ ينظر الى هذه الصورة البشعة أمامه ، ويرى تلك الصورة البشعة وراءه ، ويقارن صورة الى صورة ، ثم تحدث الى نفسه في صوت هادىء رقيق : لقد ضاقت نفسي الشابة بتلك الصورة ففررت من المدينة وخرجت الى الله عن اهلي ومالي ، وما كانت الحياة قد هيأت لي من لذة وأعدت لي من نعيم... وإني لأنظر الى هذه الصورة فأحبها واشتهيها وأفتتن بها وأدفع اليها ... ماذا !! لقد انحسرت عني الشيخوخة انحساراً ، وارتفع عني الضعف ارتفاعاً ، واصبحت شاباً قوياً شديد النشاط كما كنت منذ اكثر من خمسين عاماً ... ماذا ! ان هذه النار المضطرمة لتعجبني ، وان هؤلاء الذين يقبلون اليها ليدعونني ... ماذا ! أرى هذه النار ولا أسرع اليها ، وارى هؤلاء الناس ولا ادخل فيهم . اني لأجيل طرفي في السماء من امام ومن وراء... ماذا التمس ! لن أرى آلهة اليونان كما رأيتهم من قبل ينظرون ثم ينكرون ثم يرتحلون . انما كان آلهة اليونان باطلاً كلهم ... وقد مات الباطل وما ينبغي له ان يبعث من جديد . ثم يسعى كيمون

---

(١) الأخاديد : جمع أخدود ، وهو شق مستطيل في الارض .

(٢) المثلة (بفتح وضم الثاء او سكونه) : العقوبة .

هادئاً متئداً ، حتى اذا دنا من النار استحال سعيه عدْواً واتئاده حركة عنيفة ، واذا هو ينضم الى الناس، واذا صوته يمتزج بأصواتهم ، واذا هو يدخل معهم في هذا الموت، ليصل معهم الى دار الخلود ...

قلت لمحدثي : وكم كان عدد الشهداء من اهل نجران ؟ قال : تحدث الناس ان ذا نواس أفنى منهم قريباً من عشرين الفاً ، وان رجلاً واحداً جدّ في الهرب حتى اعجز الطالبين ، فنجا ومعه إنجيل قد مسّته النار ، فانطلق به الى النجاشي يستعينه على الثأر . وكانت هذه القصة آخرة الملك الحميري ، بل آخرة الملك العربي في بلاد اليمن .

– ١٠ –

راهب الإسكندرية

أقبل أهلُ الدير على راهبهم الجديد يُحدّثونه ويسمعون منه ، وكان شيخاً قد تقدمت به السن ، ولكنه احتفظ بقوةٍ ونَضرةٍ قلما يحتفظ بهما الشيوخ إذا قاربوا السبعين . وكان وَضيءَ الوجه ، مُشرق الجبين ، مُنطلق اللسان ، عذب الحديث في يونانيته الإسكندرية . وكانت تظهر على وجهه وفي حديثه آثار النعمة والغنى ، وحياة الرجل الذي لم يذُقْ بؤساً ولا فقراً ولا هواناً . وكان قد أقبل على هذا الدير الصغير الذي كان يقوم في طرف من أطراف الصحراء مما يلي الشام ، حيث تمرّ القوافل الآتية من بلاد العرب والذاهبة إليها. وكان مَقدَمه على الدير حديثاً لم تمض عليه إلا أيام قليلة.

وكان قد أقبل يحمل مالاً كثيراً فيه ذهب وفضة ، وفيه جوهر وعُروض فلما بلغ الدير استأذن على رئيسه فأذن له . وهنالك قدّم إليه ما كان يحمل من المال وقال : اتّخذْ من هذا المال ما تُصلح به أمر الدير وأهله ، فإن بقي منه فَضلٌ فأنفقه في وُجوه الخير والمعروف ؛ فإني قد خرجتُ لك عنه كما خرجتُ لله عن لذّات الحياة كلها ، ووقفتُ ما بقي لي من العمر على الطاعة والعبادة والتفكير في الدير ، ولستُ أسألك إلا أن تؤويني في هذا الدير ، لأنقطع إلى عبادة الله وانتظار أمره . قال رئيس الدير : أما أنت فقد قبلناك على الرّحب والسعة ، وما ينبغي لنا أن نرُدّ طارقاً يريد أن يشاركنا فيما نحن فيه من ذكر الله والإحسان إلى الناس . وأما مالُك فإنا

نقبله شاكرين لله أن ساقه إلينا ؛ فإنّ حاجتنا إلى المال في هذا المكان المنقطع الذي نحن فيه لا تنقضي . وسترى أنّ أيامنا ولياليتا لا تخلو من هؤلاء الطارقين الذين تنقطع بهم سبل الصحراء فنؤويهم ، ونُعينهم ونحملهم ، ونَبذلُ ما نملك من الجهد لنُبلغهم مأمنهم . والناسُ يُعينوننا على هذا المعروف بالقليل والكثير ، فنقبل منهم ما يبذلون وننفقه فيما ترى . ثم أوصى به أهل الدير مَن علمه ما للجماعة من نظام . فلم يكد يمضي بينهم أياماً حتى ألفوه وكلفوا بحديثه ، وعلموا أنّ عنده شيئاً ، وأنه ليس كغيره من هؤلاء الذين تدفعهم قوةُ إيمانهم أو يدفعهم يأسهم مما كانوا يبتغون من المنافع والآمال أو اللذات إلى الدير . إنما كان رجلاً فذّاً تدل مظاهره وأحاديثه على أنّ له نبأ لا كالأنباء وأملاً لا كالآمال . فأخذوا كلما فرغوا من أعمالهم وطعامهم وصلاتهم حين يُقبل الليل ، يُطيفون به ، ويَسمرون معه ، فيتحدثون إليه ويستمعون له . وهم في هذه الليلة يسألونه عن أمره : كيف انتهتْ به الحياة إلى الدير ، وكيف طابت نفسه عن هذا المال العريض والثراء الضخم فنزل عنه كما ينزل عن أيسر الأشياء ؟ قال : إنّ قصتي لا تخلو من عجب ، وقد تسمعونها فتنكرون منها الشيء الكثير ، ولكني مع ذلك سأحدثكم بها لا رغبةً في أن أثير العجبَ في نفوسكم ، ولا في أن أعينكم على إنفاق الوقت ، ولكن نصحاً لكم وإشفاقاً عليكم ؛ فقد أرى أنّ أمري يثير في نفوسكم حبّاً للاستطلاع قويّاً متصلاً يُوشك أن يصرفكم عن بعض ما ينبغي أن تفرغوا له . وما أريد أن أكون مصدرَ خطيئة مهما يكن أمرها يسيراً .

ثم أطرقَ غيرَ طويل كأنه يفكر ويستحضر أوّلَ قصته ، ثم قال : كنا ثلاثة شُركاء نُصرّفُ بين أرجاء الأرض العريضة تجارة واسعة . وكنا قد اقتسمنا الأرضَ بيننا أثلاثاً ، فرغ كل واحد منا لواحد منها يدبّرُ شأنه ، ويصرّف التجارة فيه إيراداً وإصداراً . وكنا نلتقي من حين إلى حين ليُلقي بعضُنا إلى بعض ما انتهتْ إليه تجارتهُ من ربح ، ولننظم فيما بيننا أمرَ هذه الثروة التي كانت تنمو فتسرع في النمو ، وتَطّردُ زيادتها الغريبة من عام إلى عام . وكان أحدُنا قد اتخذ مستقرّه في روما يدير منها تجارةَ القسم الغربيّ من الأرض . وكان الآخر قد اتخذ مقامه في قسطنطينية يُدير تجارة هذا القسم من أقسام الدولة في بلاد اليونان وتراقيا وما إليها حتى يصل إلى بلاد السيتيين . وكنت أنا قد اتخذت الإسكندرية لي داراً ، وكنتُ من أهلها .

وكانت إليّ تجارةُ الهند وهذه البلاد التي يسكنها البدو ، والتي تسيرُ منها القوافلُ فتخترق الصحراء على ظهور الإبل والتي يسمونها بلاد العرب . وكانت تجارتنا الواسعةُ

تضطرنا إلى علم دقيق بأمور الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ، وبأمور الأقاليم والأقطار ، وما تستطيع أن تُعطي وما تستطيع أن تأخذ . وكان هذا العلمُ يدفعنا إلى نشاط شديد عند رجال المال والزراع ، وإلى اتصال شديد برجال الدين والسياسة والحكم . فأما صاحبي في قسطنطينية فقد كان واسعَ الحيلة حسنَ المدخل إلى نفوس الناس ، حتى استطاع أن يجعل لنفسه في بلاط قيصرَ مكاناً ممتازاً . وأستطيع أن أقول : إني جَهدتُ ووُفّقت في الجهد حتى كان حُكامُ مصر وبطارقتها وقادتها أصدقاء لي ، لا يكاد أحدُهم يصل إلى الإسكندرية حتى تنشأ بينه وبيني أسبابُ المودّة والألفة ، وما هي إلا أن أصبح من خاصّته وأصفيائه المقربين. ولم يكن صاحبنا الغربيُّ أقلَّ منا مهارةً ، ولا أضيقَ منا حيلةً في التعرف إلى مَن في الغرب من العظماء والسادة ، ومن الأشراف والملوك .

وكانت أمورُنا تجري على خير ما نحبّ ، إلا من ناحية واحدة كانت تُكلفنا عناء وجهداً لا آخر لهما ولا غناء فيهما . وكانت هذه الناحية هي ناحيتي أنا ؛ فقد كنا نتلقى مشقةً وعناءً في تدبير تجارة الهند والشرق ، لا نستطيع أن نصل إلى مصادرها ولا أن نأخذها من أهلها ، لبعد الشُّقة وضعف الأداة وانقطاع سُلطان الدولة عند الصحراء . فكنا نتلقى هذه التجارة كما يتلقاها الناسُ الآن من هذه القوافل التي تحملها إلينا ، فتقطعُ بها الصحراء وتُنفقُ في ذلك من الجهد ، وتحتملُ في ذلك من المشقة ، وتبذلُ في ذلك من النفقات ، ما يدفعها إلى أن تُغالي في البيع ، وتشتط فيما تطلبُ من الربح . وكنا نُذعن لشططها كما يُذعنُ الناس الآن ؛ لأننا لم نكن نجد كما لا يجد الناس الآن بُدّاً من هذا الإذعان وكنا نسعى في بلاط قيصر وعند حكام الإسكندرية ونُلحُّ في السعي ، نريد أن نحمل الدولة على أن تبذل شيئاً من الجهد لتبسط سلطاننا على الصحراء أو على البحر ، فلم يكن سعينا ينتهي إلى شيء . وإنا لفي ذلك، وإذا فرصة تسنح وظروفٌ تتهيأ ، ما كنا لنحسب لها حساباً ، وما كان ينبغي لنا أن نُهملها وقد سنحتْ وأمكنتنا من العمل .

أقبلت سفينةُ البريد ذاتَ يوم من قسطنطينية وفيها رسولٌ أرسله صاحبي إليَّ ينبئني بأن كتاباً ذا خطر قد أرسل إلى الحاكم ، ويتقدم إليَّ [1] في أن أتلطف حتى أعرف من أمر هذا الكتاب ما يعني تجارتنا ، وألاّ أقصّر اذا عرفت ذلك فيما ينبغي ان اتخذ من الوسيلة لتستفيد تجارتنا أعظم الفائدة .

فلما قرأتُ هذا الكتاب عُنيتُ بما فيه ، ولم ألبث أن زرت الحاكم ، ولم أنصرف

(١) تقدم إليه بكذا أو في كذا : أمره به وأوصاه .

عــن مجلسه ، حتى علمت جلية الأمر ، وحتى قدَّرت لتجارتنا نموًّا لا حدَّ له . ذلك أن السفينة كانت تحمل إلى الحاكم كتاباً من ديوان قيصر ، يأمره فيه أن يُهيء أسطولا لا يقل عن مائة من السفن ليبحر إلى بلاد النجاشي ، وعرفت أن مصدر هذا الأمر إنما هو اعتداء اليهود في أقصى البلاد العربية على إخواننا في الدين ، وتحريقهم بالنار ، وأخذُهم بألوان العذاب ، حتى بلغ الذين قتلوا منهم عشرين ألفاً أو يزيدون. وقد لقيت عند الحاكم أخاً لنا في الدين من أهل تلك البلاد ، قد استطاع أن يفلتَ من اليهود ومعه مُصحفٌ من مصاحف الإنجيل قد مسَّته النار ، فلجأ إلى النجاشي يطلب منه الغوث ، وأظهر النجاشيُّ حفيظةً وغضباً للدين ، ولكنه عجزَ أن يُغيثه ؛ لأن جُنده على قوته وكثرته لم يكن يستطيع أن يعبر البحر إلا على السفن، ولم يكن عند النجاشي من السفن قليل ولا كثير .

هنالك أرسل النجاشي هــذا العربيَّ النصرانيَّ إلى قيصر يستنجده ويستعينه ، ويطلبُ إليه السفنَ لتجيزَ جيشه إلى عُدوة [1] اليمن. ولم يكد قيصرُ يرى مصحفَ الإنجيل وقــد مسته النار ، ولم يكد قيصرُ يسمع قصةَ النصارى وقد خُدَّدت لهم الأخاديدُ وحُرِّقوا فيها تحريقــاً ، ولم يكد قيصر يسمع قصة ذلك القديس اليوناني الذي حمل إلى العرب دين المسيح ، فذاقَ في سبيل ذلك الموت محرقاً بتلك النار التي حرَّقت غيره من المؤمنين ، حتى ثارتْ حفيظته وموجدته . وأمر من فوره أن يُكتبَ لحاكم الإسكندرية في تسيير هذا الأسطول مهما يكلفه ذلك من النفقات .

فلما عرفتُ من الحاكم ومن هذا العربي جليَّة الأمر لم أطل التفكير ، وإنما عدتُ إلى الحاكم بعد ساعات وقلت له : لا عليك ! إني أريد أن أنهض بهذا الأمر . وأن أجدَّ فيه وحدي، وأن أريح الدولةَ مما قد تتكلف في سبيله من الجند والمال والمشقة. فهذا النجاشيّ لا يريد إلا سفناً تجيز جنده إلى اليمن ، فدعني أهيىء هذه السفن قال الحاكم وهو يبتسم : لا أرى بذلك بأساً ؛ فهو يُريح الدولة ، وهــو ينفعك وينفع صاحبيك ؛ فما أرى أن هذه السفن ستعود فارغة ، وما أرى إلا أن قوافل الصحراء ستتعب في عبورها إلى الشام في العام المقبل ، وما أرى إلا أن أهل البادية سيحسون لذعَ الجوع . قلتُ : وإن أهل مصر والإسكندرية سيجدون الثروة والغنى إن وُفقنا في هذه الرحلة ، وإن أصحاب هــذه السفن إن عادت سالمة موفورةً ، سيعرفون للدولة ورجالها ما ينبغي من الحق . قال الحاكم : فهو ذاك .

---

(١) العدوة : الشاطىء .

ولست أستطيع أن أصور لكم تلك الخواطر التي لم تكن تحصى والتي كانت تضطرب في نفسي اضطراباً كاد يذهلها عن كل شيء . فقد كنت أرى نفسي قائداً عظيماً على رأس أسطول ضخم . يُبعدُ في البحر ليرفع أعلام قيصر على أرض لم تبلغها جنودنا من قبل . وكنت أرى نفسي سائحاً عظيماً يسجل في كل يوم مـــا شَهِدَ وما رأى من غرائب البر والبحر ، ومن أطوار الناس وضروب الحيوان والنبات ، وكنت أقارن بين نفسي وبين إكسينوفون ، وأرى أن الكتاب الذي سأكتبه عن هذه الرحلة لن يكون أقلّ جمالاً ولا روعة ولا خطراً من كتاب إكسينوفون بعد أن عاد من رحلته المشئومة . وكنتُ أرى نفسي ثائراً للدين ، منتقمـــاً للنصرانية ، مؤيداً للمسيح ، ظافراً بإكبار القسس والرهبان والبطاركة في جميع أقطار الأرض . ثم كنتُ أرى نفسي بعد هذا كله مُثرياً عظيماً قد ملك البحرَ ، وقاد مائة سفينة فارغة ، ثم عاد بها مثقلةً بخير ما تنتج الهند وبلادُ العرب السعيدة وبلادُ الأثيوبيين من ضروب التجارة والعُروض ، حتى إذا انتهى إلى مصر نَشرَ تجارته هذه في الشرق والغرب ، وغمر الأرضَ كلها بهذه البضاعة فيسّر على الناس من أمرهم كل عسير ، وأتاحَ للأغنيـــاء المترفين والفقراء والبائسين من وسائل الترف واللذة ما لم يكونوا يحلمون به ، وربحَ من هذا كله مالاً لم أفكر في إحصائه وتقديره ، لأن ذلك كان يسلط على رأسي شيئاً من الدوّار لم أستطع أن أثبت له .

ومنذ ذلك اليوم أعرضتُ عن كل شيء إلا تدبير هذه السفن وتهيئتها للرحيل . فما أكثر ما اشتريتُ من سفن، وما أكثرَ ما ابتنيتُ منها، وما أسرع ما بثثتُ أعواني في أقطار مصر يجمعون لي من أنواع التجارة والعُروض ما كنت أريد أن أحمله ! فلم تَطِبْ نفسي عن ذهاب السفن فارغة إلى بلاد النجاشي . ولم تمض ستة أشهر حتى أقلع الأسطول العظيم بعد أن باركعليه رجال الدين ، وبمشهد حافل من رجال السياسة والأعمال ، ومن جماعات الشعب الذين كانوا ينظرون إلينا مبتهجين مستبشرين ، والذين لم يملكوا أنفسهم أن دفعوا في الجو صيحة هائلة ملؤها البشرُ والإعجاب حين اندفعت سُفننا تشق عُباب الموج . وقضينا في البحر أياماً طوالاً تطيب لنا الريحُ أحياناً ، وتتنكر لنا فيها أحياناً أخرى. ونحن على كل حال مبتهجون مستبشرون، نستمتع بما نرى من جمال الطبيعة في هذا البحر الذي لم يألفه اليونان ، ولم يُذللوه لسفنهم بعدُ .

لستُ أريد أن أسوءكم بأن أصور لكم حياتي في تلك الأيام التي قضيتها قائداً عظيماً للأسطول العظيم ، والتي كنتُ أراها أسعدَ ما كان ينتظر الإنسان من دهره ،

فأصبحت أراها الآن أيام شقوة ونقمة وتَعَس ، وأستغفر الله جاهداً مما حملتُ فيها من أوزار وأثقال . وأعتقد أني مهما أتكلّفُ من مشقة في العبادة ، ومن حرمان في ذات الله ، فلن أكفّرَ عن بعض ما جنيتُ فيها من إثم وذنب . وحسبي أن تعلموا أني كنت كغيري من اهل طبقتي ومنزلتي في الاسكندرية وغيرها من المدن التي كانت تزهر فيها الحضارة ، ويسود فيها سلطان الفلسفة والعلم ، رقيق الدين ، قد اتخذت من المسيحية ستاراً لا يكاد يُخفي ما بقي لي من عادات آبائي الوثنيين . فقد كنت احب اللذة واتهالك عليها ، وقد كنت ابسط سلطان عقلي على كل شيء ، فينتهي بي إلى الشك في كل شيء. وكنت احب وثنية اليونان القدماء ، ولكني لا أؤمن بها، وأتكلف مسيحية اليونان المحدثين ، ولكن لا اطمئن اليها . وكنت قد اتخذت لنفسي ديناً قد اتخذه أشرافنا وسادتنا لأنفسهم في هذه الأيام . وقوام هذا الدين الشك في كل شيء ، والإيمان بإلهين اثنين ، هما اللذةوالغنى.وعلى اللذة والغنى وقفت حياتي في الاسكندرية، وعلى اللذة والغنى وقفت حياتي حين كنت قائداًعظيماً لأسطول عظيم فكم استصحبت من القيان والمغنين والشعراء والمضحكين ؟ وكم حملت من الكتب والنبيذ ! وكم انفقت من الحيلة لأتخذ من ألوان الزهر والشجر ما يستطيع الاحتفاظ بجماله ونضرته على بعد العهد واختلاف الجو والإقليم ! وتستطيعون بعد ذلك ان تصوروا لأنفسكم كيف قضيت تلك الأيام الطوال منذ أبحرت من مصر إلى ان بلغت بلاد الأثيوبيين .

هنالك استقبلنا الناس استقبال الفاتحين الظافرين ؛ فقد كانوا يتحرقون غيظاً على هذا الملك العربي اليهودي ومَن حوله من اليهود . وكانت قلوبهم تَدْمى حُزناً على إخوانهم المسيحيين الذين فُتنوا عن دينهم ، واستشهدوا في سبيل هذا المسيح . ولم تكن النار التي كان يثيرها الغيظ والحزن في صدورهم أقل من النار التي أذكاها ذلك الملك العربي اليهودي وحرّق فيها إخوانهم في الدين . وما أظن ان احداً كره البحرَ وضاق به ، وتمنى لو غار ماؤه والتقى ساحلاه ، كما كره اولئك الناس بحرَهم ذلك الذي كان يحول بينهم وبين عدوهم من اليهود . على اننا انفقنا أياماً قبل أن نجيز بالجند الى بلاد العرب ؛ فلم يكن بدٌ من ان القى الملك واقدم اليه تحية قيصر وهديته . ولم يكن بدٌ من أن أصرف تجارتي واستوثق لما حملت من العروض .

وما هي إلا ايامٌ حتى كانت السفن قد شحنت بالجند وما يحتاج اليه من عدة وسلاح وفيلة . ولم يكن عبور البحر عسيراً ، ولم يكن النزول إلى أرض اليمن شاقاً ، ولم يحتج الجند إلى كبير قتال ؛ فإن الملك العربي لم يكد يرى هذا الجيش الضخم مجهزاً بما

كان قد جهز به من العدة والسلاح، ولم يكد يرى هذه الفيلة المروعة المخيفة حتى خاف وارتاع، ووجه فرسه نحو البحر فاقتحمه ولم يعرف الناس له خبراً. وتفرق من كان حوله من الجند وعلى رؤوسهم أقيال اليمن وأذواؤها. وخلصت الطريق لنا إلى صنعاء، فدخلناها ظافرين ولم نلق كيداً. ولم نستقر في صنعاء حتى وجهنا الجند إلى تلك المدينة الشهيدة فنبلغها بعد أيام ونرى من آثارها وأطلالها ما يمزق الافئدة ويذيب النفوس.

فما اسرع ما يعمل الجند! وما اسرع ما يسخر اليهود! وما اسرع ما تقام المدينة! وما أسرع ما تقام فيها البيع والكنائس! وما اسرع ما ينادى في الناس أن مدينة المسيح قد ردت إليه، وأن أهلها الذين فرقهم الخوف آمنون! وما أسرع ما حمل كثيرون من أهل اليمن على النصرانية حملاً! وما أسرع ما دخل كثير من أهل اليمن في النصرانية راغبين أو راهبين! ونعود إلى صنعاء وقد ثأرنا للدين، وأقمنا نجران على خير ما كان ينبغي أن تقام عليه مدينة من المدن.

وأخذت بعد ذلك أفكر فيما ستشحن به السفن من التجارة والعروض وجعلت أتهيأ لذلك وأهيىء له. وتحدثت فيه إلى قائد الجيش فلم يمانعني ولم يأب علي، بل تقدم في ذلك بخير ما أحب. ولكنه طلب إلي ألا أعود بالسفن كلها إلى مصر؛ فقد تطرأ الطوارىء وتعرض الأحداث ويحتاج جند اليمن إلى العبور إلى بلادهم، أو يحتاج أهل الحبشة إلى العبور إلى إقليمهم الجديد؛ فلا بد لهم من سفن وإن تكن قليلة يستعينون بها على مثل هذه الشؤون. فدع لنا بعض أسطولك ونحن نعوضك عنه بما شئت من المال والعروض.

وكذلك تم الاتفاق بينه وبيني على أن أنزل له عن ثلث الأسطول وأعود بثلثيه وقد حملتها ما استطاعا حمله من تجارة تلك الأقطار. ويتم كل شيء، وتقلع سفن الأسطول كلها إلا سفينة القائد العظيم؛ فإنها تنتظر أن أصل إليها لتأخذ طريقها إلى مصر. ولكن حدثاً يحدث فيغير كل شيء، ويقطع بيني وبين الأسطول كل سبب ويصرفني عن التجارة كارهاً أعواماً طوالاً. ماذا أقول! بل يصرفني عن نفسي أعواماً طوالاً. فقد كان قادة الجند منذ استقر لهم الأمر في هذا الإقليم الجديد يختلفون بينهم اختلافاً شديداً: أيكتفون بهذا الفتح الذي وفقوا له، وهذا الثأر الذي ظفروا به، فقد أرضوا الملك حين بسطوا سلطانه من وراء البحر، وأرضوا الله حين انتقموا لعباده الشهداء، أم يحملون الناس على دين الملك حملاً، ويمحون اليهودية والوثنية من

هذه الأرض محواً ؟ فأمّا قائد الجيش أرياط ، فقد كان صاحب سياسة وكيد ، وكان يرى الرأي الأوّل، وينظر إلى هذا الإقليم على أنه مستعمرة قد ضُمّتْ إلى أملاك النجاشي ، فيجب أن تُستغلّ أرضها وأن يستذل أهلها ، ويُسخّروا لخدمة سادتهم الفاتحين . وأمّا غيرُه من زعماء الجيش ، ولا سيما عظيمهم أبرهة ، فقد كانوا أصحاب نسك وطاعة ودين ، وكانوا يضعون النصرانية في المكان الأول ، ولا يكادون يحفلون بالسياسة واستعمار الأرض . وكانوا يريدون أن يفرضوا النصرانية على اليمن فرضاً ، وتقدّموا في ذلك إلى قائدهم أرياط ، فأعرض عنهم وأبى عليهم . وما هي إلا أن يّنقضُوا عليه الجيش ، وما هي إلا أن ينظر الرجل فإذا هو مضطر إلى أن يضرب بعض الحبشة ببعض . ويعجبني أنا ما أرى ، فأبقى لأشهد عاقبة هذا الخلاف . ولست أدري كيف استحالت مسيحيتي الدقيقة إلى إيمان قويّ متين. والحق أني سألت نفسي فأطلت السؤال عن مصدر هذا التبديل الذي أخذتُ أحسّه منذ وطئت قدماي أرض اليمن . وأكبر الظن أن منظر تلك المدينة البائسة التعسة ، وما كان قد أصابها من الخراب والدمار ، لأن أهلها ثبتوا على دينهم ، ثم ما نالها في وقت قصير من التجديد والعمران ، لأن قوماً آخرين قد أرادوا أن يثأروا لدينهم – أكبرُ الظن أن هذا كله قد أثارَ في ضميري على غير شعور مني إعجاباً بقوة هذا الإيمان الغريب الذي يحمل ألوفاً من الناس أن يستقبلوا الموت ويتهافتوا في النار فرحين مُبتهجين كأنهم الفَرَاش، والذي يمحو مدينة من الأرض محواً، ثم يُقيمها رفيعةَ العماد، شاهقة البنيان، معمورة بالناس ، كأن الدهر لم ينلها بمكروه . فانصرفتْ نفسي شيئاً فشيئاً عن هذه الحياة التي كنتُ أكبرها والتي أصغرها هؤلاء المؤمنون . ومهما يكن من شيء فقد أخذتُ أحِس حبّاً لهذه الأرض الجديدة ، وميلاً إلى البقاء فيها ، عطفاً على هؤلاء الذين كانوا يريدون أن يُعلوا كلمة الحق ، ويأخذوا الناسَ بدين المسيح راضينَ او كارهين .

وإني لفي هذا كله وقد اشتد الأمرُ بين الجيشين المختصمين ، وإذا رسولُ أبرهة يُقبل على أرياط ليبلغه أنّ صاحبه يكره أن يقتتل الجيشان وأن تُسفكَ دماءالأبرياء، ويقترح عليه المبارزة ، فأيهما ظفر بصاحبه كان الأمرُ إليه . فيرى أرياط في هذا الاقتراح قصداً ورفقاً وإنصافاً ، فيقبله ويجيب إليه . ويزدادُ في نفسي الحرصُ على البقاء لأشهدَ عاقبةَ الأمر . وقد شهدتها فأكبرتها : التقى الخصمان وبَطشَ أرياط بعدوّه ، ولكن الحربة لم تقتله وإنما شقت جبهته وأنفه وشفته . ويُسرع عبدٌ لأبرهة فيضرب أرياط فيرديه . وتجتمع الحبشة على هذا الزعيم الذي كان يريد أن يكسب أهل اليمن لدين المسيح .

هنالك وقع في نفسي أن هذه العاقبة ليست من عمل الإنسان ولا من المصادفة ، وإنما هي شيء قضاه الله لأمر يُراد ، فتشتد في نفسي الرغبةُ في أن أُطيل البقاء بهذه الأرض لأشهدَ الصراع المحتومَ بين المسيحية من ناحية،واليهودية والوثنية من ناحية أخرى.

وكنتُ مع ذلك أنازع نفسي نزاعاً شديداً ، ولكني لم أكد أتحدث إلى أبرهة حتى استقر رأيي على البقاء ، فأرسلتُ رفيقاً لي إلى سفينة القائد ليَتقدمَ بالأسطول على مصر ، وقد أوصيته ، وأحكمت أمري له إحكاماً . ثم أبقى لأرى ما كان الله قد قدّر لي أن أراه .

وهنا أذّن مؤذّن أن قد آن لأهل الدير أن يأووا إلى حُجراتهم ، فتفرّقوا ، وكم كانوا يودّون لو مُدّت لهم أسباب السمر والحديث .

وأنفق أهلُ الدير بقيةَ ليلهم بين جاهد في العبادة ، ومُغرق في النوم،وأنفق أهل الدير بياض نهارهم بين مصلّ لله ، ومُحسن إلى الناس . فلما جَنّهم الليلُ وهدأت من حولهم الأشياء واتّخذت الصحراء جلالها الرهيب ، عادوا إلى مجلسهم يَسمُرون ، وسألوا صاحبهم أن يتمّ عليهم ما بدأه أمس من الحديث . فقال : تمت عزيمتي بعد طول التردد والتفكير على الأوبة إلى مصر ، وانتصر في نفسي حب الوطن على حب هذه الارض الجديدة ، وظهر في نفسي حبُّ اللذة والغنى على هذا الميل الجديد إلى النسك والجهاد في سبيل المسيح فأقبلتُ على أبرهة من الغد أودّعه قبل الرحيل . ولكني لم أرَ قائداً ظافراً ، ولا ملكاً منتصراً ، ولا رجلاً يزدهيه الفوز ويحيي نفسه الأمل ، وانما رأيت رجلاً متهدماً محزوناً كئيباً ، قد فكر حتى عجز عن التفكير ، وقدر حتى أعياه التقدير ، فأسلم نفسه لقضاء الله فيه ، كأنه الغريق أعيته مكافحة الموج ، فاستسلم له وانتظر الموت . ولم أكد أتحدث إليه حتى عرفتُ مصدرَ ما هو فيه من همّ وغمّ ، ومن كآبة وبؤس فقد كان مستيقناً أنه أغضبَ الله، وأحفظ الملك ، وأساء إلى الناس . ألم يكن قد بغى على قائده واعتدى عليه في غير حق ولا إذعان لما تقدّم به الملك إلى الجند من الطاعة لقائده والنصح لخليفته فيه ؟ فكيف استباح لنفسه أن ينتصفَ لرأيه بيده ، وأن يفرضَ هذا الرأي على الجند فرضاً ؛ لا يرجع في ذلك إلى أمر من الملك ، ولا ينتظر في ذلك رأيَ الملك بعد أن يرفعه إليه ! وكيف استباح لنفسه أن يقتل رجلا من النصارى ويسفك دمه ظلماً وبغياً ، لا لشيء إلا لأنه لم يوافقه في الرأي ، ولم يشاركه في الهوى ! وقد كان هذا الرجل مع ذلك نصرانياً مثله يؤمن بالمسيح ويُصلّي لله ، وقد ثار للدين من عدوّه ، وردّ

المطرودين من النصارى إلى وطنهم ، فآمنهم وأظلهم بسلطان واسع رفيق من الرحمة والعدل والإنصاف !

ثم هو لم يقف من العدوان والإثم عند هذا الحد ، ولكنه ابتهجَ بما أتيح له من الانتصار والظفر ، فلم يكد يرى خصمه صريعاً تحت قدميه حتى التفتَ إلى عبده الذي قتل أرياط شاكراً له ، مغرقاً في الثناء عليه ، قائلاً له : احتكمْ فأنا زعيمٌ لك بكل ما تريد . وقد احتكم العبد ، فأسرف على نفسه وعلى مولاه ، وطلبَ إلى سيده أمراً عظيماً : طلب إليه أن يحكّمه في أبكار اليمن كافة ، فلا تُزفّ واحدة منهن إلى عروسها حتى تمرّ به قبل الزّفاف . ولم يشعر أبرهةُ بعظم الأمر الذي طلبه إليه العبد ؛ لأن نفسه كانت ثملة بهذا الفوز ، معرضة عن كل شيء غيره ، فأجابَ العبدَ إلى ما أراد ، ولم يقدّر أنه عصى الله بهذا الإثم الذي اقترفه ، وأقدم على إذلال أمة لم تعرف الذّل ، وما كان لها أن تعرفه . ولكن أمر هذا العبد لم يكد يعرف في الناس حتى انتهى إلى نتيجته المحتومة ، فلم يحي العبدُ بعده يوماً كاملاً : لم يكد يلقاه أوّلُ من عرَف هذا النبأ من حمير حتى عدا عليه فقتله ، فكان أبرهة إذاً حين لقيته متعباً مكدوداً ، مضطربَ النفس ، حائراً غارقاً في ندم عميق . وجعلتُ أردّه إلى نفسه قليلاً قليلاً ، أجدّ لا في تهوين الأمر عليه فلم يكن أمرُه هيناً ولا يسيراً — بل في التقريب بينه وبين الرشد والصواب ، لعله يعود إلى التفكير والتقدير ، ولعلي أستطيع أن أعينه على أن يجد لنفسه مخرجاً من هذا المأزق الذي اضطرّ إليه .

فقد كان عظيماً حقاً أن تذهبَ كلّ تلك الآمال والأماني التي ملأت نفس هذا الرجل وأصحابه من قواد الجند ، ودفعتهم إلى ما دفعتهم إليه لينشروا كلمة الله ، وليديلوا [1] للنصرانية من وثنية الوثنيين ، ويهودية اليهود . وما زلتُ به ألاينه حيناً وأخاشنه حيناً آخر ، حتى هدأت نفسه بعض الشيء ، واستطعنا أن ننظر إلى الأمر في روية وتبصر ؛ وأقنعته بأن يبدأ بما لا بدّ من الابتداء به فيرضيَ هؤلاء الناسَ الذين أحفظهم وأثار في نفوسهم الحميةَ حين حكّم عبداً من عبيده في أعراضهم وكرامتهم . وما هي إلا أن يسمع لي ويَقبلَ رأيي ، وإذا هو يدعو إليه مَن حضره من أشراف حمير ، فيعتذرُ إليهم ويثني عليهم ، ويهنئهم بما أظهروا من عزة وإباء للضيم ، ويُقسم لو قد عرَف نيةَ العبد لما حكّمه ، بل لاكتفى بما يكتفي به الناس في مثل هذه الحال ، فاعتق العبد وأغناه وردّه إلى بلاد

(١) يقال : أدال الله فلانا من فلان إذا أظفره به وجعل الكرة له عليه .

الحبشة راضياً مسروراً . فأما وقد قتل هذا العبدُ نفسه فلا عليكم ولا عليّ ؛ فقد ظهر لي أنكم أحرارٌ كرام : وسيظهر لكم أني حر كريم ، وأنّ المودةبينكم وبيني لن تسوء، ولكنها ستسرّكم وتُقرّ أعينكم ، وستشعرون بأني لا أملك بلادكم لنفسي ولا للنجاشي مولاي وإنما أملكها لكم قبل كل شيء ، أصلح من أمرها وأمركم مستعيناً بكم على هذا الإصلاح ، فمن رأى منكم أن يشير عليّ بشيء فليفعلْ مشكوراً واثقاً بأني سأقدُر نُصحه ، وأسمعُ لمشورته ما وجدتُ إلى ذلك سبيلاً .

وكان لهذا الكلام اللين الرفيق موقعه في نفوس هؤلاء الأشراف من حِمْير ، الذين كانوا ينتظرون غضبَ أبرهة عليهم وانتقامه منهم . فلما رأوه مُلايناً مُحاسناً ، لاينوه وحاسنوه ، وأظهروا ثقةً ورضاً واطمئناناً . ووعدوا بالنُّصح له والطاعة لأمره ، كما كانوا يفعلون مع ملوكهم من أبنــاء تُبّع . وبالغ أبرهة في استرضائهم ، فأجزل لهم العطاء ، ونظم الصلة بينهم وبينه على خير ما يحبون ، ثم خلا إليّ فقال : لقد جئتني مُودّعاً فيما أذكر؛ لأنك تريد العودة إلى بلادك ؟ قلت : نعم ؛ فقــد طالتْ غيبتي عن الوطن والأهل والمال قال : فإني مع ذلك لن آذنَ لك في الرحيل . قلت : وما ذاك قال : ذلك أنك رددتني إلى نفسي وأشرتَ عليّ فأحسنتَ المشورة ، وما أرى أني أستطيع فراقك منذ اليوم ، فأنا في حاجة إلى رأيك وتدبيرك ومعونتك لي على ما سيعرضُ من الخطوب والأحداث ، وقــد رفعتَ عني بعض الثقل ، وفرّجتَ عني بعض الحرج ، وأصلحت ما بيني وبين أهل هذه الأرض . ولكن الملك واجدٌ عليّ وناقمٌ مني ، ليس في ذلك شك ولا ريب ولا بد من أن يُصلَح مـا بيني وبينه على أي نحو من الأنحاء ، وليس لي غنى عن نصيحتك قبل أن تستقيم بينه وبيني الأمور . وهبْها استقامت على ما أحبُّ وأهوى، فإن بيني وبين نفسي خصومة عنيفة لا أقوى على حملها وحدي ؛ فأعِنّي على نفسي ببقائك معي ، فلعلك إن فعلت ، أن تعينني على أن أنفق حياتي في إصلاح ما بيني وبين الله ، بعد أن أثمتُ فأسرفتُ في الإثم ، وعدوت فأسرفتُ في العدوان .

وكنتُ كلما هممتُ أن أجيبه مضى في حديثه ملحّاً فيه ، ولم يمكّني من الكلام. وكان يقول: لقد أقدمتُ على ما أقدمت عليه من الأمور وإن في نفسي لآمالاً كباراً؛ فلم أكن أريد أن أكسبَ هذه الأرض وحدَها لدين المسيح ، وإنما كنت أريد أن أنشر هذا الدينَ في جميع هذه الأقطار التي لا تصل إليها أيدي الملوك ، ولا ينبسط عليها سلطانُ قيصر وكسرى والنجاشي . فما يمنعك أن تعينني على ذلك ، وتشاركني فيما سأبذل فيه من

جهد ، وما سأحتملُ فيه من عناء ، وما سألقى عليه من أجر وجزاء ؟! وكان يقول: ولست أرى على تجارتك بأساً ، وإنما أرى لها الربح كلّ الربح والنموّ كل النمو ؛ فما يمنعك أن تقيم هنا حتى تنظم الصلة بين بلادنا وبلادك ، فتكسبَ أنت ، ونكسبَ نحن ، ويستفيدَ الناس جميعاً !!

كل هذا الحديث المختلف أثر في نفسي وغير رأيي وعزيمتي ، وأغراني بالبقاء ، وفتح لي أبواباً من الأمل والنشاط لم أقدر قطّ أني سألجها في يوم من الأيام. فقد رأيتني محتكراً لتجارة الهند وبلاد العرب . ورأيتني وزيراً للملك إلاّ يكن عظيماً الآن ، فسيكون عظيماً من غير شك بعد وقت قصير . ورأيتني سفيراً مُقيماً لقيصر عند هذا الملك وعند النجاشي ، أستطيعُ أن أسير سياستها فيما يرضي مصالح الروم ومرافقهم وتفوقهم السياسي على عدوهم من الفرس . وما هي إلا أن اقبل الإقامة مع أبرهة ، ولو إلى حين .

وتمضي أيام، وإذا أنباء النجاشي تصل إلينا مُخيفةً مروّعة . فلم يكد يعلم بما كان من اضطراب الجند وقتل قائده أرياط ، حتى اقسمَ لا يستقرُّ قبل أن يسفك دَمَ أبرهة ويطأ أرضه . ويخلو إلى أبرهة للتشاور والتدبير ! فيتفق رأينا على أن نحلّ الملك من قسمه بحيلة من الحيل ، وفن من فنون المكر ؛ فان أفلحنا فذاك ، وإلا نصبنا له الحرب وقطعنا ما بينه وبيننا من صلة . وأنّى لبده أن تمتد إلينا والبحرُ بيننا وبينه، والسفن خالصة لنا من دونه ، ثم يفتصد أبرهة ويضع دمه في قارورة ، ويملأ جراباً من تراب اليمن ، ويرسل دمه وتراب اليمن إلى الملك مُعتذراً إليه ما وَسعه العذر ، مجدداً طاعته ، مؤكداً وفاءه قائلا: « هذا دمي فليسفكه الملك، وهذه أرضي فليطأها الملك ، تحلةً من قسمه ، وله عليّ بعد ذلك ألا أورد ولا أصدر إلا عن أمره ورأيه ورضاه ! » .

وقد اعجبت الملكَ حيلتنا هذه ، فيرضى عن قائده ويقره على عمله ، ونفرغ نحن لما كنا ندبر من الشؤون. وكانت عظيمة حقاً تلك الشؤون التي كنا ندبرها . فلم نكن نطمع في اقل من ان نردّ إلى بلاد اليمن يُمنها القديم ، وثراءها الذي بَعُد صوته في الآفاق ، وفي ان نجعلها خالصة للنصرانية ، وفي ان تبسط سلطانها على بلاد العرب كافة . وكنت اداعب في نفسي حلماً لذيذاً ، لم يلبث ان اصبح املاً تدفعنا إليه ظروف الحياة دفعاً . فقد كنت أفكر في أن أنشر سياسة قيصر وسلطانه مع دين المسيح: وفي أن أصل بين ممالك قيصر في الشام وحلفاء قيصر في اليمن ، وفي أن أخضع

ما بين هذين القطرين من الأرض لسلطان إن لم يكن خالصاً لقيصر ، فهو شركة بينه وبين حليفه النجاشي ؛ وهو على كل حال مُعين لقيصر على عدوه كسرى . ولم أكن أصارح أبرهة بهذه الأحلام والآمال ، حتى اضطرتني الظروف إلى أن اصارحه بها ذات يوم ، حين أقبل السفراء من عند كسرى فأنبأوا بأن الحرب قد شبت بين الفرس والروم وطلبوا إلى أبرهة أن يُعين على الروم بما يملك من قوة وتأييد . هنالك صارحت صاحبي ، ولم أجد مشقة في إقناعه برأيي وحمله على ما كنت أريد . ألم يكن يجمع بيننا وبينه الدين !

على أننا فرغنا قبل كل شيء لأمور اليمن ، فجددنا من عماراتها المتداعية ، وأقمنا سدودها المتهدمة ، ونظمنا مجاري الماء فيها تنظيماً حسناً ، واجتهدنا في نشر الدين ما وسعنا ذلك ، لا نشق على الناس ولكن نأخذهم باللين والرفق ، وأقمنا كنيسة في صنعاء لم يعرف اهل هذه البلاد مثلها ضخامة وفخامة ، وجلالاً وجمالاً وزخرفاً : جلبنا لها المرمر من أطراف الأرض ، ودعونا لها العمال من قسطنطينية ، وحليناها بالذهب والفضة والجوهر ، وحرقنا فيها من الطيب والبخور ما كان ينتشر عرفه إلى أماكن بعيدة حول صنعاء ، ورتبنا لها القسس والأحبار ، ورغبنا الناس في أن يختلفوا إليها ويصلوا فيها . وقدرنا أن نقيم أمثالها في أماكن مختلفة من هذه البلاد . ولكن العرب أهل وثنية ولجاج في الوثنية ، كانوا يكبرون من أمر أبرهة ويعظمون سلطانه ويبتغون عنده المعروف ، ولكنهم كانوا يكرهون دينه وتأبى نفوسهم الاستجابة له . وكان الذين يختلفون إلى كنيستنا قليلين مهما يكثروا ، وكانوا جميعاً من ضعفاء الناس وفقرائهم وأصحاب الحاجة منهم . على أننا لم نستيئس وأخذنا نهيء أمورنا ونرغب الوفود في طاعتنا ؛ حتى لقد دعا أبرهة إليه عظيماً من عظماء العرب في هذا الإقليم الذي يسمونه تهامة ، فأكرم مثواه وأعظم أمره . وتوّجه ملكاً على قومه ، وردّه عزيزاً مكرماً .

وفي ذات يوم رُفع إلى أبرهة أمران ضاق بهما أشد الضيق . وخرج لهما عما قد ألف من الحلم والأناة . أصبح سدنة الكنيسة فرأوا أنفسهم أمام أمر عظيم : رأوا كنيستهم قد لُطخت بالقاذورات ، وألقيت فيها الجيف ، وانتهكت حرمتها . فثاروا بذلك ورفعوه إلى أبرهة ، وزعموا له أن هذا الإثم لا يمكن أن يجنيه إلا رجل من هؤلاء العرب الذين يأتون من تهامة ، حيث يقوم لهم بيت هناك يقدسونه ويحجون إليه يسمونه الكعبة ، والعرب كلها تحج إليه وتعظم أمره ، وتعظم الذين يعيشون

حوله من هذا الحي الذي يسمى قريشاً ، والذي يتجر بين بلادنا وبلاد الشام .

فلما سمع الملك ذلك غضبَ أشد الغضب . وأقسم ليَهْدِمَنَّ هذا البيت وليحملن العرب على أن يحجوا إلى كنيسته بالسيف ، بعد أن أعياه حملُهم على ذلك بالرفق واللين . ولم يكد النهار يتقدم حتى رُفعت الأنباء إلى أبرهة بأن أهل تهامة قد قتلوا ذلك الرجل الذي أرسله إليهم ملكاً ، فطار طائرُه ، وثار ثائره ، وأذّنَ من فوره بالتجهز للحرب والاستعداد للرحيل ، وأرسل إلى النجاشي ينبئه بذلك ، ويسأله أن يمده بالجنود والفيلة وما هي إلا أيام حتى تهيأ له جيشٌ ضخم قوي ، وحتى فَصلنا عن صنعاء يملؤنا الأمل وتزدهينا الكبرياء . وكنت أتحدث إلى أبرهة بأننا سنقطع هذه الطريق على طولها في غير مشقة ولا جهد ، وبأننا سنصل بين الشام واليمن ، وبأني سأستقبله ضيفاً في بلاد القيصر ، كما استقبلني ضيفاً في بلاد النجاشي . وكان جيشنا يعظم ويضخم كلما تقدمنا في الطريق بمن كان ينضم إلينا من أذواء اليمن وأقيالها .

ولكن طريقنا لم تخلُ مع ذلك من العقاب [1] ، ولم تكن أمناً كلها ، فقد نصب لنا الحرب جماعةٌ من أقيال اليمن على رأسهم رجل يقال له ذو نفَر ، غَيْرةً على وثنيتهم ، وحفيظةً لبيتهم ذلك ، ودفاعاً عن حلفائهم من قريش ، ولكنا هزمناهم في غير مشقة ، وأخذنا رئيسهم أسيراً . وهمّ الملك أن يقتله ، ثم رقّ له وعفا عنه ، واستبقاه في أسره . ومضينا أمامنا لا نلقى كيداً حتى كدنا نبلغ تهامة اليمن ، وإذا حي من أحيائها قوي عظيم البأس مسلّط على الأرض، مُتحكم في الطريق وفي القوافل التي تقطعها ، يقال له خثعم ، قد جمع لحربنا ، وغرّه عددُه فخيل إليه أنه سيقهرنا كما تعوّد أن يقهر الناس من قبل. ولكنا قهرناه في أقصر وقت وأيسر جَهْد ، وأخذنا رئيسه رجلاً يقال له نُفَيل بن حبيب أسيراً . وهمّ الملك أن يقتله ولكنه استعطف وغلا في الاستعطاف حتى ظفرَ بعفو الملك ، وتقدم مع الأدلاء ليسلكوا بنا طريقَ هذا البيت الذي كنا نقصد إليه . ونمضي في طريقنا لا نلقى كيداً ، وقد هابتنا العرب وخلت لنا الطريق ، وأعظمت أمرنا إعظاماً . حتى إذا دنونا من مكة وبلغنا مدينة عظيمة هناك يقال لها الطائف ، تقوم على مرتفع من الأرض عظيم ، ومن حولها النخيل والكروم والحدائقُ فيها أنواع الفاكهة والثمر ، كأنها مدينةٌ من مُدن الساحل الشامي قد نقلت إلى تلك الأرض المقفرة الجدبة فأقامت فيها مشرقة

(١) العقاب : جمع عقبة ، وهي طريق في الجبل وعر ، ويكنى بها عما يعترض الإنسان من المشاق والمصاعب .

زاهية كأنها الابتسامة الجميلة في الوجه المظلم الكئيب ، خرج إلينا هنالك أهلُ هذه المدينة فقدموا الطاعة واظهروا الخضوع ، وبعثوا معنا رجلاً منهم يسلك بنا إلى مكة أقرب طريق . وتمضي أمامنا حتى نبلغ مكة ، فينيخ الجيشُ ليستريح قبل أن يأخذ في الهجوم . ويأتي سفراء القبائل إلى الملك من كل مكان يقدمون إليه طاعتهم ويَعرضون عليه ثُلثَ أموالهم ، ويطلبون إليه أن يدع بيتهم هذا لا يمسه بسوء ، فلا يسمع الملكُ منهم ولا يَحفِل بهم . ثم يرسل الملك طلائعه فتغير على ما حول مكة من الأرض وتستاق كل ما تجد فيه من مال . حتى إذا كان الغد أرسل الملكُ جماعة من أصحابه إلى مكة وكلفهم أن يسألوا عن سيدها وعظيمها ؛ فإذا لقوه أنبأوه بأن الملك لا يريد قتالهم ولا حربهم ، وإنما يريد أن يهدم هذا البيت ، فإن خلوا بينه وبين البيت فهم آمنون ، وإلا فليأذنوا بحرب تسحقهم سحقاً . وأمر الملكُ سفراءه أن يأتوا بعظيم قريش إن أظهر الموادعة والميل إلى السلم. ويمضي السفراء ثم يعودون ومعهم رجل عظيم ، وسيم وجسيم ، لم أرَ قط أجمل منه ، ولا أملأ للعين ، ولا أوقع في القلب ، ولا أشدّ مهابة وجلالاً . حتى اذا بلغوا سُرادق الملك دخلوا يستأذنون له . ويسأل الملك عنه فيقال له : هذا عبد المطلب سيد قريش وصاحبُ عيرها ، أعظمها شرفاً ، وأعلاها مكانة وأكرمها نفساً ، وأسخاها يداً ، يُطعم الناس في السهل ويطعم الوحوش في رؤوس الجبال . وكنت عند الملك حين أدخل عليه هذا الرجل ، ورأيت الملك ينظر إليه فيكبره ويعظمه ، ويلقاه بالتجلة والكرامة ، ويهمّ أن يجلسه معه على السرير ، ولكنه يُشفق أن تُنكر الحبشة ذلك ، فينزل عن سريره ويجلس مع هذا الرجل على البساط . ثم يكلف الترجمان أن يسأله حاجته . فما أشدّ ما عجب الملك حين فسّر الترجمان له جواب سيد قريش . قال : حاجتي أن تردّ إليّ مائتين من الإبل أخذتها طلائعك فيما أخذت أمس من المال . قال الملك مستهزئاً : لقد أعظمتك حين رأيتك ، فإني لأصغر من شأنك الآن . لقد كنتُ أظن أنك ستحدثني في بيتك هذا الذي أريد أن أهدمه ، والذي هو دينك ودين آبائك ، وشرفك وشرف آبائك ، فإذا أنت تحدثني في مائتين من الإبل ! قال سيد قريش في صوت الهادىء الواثق المطمئن: أنا ربّ الإبل ، فلأحدّثك فيها ، فأما البيتُ فإنّ له ربّاً سيمنعه . قال الملك : لن يمنعه مني . قال سيد قريش : فأنت وذاك . وأمرَ الملك أن تُردّ الى الشيخ إبله، فرُدّت إليه .

ولكني تبعته لأرى ما يكون من شأنه ، فاذا هو لا يقبض هذه الإبل إلا ليرسلها

هَدْياً إلى هذا البيت ، الذي لم يُرِدْ أن يتحدث إلى الملك فيه . ويمضي هذا الشيخ إلى قومه من قريش ، فيأمرهم أن يتفرّقوا في الشعاب وعلى رؤوس الجبال هَرباً من الملك وإشفاقاً من مَعرّة الجيش ، ويقوم أمامَ بيته هذا الذي يعظمه وقد أخذ بحلقة بابه ، ومن حوله نفرٌ من قومه ويقول كلاماً حسنَ الانسجام شديدَ الوقع في النفس ، سمعته فأحببته ولكني لم أفهمه ، على أني كنت قد أخذتُ أحسن هذه اللغة . ثم يرسل حلقة الباب ، ويمضي مع من كان يصحبه من قومه فيحتضن في شعب من الشعاب . وأنظر أنا إلى هذه المدينة فإذا هي قد خَلَتْ من أهلها ، وقامت بيوتها هادئة ساكنة، يُظلِلُها حزنٌ عميق فيه هيبة وجلال . قامت يُظلِلُها هذا الحزن ، ولكني لم أكن أرى في هذا الحزن خوفاً ولا إشفاقاً من معاول الهادمين وأصبحنا وقد أمرَ الملك بدخول المدينة ، فيهمّ الجيش أن يتحرّك وفي مقدمته فيلٌ عظيم، ولكني أرى دليلنا نُفَيلَ بن حبيب الخثعمي يدنو من الفيل فيأخذ أذنه ويُسرّ فيها كلاماً ، ثم يُرسلها ويشتدّ هارباً في الجبل .

وتثير حركةُ هذا الرجل في نفسي شيئاً من العجَب ، فما علمتُ أنه يعرف منطق الفيلة ، وما علمتُ أن الفيلة تعرف منطقَ العرب . عجبتُ ، وليت عجبي لم يتجاوز هذه القصة ، ولكني رأيتُ بعد ذلك ما يقضي على كل عجب ؛ رأيت بعد ذلك أشياء ما قدرت قط أنني سأرى بعضها . رأيت بعد ذلك أشياء وَدِدْتُ لو لم أرها قطّ .

وإني على ذلك لسعيد أشدّ السعادة ، مغتبط أشدّ الغبطة لأني رأيتها ، فهي التي هدتني إلى الحق ، وهي التي كشفت عن نفسي الغطاء . رأيت الفيل قد بَرَك ، حتى إذا دنا منه ساسته لينهضوه نهضَ معهم ، حتى إذا وجهوه إلى مكة برك من جديد . ويجهدُ ساسته بعد ذلك في إنهاضه فلا يبلغون منه شيئاً ، يحثّونه ويؤذونه ويضربونه ويبلغون به أقصى ما يَهيج الفيل فلا ينهض ولا يهمّ بالنهوض . حتى إذا أداروا رأسه نحو الشام أو نحو اليمن أو نحو الشرق نهض ومضى مُهرْولاً ، فإذا أداروا رأسه نحو مكة برَك ولم يتقدم أمامه إصبعاً ونحن ننظر إلى هذا وقد ملأنا العجب وأخذ الدَّهَش من نفوسنا كلّ مأخذ ، وبدأ الخوفُ يلعب بقلوبنا ، وبدأ الذعر يُطلق بعضَ الألسنة بالرغبة عن دخول المدينة والانصراف عن هذا البيت . وإنا لفي ذلك ننظر إلى الساسة وهم يعالجون الفيل ، وإذا الجوّ يظلم شيئاً فشيئاً ، وإذا سَحابٌ كثيف يبدو لنا من بعيد ، قد أقبل إلينا مُسرعاً من ناحية البحر ، فلا نكاد نُطيل النظر إليه حتى نتبين ، ويا هَول ما نتبين ! لسنا نَرى سحاباً كالسحاب ، ولا غماماً كالغمام

وإنما نرى سحاباً حيّاً يخفق بأجنحته خفقاً ، ويبعث منظرُه في نفوسنا روعاً يخرجنا عن أطوارنا وينتهي بنا إلى شيء يُشبه الذهول . إني لأرى الآن السحابَ حين كان يُقبل علينا أسراباً من طير صغار ، لها مناقير الطير وأكفّ الكلاب ؛ حتى إذا دنت منا أخذت تَحصِبُ الجيش بحجارة دقاق كانت تحملها في مناقيرها وأرجلها. ولم تكن هذه الحجارة تبلغ دِقةَ العدسة ولا عظمَ الحمّصة ، وإنما كانت شيئاً بين بين ، وكانت على دقتها لا تمسّ شيئاً إلا هشمته تهشيماً ، ولا تمس رجلاً إلا ألقته صريعاً . وسلوا ما شئتم عن خوف الخائفين وذُعر المذعورين ، وانصراف أصحاب الفيل عن الفيل ، وتحول الجيش عن مكة إلى غيرها من الوجوه جاداً في الهرب ، وهذه الأسرابُ من الطير تتبعه ، تَحصِبه بهذه الحجارة ، وتملأ الجوّ من حوله بصياح مخيف .

ولست أدري كيف انتهى أمرُنا ، ولا كيف نجونا من هذه الطير . ولكني أراني مجدّاً في الهرب ، ومن حولي قوم يجدُّون مثلي في الهرب وقد حملوا رجلاً مريضاً سيىء الحال . حتى إذا انقطعت أصواتُ الطير ، ونظرنا فلم نرَ في السماء شيئاً ، أخذت أسأل عن نفسي وعمّن حولي وعن الجيش ، وأخذت أسأل عن هذا المريض الذي أراه محمولاً يتأذى ، فإذا هو أبرهة ، قد مسّه حجر من تلك الحجارة فصُرع ، وظهر على جسمه بلاء عظيم ، وأخذت أجزاء جسمه تتساقط قليلاً قليلاً ، لا يسقط جزء منها إلا تبعه صديدٌ منكر قبيح . كم تأذى هذا الرجل ! وكم احتمل من ألم في نفسه وجسمه ! وكم ذاق مرارة الندم ولذع الحسرة واللوعة ! إني لأراه حين بلغنا صنعاء ، وأدخل إلى قصره ليمرض فيه وقد هزلَ ومسه الضر ، حتى لكأنه فرخٌ من فراخ الطير . على أن حياته لم تمتد في قصره ، وإنما ألحّ الألم عليه إلحاحاً شديداً . وأقبل أحد بنيه صباح يوم فنعاه إليّ . فلما سألتُ كيف مات ، علمت أن صدره انفجر عن قلبه انفجاراً .

وكان حديثُ الشيخ قد ملك على هؤلاء السمار نفوسهم وقلوبهم ، فأغرقوا في شيء من الوجوم لم يحسوا معه أن صاحبهم قد قطع الحديث واندفع في تفكير عميق بعيد . ولستُ أدري كم أنفقوا من الوقت في هذا الوجوم الصامت ، ولكني أعلم أن رجلاً منهم شاباً لم تكن قد تقدمت به السن بعدُ ، خرج من هذا الصمت وأخرجهم منه حين قال بصوت متهدّج تقطعه العبرات تقطيعاً : إن لهذا البيت في مكة لشأناً ! قال الشيخ : نعم ! إن لهذا البيت في مكة لشأناً ، وإن هذا الشأن هو الذي اضطرني إلى أن أعود من اليمن مسرعاً ما وسعتني السرعة ، حتى أبلغ مصر وأنتهي إلى

الإسكندرية . وأقسم ما حفلتُ بأهلي ولا بوطني ولا بشركائي في التجارة ، ولا أتحتُ [1] لأحد منهم أن يسألني من أمري عن قليل أو كثير ، وإنما فرّقت فيهم مالي تفريقاً ، وحملت منه ما استطعتُ حمله ، ومضيت إلى الشام يحسبني الناس تاجراً يبتغي الربح ، وإنما كنت سائحاً أبتغي هذا الدير لأدخله ، فأخرج من الحياة ولذّاتها، وما لها وغرورها ، وأفرغ للعبادة وطاعة الله .

وإني لأرجو لو امتدّت بي الحياة أن أعود إلى هذا البيت في مكة ، لا غازياً ولا باغياً ولا قاصداً إلى شر ، بل تائباً تائباً منيباً مستغفراً من هذا الإثم الذي شاركت فيه . وإلى أن يتيح الله لي هذه الأوبة إلى مكة ، إن كان قد قدر لي أن أراها مرة أخرى ، فسأقيم معكم ألقى من تلقونَ من هؤلاء الذين يأتون من مكة ويعودون إليها ، فأتحدث إليهم وأسمع منهم ، وأنالهم بما أستطيع أن أنالهم به من إحسان .

وأذّن مؤذّن أن قد آن لأهل الدير أن يأووا إلى حجراتهم ؛ فتفرقوا وما في نفوسهم رغبة في سمر ولا ميل إلى حديث ، وما منهم إلا من يفكر في هذا البيت الذي أحجم عنه الفيل ، ورجمته طير أبابيل ، ترمي عدوّه بحجارة من سجيل ، فإذا هم كعصف مأكول .

- ١١ -

اليتيم

قضى أهل مكة أيامهم فرحين مبتهجين ، يملؤهم الفخر ، ويزدهيهم النصر ، ويتحدثون بحديث الفيل إذا أضحوا ، ويتذاكرون انهزام الحبشة إذا أمسوا ، حتى كاد يشغلهم ذلك عن تجارتهم ويصرفهم عن مرافقهم . وتسامعت العرب بهذه الآية الكبرى التي أظهر الله بها كرامة هذا البيت ، ورفع الله بها مكانة الذين يقومون حوله من قريش ! فازداد العرب لقريش حباً وإكراماً ، وأخذت تستوثق الأمور لأهل مكة على من دنا منهم أو نأى عنهم في تهامة ونجد والحجاز . ولكن شيخاً من قريش لم يشغله فخر ، ولم يزدهه نصر ، ولم تصرفه أحاديث الناس من حوله عن حديث نفسه المتصل وحزنها المقيم ! وهو عبد المطلب بن هاشم .

---

(١) أتاح فلان الشيء : هيأه .

ولكنْ امرأة من قريش لم يأخذها عجب ولم يملكها تيه ، ولم تشارك نساء قريش فيما كن يتخذن من زينة ، وينصرفن إليه من لذات الحياة ، إنما كانت تؤثر العزلة وترغب في الخلوة إلى نفسها ، تتحدث إليها وتسمع منها ، لا تجد في هذا الحديث حزناً صريحاً ولا سروراً صريحاً ، وإنما هو شيء بين بين : فيه راحة من لذع اليأس ، وفيه صارف عن نشوة الأمل ! وهي آمنة بنت وهب

كان الشيخ يذكر ابنه فيشغله الحزن المُمِضّ العميق عما كانت فيه قريش من بهجة وسرور ، ومن غبطة وحبور . وكان الشيخ يفكر في قصة الفيل وانصراف المغيرين عن مكة ، ثم يرى فخر قريش وتمدُّحها واستعلاءها على العرب ، فيبتسم في نفسه ساخراً منها عاطفاً عليها . فلم تصنع قريش شيئاً إلا أنها لاذت بشماف[1] الجبال ، وفرّتْ إلى حيث كانت تهيم الوحوش ، وخلّتْ بين طاغية الحبشة وبين البيت . فلم تَرُدُّه إذاً ، ولكن الله ردّه ، ولم تحطِمه إذاً ولكن الله حطّمه . وهي على ذلك تفاخر وتكاثر ، وهي على ذلك تستكبر وتستعلي . وكذلك الإنسان يَغره بنفسه الغرور ، فيضيف إليها ما لم تفعل ، ويحمل عليها ما لم تأت من الأمر .

كان الشيخ يسخر في نفسه من قريش ، ويعطف في نفسه على قريش ، يلتمس لها المعاذيرَ في هذا الضعف الذي يصيب الناس فيخدعهم عن أنفسهم ويكبرهم في أعينهم ، ويخيل إليهم أنهم شيء ، وما هم بشيء أمامَ هذه القوة القاهرة التي تَغلب ولا تُغلب ، والتي تَقهر ولا تُقهر ، والتي لا تريد إلا بلغت ما تريد . هذه القوة التي أخرجت من البحر طيراً لم يرها الناسُ من قبل ، فسلّطتها على جيش لم يرَ الناسُ مثله من قبل ، فما هي إلا أن حلقتْ فوقه ساعةً من نهار حتى انهزم وانحطّم ، وأصبح كعصف مأكول ، وسلِم البيت من عادية المعتدي ، وأمِنَ البيت من طغيان الطاغية .

هذه القوة التي ظنّ هو أنه قد استنقذ منها ابنه فحماه من الموت ، وضمن له حياة كحياة الرجال : فيها ما في حياة الرجال من سعادة وشقاء ، ومن راحةٍ وتعب ، ومن جدّ وسعي ، ومن اضطراب بين اليمن والشام ، ومن استقرار في الظواهر والبطحاء . ألم يُصارع الموتَ عن ابنه صراعاً ! ألم يشتر ابنه من القضاء شراءً ! فما هذا الجهاد بالقداح بينه وبين القضاء المسلط ! يفادى ابنه بالإبل فيشتطّ عليه القضاء ولا يرضى حتى يبلغ المائة . وفيمَ كان انتصاره ؟ وفيمَ كان ابتهاج بني هاشم ؟ وفيم كان ابتهاج قريش بانتصار الحياة على الموت ، وإفلات الشباب من مُدية المضحّي ؟ .

---

(١) شماف الجبال : رؤوسها ، واحدها شعفة بالتحريك .

وكان الشيخ يضحك في نفسه ضحكاً حزيناً يوشك أن يكون يأساً مهلكاً وثورةً جامحةً ، لولا أنه كان ذا قلب تعــلم كيف يطمئن للأحداث ويُذعِن للخطوب ، ويصبر على النائبات . كان الشيخ يضحك في نفسه ضحكاً حزيناً حين كان يفكر في غرور قريش ، وتقديرها أن الله قد ردّ طاغية الحبشة ، وأرسل عليه وعلى جيشه ما أرسل من الطير الأبابيل ، تكريماً لها وإيثاراً ؛ وحين كان يفكر في غروره هو حــين كان يقدّر أن الله قد أنقذ ابنه من مُديته وفداه بمائة من الإبل إيثاراً له بالعافية ، واختصاصاً له بالكرامة . كلا ! كلا ! لم يُهزم الفيل وأصحاب الفيل إكراماً لقريش ، وإنما هي آية أجراها الله لأمر يعلمه هو ، ولا يعلم الناس منه شيئاً . ولم ينقذ الله عبد الله من الموت ويفاده بمائة من الإبل إكراماً له أو إكراماً لأبيه ، وإنما أنقذه من الموت وفاداه بالإبل لأمر يريده هو ، ولا يعلم الناس منه شيئاً . وإلا ففيم نجا هــذا الفتى من الموت ليموت بعد ذلك بقليل ! أليس غريباً أن ينجوَ من الموت فيتخذ له زوجاً لا يقيم معها إلا وقتاً قصيراً ، ثم يفارقها كما يفارق الناس أزواجهم ليعود إليهــا كما يعود الناسُ إلى أزواجهم ، لكن رفاقه يعودون وهو لا يعود ، إنمــا يتخلف في يثرب ليموت عند أخواله من بني النجار ؛ قد عرفتْ زوجه بعد أن ارتحل عنها أنه قد حمّلها أمانةً ما زالت تحملها في جوانحها ، حتى إذا جاء أمر الله أدّت هذه الأمانة ومن يدري ! لعلّ عبدَ الله لم يوجد إلا ليودعَ هذه الأمانة عند زوجه ! ومن يدري ! لعل آمنة لم توجد إلا لتؤدي هذه الأمانة إلى الناس ! .

وكان الشيخ إذا فكّر في هذا كله ، لم يملكْ نفسه أن يرى ابنه شديد النشاط ، عظيم القوة ، رائع الشباب ، بارع الجمال ، يستقبل السفر بأمــل لا حد له : ثم يراه نحيلاً ، هزيلاً ، شاحباً ، متهالكاً ، محزوناً ، يمرّض على فراشه عند بني النجار ؛ ثم يراه وقد دنا منه الموت مُكابراً مُكاثراً ، فاستله من الحيــاة أو استلّ الحياة منه ، كأنما يثأر لنفسه من تلك الهزيمة التي أصابته يومَ الفِداء . فكان الشيخ يستسلم لحزن عميق لا يُخرجه منه إلا اضطرابُ الناس من حوله ، وإلحــاح الناس عليه ، وفيهم أبناؤه وبناته ، فيما كان يشغلهم من الأمور .

كانت آمنة ترى نساء قريش ونساء بني هاشم من حولها ، يبسمن للأيام ويبتهجن للحياة ، فيعجبها ذلك منهن ، ولا يداخلها حسدٌ لهن أو مَيْــلٌ إلى مشاركتهن . كانت تحسّ احساساً قويّاً ، ولكنه غامض ، بأنّ الأيام قد وفتها حظها من الغبطة وقسطها من النعيم في ذلك الوقت القصير ، الذي قضته مع زوجها منذ لقيته بعد

الفداء الى الرحيل . وكانت تريد أن تسعد بالتفكير في هذا الجنين الذي تحسه يضطرب في أحشائها ، ولكنها لا تلبث أن تذكر زوجها ، وأنه قد حُرم السعادة بهذه النعمة، فتكره أن تستأثر من دونه بالخير ، وتتحدث إلى نفسها بأن الاستمتاع بالأبناء والبنات لذة لا يستبدُّ بها الفرد ، وإنما هي مشتركة بين اثنين ، فاذا ذهب أحدهما ثقلت على الآخر وشق احتمالها عليه وكانت له مصدر ألم وحزن . ولكنها مع ذلك لم تكن تجد هذا الألم الممضّ الذي كانت تقدّره وتنتظره ، كأنما خُلقتْ نفسها مذعنة ، وكأنما فطر قلبها على الرضا ، وكأنما استيقنت أن حياة الأحياء عبء يجب أن يحمل ، رضيَ الناس او سخطوا ، وأن احتماله مع الرضا والاطمئنان خير من السخط الذي لا يجدي، والثورة التي لا تفيد .

على أن الأيام لم تكن تتقدم بآمنة نحو ذلك اليوم المشهود ، حتى يغمرها شيء يشبه نسيان النفس والانصراف عن الشعور الواضح بالحياة والتفكير الجليّ فيها . وكانت تنفق نهارها ذاهلة او كالذاهلة ، وتنفق ليلها في نوم هادىء حلو الأحلام . وما أكثر ما كان يزورها من حلم ، وما أكثر ما كان يُلِمُّ بها من طيف ! وما أكثر ما كان يُلقى اليها من حديث ! حتى اذا كانت ذات ليلة تتهيأ للخروج من ذهول النهار والدخول في هدوء الليل ، أحسّت بعض ما يحسّ النساء حين يدنو منهن المخاض .

هنالك دعت اليها من حضرها من نساء بني هاشم ، فأسرعن اليها وقضين معها ليلة لا كالليالي ، أنكرن فيها كل شيء وأعجبن فيها بكل شيء . أنكرن حتى أنفسهن ؛ فقد رأين ما لم يرَ أحد ، وسمعن ما لم يسمع أحد ، وأحسَسْن ما لم يحسّ أحد . ولم تكن آمنة أقلهنّ إنكاراً وإكباراً وإعجاباً ؛ فقد كانت ترى ، وهي يقظة غير نائمة ، أن نوراً ينبعث منها فيملأ الأرض من حولها ويزيل الحجب عن عينيها . وكانت تنظر فترى قصور بُصْرَى في أطراف الشام . وكانت تنظر فترى أعناق الإبل تَرْدِي[1] في أقصى الصحراء . وكانت لا تتحدث الى من حولها بما ترى مخافةَ أن ينكرن ما تقول ، وأن يظنن بها الظنون . وكانت هذه من صاحباتها لا تمد طرفها الى شيء حتى تراه نوراً كله لا ظلمة فيه ، وإنما هو مشرق مضيء ، او هو الإشراق الخالص . وكانت هذه الاخرى من صاحباتها تنظر فاذا نجوم السماء تدنو من الأرض وتمد إليها أشعةً قوية نقية باهرة ساحرة ، وإنها لتدنو وتدنو حتى يخيل الى الرائية أنها توشك أن تمسّها وتقع عليها .

(١) تردى : تسرع بين العدو والمشي الشديد .

وكانت هذه الأخرى من صاحباتها ترى ظلمةً مظلمة قاتمة ، وتأخذها رعدةٌ قوية ناهكة ، ويُلِمُّ بها شيء كأنه النوم ، تسمع أثناءه صوتاً مهيباً رهيباً يسأل : إلى أين ذهبتَ به ؟ فيجيبه صوتٌ مهيب رهيب : إلى المشرق . ثم ينجلي عنها ما ألمَّ بها فتفيق . ثم يعاودها ما كانت فيه ، فاذا ظلمة قاتمة ، واذا رعدة قويه ناهكة ، واذا غاش يغشاها كأنه النوم ، وإذا هي تسمع الصوت المهيب الرهيب يسأل : أين ذهبتَ به ؟ فيجيبه صوت مهيب رهيب : إلى المغرب . ثم ينجلي عنها ما هي فيه فتفيق .

وكذلك لم تدنُ السماء من الأرض كما دنت في هذه الليلة . وكذلك لم يرَ الناس من الأعاجيب كما رأى هؤلاء النساء في هذه الليلة . ولم تكن آمنة على هذا كله تجد ألماً قليلا أو كثيراً ، إنما كُشف عنها كل حجاب ، ورُفع عنها كل غشاء ، وخُلّي بينها وبين عالم من الجمال الذي يُرى ومن الجمال الذي يُسمع لا عهد للناس بمثله . ثم ترى ويرى صاحباتها كأن شهاباً انبعث منها فملأ الأرض من حولها نوراً يبهر الأبصار ، ثم ترى فإذا ابنها قد مسّ الأرض يتقيها بيديه رافعاً رأسه إلى السماء مُحدقاً ببصره إليها كأنما يلتمس عندها شيئاً . ثم تسرع صاحباتها إليه وإليها ليؤدين له ولها ما تحتاج إليه الأم حين تمنح الحياة ، وما يحتاج إليه الابن حين يستقبل الحياة ، فإذا هي لا تحتاج إلى شيء ، وإذا هو لا يحتاج إلى شيء ، وإذا هن يتناولن أجمل صبيّ ، وأروع صبيّ ، وأبرع صبيّ ، وإذا قلوبهن قد امتلأت بأن الأرض قد استقبلت وليداً لا كالولدان .

ثم يشرق الفجر وتبسط الشمس رداءها النقي على بطحاء مكة وما يحيط بها من الجبال ، ويرتفع الضحى ، ويضرب الناس في أمورهم وقد قضوا ليلا جاهلا غافلاً ، لم يشعروا فيه بشيء ، كأن لم يكن فيه شيء . ولو قد كُشف عنهم الغطاء ، ولو قد أزيلت عن قلوبهم الحجب لرأوا وسمعوا . ولكن الله قد جعل لكل شيء قدراً ؛ فهو يظهر آياته لمن يشاء ، ويخفي آياته على من يشاء . وعبد المطلب جالس في الحِجْر وحوله أبناؤه وجماعة من قريش ، قد أخذوا فيما كانوا يأخذون فيه من حديث . وهو يسمع إليهم بأذنيه ويُعرض عنهم بنفسه ، يفكر في فقيده الذي لا يستطيع أن ينساه . وإنه لفي ذلك وإذا البشير يُقبل عليه مسرعاً ، حتى إذا انتهى إليه حيّاه وقال : لقد وُلد لك غلام ، فهلمّ فانظرْ إليه ؛ فلا يسمع هذه البشرى حتى يُحس أن الله قد أخلفه من فقيده ورَفق به في مُصابه ، وادخر له عزاءً عن محنته . فيسأل : أهو ابنُ عبد الله ؟ فيجيبه البشير نعم . فينهض مسرعاً وينهض معه بنوه ، ويمضون لا يَلوون على شيء حتى يبلغوا بيت آمنة . فإذا دخل الشيخ ورأى الغلامَ أحس كأنّ

الله قد أنزل على قلبه السكينة وجلا عن قلبه الحزن ، ورده إلى غبطة وسرور بَعُدَ عهده بها .

ثم يسمع حديثَ النساء فلا يُنكر منه شيئاً ، كأنما كان ينتظره ، وكأنما كان منه على ميعاد . ثم يرفع الصبي إليه فيقبله ويقول : لأسمينّه محمداً . قالت آمنة : لقد أتاني في النوم فأمرني أن أسميه أحمد . قال عبد المطلب . فهو مُحمد وهو أحمد ، وما أرى إلا أنهما بعضُ أسمائه .

قلت لمحدثي : فقد زعموا أنّ عبد المطلب خرج بعد ذلك فنحر الإبل لأهل مكة . ونحر الإبل لأهل الشِّعاب ، ونحر الإبل على رءوس الجبال ، ليُطعم الناس وليُطعم الوحش . قال : وهل كان عبد المطلب إلا نعمةً للناس ونقمةً على الإبل !

ولكن عبد المطلب لم يفرغ من شأنه ذاك ، ولم يَعدْ إلى المسجد مع العصر ، حتى رأى أنديةَ قريش مَتجمعةً فيه ، تَلهج كلها بحديث غريب ونبأ طريف! أذاعه في مكة رجلٌ من أهل الظواهر، فشغل به الناس وتناقلوه . وكان هذا الرجل طِلبةَ أهل المسجد، ينتقل بحديثه من نَديّ إلى ندِيّ . فلا يكاد يُتم حديثه إلى قوم حتى يدعوه إليهم قومٌ آخرون ليسمعوا منه ويسألوه . وكان يَستجيب لمن يدعوه، ولا يزهد في أن يُعيد قصته مرةً ومرة ، وكأنه قد أحس لنفسه خطراً ، وكأنه قد رأى نفسه مطلوباً بعد أن لم يكن من قبل إلا طالباً ، وكأنه قد كبر في نفسه ، فكان يقول ويطيل في القول ، وكان يفصّل ويغرق في التفصيل . وكانت أفناء قريش تسمع له ، فمنها مَن يُعجَب ، ومنها مَن يرتاع ، ومنها من يلقى الحديث بالإغراق في الضحك ، ومنها من يلقى الحديث بهز الرءوس .

وكان هذا الرجل يقص قصصه فيقول: ما كنت أعلم أن لليل أسراراً ليست للنهار. وما كنت أعلم أن للصحراء أنباء ليست للمدن والأرض العامرة . وما كنت أحسب أن في الهواء الذي تتنسمه وفي هذا الفضاء الذي يحيط بنا أرواحاً تتناجى ، وأحياء تتجاذب الحديث ، حتى رأيت ما رأيت ، وسمعت ما سمعت ، فتبينت ان حياتنا غرور ، وأن علمنا جهل ، وأن احاديثنا لهوٌ وهراء . والناس يتعجلونه فيقولون له : هات ما عندك من النبأ ، حتى إذا فرغتَ من قصته فقل ما شئت ، وهو يقول : لقد جنّني الليل ، وإني لَفي طريقي من الطائف إلى مكة فلا أحفل بذلك ولا آبه له، ولا أفكر في أن آوي إلى حي من هذه الأحياء التي تنتشر بيوتها في الطريق لأنتظر مشرق الشمس ، ولكنني أمضي أمامي لا ألوي على شيء ولا أرهب شيئاً ، وماذا

أرهب والطريق آمنة واضحة يسلكها الناس إذا أصبحوا ، ويسلكونها إذا أمسوا ، يسيرون فيها مع ضوء النهار ، ويسيرون فيها مع ظلمة الليل ؛ قد عرفوها فهم لا يحتاجون الى مرشد ودليل . فأمضي أمامي مجدّاً في السرى ، اريد أن أفجأ أهلي مع الصبح . وإني لفي بعض الطريق وقد سكن من حولي كل شيء حتى لا أسمع إلا أخفاف مطيتي تمس الأرض مساً رفيقاً ، وإلا هذه الأنّات التي تُرسلها المطايا إذا جَهدها السير وحنَّتْ إلى الراحة ، وإلا ما كنت أناجي نفسي به من حديث أهلي إذ طلعت عليهم مع ضوء الشمس . وكان ضوء القمر قد انبسط على الفلاة هادئاً نقياً ، فملأ نفسي أمناً ودعة وهدوءاً .

وإني لفي ذلك ، وإذا غمغمة تصل إليّ من بعيد ، فلا أحفل بها ولا ألقي اليها بالاً ، وإنما أمضي فيما أنا فيه من الاستمتاع بلذة هذا السُّرى ، ومس أخفاف مطيتي للأرض ، وحنينها إلى ما بَعُدَ عهدها به من الراحة ، وأحاديث نفسي عمن فارقت ، في الطائف وعمن سألقى في مكة . ولكن الغمغمة تدنو مني أو أنا أدنو منها ، وإذا هي تشتد شيئاً فشيئاً ، وإذا أصواتها تمتاز وتستبين ، وإذا أنا اسمع أحاديث قوم يتهامسون ، واذا أنا أنظر فلا أرى احداً . والقمر مع ذلك مشرق مضيء ، والفلاة مع ذلك مبسوطة لا عوج فيها ولا ارتفاع ، والحديث مع ذلك من حولي واضح يملأ الهواء ، وقلبي مع ذلك يضطرب ويمشي في صدري رعباً . وانا أذهب بمطيتي إلى أمام وارجع بها إلى وراء ، وأذهب بها عن يمين وأذهب بها عن شمال ، وأرفع بصري إلى السماء وأخفض بصري الى الأرض ، فلا أرى شيئاً ولا أتبيّن شيئاً إلا جمال هذا الضوء الرائع يغشى الأرض برداء نقي رقيق . وهذه النجوم التي لا تُحصى وقد تألقت في السماء كأنها المصابيح ، وانطلقت في طريقها مسرعة كأنها تستبق ، وهذه الأحاديث الواضحة تتحدث بها جماعاتٌ لا أراها ، ولكنها لا تستقر ، إنما يمضي بعضها إثر بعض . وإني لأسمع قائلاً يقول : « انظروا الى السماء ، فما أرى أنها كعهدنا بها من قبل . إن نجومها لتتألق في قوة لم نرها قط . إنها لتستبق في سرعة لم نرها قط . إنها لتدنو من الأرض حتى أن نارها لتوشك أن تحرقنا . إن التصعيد في السماء لعسير . وفيم نصعدُ إلى السماء وإن السماء لتهبط إلينا ! إن البقاء على الأرض لعسير . وأنّى لنا الثبات بهذا الضوء الذي لا يخفى عليه شيء ، حتى أشباحنا الخفية التي لا تراها العيون ! النجاءَ النجاء ! إن للغيب لعجباً ، وإن في الأرض لحدَثاً ، وإن الزمان ليستدير ، وإنا لا ندري أشرٌ أريد بالناس أم خير ! » .

وإني لأسمع ما أسمع وأرى ما أرى، فيبهرني ما اسمع ويسحرني ما أرى، وأشغل به حتى عن أن أسائل نفسي، أين أكون وما تكون هذه الأصوات. ولكني أحس أصواتاً اخرى كأنها تُهيب بأهل تلك الأصوات التي كنت أسمعها قائلة: النجاء النجاء! ولكن إلى أين؟! إنكم لتفرون من مكة كأن شيئاً أزعجكم عنها وقد كنتم فيها آمنين، وقد كنا نفرُّ إليكم لأن شيئاً أزعجنا من دورنا، وأخرجنا من مأمننا، واضطرنا إلى أن نَهيم في الأرض، لا ندري ما هو، ولا ندري من أين جاء، إنا لنتسامع من أطراف الأرض بأن حدثاً قد حدث، وبأن كائناً قد كان. إنا لنتسامع بأن إيوان كسرى قد اضطرب ومادت به الأرض، فسقطت شرفاته وتهدم بنيانه. وإذا أصوات اخرى تصيح منتشرة في الفضاء: وإنا لنتسامع بأن نار الفرس قد خبت فجأة لأول مرة منذ الف سنة. وإذا اصوات اخرى تصيح: إنا لنتسامع بأن بحيرة ساوة قد جفَّت، وما عهدناها إلا غزيرة جمَّة الماء. واذا هذه الأصوات كلها تملأ الأرض، رقيقة خفيفة، خائفة قَلِقَة: النجاءَ! النجاء! إن للسماء لخبراً، وإن الأرض لتستقبل يوماً لم تستقبله من قبل، وإن لهذا اليوم في حياة الأرض لشأناً لا ندري أخير هو ام شرّ! النجاء النجاء!

وقد فقدت صوابي وأضللت عقلي، فلا أحس شيئاً، ولا أرى شيئاً، كأنما انتزعت من الحياة انتزاعاً. ثم يمسّني برد السحر فأفيق وكأنما ثُبت إلى نفسي من سفر بعيد. وأنظر حولي فأرى أصابع الفجر تمتد الى الاشياء كأنما تريد أن تلمسها، وأرى الليل ينحسر عن الأشياء كأنما يودعها محزوناً، وأرى النجوم تنهزم في السماء كأنما تخاف جيشاً منتصراً، وأرى ناقتي مذعنة لحكم السُّرَى تمضي أمامها كأن شيئاً لم يكن من حولها. وأبلغ أهلي مع الصبح، فيستقبلونني دَهِشين كما كنت أقدّر، ولكني لا استمتع بهذا الدهش كما كنت اريد.

ويتفرق الناس عن هذا الرجل وقد سمعوا منه، وإن بعضهم ليسأل بعضاً: ماذا يقول وماذا رأى؟ وإن بعضهم ليقول لبعض: لقد أخذه النوم فعبثت به الأحلام، وان بعضهم ليقول لبعض: لقد مرّ بجماعة من جن الصحراء كانوا يسمُرون.

ويسمع عبد المطلب هذا كله فتثور في نفسه خواطر لا ينكرها ولا يعرفها، ولكنه لا يطيل الوقوف عندها؛ لأنه مشغول عنها بمقدَم حفيده اليتيم.

- ١٢ -

الحاضنة

وعطف الله على هذا اليتيم قلوباً مُلئت حُبّاً، وفاضت حناناً ورحمة، قلما يظفر بمثلها المنعّمون المترفون من أبناء الأغنياء، وأصحاب الثراء الواسع والجاه العريض. هذه الأمَة الحبشية قد ورثها اليتيم عن أبيه الفقيد مع خمسة أجمال أوارك [١] وقطعة من الغنم، كانت حين أقبل اليتيم إلى هذه الأرض فتاةً في ريعان الشباب ومبتدأ الحياة، لم تنس وطنها القديم ولم تألَف وطنها الجديد، ولم تسلُ عن حريتها، ولم تأنس إلى رقّها. نفسها معلقة بين لونين من ألوان الحياة: كان أحدهما صفواً كله، وهو لون الحياة العزيزة في بلد عزيز وبين قوم أعزّة كرام. وكان الآخر يوشك أن يكون كدراً كله، لا تنظر إلا رأته مظلماً حالكاً، لا يبسم فيه أمل، ولا ينبعث منه ضوء، وهو لون الحياة الذليلة في بلد نازح، وبين قوم غرباء لا تعرفهم ولا تألفهم؛ إنما دفعتها إليهم خطوب الحياة دفعاً، وألقتها إليهم صروف النوى إلقاء. فهذا شبابها يذبل، وقد كان يريد أن يزهر ويتألق. وهذه آمالها تُبتر بتراً، وقد كانت تريد أن تمتدّ وتنبسط. وهي ترى هذا كله خاشعة خاضعة، مؤمنة مذعنة، لم تختر منه شيئاً، ولا تستطيع أن تغيّر منه شيئاً. وهي قد وطّنت نفسها أو وطّنتها الأحداث على أن تكون أمةً طيّعة تخدُم سادتها في نُصح أو في غش، ولكنها تُظهر لهم الطاعةَ والخضوع على كل حال. وهي محزونة النفس كاسفة البال، لا تبتسم إلاّ متكلفة ولا ترضى إلاّ متصنّعة، ولا تطمئن إلى هؤلاء الذين من حولها ينظرون إليها نظرات مهما يملأها العطف والرفق، فهي نظرات السادة الذين يملكون ويستعلون ويستطيعون أن يتصرفوا فيها كما يحبون، كما يتصرفون في الأشياء: لهم أن يبيعوها وإن لم تؤثِر أن تباع، ولهم أن يَهبوها وإن لم تحب أن توهب، ولهم أن ينقلوها من يد إلى يد، ومن مكان إلى مكان، ولعلها أن تكون مؤْثِرةً لهذه اليد التي بُسطت عليها، منكرة لهذه اليد التي يراد أن تُنقلَ إليها. ولعلها أن تكون قد ألفت هذا

(١) الأوارك من الإبل: التي ترعى الأراك. واحدتها آركة.

المكان الذي استقرت فيه وكرهت غيره من الأمكنة . ولكنها لا تستطيع أن تريد او لا تستطيع أن تُنفذَ ما تريد . وأي قيمة للإدارة إذا عجز صاحبها العجز كله عن أن يُنفذَها ويُجريَ أحكامها ! إنما الارادة العاجزةُ أقبحُ صور الذل ، وأشنعُ ألوان الرق ، وأبغض ما يلقى الإنسان في الحياة . انظر إلى هذه الأمة الناشئة لم تتعود الرق بعدُ ولم تطمئن إليه ، نفسها ثائرة مُظلمة ، وقلبها جامح مكظوم ، وهي مبغضة لكلّ إنسان ، ضيقة بكل شيء . انظر إليها تشهدُ ما شَهِدَ غيرُها من النساء في تلك الليلة الفذة ، فتضطرب نفسها الناشئة لما رأت ، ويبتهج قلبها الحزينُ لما شهد ، ثم لا تكاد ترى هذا الوليد اليتيم حتى يُلقي الله حبه في قلبها ، وحتى يعطفها الله عليه وحتى يجعله لها قرّة عين ، وحتى يُصبح وجهه الصغير المضيء ابتسامةَ في حياتها المظلمة ، ويُصبح شخصه الضئيل العظيم مُنقِذاً لها من هذا اليأس القاتم ، وعزاءً لها عن هذا الشقاء العظيم . وإذا هي تألفُ الطفلَ وتَكلف به ، وإذا هي تحضن الطفل وتحنو عليه ، وإذا هي تُؤثره من المحبة والبرّ ، ومن المودة والعطف ومن الحنان والرفق ، بكل هذه الكنوز التي لا تفنى ، والتي تحتويها قلوب النساء ، والتي كانت تريد أن تَغيضَ لأن خُطوبَ الحياة قد فرضت عليها الرقّ والذل فرضاً . إن هذا اليتيم لينزل من قلبها الحزين منزل السرور ، ومن نفسها الكئيبة منزل الابتهاج . إنها لتجد فيه كل ما فقدتْ من أمل وكرامة وعزّة وحرية . إنها لتريد أن تختصّ به من دون الناس جميعاً . إنها لتريد أن تخصّه بنفسها من دون الناس جميعاً. وإن الله ليحقق لها من هذا كله أكثر ما تريد . إنها لتقف نفسها على الطفل أياماً ، حتى إذا قبلت الظّئر [1] فانتزعته منها ومن أمه انتزاعاً ورحلت به إلى البادية ، ضاقت هي بالظئر وكرهتْ هذا الرحيل . ولو قد أتيح لها أن تنفذ ما كانت تريد لاستبقت الظئر معها في مكة ، أو لرحلت هي مع الظئر إلى البادية . ولكن متى أتيح لأمة أن تُنفذ ما تريد ! ولها على ذلك أسوة بهذه الأمّ الحرة الكريمة التي تُسلم ابنها إلى الظئر ، لا تستبقيها في مكة ، ولا ترحل هي مع الظئر إلى البادية .

فلتفارق صفيها دهراً طويلاً أو قصيراً ، كما تُفارق الأم طفلها دهراً طويلاً أو قصيراً . ولتصبرْ على هذا الفراق . وهل خُلق الرقيقُ إلا للصبر والاحتمال !

ويُنفق الصبي عند الظئر ما شاء الله أن يُنفق من وقت ، لا يزور أمه ولا حاضنته إلا لِماماً . وكلتاهما تسعد بهذه الزيارة القصيرة ، وكلتاهما تَشقى باستئناف الفراق ،

(١) الظئر ، التي ترضع غير ولدها وتعطف عليه .

وكلتاهما تذعن لما لا بد من الإذعان له .

ثم يعود الصبيُّ الناشىء من البادية إلى مكة ، فيقيم إقامةً ملؤها الرحمة والعطف بين هذه القلوب الكريمة التي تحبه وتحنو عليه : قلب أمه الحرة المحزونة ، وقلب حاضنته الأمَةِ الفتاة ، وقلب جده الشيخ الوقور . كلهم سعيد بالعطف على هذا الطفل والرعاية له ، والطفل ناعمٌ بعطفهم عليه ورعايتهم له .

ثم ترحل أمُّ الطفل به إلى يثرب لتزيره أخواله من بني النجار ، فترحل الحاضنةُ معهما ، وينعم الطفل بحنان هذين القلبين الكريمين . حتى إذا بلغ يثربَ رأى أرضاً لم يكن قد رآها ، وقد قُدر له مع ذلك أن يُقيمَ فيها حياً وأن يقيم فيها ميتاً ، وقد سبقه أبوه إلى زيارتها ، وقد سبقه أبوه إلى أن يُؤثرها له داراً تُؤويه .

هنالك رأى الطفل قبرَ أبيه . وهنالك لعب الطفلُ مع أطفال مثله سيكونون له أصدقاء وأنصاراً حين يَجِدُ الجدّ ، وحين يبلغ الكتابُ أجله ، وحين يتم في الأرض ما قدر في السماء . حتى إذا قضى الطفلُ وأمُّه وَطَراً من زيارة الأرض الموعودة ، عاد بين أمَّيه الكريمتين إلى موطنه بمكة . ولكن قضاء الله يجب أن ينفذ، وحكمة الله يجب أن تبلغ ، وإرادة الله يجب أن تكون .

فلا يكاد الطفل يبعد عن يثرب حتى تُلِمّ العلة بأمه كما ألمت بأبيه قبل أن يصل إلى الدنيا . ولا يكاد الطفل ينتهي إلى الأبواء [1] حتى ينزع الموتُ منه أمَّه أو ينزعه من أمه ، كما نزع الموتُ منه أباه أو كما نزعه من أبيه .

وكذلك أدّيت الأمانةُ إلى الأرض ، وذهب عبدُ الله وذهبت آمنة بعد أن أدّياها . وأصبح الطفل كما أراد الله له أن يكون يتيماً قد فقد أمَّه وفقد أباه ، وليس له من يؤويه إلا الله الذي قد وعد بإيوائه وكفالته ، وحفظه وحمايته من العاديات .

لقد خلص الطفلُ لحاضنته من دون الناس . فلتقِفْ عليه نفسها كلها ، لتقف عليه حبها كله ، ولتخلُصْ له كما خلص لها . وانظر إليها تعود بالطفل إلى جدّه وأعمامه وحيداً فريداً ، ليس له من يرعاه أو يكلؤه إلاّ قلبها العظيم الكريم .

من ذلك الوقت أصبحت للطفل أمّاً ، رعته صبياً وشاباً ، فرغت له ولم تُشغل عنه بأحد ولا بشيء . حتى إذا بلغ سنّ الرجال واتخذ له أسرة ، وأوى زوجه خديجةَ بنت خويلد ، نظر إلى هذه الأمة التي نشأته ونعمته بحبها وحنانها ، فأعتقها وردّ لها حقها الكامل في الحياة الحرة الكريمة . هنالك اتخذت لها زوجاً من أهل

---

(١) الأبواء : قرية بين المدينة ومكة ، وبينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً .

يثرب كان مقيماً بمكة ، فعاشت معه ما شاء الله أن تعيش ، ورحلت معه إلى يثرب ، حتى إذا مـات عادت إلى ابنها الأول ومعها ابنها الثاني أيمن بن عُبيد ، فعاشت في كنف هذا اليتيم وعاش معها ابنها سعيدين ناعمين .

ثم يُتم الله نعمته على هذا اليتيم ، ويختاره لما قدر له من الكرامة واحتمال الأعباء الثقال ، فلا تشغله نعمةٌ ولا محنة ولا راحةٌ ولا جهاد عن أمّه هذه . وانظرْ إليه يتحدث عنها إلى أصحابه فيقول هذه الكلمة التي ملؤها البرّ والحنان والوفاء : « إنها بقيّة أهل بيتي ! » . وانظر إليه حريصاً على أن تحيا وتنعم بالحياة ، حريصاً على ألا يكون حظها من السعادة في هذه الدنيا أقلّ من حظ غيرها من الحرائر ، انظرْ كيف يلتمس لهـا الزوج فيقول لأصحابه : « مَنْ سرّه أن يتزوجَ امرأةً من أهل الجنة فليتزوج أمّ أيمن » .

هنالك أسرَع مولاه زيد فاتخذها له زوجاً .

إيه أيتهـا الأمُ الكريمةُ الرحيمة ! لقد منحت ابنك صبيّاً وشاباً كلّ ما كنت تستطيعين أن تمنحيه من الحب والودّ ، ومن العطف والحنان . وها هو ذا الآن قد بلغَ ما قدّر الله أن يبلغَ من ارتفاع المكانة وعلُوّ المنزلة وجلال الخطر ! انظري ! إنـه ليؤْذَى في سبيل الله . إنه ليُمتحن في نفسه وفي عشيرته وفي أصحابه . إنه ليلقى في ذلك أشدّ الجهد ، ويحتملُ في ذلك أعظمَ الثقـل . ويستقبلُ ذلك بأحسن الصبر . انظري إليه وانظري إلى نفسك ! إنكِ لَتُحبّينه وتُكبرينه وترحمينه ! لقـد استجبتِ له حين دعا ، وآمنت به حين أنذر وبشّر . انظري ! إن قومه ليأتمرون به ليقتلوه أو يُخرجوه أو يُثبتوه[1] . وإن الله ليأذنُ له في الهجرة ،وإنه ليترك مكة طريداً ليعود إليها مُنتصراً مُظفّراً . انظري ! إنه ليقيمُ الآن في يثربَ بين أنصاره الذين آووه ، وبين رفاقه الذين لَعبَ معهم صبيّاً ، وأنت تَرمُقينه وتَرعينه من قريب حيناً ، ومن بعيد حيناً آخر . انظري ! أتستطيعين فراقه ؟ لقد ضِقت بالظئر حين نقلته إلى البـادية . كلا ! كلا ! إن أصحابه ليهاجرون ليلحقوا به ويعيشوا معه ، فكيف لا تهاجر أمه ! ومتى صبرتْ أمّ مثلها على فراق ابن مثله ! ها هي ذي قد تركت مكة مُهاجرةً إلى الله ورسوله ، وابنها وَصفيها . إنهـا لتقطع الطريق بين مكة والمدينة يُؤنسها ما يملأ قلبها من الإيمان ، وما يَعمره من الحب . إنها لَتحمل

(١) ليثبتوه : ليسجنوه أو يوثقوه أو يثخنوه بالضرب والجرح ، من قولهـم : ضربوه حتى أثبتوه لا حراك به ولا براح . (عن الكشاف)

مشقة الطريق وجهد السفر صابرة عليها . وما كان أصبرها على المشقة والجهد ! إنها لتستلذ المشقة والجهد ! وتستعذب الألم والضراء . إنها للسافر صائمة . إنها لتستأنس في رحلتها بهذين الصديقين اللذين يحبهما المؤمنون . الظمأ والجوع ، وأنعم بهما رفيقين ، وانعم بهما مُعينين على الهجرة في سبيل الله ! إنها لتقطع أكثر الطريق وتصبح من المدينة غير بعيد . إن النهار ليتقدم بطيئاً مسرفاً في البطء ، وإن الشمس لترسل على الأرض أشعة من اللهب ، وإن الأرض لتضطرم من شدة القيظ ، وإن الجو ليتوهج من اللهب الذي يضطرم فيه ، وإن هذه المرأة الضعيفة لتسعى في هذه النار المحرقة إلى حيث تنعم بالحياة في ظل ابنها وصفيها ومُخرجها من الرق إلى الحرية ، ومخرجها من الظلمة إلى النور ! إنها لتسعى ما وسعها السعي . ولكن الأمد بعيد ، والجهد شديد ، والماء منقطع والظمأ محرق ، وجسمها ضعيف لا يثبت لهذه العاديات التي لا تثبت لها أجسام الناس ! ولكنها تسعى لا يائسة ولا بائسة ولا مستسلمة ، حتى يبلغ الجهد بها أقصاه ، وحتى يتراءى لها هذا الشبح المنكر المخيف الذي يتراءى لمن تنقطع بهم أسباب الحياة في الصحراء : شبح الموت . ولكنها مع ذلك لا تيأس ولا تستسلم ، ولا تفارق ما ألفت من الرضا . انظري أمامك ماذا تريدين ؟ إنه رشاء أبيض ناصع البياض ينزل إليك من السماء ، وقد علقت فيه دلو قد مُلئت ماء . من أرسل إليك هذه الدلو ؟ من قدم إليك هذا الماء ؟ لمَ أرسلت إليك هذه الدلو ؟ لم قدم إليك هذا الماء ؟ هلمّ اشربي ! فإنما تذوقين اليوم هذا الماء العذب ماء الخلود الذي ستشربينه بعد حين طويل أو قصير حتى يُسكنك الله دارك من الجنة ! أرأيت أن ابنك لم يكن متكلفاً ولا مُغرّراً حين قال لأصحابه : « مَن سرّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أمّ أيمن » ! اشربي من هذا الماء ، فلن تظمئي بعد هذه الشربة أبداً !

وتشرب أمُّ أيمن من هذا الماء ، وتُنفق أمُّ أيمن بعد هذه الشربة أعواماً طوالاً . فيها الشدّة واللين ، وفيها البؤس والنعيم ، وفيها الجهد والعناء ، ولكنها لا تعرف الظمأ ولا تحسه ولا تشكوه ، وكيف يظمأ مَنْ شربَ ماء الخلود !

أسرعي الآن يا أمّ أيمن إلى يثرب ؛ فإنّ ابنك ينتظرك فيها ، قد أمنَ بعد خوف ، واطمأن بعد قلق .

وتبلغ أمُّ أيمن المدينة ، فيلقاها ابنها حفيّاً بها عطوفاً عليها ، وتلقاه هي بما عوّدته أن تلقاه به من هذا الحبّ السمح والعطف الباسم .

وتقضي معه أيامها في المدينة ، لا تكاد تفارقه إلا حين لا تستطيع أن ترافقه .

انظرْ إليها يوم أحُد وقد شهدت الحرْب مع المسلمين، وإنها لتطوف بالماء تسقي الجرحى ومن مسَّهُم الجهد . ولم لا وقد عرفتْ حرّ الظمأ وبرد الرّي ! ومن يدري ! لعل هذه القطرات كانت تصبها في أفواه الجرحى قطرات قد مستها رحمة الله ففقدتْ جوهرها الفاني ، واستحالت إلى هذا الجوهر الخالد الذي شربت منه أمّ أيمن حين تدلت إليها الدّلو من السماء ! وانظر إليها وقد شهدت خَيبر مع ابنها تُوَاسي المسلمين وتمنحهم من عطفها ورعايتها ورحمتها فضل ما يمتلىء به قلبها الساذج الكريم ! وانظرْ إليها في أيام السلم تغدو على ابنها وتروح إليه ، فيلقاها مبتسماً دائماً ، مبتهجاً دائماً ، مُداعباً لها من حين إلى حين . تسأله مرّة أن يحملها، فيقول لها : « أحملك على ولد الناقة » فلا تفهم منه ، فتقول : يا رسولَ الله ، إنه لا يُطيقني ولا أريده. فيقول مُتضاحكاً : «لا أحملك إلاّ على ولد الناقة ! » .

وكان ابنها يمزح ولكنه لم يكن يقول إلا حقاً . وكان يحبّ أن يداعبها ويعبثْ بها في رفق : فهو يقول ذات يوم : « غطّي قِناعك يا أمّ أيمن» . وتلقاه يوم حُنين قبل الموقعة ، فتريد أن تدعو للمسلمين بخير فتقول : « ثبَّتَ اللهُ أقدامكم » فيقول ابنها : « اسكتي يا أم أيمن فإنك عسراء اللسان ! » .

وقد سمع لها الله فثبت أقدام المسلمين . وقد امتحنها الله فاختار ابنها أيمن وآثره بالشهادة يوم حُنين .

إيه أيتها الأمّ الرءوم ، إنك لتمنحين ابنك وصفيّك اليوم شيئاً جديداً لم تمنحيه من قبل ، إنك لتبذلين في سبيل الله وفي سبيله دم ابنك العزيز . ولكنك تلقين الثكل صابرة آملة راضية ، كما لقيت الظمأ من قبل صابرة محتملة واثقة . ولئن فقدت أيمنَ يوم حنين ، إن لك لخلفاً منه في ابنك أسامة بن زيد ، أثير النبي وحبيبه ، وقائد جيش المسلمين بأمر النبي وإن كان بعدُ حَدثاً ناشئاً . هذا جيش ابنك أسامة مرابطاً يتأهب للرحيل . وهذا ابنك وصفيُّك في بيته قد ثَقل عليه المرض ، وفُتحتْ له أبواب السماء وأقبلت عليه الملائكة أفواجاً تحمل إليه رَوْحَ الله ورحمته وتبشره بجوار الله . انظري ! لقد اختار الله لنبيه جوارَه الأعلى ، وصعدت نفسه الكريمة إلى حيث أريد لها أن تكون مع الصدّيقينَ والشهداء والصالحين وأصفياء الله وأنبيائه . ماذا ؟! إنك لتبكين ! وما يبكيك يا أم أيمن ؟ قالت لمن ألقى عليها هذا السؤال : أي والله! لقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيموت ، ولكني إنما أبكي على الوحي إذا انقطع عنا من السماء .

نعم ؛ لقد قُبض ابنك وانقطع الوحي ، وستحملين ذلك دهراً .

ستشهدين خلافة أبي بكر ، وستشهدين خلافة عمر ، وستبكين مرة أخرى حين يموت عمر ، وستسألين عن هذا البكاء فتقولين : « الآن وَهَى الإسلام » وستستقبلين خلافة عثمان وقد طال صبرك على انقطاع الوحي، وشوقك إلى أخبار السماء ، وسيسعى إليك المَلَكُ رفيقاً بك عطوفاً عليك ، وسيقبض نفسك الكريمة إلى حيثُ تسعد بجوار ابنك الكريم !

تحدّث ابنُ سعد قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال : خاصم ابن أبي الفرات مولى أسامة بن زيد ، الحسَن بن أسامة بن زيد ونازعه . فقال له ابنُ ابي الفرات في كلامه : يا بنَ بركة (يريد أمَّ أيمن) فقال الحسن : اشهدوا . ورفعه الى أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم ، وهو يومئذ قاضي المدينة او والٍ لعمر بن عبد العزيز ، وقصّ عليه قصته . فقال أبو بكر لابن أبي الفرات : ما أردت إلى قولك يا ابن بركة ؟ قال : سميتها باسمها . قال أبو بكر : إنما أردت بهذا التصغير بها ، وحالها من الإسلام حالها ، ورسول الله يقول لها يا أمّه ويا أمَّ أيمن ! لا أقالني الله إن أقلتك ! فضربه سبعين سوطاً (١) .

- ١٣ -

المراضع

أقبلَ المراضع إلى مكة عجافاً نحافاً ، تحملهنّ حُمرٌ عجاف نحاف ، ويصحبهنّ أزواجهن قد مسّهم الضُرّ ، وأعياهم الكسب ، واشتدت عليهم السنة ، وأجدَبت بهم الأرض ، فما يجدون إلى أمن ولا دعة ولا حياة سبيلا . وقد أقبلوا كدأب أهل البادية إلى مكة ، يلتمسون الرُضَعاء أبناء السادة والمترفين في قريش ، ويبتغون بذلك فضلاً من مال ، ونافلةً من نعم ، وحظّاً من هذا البر الذي تطمع فيه المراضعُ عند أهل الرضعاء . فلما ألقوا رحالهم ، انحدر المراضع الى مكة يعرضن أنفسهن على دور الأغنياء وأهل الثراء ، ومنازل السادة وأصحاب الشرف من أهل البطحاء .

وأسرع أزواجهن إلى المسجد يطوفون ويلقونَ سراةَ الناس من قريش ، فيسمعون

(١) طبقات ابن سعد الجزء الثاني صفحة ١٦٤ .

منهم ويتحدثون اليهم ، ويستعينون بهم على احتمال أثقال الحياة في تلك البادية النائية ، بادية بني سعد بن بكر . وما هي إلا طوفة في الضحى على بعض المنازل والدور حتى آب المراضع موفورات محبورات ، قد وجدت كل واحدة منهن رضيعاً من أسرة كريمة موسرة ، فامتلأت يدها بالمال ، ونفسها بالأمل ، وقلبها بالغبطة والأمن على قوت العيال ، إلا حليمة بنت أبي ذؤيب ، فانها عادت الى زوجها كئيبة محزونة لا تحمل إلا ابنها الهزيل النحيل الذي يصيح في غير انقطاع ، ويبكي في غير هدوء ، لشدة ما مسه من ألم الظمأ والجوع .

ولقي الإعرابيّ امرأته الشابة محزوناً مثلها ، لا يؤذيه ما يحسّ من الجوع والظمأ كما يؤذيه ما يسمع ويرى من بكاء الطفل وتوجّع أمه البائسة . قال : إني لأرى أترابك من المراضع يرجعنَ موفورات محبورات يحملن الرّضعاء ، فما بالك تعودين لا تحملين رضيعاً إلا هذا الطفل ؟ ألعلّك قد دللت الناس على مكاننا من البؤس وحظّنا من الفاقة حين احتملت هذا الطفل الذي لا ينقطع له صياح ! ألعلّك قد أيأست الأمهات وأخفقتِ الآباء ألاّ يلقى أبناؤهم عندك ما يرويهم من ظمأ أو يشبعهم من جوع ! ليتني لم أنحدر مع الناس إلى المسجد ، وليتني بقيتُ هنا أحفظ عليك هذا الطفل حتى لا يسمع الأمهات والآباء له بكاءً ولا شكاة ، وحتى لا يرى الآباء والأمهات عليه بؤساً ولا ضرّاً ! قالت : والله ما صدّ عني الآباء والأمهات ، ولقد أسكتُّ هذا الطفل فما بكى ولا شكا ، وما أحسّ أحد عليّ ولا عليه ضرّاً أو شرّاً ، وإنما صددت أنا عن رضيع صدّ عنه الأتراب من قبلي . قال الأعرابيّ : وفيم صدكنّ عنه واجتنابكن له ؟ قالت : يتيم ليس له أب يرعاه أو يكلؤه ، إنما هو إلى أمّه وجدّه . وما تصنع أمّه وما يصنع جده ؟ وماذا تنتظر من برّ الأمهات بالمراضع ، ومن برّ الجدود بالحفَدة وإنهم لكثير ! قال صدقت ، وما لإرضاع اليتامى والمساكين أقبلنا من ديار بني سعد ! وإني لأجد في نفسي إشفاقاً على هذا اليتيم ورحمة له ، ولكن ماذا نصنع به في تلك الأرض النائية إذا لم يصل إليه وإلينا من برّ أهله ما يقيمه ويقيمنا ويُصلح من حاله ومن حالنا ! قالت : لقد رأيته فأحببته ، ونظرتُ إليه فرقَقتُ له . ولقد آنست من أمه دعةً ولِيناً . ولقد نازعتني نفسي إلى أن أحمله لولا أني أشفقتُ مما تقول ، ولولا أني ذكرت الجدبَ وشدّة السنة وانقطاع المادّة ، وأشفقت عليه مما نحن فيه . قال الأعرابي : فسنقفلُ إذاً كما أقبلنا ويقفل القوم راضين ! وإني والله يا ابنة أبي ذؤيب ما أدري أتبلغنا أتاُننا وشارفُنا [1] ديار

(١) الأتان : انثى الحمير . والشارف من النوق : المسنة .

بني سعد ، وإنك لتعلمين أن أتاننا منهوكة مكدودة ، وأن شارفنا ما تبضُّ قطرة من لبن . قالت : فلنقمْ فإن الأطفال يولدون ، ولعل الله أن يرزقنا بين اليوم وغد رضيعاً نجد عند أهله ما يُرضينا .

وهم المراضع بالقفول ، وأخذتْ بنت أبي ذؤيب تنظر إليهن محزونة مكلومة ، يؤذيها ما ترى من انجاحهن وإخفاقها ، ومن قفولهن وتخلّفها . وأخذ الأعرابي ينظر إلى رفاقة يشدّون الرحال على المطايا ، ويحملون النساء على الأُتن ، فيؤذيه ذلـــك ويغيظه ، ولكنه يُخفي ما يجد من الغيظ ويظهر التجلد والصبر . حتى إذا مضى اليوم وأمعنوا في الطريق وبَعُدُوا عن مرمى العـــين ، نظر الرجل إلى امرأته ، ونظرت المرأة إلى زوجها ، ونظر الزوجان إلى ابنهما واستمعا لبكائه ، وإذا هي تقول لزوجهـا ما أدرى ! لعـــلي لم أحسن حين جاريتُ أترابي وأعرضت عن هذا اليتيم ، وإن نفسي لتنازعني إليه ، وإن قلبي ليعطفني عليه ، وإني لأحس كأنه يدعوني ، وإني لاشعر كأني لا استطيع عنه صبراً ، وإني لأرجو إن استجبت لهذا الدعاء الخفي أن يكون الله قد قدّر لنا خيراً وآترنا ببعض ما نحب ! قال : فلا عليك يا ابنة أبي ذؤيب ! اذهبي إلى يتيمك فخذيه ؛ فإني أكره أن يَرحل القوم ونبقى، وان يصلوا الى ديار بني سعد، فيتحدث المراضع أنهن قد ظفرن بالرضعاء، وأن نفوس الآباء والأمهات قد انصرفت عنك وزَهِدت فيك .

وتنهض بنت أبي ذؤيب فتعود الى آمنة فتعرض عليها إرضاع الطفل ، وإذا آمنة تأبى وقد آذاها ما رأت من إعراض المراضع وانصرافهن ، وعلى وجههـا آيات حزنٍ عميق ، وفي صوتها بقية من بكاء، وأمَتُنها بركة تعينها على الإباء وتحرضها على الامتناع. ولكن ابنة أبي ذؤيب تنظر إلى الطفل فاذا قلبهـــا يمتلىء حبـاً له ، وإذا هي تحس أنها مدفوعة إليه دفعاً، وإذا هي تسرع إلى الطفل فترفعه بين يديها وتدنيه من صدرها، وإذا الطفل يلتمس الثدي كأنما كان منه على ميعاد ، وإذا هو يشرب حتى يَرْوَى ، وإذا بنت أبي ذؤيب تجد من اللبن ما لم تكن تجد من قبل ، وإذا آمنة تستجيب لها، وكيف تأبى عليها وقد رأت من حبها للطفل ومن إقبـال الطفل عليها ومن إرضاعها له ما رأت ! لقد اصبحت هذه الظئْر له أمّاً . قـالت آمنة : خذيه ولا تراعي ؛ فاني لأرجو ألا تجدي منه إلا خيراً ؛ فلقد حملته فما وجدت له ثقلاً ، ولقد انتظرته تسعة أشهر فما أحسست مما يُحس النساء قليلاً ولا كثيراً . ولولا غاشية الحزن التي غشيتنا بفقد ابيه لكانت هذه الأشهر اسعد ما تظفر به امرأة من دهرها . ولكــن الحوادث

تحدث والخطوب تـُلِم والآمال تـَنقطع وقـد كان يرجى ان تتصل ، والسحب تتراكم فتحجب ضوء الشمس ، ولقد وضعت هذا الصبيّ فما عرف صاحباتي عليَّ وعليه شيئاً مما تعوّدن ان يعرفن على الأمهات والولدان . وإنك لتنكرين يا ظئر لو تسمعين. قالت حليمة : وما ذا اسمع ، وماذا انكر ؟ قالت آمنة : لم اكن تلك الليلة في دار من دور قريش ، وإنما كنت في مكان لم يألفه الناس : كنت في بحر من النور كـلـه رحمة وبرّ ورضوان وما لك لا تنكرين هذا يا ظئر وقدانكرته انا وانكرته صواحبي ! ومالك لا تعجبين يا ظئر وقد عجبت وعجب صواحبي وعجب جده الشيخ ! سلي حاضنتـه هذه تنبئك بما رأت وما سمعت . سلي من شئت من نساء بني هـاشم ورجالهم تعلمي أن لابني هذا اليتيم شأناً ليس لغيره من ابناء الأغنياء وأهل اليسار . ولا تراعي ياظئر ؛ فانك تحملين وليداً كريماً لأب كريم ، وجد كريم ، ثم انهلت من عينهـا دموع غزار ؛ وقالت في صوت يقطعه البكاء : لا تيأسي يا ظئر ؛ فان معروفنـا على قلّته سيصل اليك ، وربّ قليل خير من كثير . قالت حليمة : وقـد رقّ قلبها ، وجادت عيناها ببعض الدمع على غير عادة الأعرابيات : لا بأس عليـك يا ابنة وَهب ! فاني والله ما استطعت صبراً على هذا الصبي منذ رأيته . وإني والله ما أدري ما الذي عطفني عليه حتى رجعت اليك آخذه منك. وقـد كنت استطيـع القفول ، وقد كنت استطيع المكث في بلدكم هـذا يوماً أو أياماً ؛ فالأطفـال يولدون ، وسَراة قريش في حاجة إلى المراضع كلّ يوم ، ولكنه والله أمرٌ يراد وانصرفتْ حليمة بابنهـا الجديد راضية مسرورة ، قانعة بما زوّدتها به آمنة من البر والمعروف . حتى إذا انتهت إلى زوجها الأعرابيّ لـَقيهـا باسمَ الثغر ، مُشرقَ الوجه ، سعيداً أن لم تعدْ إليه صفرَ اليدين . ولم يكد ينظر إلى الطفل حتى أنطق لسانه ، وإذا هو يقول لامرأته : إيه يا ابنةَ أبي ذُؤيب ! ما رأيتُ كاليوم وجهاً مشرقاً يفيض منه البشر ؛ إني والله لأرجو أن يكون لنا من هذا الغلام خير .

وينهض الأعرابيّ إلى شارفه يلتمس في ضَرعها الجافّ قطرات من لبن يَبُلّ بهـا ظمأ امرأته ، وينقع بها بعض غُلته . فما أسرع ما يأخذه عجبٌ لا ينقضي حين يَرى شارفه حافلة تمنحه من اللبن ما يريد وما تريد امرأته، وفوق ما يريد وماتريد امرأته . وينظر الأعرابيّ فإذا ابنه الأول يجد عند أمه ما يُرويه ويرضيه ، وإذا وجهُ الكالح المظلم قد أخذ يُشرق ويُضيء ، وإذا ابتسامةٌ حلوة طاهرة قـد ارتسمتْ على ثغره البريء ، وإذا هو يقول لأمرأته : تعلمي يا ابنة أبي ذؤيب أنك قـد حملتِ نَسمة مباركة !

وتنهض الظئر إلى أتانها فتركبها وتضع الرضيع بين يديها ، وينهض الأعرابيّ إلى شارفه فيمتطيها، ويرميان بنفسيها في الطريق يلتمسان الركب من بني سعد ، والركب بعيد قد دُفع به في الطريق طويلة تائية . ولكن الأعرابية تجدُ من أتانها نشاطاً وحدّة ، ولكن الأعرابي يجدُ من شارفه قوة ومَرَحاً ، وهما يمضيان وكأنما تُطوى لهما الأرض طيّاً . ثم يقول الأعرابي لامرأته مُدّي عينيك يا ابنة ذؤيب، أترين شيئاً؟ قالت : أي والله إني لأراهم ، وإنهم لأدنى من مرمى العين . وما هي إلا أن يبلغ الأعرابيّ جماعة بني سعد ، فيعجبُ الناسُ بأمرحليمة وقد أدركتهم في غير جهد ولا كدّ ، والأَمدُ بعيد ، والطريقُ شاقة . ويسأل النساء حليمة عن هذا الرضيع الذي تحمله ، فإذا أنبأتهنّ بنبئه أظهرنَ لها الرّقة والرثاء، وأضمرن التيهَ والكبرياء . ويمضي الركب آخذاً بأطراف الحديث ، وإنّ حليمة لتسبق أترابها حتى تُتعبهن ، وإن أترابها لَيقلن لها : أهذه أتانُك يا ابنةَ أبي ذؤيب التي أقبلتْ بك إلى مكة ؟ فتقول: هي والله أتاني ما غيرتها . فيقلن : ارْبَعي علينا (١) يا ابنة أبي ذؤيب ؛ فما رأينا كاليوم مرحاً ولا عَدْواً .

ويبلغ الركب ديار بني سعد ، ويثوب المراضع إلى بيوتهن ، ويستأنفن حياةَ أهل البادية في أرض مُجدْبة قلّ فيها الرّعي والماء ، وكثر فيها البؤس والشقاء . وَغنمُ حليمة ترعى كما ترعى الغنم ، ولكنها تروح مِلاء حُفّلا لا يظمأ أصحابها ولا يجوعون، وتروح غنم السعديين مهزولةً نحيلة ناضبة ، لا تكاد تَبِضّ بما يَبلّ الريق . وهم يقولون لرُعاتهم : ويلكم ! ارعوا حيث ترعى غنمُ ابنة ذؤيب . فيقول الرعاة : والله إنا لنرعى حيث ترعى ، وإنها والله لا تجد أكثر مما نجد ، ولكنها تروح ملاء ونروح بغنمنا كما ترون ، لا تُغني من ظمأ ولا جوع . فيقولون : إنّ لابنة أبي ذؤيب لشأناً . وتنعم حليمة وينعم أبناؤها بحياة راضية هادئة ، وينمو رضيعها ويزكو. وتقضي هذه الأسرة عامين راضيين لا تعرف فيها مشقة ولا جهداً ، ولا تجد فيهما ألماً ولا سقماً ، وإنما هي أيامٌ وليال تَطّردُ ويمضي بعضها في أثر بعض لا كدر فيها ولا تنغيص حتى اذا آن الرضيع أن يثوب الى أمه نظرت حليمة وزوجها فاذا الطفل قد نما وزكا كأحسن ما ينمو الأطفال ويَزكون ، لم يكد يتمّ الثانية وكأنه ابن أربع ، والقوم عليه حِراص ، ولكنهم يؤدّونه على ذلك الى أمه كارهين .

ثم تهمّ حليمة أن ترجع وقد أرضت آمنة وعبدالمطلب، وأرضتها آمنة وعبدالمطلب،

---

(١) اربعي علينا ، أي أرفقي بنا وانتظرينا .

ولكنها لا تستطيع فراق الطفل حباً له وحدباً عليه ، ورغبة في استبقاء ما وجدت في استصحابه من خير ؛ فتلحّ على آمنة أن ترده معها الى البادية ، هناك حيث الهواء النقي ، والسماء الصافية ، والحياة الهادئة البريئة ، هناك حيث لا مرض ولا وباء ولا فساد . وتجيبها آمنة الى ما أرادت وقد آثرت الطفل على نفسها ، وضحّت بلذة الأمومة في سبيل تنشيء ابنها تنشيئاً صالحاً . وهل عرفت آمنة إلا التضحية ! وتمضي حليمة بالصبي راضية ، وتبقى آمنة في مكة محزونة . وتنظر بركة الى حليمة نظرات فيهن الحسد . وتنظر بركة الى آمنة نظرات فيهن اللوم .

قلت لمحدثي : فكيف قضّى الصبي أيامه بعد ذلك في البادية ؟ وكم أقام عند ظئره في ديار بني سعد ؟ قال : إن لهذا لحديثاً عجيباً ، مهما أبلغ من البراعة وقوة البيان فلن أقصه عليك في تلك السذاجة الحلوة الأخاذة التي كان يقصها مكحول على أهل الشام . فاسمع حديث مكحول فانك واجد فيه مثل ما وجدت من اللذة والعظة والعبرة والمتاع .

قال مكحول : حدثني شداد بن أوس قال : بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ أقبل شيخ من بني عامر ، وهو مدرّه قومه وسيدهم ، شيخ كبير يتوكأ على عصا ، فمثل بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم قائماً ، ونسبه الى جده فقال : يا بن عبد المطلب ، إني أنبئت أنك تزعم أنك رسول الله الى الناس ، أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء . ألا وإنك فوّهت بعظيم ! وإنما كانت الأنبياء والخلفاء في بيتين من بني إسرائيل ، وأنت ممن يعبد هذه الحجارة والأوثان ، فمالك وللنبوة؟ ولكن لكل قول حقيقة فأنبئني بحقيقة قولك وبدء شأنك . قال : فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم بمسألته ، ثم قال : « يا أخا بني عامر ؛ إن لهذا الحديث الذي تسألني عنه نبأ ومجلساً ، فاجلس » . فثنى رجليه ثم برك كما يبرك البعير . فاستقبله النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث فقال : « يا أخا بني عامر ؛ إن حقيقة قولي وبدء شأني أني دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخي عيسى بن مريم ، وأني كنت بكر أمي ، وأنها حملت بي كأثقل ما تحمل ، وجعلت تشتكي إلى صواحبها ثقل ما تجد . ثم أن أمي رأت في المنام أن الذي في بطنها نور . قالت : فجعلت أتبع بصري النور ، والنور يسبق بصري ، حتى أضاءت مشارق الأرض ومغاربها . ثم إنها ولدتني فنشأت . فلما أن نشأت بغضت إليّ أوثان قريش وبغض إليّ الشعر . وكنت مسترضعاً في بني ليث ابن بكر . فبينا أنا ذات يوم منتبذ من أهلي في بطن واد

مع أتراب لي من الصبيان نتقاذف بيننا بالجَلَّة [1] إذ أتانا رَهطٌ ثلاثــة معهم طستٌ من ذهب مُلِيء ثلجاً ، فأخذوني من بين أصحابي ، فخرج أصحــابي هُرّابــاً حتى انتهوا إلى شفير الوادي ، ثم أقبلوا على الرهط فقالوا : ما أربكم[2] إلى هــذا الغلام فإنه ليس منا، هذا ابن سيد قريش وهو مُسترضعٌ فينا من غلام يتيم ليس له أب؟ فماذا يردّ عليكم قتلُه ؟ وماذا تُصيبون من ذلك ؟ ولكن إن كنــتم لا بدّ قاتليه فاختاروا منا أينا شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ، ودعوا هذا الغلام فإنه يتيم .

فلما رأى الصبيان القوم لا يحيرون إليهم جواباً ، انطلقوا هُرّاباً مسرعين إلى الحيّ يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم . فعَمَد أحدهم فأضجعني على الأرض إضجاعاً لطيفاً، ثم شق ما بين مَفرِق صدري إلى منتهى عانتي وأنا أنظر إليه لم أجد لذلك مسّاً ، ثم أخرج أحشاء بطني ، ثم غسلها بذلك الثلج فأنعمَ غسلها ، ثم أعادها مكانها . ثم قام الثاني منهم فقال لصاحبه : تَنحّ فنحاه عني ، ثم أدخلَ يدَه في جوفي فأخرج قلبي ، وأنا أنظرُ إليه ، فصدّعه ، ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها ، ثم قال بيده [3] يَمنة منه كأنه يتناول شيئاً ، فإذا أنا بخاتم في يده من نور يحار الناظرون دونه ، فختم به قلـبي فامتلأ نوراً ، وذلك نورُ النبوة والحكمة ، ثم أعاده مكانه ، فوجدت برد ذلك الخاتم في قلبي دهراً . ثم قال الثالث لصاحبه : تَنحّ . فَتنحّى عني ، فأمرّ يده مــا بين مَفرق صدري إلى منتهى عانتي فالتأم ذلك الشق بإذن الله ، ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني إنهاضــاً لطيفاً ، ثم قال للأول الذي شق بطني : زِنْه بعشرة من أمته ، فوزنوني بهم فرَجحتهم. ثم قال : زنه بمائة من أمته ، فوزنوني بهم فرجحتهم . ثم قال : زنه بألف من أمته ، فوزنوني بهم فرجحتُهم . فقال : دعوه ، فلو وزنتموه بأمته كلها لرَجحهم . قال : ثم ضَموني إلى صُدورهم ، وقبلوا رأسي وما بين عيني . ثم قالوا : يا حبيب ! لا تُرَعْ ! إنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرّتْ عيناك . قال فبينا نحن كذلك إذا أنا بالحيّ قد جاءوا بحذافيرهم ، وإذا أمي – وهي ظئر – أمام الحيّ تَهتِفُ بأعلى صوتها وتقول : يا ضعيفاه ! فانكبوا عليّ فقبلوا رأسي وما بين عيني ، فقالوا : حبذا أنت من ضعيف ! ثم قالت ظئري : يا وحيداه ! فانكبوا عليّ فضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني ، ثم قالوا : حبذا أنت من وحيد ! وما أنت بوحيد ! إن الله معك وملائكته والمؤمنين من أهــل الأرض . ثم قالت

---

(١) الجلة : البعر .

(٢) الأرب (بفتح الهمزة والراء وبكسر الهمزة وسكون الراء) : الحاجة .

(٣) قال بيده : أهوى بها ، وقال برأسه : هزه . (عن أساس البلاغة)

ظئري : يا يتيماه ! استضعفت من بين أصحابك فقتلت لضعفك ؟ فانكبوا عليّ فضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عينيّ وقالوا حبذا أنت من يتيم ! ما أكرمك على الله ! لو تعلم ماذا يراد بك من الخير ! فوصلوا بي إلى شفير الوادي . فلما بَصُرت بي أمي ، وهي ظئري ، قالت يا بنيّ ألا أراك حيّاً بعدُ ! فجاءت حتى انكبتْ عليّ وضمتني إلى صدرها . فوالذي نفسي بيده إني لفي حجرها وقد ضمتني إليها ، وإن يدي في يد بعضهم ، فجعلت ألتفتُ إليهم وظننتُ أنّ القومَ يُبصرونهم ، فإذا هم لا يبصرونهم . يقول بعض القوم : إن هذا الغلام قد أصابه لَممٌ[1] أو طائفٌ من الجنّ ، فانطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويداويه . فقلتُ : يا هذا ، ما بي شيء مما تذكر ؛ إن إرادتي سليمة وفؤادي صحيح ليس بي قَلَبَةٌ[2] . فقال أبي – وهو زوج ظئري – ألا ترون كلامه كلامَ صحيح ! إني لأرجو ألاّ يكون بابني بأس . فاتفقوا على أن يذهبوا بي إلى الكاهن ، فاحتملوني حتى ذهبوا بي إليه . فلما قصّوا عليه قصتي قال : اسكتوا حتى أسمعَ من الغلام فإنه أعلمُ بأمره منكم . فسألني فاقتصصتُ عليه أمري ما بين أوله وآخره . فلما سمع قولي وثبَ إليّ وضمني إلى صدره ، ثم نادى بأعلى صوته : يا للعرب ! يا للعرب ! اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه ! فواللات والعزّى لئن تركتموه وأدركَ ليُبدلنّ دينكم وليسفّهنّ عقولكم وعقول آبائكم . وليخالفنّ أمركم . وليأتينّكم بدين لم تسمعوا بمثله قط . فعمدت ظئري فانتزعتني من حجره وقالت : لأنت أعتَه وأجنُّ من ابني هذا ! فلو علمت أن هذا يكون من قولك ما أتيتك به ، فاطلبْ لنفسك مَن يقتلك فإنا غيرُ قاتلي هذا الغلام . ثم احتملوني فأدّوني إلى أهلي .. فأصبحتُ مُفزَعاً مما فُعل بي ، وأصبح أثرُ الشق ما بين صدري إلى منتهى عانتي كأنه الشِّراك[3] . فذلك حقيقةُ قولي وبدء شأني يا أخا بني عامر » . فقال العامريّ : أشهد بالله الذي لا إله غيرُه إنّ أمرك حقّ . فأنبئني بأشياء أسألُك عنها . قال سَلْ عنك – وكان النبي ﷺ قبل ذلك يقول للسائل : سَلْ عما شئتْ وعما بدا لك ، فقال للعامريّ يومئذ : « سَلْ عنك » لأنها لغة بني عامر ، فكلمه بما عَلِم – فقال له العامريّ : أخبرني يا بن عبد المطلب ما يَزيدُ في العلم ؟ قال : التعلم . قال : فأخبرني ما يَدُلّ على العلم ؟ قال النبي ﷺ : السؤال . قال : فأخبرني ماذا يزيد في الشرّ ؟ قال : التمادي . قال :

(١) اللمم (بالتحريك) : طرف من الجنون .
(٢) القلبة (بالتحريك) : الألم والعلة .
(٣) الشراك : أحد سيور النعل التي تكون على وجهها .

فأخبرني هل ينفع البرّ في الفجور ؟ قال : « نعم : التوبةُ تغسل الحوبة (١) ، والحسنات يُذهبن السيئات ، وإذا ذكرَ العبدُ ربّه عند الرخاء أغاثه عند البلاء . » قال العامريّ : وكيف ذلك يا بنَ عبد المطلب ؟ قال : « ذلك بأن الله يقول : لا وعزّتي وجلالي لا أجمعُ لعبدي أمنين ، ولا أجمع له أبداً خوفين : إنْ هو خافني في الدنيا أمنني يومَ أجمع فيه عبادي عندي في حظيرة القدُس فيدومُ له أمنُه ، ولا أمحَقُه فيمن أمحق . وإن هو أمنني في الدنيا خافني يوم أجمعُ فيه عبادي لميقات يوم معلوم فيدوم له خوفُه . » قال : يا بن عبد المطلب ، أخبرني إلام تدعو ؟ قال : « أدعو إلى عبادة الله وحدَه لا شريكَ له ، وأن تخلعَ الأنداد وتكفر باللات والعزّى ، وتقرّ بما جاء من الله من كتابٍ أو رسول ، وتصلي الصلوات الخمس بحقائقهن ، وتصوم شهراً من السنة ، وتؤدي زكاة مالك يطهّرك الله بها ويطيّب لك مالَك ، وتحج البيت إذا وجدتَ إليه سبيلا ، وتغتسل من الجنابة ، وتؤمن بالموت وبالبعث بعد الموت ، وبالجنة والنار . » قال : يا بن عبد المطلب ، فإذا فعلتُ ذلك فما لي ؟ قال النبي ﷺ : « جنات عدن تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها وذلك جزاءُ مَنْ تزكّى . » قال : يا بن عبد المطلب ، هل مع هذا من الدنيا شيء فإنه يُعجبني الوطاءةُ من العيش ؟ قال النبي ﷺ : « نعم النصرُ والتمكنُ في البلاد . » قال : فأجابَ وأناب (٢) قلت لمحدثي : إن هذا النبأ لعجيب ! فمن لهذا الشيخ العامريّ بما كان يَعلم من أمر إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء ؟ قال : كان كثير من هؤلاء العرب يَلقون اليهودَ ويلقون النصارى ، فيعلمون منهم عِلمَ الأنبياء ، وينتهون إلى نفور من دينهم القديم في غير اطمئنان إلى يهودية اليهود ونصرانية النصارى ، فأخرجهم الله بالإسلام من حيرتهم تلك .

قلتُ لمحدثي : فكيف انتهى حديث مكحول إلى أهل الشام ؟ قال أمَا علمتَ أنّ شدّاد بن أوس سكن فلسطين وأنفق شطراً طويلاً من حياته في بيت المقدس يُعلّم الناس ويحدثهم ، وعده بذلك النبيّ نفسه ؟ فقد تحدثوا أنه كان عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يجود بنفسه فقال : ما لك يا شدّاد ؟ قال : ضاقتْ بي الدنيا . فقال : « ليس عليك ، إن الشام سيفتح ، وبيتَ المقدس سيفتح ، وتكون أنت وولدُك من بعدُ أئمةً فيهم إن شاء الله تعالى (٣) » .

(١) الحوبة (بفتح الحاء وضمها) : الإثم .

(٢) تاريخ الطبري جزء ٢ من صفحة ١٢٦ إلى ١٢٨ طبعة القاهرة .

(٣) الإصابة جزء ٣ صفحة ١٩٥ طبعة المطبعة الشرقية بالقاهرة سنة ١٣٢٥ .

١٤

البرّ

ضاقت الدار باليتيم وحاضنته بعد أن أقفرت من أمه آمنة ؛ فضمه جَدُّه الشيخ إليه وكان به حَفِيّاً (١) وعليه حريصاً ، يُكرمه ويؤثره بالخير ويمنحه من الحنان والود ما كان يفيض به قلبه الكريم ، وكأنه كان قد جمع في قلبه نصيب ابنه عبد الله من حبه أكثرَ من ستّ سنين يَزيدهُ ويُنميه ، حتى إذا ضمّ الصبيّ إليه أخذ يمنحه هذا الحب ويختصّه بهذا الحنان . وأخذ الطفلُ يحسّ ذلك ويَنعمُ به ، ويألفُ جدَّه ويطمئن إليه بل يطمع فيه ، ويبلغ من الجرأة عليه ما لم يكن يبلغه صغارُ بنيه وكبارُهم . كانوا لا يَدنـُون منه إلا أن يُدنيهم ، ولا يجلسون منه إلا مجلس الإكبار والإجلال ، وكان الطفلُ يدنو منه متى شاء ، وينصرفُ عنه متى أحبّ . وتبلغ الجرأةُ به أن يسبقه إلى مجلسه فيجلس فيه ويَستأثر من دونه بالفراش . وكان أعمامُه وعَمّاتُه يرون منه هذا فيحاولون ردّه عنه وتأديبه بآداب الأسرة ، ولكن الشيخ كان يَكفهم عنه ويقول : دعوا ابني إنه ليُؤنِس مُلكاً .

ولم يكن هذا الشيخ يسميه إلا بهذا الاسم الحلو ، كان إذا تحدث عنه قلما يذكر محمداً أو أحمدَ ، إنما كان يقول جاء ابني وذهب ابني . وكان يقول لبرَكة : استوص بابني . وكان يقول لأبي طالب : احتفظْ بابني . فليس غريباً أن يُلِمّ المرضُ بالشيخ ويَثقُلَ عليه فيكتئب اليتيم ويمتلىء قلبهُ حزناً وألماً. وما يمنعه أن يكتئب وما يمنعه أن يحزنَ ويألم ، وقد كان يعيش في ظلّ جده عيشاً إن لم يكن يُسراً كله ودَعةً كله فقد كان حبّاً كله وحناناً كله ! ويصبح الشيخ ذات يوم مثقلا مكدوداً يُحس كأن الحياة تفارقه ، وكأنّ الموت يسعى إليه ، فلا يشكُّ في أن هذا اليومَ آخرُ عهده بالدنيا . هنالك فكر الشيخ في هذا الدهر الطويل الذي أنفقه بين الناس جاهداً في الخير ما استطاع ، باذلاً معروفه ما وَسعه البذل ، مُطوفاً في أقطار الأرض بتجارته وتجارة قريش ، ومقيما في مكة بين نسائه وبنيه ، يذهب من داره إلى المسجد ويعود من المسجد إلى داره ، لا يغدو إلاّ مفكراً في خير ، ولا يروح إلا مفكراً في معروف

---

(١) حفي به : معنى به يسأل عن شؤونه ويكرمه .

والناس من حوله ينعمون ببرّه بهم وعطفه عليهم ، فيحبونه ويؤثرونه ويصفونه المودةَ ويَصْدقونه الولاء . وفكرَ الشيخ في هذه المحن والخطوب التي ألمّت به وألحّت عليه فلم تَلِن قناتُه ولم تَفلُلْ حدّه ، وإنما تركته كما لَقيته صلباً جلداً حازماً ماضيَ العزم ، كأنه الشجرةُ العظيمة قد ثبت أصلها في الأرض وامتدت أغصانها القويةُ في الجو ، فهي مستقرةٌ في مكانها تختلف عليها العواصف فلا تضطرب ولا تميل . وفكر الشيخ في ابنه عبد الله كيف كان يحبه ويألفه ويضنّ به على المكروه ، وكيف لم يمنعه هذا الحبّ من أن يقدمه ليوفيَ به ما كان قد فرض على نفسه من النذر ، وكيف جدّ في ذلك ، وجدّ الفتى في الطاعة والإذعان ، حتى اقترحَ عليه الفداء ، وكيف فادى ابنه فغالى في الفداء ، وكيف اغتبط وابتهج حين قبلَ الآلهةُ فداءه وتركوا له ابنه ، ثم كيف أرسله إلى الشام ليموتَ في يثرب بعد أن اتجر فأفاد ربحاً كثيراً .

نعم ! وفكر الشيخ في آمنـــة كيف خُطبت للفتى ، وكيف احتملتْ فقدَه كريمةً أبيه . ثم فكر في هذا الطفل اليتيم وفي هذه الأطوار الغريبـــة التي أحاطت بمقدمه إلى الأرض ودخوله في الحياة – فكرَ في هذا كله فرضيَ عن نفسه كما رضي عنه الناس ، وحزنَ على نفسه كما حزن عليه الناس ، وكان واثقاً بأن ما رأى من الأحداث التي لم يرَ الناسُ مثلها لم يُرسل إليه عبثاً ولم يُسلط عليه إلا لأمر يُراد . وكان يُقدّر أنّ هذا الأمر الذي يُراد إنما يُراد بابنه اليتيم . وكانَ يَوَدّ لو مُدّت له الحياةُ فرأى من أمر ابنه ما لم يكن يَشكّ في أنه واقعٌ محتوم . ولكن الحياة لا تُنال بالرغبة والموتَ لا يُدفع بالكره ، والأيام لم تُعط الناس عهداً بأن تكون عند ما يُريدون . وهل مُدّت أسبابُ الحياة لعبد الله حتى يرى ابنه وليداً ! بل هـــل مُدّت أسبابُ الحياة لعبد الله حتى يعلم أنه قد ترك وارثاً ! لقد مات وهو يعلم حقّ العلم أنه لم يُعقب ، ولو قد كشف عنه الحجاب لعلـم أنه أعقب لا كما يُعقب الناس . وهل مُدت أسباب الحياة لآمنة حتى تسعد بابنها اليتيم ! لقد ولدته فاختطفته منهـا المرضع واحتفظت به زمناً طويلاً . ولم تكد الأم تَنعمُ بابنها حتى أقبل الموتُ فقطع ما بينها من سبب ، وأبى إلا أن ينقلها إلى جوار زوجها الذي طالما كانت تذكره وتفكر فيه . فلِمَ تُمدّ أسباب الحياة للشيخ وقد أنفقَ في الأرض أكثرَ من مائة سنة ذاقَ فيها خيرَ الحياة وشرها ، وبلا فيهـــا حلْوَ الحياة ومرّها ! لِمَ تُمدّ له أسباب الحياة وكل شيء من حوله ومن حول الطفل يدلّ على أن حياةَ هذا الصبيّ لن تكون كحياة غيره من الصبيان ، يسيرةً لا عوج فيها ولا التواء ، وإنما ستكون حياةً

فيها امتحان وبلاء ، وفيها تصفية وتطهير ! لقد فقد أباه وفقد أمه ، وهو الآن سيفقد جدّه ، وسيصبح بعد ساعات يتيما حقاً ، ووحيداً حقاً ، ليس له من يعطف عليه أو يرقّ له إلا هذه الأَمَةُ التي تحضنه ، وعمه الذي سيكفله كما يكفل الأعمامُ أبناء الإخوة !.

وكان الشيخ يفكر في هـذا ويحسّ أنه يَزدادُ ثِقَلا على ثِقَل ، ويشعر كأنه يُفارق ما حوله ومَن حوله قليلاً قليلا ، لا يتقدّم في الزمان لحظةً حتى يخطو إليه الموت خطوات . وكان الشيخ يحب أن يسمع من أصوات الناس أكثرَ ما يستطيع أن يسمع قبل أن يغمره الموتُ فـلا تصل إليه الأصوات . وكان أحبّ الأحاديث إلى الشيخ في هذه اللحظات القليلة الباقية حديثُ نفسه ، فيدعو بناته ويطلبُ إليهن أن يبكينه كما يبكي النساء الموتى ، ويُلِح عليهن في ذلك ؛ لأنه يُريد أن يسمعهن أو لأنه يريد أن يسمع رثاء نفسه . ولعله لو استطاع أن يرثي نفسه بنفسه لفعل . وهؤلاء بناته من حوله يرفعن أصواتهن نادبات نائحات ، معدّدات مآثره ومفاخره ، مصوّراتٍ هذا الحزن العميق الذي يسعى حثيثاً إلى قلوبهن ؛ كما كان الموتُ يسعى حثيثاً إلى الشيخ ، والصبي قائم من وراء السرير يرى ويسمع ويمتلىء قلبه بما يرى وما يسمع ، وتَنهلّ من عينيه دموعٌ صامتةٌ لعلها لو رآها الشيخ لأرضته !.

ولكن الشيخ يُسرع إلى الموت أو يُسرعُ إليه الموت ، فهو يسمع بنـاته ولا يستطيع أن يردّ عليهن أو يتحدث إليهن ، فيكتفي بما لا بُدّ له من أن يكتفي به من الإيماء . ثم يُسرع إلى الموت ويسرع الموت إليه حتى يلتقيا فلا إيماء ولا حَرَاك ، قد سكت الشيخ وسكت بناته لحظةً : ثم تمضي حياةُ الناس في طريقها ، فيشغل أهل الشيخ بالشيخ ليقطعوا هذه الأسباب الواهية التي بقيت بينه وبين الأحياء والأشياء ، ليغيبوه في قبره ، وليفرغوا لشؤونهم ، وليحتفظوا منه بهذه الذكرى التي تملأ القلبَ كله ، ثم تتضاءلُ شيئاً فشيئاً حتى تتخذ لها مكاناً ضيقاً خفياً تستقرّ فيه ، يُحسها الرجلُ حيناً ويجهلها أحياناً .

والصبيُّ محزونٌ كئيب ، يذكر أمه ، ويذكر جده ، وينظر إلى حاضنته وينظر إلى عمه ، ويفوّض أمره بعد هذا إلى الله .

وقد شَمِله الله برعاية لا تفتُر ، وكلأه بعناية لا تغفل ؛ فلم يلق من الناس في طفولته وشبابه شرّاً ولا نُكراً ، ولا احتمل منهم ألماً ولا مكروهاً . عَطف عليه عمّه كما كان يعطف عليه جدّه ، حتى آثَرَه بالمودة واختصه بالبرّ . ولَقِيَ منه عمه

مثلَ ما كان يلقى جده حباً بحب ووداً بود . وكان أبو طالب رجلَ مروءة وصدقٍ وحسن بلاء ، ولكنه كان فقيراً كثيرَ العيال ، وكان يجد جهداً عظيماً في إقامة عياله الكثيرين وسَدِّ خلاّتهم ، فلما ضمّ إليه هذا اليتيم صَلُحَ أمرُه وحسنت حاله، ووجد البركةَ والسعة فيما كان يُتاح له من القليل . كان يكسب لعياله ما يستطيع ، ثم يجمعهم حوله فلا يستطيعون إلا أن يمسوه مساً رفيقاً ، ثم ينصرفون وقد استنفدوه وما زالوا جياعاً فلما ضم الرجلُ إليه ابن أخيه اليتيم لم يزدْ ما كان يكسب ، ولكن الله بارك فيه وزكاه . فكان الرجلُ يجمع عياله ، ومعهم يتيمه هذا ، حول هذا القليل ، فلا يقومون إلا وقد أدركوا ما يدفع عنهم ألم الجوع ويُبلغهم الرضا والاطمئنان .

وكذلك أنفق اليتيمُ طفولته وصباه بين هذين القلبين الرحيمين : قلب عمه وقلب حاضنته .

ولستُ أعرف صبياً تأثر بحياة الصبا واحتفظ بحوادثه وذكرياته ما أقام في هذه الدنيا ، ووفى للذين برّوا به وأحسنوا إليه كهذا الصبي . لم يكد يقدر على البرّ وإسداء المعروف وإظهار شكره للنعمة ، واعترافه بالجميل،حتى ضرب للناس في ذلك أروع الأمثال وأبلغها تأثيراً في القلوب .

أرضعته أمَةٌ لأبي لهب يقال لها ثُوَيْبة أياماً قبل أن تأخذه حليمة . فلما علم ذلك من أمرها حفظ لها هذه النعمةَ وعرف لها هذا الجميل فلم يكد يقدر على شكرها والبرّ بها حتى جهد في ذلك ، وإذا هو يحمل زوجه خديجة على أن تسعى عند أبي لهب في أن تشتري منه هذه الأمة لتعتقها ، فيأبى أبو لهب ، فيتصلُ معروفُ الرضيع بأمه هذه ما أقام بمكة ، حتى إذا هاجر الى المدينة لم ينس أمّه ولم يهملها ، وإنما أرسل إليها الصّلات والكسوة من حين الى حين . حتى إذا عاد من خيبرَ وقيل له: إن ثُوَيبةَ قد ماتت سأل عن قرابتها لينالهم بما كان ينالها به من المعروف ، فأنبىء بأنها لم تترك أحداً .

وحياةُ أهل البادية مملوءةٌ بالضنك حافلة بالشقاء . فانظر الى حليمة تهبط مكة تستعين بابنها على أثقال الحياة ، فيكلّم لها خديجة فتمنحها بعيراً وأربعين شاة . وانظر اليها تستأذن عليه مرّة أخرى، فإذا أدخلت عليه ورآها قال : أمي ! امي ! ثم بَسط رداءه فأجلسها عليه ! ثم أدخل يده من دون ثيابها فمسّ صدرها مساً ، ثم قضى حاجتها . ثم انظر اليه بعد أن عظمَ وارتفع شأنه ودانت له العرب كلها ،وقد

نصره الله يوم حنين على هوزان ، فهزم الجند واحتوى المالَ وسبى الذُّرية والنساء ، وقسم الغنائم بين المسلمين . وانه بالجعرانة [١] صباحَ يوم واذا وفدٌ من هوزانَ يقبل عليه مُسلماً منيئاً بإسلام مَنْ وراءه من الناس ، وفي هذا الوفد عمُّه من الرضاعة ، واذا عمه يتحدث اليه فيقول : يا رسولَ الله ، انما في هذه الحظائر مَن كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك، وقد حضنّاك في حجورنا وأرضعناك بثديِّنا . لقد رأيتك مُرضَعاً فما رأيتُ مُرضَعاً خيراً منك ، ورأيتُك فطيما فما رأيتُ فطيما خيراً منك ، ثم رأيتك شاباً فما رأيتُ شاباً خيراً منك ، وقد تكاملتْ فيك خلالُ الخير . ونحن مع ذلك أصلك وعشيرتُك ، فامنن علينا مَنَّ الله عليك . فيجيبه :لقد استأنيتُ بكم حتى ظننتُ أنكم لا تقدُمون ، وقد قسمتُ السبيَ وجرَتْ فيه السهمان [٢] فما كان منه لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وأسألُ لكم الناس فإذا صليت بالناس الظهر فقولوا : نستشفع برسول الله الى المسلمين وبالمسلمين الى رسول الله ، فإني سأقول لكم : ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وسأطلبُ لكم الى الناس . فلما صلى الظهر قامَ الوفدُ ، فأتم ما أمر به ، ووفى لهم بوعده ، وشفع لهم عند الناس[٣] فرُدَّت عليهم نساؤهم وأبناؤهم ، لم يأب ذلك الا نفرٌ من الأعراب اشترى منهم ما كان في أيديهم من السبي وردَّ على أهله .

قلت لمحدثي : فإن هذا الوفاء بليغ التأثير فيالنفوس،وأبلغ منه هذه الحيلة الطاهرة البريئة في استخلاص السبي من الذين ملكوه ؛ فيها وفاء ، وفيها ردٌ للحرية على آلاف من الناس ، وفيها اقرارٌ للأمن والسلم في قبيلة ضخمة قوية من العرب ، وفيها تخليص القلوب من الضغينة والموجدة والحقد ، وتهيئتها لقبول الإسلام والنصح للمسلمين في صدق واخلاص . قال محدثي : نعم ! ولكن له وفاءٌ آخر يملأ القلوب رحمة ويمزّقها لوعةً وأسى؛لأنه وفاء المحبّ الصادق في الحب،والعاجز عن النفع الذي لا يملك لمن يُحب خيراً . قلت : وكيف يجد العجز إلى هذا القلب العظيم سبيلاً ؟ قال : إن لله قَدَراً مهما تعظم القلوب فلن تغيّره ولن تبدّله لقد كان أشد الناس براً بأمه ووفاء لعمه : مرّ بقبر أمه عام الحُديبية فاستأذن ربّه في أن يزور القبر ، فأذن له ، فزاره وأصلحه ومكث عنده حيناً . ثم استأذن ربه في أن يستغفر لأمه فأبى عليه ، فانصرف عن القبر باكياً كئيباً ، وبكى المسلمون لبكائه ، واكتأب المسلمون

(١) الجعرانة (بكسر الجيم وسكون العين وقد تكسر العين) : موضع بين مكة والطائف .

(٢) السهمان : جمع سهم وهو النصيب والحظ .

(٣) طبقات ابن سعد جزء ١ صفحة ٣٢ قسم أول طبع ليدن .

لاكتئابه ، ودخل مكة عامَ الفتح ظافراً منتصراً . وبينا هو في بعض مواضعها رأى أصلَ قبر فعطف عليه وأقام عنده ، واستأذن في الاستغفار لصاحب القبر فلم يُؤذَنْ له ، فانصرف محزوناً كئيباً ، وبكى فبكى الناس . وما رأى الناس يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم[1] واختلط أمر هذا القبر على الرواة ، فظنوه قبر أمِّه وقبر أمّه في الأبواء . ومَن يدري ! لعله قبرُ جدِّه الشيخ. وعرض الإسلام على عمه وألح عليه ، وكاد الرجل أن يقبل لولا حميّة الجاهلية فلما مات قال ابن اخيه : لأستغفرنّ لك ، فلامه القرآن في ذلك لوماً عنيفاً .

تبارك الله ! رجل يخرج الله به أمّة كاملة من الظلمات إلى النور ، ويفتح لها به أبواب الخير على مصاريعها إلى آخر الدهر ، ثم يأبى اللهُ عليه أن يستغفر لأمه وعمه ، وأن ينقذ أهله الأقربين الذين أدّوه إلى الناس وحَمَوْه حتى أدّى الأمانةَ وبلّغ الرسالة [2] .

قلت لمحدثي : وماذا تنكر من ذلك وعدلُ الله محتومٌ لا يقبل أخذاً ولا ردّاً ، ولا تجوز عليه المصانعة ولا المحاباة ؟ قال : لا أنكر شيئاً ، وأعوذ بالله أن أنكر شيئاً وأنا أعلم أن الله قد تأذّنَ أنه لا يغفرُ أن يُشركَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . إنما أرثي للناس الذين يرون الخيرَ فيجتنبونه ، ويرون الشرّ فيتهالكون عليه . أرثي لهؤلاء الذين يبلغ بهم الضعفُ وخَوَرُ النفوس أن يظلموا الأبرياء ويعتدوا على الوادعين ليؤثروا أهلهم وقرابتهم بما ليس لهم بحق . ولو قد حاول الناس أن يتأثروا المثُلَ العليا ويتأسوا بالأسوة الحسنة لكان لهم في مثل هذه القصة صارفٌ عما يجترحون من السيئات ، ورادعٌ عما يقارفون من الآثام . هل ترى أبلغَ في تصوير العدل الصارم الحازم الذي لا يقبل هوادةً ولا يحتمل رفقاً ، لأنه ليس موضع هوادة ولا رفق ، من هذه الآية الكريمة التي يُلام فيها النبيّ والمسلمون حين استغفروا لمن لا مَطمعَ له في المغفرة :

« مَا كان للنبيّ والذينَ آمنوا أنْ يَستغفرُوا للمُشركينَ وَلَوْ كانُوا أولي قُربَى منْ بَعدِ مَا تَبيَّنَ لَهمْ أنهم أصحَابُ الجحيم . وَمَا كانَ استغفارُ إبْراهيمَ لأبيه إلاّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إيَّاهُ فلما تَبيَّنَ لَهُ أنّهُ عَدُوٌّ لله تَبرَّأ منه إنَّ إبراهيمَ لأوّاهٌ حليمٌ » .

---

(١) طبقات ابن سعد صفحة ٧٤ الجزء الأول ، القسم الأول .

(٢) تفسير الطبري جزء ١١ من صفحة ٣٠ إلى ٣٤ .

علىٰ هامش السّيرة

(٢)

الفيلسوف الحائر

- ١ -

قال حاكم المدينة لصاحبيه حين سكت الغناء : ما أجمل هذا الصوت ! ما أذكر أني سمعت قط شيئاً يقاربه عذوبة وسحراً .

قال كلكراتيس : إنه ليأتي من بعيد .

قال أندروكليس في شيء يشبه الذهول : ويدعو إلى بعيد .

والتفت الحاكم إلى المغنية وهو يقول : من علـّمك هذا الصوت يا ابنتي؟ فقد ملأت به أسماعنا وقلوبنا وعقولنا منذ الليلة !

قالت الفتاة في تحفظ شديد، مصدره حياء شديد : لقد أخذته عن أمي يا مولاي، وأخذته أمي عن جدتي ، وهو صوت شائع متوارث في مدينتنا منذ الزمان القديم ، يتغنى به الفتيات الحسان اذا خرجن مع الصبح يستقبلن الفجر المضيء الرطب بوجوههن المشرقة الوضاءة، ويملأن جرارهن من ماء النيل. يتغنين به فرحات مرحات، كأنما يترجمن به عن فرح الطبيعة المستيقظة ، ومرح الصبح النشيط . ومع ذلك فما سمعت أمي تتغنى هذا الصوت مرة الا رأيت على وجهها كآبة وشحوباً ، وأحسست في غنائها حزناً تنفطر له القلوب. وقد سألتها عن ذلك فأعرضت عني مرات ، ولكنها كانت تعاود الغناء فتعاودها الكآبة التي تغشى وجهها ، ويعاودها الحزن الذي يشيع في صوتها ويفيض على الجو من حولها حسرة وألماً ، فأعود أنا الى السؤال وألح فيه . فلما طال عليها ذلك مني أنبأتني نبأ هذا الصوت ، وعرفت منها أن جدتي لم تكن تتغناه إلا ثار في نفسها حزن عميق وتحدر من عينيها دمع غزير .

وما أكثر ما تخرج الأشياء عن أطوارها وتجري الأمور في أجيال المحدّثين على غير ما كانت تجري عليه في أجيال القدماء ! كان هذا الصوت صورة الحسرة واللوعة ، وترجمان الجزع واليأس عند جدّاتنا في الزمان الأول ، فإذا هو الآن عند أترابنا من

أهل هذا الجيل صورة الفرح والمرح ، وترجمان اللذة والغبطة والسرور .

ولقد تغنيت هذا الصوت في كثير من المجالس ، وتردد به صوتي في كثير من قصور الحكام والسادة ، فما رأيت أحداً سمعه ، ثم ذاقه ، ثم فهمه على وجهه ، ثم شاركني فيما أجد من عاطفة وما يملأ نفسي أثناء غنائه من شعور ، قبل أن أراكم الليلة ، وقبل أن اسمع سؤالكم عنه وقدركم له وحكمكم عليه .

ثم أمسكت الفتاة عن الحديث ، أو انقطع صوتها انقطاعاً ، حبسته في حلقها عبرةٌ أمسكتها الفتاة امساكاً ، ولكنها تفجرت من عينيها دموعاً متحدرة على خديها الجميلتين .

هنالك أسرع أندروكليس في شيء من الدعابة الخفيفة الى الفتاة فقبل بين عينيها ، ومسح هذا الدمع المتحدر وهو يقول : مهلاً يا ابنتي ! ما ينبغي لهاتين العينين أن تبكيا ، ولهذا الوجه الجميل أن يغسله الدمع ، ونحن بعدُ لم نجتمع للبكاء والحزن ، وانما اجتمعنا للغناء واللهو . فانتقلي بنا من هذا الصوت الحزين الحزن الى لون آخر من ألوان الغناء . خذي في بعض هذه الأغاني التي تملأ جو الساحل بهجة وسروراً ، والتي يتنقل بها اولئك الفتيان على مجالس السمّار وأصحاب العبث مع ما يتنقلن به من طاقات الورد والياسمين .

قال كلكراتيس في صوت هادىء كأنما يملكه صاحبه في شيء من العنف والشدة على نفسه : دعنا من دعابتك ومجونك ، وأرحنا من فرحك ومرحك ، فما أهون الدعابة والمجون ، وما أيسر الفرح والمرح ! وانا لفي ذلك منذ نصبح الى أن نمسي ، وانا لفي ذلك منذ نمسي الى أن يتقدم بنا الليل . يا عجباً للذين لايسأمون اللذة ، ولا يضيقون باللهو ، ولا يحتاجون بين حين وحين الى شيء من الحزن يردّ نفوسهم الى بعض أطوار الجدّ ويصور لهم الحياة على أنها شيء غير هذا الباطل الذي لا ينقضي ، والعبث الذي لا يزول . ان لصوتك هذا يا ابنتي لنبأ ، فحدّثينا به وقُصّيه علينا ! فقد شاركناك في ذوقه وفهمه ، فما أجدرنا أن نشاركك في العلم بما له من تاريخ !

قالت الفتاة مترددة متحفظة وقد نظرت الى حاكم المدينة نظر المستأذنة المستأمنة ، فأشار اليها برأسه ويده أن امضي فليس عليك بأس .

قالت الفتاة : ان لهذا الصوت تاريخاً لو عرفه اصحاب السلطان لحظروا غناءه على فتيات الريف .

قال الحاكم : سأعرفه ولك عليّ ألا أحدث في أمره شيئاً.

قالت: فإنه صيحة من تلك الصيحات التي انبعثت من نفوس الشعب حين فُرض عليها دين المسيح وصُدّت في قوة وعنف عن دين الآباء والأجداد. ألم تسمعوا الى ألفاظه؟ ألم تفهموا معانيه؟ إنها تسأل عن نجم كان يشرق في السماء إذا تقدّم الليل، وكان يبعث مع أشعته الى نفوس الناس لذة وحباً وأملاً، وكان الناس ينتظرون مطلعه ليتلقوا أشعته التي كانت تحمل اليهم الحياة، وتجدد في نفوسهم الأمل، وتمس قلوبهم بأجنحة الحب المحرقة. فلما فُرض عليهم الدين الجديد فرضاً وأخذوا بالإعراض عن حياة آبائهم وأجدادهم أخذاً عنيفاً، اعرضوا كارهين عن هذا النجم، فأخذوا لا ينتظرون مطلعه، ولا يستقبلون أشعته، ولا يرسلون نفوسهم اليه اذا جنهم الليل الا أقلهم؛ فقد كانوا يترقبونه خفية ويستقبلون أشعته سراً، ويرسلون اليه نفوسهم من وراء الحجب. وكأن هذا النجم قد أنكر اعراض عباده عنه، وضاق بجحودهم لما كان يُسدي اليهم من يد، ويصنع فيهم من معروف، أو كأنه أشفق من هذا الإله الجديد الذي ملأ عليه أرجاء الأرض وآفاق السماء، فترقبه عباده الليلة بعد الليلة، والليالي بعد الليالي ولكنهم لم يجدوه، وأرسلوا اليه نفوسهم ولكنها عادت اليهم باليأس والإخفاق، وبالحسرة واللوعة، وبالجزع والقنوط.

فهذا الصوت سؤال ساذج، توجهه النفوس الساذجة الى السماء الصامتة والى النجوم الخرساء، تسألها عن نجمها الذي أضلّته ما خطبه؟ وأين يمكن أن يكون؟ وهل لها اليه من سبيل؟ فلا ترجع عليها السماء جواباً، ولا تردّ عليها النجوم صدى، كأنما أدركها الصمم، وكأنما عُقدت ألسنتها عن الكلام. ومع ذلك فما كان أكثر ما تسمع السماء والنجوم لأهل الأرض! وما كان أكثر ما يسمع أهل الأرض لحديث السماء والنجوم!

قال كلكراتيس: فهو ذاك يا ابنتي! وانك لتتحدثين الينا بحديث أنفسنا، وتعرضين علينا صورة قلوبنا، فما أكثر الذين يلتمسون هذا النجم أو نجماً يشبهه في السماء فلا يجدونه! وما أكثر الذين يسألون عن هذا النجم أترابه التي تبدو اذا جن الليل فلا يظفرون منها بشيء!

قال أندروكليس: ان النجوم صماء قد آذاها صوت هذه النواقيس التي تقرع من كل بيعة في كل قرية، وفي كل وجه من وجوه المدن، فتملأ الجو بهذا الرنين والطنين، وتبسط بين أصوات الناس وأسماع النجوم حجاباً صفيقاً لا يخترقه السؤال ولا ينفذ منه الجواب.

قال حاكم المدينة وهو يتكلف الوقار ويتصنع الهيبة : مهلاً ! انكم تلحدون في دين قيصر ! وانكم تعلمون أن قيصر قد أعدّ للملحدين في دينه عذاباً شديداً ، واني أنا الموكل بهذا العذاب . لقد آمنتك يا ابنتي على نفسك وعلى صوتك هذا الجميل ، فلا بأس عليك ! ولكن خذي ان شئت في غير هـذا الغناء ، أو أريحي نفسك لنأخذ نحن في غير هذا الحديث .

وخلا الحاكم بعد ساعة الى صاحبيه ، ولكنه لم يخض معهما في لون آخر من ألوان الحديث ، وانما حذرهما وحذر نفسه أيضاً من هذا التهاون والتفريط ، وذكرهما وذكر نفسه أيضاً بأن قيصر لا يعرف هوادة في الإلحاد ، ولا ليناً مع الملحدين ، وبأن الوثنية اثم يعاقب عليه القانون أشد العقاب : تُصادَر فيه الثروة : وتُستصفى فيه الأموال، وتُسفك فيه الدماء .

قال الحاكم : وقد أقامني قيصر كما تعلمان حفيظاً على دينـه ، كما أقامني حفيظاً على سياسته ومدبراً لأمره في هـذا الاقليم ، فكيف به لو ارتفع اليه بعض ما نحن فيه ! وكيف به لو علم انه قد آمنني على الدين فأنا أخونه في الدين ، وأعين اثنين من صديقيّ على مثل ما أمعن فيه من خيانة !

قال أندروكليس : هوّن عليك فانا لم نزد منـذ الليلة على ما تعودنا أن نفعل وأن نقول منذ أعوام ، قبل أن تلي الحكم وبعد ان وليته ، ولم يرتفـع الى قيصر من أمرنا شيء ، فماذا يخيفك ؟ وماذا يدعوك الى هذا الغلو في التحفظ والاغراق في الاحتياط؟ أمشفق أنت من هذه المغنية المصرية التي لا يبلغ صوتهـا ما وراء غرفتك وحجراتك ، ولا تتصل الأسباب بينها وبين أحد غيرك من الناس ؟

قال حاكم المدينة : بل أنا مشفق من جواسيس قيصر الذين نعرفهم والذين لانعرفهم، والذين يندسون في كل بيئة وينسلون الى كل مكان ، ويتلطفون حتى يعرفوا أسرار البيوت ويظهروا على دخائل النفوس ، ثم يرفعون ذلك الى قسطنطينيـــة فتصدر فيه الأوامر بما تعلمون . وما صرفت الحاشية والندماء حين انتصف الليـل ، وما صرفت هذه المغنية آنفاً ، وما تعجلت الخلوة اليكما قبل إبانها لنفرغ لمـا تعوّدنا أن نفرغ له من عبادة آلهتنا الذين نحبهم ونؤثرهم على النحو الذي يحبون أن يعبدوا عليه ، وانمـــا أردت بما تعجلت من هذه الخلوة أن احذركما وأحذر نفسي ، وان اذكركما واذكر نفسي ، وأن استشيركما في حدث طارىء وخطب ملمّ . فقد ارتفعت الأنبـــاء الى قسطنطينية بأن شيئاً من التهاون في الدين قد أخذ يشيع في هذا الوجه الذي يلينا من

وجوه الدولة ، وبأن جماعة من المعلمين والفلاسفة قد أخذوا يظهرون إنكارهم لما كان من اضطهاد المعلمين والفلاسفة الوثنيين في بلاد اليونان ، وقد أخذوا يجهرون بشيء من الدعوة للدين القديم ، يظهر الآن يسيراً لا يكاد يحس ، ولكنه يوشك أن يقوى ويشيع وينبث في اطراف الارض ، فيعظم الشر ، ويكاثر الفساد ، وينقبض دين المسيح عن ارض قد استقر فيها سلطان المسيح .

وقد انتهى إلي ، اليوم ، أمر قسطنطينية ان اتنبه لذلك ، وأنهض لمراقبته ومقاومته ، وآخذ الذين يظهر في سيرتهم إلحاد او شيء يشبه الالحاد بأقصى ما أملك من الشدة والعنف .

قال اندروكليس : فهذا سعي القسيسين وكيد الرهبان .

قال الحاكم : او سعي المنافسين وكيد الخصوم . ومهما يكن من شيء فالحذر أيسر ما يجب علينا ، والاحتياط أولى ما يجمل بنا .

قال كلكراتيس : اني قد ضقت بحياتكم هذه البغيضة التي لا سماحة فيها ولا يسر ، ولا راحة فيها ولا لين . تضييق على الناس في حياتهم حين يغدون وحين يروحون ، وفي سيرتهم حين يجتمعون وحين يتفرقون ، وفي أحاديثهم حين يلقى بعضهم بعضاً ، وفي نجوى ضمائرهم حين يخلو احدهم الى نفسه او يدير في رأسه بعض ما يدير من الرأي .

من الذي فرض لكم على الناس هذا السلطان ؟! ومن ذا الذي أباح لكم ان تنفذوا الى نفوس الناس وضمائرهم ، ولا تسألوهم عما يعملون حتى تسألوهم عما يريدون ؟! وما ينبغي لكم مع ذلك ان تسيطروا من أعمال الناس على شيء ما لم يُبدُوا لكم صفحتهم أو يُظهروا لكم مقاومة وعصياناً .

فكيف بسؤالهم عن رأي العقل وحديث الضمير ! أليس قد قال المسيح الذي يفرض قيصر على الناس طاعته ودينه : « أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ؟ فما بال قيصر يتجاوز حدوده ، ويغير على ما ليس له ، ويدخل بيننا وبين نفوسنا ، ويندس بيننا وبين آلهتنا ؟ أليس يكفيه أنْ هدم المعابد ، ودمّر الهياكل ، وألغى الديانات ومزّق أصحابها كل ممزق ، وثأر للذين استشهدوا في سبيل المسيح ، فجعل للأوثان شهداء امتحنوا في أنفسهم واهليهم وأموالهم حتى محوا من الأرض محواً ؟! أليس يكفيه أن يبلغ هذا كله حتى يدخل بين المرء وضميره ، ويندس بين المرء ونفسه ! أليس يكفيه أن يبسط سلطانه على الأجسام حتى يحاول أن يبسط سلطانه

على القلوب والعقول !! وكيف السبيل له الى استذلال القلوب والعقول ! إني لألقى أعوانه وعماله بما يُرضيهم ويُرضيه ، فأكفّ عن نفسي أذاهم وأذاه ، ولكني أكتم فيما بيني وبين نفسي ما أشاء من الأمر ، وأدير في رأسي ما أحب من الرأي ، وأتقدم بالدين والطاعة والحب في قلبي لمن أوثر من الآلهة . والأمر يستطيع أن يستقيم بين قيصر وبيني على هذا النحو من النفاق الذي تستقيم عليه أمور الناس كلهم فيما بينهم من علاقة أو صلة . فما بال قيصر يكلف نفسه ما لا يُطيق ، ويحمل الناس من الأمر ما لا يحبون ويريد أن تخلص له قلوبهم وسرائرهم ، كما تذعن له أجسامهم وظواهرهم !

انه لا يبلغ من ذلك شيئاً ، ولكنه يُضيع قوته عبثاً ويفني جهده في غير طائل ، ويُحرج الناس ويرهقهم من أمرهم عسراً ، وينتهي آخر الأمر الى أن يصرفهم عن حبه ، ويزهدهم في طاعته ، ويملأ قلوبهم بغضاً له وانكاراً عليه ؛ وقد يدفعهم الى أن يعصوه ويثوروا بسلطانه حين يجدون الى العصيان والثورة سبيلاً .

قال حاكم المدينة : على رسلك ! هَدِّىء من هذه الحدة ، وهوّن من هذه الشدة ، واخفض من هـذا الصوت ! فإني قد صرفت الحاشية والخدم والحجاب ، ولكني لا آمن أن يكون قد تخلف منهم وراء الأستار أو دون الأبواب من يتسمع علينا . وما أرى بعد ذلك الا أنك تريد قيصر على ما لا يلائم أخلاق القياصرة . فمتى رأيت صاحب السلطان الواسع العريض يرضى من الناس بأيسر الطاعة ، ويقبل منهم ظاهراً من الخضوع ، ولا يكلفهم أن يُخلصُوا له الحب ويُصفوه مـودة قلوبهم وخاصّة نفوسهم ، فإن ظفر منهم بما يريد فذاك والاّ حملهم عليه كرهاً ، وخيل الى نفسه بل أقنع نفسه بأنه يستطيع أن يصل الى القلوب من نفس الطريق وبنفس الوسائل التي يصل بها الى الأجسام ! والسلطان بطبعه طاغية ، لا يقرّه في حدوده ، ولا يرده عن الظلم والجور الاّ سلطان مثله يعدله ويوازنه ويحول بينه وبين الجموح .

فهل تعرف سلطاناً يعدل سلطان قيصر ؟ وهل تعرف قوّة توازن قوة قيصر ؟ وهل تعرف في الأرض فرداً أو جماعة أو مظهراً من مظاهر الطبيعة يستطيع أن يرد قيصر الى الحد ان همّ قيصر أن يتجاوز الحد !!

قال كلكراتيس : فإن أصحاب هذا الدين الذي يفرضه علينا قيصر يزعمون أن هـذه القوة ليست في الأرض ولكنها في السماء ، وأنها أضخم ملكاً وأعظم بطشاً وأوسع سلطاناً من كل ما يملك قيصر ، وأنهـا خليقـة أن تكبحه اذا جمح ، وترده اذا طغى .

قال أندروكليس : هذا كلام يقال، وما أستطيع أن أؤمن لهذه القوة حتى أراها. وما أستطيع أن أذعن لها حتى أرى أثراً من آثارها او مظهراً من مظاهرها. فما أكثر ما يطغى قيصر ويبغى، وما اكثرما يجور عماله ويظلمون، فلا تردهم هذه القوة ولا تصدهم، وكأنها تدفعهم الى البغي دفعاً ، وتمد لهم أسباب الظلم والجور .

قال حاكم المدينة وعلى ثغره ابتسامة لا تخلو من سخرية : فانكما تجهلان من هذا الأمر اكثر مما تعلمان .

تجهلان أن بين الأرض والسماء حلفاً منذ فُرض الدين الجديد على الناس ، وأن قيصر يمثل هذا الحلف وينطق عنه، فاذا أجاز قيصر أجازت السماء ، واذا منع قيصر منعت السماء، واذا حل قيصر أو عقد فانما يحل ويعقد بأمر السماء . وما ينبغي أن تنكر من ذلك شيئاً . وقد كان أمر قيصر في ظل الدين القديم على مثل ما هو عليه في ظل الدين الجديد : كان ينطق بلسان « جوبيتر » ، ويبطش بيده ، ويمزق بسلاحه ، ويحرق بناره أولئك المستضعفين من النصارى ، فهو الآن ينطق بلسان المسيح ، ويبطش بيده، ويصب بأسه على الأثينيين .

قال كلكراتيس : ان دل هذا على شيء فانما يدل على أن قيصر انما ينطق بلسان نفسه ، ويبطش بيد نفسه ويصب على الناس ظلم نفسه وجورها ! وما كان «جوبيتر» ليكلف القياصرة ما تكلفوا من شطط . ولست أعرف المسيح ، ولكني ما أظنه أقل رحمة للناس ورفقاً بهم من «جوبيتر» ، وما أرى الا أن قيصر يبغي علينا ويبغي على آلهتنا كما يبغي على اله هو .

قال أندروكليس : فالأمر كما تقول . ولكن ما الذي تستطيع أن تفعل ؟ وما الذي تريد أن تفعل ؟ انك لا تستطيع أن ترد على قيصر أمره ، ولا أن تلقى بغيه وعدوانه بما يشبههما من البغي والعدوان . فليس لك الا أن تذعن فتحيا ، أو تأبى فتموت .

قال حاكم المدينة : والخير في الإذعان ! لأن الحياة خير من الموت ، فنحن نعرف الحياة ، ونبلو لذاتها ، ونذوق آلامها ، ولا نعرف من أمر الموت وما وراءه شيئاً . ويجب أن تكون للآلهة أسرار لا تستطيع عقولنا ان تبلغها أو ترقى اليها . فما لإله قيصر لا يصد قيصر عن ظلمه ! وما لآلهتنا لا تحمينا من هذا الظلم ! كأنما انصرف اله قيصر وانصرفت آلهتنا عن الأرض وما يقع فيها من بغي وعدوان ، وعن الناس وما يجني بعضهم على بعض من ظلم وجور .

قال اندروكليس : وما يدريك ! لعل ما يحدث في السماء ونجومها ليس خيراً مما يحدث في الأرض.ولعل وراء هذا الكون من عظيم الأمر ما يشغل الآلهة عما يحدث فيه من الأحداث .

قال كلكراتيس : واذاً ؟!

قال حاكم المدينة : واذاً فلنلقَ الحياة كما نستطيع ، ولنحتمل منها ما نطيق ، ولنأخذ من لذاتها ما يتاح لنا، ولنؤد الى قيصر ثمن هذه اللذات طاعة واذعاناً نُخلص فيها ما وسعنا الإخلاص ، وننافق فيها ان اضطررنا الى النفاق .

قال كلكراتيس : فنحن في ذلك منذ عرفنا أنفسنا لا نعصى لقيصر أمراً ، ولا نخرج عما رسم لنا من الحدود .

قال الحاكم : بل أنتما تعصيان له بعض الأمر ، وتخرجان عن بعض ما رسم لكما من الحد . فأنتما لا تشهدان الصلاة ، ولا تختلفان الى الكنائس، ولا تُظهران تعظيم المسيح ، ولا تقدمان الى القسيسين والبطارقة ما يصلح رأيهم فيكما . وقد كنت مثلكما حيناً من الدهر، وما أظنني خالفتكما فيما أخالفكما فيه من ذلك الا لأن المنصب يفرض عليّ أن أشهد الصلاة وأختلف الى البيع ، وأظهر للدين ورجاله ما أظهر من التعظيم . وقد نفعني ذلك كما تريان ولم يضرني شيئاً .

ثم أطرق صامتاً فأطال الإطراق ، ثم رفع رأسه وقال مبتسماً : وأحسبه نفعكما أيضاً . فما يمنعكما أن تذهبا مذهبي ، وتسيرا سيرتي ، وتعلنا لقيصر ما يريد اعلانه ، وتضمرا لأنفسكما وآلهتكما ما تحبان ! انكما لا تنكران ذلك من أمري ، فما لكما لا تعرفان منه مثل ما أعرف ، ولا تأتيان منه مثل ما آتي !

قال اندروكليس : لأنا لا نريد أن نرقى الى مثل ما رقيت اليه من منصب،ولا أن نظفر بمثل ما ظفرت به من قوة وسلطان ، ولأن مالنا يغنينا، وجاهك يحمينا، وهذه الحياة ترضينا .

قال حاكم المدينة : فان عجز جاهي منذ الآن عن حمايتك ؟

قال كلكراتيس : فإنه النذير بالقطيعة اذاً .

قال حاكم المدينة : لا تتعجل القضاء على صديقك ، ولا تُسرع الى سوء الظن به ! فاني لا أريد قطيعتكما ولا أقدر عليها ، وانما هو خطب ألمّ ، فأنا استعينكما عليه ، وأستشيركما فيه ، فأعيناني وأشيرا عليّ . وانكما لتعلمان أني ما أملك لكما ولا لنفسي من غضب قيصر شيئاً. فلنجمع أمرنا، فإما طاعة لقيصر من ثلاثتنا ووراءها ما وراءها

من البؤس والضر ومن عذاب قد ينتهي الى الموت .

قال أندروكليس ضاحكاً وهو ينظر الى زجاجات وأقداح قد وضعت من القوم غير بعيد : ما أرى إلا أنك قد بدأت تذيقنا هذا العذاب . فهذه الزجاجات القائمة تدعونا، وهذه الأقداح المصفوفة تغرينا ، وأنت تشغلنا عنها بما تخوّفنا من أمر قيصر وبأسه بعد أن حرّقت أجوافنا بما قدّمت الينا من طعام ، وجففت حلوقنا بما صببت علينا من نذير . فلنسق هذه الأقداح الظامئة ، ولنطفىء هذه الأجواف المحترقة ، ولنرطّب هذه الحلوق الجافة ، ولنقدّم الطاعة الى دينوزوس في ظلمة الليل ، والإذعان الى قيصر في وضح النهار .

ثم نهض فخيل شيئاً من رقص دينوزوس ، وأسرع الى المائدة فملأ قدحاً قدّم منه قطرات الى دينوزوس ، ثم صبّه في فمه صباً ، ثم ملأ الأقداح الثلاثة فقدم الى صاحبيه، وعاد الى مجلسه وفي يده قدحه يحسو منه حسو الطير ويقول : لست أرى بهذه القسمة بأساً : الليل لدينوزوس ، والنهار لقيصر . وإن شئتما فليكن النهار قسمة بين قيصر والمسيح : لقيصر شطر النهار ، وللمسيح شطره الآخر . "ولكنكما كنتما تقولان إن بين قيصر والمسيح حلفاً فلا حاجة إذاً الى أن نقسم النهار بينهما ؛ فلنقدّم النهار كله الى قيصر فيرضى المسيح ، كما كان عامة الناس يقدمون عمرهم كله لقيصر فيرضى « جوبتير » . أما أنا فهذا الرأي يرضيني كل الرضى ، يحقق آمالي ومآربي ، ويرضي حاجاتي ومنافعي ، ويرضي بنوع خاص رأيي وفلسفتي . فما يمنعني أن أكون من عامة الناس حين تغمرنا الشمس بضوئها هذا الفظيع الذي لا يخفى عليه شيء ولا يستتر من دونه أحد ، وأن أكون من خاصتهم حين يغمرنا الليل العطوف الأمين بظلمته الحصينة المتينة التي لا تظهرنا إلا على نفوسنا ، والتي تتيح لشخصياتنا أن تسترد ما فقدت من حرياتها في ضوء النهار ، والتي لا يلمع فيها إلا هذه الأشعة الضئيلة التي ترسلها الينا النجوم كأنها التحية الخفية يرسلها الحبيب الى عاشقه بمأمن من الرقباء . قال ذلك ثم أفرغ قدحه في جوفه ، ونظر إلى صاحبيه في شيء من الاشفاق والازدراء وهو يقول: ما أقل نشاطكما للشراب ! وما أشد فتوركما عن دينوزوس ! ما كنت أحسب أن خوف قيصر يغنيكما عن نبيذ ساموس . افرغا قدحيكما فان جوفي يحرقه الصدى . وما أدري فيما هذا القصر الضخم ، والمنصب الفخم ، والثراء العريض ؟ هلمّ يا سيدي فادع لنا بعض إمائك يغنين ويرقصن ويطفن علينا بالأقداح والأكواب ، فما عبُد دينوزوس بخير من الغناء والرقص والشراب .

قال كلكراتيس في هدوء يعلوه الجد وقد غشى وجهـه العبوس : ليس الأمر من اليسر بحيث تظن . وما أرى إلا أن خوف قيصر هو الذي يدفعك إلى الشراب ثم إلى السكر .

قال أندروكليس : أخطأت يا صديقي ! سأخاف قيصر طول النهار ، فلآمنه أثناء الليل . وإنما أدعوكما الى دينوزوس لأننا قد عدونا عليه ، وجرنا عن طريقه ! فنحن مدينون له بالليل كله ، وقد صرفنا عنه بعض هذا الليل الى قيصر ، فلنحذر أن ينكر ذلك من أمرنا ، فيسخط علينا إله الليل دينوزوس ، وإله النهار قيصر .

وكان الصديقان قد أفرغا قدحيهما ، فنهض أندروكليس نشيطاً مرحاً فملأ الأقداح الثلاثة ، وقال لحاكم المدينة : أتريد أن تدعو إماءك أم تأذن لي في أن آتي هذه الحركة التي تأتيها فيستجيب لك الخدم ؟ إنما هي يد تضرب يداً فيصل الصوت الى من ندعو .

قال كلكراتيس : مهلاً ؛ فاني في حاجة الى لحظات أخلو اليكما فيهـا ، فما أحب أن نفترق وأنا أطوي عنكما بعض الأمر .

قال حاكم المدينة : وما ذاك ؟

قال كلكراتيس : ذاك أني لا أرى رأيكما ، ولا أعرف لقيصر سلطاناً على قلبي ، ولا أحب أن أعبد إلهاً لا أعرفه ، ولا أريد أن أضيف الى آلهتي إلهاً جديداً ! لأنهم يكفونني ويغنونني من كل إله . والآن فادع إماءك إن شئت ، ولنعبد دينوزوس على ما بيننا من اختلاف الرأي : أخلص له ولأصحابه من أهل الأولمب ، وتشركون معهم إلهاً جديداً او إلهين جديدين .

قال حاكم المدينة : فان هذا لا يحل المشكلة ، ولا ينتهي بنا الى غاية نرضاها .

قال كلكراتيس : سنستأنف الحديث في ذلك اذا كان الغـد ، فدعني أفكر ، وادع إماءك وندماءك ! فقد جُرْنا وأسرفنا في الجور على دينوزوس .

ودق حاكم المدينة يداً بيد ، فما هي إلا لحظات حتى فُتحت الأبواب ، وانفرجت الأستار ، وأقبـل الجواري حساناً صباحاً يحملن فنون الزهر ، وألوان الفاكهة ، ويتهيأن للرقص والغناء .

- ٢ -

ولم يجلس كلكراتيس لأصدقائه من الغد كما تعود أن يفعل وجه النهار من كل يوم ،

ولم يفرغ لذلك العبد الذي جعله على ثروته وخزائن ماله ، ولا لهذا العبد الذي وكل إليه تدبير القصر وأمر الخدم والرقيق ، كما تعود أن يفعل آخر النهار من كل يوم ! بل لم يستطع عماله وأصحاب تجارته الواسعة أن يرفعوا إليه شيئاً من أمرهم كما تعودوا أن يفعلوا كلما تولى النهار ؛ لانه احتجب ذلك اليوم منذ رجع من قصر الحاكم قبل أن يسفر الصبح بقليل . أوى إلى مضجعه فاستوفى حظه من راحة هادئة ونوم مطمئن ، ثم نهض مع الظهر فأدّى لجسمه الذي تعود أن يؤديه له من العناية والرياضة ، ثم خلا إلى نفسه يفكر فيما كان بينه وبين صديقيه من حديث ، يدير رأيه فيما عسى أن يتخذ من سيرة ويسلك من طريق . وكان صادقاً كل الصدق مصمماً كل التصميم حين أعلن إلى صديقيه في لهجة الحازم العازم أنه يأبى أن يقسم حياته بين قيصر وبين ضميره ، وأن يُظهر لقيصر ما يرضيه من الإيمان بالدين القائم ، ويُخفي في نفسه ما يرضيها من الإخلاص للدين الوثني القديم . وكان يعلم حق العلم أن صديقه الحاكم لا يتقدم إليه في مصانعة قيصر وموادعة السلطان إلاّ مؤثراً له بالخير ، مشفقاً عليه من الشر . ولعل صديقه الحاكم كان يحتاط لنفسه بعض الشيء حين كان ينصح بالمصانعة والموادعة . ولكن أي غرابة في هـــذا وصديقه إنسان فيه ضعف الناس وقوتهم ، وفيـــه أثرة الناس وإيثارهم !!

والشيء الذي ليس فيه شك ولا ريب هو أن صديقه كان مخلصاً صادق النية حين أعلن إليه وإلى صاحبـه أنه يستعينهما على خطب ألمّ ، ويستشيرهما في حادث طرأ ، ويريد أن يكون معهما على طاعة قيصر إن أزمعا الطاعة ، وعلى عصيان قيصر إن أرادا العصيان .

ولو أن أندروكليس كان صلبَ الرأي جريء القلب مستمسكاً بـــتراث آبائه حريصاً على حقه في حرية الضمير ، لاستطاع الصديقان أن يحملا صديقهما الحاكم على أن يشاركهما في الرأي ، ثم لاستطاع الثلاثة الأصدقاء أن يُحكموا أمرهم بينهم ، وأن يلتمسوا لأنفسهم مخرجاً من هذا الضيق ، يلتمسون هذا المخرج بالحيلة أو بالضعف .

ولكن أندروكليس رجل لين النفس ، فاتر الرأي ، لا يحفل بدين قديم أو جديد ، ولا يقدر تراث الآباء ولا كسب الأبناء ! بل هو لا يفكر في أمس ولا في غد ، وإنما يفكر في يومه الذي يعيش فيه ، يُعرض عما مضى ، ولا ينتظر ما سيأتي ، ولا يؤمن إلاّ بما يرى ، وبما يرى في الساعة التي هو فيها . فإلهه الذي يعبده ويُخلص له هو نفسه ، يبتغي لها اللذة والنعيم ، ويدفع عنها الألم والشقاء ما وجد إلى ذلك سبيلاً . وهو من

أجل ذلك مضطرب الرأي أو لا رأي له ، ينكر اليوم ما عرف بالأمس ، وقد يعرف الآن ما كان ينكر منذ حين .

وقد آثر أندروكليس العافية ، وأشار بالطاعة والإذعان ، فوافق رأيه ومشورته هوى الحاكم ، وإيثاره للراحة والهدوء ، وحرصه على الاستمتاع بلذة الأمن والقوة والسلطان والجاه ، والاندفاع مع الأمل القوي البعيد الذي لا يعرف حدّاً يقف عنده ولا غاية ينتهي إليها .

فلم يبق بعد اتفاق هذين الصديقين لكلكراتيس إلا أن يختار بين اثنتين : فإما أن يشايع صديقيه على ما أحبا ، وليس إلى ذلك من سبيل ؛ لأنه لا يريده ، ولو أراده لما استطاعه ولا قدر عليه . وإما أن يخالف صديقيه ، ولكن على ألا يؤذيهما ولا يسوءهما ولا يعرضهما لشر يأتيهما من قبل السلطان ، ولا يُلقي في رُوعهما أنه مقاطع لهما أو ساخط عليهما ! فهما لا يستحقان مقاطعة ولا سخطاً ، وقد نصحا له جهدهما ، وآثراه بما يؤثران به نفسيهما . وهذه الخطة هي التي آثرها كلكراتيس ، ولكنه يلتمس إليها السبيل ، ويبتغي إليها الوسيلة ؛ فيفكر ويطيل التفكير دون أن يهتدي إلى المذهب الذي يريح منه صديقيه من غير أن يشق عليهما أو يسوق إليهما بعض ما يكرهان .

وقد فكر في الموت. وأي شيء كان أيسر من التفكير في الموت بالقياس إلى أولئك المثقفين المفلسفين من اليونان في ذلك العصر ، ولا سيما حين كانوا يحتفظون بالوثنية أو بظل منها ! فقد علمهم شيوخهم وأساتذتهم من أتباع « أبيقور » وأصحاب الرواق أن حياة الفرد ليست شيئاً ، وأن موت الفرد ليس شيئاً، وقد ضُربت لهم الأمثال مرات ومرات ، فما أكثر أولئك الذين كانوا يكرهون الحياة فيخرجون منها مزدرين لها أشد الازدراء ، مكبرين لأنفسهم أشد الإكبار ! يرون شيئاً من العزة في أنهم دخلوا الحياة غير مريدين ولا مختارين ، فأتيحت لهم لذاتها ، وفرضت عليهم آلامها وهم يستطيعون أن يعرضوا عن هذه اللذات الحلوة ، وأن يتمسكوا بهذه الآلام المرة ، كما يستطيعون أن يجتثوا حياتهم من أصلها اجتثاثاً فيلغوا اللذات والآلام جميعاً ، ويثبتوا لكل انسان ولكل إله ولأنفسهم قبل كل انسان وكل إله أنهم أكبر من اللذة ، وأكبر من الألم ، وأكبر من الحياة نفسها .

نعم ! فكر صاحبنا في الموت واستحضره ، وكاد يطيل الوقوف عنده، وكاد يأخذ في تدبير أمره وأمر الذين سيتركهم من ورائه وما سيورثهم من ثروة ضخمة وغنى

مريض . ولكنه أحس أن نفسه لا ترغب في الموت ، ولا تطيب عن الحياة، لا اشفاقاً من الموت ، ولا تهالكاً على الحياة ، بل رغبة في المعرفة ، واستزادة من لذة العلم . فالموت ليس شيئاً ، والحياة ليست بذات خطر ، ولكن بين هذا الموت وهذه الحياة شعوره بأنه موجود ، وعلمه هو الذي يتزايد بين حين وحين ، فيطهره على ما كان ، وعلى ما هو كائن ، وعلى ما سيكون . ولو أنه استيقن أن وراء الموت علماً ، أو أن وراء الموت شيئاً خليقاً أن يُعلم ، لما تردد في الإسراع اليه ! ولكنه لا يعرف ماوراء الموت ، بل هو يقطع بأن ليس وراء الموت علم ولا عالم ولا معلوم والموت آت لامحالة، فما له يتعجله ! والموت يسعى الى الانسان ، والانسان مدفوع الى الموت دفعاً ، فما باله لا ينتظر هذه الساعة التي لا بد من أن تلمّ به ! وما باله لا يستمتع بهذه اللذه الغالية النادرة التي لا تُقدَّر ولا تقوّم : لذة العلم والمعرفة ! وهو يفكر في هذا كله متعمقاً له ، مستغرقاً فيه ، يسأل نفسه : أي الأمور أهون لقاءً وأيسر احتمالاً : ارضاء صديقيه بطاعة قيصر ، وتكلف ما يقتضيه ذلك من النفاق ، أم إسخاط صديقيه وإسخاط قيصر والتعرض لما يستتبعه ذلك من آلام النفس وأحزان القلب وألوان الأذى ، أم إراحة نفسه وإراحة صديقيه وإراحة قيصر من هذا كله باستقبال الموت والإسراع اليه ؟ ثم يخطر له أن أكثر الناس مستيقنون بأن الموت لا يختم وجود الانسان ، وإنما ينقله من طور الى طور ، ويخرجه من حياة ليدخله في حياة أخرى . وهو يستعرض في هذا أحاديث الناس من اليونان وغير اليونان على اختلاف أزمانهم ، وعلى اختلاف هذه الأحاديث فلا تطمئن نفسه الى شيء منها ، ولا يرى فيها إلا ألواناً من الأحلام ، وفنوناً من التماس العزاء . ثم يذكر « سقراط » ومصرعه وأحاديثه ، وما كان بينه وبين أصحابه من حوار في خلود النفس ، وإذا هو قد نسي قيصر ونسي المسيح ونسي صديقيه ، ولم يذكر إلا شيئاً واحداً هو لذة هذا الحوار ، وعذوبة هذا الحديث الذي قرأه مرات لا يحصيها ، فلم يؤمن به ولم يطمئن اليه ، ولكنه مع ذلك لا يزداد إلا كلفاً بقراءته ، وحرصاً على الاستمتاع بما تثير هذه القراءة في نفسه من لذة خالصة لا يُفنيها الاستمتاع بها وإنما يزيدها ويضاعفها ، كأنها الكنز لا يفنيه استغلاله ، وإنما يُغنيه وينميه ، وإذا هو يعمد الى « فيدون » وينقطع الى قراءته عن كل خاطر ، وعن كل شيء ، وعن كل انسان .

- ٣ -

ولكن عبداً يدخل مترفقاً ، وينبه سيده متلطفاً ، وينبئه أن أندروكليس يستأذن عليه . ولست أدري أرضي صاحبنا عن مَقدم صاحبه الذي كان يحبه ويؤثره ، أم سخط على هذه الزيارة لأنها ستصرفه عن صحبة أفلاطون الذي لم يكن يعدل بصحبته شيئاً . ولكنه أذن لصديقه من طرف اللسان بالدخول ، ثم مشى في قراءته لم ينتظر صديقه، ولم يخفّ للقائه، ولم يتهيأ لاستقباله . ويدخل الصديق فيراه عاكفاً على كتابه، ماضياً في قراءته، فيمهله حيناً ، ثم يمهله حيناً ، ثم يسعى اليه فيمسّه مساً رفيقاً ويقول له في صوت عـذب : ما أرى إلا أنّا نتهيأ للموت ! فقد سنّ لنا القـدماء قراءة « فيدون » قبل أن نغمد الخناجر في صدورنا .

ويسمع كلكراتيس حديث صاحبه ، فينهض اليه مذعوراً كأنما أقبل من نوم عميق تضطرب فيه أجمل الأحلام وألذها . نهض اليه مذعوراً وهو يقول : ها أنت ذا ؟! لقد أذكر أني أنبئت بمقدمك ، وكنت أريد أن أفرغ من بعض الحديث قبل أن أخف اليك ، ولكنك تعلم سحر أفلاطون .

قال أندروكليس : أعلمه حق العلم ، وأجتنب النظر فيه كلما احتجت الى نفسي ورأيي وبصيرتي ، ولا أقبل عليه إلا حين أريد أن أستريح من هـذا كله . ثم أنا على كل حال لا أقرأ « فيدون » ، ولا أعرف اني نظرت فيه منذ تركت مجالس الدرس . ذلك لأني لم افكر في الموت بعد ، وما احب ان افكر فيه ، وما أريد ان القاه إلا فجأة وعلى غير موعد او انتظار . وإنك لتعلم اني لا اعدل بالفجـاءة شيئاً ، واني لا اكره شيئاً كما اكره التدبر والتوقع وتقدير العواقب . واذا أردتني على أن انبئك بذنب الناس والآلهة والكون عندي ، فهو انهم جميعاً قد تواطئوا على أن يُلقوا في صدورنا ، ويطبعوا في قلوبنا ونفوسنا ، أن الموت ضربة لازب ليس عنه منصرف . فهـذا هو الشيء الوحيد الذي أعلمه علم يقين ، وانتظره على شدة كرهي للانتظـار . وما أشدّ ما كنت أحب أن أُخدع عن الموت ، وأُنفرّ عن مقدمه ، وأجهـله الجهل كله ، حتى يختطَف اختطافاً على غير علم به ولا توقع له .

أليس من أجمل الأشياء وأحسنها في نفوسنا أنا لا نعرف ما يضمر الغـد ، وما تخبيء لنا الساعة المقبلة التي لم نبلغها بعدُ ! صدّقني أن حظ الانسان من هـذا الوجود

رديء حقاً ! فقد كان يجب أن يعلم كل شيء كما يعلم الآلهة او ان يجهل كل شيء كما يجهل الحيوان ، فأما ان يضطرب بين هاتين الطبقتين لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء فشيء لا يطاق .

قال كلكراتيس : ما تزال مشغوفاً بالمزاح ، كلفاً بالدعابة والعبث .

قال اندروكليس : برئت اليك الآن من المزاح ، وبرئت اليك من الدعابة والعبث ، إنما اعرض عليك دخيلة نفسي ، ولو استطعت ان اخرج قلبي من بين جنبيّ لتنظر فيه لما رأيت في صفحة من صفحاته مزاحاً ولا عبثاً . إنما هو الجد كل الجد ، والحزن كل الحزن ، لأني لم أكن إلهاً ولا حيواناً . وهذا وحده هو الذي يحبّب إليّ دين دينوزوس ! لأنه بما يُشيع فينا من النشوة بهذا الشراب الذي علمنا اعتصاره من الكرْم يُرضيني كل الرضا ؛ لأنه يرفعني إلى طبقة الآلهة حيناً ، ويخفضني إلى طبقة الحيوان أحياناً ، ويخرجني دائماً عن هذا الطور السخيف ، طور الإنسان الذي فُطر منافقاً بطبعه ، له عقل يقرّبه من الآلهة ولكنه قاصر ضعيف ، وله جسم يقرّبه من الحيوان ، ولكن العقل يفسد عليه غرائزه فيحول بينه وبين راحة الحيوان .

ومن هنا لا أدري ما الذي يُغضبك على صديقنا وعليّ . وينأى بك عن أن ترى رأينا ، وتذهب مذهبنا ، وتقبل مشورتنا ، فتجعل النهار لقيصر والمسيح ، وتجعل الليل لنفسك ولدينوزوس . إنا لم نُشر عليك ببدعٍ من الرأي ، ولم نكلفك كما لم نكلف أنفسنا ما يخالف الطبيعة التي فُطرنا عليها ، وما أشك في أن « جوبتير » وأصحابه من آلهتنا الأعزاء لا ينكرون علينا ذلك ولا يلوموننا فيه . وهبهم فعلوا ، فإن جوابي لهم حاضر فهم المسئولون لأنهم خلقونا منافقين ، وجعلوا لنا جسم الحيوان القوي ، ونفس الإله الضعيف . ولو قد أرادوا لجعلونا أمثالهم آلهة لا ندين بالطاعة لأحد إلا لكبيرنا « جوبتير » . ولو قد أرادوا لجعلونا فصائل من الحيوان ، لا يتقدم إليها قيصر ولا كسرى ولا فرعون بعبادة هذا الإله أو ذاك . ومن يدري ! لعلهم لو جعلونا فصائل من الحيوان لأحسنوا إلينا أكثر مما تظن ! فمن الحيوان ما يتقدّم له الناس بأنواع العبادات ، وفنون الطاعة ، وضروب القربان ، ومن يدري ! لعلنا لو كنا حيواناً أن نُعبَدَ في طرف من أطراف الأرض ، وأن يقتتل الناس حول ديننا وعبادتنا ، كما يقتتلون حول دين المسيح وعبادة « أبلون » . وأنا بالطبع لا أتحدث إلا عن اليونان ولا آسى إلا لليونان ؛ فاليونان وحدهم هم الناس ، وما يعبأ الآلهة

بغيرهم من الشعوب .

قال كالكراتيس : ألم يتعبك هذا الحديث الذي لا ينقطع ، وهذا الهراء الذي لا ينقضي ؟! أتراك تقدمت إلى « دينوزوس » بشيء من العبادة فأفرغت في جوفك بعض الأقداح التي تطلق لسانك بهذا الهذيان ! ولكنك قد جعلت النهار لقيصر ، أفتراك جُرت عليه وسرقت منه بعض النهار ؟!

قال أندروكليس: ثم تزعم بعد ذلك أني أمزح وألهو وأنت المغرق في المزاح واللهو! فأنا قبل كل شيء لا ألغي ولا أهذي ، وإنما أتحدث إليك بالجد كل الجد ، وأنا بعد ذلك لم أجُرْ على قيصر ولم أمرق منه بعض النهار ! لأن قيصر لم يحرم الخمر ، ولا ينهي عن التهام الأقداح . وأنا أستطيع أن أعرف لقيصر حقه ، وأن أرضي مع ذالك « دينوزوس »،أعلن حب قيصر ، وأسرّ طاعة دينوزوس في الليل والنهار جميعاً.ثم أنا بعد هذا وذاك لا أتحرّج من الجور على قيصر إذا أمنت شره ومكره . ولعلي أجد في خداعه والعبث به بعض اللذة . فقد علمنا خداع الآلهة والعبث بهم ، فكيف برجل مثلنا لا يمتاز منا إلا بهذه الحماقة التي تخيل إليه أنه رجل ممتاز ، وأنه ليس كغيره من الناس .

صدقني أيها الحبيب أرح نفسك من اليقين ! فإن اليقين لا يليق بالناس ، وإنما يليق بالآلهة . والحياة كلها لا تستحق اليقين ، ولا تعدل ما يكلف أصحابه من الألم والحسرة .

إن اليقين ثباتٌ واستقرار ، وإن الحياة مُضي وزوال . فاستقبل الحياة المتنقلة بما يلائمها من هذا الشك الذي ينقل نفسك معها من طور إلى طور . ومالي أكشف لك عن خبيئة نفسي ، وما أظنك إلا عرفتها منذ اتصلت بيننا العشرة ، وطالت بيننا المخالطة ! فأنا أشير عليك وعلى صديقنا بأن نجعل جهر أمرنا لقيصر وإلهه الجديد، وسره لديونوزوس وأصحابه القدماء وما أظن أنك ترى هذه المشورة تصدر عن رجل يؤمن بالدين القديم أو بالدين الجديد . فطبيعة الدين لا تحتمل شركة ولا اقتساماً . ومن أباح الشركة في الدين فقد ألحد فيه . وأنا أبيح هذه الشركة ، وأكثر المعاصرين لنا يبيحونها ويتخذونها لأنفسهم مذهباً .

فالدين عندي ، كما هو عند هؤلاء المعاصرين ، وسيلةٌ لا غاية ، وطريق لا غرض. طاعة قيصر وإلهه تكفلُ لنا الأمن على الحياة والثروة والأمل في الجد والجاه والسلطان. وطاعة دينوزوس وأصحابه تكفل لنا لذة الحياة ونعيمها وإمتاع نفوسنا وأجسامنا بما

تثيره اللذة والنعيم من ضروب الإحساس والشعور . وما أظنك تصدق ان أمثالنا من الفلاسفة المثقفين يستطيعون أن يطمئنوا إلى «جوبيتر» وأصدقائه ، إلا أن يُلغوا عقولهم إلغاءً ، أو يُرَدوا إلى سذاجة القدماء ردّاً ، ويعودوا كأولئك الذين كانوا يعيشون بغرائزهم قبل أن ينشأ العقل وقبل أن يُحدث الفلسفة للناس .

فالوثنية الآن سبيل اللذة وراحة النفس . والمسيحية الآن سبيل المجد والثروة والاستعلاء في الأرض . فكن كغيرك من الناس ، وكن شجاعاً كصاحبيك ؛ فهما قد عرفا طبيعة الأشياء والناس ، ويريدان أن يلائما بين حياتهما وهذه الطبيعة . وهما يصارحان أنفسهما بهذه الملاءمة ، ولا يريدان أن ينافقا مع أنفسهما ! لأنهما يريان في النفاق مع قيصر وإلهه ورعيته الكفاية كل الكفاية .

قال كلكراتيس وقد جعل الغيظ يسري في نفسه ويظهر في صوته قليلاً قليلا : لست أدري إلامَ تريد بكل هذه البراعة التي تصطنعها من حديثك كأنك أحد السفسطائيين. وما أظن أن «جورجياس» كان يستطيع أن يزين الرياء والنفاق والمداراة والمجاراة ، والتهالك على اللذة ، وإيثار العافية ، وموادعة الناس ، ومصانعة السلطان بخير مما زينتها . ولكن ما رأيك في أني أكره هذه الخصال كلها أشد الكره ، وأمقت الأخذ بها فضلاً عن الاندفاع إليها أشدّ المقت ، ولا أرى أن أكون منافقاً مع نفسي ، ولا أرى كذلك أن أكون منافقاً مع الناس ، لا أوادع غيري وإنما أريد أن أكون حرّاً طلقاً ، لا أطمئن إلى السجن ، ولا أذعن للقيد . وأنا أعرف أن هذه خطة تملؤها الأخطار ، ولكني لا أكره الأخطار ولا أهابها ، وإنما أحتقرها وأزدريها أليس أقصاها وأقساها ، وأشدها ثقلاً ، وأمرّها مذاقاً ، هو الموت . فإذا كنت لا أحفل بالموت فإني خليق ألا أحفل بما هو أيسر منه شأناً وأهون منه أمراً .

وأنا مثلك ، لم أطمئن قط فيما بيني وبين نفسي إلى آلهتنا القدماء ، ولا إلى وثنيتنا الموروثة . وإنما اتخذتهم واتخذتها رمزاً لهذا اللون من الحياة الذي أرضاه وآلفه ، ولم يخطر لي بعدُ أن أتحول عنه ، ولا أريد أن أتحول عنه ! لأن في هذا التحول رضا قيصر والأمن من مَعرّة الناس .

فأنا إذاً لا أثور حفاظاً للآلهة ولا دفاعاً عن الدين ، وإنما أثور حفاظاً لنفسي ودفاعاً عن حريتي. وقد يكون من الحق أننا ظُلمنا حين لم ننشأ آلهة ولم نُخلق من طبقة الحيوان ، وإنما جُعلنا شيئاً بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . ولكن ما رأيك في أني لا أكره هذه الطبيعة المذبذبة ولا أضيق بها ، وإنما أحبها وآلفها ، وأريد

أن أستغلها إلى أقصى حدود الاستغلال ، فأمنح عقلي كل حظه من الحريـة ، وأمنح جسمي كل حظه من اللذة ، وأحتمل نتائج هذه اللذة وتلك الحرية مهما تكن قاسية ، ومهما تستتبع من آلام .

ما لقيصر ومالي ! إني لم أنازعه في عرشه ، ولم أنافسه في ملكه ، ولم أشاركه في قصره ، ولم أبتغ إليه وسيلة ، ولم ألتمس عنده حظوة ، ولم أسأله مَنصباً من مناصب الحكم ، ولا منزلاً من منازل الشرف . بل لم أقم دون ظلمه وجوره حين صبهما عليّ ، فأخذ من مالي غير حقه ، وكلفني ألواناً من العمل ليس له أن يكلفني منها شيئاً .

أفلا يرضيه مني هذا كله؟! أفلا يقنعه مني أن أعطيه كل ماأعطيته في غير مقاومة ظاهرة ولا كراهة بادية ، حتى يأبى إلا أن يدخل بيني وبين نفسي ، ويفرض عَليّ شعوراً لا أجده ، وديناً لا أحبه ؟!

ماذا أقول ؟! إنه يفرض عليّ شعوراً لا يجده هو ، وإنما يتكلفه تكلفاً ، وديناً لا يؤمن به هو ، وإنما يتصنعه تصنعاً . وما آبى عليه كما لا آبى عليك وعلى صديقنا أن تنافقوا في الدين وفي غير الدين إيثاراً للعافية، أو استزادة من لذات الحياة ونعيمها. وإنما آبى عليه وعليكما أشد الإباء ، أن تحملوني على ما تحملوا أنفسكم عليه من هـذا النفاق الذي يستتبع إلغاء العقل ، وابتذال القلب ، وبيع الضمير .

قال أندروكليس : إنك إذاً لثائر يا صاحبي لا على قيصر وحده ، بل على الناس جميعـاً .

قال كلكراتيس : فإن أعجبتني هذه الثورة ، فمن يستطيع أن يمنعني منهـا أو يردّني عنها دون أن يكون ظالماً لي جائراً عليّ ! ثم إن أعجبني أن أمتنع على الظلم والجور ، وأوثر الموت على حياة لا تطيب إلا بهما ، فمن يستطيع أن يمنعني من الموت أو يردّني عنه ؟

قال أندروكليس : لا أحد ! ومن أجل ذلك كنتَ تفكر في الموت . ومن أجـل ذلك كنت تقرأ في هذا الكتاب ، تريد أن تزين لنفسك ما زينه سقراط من الخلود ، قبل أن تتجاوز هذا الباب الذي يقوم بين الحياة والموت .

قال كلكراتيس : أما أني فكرت في الموت فهذا حق ، ولست بدْعـاً من الذين فكروا فيه قبلي . ولئن تعجلته فلن أكون بدْعاً من الذين تعجلوه . وأما أني التمست العزاء في جرار « فيدون » ، فهذا خطأ ! لأني لم ألتمس عزاء ، ولم أطلب خلوداً ، ولم أفكر فيه ، وإنما تحدثت إلى نفسي بالموت ، ثم أعرضت عن هذا الحديث ؟ لأن

خطب قيصر أهون من ذلك ، ولأني ما يزال لي في الحياة أرب . ثم ذكرت هذه الآية من آيات افـلاطون ، فأقبلت عليها استمتع بما فيها من سحر البيان ، وما أكثر ما سأقرؤها . اني لا أخاف الموت ولا اكره حديثه ، كما تخافه أنت وتكره حديثه .

قال اندروكليس : لقد أرضيتني ، ورددت الى نفسي طمأنينتها ، أنبأتني بأنك لن تتعجل الموت ، لأن لك في الحياة أرباً . وخطبُ قيصر ، وخطب الناس جميعاً ، وخطب الآلهة أيضاً ، أيسر وأهون من أن نتعجل في سبيله الموت وما يزال لنا أرب في الحياة . ولكن المشكلة ما زالت قائمة . فان قيصر يأمر عماله ، ومنهم صديقنا ، أن يشتدّوا في حمل الناس على دين المسيح، وأخذهم بالجد في ذلك أخذاً حازماًعنيفاً، إن احتاجوا الى الحزم والعنف .

فماذا ترى لنفسك ؟ وماذا ترى لصديقنا ؟ وماذا ترى لي ؟

قال كلكراتيس : وما أرى لصديقنا ولا لك حاجة إلا ما رأيته أنت وقبّـله صديقنا . فاني لا أريد ولا استطيع أن أحملكما على ما أريد ، واستطيع أن أحمل عليه نفسي .

قال اندروكليس : وعلامَ تريد أن تحمل نفسك ؟

قال كلكراتيس : على معصية قيصر .

قال اندروكليس : أوَتفعل ؟

قال كلكراتيس : نعم

قال اندروكليس : فإن عاقبة هذا العصيان لن تمسك وحدك ، ولكنها ستمسّنا جميعاً . ولست أخفي عليك أني لا أريد أن أتعرض للاذى ، لأن لي في الحياة ولذتها أرباً . فاذا تحدثت اليك الآن ناصحاً بالتؤدة والأناة ، فاني مخلص في النصيحة غير متهم ، لأني سأخالفك وآمن كيد قيصر وأذاه . إنما أنصح لك بالأناة إشفاقاً عليك أنت . وأنا أعلم أني لن استطيع إكراهك على الحياة إن آثرت الموت ، ولا على الدعة إن آثرت العذاب ، وإن كان موتك يشقيني ، وعذابك يؤذيني . ولكني أشفق على صديقنا ، وما أراك إلاّ مشفقاً عليه مثلي . فإن عصيانك لقيصر سيضطره إلى إحدى اثنتين كلتاهما شرّ : فإما أن يجاريك فيشاركك في الشقاء ، وإما أن يجاري قيصر فيدفع الى البطش بك ، وما أراه يفعل . أفكرت في هذا كله ؟ أقدرت هذا كله ؟

قال كلكراتيس : فاني ما زلت في التفكير والتقدير منذ اليوم .

قال اندروكليس : وإذاً ؟

قال كلكراتيس : وإذاً فلست أدري لقد دعاني الموت فأبيت أن أستجيب له ، وأنا حريص أشد الحرص على ألا أوذيكما . وما أرى إلا أن الأرض واسعة ، والفضاء عريض ، وأن في الهجرة عنكما والزوال عن هذا الإقليم ما يرضيني وإن شق علي ، وما يؤمنكما وان كان فراقي عليكما عسيراً .

قال اندروكليس : تريد أن تزول عن هـذا الإقليم ، ونهاجر من هذه الأرض . ولكنك تعلم أن أمر قيصر ليس مقصوراً على هذا الإقليم ، ولا موقوفاً على هذه الأرض . فأنت إذاً تريد أن تتعرض للاذى او للموت على ألا يأتيك الأذى والموت من يد صديقك .

قال كلكراتيس : فاني لا اريد الموت ، ولا ارغب في الأذى ، ولا أهاجر من أرض قيصر إلى أرض قيصر ، انما أزول عن ملك قيصر كله .

قال اندروكليس ، وقد أخذه الدهش والحزن : تزول عن ملك قيصر ، وتلجأ الى ارض البرابرة ، وتدع حضارتنا وعاداتنا وتراثنا وما في حياتنا من نعيم وخفض ، إلى حياة مجهولة ، وقوم مجهولين ، وغربة ماندري مـاذا تضمر لك من الأخطار ! فأنت تريد إذاً أن تسلك سبيل أولئك الفلاسفة من اليونان الذين لجئوا إلى عدوّنا من الفرس ، وأتاحوا لكسرى ما كنا نحتكره من العلم والفلسفة والمعرفة ، وأتاحوا له قوة لم يكن يملكها ، وقدرة على حربنا والكيد لنا والظهور علينا لم يكن له منها حظ .

قال كلكراتيس : ما ألوم أولئك الفلاسفة الذين فرّوا بعقولهم إلى أرض عدوّنا من الفرس ، فربما كان العقـل آثر من الوطن ، وآثر من الصديق ، وآثر من الناس والأشياء جميعاً .

ولكن هوّن عليك ! فلن أسلك طريق أولئك الفلاسفة إلى بلاد الفرس ، لأني لا أريد أن اخرج من رقّ قيصر لأدخل في رقّ كسرى ، وما أريد أن أفرّ من دين المسيح لأكرَه على دين المجوس ! إنما أريد أن أهاجر إلى أرض لا سلطان فيهـا ، وليس لأحد عليها ملك . إلى أرض لا يُكرَه الناس فيها على ما لا يحبون . إلى أرض لا أكون فيها رعية ولا سوقة ، وإنما أكون فيها ملكاً .

ثم رفع إلى صديقه نظرة حزينة وقال : لا يُعجلك الدهش عن الاستماع لي والفهم عني ! فإني لا أهرب من ملك قيصر لأفرض ملكي على الناس . ومن لي بالملك وأسبابه؟ إنما أريد أن أكون ملكاً لنفسي ، لا أملك أحداً ، ولا يملكني أحد .

قال أندوركليس وقد رُدّ إلى هدوئه فأغرق في الضحك : فأنت تريد أن تهاجر إلى الصحراء ، وأن تكون راهباً فيها من رهبان دينوزوس ؟ رأي طريف لا أرى به بأساً . إن للنصرانية رهبانها الذين يقيمون في الأديار والصوامع ، في المدن وفي أطراف

الصحراء . فأنت تريد أن تجعل للوثنية رهبانها وأديارها وصوامعها .

رأي طريف لا أرى به بأساً . لقد أخذ النصارى عن الوثنية علمها وفلسفتها . فما للوثنية لا تأخذ عن النصرانية نُسكها ورهبانيتها !

ما أرى إلا أننا سنلهو بهذا الرأي لهواً متصلاً ، حين نخلو إلى صديقنا وإلى دينوزوس إذا جنّ الليل .

قال كلكراتيس : لا تسخر ولا تمزح ! فما فكرت في رهبانية ولا نُسك . وقد قلت لك إن لي في الحياة أرباً ، وما أريد أن أتخذ لي في طرف من أطراف الصحراء صومعة ولا ديراً . وماذا أصنع في الصومعة والدير ، وأنا لم أرْض حاجتي بعدُ من لذات الحياة ونعيمها ؟ لا أريد أن أعتزل الناس ، وإنما أريد أن أعتزل السلطان .

لن نلهو الليلة بهذا الرأي كما تظن ، ولكننا سنتدبره ونطيل الحديث فيه . فما زلت أعتمد عليكما ، وعلى ما تُضمران لي من مودة ، وما تُخلصان لي من حب . وما زلت أعتقد أنكما ستيسران عليّ من هذا الأمر ما أراه عسيراً .

قال اندروكليس : لقد كان خُيّل إليّ أني فهمت عنك ، ولكنك تردّني إلى الغموض والحيرة . فلعلي أفهم عنك حين نخلو الى صديقنا . وما أظن إلا انه قد آن لنا ان نسعى اليه .

— ٤ —

وأقبل الصديقان من ليلتهما على قصر الحاكم ، فحاد بهما الُحجاب عن طريق الحجرات الخاصة التي كانت تشهد ما يأخذان فيه مع صديقهما من سمر ولهو ومجون ، وسلكوا بهما طريق بهو من أبهاء الاستقبال . فلما سألا عن ذلك قال الُحجاب : إن سيدهم لم يفرغ للسمر بعدُ ، وما يظنون أنه سيفرغ له الليلة .

قال اندروكليس : فإنا ننتظره كما تعوّدنا أن نفعل حتى يفرغ لنا .

قال أحد الُحجاب : بل هو ينتظركما. وقد تقدم إلينا في إدخالكما عليه إذ أقبلتما، وفي تعجالكما إن تأخر قدومكما على القصر .

قال كلكراتيس : وما ذاك ؟

قال الحاجب : ما ندري ! ولكن مولانا قد خلا منذ ساعة غير قصيرة إلى راهب

شيخ من الرهبان ما أرى إلا أنكما تعرفانه ! فقد رأيت مولانا يتلقاه مكبراً له ، حفياً به في كل شيء من التبسيط والإسماح ، كأن له به عهداً قديماً .

قال اندروكليس : راهب شيخ يلقاه الحاكم حفياً به ، مكبراً له ، متبسطاً معه . من عسى أن يكون ؟!

قال كلكراتيس : وهو يريد أن نلقاه ، ويتعجل مقدمنا إن أبطأنا ! أفتراه قد دعا هذا الراهب ليعظنا ويفقهنا في الدين ؟ إنه ليحرق السفن من ورائه ، ولا يكفيه أن يسمع لمشورتك ، بل يسرع إلى العمل بها إسراعاً . ما أشد حرصه على رضا ....

ولم يمكنه أندروكليس من إتمام مقالته ، وإنما غمزه مسرعاً وقال للحاجب : أفلا تريد أن تستأذن لنا ؟

قال الحاجب : نحن لسنا في حاجة إلى ذلك ! فقد أمرنا أن نُدخلكما عليه فوراً.

ثم مضى أمامهما وتبعاه ، ثم انفرجت لهما الأستار واجتمعت من دونهما ولم يكادا ينظران إلى هذا الراهب الشيخ الذي كان يتحدث إلى صديقهما في أناة وهدوء ، حتى أخذهما الدهش ، ودفعا إلى الشيخ دفعاً وهما يصيحان بصوت واحد : كلينيكوس !

ونهض الشيخ لهما في رزانة ووقار ، فضمهما إليه ، وقبلهما تقبيل الوامق المشوق ، وبارك عليهما في غير تكلف ولا تصنع ، وهو يقول : فقد أذن الله لي أن أراكم جميعاً قبل أن أترك هذه الأرض .

قال كلكراتيس : فإنك قد تركت هذه الأرض عن رضاً وتعمد . وما أدري ماذا أزعجك عنها ! وما علمت قط ماذا صرفك عما كنت فيه من حياة ناعمة وعيش لين . وما كنت أحسب أن فراق الأصدقاء يهون عليك إلى هذا الحد ، وأن نفوس الناس تتجافى عن أوطانها على هذا النحو .

وهمّ الشيخ أن يجيب ، ولكن اندروكليس قال متعجلاً : عجباً للذين ينكرون على الناس . ولا ينكرون على أنفسهم . فإني أشاركك فيما تقول لكلينيوس ، ولكني أحب أن تقوله لنفسك . ثم التفت إلى حاكم المدينة قائلاً : ولكنك تجهل من أمره كل شيء . فاعلم أنه قد أزمع الهجرة عن هذه الأرض ، وهو الآن يفكر في مهاجره الذي يقصد إليه ويستقر فيه .

وأظهر الحاكم دهشه وإنكاره . ولكن الراهب الشيخ نظر إلى كلكراتيس نظرة حب وحنان ، وقال : فقد مسك إذن جناح من رحمة الله وأنت تريد الفراغ له ، والخروج لطاعته عن حياتك الناعمة ، وعيشك اللين ، وأيامك المقبلة التي قد تكون

حافلة ، إن انتظرتها ، بالسلطان والجاه . فلا تلتمس مُهاجراً ولا تفكر فيه ، ولكن ارتحل معي من الغد ، أو ارتحل في أثري إن احتجت إلى أيام تصلح فيها أمر من تترك وراءك من الأهل والصديق : فما أراك تجد ديراً أرفق بك من ديرنا، وما أراني أهدي إلى ديرنا خيراً منك .

قال أندروكليس : فإنك لم تأت للقائنا إذاً ، وإنما أتيت للتفريق بيننا . وما كفاك أن انتزعت نفسك من وطنك وصديقك انتزاعاً حتى تريد أن تنتزع كلكراتيس !

قال الراهب مبتسماً : لو استطعت أن أنتزعكم جميعاً ، وأخرجكم عما أنتم فيه ، وأهديكم إلى هذا الدير ، أو أهدي إليكم الحياة في هذا الدير ، لكنت أسعد الناس وأخلقهم بالغبطة والابتهاج فإن الله لم يتح لأحد منا نعمة تعدل القدرة على استنقاذ الناس من أنفسهم،واستخلاصهم له من آثام الحياة وسيئاتها . وأي شيء آثر عندالرجل الكريم من أن يستنقذ صديقه من الشر ، ويهديه سبيل الخير ! وإني ما أقبلت عليكم لأنتزع منكم أحداً ، ولا لأنتزعكم من أنفسكم وأوطانكم ، وإنما دعيت فأجبت ، ثم سنحت الفرصة فأنا أنتهزها .

قال كلكراتيس ضاحكاً : فان نفسي لم تنضج بعد لحياة الدير ، وما أرى أنها قريبة النضج .

قال حاكم المدينة باسماً وهو يلتفت إلى الراهب : فإني قد دعوتك لأيسر من هذا . وإني أستطيع الآن ، وقد حضر هذان الصديقان ، أن أظهرك وأظهرهما على جلية الأمر ؛ فإنك لا تعلم منها شيئاً ، وهما لا يعلمان منها إلا قليلاً .

قال الراهب : وما ذاك ؟

قال حاكم المدينة : فإن مكانك منا بحيث تعلم ، وقد كنت لآبائنا صديقاً، وكنت بنا رفيقاً. وكثيراً ما عقدت بنا الآمال ، ونيطت بنا الأماني. وكثيراً ما تحدثت إلينا وإلى آبائنا بأنك تدخرنا لتجارتك الواسعة،في أقطار الأرض العريضة. ثم كانت رحلتك تلك إلى بلاد العرب ، ثم كانت عودتك منها ، ثم كان اعتزالك للحياة والأحياء ، وانقطاعك لله في ذلك الدير البعيد القائم في طرف من أطراف الصحراء .

أعرضت عنا ولم تفكر فينا ، ولم تحفل بما ألمّ أو ما كان يمكن أن يلمّ بنا من الأحداث والخطوب . وما ندري ماذا صنعت بتجارتك الضخمة ، وثروتك الواسعة . وما أتحدث إليك في ذلك عاتباً ولا لائماً ! فإنك لم تسيء إلينا ، ولم تقصر في ذاتنا ، وإنما ألهاك عنا ما ألهاك من أهلك ومالك ونفسك . إنما أذكرك بهذا كله

لتعلم أنك إن نسيتنا فاننا لم ننسك ، وإن شغلت عنا فإنا لم نشغل عنك . ثم لتعلم أني لم أدعك ولم ألجأ إليك، إلا لأنا تعرضنا لما نحتاج معه إلى رأيك ومشورتك وإلى سلطانك العظيم على نفوسنا ، وتأثيرك العميق في قلوبنا ، فأعلم الآن أن قد ارتفعت الأنباء إلى قسطنطينية بأن هذين الصديقين يرتابان في دينهما ، ولا يتحرجان من الإعراض عنه ، وقد يستبيحان في بعض خلواتهما العبث به والإلحاد فيه . وجاء إلي الأمر من قسطنطينية ان امتحنهما واكشف جلية امرهما ، فان ظهرت منهما على ريبة ، أخذتهما بالتوبة أخذاً شديداً ، فإما قبلاها ، وإما أخذتهما بالعذاب الشديد . وما أخفي عليك ، وما أظنني أستطيع أن أخفي عليك ، أن ما ارتفع من أمر الصديقين إلى قسطنطينية حق كله ، بل هو بعض الحق ؛ فإنهما لا يرتابان وحدهما في الدين ولا يعبثان وحدهما بالدين ، وإنما يشاركهما في الريبة والعبث ثالث لهما ، هو الذي يتقدم إليه قيصر في تخييرهما بين التوبة والعذاب . وما أحسب إلا أن الأنباء ارتفعت إلى قيصر بأمري ، كما ارتفعت إليه بأمرهما . وما أحسبه إلا يمتحنني بهذا الأمر الذي أصدره إلي . وقد أشرت ، بعد أن دعوتك ، إلى صديقي بهذا الخطب في شيء من التلطف والتلميح فأما أحدهما ، وهو أندروكليس ، فقد أظهر مرونة وليناً وحسن استعداد لاتقاء الفتنة . وأما الآخر فتستطيع أن تنظر إليه ، فإن ما يظهر على وجهه من العبوس والثورة خليق أن ينبئك ببعض أمره إن لم ينبئك به كله .

وهم كلكراتيس أن يتكلم ، ولكن الراهب قال في صوت رقيق رفيق : إني لأرحمكم يا بني وأرثي لكم ، لا من شك قيصر فيكم وارتيابه بكم ، وتعريضه إياكم للفتنة والبلاء ! فذلكم أيسر الخطب وأهونه ، بل من شككم في الدين وارتيابكم به ، وإعراضكم عنه وإلحادكم فيه . ولكني على ذلكم لا ألومكم ولا أنكر عليكم ، وإنما أفهم موقفكم حق الفهم ؛ فإن هذه الحياة التي تحيونها ، وهذه البيئة التي تضطربون فيها ، وما يختلف بين أيديكم كل يوم من الحوادث ، وما يعرض من الأمر ، وما ترون من سيرة القادة والسادة والوعاظ والهداة ، كل ذلك خليق أن يشككم فيما تشكون فيه ، ويريبكم بما ترتابون به ، ويدفعكم إلى ما تندفعون إليه من هذه الحياة العابثة الماجنة التي لا ترجو لأحد ولا لشيء وقاراً .

وكيف ألومكم أو أنكر عليكم وقد أنفقت أكثر عمري فيما تنفقون فيه شبيبتكم ! ولولا هذه الرحلة وما رأيت وما سمعت وما بلوت فيها وما تبينت ، لما كنت إلا واحداً منكم ، يشارككم في العبث واللهو إن قدر على مشاركتكم فيهما ، أو ينعم

باستمتاعكم بالعبث واللهو إن ردّته السنّ عن أن يأخذ بحظه منها .

ولو تعرفون يا بَنيّ هذه اللوعة التي تحرق قلبي تحريقاً ، وهذه الحسرة التي تفرّق نفسي تفريقاً ، وهذا الندم اللاذع الذي لا يفارقني يقظان ولا نائماً، لو تعرفون هذا أو بعض هذا ، لرحمتم أنفسكم مما أرحمكم منه ، ولعدلتم بأنفسكم عن هذه الطريق التي عدلت بنفسي عنها ، ولكنني لا أدري كيف أنقل إلى قلوبكم ما أجد في قلبي ، وكيف أشيع في نفوسكم بعض ما يشيع في نفسي ، وكيف أبين لكم بعض ما تبين لي من أن هذه الحياة باطل كلها ، ومن أننا ننشأ آثمين ، ولا نخطو في حياتنا خطوة ولا نتقدم في عمرنا لحظة ، إلا َعلقت بنا أدران الإثم ، ولصقت بنا أوضار الخطيئة ، ومن أننا لو خلونا إلى أنفسنا ، وانقطعنا عن الناس جميعاً ، وفرغنا للندم على ما قدّمنا وقدّم آباؤنا الآثمون الخاطئون ، والاستغفار مما جنينا وجنى آباؤنا المذنبون المسيئون ، لما أزلنا عن أنفسنا بعض ما علق بها من إثم ، وما غسلنا عن قلوبنا بعض ما لصق بها من وَضر . وما أعرف مع هذا كله أن إظهاركم على بعض ذلك يتأتى بالحوار والخطاب ، او يتاح بالحجة والدليل ، وإنما هي رحمة من الله تمسّ العقول ، فتكشف لها عن الحق ، وتهديها سواء السبيل .

قال كلكراتيس: فان هذه الرحمة لم تمسّ عقولنا بعد ، وما أدري أتمسّ عقولنا في يوم من الأيام . وإذا كنا لم نرحل رحلتك إلى بلاد العرب ولم نر فيها ما رأيت ولم َتبل فيها ما بلوت، فنحن معذورون إن لم نضق بحياتنا هذه ذرعاً ، ولم نخرج عنها ونسلك طريقك تلك التي سلكتها الى الدير .

وصدّقني أني لا أكره أن تمسني هذه الرحمة التي مستك ، بل لا أتمنى إلا أن تمسني فتهديني الى مثل ما اهتديت اليه او الى غير ما اهتديت اليه، ولكنها تخرجني على كل حال من هذه الحياة التي أخذتُ أمقتها أشد المقت ، وأضيق بها أعظم الضيق .

قال اندروكليس : ولكنني لا أمقت هذه الحياة ولا أضيق بها ، ولا أريد أن تمسّني هذه الرحمة ، ولا أبتغي إلا أن أترَك وما أنا فيه من خفض العيش ولينه ، وأنا زعيم بإرضاء قيصر وبارضاء المسيح ايضاً .

قال الراهب : أما إرضاء قيصر فيسير ، والناس جميعاً او اكثرهم يبلغون من رضا قيصر ما يريدون ، وإنما هي الطاعة والإذعان ، والاختلاف الى الكنائس ، وشهود الصلوات ، وإظهار التكريم للقسيسين والرهبان. وأما إرضاء المسيح فشيء آخر بعيد كل البعد عن أن يكون من اليسر والسهولة بحيث تظن .

قال أندروكليس : فحسبي أن أرضي قيصر ! لأني أعرفـــه وأومن به ، وأرجو نعمته وأخشى نقمته . فأما المسيح فما أرى أن له عليّ حقاً قبل أن يظهر نفسه لي ويمسّني بهذه الرحمة التي مسّك بها . وأنا أرجو ألا يفعل ؛ فانه إن فعل كلفني مثل ما كلفك من اطراح الحياة ولذاتها ، وما يملؤها من هذا النعيم ذي الألوان المختلفة الذي لم أقض منه حاجتي ، وما أحسب أني سأقضيها في يوم من الأيام .

قال الراهب ملتفتاً الى الحاكم : وأنت ماذا تقول ؟

قال الحاكم مبتسماً مستخذياً : يشق عليّ أني لا أستطيع أن اقول إلا ما قاله اندروكليس .

قال الراهب : فاني لا أملك لكما من الله شيئاً ، وما أنا من الذين يحبون الحوار في الدين ، وما هيأت نفسي لذلك وما مرّنتها عليه ، وما أقـدر لكما إلا على الصلاة والدعـــاء . فأما أنت يا كلكراتيس ، فاني أرى من اضطراب نفسك وثورة ضميرك وترددك بين ما ترى وما لا ترى ، أن لك شأناً .

قال اندروكليس ملتفتاً الى الراهب ضاحكاً له : أتعلم أي صورة يثيرهـا موقفك هنا الآن في نفسي ؟

قال الراهب : نعم ! تتحدث إليك نفسك بأني ذئب قـــد وقع في القطيع ، فهو يتخير بين شائه الشاة التي تلائمـه ويسهل عليه اختطافهـــا ، وتخيل إليك نفسك أن كلكراتيس هو هذه الشاة ، وأني سأحاول انتزاعه من أهله وصديقه ووطنه . ثم تتحدث إليك نفسك هازئة بي وساخرة مني بأن كلكراتيس بعيد كل البعد عن أن يكون شاة ، وبأني سأرتد عنه خاسئاً حسيراً . ولكن نفسك تكذبك يا بُنيّ ، فما أنتم بالقطيع ، وما أنا بالذئب ، وإنكم لألسنُ مني ، وإنكم لأقدر مني على الحوار والانتصار على الخصم . وما أنا بطامع في كلكراتيس ، وما هو في حاجة إلى أن يقاومني ويدفعني عن نفسه ، وقد أنبأني آنفاً بأن رحمة الله لم تمسه بعدُ ، وإنه لا يكره أن تمسه ، بل بل لا يتمنى إلا أن تمسه ، وأنا أعلم أن رحمـــة الله قريب من الذين يطمعون فيها ويطمحون إليها . فلست أرجو أن يرحل معي كلكراتيس ، ولعلي لا أرجو أن يلحق بي إلى الدير . ولكنني لست أيأس من أن يمسه الله برَوْح منه ، فيخرجه من تردده ، وينقذه من اضطرابه الذي يشقيه .

قال كلكراتيس : فإني لست متردداً ولا مضطرباً ، ولكني مطمئن كل الاطمئنان إلى أن هذه الحياة التي يأخذ قيصر بها الناس ويريد أن يأخذنا بها ، ويواطئه صديقاي

على أن يأخذا بها نفسيهما ، شرٌّ كلها لا تليق بالرجل الكريم ، ولا يستطيع ذو العقل أن يطمئن إليها . فأنا أريد عازماً أشدّ العزم أن أفرّ بعقلي منها إلى مكان بعيد لا تستطيع أن تبلغه ، ولا يستطيع سلطان قيصر أن يصل إليه .

قال الراهب : إني يا بُنيّ لم أختلف إلى مجالس الفلاسفة كما اختلفتَ إليها ، ولم أقرأ من كتبهم مثل ما قرأتَ أو بعض ما قرأت ، وإنما أنفقت حياتي في التجارة ومعالجة المنافع العاجلة ، ومع ذلك فقد يخيل إلي أنك تريد أن تحمل نفسك شططاً ! فإنا لم نُمنح العقل لنفرّ من الشرّ ، بل لنواجه به الشر ونقهره ونظهر عليه . وما أظن أنا مُنحنا العقل لنتخذه وسيلة إلى الأثرة ، وطريقاً إلى الراحة والنعيم . كذلك يفكر كثير من الناس ! ولكنهم ، فيما أعتقد ، يخدعون أنفسهم ويضللون عقولهم ، ويخفون ما يملأ قلوبهم من الضعف وحب النفس والعجز عن احتمال تبعات العقل . إن العقل يا بُنيّ فيما أرى نور ؛ ومن طبيعة النور أن يهزم الظلمة لا أن ينهزم لها . وإن العقل يا بُنيّ فيما أرى سلاح ماض حديد ! ومن طبيعة السلاح أن يهزم العدوّ ويُظهرَ صاحبه عليه ، ويحمله على المقاومة والجهاد في أقل تقدير ، لا على الهرب والفرار لأول بادرة تبدو أو شرّ يخاف .

قال كلكراتيس : فإن استيقنت أن هذه الظلمة التي تحيط بي أشدّ كثافة وصفاقة ، وأكثر تراكماً وتلاحقاً من أن يبددها هذا النور الضئيل الذي يضطرب في رأسي ، وإن استيقنت بأن العدوّ الذي يهاجمني ويأخذني من كل وجه أضخم قوّة وأعظم بأساً وأكثر عدداً من أن أهزمه بهذا السلاح الذي في يدي . . .

قال الراهب : فإن الواجب عليك مع هذا أن تثبت لهذه الظلمات الكثيفة الصفيقة المتراكمة المتلاحقة ؛ فإنها مهما تبلغ من الكثافة والصفاقة فلن تمحق هذا النور الضئيل الذي يضطرب في رأسك . وإن الواجب عليك أن تثبت لهذا العدو الذي يسعى إليك من كل وجه ، ويريد أن يأخذك من كل نحو ، فإنه مهما تضخم قُوته ويعظم بأسه فلن يستطيع أن يَفل سلاحك هذا الماضي الحديد ، ولا أن ينتزعه من يدك انتزاعاً .

وقد ضُرِبَتْ لك الأمثالُ من قبلُ : ضربها لك أبو الفلاسفة إن كنت فيلسوفاً ، وضربها لك صاحب الدين إن كنت ديّاناً . فإن سقراط لم يفرّ بعقله من الأثينيين فيما أعلم ، ولكنه قَبِلَ منهم السجن ، وتلقى منهم الموت ، ثم لم يلبث أن ظهر عليهم آخر الأمر . وإن المسيح لم يَفرّ بدينه من اليهود ولا من الرومان ، وإنما قبل منهم ما

صبّوا عليه من عذاب ، وتلقى منهم ما أعـدّوا له من شرّ ، ثم انتصر عليهم آخر الأمر .

كلاّ ! إنك لا تريد أن تفرّ بعقلك يا بُنيّ ! فالعقل أشجع وأرفع وأمضى من أن ينهزم السلطان أو يتقيه بالفرار ؛ وإنما تريد أن تفرّ براحتك ولذاتك وبما لكفي الحياة من أرب . إنما تريد أن تفرّ لأنك تستشعر الضعف عن المقاومة ، وتحس العجز عن الثبات لهذه المحنة التي تدبّر لك وتسلط عليك . إن العقل خير كله فيما أرى، ولست أعتقد أنه يُغري بالأثرة أو يحرض على الفرار . إن الدوافع التي تدفعنا إلى الشر لا تأتينا من عقولنا ، لأن عنصر العقل خير كله ، وإنما تأتينا من شهواتنا وغرائزنا . فانظر بأي شهوة أو بأي غريزة تريد أن تفرّ . ولكن إياك أن تظن أنك تؤثر عقلك بالعافية أو تحـن إليه بالهرب ! .

قال كلكراتيس : فأنت إذاً تُغريني بانتظار الموت ؟ ! .

قال الراهب : فإنك منتظر للموت في كل لحظة ، وفي كل مكان ، وفي كل طور من أطوار حياتك .

قال كلكراتيس : أرى أنك تريد لي أن أتعرّض للفتنة وما يتبعهـا من الشر والنكر وألوان المكروه .

قال الراهب : لا أريد شيئاً ، وإنمـا أستنبط النتائج من مقدماتها . فإن كنت حريصاً على عقلك مؤثراً له مؤمناً به ، فإن العقل لا يعرف الهزيمة ولا يحبها ، ولن تكون أول من تعرض للفتنة وألوان المكروه في سبيل الرأي والعقل ، ولن تكون آخرهم . وإن كنت حريصاً على الراحـة والعافية مؤثراً لهما فسواء عليّ وسواء على الرأي والعقل ، أسلكت إلى هـذه الراحة والعافية سبيل صديقك فخادعت الناس ونافقت معهم ، أم سبيل الفرار والهجرة فخادعت نفسك وآثرت مخادعتها على مخادعة الناس ، لأن ذلك أيسر لك وأهون عليك .

قال كلكراتيس : لم أكن متردداً ولا مضطرباً قبل لقائك ، فأما الآن فإنك قد أفسدت عليّ أمري كله .

قال الراهب : لم أفسد عليك شيئاً يا بُنيّ ! لأن أمرك كان كله فاسداً ، ولأنك كنت تخدع نفسك بالآمال والأماني ، ويخيل إليها أنهـا أكرم من نفس صديقك ومن نفوس الناس جميعاً . أليست تفرّ برأيها وتهرب بحريتها ! فأين هي النفوس التي تقبـل الضيم وتحتمل الذل ؟ ! وكانت هذه الكبرياء تُغريك وتطغيك ، وتحملك على أن تؤله

نفسك بالعبادة من دون الآلهة جميعاً . فأما الآن فقد أظن أن الأمر تبين لك ، وأنك ستطيل التفكير قبل أن تنحاز إلى دين قيصر مع صديقيك ، أو إلى دين نفسك في ذلك المهاجر البعيد . ولكن أحب أن تعلم أن كلا الدينين باطل مهين عند العقل الذي يخيل إليك أنك تكبره كل الإكبار.

قال أندروكليس : كلا الدينين باطل مهين ! فأنت إذاً تنكر دين قيصر والمسيح ؟!

قال الراهب : أنكر دين قيصر ، ما في ذلك شك ، ولكن دين المسيح شيء ودين قيصر شيء آخر . وما لجأت إلى الدير إلا لأفرغ من قيصر وأشباه قيصر للمسيح .

ثم سكت قليلاً ثم قال : بل للمسيح ولانتظار ما سينكشف عنه الدهر بعد قليل.

قال حاكم المدينة : فسينكشف الدهر عن شيء بعد قليل إذاً ؟

قال الراهب : ما أشك في ذلك يا بُني ! فقد تحدثت به الكتب ، وكان الناس يُضمرون انتظاره فيما بينهم وبين أنفسهم ، ثم أخذت بوادره الآن تبتدر ، وجعلت الآيات تتحدث إلى من يفهم عنها بأن مَقدَمه قريب .

— ٥ —

وارتفع الضحا من الغد ، فإذا الراهب الشيخ والفيلسوف الشاب ماضيان في حديثهما الذي كانا فيه من الليل ، فقد انتقلا به إلى بيت كلكراتيس حين همت أستار الليل أن تنجاب عن وجه النهار .

انتقلا بحديثهما دون أن يقطعاه أو ينصرفا عنـــه ، ودون أن يشغلهما عنه انهزام الليل المظلم وانتصار الصبح المشرق ، وهذا السهر المتصل الذي كان خليقاً أن يُعييهما ويُضنيهما . ولأمر ما شغلهما هذا الحديث عن هذا كله ، وعن أكثر من هذا كله : فلم يشعرا بحاجة إلى الراحة ولا ينبوٍ عن العادة ، ولا برغبة في طعام أو شراب ، وإنما مضيا أمامهما في الحديث نشيطين له ، مستمتعين به ، كما يمضي المسافر في طريق جميلة سهلة ، يملؤه النشاط وينأى به كل النأى عن الكلام والملال ، وعن التقصير والقصور .

وكان الراهب الشيخ يقول لصديقه الشاب في هدوء ودعة ، وفي ابتسام يوشك أن يكون ساخراً لولا أن الشيخ كان أشد وقاراً وأعظم إيماناً من السخرية – كان الراهب الشيخ يقول لصديقه الشاب وادعاً باسماً : إنك يا بُني تسرف في أمر العقل ، وتحمله

أكثر مما يطيق أن يحتمل ، وتدفعه حيث لا ينبغي أن يدفع ، فإنـك لا تصدر عن العقل حين تحب وتُبغض ، ولا تصدر عن العقل حين تجوع وتظمأ ، وإنما تصدر في ذلك كله عن غرائز قد ركبت في طبعك ، وسيطرت على مزاجك . وقد يستطيع عقلك أن يفهم هذه الغرائز ، وقد يستطيع أن يمسها ببعض التنظيم ، وقد يعجز في كثير من الأحيان عن فهمها وتنظيمها .

وما أدري يا بنيّ لِمَ تؤمن بسلطان الغرائز على جسمك ، ولا تؤمن بسلطانها على نفسك ! بل ما أدري لِمَ تؤمن بأن للغرائز على نفسك سلطاناً في بعض الأمر ، وتجحد أن يكون لها سلطان في بعضه الآخر ؟

قال كلكراتيس : فإني لا أفهم عنك ما تقول منذ اليوم .

قال الراهب الشيخ : فقد فهمت عني كل ما قلته منذ التقينا ، أفتراك قد نال منك الجهد وأدركك التعب ؟

قال كلكراتيس : كلا ! ما رأيتني قط كما أراني الآن نشيطاً إلى الحديث راغبـاً فيه ، مستزيداً منه ، مشغوفاً به . ولكن أوْضحْ مقالتك فإن فيها بعض الغموض .

قال الراهب : فإن جسمك يا بُنيّ يألم إذا مسه الجوع أو الظمأ دون أن يكون لعقلك في ذلك تأثير قليل أو كثير ، وإن جسمك يا بنيّ يبرأ من الألم حين تردّ عنه الجوع بالطعام ، وحين تردّ عنه الظمأ بالشراب . ولو أوتيت عقل النـاس جميعاً لما استطعت أن ترد عن جسمك ألم الجوع والظمأ حين يحتاج الى الطعام والشراب ، ولما استطعت أن تردّ عن جسمك ألم الجوع والظمأ حين يدركه الشبع والريّ . فإني أرى يا بنيّ أن لنفسك غرائزها كما أن لجسمك غرائزه ، وأن غرائز النفس كغرائز الجسم لا تصدر عن العقل ولا تنشأ عنه ، وإنما تصدر عن الطبع وتنشأ عن المزاج ، وحاجة النفس يا بني إلى الإيمان كحاجة الجسم إلى الطعام والشراب ، تألم إن فقدت الإيمان ، وتستريح إن ظفرت به ، ليس للعقل في ذلك أثر . فكن أعقل الناس ، وكن أحزمهم وأصرمهم وأمضاهم عزماً ، فلن يغير ذلك من نفسك شيئاً إن كانت طبيعتها طبيعة النفس الإنسانية التي فُطرت كما فطرت نفوس الناس على الإيمان .

قال كلكراتيس : فإني لا أنكر من ذلك شيئاً ، وما أنكر حاجة نفسي إلى أن تؤمن ، وعجزها عن حياة الكفر والجحود ، وإنما أحاورك في موضوع هذا الإيمان ، وفي السبيل التي تؤدي إليه .

قال الراهب الشيخ : فإني يا بني أرى أن في العقل تمرداً وغروراً . قد خضعت

له طائفة من الأشياء ، وذلت له بعض صور الطبيعة ، فظن أن كل شيء يجب أن يخضع له ، وأن كل صورة من صور الطبيعة يجب أن تذعن لسلطانه . والحوادث مع ذلك تثبت له من يوم إلى يوم ، بل من لحظة إلى لحظة ، أنه لم يعلم من الأمر إلا أقله ، ولم يستذلّ من صور الطبيعة إلا أيسرها وأهونها شأناً . وإن غرور العقل يا بنيّ قد زين له أن يجعل للطبيعة قوانين ، ويفرض عليها قيوداً وأغلالاً ، وألا يؤمن بها ولا يرضى عنها إلا إن خضعت لقوانينه ، ورسفت في قيوده وأغلاله . ولكن قوانينه لم تُحط بكل شيء ، ولكن قيوده وأغلاله لم تبلغ كل شيء . وما زالت الطبيعة حرة طلقة ، وما زالت أكبرَ من العقل وأوسع من سلطانه وأبعد من مرماه . وما زالت أحداث تحدُث لا يستطيع العقل إنكارها ، ولا يستطيع تفسيرها ، ولا يستطيع إخضاعها لقوانينه ولا لقيوده وأغلاله .

هي متمردة على العقل لأنها أقوى منه . وهو متمرد عليها لأن الغرور قد أفسد عليه أمره ، وأنساه أنه حديث السن ، قليل الحوْل والطوْل ، وأن الطبيعة أقدم منه عهداً ، وأبعد منه مدى . ما أجدر العقل يا بُنيّ أن يُصلح نفسه ، وأن يُصلح ما حوله ، لو أنه عرف قدر نفسه ، فلم يخرج عن طوره ولم يُسرف في التمرد والغرور .

إنك يا بنيّ لا تستطيع أن تفسر بعقلك كيف يحيا الميت بعد أن مات وشبع موتاً : ومع ذلك فقد نهض الميت من قبره ، وقد قرأت عليك ذلك في الإنجيل ، وما أنكرت منه شيئاً ! لأن الناس جميعاً قد عرفوه واطمأنوا إليه . وإنك يا بنيّ لا تستطيع أن تفسر بعقلك كيف يبرأ الأكمه والأبرص ، لأن قائلاً يقول له ابرأ ! ومع ذلك فقد برىء الأكمه والأبرص حين أمر أن يبرأ ، وقد قرأت عليك ذلك في الإنجيل فلم تنكره ، لأن الناس جميعاً قد عرفوه . وإنك يا بنيّ لا تستطيع أن تفسر بعقلك كيف يمشي الرجل على الماء ، ولا كيف تشبع الجماعة الضخمة مما يقوم بأوَد الرجل الفذّ ! ومع ذلك فقد كان هذا كله ، قرأته عليك في الإنجيل فلم تنكر منه شيئاً ! لأن الناس جميعاً قد عرفوه . فكن في إحدى هاتين المنزلتين ، ولا تتذبذب بينهما : فإما أن تعرف ما عرف الناس ، وإذاً فلتؤمن بما آمن به الناس ! وإما أن تنكر ما عرف الناس ، وإذن فما أدري لمَ تطمئن إلى آلهتك القدماء ، وإنّ أمرهم لأدنى إلى المحال وأشد إغراقاً في السخف ، وأبعد مما يستطيع عقلك أن يُسيغ !

قال كلكراتيس : فإني أستطيع أن أنكر ما عرف الناس إلا أن يعرفه عقلي . وإني لا أرى على نفسي بأساً من أن أنكر الآلهة القدماء كما أنكر الإله الجديد الذي

يحدثني عنه الإنجيل ما دام عقلي لا يستطيع أن يسيغ من أمره ولا من أمورهم شيئاً .

قال الراهب : بل أنت لا تستطيع هذا يا بنيّ ! لأن نفسك عاجزة عن أن تحيا بغير إيمان ، كما أن جسمك عاجز عن أن يحيا بغير الطعام والشراب .

إن جسمك لا يستطيع أن يقيم على الجوع ، وإن نفسك لا تستطيع أن تقيم على الجحود ، وإنك مضطر إلى أن تؤمن بآلهتك القدماء ، أو بإلهنا هذا الجديد القديم الأبديّ الخالد . فاختر لنفسك بينه وبينهم ، وانظر أي الدينين أقرب إلى ما تحتاج إليه نفسك من الحب والرحمة ، ومن العطف والحنان ، ومن البر والتقوى . وأي الدينين أولى إلى ما يحتاج إليه عقلك من الارتفاع عن الصغائر ، والتنزه عن الآثام ، والتطهر من الرجس .

قال كلكراتيس : ما أشد ما أفسدت عليّ أمري ! وما أشد ما سلطت عليّ من الاضطراب .

قال الراهب الشيخ : قلت لك يا بُنيّ إني لم أفسد عليك شيئاً ؛ لأن أمرك كان كله فاسداً ؛ إنما رأيت الأمور قد اختلطت عليك ، فاجتهدت في أن أهون عليك التمييز بين المختلط منها . وما أظن أن ذلك يستقيم لك في هذه اللحظة التي أنت فيها ! ولكنك في حاجة إلى الأناة والروية ، وإلى التلبث وطول التفكير . فأمهلْ نفسك ورُضها على عبادة دينوزوس وأصحابه ، فما أراها تستجيب لك . ثم رضها على الكفر المطلق والجحود الخالص ، فما أراها تقيم على ذلك أو تطمئن إليه . ثم رضها على حبّ هذا الإله الجديد الذي يبشر به الإنجيل ، وانظر فلعل رحمة الله أن تمسها ، ولعل قلبك أن يذوق حلاوة هذا الإيمان الذي أنعمُ به منذ انتهيتُ إلى ذلك الدير .

وإني ، يا بنيّ ، راحلٌ عنك وعن صديقك منذ اليوم ، وكاره أن يظن بي صاحبك ما ظنه حين كان يزعم أني قد أتيت أخطفك من بينهما . فاستقبل أمرك هادئاً مطمئناً ، وانظر إلى شيء ينتهي بك النظر والتفكير .

قال كلكراتيس : فما أرى أني سأدعك ترحل عني ، وما أرى أني أستطيع في هذه الأرض مُقاما .

قال الراهب : فما أستطيع يا بنيّ أن أقيم .

قال كلكراتيس : لن ترحل وحدك .

قال الراهب مشرق الوجه : فأنت إذاً تريد أن تتبعني ؟

قال كلكراتيس : « نعم ! لا لأني آمنت بما تؤمن به ، واطمأننت إلى ما تطمئن

إليه ، ولكن لأني أجد في حديثك أنساً لم أجده في حديث انسان قط ، وأرى في قربك رحمة وحناناً لم أجدهما في قرب إنسان قط ، وأرى أن هذه الدار تنبو بي ، وأن الناس من حولي عدوٌ لي ، وأنك وحدك الصديق ، وأن دارك وحدها هي دار الخفض والدعة والهدوء .

ثم صمت الفتى صمتاً طويلاً ، ولكن دموعه الغزيرة المنحدرة تحدثت عن نفسه الحائرة المضطربة أصدق الحديث .

هنالك نهض الراهب الشيخ فضمه وقبله وبارك عليه .

- ٦ -

وبلغ الراهب الشيخ ديره بعد أيام ، فإذا الفيلسوف الفتى يستقبله مع المستقبلين حفياً به مشوقاً اليه ، يسأله في لهفة وحنان ، وفي محبة وبرّ عما احتمل من مشقة، وما صادف من عقبة، وما لقي من عناء في سفره البعيد . والراهب يجيبه هادئاً مطمئناً وادع النفس مستريح القلب ، لا يظهر دهشاً لمكانه في الدير ، كأنه كان مستيقناً أنه سيلقاه حيث يلقاه الآن . حتى إذا استقرّ به مكانه ، وخفّ إلحاح أصحابه عليه بالتحية والسؤال ، وفرغ لصديقه الفتى شيئاً ، سأله : كيف انتهيت إلى هذا الدير ؟ وكيف نجدك فيه ؟

قال الفتى : لقد أحسست منك يا أبت تردداً في اصطحابي، وإحجاماً عن مرافقتي، وإشفاقاً من أن يظن بك صاحباي أنك قد خطفتني من بينهما خطفاً ، كما كنت تقول، فلم ألح عليك ، بل لم أعد عليك طلب الإذن في صحبتك وإنما تلقيت ضمك لي وتقبيلك إياي ، وهذه البركة التي مسستني بها ، تلقيت هذا كله منك على أنه قبول لما طلبت إليك ، قبولٌ صدر من قلبك إلى قلبي ، وانتقل من نفسك إلى نفسي ، وإن لم يبلغه لسانك إلى اذني . ومن هنا أظهرت المضيّ فيما كنت ماضياً فيه من سخط على قيصر، ورغبة في الهجرة ، وبحث عن الأرض التي أهاجر اليها . وذهبت من مساء ذلك اليوم إلى قصر الحاكم ، فلقيته ولقيت أندروكليس ولقيتك معها وسمرنا فيما سمرنا فيه ، وافترقنا حين تقدم الليل ، ولم يحس صاحباي أني تقدمت خطوة فيما كنت أفكر، أو تأخرت خطوة عن الموقف الذي كنت قد انتهيت إليه . ولكن أمري كله كان قد

دبّر بين أول النهار وآخره. ولما فارقتكم لم أعد إلى بيتي إلا لألم به إلمامة قصيرة. ولما تلقيت الصبح من غد تلك الليلة كنت قد فصلت عن المدينة منذ ساعات. ثم لم يرتفع الضحا، ولم تزل الشمس، حتى كنت بعيداً عن إقليم صاحبي. وما أدري بعد ماذا كان من أمره وأمر أندروكليس، حيث علما أني قد فارقت المدينة فراق من لا يريد أن يعود إليها. وما أدري إلا أنهما قد ضاقا بهجرتي هذه ضيقاً شديداً، فإنهما يحبانني ويأنسان الي، ويحرصان الحرص كله على صحبتي.

وقد كنت أريد أن أجزيهما براً ببر وإحساناً بإحسان، ولكن ماذا أصنع وقد فرقت بيننا طبائعنا وأمزجتنا على هذا النحو الذي رأيت! على أني قد تركت ورائي من الأمر ما ينبئهما بأني كنت لهما صديقاً، وعلى مودتهما حريصاً، فقد جعلت الى حاكم المدينة تدبير ثروتي وإنها لعريضة، والإشراف على أموالي وإنها لضخمة، وتقدمت اليه في أن يقوم في ذلك مقامي ثلاثة أعوام! فإن رجعت الى المدينة فذاك، وأنا زعيم أن أعرف له حسن خلافته لي فيما تركت ورائي، وإن لم أرجع، وما أراني راجعاً، فان مالي يقسم أثلاثاً: له الثلث، ولأندروكليس الثلث، والثلث الأخير لهذا الدير.

وقد حملت معي ما استطعت حمله من مال وجوهر، ومن عرض ورقيق، فقدمته الى رئيس الدير ليبرّ به من تعوّد أن يبرّهم من الضعفاء والبائسين والمحتاجين إلى المؤاساة والعون.

وأقمت في هذا الدير أنتظر عودتك لأستشيرك وأستخبرك، وأسألك عما أصنع وعما أريد؛ فإني لا أدري ماذا أصنع، ولا اعرف ماذا أريد.

قال الراهب الشيخ في صوت يملؤه الحنان والحب: لقد تعجلت نفسك يا بنيّ، وكنت خليقاً ان تستأنسي وتصطنع الريث! فإنك صائر آخر الأمر الى قرار ترضاه وتطمئن اليه. ولو قد أقمت بين اهلك ومالك وصديقك لما أخر ذلك ما قدر لك من الانتهاء الى ما يطمئن اليه قلبك الذي لا بد له من ان يطمئن، والى ما تستريح اليه نفسك الحائرة، ويخرج به عقلك من الشك الى اليقين.

انك يا بني لست من هؤلاء الناس الذين تفرض عليهم الحيرة ضربة لازب، وينفقون اعمارهم في الشك الذي يهلك النفوس، او الذي يقلقها ويعنّيها، او الذي يضطرها الى التهاون والاستمتاع باللذات. لست من هؤلاء في شيء؛ ولكنك من الذين فطروا على الحزم والعزم، الذين لا يشكون الا ليستيقنوا، ولا يقلقون الا ليطمئنوا. فأقل عليك اللوم، واطمئن الى الراحة في هذا المكان الهادىء البعيد،

وارسل نفسك على سجيتها، ودَعها تفكر ما وسعها التفكير، ودعها تشك ما امتدت لها اسباب الشك؛ فلست اخشى عليها من هذا كله شيئاً.

قال الفتى: ما سمعت كاليوم كلاماً احسن موقعاً في النفس، ولا ايسر مسلكاً إلى القلب، ولا أقدر على تهدئة الضمير. لقد كنت أريد أن أفرّ بعقلي من قيصر وطغيانه، فإني الآن قد فررت إليك من عقلي وجموحه. فأشعرْ نفسي هذا الهدوء الذي تعرف كيف تذيعه في النفوس، وأزلْ عني هذا الاضطراب الذي لا أستطيع عليه صبراً ولا أملك له احتمالا. أرحني من عقلي فقد سئمته وبَرِمت به، وأصبحت له مبغضاً، وعليه مضغناً.

قال الراهب الشيخ: رفقاً بنفسك يا بُني، وإنصافاً لعقلك هذا المسكين الذي تعبث به كما يعبث الطفل بلعبته. لقد كنتَ منذ أيام تحكمه في أمرك كله، وتسلطه على نفسك وعلى كل شيء، وتراه وحده الحكمَ الذي ترضى حكومته، والقاضي الذي لا يردّ قضاؤه. فهأنت ذا قد أصبحت ترفض عقلك رفضاً، وتنبذه نبذاً، وتأبى صحبته. لقد كان عقلك يتمرد عليك، فأصبحت أنت تتمرد على عقلك. أليس من الممكن أن تجد لنفسك طريقاً وسطاً، وأن تصاحب عقلك مصاحبة الصديق للصديق لا مصاحبة العبد للسيد؟

قال الفتى: وهل إلى ذلك من سبيل؟ لقد كلفني عقلي ما لا أطيق. ما عرضت عليه شيئاً إلا شك فيه، ولا دعوته إلى شيء إلا ارتاب به، ولا رغبته في شيء إلا رغب عنه، حتى بغض إليّ كل شيء وزيّن في قلبي حب الموت. ولقد رأيتني يوم أقبلتَ أنت إلى المدينة أقرأ «فيدون» تهيؤاً للموت. ولولا أن بيان أفلاطون شغلني عن نفسي وعن الموت، لما حمدت عاقبة ذلك الشك الذي كنت فيه.

قال الراهب وهو يضحك: فإن أمرك يا بُني لا يخلو من فُكاهة. ما أسرع ما فرّقت بين نفسك وعقلك! وما أسرع ما أنشأت بينهما هذه الخصومة، كأنهما شخصان مختلفان قد أصبح كل منهما لصاحبه عدوّاً!. ومع ذلك فأين الحدود التي تفرّق بين هذين الشخصين؟! إن عقلك يا بني هو الذي يتحدّث الآن، وهو الذي كان يتحدّث أمس. قد كان عقلك مسرفاً في الإيمان بنفسه فكان طاغية متمرداً، ثم هو الآن مسرف في الارتياب بنفسه فهو ذليل مستكين. وكلتا الحالتين مرض يجب أن تبرأ منه لتنتهي إلى هذه المنزلة الوسطى، فتؤمن بعقلك إلى حدّ، وتجحد سلطانه

إلى حدّ ، وتأخذه بما ينبغي من التواضع الذي يتيح له الفهم والتفكير وإصلاح أمرك في الحياة،ويتيح لنفسك الإيمان واليقين وهذا النحوَ من الغذاء الروحي الذي لاتستطيع أن تحيا بدونه .

والأمر بينك وبين عقلك ، يا بنيّ ، أيسر جداً مما تظن . لم تفكر قط في المعجزات ولم تقف عندها . فلما أظهرتك على أطراف منها اطمأن إليها ضميرك ، ولم يسترح لها عقلك ، فهذا مصدر ما أنت فيه من الاضطراب . ولو قد استطعت أن تلقيَ في رُوعك أن هذه المعجزات التي تخرق العادة وتخالف مألوف العقل من قوانين الطبيعة ليست في نفسها إلا مظاهر طبيعية كغيرها من المظاهر ، إلا أن سلطان العقل لم ينبسط عليها ، لعرفت أن سلطان العقل لم ينبسط ولا يمكن أن ينبسط على كل شيء والله يجري هذه المعجزات على أيدي رسله وأنبيائه ليظهر العقل على أنه ما زال ضعيفاً قاصراً ، وعلى أن علمه ما زال بعيداً ، وسيظل بعيداً عن أن يحيط بكل شيء . فخليق أن يذكر هذا ولا ينساه ، وأن يسلك طريقاً مستقيمة متواضعة إلى ما يريد من الحق ، فإنه هالك إن لم يسلك هذه الطريق . وما أرى يا بنيّ أن أمر هذا العقل سيصلح إلا حين يجري الله المعجزة الكبرى . »

قال الفتى : المعجزة الكبرى ! وما عسى أن تكون ؟

قال الراهب الشيخ : هي هذه التي يفهمها العقل حق الفهم ، ويُكبرها كل الإكبار يفهمها فلا يستطيع لها إنكاراً ، ويكبرها فلا يستطيع عليها تمرداً ولا طغياناً .

قال الفتى : وتظن أن هذه المعجزة واقعة يوماً ما ؟

قال الشيخ : بل هي واقعة ، وما أرى إلا أن وقتها قد أظلّنا ! فإن الله أحب لعباده وأرأف بهم وأعطف عليهم ، من أن يخلي بينهم وبين هذا الطغيان العقلي الذي هم فيه .

ولقد تعهد الله عقل الإنسان ، ينشئه وينميه ، ويعدّه بالقوة شيئاً فشيئاً ، ويُظهر له المعجزات بين حين وحين ، يعصمه بذلك من الغرور، ويحفظه من الطغيان ، ويعدل به عن السبيل الجائرة ، وهو يقدر أن هذا الطفل سيبلغ أشده يوماً ما ، وسيستطيع أن يضع نفسه موضعها وألا يتجاوز بها حدّها ، ولا يخرج بها عن طورها المقسوم لها. فإذا بلغ العقل أشده وانتهى إلى هذه المنزلة من النضج ، أنزل الله عليه السكينة ، وأظهر له المعجزة الكبرى التي تتجه إليه ، وتنفذ إلى أعماقه ، وتضطره إلى الإيمان بها عن فهم وروية ويقين ، لا عن خوف وفزع وإذعان .

قال الفتى ، وقد أخذ منه الشغف والكلف مأخذاً عظيماً كاد يخرجه عن صوابه : وترانا نبلغ هذا الوقت الذي ينضج فيه العقل لفهم هذه الآية الكبرى وحمل هذه الأمانة العظمى ؟

قال الشيخ : فقد نضج العقل يا بنيّ ، وإنه ليدعو هذه الآية بكل ما فيه من قوة وإنه ليتجه إلى السماء اتجاه المتلهف المشوق ، يستنزل منها هذه الآية . ولو استطاع لطار إلى السماء، ولكنه قد فقد جناحيه منذ أهبط إلى هذه الأرض، كما يقول أصحاب أفلاطون ؛ فهو مضطر إلى أن ينتظر رسالة الله ، وإلى أن يصبر حتى يأتيه اليقين .

قال الفتى : وكيف عرفت نضج العقل وقربه من هذا الوقت الذي يخرج فيه من الظلمة إلى النور ، ومن القلق إلى الاطمئنان ؟

قال الشيخ : لقد حدثتك ببعض ما رأيت في رحلتي تلك إلى بلاد العرب . وما أرى إلا أن حديثي ذاك قد أدخل على نفسك بعض القلق الذي أنت فيه ، كما أدخلت رحلتي على نفسي هذا القلق الذي انتهى بي إلى هذا الدير .

فانظر يا بني ، كما أنظر ، إلى الناس من حولك ! ألست ترى يأساً من كل شيء ، وضيقاً بكل شيء، وانتظاراً لشيء لا يعرفون ما هو، وطموحاً إلى مثل أعلى يلمحونه ولا يستطيعون تصويره ولا تصوره ؟ ثم انظر إليهم وفكر في أمرهم ، أرأيتهم قد اضطربوا وساءت أحوالهم وفسدت الصلاة بينهم كما تراهم الآن ! إن هذا لشيء يراد يا بنيّ ، وما كان الله ليدفع الناس إلى هذا اليأس المهلك إلا وهو يقدّر لهم رحمة تخرجهم منه ، ويهيىء لهم نوراً يمحو عنهم ظلمته القاتمة .

أقم يا بنيّ معي ؛ فإني لا أقيم في هذا الدير عبثاً ، وإني لم أختره دون غيره من الأديار التي تنبثّ غير بعيد من مدينتنا إلا ولي في اختياره أرب .

قال الفتى : وما ذاك ؟

قال الشيخ : هو هذا النبأ الذي أنتظره ، وما أشك في أنه سيبلغني أو في أن بشائره ستبلغني عما قليل . أقمْ يا بنيّ ! لقد رأيت بشائر هذا النبأ يتبع بعضها بعضاً في تلك البلاد التي أقمت فيها أعواماً . وما أشك في أن هذه البشائر ستتجاوز هذا الوجه من أقطار الأرض وستبلغنا . ولو استطعت أن أقيم في البلاد التي ظهرت فيها تلك الآيات لما زُلت عنها ، ولكنها ليست لي بوطن ! فأنا أقيم منها غير بعيد ، وأنتظر أنباءها من يوم الى يوم . ولقد حدّثت بأحاديثها الى رهبان هذا الدير ، فاضطربوا لها كما تضطرب لها أنت الآن ، وكما اضطربت لها أنا من قبل . ومنهم شاب

آرامي من أهـــل الجزيرة استخفته هذه الأحاديث ؛ فلم يملك نفسه ولم يستطع أن ينتظر كما ننتظر في هذا الدير المطمئن ! ولكنه ارتحل عنا ، وأمعن في الصحراء الى أقرب موضع ممكن من هذه البلاد ! واتخذ لنفسه هناك صومعة يقيم فيها ، قريباً من الجادة حيث تمر القوافل التي تحمل إلينا تجارة تلك الأرض ، يريد أن يسبقنا الى العـلم بهذا النبأ العظيم . وقد عوّدنا إذا مرت عليه القوافل فسألها واستقصى أخبارها ، أن يزورنا فيحدثنا بما سمع وبما نقلت إليه القوافل . وإنه ليحدثنـا بالأعاجيب يا بنيّ ، وإن موعد زيارته قد أظلنا ! فهذا أوان مرور القوافل في تجارتها الى أرض الشام . وما أراك ستطيل المقام هنا قبـل أن ترى بحَيرَى مقبلاً علينا بأخبارها ينثرها بيننا فرحاً ، مرحاً ، مبتهجاً ، كأنه الفتى الكريم ، يجد اللذة كلها في أن يهب النـــاس ما جمع من ماله .

أقم يا بنيّ ! لقد كان عقلك ينكر المعجزات ، ويزعم أنه لن يؤمن حتى يرى . فسيرى عقلك يا بنيّ . سيعيش في عصر المعجزات . وسيكون حظك خيراً من حظي ومن حظ أمثـــال الذين تقدمت بهم السن . سنرى نحن البشائر وقد لا ندرك جلية الأمر . أما أنت فسترى البشائر كما تراها ، وقد تبلغ من صريح الأمر ما لا نبلغ ، وتنال من الفوز ما لم يقدر لنا أن ننال .

قال ذلك وانهلت من عينيه عبرات غزار احتبس لهـــا صوته في صدره . فنهض الفتى إليه وقبله وفداه ، وما زال به حتى عاد الى ما كان عليه من الهدوء والوقار . فقال في صوت مطمئن : انتظر يا بنيّ ! فليأتينك النبأ غداً أو بعد غد . وإذا بلغت ما لم نبلغ وانتهيت الى ما لم ننته نحن إليه ، فاذكرنا من حين الى حين ، وقل لنفسك إنّا كنا نتحرّق شوقاً الى بعض ما تجد من راحة أو نعيم .

- ٧ -

وقد أقام الفتى في هذا الدير أياماً طوالاً ، مضطرباً بـــين شك يقسو عليه حتى يكاد يهلكه ، واطمئنان يشيع في نفسه حتى يفتح له إلى الأمل أبواباً عراضاً . يخلو إلى نفسه ويعرض أمره ، فيظهر له مظلماً قاتماً وبشعاً منكراً ! يوئسه ، أو يكاد يوئسه من كل شيء ، ويسلط عليه من شياطين الحيرة ما ينغص عليه يقظته ، ويذود

عنه نومه ، أو يفسد عليه أحلامه إن غلبه النوم .

وكان يفزع من هذا الشك أحياناً الى كتب الفلاسفة ، يطيل النظر فيها والوقوف عندها ، فلا يبلغ من مصاحبتها ومعاشرة أصحابها شيئاً . ومع ذلك فقد كانت هذه الكتب ، فيما مضى من حياته ، غذاء لنفسه وقلبه وعقله ، يجد فيها من اللذة ونعمة البال ما لا يشبهه إلا ما كان يجده صاحباه من اللذة في عبادة أولئك الآلهة القدماء بما كانوا يحبون أن يعبدوا به من ألوان اللهو والعبث والمجون . وكان يفزع من هذا الشك أحياناً الى الكتب المقدسة ، يطيل النظر فيها ، والوقوف عندها ، فيفهم أحياناً ، ويعجز عن الفهم أحياناً أخرى ، ولا يطمئن قلبه في حال من الأحوال .

كانت نفسه تحدثه بأن وراء هذه المعجزات التي تمتلىء بها التوراة والإنجيل وقلوب الناس وأحاديثهم ، حقاً لا ينبغي أن يكون فيه شك . ولكن عقله كان عاجزاً عن أن يسيغ هذه المعجزات ، أو يحسن الإذعان لها والرضا عنها . فكان الفتى مقسماً ، إذا نظر في الكتب المقدسة ، بين إيمان يشيع في قلبه ويدعوه الى الرضا والاطمئنان ، وشك يشيع في عقله ويدعوه إلى التمرد والجموح . وكان يجد في هذا التناقض بين قلبه وعقله ألماً لاذعاً عميقاً عنيفاً ، زهده في كل شيء ، ويكاد ينتهي به الى الجنون أو ما يشبه الجنون .

هنالك كان يفزع من قلبه وعقله ، ومن كتب الفلاسفة وأسفار الدين ، الى حنان ذلك الراهب الشيخ ، فيجد عنده بعض ما كان يحتاج اليه من الراحة وهدوء البال ، ويجد عنده هذا الحب الذي يُشعره الشجاعة والصبر ، ويذكي في نفسه جذوة الشوق الى هذه البشائر التي كان يسمع عنها ولا يراها ، ويتحرق شوقاً اليها ولا يجد ما يخفف لوعته أو ينقع غُلته .

وإنه لمع أستاذه الشيخ ذات يوم ، وقد اصفرّ وجه النهار ، وشاعت الكآبة فيما يحيط بهما من الحياة والأحياء ، وهدأت لذلك نفوسهما ، كأن هذا الحزن الشائع الهادىء قد مسهما بجناحه فأشاع فيهما شيئاً من الكآبة والهدوء انخفضت له أصواتهما شيئاً ، فهما يتحدثان حديثاً يشبه الهمس ، ولو استطاعا لآثرا الصمت ، وليبلغ كل منهما قلب صاحبه من طريق هذا الصمت العميق ! ولكنهما كانا يتحاملان ويتكلفان الحديث ، وقد كاد السأم يبلغ نفس الراهب الشيخ الذي كان لا يعرف سأماً ولا مللاً ، والذي كان يذود عن صديقه الشاب كل سأم وكل ملل . ولكن انتظارهما قد طال وأسرف في الطول ، ولم يأتها النبأ الذي كانا ينتظرانه ، ولم يزرهما بحيرى الذي كان خليقاً

أن يزورهما منذ عهد بعيد ! فقد مرّت القوافل إلى الشام ، وليس من شك في أنها قد أمعنت في بلاد الروم ، فباعت واشترت وعادت إلى أوطانها ، ولم يأت بحـيرى ولم يأت من نبئه قليل ولا كثير – أقول : إنهما ذات يوم لفي هـذا الحديث الشاحب الكئيب ، وقد كاد السأم وطول الانتظار ينتهيان بهما إلى اليأس ، وإذا ضجيج يـدنو منهما ، وإذا هما يُنصتان كأنما يريدان أن يتعرفا مصدره . ولكن الضجيج يدنو حتى يبلغ الدير ! وينهض الشيخ وصاحبه الفتى ليعرفا من أمره ما يجهلانه ! فما أسرع مـا يمتلىء قلب الشيخ إيماناً ورضا ! وما أسرع ما يضطرب قلب الفتى إشفاقاً وخوفاً !

هذا بحيرى قد أقبل ، ولم يقبل وحده، وإنما أقبل معه عدد غير قليل من الناس ، وقد أهمهم أمر ذو بال ! فهم يلغطون في كثير من الدهش والحيرة ، منهم من ينكر ، ومنهم من يعرف ، منهـم من يرضى ، ومنهم من يسخط ، وأهل الدير يسألون ويستنبطون فلا يظفرون من الجواب إلا بهذا اللغط الذي تختلط فيه المعرفة والإنكار، والتصديق والتكذيب ، والشك القاتم واليقين المشرق . فأما بحيرى نفسه فقد كان خارجاً عن طوره ، يأتي من الحركات بيده ووجهه وجسمه كله ما لم يتعوّد أهل الدير الإتيان به .

وكان كلما دنا من الراهب الشيخ ازداد هيامه وتولهه ، حتى إذا رآه عدا إليـه عدواً ، ولم يكد يبلغه حتى ألقى نفسه بين ذراعيه ، وجعـل يضمه ويقبله ويقول في صوت يقطعه البكاء ويبلله الدمع الغزير : لقد رأيت ! أقسم لقد رأيت ! أشهد بالمسيح والصليب لقد رأيت ! لقـد رأيت واقتنعت . لن يبلغ نفسي الشك بعد اليوم . لقـد رأيت ! أقسم لقد رأيت !

والراهب الشيخ ، يهدئه ويبارك عليه ، ويسأله عما رأى ، ويدعوه إلى أن يقـلل من هذه الأيمان ، ويخفف من هذه الحدة ، ويردّ نفسه إلى صوابها واطمئنانها شيئاً ، ويحدّثه بجلية ما رأى وخلاصة ما اقتنع به . وما يزال الراهب الشيخ بهذا المتـوله الهائم حتى يرد عليه بعض الهدوء ، ويظفر منه وممن حوله بشيء من الأناة والوقار .

ثم يسأل الراهب الشيخ صاحبه بحـيرى ، وقد اطمأنت نفسه أن يقص عليه بدء حديثه .

فيقول :

من شاء فليشكّ ، ومن شاء فليستيقن . أما أنا فلن يجد الشك إلى نفسي سبيلاً بعد اليوم . لقد تأذّن الله بأن كل شيء من حولنا سيتغير . فطوبى للذين يبلغون الآية الكبرى ! وطوبى الذين يرونها فتقبلها قلوبهم مطمئنة إليها ، وتقبلها عقولهم مؤمنة بها ؛ ورحمة للذين تقصر بهم آمالهم عن بلوغ هـذا الوقت السعيد ؛ والويل كل الويل للذين يرون ثم لا يؤمنون !

قال الراهب الشيخ : فحدثني يا بني بما رأيت ، حتى إذا فرغت من حديثك فكن كما شئت مبشراً ومنذراً .

قال بحيرى : لقد رأيته ، ما يبلغني في ذلك شك ، وما يمسّني فيه ريب .

قال الشيخ : من هذا الذي رأيته ؟

قال بحيرى : هو الذي سيغير من حولنا كل شيء . وهو الذي سيتم ما جاء بـه الأنبياء والرسل . هو الذي سيحقق ما بشرت به الكتب المقدسة . هو الذي سيصدق ما امتلأت به التوراة والإنجيل .

وكان الذين يسمعون هذا الحديث قد أخذت عليهم ألبابهم واختلطت عليهم أمورهم؛ فكانوا يسمعون ومنهم الشاكّ المرتاب ، ومنهم المشوق إلى التصديق المشغوف بالإيمان ، الذي لا ينتظر إلا أن تهدأ عن هذا المتحدث ثورته ، فيفصح عما في نفسه ويعرب عما يريد أن يقول .

وكان الراهب الشيخ والفيلسوف الفتى قد بلغا من هذا الشوق أقصاه حتى كأنها استحالا شوقاً خالصاً .

فلما طال على الراهب الانتظار ، وكاد يفقد الصبر ، قال لصاحبه بحيرى وهو يتكلف الأناة والهدوء : مهلاً يا بُنيّ ! إن كنت تريد أن نصدقك فاقصص علينا أمرك ! فإن إطالة التشويق توشك أن تنتهي بك وبنا إلى اليأس المهلك !

قال بحيرى : إنك لتعلم لماذا تركت هذا الدير منذ عهـد بعيد ، ولماذا أمعنت في الصحراء حتى اتخـــذت صومعتي في أقرب مكان من هذه البلاد التي حدّثتنا عنها بالأعاجيب . لقد أقمت في هذه الصومعة كما تعلم ، أنتظر من أنباء تلك البلاد ما كنتَ

تنتظر ، وأترقب من أخبارها ما كنتَ تترقب . وإنك لم تكذبني فيما نقلت إليك من أحاديث الناس عما حدّث في تلك البلاد بعدك من أحداث ، يرونها ولا يفهمونهـــا ، ويتناقلونها ولا يستطيعون لها تفسيراً،ولكنهم،إذا رأوا منها شيئاً أو سمعوا من أخبارها طرفاً ثم أعياهم الفهم والتأويل ، قالوا : إن لهذا لشأناً .

ولقد كنت أحدثك بما أسمع من الأعاجيب ، فكنت تقول وكنت أقول معك كما يقول هؤلاء الناس : إن لهذا كله لشأناً . ولكنك أنت كنت تعلم هذا الشأن . ولكنني أنا كنت أعلم هذا الشأن ! لأننا نجده عندنا مكتوباً في الكتب . ولأننا نجد علمه عندنا موروثاً عن الأحبار والرهبان .

ألسنا ننتظر أن يظهر في تلك البلاد رجل يتم الله على يده ما بدأ من رسالته الى الناس ؟!

قال الراهب الشيخ : بلى !

قال بحيرى : فاني اقسم لقد رأيته !

قال الراهب وهو يهز رأسه وقد ظهر على وجهه الشك المؤلم :

- ما ارى يا بني الا أنك قد اخطـأت او خُدعتَ!فان اوان هذه الرسالة لم يأت بعد وان كان قريباً .

قال بحيرى : ومن زعم لك ان أوان هذه الرسالة قد آن ؟!

قال الراهب الشيخ : الم تنبئني أنك قد رأيته ؟!

قال : بلى! قد رأيته ، اقسم لك رأيته . ولكنه ما زال صبيّاً لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره المبارك بعدُ .

قال الراهب وقد اشرق وجهه : اما الآن فعسى ان تكون مصيباً . استطيع ان اسمع لحديثك . كيف رأيته وكيف عرفته ؟

قال بحيرى : لقد رأيته ولقد حميته . بل مـــاذا اقول ! غفرانك اللهم ، فأنت وحدك الذي تملك حمايته وتبلغ منها ما تريد حتى يُتم امرك ، ويبلغ رسالتك الى الناس.

قال الراهب الشيخ : قل لي يا بني ، فقد شققت علينا وكلفتنا اكثر مما نطيق.

قال بحيرى : انشدك الله ، ألسنا نعلم انـه سيولد في تلك الأرض التي كان فيها ما حدّثنا به من امر الفيل ؟!

قال الراهب الشيخ : بلى !

قال بحيرى : انشدك الله ، ألسنا نعلم انه سيولد يتيماً يموت عنه ابوه وهو جنين؟!

قال الراهب الشيخ : بلى !

قال بحيرى : انشدك الله ، ألسنا نعلم ان احداثاً عظاماً ستحدث يوم مولده يحسها الناس ولا يتبينونها ؟!

قال الراهب الشيخ : بلى !

قال بحيرى : ألسنا نعلم انه سيفقد امه ولما يتجاوز السادسة من عمره !

قال الراهب الشيخ : بلى !

قال بحيرى : ألسنا نعلم انه سيفقد جده ولما يتجاوز السابعة من عمره ؟!

قال الراهب الشيخ : بلى !

قال بحيرى : ثم ألسنا نعلم انه سيظل في كفالة عم له يحميه ويرعاه حتى يبلغ اشده ، ثم يقوم دونه حين يجدّ الجدّ ويتألب عليه عدوه من المشركين ؟.

قال الراهب الشيخ : بلى . كل هذا نقرؤه فيما نقرأ من كتبنا ، او نتوارثه فيما نتوارث عن احبارنا ورهباننا .

قال بحيرى : ثم ألسنا نعلم آخر الأمر ان الله قد ميزه من غيره من الناس بعلامة مادية ترى وتحس ويعرفها الراسخون في العلم ولا يرتاب فيها الا المبطلون او الجاهلون؟.

قال الراهب الشيخ : بلى . هي هذا الخاتم بين كتفيه .

قال بحيرى: فاذا حدّثتك بأني قد رأيت هذا الصبي، وأريته مع عمه هذا الذي يكفله ، وعرفت أن اسم هذا الصبي محمد، وان اسم ابيه عبدالله ، وان اسم جده عبد المطلب، هذا الذي رأيته أنت عند أبرهة وحدّثتنا من انبائه بما تعلم .

قال الراهب الشيخ وقد اضطرب لهذا الحديث أشدّ الاضطراب : وإنك لتزعم انك قد رأيته ؟!

قال بحيرى : اللهم اشهد اني رأيته ، ورأيته مع عمه ابي طالب ، وعلمت ما حدثتك به من ان اباه قد مات عنه جنيناً ، وعلمت ما أشرت إليه من ان امه قد ماتت عنه في بعض الطريق ولما يتجاوز السادسة من عمره، وعلمت انه عاد إلى وطنه تكفله امة ورثها عن ابيه فبلغته مأمنه وردته إلى جدّه الذي كفله وحماه. ثم علمت ان جدّه هذا قد مات عنه واوصى به إلى عمه ، وان عمه قد قام دونه يكلؤه ويرعاه ويؤثره على ولده ، وان الصبي يبادله حباً بحب ويجزيه حناناً بحنان . ولقد حدّثني عمه انه خرج في تجارته مع قومه ، فكان يجد الماً مبرحاً لفراق هذا الصبي ، ولكنه كان يشفق عليه من مشقة السفر وجهد الطريق . فلما كان اليوم الذي فصلت فيه

القافلة تعلق الصبي به وجعل يتوسل إليه في ان يستصحبه ، ويزعم له انه لا يستطيع المقام إلا في كنفه ! فصادف دعاء الصبي هوى في نفس الشيخ فاستصحبه ، ومرّ به على صومعتي فيمن مرّ من قومه وهم يقصدون قصد الشام .

قال الراهب الشيخ وقد بهره ما سمع وقد اطرق القوم من حوله سكوتاً كأنما عُقدَت ألسنتهم فلا يستطيعون أن يديروها في أفواههم : ولكن كيف عرفته ؟ وكيف اهتديت إلى مكانه من قومه ؟

قال الراهب : فهذه هي الآية التي ستقنعك كما اقنعتني ، وستزيل عن نفسك الشك كما محته من نفسي محواً . انشدُك الله اتعلم اني عندك صادق ثقة مأمون ؟

قال الراهب الشيخ : اللهم نعم !

قال بحيرى : نعم رأيت هذا ، ولكنني رأيته وحدي ، لم يره احد من اولئك الذين كانوا يصحبون الصبيّ . فإذا حدّثتك به فإنما احدثك بما رأيت وبما لم ير غيري من الناس . فأما هؤلاء فقد ظنوا بي الظنون واما انت ....

قال الراهب : فما انكر شيئاً مما تقول .

قال بحيرى : واعجب من هذا اني كنت قد انبئت بما رأيت ! قد ألقي ذلك في رُوعي اثناء النوم في صورة مجملة غامضة ، ولا اكاد اتبين منها إلا اني احسست في تلك الليلة ان سيحدُث لي حدث ذو بال إذا كان الغد . فأصبحت وإني لأنتظر شيئاً ، واضحيت واني لمستيقن انّ سيحدث لي بعض الأمر . وما هي إلا ان يرتفع الضحا وإذا انا اطلع من اعلى الصومعة فأرى ما يملؤني روعة وروعاً : ارى هذا الصبيّ ينفرد بهذا الظل دون ان يشعر بذلك احد ، ودون ان يلتفت هو نفسه إليه ، او يشعر به ، حتى إذا دنت القافلة وحطت رحالها ، جعل الصبي كلما انتقل انتقلت معه سحابته تلك ، تُظله وتقيه حرّ الشمس ، ولا يشعر بذلك احد ، ولا يفطن لذلك إنسان . وأسأل من حولي : أيرون ما ارى ؟ فإذا هم كغيرهم من الناس لا يرون . وادعو القوم إلى طعام قد اعددته لهم لما رأيت ، ولما كان قد ألقي في رُوعي ! فكلهم يستجيب لدعوتي إلا هذا الصبيّ ، فإنهم يخلفونه في رحالهم . فأسأل وألح في السؤال ، حتى أعلم أنهم قد حضروا جميعاً طعامي إلا هذا الغلام ، فألح في حضوره فيحضره القوم ، وإنهم ليتلاومون على أن خلفوه ! حتى إذا رفع القوم أيديهم عن الطعام ، أخذت أحتال حتى أخلو الى الشيخ الذي يصحب هذا الصبيّ . فما أزال أسأله وأستقصي أمره ، حتى أعرف من حال الصبيّ ما حدثتك به . ثم أتحدّث الى

الصبي نفسه ، فيا للوجه المشرق المطمئن يُنبىء عن نفس مشرقة مطمئنة ! ويا للصوت العذب ينبىء عن خُلق عذب ! ويا للحديث الكريم ينبىء عن قلب كريم ! وإني لأسأل الصبي وأستحلفه بأوثان قومه ، فلا أرى منه إلا نفوراً وازوراراً ، وإذا هو ينبئني بأنه لم يبغض شيئاً قط كما يبغض هذه الأوثان . فأستحلفه بالله ليصدُقني الحديث فيما أسأل عنه ، فيجيبني الى ما أردت . وأنا اسأله امره ، جليَّه وغامضه ، وعما ينبغي ان يحدث له يقظان ، وعما ينبغي ان يحدث له نائماً ، وعما ينبغي ان يحدث له مجتمعاً الى الناس ، وعما ينبغي ان يحدث له خالياً الى نفسه ، فلا يجيبني إلا بما كنت أنتظر ان يجيبني به .

هنالك لم يبق في نفسي إلا ان ارى هذه الآية المادية بين كتفيه ، فأنظر فأرى فأقبل هذا الخاتم الكريم . وقد امتلأ قلبي حبّاً للصبي ، وبرّاً به ، واشفاقاً عليه من يهود ؛ فإنهم يعرفون من انبائه مثل ما نعرف ، وينتظرون من امره مثل ما ننتظر ، ولكنهم يشفقون منه ويريدون به السوء .

وإذا انا أتقدّم الى عمه الشيخ ان يعود به ادراجه ، وأن يبالغ في حمايته وحياطته وصيانته من كيد يهود .

واذا الشيخ يسمع لي في غير تردّد ، ويستجيب لي في غير مشقة ، ويعود ادراجه بالصبيّ ، ينتحل لذلك العلل والمعاذير ، ويكل الى بعض قومه ان يخلفه في تجارته .

ثم يطرقُ بحيرى شيئاً كأنه يفكر فيما يريد ان يقول ، وكأنه يريد أن يكره نفسه على كتمان بعض الأمر ، ولكنه يعجز عن هذا الكتمان ، ويرفع رأسه الى الراهب الشيخ ويقول في صوت هادىء مطمئن : ولم يكد الشيخ يعود ادراجه بالصبي حتى يقبل عليّ هؤلاء – ويشير الى بعض من صحبه – يلومونني اعنف اللوم ، ويشاورونني في البغي على هذا الصبيّ . ولكن الله قد تأذّن ليعصمنه من كل شرّ ، وليحمينه من كل مكروه . ولولا ذلك لما رددتهم عما كانوا قد دبروه .

قال الراهب الشيخ : ما ارى يا بنيّ إلا انك قد حدّثتنا حديثاً صدقاً ! فطوبى لهذا الصبي ! وطوبى لمن يصحبه ! وطوبى لمن يدرك عهده ويؤمن به ؛ وطوبى لك فقد رأيت ما لم نر ، وكنت موفقاً حين أبيت إلا ان تسبقنا الى اعماق الصحراء ، لتسبقنا الى العلم بأنبائها . ثم التفت الى صديقه الفيلسوف الشاب فإذا هو واجمٌ مغرق في الذهول ، فيمس الراهب الشيخ كتفه كالمنبه له ، ثم يسأله : أسمعت ؟

قال الفيلسوف الفتى : نعم !

قال الراهب الشيخ : فماذا ترى ؟ وماذا تقول ؟ .

قال الفيلسوف الفتى : فإني استأذنك واستأذن هذا الأخ الكريم في ان اترك هذا الدير إذا تركه ، وفي ان اعيش معه في صومعته ، لأنتظر معه انباء الصحراء ؛ فإن انباء الصحراء هذه هي التي ستمحو عني من الشك ، وتؤمنني من الخوف ، وتدنيني من اليقين .

- ٩ -

قال بحيرى وهو يبتسم : اسبقني ايها الأخ الكريم إلى الصومعة إن شئت ، فأقم فيها ما احببت ، وانتظرني ما وسعك الانتظار ! فقد اعود إليها وقد لا اعود .

قال الراهب الشيخ: ما افهم علك منذ الآن يا بحيرى ! اصادفٌ انت عن الصومعة وصارف انت نفسك عن انباء الصحراء بعد ان انتهت إليك تباشيرها ؟ وما احسب إلا انها ستتواتر ، وسيتبع بعضها بعضاً في غير انقطاع ، حتى يبلغك النبأ العظيم ، إن امتدّت بك الحياة إلى ان يأتي النبأ العظيم .

قال بحيرى : إني لأحمق إن أقمت في هذه الصومعة انتظر الأنباء في طرف من اطراف الصحراء ، وانا اعلم اين مستقر هذه الأنباء ، واين دار الأمن والرحمة ومهبط الوحي والرسالة . ولقد همّت نفسي ان اصحب الشيخ وابن اخيه إلى مكة فأقيم معهما ولكن الله قد صرفني عن ذلك صرفاً عنيفاً لأمر يراد ، فتردد خاطره في قلبي ، ولكن لساني لم ينطلق به . ثم مضى الشيخ وابن اخيه ، ونازعتني نفسي إلى ان اتبعهما وألحق بهما ، ولكني صرفتُ عن ذلك صرفاً عنيفاً لأمر يراد . وما ارى إلا ان الله يريد ان يحفظ على الصحراء سرّها مكنوماً مستوراً لا يظهرنا منه إلا على ايسره واهونه ، إلا على هذا الذي يطمعنا فيه ويشوقنا إليه ، ولا يدنينا منه ، ولا يبلغنا جليته . ولولا ذلك لما انعقد لساني حين هممت ان اعرض صحبتي على الشيخ . ولولا ذلك لما صرفت ركائبي إلى هذا الدير حين هممت أن أوجهها إلى جوف الصحراء .

قال الراهب الشيخ : فأنت تعلم يا بنيّ أن الله يظهرك على هذا الأمر قبل إبانه ، وتريد مع ذلك أن تمانع ما عرفت من تدبير الله !

قال بحيرى : الله يعصمني من أن أمانع تدبيره ، وأخالف عن أمره ، أو أتمرد على

على قضائه . ولكن الصومعة لم تصبح لي منزلاً ولا مقاماً ، وإن لي في العراق لأرباً . وإنك لتعلم أن صديقنا « نسطور » ينتظر من الأنباء هناك مثل ما كنت تنتظر أنت هنا ؛ لأنه يتوقع من الأمر مثل ما تتوقع وإني لخليق أن أسرع إليه كما أسرعت إليك ، فأنبئه بمثل ما أنبأتك به . وما أدري بعد ذلك أعود إلى الصومعة أم أمعن في أرض العرب ، لعلي أقرب من مكة . فأقيم منها بحيث تبلغني الأنباء ، وتنتهي إلي البشائر ، في وقت أقصر من ذلك الوقت الذي كانت تبلغني فيه وأنا مقيم بهذه الصومعة في طرف من أطراف الشام . فإن شاء هذا الأخ الكريم أن يسبقني إلى الصومعة فذلك له ، وإن شاء أن ينتظر عودتي إليك إن عدت ليصحبني إلى الصومعة فذلك له .

قال الفيلسوف الفتى : وإن شئت أن أصحبك إلى صديقك « نسطور » ، وأن أشاطرك ما تدبر من المخاطرة والمغامرة .

قال بحيرى : فذلك لك . ولكنك رجل من الروم ، والأمر بين من في العراق ومن في الشام على ما تعرف من الفساد والنكر . ولست آمن أن تتعرّض لبعض الشر أو يلمّ بك بعض المكروه . فأما أنا فليس عليّ من ذلك بأس ! لأني من أهل العراق أسير سيرتهم ، وأتكلم لغتهم ، وأنا بعدُ معروف بكثرة الرحلة والتنقل في أطراف الأرض ، مأمون على أمر القوم ، لا يتهمونني ، ولا يشفقون مني على شيء .

قال الفيلسوف الفتى : فإنك قد أمعنت في أرض الروم ولم تلق كيداً : فدعني أصحبك إلى أرض الفرس ، فلعلي أن أجد فيها من الأمن مثل ما وجدت أنت في هذه البلاد . ولا بأس عليك إن كانت الأقدار قد أرصدت لي بعض ما يكره الناس ويخافون ؛ فإني لا أكره شيئاً ولا أخاف شيئاً ولا أحب شيئاً كما أحب الخروج من أرض قيصر .

قال بحيرى : فهيء نفسك إذاً للرحلة ؛ فإن الصبح لن يجدنا في هذا الدير .

قال الراهب الشيخ في صوت حزين : فأما أنا فليس يعنيكما من أمري قليل ولا كثير ، أنا الذي فتح لكما أبواب الأمل ، وهداكما إلى طريق النجاة هذه التي تبتدئان سلوكها وأرجو أن تبلغا آخرها . ثم هأنتما هذان تنصرفان عني مسرعين ، كلا كما يؤثر نفسه بالخير والعافية ، وليس منكما من يفكر فيمن يترك وراءه من الخليل والصديق.

قال الفيلسوف الفتى وهو يقبل صديقه الشيخ : إن شئت فاصحبنا ، فما يمنعك من ذلك وما تردّك عنه . ولكنك حين أقبلتَ على هذا الدير قد تركت وراءك أصدقاء لم تحفل بهم ولم تفكر فيهم. فأنت قد سننت لنا هذه السنة ، وفتحت لنا هذه الطريق.

قال الراهب الشيخ : فإني لا أنكر عليكما شيئاً، ولا ألومكما في شيء ولو استطعت لكنت ثالثكما ، ولكنّي مقيم هنـــا حتى يأتي أمر الله ؛ فامضيا راشدين . واذا لم يقدّر لنا اللقاء في هذه الأرض فلا اقل من ان نطمع عندكما في مودة القلب ووفاء الضمير .

واسفر الصبح فلم يجد هذين الشابين في الدير ، وإنما وجد الراهب الشيخ وحيـــداً مطرقاً مغرقـــاً في التفكير ، كأنما ارسل نفسه لتشييع صاحبيه ، وهو ينتظر ان تعود إليه .

- ١٠ -

ولست ادري بماذا رجعت نفس الشيخ إليه بعد ان انصرفت عن صاحبيه وقـــد امعنا في الصحراء . ولكنها لو اطلعتْ على ضمير كلكراتيس ثم حدّثت الشيخ بما رأت لأثارت في قلبه حزناً شديداً ؛ فقد امعن الرفيقان في سفرهما البعيد ، مستبشرين اول النهار ، قد غمرهما نوره المشرق الذي ملأ الصحراء حتى امتزجا به امتزاجاً ، واحس كل منهما كأن نفسه ليست إلا قبضة من هذا النور القوي الخفيف قد شاعت في عقله وقلبه وجسمه ، فإذا هو فرح مرح ، يندفع امامه لا يلوي على شيء . ولولا فضل من وقار لانطلق لسانه بالغناء . وما له لا يفعل وكل شيء من حوله مشرق ، مبتهج يتغنى او يدعو الى الغناء !

ولكن الضحا يرتفع ، وحرارة الشمس تبلغ جسم هـــذين الرفيقين وتثقل عليهما وتردّهما إلى شيء من الأناة والروية ، وإذا نفس الفيلسوف الشاب تتقبض قليلاً قليلاً ، ويدنو بعضها من بعض حتى تنحاز إلى مكانها من رأس صاحبها او من قلبه ، مـــن جسمه على كل حال ، فهي كائن ممتاز لا يشيع في الفضاء ولا يمتزج بما حوله ، وإنما هو في حيزه الذي قسم له . يحس نفسه ويفكر فيها ويعكف عليها ، ويستحضر من امره ما مضى ، ويريد ان يستعرض من امره ما لم يتكشف عنه الغيب بعدُ .

واذا الفيلسوف الشاب يذكر بدء قصته ، وينتهي الى هذا الحديث الطريف الغريب الذي سمعه من بحيرَى حين آذنت شمس الأمس بالغروب ، فأذهله عن نفسه ، وأرّقه بقية ليله ، وأزعجه عن الدير وعن صديقه الشيخ ، كما أزعجه حديث ذلك الشيخ

منذ حين عن صديقه وأهله وعن مدينته التي استقبل فيها الحياة وعرف فيها لذّات الشباب .

وقد كان هذا كله خليقاً أن يدفع كلكراتيس الى بعض الحديث ؛ فإن هذه العواطف المضطربة والذكريات القوية المختلفة قلما ترضى بالكتمان أو تطمئن الى السكوت . ولكن الفتى أغرق في صمت غامض عميق ، ظاهره استقرار النفس وهدوء البال ، ومن ورائه صراع عنيف ، بين قلب يشرق فيه نور اليقين فيملؤه رجاء وأملاً ، وعقل تكتنفه ظلمة الشك فتدفعه الى القنوط واليأس دفعاً . فما زال الفتى بعد هذا الذي اختلف عليه من أطوار الحياة ، وبعد ما قرأ في الكتب وما سمع من صديقه الشيخ ، وبعد هذا الحديث الطريف الذي سمعه من بحيرى حين انحدرت الشمس الى مستقرها الغربي أمس — ما زال الفتى بعد هذا كله ، وبرغم هذا كله ، كما كان ، حائراً مضطرباً ، موزّع النفس يكاد يمزقه الصراع بين قلبه وعقله تمزيقاً . قد زهد في آلهته القدماء منذ عهد بعيد ، وتبين له أنه لم يكن يخلص لهم الدين حين كان يعبدهم مع صاحبيه اذا جنّهم الليل في قصر الحاكم ، وإنما كان يتخذ عبادتهم وسيلة الى ارضاء نفسه ، وقضاء مآربه ، وتحقيق لذاته المادية التي كانت تأتيه من اللهو والعبث ، وتحقيق لذة معنوية أخرى كانت تأتيه من هذا الامتياز الذي كان يخرجه عما ألف الناس ، ويمكنه من عصيان قيصر ، والمخالفة على أمر السلطان .

وهو قد نظر الى دين المسيح فأطال النظر ، وفكر فأطال التفكير ، ولكنه أعرض عنه في أول الأمر أشد الإعراض ؛ لأن القانون كان يفرضه ، ولأن السلطان كان يأخذ الناس به أخذاً ، ويبطش بالراغبين عنه والملحدين فيه . وما ينبغي للدين أن يكره الناس عليه إكراهاً ، وأن تفرضه القوة القاهرة على النفوس فرضاً ، وإنما هو ينبوع رحمة وحنان يجب أن تصبو النفوس اليه عن رضا ، وتهوي اليه القلوب عن محبة وشوق .

ثم حدّثه الراهب الشيخ بما حدّثه به من المعجزات التي يقص الإنجيل أنباءها ، وتجتمع قلوب الناس على الإيمان بها والإكبار لها ، ومن هذه البشائر التي رأى أوّلها في رحلته تلك ، وما زالت تتواتر ويقفو بعضها إثر بعض ، حتى كان ما سمعه أمس من رفيقه هذا الذي يسايره مغرقاً مثله في صمت عميق . سمع حديث هذه البشائر ، وتلك المعجزات ، فمال اليها قلبه ، واستراح ضميره ! ولكن عقله ما زال لها منكراً ، وعنها مزوراً ؛ لأنه عقل فيلسوف ، قد نشأ على حكمة اليونان ومنطقهم . ولم يتعود أن

يطمئن الى ما يخرج عما لهذه الحكمة والمنطق من قانون .

كان هذا كله حديث نفس الفتى منذ ارتفع الضحا ، وثقلت عليه حرارة الشمس . وكان يجد في هذا الحديث عناء شديداً ، وهماً ثقيـلاً ! فهو لم يتحدث به الى نفسه مرة ولا مرتين ، وانما كان يتحدث به اليها ويسمعه منها ، مصبحاً وممسياً ، مضطرباً في الأرض ومطمئناً في مضجعه . فلما طال عليه الجهد وبرّح به الألم ، تكلم ،لا راغباً في الكلام ولا منتظراً منه دواء لدائه او شفاء لعلته ، ولـكن ليخرج نفسه من طور الى طور ، وليشغلها عن هـذا الصراع العنيف الأليم بين قلبه الذي يريد ان يطمئن ، وعقله الذي لا يريد ، او لا يستطيع ، ان يتحول عن الشك .

قال كلكراتيس لرفيقه بحيرى : ارأيت لو أني حدثتك بما قصصتَ علينا من انباء هذا الصبيّ العربي أكنت تصدّقني او تطمئن اليّ ؟

قال بحيرى : فان الأمر يختلف اشدّ الاختلاف .

قال كلكراتيس : وما ذاك ؟

قال بحيرى : فاني لا أصدّق الناس جميعاً ، ولا اكذّب الناس جميعاً . وأنا آمن لمن عهدي به الأمانة والصدق ، وأرتاب فيمن عهدي به الخيانة والمين . وللحق بعدُ آياتٌ تـدل عليه ، وعلامات تهدي اليه . ونحن لم نبتكر امر هذا الصبي العربي ابتكاراً ، ولم نخترعه من عند انفسنا ، وانما حفظته الكتب ، وتحدثت به النبوات ، وتناقله الصالحون الصادقون من احبارنا ورهباننا ، يورّثـه بعضهم بعضاً ، ويعهد بانتظـاره بعضهم الى بعض ، ويتواصَوْن بترقبه واستقصاء أنبائه ؛ حتى اذا بدرت بوادره ، وظهرت بشائره ، أقبلوا اليه فمنحوه ما يملكون من نصر وتأييد . ولقد اقبلتُ الى هذا الدير الذي فصلنا عنه منذ حين،واني لأنتظر من هذا الأمر ما انتظر ، وأرقب من اخبـاره ما ارقب . فما هي إلا ان يقبل صديقنا « كلنكسوس » فيقص علينا بدء حديثه ، ونعلم منه مثل ما علمت ، حتى تشيع في قلبي ثقة قوية بأن لهذا الحديث شأنـاً ، فأطير عن هذا الدير الى صومعتي تلك في طرف من اطراف الشام . وما أكاد استقر فيهـا حتى تتواتر اليّ الأنباء ، وتتوالى اليّ الأعاجيب ، ثم ينتهي الأمر بي هذا العام الى ما علمت . وما ادعوك الى تصديق ، وما اردّك عن تكذيب ، وما افرض عليك شيئـاً ، وما احظر عليك شيئاً ، ولكني رأيت فآمنت ، وسمعت فصدّقت ، ثم حدّثت بمـا رأيت وما سمعت رجلاً من اهل العلم فآمن وصدّق ، وسأحدّث من اعرف من اهل العـلم ، وما ارى إلا انهم سيؤمنون ويصدّقون ،

وينتظرون كما انتظر ان تظهر هذه المعجزة التي لا تدع سبيلا الى الشك ، ولا طريقاً الى الارتياب .

قال كلكراتيس في صوت هادىء حزين ، ولـكن فيه نغمة الحرص على المعرفة ، والشوق الى اليقين ، والعجز مع ذلك عن بلوغ ما يريد : إن قلبي ليؤمن لك ، ولكن عقلي يأبى عليك .

قال بحيرى : فأنت في حاجة الى ان تخلق خلقـاً جديداً ، وتولد مرة اخرى ، لترى الأمر كما نراه ، وتفهمه على وجهه .

قال كلكراتيس وفي وجهه ابتسامة يائسة : إني لا أفهم عنك . لقد قرأت هذا في الإنجيل ، قاله المسيح لرجل من يهود ، كان يشك في امره كما اشك انا الآن ، يرضي قلبه ويسخط عقله . ولكني لا اسألك كيف اولد مرة اخرى ، وإنما اسألك كيف السبيل الى ان اولد مرة اخرى ؟ كـيـف السبيل الى ان اغير هذا العقل فأردّه الى اليقين الذي يخرجه من الشك ؟ او كيف السبيل الى ان اغير هـذا القلب فأردّه الى الشك الذي يخرجه من اليقين ؟ فأنا شقي بهذا التناقض الذي أجده بين عقلي وقلبي . وما ارى اني سأستريح الا ان يشكا معاً او يطمئنا معاً . فأما ان يذهب احدهما نحو الشرق ، ويذهب الآخر نحو الغرب ، فهـذا العذاب الذي لايطاق ، وهذه الحياة خير منها الموت .

قال بحيرى : اني لأرحمك وارثي لك ، ولكني لا احب ان تيأس من رحمـة الله ، او تقنط من روحه . فخذ نفسك بالصلاة ، واقم عليهـا ما استطعت فقد يمسك الله بجناح من رفقه وعطفه ، فيخرجك من الظلمة الى النور .

قال كلكراتيس : فاني لا اجد الى الصـلاة سبيلاً ، ولقد اخذت بها نفسي اخذاً شديداً ، فحاولت الصلاة صامتاً ، وحاولت الصلاة ناطقاً ، فجعلتُ كلما ادرت منها جملة في نفسي ادار عقلي ، او ادار الشيطان ، جملة اخرى تكذبها وتنفيها .

قال بحيرى : فاني لا املك لك من الله شيئاً . واكبر الظن انك في حاجة الى هذا الألم العنيف الذي يبهر العقل ، ويملأ النفس ، ويستغرق الضمير ، والذي لا يأتي إلا من التجارب والخطوب . ثم اطرق لحظة كأنه يفكر وكأنه يدعو خواطره من بعيد، ثم رفع الى رفيقه وجهاً مشرقاً يصوّر نفساً مطمئنة ، وقال في صوت خـافت ، كأنه صوت الصلاة : ارأيت اننا نصلي فنسأل الله ان يكفينا شرّ التجـارب ، ويعصمنا من مكر الدهر وآلام الخطوب ! فمن يدري ؟ لعل من الخير ان تصلي فتسأل الله ان يبلوك

بالتجارب ، ويمتحنك بالخطوب ؛ فان التجارب تمحص القلوب ، وان الخطوب تطهر النفس ، وان المحن تصفي الضمير ، وان هذه الآلام الطارئة على غير انتظار والملمة في غير رفق ، تكف من غلواء العقل ، وتخفف من كبريائه ، وترده الى التواضع ، وتشفيه من داء الغرور .

قال كلكراتيس ، وقد انهمرت من عينيه دموع غزار : عسى ان يكون ذلك ! ولكني في حاجة الى ان ارى لا الى ان اسمع ، والى ان اشهد لا الى ان اقرأ في الكتب . ما قصدي الى العراق ، وان همي لفي الحجاز ! ما رحلتي الى صديقك «نسطور» ، وان شفائي لعند ذلك الصبي العربي اليتيم !

- ١١ -

وهل عرفت الفكرة اللازمة التي لا تريم ، والخاطر الملح الذي لا يفصل عن صاحبه ولا يرفه عليه ! فاني لا اعرف شيئاً اشد منهما على النفس ، ولا اشق منهما على العقل ، ولا أفتك منهما بالأعصاب . وما ارى الا انك ترثي مثلي لهذا الفيلسوف الرومي الشاب حين علم انه لم يكد يلقي الى رفيقه جملته تلك حتى لزمته هذه الفكرة فلم تفارقه ، وألح عليه هذا الخاطر ، فلم يجد الى التخلص منه سبيلا .

وجعلت هذه الجملة تذهب وتجيء في رأسه كما يذهب المنشار ويجيء في الخشبة التي يريد ان يشقها : « ما قصدي الى العراق ، وان همي لفي الحجاز ! ما رحلتي الى نسطور وان شفائي لعند ذلك الصبي العربي اليتيم ! » .

وهم الفتى ألف مرة ومرة ان يصرف عنها نفسه ، ويحول عنها تفكيره ، فلم يوفق من ذلك لشيء ، وانما جعلت هذه الجملة تدور في رأسه دوراناً متصلاً ، حتى خيل الى الفتى انها لون من هذيان الحمى ، وجعل يتصور في نفسه انه مريض ، وأن شفاءه في العناية بجسمه ، لا في الذهاب الى العراق ولا في التحول الى الحجاز ، ولا في الرحلة الى « نسطور » ، ولا في القصد الى ذلك الصبي العربي اليتيم . وجعل الفتى يمتحن نفسه مغرقاً في الصمت ، ويمتحن نفسه مندفعاً في الكلام ، فاذا هو لا يستطيع ان يخلص من هذا الخاطر اللازم له الملح عليه .

وكذلك انقضى النهار ، وكذلك أقبل الليل فجلل الصحراء بظلمته القاتمة ، والفتى

فريسة لخاطره هذا الملح ، لا ينقذه منه ضوء النهار ، ولا يصرفه عنه ظلام الليل . وصاحبه يرفق به ، ويعطف عليه ، ويواسيه حيناً بالحديث ، ويسليه حيناً آخر بما يُظهر له من مناظر الصحراء المختلفة المتشابهة . ولكن الفتى لا يسلو ولا يتعزى ، وانما هو خاطره الملح قد ملأ قلبه وشغل نفسه ، وملك عليه امره كله . ولولا بصيص ضئيل من نور العقل كان يضبط اعصابه بعض الضبط ، وينظم حركاته بعض التنظيم ، لما شك الفتى ولا شك صاحبه في ان عارضاً من الجنون الم به ، فأنساه ماضيه، وشغله عن مستقبل أمره ، ورده الى حال لا يصلح معها التفكير ولا التقدير .

وقد انتهى المسافران ومن كان يتبعها من الغلمان ، حين تقدّم الليل ، الى حصن ضخم شاهق من هذه الحصون التي كانت تنبثّ في الصحراء بين الشام والعراق ، والتي كان يقيم فيها الجند حرّاساً للحدود محافظين عليها ، وكان يأوي اليها السفرُ الذين يضطرون الى عبور الصحراء .

انتهى الرفيقان واتباعهما الى هذا الحصن حين كاد الليل ينتصف ، فلم تفتحْ لهم ابوابه ، ولم يحاولوا استفتاحها ، وانما اجمعوا امرهم ان ينفقوا بقية الليل في ظله، حتى اذا اسفر الصبح الموا به، فأصلحوا من شأنهم ، وتزودوا لمرحلتهم، ثم استأنفوا سفرهم البعيد . وما هي الا ساعة حتى اندمجت هذه الجماعة الضئيلة في هذا الهدوء الشامل من حولها ، فأصبحت جزءاً منه ، لا تحس نفسها ، ولا يحسها أحد .

وكان الفتى قد طمع في أن ما تكلّف من جهد السفر وما احتمل من مشقته ، سيدفعه الى النوم الهادىء المريح ، فينسى فكرته اللازمة ، ويصرف عن خاطره الملح ، ويسترد ما أضاع من قوة ، ويجدد ما فقد من نشاط . ولم يكذب النوم أمله ولم يُخلف ظنه ، وإنما اسرع اليه فأظله بجناحيه ، وأفاض عليه شيئاً من هذا السكون الذي يجد فيه الجسم راحة ، وتجد النفس فيه براءة من أوضار الحياة ، وتخفيفاً من أثقالها ، ولكن الفتى يفيق بعد ساعة ويفتح عينيه فاذا ظلمة الليل ما زالت جاثمة على الصحراء ، وإذا أشعة ضئيلة تضطرب في هذه الظلمة فلا تستطيع ان تجلوها ولا ان ترقق من كثافتها . ويستجمع الفتى نفسه المشردة ، وخواطره المتفرقة ، فاذا ثاب اليه رشده نظر من حوله كأنما يبحث عن شيء لا يجده ، وقد كان في حقيقة الامر يبحث عن مصدر صوت سمعه حين أفاق ، ولعله هو الذي أيقظه . والفتى لا يشك في انه لم يسمعه في الحلم ، وانما سمعه في اليقظة ، او سمعه بين اليقظة والنوم .

وكان هذا الصوت غليظاً خشناً ، وكان مع ذلك هادئاً تشع فيه السخرية ، وكان

يقول : « عجبت الذين يريدون ولا يفعلون ، ويعزمون ولا يتممون ، ويقصدون إلى العراق وهمّهم في الحجاز ، ويرحلون إلى « نسطور » وشفاؤهم عند الصبي العربي اليتيم ».

على ان الفتى لم يلبث ان عرف نفسه وانكرها معاً : عرف نفسه وفكرته اللازمة له وخاطره الملح عليه ، وانكر نفسه هذه المضطربة التي عجز النوم من أن يقهرها ، فاذا هي تفكر نائمة كما كانت تفكر يقظى ، واذا هي تردد في الحلم وفي جنح الليل ما كانت تردده حين كانت مستيقظة في ضوء النهار . ويعود الفتى الى مضجعه وقد جمع اليه إرادته كلها وعزمه كله ، وأنفق جهداً غير قليل ليرد عن نفسه هذا الخاطر الملح، وعاد النوم كأشد ما يكون دعاء النوم . ولكن النوم كان قد نأى عنه ، ولكن الصوت كان لا يزال يصل الى سمعه ، يأتيه من خارج ، يأتيه من هذا الجو المحيط به، لا من دخيلة النفس ولا من أعماق الضمير . فلا يشك الفتى في ان انساناً يناجيه ويغريه فيسأل : « من المتكلم ؟ » ولكن يسمع صوت نفسه فيرتاع ، وقد كان يسمع ذلك الصوت الغريب فلا يحس خوفاً ولا روعاً .

هنالك ينهض الفتى من مضجعه ، ويمشي امامه خطوات ، ثم يتحوّل فيمشي خطوات اخرى عن يمين ، ثم يتحوّل فيمشي خطوات إلى شمال، فلا يرى احداً ، ولا يحس شيئاً ! فيعود الى مكانه قلقاً بعض الشيء ، مستشعراً بعض الخوف . ولكنه لا يكاد يستقر حتى يبلغه صوت آخر يأتيه من بعيد ، فيه عذوبة ورقة وحنان، ولكنه يسمعه ولا يفهم عنه شيئاً . فينهض مرة اخرى ، ويمضي شطر الوجه الذي يأتيه منه الصوت ، وما يزال يسعى خائفاً يترقب ، حتى يخيل اليه انه يرى شخصاً ماثلاً ، فيدنو منه في بعض الحذر والرفق ، حتى إذا كان منه غير بعيد تبينه فاذا هو رفيقه الراهب بحيرى قائماً يصلي وقد رفع وجهه الى السماء وهو يتمتم في لغته السريانية التي يسمع لها الفتى فلا يفهمها . وما كان أشد حاجة الشاب إلى أن يدنو من صاحبه ، فيمس كتفه ، ويدعوه إلى معونته ، ويتحدث إليه بأمر هذا الصوت الذي سمعه ! ولكنه ينظر إلى رفيقه فإذا هو غارق في صلاته ، لا يحس مكانه منه ، ولا يحس شيئاً من حوله ، ولعله لا يحس نفسه أيضاً . فيكره الفتى أن يصرفه عن هذه الصلاة ، وأن يُخرجه من هذه الحال التي يود لو أتيح له شيء مثلها أو قريب منها ويعود أدراجه ويستقر في مكانه، ويدعو النوم كأشد ما يستطيع له دعاء ، وينفق جهداً عنيفاً ليذود عن نفسه كل خاطر . وها هو ذا قد أخذ يستريح ، ويحس هذا الفتور الذي يشيع في أعضائه كأنه يبشره

بمقدم النعاس ، فيسلم له ، ويود لو استطاع أن ينغمس فيه انغماساً .

ولكنه يسمع الصوت الغليظ الخشن ، الهادىء الساخر ، يعيد جملته تلك . «عجبت للذين يريدون ولا يفعلون ، ويعزمون ولا يتممون ، ويقصدون إلى العراق وهمهم في الحجاز ، ويرحلون إلى « نسطور » وشقوتهم عند الصبي العربي اليتيم » .

هنالك يستوي في مجلسه وقد امتلأ رعباً ، وكظم صيحة عنيفة كادت تسبقه إلى الهواء ؛ فتنبه النائمين من أتباعه وتلفت إليه هذا الراهب المستغرق في الصلاة . ولكن فضلاً من حياء أمسك عليه نفسه ورده إلى بعض الروية والأناة ؛ فقد جعل يسائل : ما هذا الصوت ؟ ومن أين يأتيني ؟ إن كنت قد سمعته حالماً أول الأمر [illegible] الآن . ثم يمتلىء قلب الفتى أمناً ودعة واطمئناناً ، وإذا هو يرى في نفسه ما لم يكن يقدّر ، ويطمئن إلى ما لم يكن يطمئن إليه ، ويستيقن أن هذا الصوت لم يبلغه إلا لأمر يراد .

لا ينبغي إذاً أن يمضي في طريقه إلى العراق، ولا أن يصمم على رحلته إلى «نسطور» ! فإن الله لا يريد له ذلك ولا يعينه عليه . ولا بدّ من أن يعود أدراجه حتى يبلغ الدير ، فيفضي بأمره كله إلى صديقه الشيخ ، ويتزوّد عنده بشيء من هذه الراحة التي يعرف كيف يشيعها في ضميره ، وهذا اليقين الذي يعرف كيف يملأ به قلبه . وها هو ذا ينهض ، وها هو ذا يمضي أمامه حتى يبلغ رفيقه الراهب، فيراه ما زال ماثلاً يتمتم في لغته السريانية وقد رفع وجهه إلى السماء لا يحس شيئاً ، ولعله لا يحس نفسه . فينظر الفتى إليه ويطيل النظر، وكأنه يريد أن يؤذنه بانصرافه عنه وتحوله إلى الدير. ولكن الراهب مستغرق في صلاته ، فما إخراجه منها وما صرفه عنها ! وهذا الفتى يتحول عن صاحبه مسرعاً ، ويمضي أمامه لا يلوي على شيء وما هي إلا لحظات تمضي حتى يصير الفتى سرّاً مكتوماً في هذا الضمير الغامض الذي يأتلف من ظلمة الليل وامتداد الصحراء .

- ١٢ -

ثم ينبلج الصبح عنه ، فإذا هو كامل القوة ، موفور النشاط، باسم الثغر ، مبسوط الأسارير ، لا يظهر عليه الإعياء ، وإن كان قد تكلف مشقة سفر متصل لم يسترح

من جهده إلا هذه الساعات القليلة التي كانت الى التعب اقرب منهـا الى الراحة ، والى الخوف المضني أدنى منها الى الأمن والهدوء . وانمـا يظهر على وجهه شيء آخر يصوّر نفساً راضية ، وقلباً مطمئناً ، وينمّ بأن الفتى قد برىء من هـذا القلق الذي كان يساوره ويفسد عليه أمره . ولا غرابة في ذلك ! فقد كان يريد ان يرى وان يشهد . او ليس قد رأى وشهد ! إنه لم ير شخصاً ماثلاً يصدر إليه هـذا الصوت الذي ردّه عن العراق وحوّله الى الدير ، ولكنه قد سمع هذا الصوت ، سمعه غير مرة ، وسمعه يأتيه من خارج نفسه ، لا من دخيلتها ولا من أحلامها . فما ينبغي لعقله ان يشك ، وما ينبغي لبصيرته ان ترتاب ، وما ينبغي لعزمه ان ينثني عما صمم عليه . إنـه مأمور بالقصد الى الحجاز ؛ فليقصدنّ الى الحجاز بعد ان يستقر حينـاً في الدير ، ويتزود من صديقه الشيخ ببعض اليقين .

وهو يمضي أمامه يغمره ضوء الصبح المشرق ، وينعشه نسيمه البارد ؛ ويشيـع النشاط في جسمه ونفسه لذة غريبة يذوقهـا ، ولكنه لا يستطيع تصويرها ولا يحسن وصفها ان حاول هذا الوصف . والغريب من أمره انه كان يمضي أمامه دون ان يسأل نفسـه : أماض هو في طريقه الى الدير أم هائم هو في غير طريق ؟

وما شكه في استقامة الطريق له واعتدالها أمامه ، وهو قد سلكها أمس ، وهو لا يسلكها اليوم إلا مأموراً ؛ فإن الذي أمره ان يعود أدراجه يهديه سبيله الى العودة ما يتطرق اليه في ذلك شك ولا ريب . فليمض أمامه ، وليمض لا ماوياً على شيء ولا حافلاً بشيء ، وليبعد الخطا فإن الأمد بعيد ! وما ينبغي ان يدركه الليـل مرة أخرى قبل أن يبلغ مأمنه وينتهي الى غايته .

ومن الحق أنه لم يسلك هذه الطريق أمس راجلاً ، وانما كانت تخبّ به الركاب . ومن الحق أيضاً أنه لم يكن دليل نفسه أمس، وأنه لم يعرف معالم الطريق ولم يثبتها ! فهو خليق أن يخطىء القصد ، وأن يجور عن السبيل . ولكن هذه الخواطر لا تلمّ به ولا تعرض له ، فهو مشغول بما يملأ قلبه من أمن ، وما يغمر نفسه من اطمئنان. وهو مشغول بهذه الثقة التي أراحت عقله ، واضطرته الى الدعة والهدوء ، وجرّدته مـن ذلك السلاح الخطر الذي كان يناضل به في ذلك الصراع الأليم .

لقد كان يريد أن يرى ، فقد رأى . ولقد كان يريد أن يشهد ، فقـد شهد . وما من شك في أن الأيام ستتكشف له عن معجزات أخرى أعظم خطراً ، وأعمق أثراً ، وأنبه شأناً من هذه المعجزة التي أسرّها الليل إليه ، ومن تلك المعجزات الـتي قصّها

الرهبان عليه. فليمض أمامه واثقاً ! فقد انجلت عنه الغمرة ، وآذنت محنته بالزوال .

ومن الحق أنه لم يمض في الصحراء أمس وحيداً ولا صفر اليد ، وإنما كان له رفيق يأنس به ويستريح إليه ، وأتباع يعينونه على بعض الأمر ويُصلحون له من الشؤون ما لم يتعوّد أن يصلح لنفسه ، ويحملون له من الزاد والمئونة ما يقيم أوده ، ويعصمه من الظمأ والجوع . وهو الآن يمضي في الصحراء وحيداً لا رفيق له ولا تبع ، ولا مئونة معه ولا زاد ولكن هذا الخاطر لم يلمّ به ولم يعرض له ؛ لأن قلبه مشغول عن هذه الصغائر بما يملؤه من عظائم الأمور . وآية ذلك أن الضحا قد ارتفع ، وأن الشمس قد اوشكت أن تزول ، وأنه على ذلك يمضي في طريقه آمناً هادئاً ،لا يحس ألماً ولا تعباً، ولا يدعوه جسمه إلى طعام أو شراب ، ولا يجد حاجة إلى شيء إلا إلى أن تبعدَ خطاه ، وأن يدفعه نشاطه حتى يبلغ مأمنه ، وينتهي إلى غايته ، ويلقى صديقه الشيخ ، قبل أن تجنه ظلمة الليل .

وما من شك في أنه سيبلغ من ذلك ما يريد . وما من شك في أن هـذا الصوت الذي أزعجه من مضجعه لم يُردْ به إلا خيراً ، وهو خليق أن يُبلغه مأمنه قبل أن يدركه الجهد أو يمسه الضر .

وكذلك مضى الفتى أمامه واثقاً لا يعرف القلق ولا الشك إلى نفسه سبيلاً ،سعيداً بهذا الأمن الذي فارقه منذ عهد بعيد ، والذي عاد إليه الآن يؤنسه في وحدته ، ويذود عنه وحشة الصحراء .

لن يسمع إذا جنه الليل ذلك الصوت الغليظ الخشن يردد في هدوئه الساحر تلك الجملة اللاذعة . لقد أراد ففعل . ولقد عزم فتمم . واي دليل على ذلك أصرح وأوضح من هذه الخُطا البعيدة التي تقطع الصحراء دون أن يجد لها كلالا أو يدركه منها سأم! كلا ! لئن سمع صوتاً في هذه الليلة المقبلة ليسمعنّ صوتاً حلواً عذباً مشجعاً ، يملؤه ثقة ويدفعه إلى المضيّ والإقدام . وقد أخذت حرارة الشمس تخف بعد شدتها ،وأخذ وجه النهار يدركه الشحوب ، وأخذت الظلمة بعد حين تنتشر على الصحراء كأنهـا السيل المندفع لا يـذر شيئاً أتى عليه إلا غمره واكتسحه اكتساحاً ، ولم يبلغ الفتى مأمنه ، ولم ينته إلى غايته،ولم يعرف شيئاً من هذه المعالم التي تقوم غير بعيد من الدير.

ولكن لا بأس ؛ فإنه يسعى راجلاً ، وقد كانت تخبّ به الركاب أمس . وأكبر الظن أنه إذا مضى في طريقه وباعد بين خطاه ، واحتفظ بهذا النشاط الذي لم يفارقه طول النهار فسيبلغ الدير حين يتقدم الليل . وأكبر الظن أنه لن تمضي ساعات حتى

يرى هذه المعالم ، ويتبين هذه الأضواء الضئيلة المضطربة التي تخفق في ظلمة الليل وتمضي إلى بعيد كأنها تدعو إلى الدير أمثاله هؤلاء الذين أضنتهم الصحراء وأعياهم السفر البعيد.

والفتى يمضي وظلمات الليل تتكاثف ويركب بعضها بعضاً ، وهذه الأشعة الضئيلة التي تنحدر من السماء تحاول أن تشق هذه الظلمات فلا تكاد تبلغ من ذلك شيئاً . ومع أن كل شيء قد كان صامتاً من حول الفتى في تلك الصحراء الموحشة أثناء النهار ، فقد يخيل إليه أن اللغط من حوله قد أخذ يظهر شيئاً فشيئاً ، قد أخذ يظهر قليلاً ضئيلاً كأنه قطعٌ صغيرة متفرقة تحملها الريح ، ثم يشتد ويتدانى قليلاً قليلاً ، ثم يتلاصق وينعقد ويأخذه من كل مكان ، وإذا هو يسمع أصواتاً مشتبكة تأتيه من كل وجه : تأتيه من أمام إذا مضى إلى أمام ، وتأتيه من وراء اذا وقف متفكراً مستخيراً ، وتأتيه من يمين وشمال ، ولو صدّق نفسه وآمن لخياله لاعتقد أن هذه الاصوات تنجم له من الارض ، وتهبط عليه من السماء ، وهي على كل حال تغمره من جميع أقطاره وتكاد تُغرقه . ولكنه لم يفقد رشده ، ولم يضلّ صوابه ، فهو يشهد هذا كله شاعراً به ، محققاً ، مفكراً فيه . ثم لا يلبث أن يرده الى أصله ويضيفه الى مصدره فهو قد سافر يوماً كاملاً لم يذق فيه من الراحة إلا ما لا يُغني . ثم هو قد استأنف السفر يوماً كاملاً لم يذق فيه طعاماً ولا شراباً . ولم يأخذ فيه من الراحة بقليل ولا كثير . وهذا الليل قد تقدم وهو ما زال ماضياً امامه ، ولعله يحس تقارب الخطا وشيئاً من الكلام قد أخذ يتمشى في أطرافه . فهذا الإعياء من غير شك هو أصل هذا اللغط ومصدر هذه الاصوات التي تأخذه من كل وجه . وويل للنفوس القوية من الأجسام الضعيفة ! ان نفسه لكاملة القوة ، مجتمعة النشاط ، قادرة كل القدرة ، وحريصة أشد الحرص على ان تمضي حتى تبلغ الدير . ولكن هذا الجسم الضعيف قد أخذ يفتر ويتهالك ، ويعجز عن مجاراة هذه النفس القارحة . فليت الله لم يبتل النفوس بالاجسام ! وليته أتاح لهذه النفوس حياة مجردة من المادة ، مطهرة من هذه الأدناس والأوضار ! ولكن الاصوات تلغط . ويتكاثف لغطها في سمع الفتى كما تتكاثف ظلمة الليل أمام عينيه . ولكن جسم الفتى يفتر ويفتر ، ويثقل ويشتد ثقله حتى تعجز نفس الفتى عن حمله ، وتودّ لو تخرج منه فتلمّ بالدير ثم تطير الى الحجاز حيث الصبيّ العربي اليتيم .

ولكن خُطا الفتى تقرُب وتقرُب ، واذا هو يحس انه يتحرك دون ان يتقدم ، وينظر فاذا هو قائم في مكانه قد فارقته قوته وفارقه نشاطه ، وأحس حاجة الى

الراحة لا يستطيع لها مقاومة ، ولا يجد منها بدّاً .

الراحة ! ولكن كيف السبيل اليها ؟! وأين يبتغيها وهو في هذا المكان الموحش الذي لا يعرف له اولاً ولا آخراً ! أما أمس فقد استطاع ان يطلب الراحة مع أصحابه في ظل ذلك الحصن الضخم الشاهق في السماء . وقد كان يظن انه سيطلب الراحة من ليلته في ذلك الدير الذي لا ينبغي ان يكون بعيداً ، لولا ضعف هذا الجسم النحيف الذي يقعد به وليس بينه وبين الغاية إلا أمد قريب .

ومع ذلك فويل الذين يريدون ولا يفعلون ! وويل للذين يعزمون ولا يتممون ! وهو قد أراد ولا بد من أن يفعل . وقد عزم ولا بدّ من ان يتمم ما عزم عليه . ومن الحق أن جسمه لا يعينه ، وأن خطواته لا تطاوعه . ولكن لا بأس! فليرفه على هذا الجسم شيئاً ، وليمنحه من الراحة نصيباً وليجلس هنا في هذا المكان الموحش الذي لا يعرف له حداً . ولكن ليحتفظ بقوته ويقظته ، وليدفع النوم عن نفسه دفعاً ، حتى اذا استراح الجسم ساعة او بعض ساعة ، أنهضه وكلفه السعي حتى يبلغ المأمن ، وينتهي الى الغاية ، ويصل الى الدير .

وخيل الى الفتى انه جلس ، وإن كان الحق أنه خرّ من اقطاره صريعاً . وظن الفتى انه محتفظ بقوة نفسه ، ويقظـــة ضميره وذكاء قلبه ، ونشاطه كله ، وانه سينهض بعد حين فيمضي الى غايته . وقد همّ أن ينهض بعد حين . ولكن ماذا ! انه ليحاول النهوض فلا يجد اليه سبيلاً . وانه ليحاول أن يحرك بعض أطرافه فلا يجد الى ذلك سبيلاً . وانه ليسمع ذلك اللغط الذي كان يسمعه منذ لحظة ولكنه يتميزه الآن بعض الشيء ؛ فهو ليس صوتـــاً منعقداً كثيفاً ، ولكنه أصوات متفرقة ، تتنادى وتتجاوب كأنها أصوات قوم يتحدّثون . ثم يحاول أن يفتح عينيه فلا يجد الى ذلك سبيلاً . أين هو ؟ ما خطبه ؟ ماذا ألمّ به ؟ انه ليجد ثقلاً في أطرافه ، وعجزاً عن الحركة ، وعجزاً حتى عن أن يفتح عينيه . وان عقله مع ذلك لحاضر يقظ ، ولكنه يحس كأنه يتحرك على غير إرادة ، أو كأنه محمول على شيء يمضي به دون أن يتحققه أو يعرف ما هو .

ثم تنجلي عن الفتى ظلمات نفسه شيئاً فشيئاً ، وتثوب اليه خواطره قليلاً قليلاً ، ويحضره عقله ورشده حقّاً ، ويمتلىء قلبه بالحقيقة الواقعة التي تملؤه رعباً وجزعاً ، واذا هو يصيح صيحة منكرة ، صيحة المستغيث الواله ، فلا يجد لصيحته صدى ، ولا يسمع لها جواباً ، ولكنه يحس كأنه محمول على شيء يمضي به مسرعاً ، وهـذه

الأصوات تدفعه دفعاً وتحثه حثاً عنيفاً . ليس من شك في أنه أسير ، قد أسره بعض الناس ، أو أسره بعض الجن التي كانت تلغط في الصحراء . لشدّ ما ودّ لو استطاع ان يفتح عينيه وينظر من حوله. فليس من شك في أن الذين أسروه قد عصبوه . وهو يستغيث ويلح في الاستغاثة ، ويئن ويلح في الأنين ، فلا يسمع إلا أصواتاً تتضاحك ، وقوماً يتنادون ، وحثاً لهذه المطية التي تحمله .

ثم تمضي ساعة وساعة ، واذا هو يحمل فيحط على مطيته ، ثم تحل العصابة عن عينيه فينظر فيرى . ويا هول ما يرى ! يرى نفسه طريحاً على الأرض في ظل خيمة غليظة خشنة ، وقد أحاط به نفر نحاف الأجسام ، سمر الوجوه ، يتطاير من عيونهم الشرر ، ولكنهم مع ذلك يرفقون به : ويعطفون عليه ، ويحطمون عنه الأغلال ، ويردّون الى يديه حريتها ، ولكنهم يحتفظون برجليه في القيد ، ثم يقدّمون اليه في سخرية رفيقة شيئاً غليظاً من طعام وشراب .

- ١٣ -

وقد احس الفتى بعد هذه الساعة الأليمة ان هزيمة العقل وفلسفته قد كانت منكرة حقاً امام طبيعة الجسم وغرائزه . فلم يكد يرى ما قدّم اليه من طعام وشراب حتى أقبل عليه في نهم لم يألفه، فازدرده ازدراداً ، لم يصدّه عن غلظه وجفوته ، ولم يصرفه عنه بعد ما بينه وبين ما كان قد ألف من لين الطعام ورقيق الشراب . بل لم يصرفه عنه ما كان يجد من ذل الإسار بعد عزّ الحرية، ومن خيبة الأمل بعد تلك الأماني العراض التي ملأت حياته حين كان في المدينة يلهو ويعبث مع صديقيه ، وحين كان في الدير ينتظر ما سيتكشف عنه الغيب له ولصديقه الشيخ من الآيات الكبار ، وحين تحوّل عن رفيقه « بحيرى » ومضى عائداً ادراجه مذعناً لذلك الصوت الغليظ الخشن الذي سخر منه في هدوء . كل ذلك لم يخطر له ، ولم يثر في نفسه غيظاً ولا حنقاً ، ولم يغره بامتناع ولا إباء حين قدّم اليه الطعام والشراب ، وانما استعرضه وفكر فيه ، وذاق مرارته واحترق بلوعته بعد ان شفي الم الجوع والظمأ ، وبعد ان استرد جسمه قوته ونشاطه . ولو اننا اطلعنا على دخيلة نفسه حينئذ لرأيناه خجلاً مستخذياً،ووجلا محزوناً ، ويائساً من هذا العقل الذي كان يؤمن بـه ويذعن له ، ويرى انه اقوى ما

ركّب في الإنسان من غريزة ، وأعز ما منح للانسان من سلطان . وها هو ذا الآن يراه ذليلاً منكسراً ، لا يقدر على مقاومة ، ولا يثبت لمناضلة ، ولا يمتنع على غرائز هذا الجسم الضعيف الذي كان يحقره ويزدريه على ان الفرصة قد اتيحت لكلكراتيس ففكر على مهل ، وروّى في اناة ، وقلب أمره على وجوهه كلها ، وتذوّق مرارة حاله الجديدة حتى استقصى أدق ما فيها من الم ، واخص ما فيها من ندم ؛ فهو لم يكد يفرغ من طعامه وشرابه ويشعر ان جسمه قد استرد شيئاً من راحته وهدوئه حتى كان القوم من حوله قد اصابوا شيئاً من طعام وشراب ، واستردوا حظاً من قوة ونشاط ، واذا هم يتنادَوْن ويتناجوْن وتختلف بينهم الألفاظ والألحان والإشارات ، وهو يرى ويسمع ولا يفهم شيئاً . ثم يقبلون اليه فيردّون يديه الى الغلّ وعينيه الى الظلمة ، ويحملونه حيث يشدّونه على مطيته تلك التي كان يحسها منذ حين تسرع به في السير اسراعاً رفيقاً .

هو اذاً لم ينزل حيث نزل ليقيم ويستقر ، وانما ألمّ بمكان من الصحراء ليستريح وليستريح هؤلاء الذين أسروه وعدَوْا عليه . وهو اذاً لم يبلغ مأمنه ، ولم ينته الى غايته بعد . ولكن ما ذلك المأمن ؟ وما هذه الغاية ؟ وماذا يريد به هؤلاء القوم ؟ والى أين يحملونه ؟ ولماذا يهينونه ؟ لقد رآهم يتحدثون باللفظ واللحظ فلم يفهم عنهم ، وهو الآن يسمعهم يتناجون في اصوات ترتفع وتنخفض وتتشكل أشكالاً مختلفة بين ذلك ، فلا يفهم عنهم شيئاً . وهو يسأل نفسه : كيف انتهى اليهم وكيف انتهوا اليه ؟ فلا يجد لهذا السؤال جواباً . وانما يذكر تلك الساعة الأليمة التي رأى نفسه فيها قائماً في الصحراء ولا يستطيع أن يتقدم ولا ان يتأخر ، وقد اكتنفته ظلمة الليل القاتمة ، وغمره لغط تلك الأصوات المنكرة التي لا تبين . ثم لا يذكر بعد ذلك كيف انتهى إليهم وكيف انتهوا اليه . ماذا كان ذلك الصوت الغليظ الخشن الذي عجب منه وهزىء به ، وأغراه بالتحول عن العراق الى الحجاز ، وبالرغبة عن نسطور الى الصبيّ العربي اليتيم ؟ أكان صوتاً قد صدر عن ناصح له رفيق به عاطف عليه ، أم كان صوتاً صدر عن ساخر منه ، عابث به مضمر له الكيد والغرور ؟ ثم يذكر الفتى حديث رفيقه بحيرّى ، وما زعم له من حاجته إلى التجارب والخطوب ، ليرتد عقله عن الكبرياء الى التواضع ، وعن الغرور الى الاعتدال . وترتسم على ثغره ابتسامة حزينة أليمة حقاً . لقد كانت أبواب السماء مفتحة حين تحدّث اليه رفيقه عن التجارب والخطوب . فما أسرع ما سلطت عليه التجارب وأغريت به الخطوب ! لقد كانت هذه التجارب والخطوب

مسايرة له ولرفيقه في الصحراء ، تريد أن تدنو منهما فلا تستطيع ؛ لأن مكان هـذا الراهب الكريم كان يمنعها من الدنو ، فما هي الا أن تحتال حتى تستدرج هـذا الفتى وتبعده عن رفيقه الذي وقاه الله شر التجارب والخطوب . فما يكاد يبعد عنه حتى تنساب اليه من كل سبيل . لقد خاص لها وفرغت له فلتذقه مرارتها خالصة ، ولتصبّ عليه آلامها ممضة لاذعة ، ولتردّ عقله الى التواضع ، ولتباعـد بينه وبين الكبرياء والغرور .

ثم يخيَّل الى الفتى كأن عقله قد وقف عن التفكير ، وكأن قلبه قـد عجز عن الشعور حيناً ، وكأنه في شيء يشبه النوم وليس بالنوم ، وكأنه يسمع ذلك الصوت الغليظ الخشن وهو يبعث في الفضاء قهقهة عالية ملؤهـا السخرية والاستهزاء ؛ فيعود الفتى الى شعوره الأليم ، وتفكيره العقيم . واذا هو يسأل نفسه مرة أخرى عن هـذا الصوت : ما هو ؟ وما عسى أن يكون؟ وترتسم على ثغره ابتسامة أخرى فيها سخرية مرّة ، واستهزاء حزين . فهو يسأل نفسه:ألا يمكن أن يكون هذا الصوت الذي أغراه بالمودة وورّطه في هذه الكريهة ، صوت إله من هؤلاء الآلهـة القدماء الذين كان يعبدهم ويُقبل عليهم في المدينة مع صاحبيه ، ثم لم يلبث أن شك فيهم ، وتنكر لهم وأعرض عنهم واستجاب لصديقه الشيخ ، وجعل يبحث عن إله جديد دون أن يبلغه أو يهتدي اليه ، فأضاع نفسه بين قديم كان يعرفه ، وجديد لا يألفه ! لقد أعرض عن عبادة « ديونوزوس» وأصحابه منذ عهد بعيد . ألا يمكن أن يكون « ديونوزوس » قد أرسل اليه بعض أتباعه ليسخر منه ويعبث به ويرّده آخر الأمر الى دينه القديم ؟

ولكن الابتسامة الحزينة الساخرة التي كانت ترتسم على ثغر الفتى تتسع شيئاً فشيئاً ! واذا شفتاه تنفرجان عن ضحك عال وقهقهة تملأ الفضاء . ولو أتيح له أن يرى لرأى هؤلاء النفر من حوله وقد ارتسم عليها شيء من العجب لهذا الأسير الغريب الذي تختلف على وجهه الابتسامات وتنفرج شفتاه عن الضحك المرتفع البعيد .

ولكن الفتى مشغول عما حوله وعمن حوله ، ساخر من كل شيء ومن كل انسان ، وساخر بنوع خاص من هذا الخاطر السخيف الذي عرض له،ومن هؤلاء الآلهة القدماء الذين أخذ يفكر فيهم والذين لم يخلص لهم الدين في يوم من الأيام ؛ ولن يُخلص لهم الدين في يوم من الأيام ؛لأنهم لم يستطيعوا قط أن يبلغوا عقله أو قلبه .

هو ساخر من كل هذا ، وهو يمعن في لون آخر من ألوان التفكير يملأ نفسه حزناً إلى حزن ، ويفعم قلبه ألمـاً إلى ألم ، ويضيف في نفسه ذلة إلى ذلة وانكساراً إلى

انكسار . لقد ضاق بقيصر وبغي قيصر ، حين كان آمنـــاً في المدينة ، وادعاً بين صديقيه ، مستمتعاً بالثروة الواسعة والجاه العريض ، مهياً لأن يضيف إليهما بسطة الملك وضخامة السلطان . لقد أنف من قيصر وبغي قيصر ، وكره أن يدخل قيصر بينه وبين ضميره ، وأزمع الهجرة عـن أرض قيصر ، تلك التي يُستذل فيها الناس وتُحمل فيها الرعية على ما لا تُحب ، إلى أرض أخرى يصبح فيها ملكاً لنفسه ، لا يتحكم فيه أحد ولا يبغي عليه سلطان . لقد هاجر من أرض الذلة والهوان إلى أرض العزّة والكرامة . لقد أصبح ملكـاً لنفسه ، ولكنه ملـك لا يستطيع ان يفتح عينيه ، ولا أن يحرّك يديه ، ولا ان ينهض على قدميه . ملك عانٍ ذليل مُوثـّق ، قد شدّ إلى مطية تسرع به إلى حيث لا يريد بل إلى حيث لا يعلم ، وهو لا يملك من امر نفسه شيئاً ، بل هو عاجز كل العجز عـن ان يفهم من هؤلاء القوم الذين يطوفون به ويسعون من حوله ، إلى اين يذهبون به وماذا يهيئون له ؟

ليسخط الآن على ظلم قيصر وبغيه ، وليحمل الآن عاقبـــة تفكيره في الهجرة وامتناعه عن سلطان قومه وقوانين وطنه ؛ فقد بلغ من ذلك ما كان يريد واكثر مما كان يريد . ثم تعود إلى الفتى خواطره التي كانت تملأ راسه آنفـاً ، فيذكر حديث رفيقه الراهب عن التجارب والخطوب ، واثرها في ردّ العقل الى التواضع والاعتدال ، وصَرفه عن الكبرياء والغرور . ما اصدق هذا الحديث وادناه الى الحق ! ان الفتى لمستسلم للقضاء ، مذعن للقدر ، قد وطن نفسه على الصبر ، واخذها باحتمال المكروه . وهل يستطيع ان يطمع في غير الصبر ، او ان يفكر في النبوّ عن الضيم والامتناع على المكروه ! كلا ! انما هو اسير عان لا يملك من امر نفسه شيئاً . وآية ذلك ان المطية تسعى به مسرعة رفيقة الى حيث لا يعلم ولا يريد ، وانه قد اخذ يحس الظمأ ويجد الم محرقاً لاذعاً ، وهو لا يستطيع ان يشفي هذا الظمأ ؛ لأنه لا يستطيع ان يُفهم هؤلاء النفر من حوله حاجته الى الشراب . يتكلم فلا يفهمون عنه ، ويريد ان يشير بيده فلا يستطيع ، ويودّ لو يشير بلحظه فـلا يستطيع ؛ فقد حيل بـين عينيه وبين الضوء . هو يعلم انه لا يملك الا الصبر والإذعان ، ولكنه مع ذلك يعالج نفسه على ان يكون صبوراً مذعناً ، حتى لو اتيحت له الحرية وخلّي بينه وبين ان يريد وان ينفذ ما يريد .

وهو يتصور ان هؤلاء النفر الذين ظلموه وبغَوْا عليه قد ثابوا الى العدل فردّوا اليه حريته ، وحطوا عنه الأغلال ، وفكوا عنه القيود ، وخلوا بينه وبين الأرض الواسعة

والقضاء العريض ثم يعاهد نفسه لئن فعلوا ذلك ليقيمنّ بينهم اسيراً قانعاً بالإسار ، ذليلاً راضياً بالذل ، عبداً مخلصاً في خدمة مواليه ؛ لأن حديث التجارب والخطوب قد وقر في نفسه واستقر في اعماق ضميره ، ولأنه قد ضاق بطغيان عقله وكبريائه ، وبما كلفه الطغيان والكبرياء من بطر واشر ومن جهد وعناء .

وكذلك انفق كالكراتيس ثلاثة أيام ذليل الجسم اسيره ، عزيز النفس طليقها . ينزل به سادته حيث يريدون النزول ، فيحطون عنه الغلّ ، ويردون اليه الضوء ، ويقدمون اليه ما يقيم أوده من الطعام والشراب ، ثم يرحلون به متى أرادوا وقد ردّوه الى سواد الظلمة وثقل الأغلال .

وهو عن ذلك راض ، وله مذعن ، واليه مطمئن ، لا يفكر حتى في أن يسأل نفسه ماذا يراد به ؟ والى أين يقصد به ؟ وما عسى أن ينفعه هذا السؤال ! وما عسى ان يجدي عليه التفكير فيه ! إنما هي محنة لا بد من أن يحتملها اراد ذلك او لم يرده، وخطبٌ لا بد ان يصبر عليه ، رضي عن ذلك او كرهه . فالخير في ان يستقبل المحنة باسماً لها ، وان يحتمل الخطب راضياً به ؛ فذلك اكرم له من جهة ، وأهون عليه من جهة اخرى ، وادنى الى ماامره به رفيقه من ملابسة التجارب والخطوب،والى ما اوصت به فلسفة القدماء من ان يريد المرء ما هو كائن اذا عجز عن تحقيق ما يريد .

فلما كان اليوم الرابع نزل القوم وأنزلوه ، وحطوا عنه اغلاله ، وردوا الى عينيه ضوء النهار ، واطعموه وسقوه . وانتظر أن تمضي ساعة وبعض ساعة ، وان يعود به القوم الى الغلّ والظلمة والرحيل. ولكنهم لم يفعلوا ، وانما تركوه حرّ اليدين والعينين ، وأطلقوا رجليه من القيد شيئاً ، خلّوا بينه وبين بعض الحركة البطيئة الثقيلة ، في حدود هذه الخيمة الخشنة التي ضُربت عليه ! وجعل افراد من رجال ونساء يقبلون عليه فينظرون اليه ! فمنهم من يُعجب به ، ومنهم من يَعجبُ له ، ومنهم من يضحك منه ، ومنهم من يُظهر له الرثاء ! وكلهم يُقبل فينظر ثم ينصرف. ويُقبل المساء فيقدم الى الفتى طعامه الجافي وشرابه الغليظ ، ثم يخلى بينه وبين النوم . ويقبل الصباح بعد ليل طويل لم يذق فيه النوم الا غراراً ، لا لأنه ضيق بحاله ، كاره لمكانه ، بل لأنه لا يقضي العجب من هذه الخطوب التي اختلفت عليه منذ سمع الصوت الغريب الذي تغنته تلك الفتاة الجميلة في قصر حاكم المدينة .

وقد ألف الفتى حياته هذه في قيده الثقيل وفي خيمته الخشنة ، بل أخذ يألف الذين يدخلون عليه ويحملون اليه طعامه وشرابه بين حين وحين ؛ بل أخذ يفهم عنهم

بعض الحركات والإشارات ، واخذت نفسه تعي بعض ما يديرون بينهم من الألفاظ . وأخذوا هم يألفون اشارته وحركاته ، ويجدون شيئاً من الأنس الى محضره، ويُشعرونه بذلك بالإشارة واللحظ واللفظ ، ويودّون لو استطاعوا ان يفهموا عنه اكثر مما يفهمون ، وان يفهم هو عنهم اكثر مما يفهم .

وتتصل الأيام وتتبعها الليالي ، والإلف يزداد من حين الى حين بين الأسير ومواليه. وهؤلاء أطفال الحيّ وصبيانه يختلفون الى خيمته فيطيلون فيها المقام ، وتتصل بينه وبينهم فنون من اللعب الهادىء والدعابة الحزينة . وما ينقضي شهر حتى يفقد الفتى كل وحشة ، وحتى تطيب نفسه بهذه الحياة ، وحتى يتسرب الى قلبه شيء من الحب لهؤلاء الصبية الذين يلزمونه ، ولا يكادون يفارقونه الا حين يفرّقهم عنه الليل .

وقد أخذ الفتى يشعر بأن الرضا عن هذه الحياة الجديدة قد أصبح هيناً عليه ومألوفاً له ، لولا هذا القيد الثقيل الذي يقارب بين خطاه ، ويحدّ من حركته ، ولولا هذا الحظر الثقيل الذي يضطره الى خيمته هذه الضيقة الخشنة ، ولا يكاد يبيح له الاستمتاع بالفضاء الواسع والهواء الطلق الا قليلاً ، ولولا خواطر كانت تلمّ به فتثير في نفسه آلاماً لاذعة بين حين وحين ، تذكره بمن ترك وراءه في المدينة من الأهل والصديق ، وبما ترك وراءه في الدير من حب ذلك الراهب الشيخ ، وبما لا يزال يتمنى في قوة وعنف من الرحلة يوماً الى الحجاز ، والظفر يوماً بلقاء ذلك الصبي العربيّ اليتيم .

ويرتفع الضحا ذات يوم ، والفتى غارق في الدعابة واللعب مع هؤلاء الصبية الذين ملأوا عليه خيمته ، واذا ثلاثة نفر من الذين أسروه وحملوه الى هذا المكان قد أقبلوا، ففرّقوا الصبية في بعض العنف ، حتى اذا دخلوا اليه أقبلوا عليه فأنهضوه وأخرجوه من خيمته ، ومضوا به، حتى اذا بلغوا به مكاناً بعيداً عن الحيّ شيئاً سلّوا سيوفهم فأروه بريقها ، وهزوا رماحهم فأروه اضطرابها ، ونثروا كنائنهم فأروه سهامها الرقيقة الحادة . وكانوا اذا سلوا السيوف أشاروا بها الى رأسه ، وإذا هزّوا الرماح أداروها الى صدره ، واذا نثروا الكنائن أنبضوا قِسيّهم فأبعد بها الرمي ، ثم أشاروا بأيديهم الى الجهات الأربع من أمامه ومن ورائه وعن يمينه وعن شماله . وقد فهم الفتى عنهم حق الفهم ، وعرف أنهم ينذرونه بالموت اذا حاول الهرب ، ويرغبونه في الحياة المطلقة من القيود والأغلال ان أذعن لهذا الرقّ الذي فرض عليه . وما كان الفتى الفيلسوف في حاجة الى هذا النذير ! فقد عاهد نفسه منذ حين على الصبر

والإذعان ، والرضا بحكم الإسار . ولكنه أظهر لهم بالإشارة واللحظ مـا أرادوا من طاعة واستكانة ، فردّوه الى خيمته وتركوه فيها لحظة ، ثم عادوا اليه فخلصوه من القيد ، وخلوا بينه وبين الضوء والهواء ، وألبسوه ثياب الرقيق .

- ١٤ -

والنفسُ راغبـةٌ إذا رغّبتها وإذا تُرَدّ إلى قليـل تقنعُ

وقد كانت نفس كلكراتيس راغبة في كثير ، فأصبحت الآن قانعة بالقليل الذي رُدّتْ إليه ، بل بأقل من هذا القليل . وأين أيامه هذه التي ينفقها في حيّ من أحياء كلب بن وَبَرَةَ من أيامه تلك التي كان ينعم بها في مدينةعظيمةمن مدن الروم ! . لقد كان سيداً يأمر في قصره الفخم ، وأرضه الواسعة ، وغلمانه الذين لم يكن يُحسن أن يحصيهم والذين كانوا يمثلون عنده أجناساً مختلفة من الناس . وكان إذا أظله المساء من كل يوم ارتقى إلى قصر الحاكم فنادمه وشاركه في مرحه وفرحه . وكان الذين يعرفونه من أهل المدينة لا يشكون في أن السلطان صائر إليه يوماً ما . وكان مع ذلك غير راض عن نفسه ، ولا قانع بحظه ، ولا مكتفٍ بهذه الحرية التي كان يستمتع بها؛ وإنما كان يرى نفسه ذليلاً مهيناً أسيراً لسلطان قيصر ، وكان يرغب في أن يخرج من هذه الذلة والهوان إلى عزّة يتصوّرها ولا يستطيع أن يجد لها مثلاً . فـأين تلك الحياة الحافلة بفنون اللذات وألوان النعيم من هذه الحياة الجديدة المتواضعة ، أو هي أقـل من المتواضعة ، والتي يقضيها بين هؤلاء السادة الكرام ، لا ساخراً منها ، ولا ساخطاً عليها ، بل قانعاً بها كل القناعة ، راضيـاً عنها كل الرضا ! لقد عرف جسمه المترّف غلظ الثياب وخشونتهـا ، والنوم على الأرض الصّلبة بالعراء ، وعرف الاستيقاظ في السحر ، وعرف خدمة الناس بعد أن كان الناس يخدمونه . بل عرف رعي الإبـل والشاء والتطويف بألبانها مع الصباح على هؤلاء السادة يسقيهم منها ، ولا يشرب إلا إذا ارتووا وأرضَوْا حاجتهم من الشراب . وعرف ما هو أكثر من ذلك وأشدّ إمعاناً في هوان الأمر وضعة الحـال ، ولكنه مـع ذلك لا ينكر شيئاً ، ولا يأسى على شيء . ولعل حياته لا تخلو من بعض الغبطة ؛ فقد رأى حياة جديدة لم يألفها،وعرف بالمشاهدة أجيالا من الناس لم يكن يحقق من أمرهم شيئاً ، وإنمـا كان يقرأ عنهم في

الكتب ، ويسمع عنهم في أحاديث النهار وأسمار الليل . بل هو قد تعلم لغتهم واستطاع ان يتحدّث اليهم ، وان يسمع منهم ، وان يبلو اخلاقهم السمحة ، وطباعهم الساذجة ، ونفوسهم النقية ، وقلوبهم الذكية ، فلا يرى من هذا كله الا ما يسرّه ويرضيه ، والا ما يعجبه ويبهره احياناً. لقد كان سيداً مطاعاً يأمر في عدد ضخم من الغلمان والرقيق ، ولكنه الآن يذكر سيرته في غلمانه ورقيقه ويوازن بينها وبين سيرة سادته معه وامرهم فيه ، فيرى فرقاً عظيماً وبوناً بعيداً .

كان سيداً كما يفهم الروم هذه الكلمة ، مستعلياً على غلمانه ، لا يراهم يُشبهونه من قريب او بعيد ، ولا يكاد يفهم مشاركتهم له في الحياة ، ولا يرى انهم اهل ليحفل بهم او يفكر فيهم او يُعنى ببعض امرهم . انما كان يكل تدبيرهم الى واحد منهم هو صاحب القصر ، وكان يتخذهم ادوات لثروته وجاهه ولذته ونعيمه ، ولم يخطر له قط انهم خليقون ببعض الرفق ، مستأهلون لبعض الرأفة ، وانما كان مؤمناً بأن له عليهم كل الحق ، وليس لهم عليه إلا أن يعيشوا ، وهم لا يعيشون لأن من حقهم العيش ، وانما يعيشون لأن في حياتهم له منفعة وأرباً .

وقد كان يدفعهم الجهد الثقيل المضني الى بعض الكلال والتقصير ، فلم يكن يُعنى او لم يكن ينزل الى إصلاحهم وتأديبهم ، لأنهم لم يُخلقوا لإصلاح ولا تأديب ، ولأن التفكير فيهم إضاعة للوقت ، والعناية بهم تبديد للجهد، والفراغ لهم إهدار للكرامة. فكاد يسلط بعضهم على بعض ، ويجعل بأسهم بينهم شديداً ، ويجني من شقائهم سعادة ، ومن بؤسهم نعيماً ، ومن ألمهم لذة ، ويجني من موتهم الحياة احياناً ، ولا يرى في ذلك إثماً ولا ضيراً ، ولا ينكر من ذلك قليلاً ولا كثيراً ، لأن ذلك كله كان يتفق مع فلسفته وثقافته التي كانت تقسم الناس الى فريقين : فريقاً خلقوا للامر وهم السادة . وفريقاً خلقوا للطاعة وهم العبيد .

وهو الآن ينظر الى سيرة سادته معه وأمرهم فيه ، فيرى عجباً . هؤلاء القوم الغلاظ الجفاة ، الذين يحيون حياة خشنة كلها غلظة وشظف ، قد رقت قلوبهم لهؤلاء العبيد ، وعطفت نفوسهم عليهم ، فهم يخالطونهم بأنفسهم في اكثر ألوان الحياة ، لا يكادون يمتازون منهم في شيء إلا في هذه الامور التي ترضي غرور الرجل البدوي .

هم لا يكلفونهم جهداً إلا وهم يتكلفون مثله ، ولا يحملونهم مشقة إلا وهم يتحملون مثلها ، ولا يؤثرون أنفسهم من دونهم بطيبات الحياة ، وإنما يشاركونهم عن طيب نفس وقرة عين فيما يتاح لهم من هذا الرزق اليسير الذي تنبته لهم الارض حين

يبلها الغيث . وهم لا يستمتعون بنعمة طارئة او لذة عارضة الا اشركوهم في بعض ما يستمتعون به . واذا استأثروا من دونهم بشيء فانما يستأثرون بالجهد والمشقة : يستأثرون بالحرب مدافعين ومهاجمين ، مغيرين على العدو وذائدين عن الحرمات . وهم بعد لم يتحضروا ولم يتثقفوا ، ولم يبنوا المدن، ولم يشيدوا القصور ، ولم يستمتعوا بألوان اللذة والترف ، ولم يذوقوا علم ارسطاليس وفلسفة افلاطون ، ولكنهم على فطرتهم الاولى ، او هم لم يجاوزوا فطرتهم الأولى الا قليلاً .

فكر كلكراتيس في ذلك تفكيراً متصلاً طويلاً ، فتغير رأيه في اشياء كثيرة ، وكوّن لنفسه قيماً اخرى مخالفة لتلك القيم التي كان يقدّر بها الحياة حين كان رومياً متحضراً مترّفاً . وما له لا يفعل وقد اصبح عبداً بدوياً يعيش عيشة الأعراب ، فليفكر تفكير الأعراب ان استطاع الى ذلك سبيلا .

والواقع انه شارك هؤلاء الأعراب في كل شيء ، فاخلص لهم الحب ، واضمر لهم النصح ، واستيقن فيما بينه وبين نفسه انه واحد منهم ، يسوءه ما يسوءهم ، ويسرّه ما يسرهم ، وان فراقهم ان أتيح له سيكون عليه عسيراً واليه بغيضاً . ولعله ان مهدت له سبل الإفلات من هذا الرق لأبى ان يفارق هؤلاء الناس الذين استرقّوه وبغوا عليه ولمّ يفارقهم وهو لم يفقد عندهم من عزته وكرامته شيئاً ، وهو لم يستمتع قط بحرية نفسه واسعة مطلقة بعيدة الآماد كما يستمتع بها في هذا الطور من اطوار حياته ؛ انه اسير الجسم ، ولكنه حر العقل الى ابعد مدى . اسير الجسم الى حد ما ، فقد يكون من العسير عليه ان يحاول الهرب او الافلات ، ولكنه حر فيما دون ذلك ، يذهب ويجيء الى اي وجه احب وعلى أي نحو أراد. وقد وثق به سادته واطمأنوا اليه؛ فهم يكلون اليه أموالهم ويأمنونه عليها، ويثقون بتدبيره لها وذياده عنها وعنايته بها. فإساره ظاهر لا يكاد يكون له ظل من الحق . فأما حرية عقله فلم تمس ولم يضيق عليه منذ أقام بين هؤلاء الناس لم يسألوه قط عن رأيه ، ولم يمتحنوه قط في دينه ، ولم يراقبوه قط فيما ينكر أو يعرف من الأمر . وقد فكر الفتى فيما يمكن أن يكون لهؤلاء الناس من رأي ودين ، فأعجبه من أمرهم ما رأى وان كان لم يرضه لنفسه ، ولم يتخذه لها رأياً وديناً .

لم يرهم قط يعبدون الهاً أو يتقربون اليه بالطاعة وفنون الضحايا ، وانما سمعهم يديرون بينهم أسماء آلهة يذكرونها ولا يحققونها، ويظهرون الخوف منها والإكبار لها، ولكنهم لا يبذلون في ارضائها وتملقها جهداً ما . هم أحرار الأنفس أحرار الضمائر ،

كأنما اشتقوا حرية نفوسهم وضمائرهم من حرية هـذا الهواء الطلق الذي يتنفسونه ويعيشون فيه .

وهم احرار الأجسام ايضاً ، لا تقيدهم المدن ولا تحبسهم القصور والدور ،ولكنهم ينزلون ويرحلون متى دعتهم حاجتهم الى ان ينزلوا او يرحلوا . حرية مطلقة يستمتع بها الجسم ، وحرية مطلقة تستمتع بها النفس والضمير .

كل ذلك كان يعجب الفتى ويرضيه . وكل ذلك كان يعزّيه عما فقد ، ويسليه عما احتمل ، ويغريه بالإقامة على حب هؤلاء الناس والوفاء لهم . ولكن شيئاً واحداً لم ينسه قط ولم تسلُ عنه نفسه قط ، وانما كان ذكره له يزداد ، وشوقه اليه يقوى ويشتد ، وتفكيره فيه يتصل ، ولا سيما اذا جنه الليل وخلا الى نفسه وأبى أن يأوي الى خيمته ،أو يطمئن في مضجعه ،وآثر الجلوس في العراء مسرّحاً طرفه امامه يرى حيناًولا يرى حيناً آخر، مرسلا نفسه في هذه الصحراء تهيم في غير وجه وتذهب في غير طريق. وكان تفكيره فيه يتصل اذا اصبح فطرد الإبل امامه الى مراعيها، ثم انتهى الى حيث يستطيع أن يخلي بينها وبين ما ترعى من الكلأ والعشب ، ويفرغ هو لنفسه يريد أن يستقصي أخبارها ؛ ولضميره يريد أن يتعمق أسراره ، وهو هذا المكان البعيد الذي كان يعيش فيه لذلك الصبي العربي اليتيم .

الصبيّ ! كلمة كانت تجري على لسانه وتتردد في ضميره ، لأن العادة قد أجرتها على لسانه وردّدتها في ضميره منذ ذلك اليوم البعيد الذي قضاه مع رفيقه بحيرى في الصحراء. وكم مضى بعد ذلك اليوم من أيام ! وكم انقضى بعد ذلك اليوم من أشهر وأعوام ! وكم تغير بعد ذلك اليوم من شأن ! وكم حدث بعد ذلك اليوم من أمر ! لقد كان هو في ذلك اليوم فتى رومياً غضّ الشباب ، نضر الجسم ، فارح النفس . لقد أخذ شبابه يتولى عنه ، وأخذ جسمه يفقد نضرته ، وقد أخذ وجهه يتجعد ويربدّ ، وقد أخذ قلبه يهدأ ، وقد أخذت نفسه تحس الفتور . ليس هو الآن فتى رومياً ، ولكنه عبد كهل قد تقدمت به السن ونيف على الأربعين ، وقد ثقل جسمه ونفسه بعض الشيء ، فهو لا يسرع اذا مشى ، ولكنه يسعى في رزانة وأناة . وهو لا يسرع اذا فكر ، وانما تخطو نفسه الى خواطرها وآرائها خطوات متقاربة تسيطر عليها الدعة والهدوء .

ليس هو فتى رومياً الآن ، ولكنه كهل قد بلغ الشيخوخة او كاد يبلغها ! فما ينبغي أن يكون ذلك الصبي العربي صبيّاً كما كان حين رآه بحيرى وتحدث عنه بتلك الأعاجيب . لقد مضت الأيام وتبعتها السنون ، ولقد صار هو كهلاً ، فيجب أن

يكون ذلك الصبي العربي قد صار فتى غض الشباب نضر الجسم ، فارح النفس ، بعيد الهمّ ، ذكيّ القلب ، كريم الخلق ، سَمْح الطبع ، معتدل المزاج .

منْ لهذا الكهل الرومي الغريب بأنباء ذلك الفتى العربي الذي يقيم في واد بعيد من أودية الحجاز ؟ ماذا جدّ من أمره ؟ ماذا أحدثت له الأيام ؟ عمَّ تكشف الغيب ؟ اتراه قد انبىء ببعض ما خبىء له وما خبىء للناس على يديه ؟ أتراه قد أظهر أمره او كاد يظهره ؟ إن هذا الحي من كلب بن وبرة ليضطرب في جانب من الأرض العريضة ، يذهب فيه ذات اليمين وذات الشمال ، ويذهب فيه الى امام والى وراء ، ولكنه لا يبعد ولا يدنو من هذه الطرق التي تمر منها القوافل آتية من الحجاز او عائدة اليه .

وما اكثر الذين ينزلون بهذا الحي من كلب بن وبرة من أفراد الناس وشذّاذ الآفاق ! فيدنو منهم هذا الكهل الرومي ، ويتصل بهم ، ويتوسل اليهم بالوسائل ، ويسألهم عن الحجاز ، فينبئونه عنه بما يعلمون وما لا يعلمون . ويسألهم عن هذا الفتى القرشي ويسميه لهم ، فينكرونه ولا يعرفون من أمره شيئاً ، ولكنهم يثنون على قريش ويُعجبون بمفاخرها ومآثرها ، ويثنون على رهطه الأدنين ويذكرون ما لهم من المآثر والمكرمات ، ثم ينصرفون الى غير وجه من هذه الأرض البعيدة العريضة التي لا يعرف الطرف لها مدى ، ولا تنتهي العين منها الى حد .

مَنْ لهذا الكهل الرومي بشيء من انباء السماء ؟ فقد كانت الأحاديث متصلة مستفيضة في اديار الرهبان وصوامع الأحبار ، بأن انباء السماء قريبة . افتراها قد بلغت الى الناس ؟ افتراها تبلغه يوماً من الأيام ؟ افتراه يستطيع ان يسعى اليها يوماً من الأيام ؟ ما اقامته بين هؤلاء القوم الكرام من كلب بن وبرة في ناحية من نواحي الصحراء غير بعيد من الشام ! وان همه لفي واد من اودية الحجاز ، وان شفاءه لعند فتى من قريش يقال له محمد بن عبدالله !

ما اكثر ما كانت تخطر هذه الخواطر على كلكراتيس فتملأ نفسه ، وتفعم قلبه ، وتشيع فيه شوقاً جديداً وحناناً عظيماً ، وترسل من عينيه دموعاً غزاراً ، وتصعد من جوفه زفرات تكاد تحرّق قلبه تحريقاً وتفريه من حين الى حين ببعض الأمر ، ولكنه لا يلبث ان يثوب الى نفسه ، ويثوب الى رشده ، ويذكر ذلك العهد الذي أشهد الله وضميره عليه حين كان موثقاً الى تلك المطية التي كانت تسرع به في الصحراء اسراعاً رفيقاً .

ليصبرنّ على المحنة ، وليثبتنّ للخطب ، وليقيمنّ على الوفاء لظالميه والباغين عليه

حتى يبلغ الكتاب اجله ! فان الله لم يَصُبَّ عليه هـذه التجارب ، ولم يمتحنه بهـذه الخطوب الا وله في ذلك أرب وحكمة .

فليصبر على المحنة اذاً ، وليثبت للخطب حتى يبلغ الكتاب اجله . ولكن ألم يأن للكتاب ان يبلغ اجله بعد ؟!

- ١٥ -

بلى ! قد انى للكتاب ان يبلغ اجله ، وان يبلغه في وقت اقصر جداً مما كان يقدّر هذا الكهل الرومي الذي ما نزال نحتفظ له باسمه الرومي القديم كلكراتيس، وان كان سادته لا يعرفون له هذا الاسم ، وان كان هو نفسه قد كاد ينسى هـذا الاسم وما يتصل به من الذكرى ، واصبح لا يذكر الى اسمه العربي الجديد الذي اشتق من الساعة التي اسر فيها ، وهي مطلع الصبح فسمي « صبيحاً » .

انى للكتاب ان يبلغ اجله في وقت اقصر جداً مما كان يقدّر صبيح ، وعلى نحو اغرب جداً مما كان يقدّر ايضاً . وهـل جرى امر من اموره على نحو مـا فكر او قدّر ! الم تكن حياته كلها الواناً من الخطوب يتبع بعضها بعضاً على غير انتظار منه لها ولا ترقب منه لوقوعها ؟! من كان يستطيع ان يتمكن له بأنه سيأوي مع صديقه الشيخ الى الدير ، او سيرحل مع رفيقه بحيرى الى العراق ، او سيقع اسيراً في ايدي هذا الحي من احياء العرب ، او سيقضي اعواماً طوالاً لا يسمع فيها صوتاً رومياً ، ولا يتحدث فيها الى رجل رومي ، ولا يقرأ فيها كتاباً من كتب الروم ، ولا يحاور فيها راهباً من رهبانهم ، ولا حبراً من احبارهم ، ولا فيلسوفاً من فلاسفتهم ، وانما يلتحف شملة الأعرابيّ ، ويتكلم لغة الأعراب ، ويروي اشعارهم كأحسن ما يرويها الأعراب الفصحاء ، ويُدعى بهذا الاسم الغريب فيجيب !!

ومن كان يستطيع ان يتكهن له بذلك او ببعض ذلك؟! ولكنه على بعده وغرابته قد وقع له وجرى عليه ! وهو جالس ذات يوم في اعقاب النهار وقد امتلأت نفسه بهذه الخواطر التي صوّرناها آنفاً ، وهو مقسّم بين الاستسلام لها والاسترسال فيها ، وبين النهوض الى ابله هذه المتفرقة ليجمعها وليدفعها امامه الى حظائر الحيّ . فقد تولى اكثر النهار ومنزل الحي بعيد . انه لفي ذلك واذ هو يسمع كلبه ينبح عن بعد، فينتبه

ذلك بعض الشيء ، واذا اشخاص تُرْفع له لا يكاد يحققها اول الأمر ، ثم تدنو منه شيئاً فشيئاً ، فينظر فيرى رجلاً شيخاً نبيل المنظر مهيباً ، قد اقبل على راحلته، ومن حوله غلمان ثلاثة كأنهم اتباعه في السفر واعوانه على جهد الطريق .

فلما رأى « صبيح » ذلك نهض متثاقلاً ، وسعى حتى دنا منه ، فيسأله الشيخ عن حيّه من هم ؟ فيجيب صبيح . ثم يسأله الشيخ عن اسمه وعن موطنه الأول ، فيجيب صبيح في اناة ووقار يشبهان الإعراض والفتور ولكن الشيخ لا يكره ذلك ولا ينكره ، وكأنه استعذب صوت العبد واستلذ لغته ؛ فهو يطيل معه الحديث ، ويلح عليه في السؤال . فإذا عرف انه روميّ الموطن ، تحدث اليه عن بلاد الروم حديث العالم بها ، الملمّ ببعض شؤونها واخبارها . على نحو ما كان العرب في ذلك الوقت يعرفون بلاد الروم ويفهمون ما يبلغهم من انبائها .

ولكن حديث الشيخ يثير في نفس صبيح شوقاً وحناناً ، ورغبة في الاستطلاع وشغفاً بالتزيد من هذا الحديث ، واذا صوته الفاتر يستردّ شيئاً من نشاط ويشيع فيه شيء من حرارة . وإذا وجهه الذي لم يكن يظهر عليه اكتراث أو احتفال تظهر فيه آيات العناية بما يسمع من الشيخ والرغبة في التزيد منه .

ويطول الحديث شيئاً بين الشيخ والعبد ، وقد شُغل كل منهما بصاحبه فلم يذكر الشيخ حاجته ، ولم يحفل العبد بواجبه . وتمضي لحظات غير قصار ، ثم يتنبه صبيح فيعتذر إلى الشيخ من تقصيره وينسبُه . فإذا انتسب الشيخ وجم العبد وجوماً شديداً، وظهرت عليه آيات الذهول أو ما هو أكثر من الذهول . وامتلأت نفس الشيخ لذلك عجباً ! فقد انتسب الشيخ إلى قريش ، وتحدّث مالئاً فاه بأنه من أهل مكة وسكان الأباطح وجيران البيت الحرام ، وأن سادته لا يسمعون اسمه ، ولا يعرفون مكانه من قريش ومنزله من الحرم حتى يتلقّوه لقاء لا يتلقّونه أحداً آخر من غير هذا الحي من قريش ، جيران الله ، وسدنة بيته الكريم .

والشيخ يقول هذا كله مزهوّاً به ، ممعناً فيه ، مالئاً به ما بين شِدْقيه ، كأنه يمتلىء عزة وأنفة كلما أجرى منه على لسانه لفظاً . والعبد يسمع هذا مبهوراً مسحوراً قد ملك عليه أمره ، وكاد يذهب عنه عقله . ويظن الشيخ أن العبد مفتون باسم قريش وموطنها ؛ لكثرة ما سمع من ذكر قريش ، ولكثرة ما عرف من تقديس العرب لهذا الموطن الحرام . ولكن العبد يفجؤه بهذا السؤال : فأنت إذاً تعرف محمد ابن عبدالله بن عبد المطلب ؟

قال الشيخ باسماً معتزّاً : نعم ! سيدنا وابن سيدنا . ومن ذا الذي لا يعرف محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ! ولكن ما علمك به ؟ وما ذكرُك له وأنت عبد روميّ لا علم لك بمثل هذه الشؤون ؟!.

قال صبيح غير حافل بهذا السهم الذي وجهته إليه كبرياء هذا الشيخ العربي القرشي: متى آخر عهدك به ؟

قال الشيخ ضاحكاً : آخر عهدي به ! آخر عهدي به ثلاثة أعوام وبعض عام . ولكن ما علمك بمحمد ؟ وما سؤالك عنه ؟

قال صبيح : ثلاثة أعوام وبعض عام ! هذا كثير . ولعل كثيراً من الأحداث أن يكون قد طرأ في هذا الرّدَح من الزمان .

قال الشيخ : أينّ يا غلام ، ما علمك بهذا السيد من سادة قريش ؟ ومـــا سؤالك عنه ؟ وما إلحاحك في هذا السؤال ؟.

قال صبيح : فكيف تركته حين فارقته ؟

قال الشيخ وأخذ يتميز غيظاً : تركته سيد قومه، على خير ما يحبّون له وعلى خير ما يحبون منه . ولكن ما أنت وذاك؟ امض بنا إلى سادتك فقد أخّرتنا عن القصد ، وصرفتنا عما نحن في حاجة إليه .

قال صبيح ، وقد أخذت دموع هادئة تتساقط على وجهه ، وقـــد ازداد صوته عذوبة ، وحديثه رقة ، وقد أخذ بزمام الراحلة : على رسلك يا مولاي ! فإني أنتظر هذا الحديث منذ أعوام طوال وإنك لو تعلم شوقي إليه وكلفي به ، وما احتملت في انتظاره من ألم ، وما تكلفت من جهد ، وما عانيت من لوعة ، لرفقت بي ، وأشفقت عليّ ، وتلطفت معي في الحديث .

قال الشيخ : ما رأيت كاليوم غلاماً رومياً يعنى بأمر فتى من قريش . ثم رقّ له وعطف عليه وقال : سلني من أمر محمد عما أحببت يا بنيّ ؛ فما أرى إلا أن الإلحاحك في السؤال عنه شأناً ! .

قال صبيح : ألم يكن قد جهر بأمره حين تركته في مكة ؟

قال الشيخ وقد أخذ يعجب مما يسمع ، وقد أخذت نفسه تتنبه وتثوب : جهر بأمره ! وأي أمر يا بنيّ ؟ وهل لمحمد أمر يسرّه ويريد أن يجهر به ؟

قال صبيح : فقد كان الغيب يحجب أمره إذاً حين تركته ؟

قال الشيخ : أينّ يا بنيّ ! فإني لا أفهم عنك منذ الآن . ما أمر محمد هذا الذي

تسأل عنه ؟ فإني لا أعرف لمحمد أمراً ، وإنما أعرفه فتى كريماً من قوم كرام ، قد امتاز من أترابه بما لم نألف : من طهارة النفس وشرفها ، ومن سماحة الخلق وكرمه ، ومن التنزه عن الصغائر والارتفاع عن الدنيات ، وإنا لنحب ذلك منه ونحبه له ، وتمتلىء قلوبنا إعجاباً به وعطفاً عليه ، وإنا لنضربه مثلاً لشبابنا ، ونأخذهم بأن يتأثروه ويقتدوا به ، فلا نكاد نبلغ من ذلك أيسر ما نريد ؛ لأن هذا الفتى من فتيان قريش قد قدّر له حظ من الكمال لم نألفه قط ! فإنا لا نراه يوماً من أمره على خير إلا رأيناه من الغد وقد ارتقى إلى خير مما عرفنا . أبنْ يا بني ! ما أمر محمد هذا الذي تسأل عنه ، وتنتظر أن يجهر به ؟ ثم أشار الشيخ إلى غلمانه أن أنيخوا الراحلة ، ففعلوا وأعانوه على النزول ، واتخذ مجلساً ، ودعا إليه صبيحاً فأجلسه قريباً منه ، ثم أشار إلى غلمانه فتنحوا شيئاً ، فلما فرغ للعبد وفرغ العبد له قال : أفصحْ يا غلام عن أمرك ! فإن حديثك قد أهمّني .

قال صبيح : فأفصحْ أنت يا سيدي عن أمرك ؛ فإن احتفاءك بحديثي وإصغاءك إليّ ، ونزولك عن راحلتك ، وتنحية غلمانك ، وحرصك على أن تستقصي ما عندي، كل ذلك يهمني ويعنيني كما يهمك حديثي ويعنيك .

قال الشيخ : فتعلمْ يا بُنى أني رجل من قريش أنكرت من أمر قومي شيئاً كثيراً، وهاجرت من أرضهم أطلب في بلادك وعند قومك ما لم أجد في بلادي وعند قومي . وقد طوّفت في بلادك ثلاثة أعوام وبعض عام ! وهأنذا أعود منها يائساً مخيب الأمل؛ لأني لم أجد فيها ما كنت أبتغي ، ولأني سأجد في بلادي ما كنت أكره ، وسألقى من قومي ما كنت أنكر ، أو سأفارق هذه الحياة ولما أظفر بما أريد .

قال صبيح وقد أخذ منه الشوق مأخذه : ماذا أنكرت من قومك ؟ وماذا ابتغيت عند قومي ؟

قال الشيخ : أنكرت من قومي دينهم هذا الجافي الغليظ . وابتغيت عند قومك دين إبراهيم فلم أجده . وهأنذا أعود إلى بلادي وفي نفسي حسرة الحرمان واليأس ، وشيء ضئيل من أمل ! مع ذلك.

قال صبيح متلهفاً : شيء ضئيل من أمل !

قال الشيخ : نعم ! فقد زعم لي راهب من رهبانكم في البلقاء منذ ثلاثة أعوام أن هذا الدين الحنيف الذي أطلبه لا يوجد في بلاد الروم ، ولا ينتظر أن يظهر عند النصارى أو اليهود .

قال صبيح : وإنما يرُجى أن يظهر في مكة حيث كنت تقيم !

قال الشيخ : وما علمك بذلك ، فقد أنبأني به راهب البلقاء ؟

قال صبيح : نعم ! ويُرْجى أن يظهر على يد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب هذا الذي كنت أسألك عنه وعن أنبائه .

قال الشيخ وقد ملكه العجب ، وكاد يطير شغفاً بأن يعلم ما عند صبيح : من أنبأك بهذا ؟ ومن أظهرك عليه ؟

قال صبيح : فإني يا سيدي رجل من الروم ، قد أنكرت ما عند قومي ، وخرجت مثلك أبتغي خيراً مما عندهم ، فعرفت كثيراً ، ثم هممت أن أستقصي النبأ ، وأبلغ الغاية ، وأنتهي إلى الحجاز وأرى هذا الفتى القرشي الذي تظاهرت أنباء الأحبار والرهبان وأخبار الكتب والنبوات على أنه النبي الذي أظلنا زمانه ، فحلّ بي ما ترى ، وأصبحت راعياً للإبل في حيّ من كلب بن وبرة ! .

واتصل الحديث بين الشيخ وصبيح وقتاً طويلاً ، حتى أنكر الحي غيبته ، وأشفقوا أن يكون قد أغار عليه وعلى إبله بعض المغيرين . ولكنهم رأوه مقبلاً يسعى، وينبئهم بأن شيخاً من سادة قريش الأباطح قد ألمّ بهم يسمى زيد بن عمرو .

وقد احتفى القوم بضيفهم الكريم ، وقَرَوْه كأحسن ما يكون القرى ، وأنزلوه منهم أحسن منزل . ولكنهم عجبوا من أمره إذ رأوه حين يتقدّم الليل وهمّوا أن يتفرقوا عنه يدعو إليه صبيحاً ذلك العبد الرومي ، ويتقدّم إليه في أن ينفق معه ما بقي من الليل . لم يفهم الكلبيون من هذا السيد القرشي كَلَفَهُ بهذا العبد وشغفه به وحرصه على صحبته ! ولعلهم أن يكونوا قد أحسوا في نفوسهم بعض المَوْجِدة ! فقد كان هذا الشيخ القرشي خليقاً أن يستعين على أرَق الليل بالتحدّث إلى الأكفاء والنظراء من سادات كلب وأشراف العرب ، ولكنه يؤثر بالحديث عبداً روميّاً لا يعرف من هو ، ولا من أي موطن جاء . على أنهم لم يظهروا من موجدتهم هذه شيئاً ، ومضوا في إكرام ضيفهم إلى ما أحب . قال بعضهم لبعض : شيخ مقبل من بلاد الروم ، فلا بأس أن يصطفي هذا العبد الرومي ليتحدّث إليه ببعض ما رأى ، ويسأله عن بعض ما لم يفهم .

وأنفق صبيح مع زيد بن عمرو ليلة لم تعرف النوم ، وإنما عرفت أحاديث متصلة مختلفة ، ذكر فيها كل منهما لصاحبه ما عرف وما أنكر ، وما بحث وما استقصى ، وما اهتدى إليه من علم ، وما هو منتظر من جلية الأمر . فلما أسفر الصبح وتقدّمت

سادات كلب إلى ضيفهم بما أحب من القرى ، وهمّ زيد بن عمرو أن يرتحـــل عنهم ، رغب إليهم في شيء لم يسمعوه حتى ازداد عجبهم له وإنكارهم إياه. قال زيد بن عمرو: يا معشر بني كلب ؟ إن لي عندكم حاجة ما أظنكم تردّونني عنها أو تأبونها عليّ ؟ فما رأيت منكم إلا خيراً ، وما عرفت منكم إلا كرماً ونبلاً .

قال قائلهم : ما تشاء يا سيد قريش ؟

قال : عبدكم هذا الروميّ هبوه لي أو بيعوه مني ، فإني على صحبته حريص . وما ضاع العرْف بين قريش الأباطح وبين حيّ من أحياء العرب،قريب منها أو بعيد عنها

قالوا : لقد طلبت يسيراً ، وابتغيت سهلاً قريباً وإن كنا لنؤثر هذا العبد الرويّ ونحب ما بلونا من أخلاقه ، وما عرفنا من سيرته ، وأمانته في أموالنا وأسرارنا ، فهو لك .

قال زيد بن عمرو : يد محفوظة يا معشر بني كلب . فأما وقد وهبتم لي هذا العبد فأصبح ملك يميني وطوع يدي ، فاشهدوا أني أعتقته، وملكته أمر نفسي من فوري، وهو بعد ذلك حرٌ في أن يذهب الى أي وجه من وجوه الارض شاء .

قال الكلبيون : لقد وفت ذمتك يا شيخ قريش. ونحن جيران لهذا الرجل وأدلاء له حتى يبلغ مأمنه .

قال صبيح وقد أقبل على زيد بن عمرو يقبّله ويبارك عليه وإن دموعه لتنهلّ على خــديه غزاراً : وفت ذمتكم يا معشر العرب . والله ما كرهت جواركم ، ولا شنأت الإقامة فيكم ، ولا رغبت نفسي عن ودّكم . ولو خيّرت لـما عدلت بصحبتكم شيئاً ، ولكنه أمر يراد . وما أنا بعائد إلى بلاد الروم ولا رغبة لي فيهـا ، ولا أرب لي عند أهلها ، وإن كنت قد خلفت فيها من الصديق والخليل ما لا تزال تؤثره نفسي بالحب والحنان، ولكني ماضٍ مع هذا الشيخ من سادة قريش ، مقيم معه في الحرم ، وفي جوار بيتهم هذا الكريم ، فإن له ولي لشأناً عجيبا .

- ١٢ -

وانصرف زيد بن عمرو وصاحبه الروميّ حين زالت الشمس يقصدان الحجاز ، وليس لهم حديث إلا هذا الفتى القرشيّ اليتيم ، وما أراد الله به من كرامـــة ، وما

قدّر الله على يده للناس من نجاة ، وإن زيداً ليقص على صديقه الرومي بدء حيرته في مكة مع نفر ثلاثة من أصحابه : ورَقَة بن نوفل ، وعبيدالله بن جحش ، وعثمان ابن الحُوَيرث ، يقول لصاحبه وإن فمه ليملؤه الضحك ، وإن وجهه ليغمره البشر : لقد أراني مع أصحابي ذات يوم نشارك قومنا من قريش في عيد من أعيادنا مسرورين محبورين ، تهتز أعطافنا أريحية وكرماً ، ونريد أن ننتهز فرصة هذا العيد لنذبح في قرائننا وذوي الحاجة من قومنا ما نستطيع أن نذبح فيهم من الخير والمعروف ، فنرى قومنا يطيفون بوثن من أوثانهم يكرمونه ويُكبرونه ، ويلثمونه بشفاههم ، ويمسحونه متهيبين بأيديهم ، وينحرون عنده الإبل والشاء ، فننظر ونتظر ، ونهمّ أن نفعل ، ولكننا نرَدّ عما هممنا ، ونجدد العزم على أن نشارك قومنا ، ولكننا نرَدّ عن ذلك مرة أخرى رداً عنيفاً . وإذا بعضنا ينظر إلى بعض ، وإذا بعضنا يفهم عن بعض ، وإذا نحن نخلص نجيّاً . وإذا نحن نضحك حتى ما نملك أنفسنا من الضحك ، ونحزن حتى ما نملك أنفسنا من الحزن . نضحك حين نرى سادة قريش وأشراف العرب يطيفون بحجر من هذه الاحجار التي تطؤها الأقدام ، وتعمل فيها الفؤوس ، وتسخر في أغراض الناس وحاجاتهم ، وهم يُكبرونه ويعظمون أمره ، ويتقدمون إليه بالعبادة والطاعة . ونحزن حين نرى هذه الأحلام قد استحالت الى سَفه لا يشبهه سفه ، وحين نرى ما صار إليه أمر قريش من هذه الجهالة الجهلاء ، ومن هذه الضلالة العمياء ، وفيهم مع ذلك بيت الله ، ومقام أبيهم ابراهيم ، وقد ورثوا مع ذلك دينه فأضاعوه ولم يحفظوا منه شيئاً .

نعم ! ضحكنا حتى كاد يقتلنا الضحك ، وحزنّا حتى كاد يملكنا الحزن ، وانصرفنا الى رحالنا وقد أزمعنا أن نلتمس لأنفسنا الخير ما وجدنا الى الخير سبيلا .

فأما ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وأنا فقد ارتحلنا عن مكة بعد خطوب وألوان من الجهد ، نلتمس الدين عند أهل الكتاب من يهود ، وعند أهل الكتاب من نصارى الروم .

وأما عبيد الله بن جحش فقد أقام في مكة حائراً ينتظر . ولم ندر إذاً ماذا كان ينتظر . ولكني قد علمت الآن أنه كان ينتظر أن يهبط دين ابراهيم من السماء على مقام ابراهيم في الأرض ، من طريق فتى من فتيان قريش . اني لأذكره الآن وأتمثله وأراه وكأني أسمع له . لم يشاركنا في عيدنا ذاك ، وما رأيته قط يشاركنا في عيد من أعيادنا تلك التي كنا نقيمها حول الأوثان . لقد فهمت الآن ، لقد كنت أراه يعتزلنا

اذا عكفنا على أصنامنا . ولقد كنت أعجب من أمره . ولقد هممت غير مرة أن أسأله ما باله لا يأخذ مع قومه فيا يأخذون فيه ؟ وما باله لا يطوف بالكعبة إلا فرداً؟ ولكني كنت أرَدّ عنه ردّاً كلما هممت بسؤاله . وكثيراً ما سألت نفسي : ما الذي يصرفني عنه حين كنت أقبل عليه ؟

لقد فهمت الآن ! مـا كان الله ليختار لرسالته رجلاً عكف على صنم ، أو تقرّب الى وثن ، أو شارك قومه في بعض الإثم .

لقد كان محمد منزهاً عن حب الأصنام والقرب منها ، وعن عبادة الأوثان والعكوف عليها ، وعن مشاركة قومه فيا كانوا يقترفون فيه من الآثام . ولقد كان محمد يعيش وحده ، وإن كنا نرى أنه كان يعيش معنا ! لقد فهمت الآن !

ثم يُطرق زيد بن عمرو إطراقاً طويلاً ، ثم يرفع رأسه الى صاحبه قائلاً : ولكني لم أتمم لك الحديث . لقد ارتحلنا من مكة الى بلاد الروم ، فجعلنا نسأل اليهود عن دين ابراهيم ، فيعرضون علينا ما عندهم ، فلا نرضاه ولا نطمئن إليه . ثم عدلنا عنهم الى رهبان النصارى وأحبارهم ، فما يكادون يقرأون علينا كتبهم ويظهروننا على بعض ما عندهم من العلم حتى يؤمن صاحباي وتطمئن قلوبهما الى النصرانية . فأما ورقة ابن نوفل فقد أخذ منها بحظه ، ثم عاد الى وطنه على أن يقيم فيه على عبادة الله وإكبار المسيح .

وأما عثمان بن الحويرث فلم تعجبه النصرانية وحدها ، ولكن أعجبته بلادك فهام بها ، وفتن بحضارتها ، ومضى إلى قسطنطينية ليعيش فيها عيشة الروم ، ويموت فيها ميتة الروم . وأما أنا فلم يعجبني أمر النصارى كما لم يعجبني أمر يهود . رأيت في هذا وذاك أشياء لم أفهمها ولم أذقها ، ولم أحس ملاءمتها لقلب هذا العربي الساذج السمح اليسير . وما شككت في أن اليهود والنصارى قد عقّدوا أمورهم تعقيداً، وأخرجوها عن طبيعتها السمحة ويسرها الأوّل . فجعلت أطوف على أدياركم في الجزيرة والشام ، حتى لم أدع منها ديراً إلا طرقته ، وسألت من فيه من الأحبار والرهبان . فلم أجد عند أحد منهم شيئاً ، وإنما هو كلام اسمعه ولا أفهمه ، وعلم أحفظه ولا أحصّله ، وألغاز لا أهتدي إلى حلها ، وأسرار يعجزني كشفها ، حتى أنتهيَ إلى صومعة في البلقاء ، يقيم فيها راهب فذّ لا يعايشه أحد ، فأسأله عن دين إبراهيم ، فينبئني بما أنبأتك به من أن دين إبراهيم ليس في بلاد الروم ، ولكنه سيهبط على بلاد العرب ، وقد آن أوان ظهوره فيها. فأعود إلى وطني ، وألقاك في بعض الطريق ، وإذا أنت

تعلم من الأمر ما أعلم، وتنتظر منه ما أنتظر ، بل أنت تعلم أكثر مما أعلم ،وتنتظر أكثر مما أنتظر .

قال صبيح وقد بهره ما سمع : فإنك قد علمت من أمري ما علمت ، ورأيت أن حيرتك في بلادك لا يشبهها إلا حيرتي في بلادي . وإني قد طوّفت في الأرض كما طوّفت أنت فيها ، وانتهيت من الأمر إلى مثل ما انتهيت أنت إليه . وما أرى إلا أن الله قد استنقذنا من الحيرة ، وردّ إلى قلوبنا الثقة والاطمئنان . ولئن بلغنا الحجاز وانتهينا إلى هذا الفتى القرشي لنكونن أسعد الناس به ، واحرص الناس على اتباعه .

قال زيد بن عمرو : ولنمنحنه ما نملك من نصروتأييد ، ولنعيننّه على إظهار أمره وتبليغ رسالته إلى الناس ، وليعلمنّ الخطاب ابن نفيل عمي الذي كان يؤذيني ويغري بي السفهاء من شباب قريش أني لم أكن واهماً ولا متكلفاً .

قال صبيح : نعم ! ولكن متى نبلغ الحجاز ؟ ومتى ننتهي إلى سيد قريش ؟

قال الشيخ : ليس الأمد بيننا وبين مكة بعيداً ، وإنما هي أيام وليال ، تنفق أكثرها في هذا الحديث الذي يعيننا على السفر ، ويحمينا من أنصابه وأوصابه ، ويجدّد عزيمتنا ، ويثبت قلوبنا ، ثم ننتهي إلى ما نحب ، ونظفر بما نريد .

ولكنهما لم ينتهيا إلى ما أحبا ، ولم يظفرا بما أرادا ، وإنما مرّا بأرض بني لخم ، فطمع اللخميون فيهما ، وظنوا أن عندهما مالاً وثراء ، فيعدُون عليهما فيقتلونهما .

ويُصرَع الحنيف العربي ، والفيلسوف الرومي ، وإن لسانيهما ليذكران محمداً ، وإن قلبيهما ليطمئنان إلى ذكره ، وإن عموداً من نور ليهبط من السماء حتى يبلغهما ، ثم يفصل منهما مصعداً في الجو وقد حمل بين ثناياه نفسين كريمتين .

قال ابن إسحاق : وحدثت أن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعمر بن الخطاب– وهو ابن عمه – قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : استغفر لزيد بن عمرو . قال : « نعم ! فإنه يبعث أمة وحده » .

راعي الغنم

- ١ -

قالت خديجة لنسائها في صوت المروّعة المأخوذة : « أقبلن فانظرن ! فإني أرى شيئاً ما رأى الناس مثله قط » . وأقبل نساؤها ، فلما نظرن أكبرن ، ثم ارتعن فتراجعن ، ثم عدن فجددن النظر ، وقد ذهبت بهن الحيرة كل مذهب ! فقلن لخديجة مبهورات مسحورات : « ما ينبغي أن يكون هذا رجلاً من الناس » . قالت خديجة وقد امتلأ صوتها حناناً وحباً ، وإعجاباً وإكباراً : « إنه والله لرجل من الناس قد عرفت أمه وأباه وشهدت مولده ، وسمعت أحاديث الناس عنه وآراءهم فيه ، وقد طالما رغّبْتُنّني عنه وحوّلتُنّني عما كنت أريد منه . فأما الآن فلن تبلغن مما حاولتنّ شيئاً » .

وما كادت تتم حديثها حتى كان محمد بن عبدالله قد دخل عليها فأنبأها في لفظ عذب سريع بما كان من رحلته إلى الشام ، وبما عاد به إليها من ربح مضاعف لم تكن ترجوه ، ولم تعد بمثله اليها العير منذ تعوّدت أن ترسل تجارتها إلى الشام مع العير . وقد أتمّ محمد حديثه دون أن تعرف خديجة كيف تردّ عليه هذا الحديث ، أو تشكر له هذا الصنيع ، أو تكافئه على ما ساق الله إليها على يديه من خير .

كانت مأخوذة بمنظره قبل أن يدخل عليها ، ثم أخذت بمنظره ولفظه حين تحدّث إليها . وكانت في حاجة إلى الوقت لتسترد نفسها ، وتستنقذ صوابها ، وتخرج إلى الإفاقة من هذا الذهول ولكن محمداً لم يمهلها ، وإنما قال لها ما قال ، وانصرف عنها مسرعاً كأنما أدّى اليها نبأ لم يكن يرغب في تأديته ، ولم يكن مع ذلك يجد بداً من أن يؤديه . فلما ألقى هذا العبء عن عاتقه انصرف خفيف الجسم ، نشيط الحركة ، وما هي إلا أن يركب بعيره وينطلق الى بيوت بني هاشم : ولكن خديجة قد عادت مسرعة وعاد معها نساؤها مسرعات الى حيث كن ينظرن ، فرأين مرة

اخرى ذلك المنظر العجيب ألذي راعهن وروّعهن منذ حين ، وعدن إلى خديجة يقلن: « ما ينبغي ان يكون هذا رجلاً من الناس ! »

قالت : « ويحكن ! لقد رأيتُنَّه وسمعتُنَّه، وعلمتنّ أنه محمـــد بن عبدالله ذلك الذي كان يرعى لقومه الغنم بالقراريط في أجياد » .

قلن : « لقد رأينا محمداً غير مرة وهو يدفع الغنم أمامه ماضياً بها الى مراعيها ، ورأيناه غير مرة وهو يدفع الغنم أمامه عائداً بها الى حظائرها ، فما رأيناه قط على مثل هذه الحال . لقد كان منظره يعجب ، ولقد كان محضره يخلب . ولقد كان كل شيء يحبب فيه ويدعو إليه . ولقد كانت أحاديث قومه عنه وآراء قومه فيه تصبي إليه النفوس ، وتعطف عليه القلوب . ولكنه كان على كل حال فتى فقـــيراً معدماً يرعى الغنم لقومه بأجياد . وكنا نرى أن ليس من النصح لك ، ولا من الاخلاص في مودتك ، والوفاء بما لك علينا من حق ، أن نعينك على ما كنت تجدين من حب له ، وميل اليه ، ورغبة في أن تتخذيه لك زوجاً ، وأنت من تعلمين مكانة في قومك ، وإرتفاعاً في نسبك ، وضخامة في المال ، وسعة في الثروة ، وسلطاناً على نفوس الكهول والشبـــاب من سادة قريش وأشراف مضر . كلهم سعى إليك . وكلهم رغب فيك . وكلهم خطبك وتمنى أن تكوني له زوجاً ، فما صبوت الى واحد منهم ، وما حفلت بما أضمر لك من حب ، وما أظهر لك من ود ، وما قدّم إليك من مال » .

قالت خديجة : « لئن كنت رفيعة المكانة في قومي فما مكانة محمد من قريش دون مكانتي ، وإنّا لننتهي جميعاً إلى قصيّ . ولئن كنت كثيرة المـال ضخمة الثروة ، فما عرفت قط أن المال يزن الى جانب الحب شيئاً . ولقد رددت من خطبني من أشراف قومي وسادتهم ؛ لأني لم أشعر قط بالميل الى أحد منهم ، ولم أفكر في أن امرئ يصلح للزواج او يستقيم عليه ، ولم أرَ قط أن بين هؤلاء السادة والأشراف من شباب قريش وكهولها من يستطيع أن يستعلي بعقله ورأيه على عقلي ورأيي . ولكن ما رأيت محمداً قط إلا صبتْ له نفسي ، ومال إليه قلبي، وأذعنت لسلطانه العظيم عليّ كل الإذعان».

قلن « كان ذلك قبل أن تري ما رأيت الآن . فأما بعد هذا المنظر العجيب الذي لم يرَ الناس مثله قط فما ندري ما أنت فاعلة ! »

قالت : « سترين ما أنا فاعلة ، ولكنُنّ أن تعرفن او تنكرن ، وأن ترضين او تغضبن » .

قلن « ما ينبغي لنا أن ننكر أو نغضب وقد رأينا ما رأينا . وإنك لأسعد امرأة

من قريش إن ظفرت بأن يكون محمد لك زوجاً » .

وكان اليوم من أيام مكة الثقيلة البغيضة التي تلح عليها حين يشتد القيظ ، فترسل عليها من أشعة الشمس ناراً محرقة ، تسكن لها الحركة ، وتخفت لها الأصوات ، ويهدأ لها كل شيء ، ويكاد يصيح من لذعها أديم الأرض ، وتشكو من حرها هذه الصخور التي تتوهج وتتلظى فتملأ الجو لهيباً وسعيراً .

وكان البشير قد أقبل مع الصبح ، فمضى في المدينة من أعلاها إلى أسفلها يبعث صيحاته الحلوة الجميلة التي تتلقفها الأسماع وتطمئن لها القلوب ، والتي تنبىء قريشاً بأن العير قد اقبلت من الشام سالمة غانمة موفورة ، فترد الى رجال قريش ونسائها هذه النفوس التي كانت مشردة تتبع الأبناء والإخوة والأزواج والآباء في هذه الطرق الملتوية المخوفة بين أودية تهامة وبلاد الروم ، وتثير في القلوب ألواناً من الفرح مختلفة متباينة : فقوم يفرحون لعودة ذويهم اليهم موفورين ، وقوم يفرحون لعودة ثروتهم اليهم رابحة نامية ، وقوم يفرحون لما حمل اليهم ذووهم من هذه الأمتعة والعروض التي كانوا يكلفون بها ويرغبون فيها وقد يتحرقون اليها تحرقاً. وقوم يفرحون باجتماع الشمل بعد تفرقه ، وبعودة الحياة الى طبيعتها الهادئة الآمنة المطمئنة البريئة من الخوف على الأنفس والأموال.

وكانت قريش كلها تتهيأ لاستقبال العير إذا كفت عنها الشمس هذه النار المحرقة ، وأتاحت لها البروز إلى ظاهر المدينة تلقى فيها الأحبة وما يجلبون من الثروة والغنى ، وما يحملون من أسباب اللذة والمتاع .

وكانت خديجة تنتظر مقدم العير أشد ما تكون شوقاً اليه ، ووجداً به ، وتلهفاً عليه ! لا لأن العير كانت تحمل لها تجارة واسعة الى الشام ، فكانت خديجة تريد أن تعرف ما كان من أمر تجارتها ، وما أتيح لها من ربح ، أو كتب عليها من كساد ! فما كانت هذه أول مرة فصلت فيها العير عن مكة بتجارة خديجة الواسعة ، وما كانت هذه اول مرة عادت فيها العير الى مكة بتجارة خديجة نافقة أو كاسدة ! فما اكثر ما أرسلت خديجة تجارتها في العير الى الشام ! وما اكثر ما انتظرت خديجة عودة العير هادئة وادعة ، لا يخرجها الربح عن وقارها الى هذا الفرح غير المنتظم الذي كاد يخرج اليه من رجال قريش ونساؤها ، ولا يردها الكساد عن وقارها الى هذا الحزن العميق الذي كانت ترتد اليه رجال قريش ونساؤها حين تتعرض تجارة مكة لبعض الشر ، أو يلم بها بعض المكروه . وإنما كانت خديجة سيدة جلدة حازمة ، صبوراً وقوراً ، متزنة النفس ، معتدلة المزاج ، ترضى فلا يخرجها الرضا عن طورها ، وتسخط فلا يغير

السخط من شأنها شيئاً ، ويراها الناس راضية وساخطة ، وهادئة مطمئنة في الحالين ، فتمتلىء قلوبهم اعجاباً بها واكباراً لها ، ويشهدون بأن قريشاً لم تعرف قط أحداً أملك لنفسه وأضبط لأمره واقدر على عواطفه من هذه السيدة الجميلة الوضيئة الرزينة التي كادت تبلغ من سنها الأربعين .

كلا ! لم تكن خديجة مشغولة النفس بأمر العير حرصاً على تجارتها ، أو شوقا الى ان تعرف ما صارت اليه من نفاق او كساد ، وانما كانت مشغولة النفس بابن عمها هذا الشاب الذي أرسلته في تجارتها الى الشام ، فسافر راضي النفس ، آمن القلب، وإن الطريق لمخوفة ، وإن الخطوب لكثيرة ، ولا سيما لو علم الناس من أمر هذا الشاب ما كانت تعلم ، وعرفوا من حياته ما كانت تعرف . لقد تذكر خديجة أن عمه الشيخ سافر به إلى الشام صبياً فلم يلبث أن عاد به إلى مكة مسرعاً ، شديد الحذر ، عظيم الاحتياط لما خاف عليه من مكر النصارى وكيد يهود . تحدث الشيخ بذلك إلى أصفيائه وخاصته ورهطه الأدنين ، فسمعوا له وابتسموا ، ثم انصرفوا مشفقين عليه معجبين ، يقول بعضهم لبعض : ما نرى إلا أن ابا طالب مسرفٌ في حب ابن أخيه ، وما نرى الا أن هذا الإسراف يكلفه شططاً ، ويرهقه من أمره عسراً .

ولكن حديث الشيخ انتهى إلى خديجة ، فتلقته في شيء من العجب ثم أقرته في ثني من أثناء نفسها الطاهرة ، وفي ناحية من نواحي قلبها الكريم ، وأخذت تنظر إلى هذا الصبيّ اليتيم نظرة فيها الرفق والعطف، وأخذت ترقب هذا الصبي اليتيم في شيء كثير من الحب والبر والحنان ، ترعى فيه حق القرابة وتلك المودة التي كانت بينها وبين أمه آمنة ، حين كانت هي فتاة غضة ناشئة، وحين كانت آمنة أرأف الناس بها ، وأحبهم لها ، وأشدهم بها براً وعليها حنواً .

وما أكثر ما فكرت خديجة في أمر هذا الصبي اليتيم ! وما أكثر ما همّت أن تبر به ، وتصنع له المعروف وتسدي إليه الجميل ، وترفه عليه وعلى أهله بعض ما كانوا يحتملون من آلام الحياة ويلقون من ضيق العيش . ولكنها لم تكن تجد السبيل إلى ذلك ميسورة ولا ممهدة ؛ ففي بني عمها إباء وعزة وارتفاع عن مثل ما كانت تريده لهم من الخير والبر . وفي هذا الصبي اليتيم أنفة وكرامة ، وشيء لا تستطيع أن تصوّره ولا أن تحققه ، ولكنه يملأ قلوب الناظرين إليه هيبة له ، ويردّهم عن أن يفكروا في أن ينالوه بما تعوّدوا أن ينالوا به الفقراء واليتامى من البر والإحسان .

وما أكثر ما كانت خديجة تسأل عن هذا الصبي ، وتتبّعُ في حب وبر وحنان

نموه وتقدم السن به ، واضطرابه في كسب القوت ، واحتماله لأثقال الحياة ! ولقــد أشفقت خديجة على هذا الصبي أشد الإشفاق حين علمت ذات يوم أنه خرج مع عمومته إلى عكاظ ، فشهد معهم حرب الفجار ، وما أشد ما كان إعجابها به ، وما أعظم ما كان اغتباطها حين علمت أنه عاد مع عمومته من حرب الفجار سالماً آمناً موفوراً ، لم يمسه أذى ، ولم ينله مكروه !

وكانت أنباء تبلغ خديجة عن هذا الصبي ، أو قل عن هذا الفتى ، فتملأ نفسها عجباً ، وتدفعها إلى كثير من المساءلة والتفكير . فقد كان يقال لها إن هذا الفتى على حداثة سنه شديد الميل إلى العزلة ، لا يشارك أترابه من فتيان قريش فيما يأخذون فيه من فرح أو مرح ، وفيما يدفعون إليه من عبث أو مجون ! وإنما يلقى الناس بوجه مشرق دائمــا ، مبتهج دائماً ، ولكنه هــادىء مطمئن ، ما يزدهيه رضا ، ولا يخرجه عن طوره سخط . وكان يقال لها إنه لم يشهد أحد قط هذا الفتى حيث يشهد فتيان قريش جميعاً بين حــين وحين آخذين في اللذات التي كان يكلف بها الشباب القرشيون ، حتى إذا رشدوا وبلغوا سن الوقار ترفعوا عنها ، وضنوا بأنفسهم عليها ، ورأوهـــا لا تلائم أحلامهم الراجحة ومكانتهم الممتازة . ولم يصرفوا عنها مع ذلك أبناءهم الناشئين ، كأنهم يرونها شراً ليس منه بد ، وتجربة ليس على الشباب بأس أن يصلوا نارها ، وأن يلذعهم لهيبها بعض الشيء .

وكان النـــاس يعجبون من اعتزال هذا الفتى أترابه إذا أقبلوا على لذاتهم تلك ، ويتساءلون فيما بينهم : ما بال هذا الفتى يمتاز من لداته ، ويسير على حداثة سنه ونضرة شبابه سيرة الكهول الذين ترفعهم رجاحة أحلامهم وسماحة طباعهم عن مثل هــذه الصغائر والدنيات ؟

وكان يقـــال لخديجة إن لهذا الفتى شأناً عظيماً يحس الناس ظواهره ولكنهم لا يفهمونه ، ولا يتبينون حقيقته ولا جلية الأمر فيه .

لقد كان شائعاً في مكة متواتراً بين أهلها أن عمه الشيخ رجل سيء الحال ، ضيق ذات اليد ، مقتر عليه في الرزق مع كثرة العيــال ، وأنه مع ذلك لا يشكو بؤساً ، ولا يظهر تحرجاً بهذه الشدة التي يعانيها ؛ لا لأنه رجل من بني هاشم يمتاز بما يمتاز به بنو هــاشم من الصبر والكرامة والقناعة وحسن الاحتمال للمكاره والمشقات فحسب ، بل لأن في حياته سراً غريباً ! فإن ابن أخيه هذا اليتيم « فتى مبـــارك » كما يقول الشيخ إذا ذكره أو تحدث عنــــه . ولم يجلس قط مع أبناء عمه الى طعام إلا شبعوا

وأفضلوا من طعامهم مهما يكن قليلاً ، ولم يجلس بنو عمه من دونه الى طعام إلا قاموا وهم جيـاع . وكان أبو طالب يتحدث بأنه إذا رأى أبناءه يقبلون على طعامهم كفهم عنه وقـال : كما أنتم حتى يأتي ابني ، فينتظرون حتى يأتي الفتى ، وهنالك يخلي الشيخ بينهم وبين الطعام فيقبلون عليه ، ثم يرفعون أيديهم عنه وكلهم قد شبعوا ، وإن في طعامهم لفضلا .

وكانت خديجة تسمع هذه الأنباء كما كان يسمعها غيرها من رجال قريش ونسائها ، فتعجب لها كما كان يعجب لها غيرها من رجال قريش ونسائها . ولكنها لم تكن تنساها كما كان ينساها غيرها من قريش ، وإنما كانت تضيفها الى ما كانت تحفظه من أمر الفتى في ثني من أثناء نفسها الطاهرة ، وناحية من نواحي قلبها الكريم .

ثم يبلغ خديجة ذات يوم أن جماعة من شيوخ قريش وسادتهـا وأصحاب الأحلام الراجحة والبصائر النافذة فيها ، قد اجتمعوا فيما بينهم فاستعرضوا من أمر الناس مـا استعرضوا ، وأنكروا من سيرة النـاس ما أنكروا ، ورأوا أن يلتمسوا لأنفسهم ولقومهم الخير ، وأن يجتمعوا فيحدثوا بينهم حلفاً على أن يتعاونوا على الخير والمعروف ، وإنصاف المظلوم مهما يكن ضعيفاً ، من ظالمه مهما يكون قوياً ، وأن يبذلوا في ذلك ما يملكون من جهد ، وأن يدوموا على ذلك ما بلّ بحر صوفةً ، وأن قريشاً قـد أعجبت بهـذا الحلف أشد الإعجاب ، وأكبرت المجتمعين عليه والمشتركين فيه أشد الإكبار ، وسمّته « حلفَ الفضول » .

ولكن الغريب الذي دهشت له قريش كلها والذي حفظته خديجة فأضافته الى ذلك الكنز الذي حفظته في ثني من أثناء نفسها الطاهرة ، وحنو من أحناء قلبها الكريم أن فتى حدثـاً من فتيان قريش لم تتجاوز به سنه العشرين قد كان مع هؤلاء السادة من شيوخ قريش ، وقد عرف معهم ما عرفوا ، وأنكر معهم ما أنكروا ، وعاهدهم على ما تعاهدوا عليه . وقد كان في ذلك كله كأرجحهم حلماً ، وأذكاهم قلباً ، وأكرمهم نفساً ، وأحرصهم على الخير والبر ، وأسبقهم بالمعروف ، وأعطفهم على البائس والضعيف . فعل هذا الفتى ذلك كله ، وإن أترابه من شباب قريش لمنصرفون إلى لذّاتهـم على اختلافها وتباينها . ولم يكن هذا الفتى إلا محمد بن عبدالله ذلك اليتيم الذي أصبح حديث قريش كلها ، تعجب به ، وتتحدّث عنه ، وتضربه لشبابها مثلاً .

وما أشدّ ما كانت خديجة تألم حين تعرف أن خير قريش كلها يحتاج إلى أن يرعى الغنم لقومه بأجياد ، وإلى أن يكسب في ذلك القراريط من حين إلى حين ، يستعين بها

على ما يقيم أوده ، ويفضل منها على أبناء عمه الشيخ ، وإنه لأحرى قريش كلها بأضخم ما في مكة من ثروة ، وأعرض ما في مكة من غنى ، وأرقّ ما في مكة من نعيم .

هنالك أحست خديجة في قلبها حباً لهذا الفتى لم تعرف كيف تصفه ولا كيف تسميه ، ولكنها كانت تجد من نفسها الطاهرة نزاعاً شديداً إلى أن تراه وتسمع منه وتتحدّث إليه ، ولم يكن ذلك يتاح لها ولا يهون عليها. فأين هي مع ثروتها الضخمة، ومالها الكثير ، ومكانتها الممتازة من هذا الفتى اليتيم الذي ينفق أكثر أيامه خارج مكة يرعى الغنم ، فإذا عاد إلى مكة اعتزل الناس ، أو كان كالمعتزل لهم ، فلم يعرض لخديجة ، ولم تستطع خديجة أن تعرض له . ومع ذلك فقد كانت نفسها تتبعه ، وقد كان شخصه لا يفارق قلبها . وكثيراً ما تحدثت عنه إلى نسائها فسمعن منها ، ثم قصصن عليها من أمره الأعاجيب . وإن قريشاً كلها لمجتمعة على حبه وإيثاره ، والإعجاب بسيرته وأخلاقه ... وإنها لا تسميه محمداً ، وإنما تسميه الأمين . وإن من الناس قوماً يتحدثون عنه بأعاجيب لا يطمئن إليها العقل ، ولا تجري بها عادة الناس. فمنهم من يزعم أنه رآه ذات يوم وقد اشتدّت الهاجرة ، وإن سحابة لتقيه الشمس . ومنهم من يزعم أنه رآه ذات يوم قد آوى إلى ظل شجرة فإذا الشجره تحنو عليه حنوّ الأم ، وإذا هو يسمع الشجرة تتلقاه بالتحية والسلام .

وكانت خديجة تسمع هذا كله فتقبل منه ما تقبل ، وترد منه ما تردّ ، ولكنها تشعر بأن حبها له يزداد ، وميلها إليه يعظم ، حتى لم تملك نفسها أن أظهرت لنسائها هذا الحب ، وتحدّثت إليهن بهذا الميل ، ولمحت لهن بأنها تودّ لو أصبح هذا الشاب لها زوجاً ، لا يمنعها من الجهر بذلك والسعي إليه إلا أنها أكبر من الفتى سنّاً ، وأنها لا ترى نفسها له كفئاً .

فلما رأى نساؤها منها ذلك أنكرنه عليها أشد الإنكار ،ورددنها عنه أشد الردّ، وصوّرن لها فقر الفتى وبؤسه ، وما هي فيه من ثروة ونعيم ، وذكرن لها تنافس الأشراف والسادة فيها ، وحرصهم جميعاً على أن يبلغوا منها هذه المنزلة التي تأثر بها هذا الفتى اليتيم . فأحست خديجة أن نساءها لم يفهمن عنها شيئاً ، وأنهن لن يفهمن عنها شيئاً ، وردّت سرّها العزيز الى مكانه الأمين من نفسها الطاهرة وقلبها الكريم . وانتظرت حتى تهيأت العير في عام من الأعوام للرحلة في التجارة الى بلاد الروم،وجعلت خديجة تهيىء تجارتها ، وجعل الناس من فقراء قريش يعرضون أنفسهم عليها ليرحلوا في

تجارتها الى الشام كما تعوّدوا أن يفعلوا من قبـــل . ولكن خديجة لم تسمح لأحد منهم ، ولم تقف عند احد منهم ، وإنما ألقي في نفسها – دون أن تعرف كيف ألقي في نفسها – أن محمداً سيكون هذه المرة صاحب تجارتها الى الشام . فلا تسأل نساءها عن شيء ، ولا تحدّث نساءها في شيء ، وإنما ترسل الى الشيخ دسيساً يعرض عليـه الأمر ، ويهوّن عليه ما كان يستصعب منه ، ويصوّر أن الفتى قد اصبح رجلاً لا بأس عليه من مشقة السفر ، ولا خوف من مكر النصارى، وهو بعدُ سيكون في طائفة من قومه يحمون العير بالعدد والعدة ، ويزين له أن خديجة قد تعودت أن تأجُر المسافرين تجارتها بَكْـرين، وانها لا ترضى بهذا الأجر لابن عمها الأمين ، فهي تأجره أربعةأبكر.

وما كان أبو طالب ليرضى بهذا العرض أو يقبله لولا أن قد كان لله في ذلك حكمة، ولولا أن الله قد ألقى في قلبه الرضا بهذا العرض لأمر يراد . فقد كان أبو طالب شفيقاً على ابن اخيه رفيقاً به ، يكلؤه ويرعاه ، ويحوطه ويحميه ، يخشى عليه العوادي ، ويضنّ به على المكروه ، ولم ينس قط ما كان من تحـذير بحيرَى له وإلحاحه عليه في أن يحوط ابن اخيه منمكر النصارى وكيد يهود . ما أكثر ما فصَلت العيرُ عنمكة منذ عاد الشيخ بابن اخيه اليها ، فلم يرسله ابو طالب مع العير ، بل لم يفصل ابو طالب مع العير متجراً ، وإنما ابقى ابن اخيه في مكة ، واقام معه فيها حامياً له ، ذائـداً عنه . فلما عرض عليه رسول خديجة ما عرض ، همّ أن يرفض، ولكنّ الله ألقى في نفسه القبول ، فقال للرسول : «سأعرض هذا على ابن اخي » . ثم يلقى ابن اخيـــه فيعرض عليه الأمر مرغباً له ، مشجعاً إياه .

وما كان الفتى في حاجـة إلى ترغيب أو تشجيع ؛ فإن الذي قـد ألقى في نفس خديجة اختياره لتجارتها هذا العام ، وألقى في نفس أبي طالب قبول هذا الاختيـار حين عرضه رسول خديجة عليه ، قد ألقى في نفس الفتى قبول هذا الاختيار حـين تحدث اليه عمه فيه .

وهذه العير تتهيأ للخروج من مكة ، وهذا الفتى يتهيأ للخروج معها في قومه من قريش ، وقد ألحقت به خديجة غلامها ميسرة ، وهؤلاء عمومة الفتى يوصون به رفاقه من قريش ، ويغلون في هذه التوصية ، فـلا يسمعون من اصحاب العير إلا هذا الردّ الجميل يلقونه اليهم باسمين : « ما إيصاؤكم إلينا بالأمين ، وما منا إلا من يبذل حياته فداء للأمين ! ! » .

- ٢ -

ولم تكد العير تفصل من مكة وتُمعن في طريقها إلى الشام حتى شقي بذلك في مكة شخصان أشدّ الشقاء ، ولقيا منـــه أثقل الجهد وأعظم العناء ، وحتى نغصت عليهما حياة النهار ، وصُرفَ عنهما نوم الليل ، وفارقت كل واحد منهما نفسه ، فتبعت تلك العير التي كانت ماضية نحو الشمال . وقد عرفتَ بالطبع هذين الشخصين . فأما أحدهما فهو أبو طالب ، وأما الآخر فهو خديجة .

والغريب أن الخواطر التي كانت تملأ نفسيهما همّاً وحزناً وتفعم قلبيهما خوفاًوقلقاً، هي بعينها تلك الخواطر التي كانت تملأ نفس عبد المطلب بن هاشم وآمنة بنت وهب ، وتشغل قلبيهما منـــذ خمسة وعشرين عاماً حين ساقر عبد الله مع العير إلى الشام في التجارة لأول مرة ولآخر مرة أيضاً .

وكان ذلك يزيد في خوف أبي طالب ، وقلق خديجة ، ويضيف إلى إشفاقهما شيئاً غير قليل من الندم اللاذع ، والاسف الذي لا يغني ولا يفيد . كان أبو طالب يـلوم نفسه أشد اللوم ، ويؤنبها أعنف التأنيب ، لما فرط في ذات ابن أخيه ، وقد كان حريصاً على ألا يفارقه ولا يخلي بينه وبين غوائل الدهر وعاديات الأيام . وهو يعلم بعد هذا كله أن قد كانت للأسرة من بني هاشم في هذا النوع من المحن سابقة ، وأنه كان خليقاً أن يتعظ بما مضى ، وأن يضنّ بمحمد على ما تعرّض له عبد الله .

وكان يقول لنفسه إن عبد المطلب حين أغرى ابنه بالرحيل وحثه عليه ، لم يكن إلا رجلاً من قريش ، يأخذ ابنه بحياة قريش وما تعودت من الاضطراب في الأرض ، والتماس الرزق طوراً في الشام،وطوراً في اليمن.ولم تكن الأيام قد وعظت عبد المطلب، ولا قدمت بين يديه من النذر ما كان خليقاً أن يحمله على التردد ويغريه بالاحتياط . فأما هو فقد وعظته الأيام وتقدمت إليه النذر .

وعظته الأيام بما وقع لعبدالله ، ذلك الذي فجع بـــه بنو هاشم على حداثة السن ونضرة الشباب ، فكان خليقاً أن يتعظ ، وكان خليقاً ألا يعرّض الفتى لما تعرّض له أبوه . وتقدمت إليه النذر ؛ فما أكثر ما سمع،وما أكثر ما شهد،وما أكثر ما فكر في أن ابن أخيه خليق بالعناية المطردة والحمايـــة المتصلة ، والاحتياط الذي لا يغفل ولا ينام !.. وإن في آخر تلك النذُر لما كان خليقاً أن يمنعه من التخلية بين ابن أخيـه

وبين الرحيل، فضلاً عن أن يغريه به ويدفعه إليه وإنه ليذكر حديث بحيرى وإشفاقه وتحذيره إياه من مكر النصارى وكيد يهود .وإنه ليذكر كيف ارتدّ بابن أخيه الصبي إلى مكة ، دون أن يقضي حاجته من الشام ، ودون أن يقوم على ما كان في يده من التجارة بالبيع والشراء ، وإنما وكل بذلك من وكل من قومه متعمداً ردّ الصبيّ إلى وطنه ، وحفظه من الغوائل والعاديات .

وإنه ليذكر اعراضه منذ سمع ذلك النذير عن الرحلة ، ولزومه مكة ، واصراره على ألا يفارق ابن أخيه ، وألا يطيل بينه وبينه الأمد . فما الذي غير رأيه في هذا كله ؟ وما الذي دفعه إلى أن يحمل ابن اخيه على هذه الرحلة التي لا يأمن عواقبها ؟ وأخذ الشيخ يتحدّث إلى نفسه بمثل ما كان يتحدث به عبد المطلب إلى نفسه . وأخذ الشيخ يسأل نفسه عن هذا الذي ألقى في رُوعه قبول ما عرضت خديجة : أكان ناصحاً له أم ماكراً به ؟ أكان إلهاماً من الله أم غروراً من الشيطان ؟

وجعلت هذه الخواطر تفسد على الشيخ أمره،وكان يزيدها شدة عليه وإيلاماً له أن الشيخ كان يستعرض حاله السيئة وفقره المدقع، وما كان يلقى من الجهد في قوت عياله، وكان يشعر في أعماق نفسه بشيء من الخوف الأليم أن يكون قد عرّض ابن أخيه لبعض الخطر إيثاراً لنفسه ولبنيه بالخير .

وما له لم يُغر بهذه الرحلة ابنه طالباً أو ابنه عقيلاً ، وإنما أغرى بها هذا الفتى اليتيم الذي فقد أمه وامتحن في أبيه بمثل ما يُمتحنُ به الآن !! وكثيراً ما جعل الشيخ يردّ هذا الخاطر عن نفسه بأن خديجة لم تعرض عليه استئجار أحد أبنائه ، وإنما عرضت عليه استئجار ابن اخيه ، فما كان يستطيع أن يعرض عليها طالباً أو عقيلاً . ولأمر ما رغبت خديجة هذا العام عمن كانت تكل إليهم تجارتها في الأعوام الماضية ، ولم تختر إلا هذا الفتى ، ولم تعرض عليه ما كانت تدفعه إلى غيره من الأجر، وإنما أضعفت له الأجر إضعافاً .

ولكن هذه المعاذير لم تكن تسلي الشيخ عن زلّته ، ولا تقيله عن عثرته ، ولا تخفف عليه حزناً ، ولا تردّ عنه ألماً ، وإنما كان ندمه يزداد وينمو حتى يكاد يخرجه عن طوره ، ويتجاوز ما ألف من نفسه وما عرف الناس فيه من الرزانة والوقار . ولقد حدّثته نفسه غير مرة أن يشدّ راحلته ، ويلحق بابن أخيه ، فإما ردّه عن هذه الرحلة ، وإما رافقه فيها . ولكنه كان يستحي أن تقول قريش : ضعف أبو طالب ، وجزع على فتى قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره . كان يستحي من

ذلك لنفسه ، وكان يستحي من ذلك لابن أخيه . وما رأيك في رجل لم يكن يعدل بحسن رأي الناس فيه وحديثهم عنه شيئاً !!

وضاق أبو طالب بهذا الأمر أشد الضيق ، فلم يستطع كتمانه على شدة ما حاول من ذلك ، وإنما تحدّث به إلى بنيه وإخوته ، ولمح لهم على استحياء بأن من الخير أن يلحق به منهم لاحق ، يتكلف ذلك ، ويظهر حاجته إلى الرحلة ، وندمه على التخلف عن القافلة . ولكن إخوته وبنيه نظروا اليه باسمين ، وأجابوه مشفقين ، وقالوا له : « تالله إنك لمسرف في الإشفاق على هذا الفتى ، مغرق في الخوف عليه من كل شيء ، حتى تحدّث الناس عنك بذلك ، فاتهموك بالضعف : وأنكروا عليك هذا الغلو في الخوف وإنا لنعرف رعايتك لهذا اليتيم ، وحدبك عليه ! ولكن من الحب ما يؤذي ، والإسراف في الإشفاق والرعاية قد يسوء هذا الفتى . فخلّ بينه وبين الحياة ، ودعه يضطرب في الأرض ليكسب قوته . فما أنت بباق له آخر الدهر ، وما ينبغي له أن يقنع بهذا العيش الضيق الذي هو فيه ».

وكذلك عاش أبو طالب مقسّماً بين الخوف والرجاء ، وبين اليأس والأمل ، وبين الثقة والشك ، وبين اللوم لنفسه والاعتذار عنها . وما أظن أنه شقيّ قط في حياته كما شقي في هذه الأيام التي فرّقت بينه وبين ابن أخيه .

ولم يكن أمر خديجة بأيسر من أمر عبد المطلب ، ولم يكن خوفها بأهون من خوفه ، ولم يكن إشفاقها بأقل من إشفاقه . ولكن خواطرها كانت من طراز آخر ، ومن طبيعة أخرى ! فهي لم تكن مؤتمنة على الفتى ، ولا كافلة له ، ولا موكلة بحمايته ولا حياطته والقيام دونه . ولكنها كانت شيئاً آخر لعله أقوى من هذا كله ، كانت تحب هذا الفتى . وحسبك بالحب مثيراً للخوف والقلق ، وباعثاً للجزع والفزع ، وحائلاً بين القلوب وبين ما تحتاج إليه من الهدوء والاطمئنان .

لقد أحبت خديجة هذا الفتى منذ كان صبيّاً ، وجعلت ترعاه من بعيد ، وترقب من أمره ما تستطيع أن ترقبه ، وتتبع نموه واكتماله . وكلما نمى الفتى نما حبها له وكلفها به . أفحين بلغ الفتى أشدّه وأصبح خليقاً أن يحقق أملها فيه ، يخطر لها هذا الخاطر الغريب ، فإذا هي تدفعه إلى الرحلة ، وتقذف به إلى أرض الروم !! ومن الحق أنه لم يكن لها زوجاً ، ولكن كانت تتمناه لنفسها زوجاً . وربما كان الخوف على الأماني أشد على النفس وأوقع في القلب من الخوف على الحقائق الواقعة والشيء الذي ظفرت به بعد أن طال تمنيك له وألحت رغبتك فيه . وكانت خديجة تذكر آمنة ،

وتذكر نفسها ، فترى أن آمنة لم تدفـــع زوجها إلى الرحلة ، وإنما أذعنت في ذلك لقوانين الحياة التي تقضي على فتيان قريش بالاضطراب في الأرض والإبعاد في الأسفار . ولو قد خيرت آمنة لاستبقت زوجها . ولو قد أتيح لقلبها أن ينطق لألحّ على زوجها في البقاء .

فأما هي فلم تكرّه على فراق الفتى ، وإنما سعت إليه ورغبت فيه ، وأغرت به الفتى إغراء ، ودفعته إليه دفعاً ، ودست فيه الرسل إلى عمه الشيخ ، وأضعفت أجره أضعافاً . أمحبة هي لهـــذا الفتى أم مبغضة له ؟ أراغبة هي عن هذا الفتى أم راغبة فيه ؟ أحريصة هي على جوار هـذا الفتى أم على فراقه ؟ إن أمرها لعجب مهما تقلبه على وجوهه . ولكن ألمها شديد ، وحزنها موجع ، وقلقها مضنٍ . وقد تذكر أنها لم ترسله وحده إلى الشام ، ولم تعرّضه وحده للأخطار ، وإنما أرسلت معه غلامها القوي الفتى الأمين الناصح ، وهو خليق أن يحوطه ويرعـــاه ، وأن يلقى الموت في سبيل حياطته ورعايته . ولكن غوائل الدهر وعوادي الأيام جائرة غاشمة ، وهي أقوى من غلامهـــا ميسرة مهما يكن قوياً ، وأجرأ منه مهما يكن جريئاً ، وأمضى إلى المكر والكيد منه إلى الحياطة والحماية والنصح .

وكذلك جعل هـذان الشخصان يعيشان مع هذا الخوف الذي يفسد عليهما اليقظة والنوم ، دون أن يستطيع أحدهما أن يفضي إلى صاحبه بما يجد أو ببعض ما يجد . فلا غرابة أن يطمئن قلباهما حين سمعا صيحة البشير بقدم العير . ولا غرابة أن يحس كل منهما كأن نفسه تتحرق شوقاً إلى لقاء هذا الفتى . فأما أبو طالب فقد همّ أن يخرج من مكة مع الضّحا للقـاء ابن أخيه ، ولكن إخوته وبنيه صدّوه عن ذلك ، ولاموه فيه ، وخوّفوه حر الشمس وشدة الهاجرة ، وخوفوه قبـل كل شيء حديث قريش هذه التي استبشرت بقدم العير ، ولكنها استقرت في أماكنها ، لم تهمّ بالخروج للقاء الأبناء والإخوان قبل إبان الخروج .

وأما خديجة فما كان لها أن تخرج للقاء الفتى ، ولا أن تفكر في الخروج للقـائه ؛ فليس هذا من شأن النساء ، ولا هو ممـا يليق بحرائر قريش . ولكن نساءها أنكرن منها اضطراباً منذ سمعت صوت البشير ، وتحدثن فيما بينهن بكثرة ترددها على النافذة ونظرها الى الطريق . وكان بعضهن يتحدث في ذلك إلى بعض حين دعتهن خديجـــة قائلة : « أقبلن فانظرن ؛ فإني أرى شيئاً لم ير الناس مثله قط » . وقد أقبلن ، فنظرن ، فرأين شيئاً لم ير الناس مثله قط : رأين فتى مشرق الوجه ، واضح الجبـــين ، مهيب

الطلعة ، يسعى به بعيره تحت هذه الهاجرة المحرقة ، ويخوض به لهيب هــذه النار المضطرمة ، وإن عن يمينه وشماله لشخصين تحسبهما العين ولا تحققهما ، تراهما من غير شك ولكنها لا تميزهما . ترى أنهما لا يمشيان على الأرض ، وإنما يسعيان في الهواء سعياً رفيقاً ، وهما يظللان هذا الفتى ذا الوجه المشرق ، والطلعة المهيبــة ، ويحميان حرّ وجهه الجميل من هذه الشمس المحرقة .

ينظرن ، فيرين ، ويقلن : « ما ينبغي أن يكون هذا رجلاً من الناس » .

ومتى رأى الناس رجــلا يظلله شخصان لا يمشيان على الأرض ، وإنما يسعيان في الهواء !!

- ٣ -

وأقبل ميسرة على خديجة حين أدبر النهار . فلما رأته تمالكت في شيء من الجهد غير قليل حتى كبحت عواطفها الثائرة ، وضبطت خواطرها الجامحة ، وردّت نفسها ووجهها من الهدوء والسكون إلى ما تعودت أن تلقى به خادمها الوفيّ ومولاها الأمين . ثم سألته عن تجارتها كما تعودت أن تسأله كلما آب إليهـا من رحلة الشام أو من رحلة اليمن . ولكنه كان في هذه المرة يقص عليها أنباء الرحلـة في شيء من الاضطراب لم تعهده ، ويعرض عليها أمر البيع والشراء في شيء من الذهول لم تألفــه . وكثيراً ما تلبث في حديثه ليستحضر رقماً غاب عنه ، أو يردّ خاطراً نــدّ ، أو يدعو فكرة شردتْ . وكانت خديجة تسمع له ، معنية بما ترى من ذهوله وشرود خواطره ، اكثر من عنايتها بمن كان يعرض عليها من الأرقام ، ويقص عليها من أنباء البيع والشراء .

وقد ترددت خديجــة فطـــال ترددها ، حين فرغ مولاها من حديث التجارة . ترددت في أن تسأله عن غير هذا الحديث من أمر هذه الرحلة . وليس من شك في أن العبد كان متردداً مثلها ، مطيــلاً للتردد في أن يقص عليها شيئاً آخر من أنبـــاء هذه الرحــلة لا صلة بينه وبين البيـــع والشراء . وآية ذلك أن خديجة أطرقت فأطالت الإطراق ، حتى نسيت العبد وحديثه ، ومضت تفكر في شيء آخر غير العبد والحديث . فلما رفعت رأسها بعد ساعة رأته قائماً أمامها لم يزلْ عـــن مكانه ، ولم يتحول عن موضعه ، وقد أرسل عينه أمامه في هذه الغرفة المتوسطة بين السعة والضيق

فعينه حائرة تنظر ولا ترى ، وكأنها تبحث عن شيء لا تحققه لأنها لا تعرف ما هو . فلما رأته أمامها على هذه الحال قالت في شيء من الدهش : « ما زلت قائماً أمامي ؟! أتريد أن تحدثني بشيء ؟ أفاتك من أمر التجارة شيء لم تنبئني به ولم تقصصه علي ؟ »

قال ميسرة وقد دعاه صوت مولاته من بعد فهو حائر مرتبك : « كلا يا مولاتي ! لقد قصصت عليك من أمر التجارة كل شيء ، وما أرى أني حدثتك منه بجديد ! فقد سبقني إليك محمد وجه النهار ، فأنبأك بما أتاح الله لتجارتك على يده من الربح والنماء » .

قالت خديجة : « هو ذاك ! فما قيامك إذاً في مكانك ؟ وما اضطراب عينيك وما شرود خواطرك ؟ وما منظرك هذا الحائر الذي لم أشهده منك قط وما أكثر ما رحلت بتجارتي ، وما أكثر ما عدت إلي رابحاً حيناً ، وخاسراً حيناً ! »

قال ميسرة : « فإن لهذه الرحلة أنباء أخرى ما أدري أيهم مولاتي أن تعرفها ! وما أدري أينبغي لي أن أخفيها عليها أو أكتمها إياها ! وما أدري أأستطيع إخفاءها أو أقدر على كتمانها ، وما أرى إلا أني إن خرجت دون أن أقص على مولاتي جليتها فلن أستريح! ولن أطمئن ولن أطعم النوم حتى أتحدث بها إلى أحد غيري من الناس»

قالت خديجة وهي تشعر بشيء من الغبطة ، ولكنها تخفيه وتكتمه ، وتظهر لمولاها السذاجة والاستهانة بما سيقص عليها من الأنباء : « وما ذاك ؟ » .

قال ميسرة : « هو أمر ابن عمك هذا الذي وكلت إليه تجارتك ، وأنبته عنك في مالك ، وأمرتني أن أكون له خادماً ، وعليه حفيظاً » .

قالت خديجة : « فما باله ؟ » .

قال ميسرة : « إنك لتسألين عن ذلك في هدوء لا أستطيع أن أجيبك بمثله يا مولاتي وإني لأخشى أن تسمعي جوابي فتظني بي الظنون ، وتتهميني بالجنون ، كما ظن بي غيرك الظنون ، وكما اتهمني غيرك بالجنون . ولولا أن الأمر لم يبق بيني وبين نفسي ، وإنما شاركني فيه من آمنه واطمأن إليه ، لظننت بنفسي الظنون التي ظنوها بي ، ولاتهمت نفسي بالجنون الذي اتهموني به ، ولكني رأيت ولم يروا ، وشهدت ولم يشهدوا ، فلا بأس عليهم أن يسوء ظنهم بي ويقبح رأيهم في ، ولا بأس علي إن أكدت لك أني لست مجنوناً ولا مأفوناً ولا ذاهب العقل ، ولا مضيع الصواب » .

قالت خديجة : « قد أطلت ! فأفض إلي بحديثك ، ولا تسرف في هذا الكلام الذي لا يغني » .

قال ميسرة : « فإني لا أدري كيف أبدأ معك هـذا الحديث ؛ لأني لا أعرف له بدءاً ولا أعرف له آخراً ؛ فقد اختلط أمره عليّ اختلاطاً . وأقسم لولا أني قصصت أمره على من لا أتهم ، لما شككت في أني مضيع العقل ، مفرّق اللب » .

قالت خديجة : « حسبك ! فابدأ حديثك من حيث شئت أن تبـدأه ، ولكن امض في غير هذا اللغو ؛ فقد عرفت أنك عاقل غير مجنون ، وأنت مستكمل عقلك وصوابك كله ؛ فلا تـُضعْ على نفسك وعليّ من الوقت والجهد ما نحن في حاجة إليه » .

قال ميسرة وقد أطرق مستحيياً كأنه يجمع آراءه ويستحضر خواطره ، ثم رفـع رأسه فأظهر لمولاته وجهاً يبعث الضحك والإشفاق معاً ! لكثرة مـا يظهر عليه من إجهاد النفس وتعنية الضمير : « والآن قد عرفت ! » ثم أخذ يتحدث إلى مولاتـه في بطء كأنه يرى حقائق ما يقص على سيدته من الأنباء — قال ميسرة : « كان بدء ذلك يا مولاتي في أول ليلة قضيناها بعد أن فصلت العير من مكة . فقـد استقبلنا الليل فرحين مبتهجين ، لم يفارقنا النشاط ، ولم تدن منا شياطين السأم والملـل . ولعلنا لم نكن نحب هذا الليل الذي وقفنا تقدّمه عن السير ، واضطرنا إلى النزول لنأخذ بحظ من راحة وهجوع . ولعلنا كنا نتعجل انقضاءه ، ونتمنى أن يسفر لنا الصبح لنستأنف الرحيل . وقد كنا نقول لأنفسنا وكان بعضنا يقول لبعض : لننتفع بهذا النشاط الذي نجده في أول الرحلة ، فلن نمضي أياماً قليلة ولن نمعن في السفر حتى يسعى إلينـا الملال ، ويأخذ فينا الكلال ، وحتى نتلفت إلى وراء أكثر مما ننظر إلى أمام . ولكنا أذعنا لحكم الليل ، ونزلنا عن رواحلنا ، وجعل كل منا يهيىء لنفسه مضجعـاً يأوي إليه . وما هي إلا ساعة حتى هدأ القوم ، وخفت الصوت وسكن كل شيء ، ومـا كنا نرى إلا ضوء القمر هذا الذي كان يغمرنا رفيقاً . وما كنا نسمع إلا أطيط الإبل ، وأزيز هذه الحشرات المنبثّة على سفوح الجبال من حولنا .

وأسهر أنا على محمد كما أوصيتني ، فأهيىء له مضجعه ، وأسعى إليه مرة ومرة ، لأدعوه إلى الراحة وأحرّضه على النوم ، ولكني أراه جالساً مكانه لا يريم ولا يتحوّل ، وقد رفع وجهه إلى السماء ، وأغرق في صمت متصل كأنما كان يفكر في أمر عظيم ، أو يدبر في نفسه شؤوناً ذات بال . وكنت كلما دنوت منه ورأيته على هذه الحال لم أجرؤ على أن أحدثه أو أقطع عليه صمته وتفكيره . فلما طال به مجلسه ، وتكرر مني السعي إليه ، لم أجد بدّاً من أن أتكلف شيئاً من الجهد فأسأله : « أليس في حاجة إلى أن يستريح ؟ ! » .

ولكنه يجيبني في رفق أنه سيلتمس الراحة متى أحس الحاجة إليها ، وأني أستطيع أن أشغل بنفسي عنه الآن ! فأنصرف عنه وأحاول النوم دون أن تطمئن نفسي إلى الإغراق في النوم » .

ثم يسكت ميسرة لحظة ، ثم يستأنف الحديث وقد ظهرت على وجهه آيات العجب والحيرة والإشفاق أن تظن به مولاته الظنون ، فيقول : « ويخيل إليّ يا مولاتي أني قد أخذت أسعى إلى النوم أو أخذ النوم يسعى إليّ وإني لفي هذه الحال الحلوة الغريبة التي لا يعرف صاحبها أنائم هو أم يقظان ، وإذا أنا أرى كأني أسمع حواراً غريباً ما سمعت مثله قط : وما قدرت قط أني سأسمع مثله ، وما كان ينبغي لي ولا لأحد غيري أن يقدّر ذلك أو يفكر فيه أو يُخطره لنفسه على بال ! فقد كان الحوار بين هذا القمر المضيء وهذه الأرض المظلمة الساكنة » .

ثم ينظر إلى مولاته فاذا هي تصغي إليه معنية بحديثه أشد العناية ، لا يظهر على وجهها إنكار ولا سخرية . فيبتهج العبد بما يرى ، ويجد في إصغاء مولاته إليه وعنايتها به مشجعاً على الحديث ، فيقول : « هذه أول مرة أقص فيها هذا النبأ فلا أسمع ضحكاً ولا استهزاء ، ولا أرى آيات السخرية وعلامات الإعراض . سمعت إذاً هذا الحوار الغريب القصير يا مولاتي ، فاستويت جالساً ، ولم أذق النوم من ليلتي ! لأن نفسي قد امتلأت عجباً لما سمعت ، وإكباراً لهذا الحلم الشاذ » .

قالت خديجة : « وما ذاك ؟ ماذا سمعت ؟ » .

قال : « سمعت كأن القمر يقول للارض : « وددت لو استطعت أن أمهد له من أشعتي هذه المشرقة اللينة الرطبة وطاء وثيراً ، فإني أخشى عليه أديمك الصلب ومسك الغليظ » . وسمعت الارض تجيب القمر قائلة : « إن يكن أديمي صلباً ومسّي غليظاً فإني أعرف كيف ألين له ، وأرفق به وهو سيد من مشى عليّ منذ كنت . ولكن قل لأختك الشمس ترفق به إذا كانت الظهيرة ورمت أشعتها باللهيب » . وأسمع صوتاً ثالثاً يقول : « لا عليكما ! فان الذي آثره بالكرامة ، وفضله على الخلق كله ، خليق أن يحميه من كل شيء ، ويعصمه من كل ضر ، ويردّ عنه الأذى مهما يكن مصدره » .

« وأستوي يا مولاتي جالساً ، قد امتلأ قلبي رعباً وعجباً لما رأيت وما سمعت . ومن الحق أني لم أسمع ذكر محمد ، ولكني لم أشكّ في أنه كان المعنيّ بهذا الحوار . وإني — كما تعلمين — رجل ساذج جاهل ، لم أقرأ الكتب ، ولم أسمع للعلماء ! ولكني على ذلك أنكرت ما رأيت وما سمعت ، وقدّرت أن أمرك لي وإلحاحك عليّ في أن أعني

بابن عمك ، وأن أهوّن عليه مشقة السفر ، وأردّ عنه عواديه وأذاته ما استطعت الى ذلك سبيلا ، هما اللذان شغلاني به ، ووقفا تفكيري عليه .

« فأقبلت على النوم وإني لأشفق عليه برد الليل وحرّ النهار في هـذه الصحراء ، ولا أحدث أحداً بما رأيت وماسمعت .وفيم أحدث الناس به وقد عرفت أصله ورددته الى مصدره ! ولكني أقوم الليل كله غير بعيد من ابن عمك هذا الذي لايبرح مجلسه ولا يتحول عنه ، ولا يذوق من النوم إلاّ إغفاءة لا تطول . فلما أسفر الصبح استأنفنا الرحيل ، واذا ابن عمك أعظمنا قوة ، وأشدنا نشاطاً ، لا يظهر عليه جهد السفر ، ولا مشقة هذا السهر المتصل .

« ونمضي في طريقنا تندفع بنا الإبل هادئة سريعة ، ونشغل أنفسنا بالحديث عما تركنا وراءنا ، وعما نحن مقبلون عليه ، وقد ارتفع الضحا ، وزالت الشمس ، وكانت الهاجرة ، واشتد الحرّ ، وخمدت له النفوس ، وخفتت له الأصوات ، وسكن له من حولنا كل شيء ، وأنا مشفق على ابن عمك من هذه الهاجرة ، أفكر في أن أسعى اليه وفي أن أحتال لعلي أظله فأقيه بعض هذا الحر ، فأحث بعيري حتى أدنو منه ، ولا أكاد انظر إليه حتى يكاد يصعقني العجب لروعة ما رأيت ! فقد رأيت ابن عمك يسعى به بعيره ، وإن عن يمينه وشماله لشخصين ما أتبينهما وما أحقق صورتهما ، ولكنهما يظللان عليه وهو باسم الثغر ، مشرق الوجه ، وضاء الجبين : لا يظهر عليه جهد ولا تبدو عليه آية ملال أو كلال ، إنما هو هادىء مطمئن مغرق في الصمت والتفكير .

« وما قضيت العجب يا سيدتي مما رأيت ، ولكني جعلت أنظر وأنظر ، ثم أسأل منْ حولي من الناس : ألا ترون محمداً ؟ فيقولون : بلى ! إنا لنراه وما نرى بأساً . فأقول : أما ترون حوله شيئاً ؟ فيقولون : كلا ما نرى حوله شيئاً.فأقول : أما ترون إليه لا يظهر عليه جهد ولا أين ؟ فيقولون : حديث عهد بالرحلة ، مكتمل القوة ، موفور النشاط ، وسيبلغ منه الجهد والأين بعد حين ، ولكني أدنو منه فأسأله : ألا يجد جهداً ؟ ألا يحس مشقة ؟ ألا يحتاج الى شيء ؟ ولكنه يجيبني في هدوء ورفق بأنه على خير ما يحب وما أزال أنظر إليه وإلى هذين الشخصين يظللان عليه ، وما أشك في أني أراهما وحدي ، ولا يراهما أحد غيري . وما أدرى أكان محمد يحس مكانهما منه وعنايتهما به ، أم كان عن ذلك منصرفاً مشغولا ، حتى إذا خفت حرارة الشمس وأقبل نسيم الأصيل ، نظرت إلى محمد فإذا هو يسعى به بعيره كغيره من الناس لا

يحفّ به هذان الشخصان اللذان كنت أراهما منذ حين، وهو كمهدي به باسم الثغر ، مشرق الوجه ، مطمئن ، مغرق في الصمت والتفكير .

« وأتهم نفسي بشيء من اضطراب العقل وذهاب اللب ، فأكتم أمري ، ولا أظهر أحداً عليه . حتى إذا كان الغد لاحظت محمداً كما لاحظته أمس ، فإذا هو كعهدي به أعظمنا قوة ، وأشدنا نشاطاً ، لا يظهر عليه جهد ولا أين . وأنتظر مقدم الهاجرة وارتفاع الظهيرة ، فما نكاد نعود إلى مثل ما كنا فيه من الإذعان الأليم لهذا القيظ المحرق ، حتى أرى ابن عمك كما رأيته أمس يسعى به بعيره بين هذين الشخصين اللذين كانا يظللان عليه . وما أطيق لهذا الأمر احتمالا ، وما أستطيع عليه صبراً ، فأتحدّث به إلى من حولي وألفتهم إلى ابن عمك ، فينظرون إليه ، ثم يضحكون مني ، ثم يقولون : لقد عبثت بك شياطين الصحراء، ومع ذلك فليس هذا أول عهدك بالطريق . فإذا لفتّهم إلى نشاط محمد وإشراق وجهه ، وهدوء نفسه وجسمه، وإلى ثغره الباسم وجبينه الواضح ، نظروا إليه فملأوا عيونهم منه ، ثم قالوا إنه الأمين ، وإن أمر الأمين ليدعو إلى العجب ، ويملأ القلوب له إعظاماً وإكباراً . وأغرب الأمر يا مولاتي أني كنت أرى ذلك ولا أستطيع أن أسأل محمداً عنه أو أتحدث اليه فيه . وكثيراً ما هممت بذلك فحثثت مطيتي حتى دنوت منه ، ولكني أحس لساني ينعقد كلما حاولت أن ألقي عليه سؤالاً : أو أسوق إليه حديثاً .

ولم يكن هذا شأني وحدي ، وإنما كان شأن الذين رافقونا في هذه الرحلة ؛ فقد كانوا يسمعون لي ويعرضون عني ضاحكين حيناً ، باسمين حيناً آخر . ويتحدث به بعضهم إلى بعض يسخرون مني ، ولم يخطر لواحد منهم ، أو لم يستطع واحد منهم أن يسعى ببعض هذا الحديث إلى محمد فيسأله عنه أو يحاوره فيه . وما أقلّ ما كنا نتحدث إلى محمد في أي شيء من الأشياء ! فقد كانت قلوبنا تمتلىء هيبة له حتى ما ترتفع اليه ابصارنا وما ترقى إليه أصواتنا إلا أن يبدأنا هو بالنظر والحديث فنجيبه ، وإن أصواتنا وأبصارنا لتمتلىء حبّاً له وعطفاً عليه .

وكذلك أنفقنا أيام الرحلة الى الشام ، ما ارتفعت الظهيرة قط إلا رأيت هذين الشخصين الغريبين يسايران ابن عمك في الهواء حافّين به ، مظللين عليه، حتى إذا بلغنا بصرى وأردنا أن نعرض تجارتنا في سوقها، سألت محمداً أن يأذن لي في أن أزور راهباً تقوم صومعته غير بعيدة عن السوق . وكنت قد تعودت ألا آتي بصرى إلا ألممت به قبل أن أعرض تجارتي ! لأني أجد من قلبي إليه ميلا ، وأنتظر من زيارته بركة وخيراً،

وأنا رجل نصراني كما تعلمين يا سيدتي ، أحب الرهبان ، واكبر الأحبار . فيأذن لي محمد في أن ألم بصومعة صاحبي ، وينتظرني في ظل شجرة قريبة من الصومعة . وما أخفي عليك يا مولاتي أني كنت أريد أن أسأل «نسطور» الحبر عما رأيت من أمر محمد هذا! فقد كنت أخشى على نفسي الجنون،وأخاف أن يكون قد مسّها طائف من الشيطان. وكنت أريد أن أستعين ببركة هذا الشيخ على البراءة من هذه العلة الطارئة والمحنة العارضة . ولكنني لا ألبث أن استبشر ويمتلىء قلبي غبطة وحبوراً . فما أكاد ألقى « نسطور » وابدؤه بالتحية حتى يسألني عن صاحبي هذا الذي جلس في ظل تلك الشجرة: من هو ؟ فما أكاد اذكر اسمه حتى يسألني : أفي عينيه حمرة لا تفارقهما ؟ فما أكاد أجيبه أن نعم ، حتى ينظر إليّ مشرق الوجه ويقول لي مبتهجاً لا يكاد يملك نفسه من الفرح : « انه لنبي هذه الأمة ، فما جلس قط تحت هذه الشجرة إلا نبيّ » .

«ومهما أكن سافجاً ، ومهما أكن قليل العلم ، فإن حديث « نسطور » لم يملك علي نفسي ولم يقنعني ! فأنا أسأله ضاحكاً : ما علمك بذلك ؟ شجرة قائمة منذ عهد قريب أو بعيد قد امتدت غصونها ، فأظلت جانباً من الأرض . فما أكثر الذين يأوون اليها، ويستظلون بها إذا اشتدت حرارة الشمس !

قال نسطور باسماً وقد وضع يده على كتفي : « أتذكر أنك رأيت هذه الشجرة عام أول ؟ » .

قلت : « ما ادري ، وما اكثر ما رأيت من الشجر ، وما انا بقادر على ان أحصي منها كل ما رأيت» .

قال نسطور : « اتذكر انك رأيتها حين اقبلت على بصرى مع الصباح ؟ » .

قلت : « ما ادري ! ولكنك رأيتها حين اوى إليها سيدي» .

قال نسطور : «فاذا انطلقت مع سيدك إلى السوق لتعرضا تجارتكما فتخلف عنه وعد إلى مكان هذه الشجرة ؛ فإن رأيتها حيث تراها الآن فاعلم اني لم اصدقك الحديث، وإن لم ترها فهذا تأويل ما قلت لك» .

ثم اتسعت ابتسامة نسطور على ثغره، وقال : « ومع ذلك فما لك لا تسأل رفاقك من اصحاب العير عن هذه الشجرة! فما رآها منهم احد ، وما يراها الآن منهم احد».

قلت : « لا والله ، لا أسألهم عن شيء بعد الذي لقيته منهم في أثناء الطريق » .

قال نسطور وهو يضحك : « والذي ستلقاه منهم في أثناء القفول . إن لصاحبك هذا لشخصين موكلين به يظللان عليه إذا اشتدت الهاجرة » .

قلت : « وتعلم ذلك ؟ » .

قال : « لم أستكشفه يا بنيّ ، ولكني أجده عندنا في الكتب ، وقد سمعته من أحبارنا ورهباننا . فارْعَ سيدك ، وأخلص له الحب ، واصْدُقْ في العناية به ؛ فإني لأوَدّ لو أن لي أن أقوم منه مقامك . ولكن لله حكمة بالغة ، والله يدبر الأمر ويجريه كما يريد لا كما نريد » .

قلت ، وقد كدت أطير فرحاً : « لأسرعنّ إلى محمد فلأنبئنه بما تقول » .

قال وهو يضحك في شيء من الحزن الهادىء العميق: «حاول من ذلك ما شئت! فلن تستطيع ، ولن يستطيع أحد أن يتحدث إلى محمد منه بشيء . إن الله يدبر الأمور ويجريها كما يريد لا كما نريد . ولن ينبىء محمداً بما كتب الله له من كرامة ، وما خبأ له الغيب من عظائم الأمور أحد من الناس ، وإنما الله وحده هو الذي ينبئه بذلك متى أراد وكيف أراد » .

«وأنصرف عن نسطور يا سيدتي، وفي نفسي أن أتحدث إلى محمد بما رأيت وما سمعت على رغم ما زعم لي نسطور . ولكني لا أكاد أبلغه حتى يتصل بينه وبيني حديث التجارة دون غيره من الأحاديث . ونمضي إلى السوق ، وأخالف عن محمد حيناً فأعود إلى الصومعة لأنظر إلى الشجرة فلا أرى شجرة ولا شيئاً يشبه الشجر ، وإنما أرى «نسطور» قائماً أمام صومعته ينظر إليّ ويضحك لي ، ثم يتولى إلى صومعته وعلى وجهه بعض الكآبة والحزن . وأسرع إلى محمد فأبلغه في السوق ، وإن بينه وبين أحد النصارى لخصومة واختلافاً في بعض الأمر ، والنصراني يسأل محمداً أن يقسم باللات والعزى ، فإذا محمد يجيبه في صوت هادىء ما سمعت قط شيئاً يشبهه عذوبة وليناً : « ما حلفت بهما قط ، وإني لأمرّ بهما فأعرض عنهما » . فيقول النصراني له : « القول قولك » . ثم يتحول إليّ فيهمس في أذني قائلاً : « هذا والله نبيٌّ تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم » .

«وقد علمت يا سيدتي ما أتاح الله لتجارتك من ربح ، ولمالك من نماء .

وقد قفلنا إلى مكة فأرى من محمد في أثناء القفول ما رأيت في أثناء الشخوص . ولكني أنعم بذلك ولا أعجب له ، وأكتم ذلك في نفسي ، ولا أفضي به إلى أحد ، وقد اطمأننت إلى عقلي ، ووثقت بصوابي . حتى إذا بلغنا مرّ الظهران قلت لمحمد : « تقدم فاسبقني إلى خديجة ؛ فأنبئها بما أتاح الله لها من الخير على يديك ! فإنها تعرف لك ذلك » .

ولم يقع في نفس خديجة قبل ذلك اليوم حديث موقع ذلك الحديث . ولم يحس قلب خديجة قبل ذلك اليوم سروراً مثل هذا السرور الذي تجده . ولم يشرق وجه خديجة قبل ذلك اليوم كهذا الإشراق الذي يشهده ميسرة فيمتلىء قلبه به إعجاباً يوشك أن يكون فتوناً .

ولكن خديجة تملك نفسها وتضبط أمرها ، وتقول لمولاها في هدوء وحزم : « لقد رأيتُ بعض ما رأيت ، وأبصرتُ هذين الشخصين يظللان على محمد حين أقبل عليّ منذ حين . ولقد أنبأني بربح تجارتي ونماء مالي ، فسمعت منه وأثنيت عليه ، ولكني لم أعرف له ذلك كما قدّرت . اذهب إلى ابن عمي ورَقة بن نوفل ، فأنبئه بأني أودّ لو أراه ، ثم أخرج للفقراء والبائسين حقهم من هذا المال الذي رجعت به من الشام » .

– ٤ –

وكان ورقة بن نوفل حازماً عازماً رجلَ صدْق؛ قد شهد مواطن قريش ، وشارك في مفاخرها ومآثرها . ولكنه أنكر في نفر من قومه أولي حزم وعزم ، وأصحاب فقه وبصر بالأمور ، ما كانت عليه قريش من باطل وجهل ، وما كانت تمعن فيه من عبادة هذه الأوثان التي لا تملك لها نفعاً ولا شرّاً ، ولا تغني عنها من الله شيئاً . وكان قد أجمع مع أصحابه أن يُعرضوا عن غيّ قريش وباطلها ، وأن يلتمسوا الخير لأنفسهم ما وجدوا إليه سبيلاً . وكان قد رحل مع صديقيه زيد بن عمرو وعثمان بن الحويرث إلى بلاد الروم يلتمسون فيها الدين الصحيح ، ويبغون فيها لأنفسهم خيراً .

فلما تحدثوا إلى الأحبار والرهبان وسمعوا منهم ، مال ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث إلى دين المسيح فآمنا ، وشكّ زيد بن عمرو .

ولكن ورقة بن نوفل إن أحب النصرانية وأمعن فيها فقد كان لقومه محبّاً ، ولوطنه مؤثراً ، وعلى ما ألف من عاداته المحمودة وسننه الكريمة حريصاً ؛ فلم يمعن مع صاحبه عثمان بن الحويرث في بلاد الروم ، ولم يذهب إلى قسطنطينية ، وإنما حفظ من النصرانية ما حفظ ، ووعى من علم الأحبار والرهبان ما شاء الله أن يعي ، ثم عاد بهذا كلّه إلى مكة ، فأقام فيها آمناً وادعاً ، فارغاً لدينه ونفسه ، لا يعرض لأحد ولا يحب أن يعرض له أحد . وعرفت قريش ذلك فأحبته وآثرته بالكرامة ،

واستشارته فيما كان يحزبها من أمر ، وأطاعته فيما كان يعرض عليها من رأي . وكان أصفياؤه وذوو خاصته يقدرونه ويُكبرونه ، ولا يكادون يصْدُرون في تدبير أمورهم إلا عن مشورته .

فلا غرابة في أن تفكر ابنة عمه خديجة في أن تسأله عما رأت وما سمعت من هذه الأحداث العظام والآيات الكبار وهو الذي انتهى إليه علم أهل الكتاب في مكة . ولعل خديجة كانت تريد أن تسأله في أكثر من ذلك لو أنها تعمقت دخيلة نفسها الطاهرة ، وعرفت أسرار قلبها الكريم ! ولكنها حين أرسلت تستزيره لم تكن تريد إلا أن تعلم منه علم هذه الآيات.

وقد أقبل عليها ورقة مع الليل معتذراً من إبطائه عليها بما كانت تعلم من اشتغال قريش بعودة العير ، وانصراف أهل مكة إلى ما كانوا ينصرفون إليه في هذا اليوم من ألوان الفرح والمرح والابتهاج ، وما كان يجب على المقيمين في مكة من الإلمام بالعائدين إليها .

فلما استقر المجلس بورقة قالت له خديجة : « إن عندي أنباء قد أهمّتني أمرها ، وما أرى إلا أنه يهمك كما أهمني ، ولعله يعنيك أكثر مما عناني » .

قال ورقة : « وما ذاك ؟ » .

قالت : « فإنك تعلم أني أرسلت في تجارتي هذا العام محمد ابن عبد الله » .

قال ورقة : « نعم ! وقد يظهر أن شؤوناً غريبة عرضت له في بعض الطريق » .

قالت خديجة : « أو علمت ؟ » .

قال ورقة : « سمعت من ذلك أطرافاً ؛ فقد كان رفاقه يتحدّثون بأمر ميسرة وبما كان يزعم لهم ؛ ومنهم من يظهر العجب لذلك ، ومنهم من يمعن في إنكاره . وقد سألت ميسرة ، فأفضى إليّ بحديثه كله ، وقصّ عليّ ما سمع من نسطور » .

قالت خديجة : « فإن أنبأتك بأني رأيت مثل ما رأى ميسرة ، وبأن نسائي رأين مثل ما رأيت ؟ » .

قال ورقة : « فإني أصدّقك وأصدق نساءك ، كما صدّقت ميسرة حين سمعت منه هذه الأنباء » .

قالت خديجة ، وقد ظهر على وجهها العجب والرضا معاً : « تصدّقنا ولم تر مثل ما رأينا ؟ » .

قال : « نعم ! لأني أنتظر مثل هذه الآيات منذ عهد بعيد . وما رأيت راهباً ولا حبراً من الذين انتهى إليهم علم الكتاب فيما جبت من بلاد الروم إلا تحدّث إليّ بأن

هذه القرية مبعث نبي يخرج من أهلها ، وبأن زمانه قد أظلنا ، وبأن بشائره قد أخذت تظهر ويقفو بعضها إثر بعض . وهم قد أقرأوني ذلك في كتبهم، وهم قد حدثوني بذلك عن شيوخهم وأساتذتهم. وما أخفي عليك يا ابنة عم أني قد أمعنت في النصرانية إمعاناً شديداً ، وأن قلبي قد تحدّث إليّ في بعض أوقاته ببعض الأمل، ولكني لم ألبث ان رجعت إلى الحزم والعزم والبصيرة ! فإن لهذا الرجل الذي يبعث من هذه القرية علامات وآيات ، منها ما يلزمه ولا يفارقه ، ومنهـــا ما يسعى بين يديه . وليس لي من هذه العلامات والآيات حظ ، فأنا أنتظر كما ينتظر غيري من علماء أهل الكتاب . ولو أن ميسرة لم يحدثني إلا بما رأى لكنت خليقاً أن أصدقه وأن آمنه على هـــذا الحديث . فقلبه أدنى الى السذاجة ، وعقله أدنى الى السماحة ، وطبعـــه أقرب الى السهولة واليسر من ان يتكلف الكذب ، او ينتحل الحديث ، او يدبر المكر تدبيراً . ولكنه لم يحدثني وحده بهذا الذي رأى ، وإنما حدثتني انت به ايضاً ! فقـد رأيت ورأى نساؤك . على أن ميسرة قـــد حدثني بحديث نسطور . وإني لأعرف من أمر نسطور ما أعرف ، وهو رجل صالح صادق ، عالم بما يأتي وما يدع ، لا يقول إلا عن علم ، ولا يصدر إلا عن رأي وثقة » .

قالت خديجة : « فأنت إذاً ترى لمحمد شأناً ؟ » .

قال : « ما أشك في ذلك . ولكني لا أدري متى يكون هـــذا الشأن ، وإني لأنتظره ، وإني لأتعجله ، وإني لأريد أن اتحدث الى محمد فيـــه ، فلا أجد الى ذلك سبيلاً ما لقيته قط . فما هممت بالتحدث إليه في أمر الدين إلا انعقد لساني عن الحديث وانصرفت نفسي عما كنت أريد ان ألقي اليه » .

قالت خديجة : « وما ذاك ؟ وكيف تؤوله ؟ » .

قال : « تأويله يا ابنة عم ان الله يريد ان يستأثر بإنباء محمد بما كتب له من كرامة ، وما هيأ له من أمر عظيم . وهو لا يريد أن ينبئه بذلك إلا حين يبلغ الكتاب أجله، وينتهي الأمر الى إبانه » .

قالت خديجة : « فاني لا أفهم ظهور هذه البشائر والآيات لبعض الناس دون بعض ، وانجلاء هذه الحقائق والمعجزات لبعض القلوب دون بعض » .

قال ورقة : « لو شاء الله لأظهر هذه الآيات للناس جميعاً ، ولو شاء الله لما أظهر من هذه الآيات شيئاً لأحد من الناس . أترين ان الله لم يكن قادراً على ان يقي محمداً حر الهاجرة دون ان يرسل اليه هذين الملكين يظللان عليه ! أترين ان الله لم يكن قادراً

أن يحجب هذه الآية عن ميسرة كما حجبها عن رفاقه الذين كانوا يسايرونه في العير ، كما حجبها عن محمد نفسه في أكبر الظن ! كلا يا ابنة عم ! إن قدرة الله لأوسع من ذلك وأشمل ، وإنه ليظهر من آياته ما يشاء ، كما يشاء ، لمن يشاء ، لأن له في ذلك حكمة بالغة ، وأربا قد تعجز عقولنا عن فهمه وتعيا معرفتنا عن تأويله . وانظري من حولك يا ابنة عم ، فما اكثر ما يتغير من الأشياء ! وما اكثر ما نرى من الأمر فتكره ونعجب له ! ولكننا لا نستطيع له رفضاً ولا رداً ! لأنه الحق الواقع الذي لا نستطيع ان نماري فيه .

إنك لتعرفين من امر عبدالمطلب ما تعرفين ، وما أرى انك نسيت قصص عبدالله. وما أشك في ان ما يحيط بمحمد من غريب الامر قد انتهى اليك كله او اكثره . أفرأيت اسرة من قريش قد اجتمع لها مثل ما اجتمع لآل عبدالمطلب ، وألمّ بها ما ألمّ بآل عبد المطلب ؟ » .

قالت خديجة : « لا ! وإني في ذلك لكثيرة التفكير ، اعجب ببعضه ، وارثي لبعضه ، وأقف من بعضه حائرة بين الإعجاب والرثاء » .

قال ورقة : « وكذلك أكثر الناس يا ابنة عم ، يرون ويعجبون ، ثم ينسى أكثرهم ، ولا يذكر منهم إلا الأقلون » .

ثم أطرق ورقة إطراقاً طويلاً حتى خيل إلى خديجة أنه قد نسي مكانه منها ومجلسه عندها ؛ ولكنه رفع إليها وجهاً قد تحدّرت عليه بعض الدموع ، وقال في صوت متهدج : « فلنر كما يرى الناس ، ولنعجب كما يعجبون ، ولكن لنجتهد في ألا ننسى ؛ فإن الذكرى قد تنفع في يوم من الأيام ، وهي بعدُ الخصلةُ التي تميز القلب الكريم » .

وهمّ أن ينهض ، ولكن خديجة استبقته قائلة : « أقم فإن حديثي لما ينته » .

قال ورقة : « أقدمي يا ابنة عم على ما تُديرين في نفسك ، لاتحجمي ولا ترددي ! فأنت أسعد نساء قريش ، بل أسعد نساء الأرض إن أتم الله لك ما تتمنين » .

قالت خديجة دهشة : « وقد علمتَ هذا أيضاً ؟! » .

قال ورقة وهو ينهض : « عمي مساءً يا ابنة عم ، وتلطفي في تدبير أمرك ! فإن أحسست التوفيق لما تحبين فآذنيني بذلك ! فإني أتمنى أن تكون لي يد ما في هذا الزواج الذي سيكون له في حياة الناس أسعد الأثر وأبقاه » .

تحدّث ابن سعد بإسناده (١) : أن نفيسة بنت منية قالت : « كانت خديجة بنت خويلد بن عبد العزّى بن قصيّ امرأةً حازمة جلدة شريفة ، مع ما أراد الله بهـا من الكرامة والخير ، وهي يومئذ أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالاً ، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدّر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال. فأرسلتني دسيساً إلى محمد بعد أن رجع في عيرهـا من الشام . فقلت : يا محمد ، مـا يمنعك أن تزوّج ؟ فقال : ما بيدي ما أتزوّج به . قلت : فإن كفيتَ ذلك ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قـال : فمن هي ؟ قلت : خديجة . قال : وكيف لي بذلك ؟ قلت : عليّ . قال : فأنا أفعل . فذهبت فأخبرتها،فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا ، وأرسلت إلى عمهـا عمرو بن أسد ليزوّجها ، فحضر ودخل رسول الله ﷺ في عمومته ، فزوّجه أحدهم » .

وشهد هذا الحفـل اليسير العظيم أبو طالب الذي كان يقوم دون محمد ويرعـاه ، وورقة بن نوفل الذي كان ينصح خديجة ويخلص لها الوفاء .

فلما أصبح المـلأ من قريش غدوا إلى مجالسهم وأنديتهـم من المسجد ، واخذوا في احاديثهم . فقال قائل منهم : ألم يبلغكم النبأ يا معشر قريش ؟ »

قالوا : « وما ذاك ؟ ».

قال : « فإن محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ذلك الذي كان يرعى لنا الغنم بالقراريط إلى وقت قريب قد تزوج من خديجة بنت خويلد بن اسد».

قال شيخ من شيوخ قريش : « ويحك يا ابن اخي ! إنه لابن عبد المطلب ، وإنـه للأمين. واي قريش اكفأ لخديجة من ابن عبدالمطلب ! واي قريش يستطيع ان يسامي الأمين !! » .

(١) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٨٤ طبعة ليدن .

حديث باخوم

- ١ -

أخذ القوم يرفعون أيديهم عن الطعام ، وجعلوا كلما تحوّل واحد منهم عن المائدة ممتلئاً ثقيلاً سعى هادئاً رقيقاً ؛ لا تكاد قدماه تحملانه ، كأنما أثقله ما ازدرد من الطعام والشراب ، حتى إذا تخطى عتبة الدار اتخذ مجلسه او ألقى نفسه إلقاء في هذا الميدان الفسيح الذي كان يمتد فيه البصر إلى غير مدى ، والذي كان ينحدر في يسر وأناة حتى يبلغ النيل . وما هي إلا ساعة حتى كان القوم جميعاً قد أخذوا أماكنهم أمام الدار ، وبدأوا حديثاً خافتاً بطيئاً متقطعاً أول الأمر ، ولكنه يرتفع ويسرع ويتصل ، ويزداد حظه من الارتفاع والسرعة والاتصال ، كأنما كان ذلك يقدّر بما يكون من استقرار الطعام والشراب في أجوافهم شيئاً فشيئاً ، وتوفر معداتهم على الهضم قليلاً قليلاً .

وليس من شك في أن هذا النسيم العليل الذي كان يهب عليهم من الشمال رقيقاً رطباً ، قد أعانهم على هضم ما ازدردوا ، وردّ عليهم شيئاً من النشاط الذي كانوا في حاجة اليه ، ليتصل بهم المجلس شطراً من الليل ، وليأخذوا في أسمارهم كما تعودوا أن يفعلوا كلما دعاهم صديقهم « يوحنا » الى الطعام .

وكان « يوحنا » أكثر أهل القرية مالاً ، وأعظمهم ثراء ، وأوسعهم أرضاً ، يعمل في زراعته الفقراء في شباب القرية الذين لا يملكون أرضاً ، يفرغون لها ، ويقفون جهودهم عليها . وربما احتاج في بعض المواسم والأوقات إلى عدد أكثر من هؤلاء الذين كان يجدهم في قريته ، فيجلب العمال والفلاحين من القرى المجاورة . وقد كان بعضهم يسمع بثروة « يوحنا » وكرمه ورفقه بالعاملين في أرضه وسخائه عليهم ، فيقصد الى هذه القرية من بعيد ، ليعمل عند هذا الرجل الذي لم يكن يشبه الكثير من اغنياء الإقليم وأصحاب الثروة فيه .

وكان « يوحنا » قد عوّد نفسه البرّ بأهل قريته ، والتوسعة عليهم بين حين وحين، لا يعرف أن أحداً منهم قد مسه الضر ، او اشتدت عليه الحال ، إلا أعانه وأغاثه يكتم ذلك ما وسعه الكتمان ! كأنما كان يستحي من أن يعرف الناس عنه برّه وكرمه، ولكن الناس كانوا يعلمون منه ذلك ويتسامعون به . وكان صنائعه يرون من شكر الطبيعة ومعرفة الجميل أن يذيعوا إحسانه إليهم ، وأياديه فيهم .

وكان « يوحنا » على ذلك لا يكتفي بهذا البرّ المكتوم يبذله لأهل قريته كلما احتاجوا اليه ، وإنما كان يدعوهم من حين الى حين الى طعام عام يقدمه اليهم في أيام كانوا يرونها أعياداً ، وكانوا يستجيبون لدعوته ولا يتخلفون عنهـا ، سواء في ذلك الميسور والمقتر عليه في الرزق ، يرون ذلك نعمة منه عليهم ، وحقاً له في أعناقهم . وكانوا اذا أخذوا حظهم من الطعام والشراب فرغوا للأحاديث والأسمار فقضوا فيها شطراً غير قصير من الليل ، ثم تفرقوا موفورين محبورين ، تخفق قلوبهم بالحب له ، وتنطق ألسنتهم بالثناء عليه .

وكانوا في هذه المرة في مساء يوم من أيام الآحاد ، لم يجهدهم العمل ، ولم يضنهم الكدّ ، وإنما قضوا يومهم فارغين ، قد خلصوا لحياتهم الخاصة ، وانتظروا هذه الوليمة التي كانوا يترقبونها منذ أيام ، وألموا بكنيستهم المتواضعة فأدوا صلاتهم ، واستمعوا لوعظ القسيس . وكان قسيسهم شيخاً متهالكاً قد تقدمت به السن ، وثقلت عليه الحياة ، وأدرك عقله شيء يسير من ضعف كان ربما دفعه الى بعض التخليط ، وأغراه الى أن يتحدث اليهم بغير الصواب . وكانوا على ذلك يحبونه ويكرمونه ، ويرعون له طول عهده بهم ، واتصال إقامته فيهم ، وكثرة ما صنع بهم من معروف ، وما احسن الوساطة بينهم وبين الله . فكانوا اذا سمعوا منه بعض التخليط ابتسموا مشفقين عليه رفيقين به وربما قسا عليه شبابهم من حين الى حين ، فأظهر شيئاً من سخرية ، وأعلن شيئاً من اعتراض . وكان القسيس يلقى من أهل القرية حباً بحب ، ووفاء بوفاء . وما له لا يفعل وشيوخ القرية إخوته الصغار ، وشباب القرية أبناؤه الذين شهد مولدهم ، وقدس زواجهم ، وتلقى أبناءهم على اختلاف أسنانهم ، منهم من لا يزال في المهد ، ومنهم من جعل يدرج ! ومنهم من أخذ يختلف الى الحقول . ولم تكن قسوة الشباب عليه تؤذيه أو تبلغ نفسه الطيبة وقلبه الحليم، وإنما كان يلقاها بكثير من العفو والإسماح. وربما مكر بالشباب مكراً فدفعهم إلى أن يعبثوا به ويقسوا عليه بعض الشيء ، يرى في ذلك دعابة تسرّه وتسر من حوله من أبنائه وأحبائه .

فلما أخذ القوم في حديثهم تلك الليلة بعد العشاء انبرى شاب من شباب القرية كان معروفاً بالدعابة وخفة الروح ، فقال للقسيس في هزل يشبه الجد : « لقد روّعتنا يا أبانا منذ اليوم بما قصصت علينا من حديث الشيطان وما عرضت علينا من صوره الغريبة البشعة ! فما قدّرتُ قط أن للشيطان هاتين الأذنين الطويلتين ، وهذين القرنين المحددين ، وهذه الأرجل الثماني التي قسمت بين ظهره وبطنه ، والتي تتيح له أن يسعى مرة ووجهه الى الأرض وأن يسعى مرة أخرى ووجهه الى السماء » .

قال فتى آخر من فتيان القرية : « فقد كان ينبغي أن تكون له أرجل ثمان أخرى : أربع منها عن يمين ، وأربع منها عن شمال ! ليستطيع أن يسعى على أي جنبيه شاء ، كما يستطيع أن يسعى على بطنه حيناً ، وعلى ظهره حيناً آخر » .

قال فتى ثالث : « وقد ينبغي أن يتاح للشيطان أن يسعى على قرنيه مرة وعلى ذنبه مرة أخرى » .

قال فتى رابع : « فأنتم تريدون أن يكون الشيطان كله أرجلاً إذاً ! فهلا تركتم من جسمه موضعاً للجناحين ! فقد ينبغي أن يكون له أجنحة يطير بها في الهواء ، لينقل الشر بها في أقصر وقت وأيسره من قطر من أقطار الأرض الى قطر ، ومن جيل من أجيال الناس الى جيل » .

وتضاحك القوم جميعاً ، فأغرقوا في الضحك ، ولم يكن قسيسهم الشيخ أقلهم ضحكاً . ولكن الفتى الأول اتجه الى أبيه القسيس الشيخ وقال في صوت غليظ وضحك عريض : « أرأيت الشيطان قط يا أبانا ؟ وعلى أي شكل من هذه الأشكال رأيته ؟ » .

قال القسيس الشيخ في صوت هادىء نحيف يبطىء به الكبر ، ويكاد يهدّه الضحك هدّاً : « لم أر الشيطان قط يا بني ، وما ينبغي لمثلي ان يراه ، وأعوذ بالله لكم من ان تراه . وما حدثتكم من أمره إلا بما قرأت في الكتب ، وسمعت من الأساتذة والمعلمين ، وسمعت من أحاديث الناس أيضاً . ومهما نصوّر من بشاعة الشيطان وقبح منظره فلن نبلغ منها شيئاً ! فهو أبشع من كل ما نظن ، وأقبح من كل ما نصوّر ، لا في شكله وخلقه فحسب ، بل في رأيه وعمله أيضاً ، وفي مشورته وما يوسوس به إلى الناس بنوع خاص » .

وهنا تكلم « باخوم » فخفتت الأصوات ، وأنصت الناس . وكان « باخوم » شيخاً من شيوخ القرية ، قد عرف بطول الصمت خارج الكنيسة ، وكثرة الصلاة إذا

كان فيها ، كما عُرف بالوقار والأناة إذا تحرك أو تكلم ، وكما عرف بهـذه الهيبة التي كانت تفيض على وجهه ، وهذه المحبة التي كانت تجذب اليه الناس .

وكان « باخوم » رجلاً قد طوّف في الأرض اول شبابه فأكثر التطويف ، ولم يكن يلمّ بقريته إلا ليمكث فيها العام او بعض العام ، ثم يرتحل عنها فيغيب عنها الأشهر حيناً ، والعام حيناً آخر ، وربما امتدت غيبته فبلغت العامين ، ولكنه كان ينتهي دائماً بالعودة الى قريته والإقامة فيها حيناً ... وكان لا يعود إلا ومعه فضل من مال يبرّ به خاصته وذوي قرباه ، ويحسن به الى الفقراء والبائسين ، وشيء من الطرف النادرة يتحف به الأغنياء واصحاب اليسار .

وكان قد نشأ عاملاً يرافق البنائين حتى تعلم صناعتهم ، واحسن من فنونهم ما يحسن اهل القرى. وكأن ذلك لم يكفه ولم يغنه ، فارتحل الى المدن فجوّد فنه شيئاً، ثم أخذ يتنقل بفنه من مدينة إلى مدينة ، ومن إقليم إلى إقليم حتى جاب أرض مصر كلها . وكان كلما أحسن من فنه شيئاً طمع في أن يضيف إحساناً إلى إحسان، ويرقى بفنه من طور إلى طور ، حتى تسامع الناس به ، ودعاه الأغنياء وأصحاب الثراء ، في إقليمه وفي غير إقليمه! ليشرف على ما كانوا يريدون أن يشيدوا من الدور والقصور. وكأنه قد عرف ما كان عند المصريين من فن البناء ، وحذق من ذلك ما كانوا يحذقون. ثم لم يكفه ما عرف ، ولم يرضه ما أتقن ، فأبعد في الرحلة ، وجاوز مصر إلى غيرها من البلاد المجاورة ، ولكنه استبقى عادتـه وحفظ لقريته عهدها ، فكان يبعد في الرحلة ويطيل الغيبة ، حتى يستيئس أهل القرية من عودته ، ويظنوا أنه قد هلك في بعض الطريق ، أو عدت إليه عاديات الدهر في بعض أقطـار الأرض . ولكنهم يرونه ذات يوم وقد أقبل عليهم مع الصباح أو المساء ، هادىء النفس دائماً ، وقوراً في حركاته وكلامه دائماً ، طويل الصمت خارج الكنيسة ، كثير الصلاة إذا كان فيها ، يحمل فضلاً من مال يبرّ به الفقراء والبائسين ، وشيئاً من الطرف يتحف بـه الأغنياء والموسرين . وقد كان أول أمره يحب الفن ويَكلَفُ بالعمارة والبناء ، ولكن إلحاحه في السفر وتجوببه الآفاق قد أضافا إلى هذا الحب الفني شيئاً آخر ، هو حب الرحلة في نفسها والكلف بزيارة البلاد المختلفة ، والإلمام بالأجيال المتباينة من الناس . فكان يرتحل للبناء أول الأمر ، ثم أصبح يرتحل لا لشيء إلا لأن نفسه لا تستطيع أن تسلو عن الرحيل . وكان في أول أمره ينتهز الفرص ويتلمس العلل والمعاذير لما كان يزمع من رحلة ، أو يعتزم من سفر ؛ فكان يصحب القوافل إلى هذا الوجه أو ذاك من وجوه

الأرض . ولكنه انتهى آخر الأمر إلى أن يستقل بتدبير أمره وينبىء أسفاره ، لا يلتمس لذلك علة ، ولا ينتحل له معذرة ، ولا يصحب هذه القافلة أو تلك ، وإنما يعود من رحلة إلى بلد ، فلا يكاد يستقر في قريته حتى ينبىء الناس بأنه مرتحل إلى بلد آخر . يسميه لهم تسمية العالم به ، الملم من أمره بما لا يعرفون .

وقد عاد إليهم ذات مرة من بعض أسفاره في بلاد الروم . فلما أقام فيهم شهراً أو بعض شهر أنبأهم بأنه يريد أن يركب هذا البحر الذي لا يركبه الناس إلا قليلاً ، وأن يرى ما ينبثّ على سواحله من المدن ، ومن يعيش حوله من أجيال الناس . وقد سمع من أمر هذه الأجيال وتلك المدن أعاجيب ،منها ما يقبله العقل ، ومنها ما لايستطيع الانسان له تصديقاً . وهو يعلم على كل حال أن شرقيّ هذا البحر ، وغير بعيد من ساحله ، تقوم مدينة قديمة ، يسكنها قوم صالحون يعرفون المسيح ويؤمنون به ، ويُخلصون لدينه . وقد امتحنوا في دينهم بأعظم الشر وأشنع النكر ، فصبروا على المحنة ، وثبتوا للخطب ، واصطلوا النار التي حرّقهم بها اليهود تحريقاً . وهو يعلم أن قيصر قد رقّ لهؤلاء الناس ، وغضب لما أصابهم من الشر ، فانجدهم وأغاثهم وثأر لهم من اليهود . وهو يريد أن يزور هذه المدينة ، ويرى هؤلاء الناس الصالحين الذين عذّبوا في الدين ، ويودّ لو استطاع أن يقيم لهم كنيسة ، ويترك في مدينتهم تلك أثراً يتقرّب به إلى الله .

وكان أهل القرية يسمعون حديثه ، فنهم من يزين له المضيّ فيما عزم عليه ، ومنهم من يصده عن ذلك ويرغبه في لين العيش واستقرار الحياة . ولكنه كان يسمع لأولئك وهؤلاء ، ولا يرد على أولئك ولا على هؤلاء رجع الحديث ، وإنما كان يمضي في تدبير أمره كما قدر هو ، او كما قدر الله له ، لا كما أراده الناس عليه .

وأصبح القوم ذات يوم فإذا « باخوم » قد تهيأ للرحلة كما تعوّد أن يفعل ، وإذا هو يفارقهم ، فتتصل غيبته وتتصل ، وتمضي الأعوام دون ان يسمعوا من أمره شيئاً، حتى يستيئسوا من عودته ، ثم تمضي الأعوام وقد تسلوا عنه وكادوا ينسونه ، وجعلوا لا يتحدثون عنه إلا قليلاً ، وجعلوا إذا ذكروه رقت أحاديثهم عنه ، وحسن ذكرهم له ، وكثر إشفاقهم عليه ، كدأب الناس حين يذكرون فقيداً كريماً كانوا يحبونه ويؤثرونه ، ثم حالت بينهم وبينه الخطوب ، فأخذوا يتعزّون عنه ويذكرونه ذكراً جميلاً .

ثم يتسامع أهل القرية ذات يوم بأن « باخوم » قد عاد إليهم بعد أن غاب عنهم

عشر سنين ، فينكرون أول الأمر ، ثم يعرفون بعد أن يروا صاحبهم كعهدهم به ، إلا أن السن قد تقدّمت به ، وظهر أثر ذلك في هذا الشيب الذي جلل رأسه ، وفي هذا الهدوء الذي عظم حظه منه ، وفي هذا الصمت الذي اشتد إمعانه فيه ، وفي شيء آخر جديد لم يكونوا ينتظرونه منه ، وهو إعلانه إليهم أنه لن يرحل عن قريته بعد هذه المرة ! بل سيظل بينهم يشاركهم في الحياة حتى يقضي الله فيه بما يشاء .

- ٢ -

وكان أهل القرية يكلفون بحديث «باخوم» ويشغفون بالاستماع له . وليس من شك في أن أولي الجِدّ منهم كانوا ينتظرون أن تنقضي هذه الدعابة بين الفتيان وأبيهم القسيس الشيخ ليطلبوا إلى « باخوم » أن يطرفهم بشيء من انباء رحلته الطويلة الأخيرة ! فإنه لم يقصّ عليهم منها شيئاً .

ولم يطمئن أهل القرية قط إلى محدّث او قاصّ كما اطمأنوا إلى هذا الرحالة من ابناء قريتهم ! فقد كانوا يعرفون فيه الصدق والأمانة والتواضع والاعتدال ، ولم يعرفوا قط أنه تزيّد او تكثر او اعتزّ بما رأى – وما كان اكثر ما رأى ! – وبما شهد ، وما كان اكثر ما شهد ! فلما سمع أهل القرية صوته تدانوا منه ، وأصغوا اليه، وكفّ الفتيان عن دعابتهم ، وردّوا ضحكهم الى صدورهم ولم يتموه .

وكان « باخوم » يتكلم بصوت هادىء ، غليظ بعض الشيء ، عميق أشد العمق ، كأنه يأتي من أقصى ضميره ، فكانت الكلمات التي يحملها هذا الصوت الرزين العميق إلى آذانهم لا تكاد تبلغ آذان القوم حتى تنفذ منها مسرعة إلى قلوبهم ، وتستقر فيها وتملؤها عجباً وإعجاباً .

قال باخوم : « أما أنا فقد رأيت الشيطان ، ما أشك في ذلك ولا أرتاب . ورأيته في قصة غريبة وقعت لي في رحلتي هذه الأخيرة منذ عامين » . ثم سكت قليلا . ثم استأنف حديثه قائلا : « نعم ! منذ عامين ، وقد امتلأت بها نفسي حتى كأنها لم تقع إلا بالأمس ، وقد اتصل بها قلبي فطمع في تجددها أشد الطمع ، ورجا تكررها أشد الرجاء ، حتى كأنها ستكون غداً . وهي آخر ما رأيت من أسفاري من عجيب الأمر . وما أرى إلا أنها آخر ما سأرى في حياتي من عجيب الأمر ، إلا

أن تمتد بي الأيام إلى أكثر مما أقدّر وما يقدّر أمثالي لأنفسهم من السن .

وما أشد ما أتمنى ذلك ! وما أشدّ ما أحرص عليه ! لا لأني أحب الحياة أكثر مما يحبها الناس ، أو أرغب في البقاء أكثر مما يرغب فيه الناس ، بل لأني موقن بأن لهذه القصة شأناً ، وبأنها قد أنبأت عن شيء سيكون . وما أشد شوقي إلى أن أشهد تحقيق هذا النبأ ، وظهور هذا الحدث العظيم ! » .

وتصور أيها القارىء أثر هذا الجمل التي كانت تصدر عن « باخوم » ملتهبة ، فتحرق قلوب المستمعين له تحريقاً . تصور أثر هذه الجمل في تشويق أهل القرية إلى هذه القصة التي سيطرفهم بها هذا الشيخ . وإنهم ليريدون أن يتعجلوه ، ولكنه مطرق مغرق في الصمت ، وقد اتصلت أبصارهم به ، وتعلقت قلوبهم بشفتيه . ولبث هو على صمته حيناً ، وقد سكن الليل وسكت النسيم ، كأنما تريد الأرض والسماء ، وهذه النجوم المتألقة ، وهذا النيل الذي يسعى هادئاً من بعيد ، أن تسمع له وتستمتع بحديثه كما يستمتع له الفلاحون في قرية من قرى الصعيد .

قال باخوم بعد ساعة : « كان ذلك منذ عامين حين انتهت بي الأسفار إلى مكة ! تلك القرية التي تسمعون ذكرها أحياناً حين تفد علينا قوافل قريش تحمل إلى مصر تجارة اليمن والهند . فقد ألممت بها ، وإن لي من أهلها لبعض الصديق ، وكنت أريد أن أقضي فيها أشهراً ، ثم أرحل مع قافلتهم إلى اليمن لأبلغ تلك المدينة الصالحة التي يسكنها قوم صالحون قد فتنوا في المسيح ، فصبروا على الفتنة ، وكنت أريد أن أقيم لهم كنيسة وأترك فيها أثراً باقياً .

فما أقضي في مكة شهراً وبعض شهر حتى يتوسل إليّ بعض الصديق من قريش في أن أبني له داراً ، فلا أمتنع عليه ، وإنما أجيبه إلى ما أراد ، وفاءً ببعض ما بيننا من المودة ، وأداءً لبعض ما لهؤلاء الناس عليّ من حق . وقد صحبتهم في سفر شاق بعيد ، فحموني وحاطوني ورفقوا بي ووفوا لي بذمتهم ، وأكدوا لي صادقين أنهم سيبلغونني نجرانَ إذا ارتحلوا إلى اليمن ، وسيردّونني إلى مأمني إذا عادوا إلى بلاد الروم . فلم يكن بدٌّ إذاً من أن أستجيب لصديقي ، فأقيم له داره التي أراد أن يبنيها وما هو إلا أن يكون التنافس بين القوم ! فهؤلاء نفر من سراتهم وعظمائهم يتوسلون إليّ في مثل ما توسل إليّ ذلك الصديق فيه . وكلهم يعظم لي الأجر ، ويُهدي إليّ ما استطاع من الخير . وإني لفي ذلك أجيب منهم من أستطيع إجابته راضياً مسروراً بإرضاء هؤلاء القوم الكرام ، وبمعاودة المهنة بعد أن طال إهمالي لها وإعراضي عنها ،

وإذا خاطر يخطر للملأ من قريش ذات ليلة وهم يسمرون، فيفكرون فيه ثم يفكرون، ثم يستأنون به ، ثم يعودون إليه ، ثم يؤخرونه ، ثم يستأنفون النظر فيه ، ثم يُفضون إليّ به على أنه شيء يريدونه وتتمناه قلوبهم ، ولكنهم لا يجرؤون عليه. يُشفقون أن يكون في الإقدام عليه ما يغضب آلهتهم ، ويجر عليه ما يكرهون . رأوا بيتهم ذاك الذي يقدّسونه ويعبدون ربهم فيه قد طال عليه العهد ، وبعدت بـه الأيام ، وظهر الوهن ، وتعرّض لأخطار السيل ، واجترأ عليه اللصوص فسرقوا بعض ما فيـه من متاع ، فتساءلوا : ألا يكون من الخير ان يهدموا بناءه هذا القديم ، ويقيموا لربهم بيتاً جديداً فخماً متيناً ، يلائم مكانته في قلوبهم ، ويلائم ثروتهم هذه التي تزداد من يوم إلى يوم ، ويلائم هذه الدور التي اخذوا يقيمونها لأنفسهم فخمة متينة، قد يُسرت لهم فيها اسباب الترف والنعيم ؟ ولكنهم يفكرون ولا يعزمون ، يخشون ألا يرضى ربهم عما لا بدّ لهم منه من هدم البيت إن ارادوا له تجديداً . وكان يزيـد خوفهم واشفاقهم ويملأ قلوبهم فزعاً وهلعاً كلما همّوا بالإقدام انّ حية كانت تظهر كل يوم ، فتسعى على جدران البيت صاعدة هابطة دائرة من حوله ، وكان منظرها بشعاً مخيفاً ، وكانت اذا دنا منها دان اتخذت شكلاً رهيباً ، لا يراه من يدنو منها حتى يرتد عنها مذعوراً . فكانوا يخشون ان تكون هذه الحية حارساً لهذا البناء ، وكانوا يقدرون انهم إن اتوا رأيهم وانفذوه لم يـدنوا من البيت ليأخذوا في الهدم حتى تردّهم عنه مدحورين . وانهم لفي انديتهم حول البيت ذات يوم واذا الحية قد خرجت من مخبئها وجعلت ترحف كدأبها ، وجعلوا هم ينظرون إليها مروّعين ، واذا عقابٌ تهـوي من السماء فتأخذ الحية من ذنبها ، ثم ترتفع بها في السماء وهم ينظرون ويعجبون ، وقـد غابت عنهم العقاب . فما يشكون في ان ربهم قـد أذن لهم في ان ينفذوا ما عزموا عليه . وقد احسوا بعد هذا الحادث شجاعة واقداماً ، وجعلوا يديرون امرهم بينهم ، ويدبرون ما لا بدّ من تدبيره لبناء هذا البيت .

وانهم لفي ذلك واذا الأنباء تصل اليهم ذات صباح بأن سفينة من سفن الروم قـد طغى عليها البحر، وعبث بها الموج ، وعصفت بها الريح ثم دفعتها الى الساحل القريب. فيسرعون الى البحر ، وأسرع معهم ، ويرون السفينة وقد عطبت ، واضطر اهلها من الروم والمصريين الى اشد الخوف واعظم الهلع ؛ لأنهم دُفعوا الى غـير مأمن ، ووقعوا الى ارض ليس فيها جار ولكن قريشاً يلقون اصحاب السفينة احسن لقاء ، ويؤمنونهم على انفسهم واموالهم ، ولا يرضون حتى يشتروا منهم هذه السفينة التي ادركها العطب

ويقولون لي : « فإنا نستطيع ان نتخذ من خشب هذه السفينة لبيت ربنا سقفاً » . ولم يرتابوا بعد ذلك في ان ربهم قد اذن لهم بهدم البيت وتجديده . الم يرسل العقاب الى تلك الحية فتخطفها ! الم يرسل اليهم هذه السفينة ليتخذوا منها للبيت سقفاً ! الم يرسلني انا اليهم لابني لهم هذا البيت كما نقيم البناء في مدن الروم !

وكذلك تمت كلمتهم على انفاذ ما دبروا . ولم اتردد انا في ان اكون من بناء البيت عندما يحبون . وكنت انظر اليهم والى ما كانوا يرون ويقدّرون في شيء من العطف عليهم والابتسام لهم ؛ فهم أصحاب سذاجة لم يألفوا من الحضارة ما ألفنا ، ولم يبلغوا من خطوب الأيام ما بلونا . فأيسر شيء يدفعهم إلى التفاؤل ، وأيسر شيء يردّهم إلى التشاؤم ، وأيسر شيء يدعوهم إلى الإقدام ، وأيسر شيء يضطرهم الى الإحجام . ولكني لم ألبث ان أحسست ما يحسون من روع ، وشاركتهم فيما كان يملك قلوبهم من تردد واضطراب . حضرتهم ذات يوم وقد أطافوا ببيتهم ، وجعل بعضهم يؤكد لبعض تقادم العهد به ، وإلحاح الزمان عليه ، وحاجته الى التجديد ، ويسعى شيخ من شيوخهم حتى يمس حجراً من احجار البيت ناتئاً بعض الشيء ، فيجذبه بيديه فينجذب ، وقد بعد الشيخ بهذا الحجر عن البيت شيئاً وهو يحمله في يده . ولكن ماذا ترى ؟ ترى هذا الحجر ينفصل عن يد الشيخ ، ويمضي وحده في الهواء حتى يرتد الى مكانه من البيت كأحسن ما يمكن أن يستقر في موضعه . ولست أخفي عليكم أني لم أكن أقل القوم ارتياعاً واضطراباً حين رأيت هذا المنظر البديع ، بل ما أشك في اني كنت أشدهم ارتياعاً واضطراباً ، وأعظمهم حيرة ، واعجزهم عن الفهم والتأويل . ذلك ان هذا الحديث قد روّعهم شيئاً ، ولكنه لم يذهب بصوابهم ، ولم يخرجهم عن أطوارهم. وما أسرع ما فهموا ، وما أحسن ما أوّلوا ! فقد قال قائلهم : « يامعشر قريش أقدموا على أمركم ، ولكن احذروا أن تنفقوا في هذا البناء مالاً حراماً ، لا تدخلوا فيه من كسبكم إلا طيباً . لا تدخلوا فيه مهر بغيّ ، ولا بيع رباً ، ولا مظلمة أحد من الناس» .

ثم غدوا الى البيت يريدون هدمه ، وقد صمموا على ذلك ، ولكنهم على تصميمهم لا يجرؤون ، فيندبون شيخاً منهم فيرقى الى البيت ، ويبدأ في الهدم وهو يقول في لهجة ساذجة كان لها في نفسي أبلغ الأثر وأبعده : « اللهم لم تدَعْ ، إنما نريد الخير» . وكان القوم ينظرون اليه معجبين به ، مشفقين عليه من إقدامه دون أن يشاركوه فيما أخذ فيه ، وإنما أجمعوا أمرهم بينهم أن ينتظروا ليلتهم حتى إذا اصبحوا رأوا ! فإن

كان قد نزل بالشيخ مكروه أو ألمّ به خطب ، علموا أن ربهم غاضب ، فأصلحوا ما هدم الشيخ وتركوا البيت على حاله ، وإن غدا عليهم سالماً موفوراً علموا أن ربهم راض ، فمضوا في الهدم وأقاموا البناء .

وأصبح الشيخ سليماً معافىً ، فغدا على عمله وغدوا معه ، حتى هدموا البيت . ثم جعلوا يجمعون الأحجار يسعون في جمعها بأنفسهم لا يستأجرون لذلك أحداً ، ولا يكلون ذلك الى رقيق ، يرون النهوض بذلك حقاً عليهم وشرفاً يبقى لهم في أعقابهم . وأخذت أنا أبني لهم البيت أقيمه على أسسه القديمة التي لم يمسّوها .

ولهم في هذا البيت حجر يعظمونه ويكرمونه ، ويرونه هبة لهم من ربهم . فلما بلغ البناء الى حيث يجب أن يوضع هذا الحجر اختلف القوم بينهم : أيهم يضعه موضعه! فكلهم ابتغى لنفسه هذه المأثرة ، وكلهم حرص عليها أشد الحرص ! وإذا اختلافهم يستحيل إلى خصومة ، وإذا خصومتهم تبلغ من الشر الى اقصاه ، واذا هم يتلاحوْن ويتنادرون ، ويؤذن بعضهم بعضاً بالحرب ، وقد وقف البناء ، وفسد الأمر بين القوم فساداً عظيماً . وأقاموا على ذلك اياماً وليالي ، وتحالف بعضهم على الشرّ ، فجاءوا بجفنة قد ملئوها بالدم وغمسوا فيها أيديهم وهم يقسمون . ليستأثرُنّ بهذا الشرف أو ليموتنّ من دونه . ثم يجتمع الملأ منهم صباح يوم فيتناهون ويتناصحون ، ثم يشير عليهم شيخ منهم بأن يحكّموا في هذه الخصومة أول داخل عليهم من باب من ابواب المسجد ، يسمونه باب بني شيبة . فلا يلبثون ان يدخل عليهم من الباب رجل شابّ لم يروا اجمل منه طلعة ، ولا اعظم منه هيبة ، ولا أحسن منه سيرة في قومه . سمعت من أنبائه الشيء الكثير ، ولكني استيقنت انه رجل عظيم الخطر حين رأيتهم ينظرون الى مقدمه مبتهجين ويصيحون : « هذا الأمين ، قد رضينا . هذا محمد ، قد سلمنا » . ثم يعرضون عليه الخصومة ، فما رأيت وقاراً كوقاره ، وما رأيت أناة كأناته ، وما رأيت هدوءاً كهدوء نفسه ، وما رأيت رجلاً أرفق منه بقومه ، وأعطف منه عليهم ، وآثر منه لهم بالخير . وانظروا الى قضائه فيهم ، فسترون كما أرى انه لم ينتج عن تفكير إنسان ، وإنما كان إلهاماً من الله ..

نزع الأمين رداءه فألقاه على الأرض ، ثم وضع الحجر في وسطه ، ثم قال لقومه : « لينتدب من كل ربع من أرباع قريش رجل » . فلما اجتمع أربعة نفر يمثلون قومه كلهم ، قال : « ليأخذ كل واحد منكم بزاوية من زوايا الرداء » ، ففعلوا واشتركت قريش كلها في رفع الحجر ، وتقسمت قريش كلها هذا الشرف العظيم قسمةً سواءً

عدلاً ، حتى اذا انتهوا الى البناء آثره ربه بخلاصة هذا الشرف وخير ما في هذه المكرمة ، فيأخذ الحجر بيده ، ويضعه في موضعه ، والقوم راضون فرحون ، قد اطمأنت قلوبهم الى هذا العدل ، واستبشروا بما كفّ عنهم من الشر ، وبما عصم لهم من الأنفس وحقن لهم من الدماء . وهنا استيقنت أني رأيت رجلاً هو أحب خلق الله الى الله ، وأكرمهم عليه . ولكني لم ألبث أن رأيت شخصاً يجب أن يكون أبغض خلق الله الى الله ، وشرهم عنده مكانة . كان رجلاً شيخاً حسن الطلعة ، جميل المنظر ، عليه وقار ، وله سمة ، ولم أكن قد رأيته في القوم قط ، وما كان شكله ملائماً لأشكالهم ، ولا زيه مشاكلاً لأزيائهم . ولكني رأيته فجأة لا أدري من أين جاء ، أنجم من الأرض أم هبط من السماء .

أقبل هذا الشيخ النجديّ يناول الأمين حجراً يثبت به الركن الأسود في موضعه ، فيقبل رجل من عمومة الأمين ، فيأبى على هذا النجديّ وينحيه ويدفع الى الأمين الحجر الذي يشدّ به البناء . هنالك غضب الشيخ النجدي ، فقال له الأمين : « إنه ليس يبني معنا في البيت إلا من كان منا » . فجعل النجدي يقول : « ياعجباً لقوم أهل شرف وعقول ، وسن وأموال ، عمدوا الى أصغرهم سناً ، وأقلهم مالاً ، فرأسوه عليهم في مكرمتهم وحرزهم ، كأنهم خدم له . أما والله ليفوتنهم سبقاً ، وليقسمن بينهم حظوظاً وجدوداً » .

وتسمع قريش حديث النجدي فتسخط عليه وتثور به ، وتريد أن تلحق به الأذى ، ولكنا ننظر فلا نجد أحداً ، ونبحث فيما نعرف الى اين ذهب ، كما لم نعرف من أين جاء .

ويقول قائلنا حين استيأسنا منه : « هذا والله ابليس ، أراد أن تكون له في بيت ربنا يد ، فرد عن ذلك مدحوراً » .

ثم سكت «باخوم» ، وأطرق فأطال الإطراق ، كأنه يستعيد في نفسه هذه القصة التي سحر بها قلوب سامعيه وألبابهم . ولكن القسيس الشيخ يسأل « باخوم » في صوته الهادىء المحطم : « ونجرانُ يا بنيّ أذهبت إليها ؟ أأقمت فيها الكنيسة التي كنت تريد أن تقيمها ؟ » .

قال باخوم : « لا يا أبانا ، قنعت ببناء هذا الحي من قريش . وما أدري لماذا استيقنتْ نفسي منذ ذلك اليوم بأن سيكون لهذا البيت ولهذا الأمين شأن »

قال القسيس : فإنك تسمي هذا الأمين محمداً ؟ »

قال باخوم : « نعم ! يسميه قومه محمداً ، ويسمونه أحمد ، ويكنونه أبا القاسم ، ويتحدثون عنه بالأعاجيب » .

قال القسيس في شيء من الحيرة والذهول : « أحمد ! أحمد !! أليس يمكن أن يكون هذا النبي الذي بشر به المسيح ! »

وتفرّق القوم من ليلتهم ، وإن في قلب كل واحد منهم لأثراً قوياً باقياً لهذا الحديث.

قال محدثي : والعجب أن أكثر المصريين يجهلون أن لهم في بناء الكعبة يـداً ، وأنهم قد اشتركوا فيه ، واشتركوا فيه مع الأمين الذي اصبح بعدُ سراجاً منيراً ، أخرج الله به الناس من الظلمة الى النور .

صاحب الحان

- ١ -

أنكر شباب قريش من صاحب الحان إعراضه عنهم ، وما ظهر من انقباض وجهه وتقطب جبينه ، ومـــا أحسوا وراء ذلك من فتور النفس ، وجمود القلب ، وشرود الخاطر ، واشتغال البال .

وكان هؤلاء الفتيان المترّفون من شباب قريش قد تعوّدوا من صديقهم هذا الرومي نشاطاً للشراب إذا نشطوا له ، وإقبالاً على اللهو إذا أقبلوا عليه ، ومشاركة في اللذة إذا أخذوا فيها ، قد مُحيت بينهم وبينه الفروق ، ورفعت بينهم وبينـــه الحجب ، وأصبحت الأمور بينهم وبينه ميسرة هينة ، تجري على المودة والإلف ، وعلى السذاجة والإسماح ، كما تجري بينهم وبين أنفسهم ، أو خيراً مما تجري بينهم وبـين أنفسهم . يقبلون عليه مصْبحين ، ويقبلون عليه مُمسين ، ويقبلون عليه في أي ساعة من ساعات النهار والليل ، فلا يرون منه إلا نشاطاً وانبساطاً ، وإلا إقبالاً عليهم وإيناساً لهم . فإذا أخذوا في شرابهم ، وأقبلوا على لذّاتهم ، واستمعوا لأولئك المغنيات الروميات اللاتي كنّ يفتنهم بالصوت واللحظ ، وبغير الصوت واللحظ من أسباب الفتنة وألوان الإغراء ، أقبل الخمّارُ الرومي معهم على هذا كله ، لا إقبـــال التاجر الذي يُغري بتجارته ويرغب فيها ، بل إقبال المخلص في حب اللهو ، المسرف في إيثار الـــلذة المتهالك على أن يأخذ نصيبه من الدنيا قبل أن يدفعه الموت إلى تلك الطريق التي يعرف اوّلها ثم يجهل من امرها بعد ذلك كل شيء .

وكانت الـكلفة قد ارتفعت بين هذا الروميّ وبين زوّاره من فتيان قريش هؤلاء ، فكانوا يشربون ويطربون ، ويؤدّون اليه الثمن لذاتهـــم إن حضرهم المال ، فإذا لم يحضرهم لم يجدوا بذلك بأساً ، ولم يمنعهم ضيق ذات ايديهـــم ان يمضوا فيما يحبون من

عبث ولهو . ولم يُظهر لهم صديقهم الرومي تجهماً ولا تلكؤاً ، ولم يبطىء عليهم في شيء مما كانوا يريدون ، لا لأنه كان واثقاً بأن حقوقه ستؤدى اليه كاملة فحسب ، بل لأنه كان قد أحب هؤلاء الفتيان وأنس اليهم. ولولا بقية من اصله الرومي كانت تضبط اموره وتردّه الى الصواب والحزم ، لاندفع مع هذا الحب الى غير حدّ ، ولألغى بينه وبين هؤلاء الفتيان من اشراف قريش كل حساب .

فلما اقبلوا عليه من ليلتهم تلك لم ينشط لما كانوا ينشطون له ، ولم يلقهم بما تعوّدوا ان يلقاهم به من البشر وطلاقة الوجه ، وانما استقبلهم في شيء من الفتور لم يلبثوا ان أحسوه وشعروا به ، ولكنهم لم يُظهروا مما احسوا شيئاً . وخلي الرومي بينهم وبين ما احبوا من شراب ولذة ، ومن مجون وعبث . واندفعت المغنيات الثلاث يرددن عليهم اصواتهن الغريبة العذبة . ويُوقعن لهم ألحانهن الشجية الحلوة . وجعلوا يسمعون ويعجبون ، ويُفتنون ولا يُفهمون ، وجعلوا يستعينون على هذا كله بالإغراق في الشراب ، والاستباق الى الإكثار منه ، مسرفين في المزاح ، متهالكين على الدعابة ، يقول بعضهم لبعض : لن يتأخر قدوم العير بما تقدّم اليها الخمار في ان تحمل اليه من نبيذ الشام وفلسطين ، فلا ينبغي ان ننصرف عنه الليلة حتى نستنفد ما عنده من نبيذ قديم . وكانوا يلمحون له بدعابتهم ، ويلحون عليه بمزاحهم ، ويحرّضونه على مشاركتهم ، فلا يجدون منه اصغاء اليهم ولا انتباهاً لهم ، فيمضون في امرهم متكلفين ان يلقوا إعراضاً بإعراض ، وجفاء بجفاء . ولكنهم لا يلبثون ان يحسوا كأن شيئاً ينقصهم ، وكأن اللهو لا يستقيم لهم ، وكأن نفوسهم لا تستجيب لهذه اللذات التي تدعوها فتلح في الدعاء . ولا يشكون في ان انقباض هذا الرجل الرومي عما ينبسطون له هو مصدر ما يجدون من حرج وضيق ، ومبعث هذا الفتور الذي اخذ يسعى اليهم شيئاً فشيئاً ، فيلهيهم ، عن الألحان وأصوات الغناء ، ويكاد يصرفهم عما بين ايديهم من هذه الأقداح التي لم تتعوّد الانتظار .

هنالك يُقبلون على صديقهم الرومي لائمين اوّل الأمر ، ثم ملحين في اللوم . فإذا لم يجدوا منه عناية بهم او استماعاً لهم رقوا له ورفقوا به ، وتحولوا اليه عن شرابهم وغنائهم ، وجعلوا يسألونه سؤال الصديق عما عرض له من امر، وما نزل به من خطب، وما ألمّ به من مكروه . ويبلغ رفقهم هذا الحلو قلب الرومي فيتأثر به ويلين له ، ويتصل بين هؤلاء الفتيان من اشراف قريش وسادتها وبين هذا الخمار الرومي حديث غريب لا ينقضي إلا وقد كاد الليل ينجلي عما كان قد غمر من الأودية والبطاح .

قال الحمار الرومي لأصدقائه من شباب قريش : « عزيز عليَّ ان ألقاكم بما لقيتكم به من الفتور ، وقد عوّدتكم ان اكون لكم مكرماً ، وبكم حفياً . وعزيز عليَّ ان اقصر عما تقدمون عليه من هذه اللذات التي كنت اسابقكم اليهـا فأسبقكم ، وانازعكم الاستمتاع بها فأكون اوفركم منه حظاً واعظمكم منه نصيباً . وعزيز عليَّ ان يُعديكم هذا الفتور ويبلغكم هذا القصور ، فتَصَدّون عما تحبون ، وتُصْرَفون عما تألفون . ولكن ثقوا اني لم اقدم على ذلك راغباً فيه ، وإنما دفعت اليه مكرهاً عليه » .

قال صفوان بن أمية : « فإنا ما نشكّ في انك لم تلقنا بهذا الإعراض والفتور إلا وقد عرض لك من الأمر ما اضطرك الى ذلك . وقد عودناك ان نفضي اليك بأسرارنا وجلية امورنا ، لا نخفي عليك منها شيئاً . فأفض الينا بدخيلة نفسك وجلية امرك ! فلعلنا ان نكون عند ما تحب من المعونة لك والترفيه عليك » .

قال صاحب الحان : « فإني اخشى اشد الخشية الا تملكوا لي من هـذا الأمر الطارىء شيئاً » .

قال صفوان : « إنك ضيفنا وجارنا وصديقنا ، وصاحب لذتنا وشريكنا في هذه اللذة . فلسنا لقريش إذاً ان بخلنا عليك بالمعونة ، او آثرنا انفسنا بالأمن والراحـة والنعيم من دونك . وإنك لتعرف من قريش قراها للضيف ، ووفاءها للجار ، وبرها بالصديق ، واداءها للحقوق » .

قال صاحب الحان : « فإن هذا الأمر الطارىء ليس مما تظنون في شيء ، وإني لا ادري كيف اباديكم به واتحدث اليكم فيه ، ولو ان الذي عرض لي كان مما تعودتم ان تردّوه عن الضيف والجار والصديق لمـا ابطأت في إنبائكم به واظهاركم عليه . ولكنه لون آخر من الأمر لم تتعودوا ان تروه ، وضرب آخر من الخطب لم تتعودوا ان تشهدوه . وما ادري اتفهمون عني ان تحدثت اليكم بما عرض لي ! ومـا ادري اترضون ان فهمتم ما القي اليكم من الحديث ام تسخطون ! فانه امر غريب حقاً ! » ثم اطرق الرومي وترك هؤلاء الفتيان من شباب قريش وقد اخـذهم شيء يسير من الوجوم بهذا الحديث الغريب ، وجعلوا يتقارضون فيما بينهم الحاظاً قصاراً سراعاً . ثم

رفع الرومي اليهم رأسه ، فلما رآهم على هذه الحال ابتسم لهم رفيقاً بهم ، وقال في صوت هادىء بعيد : « ما احب لكم ان تُصرّفوا عن امر لذتكم الى هذا الأمر الذي ما اراه يعنيكم من قريب او بعيد ، فعودوا الى ما كنتم فيه موفورين . ولو استطعت لشاركتكم في اللهو ، ولأعنتكم عليه ، ولكن نفسي محزونة منذ الليلة حقاً ! » .

قال صفوان : « فانا لن نتحول عنك الى لذتنا ، ولن ننصرف عنك الى بيوتنا حتى نعلم علمك ، وحتى نرى اقادرون نحن على ان نعينك ام عاجزون عن ان نبلغ من ذلك بعض ما نريد . فاقصص علينا امرك ولا تبطىء ! فانك قد شوقتنا الى حديثك هذا الذي تخفيه فتمعن في اخفائه وتلتوي به علينا اشد الالتواء » .

قال الرومي : « إني لا أخفي عليكم شيئاً ، ولا ألتوي عليكم بشيء ، ولكني أدير هذا الأمر في نفسي ولا أعرف كيف أباديكم به » .

قال صفوان وهو يتكلف الضحك: «فبادنا به كيف شئت وعلى أي وجه أحببت! فاني أخشى إن طال بك هذا الصمت وألح عليك هذا الالتواء أن نشقّ عن صدرك لنرى ما يضطرب فيه من عاطفة ، ونشجّ رأسك لنظهر على ما تدير فيه من رأي وما تجيل فيه من حديث » .

قال الرومي وهو يبتسم : « ما أوفاكم إذاً للجار ، وأرعاكم إذاً للصديق ! »

قال صفوان : « فانك مظهرنا على امرك طائعاً او كارهاً ! فقد طال منك الصمت وطال منا الإلحاح ، وقد تقدم الليل ، وإنا خليقون ان نبقى حولك حتى يدركنا الصبح نسألك ونلح عليك ، فأرح نفسك وأرحنا من السؤال والإلحاح » .

قال الرومي وهو يظهر تردداً شديداً ، ويأخذ نفسه بالعنف لأنه يُقدم على أمر عظيم : « فان الأمر الذي أهمني لا يتصل بي وإنما يتصل بكم » .

قال صفوان : « فذلك اجدى ان تبادينا به وتظهرنا عليه ! » .

قال الرومي : « فانه لا يتصل بحياتكم حين تأوون الى بيوتكم ، او تهرعون الى هذا الحانوت او تضطربون في الارض ، وإنما يتصل بآلهتكم » .

ولم يكد هؤلاء الفتيان من قريش يسمعون هذه الجملة حتى اندفعوا الى ضحك غليظ متصل ، ثم سكت عنهم الضحك بعد حين ، فجعل بعضهم ينظر الى بعض نظر المنكر لما سمع ، الساخر منه ، في شيء غريب من الفرح والمرح ، وفي إشارة الى الغلام ان يملأ لهم اقداحهم . ثم نظر صفوان الى صديقه الرومي نظرة لا تخلو من استهزاء يشوبه الإشفاق وقال : « قد كنا نحسب ان التفكير في الآلهة والحديث عنهم امر مقصور

على نفر من قريش تقدمت بهم السن وتقلبت عليهم الحياة . وفرغوا لهـــذا العبث ، فجعلوا يخوضون فيما ليس للناس ان يخوضوا فيه . ولكن الامر قد تجاوز هؤلاء الشيوخ من قريش الى جيراننـــا من الروم . أومسّتك العدوى إذاً ؟ او جعلت تصبو الى ما يصبو اليه هؤلاء النفر من شيوخنا ، وتحرص على ان تمتاز بما يمتازون به من التحرج والتكليف ، وإنفاق الجهد فيما لا ينبغي ان ينفق فيه الجهـــد ؟! لقد جفّت حلوقنا يا غلام ، فأسرع الى هذه الاقداح فاملأهـــا ، وأسرع الى مولاك بشيء من شراب ، فما ترى إلا أن نفسه قد ظمئت ، وما ترى إلا ان ظمأ نفسه قـــد اضطره الى هذا الحديث » .

قال الرومي : « اما انك قد قلت الحق وانت لا تدري ! فان نفسي لظمئة ، وان ظمأها لأشد مما تظن » .

قال صفوان : « تظمأ وعندك اكرم ما جادت به بَيسان من نبيذ ! » .

قال الرومي : « ما صدفت نفسي قط عن الخمر كما تصدف عنها الآن . إني لشديد الظمأ ولكن الى شيء آخر ما ارى انكم تفقهونه او تفطنون له » .

قال صفوان وهو مغرق في الضحـــك : « انك لظمىء الى ما كانت تظمأ اليه نفس زيد بن عمرو! فقد طلبته جاهدة فلم تظفر به ، ولم ترو ظمــأها باليقين ، وإنما روّته بهذا الدم الزكي الذي لم نثأر له بعد ، والذي لا بد من الثأر له . وإنك لظمىء إلى ما كانت تظمأ له نفس ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث ! فإن ورقة بن نوفل ليقيم منك غير بعيد فتحول اليه واستمع له ! فقد يُروي نفسك بما وعى من علم النصارى ، وما حفظ من سخف الروم . ولكن لا تنس ان تخلي بيننا وبين ما بقي لك من خمر ، وان تحكمنا فيما ستقدمُ عليك به العير بعد ايام» . ثم تضاحك القوم ورفعوا الأقداح الى افواههم ، ثم ردوها ولم يذروا فيها شيئاً .

قال الرومي : « فأما وأنتم تفقهون امر هؤلاء النفر من قريش ، فما أشك في أنكم ستفهمون عني إن حدّثتــكم بما يضطرب في نفسي من الأمـــر . ولقد أسأت بكم الظـــن فعذرة اليكم . لقد رأيتكم لا تحفلون إلا بما يحفل به اترابكم من اللهو ، ولا تقبلون الا على ما يقبل عليه لداتكم من اللذة والنعيم » .

قال صفوان : « فإن لنا على ذلك عقولاً تستطيع ان ترقى الى حكمتـــك العليا . ولكن ما رأيك في انها زاهدة في هـــذه الحكمة ، راغبة عنها !! فإنا لم نأتك لتتحدث الينا عن الآلهة ، وما ينبغي لغير قريش ان يتحدث عن آلهة قريش . ولقد أطلت فينا

المقام ، فكنت خليقاً ان تعرف من امرنا اكثر مما عرفت . وما نظنك إلا ادركت شيئاً مما لقي زيد بن عمرو ،وقد كان اوسطنا نسباً ، وارفعنا حسباً ! فخذ في حديث آخر غير حديث الآلهة . فما كنا لنكره ذلك من شيخ قرشي ثم نرضاه من روميّ غريب اقبل علينا ليسقينا الخمر ويُسمعنا الغناء » .

قال الروميّ وقد ظهر عليه بعض الحزن : « ألم اقل لكم إني كنت مشفقاً ان يسوءكم حديثي ، وإني كنت راغباً عن ان اؤذيكم ! » .

قال فتى من القوم : « فإنك لم تؤذنا وإن حديثك لم يسؤنا ، وإنك لم تظهرنا بعدُ على هذا الحديث . ولكن في صفوان حدّة وسرعة الى الغضب ولا سيما حين يثقل عليه الشراب ، فامض في حديثك راشداً ، واشركنا في هذا الهم الذي غيّر سيرتك منذ الليلة » .

قال صفوان : « ما ادري ماذا عرض لي ؛ فإن حديثك لم يسؤني ولم يؤذني ، وإنما اخذت في الدعابة حين سمعتك تتحدث عن الآلهة : فما اسرع ما استحالت الدعابة الى جدّ مرّ ، فامض في حديثك وخلاكَ ذمّ » .

قال الروميّ : « اقبلوا على شأنكم ، وخذوا في لهوكم ، او تفرّقوا الى بيوتكم فقد تقدّم الليل » .

وأحس القوم ان نفس الروميّ مقسمة بين الغضب والخوف ، فعادوا الى الرفق به والتلطف له ، حتى ردّوه الى الأمن والهدوء ، ثم مضوا يسألونه عن حديثه ، ويلحّون عليه في ان يتمّه .

قال الرومي : « اتعرفون اني نصراني ؟ » .

قال صفوان : « نعرف انك نصراني كغيرك من الروم ، لكنا لم نر منك قط اقبالاً على الدين ، ولا امعاناً في النسك » .

قال الروميّ : «فاعلموا اني لست نصرانياً،او اعلموا اني لم اخلصْ للنصرانية قط، وأني لم أقدمْ على بلدكم هذا النائي البعيد من بلاد الروم لأسقيكم الخمر وأسمعكم الغناء ، وإنما أقبلت اليكم مهاجراً بهذه الوثنية التي كنت أخفيها في بلادي من أرض الروم ، وأجد الى إخفائها جهداً لا يحتمل ، وعناء لا يطاق » . فلما سمع القوم من حديث الرومي عجبوا له وشغفت نفوسهم بالقصة فأصغوا أشدّ الإصغاء .

قال الروميّ . « إنكم لا تعرفون من أمرنا نحن الروم إلا أقله وأيسره . وإنكم لتجهلون وثنيتنا القديمة كما تجهلون نصرانيتنا الحديثة . ولو قد علمتم من أمرنا أكثر مما

تعلمون لكان فهمكم عني أعمق وأصدق . إن وثنيتنا القديمة ليست من اليسر والسذاجة بحيث ترون ما أنتم عليه من دين ؛ فإن لآلهتنا القدماء أخباراً طوالاً ، وأنباء غريبة ، تكلف بها النفوس ، وتألفها القلوب ، وتصبو اليها الطباع . وقد كان آلهتنا القدماء أشدّ اختلاطاً بنا ، ومعاشرة لنا ، واشتراكاً معنا في جد الحياة وهزلها من آلهتكم . فلا جرم ان تمكّن حبها في قلوبنا ، واختلط بنفوسنا ، وجرى مع دمائنا ، وكانت حاجتنا اليهم كحاجتنا الى الهواء الذي نتنفسه ، والى الطعام الذي نقيم به أودنا ، والى الشراب الذي ننقع به الغلة ونبلّ الصدى ، والى المعرفة التي نغذو بها عقولنا ، ونرقّي بها قلوبنا ، وننقّي بها طباعنا من الأوضار والآثام . فلما جاء الدين الجديد ، ضقنا به أشد الضيق ، ونفرنا منه أشد النفور ، وقاومناه أعنف المقاومة وأقساها ، وضحينا في سبيل آلهتنا القدماء بكثير جدّاً من النفوس والدماء والأموال أكثر مما تستطيعون أن تتصوروا . ولكن الإله الجديد كان أقوى من آلهتنا وأعظم سلطاناً ؛ فلم تثبت له الآلهة ، وإنما انهزمت أمامه وفرّت من معابدها وهياكلها ، وأذعن أكثرها لهذا الإله الجديد ، ووَفى أقلنا لأولئك الآلهة المشرّدين . وقد نشأتُ في أسرة من هذه الأسر التي توارثت الوفاء لأولئك الآلهة ، والتي كانت تؤدّي النصرانية لقيصر كما تؤدّي له الضريبة التي يفرضهـا على الأموال ، فإذا خلت الى نفسها وفتْ لآلهتها ، وأخلصت لها الدين محتاطة متحرجة ، بالغة من التحرج والاحتياط أقصى ما كانت تستطيع أن تتحمل . ولكن قيصر قد اشتد في دينه . ولم يكتف من رعيته بالطاعة الظاهرة ، وإنما أراد أن يخلص الى دخائل النفوس وضمائر القلوب ، وأن يحاسب الناس على آرائهم كما يحاسبهم على أعمالهم . فلقينا من ذلك جهداً أشد الجهد ، وعنتاً أعظم العنت ، حتى تحوّل كثير منا عما كان يضمر من حب آلهتنا . وإنا لفي ذلك العناء واذا أنا أسمع حديثاً عن بلدكم هذا يغريني به ويدفعني اليه ، ويخيل اليّ أن آلهتنا قد هاجروا من بلاد الروم الى العرب ، فأقاموا فيها ، وفرغوا لأهلها يبسطون عليهم من سلطانهم العذب ما كانوا يبسطونه على الروم » .

قال صفوان : « وما ذاك الحديث ؟ » .

قال الروميّ : « حديث ذلك الجيش النصراني الحبشي الذي أقبل على بلدكم هذا ليهدمه ويدمره ، مقدماً بين يديه فيله العظيم . فما كاد يدنو من حرمكم هذا حتى رُدّ عنه أقبح الرد وأشنعه ، وحتى سلطتْ عليه تلك الطير التي مزّقته تمزيقاً » .

قال صفوان : « فإن رب الحرم قد ذاد العدوّ عن الحرم ، ما تجد في ذلك غرابة

ولا عجباً » .

قال الروميّ : « أما نحن فقد وجدنا فيه الغرابة كل الغرابة، والعجب كل العجب، وأوّلناه ألواناً من التأويل . فأما رهباننا وأحبارنا فقد فهموا منه شيئاً آخر . ظن الأحبار والرهبان أن هذه آية قدّمتها السماء بين يدي آيات أخرى أكبر منها وأعظم خطراً . وظن الأحبار والرهبان أن أمور الناس ستتغير وتتبدل ، وأن ما أنزل على اليهود والنصارى من الدين سيتم في هذا البلد الذي رُدّ عنه الفيل . وظننا نحن كما قلت لكم أن آلهتنا قد هاجروا إلى هذا البلد ، وأنهم قد ردّوا جيش الحبشة والروم عنه ، كما ردوا جيش الفرس عن بلاد اليونان منذ قرون . وتمتلىء نفسي بحبّ الآلهة ، وتطمئن نفسي إلى هذا التأويل ، وتحدثني نفسي بالهجرة إلى بلادكم لألقى فيها آلهتنا ، ولأرى فيها تماثيلهم ، ولأعبدهم حرّاً ، وأتقرب إليهم،مظهراً ذلك لا مستخفياً به ولا محتاطاً فيه . وأفكر في الرحلة إلى هذه الأرض، وفي الحياة التي سأحياها في هذا البلد، وفي رزقي كيف أكسبه . فأتصل بالذين كانوا يفدون على بلادنا من تجاركم ، فأعلم منهم علم هذه البلاد ومن يعيش فيها من الناس ، وأقدمُ مع بعض قوافلكم تاجراً أسقيكم خمر الروم ، وأسمعكم غناء الروم . وإن لي في بلادكم لأرباً غير هذا وذاك. وما أخفي عليكم أني لم أبلغ بلادكم ولم أستقر في أرضكم حتى أدركتني خيبة الأمل ، وحتى جعلت نفسي تحدثني بأن الأحبار والرهبان ربما كانوا أدنى مني إلى الحق ، وأقرب مني إلى الصواب ؛ فقد رأيت تماثيل آلهتكم ، ورأيت سيرتهم فيكم وسيرتكم فيهم ، فلم أعرف من هذا كله شيئاً ، ولم تعطف نفسي على صنم من هذه الأصنام القائمة ، ولم يمل قلبي إلى وثن من هذه الأوثان المنصوبة ، ولم يرتبْ ضميري في أن آلهتنا قد هاجروا من بلاد اليونان لا ليستقروا في بلاد العرب ، ولكنهم مضوا إلى وجه من الأرض أو من السماء لا نعرفه ولا نهتدي إليه .

هنالك أخفيت أمري في مكة كما كنت أخفيه في طرَسوسَ ، وأظهرت لكم نصرانيتي هذه الرقيقة كما كنت أظهرها في أرض قيصر ، وفرغت للتجارة واستثمار المال ، فجعلت أسقيكم الخمر ، وأسمعكم الغناء ، وأفيد منكم مالاً كثيراً . ولكنكم أخذتم منذ حين في هدم بيتكم هذا وتجديد بنائه ، فكان ذلك مصدر ما أنا فيه من الاضطراب » .

قال صفوان : « وما ذاك ؟ » .

قال الرومي : « ألم تفكروا في أصنامكم هذه القائمة حول هذا البيت والمسندة إليه

ما عسى أن تصنعوا بها أثناء الهدم والبناء ؟ ! » .

هنالك نظر بعض القوم الى بعض نظرة لا تخلو من معنى . وقال صفوان : «وماذا كنت تريد ان نصنع بها غير ما صنعنا ؟

قال الرومي : « لم أكن أريد شيئاً ، وإنما كنت أنتظر » .

قال صفوان : « كنت تنتظر كما كنا ننتظر أن تتحول الآلهة عن أماكنها ، وأن تبهرنا بانتقالها إلى حيث تأمن معاول الهادمين . ولكن الآلهة لم تتحول فحولناها ، ولم تنتقل فنقلناها . وإذا تم البناء فسترد ما نقلنا منها إلى أماكنها الأولى . فماذا تنكر من ذلك ؟! إنا لم ننكر منه شيئاً » .

قال الرومي : « فقد كنتم تنتظرون من الآلهة مثل ما كنت أنتظر ؟ » .

قال صفوان ضاحكاً : « ولكن الآلهة لم تحقق آمالنا ، ولم تفعل ما كنا ننتظر منها . أفنكره الآلهة على ما لا تريد ! يا غلام ! قد جفت حلوقنا فاملأ الأقداح» .

ثم التفت الى الرومي وهو يقول : « إنك لتُعنّي نفسك بأيسر الأمر وأهونه . إن أخص ما يميز الآلهة أنهم يفعلون ما يريدون هم لا ما نريد نحن» .

قال الرومي : « ولكنهم لم يفعلوا شيئاً» .

قال صفوان : « فمن حقهم ألا يفعلوا ، كما أن من حقهم أن يفعلوا» .

قال الرومي : « فماذا أتممتم بناءكم وبدا لكم ألا تردوا آلهتكم إلى أماكنها أفتراها ترتد إليها على رغمكم ؟ » .

قال صفوان : « ما أدري وما يعنيني من ذلك شيء . انتظر حتى يتم البناء ؛ فإن رأيت الآلهة قد ارتدت من تلقاء نفسها الى أماكنها فقد ظهرت لك جلية الأمر . وإن رأيتنا نحن نردها الى اماكنها كما حولناها عنها فاعلم أنها قد اخذتنا بذلك وأرادتنا عليه . وإن رأيتها قائمة حيث وضعناها ورأيتنا نتركها حيث هي فاعلم أنها تريد ذلك ، وتطمئن إلى أماكنها الجديدة . وأرح نفسك كما نريح أنفسنا من التفكير في الآلهة ، واشغل نفسك كما نشغل أنفسنا عن أمور الآلهة بأمور الناس ، وعن حركات الآلهة بحركات هؤلاء الإماء الثلاث اللاتي يوقعن ويغنين فيكلفننا من أمرنا شططا» .

وتفرق هؤلاء الفتيان من قريش عن صاحبهم الرومي آخر الليل ، وإن بعضهم ليقول لبعض : ويلكم ! لقد فطن هذا الرومي لما فطنتم له . ولئن جاز لنا نحن أن نشك في آلهتنا أو نسخر منها ، فما ينبغي أن يجوز ذلك لرومي يسقينا الخمر ويسمعنا الغناء . ويلكم ! إرفعوا ذلك الى الملأ من قريش ! ليدبروا أمرهم وأمر الآلهة ! فانه في حاجة إلى التدبير ، وليحتاطوا أن يشيع هذا الشك في عامة الناس وضعفائهم ، وفي

هؤلاء الأجانب الذين يملئون مكة من الفرس والحبش والروم .

ولكنهم راحوا على صاحبهم الرومي من الغد ليستأنفوا عنده لهوهم ولذتهم ؛ فلم يجدوه ولم يجدوا إماءه الثلاث ، وإنما وجدوا حانوتاً خالياً إلا من دنان وزقاق كان فيها فضل من شراب .

- ٣ -

واستقر حديث الرومي في نفوس هؤلاء الفتيان ، وما أدري أتحدثوا به الى الملأ من قريش أم أخفوه عليهم ، ولكنهم لم ينسوه على كل حال ، وإنما جعلوا ينتظرون أن يتم بناء البيت، ويتساءلون إذا التقوا - كما يسأل كل واحد منهم نفسه منفرداً - : ماذا عسى أن يصنع الآلهة ليعودوا إلى أماكنهم ؟ أيسمون الى هذه الأماكن ليستقروا فيها ، أم ينقلون الى هذه الأماكن محمولين على الأيدي والأعناق كما حوّلوا عنها محمولين على الأيدي والأعناق حين أخذت قريش في هدم البيت ؟

وليس من شك في أن الملأ من قريش قد فكروا في هذا الأمر كما فكر فيه الشباب، وانتظروا من الآلهة مثل ما انتظر الشباب . ولكن شيوخ قريش كانوا أمكر وأمهر من أن يظهروا من تفكيرهم شيئاً . وكانوا أضبط لأمورهم وأملك لعواطفهم من ان يظهروا الشباب وضعاف الناس على ما خالط قلوبهم من ريب ، وشاع في نفوسهم من شك ، حين رأوا آلهتهم يُنقلون كما ينقل المتاع ، ويرَصّون في أماكنهم الجديدة كما يرَصّ الأثاث . ومهما يكن من شيء فقد أتمت قريش بناء البيت ، وانتظرت بالآلهة يوماً ويوماً ، فلما لم تجد منها إرادة ولا حركة ولا تحولاً إلى اماكنها ردّتها الى تلك الأماكن ردّاً ، وحملتها اليها حملا . واستقر في نفوس الشيوخ والشباب شك عظيم . وربما ظهر الأمر ببعض أولئك الشيوخ والشباب إلى ما هو أبعد من الشك والريب ، وأدنى إلى الجحود والإنكار .

ولكن محنة قريش في آلهتها لم تقف عند هذا الحد الذي قد يفطن له أذكياء القلوب ، وأصحاب العقول النافذة والأحلام الراجحة ، ولكنه يخفى عادة على الدهماء ويجلّ عن أن تعرفه عامة الناس ، وانما جاوزته الى شيء خطير رأت فيه قريش خطباً عظيماً وافتضاحاً منكراً لما لم يكن ينبغي أن يفتضح من أمر الآلهة . فقد أسندت قريش من آلهتها الى البيت ما أسندت ، وأقامت قريش من آلهتها حول البيت ما أقامت،

وخيل اليها أن قد فرغت من هذا الجهد الشاق ، وخلصت من هذا العناء الثقيل . ثم اجتهد الأشراف والسادة في أن شغلوا عامة الناس ودهماءهم عن التفكير في جحود الآلهة وقصورهم ، فأقاموا الأعياد، واكثروا من التقريب للالهة ، واسرفوا في أموالهم ليطعموا الفقراء والبائسين، وألحوا في ذلك وقاموا عليه حتى تجاوز كرمهم أهل مكة الى من كان يضرب حولها من الاعراب الذين جعلوا يقدمون على مكة ، يلتمسون فيها حظوظهم من هذه الإبل والشاء التي كانت تقرب إلى الآلهة في غير انقطاع. ولكن قريشاً تصبح ذات يوم فتغدو على بيت فتري ، ويا هول ما ترى ! ترى آلهتها مجدلين قد صرعوا حول البيت تصريعاً، منهم المستلقي على ظهره، ومنهم المنكب على وجهه، ومنهم المضطجع على أحد جنبيه. وما أصف لك شيئاً مما ملأ قلوب قريش من الروع والهلع ! فأنت قادر على تصور ذلك إذا قدرت إعظام العامة لآلهتها ، وحرص الخاصة على ما ينبغي لهؤلاء الآلهة من جلال ووقار .

وتقبل قريش على آلهتها فتردهم الى أماكنهم ، وتقرهم في مواضعهم ، ثم تستشير وتستخير وتدير بينها ألوان الرأي ، ثم يستقر الأمر بينها على أن الآلهة لم يرضوا بعد عما نحر لهم من ضحايا وما سفك حولهم من دماء . فتستأنف قريش ما كانت قد اخذت تعرض عنه من التضحية والتقريب ، وهذه الإبل تنحر ، وهذه الشاء تذبح ، وهؤلاء الفقراء ينعمون بعيش رغد وسعة متصلة . ولكن قريشاً تصبح من الغد فاذا آلهتهم مجدلون حول البيت ، قد فعلت بهم الأفاعيل !

ويعظم ذلك هم قريش ، وتمتلىء لذلك قلوب قريش حزناً وأسى ، منهم الصادق المخلص ، ومنهم المشفق الماكر ، ولكنهم على كل حال يقيمون الأصنام ، ويجددون التضحية ، ويستشيرون الكهان ويجدون في البحث والاستقصاء ، لعل في مكة قوماً يكرون بالآلهة ، ويدبرون للحرم وأهله كيداً . وقد أقاموا الحراس حول البيت أثناء النهار ، فلم ير الحراس شيئاً ينكرونه . وأقاموا الحراس حول البيت آناء الليل ، فقاموا حذرين أيقاظاً ينتظرون ، ولكن انتظارهم لم يطل وإنما هو انتصاف الليل وتقدمه بعد ذلك شيئاً ، وإذا بضجيج يسمع ، وأصوات تقرع الآذان . وينظر الحراس فيرون — ويا هول ما يرون ! — الآلهة وقد صرعوا حول البيت تصريعاً ، فيفرون وقد ملكهم الخوف واستأثر بهم الفزع .

وقد أشار الكهان على قريش بأمر عظيم وقفت له القلوب فما تخفق ، وجمدت له الدماء فما تجري ، ووجمت له النفوس فما تستطيع روية ولا تفكيراً، وهلعت له النساء

في البيوت ، وأشفق منه سكان مكة جميعاً إشفاقاً عظيماً ! فقد زعم الكهان لقريش أن لحوم الإبل والشاء ودماء الإبل والشاء ما كانت لترضي الآلهة بعد أن حولت عن عن أماكنها ، وبعد أن هدم بيتها وأعيد بناؤه ! ولا بد من أن يقرّب الى الآلهة لون آخر من القربان يقنعهم بأن عبادهم من قريش لا يجودون عليهم بالأموال وحدها ، وإنما يتقربون اليهم بالأنفس أيضاً . وقال الكهان لقريش : يجب أن تقرّبوا لآلهتكم من أجيالكم الثلاثة : رجلاً وامرأة قد تقدمت بهما السن حتى أشرفا على الموت ، وفتى في نضرة الشباب،وصبياً وصبية من الأحداث . فان لم تفعلوا فما تدري ماذا يصنع الآلهة ؛ فإنهم لم يفعلوا الى الآن اكثر من ان قدموا اليكم النذُر ، فأسرعوا الى إرضائهم ! فإنا نخشى أن تسوء العاقبة ، وأن تصبحوا فلا تروا آلهتكم بينكم، وألا تمضي بعد خروجهم عنكم أيام حتى يسلط عليكم شر عظيم . ولو استمع الملأ من قريش لما كانت تضطرب به نفوس الدهماء وعامة الناس لأطاعوا أمر الكهّان ، ولتقرّبوا الى آلهتهم بهذا الإثم المنكر . ولكن الملأ من قريش كانوا أمكر من ذلك وأمهر ، وكانوا أحزم من ذلك وأعزم ! فقد خلصوا نجيّاً ذات ليلة في دار ندوتهم ، وجعلوا يتشاورون ويديرون أمرهم بينهم . وليس من شك في أنهم قد تلاوموا وتلاحّوا ، وألقى بعضهم على بعض تبعة ما كان من هدم البيت وتجديد البناء . ولكنهم كانوا مجمعين أمرهم على ألا يذعنوا لما يأخذهم به الكهان ، ولا يقدّموا الى آلهتهم أبناءهم وبناتهم ، وأن أمر الآلهة في نفوس هؤلاء الشيوخ الذين عركتهم التجارب لأهون من ذلك وأيسر . ولكن الملأ من قريش ينظرون فإذا بينهم رجل غريب ينكرونه ، ثم لا يلبثون أن يعرفوه ، شيخ قد تقدمت به السن ، واتخذ زيّ النجديين ، لم يكن بينهم حين اجتمعوا ولكنه ظهر فيهم فجأة، لا يدرون من أين أقبل وهم قد أقاموا على الباب حراساً يمنعون أن يقتحمه أحد أو أن يدنو من أحد. ولكنهم يذكرون أنهم قد رأوا هذا الشيخ النجدي ذات يوم حين أمضى الأمين حكمه فيهم ، وحين وضع الأمين الركن الأسود في موضعه من البيت . رأوه يريد أن يشارك في البناء فيرَدّ عن ذلك ردّاً عنيفاً، فيظهر السخط ويعلن النذير، ثم يستخفي فلا يظهرون له على اثر . فلما رأوه من تلك الليلة أقبلوا يسألونه من أين جاء، ومن عسى أن يكون ؟ فلا يرد على سؤالهم هذا جواباً ، وإنما يقول لهم في صوت نحيف بعيد : « لقد أخذت النذر تتحقق يا معشر قريش . ألم أنهكم عن أن تحكّموا بينكم رجلا كان أصغركم سنّاً ، وأقلكم مالاً ، وأشدكم إعراضاً عن آلهتكم، وأبعدكم من

الاحتفاء بهم والإكرام لهم ! فقد أبيتم إلا أن تفعلوا ، وغضبت الآلهة مما فعلتم . وما أرى أن أموركم تستقيم إلا إذا نقضتم بناءكم شيئاً ، فأخرجتم الركن من موضعه ، ثم رددتموه إليه بعد أن تُضَحّوا لآلهتكم بمن أمركم الكهان أن تضحوا بهم . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الآلهة ، لا قِبَل لكم بها ولا قدرة لكم عليها . والخير يا معشر قريش أن تريحوا أنفسكم من هذا الأمين ؛ فانكم إن أبقيتم عليه لم يبق عليكم ، وإن مددتم حياته لم يلبث أن يجذم حياتكم جذماً » .

ويسمع الملأ من قريش حديث هذا الشيخ مرتاعين له ، حتى إذا انقطع الصوت وهمّوا أن يحاوروا صاحبه نظروا فلم يجدوه بينهم ، وكأنه لم يدخل عليهم ولم يتحدّث إليهم .

هنالك تمتلىء قلوب القوم حيرة ، ويكادون يصرّفون عما كانوا فيه إلى السؤال عن هذا الشيخ : من أين جاء ؟ ومن عسى أن يكون، ولكن الوليد بن المغيرة يقول في صوت هادىء مطمئن : « ويحكم يا معشر قريش ! ما أرى إلا أن الشيطان يريد أن يعبث بكم ، ويصرفكم عما ألفتم وعما ألف الناس فيكم من الحزم والعزم ، ومن الأناة والوقار . إنه الشيطان يا معشر قريش ، ما أشك في ذلك ! إنه قد ظهر بينكم ثم استخفى عليكم . وإنه قد أنذركم بالشر ، ودعاكم إلى أمر فظيع . أرأيتكم يا معشر قريش إن أخرجتم الركن عن موضعه ، تستطيعون أن تردوه دون أن يشجر بينكم الخلاف ، وتستيقظ فيكم الفتنة ، وينصب بعضكم لبعض الحرب ، ويدعو بعضكم بعضاً إلى القتال ؟ هل أنتم يا معشر قريش إن استمعتم لهذا المشير الخائن ، والنصيح الغاش، فبطشتم بالأمين أو حاولتم البطش به ، إلا مضيعون للحق ، مهدرون للرحمة قاطعون للرحم ، تجزون الخير بالشر ، والمعروف بالمنكر ! فقد حقن الأمين دماءكم ، وهذا الشيطان يدعوكم إلى أن تهدروا دمه . وقد أقر الأمين فيكم السلم ، وهذا الشيطان يدعوكم إلى أن تثيروا بينكم وبين قومكم الحرب . لا والله ما دلكم هذا الشيطان إلا على الغي ، ولا دعاكم إلا إلى الإثم . ردّوا عليكم فضل أحلامكم ، ولا تكبروا من أمر هذه الأحجار غير كبير . إني والله ما أراها كلها تعدل قطرة من هذه الدماء التي ترادون على أن تسفكوها . أيّ أسرة من أسر قريش تريدون أن تفجعوها في كبيرها أو صغيرها ؟! أيكم تطيب نفسه يا معشر قريش عن هذه التضحية بابنه أو بنته ، وبأبيه أو أمه ؟! إنكم لم تنسوا بعدُ قصة عبدالمطلب وابنه عبدالله ، لقد كدتم تبطشون به ؛ لأنه كان يأبى إلا أن يضحي بابنه للآلهة فإنكم لا ترادون الآن على أن

تضحوا بواحد من قريش ، وإنما ترادون على أن تضحوا بستة من خيركم . لا تسمعوا لهذا اللغو ! وأمر هذه الأحجار أيسر عليكم وأهون في نفوسكم مما تظنون ، ومما يخيل إليكم الشيطان » . قال أمية بن خلف : « مهلاً يا وليد ! إنك لتقول الحق ، وتدعو إلى الرشد . ولكن خفض من صوتك ، ولتكتم على الناس هذا الحديث ! فإنه إن ذاع لم ينتج لنا إلا شراً ، والأمر بعد ذلك في حاجة إلى التدبير . فما ينبغي ان يروح الناس عن آلهتهم وهم قاعدون ، ثم يغدو عليهم وهم مجدّلون » .

قال الوليد : «ما أرى إلا أن هذا الشيطان يعبث بنا وبهذه الأحجار ، يتخذها أسباباً ووسائل لكيد يدبّره، وشر يقدره. يقيمها أثناء النهار،وينيمها إذا جنّ الليل».

قال أمية : « فاقترح علينا وسيلة نخلص بها من كيد الشيطان ، ونُكره بها الآلهة على أن يظلوا ويبيتوا كما عرفهم الناس قاعدين ، غير نائمين ولا مجدّلين » .

قال الوليد : « كلوا إليّ أمر هؤلاء الآلهة ، فعليّ أن أجد لكم منه مخرجاً » .

وتفرق الملأ من قريش وهم لا يدرون ماذا يريد الوليد أن يصنع . ولكن الوليد غدا على ذلك البناء القبطي الذي أقام لهم البيت ، فاستشاره في ذلك ، وأفضى إليه برأيه جلياً صريحاً في هذه الأحجار . فلما سمع منه « باخوم » أطرق شيئاً ، ثم قال مبتسماً : « هلا صنعتم بآلهتكم ما تصنع نحن بما نريد تثبيته من البناء ! » .

قال الوليد : « وما ذاك ؟ » .

قال باخوم وهو لا يملك نفسه من الضحك : « شدوا آلهتكم إلى أماكنها بأسباب من الرصاص » .

قال الوليد : « هو ذاك ! »

والغريب أن أصنام قريش ثبتت في أماكنها واستقرت في مواضعها بعد هذه الحيلة، وعجزت عن أن تخلص من قيودها الرصاصية تلك ، فلم ترها قريش بعد ذلك إلا قائمة مكانها ، حتى كان يوم من الأيام رأتها فيه وقد حطمت تحطيماً .

قال ابن هشام : وحدثني من أثق به من أهل الرواية في إسناد له عن ابن شهاب الزهري ، عن عبيدالله بن عبيدالله ، عن ابن عباس ، قال : دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح على راحلته ، فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص ، فجعل النبي ﷺ يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول : « جاء الحق ، وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » . فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع إلى قفاه ، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقي منها صنم إلا وقع . فقال تميم بن أسد الخزاعي في ذلك : وفي الأصنام معتبرٌ وعلمٌ لمن يرجو الثواب أو العقابا

نادي الشياطين

أطبق على الفضاء العريض ليل عريض ، تكاثفت ظلماته وركب بعضها بعضاً ، حتى لتوشك الأيدي أن تلمسها ، وحتى لتعجز أضواء النجوم أن تنفذ من بعضها ، وحتى لو رآها الناس لأنكروها ، ولقال بعضهم لبعض : هـــذا آخر ليل تعرفه الأرض ، أو هذا هو الليل الأبديّ الذي لن تخرج الأرض منه ولن يمسها بعده الضوء ولكن الناس لم يروا مثل هذا الليل العميق الكثيف شيئاً، وإنما رأوا ليلهم كما تعوّدوا أن يروه ، يترقرق فيه ضوء القمر ، وتتألق فيه أشعة النجوم . ثم كأن عمق هـــذا الليل وكثافته لم يكفيا ليحجبا السماء عن ذلك الفضاء العريض، فإذا قطع من السحاب تُقبل من كل صوب في زمجرة وزئير حتى تلتقي وتنعقد ، فتضيف عمقاً الى عمق ، وكثافة الى كثافة ، وكأن الأسباب قد قطعتْ في هـــذا الرّدَح من الزمان بين الأرض والسماء .

في هذا الفضاء العريض القاتم الذي لا تستطيع لغة الناس أن تصف سعته وظلمته، جلس إبليس لأعوانه ومشيريه من الشياطين . وما هي إلا أن أقبلوا اليه خفافاً لطافاً، كأنما كان يحملهم نسيم من نار مظلمة . فلما انتهوا اليـه وأطافوا به قال لهم في صوت خفيّ : « لقد علمتم ما ألمّ بهذه الأرض من خطب ، وما نزل بأهلها من حدث ، وما كان من تحوّلهم عما ألفنا منهم منذ قرون ، فأشيروا » .

قالوا : « تكبرت أن نشير عليك ، وإنما منك الأمر وعلينا الطاعة » .

قال مستخذياً : « مـــا غمضتْ عليّ الأمور قط كما غمضتْ عليّ الآن . وما عميتْ عليّ الأنباء قط كما عميتْ عليّ الآن . وما عوّدتكم أن أسألكم عن شيء أو أستشيركم في شيء . ولولا أن الغيب قـــد حجبَ عني لأول مرة مـــا دعوتكم ولا استشرتكم » .

قالوا : « تكبّرت ! لئن حجبَ الغيبُ عنكفهو أحرى أن يحجبَ عنا . وإنا منذ الليلة لفي ظلمة دامسة لم نعهد مثلها قـــط ، وإنا لنتحدث فما تكاد أصواتنا تبلغنا . ولولا أنك كبير في نفوسنا لأشفقنا ألا تبلغك أصواتك » .

قال : « لا تراعوا ولا يخرجكم الفزع عـــن أطواركم ! فإن أصواتكم تبلغني كما

يبلغكم صوتي . وما هذه الظلمة الدامسة إلا من عملي وكيدي . فقد ألقيَ في رُوعي أن من الخطر كل الخطر أن نتشاور أو ندير أمرنا بيننا دون أن نقيم بيننا وبين السماء حجباً كثافاً » .

قالوا : « تكبرت أن يرَدّ عليك رأي أو يخالف لك عن أمر ! فقل نستمع ، وادعُ نستجب ، ومرْ ننفذْ إلى طاعتك أسرع مما تنفذ السهام إلى رَميتها » .

قال : « على رسلكم حتى يثوب إليّ الرسل الذين بثثتهم في أقطار الأرض ، وبعثتهم في أجواز السماء ليعلموا لي علم هذا الخطب . فما أرى إلا أن حادثاً عظيماً يحدق بالأرض وسكانها » . وما أتم إبليس هذه الجملة من حديثه حتى جعل شرر دقيق سريع ينفذ من هذه الظلمات المتكاثفة في قوة ، ويتبع بعضه بعضاً في عنف وازدحام ، يأتي من كل وجه ، ويقبل من كل صوب ، حتى ريع الشياطين ، وخيل إليهم أن السماء تمطرهم ناراً .

قال إبليس : « ما أرى إلا أنكم قد فقدتم صوابكم ، وفارقتم أحلامكم ، وجعلتم ترتاعون لغير رَوْع . ما إشفاقكم من هذا الشرر وإنكم لترون فيه صور أنفسكم ! انظروا ! هؤلاء الرسل يقبلون من أقطار الأرض ، ويهبطون من أجواز السماء ، يحملون إلينا أخبار الأرض وأنباء السماء » .

وما هي إلا لحظة حتى عادت الظلمات إلى كثافتها ، وانعقدت كهيأتها قبل أن يقبل هذا الوابل من الشرر ، كأنما كانت قطعاً من أدَم أسود صفيق شُقت لهذا الشرر حتى نفذ منها ، ثم انعقدت عليه تحوطه وتحميه . وما هي إلا أن يتمثل هذا الشرر أشخاصاً خفافاً لطافاً لها أصوات خفاف لطاف كصوت إبليس ومن كان حوله من الشياطين. وإذا أحدها يتقدّم واجفاً خائفاً ، حتى إذا كان من إبليس غير بعيد انحنى يظهر الطاعة والإكبار ، وقال في صوت هامس كأنه هفيف النسيم : « تكبرت ! قد أفزعنا ورُوّعنا ورُمينا بالشُهب ، ورُددنا عن مقاعدنا من السماء ، فما لنا إلى استراق السمع من سبيل » .

قال إبليس . « تعستَ ! لم تنبئنا بشيء لا نعرفه . فأين الرسل الذين أرسلتهم يستقصون الأنباء ؟ » .

قال الشخص الماثل : « تكبرتَ ، إنما أتكلم عنهم ، وأنطلق بلسانهم . لقد انتشرنا في أجوار الجو من كل وجه ، وارتفعنا نحتال في ذلك ما وسعتنا الحيلة ، وخلي بيننا وبين الارتفاع حتى غرتنا الأماني ، وخيل إلينا أنه قد رُدّ الشر عنا . وما

نكاد نبلغ مقاعدنا حتى تصبّ السماء علينا وابلاً من شهب مهلكة . وما أدري كيف خلصنا إليك ؛ فقد احترق أكثرنا قبل أن يبلغ الأرض . وما أرى إلا أن السماء قد أبقت علينا لننفذ إليك فنبلغك مــا ألمّ بنا من خطب ، وما نصب لنا من حرب ، وما هيىء لنا من نكاية وكيد » .

قال إبليس : « فأين الذين أرسلتهم إلى أقطار الأرض يحملون إليّ أخبارها ؟ » .

قال قائل خفيف لطيف في صوت هامس كأنه هفيف النسيم :

« تكبرت ! ها نحن هؤلاء نقبل عليك لا نحمل من الأنباء إلا ما يملأ قلوبنا هلعاً وجزعاً . لقد طردَ إخواننا من أجواف الأصنام ، وحيل بينهم وبين شهود الضحايا والقربان في هذا الوجه الذي تعرفه من وجوه الأرض . ما يكاد أحد منهم يستقر في جوف صنم من هذه الأصنام إلا أخذه العذاب من كل وجه ، وضاق به هذا المكان الذي كان يتسع له ، وأخذت عليه الطرق والمنافذ ، كأنما يدفع به الى الموت دفعاً . فمنا من كان ينفذ من أفواه الأصنام . ومنا من كان ينفذ من آذانها ، ومنا من كان ينفذ من أنوفها ، نجد في ذلك أشد الجهد وأشق العناء » .

قال إبليس مغيظاً محنقاً . « ويلكم ! انما أدرككم الجبن ، وأعياكم الجهد ،وعجزتم عن الاحتيال. انما تفرون من عذاب الى عذاب ، ان تلقوْا عندي خيراً مما لقيتم هناك! »

قال الشخص الماثل : « تكبرت ! ما جبنّا ولا فشلنا ، ولكنا آثرنا أن نأتيك بالأنباء ، ونحن صائرون الى ما تحب ، وعائدون ان شئت الى تلك الأصنام لنقيم في غير مقام ، ونستقر في غير مستقر ؛ فذلك أهون علينا وآثر عندنا من غضبك » .

قال ابليس : « فأين النساء ؟ » .

قال الشخص الماثل : « تكبرت! كنّ أشجع منا نفوساً ، وأقدر منا على الاحتيال، فآثرن البقاء فيما يكتنفهن من ضيق ، حتى يبلغهن أمرك ، أو يأتيهن الموت » .

قال ابليس : « ولم يخزكم ما رأيتم من صبرهن واحتيالهن ؟ ! » . ثم سكت قليلاً ، ثم قال : « بم يدعوك هذا الحي من قريش ؟ » .

قال الشخص الماثل . « يدعونني هبل » .

قال ابليس : « ويزعمون أنك أكبر آلهتهم ، فعدْ الى مكانك مدحوراً مخذولاً ، لأؤمرنّ عليكم النساء منذ الليلة ، ولأعقدنّ لواءكم للعزّى » .

ثم عاد ابليس الى صمته ، وان الظلمة لتضطرب من حوله اضطراباً شديداً ، كأنما جرى الخوف في طبقاتها ، فبعث فيها رعدة غريبة تقشعر لها الأرض اقشعراراً . ثم

قال ابليس بعد هنيهة : فأين الذين كلفتهم أن يحملوا اليّ من تراب الأرض ؟ » .

قالت أصوات مختلطة : « ها نحن هؤلاء » .

ثم جعل كل واحد منهم يدنو فيرفع الى وجه ابليس قبضة من تراب فيشمها ، ثم يشير الى صاحبها أن ألقها فيفعل. حتى اذا دنا منه أحد هؤلاء الرسل وقرّب الى أنفه قبضة التراب التي كانت في يده ، لم يكد يشم ريحها حتى أخذه ذعر شديد ، فنهض قائماً وهو يقول في صوت المرتجف المغيظ : « هو ذاك ! هو هذا الوجه من بلاد العرب ، قد ألمّ به الحدث العظيم . هو هذا الحي من قريش ، قد فسد الأمر فيه علينا أشد الفساد » .

قالت الأصوات واجفة خائفة « تكبّرت ! فماذا تأمرنا أن نفعل ؟ » .

قال : « سنرى » . ولكنه لم يكد ينطق بهـــذه الكلمة حتى صَعق ، وصعقت الشياطين من حوله ، وانجابت الظلمة في أيسر من لحظة ، وأشرقت الأرض بنور عظيم وصل بينهـــا وبين السماء ، ولصق الشياطين بأديم الأرض كأنهم ذرّات من تراب ، وامتلأت أقطار الجو بصوت مهيب ، ولكنه عذب يقول : « ألا إن الكتاب قد بلغ أجله . ألا إن أحمد قد تنبىء منذ الليلة » .

ثم ينقبض الضوء مرتفعاً إلى السماء ، ويتجرّد الليل القاتم من ثوبه المشرق ، ويعود الفضاء العريض كهيئته حين كانت تطبق عليه الظلمة الكثيفة . وتمضي لحظات قد هدأ فيهـــا كل شيء ، وإذا صوت خفيف لطيف كهفيف النسيم يضطرب في الجو قائلاً : « ويلكم ! هبوا ! فقد آن للجن أن ينصرف عنكم ، وآن لقلوبكم أن تبرأ من الفرَق» .

وهذه الأصوات تنبعث من أديم الأرض كأن كل ذرّة من ذرات التراب قد استحالت الى شخص يسمع ويبصر ويتحرك ويريد . وهذا إبليس قد اتخذ مكانه من أعوانـه ورسله ، وهو يلقي اليهم الأمر ، ويبعث فيهم النشـاط ، ويوكلهم بأقطار الأرض ، ويأخذهم بأن يكونوا أشدّ حذراً ، وأكثر احتياطاً ، وأعظم إغواء للناس . ثم يتجه الى جماعة منهم قائلاً : « أمـــا أنتم فاكفوني شر هؤلاء الأحبار من يهود ، وهؤلاء الرهبان من النصارى ؛ فقد أخذوا منذ حين يفقهون التوراة والإنجيل ، ويتحدّثون الى عامة الناس بما لم يكونوا يتحدّثون به من قبل . فكفوهم عن ذلك ما وجدتم الى كفهم سبيلا ، واحملوهم على أن ينكروا ما عرفوا ، ويجحدوا ما قالوا ، واملئوا قلوبهم زيغاً ، وعقولهم ضلالا » .

ثم يلتفت الى جماعة أخرى قائلا : « وأما أنتم فارجعوا الى حيث كنتم من هذا الوجه من العرب، وليأخذ كل منكم مكانه في جوف صنمه لا يفارقه حتى يأتيه أمري».

ثم يلتفت الى سرب آخر قائلا : « وأما أنتم فبيتوا قريشاً من ليلتكم ، وليلزم كل واحد منكم رجلا منهم نائماً ويقظان ، ساكناً ومضطرباً في الأرض . وإياي وأن يفلت منكم أحد من قريش ! واعلموا ان من أفلت منه صاحبه فلن يجد عندي إلا عذاباً تعرفونه ، وما تحتاجون الى ان أذكركم به او أدلكم عليه » .

وقد اخذت الظلمة ترقّ ، وقد اخذ السحاب يتفرّق وينجاب ، وقد اخذت اشعة النجوم تبلغ الأرض ، وقد اخذ ضوء القمر يترقرق في الجو ، وقد خفت الصوت ، وسكنت الحركة ، واستقر كل شيء . ثم اصبحت قريش فغدت على اعمالها كأنها لم تنفق ليلة نادرة في ليالي الدهر ، الا خديجة بنت خويلد ! فقد اقبل عليها زوجها مرتاعاً سعيداً ، ينبئها بالنبأ العظيم .

قال ابن سعد : « أخبرنا عليّ بن محمد ، عن سعيد بن خالد وغيره ، عن صالح بن كيسان : أن خالد بن سعيد قال : رأيت في المنام قبل مبعث النبي ﷺ ظلمة غشيت مكة ، حتى ما أرى جبلاً ولا سهلاً ، ثم رأيت نوراً خرج من زمزم مثل ضوء المصباح ، كلما ارتفع عظم وسطع ، حتى ارتفع فأضاء لي أوّل ما أضاء البيت ، ثم عظم الضوء ، حتى ما بقي من سهل ولا جبل إلاّ وانا أراه ، ثم سطع في السماء ، ثم انحدر حتى أضاء لي نخل يثرب فيها البسر ، وسمعت قائلاً يقول في الضوء : سبحانه ! سبحانه ! تمت الكلمة ، وهلك ابن مارد بهضبة الحصى بين أذرُح والأكمة . سعدت هذه الأمة . جاء نبيّ الأميين ، وبلغ الكتاب أجله . كذّبته هذه القرية ، تعذّب مرّتين ، تتوب في الثالثة ، ثلاث بقيت ، اثنتان بالمشرق ، وواحدة بالمغرب . فقصها خالد بن سعيد على أخيه عمرو بن سعيد ، فقال : لقد رأيتُ عجباً . وإني لأرى هذا أمراً يكون في بني عبد المطلب إذ رأيتُ النور خرج من زمزم » .

علىٰ هامش السّيرة

(٣)

صريع الحسد

- ١ -

كان الشيخ مهيباً رهيباً ، وكان فخماً ضخماً ، وقد ارتفعت قامته في السماء وامتد جسمه في الفضاء . وكان وجهه جهماً عريضاً ، تضطرب فيه عينان صغيرتان غائرتان بعض الشيء . ولكنهما على ذلك في حركة متصلة لا تكادان تستقران ، وهما متوقدتان دائماً ينبعث منهما شيء كأنه الضوء المشرق على هذا الوجه الجهم الغليظ ، فاذا لحظتا شيئاً او أطالتا النظر اليه فكأنما تقذفانه بالشرر او تسلطان عليه شواظاً دقيقاً قوياً من النار . وكان الشيخ فوق هذا كله ذكياً حاد الذكاء نافذ البصيرة ، يتعمق مايعرض له من الأمر دون ان يحس الناس منه تعمقاً لشيء . يسأله الناس فيجيبهم لساعته جواب من فكر وقدر وأطال التفكير والتقدير ، فيعجبون منه ويعجبون به . وكان بعد هذا كله بطيء المشي ثقيل الحركة وقوراً في كل ما يصدر عنه ، وكان صوته يلائم هذا كله من أمره ، فكان صوتاً ضخماً عميقاً ، يسمعه السامع فيخيل اليه انه يخرج من غار بعيد القاع . وكان الناس يهابونه ويرهبونه كما كانوا يجلّونه ويكبرونه . فاذا سألتهم عن مصدر ذلك لم يعرفوا كيف يجيبون ، إنما كان هذا الرجل يبهرهم ويسحرهم ويملأ نفوسهم إكباراً وإعظاماً ، فإذا ذُكر الوليد بن المغيرة فقد ذُكر سيد من أروع سادات قريش ، ورجل عظيم من رجالات البطحاء .

وكان ابن أخيه عمرو بن هشام في ذلك اليوم فتى قوياً نحيفاً شديد النشاط كثير الحركة لبقاً في كل ما يصدر عن جسمه ، رائعاً في كل ما يصدر عن عينيه القويتين البرّاقتين . وكان على وجه الفتى دائماً ، وفي ذلك اليوم خاصة ، غشاء غريب فيه عبوس يصور الجد المر ، وفيه ابتسام يصور الدعابة الحلوة . فكان الذين ينظرون اليه يطمعون فيه ويشفقون منه . وكان الذين يسمعون له يحارون فيما يسمعون أجدٌ هو أم هزل . وقد أقبل في ذلك اليوم على عمه يمشي مشية فيها كثير من الخيال والكبرياء وكثير من الاعتداد بالنفس والازدراء لغيره من الناس ، وفيها مع ذلك شيء من

السخط والحزن .

كل شيء في هذا الفتى كان يصور رجلاً شديد الطموح بعيد الأمل واسع الرجاء . ولكن الأسباب قد تقطعت به ، فهو غير راض عن نفسه ولا عمّن حوله من الناس ولا عما حوله من الاشياء . يريد ان يذعن لظروف الحياة التي لا يستطيع لها تغييراً ولا تبديلاً ، ولكن نفسه لا تطيق الإذعان ولا تطمئن اليه ، فهي في جهـــاد متصل وصراع مستمر . وكان الذين ينظرون اليه في ذلك اليوم يتساءلون عن مصدر هـــذه الخيلاء التي كانوا يرونها في مشيته ، وفي تلك الابتسامة الحائرة على وجهه التي كانت تظهـــر لتستخفي ، وتستخفي لتظهر ، كأنهـــا وميض البرق في الليلة المظلمة . وكان بعضهم يظن أن مصدر هذه الكبرياء هؤلاء الرقيق الذين كانوايسعون بين يديه يحملون أثقالاً من الذهب والفضة لا تجتمع إلا لأصحاب الثراء الضخم من سادة قريش . وكان بعضهم يردّ هذه الكبرياء إلى أن عمرو بن هشام كان يسعى إلى عمه الوليـــد بن المغيرة ، فكان يستحضر في نفسه مجد مخزوم كلها تليده وطريفه ، وثروة مخزوم كلها ما استقر منها في مكة ، ومـا انتشر منها هنا وهناك في أطراف البلاد العربية ، وما تجاوز منها البلاد العربية إلى تلك البلاد البعيدة التي كانت تنتشر فيها تجارة قريش .

وكان الشباب من أتراب عمرو بن هشام يرمقونه بأبصارهم ثم يردّونها عنه مسرعين، منهم من يرضى عنه ، ومنهم من يسخط عليه ، وكلهم يبتسم له ابتسامة فيها كثير من الحسد وفيها شيء من الاستخفاف . فقد كان أتراب عمرو بن هشام ينكرون غروره وافتتانه بنفسه ، ويبادونه بهذا الإنكار جادين حيناً وهازلين أحياناً . وكان منظراً لا يخلو من روعة مضحكة ، مقام هذا الفتى الرشيق الأنيق الساخر العابث بين يدي عمه الوقور المهيب وقد وضع الغلمان أثقالهم ، وقال الفتى في صوت لا يخلو من فكاهـــة ولكنه لا يخلو من بعض الملالة والسأم أيضاً : « هأنذا يا عم قد أقبلت أحمـــل اليك تحيتي وأحمل إليك مالي ؛ فقد يظهر أن من الحق عليّ أن أساهم فيما سترحل به القافلة من قريش إلى الشام ، فهذه أسهمي من الذهب والورق أطرحها بين يديك ، وما أشك في أنك ستردها عليّ أضعافاً مضاعفة» . ثم تضاحك الفتى وهمّ أن ينصرف ولكن عمه أشار إليه أن أقم ، ثم قال له في هدوء وأناة: « ما أرى أنك أقبلت لتحمل إليّ هذا المال وتلقي إليّ هذا السخف من القول ؛ فقد كان هؤلاء الغلمان يستطيعون أن يحملوا إليّ تحيتك ومالك ، وما أظن إلا أنك أقبلت وأنت تريد أن تنفق معي شيئـــاً من وقتك وأن تفضي إليّ ببعض الحديث ، ولكنك تأبى إلا أن تعبث دائماً . تقبـل ،

وأنت تريد أن تُدْبِر، وتُدْبِر وأنت تريد أن تقبل، لا تفرّق في عبثك بين من تلقى من الناس، سواء عندك لقاء الأتراب ولقاء الشيوخ الذين ينبغي أن تلقاهم بوجه غير هذا الوجه وحديث غير هذا الحديث».

قال الفتى في صوته الساخر الحزين: «ما تزال تنكر عليّ شيئاً كلما لقيتني، وما أزال عاجزاً عن أن أبلغ رضاك. فإني لا ألقاك بهذه الدعابة في أندية قريش ومجالسها، وإنما ألقاك حرّاً في هذه الدار لا يظهر علينا فيها أحد من قريش. ولست أدري إلى أين تنتهي بنا هذه الأوضاع التي تفرضها قريش على عقولنا وقلوبنا وأجسامنا! فنحن لا نستطيع أن نفكر ولا أن نشعر ولا أن نتحرك إلا على النحو الذي رسمته قريش للتفكير والشعور والحركة. ما أشدّ حاجتنا إلى شيء من السماحة ننعم فيها بالحرية فيما نفكر وفيما نشعر وفيما نأتي وما ندع من الأمور».

قال الشيخ: «فأنت إذاً ساخط دائماً منكرٌ للمألوف من عادات قومك وأوضاعهم دائماً. وقد كنت أنتظر مقدمك، ولو لم تُقبل الآن لبعثت في طلبك؛ فإن بيني وبينك حديثاً أرجو ألا يطول، وأرجو مع ذلك أن يُبلغني منك ما أريد».

قال الفتى وهو يبتسم عن رضاً صريح وفكاهة لا غموض فيها: «وإذاً فلا بدّ من أن أقيم، فلا أقلّ من أن تأذن في أن أسقى ما يبل الظمأ وينقع الغلة، فقد جف حلقي ويبس لساني».

قال الشيخ: «وآية ذلك أني لا أجد الى وقفك عن الكلام سبيلا، اجلس حيث شئت، يا غلام اسقه ما شاء من شراب».

وأعرض الشيخ عن ابن أخيه ساعة شُغل فيها بكثير من شباب قريش وشيوخهم، وقد أقبلوا يحملون اليه الأموال التي يساهمون بها فيما كانت قريش تُهيّىء من تجارتها الى الشام، يحمل بعضهم اليه العين من الذهب الفضة، ويحمل اليه بعضهم العروض المختلفة، وهو يسمع لهم ويردّ عليهم، وبين يديه كُتّابٌ يتلقون هذه الأموال ويسجلون ما يتلقون منها. فلما انقضت على ذلك ساعة وقل المقبلون بأموالهم، أشار الى كتّابه وغلمانه أن انصرفوا لتستأنفوا أمركم من الغد.

وانتهز عمرو بن هشام اشتغال عمه بمن كان يُقبل عليه وينصرف عنه فلها بمداعبة من كان يقوم على خدمته وخدمة غيره من غلمان الدار، يعبث بهذا ويمازح ذاك، ويسأل هذا ويردّ على ذاك، يقلدهم في لهجاتهم الغريبة المحطمة؛ يتحدث الى هذا بلهجة الحبشي المستعرب، والى ذاك بلهجة الرومي، ويسأل هذا أو ذاك عن شؤونه

الخاصة ، وربما سأل هذا أو ذاك عن بعض شؤون عمه ، ولكنه كان يهمس بمثل هـذا السؤال وربما أومأ به . وكان الغلمان يجيبونه كما كان يتحدث اليهم مصرحين مرة ، وملمحين مرة ومشيرين بالطرف واليد مرة أخرى ، ومبتسمين له دائماً . فقد كان عمرو بن هشام محبباً في دار عمه ، ومحبباً الى غلمان هذه الدار خاصة . وربما آثره هؤلاء الغلمان على ابن سيدهم الشاب خالد بن الوليد. كانوا يرون من خالد أنفةً واستكباراً وازوراراً عنهم . وكانوا يرون من عمرو تلطفاً لهم وعناية بهم . وكان عمرو غريب الأطوار حقاً ، فقد كان شديد الكبرياء عظيم الخيلاء إذا لقي نظراءه من أبناء قريش ، فاذا لقي الغرباء من الرقيق والخلعاء تلطف لهم ورفق بهم وخاض معهم في ألوان مختلفة من الحديث كأنه واحد منهم .

على أنه حين أحس ان عمه قد فرغ من الداخلين والخارجين وكاد يخلص له تكلف الجد وأشار الى من كان حوله من الغلمان ان خذوا حِذْركم فقد جاءت الساعة الرهيبة. ونظر اليه عمه فلم يستطع ان يرد ابتسامة أشرقت في وجهه حين رأى هـذا الجدّ المتكلف وهذا الإذعان لما ليس بدٌّ من الإذعان له . ورأى الفتى ابتسامة عمه فأغرق في ضحك متصل ثم قال : « لبيك عمي فاني منصت لما تقول » .

قال الشيخ في هدوء : « قد بلغتني عنك أحاديث لا احبها ولا احب ان تتحدث بها قريش عن عمرو بن هشام بن المغيرة » .

قال الفتى وهو يتكلف الجد : « ويلي من قريش وويل قريش مني ! بماذا انبأتك السنتها المنطلقة التي لا تستقر ؟» . قال الشيخ : « انبأتني بشيء عظيم كرهته، وارجو ان تكف عنه». قال الفتى: « فتريد ان اعيد عليك ما انبأتك به ألسنة قريش؟فانها قد زعمتْ لك اني اختلف مع شباب قريش الى بيت نسطاس فنشرب ونعبث ونلهو ، حتى اذا بلغنا حاجتنا من ذلك وهمّ أترابي أن ينصرفوا لم أخرج معهم وإنما تخلفت فأقمت عند نسطاس وأطلت عنده المقام ، أسمع منه ومن جواريه ، وأتحدث إليه وإلى جواريه . وقد أطيل المقام حتى يتقدم الليل ، فإذا هممت أن أنصرف أشفق عليّ نسطاس من غائلة الطريق ، وأشفق عليّ من كثرة ما شربت عنده من الخمر ، فدعاني إلى أن أنتظر الصبح عنده وما أكثر ما أستجيب لهذا الدعاء ؛ لأني أحب بيت نسطاس وآنس إليه وإلى من حوله من الجواري والغلمان . وقريش تنكر هـذا وترتاب به ، وتكره لفتى شريف من فتيانها أن يبيت في غير مبيت وأن ينفق الليل بعيداً عـن أهله . وقريش تبيح لفتيانها أن يُلِمُّوا بدار نسطاس وأن يشربوا فيها الخمر ويعبثوا فيها ما طاب لهم

العبث ولكن على أن يعودوا إلى أهلهم قبل أن يتقدم الليل . فلقريش وقارها ، وما ينبغي لفتيانها أن يُغرقوا بالعكوف على اللذات ، أو يوصفوا بإدمان اللهو والإسراف فيه » .

قال الشيخ : « وأنت تنكر من أمر قريش هذا كله ، وتأبى إلا أن تبادي قومك بما يكرهون ، فتخف حين يصطنعون الوقار ، وتصطنع الوقار حين يخفّون ، وتحرص على أن تكون أحدوثة الناس إذا أصبحوا وأحدوثة الناس إذا أمسوا ، لا بما تُقدم عليه من عظيم الأمر ولا بما تحاول من الشؤون الجسام ، ولكن بالدعابة إذا جدّ الناس ، وبالجد إذا لَهَوْا ، وبالاختلاف إلى حانة نسطاس إذا أقبل الليل مع أترابك، والتخلف عنهم إذا انصرفوا ، كأن بينك وبين هذا الرومي سرّاً ما ينبغي أن يظهر عليه أحد إلا هؤلاء الروميات اللاتي يخلبن بهن نسطاس عقول الفتيان » .

قال الفتى : « أما أني أنكر على قريش دخولها فيما لا يعنيها من أمري فهذا حق . وأما أني أتخلف عن أترابي عند نسطاس إذا انصرفوا حين يتقدم الليل فهذا حق أيضاً . وأما أن بيني وبين نسطاس وجواريه سرّاً لا ينبغي أن يظهر عليه أحد فهذا هو التكلف كل التكلف . فخمر نسطاس معتقة ، وجواريه حسان يفتنّ بما لهن من دَلٍّ كما يفتنّ بغنائهن العذب . وحديث نسطاس حلو ممتع ، يرضي حاجتي إلى العلم، وشوقي إلى المعرفة ، ورغبتي في الجد . فأنا أجد في هذه الدار ما لا أجد في أندية قريش . وأنا من أجل ذلك ملح في زيارتها ، مطيل للإقامة فيها ، مفتون بما أجد عند أهلها من لذة الجسم والنفس جميعاً . وما اعرف اني اعطيت قريشاً عهداً على نفسي ان اعيش كما تحب هي لا كما احب انا . وما اعرف اني اتتبع شيوخ قريش وفتيانها بمثل ما يتتبعونني به ؛ فان امرهم لا يعنيني ، فما بال امري يعنيهم ، وما بالهم لا يدعونني وما اشاء كما ادعهم انا وما يشاؤون ؟! » .

قال الشيخ : إنك يا ابن اخي لَذَرِبُ اللسان حديد القلب نافذ البصيرة ،وإني لأحب منك هذا كله ، ولكنني .... »

قال الفتى : « ولكنك تريد ان انفق هذا كله فيما ينبغي لفتى من فتيان قريش ان ينفق جهده فيه ،من الجد في التجارة حين يدعو الأمر إلى الجد،ومن العبث بهؤلاء البائسين من العرب حين يكون موسم الحج ، نضللهم ونغررهم وتزعم لهم أننا سادة الناس وأن إلينا وحدنا أمور دينهم ، وأي دين ! ثم من الفراغ للأحاديث التي لا تفنى اذا ربحنا من تجارتنا وأخذنا من موسم الحج ما نريد ، وصدر الناس عنا وقد أخذنا منهم أموالهم

وعقولهم جميعاً ، هنالك نفرغ لأنديتنا فيتحدث بعضنا الى بعض بأحاديث أقلها الحق وأكثرها الباطل ، ويبدي بعضنا لبعض أقل ما يمكن أن يبدي من نفسه ، ويستر بعضنا عن بعض أكثر ما يمكن أن يستر منها . نُكبر آلهتنا ونُعظم من أمرها وانا لنزدريها في نفوسنا أشد الازدراء ، ونمقتها في قلوبنا أعظم المقت » .

قال الشيخ وقد أسرع بيده الى فمه والتفت يمنة ويسرة التفاتة لا تلائم ما تعوّد من وقار : « صه ! صه ! يا ابن أخي». قال الفتى وقد أغرق في الضحك : « لا بأس عليك يا عم فقد انصرف كل انسان وأغلقت من دوننا الأبواب ، وعلم غلمانك أننا نريد الخلوة » .

قال الشيخ وقد عاد الى أناته ووقاره : « فإن من الحق عليك يا ابن أخي أن ترعى ما يرعى قومك من سُنّة وألا تغري السفهاء منهم بنفسك وبقومك . وقد حدّثت أنك لا تكتفي بدار نسطاس ولكنك تألف داراً أخرى ما احب لك ان تألفها ؛ لأن قريشاً لا تنظر الى آلفيها الا شزراً . ومن كان مثلك ومثلي ومثل سادة قريش من أصحاب التجارة كان خليقاً أن يقدّر رأي الناس فيه وأن يحسب الحساب كله لما يمكن ان يذاع عنه من الأحاديث . فأمر التجارة والمال يقوم على الثقة وحسن الأحدوثة اكثر مما يقوم على المهارة وسعة الحيلة ، وإنك لترى امية وما يصنعون ! »

قال الفتى : « بل قل وما يتكلفون » . قال الشيخ : « هو ذاك » . قال الفتى : « وهذه الدار الأخرى التي آلفها وأكثر من التردد عليها هي دار ورقة بن نوفل ، أليس كذلك ؟ » . قال الشيخ : «بلى يا ابن اخي» هي دار ورقة بن نوفل الذي انحرف عن قومه وارتحل عنه مخالفاً لهم ، ثم عاد اليهم ملحناً في الخلاف ، يدين بما تدين به الروم ، ويؤمن بما يؤمن به النبط ، وينكر من امر آلهتنا ما نعرف ، ويعرف من امر السماء ما ننكر . وقد علمت يا ابن اخي ما كان من ثورة قريش به وبزيد بن عمرو وأمثالهما » .

قال الفتى : « فإن كنت أحب دار ورقة كما احب دار نسطاس ، وان كنت أجد عند ورقة من متاع الروح مثل ما اجد عند نسطاس من متاع النفس والجسم ! » . قال الشيخ : « فإن قريشاً لا تحب منك ذلك ، واني لا احب ان تنكر قريش من امرك شيئاً ، وما احب ان يتحدث الناس في البطحاء والظواهر بأن قد عرض لفتى من فتيان مخزوم مثل ما عرض منذ حين لفتى من فتيان عدي من الانحراف عن الجادة والتمرد عن المألوف من عادات قومه » .

قال الفتى : « فإن مخزوماً قد أصهرت الى عدي [1] وما ينبغي لكم ان تصهروا الى قوم وتوسلوا اليهم كرائمكم ثم ترتفعوا عن مشاركتهم فيا يصيبهم من الأمر ». قال الشيخ: ولقد علمتَ ما احببت هذا الصهر ولا رضيت عنه ولا امرت به ولا انتظرت منه لقريش خيراً، فالألفة بين عديّ ومخزوم شيء لا يرجى ، والخير أن يظل هذان الحيان من قريش على خلافهما القديم لا ليشقى به النساء حين يعيا بالطبّ له الرجال . ولئن أخطأ أبوك بقبول هذا الصهر فما ينبغي ان تمضي على اثره او تضيف إلى خطئه خطأ جديداً. وإنك لتعلم ان قريشاً لا تكره من احد شيئاً كما تكره الانحراف عمـا ألفت من عادة ودين ، ولا تخاصم احداً في شيء كما تخـاصمه في مالها ودينها . ودين قريش جزء من مالها لأنه ، كما علمتَ ، وسيلتها إلى السيادة والسلطان».

قال الفتى : « فإني لا أكره من قريش شيئاً كما أكره منها هـذا الرياء : تُكبر الآلهة وتعظم أمرها إذا شهد العامة أو حضر أهل الموسم ، فإذا خلا الملأ من قريش الى أنفسهم فأي استخفاف بالآلهة وأي ازدراء لمن يدينون لها بالإكبار والإجلال ! إنكم لتطلبون إلينا شيئاً عظيماً حين تريدوننا على أن نمهر كما تمهرون ونمكر كما تمكرون ، ونعلن غير ما نُسِرُّ ونسرّ غير ما نعلن ، لا لشيء إلا لِنُثري ونسود . وإنا لنجد في رضا انفسنا وراحتها واطمئنان ضمائرنا إلى ما نعلن وما نسرّ نعمة هي آثر عندنا من السيادة والثراء . فامضوا فيا تريدون لأنفسكم، وخلوا بيننا وبين ما نريد لأنفسنا».

قال الشيخ : « ما أرى إلا ان دار نسطاس قد فتنتك ، وان دار ورقة قد أفسدت عليك أمرك كله يا ابن اخي ؛ فانك تتحدث حديثاً لا يتحدثه احد من شيوخ قومك وشبابهم . وإني لأرى لداتك من الفتيان واسمع منهم واتحدث اليهم فلا أجد عند احد منهم مثل ما أجد عندك ، وما أعرف ان الناس ينكرون على احد من أترابك مثل ما ينكرون عليك».

قال الفتى : « وما تريد أن أصنع ؟ هم مفتونون بك وبنظرائك من الملأ ، وأنا مفتون بورقة ونسطاس ونظرائهما من الغرباء والمستضعفين».

قال الشيخ: « أمسك عليك نفسك يا ابن اخي ولا تُظهر قومك من أمرك على مثل ما تُظهرني عليه ؛ فان شر هذا الخلاف لا يصيبك وحدك وإنما يصيب مخزوماً كلها ، وما أظنك قد بلغت من حب نفسك أن تعرض قومك لما لا قِبَلَ لهم به » .

قال الفتى: « فإني لا أحب أن أعرض قومي لشيء ولا أن يعرّضني قومي لشيء»

---

(١) كانت حنتمة أخت عمرو بن هشام زوجاً للخطاب وهي أم عمر رضي الله عنه .

وإنما أريد أن أترك الناس وما يحبّون . ولست أكره إن شق عليكم أمري أن تخلعوني، فما أكثر الخلعاء الذين يعيشون في مكة من قبائل العرب ! وما أكثر ما أغبطهم على ما ينعمون به من حرية القلب واليد واللسان ! ».

قال الشيخ وهو يبتسم ابتسامة غامضة فيها الإعجاب بشجاعة ابن اخيه والإشفاق من جرائره : « دون هذا وتستقيم الأمور يا ابن اخي . ولكن ما الذي يعجبك من نسطاس ومن ورقة وقد رأيتهما وتحدثت إليهما فلم أر عندهما خيراً ولا شراً ؟ ».

قال الفتى : «فإني أجد عندهما الراحة من اللذة والألم جميعاً».

قال الشيخ : « اني لا أفهم عنك ما تقول منذ اليوم . الراحة من اللذة ! ما هي؟ وكيف تكون ؟ ».

قال الفتى: «رُحْ معي إلى نسطاس او اغدُ معي إلى ورقة ، ثم اطل عندهما المقام كما اطيله ، وتصرّف معهما في فنون القول كما اتصرف ، فستجد عندهما مثل ما اجد، وسترضى من امرهما عن مثل ما ارضى عنه ، وستغدو على احدهما وتروح على الآخر ، وستؤثر داريهما على اندية قريش ».

قال الشيخ وقد تضاحك : «وكذلك اريد ان انهاك عما يكره قومك فاذا انت تغريني به وتحثني عليه «ولقد شبّ عمرو على الطوق»،انصرف راشداً يا ابن اخي واحسن سياسة قومك ، وكف عن نفسك وعنا غائلتهم ».

قال الفتى وقد نهض : « فاني منصرف الآن راشداً كما تقول الى نسطاس فشاربٌ عنده ومستمتع بحديثه وغناء جواريه ، ثم إني غاد إذا كان الضحى على ورقة بن نوفل فمستمع له ومتحدث اليه ، ثم ملم بعد ذلك بأندية قريش فمتحدث بما كان من امري، فأيهم عرض لي بما لا احب فلن يرى مني إلا ما يكره».

قال الشيخ : «اني لأعرف فيك انفة مخزوم وكبرياءها ، ولو عرفت انك تسمع لي ....»

قال الفتى مقاطعاً في رفق : « لنصحت لي بأن ارحل مع القافلة بعد ايام فأبيع واشتري واربح كثيراً من المال ، وارى كثيراً من البلاد والواناً مختلفة من اجيال الناس، واصبح فتى شريفاً من فتيان قريش اصنع ما يصنعون واضطرب فيما يضطربون فيه ، وانافس صخر بن حرب فيما يكسب لنفسه من السؤدد والثراء » . قال الشيخ : « هو ذاك » .

قال الفتى : « فاني لا احب من هذا كله شيئاً،وإنما أوثر ان انفق هذا المال الكثير

الذي لا احصيه ناعم النفس قرير العين رضيّ البال متردداً بين نسطاس وبرقة ، وان استأجر صخر بن حرب وامثاله ليعملوا لي في مالي وليمينوني على ما انا فيه من نعيم».
ثم استرد الفتى كبرياءه وخيلاءه وانصرف عن عمه كما اقبل عليه راضيـاً عن نفسه وساخطاً عليها ، مدلاً بمكانته ومزدرياً لها .

– ٢ –

واقبل من الغد على ورقة بن نوفل ، فلم يلقه الشيخ هشّاً بشّاً كما تعوّد ان يلقاه ، وانما ابتسم له ابتسامة فيها شيء من كآبة . على ان الشيخ لم يكن فارغ البـال ولا مطمئن النفس ، وانما كان معنيّاً بأمر عظيم يُضمره ولا يظهره .

فلما رأى الفتى منه هـذا الفتور اقبل عليه مداعباً كأنما يستخفه الى شيء من النشاط ، فجعل يتحدث اليه عن ليلته التي انفقها لاهياً بخمر نسطاس وغناء جواريه . ولكن الشيخ لم يخفّ ولم ينشط ، وانما جعل يسمع من الفتى احاديثه الطويلة التي لا تنقضي ، ويجيبه بين حين وحين برأسه يهزه او طرفه يومىء به او لسانه يديره في فمه بالكلمات القصار . فلما رأى الفتى منه ذلك سيء به وضاق به ذرعاً وقال في شيء من الحدة : « ويحك ايها الشيخ ! انك لشديد الكآبة منذ اليوم ، وما سعيت اليك ابتغي كآبة او حزناً ، وما اقبلت عليك لتُنْغِضَ اليّ رأسك أو تومىء اليّ بطرفك او تلوي لي لسانك بهـذه الألفاظ التي لا تُغني ، انمـا جئت التمس عندك شيئاً غير هذا » .

قال الشيخ وقد اخذ ابتسامه يتسع قليلاً : « تلتمس عندي ماذا يا ابن اخي ؟ » .
قال الفتى : « التمس عندك هذه القوة التي استقبل بها سخف قريش وَجْهَ النهـار وآخره ، كما التمس عند نسطاس هذه اللذة التي اغسل بها هذا السخف عن نفسي حين يُقبل الليل » .

قال الشيخ متضاحكاً في فتور : « فقد غسلت نفسك من سخف قريش ولكنك دنّستها برجس نسطاس ، ثم اقبلت الآن تريد ان تغسلها من هذا الرجس وتمحو منها آثار اللذة الآثمة ، آثار الخمر وما يتبعها مما لا يجمل بالرجل الكريم ! فما اعرف انّ عند نسطاس لمثلك خيراً ، وانما هي الفتنة التي تفلّ الحدّ وتفسد الطبع وتُذهب

المروءة وتردّ فتيان قريش الى مثل ما عليه فتيان الروم من الضعف والوهن والفتور . لقد رأيتهم يا ابن اخي فما وجدت عندهم خيراً ، وإنما هو الفساد قد اخذهم من كل وجه وانسلّ الى نفوسهم من كل سبيل ، فأصبحوا لا يقدرون على شيء وان خيلت اليهم كبرياؤهم انهم يستطيعون ان يبلغوا كل شيء » . ثم سكت قليلاً واطرق مليّاً ، ثم رفع رأسه وقال في صوت هادىء متزن : « ما ابغض يا عمرو شيئاً كما أبغض الحانات التي يقيمها الروم في اعطاف مكة والتي يُغرّى فتيان قريش بما فيها من هذه اللذات الآثمة التي تقتل الرجولة » .

وكان عمرو بن هشام يسمع لحديث الشيخ وعلى ثغره ابتسامة ضئيلة غامضة ، وفي وجهه شيء من السخرية لا يكاد يبين، وربما حرّك رأسه الى يمين او الى شمال ليخفي على الشيخ سحابة من عبوس كانت تغشّى جبهته بين حين وحين . فلما فرغ الشيخ من حديثه وعاد إلى إطراقه فأمعن فيه وجعل ينكت الأرض بعصاه ، قام الفتى متثاقلاً يريد أن ينصرف . فنظر الشيخ اليه نظرة قصيرة كأنما كان يريد أن يمسكه ، ولكنه لم ينشط حتى لذلك فغض بصره وعاد إلى إطراقه . واستدار الفتى نحو الباب ، ولكنه عاد فجأة فاستقبل الشيخ وقال في شيء من العنف : « لن أنصرف ، فلست أحب أن تصحبني منك هذه الصورة التي أنكرها . لقد كنتَ في نفسي شيئاً غير هذا ، ولقد كنتُ أنتظر منك أن تباديني بكل شيء إلا ما باديتني به منذ اليوم » .

قال الشيخ : « فكنت تنتظر مني أن أغريك ببيت نسطاس وما فيه من لذة وإثم، وكنت تقول لنفسك انما ورقة بن نوفل رجل نصراني قد أتى بلاد الروم وطوّف في مدنها وقراها وعاد منها وقد أخذ كل ما وجد من الدين والدنيا، فهو نصراني كنسطاس يحب كل ما يحب النصارى ويألف كل ما يألفون ، والسن وحدها هي التي تقعده عن بيت نسطاس ، ولو قد كان له فضل من قوة أو بقية من شباب لشاركني فيما استمتع به عند نسطاس ، فخمره معتّقة وجواريه حسان وغلمانه صِباح الوجوه ، وعنده غناء يفتن القلوب ويسحر الألباب . كلا يا ابن أخي ! لقد أتيت بلاد الروم ، وطوّفت في مدنهم وقراهم، وألممت ببيعهم وحاناتهم، ورأيت ما عندهم من دنيا ودين ، ثم عدت وإني لأكثر أمرهم لكاره أشد الكره ، وإني من حياتهم لنافر أشد النفور . ولو قد أعجبتني حياة الروم كما تعجبك لما عدتُ الى واد غير ذي زرع كهذا الوادي الذي نعيش فيه » .

قال الفتى : « الآن ينطلق لسانك وقد كان معقوداً ، ولكني لم آت لأسمع منك

هذا الحديث ولا لألتمس عندك هذه الموعظة ؛ فقد أسدى إليّ منها عمي الوليد بن المغيرة امس ما استطيع ان اعيش عليه اياماً وشهوراً » .

قال الشيخ : « فماذا جئت تلتمس عندي إذاً ؟ » . قال الفتى : « جئت اتعلم منك ، وأرى أنك ستتعلم مني » . قال الشيخ وقد عاد الى نشاطه وخفته واستأنف ما ألف عنده عمرو بن هشام من هذا الطبع السمح والمزاح الحلو والمرح الذي كان يحببه الى النفوس . قال الشيخ . «فعلّمني يا عمرو فان الإنسان لا يكبر عن العلم مهما تبلغ به السن ، وان العصا قُرعت لذي الحلم » . قال عمرو بن هشام : « لا تهزأ فاني سأعلمك عجباً من العجب ! إنك لتجهل من أمر نسطاس كل شيء ولا تعلم منه الا ما يعرفه المفتونون من شباب قريش ، اولئك الذين يصطحبون عنده او يغتبقون لا يعرفون إلا ان عنده خمراً معتقة وجواري حساناً وغلماناً صباحاً وغناء عذباً» . قال ورقة: «فما استكشفت عنده غير ذلك ؟ » . قال : « استكشفت ما كنت اظن انك لا تجهله . ان هؤلاء الروم الذين يقيمون حاناتهم في اعطاف مكة كما تقول فتنةً لشباب قريش وشيوخها لا يهبطون هذا الوادي الجدب رغبة في المال وحده او حرصاً على ان يُمتعوا قريشاً بهذه اللذات التي يحملونها الينا ، وانما هم يبتغون اشياء لا تخطر لنا ببال . ولو قد فطن لها الوليد بن المغيرة الذي كان يُسدي اليّ النصح والموعظة امس ، ولو قد فطن لها عُتبة وشيبة ابنا ربيعة وصخر بن حرب وأمية بن خَلَف لاستقبلوا من أمرهم غير ما يستقبلون ، ولنفوا كل رومي عن هذه الأرض ، ولاشتطّوا على هؤلاء الغرباء من الروم والنبط والفرس أكثر مما يشتطون على العرب » .

قال ورقة بن نوفل وقد ظهر على وجهه شيء من الجد : « أفصح يا ابن أخي فإني لا أفهم عنك » .

قال الفتى : « ستفهم عني ، فإن هؤلاء الروم لم يهبطوا هذه الأرض للتجارة وحدها ، إنما اتخذوا التجارة وسيلة إلى أشياء أخرى يبتغونها ونُخدع نحن عنها بهذه اللذات اليسيرة الفاتنة التي يحملونها إلينا ويغروننا بها » .

قال ورقة : « وما عسى أن تكون هذه الأشياء ؟ » . قال الفتى : « إنما هم عيون قيصر في هذه الأرض ورسله الى هذا الوجه ، يعدّون له فيه الأسباب ويمهدون له فيه السبل . وما أرى أن واحداً منهم قد أقبل الى بلادنا إلا وهو مجمع أن يحبب إلينا أمراً من أمور الروم ويستخفّ قلوبنا لحب هذه الحياة الرومية التي يحملون إلينا أيسرها وأهونها ، ثم يقول قائلهم لنا حين يرى منا الابتهاج والرضا ! فكيف لو ذهبتم

الى هذه المدينة أو تلك من مدن الروم ! وكيف لو رأيتم هذه اللذات في أصولها التي تخرج منها وبيئاتها التي تنمو فيها ! وكيف لو اتصلت أسبابكم بأسبابنا واختلطت أموركم بأمورنا ! »

قال ورقة : « وقد أحسستَ من نسطاس بعض هذا فجئت تتحدث اليّ به وتؤامرني فيه ؟ وما تراني أصنع لك في هؤلاء. وقد اعتزلت قريشاً واعتزلتني قريش ، وأصبحت أموركم لا تعنيني كما ان أمري لا يعنيكم ؟ هلاّ تحدثت بذلك الى عمك الوليد او الى الملأ من قريش !! »

قال الفتى : « اني لأغبطك على ان قريشاً قد اعتزلتك وعلى أنك قد اعتزلت قريشاً . واني لأتمنى ان يتاح لي من ذلك ما أتيح لك . وإن لم أغدُ عليك لأتحدث إليك في شأن هؤلاء الروم او أؤامرك فيه ، فاني أعرف اي الناس أستطيع ان ألقي اليه بهذا الحديث . انما جئت لأحدثك بالعجب من أمر نسطاس هذا الذي تلومني فيه كما لامني فيه عمي الوليد » .

قال ورقة : « وعند نسطاس أعجب مما ذكرت ؟ » قال الفتى : « نعم » .

قال الشيخ : « وما ذاك ؟ » . قال الفتى : « تعلم أيها الشيخ أني لا ألتمس الخمر واللذة والغناء عند نسطاس فحسب ، وانما ألتمس عنده العلم ايضاً . وقد تعلمت منه كثيراً اكثر مما تعلمت منك ؛ فقد عرفت منه شؤون الروم مفصلة وأخبارهم مطولة ، وأنت لا تحدثنا من ذلك إلا بالنزر اليسير لأن ذلك لا يعنيك ، فأما هو فيكفي أن يتقدّم الليل وأن ينصرف شباب قريش الى بيوتهم وأن يخلو اليّ والى ثلاثة او اربعة من غلمانه وجواريه وقد صرف سائرهم ، فاذا خلا بعضنا الى بعض أديرت علينا خمر لا تدار على غيرنا،وسمعنا غناء لا يسمعه غيرنا ، حتى اذا تقدّم الليل خطوات أخرى وأغرق كل شيء في الصمت والسكون وخيّل الينا أننا قد اقتطعنا من الحياة والأحياء اقتطاعاً واننا نعيش في جزيرة من النور والحركة يحيط بها بحر من الظلمة والسكون ، قال نسطاس بلسانه الملتوي وصوته الأجش : «الآن طاب الحديث» . ثم نأخذ في حديث الروم فأسمع منه العجب العجاب . وقد اتصل بيني وبين نسطاس منذ اعوام ، وجعل اترابي من قريش يلمون معي بدار نسطاس ثم ينتقلون منها الى غيرها من دور الروم والنبط يتبعون في ذلك اهواء نفوسهم ويفرون بذلك من الحياة المطردة المتشابهة. وما اكثر ما الحوا عليّ في ان اذهب مذاهبهم واسلك مسالكهم واتنقل معهم في الغيّ كما يتنقلون ، ولكني لم انحرف قط عن دار نسطاس ولم أملْ قط الى اللهو في غير دار

نسطاس ؛ لأن عند نسطاس ما ألزمني داره وشغلني بمودته ، حتى لامني فيه اللائمون، وحتى ظنت قريش بي الظنون ، وحتى شكا من ذلك اهلي واترابي ، وعاتبني فيه عمي الوليد».

قال الشيخ :«وماذا علمتَ يا ابن اخي من أمر نسطاس؟ فقد أثرتَ في نفسي شغفاً بالعلم لا عهد لي به منذ ودعت الشباب».

قال الفتى وقد دنا من ورقة كأنما يريد ان يهمس اليه بما لا يحب ان يسمعه غيره : « علمت ان وراء نسطاس التاجر الخمار الذي يفتن شباب قريش بالخمر والنساء والغناء فيلسوفاً يلتمس الحق ، وديّاناً يلتمس الدين الصحيح » . قال الشيخ دهشاً : «إنه لكذلك يا ابن اخي ؟» .قال الفتى: « نعم ! وقد كنت اعرف انك وامثالك تخرجون من بلادنا هذه لتضربوا في الأرض ولتلتمسوا الحق والعلم والدين ، عند هؤلاء الأعاجم من الفرس والروم ومن اليهود. وما كنت انكر من ذلك شيئاً، فهم قد سبقونا الى الحضارة، وهم قد سبقونا الى الكتاب . فأما ان يخرج الروم من بلادهم الى هذه البلاد الجدبة القاحلة الغليظة الجافية التي لا حظ لأهلها من حضارة او علم او كتاب ، ليلتمسوا عندنا الحق والعلم والدين ، فهذا هو الذي لا افهمه ، ولم تطمئن اليه نفسي حتى حدثني نسطاس بما حدثني به امس» .

قال الشيخ وقد اهمه الأمر الى ابعد مدى ، واسترد نشاطاً غريباً وقوة كانت تخيّل الى من يراه انه قد عاد إلى شبابه ، او أن شبابه قد عاد اليه : «وبماذا حدثك ؟ »

قال الفتى : « حدثني بأنه فرد من جماعة تلتمس الحق وتبحث عن الهدى ، وبأن هذه الجماعة منتشرة في بلاد الروم ، يتعارف افرادها فيما بينهم بعلامات لهم، لا يعرفها احد غيرهم. فاذا تحدث بعضهم الى بعض من قريب او بعيد تحدثوا بالرموز والإشارات، فلم يظهر احد من امرهم على شيء . وحدثني بأن هذه الجماعة قديمة العهد طويلة العمر ، قد مضت عليها القرون ، يوصي كل جيل منها الى الجيل الذي يليه بالمضي في التماس الحق ، والبحث عن الهدى ، يجدّون في ذلك ما أتاحت لهم قوتهم وحيلتهم أن يجدّوا ، يتفرقون في الأرض في ملك قيصر وفي ملك كسرى ، لا يبالون ما يلقون في ذلك من جهد ولا ما يحتملون فيه من عناء ، حتى إذا ظفر احدهم بشيء من العلم أو بما يراه الحق أو قريباً من الحق ، احتال حتى يبلغه أصحابه ، وهم على ذلك يتواصلون ويتعاونون ويستكشفون من العلم ما يستطيعون . ولكنهم علموا فيما علموا منذ الزمان الأول ، ان هذه الديانات التي يدين الناس بها في اقطار الأرض

غاية تنتهي اليها ، وأمداً تبلغه فلا تعدوه، وان ديناً يهبط على الناس من السماء في آخر الزمان ، فيتم من أمر السماء ما بدأ ، ويحمل الناس على الجادّة ، ويهديهم الى الحق الذي لا شك فيه » .

قال الشيخ وقد أخذ حتى اضطرّ الفتى الى ان يهدىء من رَوْعه : « قل قل يا ابن اخي ! وبماذا حدثك ؟ » .

قال الفتى : « وحدثني بأن الجماعة عرفت أن أمر هذا الدين قد قرب ، وأن زمانه قد أظلّ ، وأنه لن يهبط من سماء الشام حيث هبط دين اليهود والنصارى ، ولا من سماء الفرس حيث ظهر دين زرادشت ، ولا من سماء اليونان حيث ظهرت ديانات اليونان ، ولكنه سيتنزل من سماء واد غير ذي زرع ، فيه قوم غلاظ قساة لا حظّ لهم من علم ولا من كتاب ، يطمئن أكثرهم الى الجهل ويضيق به أقلهم ، ولكنهم على ذلك يكتمون ما يجدون من هذا الضيق ، ويشاركون العامة فيما هم فيه من الجهل. يُقدم بعضهم على ذلك نفاقاً ورياءً والتماساً للمنفعة والثروة والسيادة ، ويُقدم بعضهم على ذلك عجزاً وكسلاً وإخلاداً الى الراحة والدعة . وقد فرّقت الجماعة سفراءها في أقطار الأرض الجدبة غير ذات الزرع والضرع ، فهم يلتمسون فيها هذه العلامات ، ويسجلون ما يجدونه منها ويؤذن به بعضهم بعضاً، وينتظرون فيها هذا الدين الجديد. ونسطاس أحد هؤلاء قد وقعت له أرضنا حظاً ، فأقبل إليها يلهينا بالخمر والغناء والنساء ، وينتظر امر السماء » .

ولم يبلغ الفتى هذا الموضع من كلامه ، حتى وثب الشيخ وثبة لم يشك الفتى حين رآها انه قد فقد رشده ومسه طائف من جنون. ولكن الشيخ عاد الى أمنه وهدوئه، وظل قائماً مكانه وقد رفع يديه الى السماء وهو يقول : « قدّوس قدّوس ! أشهد ما أنبأتني خديجة إلا بالحق ! » .

— ٣ —

ولم يظفر عمرو بن هشام من الشيخ بعد هذا الكلام الغامض بشيء يوضحه او يجلوه ، وإنما ظل الشيخ قائماً مكانه باسطاً يديه أمامه رافعاً رأسه الى السماء كأنما ينتظر منها شيئاً ، ثم انحنى رأسه واسترخت يداه الى جنبيه ، وعاد الى الشيخ ضعفه

وهرمه ، فجثا على ركبتيه وأطرق الى الأرض وجعل يصلّي بكلام حاول الفتى ان يفهمه او ان يتبين لفظه فلم يجد الى ذلك سبيلا . فانصرف مغيظاً محنقاً يسأل نفسه في اعماق ضميره : أمسّ الشيخ طائف من جنون ، أم أراد الشيخ الى العبث به والتعمية عليه ؟ فقد لاحظ عمرو بن هشام اشتغال الشيخ عنه حين أقبل عليه ، وإعراضه عنه حين تحدث اليه ، ومحاولة الفرار منه كلما ألح عليه في الحديث ، وتكلّفَ الغباء والقصور عن الفهم حين بدأ يصغي اليـــه . وكان عمرو بن هشام يعرف من ورقة غير هذا كله ، كان يعرفه حَفيّاً به يحسن القول له والاستماع منه . وكان يعرفه ذكيّاً حاد الذكاء بصيراً نافذ البصيرة ، لا يكاد يحتاج من محدثه إلا الى بدء الحديث . وكان يعرفه كلفاً بأمور الدين لا يكاد يعرض لها عارض بين يديه حتى يندفع كأنه السيل ، فينكر على قريش مَكرَها ونفاقها وتكلفها عبادة الأوثان ، وما هي من عبادة الأوثان في شيء ، ويرثي للعرب من جهالتهم هذه الجهلاء التي يغرقون فيها إغراقاً منكراً حتى يضللهم سادة قريش بهذه الأكاذيب يصوغونها عن آلهتهم هذه المنصوبة ، وهم يعلمون أنهم يكذبون ويضللون ، وهم يسخرون من الناس ومن الآلهة حين يخلون الى أنفسهم وحين يخلص بعضهم لبعض نجيّاً . وقد راب الفتى ما رآه من تغير الشيخ هذا الضحى ، وزاده ريبة ما رآه من هذه الثورة المفاجئة حين ذكر له ما ذكر من أمر نسطاس . على أن الفتى لم يصل الى هذا الموضع من نجوى ضميره حتى ازداد ريبة الى ريبة وشكّاً الى شك ؛ فقد ذكر أن وجه نسطاس لم يكن خالياً له أمس ، وأن نفسه لم تكن خالصة له كما تعودت أن تخلص له حين يتقدّم الليل وتسكت الموسيقى وينقطع الغناء ويتفرق الندامى ويخلو الصديقان ، لا يشهد خلوتهما إلا هذان القدحان قد بقيت فيهما بقية من شراب يُقبلان عليه بين حين وحين فيحسوان منه حسو القطا ، وإلا هـــذه النجوم التي كانت تُطلّ عليهما من السماء كأنما تريد أن ترى ما يصنعان أو تسمع لما يقولان ، وهي على ذلك تُخفي عليهما أسراراً غامضة طالما اشتاقا الى استجلائها ، وإلا هذا النسيم الخفيف الضئيل الذي كان يختلس مسراه من سكون الليل اختلاساً ويمر بهما من آن الى آن حذراً متحفظاً كأنما يخشى أن يفطنا له فيدلا عليه ضوء الليل .

هنالك كانت نفس الفتى العربي ونفس الرجل الرومي تمتزجان امتزاجاً غريباً ، فيصفو لهما الود ، ويخلص بينهما الحب ، ويطيب لهما الحديث وربما غمرهما سكون الليل وسكوت الطبيعة من حولهما فسكتا وسكتا ، ورأى كل منهما مع ذلك في نفس صاحبه كما يرى في المرآة ، وفهم كل منهما عن صاحبه كما يفهم الصديق عن الصديق .

فأما أمس فقد كان الرومي ذاهلاً عن صاحبه بعض الذهول ، لا يدنو منه إلا ليناى عنه ، ولا يصل اليه إلا لينفصل عنه ، وكان يحدثه أحاديث متقطعة ، يتحمس في بعضها حتى يبلغ أبعد غايات التحمس ، ويفتر في بعضها حتى يبلغ أقصى آماد الفتور . وقد ذكر عمرو بن هشام أنه انصرف عن صديقه الرومي كئيباً محزوناً يردّ عن نفسه ملالةً لا تريد أن تُردّ ، ويدفع عن نفسه سأماً لا يريد أن يندفع . وكان يعلل نفسه بلقاء ورقة يتعزّى ببشاشته وحديثه عن فتور نسطاس وشرود خاطره ، كما أقبل على نسطاس من ليلته تلك يلتمس فيما عنده من لذة آثمة أو بريئة عزاء عن هذا العتاب الثقيل الذي لقيه به عمه ، فآذاه به فيما لا يحب أن يؤذى فيه من هذه الحرية التي كان يؤثرها على كل شيء ، ولا يرضى أن تكون موضوعاً للأخذ والرد أو للجدال والنزاع .

وكانت كل هذه الخواطر تضطرب في نفس عمرو بن هشام وهو ماض في طريقه بين دار ورقة بن نوفل والمسجد . والحق أنه دفع الى المسجد على غير إرادة منه ؛ فلم يكن في نفسه شيء من النشاط للقاء شيوخ قريش وشبابها في أنديتهم تلك التي لا يسمع فيها إلا ما يضيق به من الحديث . ولو قد فكر في الغاية التي ينبغي أن يقصد اليها بعد ما خرج من عند الشيخ لتردد بين اثنتين : فإما أن يرجع الى داره ليخلو فيها الى نفسه ويستقصي حساب هذه الخواطر التي كانت تضطرب في ضميره ، وإما أن يذهب الى نسطاس ، فلعله أن يجد عنده من النشاط وحضور الذهن ما ينسيه شروده أمس وشرود الشيخ عنه اليوم . ولكنه دفع الى المسجد بحكم العادة ؛ فقد كان يُنفق أول النهار عند ورقة ، حتى إذا ارتفع الضحى وكادت الشمس أن تزول سعى متباطئاً الى المسجد فأدرك أندية قريش قبل أن يتفرقوا وينصرف كل منهم الى حيث يَقيل . فلما بلغ المسجد كان قد انتهى من حساب نفسه الى نتيجة مؤلمة له أشد الإيلام ، مؤذية لكبريائه أشد الإيذاء ، وهي أنه لقي ثلاثةً من أحب الناس اليه وآثرهم عنده في أقل من يوم ، فلم يرَ عند أحد منهم شيئاً يرضيه . فعمه يعتب عليه عتباً ثقيلاً ، وصديقه الرومي يُعرض عنه إعراضاً مرّاً ، وورقة ابن نوفل لا يهدي اليه إلا هذا الغموض الذي هو أشد عليه من عتاب العم وإعراض الصديق .

ولم يكن يقدّر أنه سيلقى من أندية قريش مثل ما لقي من هؤلاء الرجال الثلاثة : أشياء إن لم تحفظه وتنته به الى الغيظ فهي لا تسره ولا ترضيه . ولو ملك الفتى زمام نفسه واستطاع أن يستقصي أمره كما كان يفعل دائماً ، لرد الأمور الى أصولها ، ولعرف

أن أحداً من هؤلاء النفر الثلاثة لم يلقه بشيء يكرهه ، وإنما هو الذي حمل نفسه على ما لا تحب فرأى عند هؤلاء الناس ما لم يكن يحب أن يرى ؛ فقد كان يأخذ الأمور دائماً أخذاً هيناً ، لا يهتم لشيء ولا يضيق بشيء . وما أكثر ما كان يلقاه عمه بالجدّ المرّ والدُّعابة الحلوة فلا يحفل بذلك ولا يأبه له . ونفس الصديق ليست دائماً خالصة للصديق ، ووجه الخليل ليس دائماً خالياً للخليل ؛ فللناس من أمورهم الظاهرة والخفية ما يجوز أن يشغلهم عن أحسن أصدقائهم عندهم منزلة ، وأرفعهم في قلوبهم مكانة . ولكن عمرو بن هشام كان هذه الأيام حَرِجَ الصدر ضيق النفس بكل شيء ، قد عرضت له أزمة من هذه الأزمات التي تعرض لأصحاب القلوب الذكية والنفوس الأبية، حين يحسون الفراغ من حولهم ، ويشعرون بأن الحياة باطل ما فيها من الجدّ والهزل ومن الشدة والرخاء، ويلتمسون لهذه الحياة غاية خيراً مما وجدوا إلى الآن ، ويطلبون إليها ثمرات أحلى مذاقاً وأبقى أثراً من كل ما بَلَوْا إلى الآن ، فلا يجدون شيئاً مما يلتمسون ، ولا يبلغون شيئاً مما يطلبون .

هنالك ينكرون أنفسهم وينكرون الناس ، وهنالك يضيقون بأنفسهم كما يضيقون بكل شيء وبكل إنسان . وهنالك يدقّ حسهم ويرقّ طبعهم ، فإذا هم يجدون الألم والسأم في أشياء لم يكونوا من قبل يجدون فيها ألماً ولا سأماً . وآية ذلك أن عمرو بن هشام لم يلق ابتسام القوم له في ناديهم بابتسام مثله ، ولم يرد تحيتهم الطيبة بتحية مثلها، وإنما أقبل فأهدى إلى قومه هذه التحية التي تدفع اللائمة ولا تزيد على ذلك . ولو قد استطاع لما ألمّ بهم ولا جلس إليهم . فقد رأى فيهم عمه الوليد بن المغيرة فكره ذلك أشد الكره ، وكاد يمضي لوجهه لولا أن جعل القومُ يرحبون به ويومئون إليه أن أقبِلْ ، ولولا أن جعل عمه يناديه : «أقبِلْ أبا الحكم فقد جئت حين اشتدت الحاجة إليك » . ولم يكد عمرو يجلس إلى قومه حتى ابتدره عمه قائلاً في دعابة حلوة : « هذا أوان يختبر حزمك وعزمك وفضلك فيما تعقّد من الأمور » .

قال عمرو بن هشام وهو يتكلف الابتسام : « إنك لحلو الدعابة منذ اليوم يا عم ! وما أرى إلا ان أمور القافلة تستقيم لك على خير ما تهوى » .

قال الشيخ : «لم تعدُ الحق يا ابن أخي، فما أكثر ما حُمِلَ إليّ من الذهب والورق والعروض ! وما أشد ابتدار قريش إلى الرحلة وتنافسَها في السفر ! ولتعلمن قريش أن الوليد بن المغيرة ميمون النقيبة ، لا يتولى لهم تجارة إلا عادت عليهم من الربح بأكثر مما ينتظرون » .

هنالك انبسطت أسارير القوم وظهر الابتهاج في وجوههم ، وقال قائلهم : « والله ما علمناك يا أبا الوليد إلا سيداً كريماً ميمون النقيبة في كل ما وليت من الأمر » .

قال الوليد لابن أخيه في صوته العريض العميق : « ولكن أمور الموسم لا تجري من النجح والاستقامة على مثل ما تجري عليه أمور التجارة . فقد أدركتَ قومك يا ابن أخي وهم يختصمون في شيء ليس بذي خطر في ظاهر الأمر ، ولكنه بعيد الأثر في حياتهم وفيما يستقبلون من سياسة العرب . وحَسْبُك أنها الخصومة بين المنفعة والحياء . وإذا اختصمت في نفسك المنفعة والحياء فإلى أيهما تميل ؟ » .

قال عمرو بن هشام : « فأما إن كنت تمزح فإني أوثر المنفعة ولا أعدل بها شيئاً . وأما إن كنت تريد إلى الجد فإني أوثر الحياء لا أعدل به شيئاً ؛ لأني أوثر دائماً أن أكون رجلاً ، والحياء نصف مروءة الرجل .ولكني لا أفهم عنك ما تقول منذ اليوم، فما هذه الخصومة بين المنفعة والحياء ؟ » .

قال الوليد : « فإن قومك يستعدون للموسم كما علمت ، ويتهيئون لاستقبال العرب الذين يفدون علينا من كل صوب إذا دنت هذه الأشهر الحُرم ، وأنا أعلم أنك مشغول بنفسك عن مثل هذه الهنات ، ولكن هذه الهنات معقدة يا ابن أخي أشد التعقيد، ينهض بأثقالها شيوخ قومك وذوو الأحلام منهم على حين تختلف أنت وأترابك... »

قال عمرو بن هشام : «حسبك يا عم فقد سمعت من ذلك ما أرضاني أمس» ثم تمثّل قول الشاعر اليثربي :

قالت ولم تقصد لقيل الخنا مهلاً فقد أبلغتَ أسماعي

قال الوليد : « أما إن كان ذلك كذلك فإني أرجو أن يكون فيك خير . ولكن قومك يختصمون في الأمين وفي أمر أقدم عليه في الموسم الماضي ، وهم يخشون أن يعود إليه في الموسم المقبل» . قال عمرو بن هشام : « وما ذاك ؟» . قال الوليد : «ألست تذكر أن محمداً غيَّر من عادات قريش في الحج ما لا يقدر أحد على تغييره ، فحج كما يحج العرب لا كما يحج أهل الحرم ؟ » . قال عمرو بن هشام وهو يبتسم ويهز رأسه : « لا أذكر من ذلك شيئاً» .

قال الوليد :« ما أنت وذاك يا ابن أخي! إن لك في مرح الشباب وأقداح نسطاس عن ذلك لشغلاً . ولكنك تعلم على أقل تقدير أن أهل الحرم لا يخرجون منه إذا أرادوا الحج ، فهم لا يُفيضون من عرفة ولا يأتون منىً ولا غيرها من المشاعر خارج الحرم ، إنما يتركون ذلك لسائر العرب فضيلة لهم على الناس جميعاً» .

قال عمرو بن هشام : «فضيلة خصّوا بها أنفسهم ولم تخصهم بها الآلهة ، وأقرت لهم بها العرب ضعفاً وعجزاً».

قال الوليد : «هذا أول الشر . فأنت إذاً لا تنكر على الأمين خروجه من الحرم ، وإفاضته مع الناس من حيث يُفيضون ، وسيرته في الحج كسيرة رجل من العرب لا من قريش ؟ » .

قال عمرو بن هشام : « لا أنكر عليه شيئاً ولا أقره على شيء ولا أعنى من ذلك كله بكثير ولا قليل ، ولو قد عُنيت من ذلك بشيء لسلكت فيه طريق الأمين ، ولأعنته وجاهدت معه ، حتى تردّ قريشاً إلى السنّة الأولى ونلغي هذه البدعة التي ابتدعتها والتي لم ترثها عن آبائنا ؛ لا لأنني أحفل بقديم او جديد ، ولا لأني آبه لسنة أو بدعة ، ولكن لأني أرحم هؤلاء العرب الذين تكلفونهم ما لا يطيقون ، وتحملونهم ما لا يستطيعون له احتمالاً ، إيثاراً لأنفسكم بالخير ، واستكثاراً للربح من غير وجهه ، واتجاراً بما لا ينبغي أن يتجر فيه . إنهم يأتونكم وقد حملوا ثيابهم وطعامهم وشرابهم ، فتحرمون عليهم من ذلك ما أحلّ لهم من قبل ، وتأبون عليهم أن يتزلوا بين أظهركم حتى يتخففوا كارهين من كل ما حملوا ، ثم تبيعون عليهم من الثياب والطعام ما لم يكونوا في حاجة الى أن يشتروه ، ثم تكرهونهم على أن يشتروا منكم الطعام أو يقيموا بينكم جياعاً ، وعلى أن يشتروا منكم الثياب أو يطوفوا بالبيت ويقيموا بينكم عراة ، لا تفرقون في ذلك بين الرجل والمرأة ، ولا بين الشيخ الفاني والغلام الناشيء . خطة اختطتموها من عند أنفسكم لم ترثوها عن سنّة ولم تأخذوها من كتاب ، وإنما هو حب الاستعلاء والطمع في الربح . لا يكفيكم أن تكونوا جيران الآلهة وسكان الحرم وحماة الكعبة حتى تستنبطوا من هذا كله حقوقاً لم تكن لكم . ولا يكفيكم ما تغلّه عليكم تجارتكم البعيدة والقريبة من مال حتى تضيفوا إليه مالاً تشتقونه من جوع الجائع وظمأ الظامىء وعري العريان » .

قال عتبة بن ربيعة وقد أحفظه ما سمع : « على رسلك يا أبا الحكم ! فإنك والله لتشاركنا في هذا كله ، تأثم معنا إن أثمنا ، وتنعم معنا إن نعمنا ، فانكر على نفسك إن كنت منكراً » .

قال عمرو بن هشام : « نعم إني لأشارككم في الخبيث والطيب من مالكم ، وفي القبيح والحسن من أمركم ، ولوددت والله ألا أشارككم في شيء ، وأن اكون فيكم خليعاً كأحد هؤلاء الخلعاء » .

قال أمية بن خلف : « ما رأيت كاليوم سفيهاً كنا ننتظر منه الحلم ، ولا غوياً كنا نرجو منه الرشد » .

قال عمرو بن هشام : « اربع[1] على نفسك أبا علي . فليس كل من خالف عن أمرك سفيهاً ، وليس كل من انحرف عن رأيك غوياً »

قال أبيّ بن خلف : « أمهلوا أبا الحكم فوالله أن له لشأناً ، وما علمناه عياباً ولا مشتطاً على قومه ، وما أرى إلا أنه في حاجة الى أن يَقيل » .

قال الوليد بن المغيرة وهو يكظم غيظه ويتكلف الابتسام والدعابة : « دعوه ، فوالله ما علمته إلا ولد سوء ، وما أرى إلا أن خمر نسطاس وهُراء ورقة بن نوفل قد أفسدا عليه أمره. ولقد نهيته عن هذين الرجلين فلم ينته ، وإني أحلف باللات والعزّى ليكفن عما هو فيه او ليكونن له معي شأن كشأن زيد بن عمرو مع عمه الخطاب » .

وهمّ عمرو بن هشام أن يرد على عمه القول ، ولكن شيبة بن ربيعة وعلي بن أمية قاما اليه فرفقا به حتى انصرفا به من المجلس .

وعاد شيوخ قريش الى ما كانوا فيه من النجوى . فقال امية بن خلف : « قد علمتم يا معشر قريش أن للأمين فيكم مكانة ما تعدلها مكانة ، وأنكم لم تنكروا من أمره شيئاً ، وما زلت أراكم تحتكمون اليه وترضون حكمه في أمر هذا الركن . وقد علمتم أن لعبد المطلب وبنيه في الدين شأناً غير شأنكم ومذهباً غير مذهبكم : تيسّرون على انفسكم ، ويَشُقُّون على أنفسهم ، وتعلم ذلك منهم العرب كلها . فما زاد الأمين على ان مضى على سنة أبيه عبد المطلب فتكلف من شؤون الحج ما لا تحبون أن تتكلفوا ، فخلوا بينه وبين ذلك ولا تراجعوه في شيء منه فتسوءوه وتسوءوا بني هاشم ، ولكم بعدُ في تحرّج الأمين وتكلفه ما لا تتكلفون منفعة ، فسيرى العرب ان سيداً من ساداتكم وشريفاً من اشرافكم لا يكره أن يسير سيرتهم ، ويحتمل من المؤونة ما يحتملون ، ويفيض معهم من حيث يفيضون . فاذا رأوا ذلك عرفوا لقريش السؤدد والتواضع جميعاً » . قال الوليد بن المغيرة : « إن رأيك لهو الرأي يا أبا عليّ » . وتفرق القوم إلى دورهم .

فأما عمرو بن هشام فقد انصرف مع صاحبيه شيبة بن ربيعة وعليّ ابن أمية كارهاً وهما يرفقان به ويلطفان له ، يأخذانه بالجد حيناً وبالدعابة والمزاح حيناً آخر ، حتى ثابت إليه نفسه وسكت عنه الغضب . يقول له شيبة بن ربيعة متضاحكاً : « لقد

---

(١) اربع على نفسك أي كف وارفق .

قدت يا أبا الحكم عن الأمين مقاماً سيعله وسيحمده لك ». قال عمرو بن هشام : « وأقسم ما أبغضت إنساناً قط كما أبغضت الأمين ، وما آذاني شيء قط كما تؤذيني قريش حين تكرمه وتعظّم من أمره ومن أمر بني عبد المطلب ما تعظّم » . وكان القوم قد انتهوا إلى دار شيبة بن ربيعة ، فعزم عليهم ليَدخلُنّ ولينالُنّ عنده شيئاً من طعام وشراب. فلما استقرّ بهم المجلس وأخذ الغلمان يهيئون لهم غداءهم، قال شيبة: « ما ظننت قط أن أحداً يُبغض الأمين ، وما عرفته إلا محمداً كاسمه بين قومه محبباً إلى النفوس جميعاً . فهلا حدثتنا يا أبا الحكم ببدء هذا الشنآن الذي تُضمره له ! ! »

قال عمرو بن هشام : « إن بدء ذلك لقديم جداً ، وإن عهدي به لفي أول أيام الشباب : أقبلنا على وليمة في دار عبدالله بن جُدعان ، فلما دعينا إلى الطعام ازدحمنا، وزاحمني محمد فزحني ، فزلّتْ قدمي فسقطت على الأرض » .

قال شيبة : « أذكر ذلك ، وأذكر أنك لم تشاركنا في طعامنا فقد أصاب إحدى ركبتيك بأس » .

قال عمرو بن هشام : « بأس ! أي بأس ! ما زال أثره باقياً إلى الآن ، وما أرى أنه سيزول ، وما أرى إلا أن بغضي لمحمد سيبقى ما بقي هذا الأثر » .

قال شيبة : هوّن عليك أبا الحكم ؛ أمرٌ يكون بين الشباب لا عاقبة له » .

قال عليّ متضاحكاً : « فإن محمداً قد فوّت عليه طعام ابن جُدعان وطعام ابن جدعان يؤسى عليه » .

قال عمرو بن هشام : « كان ذلك بدء بغضي له ، ولكني ما زلت أسمع عنه وعن قومه الأعاجيب ، يتحدث بها الناس عنه فتسمعون أنتم وتنسون ، وأسمع أنا وأحفظ، ثم يغيظني من ذلك ما لا يغيظكم . أتذكرون تلك الأحاديث التي أذيعت عنه وملئت بها مكة حين سافر إلى الشام في مال خديجة بنت خويلد ؟! »

قال شيبة : « أحاديث غلام أعجميّ صدّقها من صدّقها وكذّبها من كذّبها ، وأشاد بها هذا الصابىء الذي تؤلفه وتكلّفُ به ورقة بن نوفل » .

قال عمرو : « دع ورقة لا تعرض له ، فإنه ما علمت لرجل خير » .

قال عليّ : « توشك والله يا أبا الحكم أن تنحرف مع هذا الرجل عن مألوف قومك » .

قال عمرو ساخراً : « قومي أعز عليّ من هذا » .

وكانت المائدة قد مُدّت فأقبل القوم على طعامهم ، ومضى عمرو ابن هشام في

حديثه يقول : « وإصهار محمد إلى خويلد واستشاره بخديجة ومالها » . قال شيبة : خير سيق إلى ابن عمك، فما ينبغي أن تـنفسه عليه، قال عليّ : «لم ينفسه وحده، ولقد شاركه في ذلك كثير من قريش». قال عمرو : «ولا والله ما غاظني شيء قط كما غاظني إحتكام قريش إلى محمد في أمر الركن ورضاها بحكمه، واستئثار محمد من دون قومه بهذا الشرف حين أخذ الحجر بيده فوضعه في موضعه من الكعبة ، ونحن قيام ننظر إليه لا نقول شيئاً كأنما سُكّرت أفواهنا ، ولا نصنع شيئاً كأنما شُلّت أيدينا » .

قال شيبة : « ما أحببت قط رجلاً كما أحببت محمداً في ذلك اليوم ! فقد رد عن قومه شراً عظيماً » .

قال عمرو : « وما ضقتُ بشيء قط كما ضقت بمكان عمي الوليد ابن المغيرة الذي كان يسلقني بلسانه آنفاً . لقد كنت أراه حازماً عازماً جريئاً حين ترددت قريش ، يُقدِم على هدم الكعبة حين أشفق الملأ من ذلك وهو يقول : « اللهم لا نُرَعْ فما أردنا إلا الخير » حتى إذا حمل قريشاً على ما أراد عجز عن أن يمضي في الحزم إلى غايته ، وخلى بين مجد قريش وبين فتى من فتيان بني هاشم يستأثر به من دوننا » .

قال عليّ : « إنه الحسد يا أبا الحكم ، وما علمتك قبل اليوم حسوداً » .

قال عمرو : « سمّه ما شئت ؛ فإني أضمر لهـذا الأمين من البغضاء ما لم أضمره لإنسان قط . ولو استطعت ... » ثم سكت قليلاً ثم استأنف حديثه فقال : « ومن لي بأن أستطيع !! » ثم التفت إلى عليّ قائلاً :

« ما علمتني يا عليّ حسوداً ، وما عرفت في نفسي حسداً ، وانك لتستطيع أن تملك من الذهب والفضة ما يملأ بين هذين الجبلين، فلن أجد في نفسي من ذلك إلا الغبطة والرضا ، ولكن شاة يملكها الأمين تؤذيني وتقضّ مضجعي كما لو عدا على حُرّ مالي فأخذه قهراً وقسراً» . وطوّف الغلمان عليهم بأقداح من خمر بَيْسان فأقبلوا عليها شرهين إليها ، ولكنها لم تكد تصرف عمرو بن هشام عن حديث الأمين وما كان يضمر له من البغض حتى شق على صاحبيه .

— ٤ —

وكانت أجبال مكة قائمة حولها ساهمة واجمة في يوم شديد القيظ ، كأنما أدركها منه ما يدرك الناس فيذهلهم عن أنفسهم وعما حولهم من الأشياء . وكانت مكة بين

هذه الأجبال ساكنة سكوناً مخيفاً لا حركة فيه ، هادئة هدوءاً مفظعاً لا نشاط فيه ، قد استقرت بين هذه الأجبال ، واستقر فيها كل شيء ، فما تجري فيها نسمة ، وما يغنّي فيها طائر ، وما تصوّت فيها حشرة ، وإنما هي جامدة هامدة تُصَبّ فيها أشعة الشمس المحرقة صبّاً ، وتنعكس في هذه الأشعة المحرقة ألوان مختلفة من هذه الصخور القائمة حولها ، حتى ليخيّل إلى من كان يمكن أن يراها في ذلك الوقت أنها طست يُصَبّ فيها معدن مذاب يصهر كل ما مسه من شيء وفي هذه المدينة الجامدة الهامدة المحرقة المشرقة كان رجل رومي يسعى ثقيل الحركة بطيء الخطو متخوّفاً يلتفت عن يمين وشمال في كثير من الحذر ، كأنما يخشى أن يرى مكانه أحد . وكان يسعى مجهوداً مكدوداً شديد الإعياء قد ألهبته هذه الشمس المهلكة ، ولكنه على ذلك يسعى الى غايته لا يبالي تعباً ولا نصباً ، حتى إذا بلغ دار ورقة بن نوفل رأى غلاماً قائماً بالباب يرقب مقدمه ، فلما رآه مقبلاً تلقاه بابتسامة صامتة ، ثم سعى بين يديه حتى أدخله الدار وأغلق من دونهما الباب، ثم سعى بين يديه ينقله من دهليز الى دهليز ومن حجرة الى حجرة ،يسعى لا يقول شيئاً، والرومي وراءه يمشي لا يقول شيئاً،حتى انتهيا الى حجرة في أقصى الدار ، فلما دخلاها أغلق الغلام الباب من دونهما ، ثم أحدث حساً فظهر ورقة كأنما كان في مخبأ . فلما رأى الرومي حيّاه بالإشارة ثم قال: «اتبعني يا نسطاس» . ثم التفت إلى الغلام وقال : « أما أنت فمكانكَ حتى نُحدث لك أمراً». وهبط ورقة يتبعه نسطاس في سلم كان في زاوية من زوايا الغرفة ، فلما انتهيا الى أسفل السلم أمعنا في نفق طويل ضيق ولكنه جعل يتسع قليلاً قليلاً كلما أمعنا فيه حتى انتهيا إلى مجلس حسن ، فلما بلغاه جثا كل من الرجلين على ركبتيه وأخذا يصليان بلغة غير عربية صلاة طويلة . فلما فرغا من صلاتهما مدّ ورقة يده الى قدح فيه شيء من خمر فقرأ عليه كلاماً ثم قدمه الى الرومي ، فشرب منه ثم رده إلى ورقة فشرب ما كان قد بقي فيه . ثم تحوّل الرجلان عن مكانهما ذاك الى حشية قد ألقيت على الأرض فجلسا عليها وبين أيديهما شراب أقبلا عليه صامتين . ثم قطع نسطاس الصمت قائلاً : « إنه الفجر يا ورقة» . قال ورقة : « نعم ؛ إنه الفجر يا نسطاس ! والفجر الصادق هذه المرة ، فقد طالما كذبتنا نجوم الليل». قال نسطاس: « فقد أخذ الليل ينجلي». قال ورقة : « ولكنه ينجلي في بطء شديد». قال نسطاس: « وقد آن لي أن أرحل بالخبر إلى أصحابنا قبل أن تشرق الشمس». قال ورقة: « أو قبل أن يرتفع الضحى» قال نسطاس: «بل قبل ان تشرق الشمس فالخير في البكور .

وكان شاعركم يحب الغدو مع الطير ، فلنكن عرباً ونحن نودّع أرض العرب ». قال ورقة : « ولكنك عجلت على نفسك أمس يا نسطاس ». قال نسطاس : « بما حدّثت به عمرو بن هشام ؟ » قال ورقة : « نعم ».

قال نسطاس . « لا تُرَعْ ، فقد كان يجب أن تُؤْذن قريشاً بمطلع الفجر ، وأن تهيئها لما سيغمرها من نور ، وتُعدّها لما تضمر لها الأقدار مما تحب وما تكره . وما أعرف أحداً كان أقدر على أن يهيء قريشاً لهذا الأمر من صاحبك هذا ؛ فإنه فتى طموح شديد الطموح ، مغرور يكاد يقتله الغرور ، حسود يأكل الحسد قلبه كما تأكل النار ما يلقى فيها من الحطب ، وهو على ذلك ذكي القلب ، فصيح اللسان ، أثير عند قومه . وما أرى إلا أنه سيكون أشد الناس عداوة لهذا النور الجديد ، وما أرى إلا عداوته ستزيد هذا النور انتشاراً كلما أمعنت في الشدة والحدة . وكذلك الأقدار يا ورقة تدبر للناس أمورهم كما تحب هي لا كما يحبون هم . نور يخرج من ظلمة ، ثم ما تزال تحاربه وتغالبه حتى يقهرها . أرأيت إلى صاحبنا هذا الذي أشرق الفجر في قلبه وسيشرق على الناس من فمه كيف أقبل على هذه الدنيا وكيف استقبل أيامه فيها ؛ يولد أبوه وهو أحب الناس إلى أبويه ، ولكنهما يفتنان فيه فتنة لم يعرفها الناس منذ إبراهيم ، حتى إذا خاص الفتى من الفتنة وقرّت به عينا أبويه خرج إلى الشام فلم يعد من رحلته تلك ، وإنما دُفن في حفرة بيثرب . لم يولد لنفسه ، وإنما ولد لينقل ابنه إلى الأرض، فلما أدى أمانته مضى لسبيله . وتلد آمنة ابنها وتقوم عليه ، حتى إذا تقدم به الصبّا قليلاً واستغنى عن خدمة الأمهات مضت أمه إلى حيث مضى أبوه ، وظل الصبي يتيماً عائلاً ضالاً ، لا ينتظر أحد له خيراً ، ولا يظن به أحد خيراً ، ولا يحفل به أحد ، ولا يلتفت إليه أحد ، إلا الذين أرادت الأقدار أن يعرفوا بعض شأنه وأن يقوموا ببعض أمره ، لا يتكلفون في ذلك إلا أيسر الأمر وأهونه؛ لأن الذي اختارته الأقدار لمثل هذه المهمة العظمى لا ينبغي أن تكون للناس عليه يد ، ولا يرعاه ويكلؤه إلا من اصطفاه لما يريد ».

قال ورقة : « هو ذاك يا نسطاس . وما أكثر ما بحثنا وأمعنا في البحث ! وما أكثر ما استقصينا وغلونا في الاستقصاء ! نُبعد ومحمد بين أظهرنا . نلتمس مشرق النور في أقطار الأرض ومشرق النور يسعى بين أيدينا ، حتى إذا تتابعت الآيات وتظاهرت الأدلة ظننا في غير قطع أننا قد اهتدينا إلى ما كنا نبحث عنه، وجعلنا نرقب محمداً منذ خمس عشرة سنة منذ عاد من الشام . أتذكر يا نسطاس ؟ » قال : « نعم » . قال

ورقة : « مـــا زلنا نرقبه منذ ذلك اليوم والآيات يتبع بعضها بعضاً ، والأدلة يشد بعضها أزر بعض حتى جاء الحق وظهر نور الله »

قال نسطاس : « هو ذاك ! ولكن بماذا أرحــل إلى أصحابنا ؟ » . قال ورقة : « بما علمت » . قال نسطاس : « فإني لم أعلم من ذلك إلا خلاصته ، وقد أحب أن أحمل إلى اصحابنا تفصيله . وقد انبئت ان عندك من هذا العلمَ كلّه ، فأعد عليّ من ذلك ما تعلم ، تقول انت بعربيتك واكتب انا بيونانيتي ، حتى إذا بلغت ارض الروم افضيت بالأمر الى اصحابنا فأخذوا له ما ينبغي من الأهبة ، وتهيئوا له كما ينبغي ان يتهيئوا لهذا الأمر العظيم » .

قال ورقة : « ليتني أستطيع ان أرتحل معك ، وان أشارككم فيما ستبذلون من جهد وما ستحتملون من مشقة لتعدّوا بـــلاد الأعاجم لاستقبال الشمس المشرقة حين يبلغها نورها » .

قال نسطاس : « ولكن عليك ان تقيم حيث أنت ، وعليّ أنا ان أعود إلى بلاد الروم ، بهذا أمِرنا ، ولا بدّ من ان نذعن لما أمِرنا به . فاقصص عليّ بدء حديثك فقد هيأت كل شيء الرحيل ، ويجب ان أترك مكة قبل ان تغرب الشمس وأن يـأتي فتيان قريش إلى حانة نسطاس فلا يجدوا فيها نسطاس ، ولا يجدوا فيها خمراً ولا غناء ولا نساء ، وإنما يجدون داراً خالية بلقعاً يباباً ، كما سيجدون دوراً لقومهم حين يرتفع ضحى هذا النور الجديد » .

قال ورقة : « فان ابنة عمي خديجة قد أقبلت عليّ ذات يوم فأنبأتني بالنبأ تعيد عليّ حديث زوجها ، وقد حفظته عنها كما سمعته منها ، فان شئت فاكتب» فأقبل نسطاس على رَقّ يكتب فيه . وجعل ورقة يقول : « قال رسول الله (صلعم) » . يقول نسطاس : « يا لها كلمة حلوة المجرى على اللسان ، حسنة الموقع في القلب،خالدة في الدهر ما بقي الدهر ! » . قال ورقة : « أنكتب يا نسطاس ؟ » قال نسطاس : « نعم » . قال ورقة : « قال رسول الله (صلعم) : جاءني جبريل وأنا نائم بنَمَط من ديباج فيه كتاب ، فقال اقرأ ، قال قلت ما أقرأ ، قال فغتّني[1] به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ ، قال قلت : ما أقرأ ، قال فغتّني به حتى ظننت انه الموت ثم ارسلني فقال اقرأ ، قال قلت ما أقرأ ، قال فغتني به حتى ظننت انه الموت ثم ارسلني فقــال اقرأ ، قال قلت : ماذا أقرأ ، ما اقول ذلك إلا افتداء منه

(١) الغت : العصر الشديد مثل الغط .

ان يعود لي بمثل ما صنع بي ، فقال : (اِقْرأْ باسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ ، خَلَقَ الإنسانَ منْ عَلَق ، اقرأْ وَرَبُّكَ الأكرَمُ الذي عَلَّمَ بالقَلَمِ عَلَّمَ الإنسانَ ما لمْ يَعلمْ) . قال فقرأتها ، ثم انتهى فانصرف عني ، وهببت من نومي فكأنما كُتِبَتْ في قلبي كتاباً . قال فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فرفعت رأسي إلى السماء أنظر ، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد انت رسول الله وانا جبريل . فوقفت انظر إليه فما اتقدم وما اتأخر ، وجعلت اصرف وجهي عنه في آفاق السماء ، فلا انظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفاً ما اتقدّم امامي وما ارجع ورائي ، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي ، فبلغوا اعلى مكة ورجعوا إليها وانا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرف عني ، وانصرفت راجعاً إلى اهلي حتى اتيت خديجة ، فجلست إلى فخذها مضيّفاً إليها . فقالت يا ابا القاسم ! اين كنتَ ؟ فوالله لقد بعثتُ رسلي في طلبك حتى بلغوا اعلى مكة ورجعوا اليّ . ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت : أبشر يا ابن عم واثبُتْ ، فوالذي نفس خديجة بيده اني لأرجو ان تكون نبي هذه الأمة » (1) .

ثم سكت ورقة فلم يقل شيئاً ، وكفّ نسطاس فلم يكتب شيئاً ، وظل الرجلان في هذا الصمت والسكون ساعة ، كأنما كانت نفساهما قد فارقتاهما وجعلتا تسموان الى أفق بعيد ليس من هذا العالم الذي يحيط بهما في شيء . ولو قد رآهما راءٍ على هذه الحال لخيّل اليه أن قد اشتمل عليهما النوم . وآية ذلك أن الحس عاد اليهما فجأة فذُعرا من هذا الصمت كأنما هبّا من نوم عميق ، ونظر كل منهما الى صاحبه نظرة طويلة صامتة ثم مدّ كل منهما يده الى صاحبه فصافحه مصافحة طويلة ، وإذا دموعهما تنهلّ في صمت ، وإذا نسطاس يقول لصاحبه : « ما أحسن ما كوفئنا يا ورقة بعد شدة الجهد وطول الانتظار ! ولكن ممن سمعت حديثك هذا الذي حدثتني ؟ » . قال ورقة وقد أشرق وجهه بشراً وابتهاجاً : « سمعت حديثي هذا من خديجة أول الأمر ، فما أنكرت منه شيئاً وما شككت في أن هذا الملك الذي جاء محمداً هو الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، فعرفت ان محمداً لم يُفْجأ بلقاء الملك ولا بتلقّي الوحي ، وانما هيىء لذلك شيئاً فشيئاً حتى أنكر نفسه وأساء بها الظن ؟ فقد جعل قبل ان يأتيه الملك بوقت طويل يرى من آيات ربه اشياء لم يكن يراها

(1) سيرة ابن هشام ، الجزء الأول صفحة ٢٣٥ ، طبعة المطبعة الخيرية بمصر .

من قبل ، فينكر ما يرى ويظن بنفسه العلة ، ويصرفها عما كان يرى ويسمع ، فلا تكاد تنصرف عنه ، أو لا يكاد ينصرف عنه ما كان يرى ويسمع . وكان أول أمره من ذلك أن صدّقته أحلام الليل صدقاً لم يألفه الناس ولم يألفه هو فيما مضى من دهره، فكان لا يرى رؤيا إلا صدّقت وصحت وتحققت كأنها فلق الصبح ، حتى كاد النوم يكون آثر عنده وأحب اليه من اليقظة . ثم أحسّ حب الخلوة والحاجة اليها ، فكان لا يُلمّ بمكة إلا قليلا ، ثم يخرج منها فيمضي أمامه في شعاب الجبال مستأنساً بهذه الوحشة مطمئناً الى هذه الوحدة . ولكن خلوته هذه لم تلبث أن رابته وأثارت في نفسه الظنون ، أو قل لم تلبث أن فارقته ، وإذا هو لا يخلصُ لنفسه ولا تخلص له نفسه ساعة من نهار او ساعة من ليل ، وإذا الفرق بين الليل والنهار قد ألغي بالقياس اليه إلغاء ، فهو لا يرى إلا نوراً يأخذه من كل وجه سواء أكانت الشمس مشرقة أم كان الليل مظلماً مُدْلَهِمّاً ، فقد الظلمة فقداناً تامّاً، ثم فقد السكون والصمت فقداناً تامّاً ؛ فكان لا يمشي إلا سمع الأصوات تناجيه أحسن النجوى ، وتحدثه أعذب الحديث وتحييه أكرم التحية ، يسمع ذلك من الأشجار ، ويسمع ذلك من الأحجار ، ويسمع ذلك من حصباء الأرض ، ويسمع ذلك من نسيم الجو ، حتى أنكر نفسه أشد الإنكار ، وحتى أقبل ذات يوم على خديجة مُدَلَّهاً مُوَلَّهاً مذعوراً يقول : « تعلمين يا خديجة أني والله ما أبغضت شيئاً كما أبغض هذه الأوثان التي تعكُف عليها العرب ، وما كرهت شيئاً كما أكره ما ألف العرب من الكهانة ، وإني مع ذلك لأجد أشياء أنكرها ، وأخشى أن يلمّ بي لَمَمٌ أو أن أصير الى الكهانة . تقول له خديجة : « لا بأس عليك ! أنت أكرم على ربك وآثر عنده من أن يصنع بك هذا . إنك لتصل الرحم ، وتصدّق الحديث وتصنع المعروف ، حتى كان ذلك اليوم الذي نُبِّىء فيه » . وكان ورقة يقص هذا الحديث هادئاً مشرق الوجه باسم الثغر ، وكانت يد نسطاس تجري على قرطاسه بتفسير ما يسمع في لغة يونان . ثم سكت ورقة لحظة ثم استأنف حديثه فقال : « ولقد لقيت محمداً بعد ذلك ،فسألته أن يعيد عليّ ما حدثتني به خديجة من شأنه وما حدثتك به آنفاً ، فيعيده عليّ ، لا والله ما ينقص منه حرفاً وما يزيد فيه حرفاً ، فيشرق الهدى في نفسي ويمتلىء قلبي يقيناً ونوراً ، وأبشره بما ستبشر به أصحابنا في الإسكندرية وغيرها من مدن الروم ، وبما ستنتشر أنباؤه في الآفاق من أنه نبي هذه الأمة . وأثبتّه وأؤذنه مع ذلك بشيء من بعض العنت الذي سيلقاه من قومه » . قال نسطاس : « أوقد فعلت ؟ » قال ورقة : « نعم ، ألسنا

نقرأ في كتبنا أن قومه سيكذّبونه وسيؤذونه وسيخرجونه وسيقاتلونه ؟! » قال نسطاس : « بلى » . قال ورقة : « فقد تحدثت اليه ببعض ذلك . أولسنا نقرأ في كتبنا أن علينا نصره وتأييده ما وسعنا النصر والتأييد ؟ » قال نسطاس : « بلى » . قال ورقة : « فقد وعدته بذلك ، ولكن أنـّى لي هذا الفضل وإنما أنا هامة اليوم أو غد ! » . ثم استعبر واستعبر معه نسطاس . فلما سكت عنهما البكاء قال نسطاس : « وماذا كان صدى حديثك في نفسه ؟ » قال ورقة : « والله ما كدت أحسب أن قد كان لحديثي في نفسه صدى ! دهش لما أنبأته به بعض الدهش ، ثم أعرض عنه كأنه لم يسمع له . لا والله ما رأيت إلا حزماً وعزماً ، وإلا يقيناً وإيماناً ، وإلا تصميماً على أن ينهض بالأمانة ويؤدي الرسالة مهما يكتنفه من الأحداث والخطوب . وليتني كنت حاضر أمره ! » قال نسطاس : « وليتني كنت حاضر أمره ! ولكنك لن تحضر من أمره إلا قليلاً ، ولكني لن أحضر من أمره في هذه الأرض شيئاً ، والأقدار تجري بما تريد يا ورقة ، وإنما نحن مأمورون ، وعلينا أن نمضي لما أمرنا به حتى يبلغ الكتاب أجله » . ثم جثا الرجلان وبسطا أيديهما أمامهما وخفضا رأسيهما الى الأرض وجعلا يصليان بلغة غير عربية وقتاً غير قصير ثم نهضا ، وتناول نسطاس قدحاً فيه شيء من شراب ، فبارك عليه ثم قدمه الى صاحبه فشرب منه ثم أخذه هو منه فشرب سائره ، ثم اعتنق الرجلان وخرجا من مجلسهما يسعيان في نفقهما الذي جعل يضيق شيئاً فشيئاً ، حتى اذا بلغا السلم صعدا فيه ، فوجدا الغلام قائماً لم يبرح مكانه .

قال ورقة للغلام : « هل هيّىء كل شيء ؟ » . قال الغلام : « نعم ! إن فرس نسطاس ينتظره في المكان الذي يعلمه » . قال ورقة لنسطاس : « فإنه الوداع إذاً يا نسطاس ! » قال نسطاس : « إنه الوداع » . ثم اعتنق الرجلان مرة ثانية ، يقول ورقة لنسطاس : « انطلق راشداً مصاحباً » . ويقول نسطاس لورقة : « وأقم موفقاً مهدياً » . ثم يُغلق الباب من دون ورقة ، واذا هو قائم وحده ينظر عن يمين وينظر عن شمال ويرفع رأسه الى السقف ثم يجثو باسطاً يديه أمامه وهو يصلي بلغة لا تفهمها ولا تتكلمها قريش .

ومضت على عمرو بن هشام أيام لم يعرفها ولم ينكرها ، كما أن قومه لم يعرفوه فيها ولم ينكروه . راح الى دار نسطاس من يومه ذاك فألفاه قاعاً صفصفاً ، فلما سأل عن صاحبه الرومي قال له من سألهم : والله ما ندري إلا أننا أحسسنا في دار نسطاس حركةً وجه النهار فلم تنكر شيئاً ، فلما أمسينا رأينا الدار كما تراها . فانطلق إلى دار ورقة يستأذن عليه ، فيقول له غلام ورقة : إن سيده يشكو بعض العلة ولا يستطيع أن يرى أحداً . ولو قد استجاب الفتى لنفسه لذهب إلى دار عمه الوليد بن المغيرة ، ولكنه ذكر ما كان بينه وبين عمه في المسجد فأعرض عن لقاء الشيخ إعراضاً . ولو قد استمع الفتى إلى ما ملأ قلبه من الضجر والضيق لعاد إلى بيته كئيباً كاسف البال سيىء الخلق فساء أهله وبنيه ، ولكن ماذا جنى أهله وبنوه !

فينطلق الفتى إلى مجلس من تلك المجالس التي كان يجتمع فيها شباب قريش حين يقبل الليل يشربون ويطربون ويعبثون بكل إنسان وبكل شيء ، حتى إذا بلغ مجلسَهم تلقَّوْه دهشين يقولون له : ويحك أبا الحكم ! فأين أنت من نسطاس ؟! قال:

كأن لم يكن بين الَحجون إلى الصَّفا أنيسٌ ولم يَسمُرْ بمكة سامرُ

قال أخوه الحارث بن هشام :

بلى نحنُ كنا أهلها فأزالنا صروفُ الليالي والجدود العواثر

قال عمرو بن هشام : « لا والله ما أزالت نسطاس صروف الليالي ولا الجدود العواثر ، وإنما أزالته أمور دُبِّرَت بليل وكيدٌ يكاد لقريش» .

قال القوم : « ويحك أبا الحكم ! ماذا تقول؟ » . قال عمرو : « وأقسم لولا جبن قريش وحرصها على مالها وتجارتها لما قصَّرْتُ في طلب نسطاس حتى أدركه وحتى أرده عليكم وحتى أذيقه من العذاب ألواناً ، ويومئذ تعلمون ما يكاد لكم من الكيد ، ويومئذ تعلمون أنكم تسرفون على أنفسكم حين تضيفون هؤلاء الغرباء ، وتبسطون لهم وجوهكم ، وتُغدقون عليهم كريم أموالكم ثمناً لما يفتنونكم به من أقداح الخمر وغناء المغنيات . لا والله ما هؤلاء الغرباء إلا عيون عليكم لقيصر وكسرى ؛ ولكنكم أصحاب تجارة تجوبون الأرض ولكم في كل بلد قافلة وأموال، فأنتم تخشون على اموالكم وانفسكم

وانتم تبيعون أمنكم وعافيتكم بهذا الربح الذي تتهالكون عليه ولو قد عشتم كما يعيش العرب من حولكم لكرُمتم على أنفسكم وعلى الناس اكثر مما انتم»

قال عتبة بن ربيعة : « ما أكثر ما تنعي على قومك منذ اليوم يا عمرو ! فدعني أقل الك الآن مثل ما قلته لك في المسجد ، فابدأ بنفسك فعش كما يعيش العرب من حولنا » .

قال عمرو بن هشام وفي صوته سخرية حزينة :

وهل أنا إلاّ من َغزية إن غوتْ غَوَيْتُ وإنْ ترْشُدْ غَزِيَّةُ أرشدِ

ستستبينون الرشد غداً أو بعد غد » . ثم ضرب إحدى يديه بالأخرى وصاح : «الخمر يا غلام» . وأقبل على شرابه عاكفاً عليه مسرفاً فيه حتى عربد على اصحابه من ليلته تلك، وعاد إلى أهله سكران لا يكاد يبين . ثم لم تره قريش بعد ذلك إلا َمغيظاً مُحْنقاً، يسخر من كل شيء إن هدأ ، ويغضب من كل شيء إن جمحت به نفسه، وما اكثر ما كانت تجمح به نفسه ! وما اكثر ما كان يؤذي اصحابه واترابه في غدوّه ورواحه ! حتى لقد كانوا يتجنبونه ويتكلفون النأي عنه . ولولا مكانه من مخزوم وموضعه من عمه الوليد بن المغيرة لأصبح خليعاً في قريش كما تمنى غير مرة ان يكون.

وبينا كان رائحاً في ذات يوم الى حانته تلك يشرب فيها ويطرب وينغّص على شباب قريش شربهم وطربهم ، عرض له في بعض الطريق شيخ اعرابي حسن الوجه ، رائق المنظر ، لولا أنه كان غليظ الزي خشن الثياب، يكاد يبدو عليه الضر ، لولا أنه يتجمل ويروض نفسه على ما لم يتعود الأعراب أن يروضوا أنفسهم عليه . فلما رأى عمرو بن هشام هذا الشيخ مقبلاً عليه ، رماه بنظرة سريعة فيها كثير من السخرية وقليل من الحذر ، وهمّ ان يمضي لوجهه . ولكن الشيخ استوقفه في رفق ، فأظهر عمرو انه لا يحفل به . ولكن الشيخ رفع صوته قليلاً بهذه الكلمة : « مكانك يا فتى فان لي إليك حديثاً » .

وبلغ هذا الصوت اذن الفتى فروّعه شيئاً ، ولم يدر الفتى أيحب هذا الصوت ام يكرهه ، وأراد ليمضي أمامه ولكن رجليه لم تطاوعاه ، فقام مكانه كأنما ثُبّتَتْ قدماه في الأرض تثبيتاً . ودنا الشيخ منه يسعى متباطئاً قصير الخطا ، حتى انتهى اليه فوضع احدى يديه على كتفيه في رفق وقال له في صوت بلغ اعماق قلبه: «لا تُرَعْ يا بنيّ فما اريد بك إلاّ خيراً » . قال الفتى في صوت مضطرب يريد ان يثبت : « من تكون ايها الشيخ ؟ وماذا تريد ؟ » . قال الشيخ : « ستعرف من اكون وستعرف

ماذا اريد ، ولكن تعلمْ اني بعد ان وضعت يدي هذه على كتفك هذه قد ملكت امرك كله فلن تنطق إلا بلساني ، ولن تعمل إلا برأيي ، ولن تصدر إلا عن امري . وآية ذلك أنك ستحاول أن تمضي الآن أمامك فلن تطاوعك رجلاك ، وستحاول أن تعود أدراجك فلن تطاوعك رجلاك ، فاجتهد أن تتقدم ، ثم اجتهد أن تتأخر ، فلن تجد متقدّماً ولا متأخراً ، ستظل قائماً مكانك حتى آذن لك في أن تتقدم أو تتأخر . ثم تناءى عنه قليلاً وأشار إليه أن جرّبْ قدميك إن شئت . وهمّ الفتى أن يخطو إلى أمام فلم يستطع ، كأنما شدّت قدماه إلى الأرض بأسباب الرصاص . وهمّ الفتى أن يتحول ليرجع أدراجه فلم يستطع ، كأنما استحال جسمه إلى تمثال نحت من الصخر الصلد . وهمّ الفتى أن يدير رأسه إلى يمين أو إلى شمال فلم يجد إلى ذلك سبيلاً . وهمّ الفتى أن يبعث من فيه صيحة يلتمس بها الغوث فلم يجد في جوفه إلا نفساً خائراً لا يبلغ أن يكون صوتاً يسمعه الناس . والشيخ الأعرابي قائم منه غير بعيد ينظر إليه باسماً له رفيقاً به عطوفاً عليه . ثم دنا الشيخ منه قليلاً قليلاً ، حتى إذا حاذاه ضحك له ضحكة فيها كثير من الحب وكثير من السخرية ، ولكنها سخرية لا تخلو من حنان وعطف ، ثم قال له في صوت حلو : « الآن وقد عرفت سلطاني عليك فامض لوجهك حتى إذا بلغت حانتك تلك فاشرب فيها ما شئت أن تشرب ، واطرب فيها ما أحببت أن تطرب ، وقل فيها ما أردت أن تقول ، فلن تسوء قومك منذ الآن مهما تقل أو تفعل ، ولن تسمع منهم إلا ما يرضيك ، ولن ترى منهم إلا ما يسرك . لستَ أكبرهم سناً ولا أعظمهم قدراً ولا أكثرهم مالاً ، ولكنهم سيسمعون لك كما لو اجتمع لك هذا كله . ولن يطول بك المقام في حانتك تلك حتى يأتيك رسول عمك الوليد بن المغيرة أن زُرْهُ من الغد فإن له معك شأناً . ولا تعجل على نفسك ولا على أصحابك ولكن خذ من اللهو بأوفر حظ ممكن . ثم إذا انصرفت لتعود إلى أهلك فاذكر أني أنتظرك في هذا المكان ، ولك أن تسلك إلى بيتك أي طريق شئت فإنك لن تبلغ دارك ولن تُغلق الباب من دونك حتى تراني جالساً أنتظرك . وستراني مهما تكن ظلمة الليل ، وستراني وحدك لن يراني معك أحد ، وسأناجيك وستسمعني وحدك لن يسمعني معك أحد ، امض لوجهك ، ولا تحاول أن تخالف عن أمري ؛ فقد ملكت ناصيتك منذ اليوم » .

ونظر عمرو بن هشام حوله فلم ير أحداً ، وحرّك رجليه فاستجابتا له ، وحرّك يديه فاستجابتا له ، ولوى وجهه إلى يمين وإلى شمال فلم ير في ذلك عسراً . وقد شق

عليه ما رأى ، وشق عليه ما أحسّ وظن أن قد ألمّ به طائف من الجنّ ، وَهمّ أن يستغيث ولكنه استحيا ، وَهمّ أن يتحدث إلى أصحابه في الحانة ببعض ما رأى ولكنه استحيا ، فأقبل على لهوه وشرابه كأن لم يكن شيء ، وأقبل على أصحابه وأترابه يحدثهم أرقّ حديث وأحسنه . يقول بعضهم لبعض : ما نرى إلا أن أبا الحكم قد عاد إلى خير أيامه ، وذهبت عنه العلة التي كانت ألمّتْ به .

ولم يكد يبلغ الثاني من أقداحه حتى أقبل غلام من غلمان عمه الوليد ، فهمس في أذنه أن أ"امِمْ بعمك من غد فإن له في لقائك أرباً . فوقع همس الغلام في قلب عمرو موقعاً غريباً نَبَّهه إلى الشيخ الأعرابي وقد كاد ينساه ، ولكنه على ذلك مضى في لهوه مقبلاً عليه مغرقاً فيه وفي حديثه إلى أصحابه وأترابه يرضيهم بجدّه ويسرهم بدُعابته ، ويسمع منهم خير ما أحب ، وهو مع ذلك لا يكاد يخلُص لما كان فيه من لذة الشراب والحديث والغناء ، يذكر الشيخ الأعرابي بين حين وحين فتغشى قلبه غاشية من خوف وحزن ، ثم لا يلبث أن يدفع ذلك عن نفسه ، ويمضي في منادمة قومه ، سمح الطبع ، كريم النفس فصيح اللسان بأعذب الحديث . فلما تقدّم الليل واستوفى القوم حظهم من السمر وهمّوا أن يتفرقوا ، كان عمرو قد استرد مكانه في قلوب أصحابه جميعاً ، فيأبى شيبة بن ربيعة وعليّ بن أمية بن خلف أن يفارقاه حتى يبلغاه داره . يقول لهما عمرو : «والله ما هذه لكما بطريق ، وما تعوّدت منكما هذا الرفق ، وما أرى أن بي بأساً، وما أحسب أن أحداً يرصُدني في الطريق ، فانصرفا إلى أهلكما وَصَلَتْكما رحمٌ » . فيقولان له : « والله ما بك شيء مما ذكرت ، وما بنا رعاية لك أو إشفاق عليك من مكروه ، وإنما عدت إلى حسن سابقتك فينا ، فنريد أن نعود إلى حسن عهدك بنا. ولا والله ما نصاحبك إيثاراً لك بصحبتنا بل إيثاراً لأنفسنا بصحبتك . ولو استطعنا لسمرنا معك إلى آخر الليل ، وإنما أنت صديق فقدناه ثم وجدناه » . ويمضون وفي نفس عمرو بن هشام شيء من الرضا والأمن ؛ فقد كان يكره أن يلقى الشيخ وحده .، وما كان يشك في لقائه ، وفي نفسه شيء من الحياء. فقد كان يكره أن يراه الشيخ مع صاحبيه فيظن به جبناً أو فَرَقاً . ومع ذلك فقد مضى مع صاحبيه يقول لهما ويسمع منهما كأن نفسه لم تكن تحدّثه بشيء ، وكأن قلبه لم يفرَق من شيء . فلما بلغ المكان الذي لقي فيه الشيخ آخر النهار أبطأت قدماه شيئاً ومدّ بصره ، فيرى الشيخ قائماً ينتظره ويبتسم له ابتسامة فيها كثير من الرضا ، يراه وحده ولا يشك في أن صاحبيه لا يريان ما يرى .

وآية ذلك أنهما لم يكفّا عما كانا فيه من حديث ، ولم يُلقيا بالاً إلى شيء لأنهما لم يحسّا شيئاً.

ويمضي القوم أمامهم والشيخ الأعرابي معهم يراه عمرو دون صاحبيه ، ويكاد يؤذن صاحبيه بمكانه ، ولكن شيئاً من حياء يرده عن ذلك : فقد كان يخشى أن يظن به صاحباه الجنون . فما حديثه إليهم عن شيخ يراه هو ولا يريانه هما ؛ وكيف به لو قص عليهما ما كان بينه وبين الشيخ آنفاً ؟ وكيف به لو حدثهما بأن الشيخ قد أنبأه بأن الأمور ستصفو بينه وبين أصحابه وأترابه ، وبأن عمه سيدعوه لزيارته بعدما كان بينهما من قطيعة ، وبأن هذا كله قد كان ! . ولكنه لا يحدّث صاحبيه بشيء بل لا يظهر لهما أن شيئاً يدور بخلده غير ما يدور بينه وبينهما من حوار في أمر هذه القافلة التي ستفصِل بعد يوم أو يومين ، والتي تحمل من الذهب والورق والعروض إلى بلاد الروم ما لم تحمله قافلة لقريش منذ أعوام، والشيخ الأعرابي يرمق عمراً معجباً به عطفاً عليه. حتى إذا بلغ القوم دار أبي الحكم حيّا بعضهم بعضاً واتـعدوا نادي قومهم في المسجد إذا كان الغد . وانصرف شيبة وعليّ ، ودخل عمرو داره ، ولكنه لم يدخلها وحده وإنما دخلها معه الشيخ باسمَ الثغر مشرق المحيا يقول : « لا عدمتك بطلاً من أبطال قريش ! أشهد لقد أنجبت الحنظلية . لقد شهدتك بين قومك تجد ما تجد من الخوف ، وتنكر ما تنكر من الأمر ، لا يصرفك ذلك عن الحديث والمنادمة . ولقد شهدتك تحاول أن تخلص من صاحبيك لا إيثاراً ولا إسراعاً إليّ ، ولكن إبقاء على نفسك أن أظن بك جبناً أو فرقاً . ولقد قرأت ما كان يدور في نفسك من الخواطر حين لقيتني فأخفيت هذا كله لم يظهر أحد من دخيلة نفسك على شيء . وكذلك يجب أن يكون الرجل ، ولا سيما حين تهيئه الأيام لأمور جسام » .

قال عمرو ولم يجد في نفسه خوفاً ولا فرقاً ، ولم ينكر مكان هذا الشيخ منه : «ألا ترى أنك قد أثقلت عليّ منذ الليلة ؟ ألا تنبئني ما خطبك ؟ وماذا تريد مني ؟ ! » .

قال الشيخ : « لك أن تلقاني بما أحببت من رفق وغلظة ، ولك أن تحدثني بما شئت من لين القول وعنيفه ، فقد وطّنت نفسي على أن أحتملك كما أنت ؛ لأن كل شيء فيك يروقني ويعجبني . وستعلم حين يتصل بينك وبيني الحديث ، اني لم أثقل عليك منذ الليلة ولن أثقل عليك إلى آخر الدهر » ثم ضرب على كتفه مبتسماً وهو يقول : « فسأكون صديقك وحليفك إلى آخر الدهر ، وستحمد مغبة هذه الصداقة وعواقب هذه الحلف ، ولكن ابتغ لنا مجلساً ، فما يحسن أن يطول بنا الحديث ونحن

قائمان . هلمّ أبا الحكم ! لقد عهدتك جميل اللقاء للضيف ، تحسن قِراه إن ألمّ بك ، فما لك لا تعرض عليّ طعاماً ولا شراباً ؟ بل ما لك لا تعرض عليّ مجلساً أستقر فيه؟ إنك تريد أن أنتسب لك كما تعوّد الضيف أن يفعلوا حين يلمون بمن يُضيفهم من الناس. وما يغنيك ان أنتسب لك وأنت لن تفهم عني نسبي إن عرضته عليك ؟ ! وهل تفهم عني إن قلت لك إنني ابن النار منها خرجت وإليها أعود . إن كنت إليهما عائداً لا أعرف لي غيرها أباً ولا أماً » .

قال عمرو بن هشام وفي صوته شيء من الاضطراب : « ما رأيت كالليلة شيخ سَوْء يتحدث بكلام لا غَناء فيه ! ما ابن النار منها خرجتَ وإليها تعود ؟ ! » .

قال الشيخ : « ومع ذلك فليس لي نسب غير هذا . لا تَعْجَلْ على نفسك فإن لكل شي إبّانه . ابغِ لنا مجلساً ، ولا تكلّف نفسك القِرَى فقد نام أهل الدار ، وما ينبغي أن توقظهم ولا ان تكلفهم قرى ضيف لا يرونه ولا يسمعونه » .

قال عمرو : «فتظنهم لا يسمعوننا الآن ونحن نتحدث ؟ وَهبهم لا يسمعون صوتك انت ، أتظنهم لا يسمعون صوتي أنا ؟ وما تراهم يقولون حين يسمعونني أتحدث إلى شخص لا يرونه ولا يحسون مكانه ؟ » .

قال الشيخ وهو يضحك ضحكاً غريباً : « لا بأس عليك أبا الحكم ! إنهم لا يسمعونك ولا يسمعونني مهما يرتفع صوتانا . إنهم لا يعلمون أنك قد عدت من سمرك ، ولن يعلموا ذلك حتى أنصرف عنك ، ولن ترى منك أم عكرمة إلا خيراً . ابغ لنا مجلساً ، فأمّا إن أبيت فانحرف بنا إلى هذا المجلس عن يمينك من فناء الدار ، فقد نستطيع أن نطمئن فيه . واعْجبْ إن كنت في حاجة إلى العجب ، فسأقدّم إليك من القِرَى ما لم تُرِدْ أن تقدّم إليّ . إن معي زقّاً من خمر الطائف فشاركني في شيء منه». ثم أخذ بيده حتى أجلسه ، وأخرج زقّاً صغيراً من وعاء كان يحمله على ظهره، وأخرج قدَحين فصَبّ فيها منه ، ثم قال للفتى : « هلمّ أبا الحكم ، فستحمد نشوة هذه الخمر » . ويحسو عمرو من القدح الذي قدّم إليه فيقول : « لا والله ما شربت قط خمراً كهذه الخمر ، إن لها لمذاقاً غريباً في الفم ، ونكهة غريبة في الأنف ، وحرّاً غريباً في الجوف » .

قال الشيخ : « ودُوَاراً غريباً في الرأس ، إنها خمر أبي مُرة يا بنيّ . هذه هي الكنية التي ستعرفني بها منذ الآن . إذا أعيا عليك أمر من الأمور ، أو ضاق بك مسلك من المسالك ، أو وجدت من الناس غير ما تحب ، فادْعُ حليفك أبا مرة ،

فيستجيب لك قبل أن يرتد إليك طرفك ، وسيفرّج عنك كل كربة ، وسيخرجك من كل ضيق . ولنأخذ الآن فيما أردتُ أن أتحدث اليك فيه ، لقد أتيتَ أمرين في هذه الأيام كرهتُ أحدهما أشد الكره ، ورضيت عن الآخر أشد الرضا . فأما الأمر الذي كرهته منك فخلافك لقومك ، وخروجك عليهم ، وازدراؤك لما يقولون ويعملون ، واشتدادك على عمك في الحديث وقطيعتك له منذ اليوم ، كل هذا كرهته أشد الكره لأنك عماد قومك وموئلهم وذخرهم الذي ادّخرَ لهم حين تُقبل الحوادث وإنها لجسام مفظعة . فعدْ إلى عمك فواصله ، وعد إلى قومك فأرفق بهم . واردد نفسك عن جماحها ، واردد لسانك عن شططه ، ودع هذه السخرية بما عليه قومك فإنه قوتهم ، ولو قد انحرفوا عنه قليلاً لتخطفهم الناس . ولو قد تخطّفهم الناس لهلكت العرب ! فقريش ردْؤهمْ وكهفهم الذي اليه يأوون . وأما الأمر الذي أحببته منك أشد الحب فبغضك لابن عبد المطلب هذا الذي يسميه قومك الأمين ضعفاً منهم وخرقاً ، وإنه لمصدر البلاء كل البلاء والشر كل الشر والمحنة كل المحنة» .

قال عمرو في شيء من الحدة: «إليك عني ! فوالله ما أحببت من نفسي هذه الخصلة، وما أرى إلا أني ظالم لابن عبدالمطلب . حاسبت نفسي منذ قلت تلك المقالة في دار شيبة فما حمدت حسابها . إن ابن عبد المطلب ليَصل الرحم ويصْدق الحديث ويرفق بالضعيف ويرحم الرقيق ، وإنه لمؤتمن في قومه على الهين والعظيم من أمرهم ، وإني لأجد في نفسي الحسدَ له ، وليس الحسد من اخلاق الرجل الكريم . وإني لأروض نفسي منذ ذلك اليوم على أن أعود على ابن عبد المطلب بالعافية وأمنحه مودتي وبرّي ، ولكني لا أجد إلى ذلك سبيلاً ، فيسوءني من نفسي هذا الضعف ، وهذا هو الذي أفسد خُلقي منذ أيام» .

قال الشيخ وهو يقدّم القدح إلى عمرو : « إشربْ أبا الحكم ودع عنك هذه الخواطر ! فلقد صدّقتك نفسك حين حملتك على بغض هذا الرجل . ولئن حمدت فيك شيئاً فإنما أحمد فيك هذا البغض العنيف ، هذا البغض الذي لا يبقي ولا يذر ، هذا البغض الذي لا يعرف رحمة ولا هوادة ولا ليناً ولا أناة . وإن هذا البغض على عنفه وشدته لقليل بالقياس إلى ابن عبد المطلب» .

قال عمرو : « أبينك وبينه دم ؟! » .

قال الشيخ : ليس بيني وبينه شيء ، وإنما الشر كل الشر بينك أنت وبينه . أتذكر حين زَحمك عند ابن جُدْعان؟ إن ذلك لم يكن إلا رمزاً لما سيكون بينك وبينه

من خصام لا يحدّه إلا الموت. إنك لا تعرف من أمر عبد المطلب شيئاً . إنك ترى قومك يُكرمونه والشر كل الشر في إكرامهم له . إنه يدبر لهم من الأمر ما سينغّص عليهم أيامهم ، ويؤرّق عليهم لياليهم ، ويكدّر عليهم صفو الحياة .أتذكر حديث نسطاس حين أنبأك بأن سيكون للسماء خبر ؟ فإن ابن عبد المطلب هو الذي سيحمل اليكم خبر السماء . أتذكر ثورة ورقة بن نوفل حين أنبأته بحديث نسطاس ؟ فإن ورقة يزعم من ذلك مثل ما يزعم نسطاس » . ثم قدم القدح إلى الفتى وهو يقول : «اشربْ أبا الحكم ! إنك لمتثاقل على الشراب منذ الليلة » . فيشرب عمرو ويقول للشيخ : « ويلك ! والله ما أدري أخمراً تسقيني أم ناراً ؟!» . فيجيبه الشيخ : «لست أسقيك خمراً ولست أسقيك ناراً أبا الحكم ، وإنما أسقيك بغضاً لابن عبد المطلب لو سُلط البحر عليه ما أطفأه . لقد رحتَ إلى نسطاس من يومك ذاك فلم تجده، ورحتَ إلى ورقة فاعتلّ عليك يزعم أنه سقيم.أتريد أن تعرف ما كنت تجهل من أمر نسطاس؟ فإنه قد خلا إلى ابن نوفل ساعات من نهار ثم انصرف عنه إلى بلاد الروم ينبىء جماعته تلك التي حدّثك عنها بأن النبي الذي كانوا ينتظرونه قد ظهر ، وبأن ابن عبد المطلب هو هذا النبي . وكره ورقة أن يلقاك حين رحت إليه ، وسيكره لقاءك كلما حاولت أن تلقاه ؛ لأنه يكره أن يتحدث إليك من أمر ابن عبد المطلب بقليل أو كثير ، فلم يؤذن له بعد في الحديث عن هذا الأمر » .

قال عمرو وقد أدركه دهش كاد يخرجه عن طوره : « ومن الذي يستطيع أن يأذن لورقة أو لا يأذن له ؟ » .

قال الشيخ : « ما أدري ! ولكن أمر ابن عبد المطلب سيظل سرّاً خفياً حيناً من الدهر ، لا يباديكم به ولكنه يهيىء لكم في أثناء ذلك شر ما تكرهون » .

قال عمرو : « ماذا يهيىء لنا ؟ » . قال الشيخ وهو يقدّم القدح إلى الفتى : « تريد أن تعرف ماذا يهيىء لكم ؟ سيُلقي في قلوب الذين يتبعونه أن لهم إلهاً غير آلهتكم لا يراه أحد ولا يحسه أحد وهو مع ذلك في كل مكان وفي كل قلب وسيلقي اليهم أن آلهتكم كلها باطل من الباطل لا تملك لنفسها ولا لكم خيراً ولا شرّاً » .

قال عمرو : « والله ما أكره من ذلك شيئاً » . قال الشيخ «وسيُلقي إليهم أن ليس بين الناس قوي ولا ضعيف ، وأن ليس بينهم شريف ولا وضيع ، وأن ليس بينهم سيد ولا مسود ، وأنهم جميعاً سواء كأسنان المشط قد خُلقوا من التراب وإلى التراب يعودون ، وأن ما بينهم من اختلاف المنازل وتفاوت المراتب وتباين الطبقات

ظلمٌ يجب أن يرفع وباطل يجب أن يزال ».

قال عمرو : « إني لأرى في هذا شيئاً من حق ، ولكن نفسي تكرهه وتنبو عنه ».

قال الشيخ وهو يقدّم إليه القدح : « اشرب أبا الحكم ! فلا بدّ من أن نستنفد ما في الزق » . ثم استأنف حديثه فقال : « سيُلقي اليهم أن الناس جميعاً سواء لا يتفاوتون في الدنيا وانما يتفاوتون في الآخرة بما يقدّمون بين أيديهم من العمل، فمن عمل صالحاً فله جنة لا أدري ما هي ، ومن عمل سيئاً فله نار لا أدري ما هي » . قال عمرو وقد رفع القدح إلى فمه فشرب منه: « وما الآخرة هذه التي تحدثني عنها ؟ ».

قال الشيخ وهو يصبّ في القدح ليملأه : « حياة يزعم ابن عبد المطلب أنها كائنة بعد الموت ، وأنها لا آخر لها » .

قال عمرو وقد عبّ في القدح عبّاً شديداً ، وقدحت عيناه شيئاً كأنه الشرر ، وغَشِيَ وجهه شيء كأنه اللهب ، وانبعث من فمه ضحك قبيح : « حياة بعد الموت لا آخر لها ! هلمّ أبا مرّة اسقني من خمرك هذه التي كأنها النار ، أو من نارك هذه التي كأنها الخمر . حياة بعد الموت لا آخر لها ! لن تخرج بزقّك وفيه قطرة من شراب . حياة بعد الموت لا آخر لها ! حياة بعد أن نصبح تراباً تذروه الريح ! » .

قال الشيخ وهو يصب في القدح ليملأه : « اشرب أبا الحكم فإنك لا تشرب خمراً ولا ناراً ، وإنما تشرب بغضاً مذاباً . فأمّا في حياتكم هذه الأولى فأنتم وعبيدكم وإماؤكم سواء ، ليس لكم عليهم فضل . وأما في حياتكم تلك الثانية فقد تُلقَوْن أنتم في النار تُصْهَرُ جلودكم وتُحرَق وجوهكم ، ويدخل عبيدكم وإماؤكم الجنة ينعمون فيها بالطيبات وأنتم ترون ! تستسقونهم قطرة من ماء فلا يجودون بها عليكم لأنكم نعمتم في حياتكم الأولى ، فيجب أن تشقوا وتبتئسوا في حياتكم الآخرة ، ولأنهم شقوا وابتأسوا في حياتهم الأولى فيجب أن ينعموا ويبتهجوا في حياتهم الآخرة. توشك أن تسمع ذلك أبا الحكم ممن في دارك ودار أصحابك من الرقيق » .

قال عمرو : « وإن محمداً ليقول هذا للناس ؟ ! » .

قال الشيخ : « نعم ! إنه ليقول للناس ، وإن الناس ليسمعون منه ويؤمنون له ويكاثرون من حوله . وإن شئت فاغدُ الى ابن أبي قُحافة فسَلْه عن ذلك ، وإن شئت فاغدُ الى زيد بن محمد فسَلْهُ عن ذلك، وإن شئت فاغدُ الى هذا الصبيّ عليّ بن أبي طالب فسَلْه عن ذلك ، فسينبئونك جميعاً بأكثر مما أنبأتك به » .

قال عمرو : « ومن أين لمحمد هذا الحديث ؟ » .

قال الشيخ في صوت يضطرب اضطراباً فيه الغيظ والخوف معاً : « يزعم أن هذا الحديث يأتيه من السماء ، ينزل عليه به الملك فيُلقيه إليه في كلام غريب ، يشبه الشعر وما هو بالشعر ، ويشبه السجع وما هو بالسجع » . قال عمرو : « فاقرأ عليّ بعضه » .

ولم يكد الشيخ يسمع هذه الكلمة من عمرو حتى تضاءل وتضاءل ، واربدّ وجهه وأخذته رعدة منكرة ، وقال في صوت مضطرب بلسان لا يكاد يُبين : « كلا ! كلا ! لا تطلب إليّ ذلك ، فما ينبغي لي أن أقرأه » .

قال عمرو : « ويلك ! ماذا أصابك ؟ » .

قال الشيخ : « دعني ! دعني ! واشرب حتى تُفرغ ما في هذا القدح ؛ فقد أعلمتك من أمر ابن عبد المطلب ما كان ينبغي أن تعلم ، وما زلت تجهل أكثره ؛ لأن أمر ابن عبد المطلب لم يتجاوز أوائله بعدُ » .

قال عمرو : « وهل تنزل الملائكة من السماء وتُلقي الى الناس أخبارها ؟ » .

قال الشيخ : « محمد يزعم ذلك ، ويزعمه كذلك نسطاس وورقة بن نوفل ، ومن قبلهم زعمه أهل الكتاب » .

قال عمرو وهو يعبّ في القدح عبّاً شديداً : « وما بال السماء لم تختر لأمرها غير محمد ؟! أليس في قريش إلا محمد ! »

قال الشيخ وهو يبتسم ابتسامة منكرة : « كلا ! ليس في قريش غير محمد ، ليس فيها الوليد ابن المغيرة ، وليس فيها أمية بن خلف ، وليس فيها عُتبة بن ربيعة ولا شيبة بن ربيعة ، وليس فيها ابو الحكم عمرو بن هشام فتى مخزوم وسيدها ! » .

قال عمرو وقد ظهر في وجهه غيظ شديد : « أما إذا قلت ذلك فان مخزوماً كلها لتبغض هاشماً كلها ، وقد كنت أنقم من بني أمية تكلفهم وأنفس عليهم جِدّهم في تجارة قريش وحرصهم على سيادتهم ؛ فأما الآن فلا والله ما أبغض أحداً كما ابغض بني هاشم ، ولا أجد من الضّغن على أحد كما أجد على فتاهم هذا الذي يسمونه الأمين! »

قال الشيخ في صوت فاتر متكسر : « هوّن عليك أبا الحكم ! فانك لم تَبلُ من بغض هؤلاء الناس إلا أهونه وأيسره ، ولتبلغن العداوة بينك وبينهم أقصاها . فاذا بلغت ذلك فاذكر ان صديقك أبا مرة ليس منك ببعيد ، وأن زقه ما زال رويّاً يُسبأ للذات في كل يوم ، كما قال امرؤ القيس » . ثم سكت قليلا ، ثم استأنف حديثه في صوت ضئيل : « قد أوشك الليل أن ينقضي أبا الحكم ، وآذن الصبح بإسفاره ،

فعد الى اهلك فقد شققنا عليهم ، ولكنهم لم يعلموا من سهرنا ولا من سمرنا شيئاً » .

قال عمرو : « لم يعلموا من سهرنا ولا من سمرنا شيئاً ! اسقني أبا مرة ! فقد حرّمت عليّ النوم من ليلتي هذه » . ولكن أبا مرة لم يسقه ولم يجبه . وينظر عمرو فلا يرى احداً ، فينهض متثاقلاً وهو يقول : « لم يعلموا من سهرنا ولا من سمرنا شيئاً ! » .

- ٦ -

وأصبحت قريش فاجتمعت في أنديتها حول البيت كدأبها في كل يوم . وإنهم لفي أحاديثهم وإذا قائل منهم يقول : « انظروا يا معشر قريش هـــذا والله العجب » . فينظرون فلا يروعهم إلا الوليد بن المغيرة قد أقبل يتوكأ على ابن أخيه عمرو بن هشام باسماً له متحدثاً إليه . يقـول بعض قريش لبعض : والله إن للوليد بن المغيرة لشأناً ، ما علمناه إلا عنيف الغضب إذا غضب ، بطيء الرضى إذا رضي : عنيداً إذا خاصم ، وما علمنا ابن أخيه عمراً إلا مثله أنفة وكبرياء ، وقد باعد بينهما ما رأينـا وسمعنا من ذلك الخلاف والحوار ، حتى قال الوليد لابن أخيه إنه ابن سَوْء ، فماذا قرّب بينهما؟ وأيهما سعى إلى صاحبه ؟

قال شيبة بن ربيعة : « ما أحسب إلا أن الشيخ هو الذي تقرّب إلى ابن أخيه ، وقـد رأيت أحد غلمانه يُـلمّ بنا في بعض مجالسنا فيلقي في أذن أبي الحكم حديثاً قصيراً ثم ينصرف » .

وكانت قريش تتحدث بهذه الألفة بين الرجلين على حين كان الوليد وابن أخيـه يطوفان بالبيت . وكان الوليد يطوف كما تعوّد غير آبه ولا مكترث ، وإنما هو عبء يُلقيه على نفسه كعادة الملأ من قريش إذا غدوا على أنديتهم بالمسجد من كل يوم . ولكن عمراً كان يطوف في هيئة لفتت إليه أشراف قومه ، فيها كثير من الاجتهاد والاحتفال وفيها كثير من التواضع والتضاؤل ، وقد ظهر على وجه الفتى شيء من الإيمان بمـا كان يفعل والصدق فيه ، حتى قال بعض قريش لبعض : « والله لقـد دعا أبو الحكم إلى سنّة قومه واجتهد فيها ، وما نرى إلا أن قد ذهب عنـه ما ألفنا عنده من السخرية بكل شيء والازدراء لكل شيء » .

حتى إذا فرغ الرجلان من طوافهما أقبلا فسلما وجلسا ، ولم يجرؤ احد ان يدخل

فيما كان بينهما من نفور ، وفيما استأنفا من تواصل ومودة ، وإنما اخذوا في المألوف من احاديثهما كأن لم يكن بينهم شيء . حتى اقبل النضر بن الحارث مهرولاً ، فطاف بالبيت عجلاً اشد العجلة ، حتى لاحظ الملأ ذلك ، فقال بعضهم لبعض : إن النضر اليوم لحديثاً يريد ان يُلقيه الينا ، ألا ترونه يعجل بطوافه اشد العجلة ! وقد كان للنضر حديث يريد ان يُلقيه اليهم حقاً ، فما كاد يفرغ من طوافه حتى اقبل اليهم مسرعاً ، فسلم واخذ مجلسه . وابتدره عمرو بن هشام قائلاً في دعابة حلوة : « ما وراءك يا نضر ؟ هات فوالله ان لديك حديثاً تريد ان تلقيه الينا » .

قال النضر : « واي حديث ! الم تعلموا ان قد حدث لبني عبد المطلب شأن ؟! » قال الوليد : « ومـا ذاك ؟ » . قال النضر وهو يضحك : « ظهر فيهم نبيّ هذه الأمة يتلقى أخبار السماء فيبلغها إلى الناس » . قال عمرو بن هشام مسرعاً : « وهذا النبي هو محمد ؟! » . قال النضر : « هو محمد والله ! لقد كنا نعجب لما كان يُروَى لنا من أخبار عبد المطلب حين أُمِر في المنام أن يحتفر زمزم وحين خاصم قومه فيها ففُجِّر له الماء تفجيراً ، وحين قام مقامه من صاحب الفيل ، وحين فادى بابنه ذاك فداءه المعروف . ووالله لقد كنا نَعجبُ لما كان الناس يحدّثوننا به من أمر حفيده محمد بن عبد الله ذاك الذي فودي به فلم يمهله الموت في مكة إلا ليدركه في يثرب مُنصرَفه من الشام ؛ فقد كانوا يحدثوننا عن هذا الفتى بالعجب من الحديث حين كان صبيّاً يُنشَّأ، وحين كان غلاماً يشبّ ، وحين كان فتى يستكمل رجولته وقوته ، ولقد كنا نحبه ونُكرمه ونُؤثره بخير ما عندنا من المودة والمعروف ، حتى سميناه الأمين ورجعنا إليه في كل ما كان يَحزُبنا من الأمر . وما أرى إلا أنا قد أغريناه وأبطرناه ، فهو الآن يستأنف سيرة جَده عبد المطلب ولا يدعُ الناس يتحدثون عنه بالأعاجيب، بل يتحدث هو بها عن نفسه ، فيزعم أن الملائكة تتنزل عليه بأحاديث السماء ، وأنه قد أُمِر أن يبلغ هذه الأحاديث إلى الناس ويدعوهم إلى بِدَع من الأمر والله ما سمعنا به في آبائنا الأولين » .

قال عمرو بن هشام وقد ظهر في وجهه غيظ شديد : « إيه ! وربّ هذه البنيّة[1] لقد أغريتموه وأبطرتموه . وما أكثر من تُغرون ومن تُبطرون ! وما أرى إلا أنكم ستلقون من هذا كله شططاً . أفلمْ أكن أحدثكم منذ أيام يا شيبة بن ربيعة بأمر نسطاس وأمثاله من هؤلاء الأعاجم الذين تمدّون لهم أسباب العيش ، وتيسرون

(١) البنية : الكعبة .

لهم ما تعــّرون على غيرهم من العرب ؟! ألم أكن أذكر لكم أن هؤلاء الأعاجم ما هم إلا عيون قيصر علينا ، يفدون علينا تجاراً ، ويقيمون بين أظهرنا أحراراً ، يقولون لنا ويسمعون منا ، ويذيعون فينا البدع ، ويكيدون لنـا الكيد ، ثم ينصرفون عنا وقد أخذوا من أموالنا مـا أرادوا ، وعلموا من أمرنا ما أحبوا ، وأذاعوا فينا من مذاهبهم وآرائهم ما لا عهد لنا به ؟! فهؤلاء هم الذين أفسدوا علينا زيد بن عمرو ، وورقة بن نوفل وغيرهما من كرام قومنا . وما محمد إلا أحد هؤلاء » .

قال الوليد بن المغيرة : على رِسْلك يا ابن أخي ! إنك لمجتهد في النعي على هؤلاء الروم ، ولقد كنتَ أشدنا لهم معاشرة ، وأكثرنا لهم مخالطة . ولقد نهيتك عنهم وعن نسطاس منهم خاصة ، فلم أكن أرى منك إلا نأياً وازوراراً . ولا والله ما أعلم أن محمداً كان يختلف إلى نسطاس أو إلى أشباه نسطاس، كما كنتم تختلفون إليه وكما تختلفون إلى أمثاله من تجار الروم ، وما علمت من امره إلا خيراً . انه لأفضل قومه مروءة ، واحسنهم خُلقاً ، واكرمهم مخالطة ، واحسنهم جواراً ، واعظمهم حلـماً وامانة ، واصدقهم حديثاً ، وابعدهم من الفحش والأذى ، وما رُئي مُلاحياً ولا ممارياً احداً ، حتى سميناه الأمين لمّا تبينا فيه هذه الخصال . فإن كان قد جاء بما يحدثنا النضر انه قد جاء به ، فلا أحب أن عجلَ في أمره . وما أظن أنه يريد أن يُدخل على قومه سوءاً . وإنّه لأبرّ الناس بقومه ، وأوصلهم رحماً ، وأقربهم لهم مودة ، فاستبينوا أمره قبل أن تقولوا فيه بما لا تعلمون » .

قال عتبة بن ربيعة : « وكيف علمتَ ما علمتَ من أمره يا نضر ؟ » .

قال النضر : « علمتُ ذلك من بعض الذين صبَوْا إليه واستجابوا له . ألم يحدثني أخو جُمَح عـثمان بن مظعون أنه قد جلس إليه ، فبينا هو جالس معه إذ رآه يرفع رأسه إلى السماء ثم ينحرف عنه ساعة ثم يعود إليه . فلما أنكر عليه ذلك قال له : إن الملك قد نزل عليّ من السماء فأوحى إليّ أمر الله . فلما سأله عن أمر الله هذا ، تلا هذا الكلام الذي حفظه عثمان واستجاب له ، وحفظته أنا ولم أستجب له ، ولكنّ في نفسي منه شيئاً » .

قال عمرو بن هشام ، وقد ذكر في سرعة غريبة أن صاحبه أبا مرة لم يستطع أن يتلو عليه شيئاً مما كان يوحَى إلى محمد ، وإنما عجز عن ذلك وتضاءل له وأدركه منه رعب شديد — قال عمرو بن هشام : « فاقرأ علينا يا نضر ما سمعت وحفظت » . فتلا النضر هذه الآية : (إنّ الله يأمرُ بالعدْل والإحْسان وإيتاء ذي القرْبَى وَيَنهَى

عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) . قال الوليد وقد سمع القوم فأعجبوا وأطرقوا برؤوسهم إلى الأرض : « صدق والله محمد وبرّ . أقسم ما جاء قومه إلا بخير . ماذا تنكرون من هـــذا ؟ وهل فينا من لا يحب العدل والإحسان ! وهل فينا من يكره إيتاء ذي القربى ! وهل فينا من يحب الفحشاء والبغي !! أمــا والله لو جاء محمد قومه بمثل هذا دائمـــاً لكان أعطف قومه عليهم وأرأفهم بهم وأهداهم إلى سبيل الخير » .

قال عمرو بن هشام في شيء من الحدّة يريد أن يكظمه : « ويحك يا عم ! لقــد كنت تأمرنا آنفاً ألا نعجل في أمر محمد حتى نستبينه ، فـإني أراك تعجل في أمره قبل أن تستبينه ! إنك لم تسمع من أمره إلا ما حدثنا به النضر ، ولو قد سمعت من أمره ما سمعت أنا لقلت فيه غير ما تقول الآن » .

قال الوليد : « ماذا سمعت يا ابن أخي ؟» . قال عمرو : سمعت أنه جاء بمايفرّق به بين المرء وزوجه ، وما يفرق به بين الأب وابنه ، وما يفرّق به بين المرء وأخيه ، جاء بالمساواة بين السيد والعبد ، وبين القوي والضعيف ، وبين الغني والمعدم ، بل جاء بما يُلقي في روع الضعفاء والأذلة من الناس أنهم خير من ساداتهم وأرفع منهم عند الله مكاناً ، بل جاء بما يُلقي في روع الناس أن ليس لهم إلا إله واحد يجب ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وان آلهتنا هؤلاء الذين هم وسطاؤنا عند الله باطل لا يملكون لأنفسهم ولا يملكون لنا نفعاً ولا ضراً . افيعجبك هذا يا عم ؟ ! » .

قال الوليد وقد ملكه رعب شديد شاع في غيره من الملأ وقد رفع يديه فجعلهما امام وجهه كأنما يحتمي بهما من هول ما سمع : « اما هذا فلا » يقولها ثلاثاً ، ويقولها الملأ معه كلما قالها .

قال النضر : « فروا رأيكم يا معشر قريش ! فقـــد جاءكم ابن عبد المطلب بأمر عظيم » .

قال عمرو بن هشام : « وأي رأي تريد أن نرى ؟ إنه والله الهول ، فان لم نغلبه غلبنا . والله لنأخذنّ عليه الطريق ، ولنسدن عليه المسالك ، ولنحمين منه دين قريش وسلطانها وسيادتها على العرب» .

قال الوليد : « هو ذاك يا ابن أخي ، ولكن لا تعجلوا على صاحبكم وانتظروا به حتى يبين لكم أمره جلياً » .

قال عمرو : « ننتظر به حتى يفسد علينا أمرنا ، وحتى نحاول الإصلاح فلا نجد

إليه سبيلا ! لا والله لا نَظِرةَ ولا إمهال ، وإنما هو السعي والاستقصاء منذ الآن ، والسؤال عن أمر محمد عند من عرفه من قريب ومن عرفه من بعيد ، ومن يلوذ به من أتباعه إن كان له أتباع ، ومن يحفُّ به من بني هاشم » .

قال القوم في صوت رجل واحد : « هذا والله الرأي يا أبا الحكم لا أرى غيره ، لنسعينّ ولنستقصينّ ، ولنسألنّ عن أمر محمد القريب والبعيد».

وتفرق القوم في صدر كل واحد منهم همّ ثقيل . ولا يكاد عمرو بن هشام يبعد عن المسجد قليلاً حتى يرى حليفه ذاك الأعرابي فجأة ، لا يدري أنَجَم له من الأرض أم هبط عليه من الجو ، ولكنه يراه قد وضع يده على كتفه وهو يقول :«ورَيَت[1] بك زنادي سُدتَ قومك وملكت أمرهم ، فلن يخالفوك في شيء منذ اليوم».

- ٧ -

وأقام رسول الله في قومه دهراً لا يعرض لهم بشيء يكرهونه ، ولا يلقونه بشيء ينكره ، وإنما يدعوهم إلى كلمة الحق ، ويذيع فيهم البر والمعروف ، ولا يجلس إلى أحد منهم الا قال له خيراً أو دعاه الى خير ، وقريش ترى منه ذلك ، فتحمد حبه للعافية ، وسعيه بالخير، ولقاءه للناس بما يرضون . وقريش تسمع دعوته الى الله،وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فيستجيب له من أشرافها القليلون ، ويستجيب له الكثيرون من الفقراء والمستضعفين وأهل البؤس والضر . وهو يسوي بين اولئك وهؤلاء في حبه لهم وبرّه بهم وعطفه عليهم، لا يفرّق منهم بين الغني والفقير ولا بين ذي النفر والقوة ومن لا عون له ولا ظهير ، انما هم جميعاً اخوانه وابناؤه ، قد احبهم في الله والخير، وأحبوه في الله والخير . والملأ من قريش يرون ذلك فيعرفون بعضه وينكرون بعضه: يعرفون دعوته الى البر والمعروف،وسعيه بين الناس بالخير،ويعرفون أنه لا يؤذيهم ولا يريدهم بسوء،ولكنهم ينكرون ايثاره للصغار والبائسين وتتبعه لهم بالود والبرّ والتكرمة،ويقول بعضهم لبعض: لئن اتصل هذا من محمد ليَفسِدنّ علينا الناس، وليُطمِعنّ فينا ضعفاءهم، وليُصبحن أحدنا فإذا عبيده وإماؤه وأتباعه ومواليه يطلبون إليه أن يلقاهم من الخير والبر والمساواة بمثل ما يلقاهم به محمد ، ويومئذ لا يستقيم لقريش أمر . ثم يقول بعضهم

---

(١) ورت الزناد وريت: اتقدت وخرجت نارها . وتقول لمن أعانك ونصرك : «وريت بك زنادي».

لبعض : ولـكن محمداً لم يَبغِكم شرّاً ، ولم يقدّم إليكم مساءة في عادة أو دين ، إنما هو يأتي المسجد كما تأتونه ، ويطوف بالبيت كما تطوفون به ، ويسعى في أمره كما تسعون في أموركم ، ولكن له مع ربه ومع الناس مذاهب لا تذهبونها ، وسيرة لا تسيرونها ، فلا سبيل لكم عليه حتى يباديكم بما تكرهون . فيغيظ ذلك منهم عمرو ابن هشام ويلقاهم بالشدة والحدة والمنكر من القول ، يقول : « والله يا معشر قريش إنه للعجز ، وإنكم لتخافون من ظلالكم . انكم لتكرهون من محمد مثل ما أكره ، ولكنكم تخـافون أن تُبادوه بما في نفوسكم فيباديكم بما في نفسه ، فيظهر الشر بينكم وبينه ، ويغضب له بنو هاشم وبنو عبد مناف ، فتكون الحرب . وما عرفت أبغض منكم للحرب ، وما أشد منكم لها تهيباً ومنها إشفاقاً » .

يقول قومه : « لا تجهل ابا الحكم ! فما عرفناك جهولاً ، وما علمنا أن بينك وبين محمد شرّاً » . فيجيب : « واللات والعزى ما أنا بالجهول ! ولقد أسرفت على نفسي كما أسرفتم على أنفسكم في الحلم ، وإن بيني وبين محمد للشرّ كل الشر ، وإن بينكم وبينه للشر كل الشر ، ولكنني أرى ما لا ترون ، وأعلم ما لا تعلمون » .

فيضحك عمه الوليد بن المغيرة ويقول : « ويح قريش من هذين الفتيين ! أحدهما يأتيها بأخبار السماء ، والآخر يرى ما لا ترى ويعلم ما لا تعلم . والله ما أدري مـاذا ألمّ بهذا الحرم وقد كان آمناً ! » .

وفي ذات يوم امتلأت مكة بحديث كان له في قلوب الناس جميعاً وقع غريب ؛ فقد تحدثوا أن رسول الله خرج من صمته ودعا اليه أشراف قريش ، فلما اجتمعوا اليه عرض عليهم ديناً جديداً فيه التوحيد ، ووعدهم إن سمعوا له واستجابوا لدعوته أن يكون لهم شرف الدنيا والآخرة ، وأنذرهم إن أبَوْا عليه وأعرضوا عن دعوته ان يستقبلوا عذاباً مبيناً مهيناً يَلقوْنَ صدْراً منه في حياتهم الأولى ، ثم يخلدون فيه بعد الموت الى غير غاية ولا امد . وتحدّثت قريش بأن عمه ابا لهب كان اول من ردّ عليـه فكذّبه وآذاه ، وتفرّق الناس عنه ولم يقل له احد غير عمه شيئاً .

تحدّثت بذلك قريش نهارها كله وشطراً من ليلها ، ثم اصبحت فتحدثت به ، ثم امست فخاضت فيه ، ثم جعلت لا تصبح ولا تمسي إلا كان محمد لها حديثاً . وجعل عمرو بن هشام يُـلمّ بأندية قريش في المسجد وبمجالسهم في الدّور والمتاجر ، ويخرج الى الظواهر فيـلمّ بأندية البادين منهم ، يقول لأولئك وهؤلاء : « أترون يا معشر قريش الى محمد وقـد القى القناع ، ودعاكم جهرةً الى ما كان يدعوكم اليه سرّاً ؟ !

وإني احلف باللات والعزّى لو اخفتموه حين كان يذيع مقالته فيكم خفية لما اجترأ على ان يفجأ الملأ منكم بما فجأكم فيه ، فخذوا حذركم وروّا رأيكم ، واجتهدوا لأنفسكم . فكأني بمحمد قد افسد عليكم ضعاف الناس في مكة ، وكأني به قد أفسد عليكم العرب وأغراهم بكم وأطمعهم فيكم . وايْـــمُ الله لَتقتلُنّ محمداً أو لَيقتلنكمْ جميعاً » .

فيجيبه اشراف الناس وذوو الأسنان والمكانة فيهم :

« ان ما تقوله لحقٌ يا أبا الحكم ، ولكن الأمور لا تؤتى بهذا العنف ولا تعالج بهذه العجلة . ان لمحمد فينا لمكانة وشرفاً ، وان له من قومه لعزّاً ومَنعةً ، وان لبني هاشم وبني عبد مناف لبأساً وقوة ، فما ينبغي أن نعرض لمحمد بمكروه حتى نُعذِرَ فيه ، وما نحب أن تسفك قريش دماءها بأيديها ، وانما ندعو محمداً فنقول له ونسمع منه لعلنا نصرفه عن هـــذا الذي هو ماض فيه ، فإن لم يقبل منا رأينا فيه رأينا » .

فيرفع عمرو بن هشام كتفيه ساخراً ، ويهزّ رأسه مستهزئـــاً ويقول : « شيوخ قريش وذوو الأسنان والأحلام فيها ! ويلٌ لقريش من الأسنان والأحلام ! » . فلما أكثر من ذلك وأثقل على عمه الوليد وعلى مشيخة قريش قال له عمه : « على رِسْلك يا ابن أخي ! انك لتتمادى في الجهل من يوم الى يوم ، وان وجهكَ هذا الرائع، ولسانك هذا الذَّرِب الفصيح لن يغنيا عن قريش شيئاً اذا قطعت أرحامها وسفكت دماءها ، ولم ترعَ لهذا البيت مكانه ، ولا لهذا الحرم حقه » .

ثم اجتمع الملأ من قريش فدعوْا رسول الله اليهم ، فلما جاءهم قالوا له فأكثروا القول ، عرضوا عليه المال فردّ عليهم المال ، وعرضوا عليـــه الشرف والسيادة فرد عليهم الشرف والسيادة ، وعرضوا عليه الملك والسلطان فردّ عليهم الملك والسلطان ، وعرضوا عليه الطب ان كان مريضاً فرد عليهم الطب وقال : ما أنا بمريض . ثم قال لهم رسول الله فدعاهم الى الله ، وحبب اليهم الخير ، وزيّن لهم البر ، وبين لهم أن آلهتهم لا تغني عنهم من الله شيئاً ، ووعدهم شرفَ الدنيا والآخرة ان صدّقوه ، وانذرهم خزي الدنيا والآخرة ان كذّبوه ، فتفرّقوا عنه ولم يظفروا منه بشيء ، ولم يظفر منهم بشيء ، ولكنهم انصرفوا عنه وفي قلوبهم من الخوف والفرَق ما لا يكادون يخفونه ، وانصرف عنهم وفي نفسه من الثقة واليقين ما يملأ قلبه ايماناً وتثبيتاً .

واستأنف عمرو بن هشام سعيه فيهم والحاحه عليهم ، يغريهم بمحمـــد مجتمعين ،

ويغريهم به متفرقين ، يسعى اليهم في انديتهم ويلمّ بهم في بيوتهم فيناجيهم في بغض محمد ويخوّفهم منه ويؤلّبهم عليه ، وابو مرّة من ورائه يُقوّيه ويَشدّ أزْرَه، ويساقيه البغض والحسد لمحمد حين يخلوان اذا تقدّم الليل . حتى زار ذات يوم امية بن خلف فرآه محزوناً مكروباً ، قال:« ويحك ابا علي ! اني لأراك كاسف البال كئيب النفس».

قال امية : « ان كنتَ لصادقاً يا ابا الحكم في كل ما خوفتنا من محمد وما صوّرت لنا من امره » .

قال عمرو وهو يبتسم : « وما ذاك يا ابا علي ؟ » . قال امية : « لقد دخل بيتي من محمد شرّ » . قال عمرو وهو يضحك : « اوَ اصابك الخبث ؟ » . قال : « نعم ! هذا عبدمن عبيدي بلالَ ابن رَباح تَبع محمداً فهو يصلي مع محمد ، ويدعو بدعوته ويعتلّ عليّ فيما لم يكن يعتلّ عليّ في مثله من قبل ، ويوشك أن يُفسد عليَّ رفيقي كلهم إن استأنيت به » .

قال عمرو : « ولمَ تستأني به ؟ » . قال أمية : « إنها الرحمة والبقيا يا أبا الحكم ، فما تعودت قتل الرقيق . وإني لأرجو أن استصلحه فيعود عليَّ منه نفع » .

قال عمرو : « لا تقتله ولكن عذبه حتى يثوبَ الى ما تحب ، وحتى يكون مثلاً لغيره من غلمانك وإمائك ومواليك » .

ومنذ ذلك اليوم بدأت محنة بلال رحمه الله ، فسامه أمية من العذاب ألواناً وألواناً ، وكان يأتي به في اليوم القائظ وقد أجاعه وأظمأه حتى يكاد يهلك فيلقيه على الأرض قد قيّد وشوت يداه الى ظهره ، ويعمد الى الحجر الضخم الثقيل فيضعه على صدره ويقول : لتهلكنّ أو لترفضنّ ما تابعت محمداً عليه . فلا يزيد بلالٌ على أن يقول : « أحدٌ ! أحد ! » . حتى مر أبو بكر رحمه الله بأمية ذات يوم وهو يصنع ببلال ذلك ، فرقّ أبو بكر ، وكان رقيقاً ، ونهى أميــة فلم ينته ، فاشترى بلالاً واعتقه . وسنّ أبو بكر هذه السنّة . فكان بينه وبين عمرو بن هشام صراع رائع حقاً ، يغري عمرو بن هشام سادة قريش بتعذيب من يسلم من رقيقهم ،ويعلم أبو بكر ذلك فيسعى في شراء هؤلاء الرقيق وإعتاقهم ليعبدوا الله أحراراً ، حتى أنفق في ذلك صفوة ماله وكان غنياً .

وقد رأى عمرو بن هشام أن تعذيب الرقيق يسوء محمداً وأصحابه ، ولكنه لا يمنع كلمة الله أن تنتشر ، ولا دين الله أن يظهر ، فأخذ يغري أشراف قريش بفتنة الأحرار من المسلمين وتعذيبهم ، حتى يرجعوا عن دينهم ، وحتى يكونه مثلاً يخوفون

بهم غيرهم من الناس . ولكن هذه الفتنة وإن شقّت على محمد وعلى اصحابه لم تمنع كلمة الله أن تنتشر ، ولا دين الله ان يظهر . وجعلت الأمور تجري في مكة على هذا النحو ، يشتد عمرو بن هشام وأضرابه في إيذاء محمد وأصحابه والإغراء بهم ، فلا يزيد ذلك كلمة الله إلا انتشاراً ، ولا يزيد ذلك دين الله إلا ظهوراً . وقد عرف الناس في تاريخهم كله أن لن يُخدَمَ رأي ولا دين بمثل اضطهاد أصحابه وفتنهم .. وقد كثر أصحاب محمد من الرجال والنساء ، من الاغنياء والفقراء ، من الأحرار والرقيق ، وقد ائتلفوا حوله يلقاهم مصبحاً وممسياً ، فيدعوهم ويعلمهم ويبشرهم ، وينذرهم ، يجتمعون حوله مخلصين له مصدقين لما جاء ، ويتفرقون عنه داعين الى ما يدعو اليه من الخير ، ثم يعودون اليه وقد زاد عددهم الرجلَ أو الرجالَ . وعمرو بن هشام لا يزداد لذلك إلا غيظاً ، حتى ساء خلقه وقبحت سيرته واستهترَ بالدعوة الى الفتنة والإغراق فيها ، فعرف بين المسلمين بأبي جهل ، لأنه صورة للجهل والحق والغضب الذي لا يبقي على شيء . وكان أبو جهل مع ذلك جباناً رِعْديداً إذا اتصلت أسبابه بأسباب محمد من قريب او بعيد . كان يبغض محمداً بغضاً مروعاً لم يعرف الناس مثله ، وكان يخاف محمداً خوفاً يضحك منه أحب الناس له وأعطفهم عليه . وكان أبو جهل على ذلك كله قد حُرم التوفيق في كل ما كان يأتي من الأمر ، لحكمة أرادها الله وأمرٍ قدّره ؛ فكان يقدم على الأمر يظن أن فيه الإيذاء لمحمد والنيل منه والغض من قدره والصدّ عن سبيله ، فلا يكاد يأتي ما يأتي حتى ينقلب عمله خيراً لمحمد . لقي محمداً ذات يوم فأفحش له بالقول وآذاه في نفسه إيذاء شديداً ، وانصرف عنه رسول الله لم يقل له شيئاً : لأن الله قد أدّبه بأن يأخذ العفو ويأمر بالعرف ويُعرض عن الجاهلين . وشهدت ذلك مولاة لعبد الله بن جُدعان ، فأنبأت به حمزة بن عبد المطلب مَرْجِعَه من الصيد ، فحَمِيَ حمزة لما سمع ، ومضى الى المسجد حتى غشيَ أبا جهل في نادٍ من أندية قريش فضربه بقوسه فشجه شجّة فاحشة . وهمّت مخزوم أن تغضب لفتاها ، فيقول أبو جهل لقومه مستخذياً : « دعوا أبا عمارة فقد أفحشت لابن أخيه » . وينصرف حمزة من ساعته فيأتي ابن اخيه محمداً فيسلم ويصبح أسدَ الله .

ولم يُنكَبْ ابو جهل في تلك الأعوام بمثل نكبته في ابن اخته حنتمة بنت هشام ؛ فقد كان عمر بن الخطاب فتىً أروع من فتيان قريش ، فيه شدة لم تعرف قريش مثلها إلا في خاله عمرو ، وكان يمالىء خاله ممالأة شديدة ، فيغري بالمسلمين ويشتد عليهم ، حتى خرج ذات يوم متوشحاً سيفه يريد أن يبطش بمحمد نفسه ؛ ولكنه يعلم في

طريقه إلى محمد ان الإسلام قد دخل داره ، وان اخته قد اسلمت ، فيعدل الى اخته فيبطش بها حتى يسيل الدم من وجهها ؛ ثم تأخذه الرحمة فيرق لأخته ويلطف لها حتى تقرئه بعض ما كان يتلى عندها من القرآن . فلا يكاد يقرؤه حتى يدخل الإيمان في قلبه ، وإذا هو يسعى الى محمد فيسلم ، ثم ينصرف الى خاله فيطرق عليه بابه . فإذا رآه خاله رحب به ترحيب المحب لابن اخته الممالىء له على اعداء قريش . ولكن عمر ينبىء خاله بأنه قد جاء يعلن اليه انه قد شهد ان لا إله الا الله وان محمداً رسول الله ، فيرده ابو جهل أقبح رد ، ويضيق بما اصابه فيه اشد الضيق . وقد سبق النبأ باسلام عمر الى المسجد ، فتعلم به اندية قريش فيروعها ما تعلم من ذلك . ويأتي عمر فينهض له القوم يساورونه ويساورهم ويقاتلونه ويقاتلهم ، حتى صلى وصلى بعده المسلمون جهاراً .

واشتد امر المسلمين على قريش ، واشتد امر قريش على المسلمين ، حتى اذن النبي لأصحابه في الهجرة ، فهاجر فريق منهم الى ارض الحبشة حيث استطاعوا ان يعبدوا الله احراراً ، واقام الآخرون يدعون الى الله بين اظهر قريش يلقون في ذلك من الشدة والعنت ما يلقون . وخلا ابو جهل الى صديقه ابو مرة ذات ليلة يتساقيان البغض والحسد لمحمد كما كانا يصنعان ، ويستقصيان ما بلغت بهما خصومتهما لمحمد واصحابه ، فيقول ابو جهل لصاحبه : « احلف باللات والعزى ما بلغنا من ابن عبد المطلب واصحابه شيئاً ، نفتنهم في انفسهم واجسادهم واموالهم فلا تزداد دعوتهم إلا انتشاراً ، ولا يزداد امرهم الا ظهوراً . إن اتباع محمد ليكثرون بين أظهرنا ؛ وهذا دينهم قد خرج من مكة فاستقر في أرض الحبشة، ووجد أصحاب محمد هنالك عزاً ومنعة وجواراً . »

قال أبو مرة وهو يقدم القدح الى عمرو: « اشرب ابا الحكم وريت بك زنادي! لقد ابليت في جهاد محمد احسن البلاء ، ولكن قومك لا يبلغون من نصرك وتأييدك ما ينبغي ان يبلغوا . انهم يخافون الحرب ، ولو قد ثاروا بمحمد فقتلوه لكفوا انفسهم شراً عظيما . ولكن ابا طالب يقوم دون محمد ومعه فتيان بني هاشم فتكره قريش ان تسفك دماؤها بأيديها . انهم يبقون على محمد، وليأتين يوم يقتلهم فيه محمد تقتيلا الا أن يسبقوا اليه بالموت».

وغدا ابو جهل على قومه ثائراً ثورة لم يعرفوا منه مثلها ، حتى احفظهم وكاد يستخف احلامهم ويخرجهم عن اطوارهم ، لولا ان قالت مشيخة قريش : « على

رسلكم ايها الناس ! لا تعجلوا على قومكم حتى تعذروا فيهم . لنسمعنّ الى ابي طالب فنسمع منه ونقول له ، لعله ان يسلم الينا ابن اخيه او ان يكفه عنا ؛ فان لم نظفر منه بإحدى الخصلتين رأينا فيه وفي بني هاشم رأينا»

قال ابو جهل : « يا للخزي ! يا للعجز ! اقسم باللات والعزى لتعودُنّ من عند ابي طالب كما تذهبون اليه لم تأخذوا منه شيئاً ويلكم ! اقتلوا محمداً وافجئوا بموته ابا طالب ؛ فانه اما ان يخاف كثرتكم وقوتكم فيقبل منكم ديّتَه ، وما ان ينهض لحربكم فما ايسرَ ما تردُّونه وقومه الى الصواب».

ولكن شيوخ قريش لم يسمعوا له ، ونهضوا فمشوا الى ابي طالب ومشى معهم ابو جهل لا لشيء الا ليشهد اخفاقهم فيما يسعون اليه . وقد انتهى القوم الى ابي طالب ، فقالوا له وسمعوا منه ، وطلبوا اليه ان يدعو محمداً فيكلموه ففعل . وجاء محمد فسمع منهم ولم يقبل مما عرضوا عليه شيئاً. ثم دعاهم الى الله ، ووعدهم شرف الدنيا والآخرة ان صدّقوه ، وانذرهم خزي الدنيا والآخرة ان كذبوه ، وطلب اليهم ان يقولوها كلمة واحدة تدين لهم بها العرب والعجم .

قال ابو جهل : « ما هي ؟ نقولها والله وعشراً امثالها » . قال محمد : « تقولون لا إله الا الله» . فتفرّق القوم وهم يقولون : « اجعَلَ الآلهة إلهاً واحداً ان هذا لشيء عُجابٌ » . وانصرف ابو جهل ولم يَشمتْ بقومه قط كما شمت بهم هذه المرة ، فهو يستهزىء بذوي الأحلام والأسنان واصحاب الرأي والمشورة ، يقول : « ما رأيت كاليوم رجلا واحداً يرد الملأ من قريش خائبين مستخذين فأما وقد بلغ بكم العجز ما ارى وانتهى بكم الجبن الى ما ترونه فلأكفينكم محمداً ؛ فإن امر محمد لا يُعالج بالقول والسفارة ، ولا بالاحتجاج والجدال، وانما يعالَجُ بشيء واحد هو قتل محمد، ولأقتلنه من الغد بين ايديكم وانتم ترون ! ولأقتلنه وهو يصلي لإلهه هذا الذي يريد ان نعبده مكان آلهتنا . لآخذن حجراً ضخماً ثقيلاً فلأشدَخن به رأسه اذا سجد ، فاذا فرغت منه فقوموا دوني ان شئتم ، او اسلموني لبني عبد مناف ان خفتم الحرب» . يقول الملأ من قريش وقد احفظهم ما رأوا وما سمعوا : « لا والله ما نُسلمك لأحد ابداً».

ثم غدتْ قريش الى انديتها لم يتخلف من اشرافها احد لما شاع فيهم من وعيد ابي جهل . وغدا ابو جهل وقد اخذ حجراً ضخماً ثقيلاً ، فجلس الى قومه يتحدّث وينتظر مَقدَمَ النبي . واقبل رسول الله كعادته وطوّف بالكعبة ثم قام يصلي ، وقد جعل الكعبة بينه وبين الشام ، وقام ابو جهل فاستدبره ومعه الحجر لا يكاد يحمله

لثقله ، حتى اذا سجد رسول الله دنا ابو جهـل منه متباطئاً ، ولكنه لم يكد يبلغه حتى عـاد منهزماً وسقط الحجر من يده والنبي ساجد لم يرفع رأسه من السجود . وتضاحكت قريش حين رأت ابا جهل يعود اليها مهزوماً مدحوراً قد ظهر في وجهه الخزي والانكسار . فلما رأى منهم ذلك قال : « ويلكم ! قوموا اليه ان شئتم فاصنعوا به ما اردت ان اصنع ، والله لتَتَرَدُّنَّ عنه كما رُدِدْتُ » .

قالوا : « وماذا ردّك ابا الحكم ؟ » . قال : « رأيت والله بينه وبيني فحلاً مـا رأيت مثل رأسه ولا مثل انيابه قط . ولو اقدمت على ما كنت مقدماً عليه لأكلني» . وانبىء رسول الله بالخبر فقال باسماً : « ذاك جبريل . ولو قد اقدم على مـا كان يريد لأخذه » .

وخلا ابو جهل الى صديقه ابي مرة حول زقّها ذاك ؛ فقال ابو جهل لصاحبه في شيء من الخزي واللوم : « ما اراك اغنيت عني شيئاً صباح اليوم. انك لها هنا تغريني وتحرضني وتيسر عليّ الأمر وتمنيني الأماني حتى اذا جـدّ الجدّ نظرتُ فلم اجدك ، وخليت بيني وبين الهزيمـة والخزي ، واضحكتَ مني من كنت استهزىء بهم من شباب قريش وشيوخها جميعاً » .

قال ابو مُرّة وهو يملأ له القدح : « اشربْ ابا الحكم على بغض محمد ؛ فقد علمت ان رجلاً واحداً لن يبلغ منه شيئاً ، وان رجلين اثنين لن يبلغا منه شيئاً، وان رجالاً كثيرين لن يبلغوا منه شيئاً حتى تُجمع قريش كلها على قتله ، فيومئذ تبلغ قريش مـا تريد . فإلى هذه الغاية فاسع منذ اليوم » .

ولم يقصر ابو جهل في السعي الى غايته تلك التي رسمها له حليفه الأثيم ، وان كان قد أمسك اياماً عن الإلمام بأندية قريش ، كان خجلاً مستخذياً من انهزامه ذاك عـن محمد ، ومن قصة الفحل التي تحدث بهـا الى قومه ، فأظهروا التصديق ولكنهم ظنوا بشجاعته الظنون ، واخذوا يتمابثون به وبقصة الفحـل كلما احدث لهم منه ذكراً . وتريد شقوة ابي جهل ذات يوم أن يدخل المسجد اعرابيّ ، فيقف على بعض انديتهم يستعين بهم على سيد من سادات قريش قـد اشترى منه ابلاً ثم التوى عليه بثمنها لا يؤديه اليه ، فإذا سئل الأعرابيّ عن هذا السيد من يكون قال : هو ابو الحكم عمرو بن هشام ، فيتضاحك القوم ويقول بعضهم للأعرابي : اترى الى هـذا الرجل الوسيم الصبيح قد جلس من البيت غـير بعيد ! انه وحده الذي يستطيع ان يُنصفك من عمرو بن هشام ، فاذهب اليه فستجد منه عوناً وتأييداً حتى ترضى . وكان هـذا

الرجل الوسيم الصبيح محمداً رسول الله ، فيذهب اليه الاعرابي والقوم مُغرقون في الضحك قد سخروا منه وخيل اليهم انهم قد سخروا من رسول الله . واقبل الأعرابي على محمد فسلم ، فاستعانه واستنصفه . وينظر الملأ من قريش ، فإذا محمد قد قام ، وإذا هو يمشي والأعرابي يتبعه ، فيقولون لأحدهم اتبعهما وعُدْ إلينا من أمرهما بما يكون . ومضى محمد والأعرابي وراءه ورسول قريش يرقبهما من بعيد . حتى إذا بلغ محمد دار أبي جهل طرق الباب ، فخرج إليه عمرو بن هشام ووجهه مُمتقعٌ ما فيه قطرة دم . قال محمد : « أدّ إلى هذا الرجل حقه » . قال أبو جهل : « نعم ! لا تبرح حتى يرضى » . ودخل داره ثم عاد فأدى إلى الرجل ما له وانصرف راضياً ، فعاد إلى نديّ قريش يُثني عليهم ويقول : صنع الله لكم ! لقد أنصفني صاحبكم وما تركني حتى أدى أبو الحكم إليّ حقي . فتعجب قريش ويقول بعضهم لبعض : إنه والله لفحل الذي رآه أبو الحكم منذ حين . حتى إذا لقوا أبا جهل فيما بعدُ سألوه فينبئهم : « إنه الفحل كان يسعى بين يدي محمد ، ولو قد التويت بحق هذا الأعرابي لما أنظرني » .

على أن أبا جهل جدّ في سعيه ، وجدّ النكير بين المسلمين والمشركين واشتد نعي محمد على قومه وعيبه لآلهتهم ، وأنزل الله من القرآن آيات وسوراً كانت تدمغ قريشاً وتؤذي ما كانت تعتز به من الصلف والكبرياء أشد الإيذاء. وقد حاول الملأ من قريش أن يُعطوا محمداً الرضا فلم يقبل منهم إلا الإيمان ، ولم يستطيعوا أن يعطوا الإيمان . وحاول الملأ من قريش أن يخذلوا أبا طالب عن ابن أخيه فلم يزيدوه إلا جداً في نصره وحمايته ، حتى استطار الشرّ وعظم الخطب ، ولم يبق بد لقريش من أن تسمع لمشورة أبي جهل وتصير إلى ما كان يريد .

وقد صارت قريش إلى ما أراد أبو جهل وحليفه أبو مُرّة ، فاجتمع الملأ منهم وكتبوا صحيفتهم تلك يقطعون فيها رحم بني هاشم ويحظرون فيها على قريش أن يكون بينهم وبين بني هاشم بيع أو شراء أو صهر أو تواصل ما . وانحاز بنو هاشم مع أبي طالب إلى شِعْبهم فَحُصِروا فيه ، حتى اشتدّ عليهم الجهد وعَظم البلاء ، وحتى جاع صِبْيَتُهم فما ينامون الليل ، ولكنهم مع ذلك صبروا للمحنة كراماً واحتملوها أعزّة شمّاً . منهم من كان يؤمن لمحمد فهو يصبر طاعة لله وجهاداً في سبيله ، ومنهم من كان على جاهليته فهو يصبر عصبيّة للحسب والنسب وإباء للضيم ، وبغضاً لسوء القالة . ولم يقض أبو جهل أياماً كانت أحب إليه من هذه الأيام ؛ فقد كان سعيداً بظلم بني هاشم ناعماً بما يلقون من جهد ، قد وجّه قومه الى

حيث يريد فاتبعوه ، واتبعوه جميعاً لم يكد يخالف عن أمره منهم أحد .

ورضي أبو مرة كل الرضا ، وكان يقول له وهو يساقيه البغض : « إنك لتدنو من الغاية يا أبا الحكم . فأنتم أولاء قد كدتم تجمعون على قطيعة محمد وبني هاشم ، وليس بينكم وبين الإجماع على حربه وحربهم إلا خطوات قصار » .

ولكن أبا طالب يغدو ذات يوم فيدخل المسجد ويطوف بالبيت ، ثم يقف على ناد من أنديتهم فيقول : « يا معشر قريش ! ان ابن أخي قد أنبأني بشيء سأنبئكم به ، فإن كان قد صدقني فكفوا عما أنتم فيه من ظلمنا وقطيعتنا ، وان كان قد كذبني دفعته اليكم فقتلتموه وعادت العافية الى قريش » .

قالوا : « أنصفتنا والله يا أبا طالب . فماذا أنباك ابن اخيك ؟ » .

قال : « أنبأني بأن صحيفتكم تلك التي تعاهدتم فيها على ظلمنا وقطيعتنا وعلقتموها في جوف الكعبة قد عدت عليها الأرضة فمحت كل شيء فيها إلا اسم الله ، فاعمدوا الى صحيفتكم هذه فانظروا فيها » . وعمدت قريش الى الصحيفة وهي لا تشك في أن أبا طالب قد غر عن نفسه . ولكن القوم ينظرون الى الصحيفة فاذا محمد لم يقل لعمه إلا الحق ، واذا الصحيفة قد محي كل شيء فيها إلا اسم الله فانه لم يمسه سوء فسقط في أيدي قريش ، وأخذ الملأ يتلاومون على ما تعجلوا به من وعد أبي طالب بالنصفة ، وأخذ بعضهم مع ذلك يقول : « لا والله لا نكذب الشيخ ولا نخلفه وعـدنا . ولقد علمنا أن هذه الصحيفة كانت شؤماً ، قد شلت يد كاتبها . ولا والله ما جرت علينا القطيعة إلا شراً . كيف نأكل ونشرب وننام وننعم بالطيبات ، واخواننا جياع قد بلغ بهم الضر كل مبلغ ؟! »

واجتهد أبو جهل في أن يجمع قريشاً على القطيعة ويمضي بها فيما أحب من إخلاف الوعد ونكث العهد فلم يفلح ، وإنما انتصر عليه أولو الحلم والمروءة من قومه ، فرفع الحصار عن بني هاشم ، واستخذى أبو جهل وحليفه أبو مرة ، وعادا يلتمسان العزاء عند زقهما ذاك الروي بنار تشبه الخمر او خمر تشبه النار .

- ٨ -

على أن الحوادث ردت الى أبي جهل صلفه وخيلاءه ، وإلى أبي مرة شيئاً من أمل

وفضلاً من رجاء . فقد مات أبو طالب ، وماتت بعده خديجة بقليل ، وفقـد محمد رشاءه الذي كان يلوذ به ، ثم فقد سكنه الذي كان يأوي اليه، وأدركته الشدة حين كان يلقى الناس فيطمع فيه سفهاؤهم ويهزأ منه حلمـاؤهم . وأدركته الشدة حين كان يأوي الى بيته فلا يجد فيه ما كان يجد عند خديجة من الرحمـة والعطف والعزاء . وهمّ عمه أبو لهب ان يقوم منه مقام ابي طالب فيحميه من الأذى ويجيره من الظلم والبغي . ولكن أبا جهل عرف كيف يردّ أبا لهب عن همه ذلك ، جاءه فقـال له : « سل ابن أخيك عن أبيك عبد المطلب أين هو ؟ » . فلمـا سأل أبو لهب محمداً : « أين عبد المطلب ؟ » أجابه « بين قومـه » . فخرج الرجل راضياً لا يرى بجواب ابن أخيه بأساً . ولكن أبا جهل ضحك له ضحكة الشيطان وقال : « فانه يزعم أن عبدالمطلب وقومه في النار » . فرجع أبو لهب الى ابن أخيه يسأله : « أحق ما أنبئتُ به من انك تقول إن عبدالمطلب في النـار ؟ » قال رسول الله : « نعم ! وكل من مات على جاهليته فهو في النار ! » . قال ابو لهب : « لا جوار لك عندي » . ثم خرج الى قريش ، فقال : « اصنعوا بصاحبكم ما تريدون فإني قد رفعت عنه حمايتي وجواري » .

منذ ذلك اليوم بلغت الفتنة أقصاها ، وانتهت المحنة الى غايتهـا ، وعرف رسول الله أن ليس له بمكة أمن ، فخرج يلتمس الأمن في الطائف عنـد ثقيف ، فردّوه أبشع ردّ وأقبحه ، فعاد الى مكة محزوناً مكلوماً ، واثقاً بالله مع ذلك أعظم ثقـة وأقواها . على أنه لم يستطع أن يدخل مكة حتى أرسل الى مُطعم بن عدي فاستجاره فأجاره مطعم ، ودخل مكة آمناً . ولكن أيّ أمنٍ هذا الذي هو مدين بـه لرجل من غير رهطه الأدنين !.

وفي تلك الأعوام طغتْ قريش وبغت ، وأسرف أبو جهـل في فرحه ومرحه . وجعل محمد يترقب الموسم يعرض نفسه على قبائل العرب يسألهم أن يحموه ويمنعوه حتى يؤدي رسالات ربه فلا يجد عندهم غنـاء ، حتى استجاب له الأوس والخزرج ، فأذن للمسلمين في الهجرة الى يـثرب ، واخذوا يخرجون من مكة أرسالاً . هنالك تنبه أبو جهل وما كان غافلاً ، فجدّ في تحريض قريش وتأليبهـا لتمنع المسلمين من الهجرة . ولكن لله أمراً هو بالغه ، وقَدَراً هو مُجريه ؛ فقد هاجر أكثر المسلمين ، وأقام محمد بمكة ينتظر إذن الله له في الهجرة ، ومعه صاحبه أبو بكر وابن عمه عليّ . وقد علمت قريش وعلم أبو جهل أنها القوة والمنعةُ لمحمد ان هاجر الى يثرب ، وأنهـا الحرب على

مكة ومن فيها ان استطاع محمد آن يأوي الى الأنصار .

وهنا بذل أبو جهل أقصى جهده وغاية ما يملك من قوة ، وآزره حليفه أبو مُرّة فأحسن مؤازرته . واجتمعت قريش في دار نَدْوتها تتشاور في أمر محمد ، وحضر اجتماعهم أبو مُرّة ظاهراً لهم في زيّه ذاك الذي كان يراه فيه أبو جهل . فلما جعل القوم يديرون رأيهم بينهم أخذ أبو مرّة يردّ على كل متكلم كلامه ، حتى قال أبو جهل مقالته فأيّدها أبو مُرّة أشدّ التأييد . ولم لا ! لقد كانت مقالة أبو جهل تبلغه الغاية التي كان يسعى اليها . رأى أبو جهل أن يُنتدب لقتل محمد فتى جَلْد من كل قبيلة من قبائل قريش،ثم اذا اجتمع هؤلاء الفتيان عَدَوا على محمد فضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد ، فإذا فعلوا ذلك ذهب دمه بين القبائل ، ولم يعرف بنو عبد مناف عند من يطلبون بدمه . ولكن كيد أبي جهل وأبي مُرّة لم يُغن عنهما من الله شيئاً ؛ فقد خرج محمد على هؤلاء الفتيان يتلو آيات من القرآن ، ويضع التراب على رؤوسهم ، وغُشيت أبصارهم فهم لا يرونه ، وارتدوا عما أرادوا خائبين ، كما ارتدّ أبو جهل خائباً عن كل ما أراد .

— ٩ —

على أن مكة تخلصت لأبي جهل وحليفه أبي مرّة حيناً من الدهر حين هاجر منها محمد وأصحابه . فلم يُعبد اللهُ فيها إلا سرّاً ، وخفتت فيها صوت الحق إلى حين ، وظهر فيهما بغي قريش وكبرياؤها كعهدهما قبل أن يُشرق في مكة نور الإسلام . ولكن مَنْ بقي من شيوخ قريش وذوي أحلامها كانوا يظنون السوء وينتظرون المكروه، ولا يشكّون في أن ستكون بينهم وبين أصحاب محمد خطوب . وقد أخذت هذه الخطوب تتتابع قليلاً قليلاً ، حتى كان الخطب الأكبر يوم بدر .

هنالك ندب رسول الله أصحابه للخروج إلى تجارة قريش مرجعها من الشام ، لعل الله أن ينفّلهم إياها . فخرجوا، حتى إذا كانوا في بعض الطريق عرف أبو سفيان مكانهم فأرسل يستنفر قريشاً لحماية العير ، ونفرت قريش لم يكد يتخلف أحد من أشرافها وساحل ابو سفيان بتجارته فأحرزها وأمن عليها من محمد وأصحابه ، وأرسل الى قريش يأمرهم بالرجوع الى مكة وينبئهم أن قد أمنت العير . ولكن أبا جهل يأبى

إلا أن يبلو بلاءه الأخير ، فيقسم لا نرجع حتى نأتي بدراً فنأكل ونشرب ونطرب ونطعم الناس ، ويعرف العرب ذلك فتزداد هيبتنا في نفوسهم . وقد استمعت له قريش لا تظن أن عليهم بذلك بأساً حتى إذا بلغوا بدراً والتقى الجمعان ، عرفت قريش أنها الحرب ، ونظرت قريش فإذا محمد وأصحابه لا يكادون يتجاوزون ثلاثمائة إلا قليلاً . ولكن قريشاً تنظر فترى قوماً مشاة يريدون أن يُحملوا ، حفاة يريدون أن ينتعلوا ، جياعاً يريدون ان يأكلوا ، عُراة يريدون ان يكتسوا ، لا يحميهم ولا يمنعهم إلا سيوفهم ، فيشفق أشراف قريش من هذه البلايا تحمل المنايا . ويسعى عُتبة ابن ربيعة وحكيم بن حزام في قبائل قريش يحببون إليهم السلم ويدعونهم الى القفول . ولكن ذلك يبلغ أبا جهل عن عتبة فيقول : « انتفخ والله سَحْرُه[1] » . ويبلغ ذلك عتبة فيقول : « سيعلم ابن الحنظلية أينا انتفخ سحره » ثم يدعو بسلاحه ويكون هو وأخوه شيبة وابنه الوليد أول من يخرج الى القتال ، فيقتلون جميعاً . ويزحف القوم بعضهم على بعض وقد سقى أبو مرة نديمه وحليفه كأسه الأخيرة من خمر كأنها النار أو نار كأنها الخمر ، وزين له أن النصر قريب فخرج أبو جهل يرتجز :

ما تنقم الحرب العوانُ مني بازلُ عامين حديثٌ سني
لمثل هذا ولدتني أمي

ولكن أبا جهل لا يكاد يقوم حتى يرى هولاً لم ير مثله قط ، ما كان يقدر أنه سيراه آخر الدهر . يرى سحائب بين السماء والأرض قد أظلم لها الجو ، ومرت كأنها العواصف ، ثم هبطت منها أشخاص قد لبسوا العمائم وألقوا فضلها على ظهورهم ، وركبوا الخيل مسوّمة ، وهم يضربون من المشركين الأعناق ويقطعون منهم كل بنان . وينظر أبو جهل عن يمين وشمال ، وينظر أبو جهل وراءه يلتمس حليفه ونديمه أبا مُرّة ، فاذا هو قد ذاب كما يذوب الملح . هنالك يذهب الغرور كله عن عمرو بن هشام ، ولا يبقى في نفسه إلا حفاظُ الرجل العربي وكبرياؤه . هو بين اثنتين : إن شاء لوى عنان فرسه فطارت به الى حيث الأمن ، والى حيث السيادة ، والى حيث أبو مرة وخمره وكيده ، وإلى حيث العار ، وإن شاء مضى أمامه فأحسّ الألم ساعة ثم مضى كما يمضي الناس منذ أول الدهر . ولا والله لا تضحك مني قريش ، ولا تحدثني بحديث الفحل ، ولا تقول قريش إني ما رأيت محمداً إلا ملئت منه رعباً ووليت فراراً . ثم يُقحم فرسه بين الصفوف ، وإذا هو صريع قد قطعت إحدى ساقيه

(١) السحر : الرئة . ويكنى بانتفاخ السحر عن الجبن ، فيقال انتفخ سحر فلان إذا مل وجبن .

والدم ينزف منه نزفاً شديداً ، ولكنه مستقظ يقظة لم يعرفها قط ، يرى كل شيء ، يرى أصحاب محمد يأخذون ظهور قريش برماحهم ، ويرى رجلاً قد أقبل يسعى حتى وطىء صدره بقدميه . من يكون هذا الرجل ؟ إني أعرفه ! لقد فتنته بمكة فتنة شديدة ! إنه الهذلي ابن مسعود راعي الغنم !

ثم يرتفع صوت أبي جهل متحدثاً الى ابن مسعود رضي الله عنه فيقول : « لقد ارتقيت مُرْتَقىً صعباً يا راعي الغنم » . يقول ابن مسعود : « وهل أخزاك الله يا عدو الله ! » . قال أبو جهل : « وبم أخزاني ! وأي عار على فتى قتلتموه ! ولكن أنبئني لمن العاقبة ؟ » . قال ابن مسعود : « لله ولرسوله وللمسلمين » ، ثم أهوى اليه فاحتزّ رأسه وحمله إلى النبي . وبعد قليل ألقي قتلى بَدْر من المشركين في القَليب ، ووقف عليهم رسول الله يقول : « يا معشر قريش ! أرأيتم ما وعدكم ربكم حقاً ! فاني رأيت ما وعدني ربي حقاً » . يقول المسلمون : « أتكلم الموتى يا رسول الله؟» . فيقول ﷺ : « والله ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا ينطقون » .

- ١٠ -

أشرف خالد بن الوليد رحمه الله على بـدء الزحف العام يوم اليرموك وكان مشرق الوجه مبتهج النفس ، ولكن شيئاً من القلق كان يظهر في عينيه اللتين كانتا تمتدان في الأفق كأنما تريدان أن تبلغا ما وراء الجيشين الملتحمين ، ثم تنحرفان الى يمين مرة وإلى شمال مرة اخرى كأنما تريدان أن تتعجلا عواقب الموقعة لتعودا بها الى نفس القائد العظيم الذي لم يعرف إلا الإنتصار ، والذي كان شديد الشوق إلى أن يتبين الموقعة قبل أن تتم وقبل أن تأتيه بها رسله وعيونه .

وكان خالد بن الوليد رحمه الله ينظر الى هذين الجيشين العظيمين وقد سعى كل منهما الى صاحبه في أناة ورزانة وثقل ، حتى ليُخيل الى من كان يراهما أنهما الجبال المتقابلة يسعى بعضها الى بعض في مهل وبطء ، ثم لا يزال بها السعي البطيء حتى تستحيل الأناة عجلة والمهل مرعة ، وحتى يرى الرائي كأنما قد زُلزل كل شيء ، فمادت الأرض ، واضطربت السماء ، وماج الجو ، واختلط كل شيء اختلاطاً هائلاً غريباً .

وكان خالد يذكر ما ألف من الحرب في بلاد العرب ، وما ألف من الغزوات التي

شهدها . وكان يذكر ما كان الناس يتحدثون به عن هول هذه المواقع، فيبتسم ابتسامة فيها العجب وفيها الرضا . وأكبر الظن أنه كان يوازن بين تلك المواقع اليسيرة وبين هذه الموقعة الهائلة التي لم ير عربي مثلها قط . فقد كانت اكبر جيوش العرب حين يحارب بعضهم بعضاً لا يكاد يتجاوز أحدها الألف أو الآلاف . فلما زحف النبي على مكة بعشرة آلاف من المسلمين اكبرت العرب ذلك وهابته هيبة شديدة . ولم تكد قريش ترى مقدمَ هذا الجيش حتى استحالت كبرياؤها فأصبحت تواضعاً وطاعة ، وإذا النبي يسأل قومه : « ما تظنون أني فاعلٌ بكم ؟ » . فلا يدرون كيف يجيبون. فإذا عرفوا أنه العفو قالوا : «أخ كريم وابن أخ كريم».

ولما بلغ جيش النبي يوم حُنين عشرتين أو ثلاث عشرات من الألوف ظنت العرب أن الجيوش لن تبلغ مثل هذا العدد آخر الدهر . وهذا خالد يقود جيشاً للمسلمين يبلغ العشرات الكثيرة من الألوف إلى جيش من الروم يبلغ العشرات الكثيرة من الألوف.

وقد تغيرت الحرب فلم تصبح كرّاً وفرّاً ومبارزة ومناجزة ، وإنما هي زحف الجبال إلى الجبال ، واختلاط الأرض بالسماء . فلما ملأ خالد رحمه الله عينيه من هذا المنظر الرهيب عاد إلى مجلسه في سرادق الأمير ، وقد ذكر أن عظيماً من عظماء الروم قد انحاز اليه، وأنه سيلقاه ويسأله عن شأنه. ولم يكد يستقر في مجلسه حتى أذن للعظيم الرومي ، فأدخل عليه ، وإذا شيخ جليل قد تقدّمت به السنّ لولا بقية من نشاط وفضلٌ من قوة ، وإذا هو يحيي خالداً تحية الإسلام في عربية فصيحة يلتوي بها لسانه بعض الشيء . فيرد عليه خالد تحيته بمثلها . ثم يسأله : « أتتكلم العربية أيها الشيخ أم هي تحيتنا تعلمتها لتلقانا بها لقاء حسناً ؟ » . قال الشيخ: « أصلح الله الأمير! فإن لي بالعربية عهداً ، وما أظننا نحتاج إلى ترجمان » فأجلسه خالد إلى جانبه محتفياً به مقبلاً عليه ، ثم أشار الى من حوله فانصرفوا ، والتفت الى الشيخ كأنه ينتظر أن يبدأ بالحديث . قال الشيخ : « أصلح الله الأمير ! انك لم تخلُ الى رجل من الرّوم قد أقبل يسعى اليك فيما يسعى فيه الساسة الذين يخالفون عن رؤسائهم وساداتهم الى العدو ليدلوه على عوراتهم ، ويُظهروه على ما دبروا من الكيد لرؤسائهم والانحياز الى المغيرين، انما تخلو الى مسلم قد شهد فجر الإسلام حين انبثق في البطحاء من أرض الحرم ، فآمن به حين استيقن أنه الحق قد جاء من عند الله . ثم فرّ بما علم من ذلك فهاجر من مكة الى وطنه من بلاد الروم يهيىء قومه لمثل هذا اليوم الذي نحن فيه . وقد مضت أعوام وأعوام وأنا أستقصي الأنباء وألتقط الأخبار وأعلم ما يحدث في مكة وفي يثرب من

الخطوب . حتى اذا كانت وقعة مُؤتة علمت أن الشمس قد أخذت تبلغ أرضنا ، وأن نور الله قد أخذ يُشرق في آفاقنا . ثم ها أنتم هؤلاء قد أقبلتم مظفرين ، فجئت لألقاك بالبشرى ، ولأنبئنك بأن لا بأس عليكم بعد هذه الموقعة ، فلن يثبت لكم العدو في مدينة أو قرية أو مكان ما في هذه الأرض ولا في غيرها مما يجاورها من الشام ومصر ، ولن تجدوا من الناس بعد انهزام الجيوش عنكم إلا مودة ومعونة وحسن لقاء . فأقدموا عليهم كما تقدَمون على الصديق لا كما تقدَمون على العدو ، فسيدخلون في دين الله أفواجاً وستُخلِص لكم نفوس الذين يستمسكون بدين آبائهم » .

قال خالد : « ألم تنبئني أنك شهدت فجر الإسلام حين انبثق بمكة ؟! » .

قال الشيخ : « نعم ! وكنت ثاني اثنين كانا يرقبان مطلع الفجر ؛ فأما أحدنا فأقام بمكة ومات فيها . وأما الآخر فأقبل الى هذه الأرض يبشر الناس بمطلع الفجر » .

قال خالد : « فمن ذاك الذي مات بمكة ؟ » . قال الشيخ : « ابن عمك ورقة بن نوفل » .

قال خالد : « وأنت من تكون ؟ » . قال الشيخ : « أنا من أكون ! لست أدري أيدلك اسمي على شيء ! ولكن أباك كان يعرفني حق المعرفة ويُبغضني أشد البغض ، وابن عمك كان يعرفني حق المعرفة ويحبني أشد الحب » .

قال خالد : « أي أبناء عمي ؟ » . قال الشيخ : « عمرو بن هشام بن المغيرة ، كنا نسميه أبا الحكم » . قال خالد : « ثم سميناه بعد ذلك أبا جهل . » قال الشيخ : « وقد صرعه البغي والحسد يوم بدر » .

قال خالد : «نعم ! صرعه البغي والحسد؛ صرعه البغي والحسد وغرور الشيطان». وسمع خالد هائعة (١) خارج السرادق ، فسكت كأنما يريد أن يتبين ما سمع ، وإذا قوم يريدون أن يقتحموا باب الامير والحجاب يذودونهم عن ذلك . فيضرب خالد احدى يديه بالاخرى ويدخل نفر من المسلمين وقد احتملوا بينهم رجلاً جريحاً قد أشرف على الموت ولكن فيه رمقاً ، وهم يقولون : ابن عمك أيها الأمير عكرمة بن أبي جهل . فيغشى وجه خالد حزن لا يلبث أن تطرده ابتسامة حلوة ، ويشير إليهم أن قدّموا الجريح ؛ فإذا وضعوه قريباً منه أقبل عليه فوضع رأسه على فخذه وجعل يمرّ يده على جبهته إمراراً خفيفاً وهو يقول: « أتسمعني يا عكرمة ؟ » فيشير الجريح

(١) الهائعة هنا ، الضجة والأصوات الكثيرة . وأما الهيعة فالصوت الذي تفزع منه وتخافه من عدو .

بطرفه « أن نعم » . يقول خالد : « زعم ابن حنتمة أننا لا نُستشهَد ، أبشر بالجنة يا عكرمة ! » . ثم يلتفت إلى الشيخ ويقول : « أما أبوه فقد صرعه الحسد والبغي ، وأما هو فقد صرعه الجهاد في ذات الله » . وإذا الشيخ قد وقف رافعاً يديه إلى السماء وهو يتلو : (وَلا تَحسبنَّ الذينَ قُتلوا في سَبيل الله أمْواتاً بَلْ أحياء عندَ رَبّهم يُرْزَقونَ) .

قال خالد : « وقد حفظتَ من القرآن شيئاً أيها الشيخ ؟ » . قال الشيخ : « نعم ! حفظت منه شيئاً » . قال خالد : « ولكنك لم تنبئني من أنت ؟ » . قال الشيخ وقد استعبر : « لو استطاع هـــذا الفتى أن يراني لعرف أني نسطاس ، ولكنه يرى الآن وجوهاً خيراً من وجه نسطاس ، ويسمع أصواتاً أعذب من صوت نسطاس: يرى وجوه الملائكة ويسمعهم يقولون له ولأمثاله الذين يُصرَعون الآن في ذات الله وهم يفتحون لهم أبواب الجنة : « سَلامٌ عليكم طبتمْ فادخلوها خالدين » .

سيد الشهـــداء

خلا الأمير الى سماره حين تقدم الليل . وسكنت حركة الأحياء والأشياء ، وارتفعت في السماء أضواء الدور في المدينة واضواء القصور من حولها ، وانحدرت الى الارض اشعة النجوم رقيقة رقيقة مضطربة . وكان الامير على غير عادته كئيباً كاسف البال ، مؤثراً للصمت معرضاً عن اصحابه ، لا يكاد يسمع لما يدور حوله من الحديث . فلما سأله في ذلك آثر اصحابه عنده قال الأمير : « ألم تر الى الناس حين كنا نعشيهم كيف كان إقبالهم على طعامهم فاتراً بطيئاً ، وكيف كان حديثهم فيما بينهم خافتاً خفياً ، وكيف كان يستأثر بهم ويسيطر عليهم ذهول غريب يجعل حركاتهم آلية لا تصدر عن رأي ولا إرادة ، وإنما تصدر عن عادة وغريزة ! لقد خيل إليّ أن قد فرق بينهم وبين أنفسهم ، فكأنما كانت انفسهم في السماء وأجسامهم في الأرض . ولقد عرفت هؤلاء الناس وعرفوني ، ولقد بلوتهم وبلوني ، وما أذكر أنهم أخذوني بما لا احب ، وما اذكر اني سرت فيهم بما لا يرضون من سيرة الأمراء » .

قال صاحب الأمير : فان الأمير اعزه الله يعلم ان هؤلاء الناس قد شغلوا اليوم عن أنفسهم بآبائهم واجدادهم ، وشغلوا عن يومهم الحاضر وغدهم المقبل بأمسهم القريب » . قال الأمير : « وما ذاك ؟ » قال صاحبه : « فان اصحابك قد رفعوا اليك من غير شك قصة هذه القبور التي نبشت ، وقصة هذه الآية التي ظهرت » .

قال الأمير : « فان أصحابي لم يرفعوا اليّ من ذلك شيئاً ، وانما هو أمر جاء من دمشق ومضينا في إنفاذه اجتهاداً للناس ونصحاً لهم وإيثاراً لهم بالرفق والخصب والعافية . وما اعرف ان احداً منهم انكر من هذا الأمر شيئاً ، او قال فيه بغير ما نقول ، او اشار فيه بغير ما امر امير المؤمنين » .

قال صاحب الامير : « اما والله لولا ان الامر قد سبق بذلك منذ العام الماضي حين لم تكن والياً على هذه المدينة وحين كان امرها الى من لا نحب ان نتحدث اليه او نشير عليه ، لقد كان لنا في ذلك رأي غير ما رأى . ولقد كنا خليقين ان نشير على أمير المؤمنين بغير ما تقدم به في أمر هذه القبور . إنها قبور الشهداء ؛ انها قبور الذين صرعوا في الله يوم أحد ؛ وإن كثرتهم لمن الأنصار . وقد أراد الله أن يدفنوا حيث

صُرعوا . وقد أنبئنا ان جماعة من الأنصار همّوا بنقل موتاهم إلى المدينة ليُدفنوا فيها ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ونهى عنه وأمر بهؤلاء الشهداء فرُدُّوا الى مصارعهم ودُفنوا حيث اراد الله ان يدفنوا ورسول الله قائم يصلي عليهم ويشهد دفنهم ، وكأنما كان يستودعهم هذه الأرض التي طهرتها دماؤهم الذكية حتى يكون اليوم الذي ينشرون فيه من قبورهم ليلقوا جزاء الشهداء الصديقين. فلو قد سُئلنا في ذلك لأجبنا ولو قد استُشرنا في ذلك لرأينا لأمير المؤمنين غير ما رأى له هؤلاء الشباب من فتيان قريش. فان من الخير أن يُجري أمير المؤمنين لأهل المدينة هذه العين تحمل اليهم الرّيّ والخصْبَ ، ولكن مما يؤذي أهل المدينة أن تُنبشَ قبور آبائهم وأجدادهم من الشهداء، وأن يحوَّلوا عن أرض قسمها لهم الله ورسوله » .

قال الأمير : « فتراهم قد سخطوا على ذلك وضاقوا به وأنكروه ؟ » .

قال صاحب الأمير : « ما أشك في ذلك . ولكن الله عز وجل قد أراد بهم وبأمير المؤمنين خيراً ، فأظهر لهم هذه الآية التي صرفتهم عن الدنيا الى الدين ، وعن التفكير في اليوم والغد الى التفكير في أمس وفي يوم يرونه بعيداً ويراه الله عز وجل قريباً » .

قال الأمير : « فاني لا أفهم عنك ما تقول منذ الليلة ! » ؛ قال صاحبه : « فان أصحابك إذاً لم يُنبئوك بالحال التي وجدوا عليها أجسام الشهداء » . قال الأمير : « لم ينبئني أحد بشيء » . قال صاحبه : « فان أجسام الشهداء قد وُجدتْ رطاباً كأنها يوم دُفنت . ولقد كانت تُحمل من مكان الى مكان فتنثني وتضطرب ، رَخصة كأنما هي مُغرقة في النوم لم يُلمّ بها الموت . وأكثر من ذلك ان المسحاة أصابت رجل سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب فجرى منها دم زكيٌّ كما يجري دم أحدنا حين يصيبه الجرح اليسير ، وقد مضى على مصرع هؤلاء الشهداء أكثر من أربعين عاماً ، وقد رأى الناس ذلك وأحسوه ، وتأثرت به نفوسهم ، واضطربت له قلوبهم ، وازداد له إيمانهم ، فهم بين الحزن لما كان من تحويل هؤلاء الشهداء عن قبورهم ، والإعجاب بما كان من هذه الآية ، وقد صرفهم هذا الإعجاب عن إظهار ما كان خليقاً أن يملأ قلوبهم من سخط وإنكار . فلا تَضقْ بما رأيت من وجومهم وذهولهم ؛ فان بعض هذا كان خليقاً أن يضطرهم الى الوجوم والذهول » .

وكان في القوم شيخ قد تقدمت به السن وظهرت عليه الكَبْرَةُ والهرَم ، وقد جلس في آخر المجلس مُطرقاً ممعناً في الصمت والسكون كأنه قطعة من صخر .

فلما انتهى سَمَرُ الأمير من حديثه الى هذا الموضع ، رفع هذا الشيخ رأسه وقال في صوت هادىء رزين يكاد يضطرب شيئاً ، وإن عينيه الغائرتين الضئيلتين لتَنبضّان بوَشَل من الدمع شديد التأثير في النفوس – وأي شيء أبلغ من بكاء الشيوخ !! – قال هذا الشيخ في صوته الهادىء الرزين : « رحم الله حمزة ! إن كان لَسيدَ الشهداء حقّاً ، وان كانت حياته لموضع العبرة الصادقة والموعظة البالغة . كان إسلامه عنيفاً ، وكان بلاؤه في الإسلام عنيفاً ، وكان مصرعه في الله عنيفاً ، وكان ما ترك من حزن عليه ووجد به وحبّ له عنيفاً أيضاً . وماذا تقولون في أنه لم يبلغ حزنٌ من قلب رسول الله ﷺ ما بلغه الحزن على حمزة حين رآه صريعاً قد مثل به المشركون تلك المُثلة المنكرة ! لقد حدثنا من رآه قائما ينظر الى هذا المشهد الفظيع ، فيأخذ الحزن من قلبه الكريم الكبير كل مأخذ حتى يُخرجه عن طوره ويدفعه إلى الثورة ، وإن كان لأبعد الناس عن الثورة ، وان كان لألزمَ الناس للوقار . لقد ثارت لهذا المشهد البشع نفسه الهادئة الرضيّة ، فإذا هو يوعد وينذر ، وإذا هو يقسم لئن أظهره الله على قريش لَيُمَثّلَنّ بقتلاهم كما مثلوا بعمه ، وإذا غضَبُ هذه النفس الهادئة الرضية يشيع في نفوس أصحابه كما تشيع النار في الحطب الجزْل ، فيقسمون لئن أظهرهم الله على قريش ليمثلن بقتلاهم مُثلةً لم تعرفها العرب قط . ولكن الله عز وجل كان يريد برسوله وبعباده غير ما أراد لهم الغضب ، وإذا هو يؤدّبهم بأدب غير هذا الأدب العتيق الذي يقوم على الحفيظة والحمية والثأر ، وإذا هو يُنزل على رسوله ﷺ هذه الآيات الكريمة : « وَإنْ عاقبتمْ فعاقبوا بمثل مَا عُوقبتم به وَلئنْ صَبرْتمْ لهوَ خيرٌ للصابرينَ وَاصبْر وَما صَبرُكَ إلا بالله وَلا تحزَنْ عَليهمْ وَلا تكُ في ضيْق مما يَمكرُونَ . إن اللهَ مَعَ الذينَ اتقوْا والذينَ هُمْ مُحْسنون » . فيثوب إلى القلب الكريم ما فارقه من العفو ، ويعود إلى النفس الكبيرة ما ندّ عنها من الصبر ، ويكفر النبي عن يمينه ، ويرد المسلمون إلى العفو والصبر والحلم والأناة ، ويُظهر الله رسوله وعباده على الذين قتلوا حمزة وأصحابه الشهداء ومثلوا بهم ، فلا يلقون منهم إلا العفو والبر ، وإلا الرحمة والعطف ، وإلا المودة والإحسان . وكذلك يقوم أمر هذه الأمة على الصبر والمغفرة والصفح الجميل » .

ثم أطرق الشيخ إطراقةً غير قصيرة ، وأمعن في صمت عميق ، وأمعن السّمار مثله في صمت عميق أيضاً ، كأنما حضر مجلسهم روح قويّ أخذ عليهم أمرهم واضطرهم إلى هذه التروية المتصلة التي قطعها الشيخ حين رفع رأسه وقال في صوته الهادىء الرزين : « نعم ! رحم الله حمزة ! لقد كانت حياته عنفاً كلها ، ولكنها لم تُعقب إلا مودة

ورحمة . أترون إلى اخته صفيّة وقد بلغها مَصرعُــه العنيف ، فأقبلت تسعى لتراه وتحمل ثوبين لتلفه فيهما ، ويُشفق رسول الله عليها من هذا المشهد ، فيأمر ابنها الزبير ان يردّها ، ولكنها تأبى ؛ فقد بلغها انه صُرع ، وبلغها انه مُثّل به ، وقـد رضيت بذلك واطمأنت اليه ، فذلك في الله قليل . اخت عنيفة لأخ عنيف ، عنيفة بنفسها قبل ان تعنف بالناس ، ولكنها اخت رحيمة لأخ رحيم . اترون اليها وقد أقبلت فرأت اخاها ، وتنظر فترى جهد المسلمين وفقرهم وعجزهم عن تكفين موتاهم ، فتردّ عن اخيها احد الثوبين ليكفن المسلمون به شهيداً من شهدائهم ، وترضى لأخيها بعد ان صُرع هذا المصرع ومُثّل به هذه المثلة ان يكفن في ثوب واحد لا يَلفّ جسمه كله ، إن ستر رأسه أظهر رجليه ، وإن ستر رجليه ، اظهر رأسه . وإذا النبي يأمر بأن يستر الثوب رأسه وان تغطى رجلاه بأوراق الشجر .

« لقد كان حمزة عم النبي وأخاه في الرضاعة ، وقد اجتمع مع النبي من جهتيه ، من جهة أبيه ومن جهة امه ؛ فقد كانت أمه هالة بنت عم آمنة . ولقد كان به النبي رفيقاً وعليه شفيقاً وبولده برّاً . فأيّ عجب في أن يبلغ مصرع حمزة بالنبي ﷺ طور الجزع الذي لم يألفه قلبه الكريم ، فيغضب ويثور ويُنذر ويوعد ، حتى إذا ردّه الله عن الغضب والثورة وعن الإيعاد والنذير عاد إلى المدينة وقد أقر الله في قلبه حزناً قوياً مقيماً ، قوامه الرحمة والحب . يمر ببني عبد الأشهل ، فيسمع بكاء الناس على شهداء الأنصار ، فيقول هذه الكلمة البالغة التي لا أعرف أروع منها في تصوير الرحمة والحزن معاً : « لكنّ حمزة لا بواكيَ له ! »

وتبلغ هذه الكلمة آذان الأنصار وتنفذ إلى قلوبهم وتستقر فيهـا ، وتملؤها حبّاً لحمزة وحزناً عليه ، وإيثاراً للنبي ومشاركة له فيما يجد ، وإذا هم يأمرون نساءهم أن يذهبن إلى بيت النبي فيبكين عمه وأسده وصفيّه وأخاه . وقد فعلن ، وتلقاهن نساء النبي فبكين ، ورضيت نفس النبي لذلك ، وامتلأت له حناناً وودّاً ولكن الله يأبى على نبيه وعلى عباده حتى هـذا الإغراق في الحزن ، وإذا النبي يصرف هؤلاء النساء رفيقاً بهن داعياً لهن ، فإذا أصبح صعد المنبر فنهى عن إعلان البكاء أشد ما يكون النهي . ولكن كلمته قد استقرت في نفوس الأنصار ، وقد نفذت الى قلوب الأنصاريات خاصة ، وقد توارثنها وتوارثن التأثر بها ، فما يموت من الأنصار أحد وما تبكي امرأة أنصارية على أحد إلا بدأت بحمزة فبكت عليه وذكرته بالخير ، ثم ثنت بصاحبها فسفحت عليه دموع الحب والحزن . وما أرى إلا أن هذا سيظل دأب الأنصاريات إلى

آخر الدهر . أترون الى العنف كيف يُعقب الرحمة ، والى الشدة كيف تُعقب اللين!!

« رحم الله حمزة ! لقد كانت حياته كلها عنفاً ، ولقد أصبحت آثاره كلها رحمة ولينا . أتعرفون كيف أسلم حمزة ؟ لقد أسلم إسلام الفتيان أولي البأس والشدة وذوي الحزم والقوة أولئك الذين يأنفون الضيم ، ويأبون الخسف، ويغضبون للولي ويكرهون أن يُؤخذوا بما لا يحبون . ولولا أن الله يكره مثل هذا التعبير لقلت ان إسلامه كان إسلام الحميّة والحفيظة . غضب لابن أخيه غضبة عربية قرشية ، وانتقم لابن أخيه انتقاماً عربيّاً قرشيّاً ، وسلك الله به إلى الإسلام أقرب الطرق وأدناها الى قلبه القويّ العنيف . كان فتى من فتيان قريش ، فيه عنفها ، وفيه شدّتها ، وفيه صَلفُها ، وفيه أنفتها ، وفيه حرصها،وفيه إيثارها لهذه اللذات التي يؤثرها أصحاب المروءة والرجولة الكاملة . كان صاحبَ صيد وقنص ، يخرج للذته هذه من آخر الليل ويعود موفوراً مبتهجاً مع الضحى فلا يُلمّ بأهله حتى يذهب الى المسجد ، فيقف على أنديـة قريش مسلماً متحدثاً ، ثم يطوف بالكعبة ثم ينصرف الى داره وقد رضي عن نفسه وأرضى الناسَ عنها . وقد أقبل ذات يوم فأنبأته امرأة بنبأ عظيم تغيرت له حياته كلها. كانت هذه المرأة مولاة لعبدالله بن جُدعان ، وأكبر ظني أنها كانت صاحبة دُعابة وغزل . وأكبر ظني أن أبا جهل حين وقف اليها إنما وقف مداعباً مغازلا طامعاً منها في شيء مُريب .

« ويمرّ النبي ﷺ فتمتلىء نفس أبي جهل غيظاً لمرآه على ما كان يُضمر له من بغض وقلى . وإنه لفي موقفه هذا المريب الذي لا يحسن بالأشراف من قريش إذ أخـذ يؤذي النبي في نفسه بأشنع القول وأبشعه . ولكن الله قـد أدّب رسوله فأحسن تأديبه ، أمره بأن يأخذ العفو ويأمر بالعُرْف ويُعرض عـن الجاهلين ، فيمر بأبي جهل ويسمع منه وينصرف عنه معرضاً كريماً لا يُجيبه ولا يلتفت إليه . ويقع هذا كله من نفس المرأة أشد المواقع وأبلغها . وأكبر ظني انها صَدَفتْ بعد ذلك عن أبي جهل صدوفاً وصرفته عن نفسها صرفاً عنيفاً . ومضى ابو جهل خزيان خَجلاً ، حتى بلغ نادياً من اندية قريش فجلس مهموماً مخذولاً ...

« ويُقبل حمزة من صيده متوشحاً قوسه مبتهجاً بما أصاب من لذة وما انفق من نشاط ، فيمر بهذه المرأة في طريقه الى المسجد ، واذا هي تقفه ، واذا هي تُنبئه بما رأت وما سمعت ، فيسمع منها ويمضي دون ان يجيبها ودون ان يلوي على شيء ، قد اضرم الله في قلبه نار الغضب هذه التي تطهر النفوس من الإثم وتزيـل عنها الحوب

وتردّها الى الحياة مرة ثانية نقية ناصعة كما براهـــا الله وقبل ان تعلق بها حبائل الشيطان .

« ويمضي حمزة لا يلوي على شيء ، تتأجج في قلبه هذه النار المقدسة حتى يبلغ المسجد ، ويرى ابا جهل في ناديه فيقصد قصده ، حتى اذا انتهى اليه قام وراءه ثم ضرب رأسه بالقوس فشجه شجة بالغة ، ثم اعلن إسلامه ، وتحدّى قريشاً وطلب اليها ان تردّه ان استطاعت عن هذا الإسلام . ويتواثب بنو مخزوم وقد غضبوا لأبي جهل، فهم يريدون ان يمنعوه وان يبطشوا بحمزة . ولكن ابا جهل يخذلهم ويردهم الى الدعة والهدوء ، ويقول لهم : « دعوا ابا عمارة ! فوالله لقد سببتُ ابن اخيه سبّاً موجعاً ». يكفهم عنه ابو جهل فرقاً وخزياً واشفاقاً ان يتكشف الحق ويظهر ما خفي من موقفه المريب ، وان زعمت بنو مخزوم انه انما كفهم عنه ايثاراً للعافية وانصافاً من نفسه » .

قال الأمير وهو يبتسم : « امض في حديثك أيها الشيخ فانا نعرف بغضك لبني مخزوم » .

قال الشيخ : « في أي حديث تريد ان امضي ايها الامير ؟ لقد كان إسلام حمزة عزّاً للنبي وأصحابه ، كف عنه كثيراً من أذى قريش . ولقـد كان حمزة من هؤلاء المسلمين الذين عاشوا في مكة أعزّة أقوياء يجهرون باسلامهم ولا يخـــافتون به والذين هاجروا من مكة في غير تحفظ ولا استخفاء. والله لم يُعِزّ به الإسلام في مكة وحدها وانما اعزّه به في المدينة . فلحمزة عَقد النبي أول لواء في الاسلام ، وافعال حمزة في بدر ما تعلم ايها الأمير، وَصرْعى حمزة يوم بدر من تعلم ايها الأمير . ولو قد استشارنا معاوية قبل ان يحوّل شهداءنا عن مقابرهم التي احتفرها لهم الله ورسوله لقلنا له إنا نؤثر الظمأ والجدب وسوء الحال على ان يحوّل هؤلاء الشهداء او تُنبش قبورهم ، ولقلنا له : ان بين هؤلاء الشهداء سيدهم حمزة بن عبد المطلب قاتل شيبة بن ربيعة وعُتبة ابن ربيعة ، الذي صرعه وَحشيّ وبقرت بطنه ولاكت كبده هند ! » .

وكان الشيخ حين انتهى الى هـذا الموضع من حديثه قد استحال استحالة كاملة ، فانحسر عنه ضعف الشيخوخة وارتفع صوته وثبت ولم يضطرب ، واصبح كأنه الشعر قد جرى فيه غضب وهياج وأخذت عيناه تقدحان شرراً ، وخيل الى من حوله انه قد عاد الى شبابه حين كان من شجعان الأنصار وأبطالهم المقدمين يوم البأس .

قال الأمير وهو يبتسم ويملك نفسه : « حَسبك ايها الشيخ ! لقد بدأ امر حمزة

بالعنف ، وانتهى الى الرحمة واللين ، وابتدأت حديثك ليناً رفيقاً ، وهأنت ذا تنتهي الى العنف وتحيي ما حطّ الله عنا من حمية الجاهلية وعصبيتها !

« رحم الله حمزة ! فما ينبغي ان يثير ذكره شرّاً ، وما ينبغي ان يثير ذكره إلا المودة والرحمة والنصح للمسلمين ولأمير المؤمنين . وما يدريك ! لعل هؤلاء الشهداء أنفسهم لو استشيروا لأشاروا على أمير المؤمنين بأن يحملهم بعد موتهم هذه التضحية في سبيل المسلمين ! فهل كانت حياتهم إلا تضحية في سبيل الله ورسوله والمسلمين ؟ » .

ذو الجناحين

أقبلت تسعى رويداً رويداً مثل ما يسعى النسيم العليل ، لا يمسّ الأرض وقـع خُطاهـا ، فهي كالروح سرى في الفضاء . نشر الليل عليها جناحاً فهي سرّ في ضمير الظلام . وهبّتْ للروض بعض شذاها ، فجازاها بثناء جميل ، ومضى ينشر منه عبيراً مستثيراً كامنات الشجون . فإذا الجدول نشوان يُبدي من هواه ما طواه الزمان . ردّت الذكرى عليه أساه ، ودعا الشوق إليه الحنين ؛ فهو طوراً شاحب قد براه من قـديم الوجد مثل الهزال . صحب الأيام يشكو إليها بثه لو أسعدته الشكاة . وهو طوراً صاخبٌ قـد عراه من طريف الحب مثل الجنون . جاش حتى أضحكَ الأرض منه عن رياض بهجةٌ للعيون ، ونفوس العاشقين كـُراتٌ يعبث اليأس بها والرجـاء ، كحياة الدهر تأتي عليها ظلمة الليل وضوء النهار .

ولبث الشيخ مطرقاً تتغنى في نفسه الكئيبة هذه الخواطر الحزينة التي تريد أن تبتسم فـلا تجد إلى الابتسام سبيلا ، ويخفق قلبه بهذه المعاني الشاجية التي تريد أن تُشرق فلا تكاد تدنو من النور حتى يُلقَى بينها وبينه ستار رقيق من الظلمة يُدنيها منه ويُنئيها عنه ، ويغرّيها به ويزهّدها فيه . ولم يكن يدري عمن كانت تتحدث هذه الخواطر في نفسه المحزونة . ولم يكن يعلم إلى من كانت تشير هذه المعاني القائمة في قلبه السقيم . وإنما أنفق يوماً بغيضاً مريضاً تتـابعت عليه فيه الهموم ، وتواترت عليه فيه الأحزان ، وضاقت عليه به الحيـاة . يوماً من هذه الأيام التي تُظلم على النفوس أشدّ الإظلام وإن صحا فيها الجو واعتدل فيها الإقليم ، وترقرق فيها ضوء الشمس يحمل على نفوس الغافلين لذة وبهجة وجمالاً . يوماً من هذه الأيام التي يشرق فيها وجه الطبيعة ، ويبسم فيها ثغر الحياة ، وتكاد النفوس الحرة تُقبل فيها على الأمل والعمل ، لولا أن طائفاً من الشر يصدُر عن بعض النفوس الماهرة الماكرة ، فيحوّل إشراق الطبيعة ظلمة واكتئاباً ، ويردّ ابتسام الحيـاة إلى عبوس وتقطيب . والله قد امتحن أخيار الناس بأشرارهم ، وابتلى علماء الناس بجهالهم ، وسلط على إخلاص المخلصين نفاق المنافقين ، وعلى جدّ أصحاب الجد والعمل كيد أصحاب الكيد والعجز . يطهّر بهذه المحنة قلوبهم ،

ويصفي بهذه الفتنة نفوسهم ، ويبلو بهذه التجربة قدرتهم على الصبر ، وثباتهم للخطب، ونفاذهم من المكروه ، وحسن استعدادهم للتضحية في سبيل ما يؤمنون به من رأي ، وما يسعون إليه من خير ، وما يدفعون إليه من إصلاح .

وكان الشيخ قد استقبل يومه نشيطاً ، يريد أن يعمل كما تعوّد أن يستقبل أيامه ، مندفعاً إلى ما يُيَسَّرَ له من ألوان النشاط ولكنه لم يكد يستقبل الضحى حتى جاءته الأنباء عن يمين وعن شمال بأن سُحُباً تتجمع في الجو غير بعيدة ، وقد أخذ بعضها يركب بعضاً ، وجعلت ريح هوجاء حمقاء تجمعها وتدفعها ، تريد أن تسوقها إليه وتصبّ شرها عليه ، فلم يحفلْ بذلك ولم يأبه، وأراد أن يمضي فيما كان بسبيله ، ولكن الأنباء تأتي بأن سحباً اخرى تتجمع ويركب بعضها بعضاً ، وبأن كيداً يكاد ، وشراً يراد ، وألواناً من المكر يهيأ بعضها سراً ، ويهيأ بعضها إعلاناً . وما هي الا أن اقبل عليه المقبلون ، منهم من يُنــــذر ، ومنهم من يَرثي ، ومنهم من يواسي ، حتى ضاق بهم جميعاً وبما يتحدثون عنه ويخوضون فيه . فانصرف الى نفسه ، ولكنه لم يلبث ان زهد فيها . فهجر المدينة والتمس العزلة في مكان بعيد في طــرف من اطراف الريف ، وقد قامت فيه شجرات خضرٌ ملتفة الأغصان ، على جدول من الماء هادىء صافي الأديم ، يداعب النسيم صفحته في رفق ، فيثير عليها أمواجاً صغاراً توشك ان تكون حباباً .

هنالك جلس الشيخ مع الأصيل ، وهنالك انصرف الشيخ عن نفسه وعن الناس، وعن المدينة وأهل المدينة ، وعن الأعداء وما كانوا يأتمرون ، وعن الأصدقاء وما كانوا يدبرون ، وفرغ لشجراته الخضر وجدوله الصافي ، وهــذا النسيم العليل الفاتر يداعب اوراق الشجر وصفحة الجدول ، وضوء الشمس الحزينة المتهالكة يتبعها حزيناً متهالكاً في طريقها الى الغروب ، وهذه الطير الكثيرة ، قد أقامت على غصونها مترجحة في أناة وهدوء ، متغنية في شيء يُشبه الحزن والأسى كأنما كانت تودّع النهار كارهة للوداع، وتستقبل النهار ضيّقة باستقباله .

واذا نفس الشيخ تمتزج بهذه الاشجار الخضر ، وهذا الجدول الصافي ، وهذا النسيم الفاتر ، وهذا الضوء الشاحب، وهذه الطير البائسة اليائسة . واذا هذه الخواطر الحزينة تلم بنفسه ، وتخفق بقلبه ، وتبلغ لسانه فيوشك أن يتحرك بها لولا أنه يبغض أصوات الناس ، ويبغض صوت نفسه ايضاً ، فيسمع لهذه الخواطر تتحدث الى نفسه وتبلغها من غير طريق الأذن . ويمضي في ذلك وقتاً لا يعرف اكان طويلاً أم كان قصيراً ، وقد

نسي كل شيء ، ونفذ من كل شيء ، وخلا الى غير شيء ، إذ جاز ان يخلو الناس الى غير شيء .

وها هو ذا يُفيق من حاله تلك التي لم تكن نوماً ولا يقظة ، والتي لم تكن غيباً ولا شهادة ، لا يدري كيف دفع الى هذه الحال ، ولا يدري كيف خرج من هذه الحال . واكبر الظن أن الصمت المتصل من حوله قد دعاه الى نفسه أو دعا نفسه اليه ، فثاب الشيخ الى نفسه او ثابت نفس الشيخ اليه . واكبر الظن ان هذه الخواطر الحزينة التي أطالت التردد بين نفسه وقلبه ، واطالت الفناء في دخيلة ضميره ، قد دعت اليه هذه الصورة الغريبة الجميلة التي رآها ماثلة امامه على الضفة المواجهة له من ضفتي الجدول ، يترقرق على وجهها الرائع البارع غشاء رقيق هادىء من ضوء القمر ، الذي قام في مكانه من السماء يرسل اشعته المطمئنة في أناة وريث الى الأرض ، كأنما يريد ان يداعب الأرض وما عليها بأشعته تلك مداعبة الساخر الماكر الذي لا يحفل بأحد، ولا يحفل بشيء .

والغريب أن الشيخ لم ينكر هذه الصورة التي كانت ماثلة أمامه ولم يعرفها ، ولم يضق بمكانها منه ولم تنبسط نفسه لها ، وإنما نظر اليها فأطال النظر ، كأنما كان ينتظر زيارتها له وإلمامها به . ونظر اليها دون أن يوجه إليها حديثاً ، كأنما كان ينتظر منها أن تبدأه هي بالحديث . وقد فعلت ؛ فهذا صوت حلو فاتن رقيق يصل الى الشيخ وقد مازجه همس الجدول الذي كانت أمواجه تصطفق كأنما تحمل النسيم سراً الى الليل ، واذا هذا الصوت الحلو الفاتن يقع في نفس الشيخ موقع الماء من ذي الغلة الصادي ، فيردّ إليه حياته ونشاطه ، ويذكره بيومه المظلم وليلته المشرقة .

وإذا هو يسمع الصورة تسأله : « ما هذا الصمت الذي أنت مغرق فيه ؟! لقد دعوتني الى نفسك فأطلت الدعاء . وهأنذا أسعى اليك وألمّ بك وأقف منك غير بعيد فلا تحفل بي ولا تأبه لي ، ولا توجّه إليّ حديثاً ولا تسألني عن شيء . ففيم دعوتني إذاً ؟ وفيما تكلفتُ السعي اليك ؟ وفيمَ تجشمت في ذلك ظلمة الليل ؟! » .

قال الشيخ في هدوء ودعة : « أنا دعوتك يا ابنتي ؟! ومن تكونين ؟ » .

قالت : « فمن هذه التي أقبلت تسعى رويداً رويداً ، مثل ما يسعى النسيم العليل؟ »

قال الشيخ : لا أدري يا ابنتي ؛ لم أدعُ أحداً ولم اتحدث الى أحد ، وإنما هي خواطر كانت تضطرب بها نفسي ، ومعان كان يخفق بها قلبي » .

قالت الصورة : « فقل إني دعوت نفسي اليك ، او إني دفعت نفسي اليك ، او

ان مقامك هذا بين هذه الشجرات الخضر ، وهذا الجدول النقي ، وهذه الطير النائمة ، وهذا الضوء الهادىء الذي ينحدر من القمر ، قد أعجبني فأقبلت أشاركك في هـــذه العزلة ، وأتحدث اليك في بعض ما يكون فيه الحديث » .

قال الشيخ : « ومن تكونين ؟ » .

قالت الصورة : « أحريص أنت على أن تعرفني ؟ فقل إني أنا العزلة التي يفزع اليها المكروب اذا ضاق بالأحياء والأشياء . وقل اني أنا الوحدة التي يفرّ اليها الانسان من نفسه وأهله ، ومن الأعداء والأصدقاء ، ومن الخير والشر . وقل اني أنا الحريـــة التي يجدها الإنسان الفرد حين يفر من الجماعة الى حيث يستطيع أن يفكر آمناً ناعم النفس رضي البال . وقل إني أنا العزلة والوحدة والحرية جميعاً قد ائتلف منهـــا شخصي ، وتكونت منها نفسي . وقل — إن شئت — إني أنا الهجرة التي يفزع إليها الناس حين يخافون على عقائدهم ، وحين يضيقون بنفاق المنافقين وكيد الكائدين ، وحين يحسون أن لا مقام لهم في هذه او تلك فيفرّون منها الى هذه الدار او تلك . أنا الهجرة التي قد وُكلتْ بالأخيار اذا ضاقوا بالأشرار ، أواسيهم أثناء المحنة وآسليهم عن الفتنة ، وأصحبهم حين يخفون عن أوطانهم الى اوطان اخرى ، فأونسهم في الطريق ، وأردّ عنهم غوائل السفر ، وأتلقاهم في مهاجرهم ، فأحبّب اليهم أوطانهم الجديدة وآسليهم عن أوطانهم القديمة ، وأفتح لهم أبواب الأمل ، وأمهد لهم سبل العمل ، وانتهي بهم الى ما هم أهل له من الفوز . قل إني أنا الهجرة التي تغناها شاعركم القديم حين قال :

وأصرف وجهي عن بلاد غداً بها لسانيَ معقولاً وقلبي مقفلا
وان صريح الحزم والرأي لامرئ إذا بلغته الشمس ان يتحوّلا

قال الشيخ : « لقد أذكرتني بهذين البيتين من شعر أبي تمام يا ابنتي وما كنت لهما ناسياً ولا عنهما غافلا . ولكني لا أريد الهجرة ولا اجد اليها سبيلاً لو أردتها » .

قالت : « فانك لا تريد إلا الهجرة ، ولا تجد عن الهجرة مُنصرَفاً. ألم تهاجر الى هذا المكان منذ الليلة ؟ ألا تهاجر الى نفسك بين حين وحين ، حين تضيق بيئتك التي تحيا فيها وتشقى بها ؟ فإني أونس وحشتك حين تهاجر الى نفسك في المدينة ، كمـــا أونس وحشتك الآن حين هاجرت الى هذه الشجرات الخضر ، وهذا الجدول الناصع ، وهذه الفضة المذابة التي تترقرق بين الأرض والسماء كأنما تحمل الى نفسك الثائرة رسالة الأمن والطمأنينة والهدوء والصفح عن الآثمين والإعراض عن الجاهلين استمعْ لي وافهم عني ، فكم صحبتُ من أخيار ضاقوا بالحياة وضاقت الحياة بهم ، فآنست وحشتهم ،

وفرّجت كربتهم ، ولزمتهم رفيقة بهم عطوفة عليهم حتى أبلغتهم مأمنهم وإني لأعرف من أخبارهم وآثارهم ما هو خليق – إن قصصتُ بعضه عليك – أن يسلي عنك الهمّ ، ويُسرّي عنك الحزن ، ويعصمك من الشك ، ويثبتك على اليقين ، ويمضي بــك الى الوجه الذي يَسرّك الله له ، حتى تخرج من هذه الحياة وقد رضيت عن ضميرك ورضي ضميرك عنك مهما يكن رأي الناس فيك .

« لقد صحبت فتى من قريش فيما مضى من سالف الدهر ما أنسيت صحبته قط . أردت ان أونسه فكان هو مؤنساً لي . واردت ان أسلي عنه الهمّ ، فلم أجد في نفسه همّاً أسليه . انما اقبل عليّ محبّاً لي مشغوفاً بي مؤثراً إياي على كل شيء . ولقد أبعدت به السفر ، ولقد أطلت عليه الغربة ، فما أشفق من سفر غير قاصد ، وما ضاق بغربة غير منقضية ، وانما هاجر كلفاً بالهجرة ، مؤثراً لها على اليسير والعسير من الفتنة .

« كانت نفسه حلوة هادئة ، فأبت ان تمزج حلاوة الإيمان بمرارة الفتنة ، وأن تخلط هدوء اليقين بعنف الجدال فيه . كان من السابقين الى الإسلام . رأى ابن عمه يدعو فاستجاب له عن حب وصدق ويقين . ومضى على الوفاء لما اقبل عليه من هــذا الدين الجديد ، يؤثر التقوى الخالصة والإيمان الهادىء المطمئن على كل شيء. فلما اضطرب الأمر من حوله ورأى اضطهاد قريش للمسلمين ، ورأى ثبات المسلمين للمحنة والحاح قريش عليهم فيها ، صبرَ كما صبروا ، واحتمل كما احتملوا ، ولقي في ذات الله مثلما لقوا ، حتى اذا أذن الله للمسلمين في ان يفرّوا بإيمانهم الى حيث الأمن والهدوء – ان ارادوا – هاجر من مكة تاركاً وطناً احبه وعشيرة آثرها ، وحياة نَعمَ بما لقي فيها من ضروب الشدة واللين . هاجر فيمن هاجر من اصحاب ابن عمه الى ارض بعيدة نائية .

« صَحبتهُ في سفره ذاك ، ورأيته يتجشم مع اصحابه اهوال البرّ والبحر فارّاً بدينه من الفتنة ، مؤثراً ان يعبد الله في دعــة ، وان ينشر دينه في هدوء وسلم . ولقد أطال المقام ، وأحبّ الغربة حتى ألفها أو كاد يألفها . ولكني كنت ألزمه وأهوّن عليه من مشقة الغربة ما قد يكون عليه عسيراً. حتى إذا أذن الله لنبيه في الهجرة ، واستقرت أمور الإسلام في المدينة ، وأظهر الله دينه على كثير من بيئات الشرك والكفر ، جعلتُ أغري صديقي بالانتقال من غربــة إلى غربة ، والالتجاء من وطن جديــد إلى وطن جديد ؛ وما بلغت منه الرضا بذلك إلا حين استوثق من أنه لن يفارقني ولن يُقصى عني ، ولكنه سيظل مهاجراً .

« سينتقل من هجرة الحبشة إلى هجرة المدينة حيث يستطيع أن يعبد الله آمناً راضياً مطمئناً في ظل ابن عمه وبين أصحابه وذوي قرابته ، وحيث يستطيع أن يُبلي في ذات الإسلام كما أبلى غيره من المسلمين ، وأن يحتمل من أعباء الجهاد ما احتملوا .

« لقد صحبته مرتحلاً إلى الحبشة ، فصحبت مؤمناً يفرّ بإيمانه إلى الطمأنينة وفي نفسه حسرات . ولقد صحبته في عودته إلى المدينة ، فصحبت مؤمناً يعود بإيمانه إلى مستقر الهدى ومشرق النور ، وإن في قلبه لجذوة تضطرم شوقاً إلى ابن عمه ، وطموحاً إلى الأخذ بحظه من أثقال الجهاد » .

ثم سكت الصوت الهادىء الحلو قليلاً ، ومضى الجدول يتغنى شكاته المتصلة ، ومضى النسيم يداعب الجدول مترفقاً به ، ويحرك الأغصان . خفة ، فيسمعُ لها وله حفيف وهفيف يمتزجان بشكاة الغدير ، فيبعثان أنغاماً عذبة ، كأنما كانت صلاة حلوة على روح ذلك المهاجر الكريم .

ثم ارتفع الصوت الحلو في أناة وهو يقول : « لقد رأيته حين بلغ المدينة وكان ابن عمه عائداً إليها ، وقد فتح الله عليه ما فتح من حصون خَيبر وثبّت أمره ، وأعلى كلمته ، وإذا ابن عمه يلتزمه ويقبّل بين عينيه ويقول : « ما أدري بأيهما أنا أشدّ فرحاً : بفتح خيبر ، أم بعودة جعفر » .

« ولكن صحبتي له لم تنته ، وإنما لزمته في مُهاجَره الجديد ، ونعمت بلزومي إياه بما كنت أرى وبما كان الناس يرون من برّه بالضعفاء ، ورفقه بالمساكين ، ورحمته للبائسين ، وإيثاره أصحاب العوز على نفسه وعلى أهله ، بما كان الله يتيح له ولهم من الكثير والقليل ، حتى كناه ابن عمه بهذه الكنية الحلوة « أبي المساكين » .

« ثم صحبته إلى رحلته الكبرى ، صحبته حين جهز النبي جيشه إلى مُؤتة ، وكان في نفسه شيء حين أمّر ابن عمه عليه زيدَ بن حارثة . وقد كلم النبي في ذلك ، فقال النبي له في صوت يملؤه الحب والحنان والإشفاق : « امضه فإنك لا تدري أيّ ذلك خير » .

لقد عرفتُ دخيلة نفسه ، وسمعت نجوى ضميره بعد هذا الحديث إنما كان الشوق إلى حسن البلاء واحتمال أثقال الجهاد هو الذي دعاه إلى أن يُعاتب النبي في تقديم زيد عليه . كان يؤثر زيداً والمسلمين ، ويريد أن يقدّم عليهم نفسه إلى المكروه . فلما ردّه النبي عن ذلك كانت نفسه تتأذى مخافة أن تُظنّ به الأثرةُ ، وما أراد إلا الإيثار . وكانت نفسه تتحرّق شوقاً إلى أن يلقى من الأذاة في سبيل الله مثل ما لقي زيد

وأصحاب زيد . ولقد رأيته حين تقدّم زيد فقاتل حتى قُتل وآن له أن يأخذ الراية وكان على فرس له ، فيـنزل على فرسه ويعقره ويكون أول عـاقر في الإسلام ، ويتقدّم بالراية فيقاتل حتى تُقطعَ يداه ، وحتى تأخذه السيوف والرماح والسهام ، وحتى يُصرَعَ كما كان يريد أن يصرع شهيداً . ولولا ما أنبأ النبي به مما صار إليه من نعمة الله عليه ، لما تعزّيت عن الحزن الذي ملأ نفسي لمصرعه . ولكن كيف السبيل إلى الحزن على الشهداء الذين لا يكادون يموتون حتى يُرَدّوا الى الحياة وإذا هم أحياء عند ربهم يرزقون ! كيف السبيل الى الحزن على شهيد لم يدركه الموت حتى رُفع الى السماء ، وأنبـأ النبي بأن الله قد عوّضه من يديه جناحين مخضوبين بالدماء يطير بهما في الجنة فيتبوأ منها حيث يشاء .

« وكم من أحاديث لأولئك النفر من أصحاب محمـد الذين هاجروا قبله والذين هاجروا معه ، والذين هاجروا بعده ، لو قصصتها عليك أيها الشيخ لمحوت من نفسك كل مَوْجِدة ، ولنقيت قلبك من كل حفيظة ، ولأقررت في نفسك أني أحق بحبك ومودّتك !! » .

قال الشيخ : « حسبك ! فقد بلغت من ذلك ما تريدين » .

قالت : « فادعُني إذا أحسست ألماً أو كرباً ، فلن تجد مثلي صديقاً رفيقاً » .

وأخذ اصطفاق الجدول يرتفع شيئاً ، ويرتفع معه حفيف النسيم وحفيف الغصون ، وغناء متقطع ضئيل ينبعث من أجواف الطير النائمة ، وهذا سهمٌ وردي نحيل ينفذ في جوف الليل قليلا ، ولا يكاد يتقدّم حتى يتسع شيئاً فشيئاً ، وحتى ينهزم الليـل أمـامه مضطرباً مروعاً ، وهذه الصورة تحيي الشيخ في صوت ضئيل نحيل يبعد عنه شيئاً فشيئاً حتى ينقطع . وهذه أصوات ترتفع متجاوبة حول الشيخ تأتيه من بعيد ، من هـذه القرى الكثيرة المنبثة في الريف . وهذا الشيخ ينظر من حوله فيرى آية النهار المبصرة جادّةً في محو آية الليل المظلمة ، فينهض متثاقلاً وقد غسلت هذه الليلة نفسه من أوضار المدينـة ، واستقبل الحياة كأنه وُلد لساعته . وها هو ذا يمضي نحو المدينة هادئاً رزيناً ، وإنّ نفسه لتتغنى : «أقبلت تسعى رويداً رويداً مثل ما يسعى النسيم العليل » ! .

حديث عدّاس

قال عُتبةُ بن ربيعة لأخيه شيبةَ : « انظر الى هـذا الرجل المقبل على حائطنا[1] ومن ورائه السفهاء والعبيد قد أغروا به وسُلطوا عليه ، فهم يؤذونه بألسنتهم ، وهم يؤذونه بما يحصبونه من الحصى والأحجار ؛ ألا تُثبته[2] ؟ » . قال شيبة وقد نظر واطال : « بلى ! والله اني لأعرفه كما تعرفه ، وان قلبي ليرق له كما يرقّ له قلبك ، وإن نفسي لتثور له غضباً كما تثور نفسك . ولقد هممت وما زلت انازع نفسي ان افزع الى نصره وجواره وحمايته من حلماء ثقيف وسفهائها، لولا ما بينه وبين قومنا ، ولولا اني اعلم اننا ان فعلنا كان لنا مع قومنا امر عظيم وخطب جليل». قال عتبة : «وارحمتاه لابن عمنا من قومنا ! ثم وارحمتاه لقومنا من انفسهم ؛ ما كنت احسب ان يبلغ الامر بقريش ان يذل عزيزها ونحن شاهدان ، وان يجترىء حي من احياء العرب وان كان ثقيفاً ، على ان يسوءوا رجلاً من قريش وان كان مستضعفاً مهيناً ، فكيف بابن عبد المطلب وابن اخي حمزة والعباس!!».

وكان هذان الرجلان من اشراف قريش،قد ذهبا الى بستان لهما في الطائف يصلحان من امره وامرهما ، ويهيئان لتجارتهما ، يجمعان ما تُنفذه ثقيف من تجار قريش الى اليمن في رحلتها الى اليمن ، والى الشام في رحلتها الى الشام . وكانا قد اقاما في الطائف اياماً ، واقبل في اثناء ذلك النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على ثقيف يلتمس عندهم النصر والعون والجوار ، بعد ان تنكرت له مكة بطاحها وظواهرها ، وبعد ان تنكر له الناس حتى اقربهم اليه وادناهم منه ، وبعد ان فقد عمه الذي كان يمنعه ويقوم دونه ، وبعد ان فقد زوجته التي كانت ترعاه وتكلؤه وتحوطه بالرحمة والحب والحنان . وكان قد لزم داره بعد هاتين الكارثتين ، لا يكاد يبرحها خائفاً محزوناً ، حتى أقبل عليه عمه ابو لهب فأمّنه واعلن اليه انه يقوم من حمايته بما كان يقوم به ابو طالب ، فسرّى عن النبي الكريم شيئاً واستأنف الخروج من داره والذهاب الى المسجد

(١) الحائط : البستان .

(٢) تثبته : تعرفه حق المعرفة .

والاضطراب في مكة . ولكن قوماً من قريش ألحّوا على ابي لهب حتى غيروه على ابن اخيه ، فاسترد جواره وحمايته ، وعاد الى مثل ما كان عليه قبل ان يموت ابو طالب. فلما ضاقت مكة بخير ابنائها خرج الى الطائف يلتمس جوار ثقيف ، فأقام فيهم ماشاء الله ان يقيم ، يسعى عند هذا ويلطف لذاك ، وكلهم يرده وكلهم يمتنع عليه . وكان مُقامُه فيهم قد اخافهم وثقل عليهم واثار في نفوسهم إشفاقاً ان يصيب مدينتهم ما اصاب مكة من اضطراب الأمر وانتقاض الضعفاء على الأقوياء ، واستجابة قوم لهذا الرجل الذي أنكره قومه ولم تر مدينته إلا ما يكره فتقدموا اليه في الرحيل عنهم . ولم يكد يفعل حتى أغروا به سفلة الناس وسفهاءهم ، فتبعوه يؤذونه بالقول والفعل حتى الجئوه ضعيفاً مكدوداً وكئيباً محزوناً الى حائط هذين القرشيين . وأقبل النبي وقوراً هادىء الخُطا مطمئن النفس ، تظهر على وجهه الكريم آيات الضعف وآيات القوة ، وآيات الحزن وآيات الرجاء .

ضعفٌ مصدره الجهد والعناء . وقوةٌ مصدرها الحزم والعزم . وحزنٌ مصدره الرحمة لهؤلاء الذين يدعوهم الى الخير فيبغونه بالسوء ، ويُرشدهم الى النجح فيريدونه بالمكروه . ورجاءٌ مصدره الثقة بأن الله لم يختره لرسالته ليخذله قبل أن يُتمّ امره ويُعلي كلمته ويُظهر دينه على الدين كله ، وبأن الله لا يصيبه بما يصيبه به من المكروه إلا امتحاناً لقلبه ، وابتلاء لنفسه ، وتمحيصاً لطبعه .

أقبل هادئاً والناس من ورائه مضطربون ، مستأنياً والناس من ورائه مسرعون ، حتى انتهى الى ظلّ من ظلال البستان ، فجلس متعباً مكدوداً ، والقرشيان ينظران اليه ويرقان له ويعطفان عليه وينازعان نفسيهما الى نصره ومعونته ، وقد كادا يفعلان لولا ان ذكرا قريشاً ، ولولا ان ذكر عُتبةُ بن ربيعة صهره أبا سفيان ، وقدّر ما يلقاه وما يلقاه اخوه من قريش ان منح محمداً معونة او نصراً . ولكنهما رأيا ابن عمهما يأوي الى ظلالهما مكروباً محزوناً ، فلم يملكا ان يمتنعا من ان ينالاه بأيسر الخير وأهون البر ، فيدعوان عَدّاساً (عبداً من عبيدهما) ويأمرانه ان يحمل الى هذا الرجل الضعيف المكدود شيئاً من عنب البستان ليصيب منه . ويمضي العبد منفذاً امرهما . ولكنهما لا يستطيعان ان ينصرفا من مكانهما ولا ان يحوّلا بصرهما عن ابن عمهما ، وقد أهينت فيه قريش كلها لولا ان قريشاً قد احتفظت بأحلامها . فهما ينظران ويرثيان ويعمل الأسى في قلبيهما . والعبد يسعى بالطبق الى هذا الرجل المحزون ، حتى اذا انتهى اليه أقبل الرجل على العنب يريد ان يصيب منه والعبد قائم

منه غير بعيد . ولكن القرشيين ينظران فيريان عجباً : يريان كأن حديثاً قصيراً قد دار بين الرجل وبين هذا العبد ، ثم يريان العبد وقد أكب على هذا الرجل الحزين يقبل رأسه ويديه ورجليه باكياً مستعبراً مندفعاً في حديث لا يكاد ينقضي ، مظهراً من التكرمة والاجلال لهذا الرجل ما لم يتعود ان يظهره لأحد من سيديه . فيقول أحد القرشيين : « ويحك ! لقد أفسد علينا ابن عمنا هذا العبد ! وما أرى الا ان ثقيفاً معذورون ان خافوا منه على عبيدهم وضعفائهم وأقويائهم ايضاً ما خفنا نحن منه على العبيد والضعفاء والأقوياء ! » . وهذا الرجل قد نهض وقوراً هادئاً ، ومضى العبد معه شيئاً من الطريق ثم وقف يشيعه بطرفه حتى غاب عن طرفه وعن طرف القرشيين.

هنالك عاد العبد الى سيديه ، وفي وجهه آيات الكآبة والحزن، وفي وجهه مع ذلك آيات الطمأنينة والرضا، ودموع تجري من عينيه لم يدريا أكانت دموع حزن وابتئاس، أم كانت دموع غبطة وابتهاج .

يقول عُتبة بن ربيعة للعبد رفيقاً به عطوفاً عليه : « ويحك يا عدّاس ! ان لك مع هذا الرجل لشأناً، فأقصص علينا بدء حديثك فقد رأينـاك حفياً به متلطفاً له مكباً عليه ، تقبله باكياً مواسياً ثم مرافقاً له تشيعه بشخصك ثم بطرفك» .

قال العبد : « نعم يا مولاي ! إن لي مع هـذا الرجل لشأناً وحديثاً عجباً . وأحْبِبْ إليّ أن أقص عليكما حديثي . ولكن أيّ حديثي تريدان ؟ أتريدان حديثي منذ اليوم ، أم تريدان حديثي القديم الذي مضت عليه أعوام طوال ، والذي دفعني إلى بلادكم هذه ، والذي اضطرني إلى ما أنا فيه من رقّ وإلى أن أعمل لكما بيدي في هذا البستان ، وما عملت لأحد قبلكما بيدي وما عملت لنفسي بيدي ، وإنْ كان الناس ليعملون لي كما أعمل لكما الآن ؟ » .

قال عُتبة وقد ثارت في نفسه طبيعة العربيّ الذي أترف وفيه فضل من بداوة ، فهو مشغوف بالقصص ، كلف بغريب الحديث : « وإن لك لحديثـاً قديماً بينه وبين حديثك هذا الجديد سببٌ ؟ » .

قال عدّاس « نعم » . قال عتبة : « فاقصص علينا حديثك » .

وأخذ القرشيان مجلسهما استعداداً لسماع الحديث ، وهمّ العبد أن يبدأ حديثه قائماً، ولكنهما أذنا له في الجلوس فجلس ، وأطرق وأغرق في صمت غير طويل ولكنه كان عميقاً ، ثم قال : « لقد انتهيت إلى هذا الرجل منذ حين ، فسمعته يقول كلاماً مـا أعرف أن الناس يقولونه أو يقولون مثله في هذه الأرض . فلما سألته عن ذلك حدّثني

بحديث ما يعرفه إلا نبي . وكان حديثه هذا مني على ميعاد ، أو كنت أنا من حديثه هذا على ميعاد . لقد سألني سؤالاً لم يسألنيه أحد منذ وطئتُ هذه البلاد . سألني عن موطني الذي نزحت منه ، فأنبأته بما لا تعلمان وبما يحسن أن تعلماه الآن ، وهو اني رجل من أهل نينوى ، نشأت في بيت من بيوت الأحرار الذين ان لم يُتح لهم الملك والإمارة فقد أتيحت لهم الثروة والغنى . وكنت موفور الحظ من النعمة وحسن الحال فارغاً لما يفرغ له أمثالي في تلك البلاد من تقسيم الوقت بين لذّة الجسم ولذة العقل ، ألهو ما وسعني اللهو، ثم أقرأ وأختلف الى مجالس العلماء والفلاسفة من القسس والرهبان فأسمع منهم وأتحدّث اليهم وآخذ معهم في ألوان من الجدل حول ما يختلف الناس فيه عندنا من أصول الدين والعلم . وأنتما لا تعلمان من امرنا في تلك البلاد الا قليلاً ، انما تُعنيان ويُعنى قومكما بما تحملون الينا من تجارة وما تصدّرون به عنا من مال ، وما تُصيبون في بلادنا من هذه اللذات اليسيرة . فأما ما دون ذلك فليس لكم به وليس لكم عنه سؤال . ولو قد دخلتم في حياتنا وعرفتم دقائق أمرنا ، لرأيتم أن في نفوسنا اضطراباً شديداً وغلياناً متصلاً وضيقاً بالسلطان ، وتمرداً على النظام ، وإنكاراً لما ورثنا من عادة وشكّاً فيما تلقينا من دين .

« ساءت فينا سيرة السلطان فنقمنا من نظام الحكم . وساءت فينا سيرة القسس فشككنا في الدين . فأما العاجزون فقد أعطوا طاعة ظاهرة وأضمروا عصياناً خفياً وعكفوا على اللذات يستعينون بها على احتمال الحياة . وأما الأقوياء وأولو العزم فقد فكروا وقدّروا ، وجدّوا في التفكير والتقدير يلتمسون فرجاً من حرَج ومخرجاً من ضيق . وكنت فيما رأيت من هؤلاء . فلما ضقتُ بالحياة في مدينتي ولم أجد عند علمائها وقسسها شيئاً ، خرجت مسافراً إلى الشام ألتمس في السياحة تسلية وعلماً ، وأبتغي فيها ظفراً بالخير . ولست أقص عليكما رحلتي الى طريقي اليها ، واضطرابي في مدنها وقراها ، ويأسي من قسسها وعلمائها ، وضيقي بسادتها وحكامها ، ولكني انتهيت بعد كثير من الاضطراب الى دير من الاديار يقوم في آخر العمران وأول الصحراء مما يلي بلادكم هذه . وأقمت في هذا الدير دهراً ، راضياً عن حياته الهادئة المطمئنة ، راضياً عن حياة أهله الآمنين الوادعين الاخيار ، ناعم النفس بعشرتهم ، مستمتعاً بأحاديثهم . ولكنني سمعت من أحاديثهم عجباً : رأيت لهم فيما بينهم أمراً يتحدثون عنه بالرمز ، ويومئون اليه بالإشارة. رأيت حديثهم هذا الرمزي يكثر ويشتد إمعانهم فيه كلما مرت بديرهم قافلة من قوافلكم هذه التي

تتردد من بلاد الروم . رأيتهم يعرفون أنباء هذه القوافل قبل أن تصل اليهم ، فيهيئون لها ويستقبلونها ويكثرون من سؤالها ويظهرون الحفاوة بها ، ثم يخلو بعضهم الى بعض، فيتبادلون بينهم أحاديث الرمز والإشارة والإيماء ، ويقول بعضهم لبعض : لم يأت النبأ بعد ، او يقول بعضهم لبعض : لقد انقطع النبأ بعد أن جاءت بشائره . فلما كثر عليّ منهم ذلك أزمعت أن أعلم علمه ، فتلطفت لهم وتوسلت اليهم حتى عرفت انهم ينتظرون إصلاحاً دينياً ذا بال ، وأنهم قرأوا في كتبهم ان هذا الاصلاح يأتيهم من قبَل هذه البلاد ، وانهم حسبوا وقدّروا ورأوا أن زمان هذا الإصلاح قد أظلّ الناس، وأن أنباء قد انتهت اليهم واحاديث قد نقلت لهم ، وكلها يدل على ان اوان هذا الإصلاح قد آن . قصوا عليّ من هذه الأنباء والبشائر أطرافاً ، فلم املك ان كلفت بالرحلة الى بلادكم ، وقلت : ما يمنعني ان ابعد في السفر ، وما يمنعني ان اتصل بقافلة من قوافلكم هذه فأبلغ معها هذه الارض ، فأعلم من علمها ، وأصيب من تجارتها ! ولعلي أظفر بما يتحرق اليه هؤلاء الرهبان شوقاً . وانتما تعلمان كيف كان الاتفاق بيني وبين تلك القافلة التي آمنتني على نفسي ومالي ، وضمنت لي ان ابلغ بلادكم هذه موفوراً فأصيب من تجارتها وأعود معها من قابل الى الشام حتى اذا بعدنا عن بلاد الروم وانقطعت أسبابي من أسباب قيصر ، عدا أهل هذه القافلة على مالي فاحتجزوه ، ثم عدوا عليّ وباعوني من صاحبكما ذاك الذي اشتريتماني منه قريباً من يثرب .

فهذا بدء حديثي أيها السيدان . وقد عملت في بستانكما أعواماً ، وكان الناس يتحدثون من حولي بهذه الأحداث التي تحدُث في مكة ، ويتناقلون من حولي أنباء هذا الرجل الذي ينكر الأوثان ويدعو الى التوحيد ، ويريد ان ينصف المظلوم من الظالم ، والعبد من السيد ، ويسوّي بين الضعيف والقوي . وكان الناس يتحدثون من حولي بما يلقى هذا الرجل في بلده من شر ، وما يُمتحنُ به أصحابه من ألوان الفتنة . وكنت كلما سمعت هذه الاحاديث هششت لها ، وطابت بها نفسي ، وأحسست أن النبأ الأعظم قريب . وكنت أقدّر أن صاحب هذا النبأ يجب أن يكون كإخوانه الذين سبقوه عالماً بدين الله داعياً اليه ، مخبراً عن أنباء الأولين بما لا يخبر به الناس . وكم وددت لو أتيح لي أن أنحدر الى مكتكما هذه فأسأل صاحبكما واسمع منه ، ولكن الرقّ في بلادكم شديد ، فنحن أرأف منكم بالرقيق وأعطف منكم عليه . وقد لبثت في بستانكما هذا أسمع الأنباء وألتمسها وأتحرّق شوقاً الى مصدرها، حتى أقبل صاحبكما هذا منذ حين . ولقد رثيت له حين رأيته وأوشابُ الناس من

حوله يؤذونه بألسنتهم وأيديهم . ولقد هممت ان أفزع لنصره والذود عنه ، ومـا كنت أعلم من أمره شيئاً ، ولكنها الرحمة عطفتني عليه . ولقد هممت ان أستأذنكما في إيوائه وإيثاره بشيء من القِرَى ، ولكني رأيتكما تنظران وتتحدثان ولا تنشطان، ثم أمرتماني بالسعي اليه . فلما بلغته سمعت منه كلاماً ما سمعت مثله في هذه الأرض . فلما سألته عن ذلك سألني عن موطني ، فلما أنبأته به قال : « هذا موطن يونس نبيّ الله » . فما شككت في أنه صاحبي الذي أقبلت ألتمس أنباءه » .

قال عتبة : « ويحك يا عدّاس ! إن حديثك هذا لعجب ، ولكنا نخشى أن يفسد عليك صاحبنا دينك ، وان دينك لخير مما يدعو اليه» . قال عدّاس : «مهلاً يا سيدي؛ ان الذي يقول ما سمعت لا يدعو الى شر ولا يغري بفساد ، ولا يأمر إلا بمعروف ، ولا يقول إلا حقاً » . قال شيبة : « ويحك يا عدّاس ! لقد سحرك صاحبنا فيمن سحر . فماذا سمعت منه ؟ » قال عدّاس : « بل لقد هداني فيمن هدى . ولقد سمعته يناجي ربه بحديث ما سمعت أعذب منه ، لقد حفظت حديثه ، وإنك لتعلم بما أنا بالعربي ، وما حفظُ أحاديثكم عليّ بيسير» . قال عتبة : «فهات أعدْ علينا ما سمعت» .

قـال : سمعته يقول : « اللهم اليك أشكو ضعف قوّتي وقلة حيلتي وهواني على النـاس يا أرحم الراحمين . أنت ربّ المستضعفين وأنت ربي . الى من تكلني ! الى بعيد يتجهمني ، أو الى عدوّ ملكته أمري ! إن لم يكن بك عليّ غضبٌ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيـا والآخرة ، من أن تُنزل بي غضبك ، أو تحلّ عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

ولم يفرغ العبد من هـذا الحديث حتى أغرق في بكاء هادىء ، وأغرق سيداه في وجوم عميق . ثم ثاب القوم جميعاً الى أنفسهم ، ونظر القرشيان أحدهما الى الآخر نظرة المتخذي الآسف . ثم قال عتبة لعدّاس : « أنت وما تشاء يا عدّاس من حب صاحبك وطاعته . ولكن لا تنس أن لنا عليك حقاً وطاعة . وإنا حريصان على ألا تظهر من أمرك شيئاً فتضطرنا فيك الى ما نكره ، وتضطر قومنا فينا الى ما تكره» .

ومضت أعوام وحدثت أحداث ، ونظر العبد الشيخ ذات يوم فاذا محمد ﷺ قد ضرب عسكره حول الطائف يحاصر فيها ثقيفاً ، وكان عدّاس قد انتقل من ملك ابني ربيعة بعد موتهما الى الثقفيين ، وإذا نفسه تنازعه الى صاحبه ، وإذا هو يحرّض الرقيق

ويبث فيهم الدعوة الى الخروج على ساداتهم واللحاق بجيش المحاصرين ، وإذا نفر من الرقيق يجتمعون اليه ، وإذا هم يقتحمون الأسوار ويهبطون الى العسكر مسرعين ، وترميهم مقاتلة ثقيف بالنبل فتصرّع منهم جماعة فيهم عدّاس ، قد مات قبل أن يبلغ صاحبه العظيم ، ويخلص سائرهم الى النبي فيهديهم الى الإسلام ويردّهم الى الحرية ، وينصرف عن حصار الطائف ، حتى إذا أسلمت ثقيف تكلمت في رقيقها أولئك وأرادت ردهم الى الطاعة ، فيقول النبي الكريم : « كلا ! هؤلاء عتقاء الله » .

مصعب بن عمير

- ١ -

كان غضّ الشباب ، معتدل الخَلق ، ناضر الوجه ، مشرق الجبين . وكان عذبَ الصوت ، حلو الحديث ، لا تكاد تقع عليه العين حتى تهواه النفس ، ولا يكاد صوته يقع في الأذن حتى يصبو اليه القلب . وكان حسن الزّي معنيّاً بشبابه وشكله عناية ظاهرة ، لا يكاد يراه الرائي حتى يعلم ان له حظّاً من نعمة ، وفضلا من يسار . وكان طيب النشر ، لا يمرّ بمجلس من مجالس قومه الا قالوا هذا مصعب بن عُمير مقبلاً ! يستدلون عليه بما يتقدّم من بين يديه من عَرف يتأرّج به الهواء . كان ابواه يحبانه ويؤثرانه ، وكانت امه خاصة تقف عليه حبها وحنانها ، وتختصه بعنايتها ، وتحكمه في ثروتها الواسعة ومالها الكثير .

وكان لهذا كله أحدوثة قريش وموضوع اسمارها ، تُعجبُ بجماله البارع ، وشبابه الرائع ، وحسن بزّته ، وكثرة ماله ، حتى كان النبي ﷺ يتحدث عنه الى اصحابه ، ويُعجب منه بما يعجب منه الناس ؛ وكان سمحَ الخُلق ، رضيّ النفس ، صافي الطبع مهذّب المزاج ، فلم يكن يتكلّف به فتيان قريش من الصيد والقنص ، ولم يكن يألف ما كان يألفه كهول قريش وشيوخها من حديث المال والأعمال ، وانما كانت قصاراه حياة هادئة وادعة ، قوامُها حسن العشرة وصفو الحديث .

أقبل ذات يوم على المسجد في الضحى ، وكان فارغ البال ، راضياً عن نفسه وعن الناس وعن كل شيء . وكان يتردد في جوّ مكة نسيم بارد يبعث في الأجسام نشاطاً للحركة ، وفي النفوس ميلا الى هذا التفكير الذي لا رزانة فيه ولا هدوء ، وانما هو تفكير مريح ، أوضح مظاهره الحديث والحوار . وكان قد لقي طائفتين من الرّفاق الذين خرجوا يدفعهم هذا النشاط الى أن يلتمسوا ما ينفقون فيه فضل ما يجدون من قوة في الجسم والعقل . فأما إحداهما فكانت تتهيأ للصيد وأما الأخرى فكانت تسعى الى حانة من حانات اللهو عند روميّ كان يبيع في مكة نبيذ الشام . دعته إحدى

الطائفتين الى الصيد فنفر منه ، ودعته الأخرى الى الشراب فامتنع عليها. كان لا يحس من نفسه حاجة الى هذه اللذة الآثمة التي يجدها أصحاب الصيد في سفك دماء الحيوان البريء ، وكان لا يجد راحة الى هذا اللهو الذي يلعب فيه عقل العاقل وحلم الحليم بين الكؤوس والأقداح . وأعرض عن أولئك وهؤلاء ومضى أمامه الى المسجد كأنه آثر الاستماع الى أندية قريش وهم يتحدثون فيما يعرض لهم من الأعمال اليسيرة أو الخطيرة . على انه لم يكد يبلغ المسجد ويتقدم فيه حتى سمع حواراً لا يخلو من عنف ، فاستبشر ومنى نفسه ساعة قيّمة خصبة . وما كان ألذ الحوار يشترك فيه شيوخ قريش اذا جدّوا ! وما كان ألذ الحوار يشترك فيه شيوخ قريش اذا هزلوا أيضاً !

أقبل الفتى حتى دنا من أحد هذه الأندية ، فجلس غير بعيد واستمع للقوم ، فإذا هم يختصمون في هذا الرجل الذي أحدث في مدينتهم حدثاً ليس منهم إلا كاره له ساخط عليه ؛ لأنه يغيّر ما ألفوا من دين ، وينكر ما ورثوا من سنة ، ويؤلّب الفقراء على الأغنياء ، ويثير الضعفاء بالأقوياء ، ويجمع إليه أخلاطاً من الناس ، فيهم الحر البائس ، والرقيق اليائس ، فلا يكاد يتحدث إليهم حتى يزيل ما بينهم من فروق وإذا هم جميعاً إخوان قد زال ما في صدورهم من غلّ ، وصفا ما بينهم من صلة ، واذا هم يد واحدة لو أذن لها صاحبها وخلى بينها وبين الحركة لأحدثت في المدينة شرّاً عظيماً . وهذا الرجل يجمع هؤلاء الناس اليه ، فيعظهم وعظاً غريباً لم يسمعوا مثله من كهانهم في مكة ، ولم يسمعوا مثله من وعاظ العرب في الأسواق . وهم يستمعون اليه فيستمعون ما يقول وكأنهم يشربونه شرباً ، واذا هم يبتهجون له حيناً فتشرق وجوههم بشراً وتتوقد عيونهم أملاً ، واذا هم يبتئسون له حيناً آخر فتعبس الوجوه ، وتتقطب الجباه ، وتفيض الدموع حارة غزيرة حتى تبتل بها اللحى ، ويجهشون بالبكاء فإذا صدورهم تضطرب لشدة ما يأخذ القلوب فيها من الوجيب. ما أجمل ما يعدهم ويمنيهم ! وما أروع ما ينذرهم ويخوّفهم ! وما أشد سلطانه على نفوسهم وأبلغ استئثاره بعقولهم ! ولئن خُلي بين هذا الرجل وبين المستضعفين من قريش وأحلافها ومواليها ومن يُلِمّ بمكة من شُذّاذ الناس ليثورُنّ بكل شيء ، وليغيّرُنّ كل شيء . والقوم يختصمون في ذلك خصومة تختلف عنفاً ورفقاً باختلاف أمزجتهم وطبائعهم ، فمنهم الثائر الحاد الذي يود لو أطلقت قريش يده فينهض الى دار ابن أبي الأرقم هذه التي يجمع فيها محمد أصحابه اليه فيهدمها عليهم هدماً ، وان يشق ذلك عليه إذا نهض معه نفر من فتيان مخزوم . ومنهم الشيخ الوقور الذي يذكر أمس ويفكر في غد ويكره لقريش أن

يُغير بعضها على بعض ويبطش بعضها ببعض ، ويرى أن قريشاً إنما سادت العرب لأنها أقامت أمرها على الشورى ، وجعلت الفصل فيما يعرض لها من الشر لهذه الأندية التي تتألف من الملأ لا لبأس الأفراد والجماعات ، ولا لسطوة الرئيس الذي ينفرد بالسلطان وهو ينصح باستصلاح هذا الرجل وتقريب الأمد بينه وبين قريش ، ولو تكلفت قريش في ذلك بعض المشقة وشيئاً من المال .

والفتى جالس غير بعيد يسمع رفق الرفيق ، وعنف العنيف ، ويود لو علم من أمر هذا الرجل الذي يختصم القوم فيه أكثر مما يقولون . فينهض متثاقلاً ، ويخرج من المسجد ويسلك طريقه إلى دار ابن أبي الأرقم على الصفا . ولو أن الفتى سأل نفسه وهو يقطع الطريق بين المسجد وبين هذه الدار التي استقرت فيها الدعوة الجديدة عن هذه القوة العنيفة التي دفعته مع الضحى إلى المسجد ، وصرفته عن رفاقه وهم يدعونه إلى الصيد ، وصدفت به عن أصحابه وهم يرغّبونه في الشراب ، وانتهت به إلى نديّ قريش فأسمعته ما كان بينهم من خصومة وحوار ، ثم دفعته في هذه الطريق التي يسلكها الآن إلى حيث يتحدث محمد إلى أصحابه ، لو أن الفتى سأل نفسه عن هذه القوة الغريبة التي تحكمت فيه ، واستأثرت به منذ أصبح ، لما وجد لسؤاله جواباً ، ولا عرف لهذه القوة أصلاً ولا كنهاً . ولكنه لم يفكر في شيء ، ولم يسأل نفسه عن شيء ، وانما يمضي في طريقه حتى يبلغ الدار ، فيطرق الباب طرقاً رفيقاً ، فاذا فُتح له دخل فحيا ثم جلس. والقوم ينظرون اليه فيعجبون لمنظره الرائع وزيه الحسن وشكله الجميل ، وتحيا في نفس كل واحد منهم أمنية خفية ، ولكنها قوية صادقة ، يودون جميعاً لو هدى الله هذا الفتى الوسيم الغني الى الإسلام ، فاصبح واحداً منهم ، وشاركهم فيما يستمتعون به من هذه النعمة الغضة الشاملة ، نعمة الإيمان بالله وبمحمد عبده ورسوله . اذاً لازدانت جماعة المسلمين ، ولاغتاظت قريش . تحيا هذه الأمنية في نفوس القوم جميعاً في لحظة قصيرة كأنها خطف البرق ، وتثبت في نفوسهم وتقوى ، واذا هي شعلة تتوقد بها هذه العيون التي تنظر الى الفتى في حب ومودة ، وكأنها تدعو نفسه الى ان تتصل بنفوسهم . ويحس الفتى وقع هذه الأبصار عليه ونفوذها الى نفسه ، ولكنه صامت لا يقول شيئاً ولا يأتي شيئاً .

ثم يتصل حديث النبي مع اصحابه فينذر ويُبشر ، ويقرأ القرآن . وما كاد القوم يسمعون صوت النبي حتى تتحول اليه عن الفتى ابصارهم وقلوبهم ، واذا مُصعبٌ كأنه لم يدخل عليهم منذ حين ، أعرضوا عنه ثم نسوه ، ولكنه هو لا يستطيع أن يُعرض

عنهم ولا أن ينساهم ، فهو يلحظ انصرافهم عنه ، واقبالهم على صاحبهم . ثم لا يلبث أن ينصرف معهم عن نفسه ، ويُقبل معهم على هذا البشير النذير ، فيسمع ويعي ، ثم ينهض فيدنو من النبي ، ثم يبسط يده ويعلن دخوله في الدين الجديد .

- ٢ -

وكتم الفتى إسلامه دهراً مخافة ان تفتنه قريش ، أو تنكره أمه ، وكان لها محباً وعليها شفيقاً ، وكان حريصاً ألا يؤذيها ، ولعله كان حريصاً أيضاً على ألا تقطع معونتها له وبرّها به ؛ فقد كان يجد من هذا البر وتلك المعونة ما ينفع به نفراً من اصحابه وإخوانه في الدين ولكن عثمان بن طلحة رآه ذات يوم وهو يصلي ، فما أسرع ما سعى به، ودل عليه ! وما اسرع ما تنكرت قريش للفتى ! وما أسرع ما تنكر له أبواه ! وما اسرع ما مسه الضرّ وثقل عليه احتمال الحياة ! هنالك أصبح هذا الفتى السعيد كغيره من اصحابه فقيراً بائساً ، ولكنه كان كغيره من اصحابه صبوراً جلداً ، يجد في الإسلام عما يلقى عزاءً وتسلية. حتى اذا اشتد الأمر بالمسلمين وأذن النبي لهم في الهجرة الى بلاد الحبشة ، هاجر معهم فأقام ما أقام ، واحتمل ما احتمل ، ثم عاد فأقام مع النبي ولزمه. وضاقت الأرض بالمسلمين مرة أخرى ، فكانت الهجرة الثانية الى بلاد الحبشة. فهاجر الفتى مرة اخرى، واقام في تلك البلاد ما أقام، واحتمل في تلك البلاد ما احتمل. وكأن صبره عن لزوم النبي لم يكن ميسوراً ، فآثر احتمال الأذى في نفسه بقرب النبي على الأمن والسلامة بعيداً عنه . فعاد إلى مكة سيىء الحال قد مسه الضر واشتد به البؤس ، فرثّت ثيابه حتى ما كانت تستر جسمه إلا في مشقة وبعد حيلة واسعة ، وغلظ جلده وتحدد وقد كان سبطاً رقيقاً . وأقبل ذات يوم على النبي وأصحابه . فلما رآه المسلمون نكسوا رؤوسهم وغضّوا أبصارهم رحمةً له وحياء من العجز عن معونته. وسلم الفتى فرد النبي عليه السلام وأحسن عليه الثناء وهو يقول : « لقد رأيت هذا وما بمكة فتى من قريش أنعم عن أبويه نعيماً منه ، ثم أخرجه من ذلك الرغبة في الخير في حب الله ورسوله ! ».

ولزم الفتى مجلس النبي فأطال لزومه، واستمع الفتى للنبي فأحسن الاستماع، وحفظ الفتى عن النبي فأتقن الحفظ ، وإذا هو من فقهاء الصحابة وأشدهم بالدين علماً . ثم

تكون العقبة الأولى ، ويكتب المسلمون من الأنصار للنبي في رجل من أصحابه يعلمهم القرآن ، ويفقههم في الدين ، فيرسل إليهم النبي مصعباً فيكون أول مبشر بالإسلام كلف نشر الدين خارج مكة .

ويوفق مصعب فيما كلف من الأمر ، فاذا الأنصار يقبلون على الإسلام أفواجاً ، وإذا سماحة خلقه وعذوبة صوته وما يجري فيه من حلاوة الإيمان وشدة الاقتناع ، كل ذلك يحببه إلى الناس ويعطفهم عليه . ولا يكاد يدنو موسم الحج حتى يشخص مصعب في سبعين من الأنصار هم أهل العقبة الثانية . وبلغ الفتى مكة ، فلم يفكر في أمه ولا في أهله ، وإنما مضى قدماً حتى انتهى إلى النبي ، فخلا إليه وأطال عنده المقام يعلمه علم المدينة وينبئه بأخبارها ، والنبي عن ذلك راض وبه مسرور . ويطيل المقام عند النبي ، وتعلم أمه بمقدمه ، فتبعث إليه من يلومه في هذا الذي تراه عقوقاً ، ولكنه مع ذلك لا يفكر في لقائها حتى يفرغ من أمره عند النبي . فإذا زارها بعد ذلك لامته في إبطائه عنها ولامته في دينه ، واستمالت عليه بدموعها . وما أقوى الدموع عوناً للأمهات !! ولكن مصعباً قد صبر للشر كله ، فليصبر لدموع أمه أيضاً . وإذا هو يعظها ويدعوها إلى الإسلام ، فتأبى عليه وتنذره أن تفتنه عن دينه ، فيلقى نذيراً بنذير وشراً بشر ، ويعلن لئن حاول أحد فتنته ليحرصن ، على قتل من يعرض له ؛ فتدعه أمه ، وينقطع لنبيه بعد ذلك فيقيم معه ؛ حتى إذا تهيأ النبي للهجرة تقدم مصعب إلى المدينة فانتظره فيها .

- ٣ -

ويحمل مصعب لواء النبي في وقعة بدر فيعود به ظافراً منصوراً . ويلقى مصعب في المدينة من الجهد والفقر ما يلقاه غيره من فقراء المسلمين ، فيحتمل ذلك راضياً به باسماً له . حتى إذا كانت وقعة أحد تقدم مصعب باللواء بين يدي النبي حتى يجد موقفه من ميدان القتال فيثبت فيه . وتشتد صدمة قريش للمسلمين فينكشفون ويتفرقون عن لوائهم . ولكن مصعباً أثبت قدمه في الأرض ، فهو لا يزول ولا يميل . ويقبل عليه ابن قمئة (فارس من فرسان قريش) فيضرب يده بالسيف فيقطعها ويسقط اللواء ، فيأخذه مصعب بيده الأخرى ويجنأ [1] عليه . ويكر عليه ابن قمئة فيقطع

(١) يجنأ عليه : يكب عليه ليقيه .

بيده الأخرى، ولكن قدم مصعب ثابتة وهو لا يزول ولا يميل، وما زال اللواء مرفوعاً قد ضم عليه مصعب عضديه ويكرّ ابن قميئة مرة ثالثة فينفذ الرمح في صدر مصعب، ويسقط مصعب ويسقط معه اللواء فيتلقاه أخوه أبو الروم . ومـا يزال اللواء مرفوعاً حتى يبلغ المدينة [١] .

– ٤ –

وقد انجلت قريش منتصرة عن ميدان القتال ، وثاب المسلمون إلى الشهداء يوارونهم في قبورهم ، فإذا مصعب قـد خرّ على وجهه . ويَهمّ المسلمون بدفنه فلا يجدون له كفناً ، انما هو ثوب رث قصير ، ان أخفى رأسه أظهر رجليه ، وان أخفى رجليه أظهر رأسه ، والنبي ﷺ يرى فيتلو قول الله عز وجـل : « مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا مَا عاهَدُوا اللهَ عَليهِ فَمِنهُم مَنْ قَضى نَحبَهُ ومِنهُم مَنْ يَنتَظِرُ ومَـا بَدَّلُوا تَبديلاً » .

ثم يأمر أن يغطى أعلاه بالثوب وأن يلفّ أسفله برطب الكلأ ، ثم يقول : « إن رسول الله يشهد انكم الشهداء عند الله يوم القيامة » . ثم يُقبل على الناس فيقول : « أيها الناس زوروهم وأتوهم وسلموا عليهم ، فوالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم مسلم إلى يوم القيامة إلا ردّوا عليه السلام » [٢] .

---

(١) طبقات ابن سعد طبع ليدن جزء ٣ قسم أول صفحة ٨٣ .

(٢) طبقات ابن سعد طبع ليدن جزء ٣ قسم ١ صفحة ٨٥ .

طريد اليأس

لم يذكروا في تلك الليلة ماضيهم الحلو وحاضرهم المرّ ، ولم يتحدثوا عن اوطانهم تلك النائية التي كانوا ينعمون فيها بلذات الحياة ، ويستمتعون فيها بخفض العيش ، ويسيرون فيها سيرة الأحرار ، لا يعرفون لأحد غير قيصر وعماله عليهم سلطاناً، وقد يعرف لهم غيرهم كثيراً من السلطان والبأس ، وقد يقدّم اليهم غيرهم كثيراً من آيات الطاعة والإذعان . ولم يسمُروا بهذه الأحاديث التي تعودوا ان يسمروا بها إذا فرغوا من أعمالهم وانصرفوا الى راحتهم ولقي بعضهم بعضاً حين ينقضي النهار ويتقدم الليل، والتي كانوا يستعيدون بها حياتهم تلك الجميلة المشرقة ، ويستحضرون بها مواطن لذاتهم ونعيمهم ، هناك حيث لا يشتد القيظ حتى يُنضج الجلود ويصهر الأجسام ، وحيث لا تقع العين على الجبال الجرد والوهاد المقفرة ، وحيث لا تضيق الأرض بالناس ولايضيق الناس بالأرض ، وحيث يستقبل الناس أيامهم راضين باسمين ، ويستقبلون لاهين عابثين. كلا ! ولم يسمروا في تلك الليلة بما كانوا يسمرون به من ذكر الفاتنات المفتونات اللاتي كن يحوّلن حياتهم احلاماً ، ويجعلن جدّهم لعباً ، ويُسرّين عنهم كل همّ ، ويغرين بهم كل نعيم، يخلبنهم باللفظ واللحظ ، ويعذبنهم بالدّل والتيه ، ويسعدنهم بالقرب والوصل.. كلا ! ولم يسمروا في تلك الليلة بأحاديث قيصر وقصره ، ولا بأنباء الحاكم وحاشيته ، ولا بقصص الحرب بين الفرس والروم . وأين هم الآن من قيصر وقسطنطينيته !! وأين هم الآن من تلك الثغور الباسمة القوية التي كانت تبسم لأهلها كأنها الجنـات ، وتعبس لأعدائها كأنها الجحيم ! وأين هم الان من الفرس والروم ! وأين تكون مكة من ميادين الحرب بين الفرس والروم ! كلا ! لم يسمروا في تلك الليلة بما كانوا يسمرون به أحياناً من احاديث ساداتهم ومواليهم ، ومما كان يتصل بينهم من التنافس والجهاد ، ومما كان يُدبّر بينهم من الكيد والمكر ، ومما كان يجتمع لهم من الغنى والثراء ، ومما كان يُلم بهم من الحوادث والخطوب . كلا ! ولم يسمروا في تلك الليلة بما كانوا يسمرون به أحياناً من أحاديث هذه القوافل التي تفصل من مكة الى الشام ، فتمضي معها نفوسهم تسايرها في تلك الطرق البغيضة التي يذكرون طولها وثقلها حين قطعوها عُناة أذلاء ، يساقون

إلى مكة عبيداً أرقاء ، والتي كانت تعود الى مكة قافلة من الشام تحمـــل من أرض قيصر أنباء مختلطة وأحاديث مشوهة مضطربة ، ولكنهم كانوا يتلقفونها ثم يتناولونها بالتأليف والتصنيف ، وبالتحليل والترتيب ، حتى يكوّنوا منهـــا شيئاً مستقيماً أو كالمستقيم ، ثم يتخذون منه علماً بأمور أوطانهم تلك التي لم يبق لهم اليها سبيل .

كلا ! لم يسمروا في تلك الليلة بشيء من هذا ؛ لأن أحاديث مكة شغلتهم عن كل هذا . وما لهـــا لا تشغلهم وصاحبهم سِيـاسُ قد اشترك فيهـــا وأثار كثيراً منها !! وها هو ذا قد اتخذ مكانه بينهم كئيباً كاسف البال ، محزوناً بادي الحزن ، قد اضطربت نفسه اشد اضطراب ، وهو يتحدث اليهم في صوت متقطع مظلم كأنمــا أسبغ الحزن والدم واليأس عليه ظلمـــة كثيفة متراكمة لا تنكشف عن شيء . وما له لا يكتئب ولا يبتئس ! وما له لا يحزن ولا ينـــدم ! وما له لا يفزع ولا يجزع ، وقد سفكت يده المسيحية دماً بريئاً ولما ينتصف النهار !!

وكان هؤلاء النفر جماعـــة من نصارى الروم دفعوا الى بعض أطراف الصحراء ، وعدَتْ عليهم بعض القوافل فاتخذتهم تجارة ، وتقلبت بهم احوال الرقّ حتى انتهوا الى ملك جماعة من سادة قريش . وكان لسياس أنقاهم ضميراً ، وأصفاهم قلباً وأعظمهم حظاً من الدين . وكان لهذا كله أصبرهم على ما ألمّ به من كرب ، وأحسنهم احتمالاً لما سُلط عليه من محنة ، وأعظمهم رضاً بهذه النكبة التي كان ينظر اليها على انها اختبار له ، وابتلاء لإيمانه ، وامتحان لثقته ، وتهيئة لنفسه لتحيا حياة السعداء إذا انقضت إقامتها في هذا العالم الشقي البغيض . ولكنه أظهر في تلك الليلة غير ما تعود أن يظهر لأصحابه من الجلد والصبر ، ومن الإباء والإحتمال . وهم يعزّونه ويرفقون به في العزاء. وهم يلومونه ويعنفون عليه في اللوم . وهم يأتون نفسه من جميع انحائهـا يريدون ان يصرفوها عن هذا الحزن العميق ، وان يصرفوا عنها بعض الهم الثقيل ، ولكنهم لا يبلغون منه شيئاً ولا يزيدونه إلا إغراقاً في الحزن وغلوّاً في اليأس . وربمـا بلغوا بأحاديثهم قرارة نفسه فأثاروها ودفعوه الى الحديث ، فاذا هو يتكلم بكلام تقطعـه العبرات وتبلله الدموع .

وكان لسياس ملكاً لصفوان بن أمية ، وكان قد أنفـــذ في ذلك اليوم أمره في أسير من أسرى الأنصار يقال له زيد بن الدّثنة ، دفعه اليه صفوان وأمره ان يخرج به من الحرم ، حتى اذا بلغ به التنعيم قتله ثم عاد ولم يكن مثل هذا العمل يحبّب الى لسياس ، ولكنه لم يكن خليقاً ان يدفعه الى مثل هذا اليأس المهلك ، لولا انه عرف

من امر اسيره وصريعه ومن امر اصحابه ما عرف ، ولولا انه رأى من امر زيد ما رأى ، وسمع من امر خُبَيب ما سمع ، وانتهت اليه احاديث اولئك الذين ادركهم الموت قبل ان يحملهم الى مكة ويبيعهم لقريش غدرُ الغادرين من هُذَيل . ولكنه عرف ما عرف ، ورأى ما رأى ، وسمع ما سمع ، فذكر اموراً كان يقرأها في الكتب ، واحداثاً كان يلع لها حين يسمع انباءها من الوعاظ .

ذكر اولئك الشهداء الذين قتلوا في المسيحية تقتيلاً ، والذين امتحنوا بما كتب الله عليهم من ضروب المحن وفنون الكيد ، فلم تضعف نفوسهم ، ولم تَهِنْ عزائمهم ، ولم يفرّطوا في دينهم ، ولم يجد الشك الى نفوسهم سبيلاً .

ذكر اولئك الشهداء الذين اقاموا مجد المسيحية على اشلائهم ، وغذوه بدمائهم ، وايدوه بما لقوه في سبيله من الأذى والآلام . ذكر اولئك الشهداء الذين كان يُكبرهم ويجلهم ، انهم شفعاؤه وشفعاء امثاله عند الله ، وانهم قدوته الصالحة وأسوته الحسنة ومثله الأعلى ، وانه اسعد الناس لو استطاع ان يظفر ببعض ما ظفروا به من عذاب الدنيا ونعيم الآخرة ، ومن ذل الدنيا وعز الآخرة ، ومن هذا الموت الهين السريع الذي تتبعه حياة باقية سعيدة متصلة لا حدّ لما فيها من نعيم .

ذكر هؤلاء الشهداء ، وذكر انه لم يزد حين أطاع امر مولاه صفوان على ان قتل واحداً منهم ، واقترف ذلك الإثم الذي اقترفه الظالمون الذين اضطهدوا الشهداء وفتنوهم ، ثم قدّموهم قرباناً إلى آلهتهم وأوثانهم في الزمن القديم . هنالك اضطربت نفسه اضطراباً ، وزُلزل قلبه زلزالاً ، ورأى حياته كلها وقد استحالت الى شر منكر ، ورأى ما قدّم من الخير وقد استحال الى فساد ، ورأى ما احتمل من الآلام وقد اصبح هباءً . وهنالك ملك الندم عليه أمره ، وملأ اليأس عليه قلبه ، وعجز اصحابه عن ان يَمحوا نفسه بما كانوا يقدّمون اليه من تسلية او عزاء .

على انه لم يكن يحس في نفسه شيئاً من الموْجدة على مولاه صفوان ، ولم يكن يضمر له شيئاً من البغض ، إنما كانت موجدته كلها وحقده كله قسمة بين نفسه وبين امرأة من قريش ، هي سُلاَفةُ بنت سعيد بن سهم زوج طلحة بن عبدالله بن عبد العزّى .

كان واجداً على نفسه أشد الموجدة ، مبغضاً لها أشد البغض ؛ لأنها أثمتْ بقتل هذا الرجل الشهيد . وكان حانقاً على سُلافةَ حاقداً عليها ، لأنها هي أصل هذا الشر ، ومصدر هذا الإثم ، ومنشأ هذا البلاء . وكان يقول لأصحابه : « لولا ان هذه

المرأة الآثمة نذرَتْ ما نذرت، وأذاعت ما أذاعت في أهل البادية ، لما دُفع صفوان الى ما دُفع اليه ، ولما ظفر صفوان بما ظفر به ، ولما اشترى اسيره ، ولما أنفذتُ امره فيه » .

قال أصحابه : « وما نَذْرُ سُلافة ! وماذا اذاعت في الأعراب ؟ » .

قال : « أتذكرون يوم حشدت قريش لحرب صاحبها في يثرب كيف كان اشراف مكة موتورين يأكل قلوبهم الغيظ ، وتملأ نفوسهم الحفيظة ، وتضطرب امامهم اشباح الخزي ! يذكرون هزيمتهم حين لقوا صاحبهم لأول مرة ففعل بهم الأفاعيل ، وترك من اشرافهم صَرْعَى لم يثوبوا الى اهلهم ولم يستمتعوا بتجارتهم تلك الرابحة التي انقذها ابو سفيان . ويشفقون ان يتراءى لهم الموت فلا يثبتوا له ولا يقدروا على النظر اليه فيفروا منهزمين ، كما فروا من قبل ، ويتركوا صَرْعَى من اشرافهم كما تركوا مثلهم من قبل . هنالك اجمعوا امرهم على ان يتقوّوا بالنساء ويتقوا بهن الهزيمة والعار ؛ فاختاروا منهن اعلاهن قدراً وارفعهن شأناً وانبههن ذكراً واقدرهن على دفع الرجال الى غمرات الموت . وكانت سُلافة بين هؤلاء النساء ، خرجت مع زوجها وبنيها الثلاثة ، وعادت مع المنتصرين أيماً ثكلى قد فقدت زوجها وفقدت بنيها » .

ثم سكت لسياس كأنما يستحضر هولاً يروع النفوس ويخلع القلوب . ثم عاد الى حديثه في صوت هادىء بعيد فقال : « إن كانت لوقعة مروّعة حقاً تلك التي كانت عند يثرب ! لقد عادت قريش تتحدث بالأعاجيب . لقد عادت تتحدث بالإخوان يسعى بعضهم الى بعض بالموت . لقد عادت تتحدث بالأمهات يدفعن أبناءهن الى ان يقتل الرجل منهم أخاه . لقد عادت تتحدث بأم مُصعب بن عُمير وقد قُتل ابنها مصعب ، فما كانت لتُظهر عليه حزناً أو جزعاً لأنه كان من خصم قريش وأصحاب محمد . لقد عادت قريش منتصرة تتحدث بأمر سُلافة هذه وقد فقدت زوجها وتلقت ابنيها أحدهما بعد صاحبه يبلغها وقد أصابه السهم ، فتضع رأسه على حجرها وتسأله : يا بُنيّ من أصابك ؟ فيقول ما أدري ، ولكني سمعت قائلاً يقول : خذها وأنا ابن الأقلح ، ثم أصابني السهم . يقول ذلك ثم يجود بنفسه بين ذراعيها . هنالك نذرت سُلافة : لئن قدرتْ على قاتل ابنيها لتشربنّ في قحف رأسه الخمر . وهنالك أذاعت في أهل البادية وأعراب الحجاز أن من جاءها برأس ابن الأقلح هذا فله مائة من الإبل . هذا أصل الشر ، وهذا مصدر البلاء » .

قال قائل : « وأي شيء لا يفعله الأعراب في سبيل جزور فضلاً عن عشرة من

الإبل ! فضلاً عن مائة من الإبل ؟! ». قال لسياس : «والغدر أيسر ما يفعله الأعراب ليبلغوا أيسر من هذا المال » .

« أقبل جماعة من هُذَيل على صاحب يثرب ، فزعموا له أنهم قد آمنوا به وأسلموا له ، وأن دينه قد فشا فيهم ، وسألوه أن يرسل معهم من يفقههم في الدين ويعلمهم شرائعه ، يُظهرون الإخلاص ويضمرون الغدر ، لا يبتغون إلا ان يظفروا بنفر من أهل يثرب يبيعونهم من قريش لتصيب بهم ثأراً وليصيبوا بهم مالاً . ويريد الله لأمر قضاه أن يختار نبي يثرب ستة من أصحابه ، وأن يؤمّر عليهم عاصم بن ثابت بن الأقلح الذي كانت تبتغيه سُلافة ، وأن يرسل هؤلاء النفر من أصحابه مع أولئك الغادرين . فما هي إلا أن يقرُبوا من مكة حتى يظهر الخفيّ ويصرّح الشرّ ويتبين الغدر ، وإذا الذين كانوا يعلنون إيمانهم يستصرخون فيأتيهم الصريخ من هذيل ، وإذا أصحاب محمد يرون الغدر فينحازون الى الجبل . ويعاهدهم أعداؤهم على ألا يقتلوهم ولا يمسوهم بأذى إن هم ألقوْا بأيديهم . فأما عاصم واثنان من أصحابه فيقسمون لا ينزلون على عهد كافر أبداً ، ويقاتلون حتى يُقتلوا . وأما الآخرون فيحبون الحياة ويلينون لها فيستأسرون ؛ ولا يكادون يفعلون حتى يروا الغدر ، فيأبى أحدهم أن يتبع الغادرين وإذا هو مقتول . ويبقى الآخران أسيرين ، يُحملان الى مكة ويباعان فيها . فيشتري أحدهما صَفوان ويأمرني به فأتمّ له ما قُدّر له من نعيم ، ويتم لي ما قدّر لي من شقاء » .

ثم يجهش لسياس بالبكاء ويغرق فيه حيناً ، ثم يعود الى حديثه في صوته ذلك الهادىء البعيد فيقول : « لقد عرفت ورأيت من أنباء هؤلاء الناس ما لم أكن أقدر ان أعرف او أرى . ولولا ان الشقاء مقضيٌّ عليّ ومقدور لي ، لكان فيما عرفت قبل ان أقترف الإثم صارفٌ لي عن اقترافه . ومــاذا كنت أخاف لو عصيت صفوان ولم أسفك هذا الدم الحرام ! ! وأيها أهون عليّ وأيّها كان خليقاً ان أوثره : الموت بيد صفوان أم الشقاء الأبديّ الذي دفعت إليه ؟

« لقد فرحت هذيل بقتل عاصم بن ثابت ، وقالت : مائة من الإبل تدفعها إلينا القرشية حين نأتيها بهذا الرأس ! ثم أقبلوا إليه يريدون أن يحتزّوا رأسه . ولكن ماذا سمعتُ وماذا تسمعون ؟ هذه ظُلّةٌ من الدَّبْر [1] تقوم دونه فتحميه وتمنعهم أن يصلوا إليه . فيقول بعضهم لبعض دعوه حتى يأتي الليل ، فستنصرف عنه هذه الدَّبْرُ وسيخلص لنا رأسه . حتى إذا كان الليل همّوا أن يسعوا إليه ليحتزوا رأسه . ولكن

(١) الدبر هنا : جماعة النحل والزنابير .

ما سمعتُ وماذا تسمعون !! لم يبلغوه ولم يمسوه ، وإنما أقبل السيل فاحتمله ، ومضى به إلى حيث لا تبلغه يد . ولقد حُدِّثت أن هذا الرجل كان قد نذر ألا يمس كافراً ولا يمسه كافر . ولقد حُدِّثت أنه لما امتنع على القوم فقاتلهم وقاتلوه ، رفع صوته ضارعاً إلى ربه وهو يقول : « اللهم إني قد حميت دينك أول النهار فاحم لحمي آخر النهار » . ولما بكى لسياس عند هذا الحديث لم يبك وحده ، وإنما بكى معه أصحابه جميعاً بكاءً طويلاً . حتى إذا تكفكفت [1] عَبْرته وهدأ عنهم البكاء مضى في صمته . ولكنهم ألحوا عليه أن يتم ما بدأ من الحديث . فقال : « وبم تريدون أن أتحدث إليكم ؟ لقد كنت أقرأ أخبار شهدائنا وأسمع أحاديثهم ، فأرهبها وأكبرها وأخافها وأرغب فيها ، وأودّ لو أني حييت في تلك الأيام التي كانت ترخص فيها الحياة ويغلو فيها الإيمان ، وأود لو أني كنت واحداً من هؤلاء الناس الذين باعوا نفوسهم من الله ؛ فقد أتيح لي اليوم أن أعيش في بيئة الشهداء وأن أراهم وأتحدث إليهم وأن أسمع منهم ولكني لم أبع نفسي من الله ، وإنما بعتها من الشيطان ، ولم أسفك دمي في سبيل الله ، وإنما سفكت دم شهيد كريم .

« ولقد سمعت أبا سفيان زعيم قريش يسأله : « أيحب أن يقوم محمد مقامه هذا وأن يكون هو آمناً بين أهله ؟! » فيجيبه : « والله ما أحب أن تصيب محمداً شوكة تؤذيه وأنا آمن بين أهلي » . فيقول أبو سفيان لمن حضر من أشراف قريش : « ما رأيت أحداً يحب أحداً كما يحب هؤلاء الناس صاحبهم » . ثم تمتد يدي الآثمة إلى هذه الحياة الطاهرة فتطفىء سراجها ، وإلى هذا الدم الزكي فتسفكه على الأرض مخافة من غضب صفوان. يا للهول ! لقد كنت أحسب أن صفوان لم يملك إلا جسمي وأن نفسي ما زالت حرة ؛ فقد علمت الآن أني رقيق حقاً . وقد علمت الآن أن سلطان السادة على الأرقاء قد يتجاوز الأجسام إلى النفوس . وقد علمت الآن أن الرجل الذي يرضى بالرقّ ولا يموت دون الحرية إنما يقتل نفسه قتلاً . لقد قتلت نفسي يوم آثرت الحياة وقبلت أن أكون سلعةً في يد أولئك التجار » .

قال رجل من أصحابه : « وإن كان صديقك هذا شهيداً كريماً — وما أراه إلا كذلك — فإن رفيقه الذي قتله بنو الحارث بن عامر لم يكن أقل منه كرامة . ولعل مصرعه أن يكون أشد من مصرع صاحبه ترويعاً للنفس وتمزيقاً للقلب. لم يبسطوا عليه بالشرّ يد مولىً من مواليهم أو عبد من عبيدهم ، وإنما كانوا ظماءً الى دمه ، حراصاً على

---

(١) تكفكفت عبرته : ارتدت .

أن يخمدوا جذوته بأيديهم. خرج به جمعهم الى التنعيم، فلما أرادوا قتله استأذنهم في أن يتقرب الى ربه بالصلاة قبل أن يخطو آخر خطواته في الحياة؛ فأذنوا له، فصلى ركعتين ثم قال لهم: لولا أني أخاف أن تظنوا بي الجزع لزدت. ثم ينهض إليه أحدهم فيقتله ويعودون عنه وإنهم ليتحدثون عن أخلاقه وخصاله بما كان خليقاً أن يصرفهم عن قتله، لولا أن قلوبهم قست فهي كالحجارة أو أشد قسوة. لقد كانوا يقولون: إنهم جعلوا سجنه عند امرأة منهم، وإن هذه المرأة كانت تتحدث إليهم عن امرأة بالأعاجيب. كانت تراه مغلولاً يأكل من الفاكهة والثمر ما ليس لأهل مكة عهد به في مثل هذا الوقت، لاتدري كيف سيق إليه؛ ولقد أنبأتهم أنه حين أظله اليوم الذي كان يراد قتله فيه طلب إليها موسى يتهيأ بها للموت، فأرسلتها إليه مع طفل صغير يدرج، ثم لم تلبث أن راعها ما فعلت وأن امتلأ قلبها رعباً وأن قالت لنفسها: ما يمنع هذا الأسير أن يقتل هذا الصبيّ فيثأر لنفسه قبل أن يدركه الموت!! وأقبلت عليه مسرعة، فإذا هو قد أجلس الطفل على فخذه وهو يداعبه ويلاعبه، وأكبر الظن أنه كان يودّع فيه طفلاً له بعيداً. فلما رأى المرأة مقبلةً وقد أخذها الروع ابتسم لها ابتسامة الحزن، ونظر إلى الطفل نظرة الحب، وقال للمرأة: أشفقت على هذا الصبيّ من الغدر؟ ليس الغدر من أخلاقنا.

« أفمثل هذا الرجل كان خليقاً أن تقدّمه قريش فتقتله لو أن قريشاً تعرف الحق، أو تقدر الخير، أو ترجو لله وقاراً، أو تحس في قلوبها أثراً من آثار الرحمة والبر !! ».

قال قائل منهم: « ما أرى إلا أن لهؤلاء الناس من أهل يثرب شأناً. فلو أنهم يُقيمون أمرهم على شيء من باطل هذه الحياة الدنيا لما استقبلوه بهذا الجزم، ولما احتملوا في سبيله هذه الأهوال، ولما رخُصت عليهم نفوسهم ودماؤهم وأموالهم وأهلوهم إلى هذا الحد. والله إني لأسمع ما يقال وأرى ما يحدث، فلا أشك في أن أهل هذه الأرض يستقبلون عصراً كذلك العصر الذي استقبله أهل بلادنا حين انبعث فيهم رسل المسيح: هذا الإيمان الذي زُين في بعض القلوب حتى زهّدها في كل شيء، هذا اليقين الذي سيطر على بعض النفوس حتى هوّن عليها كل شيء، هذه المعجزات التي تساق إلى الناس في يسر وسذاجة وما كانوا ينتظرونها ولا يرجونها فلا تغرّهم ولا تطغيهم ولا تدفعهم إلى أشر ولا بطر.

« كل هذا دليل واضح على أن السماء لم تقرُب من الأرض قربها في هذه الأيام، وعلى أن أخبار السماء لم تتصل بالأرض اتصالها في هذه الأيام، وعلى أن الله يريد بالناس شيئاً

لم نكن نقدّر أنه كائن ولكنّ أوانه قــد آن . أمّا إني لاحقٌ بهؤلاء الناس إن استطعت إلى ذلك سبيلاً » .

قال آخرون : « مـا أيسر ذلك ومـا أعسره ! وأنى لمثلنا أن يُفلت من سادة قريش ، وإن من حوله مكة من أهل البادية لأرصاداً على من أقبل من يثرب أوْ قصد إليها من الأحرار ، فكيف بالرقيق ! » .

قال لسياس وهو ينتحب : « فكروا في ذلك ودبروا ، وتهيأوا لذلك واستعدوا ؛ فأنتم أهلٌ لهذه الكرامة إن كان الله قد قضاها لكم . أما أنا فقد كتب عليّ الشقاء ، وما أرى أن بحار الأرض لو سُلطتْ على التنعيم تستطيع أن تغسل هذا الدم الزكيّ الذي سفكته هذه اليد الآثمة . »

ثم قـام عنهم يعدو مشتدّاً في العدو ، فلم يروا له بعد ذلك أثراً ولم يسمعوا عنه بعد ذلك خبراً .

نزيل حمص

قال عمير بن عبد الله السلمي لمحمد بن نصر الكلابي : « ان لله فيما يأتي من الأمر لحكمة بالغة ، يفهمها الناس حيناً ويقصرون عن فهمها في كثير من الأحيان . وإن الرجل الرشيق خليق أن يَتعظ بما فَهِمَ ، وألا يُلحّ في تأويل ما لم يفهم ، وأن يطمئن قلبه الى أن حكمة الله بالغة ، وإلى أن قضاءه مُنتهٍ الى الخير دائماً » .

قال محمد بن نصر لصاحبه : « هو ذاك ، وما أظن ان أحداً منا ينكر ذلك أو يماري فيه ، فما حدّثك به ؟ وما هذا التفكير العميق الذي أرى آثاره بادية في وجهك ؟ » .

وكان هذان الرجلان من فتيان قيس ، شديدي البأس ، قد ملأ قلبهما إيمان قوي بالله ، وحفاظ قويّ للعرب ، واعتزاز قوي بالنفس ، وحب قوي للجهاد . وكانا قد مضيا مع الصائفة غازيين ، حتى بلغا ثغراً من ثغور الروم ، فأمعنا في الغزو ولقيا فيه من الجهد والشهد واحتملا فيه من المشقة والبلاء شيئاً عظيماً ، لم يزدهما إلا ايماناً على ايمان ، وحفاظاً الى حفاظ ، وحباً للجهاد الى حبهم القديم للجهاد . وكان الله عزّ وجل قد قضى لهما أن يعودا من هذه الغزوة موفورين فلما بلغا مَأمنهما مع الجيش من بلاد المسلمين نذرا لئن مدّ الله حياتهما حتى ينقضي الشتاء وتستأنف الصائفة من قابل غارتها على بلاد الروم ، ليكوننّ لهما في هذه الغارة بلاء ، وليضعنّ كل واحد منهما نفسه في مقدّمة الجيش المغير . وكانا قد أزمعا من أجل ذلك ألا يُبعدا في الرجوع الى موطنهما ، وأن يُنفقا فصل الشتاء في مدينة من مدن المسلمين المنبثّة في الشام ، والتي فيها الجنود ، قد قُسمت بينها تقسيماً ، ووُزّعت عليها توزيعاً . ولم يكونا من أصحاب الديوان في جند من أجناد الشام ، وانما كانا رجلين قد باعا انفسهما من الله وتطوّعا في الجهاد ، وأقبلا يبتغيان المثوبة ، فلحقا بالصائفة فيمن يلحق بها من المتطوعين ، ولم يصرفها عن حمص أنها لم تكن للمضرّية داراً . وما يريدان الى المضرية أو الى اليمنية وهما يمرّان بهذه المدينة مروراً وينتظران ان ينقضي فصل من فصول العام ويُقبل فصل

آخر ليستأنفا نشاطهما وليقبلا على ما يبتغيان من ثواب الله مجاهدين !!

فلما استقر بهما المقام في حمص أياماً وأسابيع : أخذا يدوران فيها ويتعرّفان بعض أمرها ، ويسمعان الى ما كان يجري على ألسنة أهلها من بعض الحديث . وقلما كان أحدهما يخرج منفرداً ، انما كانا في أكثر أوقاتهما متلازمين ، كأنّ ما دفعهما الى الهجرة من أوطانهما قد جمع بين نفسيهما في الجهد والبأس، كما جمع بين نفسيهما في الرخاء واللين! فقلما كانا يفترقان أثناء الغارة على اختلاف الأحوال وتباين الخطوب التي كانت تعرض للجيش وتلمّ بالمغيرين . وهما الآن لا يفترقان أو لا يكادان يفترقان ، وقد أظلهما الأمن وضمنتهما سلم لا يخافان معها شدة ولا بأساً ولا فراقاً .

ولكنهما في هذا اليوم لم يكادا ينفتلان من صلاة الغداة ، حتى فرّقت بينهما حركة الناس وازدحامهم مسرعين ، كأن هناك أمراً ذا بال يروعهم ويدفعهم الى أن يشهدوا مشهداً يجب أن يشهده الناس . وقد دُفع محمد بن نصر مع المزدحمين واسرع مع المسرعين ، لم يكن له في ذلك رأي أول الأمر ، ولكنه لم يلبث ان حمد ما ادركه من ذلك ، فمضى مع الماضين مختاراً لا كارهاً ، وحرص على ان ينتهي الى حيث كانوا يريدون ان ينتهوا . وقد سمع ما سمع ، ورأى ما رأى ، وامتلأ قلبه بالعظات والعبر، وشغل عقله بالتفكير المتصل العميق . حتى اذا تفرق الناس وكلهم يملأ نفسه العجب عاد الى صاحبه يحدثه بما سمع ، ويحدثه بما رأى ، ويبدأ حديثه بهذا الكلام الذي اوجزته لك آنفاً .

فلما سأله صاحبه عما به قال : « لقد شهدت اليوم أمراً عظيماً : شهدت جنازة رجل ملأ قلوب الناس حباً وبغضاً ، ورضاً وسخطاً ، وأثار في نفوسهم كثيراً من الحفيظة بل حفيظة لا تنتهي ، وأثار في نفوس الناس كذلك إعجاباً وإكباراً ، وأطلق ألسنة الناس بالذم الشنيع ، وأطلق ألسنة الناس بالثناء الكثير ، ورسم على وجوه الناس آثار الموجدة المنكرة ، ورسم على وجوه الناس كذلك آثار الاعتراف بالجميل ، ورسم على وجوههم بين ذلك ابتسامات فيها سخرية وازدراء ، وفيها عطف وإشفاق. ثم رأيت الناس يعودون من تشييعه الى قبره وإن الحيرة لتملأ قلوبهم ، وإن الشك ليضطرب في نفوس كثير منهم ، وإنهم على هذا كله ليقولون فيما بينهم مثل ما كنت أقوله لك منذ حين ، وإنهم على هذا كله ليظهرون الثقة بحكمة الله البالغة و الاطمئنان الى عفوه الذي ينال به من يشاء » .

قال عمير بن عبدالله : « ما رأيت كاليوم رجلاً يُؤثر التلميح على التصريح ، ويقصد

الى الغموض دون الوضوح . فحدثني بحديثك - لا أبا لك - ولا تُطل ، فما تعودت منك إطلالة ولا إملالاً » .

قال محمد بن نصر : « فالله يعلم ما آثرت تلميحاً ولا اجتنبت تصريحاً ولا قصدت الى غموض ولا تنكبت وضوحاً ، وإنما أصور الك نفسي كما أجدها . وما أدري كيف أتحدث اليك بهذا الحديث ، وما أعرف من أين آخذه : آخذه من مبتدئه أم آخذه من منتهاه ، أم آخذه بما بين ذلك ؛ فإن كل موضع منه تملؤه العبرة والعظة ، وتظهر فيه هذه الروعة التي تتأثر لها القلوب وتفكر فيها العقول . إنه رجل لم يعرف الناسُ من أول أمره إلا انه كان عبداً حبشياً لسيد من سادات قريش في مكة وهو جُبير بن مُطعم . وكانوا يرونه فتى شديد البأس عظيم الأيد ، شجاعاً جريئاً ، يعمل لسيده فيما يعمل فيه الرقيق . . ولو أن الرقّ لم يعرض له لكان خليقاً أن يسود في بلده وبين قومه هؤلاء السود . ولكن الرقّ عرض له كما عرض لكثير من أشراف الروم والفرس ، فألقاه الى هذا الحيّ من قريش ، وفرض عليه ما يفرض على الأرقّاء من الخنوع والخضوع ومن الذلة والهوان ، ومن العمل فيما لا يعمل فيه أصحاب النجدة والمروءة من الناس : وكان هذا الفتى ضيّقاً بحياته أشد الضيق ، منكراً لها أعظم الإنكار ، جامحاً حين يتاح له الجموح ، شامساً حين يتهيأ له الشموس ، لا يُخفي بُغضَه للرّق وطمعه في الحرية مهما يكلفه ذلك من غضب سادته وزجرهم ، وإعناتهم له وإلحاحهم عليه بالإعنات . وكانت قريش قد لقيت من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه جهداً شديداً يوم بدر ، وفقدت جماعة من ساداتها وأشرافها ، وذاقت الهزيمة المنكرة ، وذاقت فَقدَ الأحباء ، وذاقت هذا الذلّ الذي يكره العرب أن يذوقوه ، ذُلّ الموتور الذي لم يُدرك وتْرَه . وكانت قريش تتجهز لإدراك الوتر والأخذ بالثأر ، وشفاء حزازات النفوس ، وإرضاء قتلاها من أهل الحفير . وكان جبير بْن مطعم قد فقد عمه طُعيْم بن عديّ يوم بدر ، وكان حريصاً على أن يثأر به وينتقم له من قاتله . ولم يكن قاتله إلا حمزة بن عبد المطلب عم النبي ، وأسد الله وشجاع قريش ، وحامل لواء المسلمين لأوّل ما عُقد اللواء » .

قال عمير بن عبد الله : « فإنك إنما تتحدث عن وحشيّ ، فما خَطبه ؟ وما الصلة بينه وبين هذا الرجل الذي شهدتَ جنازته منذ اليوم ؟ » . قال محمد بن نصر : « فإن هذا الرجل الذي شهدت جنازته منذ اليوم هو وحشيّ نفسه » .

قال عمير : « ليتني عرفت مكانه من هذه المدينة حين أقبلت اليها ، إذاً لسعيت

إليه ، ولسمعت منه ، ولسألته عن بلائه ذلك المنكر » .

قال محمد بن نصر : « وكذلك قلت لنفسي أنا منذ حين ، ولكني رأيت من رآه، وسمعت ممن سمع منه . ولقد رأى من رآه رجلاً كان خليقاً أن يُرَى ، وإن الذين سمعوا منه ليتحدثون من أمره بالأعاجيب . قال له سيده حين أجمعت قريش أمرها : إني أرى شوقك إلى الحرية وكَلَفَكَ بها ، وإسرافك في الجموح ، وامتناعَك عما لا ينبغي لمثلك أن يمتنع عنه من الطاعة والإذعان لمواليه . وإني أعرض عليك هذه الحرية التي تهواها . فإن شئت فأدّ ثمنها ، وما أظنك تفعل . قال العبد : « فقد شئتُ أن أؤدّي إليك ثمن هذه الحرية لو اني أستطيع أن أبلغه في جو السماء أو في أقصى الأرض » ، قال جبير : « فإنه أدنى إليك من ذلك ، إنه في يثرب ، فاذهب مع قريش في حربها هذه التي تتجهز لها، ثم عُدْ إليّ بمقتل حمزة وأنت بعد ذلك طليق ».

قال العبد : « أمّا أني ذاهب مع قريش فعائد إليك بمقتل صاحبك أو لاق من دون ذلك الموت ؛ فهو أهون عليّ وآثر عندي من حياة الرقيق » .

ولقد سمع الناس منه حديثه عن ذلك البلاء المنكر الذي أبلاه يوم أحد ، وما أرى إلا أنك تعرفه كما أعرفه ، فقد أخذ يرقب حمزة وهو يقوم من المسلمين مقام الأسد يذود عن أشباله ، يَهُدّ الجيش بسيفه هدّاً [1] ، والناس يرونه من بعيد كأنه الجمل الأوْرَق [2] ، فتمتلىء قلوبهم لمنظره رعباً وينصرفون عن موقفه انصرافاً ، وهو يتحدّاهم ويدعو فرسانهم ومغاويرهم . والعبد قائم قد استتر عنه بشجرة ينظر إليه ويرتقب غفلته ، وحمزة لا يراه ولا يحس بمكانه . فلما أمكنته الفرصة هزّ حربته حتى رضي عنها ، ولم يكن له بغير الحربة من السلاح علم . فلما تهيأت له الرمية رمى ، وإذا الحربة تُصيب حمزة في مقتل فيخرّ صريعاً ، والعبد قائم مكانه لا يريم، يرقب أسد الله صريعاً بعد أن كان يرقبه جائلاً في الميدان . فلما استوثق من أن صريعه قد قضى ، أقبل يسعى إليه فانتزع حربته ، ثم عاد إلى المعسكر فأقام فيه . لم يصنع قبل مقتل حمزة شيئاً ، ولم يصنع بعد مقتل حمزة شيئاً . وما يعنيه من أمر هذه الحرب بين قريش والأنصار ! وإنما أقبل يشتري حريته بمقتل هذا الرجل العظيم ، وقد ظفر بما أراد . فانتظر قفول قريش إلى مكة ، ولم يشهد ما كان من تمثيل هند وصاحباتها بعم النبي ، ولم يشهد ما كان من حزن النبي حين رأى عمه في

---

(١) الهذ : سرعة القطع .

(٢) الورقة (بالضم) سواد غبرة أو هي سواد في بياض كلون الرماد .

منظر لم ير ﷺ قط منظراً أوجع له وأثقل عليه منه .

ولم يسمع العبد نذير النبي حين أقسم لئن أظفره الله على قريش ليمثلن منهم بسبعين مُثلة لم تعرفها العرب قط . ولم يعلم العبد أن النبي قد رُدَّ عن ذلك ردّاً ، وأن الله قد أنزل في ذلك قرآناً ، وأن النبي قد تلا قول الله عز وجل : « وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم به ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابِرِينَ . واصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِالله ، وَلا تَحْزَنْ عَلَيهِمْ وَلا تَكُ في ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللهَ مَعَ الذين اتقَوْا وَالذين هُمْ مُحسِنونَ » .

ولم يعلم العبد أن النبي قد اضطرّ إلى أن يكفر عن يمينه ، ثم لم يعلم العبد أن النبي قد عاد إلى المدينة محزوناً آسفاً ، فلما سمع نساء بني عبد الأشهل يبكين قتلاهن قال : « ولكنّ حمزةَ لا بواكيَ له ! » وسمع ذلك منه الأنصار ، فأرسلوا نساءهم يبكين حمزة عند بيت النبي ، وخرج نساء النبي فبكين معهن حتى ردّهن النبي داعياً لهن ، ثم أصبح فنهى عن البكاء .

لم يعلم العبد من هذا شيئاً وماذا يَعنيه من هذا ! إنما كان يريد حريته وقد بلغها. وماذا صنع البائس بحريته ! ! لم يَعدْ إلى بلده ، وكيف سبيل العودة إليها ! ! ولم يَسدْ في مكة ، وكيف السبيل إلى السيادة فيها !

إنما عاش بين قريش حرّاً كالعبد ، وطليقاً كالأسير . نعم ! لم يعلم بشيء من هذا .

ولكنه علم ذات يوم أن جيوش المسلمين مقبلةٌ على مكة ، ورأى ذات صباح جيوش المسلمين تدخل مكة ، واستيقن العبد أنه مقتول إن ظفر به المسلمون ، ففرّ وانطلق في الأرض يلتمس لنفسه مأمناً فلا يجده . هؤلاء المسلمون ينتصرون على العرب يوم حُنين ، وهذه أرض العرب كلها تذعن للنبي ، فأين الملجأ من الله إلا الى الله ! ! لقد أوى العبد الى الطائف ، وقاوم فيها المسلمين ما قاومهم أهلها. ولكن وفد الطائف يتهيأ للسفر الى المدينة ، وما هي إلا أيام حتى تذعن الطائف لما أذعنت له مكة . والآن يفكر العبد في مهاجرة البلاد العربية كلها . ولكن كيف السبيل الى الهجرة ؟ لقد أخذتْ عليه سبيلُ الحبشة ، وأخذت عليه سبيل الروم ، وانبسط سلطان النبي على الشمال والجنوب . لقد كانت الهجرة ميسورة قبل الآن ، فأما الآن فقد تقطعت من دونها الأسباب .

هنالك يُلقي بعضُ الناس في نفس العبد أن النبي لم يقتل قطّ رجلاً جاءه مسلماً . وإن النبي لجالس بين أصحابه ذات يوم ، وإذا رجل قائم على رأسه يشهد أن لا إله إلا

الله وأن محمداً رسول الله ، وينظر النبي فيرى العبد فيعرفه ولكن الله قد عصم دمه بالإسلام . وما قتل النبي قطّ رجلاً جاءه مسلماً وإن كان قد قتل عمه حمزة . فيأمر النبي ذلك العبد أن يجلس ويحدّثه كيف قتل عمه . وهذا العبد قد جلس ، وهو يعيد على النبي بلاءه المنكر ، وحديثه يملأ قلب النبي حزناً ولوعةً وأسى ، والعبد بين يديه ، لو أراد لأرضى حزنه ولوعته بصرعه ، ولكن أنّى له ذلك وقد اعتصم العبد بالإسلام !!

وقد آثر النبي أن يعفو ، وآثر أن يصبر . أليس قد عفا عن هند وقد مثلت بعمه ولاكت كبده ، وجدعت أنفه وأذنيه ! فما له لا يعفو عن عبد مأمور ! ولكنه قال للعبد : « غيِّبْ وجهك عني » . فجعل العبد لا يرى رسول الله إلا تنكب طريقه واجتنب لقاءه .

وعاش وحشيّ في المدينة حرّاً كالعبد ، وطليقاً كالأسير ، وجعل الندم يحزّ في قلبه حزّاً ، ويمزّق فؤاده تمزيقاً ، ويؤرقه إذا جنّ الليل . ويعذّبه إذا أقبل النهار .

ولكن العرب يرتدّون ، ويذهب خالد بن الوليد لقتال مُسيلمةَ ، وهذا العبد يذهب معه ليقاتل في سبيل الله بعد أن كان يصدّ عن سبيل الله .

وهذا العبد يهزّ حربته ذات يوم كما هزّها يوم أحد ، ويتهيأ لرميها كما تهيأ يوم أحد ثم يُطلقها كما أطلقها يوم أحد ، وإذا هي تصيب رجلاً فتصرعه ، وإذا الحربة التي قتلت حمزة قد شاركت في قتل مسيلمة ، وإذا وحشيّ قد قتل خير الناس ، وقتل شرّ الناس !

وقد عفا النبيّ عن قاتل عمه ، وعفا المسلمون عن قاتل أسد الإسلام . ولكن نفس وحشيّ لم تعفُ عن وحشيّ ، ولكن دم مسيلمة لم يغسل من نفسه دم حمزة !

وهذا العبد الحر يمضي مع جيوش المسلمين غازياً ، فيقاتل الروم وينتصر مع المنتصرين ، ويستقر مع المستقرين في مدينة حمص هذه . ولكن بلاءه أيام الرّدة ، وبلاءه أيام الفتح ، وما احتمل في هذا كله من جهد ، وما ناضل في هذا كله عن الإسلام ، لم يغسل عن نفسه دم حمزة ، ولم يبرىء نفسه من الندم لمقتل حمزة . ولم يبلغ الإسلام من قلب هذا الرجل ما بلغ من قلوب كثير من الناس فيمحو من قلبه ما قدّم في جاهليته . وإذا هو يستعين على الندم بالخمر ، وإذا هو يشرب ويسرف في الشرب ، وإذا هو يُضرَبُ في الشراب فلا يمنعه الحدّ في معاودة الشراب . وإذا هو معروف في أهل حمص بما قدّم من خير وشر . وإذا هو معروف في أهل حمص بسكره

إذا سكر ، وبصحوه إذا صحا . وإذا هو يسكر حتى يُصبح مخوفاً على من يدنو منه ويصحو حتى يصبح عاقلاً حلو الحديث . والنــدم يُلحّ عليه حتى يُبغّضه الى نفسه تبغيضاً ، ويصرفه عن الصحو صَرفاً . وكلما مضت عليه الأيام ازداد إمعاناً في الشراب والسن تتقدم به ، وجسمه يضعف شيئاً فشيئاً ، وعقله يذهب قليلاً قليلاً ، والنــدم ماثل مع ذلك في نفسه ، مُلِمّ ، بداره ، يأخذه من كل وجه ، وهو لا يجد سبيلا الى الفرار منه إلا الى الشراب . وهو يُضربّ في الشراب وقد ضعف وفــني فلا يحتمل الضرب فيموت . ونشهد جنازته اليوم .

أرأيت أني لم أكن ملحاً ولا مؤثراً للغموض حين كنت أحدّثك بما كنت أحدثك به من هذه العواطف المختلفة التي كانت تثيرها جنازته في نفوس الناس ؟ » .

قال عمير : « أشهد أن حكمة الله بالغة ، وأن الرجل الرشيق خليق أن يتعظ بما فهم من قضاء الله ، وأن يطمئن الى عدل الله وعفوه إذا أشكلت عليه الأمور » .

قال محمد بن نصر : « فإني لا أعرف شيئاً يغسل عن النفس إثمها وينقيها من السيئات كهذا الذي نحن فيه من جهاد عدو الله ما وجدنا الى هذا الجهاد سبيلا » .

الوفاء المر

- ١ -

أقبل الفتى على أمه وعمه جذلان مبتهجاً ، قد تألق وجهه بشراً ، ولكن الحزم والعزم ظهرا في عينيه الحادّتين وفي صوته الممتلىء الهادىء الرزين . ولم يكن كعب قد أتمّ السابعة عشرة من عمره ، ولكنه كان قويّ الجسم ، مرتفع القامة في السماء ، كثير الحركة ، عظيم النشاط ، في نفسه حزن دفين يظهر في صوته إذا تحدّث الى الناس ، وفي خواطره التي كان يديرها في رأسه كئيبة قاتمة ، ويخرجها الى لدّاته وأترابه عابسة شاحبة لا حظّ فيها للرضا ولا للابتسام .

وكان لداته وأترابه يتحدثون عنه إذا لم يشهدهم ، فيذكرون التناقض بين حركته الدائمة ونشاطه ، وبين نفسه الحزينة وباله الكاسف ، ويقول بعضهم لبعض : ما نظن هذا النشاط المتصل والحركة العنيفة ، إلا وسيلة يتخذها كعب ليتسلى بها عن هذا الحزن الخبيء الذي لا يريد أن يُظهره ولا أن يبوح به ، والذي يحميه في أعماق ضميره كأنه حَرَمٌ لا ينبغي لغيره أن يبلغه أو يَظهرَ عليه .

وكانت أمه تجد مثل ما يجد أصحابه من الإشفاق عليه والرثاء له ، ومن إنكار هذا التناقض بين جسم مضطرب نشيط ونفس ساكنة هادئة حزينة . ولكنها كانت تعلم من أمر هذه النفس الهادئة الحزينة أكثر مما كان يعلم أصحاب الفتى .

وكانت تتحدّث عن حزن الفتى واكتئابه الى عمه الشيخ إذا خلتْ اليه . وكان الشيخ يسمع لها ويُصغي اليها ، ثم ينظر الى وجهها المشرق الذي يترقرق فيه حزن رقيق ، تخفي أصوله في نفسها نظراتٌ طويلة ، ثم يقول لها في هدوء متكلف وأناة مُصطنعة وصوت يكاد يتفجّر فيه الغيظ المكظوم : « مَهلاً مهلاً يا أسماء ! فإن الأوان لم يَئِنْ بعد » . وكانت أسماء تسمع من الشيخ هذه الجملة التي يكررها كلما

تحدّثت اليه في أمر الفتى ، فلا تزيد على أن تلزم الصمت ، وتقطع الحديث ، وتُرسلّ دموعاً هادئة تنحدر على وجهها الجميل، ثم تُسرع الى هذه الدموع فتكفكفها، ثم تنصرف عن الشيخ ساعة ، ثم تعود اليه مشرقة الوجه باسمة الثغر ، كأنها لم تقل له شيئاً ولم تسمع شيئاً ، وكأن دموعها الغزار لم تغسل وجهها الجميل .

وكانت أسماء قد وصلت بابنها الصبيّ الى هذه المدينة من مدن الشام منذ أكثر من عشر سنين ، تحمله بين ذراعيها ولا تُخلي بينه وبين الحركة الحرّة إلاّ قليلا لكثرة ما خافت عليه ، ولكثرة ما تعرّضت وتعرّض معها له من الهول . فلما انتهت الى المدينة تلقاها الشيخ فأحسن لقاءها، وسمع منها حديثها فأحسّ له ألواناً مختلفة من العواطف : أحسّ الغيظ والحنقّ ، وأحسّ الثورة والغضب ، وأحسّ الرحمة والإشفاق ، وأحسّ البرّ والحنان ، وقال لامرأة أخيه آخر الأمر : « أقيمي يا أسماء وادعةّ مطمئنة ، فقد بلغت مأمنك وانتهيت الى دارك ، ولك عليّ ألاّ تجدي في هذه الديار إلا ما ترضينَ ، وأن أقوم على هذا الصبيّ كما كان أبوه يريد أن يقوم عليه ، لا أسألك في ذلك إلا أمرين : ان تفرُغي للصبيّ حتى يتمّ رجلا كامل الخلق موفور القوة ، ولك بعد ذلك ان تفرغي لنفسك فتلتمسي الزواج وتستأنفي الحياة ، وان تكتمي على الصبيّ أمر ابيه فلا تنبئيه منه بشيء حتى أوذّنك بأن الأوان قد آن » .

قالت أسماء وقد شاع في صوتها من الأسى ما يُذيب القلوب : « واحسرتاه ! وهل أستطيع ان افرغ لشيء غير هذا الصبي الناشيء ! وغير ذكرى ذلك الشيخ الذي مضى ولم يترك مع ابنه إلا لوعةّ ما أراها تهدأ ، وحباً ما اراه ينجلي عن هذا القلب البائس !! لن افكر في هذا الصبي أعدّه ليكون لي خلفاً من أبيه . فأما الزواج فقد قضيت أربي منه . واما الحياة فقد اخذت منها كل ما اعطتني ، فما أطمع منها في شيء وما أرجو منها خيراً . ولقد ودعت حياة الزواج يوم ودّعت أبا كعب ، فمضى الى الموقعة ، ومضيت الى هذا الوجه من أرض الشام . ولقد اردت ان أطيل وداعه، وان استرسل معه في بعض الحديث ، وان اعاهده على الوفاء له ، وأن اقسم له على أني سأظل له زوجة إن قضى كما كنت له زوجة قبل ان يتعرض للموت . ولكنه لم يُرد أن يسمع لي ولا ان يُصغي إليّ ، ولا ان يُطيل موقف الوداع ، وإنما نظر إليّ نظرة فيها الحب والغضب معاً ، ورفع ابنه فقبله بين عينيه ، ثم دفعه إليّ في شيء من العنف ثم تحوّل عني . حتى اذا استقلت الإبل ودفعت في طريقها إلى الشام، تلفتّ فاذا هو قد استدار وجعل يتبعنا بصره وهو قائم لا يتحرك ولا يظهر على وجهه الا هذا الغيظ

المروّع الذي رأيته فأنكرته حين عاد إليّ من ناديه آخر النهار . فلما أبى ان يسمع لي ويتلقى قسمي عاهدتُ نفسي وقد عجزت عن ان اقسم له . ثم لاقيت في الطريق ما تعلم من خطب ، وتعرضت لما تعلم من هول ؛ فلم تُبق الحوادث مني لحياة الزوجات شيئاً ، ولكنها أبقت مني لحياة الأمهات كل شيء».

قال الشيخ: « وتكتمين على الصبيّ أمرَ ابيه حتى أوذنك بأن الأوان قد آن».
قالت : « ذلك لك، وإن كنت لا أعرف كيف أجد السبيل الى الكتمان»

وأنفقت اسماء اعواماً واعواماً، تُنشىء ابنها وتحدب عليه في ذَرَا البرّ العنيف الماكر من شيوخ يهود في الشام . حتى اذا تقدمت السنّ بالفتى وعرف نفسه ونظر ، فلم يجد حوله إلا امه وعمه سأل عن ابيه ، فأنبأته امه باسمه ومكانته من قومه وبأنه قد لقي مصرعه في بعض ما يلقى الناس فيه مصارعهم من الحوادث التي تعرض ، والخطوب التي تلمّ هناك في الأرض البعيدة التي هاجر اليهود اليها بجريتهم فيما مضى من سالف الدهر.

وجعل الفتى يسأل أمه ويلحّ في السؤال يريد ان يعرف عن ابيه اكثر من ذلك فلم يجد منها إلا مداورة والتواء ، فلجأ الى عمه فلم يجد عنده إلا مثل ما وجد عند أمه من المداورة والمراوغة والالتواء . هنالك ارتاب الفتى وأثر الشك في نفسه آثاراً عميقة . وهنالك تعقدت الامور في ضمير الفتى، فأحس الخوف من هذا السر الذي تخفيه عليه أمه ويحجبه عنه عمه ، وأحسّ الكبرياء التي منعته من الإلحاح في السؤال مخافة أن يعلم ما يغضّ من نفسه امام نفسه، وأحس الإشفاق على هذه الأمّ الجليلة البرّة الحزينة أن يكون في إلحاحه عليها ما يؤذيها ، أو أن يكون في جوابها له ما يؤلمه . فكفكف الفتى على نفسه، وأسرّ الحزن في ضميره ، وجاهد الهمّ ما استطاع إلى جهاده سبيلا ، فلم يَقهر الهمّ ولكن الهمّ لم يقهره . وكانت الحركة الدائمة والنشاط المتصل وسيلته إلى هذا الجهاد ، فكان لا يُصبح إلا أسرع إلى الخروج من داره ، واضطرب فيما يضطرب فيه شباب العرب في هذه المدينة القائمة في طرَف من أطراف الشام . صراعٌ وجلادٌ وخروج إلى الصحراء القريبة للصيد مرة ولمجرد الإيغال في الصحراء مرة أخرى ، وحديثٌ إذا شقّ على الفتى وأترابه ما ينفقون وقتهم فيه من الحركة والاضطراب . ولكنه لم يستطع قط أن يمنح الحياة ابتسامة نقية من الشوائب ، كما لم يستطع قط أن يتلقى من الحياة ابتسامة بريئة من العبوس .

فلما كان ذلك اليوم أقبل الفتى على أمه وعمه جذلانَ فرحاً يتألق وجهه بشراً ولا يفارقه مع ذلك حزنه العميق . ولم يكد يراهما حتى قال لهما في صوت متقطع قد

امتزج فيه الأمل باليأس : « تهيأ للرحلة ، فليست هذه المدينة لكما بدار منذ اليوم » .

فوجمت الأم ولم تحر جواباً ، وتماسك الشيخ ونظر إلى ابن أخيه نظرته الطويلة العابسة الماكرة ، وقال في هدوء متكلف : « وما ذاك ؟ » . قال الفتى : « ذاك أن جيوش هذه الصابئة من أصحاب محمد قد دنت من أرضنا ، وأن نائب قيصر يستعد للقائها ، وقد هيأ جيوش الروم وأذن في أهل الشام من العرب بالنفير العام. وما أرى إلا أن هذه المدينة ستكون موضعاً للصراع بيننا وبين هذه الصابئة » .

قال الشيخ وهو محتفظ بهدوئه المتكلف : « وما نحن وهذا الصراع يا بني ؟ نصارى ومسلمون يقتتلون ، سنرتحل وسنخلي بينهم وبين ما يملأ قلوبهم من الحقد والبغض » . قال الفتى : « سترتحلان ! أما أنا فمقيم » . قالت أسماء : « أما أنت فمقيم ! وما تريد أن تصنع في دار الحرب ؟ وكيف تقدر أننا سنرتحل من دونك ؟ » .

قال الفتى : « سترتحلان لأنكما لا تقدران على الحرب ، وليس لكما فيها أرب ، وسأبقى أنا لأني أقدر على الحرب ، ولأن لي فيها أرباً » . قالت أسماء : « لك في الحرب أرب ! وما هو ؟ » . قال الفتى : « هو أن أجد فيها من الجد ما يشغلني عن نفسي ويصرفني عن همي . فإن لقيت فيها الموت فسأستريح من حياة لم أجد فيها إلا عناء وحزناً » .

وتحطم صوت الفتى وجرت دموعه على خديه ، فنهضت إليه أمه تضمه إليها وتمزج دمعها بدمعه ، وثبت الشيخ في مكانه هادئاً ينظر إلى الفتى وأمه نظرته تلك الطويلة العابسة الماكرة ، ثم انفرجت شفتاه عن هذه الجملة التي قالها وهو ينهض متثاقلاً : « لقد آن الأوان يا أسماء ! » .

– ٢ –

وانصرف الشيخ وترك الفتى واجماً ، وأمه تنازع شيئاً من حيرة طارئة . ولكن لم يمض إلا قليل حتى ثاب الفتى الى نفسه ، وخلصت الأم من حيرتها ، فنظرت الى ابنها نظرة فيها كثير من الحنان ، وفيها كثير من الوجد ، وفيها كثير من الغيظ الدفين . ثم أخذت بيد ابنها فأجلسته وجلست الى جانبه ، ثم أحاطت عنقه بذراعها وضمته اليها ، ثم قالت : « فأنت إذاً تريد أن تحارب يا بني ؟ » . قال الفتى : « نعم ! »

قالت الأم : « مَنْ تريد أن تحارب ؟ » . قال الفتى : « أريدُ أن أحارب هذه الصابئة التي تُغير على أرض قيصر ، وتريد أن تُجلينا عنها أو ان تتخذنا لها عبيداً وخدماً » .

قالت الأم : « فإنك لن تفعل من هذا شيئاً يا بُنيّ إلا أن تكون ابناً عاقاً يُنكر أباه » . قال الفتى وقد وَجم : « ماذا تقولين ؟ وماذا أعرف من أمر أبي ؟ وكيف يكون قتالي لهذه الصابئة التي اضطهدت يهود فقتلتهم وعذّبتهم وأجلتهم عن ديارهم إنكاراً لأبي وجحداً لحقه عليّ ؟ » .

قالت الأم : « إن الأمر يا بنيّ لأعسر مما تظنّ ! لقد هيأك عمك لتثأر لأبيك وليهود من هؤلاء الذين تسميهم الصابئة . ولقد صابرته وطاولته ومالأته على ما فعل وشاركته فيما أراد ، وكنت أستجيب في ذلك لعواطف نفسي واهوائها ، وكنت أستجيب لهذه العصبية التي يجدها أبناء يهود جميعاً على هؤلاء الذين قتلوهم وعذّبوهم وأجلوهم عن ديارهم كما تقول. وكنت أستجيب لشيء آخر يا بُنيّ هو حبي لك وحرصي على تنشئتك وحمايتك من غوائل الدهر ، ووفائي لعمك هذا الشيخ الذي مَنحنا من العطف والبر والحنان ما مكنني من أن أبلغ بك هذه السن وأصير بك الى هذهالحال. ولقد انصرف عنا الآن يا بنيّ وهو يقدّر أني سأهيئك لما هيأك له ، وساعدك لما أعدّك للمضيّ فيه ، وسأنبئك بحديث أبيك على نحو يدفعك الى الثأر له . ولكني يا بني أنظر اليك الى جانبي ، وأنظر الى أبيك في قرارة ضميري ، أرى وجهك ماثلاً في عيني ، وأرى وجهه ماثلاً في قلبي ، أسمع لصوتك العذب يمس أذني مساً حلواً ، وأسمع لصوت أبيك العنيف يهز ضميري هزّاً قوياً وأسأل نفسي : ألفي للأحياء أم أفي للموتى ؟ » .

ثم أطرقت أسماء ساعةً والفتى ينظر اليها ولا يكاد يفهم عنها . ولكن أسماء رفعت رأسها وكفكفت من دمعها ، وقالت في صوت هادىء مطمئن ولكنه مظلم حزين : « أنت بين اثنتين يا بنيّ : فإما أن تحارب مع هؤلاء الذين تسميهم الصابئة ، وإما أن تعتزل الحرب وترحل مع المرتحلين . فأما أن تحارب في جيش قيصر فذلك شيء لا سبيل إليه » .

قال الفتى : « ماذا تقولين فإني لم أفهم عنك منذ اليوم ؟ » . قالت أسماء : « أقول ما كرهت يهود أن تقوله ، وما كره عمك أن يقوله . أقول شيئاً لو قالته يهود لما قتلت ولا عُذّبت ولا أجليت عن ديارها . إن أباك يا بُني لم يكن لنبيّ

العرب عدوّاً وإنما كان له صديقاً وبه حفيّاً وله وفيّاً . لقد عاهدت يهود نبي العرب على أن تنصره إن اعتدى عليه المشركون من قومه . فلما آن أوان الوفاء بالعهد وأقبلت جيوش قريش تريد الغارة على المدينة ، نفر نبي العرب للحرب ونفر معه مَنْ نفر من أصحابه ، ودعا أبوك قومه إلى الوفاء بالعهد فتلكئوا وتباطئوا وتثاقلوا ، وحاورهم أبوك فتشدد في الحوار وذكرهم وألح في تذكيرهم ، ولكنهم تعالوا يا بُنيّ ، وقالوا : يحارب محمد في يوم السبت ، وما ينبغي أن نحارب في يوم السبت .

« قال مُخيريق – ولم تكد تنطق باسمه حتى احتبس صوتها وانهمرت عبرتها فكفت عن الحديث حيناً ثم استأنفته قائلة – قال مخيريق : فإن محمداً لم يختر الحرب ولم يختر يومها ولم يختر موضعها ، وإنما اختار ذلك عدوه . لا سبتَ لكم ! وانفروا إلى الوفاء بالعهد ، فلم يجد منهم إلا إعراضاً وإصراراً على الإعراض . وما أنس يا بُني فلن أنسى عودة أبيك من نادي قومه وقد اربد وجهه وتطاير شرر الغيظ من عينيه . وكنا إذا أقبل إلينا تلقيناه مبتهجين بلقائه وتلقانا هو مبتهجاً بعودته إلينا . فلما أقبل ذلك اليوم لم تكد أبصارنا ترتفع إليه مفتونة مُعجبة حتى ارتدت عنه محزونة مشفقة . أنكرناه يا بني بل خفناه . ولم ينظر إلينا هو وكأنه لم يحس أننا كنا نتلقاه ، فمضى أمامه لا يلوي على شيء ، حتى إذا انتهى إلى حجرته أقبل على التوراة فنظر فيها غير طويل ثم طواها ، ثم أمر أحد غلمانه أن يدعو إليه بعض أصحابه من يهود . فلما أقبلوا أقرأهم شيئاً في التوراة ثم قال : « أسبتوا إن شئتم من الغد ، فأما أنا فلا سبتَ لي » . ثم قال لهم : اشهدوا أني نافرٌ إذا كان الغد فواف بعهدي لهذا الرجل ؛ فإن أصبتُ في هذا اليوم فمالي كله لهذا الرجل يقضي فيه بما أراد الله » . ثم دعا كبير غلمانه فأمره أن يهيىء الإبل لرحلة طويلة . فلما تهيأ له ذلك دعا هذا الغلام فأوصى إليه أن يرتحل بي وبك حتى يبلغ هذه المدينة من أرض الشام فيسلمنا إلى عمك ، فإن فعل ذلك فهو حرّ .

« ولم يستقر له قرار حتى استقلت بنا الإبل واستبد بنا السفر، وحدا بنا الحُداة، وقد أنبئت يا بني أنه قاتل حتى قُتل . وقد أنبئت يا بني أن نبي العرب كان يقول إذا تحدث عنه أو سمع الحديث عنه « مُخيريق خير يهود » وقد صارت إليه يا بني أموال أبيك ، فلم يأخذ لنفسه منها شيئاً، وإنما أجراها صدقةً على الفقراء من أصحابه، ولم يستقر لنا الطريق يا بني إلى هذه المدينة من أرض الشام ، وإنما التوت بنا أشد الالتواء ، فلم يقنع العبد بحريته ولم يَفِ لأبيك بوعده ، وإنما أطمعته الدنيا، وزيّن له

حب الثراء أمراً عظيماً ، فهمّ أن يبيعنا يا بني بيع الرقيق لولا أن أخطأه الحظ ، فعرّضنا على من لم تشق عليّ أن أعرفه بنفسي وزوجي . فلما عرّفنا أكرم مثوانا ، واحتفظ بالعبد رفيقاً ، وأمننا وصاحبنا حتى أبلغنا هذه الدار . وكنت يا بني صبياً لا تعقل ولا تكاد تستقل . فلما أنبأنا عمك بهذه الأنبـاء لم ألقَ منه إلا خيراً ، ولم يطلب إلي إلا أن أكتمك الحديث ، حتى يأنىَ لك أن تنهض للثأر . ولم يُرد عمك أن يُقِر أباك على ما فعل ، بل لم يرد عمك أن يصدق من هذه الأنباء إلا ما أراد هو وما أرادت يهود ، فزعم ان أصحاب محمد قتلوا أباك . وما قتلوه يا بني ومـا عرضوه للقتل ، وما طلبوا منه حرباً ولا قتـالاً ، ولكن أباك وفّى بالعهد يا بني ، وقد يكون الوفـاء مرّاً في بعض الأحيان . فانظر ماذا تصنع : أتنصر قوماً نصرهم أبوك؟ أم تكف عن حرب قوم نصرهم أبوك ؟ فأما أن تخذل من كان لهم ابوك ناصراً، فما أرى أن ذلك شيء تستطيع ان تقدم عليه » .

قال الفتى : « حسبك يا أماه فقد سمعت ! وسأنظر في أمري . ولكن ارتحلي ؛ فليست هذه المدينة لك بدار » . قالت أسماء : « سأرتحل يا بنيّ عنك كما ارتحلت عن أبيك » . قال الفتى : « سيكون وداعك لي قصيراً ، كما كان وداعك لأبي قصيراً » .

ومضى عام وبعض عام وإذا أعرابيّ من جند المسلمين يسأل في دمشق عن امرأة يهودية تعرف بأمّ كعب أسماء زوج مُخيريق ، ويكفلها يهودي شيخ هاجر معها من أطراف الشام حين أغار المسلمون على هذه الأرض . وقد جد حارث بن الحُباب السلمي في البحث عن هذه المرأة واستقصاء أمرها ؛ حتى إذا اهتدى الى دارها وأدخل إليها ذات ضحى ، قال لها في لهجته الحجازية البدوية : « أبشري يا أمة الله فقد كتب الله لابنك الشهادة كما كتبها لأبيه مخيريق ! » .

سمعت أسمـاء لهذا الأعرابي فلم تعبس ولم تبسم ، ولم تنهمر من عينها عبرة ، ولم يظهر على وجهها حزن ، وإنما قالت : « إنا لله وإنا إليه راجعون ! » .

طبيب النفوس

« أين الناضرة ؟ عليّ بالناضرة . رُدّوا عليّ الناضرة ! ». وكان صَفوان بن أمية يقول هــذا في صوت تظهر فيه الحدّة والغضب ، ويظهر فيه السخر والضحك معــاً . وكان يقول هذا وهو يرمي إلى قيّم داره بنظرات كأنهن قطع النــار ، حتى أخاف القيم وملأ قلبه روعاً وهولاً ، فقام مبهوتاً لا يدري ماذا يصنع ولا يعرف كيف يجيب وكان يقول هذا وقد أخذ بيد صديقه الحارث بن هشام يجذبه إليه جذباً عنيفاً لا رفق فيه ، ويضطره إلى المجلس الذي أراده على أن يجلس فيه ، لا يلتفت إليه ولا يسمع له كأنما يجذب شيئاً لا رأي له ولا إرادة . فلما طال عليه وجوم القــيم أقبل عليه منذراً لا يكاد يُخفي حَنقه وهو يقول: « ألم أسألك عن الناضرة ! ألم أطلب إليك الناضرة! أفي أذنيك وَقرٌ ! أتحــولت صخراً لا يسمع ولا يجيب ؟ » . قـــال القيّم في صوت مضطرب وبلسان متلجلج : « فإن الناضرة – حيث أمر مولاي أن تكون من الحبس وعليها ما أمر مولاي أن يكون عليها من الأغلال منذ غنت ذلك الصوت » . قال صفوان متضاحكاً لا يكاد يهدأ غضبه : « وقد ضَرَبْتَها الأسواط الــتي أمرك مولاك أن تضربها في كل يوم إذا أصبحت ، وكنت تنهياً لتغديهــا بالأسواط التي أمرك مولاك أن تغديها بها في كل يوم إذا مالت الشمس الى الزوال ؛ فإني أريد الآن أن أضعــك مكانها وأجعل عليك أغلالها ، وأرد اليك السياط التي قدمتها اليها منــذ أمرتك ذلك الأمر المُحنق . اذهب فأخرج الناضرة من حبسها ، وضع عنها أغلالها ، وأقبل عليّ بها مكرمة موفورة ، وأسرع في ذلك ولا تبطىء، فإني أخشى أن يجرّ عليك الإبطاء شرّاً عظيماً ». قال ذلك ثم تحوّل عن مولاه الى صديقه الحارث بن هشام وهو يقول: « ما رأيت أحداً بلغ الحمق ما بلغ بهذا الغلام » .

قال الحارث وهو يتكلف الابتسام : « بــل ما رأيت أحداً بلغ بــه الغيظ ما بلغ بك أيها الصديق . إنك لتكلف هذا الفتى من أمره شططاً ، تأمره أن يحبس هــذه الجارية وأن يعذبها ، ثم لا تظهر له أنك غيرت رأيك فيما أردت من حبسها وتعذيبها

ثم تلومه الآن لأنه أمضى ما أردت ولم يخالف عن أمرك ! » .

قال صفوان : « فإنه يزعم أنه ذكي لبق ، وأنه يعرف ما لا يُعرف ، ويسبق الى فهم الأشياء ، وهو قد رأى ما نرى وسمع ما نسمع وأحس ما نحس ، وعلم أن كل شيء من حولنا يتغير ، وأن كل سلطان من حولنا يزول : فقد كان من الحق عليه أن يعلم أن لم يبق لنا على الناضرة حبس ولا تعذيب » .

قال الحارث وقد انجلى عنه ما كان يغمر وجهه من الحزن ، وابتسم ثغره عن ابتهاج صريح : « نعم ! وقد كان ينبغي أن يعلم أن ليس لك عليه أمر ولا نهي ، وأنك لا تملك أن تلومه ولا أن تعنف عليه . وقد كان ينبغي ان يدع دارك هذه وما فيها ومن فيها ، وأن يمضي إلى حيث يلقى حريته وأمنه ورجولته كاملة ثم يعود إليك متسلطاً ظافراً، فيصدر اليك من الأمر ما يُصدر الغالب إلى المغلوب » .

قال صفوان وقد ثابت اليه نفسه واطمأن قلبه بين جنبيه : « نعم ! هو ما تقول . لقد رأيت اليوم ما اخرجني عن طوري . وان أعجب لشيء فإنما اعجب لهدوئك واستقرار نفسك ، واطمئنانك الى ما يقع حولك من الأحداث» .

قال الحارث : «وماذا تريد أن اصنع ؟ لقد جاهدت محمداً ما وسعني جهاده ، وحاربته ما وجدت الى حربه سبيلا. ولقد ذقت في هذه الحرب مرارة الهزيمة وحلاوة النصر. ولقد طاولته كما طاولته قريش وعاجلته كما عاجلته قريش ؛ فقد أبت الأحداث إلا ان يظهر محمد على قومه ، وابت الاحداث الا ان يدخلها علينا محمد عنوة ، وقد حُلنا بينه وبين ذلك منذ اعوام ، فلم ينفعنا ما قدمنا اليه من عنف ، ولم يُغن عنا ما اظهرنا له من بأس . وها هو ذا يدخلها علينا لا عنيفاً بنا ولا مشتطاً علينا ، لا يجزينا من بأسنا بالبأس ، ولا يلقانا بمثل ما لقيناه به من الصلف والخال[1] . ولكني لم أعرف الناضرة هذه التي تطلبها، ولا اعلم فيم حبستها واثقلتها بالأغلال ، ولا افهم فيم سؤالك عنها والحاحك في هذا السؤال ، وفيم تكريمك لها بعد أن ارهقتها بالعذاب !» .

قال صفوان : «فانك ستعلم من هذا كله ما جهلت» .

وأقبل القيّم يدفع امامه في رفق فتاة قصيرة الخطو ، تتقدم في كثير من التردد والامتناع ، في وجهها جمال لا تبلغه العين حتى يصل الى القلب فيحدث فيه أثراً عميقاً. ولكنها تتقدم مترددة ممتنعة، قد ملكها الخوف والإشفاق ، وكأن ما لقيت من السجن والعذاب قد آذى منها قلباً كريماً ، واهان منها نفساً عزيزة ، وإن لم يؤمن ساجنوها

(١) الخال : اسم بمعنى الخيلاء .

ومعذبوها لها بكرم القلب وعزة النفس . ومتى آمن السادة الأحرار بالكرم والعزة للرقيق المستذل ! وكان وجه الفتاة يُبين عما يملأ قلبها من خوف كما كان يبين عما يؤذي نفسها من هذا الشعور بالإهانة ، ولكنه كان يبين في الوقت نفسه عن شيء يشبه الرضا والإذعان وعن شيء يشبه العفو والمغفرة . كان هذا كله يُقرأ في ذلك الوجه الجميل المشرق ، وفي تلك اللحظات الوادعة الهادئة .

فلما رآها الحارث مال الى صاحبه وهو يقول : « ما رأيت انضر من هذا الوجه ! » قال صفوان : « وما عرفت اكرم من هذه النفس » .

ثم نظر الى الفتاة في رفق عظيم وهو يقول : « اقبلي يا ابنتي فليس عليك بأس ! اقبلي لا تُراعي فأنت آمنة منذ اليوم . لقد آذيناك وشققنا عليك ، ولكنا سنصلح ما قدمنا اليك من مساءة . اقبلي وخذي مجلسك مني كما تعودت ان تجلسي ، وغنّيني ذلك الصوت الذي كان مصدر ما لقيت من الأذى ، والذي سيكون مصدر ما تلقين من النعيم » .

ولكن الفتاة لبثت قائمة واجمة كأنها لا تسمع ، أو كأنها لا تفهم ، او كأنها لا تصدق ما كان يساق اليها من الحديث .

قال صفوان : « أقبلي يا ابنتي واسمعي لما يقال لك ، وأنزليه من نفسك منزل الحق ، فأنت حرة بعد أن تغنيني ذلك الصوت ، وأنت مُطلقة تذهبين حيث تشائين ، وتستقبلين من أمرك ما تريدين ، ولك عليّ ألا تتعرضي لحاجة ، وأن تكفي غوائل الدهر . اجلسي يا ابنتي كما تعوّدت أن تجلسي ، وغني يا ابنتي كما تعودت أن تغنّي » .

ثم التفت إلى قيم الدار وقال في صوت حازم : « الخمرَ والأقداح يا غلام » .

وما هي إلا ساعة حتى كان الصديقان مُقبلين على شرابهما ، والفتاة تغنّيهما في صوت عذب نفاذ إلى القلوب ، يغمر وجهها إشراق أخاذ للنفوس هذه الأبيات :

جزى الله رب الناس خيرَ جزائه رفيقين حلا خيمتيْ أم مَعبد
هما نَزلا بالبر ثم تروّحا فأفلحَ مَنْ أمسى رفيقَ محمد
ليهن بني كعب مكان فتاتهمْ ومقعدُها للمؤمنين بمرْصَد

قال الحارث بن هشام ، بعد أن أخذ من الغناء والشراب بحظ موفور : « ألم يأن لك أن تنبئني عن قصتك ، وأن تبين لي عن خطتك ، فإني أراك شديد الغموض منذ اليوم ، وما عرفتك قط غامضاً ولا ملتوياً فيما تأتي وما تدع من الأمر !! »

قال صفوان : « أتذكر هذا الشعر ؟ » قال الحارث : « كيف لا أذكره وقد

عرفنا به وجه محمد في هجرته ، واستيأسنا به من القدرة على ردّه إلينا ، وتعلمنا به أن ستكون لنا معه خطوب !! إني لأسمع هـذا الشعر الآن كما كنت أسمعه في تلك الليلة حين انطلق به ذلك الصوت الرائع الرهيب يغني به صاحبه من أسفل مكة إلى أعلاها ، والناس يسمعونه ويتبعونه ، ويلتمسون مصدره فلا يرون له شخصاً، فيستقر في نفوسهم أنه هاتف من الجن . وما أدري الآن أكان هاتفاً من الجن أم كان هاتفاً من الملائكة،ولكنه كان روحاً من هذه الأرواح التي ملأت علينا جوّنا في هذه الأعوام».

قال صفوان : « فإني قد كرهت هذا الشعر كرهاً شديداً ، وازداد كرهي له منذ قُتل أبي وأخي بأيدي أصحاب محمد ، ومنذ ورد الملأ من قريش موارد الموت فيما كان بيننا وبين محمد من حرب. ولقد حاولت الثأر في أحُد،ولقد حاولت الثأر بعد أحد . ولقد كنت أظن أني سأجد فيمن قتلنا من أصحاب محمد وبني أبيه شفاء ، ولكني لم أجد إلا غِلًّا يزداد تحرقاً وتأججاً كلما تقدمت الأيام . ولقد التمست السلوّ عن هذا الغلّ في الرحلة ، والتمسته في الصيد ، والتمسته في اللهو ، فما ظفرت به وما وجدت الى شيء منه سبيلا . وأدعو ذات يوم بهذه الفتاة وأطلب إليها الغناء ، فتغنيني ما شاءت،وأطرب لصوتها العذب وغنائها الحلو ، فأستزيدها فإذا هي تغنيني هذا الشعر ، فتذكرني بما كنت أريد ان أنسى ، ويكون ذلك حين تبلغنا الأنباء بأن محمداً قد عبأ لحربنا ، وفصل من يثرب ليدخلها علينا عنوة بعد ان رددناه عنها كراماً ، فيملكني الغضب وتستأثر بي الثورة ، وآمر بالفتاة كما رأيت أن تحبس في بيت من بيوت هذه الدار ، وأن توضع عليها الأغلال ، وأن تُصْبَحَ وتُمسي بالسياط تُلهب جسمها هذا الرخص الجميل » .

قال الحارث: « ففيم إطلاقك لها ، وفيم استماعك لهذا الصوت وشربك عليه ؟».

قال صفوان : «فإن الرجل الكريم هو الذي يلقى جليل الأمر معترفاً به غير منكر له ولا جاحد لأخطاره. وقد حاربنا هذا الرجل ما وسعتنا حربه ، وقد ظننا به الظنون، وأرسلنا فيه ألسنتنا وعقولنا ، وقلنا فيه ما نعتقد وما لا نعتقد ، وكانت الأيام تكذبنا، وكانت الحوادث تكشف لنا عما كنا فيه من الإثم والضلال ، فكنا لا نسمع للأيام ولا نؤمن للحوادث ، وانما نمضي فيما كنا نُضمر من البغض ، وفيما كنا نُظهر من العدوان . ولم تكن الحرب بيننا وبين هذا الرجل ، وإنما كانت بيننا وبين قوة اعظم من هـذا الرجل بأساً وأشد منه نفاذاً وأبعد منه أثراً في حياة الناس . كنا نغالب القضاء، فقد غلبنا القضاء . وكنا نحارب السماء ، فقد قهرتنا السماء . فما الخير في أن نمضي فيما كنا

تمضي فيه من صلف قريش وكبريائها ، ومن جاهلية قريش وغرورها !!».

قال الحارث: « انك لتحدثني بما ناجتني به نفسي منذ أعوام، وبما كانت تناجيني به نفسي حين لقيتك عائداً الى دارك بعد أن سمعنا منادي محمد يؤذن في الناس أن من لزم داره فهو آمن .وان من لزم دار أبي سفيان فهو آمن . وكنت أريد ان أبلغ داري فألزمها حتى أرى لي مخرجاً من هذا الحرج ، فلما لقيتك دعوتني إلى دارك فأقبلت معك وإن كنت لغائباً عنك أسمع لما كانت نفسي تحدثني به من النجوى ».

قال صفوان : « أما انا فقد عدتُ الى داري مغيظاً مُحنقاً لا أملك نفسي من الغيظ ، ولكني عدت إلى نفسي معترفاً بأن أمر محمد قد ظهر على أمرنا ، وبأنني قد ظلمت هذه الفتاة كما ظلمت غيرها من الناس» .

قال الحارث : « فما تريد أن تصنع ؟ » . قال صفوان : «ما ادري! ولكنني لن أذعن لهذا السلطان الجديد إلا أن أكره على ذلك إكراهاً» .

قال الحارث : « اما انا فمخرج نفسي من هذا اليأس وذاهبٌ الى محمد فقابلٌ منه دعوته ومعلنٌ اليه ايماني بما يريدنا عليه » .

وهما في ذلك وإذا باب صفوان يُطرق : واذا مولاه يدخل مضطرباً فينبىء سيده بأن رسول محمد بالباب. قال صفوان وقد ظهرت على وجهه ابتسامة حازمة : « فأدخِلْ رسول محمد » ، ثم التفت إلى صاحبه وهو يقول : « هذا أول الشر ! ما تظنه يريد منا ؟ » .

ولكن الرسول ادخل فحيا وتلطف في التحية ، وتلقاه صفوان لقاء حسناً ، ثم يقول الرسول لصفوان : « إن رسول الله (ص) يستعد لحرب هوازن ، وقد جمعت له جمعاً عظيماً ، وقد علم أن عندك سلاحاً ودروعاً وكثيراً من أداة الحرب ؛ فهو يسألك أن تُعينه بما عندك » .

قال صفوان في لهجة لم تخلُ من سخرية : « فهو الغصْبُ إذاً ! » . قال الرسول في لهجة غلبت عليها الأناة والحلم : « كلا يا صفوان ! ليس الغصب من أخلاق رسول الله وهو لم يعلمنا غصباً ولا غدراً ولا تجبراً ، وإنك لتعلم قدرته عليك وعلى غيرك من الطلقاء ، أفتراه قد مَسكم بشر ، أو نالكم بأذى !! إنه يستعير منك سلاحك ودروعك وما عندك من أداة الحرب ، على أن يردها عليك موفورة بعد الظفر إن شاء الله » .

قال صفوان : « فأبلغ محمداً أن له عندنا ما يرضي ، وأنا سنعينه بما نقدر عليه من أداة للحرب . ومَنْ يدري ! لعلنا نعينه بأنفسنا ، فهو بعدُ مَلكُ قريش » . قال

الرسول : « بل قل نبيّ الله » . وأطرق صفوان ونهض الرسول فانصرف راضياً .

قال الحارث : « أباقٍ أنت على ترددك ؟ أما أنا فمسلمٌ منذ الآن » . قال صفوان : « ما أدري والله ما أصنع ! إن قلبي ليحب هذا الرجل ويؤمن له ، وإن نفسي مع ذلك لا تستطيع أن تسلو عن عز قريش » قال الحارث : « فإني أرى أن عز قريش لم يتبدل ، إلا أن يكون ظهور محمد قد زاده قوة وبأساً ، ألم ينبئنا منذ أظهر دعوته بأننا إن نؤمن له ضمن لنا ملك الدنيا ونعيم الآخرة ؟ لقد كذبناه وأعرضنا عنه وسخرنا منه ، فلم يرُعه ذلك ، ولم يَفُل من عزمه ، وإنما مضى امامه لا يلوي على شيء ولا يحفل بشيء ولا يُشفق من شيء ، حتى إذا لم يجد عند قومه خيراً ولا في وطنه أملاً ، هاجر بدعوته إلى حيث يستطيع أن يجهرَ بها وأن يذيعها آمناً ويذود عنها بالقوة إن تعرضت للخوف . ولست أخفي عليك أني لم أعجب بشيء قط كما أعجبت بهذه الهجرة يفرّ فيها صاحبها برأيه ليذود عنه ويدعو إليه حرّاً طليقاً لا يخاف شرّاً ولا يلقى أذى ! .

« هذا الفرار بالحرية ، أو هذا الفرار في سبيل الحرية ، شيء لم نعرفه من قبل . لقد كنا نفرّ بأموالنا لنحصنها ، وكنا نفر بأمتعتنا لنؤمنها ، وكنا نفرّ بدمائنا لنحقنها ، فإذا هذا الرجل وأصحابه يفرون بدينهم لينشروه ، ويتركون لنا أموالهم وأمتعتهم ومنافعهم ، ثم لا يلبثون أن يبذلوا دماءهم في سبيل ما يدعون إليه . ألا يروعك هذا ؟ »

قال صفوان . « فما بال هذا كله لم يرعك قبل اليوم ؟ » .

قال الحارث : « والله لقد راعني وما زال يروعني ؛ وإنما هي الكبرياء . وقد آن أن تنجلي عني غـَمرتها » .

قال صفوان : « أما أنا فلم تنجل عني غمرة الكبرياء بعدُ ! وانظر ؛ إنّ أمري لعجبٌ حقّاً ! إني لا أستطيع أن أذعن لمحمد ، ولا أومن لما جاء به ، ولكني مع ذلك لا أستطيع أن أبقى بمكة آمناً وادعاً وهو يَلقى عدوه من قيس . لأشهدنّ حَرْبه هذه كما يشهدها أصحابه ، ولأنظرنّ في أمري بعد ذلك » .

ويتيح الله لنبيه الظفر يوم حُنين على جموع قيس بعد أن امتُحن المسلمون في أنفسهم وقد أعجبتهم كثرتهم فلم تُغن عنهم من الله شيئاً ، وإذا رسل النبي تصل إلى صفوان في خيمته ومعه الحارث بن هشام قد أسلم وشهد الوقعة مسلماً . فإذا دخل الرسل على صفوان قال قائلهم بعد أن حيا وتلطف في التحية : « إن رسول الله (ص) يردّ

عليك سلاحك ودروعك وأداتك موفورة ، ثم هو يهدي إليـــك حظاً من الغنيمة يمنحك مائة من الإبل ، ولا يكره أن يزيدك إن استزدت » .

قال صفوان : « وَصَلَته رَحِمٌ ! فما عرفته إلا رجل خير ، وما أرى إلا أن الله قد منحه القدرة على تطهير القلوب من الحقد والبغض ، ومن الضغينة والإثم . هلم سيروا معي إليه ، فقد آن لغمرة الجهالة أن تنجلي ، وآن لصفوان بن أمية أن يؤمن بمحمد وما أنزل عليه من الحق » .

ويمضي صفوان بن أمية إلى النبي فيسلم . ثم يعود فيخلو إلى نفسه ويفرغ لأمره ، ولا يكاد يشارك الناس فيما يضطربون فيه من الأمر .

قال بعض أصحاب صفوان له ذات يوم : « أي أبا وهب ! إنك أسلمت ، ولكن الإسلام لا يستقيم لك الا أن تُهاجر كما هاجر الناس » .

قال صفوان : « فلنهاجر كما هاجر الناس » . وخرج من مكة غير محب للخروج . فلما بلغ المدينة لم يقم فيها إلا قليلاً حتى قال له رسول الله (ص) : « عزمتُ عليك يا أبا وَهب لما رجعتَ إلى أباطح مكة » . فرجع إلى أباطح مكة أحب ما يكون في الرجوع إليها ، وأقام فيهـــا ما شاء الله أن يقيم . وكان يتحدث إلى الناس فيقول : « لقد أعطاني رسول الله (ص) يوم حُنين ، وإنـــه لمن أبغض الناس إليّ فما زال يعطيني حتى إنه لمن أحب الناس إليّ » .

قال قائل : « قد أحببته إذاً لعطائه » ! . قال صفوان : « ويحك ! لا والله إن كنت لغنياً ، وإنما أحببته لأن الله علمه كيف يداوي القلوب المرضى » .

شوق الحبيب الى الحبيب

وقف حارثة بن شراحيل ذات يوم على بعض غلمانه ، وقـد انحدرت الشمس الى مغربها مسرعة كأنما كانت تنهزم أمام هذا الليل الذي أقبل في هدوء وجلال كأنه سيل من الظلمة الحالكة يغمر الصحراء والآكام قليلاً ، فقال في أناة لا تخلو من حدة : « شبّوا ناركم يا هؤلاء ، واطعموها من جزل الحطب ويابسه ، فاني أراها منـذ ليال خامدة هامدة ، لا يكاد يسطع لها لهب ، او يرتفع لها سناً ، وأنتم ترون ظلمة الليـل تغمر الارض ، وظلمة السحاب تحجب السماء . وما أرى إلا أننا نستقبل ليـلة قاسية عاتية على من ركب الطريق . وقد قلّ الطارقون لنـا منذ حين . وقد كنت أرجو أن يكون منزلنا هذا أمناً للخائف ، وهدى للحائر ، وخصباً للمجدبين » . ثم تحول عنهم ومضى الى نادي قومه .

فقال بعض الغلمان : « ويل الإبل الرائحة ! إنا لنرى في وجه مولانا شراً ، وما نظنها تجوزه موفورة . إن نفسه لتنازعه الى قرى الضيف ، ولئن لم يطرقـه ضيف ليضيفنّ من حضره من أهل الحيّ » . قال قائل : « فاني أعرف في وجهـه الملل والضيق منذ أيام . وما أرى إلا غيبة زوجه وابنه قد طالت عليه، ولولا أنه يصطنع الأناة ويحرص على الوقار لخف اليهما وتعجل عودتهما ، ولكنه يكره أن يقال غابت عنه سُعدى شهراً فلم يستطع عنها صبراً . ومن يدري ! لعله حين أمرنا بأن نشبّ النـار ليسطع لهبها ويبعد سناها إنما فكر في سعدى وزيد ، وقدر انهما يتجشمان إليه وعورة الطريق وظلمة الليـل وريح الشمال هذه التي تلفح الوجوه ببردها الذي لا يطاق . فلنشبّ له النار ، ولنرفع من لهبها وسناها ما يفرق الظلمة ، ويهدي الحائر ، ويدعو الى الأمن والدعة والقِرى ، ولنا من هذا كله حظ مقسوم ونصيب موفور ، ولنا من رضا سيدنا غبطة ، ومن راحته بهجة وسرور » .

ولم يخطىء غلمان حارثة فيما أداروا بينهم من حديث ، فقد كان سيدهم منغص النهار ، مؤرق الليل ، موله الفؤاد ، مفرق النفس من حين اتصلت غيبة زوجه عنه ،

وكانت قد فارقته منذ شهر او أكثر او أقل لتزور قومها في هذا الحي من طيء، حيث يقيمون غير بعيد ، وإنما هي ثلاثة أيام تقطع فيها الإبل أمداً من آماد الصحراء، فتبلغ منازل طيء في ظل الجبلين أجأ وسلمى .

وكانت سُعدى قد احتملت معها أصغر أبنائها زيداً ، وكان غلاماً يافعاً ، لم يكد يبلغ الثانية عشرة من عمره ، تريد أن تزيره أخواله ، وتصل بينه وبين صبية قومها وغلمانهم . وقد شقت هذه الرحلة على زوجها حارثة ، ولو أطاع نفسه وأرسل طبعه على سجيته ، لأجّل هذه الرحلة أشهراً حتى تتاح له المشاركة فيها ، ويأمن فراق آثر الناس عنده وأحبهم اليه . ولكنه لم يستطع ، ولم يُرد أن يُظهر نفسه ضعيفاً رقيقاً ، فخلى بين امرأته وبين ما ارادت ، وتقدّم اليها في ألا تُطيل المقام عند قومها ، وأن تعود قبل أن يتقدم الشتاء ويكثر هبوب الشمال . وقد أخذ يرتقب عودتها منذ أيام ، لا تكاد تمضي ساعة من نهار أو من ليل حتى يمضي معها شطر من صبره وقسط من احتماله ، وحتى يشتد شوقه الى زوجه ونزاع نفسه الى ابنه ، وضيقه بالانتظار بين قومه من كلب . وكثيراً ما كان يخرج من خبائه حين يرتفع الضحى فيمضي أمامه حتى يُبعد ، ثم يرقى فيقوم فيها مقام الربيئة ، إلا أنه لم يكن يرقب العدوّ أو يتجسس المغير ، وإنما كان يرسل نظره في الصحراء يرجو أن ترفع له العير التي تحمل اليه سعدى وابنها زيداً . وكان إذا طال وقوفه على ربوته تلك ، وتقليبه نظره في وجوه الصحراء ، ظن بنفسه الظنون ، وأشفق أن يظن قومه به الظنون ، فعاد أدراجه كاظماً ما يجد من شوق ، كاتماً ما يحس من وجد ، شاغلاً نفسه أو متكلفاً شغلها بما يمكن أن يُشغل به الأغنياء الموسرون من أهل البادية الوادعين الآمنين .

وكان كلما تقدّم النهار يقدر أن العير ستقبل عليه مع الليل ، فإذا أقبل الليل أشفق منه على هذه العير التي لم يكن يشك في أنها قد ركبت الطريق . وقد كتم على نفسه أحاديثها تلك ما استطاع ، ولكنه في تلك الليلة أحس الخوف يساوره والإشفاق ينازعه نزاعاً شديداً ، واحتفظ مع ذلك بشيء من أناة وفضل من وقار ، فتقدم إلى غلمانه في أن يشبّوا نارهم ويذكوها ، وقدر في نفسه أنه سيستعين على ليله الطويل بإطعام الحيّ وإذاعة الكرم والجود فيه . حتى إذا كان الغد تقدّم إلى ابنيه الشابين في أن يذهبا في الطريق إلى منازل طيء ، فإن أدركا العير عادا معها ، وإن لم يدركاها مضيا حتى يردا هذه الغائبة التي أسرفت في الغيبة وقصرتْ في ذات الزوج والأبناء والبنات .

وما كاد الرعيان يروحون بالإبل مع العتمة حتى نهض حارثة كأنه الجني ، وأومأ إلى ابنيه الشابين فتبعاه ، ومضوا حتى تخيّروا من هذه الإبل ناقة كوماء وجزوراً سميناً ، فعقروا ونحروا وأذنوا في الحي أن هلمّ إلى الطعام واللهو . وقضى الحي ليلة خصب ولهو ودعة ، شبع فيها الجائع وطعم فيها البائس ، ولها فيها المترَف الميسور . ولكن الليل لم يكد ينقضي حتى سُمع دعاء الطارق من بعيد ، ويُسرع حارثة وابناه الى الاستجابة لهذا الدعاء . وما هي إلا ساعة حتى يُقبل الضيف ، وإذا هم جماعة من شباب البدو وشياطين الصحراء ، قد شق عليهم الليل ، واشتد عليهم البرد وعصفت بهم الريح ، فاضطرّوا إلى الهدوء والراحة ، وقد كانوا يودون لو استطاعوا أن يمضوا في طريقهم حتى يبلغوا غايتهم من الغد أثناء النهار أو حين يشرف الليل . ويتلقاهم حارثة وابناه لقاء حسناً ويبلغونهم من الأمن والقرى السريع ما يشتهون . حتى إذا أشرقت الشمس من غد وهمّت الإبل أن تمضي لمراعيها نهض حارثة وابناه فاستبقوا منها ما عقروا ونحروا ، ثم أذّنوا في الحي أن هلم إلى الطعـــام والقرى ، وإذا همُ ينفقون نهاراً خِصْباً كما أنفقوا ليلة خصبة. وقد وجد حارثة في كرمه وجوده عزاء عن شوقه وسلوة عن وجده ، ورجوعاً إلى ما كان ينبغي لمثله من الصبر والجلد والوقار. وارتحل عنه ضيفه موقورين راضين،واستأنف هو حياة هادئة بعض الهدوء راضية بعض الرضا.ولكنها أيام تمضي وتتبعها أيام،ولا يبلغه من أخبار الغائبة شيء،حتى يشق الأمر عليه ويبلغ الجهد بـه ، وحتى يهمّ بالرحلة إلى منازل طيء لا يكتم ذلك ولا يخفيه . وإنه ليستعد لهذه الرحلة وإذا بنبأ يبلغه فيملأ قلبه جزعاً ويأساً . فقـد أغار نفر من صعاليك العرب وشياطين الصحراء على أطراف طيء فاستاقوا إبلاً واختطفوا صبية، ومضوا قبل أن يبلغ الصريخ معظم الحي ، فانطلقوا إلى حيث لم تبلغهم الخيـل ، على أنها وُجّهتْ في طلبهم كل وجه من وجوه الصحراء جميعاً .

وصَوِّرْ أنت لنفسك جزع ذلك الأب البائس ، ويأس تلك الأم النازح ، ومـا ألم بهذين الحيين في طيء وكلب من هذا الحزن المغيظ الذي لا شفاء له ولا سبيل إلى إطفاء ناره بثأر أو انتقام . وعند من يكون الثأر وممن يكون الانتقام وقـد أغار المغيرون فانتهبوا واختطفوا ولم يَدّعوا لحي من أحياء العرب ولم ينتسبوا لقبيلة من قبائـــل قحطان أو عدنان ؟! ومتى ادعى الصعاليك والخلعـــاء لحيّ أو قبيلة !! ومتى نهضت الأحياء والقبائل بجرائر الخلعاء والصعاليك !!

ولكن أعواماً تمضي وحارثة يلقى من اللوعة والحسرة ما يلقى ، وسعدى تجاهد من

اليأس والقنوط ما تجاهد . ويُقبل نفر من كلب يزورون مكة في الموسم ، فيلقون عند المسجد شاباً قصيراً آدم أقطس الأنف يتوسمون فيه ملامح كلب ، ثم يسمعون له ويتحدثون إليه ، فما يشكون في أنه كلبي وفي أنه من رهطهم الأدنين . عرفوا لغته، ثم نسبوه فعرفوا نسبه ، ثم سألوه عن قصته فأنبأهم بأن نفراً من الصعاليك اختطفوه مع جماعة من أترابه بنين وبنات ، ثم تفرّقوا بهم ، وأقبل بـــه خاطفه إلى سوق عُكاظ فباعه من حكيم بن حزام بن خُويلد الأسديّ ، وأدّاه حكيم هذا إلى عمته خديجة بنت خويلد الأسدية ، وأحسنت هذه العناية به والرعاية له ، حتى إذا تزوجت من الأمين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وهبته له ، فهو قائم على خدمته منذ أعوام .

وَهمّ هؤلاء النفر من كلب أن يسعوا في فدائه عند الأمـين ، وأن يعودوا به على أمه البائسة وأبيه الملتاع . ولكن الفتى يردّهم عـــن ذلك أجمل الرد وأرفقه ، ويلح عليهم في ألا يفعلوا ، ويحملهم إلى أبويه وعشيرته تحية فيها الحب والبرّ ، ولكن فيها الرضى بهذه الحال التي صار إليها ، والحرصُ على هــذا المنزل الذي استقر فيه . ومن غريب ما قص الفتى على هذا النفر من كلب أنه لا يشك في أن الذين اختطفوه قد كانوا حديثي عهد بأبيه . طرقوه ذات ليل فتلقاهم لقاء حسناً ، وتقدّم في قراهم وتزويدهم بخير ما أحبوا . سمعهم الفتى يتحدثون بذلك ، ويُثنون به على حارثة بن شراحيل ، وظن أنه إن انتسب لهم وعرفوا مكانه من حارثة ردّوه إليه ، فلما فعل لم يلقَ منهم إلا ظلماً وهضماً وإنكاراً ، كذبوه وآذوه وظنوا به الخديعة والكيد .

ويعود هـــذا النفر من كلب إلى حيث ينزل قومهم في طرف من أطراف الشام ، فيردّون الأمن والهدوء والغبطة والأمل إلى الأبوين البائسين اليائسين . فإذا كان الموسم من قابل أقبـــل حارثة وأخوه كعب حاجّين وزارا مكة ، والتمسا الأمـــين فدلا عليه ، فيقولان : « يا ابن عبدالله ! يا ابن عبد المطلب يا ابن هاشم يا ابن سيد قومه ! أنتم أهل الحرم وجيرانه وعند بيته ، تفكّون العاني وتطعمون الأسير ، جئناك في ابننا عندك ، فامْتَنّ علينا وأحسن إلينا في فدائه ، فإنا سنرفع لك في الفداء » . قال: ما هو ؟ قالوا : زيد بن حارثة . فقال رسول الله (ص) : فهل لغير ذلك ؟ قالوا : ما هو ؟ قال : ادعوه فخيروه ، فإن اختاركما فهو لكما بغير فداء ، وإن اختارني فوالله مـــا أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً . قالا : قد زدتنا على النصَف [1] وأحسنتَ . قال : فدعاه فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم . قال : مَنْ همـــا ؟

---

(١) النصف (بالتحريك) والنصف (بالكسر) : الانتصاف وإعطاء الحق .

قال : هذا أبي وهذا عمي . قال : فأنا مَنْ قد علمتَ ورأيت صحبتي لك فاخترْني أو اخترهما . فقال زيد : ما أنا بالذي أختار عليك أحداً ، أنت مني بمكان الأب والأمّ. فقالا . ويحك يا زيد ! أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ قال : نعم ! إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً . فلما رأى رسول الله (ص) ذلك أخرجه إلى الحجر فقال : « يا من حضر اشهدوا أنّ زيداً ابني أرثه ويرثني » . فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا ، فدُعي زيد بن محمد ، حتى جاء الله بالإسلام [1] .

وقع حب هذا الفتى في قلب الأمين ، وملأ حب الأمين قلب الفتى ، وإذا الأمين يعلم ذلك من نفسه ومن غلامه ، فيأبى الفداء ، ويخالف عما ألف الناس . وإذا الفتى يخرج من هذه المحنة منتصراً على نفسه وعلى أواصر القربى ، وعلى ما ألف الناس من إيثار الحرية على الرق ، ومن إيثار الوطن على الغربة ، ومن إيثار الأهل على الأجانب في الدار والنسب . ولكن الله قد أعد لزيد ألواناً أخرى من المحن ، وقرنها بألوان أخرى من الخير والكرامة . فهذا الأمين قد اتخذه له ابناً ، وزوجه ابنة عمته زينب بنتَ جحش ، وأمها أميمة بنت عبد المطلب وقد اختص الله أمين قريش بنبوته وائتمنه على وحيه ورسالته ، وإذا ابنه زيد أسرع الرجال استجابة له وانحيازاً إليه . وقد أخلص زيد في صحبة مولاه وأبيه ونبيه ما أقاما في مكة ، يحتملان من ألوان الأذى وصنوف المكروه ما يحتمله المسلمون ، ويصبران على الفتنة على ما صبر عليه الذين منحهم الله قلوباً جلدة ونفوساً حرّة وإيماناً عميقاً . حتى إذا أذن الله لنبيه وللمؤمنين في الهجرة ، هاجر زيد مع المهاجرين ، فآخى رسول الله بينه وبين عمه حمزة بن عبد المطلب .

يحمله بهذا كله فرداً من أفراد الأسرة وواحداً من أهل البيت ، ويتحدث إليه بأنه مولاه وبأنه منه ومن قومه . ويشهد زيد معه بدراً ، ويشهد زيد معه أحُداً ، ويغزو النبي فيخلف زيداً على أمر المدينة من ورائه ، ويقيم النبي فيخرج زيداً أميراً على سراياه وغزواته ، حتى تقول عائشة رحمها الله : « ما بعث رسول الله (ص) زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمّره عليهم ، ولو بقي بعده استخلفه [2] » .

ولكن لله في عباده أمراً هو بالغه ، وإرادة هو ممضيها ، وحكمة هو حاملهم عليها.

---

(١) طبقات ابن سعد طبع ليدن ، جزء ٣ صفحة ٢٨ .

(٢) طبقات ابن سعد طبع ليدن ، جزء ٤ صفحة ٣١ .

لقد كان المسلمون لا يدعون هذا الرجل إلا زيد بن محمد ، ولا ينظرون إليه إلا على أنه ابن نبيهم ، ومن أقرب الناس إليه وألصقهم به وآثرهم عنده ، وكان النبي نفسه يقول ذلك ويجهر به . ولكن الله يريد أن يُلغي نظام التبني هذا ، وأن يردّ الناس إلى أنسابهم وأن يَدْعوا الأبناء لآبائهم ، وإذا هو يمتحن في ذلك نبيه ، ويمتحن في ذلك زيداً ، ويمتحن في ذلك المؤمنين الصادقين جميعاً . يُلقي في قلب النبي حب زينب زوج زيد ، ويلقي في قلب زيد الانصراف عن زينب والنفور منها .

وهذه نفس محمد مضطربة أشدّ الاضطراب ، ممتنعة أشد الامتناع ، واجمة أشد الوجوم ، ترفض هذا الحب رفضاً وتزْوَرُّ عنه ازوراراً ، وإذا هي تُنكره حتى على نفسها . ولكن الله يبدي ما تخفي ، ويُعرّف الناس ما تُنكره ، وإذا زيدٌ يريد أن يطلق امرأته والنبي ينهاه ويزجره ويحذره . ولكن الله بالغ أمره وممض إرادته ومتم حكمته ، وإذا زيد يطلق امرأته ، وإذا النبي يتزوّج زينب، ويقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض في ذلك ما يقولون . ولكن الحب الخالص بين زيد ومحمد يخرج من هذه المحنة العنيفة ظافراً منتصراً كأنقى وأصفى ما يكون ، وإذا الله يُنزل في هذه المحنة قرآناً ويسمي فيه زيداً فيقول : « وإذْ تقولُ للذي أنعمَ اللهُ عَليه وَأنْعمتَ عَليه أمْسكْ عليكَ زَوْجَكَ وَاتقِ اللهَ وتُخْفِي في نَفسكَ ما اللهُ مُبديه وتَخشى الناسَ وَاللهُ أحَقّ أنْ تَخشاهُ ، فلما قَضى زَيدٌ منها وَطراً زَوّجناكها لكيْ لا يَكونَ على المؤمنينَ حرَجٌ في أزْواج أدْعيائهمْ إذا قَضَوْا منهنّ وَطراً وكانَ أمْرُ اللهِ مَفعولا » . ثم يقول : « مَا كانَ مُحمّدٌ أبا أحدٍ مِنْ رجالكمْ وَلكنْ رَسولَ اللهِ وخاتَمَ النبيينَ ، وكانَ اللهُ بكل شيء عَليما » .

وقد تلقى المؤمنون الصادقون هذه المحنة كما كانوا يتلقون أمر الله كله راضين به مخلصين في الرضا ، قد اطمأنت إليه قلوبهم ، وصفت له نفوسهم ، وصحّت على إمضائه عزائمهم وثَقوا بأنّ الله قد اختار لهم فاختاروا لأنفسهم ما اختار لهم الله . وقد مضى زيد مع نبيه وصاحبه كما كان يمضي مع أبيه ، وفيّاً أميناً مخلصاً ، مجاهداً في سبيل الحق مضحياً في ذات الله . وإذا رسول الله يزوجه حاضنته أم أيمن الحبشية ، ويعده الجنة ، فتنجب له أسامة بن زيد .

ثم تُقبل المحنة الأخيرة . فهذا النبي يجهّز لغزوة مُؤتة . فإذا أتم جهازه اختار الأمراء ؛ فقدّم زيداً وقال : « فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رَوَاحةَ » . قال المحدثون : فوثب جعفر بن أبي طالب فقال : « يا رسول الله،

ما كنتُ أرغب أن تستعمل عليّ زيداً » .

فقال رسول الله : « امضهْ فإنك لا تدري أيّ ذلك خير » [1] .

ومضى المسلمون إلى مـؤتةَ يقودهم زيد . حتى إذا كانت الموقعة ، قاتـل المسلمون على صفوفهم وقاتل الأمراء مترجلـين ، فقتل زيـد رحمه الله طعناً بالرماح . وقال النبي حين بلغه ذلك : « إنه دخل الجنـة يسعى » . وصعد النبي المنـبر فأنبأ المسلمين بصرع الأمراء الثلاثة : وقال : « اللهمّ اغفر لزيد ، اللهم اغفر لزيد ، اللهم اغفر لزيد ، اللهم اغفر لجعفر ولعبدالله بن رواحة » يستغفر لزيد ثلاث مرات ، ويجمع بين ابن عمه وعبدالله بن رواحة في استغفار واحد .

تحدّث ابن سعد عن الواقدي في اسناده ، قال : لمـا أصيب زيد بن حارثة ، أتاهم النبي (ص) قال فـَجهشتْ بنت زيد في وجه رسول الله (ص) فبكى رسول الله (ص) حتى انتحب . فقال له سعد بن عُبادة : يا رسول الله مـا هذا ؟ قال : « هذا شوق الحبيب الى حبيبه » .

(١) طبقات ابن سعد طبع ليدن ، جزء ٣ ، صفحة ٣٤ .

القلب الرحيم

لم يبسم الأمير لحنظلة بن عمير الخزاعي حين أدخل عليه ، ولم يبسط له ذلك الوجه الذي تعوّد زوّاره أن يروه مشرقاً سمحاً ، بل لم ينظر اليه ، ولم يرفع رأسه عن ذلك الكتاب الذي كان ينظر فيه ، وإنما تلقى من الشيخ تحيته وردها عليه بمثلها ، وكأنه نسي مكانه منه فلم يأذن له بالجلوس . وظل الشيخ قائماً حائراً ، مطرقاً حيناً ثم ناظراً عن يمين وشمال حيناً آخر ، والناس من حول الأمير ومن حوله ساهمون واجمون ، ينكرون على أنفسهم ، ولكنهم لا يستطيعون ان يقولوا شيئاً تهيباً للأمير .

وكانت للشيخ في نفوس الناس بالفسطاط مكانة حسنة ومنزلة رفيعة . عرفوا وَرَعه ، وكرم نفسه ، وتنزهه عن الصغائر ، وحسنَ بلائه في المشاهد ، وحسنَ رعايته لحرمات الدين ، واكبروا منزلته من قومه ، ونباهة شأنه فيهم ، وحسنَ صنيعه إليهم . وكثيرٌ منهم كانوا يكبرون عظم ثروته ، وسعة ذات يده . وكلهم كان يرى على كل حال ان الأمير لم يلقه بما تعوّد أن يلقاه به من البشر والإيناس . وكلهم كان يودّ لو استطاع أن ينبّه الأمير الى مكان الشيخ ، ولكنه كان يشفق أن يجاوز حقه ويعدو حده ويدخل على الأمير بما لا يحب .

وقد طال اطراق الأمير وصمته ، وطال وقوف الشيخ وحيرته . ثم تحوّل الشيخ عن موقفه فجأة ، وسلم على الأمير سلام المنصرف . فرفع الأمير اليه وجهاً عابساً وهو يقول : « الى أين يا حنظلة ؟ » . قال الشيخ : « إلى حيث يلقاني الناس بغير ما لقيتني به أيها الأمير » . قال الأمير : « لا بأس عليك ؛ اجلس فإن لي معك شأناً » . قال الشيخ : « لقد علمت أن لك معي شأناً ، ولكني علمت ايضاً أن مثلي لا يُلقى بمثل ما لقيتني به . فإن كنت قد دعوتني لخصومة أو ملامة ، فقد كنت حرياً أن تقدمَ بين يدي خصومتك أو ملامتك خيراً مما قدمت ، او تكلف قاضيك أن يدعوني كما يُدعى المتهم المليم » .

قال الأمير : « اجلس فليس عليك من بأس ! إني لم أدعك لخصومة ولا لملامة ،

وإنما دعوتك لبعض الأمر . ولعل ما نجم بينك وبيني لا يعدو العتب عليك والنصح لك». قال الشيخ : «وما ذاك؟» قال الأمير : «فخذ مكانك ! فإنا سنتحدث عما قليل».

وسعى الشيخ هادئاً مطمئناً حتى جلس وهو لا يكاد يُخفي ما يظهر على وجهه وفي عينيه من آيات الغيظ . وأحسّ جلساء الأمير أن الأمير يريد الخلوة إلى حنظلة فجعلوا ينصرفون متتابعين ، حتى لم يبقَ في مجلس الأمير أحدٌ إلا هذا الشيخ . هنالك نظر الأمير إلى حنظلة نظرة طويلة فيها حب ورفق ، وفيها حزم وعزم ايضاً، ثم قال وهو يبتسم متكلفاً : « إن لبيت مال المسلمين عندك لثأراً ما أظنه يستطيع أن يُدركه منك مهما تضخمْ ثروتك ومهما تُغلّ هذه الأرض التي تملكها ، ومهما يكسبْ لك هذا العدد العظيم من الرقيق الذين تصرّفهم في هذه الصناعات المختلفة المربحة».

قال حنظلة : « أينْ عما تريد أيها الأمير ، فإني لا أفهم عنك منذ اليوم » . قال الأمير : « فإنك قد رزّأت بيت المال رُزْءاً ما أظن ثروتك تستطيع أن تنهض به». قال حنظلة : « فانك لم تُوَلّني عملاً من أعمالك ، ولم تأتمني على ما تحتوي خزائنك من مال ، وما أعرف أن بيني وبين السلطان سبباً من أسباب التجارة او الالتزام ، فكيف رزأت بيت المال وبمَ رزأته ؟ » .

قال الأمير : « ما هذا الحديث الذي بلغني عنك ؟ ألم ترتفع إليَّ الأنباء بأنك قد زرتَ قرية عامرة من قرى الريف تريد أن تتعهد فيها بعض أرضك ، فلم تنصرف عنها حتى أسلم أهلها جميعاً . ولم يبقَ منهم مُعاهد يؤدي الى بيت المال درهماً او ديناراً ! أفتظن أنك لم ترزأ بذلك بيت مال المسلمين!! فاذا مضيت عن سيرتك هذه، واذا تأثرك جماعة أمثالك ، فجعلوا كلما زاروا قرية من قرى الريف حملوا أهلها على الاسلام وصرفوا عن بيت المال مورداً من موارده ، فإلامَ نحن صائرون ؟ ومن أين ننفق على هذه المرافق؟! ومن أين نرزق أهل الديوان ، ونوفر على الجند أعطياتهم؟ وكيف نحمل الى دمشق ما تريد أن يُحمل اليها من المال ؟ » . فلم يستطع الشيخ أن يملك نفسه ولا أن يحتفظ بما ينبغي من الوقار لنفسه أولاً وللمجلس الأمير بعد ذلك ، ولكنه اندفع في ضحك حرّ مطلق لا تحفظ فيه ولا اتزان . وجعل الأمير ينظر اليه دهشاً لا يدري أيغضب أم يرضى . فلما سكت الضحك عن الشيخ قال في صوت مضطرب بعض الشيء : « أصلحك الله أيها الأمير وغفر لك ! ما كنت أظن أن الله قد بعثنا جباةً للمال نملأ به خزائنك ونحمله الى دمشق ، وانما علمت ان الله قد بعثنا دعاة اليه ، وهداة الى الحق ، ومبشرين برحمة الله ، ومخوفين من نقمته ،

ما يعنينا بعد ذلك أن تمتلىء خزائنكم بالمال او تصفر منه ».

قال الأمير وهو يبتسم ويكظم غيظاً يريد أن ينفجر : « حسبك يا حنظلة ! هذا كلام يقال منذ اذاعه عمر بن عبد العزيز رحمه الله في الناس وكتبه الى الولاة والعمال ، وقد قبلته انت ونفر من أمثالك ، ومضيتم في إنفاذه جادّين . ولكن عمر رحمه الله قضى ولم يطل به العهد ، وعادت أمور الناس الى من تعلم من الخلفاء والأمراء ، وعادت سياسة الناس سيرتها الأولى . فلا بد من أن ننفق على المرافق ، ولا بد من أن نرزق الجند ، ولا بد من أن نحمل الى بني مروان في كل عام ما ينهض بأعبائهم ، وإنها لأعباء ثقال ! ».

قال حنظلة : « فان أمر هذا كله لا يعنيني ، وإنما يعني أمير المؤمنين وولاته وعماله والمديرين لأمواله ، فأما أنا فرجل من المسلمين أتيح له أن يدعو الناس الى الحق ، فاستجابوا له وهداهم الله به الى دينه ، فلا عليّ أن يصرف عن بيت المال موارده . وإن كان لك أيها الأمير او لأمير المؤمنين أربٌ فيما أملك من ثروة فما أستطيع أن أدفعكما عنه ، وما أريد أن أفعل ، فخذا منه ما تشاءان ، وخذاه كله ان احببتما ، فان المال يغدو ويروح ، وما أكره أن أشتري هدى هؤلاء الناس بمال مهما يكثر ، وما أكره ان أعين بيت المال على بعض أعبائه بثروة مهما تضخم، فإني أرى ذلك صدقة ، وأعلم أن الله لا يُضيع أجر المتصدقين ».

قال الأمير وقد عاد إليه هدوؤه واطمأن في مجلسه وأشرقت في وجهه ابتسامة حلوة عرفها حنظلة ، فنظر إلى الأمير نظر الصديق قد لقي صديقه بعد طول الغيبة — قال الأمير : « ليس عليك ولا على مالك بأس ! ولكني أريد أن تقتصد في هذا الجهد وترفق في هذه الدعوة ».

قال حنظلة : « فإني لم أبذل جهداً ولم أشتدّ في دعوة . ولوَددتُ لو أستطيع أن أبذل في ذلك الجهد وأن أبلغ في هداية الناس إلى الحق ما أريد ! فما أعرف أن شيئاً يؤذي نفسي كما يؤذيها منظر هؤلاء المعاهدين وهم يؤدون الجزية عن يد وهم صاغرون . وإني لأرى في دعوتهم إلى الإسلام وهدايتهم إليه إنقاذاً لنفوسهم وإنقاذاً لمروءتهم وإمتاعاً لهم بهذه الحرية التي تتمتع بها وهم مُبعدون عنها مصروفون عما تكفل لأصحابها من الشرف والكرامة وكمال الرجولة . ألم تضع نفسك قط أيها الأمير موضع واحد من هؤلاء الناس الذين يشترون أمنهم على أنفسهم ودينهم بالمال يؤدّونه إلينا صاغرين ؟ ».

قال الأمير : « وفيم تريد أن أضع نفسي موضع هؤلاء الناس ، وقد منّ الله علينا

بالعروبة والإسلام فجنّبنا هذا الصغار ؟ »

قال حنظلة : « فإن الله قد أمرنا أن نسوي بين الناس وبين أنفسنا ، وأن ندعوهم إلى الإسلام لنرفع عنهم هذا الإصر ، ولنردهم إلى مشاركتنا في هذه النعمة التي أنعم الله بها علينا » .

قال الأمير : « ألم تُنبئني أنك لم تبذل فيما صنعت جهداً ، ولم تحتمل فيه مشقة ولا عنفاً ؟ » .

قال حنظلة : « بلى ! ولو قد علمت كيف كان اهتداء هؤلاء الناس إلى الحق واستجابتهم لدعوة الله لراعك ذلك ما راعني ، ولأعجبك من ذلك ما أعجبني ؛ فإني لا أقضي العجب من هذه القصة التي أجرى الله بها الخير على يدي . وما رأيت أعجب من أمر محمد صلى الله عليه وسلّم فيما رأيت وما علمت من أمور الأنبياء . رجلٌ كان يطالبه خصومه وأعداؤه بالمعجزات ، فيبرأ منها ويعلن إليهم أنه بشر مثلهم ، وأنه لم يُرسَل ليبهر العقول بالأحداث العظام ، وإنما أرسل ليتلو على الناس قرآناً يتحدث إلى عقولهم فيملؤها هدى ، ويتحدث إلى قلوبهم فيشعرها رحمة وبرّاً ، ثم لا يخلو أمره من هذه في المعجزات التي تبهر العقول وتسحر الألباب ، دون أن تحدث في طبيعة الأشياء حدثاً أو تتجاوز بعادات الناس الجارية طريقها المألوف ! إنما هي معجزات ممتازات يراها الناس مألوفة يسيرة ، ويراها المفكرون نادرة باهرة ومقنعة مفحمة للمكابرين . لقد كان محمد رجلاً لا كالرجال . ولقد كان بشراً ، ولكنه امتاز بين الناس بخصال أحسها وأحققها في قلبي وفي عقلي ، ولكني لا أجد إلى تصويرها سبيلاً » .

قال الأمير : « فأفصحْ عما تريد واقصصْ عليّ قصتك ؛ فإنك قد أثرْتَ في نفسي عجباً من العجب » .

قال الشيخ : « فإن قصتي يسيرة كبيرة ككل ما يتصل بهذا الرجل الكريم الرحيم . إنك لتعلم أني ذهبت إلى تلك القرية أتعهد بعض أعمالي ، فما أبلغها وما أستقر فيها حتى أعرف أن عظيماً من عظمائها النصارى قد رُزِىء في صبيّ له ، فأرى من الخير والبر أن أسعى اليه مواسياً ومعزياً فأفعلُ . ويلقاني الرجل حفيّاً بي وقد ملك الجزع كل أمره وأخرجه عن طوره ، ولقد كنت أعرفه جلداً صبوراً وقوراً ، ولكن هذا الصبيّ قد كان وحيده ، وقد كان قرة عين له حين تولى عنه الشباب وأدركته الشيخوخة . فلما نزل به الخطب لم يثبت ولم يستطع عليه صبراً ، وقد عجز من كان يحيط به من القسيسين والرهبان عن تعزيته وتسليته . ويأخذني الرفق به والإشفاق

عليه ، فأتحدث اليه في لغتــه القبطية مواسياً مُسلياً ، وأقول له فيما أقول : « لو عرفتَ أن أحاديث نبينا تعزيك أو تُسليك لقصصت عليك منها طرفاً . فقد رُزىء نبينا في صبي وحيد له ، كما رُزئت في صبيك هذا الوحيد . فتلقى الرزء كريماً يملأ قلوبنا نحن المسلمين إكباراً وله وإعجاباً به ورحمــة للصبية من أبنائنا ، في احتفاظ بالرجولة ، وثبات على المروءة ، واصطناع للوقار ، واعتراف بحق الله فيما يَمنّ به علينا من المال والولد ، وإنما يأخذه كما أعطاه دون أن يكون لنا أن نضيق بذلك أو نثور عليه ، هي نعمةٌ أهديت الينا ثم أخذت منا ، وقد ابتلينا بإهدائهـــا الينا كما ابتلينا بأخذها منا ، ونحن بعد ذلك مثابون إن ثبتنا للمحنة وصبرنا على الابتلاء .

قال الرجلُ : « فحدثني بحديثك ؛ فان ما تقوله يبعث في نفسي شيئاً من راحة وأمن ودعة » . قلت : « فإنَّ نبينا قد رُزق في آخر أيامه صبياً ابتهج لمولده ابتهاجاً عظيماً وسُر به سروراً لا يقدّر . ولكن نبينا كان يُحسن لقاء النعمة كما كان يُحسن لقاء المحنة ، كان لا يُخرجه الابتهاج عن طوره ، وكان البطرُ والأشرُ أبعد الأشياء عنه . وكان إذا رضي لم يستأثر بلذة الرضا ، وإنما يُشرك فيهـــا الناس . فلم يكد يُرْزَقُ هذا الصبي حتى أعلن ذلك إلى الناس مغتبطاً ، ثم تصدق على الفقراء ، ووسّع على من ضيقت عليهم الحياة . وكان رفيقاً بابنه هذا ، يسعى اليـــه عند مُرْضعه إذا قال الناس ، فيأخذه فيقبله ويقول له ما شاء الله أن يقول من هذه الألفاظ الحلوة التي تصور أجمل تصوير حنان الآباء ورحمتهم لأبنائهم . وقد كانت نعمة الله على نبينا لا تُحصى ، وكان منها امتحان الله له في أحبِّ الأشياء اليه وآثر الناس عنده فما يبلغ ابنه ستة عشر أو ثمانية عشر شهراً حتى تسعى اليه العلة . ويمضي النبي مع صفيٍّ من اصفيائه يقال له عبد الرحمن بن عوف ليعوده فيبلغه وهو يجود بنفسه ، وينظر الأب الى صبيه الوحيد الذي جاءه حين تولى عنه الشباب ، وحين أقبلت عليه الشيخوخة ، وحين استيأس من الولد ، ينظر الأب الى ابنه هذا أسِفاً محزوناً ، ولكنه ينظر اليه مع ذلك راضياً مطمئناً مذعناً لقضاء الله . وهذه عينه تدمع ، وهذا صفيه ينكر منه ذلك ويقول له : « أتبكي وقد نهيت الناس عن البكاء ؟ » . فيجيبه : « إنما هذا رحمٌ ، وإن مَنْ لا يَرْحم لا يُرحمُ ، إنما تنهي الناس عن النياحة وأن يُندب الرجل بما ليس فيه » . ثم قال : « لولا أنه وعدٌ جامع ، وسبيلٌ مئتاء ، وأن آخرنا لاحقٌ بأولنا، لوجدنا عليه وجداً غير هذا ! وإنا عليه لمحزونون ! تدمع العين ويحزن

القلب ، ولا نقول ما يُسخط الرب ، وفضلُ رَضاعه في الجنـة » [١] .

وهنا تنحدر من عيني الرجل دموع غزار ، وتأخذه عَبرة شديدة يهتز لها جسمه كله اهتزازاً عنيفاً . فإذا انجلت عنه قال : « أعدْ عليّ حديثك هذا ؛ فإني أجد له عذوبة ما وجدتها لحديث قط » . فأعيد عليه الحديث ، فيسمعه مصغياً إليه أشد الإصغاء ولا تنهمر عبرته ولا تأخذه الرعدة هذه المرة ، وإنما يقول في صوت هادىء : « امض في حديثك » . فأقول : « لقد بلغت آخره أو كدت أبلغه فهذا الأب يحمل ابنه إلى القبر ، ويجلس لينظر والناس يوارونه في التراب . ويرى فرجة قد تُركت في اللحد ، فيأخذ حجراً ويناوله مَنْ قام على تسوية القبر ويقول : « إنها لا تضرّ ولا تنفع ولكنها تُقرّ عين الحيّ » [٢] .

وهنا يعود الرجل إلى استعباره، ولكنه في هذه المرة لا يبكي وحده وإنما يبكي معه مَنْ حوله من النـاس . ويقول راهب من رُهبانهم : « ما هذا بكلام رجل كالرجال » . ثم يسأل الشيخ أن أمضي في حديثي ، فأقول : « لقد انتهيت منه أو كدت أنتهي. فقد عاد نبينا إلى بيته محزوناً جَلداً ، وانكسفت الشمس في ذلك اليوم، فيتحدث الناس بالمعجزة ، ويقول بعضهم لبعض : « إنما انكسفت الشمس حزناً لموت إبراهيم ابن النبي » . وينتهي حديث الناس إلى نبينا ، فيخرج ساعياً حتى يأتي المنبر ، فيرقاه ويحمد الله ويثني عليه فيقول : « أما بعد أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد ، فإذا رأيتم ذلك فـافزعوا إلى المساجد » [٣] .

وأقف بحديثي عند هذه الغاية وأنظر ، فإذا مَنْ حولي في صمت عميق تنحدر على وجوههم دموع هادئة لا تمثل حزناً ولا جزعاً ،وإنما تصوِّر قلوباً لينة رحيمة ،ونفوساً قد كشف عنها الغطاء ، وإذا الشيخ ينهض من مجلسه رزيناً ويسعى إليّ هادئـاً وهو يقول : « ابسط يدك ، فما أرى إلا أن نبيك قد جاء بالهدى » . ومـا أكاد أتلقى منه إسلامه حتى يكون الرهبان والقسيسون الذين حضروا المجلس أسرع الناس إليّ ، كلهم يُعلن إسلامه ، ويتبعهم مَنْ حضرنا من عامة الناس . وما أبرح القرية من الغد حتى يكون أهلها جميعاً قد ساروا سيرة عظيمهم وقسيسيهم ومَنْ وفد عليهم من القرى

---

(١) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٨٦ .

(٢) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٩١ .

(٣) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٩١ .

المجاورة ، وحتى يكون بيت مالك أيها الأمير قد رُزىء فيما رزىء فيه من الجزية ».

قال الأمير بعد صمت طويل : « فهل تعلم أن لهذا الحديث وجهاً آخر من الإعجاز؟» قال حنظلة : « وما ذاك ؟ » . قال الأمير : « قد سمعت من كان يتحدث في الشام عن موت إبراهيم ابن رسول الله ويقول : إن النبي ﷺ قـــال : « لو عاش إبراهيم لوضعت الجزية عن كل قبطي [1] » .

« فإنك يا حنظلة قد أحييت ذكرى إبراهيم في هذه القرية فوضعت الجزية عن أهلها » .

(١) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٩٣ .

الــوعد الحــق

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لايشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون»

صدق الله العظيم

- ١ -

قال ياسر بن عامر لأخويه مالك والحارث : عودا إن شئتما إلى أرض اليمن ، أو اضربا إن شئتما في الأرض العريضة ؛ فأما أنا فمقيم ، وقد أعجبتني هذه الأرض فلست أعدل بها أرضاً أخرى ، ورضيت بهذه الدار فلست ابغي بها بديلا . وما رحيلي عن أرض وجدت فيها الأمن بعد الخوف ، والقوة بعد الضعف ، والسعة بعد الضيق ؟ قال أخوه مالك : بل قل ما رحيلي عن أرض فيها هذه الفتاة السوداء التي لا تملك من أمرها شيئاً ، ولكنها تملك من أمرك كل شيء . قال ياسر : فظنّا بي ما شئتما من الظنون ، ولكني مقيم لن أبرح هذه الأرض ولن أتحول عن هذه الدار . قال الحارث: بُعْداً لك من فتى يؤثر الغربة على قرب الدار ، ومضَر على قحطان ، وقريشاً على عَنْس . وَيْحَكَ ؛ إنك لا تأمن أن تُسامَ الخسف[1] وتُحمل على ما تكره ، ثم تلتمس العون فلا تجده ، وتبتغي النصير فلا يجيبك إلا من يخذلك ويمين عليك . قال مالك : وإن فتاتك هذه السوداء لم تنجم[2] من أرض مكة ولم تنزل من سمائها، وإنما جُلبتْ اليها فيما يجلب اليها من الرقيق ، وإن شئت وجدت أمثالها في كل منزل تنزل فيه ، وإن شئت احتلنا لك فيها حتى نخطفها وتعيش معها آمناً بين بني أبيك وذوي مودتك . قال ياسر : ضَمّا هذا الأمر كيف شئتما ؛ فإني مقيم لن أبرح هذه الأرض ، ولن أتحول عن هذه الدار ، ولن أجزي أبا حُذَيفة عن الحسنة بالسيئة ، ولا عن المعروف بالمنكر،ولن أرزأه شيئاً في ماله وهو الذي قد آوانا وقرانا وأحسن مثوانا[3]. عودا إن شئتما في الأرض العريضة . فأما انا فمقيم ، وما أرى إلا أن لي في هذه الدار شأناً . قال الحارث : شأن الرقيق الذي لا يُستكرَه على الرّقّ ، وإنما يسعى اليه سعياً ويمعن فيه إمعاناً ![4] فان رقق القوم بك وآثروك بالخير فشأن الحليف الذي

(١) سامه الخسف : اذله .

(٢) نجم الشيء ظهر وطلع .

(٣) رزأه ماله : أصاب منه شيئاً فنقصه . وآوانا : أنزلنا عنده في منزله وقرانا : أضافنا .

(٤) أمعن في الأمر : ابعد وبالغ في الاستقصاء .

يُعال ولا يعول . قال ياسر : عودا إن شئتما فانني مقيم . قال الحارث لأخيه مالك : دَعه فما علمته إلا نكِداً لا خير فيه .

ورأى الصبحُ حين أسفر من الغد غلامين يخرجان من مكة يقودان راحلة قد وهبها لهما أبو حذيفة بن المغيرة . ويسعى معهما أخوهما ياسر سعيَ المودّع لا سعيَ من ازمع الرحيل[1] وكان هؤلاء الفتية الثلاثة قد خرجوا من دارهم بتهامة اليمن يلتمسون أخاً لهم فقدوه ، فطوّفوا في الأرض ما طوّفوا ، وبحثوا عن اخيهم ما بحثوا فلما استيأسوا منه عادوا الى أرضهم ، ومرّوا بمكة أثناء عودتهم ؛ وقد بلغ منهم الجهد ، واضناهم سفرٌ غير قاصد[2] . فقال بعضهم لبعض : نأوي الى هذه القريـــة فنلم ببيتها ونسأل آلهتها ونصيب فيها حظاً من راحة ، ونسأل اهلها معونة على ما بقي لنا من الطريق .

وأووا الى مكة وطافوا بالبيت وسألوا الآلهـة فلم يجدوا عندها شيئاً ؛ ثم أقاموا في المسجد ينتظرون أن تغدو قريش الى أنديتها . فيمر بهم ، حين يرتفع الضحى ، أبو حذيفة بن المغيرة المخزومي . فيرى ما أصابهم من الضرّ . فيضمهم إليه ويكرمهم. كما تعودت قريش أن تكرم الضيف .

وكان أبو حذيفة قد وَكَّل بخدمة هؤلاء الضيف سميَّـةَ بنت خياط أمة سوداء ، في أول الشباب ، عليها من الجمال نضرةٌ قاتمة بعضَ الشيء ، وفيها من الشباب خفـة ومرحٌ ونشاط ، وفي لسانها المستعرب عذوبةٌ حسنة الموقع في الآذان والقلوب .

فكانت تغدو على هؤلاء الفتية بطعـامهم أول النهار ، وتروح عليهم بطعامهم إذا أقبل الليل ، وتعمل في خدمتهم بين ذلك ، وتتحـدث اليهم ، وتسمع منهم بين حين وحين، وكأنها قد وقعت في نفس هذا الفتى فحبّبت اليه الإقامةَ بمكة . ومن يدري! لعله أن يكون قد تحدث اليها في شيء من ذلك فأحسّ منها مثل ما أحس من نفسه : ميلَ الغريب المستوحش إلى الغريب المستوحش .

وقد همّ الفتى أن يحمل نفسه على ما تكره ، ويعود مع أخويه إلى حيث ينتظرهما أبٌ شيخ حزين وأمٌ شيخة ملتاعة[3] . ولكن الفتى لم يستطع أن يحمل نفسه على ما أراد . وحياة الناس ليست رهناً بما يريدون ، وليست مستجيبة لما يقدّرون، وإنما هي أمور خفية يجريها القضاء ، لا يؤامر[4] فيها احداً ، ثم يكون لها في حياة الناس

---

(١) أزمع الرحيل : عزم عليه وانتواه .

(٢) أضناهم : أمرضهم وأتعبهم . غير قاصد : شاق بعيد .

(٣) التاع قلبه : احترق من الهم والشوق وكانت به لوعة .

(٤) يؤامر : يشاور .

من الآثار ما لم يكن ليخطر لهم على بال . والشيء الذي ليس فيه شك هو أن الأخوين قد خرجا من مكة يقودان راحلتهما يَتَيَمّمان[1] تهامـــة اليمن ، فضاعا في الدنيا وفي التاريخ ، ولم يعرف أحد عنهما شيئاً ، كما لم يعرف أحـــدٌ عن أخيهما الضائع وأبويهما الشيخين شيئاً .

وعاد الفتى ياسر بعد أن ودّعهما إلى مكة ، فأقام فيها ضيفاً على أبي حذيفة أوّل الأمر ، ثم حليفاً لأبي حذيفة بعد ذلك ، ثم زوجاً لسمية أمته السوداء تلك . ومنـــذ ذلك الوقت عرفته الدنيا وحفظه التاريخ .

- ٢ -

وذلك أن أبا حذيفة انصرف من ناديه ذات يوم ، فلقي وهو رائح الى داره ياسراً غيرَ بعيد من المسجد . فقال له مبتسماً : ما فعل أخواك يا فتى عنس ؟ فقال الفتى : آثرا [2] قرب الدار على بعدها ، فعادا الى قومهما . قال أبو حذيفة : وآثرتَ بعـــد الدار على قربها فأقمت في مكة ! قال الفتى : بل آثرتُ هـــذا الحرام الآمن على غيره من مواطن الخوف ، وآثرت جوار هذا البيت العتيق على ما في اليمن من ضـــلال وغيّ[3] . قال أبو حذيفة : وماذا تريد أن تصنع في مكة ؟ قال الفتى : التمس القوت من مصادره . قال أبو حذيفة : فانّ القوت ميسَّرٌ لك ما بقيت لي جاراً . قال الفتى : بأبي أنت من سيد كريم تُزهى به مخزوم وتزدان به قريش وتَعزّ به البطحاء ! إنك والله ما علمتُ لسخيّ النفس رضيّ السيرة ، تحفظ الضائع وتطعم الجائع ، وتعطي السائل وتغني العائل ، وتحمي الجار وتغيث الملهوف [4] . قال أبو حذيفـة : حسبك يا فتى ! لقد جزيتَ فأربيت [5] ، وإني لأرى فيك ذكاء ولسناً [6] . فأنت جار لي ما أقمت في هذه القرية . قال الفتى : لا وعداكَ ذمٌّ [7] ولكني ادعوك الى خُطة سواء

---

(١) ييمان : يقصدان .
(٢) آثر : فضّل .
(٣) الغي : الضلال .
(٤) العائل : الكثير العيال ، الملهوف ، الحزين والمظلوم .
(٥) اربيت : زدت .
(٦) اللسن : الفصاحة .
(٧) أي جاوزك ولم يصبك ما تذم به . وهذا من أساليب العرب التي تصطنعها في الدعاء عند الخطاب.

بيني وبينك لا تشقّ عليك ولا تخفف عني : تحميني مما تحمي منــه نفسك وأهلك ، وأكون حرباً على من حاربتَ ، وسلماً لمن سالمت ، ووقاء [١] لك ولأهلك من العاديات ما استطعتُ الى ذلك سبيلاً . قال ابو حذيفة : فهو الحلفُ إذن ؟ قال الفتى : نعم . إن طابت نفسك به . قال أبو حذيفة : فقد طابت به نفسي ، واطمأن اليه قلبي ! فاذا كان الغد فوعدنا المسجد . قال الفتى : فانك من المسجد غير بعيد وما أحب أن نرجىء الى غد ما نستطيع أن نأتيه اليوم . قال أبو حذيفة : فهلمّ إذن .

وأخذ بيد الفتى . ورجعَ أدراجه خطوات . فلما بلغ المسجد قصد الكعبة . قال الفتى : الى أين تريد ؟ قال أبو حذيفة : أريد أن اشهد الآلهة على حلفنا . قال الفتى متضاحكاً : فأشهد عليه قومك قبل أن يتفرقوا ، فان الآلهــة مقيمة حيث هي لا تريم [٢] . قال أبو حذيفــة : ما رأيت كاليوم فتى ذكياً أريباً [٣] . ثم مضى به الى أندية قريش ، فجعل لا يمر بناد منها إلا قال : يا معشر قريش . اشهدوا عليّ اني قد حالفت ياسر بن عامر هذا العَنْسي . وجعل لا يقول ذلك لنادٍ من أندية قريش إلا قالوا له : سعيتَ غيرَ مذموم ، وحالفت غير ملوم .

فلما طوّف به على أندية قريش كلها قصد به قصْدَ الكعبة . قال الفتى : الى أين تريد ؟ قال أبو حذيفة : الى حيث أشهد الآلهة على حلفنـا . قال الفتى متضاحكاً : ويحك أبا حذيفة [٤] ! أتظن ان الآلهة لم تسمعك وأنت تشهد الناس ؟ فهي قد سمعت وشهدتْ ورضيتْ ، أم تراها لا تسمع إلا اذا دلوت منها كما يدنو الرجل من الرجــل حين يريد أن يناجيه ؟ قال أبو حذيفة : ما أرى إلا أني قد حالفت اليوم شيطاناً ! ويحك يا فتى عنس ! فإنا قد ألفنا أن نقف من آلهتنا موقف المتحدث اليها المناجي لها. فقال الفتى : فقف منها هذا الموقف حيث شئت ، فانها ينبغي ان تكون معك في كل مكان . قال أبو حذيفة وقد أخذه شيء من وجوم ، كأن الفتى قد ردّ اليه شيئاً غاب عنه ، او ردّه الى شيء غاب عنه : فلا أقل من أن نطوف بالكعبة ليتم لهـذا الحلف حقه من الحرمة والتقديس . قال الفتى : أما هــذا فنعم . ثم مضيا فطوّفا بالكعبة ما شاء الله أن يطوّفا بها . وراحا [٥] الى دار أبي حذيفة حليفين . ولكن بينهما من

---

(١) الوقاء : الوقاية والصون.

(٢) لا تبرح ولا تنتقل .

(٣) الاريب : الماهر البصير الحاذق .

(٤) ويح : كلمة مدح وتعجب .

(٥) راحا : عادا .

الأمر اكثر مما يكون بين الحليف والحليف .

يقول أبو حذيفة للفتى في طريقهما إلى الدار : ويحك يا عنسي ! إني لأرى فيك استخفافاً بآلهتنا وازوراراً عنها [1] . أفتراك لم تنسَ آلهة عنس بعدُ ، ولم تردْ أن يخلص قلبك لغيرها ؟ فيقول الفتى : بأبي أنت يا أبا حذيفة ! والله ما ذكرتُ آلهة عنس قطّ فأنساها اليوم أو أستبقي ذكرها في قلبي ، وما أعرف أني غدوت عليها مُصبحاً أو رحت إليها ممسياً،أو آمنت لها بسلطان . قال أبو حذيفة : فقد صبوت[2] إذن عن آلهة آبائك إلى إله النصارى أو اليهود ؟ قال الفتى :لقد لقيت أولئك وهؤلاء وسمعت منهم ، ولم أفهم عنهم ولم أحاول لأحاديثهم فهماً . قال أبو حذيفة : فليس لك إله إذن؟قال الفتى:لو كنت متخذاً إلهاً لعبدت البحر الذي يَروُعني ويَرُوعني[3]. أو الشمسَ التي تضيء لي أثناء النهار ، أو النجومَ التي تهديني أثناء الليل ، أو السحاب الذي يطعمني ويسقيني . ولكن شيئاً من ذلك لا يبلغ نفسي ولا يتحدث إلى قلبي ولا يثير حاجتي إلى العبادة والطاعة والإذعان . فأنا حائر جائر عن القصد [4] ، ألتمس الهدى فلا أجد إليه سبيلاً ، فأعيش مع الناس مشاركاً لهم في الدنيا مفارقاً لهم في الدين . قال أبو حذيفة : إن لك لشأناً يا فتى عنس . قال الفتى : كغيري من الناس. إلا أني أفكر في هذا كثيراً ولا يفكرون فيه إلا قليلاً .

وبلغا دار أبي حذيفة فأنفقا فيها سائر النهار وشطراً من الليل يخوضان في أحاديث الدين والدنيا وفي أحاديث تهامة ونجد والحجاز .

وقد وقع حب الفتى في قلب أبي حذيفة موقعاً غريباً . حتى قال لنفسه ولأهله حين خلا إلى أهله : ما أحببتُ غريباً قطّ كما أحببتُ هذا الفتى ، ولو كنتُ متخذاً ولداً لاتخذته ولداً .

- ٣ -

وأقام ياسر ما شاء الله أن يُقيم ضيفاً على حليفه أبي حذيفة . يغدو إلى المسجدَ مصبحاً فيقول لقريش ويسمع منهم ، ويروح إلى الدار بعدَ أن تزول الشمس ، فلا

---

(١) ازور عنه : عدل وانحرف .

(٢) صبأ : خرج من دين إلى دين آخر .

(٣) يعجبني ويفزعني .

(٤) جار : عن الشيء مال عنه .

يقيم فيها إلا ريثما يصيب شيئاً من طعام وراحة ، ثم يخرج فيمشي في الأسواق ، ويتعرّف أمر الناس . ويلتمس أسباب الرزق ؛ حتى اذا يسرتْ له الوسائل للعمل والكسب أراد أن يتحول الى دار له ، وآذن [1] أبا حذيفة بذلك ، فلم ير أبو حذيفة بذلك بأساً . ولكنه رأى الفتى متردداً في نفسه ، لا يقدم قلبه إلا ليحجمَ ، وهو يجيل طرفه في الدار فعلَ من يجد في التحول عنها مشقة وحزناً ، قال أبو حذيفة : إني لأراك متردداً محزوناً يا فتى ، وما أعرف أنّ داري قد ضاقت بك أو أن أحداً من أهلها قد نالك بمكروه ، فما يمنعك أن تقيم فيها كما أقمتَ إلى الآن ، حتى يتسع لك العيش وتتصل بك أسبابه متينة مطمئنة ؟ قال الفتى : لا والله يا أبا حذيفة ما أنكرتني دارك ولا أنكرتها ، وما لقيتُ من ضيافتك إلا خيراً ، ولكن لي في دارك أرَباً [2] قد كنت أظن أني أستطيع السلوّ عنه ، ثم تبين لي أن ليس لي إلى هذا السلو سبيل . قال أبو حذيفة ، وقد أخذه العجب « لك في هذه الدار أرب !؟ وما عسى أن يكون ؟ » فأطرق الفتى قليلاً ، وغشيتْ وجهه سحابة رقيقة حمراء [3] ، ثم رفع رأسه وكأنه قد أجمع أمره على شيء عظيم ؛ وقال وعلى ثغره ابتسامة فيها كثير من الجرأة ، وفيها كثير من الحياء : أمَتُك هذه السوداء التي تسمونها السُمَيَّةَ . قد وقع حبها في قلبي يا أبا حذيفة ، ولا والله ما كانت مني اليها ريبة في نظر أو حديث . قال أبو حذيفة : فتريد أن أهبها لك ؟ قال الفتى : لا والله لا أرزؤك في مالك [4] . قال أبو حذيفة : فإنك لا ترزؤني في مالي شيئاً ، وإنما هي أمة والإماء في الدار كثير . قال ياسر : لا والله لا أرزؤك في مالك ، وما آثرتُ الحلفَ على الجوار إلا لتخفَّ مؤونتي عليك ، وما أحبّ أن تقول مخزوم أقام في الدار مقام الضيف ، ثم لم يتحول عنها كما أقبل عليها . قال أبو حذيفة : فإن شئت زوّجتك منها . قال الفتى وقد أغرق في ضحك متصل : هيهات يا أبا حذيفة ! [5] أتريد أن ألدَ لك الإماء والعبيد ؟ قال أبو حذيفة وقد ضرب على كتف الفتى بيده : ويلك ! لقد عنّيتني منذ اليوم ، تزوّجها وما ولدت لك من ولد فهو حر . قال ياسر : بأبي أنت من سيد كريم ! ألم أقل إنك فخر

---

(١) آذنه أعلمه .

(٢) الأرب : الحاجة .

(٣) هذا كناية عن الخجل .

(٤) لا أرزؤك في مالك : لا أصيب منه شيئاً فأنقصه .

(٥) هيهات : اسم فعل معناه بعد .

مخزوم وزينة قريش وعزّ البطحاء . قال أبو حذيفة : حسبك [1] ؛ فقد أمرفت في الثناء . أقبلْ عليّ إذا كان المساء فتزوّج ، ثم تحوّل بأهلك إلى دارك الجديدة ، وعسى ألا ترى فيها إلا خيراً .

ولم يكد ياسر يتحوّل بسمية إلى داره حتى غفل عنه التاريخ دهراً طويلاً ، كما تعوّد أن يغفل عن الدهماء [2] حين تحيا وحين تموت وحين تُلمّ بها الأحداث وتختلف عليها الخطوب . وماذا عسى أن يصنع التاريخ بفتى من عامة الناس ودهمائها، ليس له خطر في مكة ولا مكانة في قريش ، وإنما هو غلام أجنبي حليف ، يعيش كأمثاله من هذه الأخلاط التي كانت تعيش في مكة ساعية إلى رزقها أيسرَ السعي ، تكسب القوت ما وجدت إليه سبيلا ، فإن أعياها كسبُه وجدت حاجتها عند أحلافها من سادة قريش . وهي مع ذلك آمنة على أنفسها وعلى ما أتيح لها من مال ، لا يعدو عليها عادٍ ولا يسعى إليها مكروه .

وكان التاريخ في ذلك الوقت ، كما كان في أكثر الأوقات ، أرستقراطياً لا يحفل إلا بالسادة ، ولا يلتفت إلا إلى القادة . وكان التاريخ في ذلك الوقت ، كما كان في أكثر الأوقات ، ضنيناً [3] بخيلا ومستكبراً متعالياً ، يحفل بالسادة في تحفظ ويلتفت إلى القادة في كثير من الاحتياط ، لا يسجل من أمرهم إلا ما كان له شأن أو خطر . وآيةُ ذلك أنه لم يسجل من أمر قريش في تلك العصور إلا أطرافاً يسيرة ضئيلة لا تكاد تظهرنا من أمرهم على شيء ؛ كأن التاريخ كان يراها أهونَ شأناً وأيسرَ خطراً من أن يمنحها عنايته ، وكأنه كان يرى قياصرةَ الروم وأكاسرة الفرس وقادة أولئك وهؤلاء وسادتهم أحقّ بعنايته وأجدر برعايته وأحرى أن يقف عندهم ويبلو [4] أعمالهم ويسجل أخبارهم . فأما سادة قريش وقادتها وذوو المكانة في هذه الأحياء العربية التي لا تحسن كتاباً ولا حساباً ، ولا تسخر الزمان والمكان لأمرها ، وإنما تختلس حياتها من الزمان والمكان والأحداث والخطوب اختلاساً ، فلم يكونوا أحرياء [5] أن ينظر التاريخ إليهم إلا شزْراً [6] ، وأن يسجل من أمرهم إلا ما فيه تفكهة للأجيال

---

(١) حسبك : كفاك .

(٢) الدهماء : جماعة الناس وعامتهم .

(٣) الضنين : البخيل .

(٤) يبلو : يختبر .

(٥) أحرياء : جمع حري ، أي خليق وجدير .

(٦) نظر إليه شزراً : نظر إليه بجانب عينه مع إعراض .

المقبلة وترويحٌ عليها وتسلية لها عن بعض مـا يشغلها من الهم ، فكيف بالدهماء التي لا تملك المال ولا تصرف التجارة ولا تقوم بأمر الآلهة ولا تدبّر السلطان ، وإنما تتسقّط حياتها تسقّطاً وتتلقطها تلقطاً ، وتعيش مما يلقي إليها الأغنياء السراة من الفتات [1] .

وكان ياسر من هـذه الدهماء ؛ فلم يحفل به التاريخ ولم يلتفت إليه ، ولم يصحبه في حياته الطويلة ، ولم يسجل غدوّه على التماس الرزق ، ولا رواحه على أهله ، بما اكتسب منه . حتى كان يومٌ أكْرِهَ التّاريخُ فيه على أن يلتفت إلى الدهماء أكثر مما يلتفت إلى السادة والقادة ، وعلى أن يسجّل من أمر ياسر وأمثاله من عامة الناس أكثر مما يسجل من أمر حلفائه من بني مخزوم وأمثالهم من الملأ والسادة في قريش .

في ذلك اليوم نظر التاريخ فإذا أحداثٌ ضئيلة تحدُث لا يكاد الناس يأبهون [2] لها ولا يُعْنَوْنَ بها ، ولكنها لا تكاد تحدُث حتى تخفق لها القلوب وتتفتّح لها العقول وتضطرب لها الضمائر ، وحتى تعرف الدهماءُ نفسها وتشعر بحقها وتطمح إلى هـذا الحق وتسعى إليه جادة لا وانية [3] ولا فاترة ، وحتى ينكر الملأ [4] من قريش كل شيء : يرون المستضعفين في الأرض وقد سمَتْ نفوسهم إلى أشياء لم تكن تسمو اليها، وطمعت قلوبهم في أشياء لم تكن تطمع فيها . وانطلقتْ ألسنتهم بأشياء لم تكن تنطلق بها . ويرون الرقيق وقد طمحوا إلى الحرية واشتاقوا اليها وهاموا بها وجعلوا يتحدثون فيما بينهم كأنهم ليسوا أقل من سادتهم استحقاقاً للحياة ، ولا استئهالاً [5] للكرامة ، ولا ارتفاعاً عما ينقص ، ولا تنزهاً عما يشين [6] . كل قد خلق جسمه من تراب ، وكل يصير جسمه إلى تراب ، لا تتمايز أجسامهم حين تولد ، ولا تتمايز أجسامهم حين تموت ، وإنما تتمايز نفوسهم وقلوبهم وضمائرهم بين ذلك ، بما تقدم من الخـير ، وما تتجنب من الشر ، وبما تتقي من الإثم ، وما تصطنع من البرّ والمعروف. ثم يتحدثون بأن نفوسهم وقلوبهم وضمائرهم تتمايز بعد الموت بما تلقى من جزاء أعمالها ؛ فمن يعملْ مثقالَ ذَرّةٍ خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره . ثم يتحـدثون فيما بينهم بأن حرية الحر لا تفضّله على غيره من الناس إلا إذا آمن واتقى وعمل عملاً صالحاً ولم يؤذ الناس بيـده

(١) السراة : جمع سري ، وهو صاحب المروءة في شرف .
(٢) لا يأبهون لها : لا يفطنون لها .
(٣) وانية ضعيفة .
(٤) الملأ من قريش : أشرافهم وعليتهم .
(٥) استئهالاً : استحقاقاً .
(٦) يشين : يعيب .

ولا بلسانه ولا بقلبه ، وأنّ رقّ الرقيق لا يخسّه[1] عن غيره من الناس ما دام يؤمن ويتقي ويحسن في القول والعمل ويبرىء قلبه من الإثم وضميره من السوء . ويتحدثون فيما بينهم بأن الحرية والرقّ، والغنى والفقر، والقوة والضعف، أعراض تعرض وتزول، ليس من شأنها أن تميز بعض الناس من بعض ، ولا أن تسوّد[2] بعضهم على بعض، ولا أن تحكّم بعضهم في بعض . وإنما يمتاز الناس بالخير والمعروف والتقوى ، ويسود الناس بالسلطان الذي لا يأتيهم من مولد ولا من ثراء ، وإنما يأتيهم من رضا الناس عنهم وثقة الناس بهم وإيمان الناس لهم . ويحكُم الناس بأمر يأتيهم من السماء قد فصّل لهم الخير والشرّ،وبين لهم العرف والنكر ، وميّز لهم الحلال والحرام ، لا بهذه التقاليد التي توارثوها عن آبائهم ، ولا بهذه السنن التي حفظوها عن قديمهم .

بهذا كله كان الرقيق والمستضعفون في الأرض يتحدثون إذا لقي بعضهم بعضاً أو خلا بعضهم الى بعض . وبهذا كله جعل الرقيق والمستضعفون في الأرض يتسامعون ثم يتداعون ثم يتواصَوْن . وبهذا كله رُوّع الملأ من قريش ذات يوم ، فثار ثائره ، وفار فائره ، وأجمع أمرَه أن يطفىء هذه الجذوة قبل أن ينتشر لهبها فلا يبقي ولا يذر[3] . ونظر التاريخ ذات يوم الى مكة فرأى فيها هذه الأحداث الصغار الكبار ، وسمع فيها هذه الأحاديث التي كانت تهمس بها الأفواه وتصيح بها الضمائر والقلوب والنفوس. ورأى التاريخ فيما رأى ياسراً ذلك الفتى قد تقدمت به وبزوجه السنّ،وقد مات حليفه أبو حذَيفةَ ، وقد رُزق من سمَيةَ ثلاثةَ أبناء قتل أحدهم في خطوب مجهولة ، وبقي الآخران يعيشان كما كان أبوهما يعيش .

ويجب أن نسجل أن التاريخ لم يبحث عن ياسر ولا عن بنيه ، وإنما أقبل ذات يوم على مكة ليرى بعض ما يجري فيها من الأحداث ، فلم يَكَدْ يبلغ المسجد حتى رأى أنديةَ قريش هائجة مائجة تتحدّث عن محمد وعن دعوته وعمن تبعه من المستضعفين والرقيق ، وقد تُذْكرُ دارُ أرقم بن أبي الأرقم التي اتخذها محمد لنفسه ولأصحابه نادياً ينشر منه دعوته هذه الرائعة المروعة ، فتحول التاريخ عن هذه الأندية الى دار ابن أبي الأرقم ليرى محمداً وأصحابه ويسمع منهم . ولم يكد يبلغ هذه الدار حتى رأى على بابها رجلين : أحدهما أسود طُوالٌ ترتفع قامته في السماء، والآخر أصهبُ رَبعَة[4] ،

---

(1) لا يخسه : لا يجعله خسيساً دنيئاً .

(2) تسود : تجعلهم سادة.

(3) يذر : يترك .

(4) أصهب : أحمر اللوح او اشقره . والربعة من الرجال : من يكون بين الطول والقصر .

وهما يتحاوران، يقول الاسود لصاحبه الأصهب : ما تصنع هنا ؟ فيقول له الأصهب : وأنت ماذا تصنع ؟ فيجيب الأسود : أريد أن أدخل على محمد فأسمع منه وأعلم علمه . فيقول الأشهب : وأنا ايضاً أريد ذلك . ثم يدخل الرجلان فيسممان ويسلمان . ويعرف التاريخ أن الأسود الطوال هو عمار بن ياسر، وان الأصهب الربعة هو صهيب بن سنان. ومنذ ذلك الوقت يذكر التاريخ ياسراً ذاك الفتى العَنسي، ويتتبع خطوات ابنه عمار.

— ٤ —

أصبح ياسر ذاهلاً واجماً مشرّد اللبّ ، قد أنكر نفسه وأنكرته زوجه سميّة ؛ فقد تعوّد أن يفيق من نومه قبل أن تنشر الشمس ضوءها على بطحاء مكة وجبالها . فلا يُريح ولا يستريح. وإنما يضطرب في الدار ذاهباً جائياً كثير الحركة موفور النشاط ، يتحدّث إلى نفسه بصوت مرتفع حتى يوقظ النائمين من أهله وولده . وهم ينكرون نشاطه وحديثه في أنفسهم ، وربما أنكروا حركته ونشاطه بألسنتهم ، وطلبوا إليه شيئاً من سكون وسكوت ، فكان يعبث بهم ويسخر منهم ، ويلحّ عليهم بحديثه وحركته ، ويؤنّبهم [1] مداعباً لهم حتى يصدّهم عن النوم أو يصدّ عنهم النوم .

وكانت زوجه سمية أشدّ أهل الدار ضيقاً بهذه الحركة وإنكاراً لهذا النشاط ؛ فلم يكن شيء أحب إليها من أن تستأخر في نومها ما وسعها ذلك ، كأنها كانت تتصور ما ينتظرها في الدار من عمل مستجد فيه من الجهد ما يضنيها ويشقّ عليها ، فكانت تحب أن ترجىء ذلك ما وجدت إلى إرجائه سبيلا . ولكن الشيخ الثرثار المكثار النشيط لم يكن يكره شيئاً كما كان يكره أن يستيقظ والناس من حوله نيام ؛ فلم يكن يستقرّ له قرارٌ ولا يهدأ له بالٌ حتى يثور أهل الدار جميعاً من نومهم ويأخذوا معه في حديثه الذي لا ينقضي ، يسمعون له كثيراً ويقولون له قليلاً .

وكانت أحاديث ياسر مختلفة أشدّ الاختلاف ، تَرُوع بغرابتها وطرافتها وإثارتها للشوق إلى الإستزادة والرغبة في الاستطلاع . فقد كان ياسرٌ لا ينفكّ يروي غرائب الأخبار وطرائف الأحداث عن موطنه ذلك البعيد في تهامة اليمن ، وعن أسفاره تلك الكثيرة في تجارة مخزوم إلى الشام حيناً وإلى العراق حيناً وإلى ما وراء الشام والعراق أحياناً.

---

(١) أنبه : عنفه ولامه .

ولم يكن أحدٌ أعلم من ياسر بمناقب قريش ومثالبها (١) . ولم يكن أحدٌ أشدَّ منه تعلقاً بالتحدث عن سادة قريش وقادتها ، يثني عليهم ، ولا يعفيهم من نقده اللاذع (٢) الذي كان يصادف هوًى في نفوس السامعين له من أهله وبنيه . وأي شيء أحبّ إلى دهماء الناس من التحدث عن السادة والقادة بما يسر وما يسوء وبما يُرضي وما يُسخط ! وكان ياسر إذا أخذ في الحديث عن قريش أمعن فيه ، واستهوى أفئدة سامعيه .

واستيقنت سمية أنه لن يخرج من الدار إلا حين يرتفع الضحى وتوشك الشمس أن تزول . ولكنه أفاق من نومه ذلك اليوم ، فلم يثِرْ من مضجعه ، ولم يتحرك لسانه في فمه ، وإنما ظل مستلقياً مكانه لا ينشطُ ولا يقول ، ولا يدعو غيره إلى نشاط أو قول . وأخذت سمية حظَّها من نوم الصباح كما لم تتعوّد أن تأخذه قط . ولكنها مع ذلك أنكرت هدوء هذا الذي لم يتعود هدوءاً ، وصَمْتَ هذا الذي لم يألف صمْتاً . فتُقْبِلُ عليه وقد تكلف وجهها الابتسام والرضا ، وأضمر قلبها العبوس والخوف ، فتسأله ما خطبه ؟ وهل يجد شيئاً يكرَهه ؟ فيجيبها بصوت خافت : ليس بي بأس ، ولستُ أجد ما أكره . قالت سمية : فما لك لا تملأ الدار علينا ضجيجاً وعجيجاً ؟ قال ياسرٌ وقد جعل صوته يعتلي ويقوى شيئاً فشيئاً : وَيحكِ يا سمية ! كيف السبيل إلى إرضائك ؟ إنْ أنشطْ قلت : هلاّ خليت بيني وبين النوم ، وإن أسكنْ قلت : هلاّ ملأتَ الدار علينا ضجيجاً وعجيجاً (٣) ! أما أني لم أهدأ حبّاً في الهدوء ، ولم أسكن إيثاراً للسكون ، وإنما رأيت رُؤْيا روّعتني عن النشاط والقول . قالت سمية وقد ثاب (٤) الأمنُ إلى قلبها وصرّح وجهها الأسود المتجعد عن رضا لا تكلف فيه – قالت وهي متضاحكة : فهلاّ رأيت من آخر كل ليلة رؤيا تروّعك وتشغلك عن النشاط والقول ! ذلك أجدرُ أن يتيح لي من الراحة والدعة ما أنا في حاجة اليه . قال ياسر – وقد همّ ثغره أن يبتسم ووجهه أن يشرق ، ولكن الرّوْع لم يلبث أن ردّه إلى الجِدّ والصرامة – قال : ويحك يا سمية ! إنها رؤيا ليست كالرؤى ، وما أرى إلا أن لها شأناً ! فما أكثرَ ما عرضتْ لي الأحلامُ ، وما أكثر ما انصرفتْ عني حين أفيق ! ولكن هذه الرؤيا قد تركت في قلبي وعقلي وأمام عيني صورة مُلِحّة لا

---

(١) المناقب : المفاخر . والمثالب : المعايب .

(٢) اللاذع : المؤلم ، القارص .

(٣) الضجيج والعجيج : الصياح والجلبة .

(٤) ثاب : عاد .

تريد أن تريم (١) . قالت : فقُص رؤياك ، لعل حديثك عنها أن يُريحك منها . قال ياسر : هيهات ! ثم استوى جالساً في بطء ، وأخذ يقصّ رؤياه مستأنياً . ولم يكد يمضي في حديثه قليلاً حتى رُوّعت زوجه ، وهمّت أن تكفه عن الحديث ، لولا بقيةٌ من شجاعة وفضلٌ من حياء . قال ياسر : لن أقصّ عليك رؤيا ، ولكني سأصف لك صورة رأيتها نائماً وما زلت أراها يقظانَ : وادٍ ليس بالمسرف في السعة ولا بالمسرف في الضيق ، وإنما هو وسطٌ بين ذلك ، يأخذ جانبيه جبلان عظيمان يرقى اليهما الطرفُ ولكنه لا يبلغ أعلاهما . وقد تشقق الجبلان عن فجوات عميقة أراها ولا أحصيها ، والنارُ من هذه الفجوات يسعى بعضها إلى بعض ، حتى تلتقي وحتى يسيل بها الوادي كما يسيل بالماء . وفي أقصى هذا الوادي من أمامي مُرُوجٌ خضرٌ تجري فيها مياه عِذَابٌ لا تبلغها هذه النار ، وإنما تقف قبل أن تنتهي اليها ، وأنت قائمة في هذه المروج الخضر قد رُدّ عليك شبابك وأشرق وجهك حتى كأنه الشمس ، وأنت تبتسمين لي وتدعينني باللحظ واللفظ ، وتشيرين إليّ بالبنان . ومن ورائي عمار يحثني على أن أقتحم النار ، ويقول في صوت يشيع فيه الحنان : أقدِم يا أبت ، فليس عليك بأس ، إنما هي لفحة أو لفحاتٌ (٢) ومن ورائها هذه الرياض الخضر ! وسمية قد رُدّ عليها شبابها . وشبابكَ ينتظرك الى جانبها ليُرَدّ عليك. وأنا أسمع دعاءك ، فأهمّ أن أقتحم النار ، ولكن لفحَها يوقظني . ثم يضرب الشيخ جبهته بيده صائحاً : ويلاه ! إني لأجد مس النار ؛ قالت سمية وقد أقبلت عليه مرتاعة ملتاعة : ويحك ! لا بأس عليك ! قم فأصبْ شيئاً من طعام ، ثم اخرُج فاقصُص رؤياك هذه المرَوّعة على بعض كهاننا لعلهم أن يجدوا لها تأويلاً .

ولم يُقبل المساء من ذلك اليوم حتى كانت رؤيا ياسر قد عبّرتْ نفسها ، وحتى وجد ياسرٌ مسّ النار .

- ٥ -

أقبل ياسر يسعى إلى المسجد ، حتى إذا بلغ نادي بني مخزوم ألقى التحية وجلس، ولكنه لاحظ أنّ وجوه القوم لم تهشّ له ، وأنّ أصواتهم لم ترتفع بالسلام عليه ، وإنما

---

(١) تريم : تبعد وتزول .

(٢) لفحته النار : اصابت وجهه واحرقته .

ردّ بعضهم عليه تحية فاترة ، ومضى بعضهم في حديثه كأنه لم يلق إلى هذا الطارىء بالاً . فأسرّ ياسرُ في نفسه بعضَ المَوْجِدَة (١) ، ولكنه لم يطلْ عندها الوقوف ؛ فهو يعلم أن في مخزوم صَلَفاً (٢) وأنفة وكبرياء . ولولا وفاؤه لحلفه لمكان أبي حذيفة من قلبه ، لتحوّل عن مخزوم إلى حيّ آخر من أحياء قريش . ولكنه وَفى لأبي حذَيفة بعد موته كما وَفى له أثناءَ حياته . ولم يكن له من هذا الوفاء بدٌّ ؛ فأبو حذيفة قد حفظه بعد ضَيْعة ، وآمنه من خوف ، وزوّجه سمية أحبّ الناس إليه وآثرهم عنده ، وأعتق له ولده منها قبل أن يولدوا ، ثم لم يمت حتى ردّ إلى سمية حريتها ، فأصبحت دارُ ياسر دارَ حرية كاملة ، بعد أن كانت داراً نصفها حرٌّ ونصفها رقيق .

وكان ياسر قد أقبل على نادي مخزوم وفي نفسه أن يقص عليهم رؤياه تلك التي أهمّته وروّعته ، يطرفهم بها من جهة ، ويلتمس عندهم لها تأويلاً من جهة أخرى ، فلما رأى منهم الفتور والإعراض أمسك لسانه في فمه ، وجلس صامتاً لا يقول شيئاً . وكانت مخزوم قد عوّدت ياسراً ألا تراه في ناد من أنديتها أو دار من دورها إلا داعبته وأثارت نشاطه للحديث . ولكنها تلقته في هذا الضحى فاترة عنه تكاد تنكره ، لا تسأله حديثاً ولا تسوق إليه حديثاً . ولولا أنه تعوّد أن يستأني (٣) بهؤلاء المستكبرين حتى يثوبوا إليه فيعبث بكبريائهم ويُسمعهم ما لم يكونوا يحبون أن يسمعوا ، لانصرف عنهم إلى ناد آخر من أندية قريش . ولكنه أقام صامتاً مستأنياً يدير في نفسه الانتقام من هذا الفتور . على أنه لم ينتظر طويلاً قبل أن يساق إليه الحديث ؛ فهذا عمرو بن هشام يسأله فجأة : ما أخّرك اليوم عنا يا ياسر ؟ قال ياسرَ مداعباً : فقد كنتُ في حاجة إلى إني (٤) يا أبا الحكم ؟ قال عمرو بن هشام وهو يكتم الغيظ في نفسه : أجلْ ، كنتُ في حاجة إليك لأسألك عن شيء عَمِيَ (٥) عليّ من أمرك . قال ياسرُ : وما ذاك ؟ قال عمرو بن هشام : ذاك أني لم أرك قطّ تُقرّب (٦) إلى آلهتنا ، ولم اسمعك قط تذكرها بخير . قال ياسر متضاحكاً : فهل سمعتني قط أذكر آلهتكم بسوء ؟ وهل رأيتني قط آتي من الأمر ما يؤذيها ؟ قال عمرو بن هشام :

---

(١) الموجدة : الغضب .

(٢) الصلف : التمدح والادعاء والتكبر .

(٣) استأنى : تنظر وترفق .

(٤) الإني : التأخر والإبطاء ، أي في حاجة إلى أن أتأخر وأبطىء .

(٥) عمي عليه الأمر : التبس وخفي .

(٦) تقرب : تقدم القرابين ، والقربان كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة وغيرها .

فهي إذن آلهتنا نحن ، وليست منك ولست منها في شيء ؛ قال ياسر : وما تُريد إلى ذاك ؟ قال عمرو ابن هشام وقد ظهر الغضب في وجهه وفي صوته جميعاً : أريد أن أعرف مَنْ هو معنا ومَنْ هو علينا ؛ فقد آنَ لكلِّ من أقام بمكة أن يصرّح عن ذات نفسه وأن يبدي دخيلة ضميره . ولقد عفونا لأحلافنا عن كثير ، ولكنا لن نعفو لهم منذ الآن عن شيء . قال ياسر : أمْسِكْ عليك نفسك أبا الحكم! فإنك لم ترَ مني ولم يرِ قومك مني سوءاً منذ حالفتُ عمك أبا حذيفة على أن أكون سِلْماً لمن سالمتم وحرْباً على من حاربتم . وإني لأسمع الآن منك حديثاً لم أسمع مثله منذ أويت [1] إلى حَرَمكم هذا . قال عمرو بن هشام وقد اندفع في ضحك يصور الغيظ أكثر مما يصوّر الرضا : فأنت حربٌ على ابنك عمار إذن منذ اليوم ؟ قال ياسر : أبِنْ أبا الحكم ؛ فإني لا أفهم عنك منذ اليوم شيئاً؛ قال عمرو بن هشام : ألم تعلم أنّ ابنك قد صَبَأ [2] أمس وآمن لمحمد وأصحابه ؟ هنالك صَعِق ياسر ، فانعقد لسانه واصفرّ وجهه وجعل جبينه يتفصّد [3] عرقاً . وهنالك جعل سادة مخزوم يتقارضون نظرات مراعاً فيها من العَجَب أكثر مما فيها من السؤال . وهمّ عمرو بن هشام أن يتكلم ، فقال له عمه الوليد ابن المغيرة : حسبك يا ابن أخي ! ارفُقْ بهذا الشيخ فإنك قد ترى ما نزل به ، وليس عليه من جرائر [4] ابنه شيء ؛ فقد جاوز ابنه سن الأربعين .

وجعل السادة من مخزوم يعيدون على عمرو بن هشام مقالة الوليد . وجعل رُشْدُ ياسر يثوب إليه في أثناء ذلك قليلاً قليلاً . فلما آنس من القوم صمتاً قال لعمرو بن هشام : بئس ما لقيتَ به حليفك يا أبا الحكم ! إني لم أر عماراً أمس ، ولم أره اليوم .ولم أعرف ما كان من أمره منذ فارقته . وإنك لتضع العُنْفَ في غير موضعه وتلوم غير ملوم . فهلا عَنُفْتَ بالأرقم بن أبي الأرقم ، وهو مثلك سيد من سادات مخزوم ، وهو قد صَبأ قبل أن يصبأ عمار إن كان عمار قد صبأ ، وهو قد جعل داره نادياً لمحمد يلقى فيها أصحابه وينشر منها دعوته ويذكر فيها آلهتكم بما تكرهون ! ولكنك خِفتَ الأرقم بن أبي الأرقم ؛ لأن بني أبيه يقومون دونه [5] إن أردته بمكروه ، فأما حليف عمك أبي حذيفة فليس هناك ! فلو قد كان أبو حذيفة

---

(١) أوى البيت وإلى البيت : نزل فيه .

(٢) صبأ : خرج من دينه إلى دين آخر .

(٣) يتفصد عرقاً : يسيل عرقاً .

(٤) الجرائر : جمع جريرة ، وهي الذنب والجناية .

(٥) يقومون دونه : ينصرونه ويدفعون عنه .

حيّاً لفكرت وقدّرت قبل أن تلقاني هـــذا اللقاء . قال ذلك ونهض متثاقلاً حزيناً منكسر النفس ؛ فمضى إلى داره وترك بني مخزوم يتلاومون .

- ٦ -

ولم يكد يبلُغ داره ويَلِج من بابها حتى أنكر من الدار ومن أهلها كل شيء ؛ فقد رأى زوجه سمَيّة فرحة مرحة ، قـد أشرق وجهها على رغم ظلمته ، وابتسم ثغرها وهي تلقـاه مبتهجة النفس منبسطة الأسارير . فلا يكاد يدنو منها حتى تثب إليه وتتعلق به تُلقي إليه في صوتٍ مبتهج تشيع فيه الغبطـة وتفيض منه البهجة . أبشر ياسر فقد جاءنا عمار بخير الدنيا والآخرة ! قال ياسر دَهِشاً : الآخرة ! ما الآخرةُ ؟ ماذا تقولين ؟ إني لأعيش عيشة منكرة منذ اليوم ، تُرَوّعني أحلام الليل ، ولا أفهم ما يقال لي أثناء النهار . قال عمار : أبشرْ يا أبت ؛ فقد جئتك بخير الدنيا والآخرة. قال ياسر : أمُفصحٌ أنت عما تريد ؟ ألم أحدّثْ أنك قد صبأتَ ! ويلك [1] ! ماذا جنيتَ على أبويك ؟! قال عمار وهو يتضاحك رفيقاً بأبيه : بـل قلْ : ماذا جنيت لأبويك ! فقد جنيتُ لكما خيرَ الدنيا والآخرة . لقد حدّثك من حدّثك بأني صبأت، فإني لم أصبُؤ ، وإنما أسلمت لله الذي خلق السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم، وأرسل إلينا محمداً يهدينا سُبُلنا ويبصرُنا بأمرنا ويخرجنا من الظلمات إلى النور ، ومن الجهالة والضلالة والغيّ إلى الحكمـة والهدى والرشد ، ويُبشّر منْ آمن واتقى بأن له رضا الله عنه مـا عاش ، وبأن له رضا الله عنه ومثوبته له بعد أن يموت ، وينذر منْ كذّب وعصى بأن عليه لعنة الله حيّاً ، وبأن له نارَ جهنم يصلّاها [2] خالداً فيها بعد أن يموت .

وسمع الشيخ هذا كله مصغياً له ، وكأن كلمات ابنه كانت تنفذ إلى قلبه دون أن تمر بأذنيه ، وقـد جعل وجهه يُشرق شيئاً فشيئاً حتى استحال كله نوراً ، وجعلت قوته تذهب عنه شيئاً فشيئاً حتى تهالكَ وكاد ينهار لولا أن أسرع اليه ابنه وامرأته فأسنداه وأجلساه وأقبلا عليه يرفقان به ويتلطفان له ، يمسّح عمار رأسه وتمرّ سمية

---

(١) الويل : الهلاك ، ويدعى به لمن وقع في هلكة يستحقها .

(٢) يصلاها : يقاسي نارها ويحترق بها .

يدها على وجهه ، والشيخ واجم لا يتحرّك لسانه في فمه إلا بهذه الكلمات : فهو ذاك إذن ! قال عمار في صوت حلو : ماذا تقول يا أبت ! قال ياسر وقد احتبستْ في حلقه عبرةٌ لم يَبِنْ صوته منها إلا بعد جهد ، وقد جعلت عيناه تسحّان على وجهه دموعاً غزاراً - قال ياسر : هو ذاك إذن ! لقد أذكرتني يا بنيّ حديثاً كان بيني وبين أبي حذيفة حين ألممت بمكة ولم أكدْ أجاوز العشرين . أراد أن يحالفني عند آلهته فأبيت عليه ، فلما سألني عن ذلك ذكرت له أني لو كنت متخذاً إلهاً لعبدتُ البحرَ الذي يخيفني ، أو الشمس التي تضيء لي ، أو النجومَ التي تهديني . ولكن شيئاً من ذلك لا يبلغ قلبي ولا يتحدث الى نفسي ولا يثير فيها رَغَباً ولا رَهباً . فقد أنبأك محمد إذن بأن لهذه الآيات كلها خالقاً فطرها ودبر أمرها ، هو ذاك إذن ! ثم أطرق الشيخ إطراقة طويلة ، ثم رفع رأسه والدموع تنهملْ من عينيه غزاراً وهو يقول : هو ذاك إذن ! ومن أجل هذا آثرتُ بعدَ الدار على قربها ، واخترتُ أن أكون حليفاً لبني مخزوم على أن أكون عزيزاً في بني عَنْس . وتركت أخويْ يعودان إلى تهامة ، وأقمت أنا في هذه البطحاء . ثم يتحول إلى سمية فيمسح رأسها بيده وهو يقول : وكان حبُّك هو الذي دعاني إلى انتظار هذه الساعة . ثم يعود إلى إطراقه ، ثم يرفع رأسه ، وقد كفّتْ عيناه عن البكاء وجعلت قطَراتٌ من دمعه تتلألأ في لحيته ، وهو يقول لابنه عمار : متى تَصْحبنا إلى محمد لنسمع منه كلمة الحق ؟ قال عمار هلمّ الآن إن شئتما .

وأقبل المساء في ذلك اليوم وإذا أبو جهل عمرو بن هشام قد أقبل في فتية من أحرار مخزوم ورقيقها، فوضعوا عماراً وأبويه في الحديد ، وأشعلوا في دار ياسر النار. يقول ياسر لسمية والقوم يَعْتلونهم [1] إلى حيث يحبسون : انظري سميّة ، هذا أول النار التي عرضتها عليّ الأحلام . فيقول عمار : ومن ورائها جنةٌ فيها نعيمٌ ورضوان للذين صدّقوا محمداً واستجابوا لما دعاهم اليه .

– ٧ –

واجتمع الملأ من قريش في المسجد حين ارتفع الضحى من الغد ، فلم يتحدّثوا في تجارة ولا بيع ، وإنما تحدثوا في هذا الحدث المظيم الذي ابتكره فتى مخزوم في هذا

(١) عتله : جره جراً عنيفاً وجذبه فحمله .

البلد الآمن الذي ليس لأهله عهد بتحريق الدور على أهلها ، ووَضْع الرجال والنساء في الحديد ، وإذاقتهم ألواناً من العذاب ، مع أنهم لم يقتلوا ولم يسرقوا ولم يقترفوا من الآثام والذنوب ما تعودت قريش أن تنكره وتعاقب عليه . يقول الوليد بن المغيرة لأبي جهل عمرو بن هشام : ويْحَكَ يا ابن أخي ! لقد أحدثت في هذا الحرم الآمن ما ليس لقريش به عهد ؛ لم تؤامرنا فيما صنعتَ ، ولم تصْدُر عن ذوي أحلامنا [1] ولا عن أولي الرأي من قومك ، وإنما اتبعت هواك ، واستخفّك الغرور ، وتبعك السفهاء من فتياننا والحمقون من رقيقنا . وإني لأخشى أن يكون هذا الحدث الذي أحدثته ما بعده ؛ فإن لهذا الحرم في نفوس العرب مكانته : يأمنون فيه من خوف ، ويطعمون فيه من جوع ، ويلتمسون فيه ما لا يجدون في غيره من الدعة والسعة والطمأنينة والرخاء . فكيف إذا تسامعت العرب بأن الذين يأوون إلى هذا الحرم ويستظلون بظل هذا البيت لا يجدون دعة ولا سعة ولا ينعمون بأمن ولا عافية . وإنما تحرق عليهم دورُهم ويوضعون في الحديد ويسامون سوء العذاب ! وكيف إذا تسامعت العرب بأن فتيان قريش وسفهاءها قد بغوْا وطغوا وأصبحوا لا يحفلون بالملأ ولا بذوي الأحلام والرأي من قومهم ، وإنما يركبون رؤوسهم ويستجيبون لشهواتهم ويتبعون أهواءهم لا يحفظون للجار عهداً ولا يرعون للاجىء حرمة ! أما إني مشير على مخزوم بأن تطلق هؤلاء الأسارى وبأن تنصفهم منك ومن أصحابك . قال أبو جهل عمرو بن هشام وقد انتفخ سَحْرُه [2] ووَرِم أنفه وصعد الدم إلى وجهه وجعلت عيناه تقدّحان شرراً : هيهاتَ ، لا واللات والعُزّى لا تصلون إلى هؤلاء الأسارى وقائمُ هذا السيف في هذه اليد . وإني لأعلم أني أحدثت في هذا الحرم ما لا عهدَ لأهله به ، ولكنك تعلم يا عمّ أن محمداً قد سبقني فأحدث في هذا الحرم ما لا عهد لأهله به . قال الوليد في رفق : وَيحكَ يا ابن أخي ! فإن محمداً لم يحرق داراً ولم يعنُفْ بأحد ولم يضَعْ أحداً في الحديد . قال أبو جهل : بل هو فعل شرّاً من ذلك، إنه أفسد علينا الرقيق ، وأفسد علينا الدهماء [3] ، يغريهم بآلهتنا، ثم لا يكفيه ذلك فيغريهم بأموالنا ومرافقنا ويطمعهم في مراتبنا ومنازلنا التي توارثناها، ثم لم نخلدْ إليها ، وإنما نبذل في الاحتفاظ بها ما نملك من قوة وجهد. ألم تر إلى هؤلاء

(١) تؤامرنا : تستشيرنا . ولم تصدر عن ذوي أحلامنا : لم تفعل ما فعلت عن رأي العقلاء فينا . الأحلام : العقول .

(٢) السحر : الرئة . وانتفاخ السحر كناية عن مجاوزة القدر .

(٣) الدهماء : جماعة الناس وعامتهم .

الرقيق الذين اتبعوا محمداً يزعمون أنهم رجال أمثالنا ، وأنّ لهم مثل ما لنا من الحق، وأن عليهم مثل ما علينا من التبعات ، وأنهم أكرمُ منا عند الله منزلة وأرفع منا عنده مكانة ؛ لأنهم يخلصون له قلوبهم ويؤمنون به وحدَه لا يشركون معه اللاتَ والعزى ومناةَ وهُبَلَ ! فهم أولو الرأي والحلم ، ونحن السفهاء والحمقى ! ويحك يا عم ! إنكم إن تتركوا محمداً وأصحابه ينشرون دعوتهم هذه في أرض مكة لا تزيدوا على أن تجعلوا عاليها سافلها ، وعلى أن تُضيعوا ما أورثكم آباؤكم من العزّ والجد ومن الثراء والسلطان . وأيها شرّ : أن تتسامع العرب بأن الحلماء من أهل مكة يزجرون السفهاء ويردّونهم إلى القصد ، أم أن تتسامع العرب بأن الرقيق من أهل مكة قد أصبحوا سادة ، وبأن السادة قد أصبحوا رقيقاً ، وبأن الآلهة التي يحجّون اليها من أقصى الارض قد اصبحت هزؤاً وسخرية ؟! لا والله لا تصلون الى هؤلاء الاسارى وقائم هذا السيف في هذه اليد . قال أمية بن خلف : وصلتك رَحمٌ يا أبا الحكم ! والله لقد سميت فأحسنت السعي أمس ، ولقد قلت فأحسنت القول اليوم . وإن أمر محمد وأصحابه لشوكةٌ في جنب هذا الحي من قريش ، ولن يستقيم لهذا الحي أمره حتى تُنزَع من جنبه هذه الشوكة . ولو قد بلا عمُّك من رقيقه وأحلافه مثل ما بلوت أنا من بعض أتباعي لما اشتط عليك في القول ، ولما ألحّ عليك باللوم منذ اليوم . وإن الذي صنعت بأساراك من أحلاف مخزوم ورقيقها أمس قد صنعتُ مثله بقوم من أحلاف جُمَح ورقيقها . لا والله يا معشر قريش ما لكم من امركم خِبرَة ، وإنما هي الحرب المنكرة قد حُملت اليكم ونُصبت عليكم في عقر داركم [1] ؛ فان أردتم ان يصبح مالكم نهباً لعبيدكم وإمائكم والطارئين عليكم من أوشاب العرب وأخلاط الناس ، وإن أردتم أن يفقد هذا البيت حرمته ، وتفقد هذه الآلهة ذكرها الطائر في الآفاق ، وتصدّ العرب عن الحج اليكم واللياذ بكم ، وتصبحوا أحدوثة في الأفواه وسمَراً للسامرين ، فخلّوا بين محمد وأصحابه وما يريدون . وإن أردتم ان تمسكوا عليكم أموالكم ، وتحفظوا على الآلهة سلطانها ، وتكفلوا لهذا الحرم ذكره بين الناس ، فشدّوا على أيديكم [2] ، وردّوا على أنفسكم فضل أحلامكم ، واستقبلوا أمركم بالحزم والجد ، وكفّوا هؤلاء السفهاء عما أمعنوا فيه من الفساد .

قال أبو سفيان صخر بن حرب : أما إني لا آمن أن أمضي بتجارتكم غداً الى

---

(١) عقر الدار : وسطها وأحسن مكان فيها .

(٢) شد على يده : أعانه وقواه .

الشام او الى اليمن ، وأن اعود الى هذا البلد بعد اشهر فأرى اصحاب الاموال وقد شرّدوا وأزيلوا عن اماكنهم . يا معشر قريش ان التجارة خير . وإن فيها لربحاً وسعة ، ولكن التجارة ليست مربحة إذا لم يحمَ ظهرها . ويحكم ! انكم تصانعون العرب لتحموا طريق تجارتكم الى الشام واليمن ، فكيف اذا عجزتم عن حماية تجارتكم في مستقرها ! اما اني ابرح الارض بتجارتكم حتى اعلم انكم ستحمون ظهري ، واني سأعود الى مكة فأرى أهلي كما تركتهم آمنين وادعين لم يرزؤوا [1] في أنفسهم ولا في اموالهم . قال الوليد بن المغيرة متضاحكاً : ويحكم ! كأنما أطرتُ بما قلت لابن اخي طائراً كان في صدوركم [2] ! ها أنتم هؤلاء قد أفسد الخوف عليكم امركم واخرجكم الذعر عن اطواركم ، فأكبرتم من أمر هذه العصبة صغيراً ، وعظّمتم من شأنها حقيراً . إنهم ما علمتُ لوادعون يتحدثون بأحاديثهم فيما بينهم . لم يبادوكم بشرّ ، ولم يرزؤوكم في مالكم قليلاً ولا كثيراً .

قال ابو سفيان : فتريد ان نُنظرَهم حتى يفعلوا ؟ قال ابو جهل : فإني أريد أن استأصل هذا الشر قبل أن يستفحل . امض أبا سفيان بتجارتنا حيث شئت ؛ فان عليّ ان أحمي ظهرك وان احفظ لك مكة كما تحب أن تكون . قال عتبة بن ربيعة : يا معشر قريش : كلكم قال فأحسن القول . إنا والله ما نرضى أن تُسَفّه أحلامنا ولا أن تعاب آلهتنا ولا أن تتعرّض أموالنا لشر ، ولكن لنا في القصد والعافية ما يغنينا عن العنف والبطش ؛ فلنؤدِّب سفهاء[3] قومنا بالأناة واللين ، ولنأخذ الرقيق والأحلاف بالشدة والعنف ؛ فإنا إن نفعل ذلك نقرّ السلم في ذات بيننا ، ونجعل من الرقيق والأحلاف مثلاً وعبرة ونكالا . قال ابو جهل : وهل قلتُ غير هذا ؟ إني واللات والعزّى لو أطعت نفسي لقتلت الأرقم بن أبي الأرقم، ولحرّقت داره على من فيها ، ولوجدت في ذلك شفاء لنفسي أي شفاء ! ولكني أوثر العافية في مخزوم ، وأتخذ من هؤلاء الأخلاط والمستضعفين نكالا للصابئين[4] من قريش . قال الوليد بن المغيرة وهو ينهض متثاقلا ويضحك ساخراً: بئس والله ما تصنع يا ابن اخي ! إنما يقيس القويّ قوته إلى الأضراب والنظراء[5] ، فأما ان يقيسها الى الأحلاف والرقيق

(١) يرزؤوا : يصابوا .
(٢) أي هيجت غضبه وأثرته .
(٣) السفهاء : الجهلاء .
(٤) الصابئون : الذين خرجوا من دين الى دين آخر .
(٥) الأضراب والنظراء : المتماثلون المتشابهون.

والمستضعفين من الناس فهذا والله الجبن والخرق، ولكن لا رأى لمن لا يطاع .

وتفرقت قريش فذهب اكثر الملأ الى دورهم إلا أبا جهل ، فإنه ذهب في عصبة من الفتية والرقيق فاستخرج أساراه من محبسهم ذاك الذي أنفقوا فيه الليل ، ومضى يدفعهم أمامه يتعجل خطوهم. وأنى للمقيد أن يسرع الخطو ! ولكن أبا جهل وأصحابه كانوا يخزونهم بالرماح والخناجر وخزاً يؤذي ويدمي ويشق ، ولكنه لا يبلغ الأنفس ، وربما ألهبوهم ضرباً بالسياط ، وربما جذبوا لحية ياسر وعمار وشعر سمية وهم يتضاحكون ويتصايحون ، والناس ينثالون عليهم من كل بيت وينضمون إليهم من كل وجه . وكأن الأسارى قد تحدثت نفوسهم وسكتت ألسنتهم ، فأجمعوا ألا يرفعوا صوتهم بشكاة وألا يظهروا ألماً ولا ضجراً .

ومضوا كذلك ، حتى إذا بلغوا مكاناً في البطحاء وقف أبو جهل ووقف الناس معه ، ثم تقدم حتى دنا من ياسر فقال له ساخراً منه : أباق أنت على حلفك لمخزوم كما حدثتنا أمس ؟ قال ياسر : فإنك قد أخرجتنا من هذا الحلف حين بغيت علينا ، فألقيت عنا عبئه ووزره . قال أبو جهل : فقد برئت من حلفنا إذن ؟ قال ياسر : كما أبرأ من الشر والنكر وما يخزى الرجل الكريم . ولم يمهله ابو جهل وإنما ضرب وجهه حتى أدماه ، وضرب القوم في وجه عمار وسمية حتى أدموهما . ثم تقدم أبو جهل الى أصحابه أن يطرحوا هؤلاء الأسارى ارضاً ففعلوا . ثم تقدم اليهم أن يأخذوهم بمكاوي النار في جنوبهم وصدورهم ففعلوا . ثم تقدم اليهم أن يضعوا على صدورهم الحجارة الثقال ففعلوا . ثم تقدم اليهم أن يصبوا على وجوههم قرب الماء ففعلوا ، وابو جهل ينتظر متحرق النفس أن يسمع من أحدهم صيحة أو أنة أو شكاة. ولكن نفوس الأسارى قد تحدث بعضها الى بعض وفهم بعضها عن بعض ، فعقدوا ألسنتهم وعمروا قلوبهم بذكر الله ، وخلوا بين القوم وبين أجسامهم يصنعون بها ما يريدون . وعبث أبو جهل وأصحابه بأجسام هؤلاء الثلاثة حتى ملوا العبث وضاقوا به ، فتفرقوا عنهم بعد أن وكلوا بها حراساً يحفظونهم على حالهم تلك حتى يعودوا اليهم حين تجنح الشمس الى الغروب .

- ٨ -

قال حرب بن أمية لعبد الله بن جدعان : ما رأيت كغلامك الرومي هذا ذكاء قلب ونفاذ بصيرة وبراعة في التجارة ومهارة في تثمير المال . قال عبدالله بن جدعان:

أما إذا قلت هذا فاني لا أدري أعربي هو سبته الروم صبياً حين أغارت على أرض الفرس كما يقول ، أم رومي هو سبته العرب حين أغارت مع الفرس على أرض الروم كما يقول الكلبيون الذين باعوه لي بالشام أول في الشـام . قال حرب بن أمية : إن فيه حمرة لا تعرفها العرب ، وإن لسانه يرتضخ لهجة رومية طالما سمعت مثلها في كثير من أهـل الشام . فليكن عربياً أو ليكن رومياً فليس لذلـك شيء من الخطر ، ولكني لم أر مثله قط ذكاء قلب ونفاذ بصيرة وحسن نظر في التجارة وتثمير المال . لقد رأيته في رحلتنا تلك الى اليمن وحين عبرنا البحر الى بلاد الحبشة شيطاناً من الجن يتنسم مصادر الربح وموارد الكسب ، وينبئنا غير مكذَّب بأنا إن ذهبنا الى هذا الوجه أو أقمنا في هذه القرية بعنا كأحسن ما يكون البيع ، وشرينا كأحسن ما يكون الشراء ولست أدري كيف تنسم ريح الربح في بلاد النجاشي ، فاتصل برجال أمثاله لا يحسنون لغتنا ولكنهم يتعاطون فيما بينهم رطانة رومية ، فباعهم كل ما كان معنا ، واشترى منهم ما لم نكن نطمع في شرائه ولا نقدر على حمله ، واحتال حتى أعادنا إلى مكة في السفن التي تمخر البحر لا على ظهور الإبل التي تسبح في البر . وأشد من ذلك وأدنى غرابة من ذلك الى العجب أنه ألقى في روع اولئك الناس أنهم يستطيعون إن شاؤوا أن يرسلوا رسلاً منهم يحملون ما يحتاجون اليه من المال ليشتروا منا إذا بلغنا أرضنا ما يملأون به سفنهم حتى لا تعود إلى مستقرها فارغة ؛ فأغنانا في موسم واحد عن رحلتين ، بل عن أكثر من رحلتين قال عبد الله بن جُدْعان : إنه ما علمتُ لغلامٌ صَنعٌ ميمون النقيبة ، ولقد استكرهت على شرائه ، ولكني لم أر منه إلا خيراً .

وخلا عبد الله بن جُدْعان مساء ذلك اليوم إلى غلامـه ذاك الرومي الذي سبته العرب ، أو العربي الذي سبته الروم ، فقال له : لقد أحسنت البلاء يا صُهيب في رحلتك هذه إلى اليمن وأرض الحبشة ، ولو لم يثْن عليك حرب بن أمية لأثنى عليك هذا المال الكثير الذي رجعت به إليّ . فهل كان لك بالتجارة من عهد ؟ قال صُهَيب : هيهات ! ما أعلم أني بعت أو اشتريت قبل رحلتي هذه إلا ما يبيع الناس ويشترون من حاجتهم التي تصلح أمرهم في كل يوم قال عبد الله بن جدعان : فهي الفطرة إذن؟ قال صُهيب : هو ذاك . وأطرق عبد الله بن جدعان ، وهمّ صُهيب أن ينصرف ، ولكن سيده استبقاه بالإشارة ، فأقام ينتظر أن يرفع سيده إليه رأسه وأن يصدر إليه أمره . وطال إطراق السيد حتى ملّ الغـلام أو كاد ولكن عبد الله بن جدْعان يرفع رأسه ويبتسم للغـلام ويقول في تحفظ وهدوء : أضائقٌ أنت بالرقّ

يا صهيب ؟ قال صهيب : ومن ذا الذي لا يضيق بالرق ولا يتمنى أن يكون حرّاً ! قال عبد الله بن جدعان : فإني أريد أن أرد عليك حريتك ، وأن أملّكك أمر نفسك ، ولكن بعد أن أعرّضك لمحنة ذات خطر . قال صهيب : فأمْسكْ عليك حرّيتك هذه التي تريد أن تردّها عليّ ؛ فإن الحرية لا تباع ولا تشترى . قال عبد الله ابن جدعان : ويحك يا صهيب ! ماذا تقول ؟ لقد اشتريتك من بني كلب ، واشتراك بنو كلب من الروم أو من العرب لا أدري . قال صهيب فإنك لم تشترني ، وإن بني كلب لم يشتروني من نفسي ، وإنما عدا عليّ العادون فباعوني من بني كلب، وباعني بنو كلب منك على كره مني لا عن رضا ولا عن اختيار فأنتم ترونني عبداً قنّاً وأنا أراني رجلاً حراً ، وأنتم تتسلطون على جسمي بما تملكون من قوة ومال وسلطان ، ولكنكم لا تجدون لأنفسكم على نفسي سبيلاً . قال عبد الله بن جدعان : فما أكثر الرقيق الذين يكاتبون على أنفسهم ويشترون حريتهم بالأموال والأعمال ، قال صهيب: هم وما يصنعون ، أما أنا فلن أكاتب ولن أشتري حريتي بمال أو عمل ! لأني ما زلت أراني حرّاً في نفسي . قال عبد الله بن جدعان : صدق حرب بن أمية ، إنك لذكيّ القلب جريء الجنان ، ولكني أريد ... قال صهيب : تريد أن تمتحنني ! فإن سلطانك عليّ يبيح لك أن تعرّضني لما شئت من محنة ! فمرني بما شئت فستراني عندما تحب ، ولكن لا تَعِدْني شيئاً ! فإني لا أكره شيئاً كما أكره الأماني والوعود .

وهمّ عبد الله بن جدعان أن يردّ عليه رَجعَ حديثه ، ولكن صهيباً لم يمهله ، وإنما قال له متعجلاً : وهل لك في أن أخفف عنك بعض هذا العبء الذي ينوء بك ، وأن أفصح لك عما يضيق به صدرك ولا ينطلق به لسانك ؟ قال عبد الله بن جدعان: وإنك لتعلم دخائل الصدور ؟! قال صهيب : لقد نجحت في رحلتي إلى اليمن وأرض النجاشي ، وجلبت إليك مالاً كثيراً ، فأنت تودّ لو أرسلتني في تجارتك إلى الشام وأرض قيصر ، وتظن أني سأجلب لك منها أكثر مما جلبت لك في رحلة الشتاء ، وأنت تأمنني على مالك وتجارتك لا تخاف أن يصيبك فيهما ضير ، ولكنك لا تأمنني على نفسي ، وإنما تقدّر أني قد نشأت حرّاً في بلاد الروم ، وأني خليق إن رأيت هذه الأرض أن أقيم بها وألا أعود إليك ، وعسى أن أحتجز فيها ما استودعتني من تجارة ومال قال عبد الله بن جدعان أما هذا فلا ؛ إنك عندي أمين على المال والتجارة . قال صهيب : أوَلستَ تراني بعض مالك ؟ فأمّنّي على نفسي كما تأمنني على ما سترسل معي في العروض . وبعد فأرحْ نفسك من هذا العناء ، وانهض في تهيئة تجارتك إلى

أرض قيصر ، فسأرحل عنك وسأعود إليك بمال لا عهد لك بمثله ؛ فأنا أعلم الناس بما يحب الروم وما يكرهون ، وليس لي في بلاد الروم أرَبٌ ، وليس لي بالإقامة فيها كلفٌ ، فقد علمتُ منذ آخر الصبا وأول الشباب أن بلاد الروم ليست لي بدار . وقد علمت منذ آخر الصبا وأول الشباب أن لي في قريتك هذه أرَباً أيَّ أرب ، ولولا ذلك لما قمتُ معك ، ولما أذعنت لسلطانك . وأي شيء أيسر على مثلي من أن يفوتكم إن شاء الفوت ، ولستم بذوي حرَس ولا بأصحاب شرَط . ولو قد شئت لخادعتكم فخدعتكم حتى أخرج من حرمكم هذا ، ثم تطلبونني ما وسعكم الطلب فلا تجدون إليّ سبيلاً ، ولو قد أدركتموني لم تقدروا عليّ . قال عبد الله بن جدعان : لك في قريتنا هذه أرب أيّ أرب ! ومـا ذاك ؟ قال صهيب : لو عرفته لأنبأتك بـه ، ولكنني نبّئتمنذ آخر الصبا وأول الشباب أن محياي ومماتي في أرضكم هـذه : أعيش في حرمكم هـذا شطراً من عمري وأعيش في حرم آخر شطرَه الذي يبقى لي ، وأموت وأدفن في أرض الحجاز . قـال عبد الله بن جدعان : وَيحك يا صهيب ! إنك لتحدثني بالأحاجيّ منذ اليوم ، وإني لا أعرف في بلاد العرب حرماً غير هـذا الحرم . قـال صهيب : وأنا لا أعرف في بلاد العرب حرماً غير هـذا الحرم ، ولكني أحدّثك بما نُبّئْتُ بـه في آخر الصبا وأول الشباب ، وهـو حديث سمعته من قسّ في بلاد الروم ، فلم أفهمه ولم ألق إليه بالاً حتى رأيتني أباع ذات يوم من بـني كلب ، وسمعت سادتي يتحدث بعضهم إلى بعض بأنهم يبيعونني بثمن ربيح حين يفد عليهم الوافدون من سكان الحرم من قريش . ولو قد شئتُ أن أفلت من بني كلب لما أعياني الإفلات ، ولكني أردت أن أمتحن نبوءة القسّ فألفيتها صادقة إلى الآن ، وما أرى إلا أنها ستصدُق حتى تبلغ مداها . فأرسلني في تجارتـك حيث شئت ؛ فإني ناصح لك وعائد إليك . واردُدْ إليّ حريتي إن أحببت ؛ فإني مقيم في أرضكم هذه لا أريم ، وأخرجني منها إن أردت حين يصبح الصبح ؛ فإني راجع إليها حـين يمسي المساء ، فمقيم فيها حتى يكون ما لا بدّ من أن يكون . قال عبد الله بن جدعان : ما رأيت كاليوم مغامراً مقامراً ! قال صهيب : هو ذاك . قال عبد الله بن جدعان : فاصحبني إلى المسجد : فإني أريد أن أشهد قريشاً على أنك حرّ . قال صهيب: حسبك أن تُشهد نفسك وتُشهدني على أني حرّ ! فليس لي في شهادة غيرنا على حريتي أرب . وأصبح عبد الله بن جدعان فتحدّث في أندية قريش بأنه قد أعتق غلامه الروميّ صُهيباً وحالفه وجعله أميناً على مـاله كله وعلى تجارته في رحلـتي الشتاء والصيف ؛

فسمعت قريش ولم تنكر لما تحدّث إليها به حرب بن أمية مما كان لهذا الفتى من حسن البلاء في تجارة مولاه .

وأنفق صهيب زَهرةَ شبابه تاجراً لعبدالله بن جدعان ؛ يُثمر مالَه وينشر تجارته فيُبْعِدُ بها طوراً في أرض النجاشي وطوراً في أرض قيصر وتارة في أرض كسرى ، حتى أصبح عبدالله بن جدعان أكثر قريش مالاً وأوسعها ثراء وأعظمها عطاء وأسخاها يداً ، وحتى قصد إليه الشعراء يبيعونه الثناء بالمال الكثير . وكان عبد الله بن جدعان كلما سمع ثناء الناس عليه وأرضاه ذلك قال لصهيب: وإنما لك شطر هذا الثناء؛ فأنت الذي أتاح لي أسبابه ويسّر لي وسائله . وكان عبد الله بن جدعان ربما سأل صهيباً بين حين وحين: ألا يزال لك في أرضنا هذه أرَبٌ ؟ فيجيب صهيب : أربٌ ، أي أرب! يقول عبد الله بن جدعان : فهل تبينت أربك يا صهيب ؟ فيقول صهيب : لو تبينته لما أخفيته عليك .

وأدرك الموت عبد الله بن جدعان ذات يوم ، وخلصت لصهيب نفسه كلها ، وكثر ماله ؛ وكان خليقــاً إن شاء أن يتحول إلى أرض قيصر حيث نشأ ، أو إلى أرض كسرى في العراق حيث ولد ، ولكنه أقام بمكة لا يبرحها، وجعل يثمر ماله مقتصداً في هذا التثمير ، لا يغدو في التجارة ولا يبعد في الأرض ، وجعل يحيي سنة عبد الله ابن جدعان ، فيطعم الجائع ويغــني العائل ويعين المحتــاج . وجعلت قريش تطمئن إليه وتثق به وتأنس إلى حديثه ذاك الذي لا يكاد يُبين ؛ حتى أصبــح ذات يوم فسمــع قريشاً تتحــدث في أنديتها عــن دار الأرقم بن أبي الأرقـــم ، ومن كان يجتمع فيها من الناس حول محمد بن عبدالله، وما كان يتلى فيها من القرآن ، وما كان يــدار فيها من الحديث ؛ فيحس صهيب في نفسه كأن أربه ذاك الذي رافقه منذ آخر الصبا وأول الشباب إلى آخر الشباب وأول الكهولة ، قد جعل يدنو منــه قليلاً قليلاً ، وقد أخذت نفسه تُنازعه إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم ، فيصدها ويردّها ويستمسك لبقيا على مــا كان بينه وبين سادة قريش من المودّة والإلف ، ولكن شوقه إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم يملأ عليه يقظة النهار ونوم الليل . حتى أصبح ذات يوم وقد أخذ نفسه بما تكره ، وخرج من داره يريد أن يمضي إلى المسجد ، ولكنه يمضي ويمضي ، ثم لا يبلغ المسجد ، وإنما يجد نفسه أمام دار الأرقم بن أبي الأرقم ، ويرى غير بعيد منه عمار بن ياسر ، فيكون بينهما ما قدّمت من حديث ، ويدخلان ويستمعان ويُسْلِمَان ويُقيمان مــع أصحابهما ، حتى إذا أقبل المساء خرجوا جميعاً

مستخذين .

وافتقدت قريش صهيباً يومها ذاك، ثم افتقدته من غد ؛ ثم تحسس أبو جهل أخباره ثم أقبل ذات يوم وهو لا يمسك نفسه من الغضب ؛ فلما رأته قريش قال قائلها : ثارت ثورة أبي الحكم . ووقف أبو جهل على نادي قومه فاتكأ على قوسه ثم قال في صوت المُحْنَق المغيظ : اعلموا يا معشر قريش أن صهيباً قد صبأ ، وأنه يُشارك آل ياسر في عذابهم منذ اليوم .

– ٩ –

لم تشهد خثعم يوماً كذلك اليوم الذي انتصرت فيه على عدو غير محارب ، والذي ملأت فيه أيديها من الغنيمة ، لم تتكلف في ذلك عناء ، ولم تَبلُ فيه بلاء ، ولم تبذل فيه جهداً ولم تلقَ فيه كيداً ، وإنما كان الرجل منها يمد يده إلى ما يليه من المال ثم يردها وقد أصابت منه ما تريد وفوق ما تريد ، كأنما أنْهِبتْ مال النجاشي إنهاباً ، وأمرت أن تأخذ منه حتى ترضى ؛ ولم تكن ترضى بالقليل ، ولا تقنع باليسير ؛ ولو قد استطاعت لاجتوت في ذلك اليوم مال النجاشي كله ؛ فقد كان جيش أبرهة يعود منهزماً عن مكة ، قد فقد حَوْلَهُ وطَوْلَهُ وقوته في غير حرب ، وحُمل أميره عليلاً منهوكاً يتراءى له الموت فيفظعه ويُفزعه ، ثم تتراءى له الحياة فترد إليه شيئاً من رَوْح وراحة ، وبطانته مشغولة به جازعة عليه ، تأمُل وَجهَ النهار وتيأس آخره، والجند الذين أعفاهم الموت وأبقت عليهم الطير الأبابيل يسعون متخاذلين متضائلين يتحاملون على سوق لا تكاد تحملهم ، قد بلغ الجهد من أجسامهم ، وعبث اليأس بنفوسهم ؛ فهم ظلال تسوق المال ، إلا أنها ظلال تخاف ولا تخيف .

وكانت خثعم قد رأت جيش أبرهة وهو يسعى الى مكة في قوة أي قوة وعُدّة أي عدة ونشاط أي نشاط. فأما كرامها وذوو أحلامها فتنحّوا لأبرهة عن طريقه ، وكرهوا مقاومته وأنكروا مساومته ، ورأوا انه مقدم على إثم عظيم ، فربئوا بأنفسهم عن المشاركة فيه . وأما سفهاؤهم وذوو الطيش والنزق منهم فتفرقوا شيعاً واختلفوا أحزاباً : فمنهم من قاوم حتى أعيته المقاومة فاستكان ، ومنهم من ساوم فباع نفسه وأقبل على الإثم مستخفاً به غير حافل بعواقبه ، ومنهم من تنحى عن الطريق ولم

يُبعِد ، وإنما أقام رصداً يرقب الجيش ويتربص به الدوائر وينتهز منه الغفلات ، يقتل هنا ويخطف هناك ، ويلوذ بين ذلك بشِعاف الجبال وشعابها ، حتى اضطغن عليهم أبرهة في نفسه وأقسم ليؤدّبنّهم مُنصرفَه عن مكة أدباً تتسامع العرب به ، فتعرف للنجاشي هيبته وسلطانه ، ولكن أبرهة لم يدخل مكة ولم يمس بيتها بسوء ، ولم ينصرف عن مكة انصراف المنتصر ولا انصراف المخفق ، وإنما انصراف المنهزم المخذول الذي فعل الدهر به الأفاعيل ، وإن لم يرَ جيشاً محارباً ولا عدوّاً مناوئاً ، وإنما رأى طيراً أبابيل ترميه وترمي جيشه بحجارة من سجّيل ، فتجعله وتجعل جيشه كعصف مأكول . وقد أسرع ذوو خاصته به الى اليمن، وقد نهكته العلة حتى أشرف على الموت ، ومرّوا في طريقهم بخثعم فلم يبطشوا بها ولم يصبّوا عليها عقاباً ولا عذاباً، إنما بطشت بهم خثعم فصبّت عليهم العقاب والعذاب،ولم يخلصوا منها إلا بشق الأنفس، ومضوا يحملون عليهم بين الموت والحياة ، فلم يبلغوا به صنعاء إلا وقد انشق صدره عن قلبه وأدركه الموت بعد أن برّحت به العلة تبريحاً .

في ذلك اليوم ملأت خثعم أيديها من ذائب النجاشي وجامده، فأخذت من الذهب والفضة ، وأخذت من الإبل والخيل ما أغلّ عليها حين باعته مالاً كثيراً ، وأخذت فيما أخذت نساء وفتيات من حسان الحبشة وكرائمهم كنّ يصحبن الجيش يرين في صحبته لذة وبهجة ومتاعاً ، ويرى آباؤهن وازواجهن في استصحابهن ترفيهاً عنهن وتسلية لهن، وإمتاعاً لأنفسهم باستصحاب هؤلاء الحسان في هذا السفر الذي لن يجدوا فيه مشقة ولن يتكلفوا فيه جهداً ، وإنما هو تسلية للنفوس وتسرية للهموم وتأديب لهذه الفئة الجاهلة الغليظة من أهل البادية بهَدم ذلك البيت الذي يُكبرونَه ويعكفون عليه . ويرون أنه وحده خليق بالإكبار ، وأنه وحده جدير بالتقديس .

سفرٌ قاصدٌ ممتعٌ يجب أن تكمل فيه للرجال لذّاتُ أجسامهم وبهجة قلوبهم وقرّة عيونهم . ومن أجل هذا استصحب قادة الجيش وأمراؤه زوجاتهم وبناتهم يمتعنهم بالحب والرحمة ، ويؤنسنهم بالود والحنان ، واستصحبوا القيان مُغنيات وعازفات وراقصات يزدن بهجة السفر بهجة وجمال الرحلة جمالاً . ولم يخطر لهم أنهم إنما كانوا يستصحبون الحرائر والإماء ليجعلوهن نهباً لأولئك العرب الجفاة الغلاظ البادين في طريقهم إلى البيت ، ولأولئك العرب الجفاة الغلاظ الحاضرين من حول البيت .

ويخرج سُحيم بن سُهَيل الخثعمي مع الخارجين ويعدو مع العادين ، ويملأ يديه كما ملأ بنو أبيه أيديهم ذهباً وفضة ونعماً وعَرَضاً ، ولكنه يرى فيما يرى ناقة تسعى

يقودها حبشي غليـظ جهم ، يظهر عليه فضلٌ من قوة وبأس ، ولكنه متخاذل متواكل قد نهكه الجهد وأضنته العلة ، فهو يسعى مذعناً لأمر سادته ، ولو استجاب لنفسه لاستراح في هـذا الجانب أو ذاك من جوانب الطريق ، ولترك هـذه الناقة تقود نفسها وتسعى إلى حيث تريـد أو إلى حيث يريـد لها القضاء . وينظر سُحيم بن سهيل فيرى على هذه الناقة هودجاً نفيساً قد ألقيت عليه أستارٌ من الحرير المطرز بالذهب المرصّع بشيء من الجوهر، فيستهويه ما يرى ، ويسرع الى العبد ورمحه يضطرب في يده . فلا يكاد العبد يراه حتى يحول اليه زمام الناقة ويسعى بها بين يديه مستسلماً صاغراً ذليلاً . قال سُحيم بن سهيل للعبد: لمن تكون هذه الناقة ؟ ولمن يكون هذا الهودج ؟ قال العبد في لهجة عربية كدرة لا تكاد تبين : إنها ابنة أخت الأمير . قال سحيم بن سهل لنفسه وهو يدفع العبد والناقة الى بيته : حسبي من الغنيمة هـذا العبد وهذه الناقة وما تحمل من متاع نفيس . فأما ربة الهودج فليست مني ولست منها في شيء ، ولأطـرفنّ بها سيداً من سادات قريش .

ويسعى والعبد يسعى بالناقة بين يديه ، حتى إذا بلغ مضارب الحي أومأ الى العبد فأناخ الناقة، ووقف غير بعيد مطرقاً الى الأرض كأنما يلتمس فيها شيئاً . ولكن سحيماً يومىء اليه فينزل الهودج عن مستقره على ظهر الراحلة ، ويتنحّى فيقف غير بعيـد مطرقاً إلى الأرض كأنما يلتمس فيها شيئاً . ويدنو سحيم من الهودج مترفقاً ، ويرفـع أحد أستاره متلطفاً ، ثم يمد بصره في الهودج ، ثم يرده الى نفسه وقد امتلأ وجهه ابتساماً وإشراقاً وهو يقول : حمامةٌ رشيقة أنيقة وربّ البيت ! ذلك أنه رأى فتاة رائعة الحسن على سُمْرَة بَشرتها ، بارعة الجمال ، فاتنـة اللحـظ ، ليست بالطويلة ولا بالبدينة ، وإنما هي ضئيلة نحيلة ، قد ملأها الذعر وملكها الروع ، ولكنها على ذلـك جَلدة متماسكة يصدها الحياء والوقـار عن أن تُظهر ما يملأ قلبها من جزع وهلع ومن تولـه والتياع . ويمدّ سُحيم بن سهيل نظـره الى الفتاة ثم يرده الى نفسه ووجهه يزداد إشراقاً وابتساماً ، ولسانه لا يزيد على أن يقول : حمامة رشيقة أنيقة وربّ البيت ! ثم يخرج الفتاة من هودجها حفياً بها متلطفاً لها يقول : لا تُراعي ، لا تراعي يا ابنتي، فلن أريد بك سوءاً ، ولن يمسك مني شيء تكرهينه . ثم يأخذ بيدهـا ويسعى بها مستأنياً ، والفتاة تُطيعه . وكيف لها بغير الطاعة ! حتى اذا دخل بها الى اهله قال لامرأته في صوت حازم صارم: استوصي بهذه الحمامة خيراً ؛ فان دار خَثعم ليست لها بدار ، وإنما مكانها عند سيد من سادات قريش . ثم يخرج فيحرر الهودج والناقـة

والعبد، ويعدو ليدرك الناهبين من بني أبيه عسى أن يصيب من الغنيمة فوق ما أصاب.

ولم يمض شهر بعد ذلك اليوم حتى كان سُحَيم بن سُهَيل عند خَلَف بن وهب الجمحي في ضَيْعة له بالسَّراة ، قد أقبل ومعه أميرته تلك الفتاة الحبشية حتى أناخ عند دار خلف . وتلقاه أهل الدار كما تعوّد العرب وكما تعودت قريش ان تتلقى ضيفها ، ولكنه لم يكد يفرغ من تحيته حتى قال : لو تعلم بماذا أقبلت عليك يا سيد جُمَح ! قال خلف : بالخير ، وما أقبلتَ قط إلا بخير . قال سُحيم : أقبلت عليك بابنة أخت الأمير ، ذلك الذي أقبل غازياً للبيت فردّه رب البيت مخذولاً مدحوراً . قال خلف: ابنة أخت أبرهة ؟ قال سُحيم : نعم ابنة أخت أبرهة . قال خلف ما اسمها ؟ قال سُحيم : ما ادري ، ولكن لم اكد ارى جسمها الضئيل الرشيق الجميل حتى سميتها حمامة ، وحتى رأيت انها لا تصلح لأحد من خثعم ولا لأحد من العرب إلا أن يكون سيداً من سادات قريش حُماة البيت وسدنة الآلهة ، وانت تعلم ما بيني وبينك من الحلف والود القديم . وهمّ خلف أن يسأله عما يريد لها من ثمن . ولكن سُحَيماً قال له عَجِلاً : مهلاً أبا أمية ، إني لم آتك بهذه الأميرة تاجراً ، وإنما أتيتك بها مطرفاً لك هدية الصديق الى الصديق . قال خلف : وَصَلَتكَ رَحِمٌ ! وأظهر الرضا والاستبشار والشكر ، وعرف في دخيلة نفسه أن هدايا الأعراب تُقبل وتُجزى بخير منها . ثم أمر بالفتاة فحوّلت الى حيث أهله ، لم ينظر اليها ولم يحفل بالنظر اليها ؛ ثم تحدّث الى سُحيم فيما يتحدث فيه المضيف الى الضيف ساعة ، ثم أطرق إطراقة طويلة . ووقع في نفس سُحيم أن طُرفته لم تبلغ من نفس صديقه ما كان يريد . ولكن خلفاً يرفع رأسه ويقول : هل تعلم يا سُحيم أنك لم تُسدِ إليّ معروفاً كهذا المعروف الذي أسديته إليّ منذ اليوم ؟ إنّا لم نقاتل أبرهة ، ولم نذُد عن البيت ، وإنما أمرنا ان نتفرق عنه وان نترك حمايته لربه . وقد حمى صاحب البيت بيته وردّ عنا أبرهة وفيله وأحباشه، ونحن ننظر الى ذلك من قمم الجبال ومن ثنايا الطرق التي أوينا اليها وتفرقنا فيها . فلما ارتدّ عنا العدو ثبنا الى مكة وعدنا الى بيوتنا ، وفي نفوس كثيرة منا حسرات؛ لأنا لم نؤدّ لهذا البيت حقه علينا من الذود عنه والقيام دونه . فأنت حين تحمل اليّ هذه الأميرة إنما تتيح لي ان اشفي نفسي . فوربّ هذه البنيّة التي لم أذد عنها لأذلنّ اميرتك هذه الحبشية ذلا لم تعرفه الحبشيات بعد . واول ذلك انها لن تدخل مكة ، ولن تطأ ارض الحرم ، فقد ردّ صاحبُ الحرم هذا الرِّجسَ عن ارضه وبيته . قال سُحَيم . وَيحك أبا أمية ! لو عرفت انك ستلقى هذه الحمامة الرشيقة الأنيقة

هذا اللقاء السيء لآثرتُ بها نفسي . قال خلف متضاحكاً : هيهات ! إنما هو أمرٌ قد دبره من هو أعظم منك ومني سلطاناً . إن هذه الأميرة يجب أن تستذلّ قريباً من هذا الحرم الذي أراد قومها أن يستذلوه ، وإنها ما عاشت لن تعرف الحرّية وان تلد الأحرار . قال سُحيم : فأنت إذن ترباً بنفسك عنها ، فارْدُدْها إليّ . قال خلف وقد أغرق في الضحك : هيهات ! إني أرباً بك أنت عنها أيضاً ! فقد قلت إنها ما عشتُ لن تلد الأحرار . إن لي في هذه الضيعة إبلاً وشاء يرعاها غلمان لي فيهم الأسود والأصفر ، فسترعى معهم هذه الإبل والشاء . وهمّ سُحَيم أن يراجع صديقه في بعض ما قال ، ولكن خلفاً حوّل الحديث وشغل صاحبه عنه بأنباء اليمن وأحداث تهامة والحجاز .

ودخل خلفٌ على أهله بعد أن عشّى الناس وتقدم الليل ، فألفى امرأته محزونة كئيباً ، فلما سألها عن أمرها لم تردّ عليه جواباً ، وإنما قالت له في لهجة حزينة : ماذا تريد أن تصنع بهذه الفتاة الحبشية الحسناء التي جلبها لك سُحَيم ؟ قال خلفٌ وكأنه أراد أن يثير في نفسها شيئاً من غيظ : استوصي بها خيراً أمّ أمية : فإنها ابنة أخت الأمير صاحب الفيل . قالت أم أمية وقد أجهشت بالبكاء : لم يبقَ إلا أن نرفُق بالذين غزَوْا دارنا وأرادوا أن يستبيحوا الحَرَمَ وأن يهدموا البيت . هنالك أقبل خلفٌ على امرأته فمسح رأسها وهو يقول: لا عليك أم أمية ! فما أردت إلا إلى الدعابة . إن هذه الفتاة لم تعرف في حياتها الى الآن إلا العزة والكرامة ، واني قد اقسمت حين اهداها اليّ سُحيم ألا ترى منذ اليوم الا الذلة والهون . اني لم ابل في حماية الحرم شيئاً من بلاء ، فلا أقلّ من أن اذلّ الحبشة في اميرتهم هذه . قالت أمّ أمية : فاجعلها لي خادماً إذن . قال خلف وهو يضحك : هيهات ؛ ليست خدمتك ذلّة لها ام امية . قالت ام امية : اجعلها لي خادماً ، وسترى كيف اذيقها الذل . قال خلف : قد فعلت على ان تُقيم في ضيعتنا هذه بالسراة ، وعلى ألا تطأ الحرم ولا تدخل مكة ؛ فان ربّ هذا البيت قد ردّ هؤلاء الناس عن الحرم ، وما أريد ان اخالف عن امره ولا ان اوطئها الحرم ، حتى ولو كانت امَة خادماً ، ولكني سأرْعيها الإبل والشاء فيمن يرعى الإبل والشاء من عبيدنا وامائنا . قالت ام امية : ما اجدرك ان تسود في قريش !

وكان لخالف غلام من مولّدي الحبشة يقال له ربّاح قد نيف على العشرين ، وكان ذكيّاً صَنَاعَ اليد حازم الرأي، قد ارضى سيده حتى أعتقه وجعله قيماً على ضيعته

تلك في السراة . فلما اصبح خلفٌ دعا اليه مولاه وقال له وهو يبتسم: إيه يا رباح ! هذه اميرة من امرائكم قد جُلبت الينا أمس ، وقد علمت ما كان من قومك ، وإني قد أزمعت أن أرعيها الإبل والشاء ، فهل أكلها إليك لتذيقها من الذّل والهون ما أرى أنها أهل له ؟ قال رباح : وما يمنعك من ذلك وقد رأيت صنيعي بغلمانك على اختلاف أجناسهم ؟ ألست آخذهم بالحزم والصرامة حتى أحملهم على الجادّة في خدمتك ؟ قال : هو ذاك ، فخذ هذه الفتاة فألبسها ثياب الرّعيان وأرسلها مع أمثالها . قال رباح : فإني لا أرى لها في هذا إذلالاً ولا امتهاناً ، ولكن عندي خُطة أعرضها عليك عسى أن تبلغ بها ما تريد . قال خلف : هات . قال رباح : فإني لست من أمراء الحبشة ولا من سادتها وإنما أنا من دَهْمائها ، وفي من الزنج عرقٌ ، ولو لم أجْلَبْ إلى بلادكم هذه لما طمعت أن أكون خادماً في قصر هذه الأميرة . قال خلف وقد ابتسم قلبه وثغره : فأنت تريد أن تتخذها لنفسك زوجاً . قال رباح : إن كنت إنما تريد إذلالها وامتهانها وإذلال سادة الحبشة وقادتها فاجعلها زوجاً لغلام زنجي من غلمانك . قال خلف : قد فعلتُ ، فكن لها زوجاً منذ الآن ، وإذا ارتفع الضحى فاضمم أهلك إليك .

وكان الزنجي في خطته هذه ماهراً ماكراً ، ولعله لم يمكر بسيده قبل يومه ذاك ولم يكذب عليه ؛ فقد عرف من شأن الأميرة ما عرف ، واستبان له أن سيده يريد أن يسومها الخسف ، وشق عليه ذلك ، وقدّر في نفسه أن يعمل ما استطاع لصيانتها مما يُدَبَّر لها من الهوان ، فلم يهتد إلا إلى هذه الخطة . فلما رأى أن الأميرة قد أصبحت له زوجاً طابت نفسه واطمأن قلبه ورضي ضميره وعرف أنه سيضمها إليه وسيتخذها لنفسه صنَماً يُخلص له الحب ويؤثره بالود ويقدّم له من آيات الإكبار والإجلال ما يستطيع مثله أن يقدّم لمثلها في هذه الحال السيئة التي هما فيها . وعسى الأيام أن تُحدثَ بعد ذلك أمراً .

وضم رباح زوجه الأميرة له ، فأسكنها داره الفقيرة الحقيرة ، وجدّ في إكرامها والرفق بها ، واختصها بكل ما استطاع أن يختصها به من المحبة والمودة والتوقير ، يغدو عليها بما تحب ، ويروح عليها بما تحب ، ويُجنّبها ما تكره أثناء النهار ، فإذا كان الليل وآن له أن يأوي إلى مضجعه ألقى وسادة من وراء باب البيت ورمى نفسه عليها، وأنفق الليل نائماً أو يقظان يُعنى بزوجه ويسهر عليها ، لا يمسها ولا يدنو منها. وقد أقبلت الفتاة على زوجها مذعنة مستكينة . فلما رأت إكباره لها ورفقه بها

اطمأنت إليه وأنست به واحتفظت بمكانتها منـــه ، فجعلت تتحدث إليه حديث السيد الى العبد ، ولكن في شيء من التواضع والأناقة وحسن التأتي ، وجعل هو كلما رأى منها رفقاً به وعطفاً عليه ازداد لها حباً واشتد إكباره لها وتوقيره لمكانتهـــا . وأنفقا على ذلك اشهراً واشهراً والفتى حفيّ بزوجه لا يدعَ شيئاً يقدر عليه إلا أتاه ليجنّبها ما تكره، وليجعل الرقّ أخف عليها حملاً ، ولييسر لهـا الصبر على محنتها . ولكن امور الناس تجري على غير ما يقدّرون ويدبرون .

فقد أزمع الفتى في نفسه ان يسير مع هذه الفتاة سير الخادم المهين مع السيـــدة الكريمة المستعلية التي تملك من امره كل شيء ، وازمع في نفسه ان هذا الزواج ليس إلا خداعاً لهذا السيد العربي الذي أراد ان يهين اميرة من اميرات الحبشة . وأي بأس عليه في ان ينصح لسيده ما وسعته النصيحة ، ويخلص في خدمته ما وجد الى الاخلاص فيها سبيلاً ، ويقوم على ماله احسن قيام وارفقه : يدبّره ويثمره كأحسن ما يكون التدبير والتثمير ، لا يستثني من ذلك كله إلا هذه الفتاة ، فانه لا ينصح فيها لمولاه ، ولا يطيع فيها امره، وإنما ينصح فيها لنفسه وقومه ، فيؤثرها بالحب ويختصها بالإكبار والكرامة رعاية لمنزلتها في بلادها تلك البعيدة النائية .

هي زوجه عند خلف وأضرابه من سادة قريش، وهي زوجه عند هؤلاء الغلمان الذين يسوسهم بالحزم ويأخذهم بالعنف ، ولكنها مولاته وأميرته فيما بينها وبينه وفيما بينه وبين نفسه .

أضمر الفتى ذلك في قلبه ، وفهمت عنه الفتاة ما أضمر ، فقبلته راضية ، واطمأنت اليه مغتبطة ، واعتقدته في ضميرها مخلصة ، وسارت معـــه سيرة الأميرة لا سيرة الزوج ؛ ولكنه يغدو عليها بالطاعة والرضا ، ويروح عليهـــا بالطاعة والرضا ، يقوم دونها ما أضاء النهار ، ويسهر عليها ما أظلم الليل . وهي ترى ذلك لهـــا حقّاً أول الأمر . ثم تفكر وتقدّر فتعلم أنها أمَةٌ ليس لها حقٌ على احد ، وإنما لسادتها عليها الحق كل الحق ، ولهذا الغلام عليها نصيب من حق سادتها ، فهم قد جعلوها له زوجاً ، وجعلوا له عليها حقاً .

تفكر الفتاة في هذا فتنأى عنه بجانبها أول الأمر ، ثم تعاود التفكير فيه وتعاود النأي عنه . ثم يتصل تفكيرها فيه ، ويتصل برّ الفتى لها ورفقه بها وإيثاره اياها بالطيب من نفسه وبالطيب من الحياة ، إن كان في حياة الرقيق شيء من الطيبات . واذا الفتاة تجد في نفسها عطفاً على هذا الفتى ، ثم ميلاً اليه ، ثم احتياجاً الى مكانه

منها ، ثم وحشة حين يغيب عنها فيطيل الغياب .

وتمضي ايام واسابيع والفتى ماض في حبه الخالص وبره الصادق ، والفتاة ماضية في هذا الاضطراب القلق المقلق . ثم تحس الفتاة حاجتها الى ان تأنس الى الفتى أكثر مما أنست اليه، والى ان يأنس الفتى اليها اكثر مما أنس اليها اثناء هذه الشهور الطوال. تود لو استطاعت ان تُلغي مـــا بينها وبينه من الكلفة ، وان تتحدث اليه . ويتحدث اليها حديث الرفيق الى الرفيق . ولكنها لا تجد الوسيلة الى ذلك قريبة ولا ميسرة ؛ فقلبها يبسم للفتى ، وثغرها يريد ان يبتسم فيرده عن الابتسام فضلٌ من حيـــاء . ولكنها مع ذلك تلحظ الفتى حين يُقبل عليها او حين يتحدث اليها في بعض الأمر لحظاً فيه شيء من دعة ورفق وأنس ، ويبلغ لحظهـــا من الفتى أعماق نفسه فيملؤها غبطة وفرحاً ورضاً ، ثم لا يزيد على ذلك .

فلم يُحدّث الفتى نفسه بأمل قريب او بعيد ، ولم يخطُر الفتى على باله ان من الممكن ان تُلغى المسافات والآماد بينه وبين أميرتـــه ، او ينظر اليها ذات مساء نظرة الطامع او الطامح ، وإنما هي بالقياس اليه أميرة قد استقرت على عرش يمكن ان يرقى اليه الطرف ولا يمكن ان ترقى اليه النفس ، فضـــلاً عن ان ترقى اليه القدمان . وكذلك اصبح الأمر بين هذين الرفيقين امراً عجباً : هما زوجان أمام الأحرار والرقيق ، وهما زوجان امام العرف الذي اصطلح الناس عليه . ولكن الفتى يكبر الفتاة عن ان تكون له زوجاً، والفتاة لا تكبر نفسها عن ذلك، ولا تتمنى شيئاً غيره ، ولا تجد السبيل اليه ، حتى استحالت الصـــلة بينهما الى شيء غير مألوف فالفتاة عاشقة وامقة ، ولكن التي يرى نفسه أقـــلّ من العشق وأصغر من الوموق . وربما ضاقت الفتاة بهذه الصلة التي جعلت تنكرها ، وربما وجدت على الفتى وظنت به الغرور والكبرياء ، وإن لم يجد الفتى في نفسه إلا التواضع والهوان. ولولا حرص الفتى على أن يكون رفيقاً رقيقاً ، وحرْص الفتاة على أن تكون عارفـــة للجميل شاكرة للنعمة مقرة بالمعروف ، لجـاز أن يَفْسُد الأمر بينهما . والفساد لا يُسرع إلى شيء كما يسرع إلى صلة المحبين حين يبلغ بينهما أقصاه ، وحين تثور الصعاب وتقوم العقاب بينه وبين غايته . فقد جعل صدر الفتاة يضيق ، وجعل السأم يسعى إلى نفسها ، وجعلت لا تُحسّ شيئاً إلا أنكرته، وجعلت تشعر بأنخُلقها يريد ان يسوء. وأحس الفتى منها بعض ذلك ، فغلا في الرفق ، وأمعن في التلطف . واشتد ضيـق الفتاة بذلك حتى قالت له ذات يوم : إنك لتغلو في الرفق بي والتلطف إليّ ، وإنك لتريد الإحسان

فتخطئه إلى الإساءة ، وإنك لتعلم أني محتاجة منك إلى شيء غير هذا التلطف والترفق . قال الفتى في تواضع وتضاؤل : وما ذاك ؟ قالت الفتاة في سخرية مُرّة لاذعة تمزق القلب : إنك لتعلم أنك حر وأني ... قال الفتى : مهلاً ! إني حديث عهد بالحرية ؛ فقد كنت قناً منذ عامين قالت : قناً منذ عامين ، وقد رُدّتْ إليك الحرّية وانحط عنك الرق ، فأنت ارفع مني مكاناً واحسن مني حالاً . فما تواضعك وتضاؤلك وإمعانك في العناية بما مضى من الدهر ، وانت خليق لا اقول بأن تستكبر وتستعلي ، وإنما اقول بأن تتذكر ما نحن عليه اليوم ، وما يمكن ان نصير إليه غداً . إنك لتتذكر أني كنت أميرة ، وتحفظ لي حق الإمْرَة ، ولكنك اجدر ان تذكر ان الإمرة قد مضت مع الأيام التي مضت ، وأني قد صرت إلى الرقّ حين عُدتَ انت إلى الحرية . وانت بعد هذا كله قد اتّخذتني زوجاً قال الفتى : إنما اتخذتك زوجاً لأردّ عنك ما يراد بك من سوء . قالت الفتاة : فقد فعلتَ ، وإني لذلك لشاكرة ، ولكنك اتخذتني لنفسك زوجاً ، فليكن الأمر بيننا كما يكون بين الأزواج . هنالك انهلت دموع غزار من عيني الفتى ، ولم يعرف أكانت دموع الحزن أم دموع السرور . وهنالك صعد الدم إلى وجه الفتاة فأسبغ عليه حمرة قانية لم تعرف أكانت حمرة الخجل أم حمرة الابتهاج بأنها قد اقتحمت ما كان بينها وبين زوجها وشقيق نفسها من العقاب .

اقبل خلف ذات يوم فألمّ بضيعته في السراة ، وعرف من امرها ما كان يريد ان يعرف ، وسمع من قيّمه رباح ما كان يحب ان يسمع ، ورضي عما رأى وما سمع وما عرف . فأمور الضيعة تجري على خير مـا كان يحب : مال كثير ، وغلّة غزيرة ، وامانة من رباح لا يرقى اليها الشك . وقد بلغ الرضا من نفس خلف ان تمنى ان يُحسن الى قيّمه وان يكافئه على ما بذل من جهد ، فأهدى اليه إبلاً وشاء ، وفضلا مما تُغله الضيعة من ثمر الأرض ، وتلقى منه شكره للجميل ، فاغتبطت نفسه واطمأن قلبه . وهمّ القيم ان ينصرف راضياً موفوراً ، ولكن خلفاً يستوقفه ويسأله في دعابة حلوة : ايه يا رباح ! ايكما العقيم ؟ فقد مضى دهر منذ املكتك تلك الحمامة الحبشية ، ولم أر لكما ولداً . فوجم القيم شيئاً ، وهمّ ان يتكلم ولكن الحياء عقد لسانه ، فغض بصره واطرق الى الأرض . والح عليه خلف في السؤال واعاد اليه مقالته متضاحكاً : ايه يا رباح ! ايكما العقيم ؟ قال رباح وقد عاد اليه شيء من جرأة وشيء من حفاظ : وما يعنيك ان نعقم او ان يكون لنا الولد ؟ قال خلف : على رسلك يا رباح !! ان تكن حراً فان حمامتك امة . قال رباح مغضباً : فأنت اذن زوجتنيها لتستغلها وتستغلني

كما تستذل الإبل والشاء ! قال خلف : انك لغضوب يا رباح . اني لم ارد ان اسوءك ، وانما اردت ان ارفق بك وان اعرف بعض امرك . قال رباح : فأعرف اذن من امري ما تحب . ثم ضرب بيده على جبهته وهو يقول : ويلاه ! لقد انسيت انها امَة، وان ابنها سيكون قناً مثلها . قال خلف : وان لها لابناً يا رباح ؟ قال رباح : نعم ، ولو اطاعتني نفسي ، ولو اطاعتني هي لوأدته كما تئدون بناتكم ؛ فليس مما يَسرّ ولا يرضي ان يعرف الرجل انه يُستفحَل كما تُستفحَل الإبل . قال خلف وقد بدا في صوته شيء من الأسى : ويحك يا رباح ! انك لتشق على نفسك وتشق عليّ في غير طائل . وايمُ الله ما اردت استغلالك ولا استفحالك ! وانك لتذكر كيف تقدمت اليكِ ان تَرعى هذه الفتاة مع رعياننا ، فتمنيت عليّ ان اجعلها لك زوجاً ، وزعمت لي ان ذلك ابلغ فيما كنت اريد لها من الذل. فما خطبك ؟ وماذا عرض لك ؟.. هنالك ثابت الى رباح نفسه ، وذكر احتياله في صيانة الأميرة مما كان يراد بها من سوء ،وذكر انه لم يخدع مولاه ولم يكذب عليه قط الا هذه المرة ، وحَرَص على ان يخفي خداعه وكذبه مخافة ان يصيبه ويصيب زوجه بعض الشر ، فقال وهو يتكلف ضحكاً خير منه البكاء : وماذا تريد ان اقول لك ؟ لقد وقعت في نفسي فأحببتها . قال خلف: احببتها وكنت تريد ان تُذلها ؛ قال رباح : اميرة صارت الى الرقّ وزُوّجت من عبد لم يكن ليطمع في خدمتها ، فاحتملتْ ذلك مذعنة له ، ثم راضية عنه ، ثم سعيدة به ، فكيف تريد ان اذلها او اهينها ؟ قال خلف في صوته الحزين : هو ذاك، هو ذاك ! قد الغى الرق ما كان بينكما من تفاوت الدرجة واختلاف المنزلة قال رباح متضاحكاً : اليس غريباً ان يكون الرق هو الذي يسوّي بين الناس ويُلغي ما بينهم من تفاوت الدرجة واختلاف المنزلة ، وان تكون الحرية هي التي تفرق بين الناس فتجعل منهم الغني والفقير والقادر والعاجز والقوي والضعيف والسيد والمسود ؟ متى ينقضي هذا الليل ، ومتى يُسفر عن الصبح المشرق الجميل ! قال خلف ! ويحك ! ماذا تقول ؟ اي ليل واي صبح ! قال رباح : الليل هو هذا الدهر الذي نعيش فيه والذي يسوّى فيه الرق بين الأرقاء ، وتفرق فيه الحرية بين الأحرار . والصبح هو الزمان المقبل الذي يسوي فيه بين الناس الأحرار والعبيد ، ويتمايز الناس فيه بأعمالهم وبلائهم ، لا بمنازلهم وحظوظهم من الثراء . قال خلف ، وقد اغرق في الضحك : لقد تكهنت يا رباح منذ اليوم ! دع ليلك المظلم وصبحك المشرق ، وحدثني عن صبيك هذا الذي كنت تريد ان تئده منذ حين ، ما اسمه ؟ وما شكله ؟ قال رباح : انك

لتسخر من ليلي وصبحي ، وان ليلي لمنجل ، وعسى ان نـدرك الجلاء ، وان صبحي لمسفر وعسى ان ندرك إسفاره ؛ فان لم ندركه نحن فسيدركه ابنك امية وسيدركه ابني بلال . فهزّ خلف رأسه ورفع كتفيه وقال : حَسْبُكَ يا رباح ، تحدث بهـذا الى غيري ؛ اما انا فاني زاهد في عطائك لمكان هـذا الصبي من اسرتك ، ولولا ان قسماً عظيماً قد سبق مني لرددت الى زوجك حريتها ولجعلت ابنك حراً مثلك ، ولكنك تعلم انها اقبلت غازية لنا مستخفة بنا منتهكة لحرماتنا . فأمسك عليك اهلك ، وعيشا سعيدين بصبيكما ، فلن يمسكم ما حييت سوء ، ولكني اقدر لكم على اكثر من ذلك . قال رباح وهو يهز رأسه ساخراً : اقبلت لكم غازية ! اقبلت لكم غازية ! وماذا كانت تعرف من امر الغزو ! لقد كانت فتاة غافلة لا تكاد تعقل نفسها ، ولكن الكبار يأثمون فيؤخذ الصغار بآثامهم . قال خلفٌ : ما رأيت كاليوم حكيما . انصرف الآن عني واستقبل حياتك سعيداً موفوراً ، ولا تذع حكمتك هذه في الناس فيصيبك منها بعض ما تكره .

وعاش رباح وحمامة ما شاء الله ان يعيشا ، قد رضيا من الحياة بما قسم لهما ، وفرغ لابنيهما بلال واخيه الذي نسي التاريخ اسمه وذكر بعض أمره ، يُنشّئانهما كما تعود امثالهما تنشيء ابناءهم في منزلة وسط بين منزلة الأحرار ومنزلة الرقيق . ثم انصرفا عن هذه الدنيا وتركا فيها هذين الغلامين يعملان في ضيعة خلف ، ويسعيان ، في خدمة جُمَحَ كلها . وعاش خلف ما شاء ان يعيش ، ثم انصرف عن هذه الدنيا وترك ابنه أمية فتى قوياً جَلْداً ، وارثاً مع اخوته لما ترك من العروض والأرض ومن النعم والرقيق . لم يشهد رباح ولم تشهد حمامة ولم يشهد خلفٌ انحسار الليل المظلم وإسفار الصبح المشرق ، وإنما رأى بلال إسفار الصبح ، فامتلأ قلبه به نوراً ، ورأى امية إسفار الصبح فامتلأ قلبه به ظلمة . وآل أمر بلال الى ان اصبح من احب الناس الى النبي وآثرهم عنده ؛ وآل أمر أمية الى ان اصبح من ابغض الناس الى النبي حتى قُتل يوم بدر ، واورث بغضه وعداءه للنبي اخاه أبيّاً ذلك الذي همّ ان يقتل النبي يوم أحد ، ولكن النبي يمسه برمحه فيفتح له باب الموت .

ويقبل امية ذات يوم ليشهد ما كان ابو جهل يصب على آل ياسر من العذاب ، فيقف ثم ينظر ثم يرى ثم يهزّ رأسه ثم يقول لأبي جهل : اذا كان الغد فأقبِلْ على دار جُمَحَ لترى كيف نعذب الصابئين من مستضعفينا ، وكيف نعذب زعيمهم بلالا !

شدّ ما تعنفون الصبي وتشتطون عليه ! ما رأيت كاليوم رجـالاً قساة القلوب جفاة الطباع غلاظ الأكباد !..

قالت ذلك أمّ أغار ، ثم ألقت بنفسها بين اولئك الرهط من اعراب بني عامر ، فجعلت تدفع في صدر أحدهم بقبضة يدها اليمنى ، وتجذب ثوب أحدهم الآخر بيدها اليسرى ، تريد ان تردهما عن ذلك الصبي الذي الحوا عليه صفعاً وتأنيباً . وكان اولئك الرهط من بني عامر قد أقبلوا من نجد يسوقون بين ايديهم مطايا تحمل تجارة من حَبّ العراق . فلما باعوا تجارتهم وباعوا الرواحل التي كانت تحمل هذه التجارة . أرادوا أن يبيعوا غلامهم ذاك ، فعرضوه هنا وهناك ، ولكنهم لم يجدوا طالباً له ولا راغباً فيه ، فأحفظت عليه نفوسهم وقست عليه قلوبهم ، وهموا ان يتصرفوا به ليعرضوه على من يرون بهم من احياء العرب ، لعلهم ان يجدوا له مشترياً . ولكن الغلام اظهر شيئاً من التمنع والتأبي . كانت نفسه تكره ان ينقلب معهم لكثرة ما صبّوا عليه من الأذى وما نالوه من المساءة . فلما أظهر الامتناع عليه جدّوا في تأديبه وتأنيبه . وأدركتهم أم أغار الخزاعية وهم يصنعون به هذا الصنيع ، فرقّ له قلبها ، ورحمته مما كان يلقى من الضر ، فاندفعت تردهم عنه وتحميه . قال احد اولئك الرهط من بني عامر لأم أغار : ما انت وذاك ؟ ما رأينا كاليوم امرأة سوء ؟ ولو كنت في غير هذا الحرم لمسّك منا بعض ما تكرهين .

قالت أم أغار وقد اخذ الغضب يسكت عنها ، واخذ الابتسام يسعى في وجهها المتجعد : ولكني في هذا الحرم ، فلن تصل إليّ ايديكم . ألا تستحيون من اجسامكم هذه الطوال العراض ، ومن لحاكم هذه التي وخطها الشيب ، ومن لممكم هذه التي ترسلونها الى اكتافكم ان تبطشوا بهذا الصبي النحيف الضعيف ! قال احد العامريين : لو أهمّك من طعامه ومؤونته ما يهمنا لما رحمته ولا رفقت به ! انه والله لغلام سوء . يكلفنا من المؤونة ما يكلفنا ثم لا يغني عنا شيئاً ، ثم لا يكفيه ذلك حتى يخالف عن امرنا ويأبى ان يتبعنا ، كأنما اعجبته هذه القرية مع انه لم يعجب من اهلها احداً . قالت أم أغار : فانه قد اعجبني . قال العامري : فأدّي الينا ثمنه ثم خـذيه ، لا باركت الآلهة فيه . وكانت بينهم وبين أم اغار مساومة طالت والتوت وكثر فيهـا

الأخذ والرد والجذب والشد . وانتهت بشراء ام انمار للغلام بثمن بخس دراهم معدودة. وانصرف العامريون وقد ألقوا عن انفسهم عبئاً ثقيلاً . وعادت ام انمار الى دارها في حي بني زهرة تجر بيدها هذا الغلام الضئيل النحيل الذي مسّه الضر وبلغ منه الجهد وكاد يقتله الجوع . وكانت كلما مرت بجماعة من بني زُهرة او نسائهم قال لها اولئك او هؤلاء : ويحك ام انمار ! ما هذا الطفل الذي تجرّينه ؟ فتجيب : وما انتم وذاك ! غلام اشتريته لأؤمنه من خوف واطعمه من جوع واتخذه لي خادماً ولابني رفيقاً .

وبلغت ام انمار بالغلام دارها فأطعمته وسقته وكسته حتى رضي وحتى ظهر في وجه البائس الحزين شيء من رضى وأمن وابتسام. ثم آخت بينه وبين ابنها عبدالعزّى وتركتهما وانصرفت لشأنها، فطوّفت في دور كثيرة من دور مكة ومعها اداتها التي كانت تكسب بها قوتها وقوت ابنها ، وكانت خاتنة . وكانت تقول في نفسها منذ ذلك الحين : ويحك ام انمار ! قد كنت تعولين نفسك وصبيّاً واحداً فأصبحت تعولين نفسك وصبيين . ثم تقول لنفسها : لا تراعي ام انمار ! فإن هذا الصبي متى استرد شيئاً من قوة وتقدمت به السن شيئاً فقد ينفعك ويغلّ عليك من المال ما يقيم أوده ! ويعينك على نائبات الأيام .

وكانت أمّ أنمار هذه امرأة خُزاعية قد ألمّت بمكة وتزوّجت من بعض أحلاف زهرة فيها ، وعاشت تسعى بأداتها في دور قريش ، وكان الشباب قد انصرف عنها ، وجعلت الشيخوخة تسعى إليها مبطئة ، وكانت كثيرة الصمت ، إلا أن تُستثار إلى الكلام ، وهناك لا تجد إلى السكوت ولا يجد إليها السكوت سبيلاً .

فلما عادت مساء ذلك اليوم وجدت ابنها وغلامها قد تصرفا في فنون اللعب حتى أدركهما بعض الجهد ، فأطعمتهما وسقتهما، ثم أخذت تتحدث إلى الغلام في دعة ورفق. قالت له : ما اسمك يا بني ؟ قال الغلام : خبّاب . قالت أمّ أنمار : خبّاب ابن مَنْ ؟ قال الغلام : خباب بن الأرتّ . ولكنه لم ينطق الراء كما ينطقها الصبية حين يكمل خَلْقهم وتستقيم ألسنتهم ، وإنما انحرف بها بين شيء الى اللام والياء. قالت أمّ أنمار : خباب بن الأرت ؟ من أي أحياء العرب أنت يا بني ؟ قال الغلام : أحياء العرب ! أحياء العرب ! لا أدري . قالت أمّ أنمار : أأعجميّ أنت ؟ قال الصبي : أعجمي ؟ أعجمي ! لا أدري. قالت أمّ أنمار : وما اسم أمك يا بني؟ هنالك انتحب الصبي حتى رقّ له قلب العجوز ، فكفّت عن سؤاله ، وجعلت ترفق به وتكفكف دمعه حتى ثاب اليه شيء من طمأنينة وهدوء ، ثم آوته الى مضجعه ، وما زالت تلطف

به حتى أسلمته الى النوم ، وقد أرجأت تعرُّف قصته الى غد او بعد غد .

وقد حاولت امّ انمار من الغد ومن بعد الغد ان تستوفي قصة الصبي ، فعرفت منه بعد لأي وبعد نحيب وشهيق ، وبعد رفق كثير به وعطف كثير عليه ، ان هؤلاء الرهط من بني عامر اصابوا اسرته على غرّة والحيّ خُلوفٌ ، فقاومهم ابوه ما استطاع ، ولكنهم قتلوه على أعين امرأته وابنته الفتاة أسماء وابنه هذا الصبي ، ثم استاقوا ماله وسَبَوْا أهله ، وباعوا أمّه في حي من أحياء العرب ، وباعوا أخته في حي آخر من أحياء العرب ، وأقبلوا به بمال أبيه ، فباعوا المال في غير جهد ، وكسد الصبي في أيديهم حتى اشترته امّ انمار. ومنذ ذلك الوقت لم تسرْ امّ انمار مع هذا الصبي سيرة السيدة مع العبد ، وإنما سارت معه سيرة الأمّ مع ابنها . ومضت الشهور والأعوام، وانسى الفتى او كاد ينسى انه غلام امّ انمار، واستيقن الفتى او كاد يستيقن انه ابنها واخو ابنها عبد العزّى . وشب وقد وطّن نفسه على انه تميمي حليف لبني زهرَة . ولما استطاع العمل اسلمته امّ انمار الى رجل قَيْنٍ تعلم عنده صناعة الحديد والسلاح ولم ينيّف على العشرين من عمره حتى كان قد كسب لأمه ولنفسه شيئاً من مال ، واشتغل بحانوت يتخذ فيه صناعة الحديد والسلاح .

وقد نشأ الغلام نشأة امثاله من هؤلاء الأخلاط الذين يُجلَبُون الى مكة او تُلقي آباءهم اليها الأقدار . نشأ غلاماً لا يحسّ ثقل الرق ، ولكنه لا يذوق حلاوة الحرية ، وإنما هو شيء بين ذلك ، ليس كامل الرق وليس كامل الحرية . يرى من حوله شيوخاً سادة وشباباً مترفين ؛ ويرى من حوله شيوخاً أذلّة مستضعفين وشباباً تطمح نفوسهم وتقصر ايديهم وهممهم واسبابهم عن بلوغ ما يطمحون اليه . وقد استقر في نفوس الشيوخ المستضعفين إذعانٌ للقدر واستسلام للقضاء، واظهروا لسادتهم الإكبار واضمروا لهم البغض والشنآن . واستقر في نفوس الشباب الطامحين غيظ لا تُطفأ ناره ، وحسدٌ لا تُكسَرُ حدّته ، يرون انهم ليسوا اقل من الشباب المترفين ذكاء قلوب ، وجلاء عقول ونفاذ بصائر ، ولكنهم اقل منهم مالاً واضعف منهم قوة واقصر منهم يداً ، قد امسكتهم الحياة في حال لا تلائمهم ولا يلائمونها ، وحيل بينهم وبين الرقي الى خير منها ، وقُضي عليهم ان يظلوا اتباعاً ، يحيون اتباعاً ويموتون اتباعاً ، لا امل لهم في سعة ولا في دعة ولا في مجد ولا في ارتقاء . فهم كالجياد المشدودة التي تعلكُ شكائمها ويكاد المرح والنشاط يُخرجها من جلودها . وكان هؤلاء الشباب إذا خلا بعضهم الى بعض تحدثوا في حالتهم تلك فنوناً من الأحاديث ، كانت تنتهي بهم دائماً الى الحسرة

الدفينة والغيظ المكظوم . كانوا يقلّبون وجوههم فيما حولهم من القرى الحاضرة ، ومن احياء العرب البادية ، فتنقطع بهم الآمال ويُرَدّون الى العجز واليأس . يرون ان الحياة في مكة خير ما يمكن ان يتاح لهم ولأمثالهم من ضروب العيش . في مكة الأمن والسلم ، والقوت يُكسبُ في غير مشقة شاقة ولا جهد عسير . وليس في مكة مغامرة بالنفس ولا بالمال . وفي مكة الموسم الذي يجلب اليها والى ما حولها قبائل العرب وتجارتها من كل فج . فالحياة فيها وادعة خصبة ، ولكنها على ذلك مُغلقة إلا على الذين يُتيح لهم الغنى والمولد وشرف النسب ان يفتحوا ابوابها ويخرجوا منها الى آفاق الأرض البعيدة ، ثم يعودون وقد ملأوا ايديهم بالمال ومتعوا انفسهم بالرحلة والتنقل في الاقطار . ولكن خباباً يلقى صديقاً له ذات يوم ، فلا يكاد يتحدث اليه ببعض ما كان يدور بينهما من حديث حتى يرى منه ازوراراً عن اليأس وانحرافاً عن الحزن وتعلقاً بأمل مشرق بعيد . يقول خباب لصاحبه : ما خَطْبُكَ ؟ إني لأرى من شأنك شيئاً لم اعهده ، وما انكرتُ من صديقي احداً كما انكرك منذ اليوم . فلا يجيبه صديقه بما تعوّد أن يُجيبه بمثله من رَجْع الحديث ، وإنما يتلو عليه : « اقرأ باسم ربّكَ الذي خَلَقَ . خَلَقَ الإنسَانَ منْ علقْ . اقرأ ورَبكَ الأكرمُ . الّذي علّم بالقَلَم . علّمَ الإنسانَ ما لم يعلمْ . كلا ، إنّ الإنسَانَ ليطغَى أنْ رَآهُ استغنَى . إنّ إلى ربّكَ الرُّجعَى » .

فلا يكاد خَباب يسمع هذا الكلام حتى تجري في بدنه رعدة تصطكّ لها أسنانه وركبتاه ، ويتركه صاحبه ساعة ، حتى اذا هدأت رعدته وثاب اليه أمنه واستقر جسمه ، قال لصاحبه : وَيْحَكَ ! أعدْ عليّ ما قلت ؛ فإني اجد له في قلبي حراً ولا يكاد عقلي يفهمه . ويعيد عليه صاحبه تلك الآيات مرة ومرة . واذا خباب يردّ على صاحبه فيتلو :

« كلا إنّ الإنسانَ ليطغَى أنْ رَآهُ استغنَى . إنّ إلى رَبكَ الرُّجعَى » . ما هذا القول ؟ انه ليس من عندك ، أين سمعته ؟ او ممن سمعته ؟ وهل لي الى ان اسمع مثله من سبيل ؟ قال صاحبه : نعم ! ان شئت فاصحبني الى الأمين ؛ فإنه يتلو علينا هذا القول الذي يتنزل عليه من السماء .

ويُقبل ابو جهل ذات صباح على نادي قومه في المسجد فيقول وهو يضحك ملء شدقيه ويضرب فخذه بيده : يا معشر قريش ؛ اغدُوا ان شئتم على منظر عَجب . انّ ابن الخاتنة قد صبأ ، وإنا محرقوه بالنار ، قبل ان ينتصف النهار .

اقبل مسعود بن غافل مع الحجيج من هُذَيْل ، فنزل في مكة على عَبد بن الحارث ابن زُهْرَة بن كلاب ، وكان بينهما صهر ، فأقام مسعودٌ عند أصهاره حتى انقضى الموسم . فلما همّ بالرجوع الى موطنه من أرض هذيل قال لمضيفه : ألستَ ترى أن عهدك بأرض هذيل بعيد ، وأن لك عندنا ابنة لها عليك بعض الحق ، وان لابنتك هذه ابنة ليس حقها عليك بأقل من حق أمها ؟ قال عبد بن الحارث : صدقت ، ان عهدي بأرض هذيل لبعيد ، وان لابنتيّ هاتين لحقاً عظيماً ، ولكنك تعلم ان تلك الحرب قد أفسدت ما بيننا وبين قيس من الأسباب . ومع ان تلك الحرب قد وضعت أوزارها وجعلت امورنا تستقيم قليلاً قليلاً ، فإن قريشاً لا تطرق نجداً إلا متحفظة محتاطة . قال مسعود : ماذا تقول ؟ إنكم معشر قريش اهل الحرم وحماة البيت ، يأمن فيكم الخائف ، ويأوي إليكم الضائع ، ويجد الملهوف عندكم معونة وغوثاً ؛ فما ينبغي ان تكون الأرض كلها الا حَرَماً لكم تأمنون فيه من خوف ولا تعدو عليكم فيه العاديات . قال عبد بن الحارث : قد يكون ذلك كما قلت ، ولكنك رايت قيساً تغزونا في ارضنا ، لا ترجو لبيتنا ولا لحرمنا وقاراً . فمن يؤمن قريشياً ان تغوله من قيس واحلافه غائلة ؟ قال مسعود وقد احفظه ما سمع : وانك انت لتقول ذلك ، ولك في هذيل صهر ، وتقول ذلك وابنتاك عندي ! قال عبد : وَصَلَتك رحمٌ ! فإني لا اخاف شيئاً في ارض هذيل ، ولا يخاف غيري شيئاً في ارض هذيل ، ولكننا لا نبلغ ارضكم حتى نمرّ بحي من احياء قيس او احلافها . قال مسعود : ويحك ! فإن شئت فاجعل بينك وبيني حلفاً يحميك من العاديات في كل ارض تصل إليها يد هذيل ، ويحميني من الغوائل في كل ارض تبلغها يد قريش . قال عبد : قد فعلت .

ولم يعد مسعود إلى ارض هذيل وحده ، وإنما ذهب معه إليها حليفه وذو صهره عبد بن الحارث بن زُهْرَة بن كلاب ، فزار عنده ابنته هند ، وقد مات عنها زوجها ابن عبد وُدّ ، وزار بنتها امّ عَبد ، وقبل طفلها الصغير عبد الله بن مسعود . واقام ما اقام في ارض هذيل ، ثم انحدر إلى مكة ، فلم يطل فيها مقامه حتى ادركه الموت ، ونشأ الصبي الهذليّ من قبل آبائه ، القرشي من قبل امه ، ارض هذيل نشأة امثاله من

اهل البادية . حياة ادنى إلى الشظف منها الى اللين، واقرب الى العسر منها الى اليسر. ولا يكاد الصبي يبلغ اول الشباب حتى يفقد اباه ، وحتى تضيق به سبل العيش في ارض نجد ، فيهبط مكة ليأوي الى اخواله من بني زُهْرَةَ ، ويقيم ما شاء الله ان يقيم عزيزاً بأخواله وبالحلف الذي كان بينهم وبين ابيه . ولم يكن الشباب من اهل مكة يألفون حياة البطالة والترف الا ان يكونوا من ابناء السادة والأغنياء ، وانما كان سبيل الفتى من اوساط الناس في قريش واحلافها اذا بلغ السن التي يستطيع ان يكسب فيها القوت ان يسعى على رزقه كما يستطيع ، لا يرى بذلك بأساً ولا يجد فيه جُناحاً . وانما البأس كل البأس والجناح كل الجناح ان يعيش الفتى كلاً على آبائه او اخواله .

وقد سعى عبد الله بن مسعود على رزقه، والتمس القوت من مصادره، فعرض نفسه على كثير من الناس ، وجرّب كثيراً من فنون العمل ؛ ولكن شيئاً واحداً راقه وأعجبه ولاءم طبيعته الهادئة ونفسه الراضية وقلبه المطمئن السليم ، فأصبح راعياً لعقبة بن ابي مُعيط ، يرعى عليه غُنيمات له في ظاهر مكة ، يغدو بها مع الصبح ويروح بها مع الليل ، وينفق نهاره معها راضياً وادعاً ، قد خلا الى نفسه ، فأمن غائلة الناس وامن الناس غوائله .

وانه لفي غنيماته تلك ذات يوم ، واذا رجلان يقفان عليه ، وقد ظهر على وجهيهما شيء من خوف اخذ يذهب شيئاً فشيئاً، فيستريح الرجلان ساعة مما ادركهما من الجهد، وكأنهما قد اضْطُرّا الى كثير من العدو امام قوم كانوا يَجِدّون في آثارهما . وينظر الفتى اليهما صامتاً لا يقول لهما شيئاً . وما الذي يعنيه من امرهما ، وهو إنما خلا الى غنيماته تلك ليصرف نفسه عن امر الناس ويصرف الناس عن امره ! ولكن احد الرجلين يسأله فيقول : يا غلام ، هل عندك من لبن تسقينا فإنّا ظماء ؟ قال الغلام : إني مؤتمن ، ولن اسقيكما . ولو كانت هذه الغنيمات لي لما بخلت عليكما بما ينقع الغلة ويبلّ الصدى . فينظر احد الرجلين الى صاحبه نظرة مطمئنة كأنه يقول له : لقد أصاب الغلام وآثر البر . ثم يحول الرجل نظره المطمئن الى الغلام ويقول : فهل عندك من جذعة لم ينزُ عليها الفحل ؟ قال الغلام : اما هذا فنعم . ثم يمضي غير بعيد ويعود ومعه شاة ، فيعتقلها الرجل ذو النظر المطمئن ثم يمسح على ضرعها ويدعو بكلام يسمعه الغلام ولا يعقله . وينظر الغلام فاذا للضرع قد حفل واذا الرجل الآخر يأتي صاحبه بصخرة متقعرة ، فيحلب فيها ويسقيه ، ثم يسقي الغلام ، ثم يشرب هو ، ثم يقول للضرع : اقلصْ . فيعود الضرع كعهده قبل ان تُعتقل الشاة.

هنالك يُبهت الفتى فينعقد لسانه فلا يقول شيئاً ، وإنما يقف واجماً ذاهلاً يردد طرفه الحائر بين الرجلين . ويظل الفتى كذلك ، وقد انصرف عنه الرجل ذو النظر المطمئن وصاحبه ومضيا مستأنيين لا ينظران اليه ولا يقولان له شيئاً . ولم يَدْرِ الفتى أطال وقوفه ذلك الحائر ام قصر ، ولم يدر الفتى ماذا صنع ولا فيم فكر بقية يومه ، وانما يرى نفسه حين تنصرف الشمس الى مغربها مجررة أذيالها تلك الشاحبة التي تتعلق بأعالي الربى ورؤوس الجبال ريثما تسحبها الشمس او يمحوها الليل — يرى نفسه في تلك الساعة رائحاً الى مكة وبين يديه غنيماته يهش عليها بعصاه دون ان يفكر او يحفل بها ، وقد امتلأت نفسه بخاطر يحسه ولا يتبينه . ثم يرى نفسه وقد آوى الغنيمات الى حظيرتها ، واقبل يسعى هادئاً مطمئن الخطو ذاهل النفس مع ذلك مُشرّد العقل يلتمس عُقبة بن ابي مُعيط ، فيراه قد جلس في صحن داره ومن حوله بنوه وبعض ذوي قرابته ، فيسعى الفتى حتى يقف منه غير بعيد ، ثم يقول : أي أبا الوليد ، أغْدِ مع غنيماتك غيري من رقيقك واحلافك ! فإني عن رعيها راغب منذ اليوم . قال عقبة : وَيْحكَ يا فتى هذيل ! ماذا انكرت منا او منها ؟ قال الفتى : لم انكر منكم ولا منها شيئاً ، ولكني رغبت عن رعي الغنم . ثم ولّى لا يسمع لما كان يقال له ، ولا يحفل بما كان يُظن به ، ولم يعد الى بيته ، وانما عاد الى ذلك المكان الذي كان يرعى فيه غُنيماته ، واستحضر في نفسه ذينك الرجلين يعروهما بعض الروع ويثوب اليهما الهدوء قليلاً قليلاً ، ويستسقيانه فيأبى عليهما . واستحضر في نفسه الشاة الجذَعة التي لا عهد لضرعها باللبن ، ثم رأى ضرعها يحفل ، ورأى اللبن يشخب منه في تلك الصخرة الجوفاء . ثم استحضر ذوق ذلك اللبن الذي شربه ، فلم يذكر انه شرب مثله قط . وحاول ان يذكر الكلام الذي دعا به الرجل ذو النظر المطمئن وهو يمسح ضرع الشاة فلم يذكر منه شيئاً ؛ فهاله ذلك ، ورابه من نفسه كلها ريب ؛ فلم يحرص قط على شيء حرصه على أن يحفظ ذلك الكلام ، وكان عهده بنفسه ألا يسمع شيئاً إلا استقرّ في قلبه كأنه نُقش فيه نقشاً . فيقول الفتى لنفسه : إن لهذا الرجل ذي النظر المطمئن وصاحبه وكلامه لشأناً . وقد طال مكث الفتى بهذا المكان ساكناً ساكتاً يدير طرْفه من حوله ، ثم يقلب طرفه في السماء لا يكاد يفكر في شيء ، او لا يكاد يحقق شيئاً مما يفكر فيه ، وإنما يرى في نفسه أول الأمر ، ثم من حوله بعد ذلك ، صورة الرجل المطمئن معتقلاً شاته تلك ماسحاً ضرعها متكلماً بذلك الكلام الذي سمعه ولم يعقله ، والذي يحاول أن يذكره فلا يجد الى ذكره سبيلاً .

وينصرف الفتى عن مكانه ذاك حين تقدّم الليل ، ولكنه لا يعود إلى مكة ، وإنما يهيم فيما حوله من الأرض مستأنساً إلى وحشته حريصاً على وحدته ، لا يحس جهداً ولا تعباً ولا حاجة إلى النوم ، ولا يحس ظمأ ولا جوعاً ، وإنما يجد في فمه ذوق اللبن ، ويرى في عينه صورة ذلك الرجل المطمئن الوادع ، ويسمع في أذنيه صوت ذلك الرجل ممتلئاً عذباً يجري بكلامه ذاك الذي لا يذكره كما يجري الينبوع الرقيق الصافي بالعذب الزّلال . وأنفق الفتى ليلته تلك لم يظلّه سقف ولم يؤوه مضجع . حتى اذا تجلت شمس النهار عاد إلى مكة حين يغدو منها الرعيان . ولم يستقر قراره حتى عرف ذلك الرجل المطمئن وصاحبه ومكانهما ، فيسعى حتى يجد محمداً رسول الله . فاذا دنا منه ألقى النبي إليه نظرة مطمئنة ، وابتسم له ، والفتى يدنو منه حتى يبلغه ، ثم يجلس بين يديه ، ثم يقول له في صوت رقيق يضطرب اضطراباً خفياً : علمني من هذا الكلام الذي سمعته منك أمس . قال النبي مبتسماً له : إنكَ غلامٌ مُعلَّمٌ . ومنذ ذلك الوقت استقر في نفس الفتى أنه لم يُخلق لنفسه ولا لأهله ولا لغنيمات عقبة بن أبي معيط ، وإنما خُلق ليلزم محمداً هذا الأمين ، فيسمع منه ويحفظ عنه ويدعو بدعوته.

وكان الفتى خفيفاً نحيفاً دقيق الجسم سريع الحركة عظيم النشاط . فلم يكد يلزم رسول الله أياماً ويسمع منه ويحفظ ما قال حتى رأته قريش في أنحاء مكة متنقلاً يذكر محمداً وكلامه يذيعه في كل وجه ، ويُفشيه في كل مجلس ، ويتحدث به في كل مكان . وكان لخفته وسرعته مصدر عناء لقريش ، تراه في هذا المكان فلا تكاد تَهمّ به حتى تنظر فإذا هو قد استخفى وانتقل الى مكان آخر ، لا يدرون كيف انتقل إليه . فكان المتتبعون للنبي وأصحابه يرون هذا الفتى في كل مكان ولا يكادون يظفرون به مع ذلك في أي مكان ! حتى إذا قال أبو جهل ذات يوم : ما ضقت بأحد من أصحاب محمد كما أضيق بهذ الفتى الهذليّ ، أراه في كل وجه مذيعاً دعوة محمد مفسداً بها قلوب الناس ، ولا أجد لي عليه سبيلاً . ولو قد ظفرت به لما أبقيت عليه . قال عُتبة بن أبي ربيعة : مهلاً أبا الحكم ، لا تبطش بهذا الفتى الهذليّ ، فإن زَهرة لن تُسلمه ، وإنك إن تنله بسوء تؤلب هذيلاً كلها على قريش وتقطع عليها طريقاً لا تحرص على شيء كما تحرص على أمنه وسلمه . قال أبو جهل : هو ذاك ، ولكن أقسم مع ذلك لأذيقنّ هذا الفتى بعض ما يكره إن قدرت عليه . ولم يقدر عليه أبو جهل إلا بآخرة حين أذن النبي لأصحابه في الهجرة الى أرض الحبشة . مر أبو جهل ذات يوم غير بعيد من المسجد ، فرأى رهطاً من الناس قد تحلّقوا حول رجل

ضئيل نحيل ، وخيل اليه من بعيد أنه يقول لهم وأنهم يسمعون له ؛ فاستأنى ابو جهل في مشيته ، وضاءل من شخصه ، وتمسح بالجدران ، ومضى كذلك مستخفياً أو كالمستخفي ، حتى فجأ القوم ، فوقف منهم غير بعيد ، يراهم ولا يرونه ، وتسمّع لصوت ذلك الرجل الضئيل النحيل ، فاذا صوتٌ عذب يتلو كلاماً عذباً ، فيصغي أبوجهل بنفسه كلها ليسمع ما يجري به هذا الصوت العذب من هذا الكلام العذب، وإذا ابن مسعود يتلو على من حوله هذه الآيات الروائع من سورة الفرقان : « وَعباد الرَّحمن الذين يَمشونَ عَلى الأرْض هَوْناً وَإذا خَاطبهم الجاهلونَ قَالُوا سَلاَماً . والذين يبيتونَ لِرَبّهم سُجّداً وقياماً . والذين يَقُولونَ ربّنا اصرف عَنا عذاب جَهنمَ إن عذابها كان غراماً ، إنّها ساءَت مستقرّاً ومقاما . والذين إذا أنفقوا لم يُسرِفوا ولم يَقتروا وَكانَ بَينَ ذلكَ قواماً . والذين لا يَدْعُونَ معَ الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفسَ التي حرمَ الله إلا بالحقّ ولا يزنون ومن يفعلْ ذلك يَلقَ أثاماً. يضاعف لهُ العذَاب يوْمَ القيامة ويَخْلُدْ فيهِ مهاناً . الا منْ تاب وآمنَ وعَمل عملاً صَالحاً فأولئك يُبدّل الله سَيئاتهمْ حَسنات وكانَ اللهُ غفوراً رَحيماً . ومَنْ تَابَ وعَملَ صَالحاً فإنّه يَتوبُ إلى الله متاباً. والذينَ لا يَشهدونَ الزُّورَ واذا مرُّوا باللغو مرّوا كِرَاماً ... » .

وكان أبو جهل يسمع لهذا الذكر فيخفق له قلبه وتخشع له نفسه ، ولو قد أرسل طبعه على سجيته لقال كما سمع بعض أولئك الرهط ، يقول لعبد الله بن مسعود في صوت تحتبس فيه الزفرات : إني والله لأُحبّ أن أكون من هؤلاء . ولكن أبا جهل لا يُرسل طبعه على سجيته ، وإنما يدعو حسدَه وكبرياءه وأنفته ، ثم ينصب على أولئك الرهط كما ينصبّ الصقر على فريسته وهو يصيح : بؤساً لكم من رهط سَوء ! ما رأيت كاليوم جراءة . انكم لتجتمعون حول هذا الرجل وتستمعون له ، وليست أندية قريش منكم ببعيد . فما يمنعكم أن تقتحموا علينا المسجد وأن تتحلقوا فيه ! ولم يكد أولئك الرهط يرون ذلك الشخص البشع ، ويسمعون ذلك الصوت المنكر حتى تفرقوا سراعاً . وظل ابن مسعود قائماً مكانه لا يَريم. فيدنو منه أبو جهل مغضباً وهو يقول: ويلك يا ابن أمّ عبد ! ما تزال تفسد علينا أحلافنا ورقيقنا ،وما أراك منتهياً حتى تصيبك مني بائقة. وهمّ ابن مسعود أن يرد عليه مقالته، ولكن أبا جهل لا يمهله، وإنما يعلوه بالقوس فيشجه . وقد أخذ الدم يتحدرّ على وجهه ، ولكنه لم يحفل بذلك ، وإنما يسرع في خفة إلى أبي جهل وهو يقول : فأما إذا فعلت ما فعلت فخذها وأنا

فتى هذيل ! ثم يدفع في صدر أبي جهل بإحدى يـديه ويلطم وجهه بيده الأخرى ، ثم ينصرف عنه مستأنياً متمهلاً ، ويتركه قائماً واجماً قد أخذه الذهول ، لم يكن يُقدّر أن حليفاً من أحلاف قريش يستطيع أن يدفع في صدره ويلطم حُرّ وجهه . ثم تثوب إلى أبي جهل نفسه فيصيح بابن مسعود: لن تُفلت بها يا راعي الغنم . قال ابن مسعود: ولن تُفلت بما فعلت يا عدوّ الله .

ويمضي كلا الرجلين إلى أصحابه . فأما ابن مسعود فيلقى رهطاً من أصحاب النبي، فيقول لهم وعلى ثغره ابتسامة وفي عينيه دمعتان تترقرقان : لا مُقامَ لي بمكة منـذ اليوم ، فقد لطمت وجه أبي جهل . والله إني بالهجرة لفـرح ، وإني بها لمحزون : فيها ثواب الله ومغفرته ، وفيها فراق رسول الله دهراً لا أدري ايقصر أم يطول . وأمـا ابو جهل فيعود إلى نادي قومه وقد انكسرت نفسه واستخذى ضميره. ولكنه على ذلك يُظهر الغضب والكبرياء ويقول لأهل ناديه : ويحكم يا بني مخزوم ! إن كانت لـكم بقية من عزة فأمكنوني من ابن ام عبد ، فإنه قد أتى إليّ ذنباً لا يغسله إلا دمه . ويلتمس القوم عبدالله بن مسعود في مكة وما حولها فلا يظفرون به ولا يقـدرون عليه ولا يرى ابو جهل خصمَه إلا يوم بدر .

-١٢-

أقبل سلاّم بن جبير القُرَظي من الشام ، كعهده في كل عام ، بتجارة عظيمة فيها فنون من العروض وضروب من المتاع ، بعضه مما تخرج الشام ، وبعضه مما يصنع اهل الجزيرة ، وبعضه مما تحمله الروم الى دمشق وَ بُصرَى وتبيعه من قوافل العرب واليهود ليحملوه إلى الأرض البعيدة التي لا تصل إليها يد قيصر ولا يبلغها سلطانه في نجـد والحجاز وفي تهامة واليمن. ولم يكد سلاّم بن جبير يستقر في بني قُرَيظة ويريح نفسه من سفر شاق طويل ، حتى عرض متاعه ذاك المختلف للناس ، فأقبل عليه اهل يثرب من الأوس والخزرج ، وأقبل عليه مَنْ حول يثرب من يهود ينظرون ويشترون . ولم تمض ايام حتى كان سلاّم بن جبير قد باع تجارته وأفاد منها مالاً كثيراً . ولولا هـذا الصبي الذي عرضه سلام على العرب فرغبوا عنـه ، وعلى اليهود فزهدوا فيه ، لرضيت نفس سلام كل الرضا ، ولأنفق الأشهر المقبلة مطمئناً مغتبطاً مجوّلاً في احيـاء يثرب

مرسلاً رقيقه واحلافه فيا حول يثرب على احيـاء العرب واليهود وفي اعماق البادية ، يجلبون له من المتاع الذي يحمله إلى الشام متى اقبل فصل الرحلة إلى الشام . ولكن هذا الصبي كان غُصّة في حلقه وحسرة في قلبه ، قد اشتراه في بُصرى من بعض الكلبيين بثمن بخس زهيد ، وقدّر في نفسه انه سيبيعه من بعض اهل يثرب فيربح في ثمنه ذاك الذي اداه مثليه او امثاله . ولكن اهل يثرب من العرب واليهود لم يعهدوا سَلاّماً جالباً الرقيق او مُتّجراً فيه . فلما رأوه يعرض عليهم هـذا الصبي ويلح في عرضه ويرغّب في شرائه انكروا منه ذلك وظنوا به الظنون . وقـال قائلهم : إنما اشترى سلاّم هذا الغلام لنفسه ، فلا نأمن ان يكون قد رأى فيه من العيب او الآفة ما زهّده فيه ، فهو يبيعنا ما ليس له فيه اربٌ . وكان الصبي بادي السقم ظاهر الضر ، كأنه لقي من الذين اتّجروا فيه شرّاً ونُكراً . ولم يكن يُحسن العربية ، بل لم يكن يستطيع ان يُفصح عن ذات نفسه . ولم يكن يُحسن الرومية بل لم يكن ينطق منها حرفاً ، وإنما كان اذا كلمه سيده او غير سيده من الناس التوى لسانه بألفاظ فارسية لا يفهمها عنه احد . وكان سَلاّم يزعم للناس ان هـــذا الصبي ذكيّ الفؤاد صنّاعُ اليد موفور النشاط اذا صلحت حاله ووجد من الطعام ما يقيم اوده . وكان يزعم لهم انه سليل اسرة فارسية شريفة اقبلت من إصْطـخرا حتى استقرت في الأبُلّة ، فملكت ارضاً واسعة وزارعت فيها النبط ، وملكت تجارة عريضة كانت تُصرّفها في اطراف العراق . فاذا سئل من انباء هـذه الأسرة عن اكثر من ذلك لم يحِرْ جواباً ، وإنمـــا يقول : زعم لي من باعني هذا الصبي ان العرب اختطفوه حين اغاروا مع الروم على الأبلة ، فباعوه من بني كلب ، وتعرّض به بنو كلب في بصْرَى يريدون ان يبيعوه لبعض تجار العرب او اليهود . وقد رأيته فرقّ له قلبي ومالت إليه نفسي ، وقدّرت ان سيكون له شأن اي شأن ، فاشتريته فيما اشتريت من المتاع والعروض .

هنالك كان الناس يقولون له : فلم لا تُمسكه عليك اذن ؟ فيقول : ان ما انفقت من المال فيه أحب اليّ وآثر عندي منه . وماذا اصنع بصبي لا احسن القيام عليه ولا يُحسن هو ان يقوم على نفسه ، وليس لي اهـــل اكله اليهم ؟ والصبي مع ذلك ذكي القلب صناع اليد موفور النشاط ان صلحت حاله واصاب من الطعام ما يقيم اوده . انظروا الى عينيه كيف تدوران ولا تكادان تستقران على شيء . انه سريع الحس يخطف ما يرى دون ان يُثبته وانظروا اليهما كيف تتوقدان كأنهما جَذْوتان . ولكن

الناس كانوا يسمعون ويضحكون وينصرفون ويتركون سلاماً وفي قلبه حسرة على ما انفق من مال وعلى ما كان يرجو من ربح . وتمر ثبيتة بنت يعار الأوسية بسلام ذات ضحى وهو يعرض صبيه هذا في بعض اسواق يثرب ، فلا تكاد تنظر الى الصبي حتى ترحمه ، ثم لا تكاد تطيل النظر اليه حتى تقع في قلبها الرغبة في شرائه . قالت ثبيتة : ما اسم صبيك هذا يا ابن جبير ؟ قال سلام : زعم من باعه لي من بني كلب ان اسمه سالم . قالت : سالم ابن من ؟ قال سلام : لا ادري ، ولكني اشتريته من كلبي يسمى معقلا . وزعم لي ان اسرته اسرة شريفة اقبلت ... قالت ثبيتة : اقبلت من اصطخر فنزلت الأبلة وزارعت النبط وصرفت تجارتها في اطراف العراق . قد حفظنا ذلك عن ظهر قلب، فإني له مشترية، فبكم تبيعه مني ؟ قال سلام وقد ابتسم قلبه ورضيت نفسه ولكنه استبقى في وجهه الجد والحزم : فإني لا اريد الا ما اديت من ثمن وما انفقت عليه منذ اشتريته . وتتصل المساومة بينها وبينه ، وتعود الى دارها بالصبي وقد ربح اليهودي فأحسن الربح ، وربحت هي بشراء هذا الصبي ربحاً لا يقوم بالدراهم ولا بالدنانير .

ذلك انها لم تشتره متجرة ولا مبتغية كسباً ، وإنما آثرت بشرائه الخير والبر والمعروف ، لم ترد إلى شيء آخر . وكانت تقول لنفسها في نفسها وهي عائدة بالصبي إلى دارها : بعداً لهذه الحياة التي لا يرحم الإنسان فيها الانسان، ولا يرأف القوي فيها بالضعيف ، ولا ترق فيها القلوب للأم حين تفقد صبيها ، وللصبي حين ينشأ لا يعرف لنفسه أماً ولا أباً ولا فصيلة يأوي اليها ؛ وكانت تقول لنفسها وهي عائدة بالصبي إلى دارها : لو ان لي صبياً مثله فعدا عليه العادون ومضوا به في غير مذهب من الأرض كيف كنت ألقى ذلك! وكيف كنت أحتمله أو أصبر عليه او هل كنت أسلو عن صبيي آخر الدهر ! هيهات ! لو كان لي صبي مثله وعدا عليه العادون وذهبوا به في غير مذهب من الارض لذكرته مصبحة وممسية ، ولذكرته يقظى ونائمة ، ولتبعته نفسي وذهبت في تصور حاله المذاهب، ولما اطمأننت للعيش ولا نعمت بالحياة ولا استمتعت بطيبات هذه الدنيا . وكانت ترى أم الصبي وقد انتزع منها ابنها وهي تشهد إنتزاعه ، أو اختطف ابنها وهي لا ترى اختطافه ، وكانت ترى تولّه تلك الام وتفجعها وحسرتها التي لا تخمد ولوعتها التي لا تغيض . وكانت تقول لنفسها في نفسها وهي عائدة بالصبي إلى دارها : هذا غلام قد اختطف من ملك كسرى ، لم يستطع جند كسرى أن يحموه ولا أن يردّوا عنه العاديات ، فكيف بنا نحن في يثرب ، هذه

المدينة الخائفة التي يحيط بها اليهود والأعراب من جميع أقطارها ، والتي يسل بعض أهلها السيف على بعض ، ولا يأمن أهلها أن تدور عليهم دائرة ، أو تنوبهم نائبة ، أو يلمّ بهم خطبٌ من الخطوب ؟ فلما بلغت الدار واستقرت فيها ، وَعُنِيَتْ بالصبي حتى أمن بعد خوف وأنس بعد وحشة وطعم بعد جوع ، قالت لنفسها في نفسها : هيهات أن أتخذ الأزواج أو أن يكون لي من الولد من يصيبه مثل ما أصاب هذا الصبي ، ومن أذوق فيه من الحزن والثكل مثل ما ذاقت في هذا الصبي أمُّه تلك الفارسية ونساء أمثالها كثير . ولو استجابت الحياة لثبيتة لأنفقت أيامها معنية بهذا الصبي الفارسي ، ولاتخذته لنفسها ولداً أو شيئاً يشبه الولد . ولكن الناس يقدّرون ويدبرون ، والأيام تجري على غير ما قدّروا ودبروا .

فقد عُنيت ثُبيتة بسالم حتى ربا جسمه ونما عقله وأصبح غلاماً ذكي القلب سريع الحس حديد اللسان كما قدّر اليهودي ، أو أكثر مما قدر . وكانت ثُبيتة له محبة وبه مغتبطة وعنه راضية . وقد خطبها الرجال من الأوس والخزرج ومن أشراف البادية حول يثرب ، فامتنعت عليهم ، واعتلت على آهلها في ذلك حتى أعيتهم . ولكن وفد قريش يمرون بيثرب مُنصرَفهم من الشام ذات عام ، فيمكثون فيها أياماً ويسمع أبو حذيفة هُشَيم بن عُتبة بن ربيعة بحديث ثبيتة هذه وقصة غلامها ذاك ، فيعجبه ما يسمع ، ثم يحب أن يستزيد من أخبارها فيُلمّ بقومها ويقول لهم ويسمع منهم ، فتقع ثبيتة من نفسه موقعاً حسناً ، مع أنه لم يرها ولم يسمع لها ، وإنما سمع عنها فرضي . وإذا هو يخطب هذه الفتاة الأبية ، فتمتنع عليه أول الأمر حتى إذا علمت بمكانه من قريش وبأنه من أشرافها وذوي المنزلة الرفيعة فيها ، وبأنه من أصحاب البيت واهل الحرم الذي رُدَّ عنه اصحاب الفيل ، والذي لا يعدو عليه إلا الفجرةُ الآثمون، شكت يوماً ويوماً ، ثم اصبحت مستجيبة لخطبة هذا المكي.
ويعود أبو حذيفة بأهله وبسالم إلى مكة في وفد قريش ؛ فلا يكاد يستقر فيها حتى ينكر من امرها بعض الشيء . لقد اصبح فعدا على اندية قريش ، ثم امسى فراح الى اندية قريش ، ولكنه يعرف من أمر هذه الأندية كثيراً ، وينكر من امرها كثيراً . تريد نفسه ان تطمئن وان تأمن وان ترضى ، كما تعودت من قبل ، ولكنها لا تجد إلى الطمأنينة ولا إلى الأمن ولا الى الرضى سبيلاً . يحس أبو حذيفة كأن شيئاً ينقص هذه الأندية ، وكأن حدثاً قد حدث في مكة لا يدري ايسيرٌ هو ام خطير ، ولكن شيئاً قد حدث فتغيّر من أمر قومه تغييراً يحسه ولا يحققه . ثم يتلمس بعض صديقه في

أندية قريش فلا يجدهم . يسأل أين عثمان بن عفان الأموي ؟ وأين طلحة بن عبيد الله التيمي ؟ وأين فلان وفلان من ذوي مودته ؟ فلا يجيبه قومه بالتصريح ، وإنما يُؤثرُ بعضهم الصمت ، ويذهب بعضهم مذهب التورية ، ويلوي بعضهم ألسنتهم بأحاديث لا تُفصح ولا تُبين . ويرى أبو حذيفة ويسمع ، فيبعد الأمد بينه وبين الطمأنينة والأمن والرضا . ثم يصبح ذات يوم وقد انجلت له بصيرته ، ووضح له وجهُ الحزم من أمره . إن صديقه اولئك بمكة لم يفارقوها ولم يبرحوا أرض الحرم ، فما باله يسأل عنهم ولا يُلمّ بهم ؛ ولا يكاد هذا الخاطر يخطر له حتى يقصد قصْدَ فلان او فلان من أولئك الصديق .

وقد ألمّ بعثمان بن عفانَ وكان له خليلاً على ما كان بينهما من تفاوت في السن . كان عثمان قد تخطّى الأربعين او كاد ، وكان ابو حذيفة لم يبلغ الثلاثين بعدُ ، ولكن الود كان بينهما قديماً متيناً ، زادته الصحبة في الأسفار قوة وأيداً . فلما بلغ ابو حذيفة دار عثمان ودخل عليه تلقاه صديقه بما تعود أن يتلقاه به من البشر والبشاشة ومن الرفق واللين . ولكن أبا حذيفة آنس من صديقه على ذلك كله شيئاً من تحفظ واحتشام . قال ابو حذيفة : لقد التمستك أبا عمرو في أندية قريش منذ عاد الوفد الى مكة فلم أجدك ، فما عسى أن يكون قد حبسك عن قومك ؟ قال عثمان : لم أنشطْ لهذه الأندية ولا لما يدور فيها من حديث . قال أبو حذيفة : فهل أنكرت من قومك شيئاً ؟ وهنا سكت عثمان ولم يُجب . فأعاد عليه ابو حذيفة مقالته ، فأمعن عثمان في الصمت . قال ابو حذيفة : إن لك أبا عمرو لشأناً ولا واللاتّ والعزّى . ولكن عثمان لم يكد يسمع قَسمه هذا حتى لوى وجهه عنه . وينظر ابو حذيفة فإذا وجه صاحبه قد اربْدّ وظهر فيه غضبٌ لم يألفه منه قط . قال ابو حذيفة : وَيْحك أبا عمرو ! إنك لتعرف ما بينك وبيني من الود ، وإنك لي لخليل وفيّ أمين . فأظْهِرني على ذات نفسك . قال عثمان في وداع لين : فإن شئت أن تستبقي ما بيننا من الود فلا تذكر اللات والعزّى وهذه الآلهة التي لا تغني عنكم شيئاً . هنالك وجم ابو حذيفة وجمة قصيرة ، ثم قال : ويحك أبا عمرو ! فإنك إذن قد صبؤت ؟ قال عثمان في صوت أشد دعة واعظم ليناً : لم أصبؤ أبا حذيفة ، وإنما اهتديت : إنك فتى حازم رشيد لم تتقدم بك السن بعد ، ولكن رأيت الدنيا وطوّفت في اقطار الأرض وبلوت اخبار الناس وجرّبت الأحداث والخطوب ، أفترى من الرشد أن يؤمن مثلك ومثلي لأنصاب من خشب وصخر صوّرها الناس

بأيديهم ، ويستطيع من شاء منهم أن يجعلها جُذاذاً ؟ قال أبو حذيفة : ما أراك أبا عمرو إلا رشيداً ، ولكني لم أفكر في هذه الأشياء قط ، وإنما وجدت قومنا يعبدون هذه الأنصاب فصنعت صنيعهم . قال عثمان : وإذا أسفر الهدى وحصحص الحق ؟ قال أبو حذيفة : فقد وجب علينا أن نهتدي ونتّبع الحق، متى تستصحبني إلى محمد؟ قال عثمان : الآن إن شئت .

وأمسى أبو حذيفة مسلماً ، ودخل بإسلامه على ثُبيتة ؛ فلم تكد تسمع له حتى آمنت بمحمد وما جاء به . وسمع الغلام سالم حديثهما فمالت اليه نفسه ، واذا هو يؤمن كما آمنا . ولم يتقدّم الليل حتى زادت بيوت الاسلام في مكة بيتاً .

وتمضي أيام قليلة واذا ثبيتة تعلم أن محمداً يدعو الى إعتاق الرقيق ، ويعد الذين يفكّون الرقاب مغفرة من الله ورحمة ورضواناً . فتدعو اليها غلامها ذاك الفارسي وتقول له : اذهب سالم فاني قد سيبتك لله عزّ وجلّ ، فوال من شئت . قال سالم لأبي حذيفة : فهل لك في أن تكون لي وليّاً ؟ قال أبو حذيفة : هيهات الن أتخذك مولى ، وإنما أنت ابن لي منذ اليوم .

- ١٣ -

دخل عبدالله بن سُهَيل بن عمرو على أخته سَهْلة بنت سُهيل زائراً عند زوجها أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، فرأى منها إقبالاً عليه أكثر مما تعوّد ان يرى منها منذ حين ، ووقع ذلك من نفسه موقعاً حسناً، فجعل يحدث اخته بما شاء من أحاديث قومه يريد ان يسرها ويفكهها : يعبث بالشيوخ وذوي الأسنان من قريش طوراً ، ويتندر بمرح الشباب من قريش طوراً آخر ، وأخته تسمع له فتضحك وتعجب، وتهمّ ان تشاركه في بعض حديثه وأن تذكر معه أيام الصبا ، ولكنها لا تلبث ان تكفّ نفسها عن ذلك وأن تؤثر الصمت ، وتدعوه الى ان يقول . وقد لاحظ عبد الله أن أخته على نشاطها له وإقبالها عليه ربما عرض لها شيء من ذهول بين حين وحين ، كأنما كانت تغيب عنه ثم تثوب اليه .

وقد أنكر الفتى من أخته نشاطها وذهولها جميعاً ، ولكنه أسرّ ذلك في نفسه ولم يبده لها ، ومضى فيما كان يسوق من حديث ضاحكاً مضحكاً ، حتى اذا أنفق معها

ساعة غير قصيرة همَّ ان ينصرف . وقامت اخته تريد ان تسعى معه مشيعة الى فناء الدار . ولكن عبدالله ينحني على اخته ، يريد ان يضمها اليه ، وان يقبلها . فتذعرَ سهلة وتتراجع شيئاً . وينظر اليها عبدالله في شيء من حيرة ودهش . وتنظر هي الى عبدالله في دهش وحيرة . ثم يعود عبدالله الى مكانه فيجلس . وتظل سهلة قائمة واجمة كأنها لا تدري ماذا تصنع ولا تعرف كيف تقول . قال عبدالله بعد هنيهة : ان امرك لعجيب منذ اليوم يا سهلة . أليس قد ازمعتم الهجرة منذ غد ؟ قالت سهلة وقد ظهر عليها الروع : أي هجرة ؟ هنالك اغرق عبـــدالله في الضحك ، ثم قال : ما رأيت كاليوم فتاة غرة تريد ان تمكر بأخيها . إن هجرة اصحاب محمـــد الى ارض الحبشة ليست سراً مكتوماً . وانما هو حديث الناس في مجالسهم وحديث الملأ من قريش في انديتهم . وان قريشاً لو شاءت لأخذت على اصحاب محمد طرق هجرتهم ، ولكنها لا تشاء .ولعلها لا تكره هذه الهجرة . فقد جعلت قريش تسأم محمداً واصحابه ،وتسأم الكيد لهم والمكر بهم والإلحاح على المستضعفين منهم بالفتنة والعذاب . وقد فرحت قريش بهجرتهم هذه ، وقال الملأ منهـا شرٌ يُصرفُ عنا وراحة تهدى الينا . وان أعين قريش ليقظة ساهرة على محمد ونفر من اصحابه ؛ فهؤلاء رهائن قريش لا تُخلي بينهم وبين الطريق ان ارادوا أن يدفعوا انفسهم الى الطريق . فأمـا المستضعفون واشباه المستضعفين فليس لقريش فيهم أرَب .

وكانت سهلة تسمع لهذا الحديث وآيات الروع والحزن والرضا تختلف على وجهها ، وهي مع ذلك قائمة تسمع من اخيها ولا ترد عليـه جواباً . قال عبدالله : وقد ظننت إذن وظن زوجك ان قريشاً عنكما غافلة . هيهات ! ان عُتبةَ والوليد بن عتبةليعلمان من امر ابي حذيفة مثل ما يعلم سهيل وعبدالله من امر سهـــلة ؛ وان قريشاً لتعلم من امركما مثل ما يعلم ابواكما ، ولكن قريشاً لا تحبسكما لأن لهـا في ابويكما واخويكما أرباً . ولكننا نحن لا نحبسكما ايضاً ؛ لأنا نؤثركما بالحب في اعمـاق نفوسنا ودخائل قلوبنا ، ونكره لكما حياة التستر والاستخفاء هـــذه التي تحتملانها في مشقة ايمشقة وعناء أي عناء ، ولا نضيق .أن تجدا في هجرتكما هذه امناً بعد خوف وفرحاً بعـد حرج . ولولا ان تقول قريش، ضَعُفَ سهيل فلم يُطق على فراق ابنته صبراً لما زرتك الآن وحدي ولزارك أبوك فنظر اليك قبل فراق ليس يدري ولست تدرين أيطول ام يقصر ، ولكنه يرى كما انك ترين اوله ، ولا يعرف كما انك لا تعرفين آخره . وليس يعنيني ما تقول قريش فيّ ، وعسى ان اجد في مقت قريش لي رضا وفي استخفافها بي

حبوراً . اسمعت الآن عني ؟ قالت سهلة : الم تر انك منذ دخلت عليّ إنما تتحدث وحدك وانا اسمع ولا أرد عليك ؟! قال عبدالله : بلى ! وهذا بعض ما أثار في نفسي ما ترين من العجب . ولكني لم افهم هذا الذعر الذي اشتمل عليك حين اردت ان اضمك وان اقبلك مُرِدّعاً . قالت سهلة ولم تستطع أن تمنع ابتسامة حلوة ارتسمت على ثغرها وضحكة عذبة جرت في صوتها : فانك مشرك وما احب مس المشركين . قال عبدالله وقد ظهر في وجهه الحزم : أوقد بلغ بكم حب محمد والاستجابة لدينه أن تصدوا عن اخوانكم ؟ قالت سهلة وقد زالت ابتسامتها عن ثغرها وجرى في صوتها حزم صارم لم يثبت له قلب الفتى وإنما اتصل خفقانه : لو قد احببت محمداً واستجبت لدينه لعرفت ان الصد عن الإخوان والآباء في سبيله ليس شيئاً . تعلَّم يا أخي انا نحب الله ورسوله اكثر مما نحب آباءنا وامهاتنا واخواننا ، واكثر مما نحب الدنيا كلها وما فيها من كل شيء ، واكثر مما نحب انفسنا . ولقد حدثني آنفاً بأن قريشاً راضية عن هجرتنا ، فتعلم أنا نحن كنا عنها راضين. ولولا ان أذن لنا فيها محمد ودعانا اليها لآثرنا الفتنة والعذاب والموت قريباً منه على الدعة والسعة والراحة والروح والأمن والرضا بعيداً عنه في أي قطر من اقطار الارض. قال عبدالله وقد اطرق مفكراً: هو ذاك إذن! محمد أحب اليكم من آبائكم وامهاتكم واخوانكم ومن الدنيا كلها ومما فيها ومن كل شيء ! ومحمد أحب اليكم من أنفسكم! قالت سهلة : ولو قد أحببت محمداً كما نحبه لعرف قلبك الحب الذي يُعطي ولا يريد أن يأخذ ، والذي لا يبتغي لنفسه ثمناً من لذة الجسم او نعيم النفس . ويدخل أبو حذيفة فيرى عبدالله مطرقاً مغرقاً في التفكير ، ويرى امرأته سهلة قائمة تنظر اليه نظرات حازمة قوية، ولكن فيها شيئاً من أمل وشيئاً من حنان . فينظر ابو حذيفة الى امرأته ثم ينظر الى عبدالله ثم يقول في صوت عميق : هل تنبئينني يا سهلة بأن الله قد أنزل السكينة على قلب أخيك ؟ وَهمت سهلة ان تجيب ، ولكن عبد الله يرفع رأسه ويسبق أخته الى الحديث فيقول : السكينة ! السكينة ! ... ما عسى أن تكون هذه السكينة ؟ ان لكم لألفاظاً تديرونها في أفواهكم وتقرعون بها آذاننا ، ولكنا لا نحصّل لها معنى . هذه تزعم أنكم تحبون محمداً اكثر مما تحبون آباءكم واخوانكم وانفسكم ، وأنت تسألها هل أنزل الله على قلبي السكينة . ما عسى أن تكون هذه السكينة ؟ وما عسى أن يكون محمد قد صنع بقلوبكم حتى استأثر بها من دون آبائكم واخوانكم وانفسكم؟ قال ابو حذيفة في صوت رفيق: لم يصنع محمد بقلوبنا إلا أنه نقاها من الغيّ ، وجلاها من الضلال ، واستنزل عليها السكينة التي ملأتها أمناً

ورضا وثقة وأملاً وحالت بينها وبين الخوف والشك والقنوط . ثم يتلو قول الله عز وجل : « إنَّ الذينَ لا يَرْجونَ لقاءَنا ورَضُوا بالحياة الدُّنيا واطْمأنُّوا بها والذينَ هُمْ عَنْ آياتنا غافلونَ . أولئكَ مأواهُمُ النارُ بما كانُوا يَكسِبونَ » . ولا يكاد الفتى يسمع هاتين الآيتين حتى تأخذه رِعْدَةٌ عنيفة وينفصَّد جبينه عرقاً . ويمضي ابو حذيفة في تلاوته فيقرأ : « إنَّ الذينَ آمنوا وَعَملوا الصالحاتِ يَهديهِمْ رَبُّهم بإيمانِهم تَجري مِنْ تَحتِهمُ الأنهارُ في جنات النعيم . دَعْوَاهُمْ فيها سُبحانَكَ اللهمَّ وتَحيتُهمْ فيها سَلامٌ وآخرُ دَعواهُمْ أنِ الحمد لله ربِّ العالمينَ » .

ولا يبلغ ابو حذيفة آخر هذه الآيات حتى يهدأ رَوْع الفتى ويثوب الى قلبه الأمن ، وينظر الى ابي حذيفة مبتسماً ، ويقول في صوت تَشيع فيه دُعَابة حلوة : وَيْحك ! إني أحس كأن سكينتكم هذه تسعى الى قلبي . أذاهبٌ انت بي ابا حُذَيفة الى محمد لأتلقاها منه ؟

وأمسى عبدالله مسلماً قد عاد الى اخته وجلس اليها والى ابي حذيفة وسالم يسمع منهم القرآن . تقول له سهلة مُنصرَفه عنها حين تقدم الليل : أمُهاجرٌ انت معنا يا اخي ؟ قال عبد الله : عزيزٌ عليَّ أن تنأى بكم الدار ، ولكني لم اسمع من رسول الله القرآن وحديثه إلى اليوم ، واني لأوثر ان ألزمه ما وسعني لزومه ، فاذهبوا راشدين .

وأصبح ابو حذيفة فانطلق بامرأته وابنه سالم فيمن انطلق الى أرض الحبشة من المسلمين . حتى اذا كانت الهجرة الثانية الى أرض الحبشة كان عبد الله بن سهيل أحد المشاركين فيها . وقد جلس سهيل في داره محزوناً كئيباً ، وافتقدته قريش حين رأت داره تخلفه عن أنديتها أياماً ، فأقبل عُتبة بن ربيعة وشَيبة بن ربيعة وأبو جهل عمرو ابن هشام فاستأذنوا عليه . ولو قد أطاع نفسه لمنعهم الإذن ، ولكن للسادة من قريش حقوقاً لا يُلتوى بها . فيدخل القوم على سهيل ، ولا يكادون يتحدثون اليه حتى يروا حزنه وضيق صدره . يقول عتبة بن ربيعة : وَيْحك أبا عبد الله ! لقد هاجر ابني فما ساءتني هجرته ، فيقول سهيل : وهل جرَّ علينا الشرَّ كله الا ابنك ! لم يكفه أن يُصبيء ابنتي حتى أصبأ أخاها وانصرف بهما جميعاً الى ارض النجاشي . قال ابو جهل : لو عرفت قريش كيف تؤدب سفهاءها لما أصابكما ما تريان ، ولو استجابت لي قريش لاجتثت الشجرة من أصلها . فيقول شيبة بن ربيعة : على رسلك أبا الحكم ! أما هذه فلم يأت إبّانها بعدُ .

وما زال القوم بسهيل حتى يخرجوه ويردوه الى ما ألف منهم وألفوا منه . ويمضي

من الأيام والأشهر ما شاء الله أن يمضي ، وهؤلاء نفر من مهاجرة الحبشة يعودون الى مكة ، منهم من يُعلن عودته ومنهم من يستخفي بها. وعاد في هؤلاء النفر عبد الله بن سهيل ، فيلقاه أبوه أحسن لقاء ، ويتحدث اليه حديث البشاشة والبشر ، والفتى متحفظ متأثم ، كأنه يرى في الاستماع لحديث أبيه بأساً . ولكن سهيلاً يضرب احدى يديه بالأخرى ، فما هي الا ان يستجيب له أعبُد شداد يحيطون بعبدالله ، فيوثقونه ثم يحملونه سجيناً الى أعماق الدار ، ومنذ اليوم يذيقه أبوه من الفتنة شيئاً عظيماً .

- ١٤ -

لم تعرف مكة في تاريخها الطويل القديم يوماً كذلك اليوم المشهود ، وإن كانت قد عرفت بعده أياماً مشهودة ليست أقلَّ منه شدة ونُكراً .

كانت بلداً آمناً ، لا يعرف اهله كيداً ولا مكراً ولا بغضاً ولا عداء ، وانما يستقبلون أمورهم راضين عنها مبتهجين بها مطمئنين اليها . يكون بينهم التنافس في المال والاستباق الى المجد ، ولكنهم على ذلك لا يبغي بعضهم على بعض ، ولا يبطش بعضهم ببعض ، وانما تجري امورهم على الدعة والإسماح . وأقصى ما يبلغ الشر بينهم ان يقول بعضهم لبعض قليلاً أو كثيراً مما يكره من القول ، ثم لا يلبثون ان يعود بعضهم على بعض بالعاقبة ، وأن يُهدي بعضهم الى بعض ألوان البر والمعروف. وقد عرفت العرب القاصية والدانية ذلك من أمرهم ، فهوت إليهم الأفئدة ، وعطفت عليهم القلوب ، واتصلت بهم الآمال ، وتعلقت بهم النفوس ، حتى أصبح بلدهم وما حوله من الأرض حرماً آمناً يأوي إليه الخائف ويلوذ به الملهوف. ولكن مكة تصبح في ذلك اليوم وقد أظهرت لها السماء ابتساماً ، فملأت بطاحها وجبالها ورُباها بأشعة الشمس المشرقة الرائعة ، ولكنها أضمرت لها عُبوساً أي عبوس ، فملأت قلوب نفر من أبنائها بالظلمة المظلمة والكيد المفضي بأهله إلى شرّ ما ينتهي إليه الناس .

أصبحت قريش في ذلك اليوم ، فغدا الملأ منها الى أنديتهم في المسجد ، وأخذوا فيما كانوا يأخذون فيه من حديث ، الا نفر منهم لم يذهبوا الى المسجد ولم يحضروا أندية قومهم ، ولم يشغلوا أنفسهم ببيع أو شراء ، ولم يسروا عن أنفسهم بصيد أو طرد أو مجون . وإنما شُغلوا بشيء غير ذلك كله : شُغلوا بتهيئة العذاب وجهَ النهار ،

وشغلوا بشهود العذاب وسط النهار ، وشغلوا بالتحدث عن العـــذاب آخر النهار ، ولكنهم لم يتحدثوا عنه وحدهم ، وانما تحدثت عنه قريش كلها ؛ ولم تبقَ في مكة دار الا ذكر فيها أمر ياسر وامرأته وابنه ، وأمر صُهَيب ، وأمر خَباب ، وأمر بلال . وكانت أحاديث قريش عما صُبَّ على هؤلاء الرهـط من العذاب مختلفة أشدّ الاختلاف . فأما شيوخ قريش وذوو أحلامها فكانوا يجـــدون في سيرة أبي جهل وأضرابه غلوّاً في الشرّ وإسرافاً في القسوة ، ولكنهم على ذلك كانوا يعللون أنفسهم بأن هذه الشدة قد تخوف محمداً واصحابه وتردهم الى شيء من القصد والأناة، والى أنها قد تَرْدَعُ الرقيق والمستضعفين وتُريهم ماينتظر الذين يَصْبُون منهم الى محمدوأصحابه من البأس والضر والعـــذاب . فكانت ضمائرهم تُنكر وقلوبهم تسكت ، وألسنتهم تعرف وأما الشباب من قريش فكان أكثرهم يرى في هذا البدْع لوناً مستحدثاً من التسلية والتسرية والاشتغال عن النفس وعما تعودت أن تتلهى به من ألوان العبث والمجون. وفي غرائز الناس ميلٌ الى الشرّ ، واستحبابٌ للنكر ، واستعذاب للعذاب حين يمس غيرهم ويدفعهم الى فنون من الألم وضروب من الحركات التي يثيرها الألم ، والى ألوان من الشكاة التي يبتعثها الألم .

وفي قلوب الشباب قسوة وخفة ، وفي أحلامهم نَزَق وطيش . فهم ينظرون الى من يُمتحنُ في بدنه ، ويأتي من الحركة والقول ما يُسليهم ويُلهيهم ، على أنـه متاع لأبصارهم ونفوسهم ؛ ولا يقدّرون أن هذا العذاب يمكن ان يُصَبّ عليهم ، وان هذه الحركات والشكاة يمكن ان تصدُرَ عنهم ، فتُضحِكَ منهم قومـــاً آخرين . ولو قد وضع الإنسان نفسه موضع الذين يُصَبُّ عليهم العذاب لجنّب الناس شرّاً كثيراً . فكان الشباب من قريش يتحدثون ببراعة ابي جهل فيما كان يخترع من الوان الفتنة والمحنة راضين عنها معجبين بها . وكانوا يتحدثون عن احتمال اولئك الرهط للفتنة في انفسهم بالجلد والصبر والأناة في كثير من الإعجاب. كما كانوا يتحدثون في عبث وسخرية بما كانت اجسام اولئك الرهط تأتي من الحركات حين يمسها العذاب .

قال الحارث بن هشام لابن اخيه عكرمة بن ابي جهل: الم تر الى سُمَيّة كيف كان جسمها يتلوى حين كانت السياط تُلهبه بغير حساب، دون ان يفترّ فمها عن صيحة او أنة أو شهيق وهي التي كنا نُثيرها الى الخوف او نثير الخوف اليها بأيسر ما كنا نأتي من الحركات،نعبث بها ونسخر منها حين نراهـا تثور كأنما دُفعت من الأرض بلولب

خفي ! قال عكرمة : لم أعجب لشيء كما عجبتُ لزوجها الشيخ الذي مزق جسمه بالسياط وحرّق بالنار ليذكر الآلهة بخير ، فلم يظفر منه أبي إلا بشتم الآلهة والاستهزاء بها . أما ابنه عمار فقد سكت صوته ، وسكن جسمه للعذاب ، وارتسمت على ثغره ابتسامة حلوة مرّة ، ما أدري أكانت تصور الرضا ام كانت تصور الغيظ ! ولكنها ارتسمت في نفسي أشد مما ارتسمت على ثغره ؛ وما أرى أنها ستغيب عني آخر الدهر. قال صفوان بن أمية : فكيف لو رأيتما بلالاً ذلك الحبشي والفتية من الأحرار والرقيق يتنازعون جسمه يأخذ كل منهم بطرف ، كأنما كانوا يريدون أن يقلسموه بينهم ، وهو في أثناء ذلك لا يئن ولا يشكو وإنما يثني على محمد ويذكر إلهه ذاك بالخير . قال خالد بن الوليد : أما أنا فقد رأيت من صُهَيب عجباً : رأيت القوم يعذبونه بالنار وينوشونه بالرماح ويلهبون جسمه بالسياط ، وهو على ذلك يتحدث إليهم حديث من لا يحفل بما كانوا ينالونه به من الأذى . وربما اشتد عليه البأس فعقد لسانه عن القول برهة ، وأجرى على جبينه شيئاً من عرق ، ثم لا يلبث ان تثوب اليه نفسه ويعود الى التحدث الى معذبيه في بعض أمرهم ، كأنهم لم ينالوه بمكروه وما يزالون به يعذبونه بالحديد والنار والسياط ، وما يزال بهم يعذبهم بهدوئه وثباته وتحدثه إليهم في أيسر امورهم ، حتى اذا أملهم او كاد يملّهم ضاعفوا له العذاب ، وخرجوا في ذلك عن أطوارهم ، فيسعى الى صهيب شيء من ذهول ، ثم يأخذه شيء يشبه السكر ، فيمضي في حديثه ، ولكنه يقول للقوم غير الصواب . ويعرف القوم انهم قد بلغوا منه بعض ما كانوا يريدون ، فيكفون عن مكاويهم ورماحهم وسياطهم ؛ وأشهد لقد انصرفت عن هؤلاء القوم وإني لبعض أمرهم لكاره . قال الحارث بن هشام : اسكت لا يسمعك ابن عمك فيصيبك منه بعض ما تكره .

كذلك كان الشباب من قريش يُعجبون بأولئك الرهط المعذّبين ويَعجبون منهم ، يستهزئون بهم طوراً ويعطفون عليهم طوراً آخر .

وأما المستضعفون والرقيق فكانوا يرون الشر ويعينون عليه حين يطلب اليهم أن يعينوا عليه ، تكرهه نفوسهم وترضى عنه ألسنتهم ؛ قد ملأ الخوف اكثرهم، وتسرّب الحب والإشفاق الى قلوب فريق منهم ، فهم ينتهزون الفرص ويتربصون بقريش الدوائر ويتحدثون الى أنفسهم ، وربما تحدث بعضهم الى بعض ، بأن الخير كل الخير عند محمد وأصحابه . وبأن الخير كل الخير في أن ينحازوا اليهم . فالضعف الى الضعف قوة . ومن يدري ! لعل الله ان ينتصف لهم ولأمثالهم بمحمد وأصحابه من أولئك البغاة

الظالمين . وأما المسلمون الذين صرف عنهم العذاب ونحيت عنهم الفتنة فكانوا يشهدون وفي نفوسهم ألمٌ وأمل ، وفي قلوبهم حزن وثقة، قد اطمأنوا ان العاقبة لهم،واستيقنوا بأن الله منجز وعده ، ولكنهم على ذلك يرحمون اخوانهم، وربما تمنوا لو كانوا مكانهم فاحتملوا عنهم بعض ما يحتملون من الأذى .

وربما كان أصدق وصف لمكة حين امسى المساء من ذلك اليوم ان اكثر اهلها كانوا حائرين، يرون الفتنة ولا يدرون أيعرفونها ام ينكرونها ! لأنهم لا يعرفون أخير هي أم شر ! وان اقل اهلها كانوا قد صدقوا الله ما عاهدوا عليه ، فرضيت نفوسهم واطمأنت قلوبهم واستيقنوا ان العاقبة للمتقين . ولو كشف الغطاء عن اهل مكة لرأوا حين تقدم الليل من ذلك اليوم ان من حول مكة اعياداً يحفل بها الشياطين وقد استخفهم الفرح واستهواهم الطرب ، ورأوا أصحاب محمد يعذَّبون أشد العـذاب واقساه ، فغرّهم بالله وبأنفسهم الغرور ، وظنوا ان فتنة هؤلاء الرهط ستحفظ لهم سلطانهم على مكة ، وستمكن لهم في قلوب قريش .

واصبح اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فتحدثوا اليه من امر الفتنة بما علموا ، ولكنه تحدث اليهم من امرها بما لم يعلموا ، لا لأنه شهد الفتنة ، أو رأى كيف كانت تُصبّ على المستضعفين من اصحابه ، بل لأن أمر الفتنة كله قد اوحي اليه .

وخرج النبي وأصحابه فتفرقوا في احياء مكة يسعى بعضهم هنـا ويسعى بعضهم هناك ، يلتمسون فضلاً من ربهم، ويريدون في اكبر الظن مؤاساة لهؤلاء المستضعفين الذين كانوا يُفتنون عن دينهم ويعـذّبون في الله . ويمشي النبي صلى الله عليه وسلم في بعض بطحاء مكة وقد وضع يده في يد عثمان بن عفان ، وما يزالان يتماشيان حتى يبلغا آل ياسر ، وقـد سطحوا على الأرض موثقين ، ووضعت على صـدورهم الصخور الثقال ، وجعل المشركون يمسونهم بالنـار حيناً بعد حين ، وربمـا وخزوهم بالخنـاجر والحراب ، وثلاثتهـم سكوت لا ينطقون حرفـاً ، والمشركون قد ملأ قلوبهم الغيـظ ؛ لأنهم لا يبلغون منهم شيئـاً . وقد أنكروا صمتهم الذي اتصل منذ أخذوا في تعذيبهم مع الضحى ، حتى جعلوا يشتطون عليهم في البأس ليستخرجوا منهم أنة أو شكاة . ولكنهم ماضون في الصمت قد ثبت الله قلوبهم ، وصرف عن نفوسهم الجزع والهلع . فاذا مرّ النبي وصاحبه بهؤلاء الرهط المعذبين سمع المشركون صوت ياسر لأول مرة من يومهم ذاك ، سمعوا صوت ياسر لا يتجه اليهم وإنما يتجه الى النبي فيقول : الدهر هكذا يا رسول الله. قال

رسول الله : أبشروا آل ياسر ؛ فإن موعدكم الجنة . هنالك يسمع المشركون صوت سُمَيَّة لأول مرة من يومهم ذاك ، يسمعون صوت سمية لا يتجه إليهم وإنما يتجه الى النبي فيقول : أشهد أنك رسول الله ، وأشهد أن وعدك الحق . وهنالك يسمع المشركون صوت عمار لأول مرة من يومهم ذاك ، يسمعونه لا يتجه الى أبويه ، ولا يتجه الى النبي وصاحبه ، وإنما يتجه إليهم هم فيقول : عذبونا يا أعداء الله ما شئتم ؛ فإن موعدنا الجنة وأنوفكم راغمة . هناك يخرج المشركون عن أطوارهم وَيَصُبُّون على أولئك الرهط من العذاب ما ليس الى وصفه سبيل .

ويمضي أبو بكر في بعض بطحاء مكة فيرى بلالاً وقد عُذِّب حتى ملت قريش تعذيبه . عذّبوه بالنار والماء ، وعذّبوه بالحديد والسياط ، طرحوه على الأرض في الرمضاء ، وأثقلوه بالصخر ، يريدونه على أن يذكر آلهتهم بخير فلا يسمعون منه إلا : أحَد ، أحَد . يقول له أمية بن خلف : اذكر آلهتنا بخير يا بلال يُرفعْ عنك العذاب فيجيب : إنّ لساني لا يطاوعني . ثم يمضي في ذكره قائلاً : أحد ، أحد . فيملّ أمية بن خلف وأصحابُه فيضعون عنه أثقاله ثم يقيمونه ، ثمّ يضعون الحبال : حبلاً في إحدى ذراعيه وحبلاً في ذراعه الأخرى ، وحبلاً في إحدى ساقيه وحبلاً في ساقه الأخرى ، ثم يدعون الصبية ويُلقون إليهم الحبال ، ويأمرونهم أن يَعدوا ببلال حتى يجهدوا أنفسهم ويجهدوه . ويفعل الصبية ما أمروا ، فيَعدون به الى يمين ، ويعدون به الى شمال ، ويَعدون به الى أمام ، ويَعدون به الى وراء ، وهم يتصايحون ويتضاحكون ، وأمية بن خلف وأصحابه ينظرون ويتعابثون ، وبلال لا يحفل بشيء من ذلك ، وإنما يتبع العادين به حيث يَعدُون ، لا يقاوم ولا يتمنع ولا ينفكّ لسانه عما أخذ فيه من ذكر : أحد ، أحد ، أحد ، أحد ، وقد بلغ الجهد من الصبية حتى جعلوا يلهثون ، ثم تراخت أيديهم وأرخوا بحبالهم الى الأرض . وظل بلال قائماً ماضياً في ذكره : أحد ، أحد . حتى يبلغ الغيظ من أمية وأصحابه ، فيدفع بعضهم في صدر بلال حتى يُلقوه على الأرض الى ظهره . فيسقط ويُسمعُ لسقوطه صوتٌ مُرَوِّع ، ولكن ذكره متصل : أحد ، أحد . ويَهمّ أمية أن يبطش به ليسكت هذا الصوت ويقطع هذا الذكر ، ولكن أبا بكر يعرض له قائلاً : وَيْحكم ! فيم تعذبون هذا الرجل ؟ قال أمية : وما أنت وذاك يا ابن أبي قحافة ؟ عبدٌ لنا نَصنعُ به ما نشاء . قال أبو بكر : هو عبد الله قبل أن يكون عبدك يا أمية . إنك إن تأت على نفسه تأثَمْ وتُضَيِّعْ مالَكَ ، فهل لك في شيء

خير من ذلك ؟ قال أمية : وما ذاك ؟ قال أبو بكر : أشتري منك هذا الرجل ، واحتكم في ثمنه . قال أمية وقد ضجر ببلال وتأديبه وتعذيبه : قد فعلتُ ، فأدِّ إليَّ ثمنه . سبع أواق . قال أبو بكر : فخلِّ سبيله ورُحْ معي إلى حيث أؤدّي إليك مالك . قال أمية : أدِّ إليَّ مالي أخلِّ عنه . قال أبو بكر : وَيحكَ يا أمية ! متى عهدتني ألتوي عليك بالدَّين ؟ ! قال أمية وقد استحيا ، صدقتَ ، خذْ غلامك وأرسلْ إليَّ ثمنه متى شئت . قال أبو بكر : إنما هي روحتي إلى أهلي ثم يؤدّى مالك إليك .

وأخذ أبو بكر بلالاً من يده فانطلق به إلى داره ، وهنالك رفق به وخفّفَ عنه بعض ما وجد من الضر ، وأرسل إلى أمية ماله . وتلبّثَ في داره يرفّق ببلال ويتحدّثُ إليه ، ويقرأ عليه من آيات الذكر ، حتى إذا عاد رسوله وعرف أبو بكر أن أمية قد قبض ماله التفت إلى بلال وابتسم له وقال : انطلق بلالُ فأنت حرّ .

وأمسى أبو بكر فلقي رسول الله وأنبأه بما رأى من فتنة بلال ، وبأنه لم يستطع أن يستنقذه حتى اشتراه . قال النبي ﷺ : الشركة يا أبا بكر . قال أبو بكر فإني قد أعتقته يا رسول الله ! .

ومرّ قومٌ آخرون من أصحاب النبي بحيٍّ آخر من أحياء قريش فيرون ، ويا هول ما يرون ، ناراً عظيمة قد أججتْ ، ويرون رجلاً قد شدّ وثاقه ، ويرون قوماً يحملونه ويدنونه من النار حتى توشك ان تحيط به ، ثم يخطفونه اختطافاً فيبعدون به عن النار ، ثم يقيمونه أمامهم مشدوداً مقيداً ، ثم يتقدّم احدهم فيدفع برجله في صدره دفعة تسقطه إلى ظهره وهم يتضاحكون ، ثم يعودون فيفعلون به مثل فعلهم الأول . يقول له قائلهم : اذكرْ آلهتنا بخير وَقعْ في محمد ودينه او لتميتنكَ هذه النار وهذه الأرض ! فلا يسمعون منه إلا : أشهد أن محمداً رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق . وما يزالون يقدّمونه إلى النار ويؤخرُونَهُ عنها ، ويدفعونه إلى الأرض ثم يردّونه قائماً حتى يغشى عليه . هنالك يقول بعضهم لبعض : أبقوا عليه يا معشر قريش ، لا تأتوا على نفسه فيسألكم عنه حلفاؤه من زهرة .

ويعود أصحاب النبي فيلبثون اخوانهم بما رأوا من أمر خباب ابن الأرتّ . وتقضي أمور قريش والمستضعفين من المسلمين على هذا النحو الأيام ثم الأشهر ثم السنين ، لا تبلغ قريش من هؤلاء المستضعفين شيئاً في دينهم ، إلا ان تكون كلمة الله قد حقت على بعضهم فيفتنَ عن دينه ويكفر بعد إسلام ، او ان يكون الله قد آثر بعضهم

بالحسنى فيختاره لجواره ويجعل له عنده مقاماً محموداً .

اجتمعت قريش ذات يوم لأمر عظيم حين انتصف النهار ، زعم لها أبو جهل انه بالغٌ من ياسر وأهله ما يريد ؛ فقد عذبهم حتى أشفوا على الموت ، ولن يتركهم حتى يذكروا آلهة قريش بخير ويقعوا في محمد بما يكره . قال عُتبة بن ربيعة : هيهات ابا الحكم ؛ إن ياسراً رجلٌ جلدٌ ، وإنه ما علمت ليؤثر الموت على ان يبلغك ما ترضى . قال ابو جهل : فإن ذكر آلهتنا بخير وذكر محمداً بسوء ؟ قال عُتبة بن ربيعة : هيهات يا ابا الحكم ! إنما هي أماني ، وما أرى إلا انك قد أزمعت ان تأتي على نفس هذا الشيخ . قال ابو جهل : فان ذكر آلهتنا بخير وذكر محمداً بسوء ؟ قال عتبة : فلك عشرون من الإبل. قال شيبة بن ربيعة : ولك مني مثلها . قال ابوجهل: إن مالكما عليكما لهين . قال عتبة : فان أتيتَ على نفس ياسر .. قال شيبة :دون ان تبلغ منه ما تريد ونريد ؟ قال ابو جهل : فاحتكما إذن . قال عتبة : لن نحتكم ولن نرزأك في مالك شيئاً ، وحسبنا ان تظهر من نفسك على عنادها . وأقبل الذين استخفتهم هذه الخاطرة فشهدوا عذاب ياسر وسمية وعمّار .

ولم تر قريش من العذاب في مكة مثل ما رأت ذلك اليوم ، ولكنها على ذلك لم تظفر بشيء مما أمّلتْ . اقبل ابو جهل ومعه اصحابه ، فرأى الناس انطاعاً من أدَم يسع كل نطع منها رجلاً وقد مُلئتْ ماء ، ورأوا ناراً مؤججة ومَكاوي قد احميَ عليها ، ورأوا تلك الأسرة قد شُدّ وثاق كل منها وألقي ثلاثتهم في جانب من الطريق كما يُلقَى المتاع غير ذي الخطر . فلما بلغ ابو جهل واصحابه مكان العذاب أمر غلمانه فوضعوا بين يديه ياسراً وسمية وعماراً ، وألسنتهم لا تفتر عن ذكر الله . فألهب اجسامهم بالسياط ، ثم أذاقها مسّ النار ، ثم صبّ عليها قرب الماء ، ثم عاد فيهم سيرته تلك مرّة ومرة،ثم أمر فغطوا في الأنطاع التي ملئت ماء حتى انقطعت انفاسهم او كادت ، ثم ردّهم الى الهواء ، وانتظر بهم حتى أفاقوا ، وتسمع لما ينطقون به بعد ان ثاب اليهم شيء من قوة ، فاذا هم يذكرون الله ويُثنون على محمد . قال ابو جهل لسمية وقد بلغ منه الغيظ أقصاه : لتذكرُنّ آلهتنا بخير ولتذكرنّ محمداً بسوء او لَتموتنّ . تَعلمي انك لن تَري مساء هذا اليوم الا ان تفكري بمحمد وربه . قالت سمية بصوت هادىء متقطع قليلاً:بؤساً لك ولآلهتك ! وهل شيء احبّ اليّ من الموت الذي يريحني من النظر الى وجهك هذا القبيح ! هنالك تضاحك عتبة وشيبة بن ربيعة، واخرج الحنق ابا جهل عن طوره فجعل يضرب في بطن سمية برجله وهي تقول له في

صوتها الهادىء المتقطع : بؤساً لك ولآلهتك ! وَيُجنّ جنون ابي جهل ، فيطعن سمية بحربة كانت في يده فتشهق شهقة خفيفة ثم تكون اول شهيد في الإسلام .

يقول ياسر : قتلتها يا عدوّ الله ! بؤساً لك ولآلهتك ! ويقول عمار: قتلتها يا عدو الله بؤساً لك ولآلهتك ! ليمتلىء قلبك غيظاً وحنقاً ! فان رسول الله قد ضرب لهـــا موعداً في الجنة . قال ياسر : اشهد ان وعد الله حق . ولكن ابا جهل لم يمهله ، وانما يضرب في بطنه برجله فيشهق ياسرٌ شهقة ثم يُصبح ثاني شهيد في الإسلام .

قال عُتبة وشيبة بن ربيعة: ألم تُحكّمنا ان لم تبلغ من ياسر وامرأته شيئاً ؟ فسكت ابو جهل ، وقال الملأ من قريش : بلى ! نحن على ذلك شهداء . قال عتبة : فينبغي ان تطلقَ هذا الرجل وأن تخليَ بينه وبين الحرية ليواري أبويه .

وراح أبو جهل من يومه ذاك الى اهله مَغيظاً مُحنقاً منكسر النفس ، لا يـــدري اغاظه ان افلت منه هذان الشهيدان دون ان يبلغ منهما ما احبّ ، أم غاظه ان صبرهما وثباتهما واقدامهما على الموت في غير جزع ولا هلع ولا اضطراب انما هو انتصار لمحمد ودينه الجديد على قريش ودينهـــا القديم ، فأصحاب محمد يموتون في سبيله وفي سبيل دينه ، وضعفاء قريش وأشرافها واحلافها يسعون الى محمد فيؤمنون له على كل حال ، وهؤلاء المستضعفون وهؤلاء الرقيق الذين كانوا يؤمنون لأشراف قريش بالسيادة ويدينون لهم بالطاعة ويرهبونهم غائبين وشاهدين ، قد أخذوا يتمردون عليهم ويثورون بهم وينكرون سادتهم وسلطانهم ، يبادونهم بذلـــك احياناً ويُخفون ذلك عليهم احياناً أخرى ، فاذا أخذتْ منهم قريش هذا الحرّ أو ذاك الرقيق لم يهابا ولم يرهَبا ولم يُذْعنا ولم يستكينا وانما استقبلا العذاب والفتنـــة وقلوبها راضية ونفوسها مطمئنة وعلى ثغريها ابتسامات تُحفظ وتملأ النفوس حَنقاً . أغاظ أبا جهل هذا كله ، أم غاظه ان محمداً يسمع ويرى ويعلم من أنباء الفتنة والعذاب ما تعلمه قريش كلها ، فلا يهاب ولا يَرْهب ولا يترك شيئاً مما هو فيه من نشر دينـه الجديد والدعوة اليـه ، ثم هو لا يكتفي بذلك وانمـــا يخرج مع بعض أصحابـــه فيواسي من يعذبون من اتباعه بمـــا يقول له من هذا الكلام الذي يلتهمونه التهامـــاً ، والذي يزيدهم على الفتنة والمحنة صبراً وتثبيتاً . وأي سخر من قريش أشد من هـــذا السخر ! وأي استفزاز لقريش أشد من هذا الاستفزاز ! وأي ازدراء لسلطانها أشد من هذا الازدراء ! وأي استهزاء بالملأ من أشرافها أشد من هذا الاستهزاء ! وما عسى ان تقول العرب في أقصى الأرض وأدناها حين تعلم ان في جنب قريش شوكة أعيت سادتها وقادتهـــا

وذوي احلامها ، فلم يستطيعوا لها انتزاعاً ، وانما ثبتت لكيدهم ومكرهم ، ثم جعلت تُنبت من حولها شوكاً صغاراً ، ان لم تكن مثلها قوة وحدة وايداً فهي تنشر الأذى وتشيع الألم ، وتوشك ان تجعل جسم قريش كله عليلاً لا املَ له في برء او شفاء ؟

اغاظ هذا كله ابا جهل ، ام غاظه ان الملأ من قريش رأوا ان شدته لم تغن عنهم ولا عن آلهتهم شيئاً ، وانما انتهت الى القتل الذي لا تحبه قريش ، والذي لا يزيد محمداً واصحابه الا استمساكاً بدينهم وصبراً فيها ؟ ام غاظه ان عتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة قد ظفرا به وظهرا عليه وشمتا بما كان يُظهر من حزم وصرامة وجد ، ويوشكان بعد هذا الإخفاق ان يستأثرا بسمع قريش وقلبها وحبها وقيادها ؟ ام غاظ ابا جهل كلّ هذا مجتمعاً ؟ لست ادري ، ولكني اعلم انه راح الى اهله مغيظاً محنقاً يظهر الغضب ويخفي انكسار النفس . وقد ساء لذلك خُلقه ، فلم يستطع احد من اهله ان يقول له شيئاً او يسمع منه شيئاً . لم يجلس الى طعام ولم يسمع لحديث وانما خلا الى نفسه فأنفق ليلة ثائرة حزينة كئيباً لم يذق فيها النوم الا غراراً .

كذلك راح ابو جهل الى داره وانفق ليلته فيها . فأما عمار فقد حُمل الى داره ، وحُمل معه ابواه : حملهم قوم من قريش فيهم المسلم وفيهم غير المسلم ، قد نَسوا او تناسوا ما بينهم من خصومة ، وذكروا ان بينهم مكروباً يجب ان يُواسى ، وميتين يجب ان يوَاريا في التراب . وقد نهضوا بهذا كله متعاونين كأحسن ما يكون التعاون ؛ فرفقوا بعمار ، ولم يكن في حاجة الى الرفق ، واعانوه على دفن ابويه وكان الى معونتهم على ذلك محتاجاً . وعاد عمار بعد ان وارى ابويه الى داره وقد تفرق عنه المشركون والتأمت حوله جماعة من المسلمين . وكان عمار يجد في جسمه ألم العذاب ، ويجد في قلبه حلاوة الايمان ، ويجد في نفسه لَذعَ الحزن على ابويه . يقول له عثمان ابن عفان : ما يحزنك عليهما وقد استوفيا نصيبهما من الدنيا وسبقاك الى نعيم الله ورضوانه ؟ الم تسمع نبي الله وهو يضرب لكم موعداً في الجنة مرةّ ، ويدعوكم الى الصبر مرة اخرى ، وهو يقول : اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلتَ ؟ قال عمار صدقت اباعمرو ، ما ينبغي ان احزن عليهما ، وانما ينبغي ان استبشر لهما وقد سبقا الى الجنة ، وَعدَهم بذلك رسول الله ووَعْدُ الله حق . قال عثمان : فان رسول الله قد وعدك بما وعدهما به ! قال عمار : هيهات أبا عمرو ! لو متّ معهما لكنت خليقاً أن أرضى ، ولكنهما ذهبا وبقيت ، وفي الحياة فتنة وفي النفس ضعف . وإنه ليحزنني أن فاتني بهما الموت فأصبحت معرّضاً لما يتعرض الناس له من الإثم الذي يُحبط العمل ، ومن

السيئات التي تمحو الحسنات . قال عثمان : ما ينبغي أن تيأس من رَوْح الله ولا أن تقنط من رحمته . وإنك معرض للإثم كما أنك معرّض للعمل الصالح . وإنك معرّض للسيئات كما أنك معرض للحسنات . وما ينبغي أن تكره الحياة وفيها رسولُ الله . قال عمار : أما هذا فنعمْ . ثم نهض كأنه لا يجد ألماً ولا سقماً ولا عناء ، وكأنما رُدّتْ إليه قوته كأقوى ما تكون قوة الرجال . نهض وهو يقول لعثمان وأصحابه : وَيْحَكم ! ما يحبسنا عن رسول الله ! ومضَوْا الى دار الأرقم فجلسوا مع غيرهم من جماعة المسلمين الى النبي يسمعون له وهو يعظهم ويُزكّيهم ويتلو عليهم القرآن . قال أبو جهل لعتبة بن أبي ربيعة وأخيه شيبة : أما إنكما قد استنقذتما حُشاشة عمار من الموت ! ولو قد خلّيتما بيني وبينه لوُوري في التراب ثلاثة لا اثنان . قال عُتبة : فقد خففنا عنك الوزر أبا الحكم . قال أبو جهل وقد ابتسم ثغره عن نية منكرة ورأي بشع : إني لا أحب لعدوي ان يموت ! لأن ذلك يُريحه ويكفّ عنه بأسي ويَرُدّ على قلبي ما فيه من الغلّ . وإنما أحبّ له أن يحيا لأذيقه البأس مجدداً ، ولأجرّعه غُصَصَ العذاب شيئاً بعد شيء . ولا واللات والعزّى لا تعرضان بيني وبين عمار منذ اليوم الا ان تريد اثارة الشر بين حيّكما وبين مخزوم كلها . فقد كان ياسر لنا حليفاً ، وكانت سمية لنا أمَة ، وما زلنا نرى عماراً لنا عبداً . قال شيبة : فان عمك أبا حذيفة قد أعتق عماراً وابويه . قال ابو جهل : فان لنا ولاءهم على كل حال . قال عتبة : هو ذاك . وأضمر ابو جهل في نفسه ما اضمر ، وادّخَر الله لعمار من الكرامة ما ادّخَر ؛ فقد اتصلت فتنة عمار ما اقام بمكة ، وافتنّ ابو جهل في هذه الفتنة حتى جعلها أحاديث . وأول ما قدّر من ذلك ان يحفظ على عمار حياته وحريته فلا يأتي على نفسه ولا يُلقيه في غيابات السجن ، وانما يجعله لمحمد واصحابه نكالاً : يفتنه كلما أحسّ الشوق الى ان يشهد مشهد العذاب . وكأنه حالف الشيطان على ان يوفي عماراً من العذاب ما لم يستطع ان يَصُبّ على ابويه ، وان يظفر منه بما لم يظفر به من ياسر وسمية ، فيضطره الى ان يذكر آلهته بخير وان ينال من محمد ﷺ . واعانه الشيطان على ذلك كله ، واعانه عليه قوم آخرون من سفهاء قريش . فترك عماراً آمناً معافى في نفسه وبدنه ودينه ، لم ينله بأذى ، ولم يعرض له بسوء ، حتى استراح عمار من محنته وظنّ انه قد أمنَ الفتنة . فكان يغدو على دار الأرقم بن ابي الأرقم ، فيسمع من النبي ويتحدث إليه ، ثم يروح إلى داره وقد اتخذ فيها ما لم يتخذه مسلم قبله في داره : اتخذ فيها مسجداً يعبد الله في اكثر الليل ، حتى انزل الله في ذلك قرآناً :

« أمَّنْ هوَ قانتٌ آناءَ الليل ساجداً وقائماً يحذَرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربِّه ، قُلْ هلْ يستوي الذينَ يعلمونَ والذينَ لا يعلمونَ إنَّما يتذكرُ أولو الألبـــاب » فيما تحدث به ابن عباس .

ولـكن اصحاب النبي يجتمعون ذات يوم في دار الأرقم بن ابي الأرقم ، حتى اذا ارتفع الضحى افتقدوا عماراً بينهم فلم يجدوه . فاذا ذكروا ذلك أنبأهم النبي ﷺ بأن عماراً يُعذب في الله . ثم يمر النبي بعد ان يتقدم النهار بمكان في بطحاء مكة فيرى ابا جهل وقد عاد في عمار سيرته الأولى : نارٌ مؤججة ، وماء مجتمع في نطع من الأدَم ، وعمار قد القي بينهما ، وجعل السفهاء من قريش ينوشونه بالرمـــاح ويحرقونه بالنار ، وعمار صابر صامت يذكر الله في قلبه ويكف لسانه عن القول . فاذا رأى النبي ذلك قال : يا نار كوني بَرْداً وسلاماً على عمار كما كنت برداً وسلاماً على ابراهيم . وقد سلط ابو جهل من النار على عمار أثناء فتنته الطويلة له ما كان خليقاً ان يأتي على نفسه . ولـكن الله يقول لعباده : « ادْعُوني أَسْتجبْ لكمْ » . وقـد دعاه في عمار احبّ عباده اليه وأرضاهم عنده . ولله حكمة بالغة ، ولكل أجل كتاب .

وقد احتمل عمار في ذلك اليوم من العذاب ما يُطيقه الرجـال وما لا يطيقونه ، حتى إذا جنحت الشمس لمغربها كفَّ عنه العذاب ورُدّ الى داره . وأمهله ابو جهل بعد ذلك اياماً طوالا حتى ظن عمار انـــه لن يُفتنَ مرة أخرى . ولكن ابا جهل لم يُمهله إلا ليشتد عليه في الفتنة ويُضاعفَ له العذاب . ويراه النبي ذات يوم وقـد بلغ الحزن من نفسه وقلبه ما لم يبلغه منهما قط ، وعيناه تنهلان بدموع غزار ، فيدنو النبي منه رفيقاً به ، فيكفكف دمعه ويمسح عينيه ويقول : وَيْحكَ ابنَ سميةَ ! أخذك الكفار فغطوك في الماء حتى قلت كذا وكذا ، فإن عادوا فعدْ ! ولكنهم لم يعودوا من فورهم ، وإنما انتظروا بعمار حتى اطمعوه في العافية ، ثم أخذوه فعذّبوه وفتنوه ، ثم تركوه . وأقبل عمار على النبي خزيان أسفاً تنهلّ دموعه غزاراً على وجه مُربدّ كئيب . فلما رآه النبي قال : ما وراءك ؟ قال عمار وهو ينتحب : شرّ يا رسول الله ، والله ما تركوني حتى ذكرت آلهتهم بخير وذكرتك بما تكره ويحبون . قال رسول الله : فـكيف تجد قلبك ؟ قال عمار : أجده مطمئناً بالإيمان . قال رسول الله : فان عادوا فعد . وأنزل الله في ذلك قرآناً : « مَنْ كفرَ بالله منْ بعد إيمانه إلا مَنْ أكرهَ وقلبه مُطمئنٌ بالإيمان ولكنْ مَنْ شرحَ بالكفر صدْراً فعليهمْ غضبٌ منَ الله ولهمْ عذابٌ عظيمٌ » .

ولم يخلص عمار من هذه الفتنة المنكرة التي كانت تتلاحق طوراً وتنقطع طوراً آخر الا حين اذن الله المسلمين في الهجرة الى ارض الحبشة . فهاجر عمار الهجرة الثانية ثم هاجر بعد ذلك الى المدينة ، فعاش مع رسول الله آمناً سالماً موفوراً .

- ١٥

استوثق رسول الله ﷺ لدعوته لأصحابه ولنفسه من حيّيّ يثرب : الأوس والخزرج ، وعاهدهم ان يؤووه وينصروه ويحموا ظهره ويقاتلوا من دونه من بغى عليه او اراده بسوء حتى يُبلغ رسالات ربه . وبايعه على هذا العهد نُقباء هذين الحيين الأوس والخزرج . ثم اذن الله بعد ذلك لرسوله والمسلمين في الهجرة الى مستقرهم الجديد وكان الإسلام قد سبقهم الى يثرب ، بشّر به مَنْ ارسله رسول الله ليبشر به. فكانت الهجرة الى دار استقر فيها الإسلام قبل ان يستقر فيها المهاجرون . وقد اذن رسول الله لأصحابه في الهجرة الى المدينة فجعلوا يذهبون اليها أرسالاً ، وهو ﷺ مقيم بمكة ينتظر ان يأذن الله له في الخروج . واجتمعت جماعة المسلمين المهاجرين الى اخوانهم من الأنصار في قُبَاء ، وجعلوا ينتظرون ان يقدَم عليهم رسول الله . وكانوا في اثناء ذلك يقيمون الصلاة كما كانوا يقيمونها بمكة . وينظر المسلمون فاذا أقرؤهم للقرآن واحفظهم عن النبي سالمُ بن ابي حذيفة ، فيقدّمونَهُ ليؤمّهم في الصلاة ، وفيهم أعلامٌ من المهاجرين ، منهم عمر بن الخطاب الذي كان اسلامه فتحاً ، وهجرته نصراً ، وخلافته رحمة ، كما قال فيما بعد عبد الله بن مسعود . وينظر المشركون والمنافقون من الأوس والخزرج فيرون هذه الجماعة من المهاجرين والأنصار يقدّمون سالماً ليؤمّهم في الصلاة . فيكبرون من امر سالم هذا بادىء الرأي ، ثم لا يلبثون ان يَذكروه ويعرفوه يقول بعضهم لبعض : الا ترون الى هذا الرجل الذي يصلّي بهذه الناجمة من اصحاب محمد مَنْ هاجرَ منهم الى المدينة ومَنْ كان من اهلها ؟ انه سالم . الا تذكرون سالماً ؟ فيجهد القوم انفسهم ليذكروه ، ولكن بعضهم يعيد عليهم قصة ذلك اليهودي الذي كان يعرض على العرب واليهود صبيّاً حدَثاً لا يُحسنَ العربية ولا يفهمها . وما هي الا ان يسمعوا بدء هذه القصة حتى يستحضروا سائرها ، وحتى يروا ذلك الصبي الذي مسه الضر وظهر عليه البؤس وزهد فيه العرب واليهود جميعاً ، واشترته ثُبيتة بنت

بعار ، لا رغبة فيه بل عطفاً عليه . ثم يقول بعضهم لبعض : لو عاش سَلام بن جبير لرأى من صبيه ذاك عجباً . ثم يقول بعضهم لبعض : ألا ترون الى هذه الناجمة من أصحاب محمد يؤمّهم فارسيّ قد كان بالأمس عبداً ؟ ثم يردّ بعضهم على بعض رَجْعَ هذا الحديث فيقول : ان لهؤلاء الناس لشأناً . انهم يُسوّدون العبيد ، ويُلغون ما بين الأحرار والرقيق من الفروق ، وإنا لنرحم قريشاً مما ألمّ بها ، وإنا لنعذر قريشاً مما فعلت بمحمد وأصحابه . ولو استطعنا لفتناهم كما فتنتهم قريش ، ولنفيناهم عن ارضنا كما نفتهم قريش . ولكن هل الى هذا من سبيل ؟ فيقول قائلهم : هيهات ! لقد آمن لهم أولو البأس والقوة من قومنا . ولكن فريقاً من هؤلاء المتحدثين يسمعون ثم ينكرون ثم يؤثرون الصمت ، ثم يخلو بعضهم الى بعض فيستأنفون بينهم حديثاً جديداً يعجبون فيه من أمر هذا الذي كان عبداً بالأمس ، ثم هو يؤمّ الأحرار في صلاتهم اليوم . ثم يتتبعون المهاجرين فيرون فيهم نفراً غير قليل من الرقيق الذين أعتقوا ، اعتقهم إسلامهم ثم يتتبعون سيرة الأحرار الأشراف من المسلمين مع هؤلاء الذين رُدّت عليهم الحرية بعد أن نشئوا في الرق ، فيرونها تقوم على الإخاء والعدل والنَّصَفة والمساواة . ثم يتحدثون في ذلك الى المسلمين من قومهم . فيقول لهم هؤلاء : إن الإسلام لا يفرق بين الحر والرقيق ، ولا بين الناس إلا بالتقوى ، وبما يقدّمون بين أيديهم من البر والخير وعمل الصالحات . هنالك تطمح قلوبهم الى هذه المساواة التي لم يسمعوا بها من قبل ، وإلى هذا العدل الذي لم يألفوه ، وإذا هم يميلون الى الاسلام ، ثم يسرعون اليه ، ثم يحرصون على أن يؤمهم سالم بن حذيفة ذلك الذي كان عبداً بالأمس فأصبح يؤم الأشراف من قريش ومن الأوس والخزرج حين يقومون بصلاتهم بين يدي الله .

- ١٦ -

بلغ النبي وصاحبه أبو بكر قُباء ، ونزلا فيها بين جماعة المسلمين من المهاجرين والأنصار . وقد فرح النبي بهجرته الى المدينة ، وفرحت المدينة بهجرته اليها ؛ فهي في عيد متصل . والأنصار يستبقون إلى برّ النبي وأصحابه من المهاجرين : يؤونهم ، ويقومون بحاجاتهم ، ويُطرفونهم بما يستطيعون أن يطرفوهم به من الطيبات . وقد تقدّم النهار وصُليت الظهر ، وأقبل رجل من الأنصار فوضع بين يدي النبي رُطَباً ،

وجعل النبي وصاحباه أبو بكر وعمر يُصيبون من هذا الرطب . وإنهم لفي ذلك وإذا شخصٌ يُرفَعُ لهم ، ثم يدنو منهم ، ثم يسلم عليهم ، ثم يجلس إليهم واذا هو صهيبٌ سابقُ الروم الى الإسلام ، كما قال فيه رسول الله .

وقد اقبل صهيب مجهوداً مكدوداً قد بلغ منه الإعياء وكاد يأتي عليه الجوع ، وقد أصابه في طريقه رَمَدٌ فهو لا يكاد يرى إلا في مشقة أيّ مشقة ، وقد ألقى تحية الى أصحابه ، ثم ألقى نفسه على الأرض ، ثم نظر فرأى الرطب فانكب عليه وجعل يأكل منه أكلاً غير رفيق . يقول عمر بن الخطاب للنبي ﷺ : ألا ترى يا رسول الله الى صهيب يأكل الرطب وهو رَمِدٌ ؟ فيقول له النبي : أتأكل الرطب وأنت رَمِدٌ ؟ فيقول صُهَيب وهو يمعن في الأكل : إنما آكله بشقّ عيني الذي لم يَرْمدْ ؛ فيبتسم رسول الله ويضحك القوم . ويمضي صهيب في أكل غير رفيق ، حتى اذا أرضى حاجته الى الطعام جعل يعاتب أبا بكر فيقول : وعدتني الصحبة ثم تركتني ثم يُعاتب النبي فيقول : ووعدتني يا رسول الله الصحبة ثم تركتني : والله ما خلصت اليك حتى اشتريت نفسي من قريش بمالي اجمع ، وما تركتُ مكة إلا بمدّ من دقيق عجنته بالأبواء وعشت عليه حتى انتهيت اليك . فيجيبه رسول الله : رَبح البيع أبا يحيى ! رَبح البيع ! وينزل الله هذه الآية الكريمة « وَمِنَ الناس مَنْ يَشري نفسه ابتغاء مَرضَاة الله واللهُ رَءُوفٌ بالعباد » وقد أوجز صهيب قصة هذا البيع الرابح .

وقد كان من أخلاق المسلمين الصادقين ألا يتكبروا ولا يَمنّوا بإسلامهم ، وقد ثابت قريش بعض الشيء الى نفسها بعد ان فاتها محمد وأبو بكر ، وجعلت تتتبعُ من بقيَ من أصحاب محمد ، تحبسهم عن الهجرة ، وتُمسكهم في العذاب ، وتفتنهم في دينهم ، وتصُدّهم عن سبيل الله . وكان صُهَيب من الذين حبستهم قريش . يقول له أبو جهل وقد وَرم انفه وذهب به الغيظ كل مذهب : أتيتنا صُعْلوكاً حقيراً لا تملك من الدنيا شيئاً ، فأثريت عندنا وأصبحت ذا مال ، ثم انت تريد ان تفوتنا بمالك ونفسك الى محمد وأصحابه ؛ قال صُهيب : فإن خليتُ بينكم وبين مالي أتخلونَ بيني وبين ما اريد من الهجرة ؟ قالوا : نعم ، وقال أبو جهل : هيهات ! ان حاجتنا الى مالك ليست أقل من حاجتنا الى نفسك ، فلتمسكنَّكَ في العذاب حتى نأخذ مالك ثم نأتي على نفسك او تعود من ديننا الى ما كنت عليه . قال صُهيب وفي صوته حزن مُرّ : لو عاش عبدالله بن جدعان لما بلغتَ مني ما ترى . قال ابو جهل : سَنُلحقك بعبدالله بن جدعان فاشكنا اليه إن شئت . ألستم تزعمون ان الناس يحيونَ حياة ثانية

بعد حياتهم هذه الأولى ! فالقَ عبدالله بن جدعان هناك إن شئت فاشكنا اليه . قال صُهَيب : هيهات ! لن ألقاه ، قد وعدني رسول الله الجنة ، وهو في النار . قال ابو جهل وقد استأثر به الغيظ فسطا على صُهَيب وضرب في وجهه ضرباً عنيفاً : ألا تسمعون يا معشر تيم ! ان سيدكم عبدالله بن جدعان في النار ، وان عبده هذا الرومي سيصير الى الجنة ! ما رأيت كاليوم حمقاً ولا خُرْقاً .

ولبث صهيب في حبسه اياماً لا يُرْزَقُ من الطعام إلا ما يعصمه من الموت . ولكن الإسلام كان في ذلك الوقت قد فشا في احرار مكة ورقيقها ، فيحتال بعض أولئك وهؤلاء ، واذا صهيب قد انسلَّ من محبسه وركب راحلته واخذ طريقه الى المدينة .

وعلمت قريش بأن صهيباً قد انسلَّ من محبسه ، وبأنه يوشك أن يفوتها ، فترسل في أثره الخيل ، ويُدرك القوم صهيباً ولم يمضِ في طريقه إلا قليلاً . فلما رآهم قد اقبلوا ، وعلم انهم يوشكون ان يأخذوه وان يردّوه الى الفتنة والعذاب ، وقف لهم ، ونثر ما في كنانته من السهام، وقال لهم في صوت الحازم المصمم : علمتم يا معشر قريش اني من ارماكم رجلاً ، وإنكم لا تصلون إليَّ حتى ارميكم بكل ما بين يديَّ من سهم ، ثم اضربكم بسيفي ما بقي منه شيء في يدي . فاختاروا بين الموت وبين مالي أدلكم عليه فتأخذونه وتخلون بيني وبين الطريق. ولم يَطلْ تفكير قريش ولا ائتمارها، وإنما آثروا العافية والسلام والمال ، فقالوا : قد رضينا ، فدلنا على مالك . فأنبأهم بمكانه وانصرفوا عنه . ومضى هو في طريقه حتى بلغ رسول الله وقد أدركه من الجهد والكيد ومن الظمأ والجوع ما كاد يأتي عليه .

- ١٧ -

هاجر عبدالله بن مسعود الى المدينة ، كما هاجر اليها غيره من المهاجرين ، فنزل على مُعاذ بن جَبل او على سعد بن خيثمة ، يختلف رواة السيرة في ذلك . وأقام عبد الله عند مضيفه حتى خط رسول الله للناس دورهم في المدينة ، فخط لبني زُهرَة في مؤخر المسجد ، وقال حي منهم للنبي : نكّب عنا ابن أم عبد ، كأنهم كرهوا نزوله بينهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلمَ يبعثني الله اذن؟ إن الله لا يقدس قوماً لا يُعطى الضعيف منهم حقه ثم أنزله منزله بينهم كريماً .

ولم يكد عبد الله يستقر في المدينة حتى كان ألزم الناس للنبي وأشدهم اتصالاً به في حياته العامة والخاصة ، يحجبه اذا دخل داره ، ويسعى بين يديه اذا خرج منها ، وكان أصحاب الحديث يقولون : ان ابن مسعود كان صاحب سواد رسول الله ووساده ونعليه وطهوره . كان أثناء الإقامة يقوم على حجرته حاجباً ، لا يخفى النبي عليه من سر الا ما يؤمر بإخفائه . فإذا هم النبي أن يخرج ألبسه نعليه ومشى بين يديه بالعصا ، حتى اذا جلس نزع نعليه فأدخلهما في ذراعه واعطاه العصا ، فاذا أراد أن يقوم ألبسه نعليه واخذ منه العصا فمشى بها بين يديه حتى يبلغ الحجرة فينحّي ستارها، ويدخل قبل النبي ، حتى اذا دخلها النبي نزع نعليه وخرج فقام أمام الستر حاجباً . فاذا خرج النبي في السفر فابن مسعود صاحب وساده إذا نام، وصاحب طهوره كلما أراد الوضوء . وكان النبي اذا أراد أن يغتسل في بعض سفره قام ابن مسعود من دونه يستره ، حتى لم يَشكَّ كثير من اصحاب النبي أن ابن مسعود كان من اهل بيته فليس غريباً إذن أن يكون أحفظ الناس للقرآن وأكثرهم سماعاً عن النبي ثم أصبح بعد النبي آكثر الناس تعليماً للقرآن وأقلهم رواية لحديث النبي ، يتألم من ذلك ويخافه أشد الخوف . وكان النبي يؤثره ويكبره ويُدافع عنه ويُشيد به ، حتى قال ذات يوم : لو كنت مؤمّراً أحداً دون شورى المسلمين لأمّرت ابن أمّ عبد . وأمره ذات يوم ان يصعد في شجرة فيجني له من ثمرها ، فلما جعل يصعد في الشجرة نظر اصحاب النبي الى دقة ساقه وحموشتها فضحكوا . قال رسول الله : ممّ تضحكون ؟ قالوا : من دقة ساقه . قال رسول الله : لهي أثقل في الميزان من أحد . وظل صاحب سرّ النبي ووساده وطهوره ، حتى اذا اختار الله النبي لجواره وخرجت جيوش المسلمين غازية الى الشام خرج فيها غازياً ، كأن مقامه بالمدينة قد شق عليه بعد ان توفّي خليله ، وأقام بحمص ما شاء الله ان يقيم ، حتى حدّره عمر الى الكوفة .

- ١٨ -

أقبل النذير فملأ قلوب قريش ذعراً حين أنبأها بأن أبا سفيان يستغيثها ويستنفرها ويُعلمها ان محمداً قد خرج بأصحابه من المدينة يستعرض العير . ولم يتقدم النهار حتى كانت قريش قد نفرت وجعلت تجهز جهازها للحرب . يتنافس أشرافها في ذلك

أيَّ تنافس ، ويستبقون اليه أي استباق . واستيقن أبو جهل ان قد جاء الوقت الذي كان ينتظره منذ اعوام طوال وأن قريشاً لن تخرج لتحمي العيرَ فحسب ، وإنما تخرج لتسحق محمداً وأصحابه وتريح منهم مكة ويثرب جميعاً . وقد جاء النبأ بعد ان خرجت قريش بأن أبا سفيان قد ساحل بالعير حتى أحرزها من محمد وأصحابه ، وأن قريشاً تستطيع أن تعود الى مكة فتنعم فيها بالسلم والعافية . ولكن قريشاً أبت أن تعود كما خرجت وزين لها الشيطان بلسان أبي جهل أن تمضي حتى تأتي بدراً فتنزل بها منتصرة مظهرة للعرب انها ما زالت قريشاً صاحبة العز والمجد والسؤدد . ثم تنحر فتطعم وتشرب وتطرب وتشرك العرب في طعامها وشرابها وطربها ولهوها ، ويعلم محمد وأصحابه ان كلمة هُبل ما زالت عالية ، وأن عز قريش لا يرام . وخرج سهيل بن عمرو فيمن خرج من أشراف قريش ، وقد جعل الى ابنه عبدالله ماله وحملانه يسعى بها بين يديه . وكان سهيل قد فُتن في دينه حين عاد من هجرته الى أرض الحبشة ، أخذه أبوه فأوثقه وحبسه وفتنه حتى استيقن انه قد عاد الى دين آبائه وآثر قريشاً على محمد. فلما خرج مع الملأ من قريش قدّم ابنه بين يديه فخوراً به معتمداً عليه . وتراءى الجمعان ببدر ، ونظرت قريش فإذا محمد في قلة من أصحابه ، فامتلأت عجباً وتيهاً . ونظر النبي فاذا قريش قد أقبلت بقضّها وقضيضها ، فاستنجز الله وعده واستنزل نصره وتضرع اليه في أن يثبّت قلوب المؤمنين . وتدانى الجمعان .

ولكن قريشاً تنظر فترى عجباً ، ولكن المسلمين ينظرون فيرون عجباً : ترى قريش فتى من أقوى شبابها قوة وأنضرهم نضرة وأشدهم بأساً ، يخرج من صفها وينحاز الى محمد : ويرى المسلمون والمهاجرون منهم خاصة صديقاً لهم قد عرفوه وأحبوه ، ثم حزنوا عليه حين ظنوا ، كما ظنت قريش ، أنه قد عاد الى دين آبائه . وتتساءل قريش عن هذا الفتى ، وتتساءل كثرة المسلمين عن هذا الفتى ، ثم يعرف اولئك وهؤلاء أنه عبدالله بن سهيل بن عمرو ، خدع المشركين عن أنفسهم وعن نفسه ، وانتفع بما أنزل الله في أمر عمار بن ياسر : « مَنْ كفَرَ باللهِ مِنْ بَعْدِ إيمانه إلاّ مَنْ أُكرِهَ وقَلبه مُطمئنٌ بالإيمان ، ولكنْ مَنْ شرَحَ بالكفرِ صَدْراً فعليهمْ غضَبٌ من الله ولَهمْ عذابٌ عظيمٌ » .

فهو لم يكفر بقلبه ، ولم يشرح بالكفر صدراً ، ولكنه وجد قلبه كما وجد عمار قلبه حين فتنته قريش مطمئناً بالإيمان وقد قال النبي لعمار : إن عادوا فعد . وفهم عبد الله بن سهيل آية القرآن وحديث النبي على وجهها . فلما أحس الفتنة من أبيه

أظهر له ولقريش ما أرضاهم ، وأخفى عليه وعلى قريش ما أرضى الله . وها هو ذا يخرج من صفوف قومه وينحاز الى صف المسلمين ، ثم يسعى حتى يبلغ النبي فيهدي اليه سلامه ويتلقى منه بركته . ثم يخرج الى اصحابه من المهاجرين فيزحف معهم لقتال قريش وفيهم ابوه ويلقى اثناء الزحف أبا حذيفة بن عُتبة بن ربيعة زوج أخته سهلة ، فاذا قص عليه قصته أثنى ابو حذيفة عليه وقال خيراً . ولم يزد على ذلك شيئاً. وقد تدانى الجمعان ، حتى لم يبق الى تدانيهما سبيل الا بسيف أو رمح . ولكن قريشاً تنظر فترى عجباً ، والمسلمون ينظرون فيرون عجباً : يرون فتى يصول في الميدان بين الصفين يدعو عتبة بن ربيعة المبارزة . ويخرج عتبة للفتى ، ولكنه لا يكاد يراه حتى ينصرف عنه ، وقد ملأ الغيظ قلوب قريش وملأ الاعجاب قلوب المسلمين : رأى اولئك وهؤلاء أبا حذيفة يدعو اباه للمبارزة . ويبلغ هند بنت عتبة وزوج أبي سفيان ان اباها واخاها الوليد وعمها شيبة قُتلوا ، وأن اخاها ابا حذيفة قد دعا أباه للقتال ، فتقول في هذا كله فتكثر القول ، وتهجو اخاها ابا حذيفة بهذين البيتين:

الأحول الأثعلُ المشئوم طائره	ابو حذيفة شر الناس في الدين
أما شكرتَ أباً ربّاك من صغر	حتى شببتَ شباباً غيرَ محجون

وشهد الوقعة فيمن شهدها من المهاجرين عبدالله بن مسعود ، وكان خفيفاً نحيفاً ضئيل الشخص قليل اللحم موفور النشاط سريع الحركة ، لا يكاد يُرى في مكان حتى يُرى في مكان غيره ، شأنه في قريش المحاربة كشأنه في قريش بمكة حين كانت تفتن المسلمين ، وهو يعدو هنا ويعدو هناك ، ويطير في الميدان من مكان الى مكان . وانه لفي بعض ذلك واذا هو يرى ابني عفراء قد صرعا ابا جهل واثبتاه ، فيسرع اليه ابن مسعود ويدركه وفيه رمقٌ يُتيح له ان يرى وان يسمع وان يعقل، ويُتيح له ان يتكلم في بعض الجهد . فيجلس ابن مسعود على صدره وهو يقول: ها قد اخزاك الله يا عدو الله ! قال ابو جهل في صوته المتهالك المتقطع : ها انت ذا يا راعي الغنم ! لقد ارتقيت مرتقى صعباً . قال ابن مسعود : لقد اخزاك الله بما قدّمت الى المسلمين من شر ، فذُقْ عذاب الدنيا ، ولعذاب الآخرة اشد بأساً واعظم تنكيلا . ثم يحتز رأسه ، ثم يمضي خفيفاً مسرعاً ، فينبىء النبي بقتل ابي جهل . قال النبي :الله الذي لا إله غيره ! قال ابن مسعود:الله الذي لا إله غيره ! فكبر النبي وكبّرَ مَنْ حَوله من المسلمين . ووقف النبي بعد ساعة على صَرْعى قريش وقد ألقوا في القليب فقال : « يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي

حقاً » . قال بعض اصحاب النبي : إنهم موتى يا رسول الله ! قال : إنهم ليسمعون كما تسمعون إلا أنهم لا ينطقون » .

- ١٩ -

كان بلال من السابقين الأولين الى الإسلام ، وكان أول من أذّن في الإسلام ، وقد جعل النبي الأذان إليه حين نُظّمت جماعة المسلمين . وليس من شك في أن قد كان بين العرب من المهاجرين والأنصار من كان اندى صوتـاً من بلال ، وربما كان بينهم كذلك من كان افصح منه لغة وأنصع منه منطقاً ! ولكن الله يؤتي فضله من يشاء. وقد عرف رسول الله لبلال سَبْقَه الى الإسلام وسَبْقَه الى الأذان ، فجعله صاحبَ أذانه ما أقام في المدينة ، فإذا غاب عنها أذّن مكانه أبو محذورة ، فإذا غاب أبو محذورة وبلال اذّن مكانهما عمرو بن أم مكتوم . وكان بلال يتحرى الوقت بالأذان فـلا يؤخره ، فإذا فرغ من أذانه أقبل حتى وقف على باب رسول الله ليؤذِنه ، وقـال : حيّ على الصلاة . حيّ على الفلاح . الصلاة يا رسول الله . ثم تنحى وقام ينظر . حتى إذا خرج رسول الله ورآه بلالُ أخذ في الإقامة . وكان بلال يسعى بالعنزة بين يدي رسول الله في العيدين وفي الاستسقاء ، حتى إذا بلـغ المصلّى رَكزَ العنزة بين يدي رسول الله فصلّى إليها .

وكان النبي يحب بلالاً اشد الحب ويُكبر من شأنه ، ويريد ان يُكبر الناس من شأنه . جاءته أسرة عربية تطلب إليه ان يزوّج ابنتها من رجل عربي سمّته ، فقـال لهـم النبي : فأين أنتم عن بلال ؟ فانصرف القوم من يومهم ذاك ولم يقولوا شيئاً . ثم أقبلوا من غد على النبي فطلبوا إليه ما طلبوا أمس . فقال لهم مثل ما قال أمس : أين أنتم عن بلال ؟ فانصرف القوم ولم يقولوا شيئاً. ثم أقبلوا من الغد فطلبوا اليه ما طلبوا امس وأول من امس ، فقال لهم مثل ما قال في المرة الأولى والثانية : اين انـتم عن بلال؟ثم زاد : اين انتم عن رجل من اهل الجنة؟فزوجوه . وعرف الناس ان رسول الله لا يمايز بين المسلمين إلا بالتقوى والعمل الصالح وما يقدّمون بين ايديهم من الحسنات . وأكبَرَ الناس بلالاً كما أكبره رسول الله ، حتى كان عمر بن الخطاب يقول : ابو بكر سيدنا واعتقَ سيدنا . يريد بلالاً. وكان هذا كله خليقاً ان يُرضي بلالاً عن نفسه شيئاً،

ولكن بلالاً لم يرض عن نفسه قط ، وإنما كان صادق التواضع مستصغراً لنفسه مهما يفعل . أقبل مرة يريد الأذان ، فأحس شيئاً من رضى عن نفسه ، فغاظه ذلك وأنطقه بكلام كان يريد أن يكون شعراً فلم يستطع ، أصاب الوزن وأخطأ القافية :

ما لبلال ثكلته أمُّه وابتلّ من نضح دم جبينه

وكان الناس من المسلمين يأتون بلالاً فيتحدثون اليه ويذكرون ما آتاه الله من الفضل وما اختصه به من الكرامة ، فلا يزيد على أن يقول : إنما أنا حبشي وقد كنت بالأمس عبداً .

وأقبل المسلمون يوم الفتح فدخلوا مكة ظافرين ، وثابت قريش الى الاسلام طوعاً او كرهاً ، وعفا رسول الله عن مسيئيها ، وقال لهم مقالة يوسف لأخوته : « لا تثريبَ عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » . وحطم الأصنامَ وطهّر الكعبةَ وأخلصها لله عز وجل ، ثم قال لبلال : إصعد فأذّن على ظهر الكعبة . وصعد بلال فأذّن على ظهر الكعبة والحارث بن هشام وصفوان بن أمية قاعدان ؛ يقول الحارث بن هشام لنفسه في أعماق نفسه : كيف لو رأى أخي عمرو بن هشام بلالاً هذا قائماً على ظهر الكعبة ؟ ويقول صفوان بن أمية لضميره في أعماق ضميره : كيف لو رأى أبو أمية بن خلف هذا العبد الذي طالما عذبه وآذاه قائماً على ظهر الكعبة ؟ ولو استطاع الرجلان لاكتفى كل منهما بالحديث الى نفسه ، ولكنهما يريان الكعبة وقد زال عنها هُبل وزالت اللاتُ والعزّى ومناة الثالثة الاخرى وقام على ظهرها حبشي يعلن دين محمد الى قوم طالما حاربوا محمداً وأصحابه ، وليس منهم الآن إلا من يستجيب لدعوة محمد راضياً او كارهاً.

ينظر الرجلان الى الكعبة وقد طُهّرت من الأوثان ، والى هذا الحبشي القائم على ظهرها ، فلا يملك أحدهما إلا أن يهمس في أذن صاحبه : ألا ترى الى هذا الحبشي ؟ قال ذلك في صوت تملؤه الحسرة . ويجيبه صاحبه في صوت خافت تشيع فيه السخرية المرة : إنْ يكرَهه الله يُغيره . وبلالٌ قائمٌ على ظهر الكعبة يرفع صوته الندي قائلاً: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

وأذن بلال في المدينة للمسلمين ، فاستجابت له قلوبهم محزونة ، وأغرقت جماعتهم في نحيب مر ارتجّ له المسجد حين قال بلال وصوته يكاد يحتبس في حلقه «وأشهد أن محمداً رسول الله » . وذلك ان النبي كان روحه قد انتقل الى الرفيق الاعلى . وكان جسمه لم يُقبر بعدُ . فلما دفن ﷺ وتمت البيعة لأبي بكر ، قام إليه بلال فقال : اي خليفة رسول الله ! إن كنت قد اشتريتني لنفسك فامسكني ، وإن كنت قد اشتريتني

لله َفذرني وَعمَلي لله . قال ابو بكر : ما تشاء يا بلال ؟ قال بلال : اني سمعت رسول الله ﷺ يذكر ان افضل عمل العبد جهاده في سبيل الله ، فخل بيني وبين الجهاد . واراد ابو بكر ان يرده عن نيته تلك فلم يستطع . وانصرف بلال الى الشام فرابط فيها غازياً حتى توفّيَ في دمشق عام عشرين .

- ٢٠ -

وأقبل عمار بن ياسر الى المدينة مهاجراً فنزل على مبشّر بن عبد المنذر ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين حُذيفة بن اليمان . وأقام عمار عند مضيفه مُبشر حتى أقطعه رسول موضع داره ، وحتى بناها ثم انتقل اليها . وكان عطف النبي صلى الله عليه على عمار شديداً وحبه له قوياً عميقاً . وكان عمار يحس هذا الحب وذلك العطف ، فيدفعه هذا الإحساس الى تحمس في الإسلام كان يمتاز به من اكثر المسلمين ، حتى كانت الانظار تتجه اليه ، وكانت النفوس كثيراً ما تفكر فيه ، وربما لهجت به بعض الألسنة احياناً . وكان عمار يتحامل على نفسه ويأخذها من الجهد في سبيل الله بأكثر مما كانت عامة المسلمين تأخذ به انفسها . اخذ رسول الله في بناء مسجده واشترك المسلمون في هذا البناء ، يرون اشراكهم فيه خيراً لأنفسهم وبرّاً بها ، ولم يكن رسول الله أقلهم جهداً ولا أيسرهم عناء في هذا البناء ، فكان يحمل معهم اللبن حتى يغبرّ وجهه الكريم وحتى يكثر عليه التراب . وكان المسلمون يحملون اللبن لَبِنة لَبِنة إلا عماراً فكان يحمل لبنتين لبنتين ، وكان ينفق في ذلك من النشاط والمرح والرضا ما كان يملأ قلوب المسلمين اعجاباً به ، وقلوب المنافقين حقداً عليه . وكان يحمل لبناته وهو يتغنى : « نحن المسلمين نبتني المساجدا » . وربما رق قلب رسول الله لعمار َفيقبل عليه ويرفق به ويتلطف له ويمسح عن وجهه وصدره التراب ، حتى قال له ذات يوم وهو يمسح التراب عن وجهه : وَيْحك ابن سُمية ؟ تقتلك الفئة الباغية ! » ووقعت هذه الكلمة من قلوب المسلمين موقعاً غريباً ، فنقشت في ضمائرهم وملأت نفوسهم هيبة لعمار وإكباراً له . ولم يقل النبي هذه الكلمة لعمار مرة واحدة ، وانما قالها له فيما يظهر غيرَ مرة : قالها له اثناء بناء المسجد ، وقالها له بعد سنين حين احتفر الخندق . وكان بلاء عمار في حَفر الخندق

مُضاعفاً كيلانه في بناء المسجد . وكان النبي يعمل مع أصحابه في حفر الخندق كأحد منهم يحمل التراب والحجارة ويتغنى وهم يردّون عليه :

« لا همّ إنّ العيش عيش الآخرة ، فاغفرْ للأنصار والمهاجرة » .

وأقبل مقبل فزعم أن حائطاً سقط على عمار فمات ، فقال النبي : لم يمت عمار . ثم لقي عماراً فقال له : « وَيْحك ابنَ سُميَّة ! تقتلك الفئة الباغية ! » وملأت هذه الكلمة قلب عمار يقيناً وثقة وحرصاً على أن يعمل صالحاً ما وسعه العمل ، وعلى أن يجتنب الفتنة ما وسعه اجتنابها . وكان يطيل الصمت ولا يتكلم إلا حين لا يكون من الكلام بُدٌّ ، وكان كثيراً ما يقطع صمته بهذه الكلمات ، عائذٌ بالله من فتنة ! عائذ بالله من فتنة ! ثم يعود إلى صمته العميق .

وأقبل خالد بن الوليد ذات يوم بعد أن أسلم ، فكان بينه وبين عمار شيء من خصومة ، فأغلظ خالد لعمار في القول – وكأنه ذكر سُميَّة التي كانت أمة لعمه أبي حُذَيفة ، وياسر الذي كان حليفاً لعمه أبي حذيفة . وكأنه ذكر عماراً بأنه عتيق عمه أبي حذيفة ، وكانت في خالد بقية من كبرياء مخزوم ، وكان فيه فضلٌ من صَلَف قريش – فجاء عمار إلى النبي ﷺ يشكو خالداً . وأقبل خالد أثناء ذلك فجعل يقول لعمار وعمار ساكت والنبي مطرق . ثم رفع النبي رأسه وقال في صوته الوادع العذب الذي ينفذ إلى القلوب: « مَنْ عادى عماراً فقد عاداني » فخرج عمار كأرضى ما يخرج الناس ، وخرج خالد مهموماً مغتماً كئيب النفس . فلم يسترح حتى أرضى عماراً ووثق بأنه عفا له عما أسلف إليه من سوء .

- ٣٢ -

عادت العرب الى كفرها بعد وفاة النبي ، وجدّ أبو بكر وجدّ معه الأنصار والمهاجرون في ردهم إلى الإسلام طائعين أو كارهين . وخرج خالد بن الوليد بجيش أبي بكر إلى اليمامة يقاتل مُسيلمةَ ويَردّ بني حَنيفةَ إلى الإسلام. والتقى المسلمون وأهل الردّة ، فكانت بينهم موقعة من أشد ما عرف المسلمون من المواقع وكان في الجيش أربعة نفر كلهم شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله : عمار بن ياسر ، وأبو حُذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وابنه قديماً ومولاه حديثاً سالم بن سالم ، وأخو امرأته

عبدالله بن سهيل بن عمرو . وقـــد انكشف المسلمون وكادت الدائرة تدور عليهم ، ولكن الناس يرون هؤلاء النفر قد ثبتوا في أماكنهم لا يريمون . فأما سالم فجعل يصيح بالناس : مـا هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ! ثم احتفر حفرة فأثبت فيها قدميه ، وصنع أبو حذيفة وعبد الله بن سهيل صنيعه فاستشهدوا جميعاً في أماكنهم .

وأما عمار فقد رآه الناس قائماً على صخرة وقـد قطعت أذنه فهي تتذبذب ، وهو يصيح بالمسلمين : إليّ أيها المسلمون أنا عمار بن ياسر ، أمن الجنة تفرّون ! وما زال بهم يدعوهم وقد ثبت على صخرته لا يزول حتى ثاب إليه المسلمون وأنزل الله عليهم نصره . ويبلغ أبا بكر موت سالم ، فيدفع تُراثه إلى صاحبة ولائــه ثُبيتة ، فتردّه وتقول : سيبته لله عز وجل . فإذا وَليَ عمر الخلافة دفع تُراث سالم مرة أخرى إلى ثبيتة صاحبة ولائه ، فتردّه وتقول : سيبته لله عز وجل . ويضعه عمر في بيت المال.

وأقبل أبو بكر في أثنـاء خلافته حاجاً . فلما دخل مكة جاءه سهيل بن عمرو مسلّماً ، فعزّاه ابو بكر بابنه عبد الله الذي قتل في اليمامة شهيداً . قال سهيل : لقد بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يشفع الشهيد لسبعين من أهله ! فأنا أرجو ألا يبدأ ابني بأحد قبلي .

- ٢٣ -

لم يكد عمر ينهض بأمور المسلمين بعـــد صاحبه حتى مضى في سياسة الفتح التي ابتدأهـا من قبله . لم يهن ولم يضعف ، ولم يتح لأحد من الناس أن يَهِن أو يضعُف ، وإنما رمى العالم القديم المتحضر بثقل العرب، فلم يثبت له العالم المتحضر إلا ريثما تداعى ثم انهار . وكان عمر لا ينام ولا يُنيم ، وإنمـا كان يقظاً دائماً ، موقظاً دائمـاً ، عاملاً دائماً ، دافعاً غيره الى العمل . وقد فتح عمر الذين أسلموا بآخَرَة من عامة العرب ومن خاصة قريش أبواب الجهاد على مصاريعها ، وألقى في رُوعهم جميعـاً أن من فاته ثواب الغزو مع النبي ﷺ فلم يشهد معه بدراً ولا أحُداً ولا الخندق ولا غيرها من المشاهد، فإن أمامه ملك الروم وفارس يستطيع أن يستدرك فيهما ما فاته من حسن البلاء. وأيّ بلاء أحسن من أن يكون الرجل قد تقدمت به السن ، والرجل لم يكد يخرج من شبابه ، والفتى لم يكد ينضو عنه ثوب الصبا، وسيلة الى تحقيق وعد الله عز وجـــل

وتصديق قوله: « وَعَدَ اللهُ الذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلوا الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهم في الأرض كما استخلفَ الذينَ منْ قبلهم وَليمكّنَنّ لهمْ دينهمُ الذي ارتَضَى لهمْ وَلَيبدّلنّهم منْ بَعد خوفهمْ أمْناً يَعبدُونَني لا يُشركونَ بي شيئاً » .

لقد اندفعت العرب حين دفعها عمر ، فلم تجد أمامها صعوبة إلا قهرتها ، ولا عقبة إلا ذلّلتها ، ولا مقاومة إلا جعلتها هباء .

ولم يكن أصحاب رسول الله والذين شهدوا معه المشاهد منهم خاصة أقلّ اندفاعاً إلى الجهاد واستباقاً إلى الغزو من الذين أسلموا بآخرة . ولم يكن عمر يصدّهم عن ذلك أو يردّهم عنه ، وإنما كان يُخلي بينهم وبين ثواب الله يطلبونه ما وجدوا إليه سبيلاً ، إلا أولئك الأشراف من قريش ، فإنه أمسكهم في المدينة ولم يأذن لهم بالخروج ، خاف من عامتهم على الناس ، وخاف على خاصتهم من الفتنة، وكان أشراف الصحابة من قريش إذا أراد أحدهم أن يخرج للجهاد أبى عليه عمر ، وقال : قد غزوت مع رسول الله ﷺ ما يجزئك .

أما المستضعفون من أصحاب النبي من قريش ومن غير قريش فلم يَخَف عمر منهم، ولم يخف عليهم فتنة ، فخلّى بينهم وبين ما أرادوا من الجهاد وما ابتغوا من فضل الله . وكذلك انطلق بلالٌ وأبو ذرّ وابن مسعود إلى الشام ، وانطلق غيرهم إلى العراق . وأقام في المدينة من أمسكه ضعف الجسم او أمسكته سياسة عمر . وأقبل خباب بن الأرَتّ ذات يوم مُسلّماً على عمر ومستأذناً في أكبر الظن في اللحاق بجيش من جيوش العراق ، فيهشّ له عمر ويستدنيه ويُجلسه على مُتكئه ويقول : ما على الأرض أحدٌ أحقّ منك بهذا المجلس إلا رجلاً واحداً . فيقول خباب : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : بلال . وروى بعضهم أنه قال : عمار بن ياسر . قال خباب : ما هو بأحقّ مني ، لقد كان له من قريش من يمنعه ويقوم دونه ، فأمّا أنا فلم يكن لي أحد ، ولقد رأيتهم ذات يوم أخذوني ثم أوقدوا لي ناراً فسلقوني فيها ، ثم يُقبل رجل فيضع رجله على صدري ، فوالله ما اتقيت بردَ الأرض إلا بظهري . ثم يرفع رداءه ليرى عمر ما بقي في ظهره من آثار العذاب . وينظر عمر ، وينظر من حضر من المسلمين ، فيرون شرّاً مروّعاً : يرون أن ظهره قد بَرص .

لم تمنعه الفتنة من أن يشهد مع رسول الله بدراً وأحُداً والخندق والمشاهد كلها . ثم لم يَكفه ذلك حتى أبى إلا أن يجاهد ، كأنه رأى أنه لم يلقَ في سبيل الله مع هذا كله ما ينبغي أن يلقى من الجهد والمشقة والعناء . وقد انحدر إلى العراق فغزا مع

الفائزين . وجاهد مع المجاهدين ، ورابط في الكوفة حتى أدركته الشيخوخة واشتد عليه الداء ، وأقبل نفر من أصحاب رسول الله يعودونه ، وقد اكتوى في بطنه سبع كيات ، وبرح به الألم كل تبريح . فلما دخلوا عليه رأوا رجلاً مُرَوَّعاً قد ملك الخوف وَالحزن عليه أمره يقول لعواده من أصحاب النبي : لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن نتمنّى الموت لتمنيّته . ثم يسكت صوته ويسكن جسمه وتنهلّ دموعه على وجهه غزاراً .

فيعزّيه عواده من أصحاب النبي يقولون له : أبْشِرْ أبا عبد الله ؛ إخوانك فلان وفلان وفلان ، تَقدم عليهم غداً . فيغرق في البكاء حتى ما يستطيع كلامـاً ، ثم يثوب إليه شيء من هدوء فيقول في صوته الضعيف النحيف المتقطع : أمّا إنه ليس بي جزع ،ولكن ذكرتموني أقواماً وسميتموهم لي إخواناً ، وإن أولئك مَضَوْا بأجورهم كما هي ، وإني أخاف أن يكون ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أوتينا بعدهم ثم تأخذه غشية تكفّ لسانه عن النطق حتى يُظنّ أنه قد قضى أو كاد . ثم يُرَدّ إليه شيء من حياة،فينظر فإذا كفنه قد أحضر،وإذا هو قَباطيّ ، فيبكي ويقول : لكن حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم كفنَ في بُرْدة،فإذا مُدّت على قدميه قَلصَتْ عن رأسه ، وإذا مُدّت على رأسه قلصت عن قدميه ، حتى جُعل عليه إذْخر . ولقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أملك ديناراً ولا درهماً ، وإن في ناحية بيتي في تابُوتي لأربعين ألف واف ، ولقد خَشيتُ أن تكون قد عُجّلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا . يقول بعض أولئك الرهط لبعض حين انصرفوا عنه : ألا ترون إلى خباب على كثرة ما احتمل وعلى كثرة ما عمل يخشى أن يلقى الله فقيراً ليس له كبير حظ من الصالحات ! فيقول قائلهم : وما يريبكم من ذلك ؟ ألم تعلموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للمرأة التي زعمتْ أن الله قد أكرم عثمان بن مظعون بعد موته : « وما يُدريك أن الله قد أكرمه ! إني لرسول الله وما أدري ما يُفعلُ بي ! » .

ولم يمنع المرض الموجع والا الحزن اللاذع ولا الخوف من لقاء الله خَباباً من أن يكون مُعلماً ناصحاً للمسلمين حتى في آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة . كان الناس يدفنون موتاهم في جبابينهم قريباً من دورهم فيقول خَباب لابنه حين أحسّ الموت : يَابُنَيّ إذا أنا مت فادفني بهذا الظهر ؛ فإن الناس إن رأوا ذلك قالوا صاحب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفن بظهر الكوفة ، ثم دفنوا موتاهم خارج المدينة .

ومات خباب وصلى عليه عليّ رحمه الله ، ودُفن بظاهر الكوفة ؛ فدفن الناس موتاهم حول قبره .

- ٢٤ -

مضى صهيب بعد الإسلام على ما كان يمضي عليه من سيرته في الجود والكرم قبل أن يُسلم . وكثر المال عنده بعد الفتوح ، فكثر عطاؤه وسخاؤه ، حتى تحدث بأمره الناس . وكان لا يستقبل ليله إلا جمع خلقاً من الناس كثيراً حول طعام كثير . فجعل الناس يذكرون كرم أبي يحيى وسخاء أبي يحيى وبرّ أبي يحيى . وسمع ذلك عمر فقال : من أبو يحيى هذا الذي يذكرون ؟ قالوا : صُهَيب . قال : لصهيب ابنٌ يُكنّى به ؟ قال الناس : إنه يكنى أبا يحيى ، وإنه يُطعم الطعام الكثير ، كما كان أجواد العرب من قومه يفعلون . قال عمر : وإن صُهَيباً لمن العرب ؟ قالوا : بذلك يحدّثنا . فسكت عمر ولم يقل شيئاً . حتى إذا كان ذات يوم في المسجد والناس من حوله كثير وفيهم صهيب ، دعاه اليه وقال له : مالك تُكنى أبا يحيى وليس لك ولد ، وتقول إنك من العرب وأنت رجل من الروم ، وتُطعم الطعام الكثير وذلك سرَفٌ في المال ؟ فقال صهيب : إن رسول الله ﷺ كناني أبا يحيى . وأما قولك في النسب وادّعائي الى العرب فإني رجل من النمر بن قاسط من أهل الموصل ، ولكن سُبيت ، سَبتني الروم غلاماً صغيراً بعد أن عقلت أهلي وقومي وعرفت نسبي . وأما قولك في الطعام ، إسرافي فيه فان رسول الله ﷺ كان يقول : « إن خياركم من أطعم الطعام ورد السلام » ! فذلك الذي حملني على أن أطعم الطعام. فسكت عنه عمر .

وعاش صهيب ما عاش خير مثل للمسلم كما صوره رسول الله حين قال : « المسلمُ مَنْ سَلِمَ الناس من لسانه ويده » . ولم يكن يعطي الناس من نفسه إلا خيراً ، كان يجود عليهم بماله وعلمه جميعاً ، لا يتحفظ في الجود بالمال ، ولا يتحفظ في الجود بالعلم ، إلا بواحدة ، كان شأنه فيها شأن الخيار من أصحاب محمد ﷺ : لم يكن يحب أن يتحدث عن النبي مخافةَ أن يخطىء الحديث . وكان يقول للناس : هَلموا أحدّثكم عن مغازينا ، فأما أن أقول : قال رسول الله ﷺ فلا .

ولم يكن لصهيب أيام أبي بكر وعمر إلا شأن الرجل الخير الكريم من المهاجرين . ولكن عمر رحمه الله يُطعنُ ذات صباح ، وينظم أمر الشورى حين أحس الموت ، ويأمر فيما يأمر به أن تكون صلاة المسلمين الى صهيب ثلاثاً حتى يختار أهل الشورى للمسلمين إماماً .

وينظر المهاجرون والأنصار ، فإذا صهيب يصلي بهم المكتوبات بأمر عمر . فإذا حضرتْ جنازةُ عمر قدّموا صهيباً فصلى بهم عليه .

فقد كان صهيب إذن إماماً للمسلمين حتى فرغ أهل الشورى من تشاورهم ، لم ينكر المهاجرون والأنصار من ذلك شيئاً . ولكن نفراً من شباب قريش جعلوا يتحدثون بذلك فيما بينهم ، ولم يكن شباب قريش يألفون عمر ولا يطمئنون الى سيرته ، لشدته على قريش ولشدته في الحق عامة . ويقول بعض أولئك الشباب لبعض: ألم تروا الى عمر يقدم هذا الرومي ليصلي بالمهاجرين والأنصار ، وقد كان صهيب عبداً لرجل من قريش ؟ فيقول آخر : الحمد لله على أنه لم يزدْ على أن يجعل اليه الصلاة حتى يختار هؤلاء الرهط منهم إماماً ! فقد كان خليقــاً أن يستخلفه وأن يجعل إليه إمرةَ المؤمنين . قال آخر : ويحك ! إنك لتسرف في الظن ، وإن بعض الظن إثم . ما كان عمر ليستخلف على المسلمين مولى لعبدالله بن جدعان من سبي العرب أو من سبي الرومُ ، قال صاحبه وهو يضحك ضحكة ساخرة : ألم يبلغك ان عمر قال : لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته ، ولو كان سالمٌ مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته . وهل كان سالم مولى أبي حذيفة إلا رقيقاً فارسيــاً من أهل إصطَخَر ؛ فإذا تمنى عمر أن يستخلف على المسلمين عبداً فارسياً فما يمنعه أن يستخلف عليهم عبداً رومياً ؟ قال أحدهم وقد ثار مغضباً : ما رأيت كاليوم رجوعاً الى الجاهلية الاولى . ويلكم ! أمسلمون أنتم صادقون في إسلامكم أم منافقون ؛ رحم الله عمر ! والله ما عرفنــاه إلا براً صادق النصح لله ورسوله وللمؤمنين ألم تقرأوا قول الله عز وجل: « يَاأَيُّها النَّاسُ إنَّا خَلقناكُم مِنْ ذَكَرٍ وأُنثَى وجَعَلناكم شُعوباً وقبائلَ لتعارَفوا إنّ أكرَمَكُمْ عندَ الله أتقَاكُمْ إنَّ اللهَ عَليمٌ خَبيرٌ » ؟

وتفرق اولئك الفتية وقد ثاب بعضهم الى الحق والهدى ؛ وأسرّ بعضهم الآخر في نفسه أن السلطان عربي لا ينبغي لأحد – ولو كان عمر – أن يصرفه عن العرب وعن قريش خاصة الى الفرس او الروم . وكان تفكير هؤلاء الفتية وقومٌ كثير أمثــالهم مصدر شرٍّ عظيم للمسلمين .

أقام عبدالله بن مسعود بحمصَ بعد أن فتحت على المسلمين ما شاء الله أن يقيم ، مرابطاً في سبيل الله . ولكن المهاجرين والانصار ممن أقام في المدينة ينظرون ذات يوم فاذا هو بين أظهرهم في المسجد ، فيستبقون اليه مسلمين عليه ، ويسألونه عن مقدَمه فيقول : ما أدري ؛ وإنما دعاني امير المؤمنين فقدمتُ . ثم يلقى عمر عبدالله بن مسعود فيخلو اليه ، ويخلو من بعده الى عمار بن ياسر ، ويخلو من بعدهما الى عثمان بن حُنيف ثم يعلن الى المسلمين في أعقاب صلاة من الصلوات أنه قد جعل صلاة الكوفة وحربها الى عمار بن ياسر ، وأنه قد جعل بيت مال الكوفة وتعليم أهلها الى عبدالله بن مسعود ، وأنه قد جعل سواد الكوفة الى عثمان بن حنيف . فأما اصحاب السابقة من المهاجرين والانصار فيسمعون ويعرفون في سرائر نفوسهم وفي ظاهر سيرتهم . وأما الذين أسلموا بآخرة من أشراف قريش فيسمعون ويطيعون وينصرفون وفي نفوسهم شيء . يقول أحدهم لصاحبه : غفر الله لعمر ! ماذا صنع بقريش ! ألا ترى إليه يجعل إمرةَ الكوفة لابن سُمَيّة ، ويجعل بيت مالها وتعليم أهلها لابن أمّ عبد ! وأين هو عن أشراف قريش وعن السابقين الأولين من المهاجرين ! فيقول له صاحبه : أمسِكْ عليك نفسك ، لا يبلغ عمر من حديثك هذا شيء فيظن بك النفاق ويؤدّبك أدباً لا تحبه . إنك لحديث عهد بالإسلام ، وما أراك قرأت من القرآن إلا قليلا . ألم تسمع قول الله عز وجل : «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الذينَ اسْتُضْعِفوا في الأرْضِ ونَجعلهمْ أئمةً ونَجعلهمُ الوارثينَ. ونُمَكِّنَ لهم في الأرض ونُرِيَ فرْعونَ وهامانَ وجنودهما منهمْ ما كانوا يَحذَرون ؟» ، فإن عمر لم يزد على أن أنجز بعضَ وعد الله عز وجل لبعض هؤلاء المستضعفين في الأرض . قال صاحبه وقد أظهر الرضا : هو ذاك .

وانتهى عمار بن ياسر وابن مسعود وعثمان بن حنيف إلى الكوفة ، واجتمع أهلها في المسجد ، فقرىء عليهم كتاب عمر ، فإذا فيه : « أما بعد ، فإني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً ، وابن مسعود معلماً ووزيراً ، وقد جعلتُ ابن مسعود على بيت مالكم ، وإنهما لمن النجباء من أصحاب محمد من أهل بدر ، فاسمعوا لهما وأطيعوا واقتدوا بهما . وقد آثرتكم بابن أمّ عبد على نفسي ، وبعثت عثمان بنَ حَنيف على السواد ، ورزقتهم كل يوم شاة ، فاجعلوا شطرَها وبطنها لعمار ، والشطر الباقي بين هذين الرجلين» . وقد

سمع أهل الكوفة ورضُوا وأطاعوا فأحسنوا الطاعة ، وأحسن أمراؤهم السياسة .

ونظر عمار بن ياسر فإذا هو أمير لمصر عظيم من أمصار المسلمين وجيش عظيم من جيوشهم . وأكبر الظن أنه استحضر في نفسه ما لقي من الجهد والمحنة قبل أن يهاجر إلى المدينة ، وما لقي من الشدة والبأساء مع النبي بعد أن هاجر إلى المدينة ؛ فلم يقع هذا كله من نفسه موقعاً غريباً ، وإنما آمن بأن وعد الله حق . ولم يدفعه هذا كله إلى تكبُّر أو تجبر أو استعلاء ؛ لأنه استيقن كما استيقن نظراؤه من أصحاب النبي أن هذه الحياة الدنيا غرور ، وأنها فتنة يُمتحنُ بها أولو الحزم والعزم في أنفسهم ؛ فمن خلص منها كريماً نقيّاً سليم القلب فهو من الناجين،ومن رتع فيها حتى أرضى غرائزه وشهواته فهو من الذين حبطت أعمالهم وضلّ سعيهم وعُجلتْ لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا .

واستحضر ابن مسعود في أكبر الظن حياته تلك حين كان راعياً لغنيمات عُقبة بن أبي مُعيط ، وقد أدبرت عنه الدنيا بسعيها ودعتها وثرائها ونعيمها ، وذكر أن النبي ﷺ قد رضي عن أمانته حين أبى أن يسقيه ويسقي صاحبه من ابن غنم بن أبي معيط ، وذكر أن النبي ائتمنه على سرّه وضمه إليه وجعله من خاصته ، وذكر أن النبي قال فيه ذات يوم : « إن ساقه لأثقل في الميزان يوم القيامة من أحُد» ؛ فلم يزده هذا إلا إيماناً وتثبيتاً وحبّاً للأمانة واستمساكاً بها ، ووفاء لخليله ونصحاً لأمته .

وقد أقام عمار ما شاء الله أن يقيم أميراً على الكوفة، فكان يسيراً سَمْحاً لم يتغير من أمره شيء : صمتٌ كثير ، وكلامٌ قليل ، واختلاطٌ بالناس كأنه رجل منعامتهم وإقامةٌ للعدل ، وحكمٌ بالقسط ، ونُصحٌ في الدين لا تكلف فيه ولا تزيّدَ . سئل ذات يوم في بعض ما يُشكل من أمور الناس فقال : أكان هذا بعدُ ؟قالوا لا . قال : دَعُوه حتى يكون ؛ فإذا كان تجشمناها لكم .

وكان يخرج في حاجات بيته وأهله كما يخرج غيره من عامة الناس . تحدّث من رآه وهو أمير الكوفة يشتري قتّاً بدرهم ، ثم يستزيد البائع حبلاً فيأبى عليه البائع ، فيجاذبه عمار حبله وينازعه حتى يأخذ نصفه ، ثم يحمل قتّه على ظهره ويمضي به إلى داره وهو الأمير ، لا يُنكر من ذلك شيئاً ، ولا يرى أن شيئاً من ذلك يغضّ من قدره أو يحط من مكانته ، ولا ينكر الناس من ذلك شيئاً ولا يرون أنه يخسه عن المنزلة التي تنبغي للأمير . وكان عمار لا يغضب لنفسه مهما يُؤْذَ . فإذا تعرض أحد لحق الله أو لحق الناس غضب عمار حتى يأخذ بالحق ويَرُدَّ الأمر إلى نصابه . عرف أن رجلاً وشى به إلى عمر ، فلم يَزِدْ على أن قال : اللهمّ إن كان قد كذب عليّ

فابسط له في الدنيا واجعله مُوَطأً العقب .

وأقبل بجيش من أهل الكوفة مَدَداً لأهل البصرة في بعض المواقع . فلما أظفر الله المسلمين قال له بعض أهل البصرة : يا أجدَع ، أتريد أن تشاركنا في غنائمنا ؟ فلم يزد عمار على أن قال وهو يضحك : خيرَ أذنيّ سببتَ . وكانت أذنه تلك قد أصيبت في سبيل الله يوم اليمامة . وقد أبى أهل البصرة أن يُشركوا عماراً وأصحابه في الغنيمة ، وأبى عمار إلا أن يأخذ لأصحابه حقهم منهـا . فكتبوا في ذلك إلى عمر ، فكتب إليهم عمر : إنما الغنيمة لمن شهد الوقعة . وأخذ عمار وأصحابه حقهم . وكان عمر يُخالف بين وُلاته على الأمصار ، لا يكاد يَمدّ لأحدهم في الولاية . فلما عزل عماراً ولقيه بعد ذلك في المدينة قال له : أساءك عَزْلنا إياك ؟ فأجابه عمار : أمّـا إذا قلت ذاك فقد ساءني حين استعملتني وساءني حين عزلتني . ثم فرغ عمار للعبادة والطاعة والأمر بالمعروف وتأديب الناس في دينهم ما بقي من أيام عمر وصدراً من أيام عثمان . ولكن عماراً يعلم ذات يوم أن عثمانَ قد أمّر عبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر ، فيحضره خاطر مؤلم يُمِرّه في نفسه ثم يُلقيه في أعماق ضميره لا يحدّث به نفسه بعد ذلك ولا يحدّث به الناس ، ويذكر أن آية في القرآن قد أنزلت أشير فيها إليه وإلى عبد الله بن أبي سَرْح هذا الذي أمّرَ على مصر ، وهي قول الله عز وجل : « مَنْ كفرَ بالله من بعد إيمانه إلا مَن أُكرهَ وقلبُه مُطمئنّ بالإيمـان ، ولكنْ مَنْ شَرحَ بالكفر صَدْراً فعليهمْ غضبٌ منَ الله ولَهمْ عذابٌ عظيمٌ » . وكان المسلمون يرون أن عبد الله بن أبي سَرْح هو الذي أشير إليه في قول الله عز وجـل : « مَنْ شرحَ بالكفر صَدْراً » .

يقول عمار لنفسه إن عبد الله بن أبي سرح قد عاد بآخرة إلى الإسلام ، فعسى أن يكون قد تاب وأصلح ، وعسى الله أن يكون قد حطّ عنه ثقلَ الكفر بعد الإيمان . ولكن سيرة عبد الله بن أبي سرح في مصر تُصبح موضع الشكوى بين المصريين كسيرة غيره من وُلاة عثمان في الكوفة والبصرة . ثم تكثر الشكوى ويشيع التنكير ، حتى يغضب المهاجرون والأنصار في المدينة ويتكلموا في ذلك ، ثم يجتمعون ويتشاورون ، ويذهب عمار إلى عثمان عن نفسه أو عمن وراءه من المسلمين ليحدّثه برأي الناس في وُلاته ، فلا يرضى قوله عثمان ، ويعظم الأمر بينهما ، حتى يأمر عثمان بإخراجه ، فيخرجه غلمانه ويضربوه حتى يُغشى عليه ، وحتى يظن الناس أنه الموت . ولكن عماراً يفيق ويقول : طالما عُذّبنا في الله من قبل . ويُصبح منذ ذلك اليوم زعيماً من زعماء المعارضة لعثمان .

لبث عبد الله بن مسعود في الكوفة بعد أن عُزل عنها عمار بن ياسر ، لم يَعدْ إلى المدينة ، ولم يُنَحَّ عن عمله ، وإنما ظل أميناً على بيت مال الكوفة معلماً لأهلها مشيراً على ولاتها . وقد علم الناس فأحسن تعليمهم ، فملأ قلوبهم حباً له وإعجاباً به ، وترك في نفوسهم أقوى الأثر وأبقاه .

ولم يكن ذلك غريباً ؛ فقد لزم ابن مسعود رسول الله فأطال لزومه ، حتى ظن بعض أصحابه أنه من أهل البيت ، وأخذ من فم النبي سبعين سورة من القرآن لم يُنازعه فيهنّ أحد ، وكان النبي يحب قراءته للقرآن ويحببها إلى الناس ويقول : « مَنْ سَرَّه أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأه على ابن أمّ عبد » .

وكان عبد الله شديد التأثر للنبي في قوله وعمله وفي حركته وسكونه وفي تحدثه الى الناس واستماعه لهم ، وفي تأتّيه للأمور حين تعرض ، وثباته للخطوب حين تشتدّ ، وكان شديد الاقتداء به في هذا كله ، حتى اتفق الذين عرفوه من أصحاب النبي أنه كان أشبه الناس برسول الله ﷺ في هَديه وسَمْته ودله . وكان حذيفة ابن اليمان يقول: ابن مسعود أشبه الناس برسول الله ﷺ هدياً وسمتاً ودلاً حتى يُواريه جدار بيته .

وكان ابن مسعود يُقرىء الناس القرآن أثناء إقامته في الكوفة ، ويعظهم عشيةَ كل خميس ، يقوم فيهم خطيباً معتمداً على عصا ، فيتكلم ما شاء الله أن يتكلم ثم يسكت ، وأحبّ شيء الى سامعيه أن يمضي فيما كان فيه من حديث . ولم يكن ابن مسعود يخاف شيئاً كما كان يخاف الرواية عن النبي ، شأنه في ذلك شأن المتحفّظين الذين سمعوا النبي يقول : « مَنْ كذَبَ عليّ متعمداً فليتبوأ مقعدَه من النار » ؟ فأشفقوا أن يتحدثوا عنه فيخطئوا صدْقَ الحديث وهم لا يشعرون . وجرى مرة على لسان ابن مسعود وهو يعظ الناس قوله : قال رسول الله ﷺ ، فلم يكد هذا القول يجري على لسانه حتى أخذته رعْدَةٌ عنيفة اضطرب لها جسمه كله وتزعزعت لها العصا التي كان يعتمد عليها وتصبب العرق على جبهته ، فقال : أو فوق هذا ، او نحو هذا ، او دون هذا ، ولم يرض أهل الكوفة على أحد من ولاتهم كما رضوا عن عبد الله بن مسعود وعن أبي موسى الأشعري . وقد توفي عمر رضي الله عنه وابن مسعود أمير على بيت المال في الكوفة ، فأقره عثمان على عمله . حتى إذا كانت ولاية الوليد بن عقبةَ للكوفة حدثت أحداث حولت ابن مسعود الى المعارضة ، وكان ابن مسعود قبل هذه الأحداث من أرضى الناس عن عثمان وأحسنهم ذكراً له ودعاء اليه .

وقــد حدث بعض هذه الأحداث في الكوفة ، وحدث بعضها الآخر في المدينة ، فأما ما حدث منها في الكوفة فسياسة جديدة في بيت المال لم يألفها عبدالله بن مسعود ولم يكن ليطمئن اليها أو يرضاها . فقد كان الوليد يتوسع في النفقة ، ويرى أن له أن يصنع بمال المسلمين ما يشاء . وكان ابن مسعود قد ألف منذ أيام عمر أن اموال بيت المال ملك للمسلمين لا للأمراء، وأن الأمراء لا ينبغي أن يُنفقوها إلا بحقها وفي الوجوه التي تنفع عامة المسلمين .

وإلى جانب هذه السياسة المالية الجديدة كان للوليد بن عُقبة سيرة لم يرض عنها خيار أهل الكوفة . وقد أنكر ابن مسعود ما أنكر الناس ، وكره الوليد منه هذا الإنكار ، واشتد الخلاف بينهما . وكان النـــاس الى ابن مسعود أميل ، وله أحب ، ولقوله أكثر استماعاً .

وأما ما حدث في المدينة فانتداب عثمان لجمع القرآن في مصحف واحد وقراءة واحدة .

وقد ألف عثمان لهذا العمل الخطير لجنة من حفّاظ المسلمين وجعل رياستها لزيد بن ثابت . وليس من شك في أن عثمان قد نصح للمسلمين في هذا العمل ، وكره لهم أن يختلفوا في قراءة كتاب الله . ولمـــا تم له جمع المصحف أذاعـــه في الأمصار ، وحظر القراءة على غير ما كتب فيه ، وتقدّم في تحريق غيره من الصحف التي كتب فيها القرآن قبل أن يجمع المصحف الإمام . فكره ابن مسعود ذلك ، وكان من أقرأ الناس وأحفظهم ، وأبى أن يذعن لأمر عثمان . ثم لم يكتف بذلك ، وإنمـــا جعل يلهج بنقد ما تقدم فيه عثمان وبنقد سيرة الوليد في الكوفه . وكان إذا خطب الناس يوم الخميس من كل أسبوع قـــال لهم فيما كان يقول : إن أصدق القول كتاب الله ، وأحسن الهدْي هَدْيُ محمد ، وشرَّ الأمور مُحْدثاتها ، وكل مُحْدثة بدْعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ، ورأى الوليد في هذا الكلام تعريضاً به وبعثمان ، فتقدم إلى ابن مسعود في ألا يعيده ! فلم يحفل به ابن مسعود ولم يلتفت إليه . فكتب فيه إلى عثمان ، وكتب إليه عثمان يأمره بإخراج ابن مسعود من الكوفة وإرساله إلى المدينة ففعل . وخرج الناس يشيعون ابن مسعود إلى ظاهر الكوفة محزونين يُلحون عليه في أن يبقى بينهم ، ويخافون عليه من عثمان أن يبطش بــه أو يناله بمكروه ،

ويعاهدونه على أن يحموه فلا تصل إليه يد بسوء ؛ ولكنه أبى عليهم قائلاً : إن هذا أمر سيكون ، وما أحبُّ أن أكون أول مَنْ فتحه . ودخل المدينة ذات ليلة ، فلما أصبح غدا على المسجد ، وكان ذلك اليوم يوم جمعة . فلما رآه عثمان قال له قولاً غليظاً وعابه من أعلى المنبر ، فردَّ عليه ابن مسعود قائلاً : لستُ كما تقول ، ولكني صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بَدْر ويومَ أحُد ويوم الخندق ويَوْمَ بيعة الرضوان . ونادت عائشة رحمها الله من وراء الستر : ويْحكَ يا عثمان ! أتقول هذا لصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال لها عثمان : اسكتي، ثم أمر بعض غلمانه بإخراجه من المسجد . فأقبل غلام أسود طوّالٌ فاحتمل ابن مسعود وأخرجه من المسجد إخراجاً عنيفاً ، وابن مسعود يحاول أن يفلت منه ورجلاه تختلفان على كتفيه وهو يصيح بعثمان : أنشدُكَ الله لا تخرجني من مسجد خليلي صلى الله عليه وسلم . ولكن الغلام يمضي به ، حتى إذا بلغ باب المسجد ضرب به الأرض فكسرتْ إحدى أضلاعه ، وحُمل إلى بيته مكروباً .

ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد ، وإنما حرَمه عثمان عطاءه سنتين . فأقام ابن مسعود في المدينة مغضوباً عليه من الإمام ، يؤاده على رغم ذلك صديقه من أصحاب النبي . حتى إذا ادركه المرض الذي مات فيه عرف عثمان أنه مشرف على الموت . وهنا يختلف الرواة: فأما الناقمون من عثمان فيقولون إنه سعى إلى ابن مسعود واعتذر إليه وعرض عليه عطاءه وسأله أن يستغفر له ، فلم يقبل منه ابن مسعود شيئاً ، ووسط عثمان أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عند ابن مسعود فلم يقبل لها وساطة . ومات ابن مسعود والأمر بينه وبين عثمان على شرّ ما يكون . وقد يغلو الناقمون على عثمان فيزعمون أن ابن مسعود أوصى ألا يصليّ عليه عثمان ، وأنّ عمار ابن ياسر تلقى هذه الوصية وأنفذها ، فكان هذا مما زاد غضب عثمان على عمار .

وأما الذين يتولون عثمان ويحسنون الظن بهؤلاء النفر من المهاجرين فيقولون : إن عثمان عاد ابن مسعود في مرضه واعتذر إليه، فقبل منه واستغفر كلا الرجلين لصاحبه ومات ابن مسعود فصلى عليه عثمان وقام على قبره وأحسن الثناء عليه . وهذا أشبه بسيرة الرجلين جميعاً .

ويدخل الزبير بن العوام على عثمان ، وكان ابن مسعود قد أوصى إليه فيقول له : ادفع إليّ عطاء بن مسعود ؛ فإن عياله أحق به من بيت المال : قال عثمان : نعم ، ثم أدى إلى الزبير عطاء بن مسعود ومثله معه ، وأمر خازن بيت المال فدفع للزبير

خمسة وعشرين الفاً .

ويجتمع أهل الكوفة بعد ذلك بسنتين حول عليّ رضي الله عنه ، وَيَذْكُرُ ابنُ مسعود ، فيقولون لعليّ : يا امير المؤمنين ، ما رأينا رجلاً كان أحسن خُلقاً ولا أرفق تعليماً ولا أحسن مجالسة ولا أشد ورعاً من عبدالله بن مسعود . فقال عليّ : نشدتكم اللهَ ، إنه لصدقٌ من قلوبكم ؟ قالوا: نعم فقال « اللهم إني أشهدك، اللهم إني أقول فيه مثل ما قالوا أو أفضل » .

- ٢٨ -

لم يشتد أحد من أهل المدينة في معارضة عثمان حين ظهرت الفتنة كما اشتد عمار بن ياسر ، كان على الفطرة كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يكره التأول ويكره المتأولين ، وكان يحب من القول أصرحه ، ومن العمل أوضحه ، ومن السيرة أشدّها استقامة وأبعدها عن العوج والالتواء . وكان الدين الخالص قطعة من طبعه وعنصراً مقوّماً لمزاجه ، وكان أزهد الناس في الدنيا وأقلهم احتفالاً بمنافعها ، وأشدّهم خوفاً من الفتنة ، واكثرهم انصرافاً عن تعقيد السياسة والتوائها . وكان يحب الحق ويسعى اليه ، ولا يحب إلا الحق ولا يسعى إلا إليه . وقد رأى من سيرة النبي وصاحبيه استقامة لا عوجَ فيها ، وصراحة بريئة من الغموض ، فاستقر في نفسه أن امر السلطان يجب أن يستقيم دائماً كما استقام للنبي وصاحبيه . فلما رأى اختلاط الأمر واشتباك المنافع واختلاف الأهواء أيام عثمان ، شقّ عليه هذا كله ، فلم يستطع قلبه أن يسيغه، ولم تستطع فطرته أن تطمئن إليه ، فأنكر فيما بينه وبين نفسه ولاذ بصمته الطويل ، واستعاذ بالله من الفتنة كأشد ما يستعيذ الإنسان بالله منها . ثم رأى الناس وسمعهم ينكرون ، فلم يكد يفكر ويقدر ويستقصي حتى أنكر كما أنكروا وعارض كما عارضوا ، ولكنه على ذلك استمسك بالصمت واستعاذ بالله من الفتنة ؛ حتى رأى وسمع اولئك الشيوخ من اصحاب رسول الله ومن المهاجرين بينهم خاصة ينكرون ، فجعل اليقين يستبين له .

وتحدّث الناس في المدينة ذات يوم أن عثمان أخذ شيئاً من جوهر كان في بيت المال فحلى به بعض أهله ، وجعل المهاجرون والأنصار يقولون في ذلك حتى اكثروا .

وتكلم عثمان على المنبر ذات يوم فقال : لـنأخذنّ حاجتنا من هذا المال وإن رَغمتْ أنوف أقوام . قال عليّ : إذن تُمنع من ذلك . وقال عمار : أشهد الله أن أنفي أولُ راغم . وقد سكت عثمان لقول عليّ وغضب لمقالة عمار فشتمه ، وكان هذا في بعض ما يُروى أول الشرّ الذي انتهى إلى ضرب عثمان لعمار حتى أصابه الفتق وَغُشيَ عليه وفاتته صلوات الظهر والعصر والمغرب . ثم أفاق فتوضأ وصلاهن ، وذكر فتنة قريش له وتعذيبها إياه في الاسلام. ومنذ ذلك اليوم خرج من صمته ، وجعل يقوم ويقعد بنقد عثمان . حتى إذا أقبل الثائرون من الامصار لم ينكر عليهم ولم يحاول ردهم ثم قتل عثمان فلم يأس على قتله ، وربما جادل في أن عثمان قد قتل مؤمناً أو كافراً . وقد خاصم الحسن بن عليّ في ذلك . كان الحسن يرى أن عثمان مات مؤمناً ، وكان عمار يزعم أنه مات كافراً . واشتد الجدال بينهما حتى ارتفعا فيه إلى عليّ رحمه الله ، فكفّ عليّ عماراً عن مثل هذا الجدل في رفق .

ولم يشتدّ عمار في شيء بعد قتل عثمان كما اشتد في مناصرة عليّ ولا سيما حين ثارت الحرب بينه وبين معاوية . في ذلك الوقت استبان الحق لنفس عمار وقلبه وضميره ، ولم يَشكّ لحظة في أن علياً وأصحابه كانوا على الحق ، وفي أن معاوية وأصحابه كانوا على الباطل . ولم يُقبلْ عمار على حرب خالص النية فيها لله ورسوله بعد وفاة النبي كما أقبل على حرب صفين . كانت مقالة النبي له : « تقتلك الفئة الباغية » قد استقرت في أعماق نفسه ، وكأنها ظهرت له جَلية نقية ناصعة ساطعة حين خرج مع عليّ وأصحابه يقصدون قَصدَ صفين . هنالك لم يَشكّ عمار في أن معاوية وأصحابه هم الفئة الباغية ، وفي أن هذه الحرب التي كانوا ينصبونها لابن عمّ النبي إنما كانت تُشبه غيرها من الحروب التي كانت قريش تنصبها للنبي نفسه يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق . فخرج عمار إذن إلى حرب صفين على بصيرة من أمره ، قد أخلص قلبه لله ، ووهب نفسه لله ، وابتغى الشهادة في صفين كما كان يبتغيها في المشاهد التي شهدها مع رسول الله ﷺ .

وقد سمعه من سمعه وهو يقول ذات يوم أثناء مسيره إلى صفين على شط الفرات : اللهم إنه لو أعلم أنه أرضى لك عني أن أرمي بنفسي من هذا الجبل فأتردى فأسقط فعلتُ . اللهمّ لو أعلم أنه أرضى لك عني أن ألقي نفسي في الماء فأغرق نفسي فعلت؛ فإني لا أقاتل إلا أريد وجهك ، وأنا أرجو ألا تخيبني وأنا أريد وجهك .

وكان عمار في ذلك الوقت قد جاوز التسعين ، ولكن الناس ينظرون إليه فإذا

هو قد استرد من القوة والشباب والنشاط ما لم يكن لهم عهد به من قبل . كان أسرعهم إلى الحرب وأكرههم للقعود . وأحبهم للموت وأبغضهم للحياة ، وكان مستيقناً يقيناً لا يعرض له الشك أنه على حق ، وأنه يقاتل في سبيل الله. وقد اشتدت الحرب بين الفريقين بصفين يوماً ويوماً . فلما كان اليوم الثالث قال معاوية : هذا يوم تتفانى فيه العرب إلا أن تدركهم خفة العبد . يريد بالعبد عماراً ، ويريد بخفته شدة نشاطه في الحرب واستخفافه بما تحتاج إليه من مكر وكيد وأناة .

وفي هذا اليوم قاتل عمار نهاره كله حتى ملأ قلوب الناس عجباً وإعجاباً . وكانوا يرونه شيخاً طويلاً آدم ، تُرْعدُ الحربة في يده ، وهو خفيف الحركة موفور النشاط، يسعى هنا وهناك ، يحرض هذا وذاك ، وفريق من المسلمين يرقبونه ويتحدثون ببلائه، بعضهم يصحب جيش عليّ ولكنه لا يقاتل كخزيمة بن ثابت الأنصاري الذي سمع رسول الله ﷺ يقول لعمار : تقتلك الفئة الباغية ، ورأى عماراً يقاتل مع عليّ فهو يرقب عماراً ليرى آخرته . وبعضهم مع معاوية يشهد الحرب ولا يُشارك فيها ، بلغته في مقالة النبي في عمار فهو يرقُب عماراً وينتظر آخرته. ومن هؤلاء هنى مولى عمر ابن الخطاب رحمه الله . في ذلك اليوم قاتل عمار وهو على رأس كتيبته حتى كانت العصر ، فلما جعل الأصيل ينشر أشعته الشاحبة الحزينة على المقتتلين اشتد نشاط عمار وأخذه شيء يشبه أن يكون شغفاً بالموت، فجعل يحث مَنْ حوله على القتال ويصيح : الجنة تحت أطراف العوالي . اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه ، وكان صائماً . فلما وجبت الشمس قال اسقوني . فجيء بشربة من لبن ، فلما رآها ضحك وشرب ثم قال: قال لي رسول الله ﷺ : « آخرُ زادك من الدنيا لبنٌ حتى تموت » . ثم جعل يحرض الناس ويُعيد مقالته : الجنة تحت أطراف العوالي ، الظمآن يَرد الماء ، الماء مورود ، اليوم ألقى الأحبة ، محمداً وحزبه .

وقد انكشف أصحاب عليّ شيئاً ، فلم يُوهن ذلك من نفس عمار ولم يبلغ من يقينه شيئاً ، وإنما جعل يقول والله لو ضربونا حتى يُبلغونا سَعفات هَجرَ لعلمتُ أننا على حق وأنهم على ضلالة .

وكانت راية معاوية مع عمرو بن العاص ، فجعل عمار ينظر إليها ويقول : لقد قاتلت صاحب هذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات وهذه الرابعة . وكانت راية عليّ مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص . وكان هاشم أعور ، فكان عمار يحثه ، يُغلظ عليه مرة فيقول : تقدَّمْ يا أعور ، ويرفق به مرة أخرى فيقول : تقدَّمْ يا

هاشم فداك أبي وأمي . وكان هاشم يقول له : رحمك الله يا عمار ! إني إنما أزحف باللواء وأرجو أن يفتح الله عليّ ويُبلغني ما أريد ، وإن في العجلة الهلكة . فيقول له تَقدّمْ فداك أبي وأمي ، وما يزال به حتى يتقدّم . فإذا رأى عمار صاحب الراية يتقدم بها صاح بمن حوله : مَنْ رائحٌ إلى الله ! من رائح إلى الجنة ؟! ثم اندفع فقاتل حتى قتل .

وقد رأى خزيمة بن ثابت مَصرع عمار فقال : الآن استبانت لي الضلالة ، ثم دخل فسطاطه فاغتسل ، ثم لبس سلاحه ثم تقدّم فقاتل حتى قتل .

وأما هنى مولى عمر بن الخطاب فقد عرف عماراً حين أسفر الصبح ، فأقبل حتى دخل على عمرو بن العاص وهو جالس على سريره ومن حوله نفرٌ يتحدث إليهم ، فقال هنى : أبا عبدالله ؛ قال عمرو : ما تشاء ؟ قال هنى : انظر أكلمك . فقام عمرو حتى خلا إليه . قال هنى : عمار بن ياسر ، ماذا سمعت فيه ؟ قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : تقتله الفئة الباغية . قال هنى : ها هو ذا مقتول. قال عمرو : هذا باطل . قال هنى : بَصرتْ عيني به مقتولاً . قال عمرو : هلمّ أرنيه . فذهب به حتى رآه بين القتلى . فلما رآه امتقع لونه ، ثم أعرض في شِقٍّ ، وقال : إنما قتله مَنْ أخرجه .

وكان عمار قد قال لأصحابه مساء ذلك اليوم : لا تغسّلوني ولا تَحثوا عليّ تراباً فإني مخاصم . فلما قُتل أقبل عليّ فصلّى عليه ، ولم يُغسله وقال : « إن امرأً من المسلمين لم يعظم عليه قتلُ ابن ياسر وتدخلْ به عليه المصيبة الموجعة لغير رشيد . رحم الله عماراً يوم أسلم ، ورحم الله عماراً يوم قُتل ، ورحم الله عماراً يوم يبعث حيّاً . لقد رأيت عماراً وما يُذكرُ من أصحاب رسول الله ﷺ أربعةٌ إلا كان رابعاً ، ولا خمسة إلا كان خامساً . وما كان أحد من قدماء أصحاب رسول الله يشكّ أن عماراً قد وجبت له الجنة في غير موطن ولا اثنين . فهنيئاً لعمار بالجنة » . ولقد قيل : إن عماراً مع الحق والحق معه يدور . عمار مع الحق أينما دار ، وقاتل عمار في النار !

- ٣٩ -

أقبل رجلان من أصحاب معاوية حتى دخلا عليه فسطاطه ومعه عمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو ونفرٌ من أصحابه ، فجعلا يختصمان في قتل عمار ، كلهم يزعم أنه

قاتله . قال عبد الله بن عمرو : ليطب به أحدُكما نفساً لصاحبه ، فإنما تختصمان في النار ! قال رسول الله ﷺ : « تقتل عماراً الفئة الباغية ، وقاتله وسالبه في النار » . قال معاوية لعمرو : ألا تَكفّ عنا مجنونك يا عمرو ! ثم التفت الى عبد الله بن عمرو وقال : إن كان هذا رأيك فمالك معنا ؟ قال عبد الله : إن أبي شكاني لرسول الله ﷺ ، فأمرني أن أطيعه ما دام حياً ؛ فأنا معكم ولست أقاتل . قال معاوية : لم نقتله ، إنما قتله من جاء به .

جلس عمرو بن العاص الى جماعة من أصحابه يسمر معهم بعد أن خلص الأمر كله لمعاوية ، فقال له بعض القوم : إنا نرى رسول الله ﷺ كان يحبك وكان يستعملك أبا عبد الله . قال عمرو : أما إنه كان يستعملني ، وما أدري أكان يحبني أم كان يتألفني ، ولكنا نرى أن رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ توفّى رسول الله وهو لهما محب وعنهما راض . قال القوم . من هما ؟ قال عمرو : عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر . قال القوم : عمار بن ياسر ! فذاك قتيلكم يوم صفين ؟ ! قال عمرو : صدقتم والله لقد قتلناه !

كان عمار على رأس كتيبته يوم قُتل ، وكان ذو الكلاع الحميري من أصحاب معاوية على رأس الكتيبة المواجهة لعمار . فقتلا كلاهما . وتحدث ابن سعد عن أصحابه أن عمرو بن شُرحبيل أبا مَيسرة رجل من أصحاب عبد الله بن مسعود ومن خيرهم ، قال : رأيت في المنام روضة خضراء فيها قبابٌ مضروبة فيها عمار ، وقبابٌ مضروبة فيها ذو الكلاع . فقلت : كيف هذا وقد اقتتلوا ؟ فقيل : وجدوا رباً واسع المغفرة.

- ٣٠ -

وأطرق القاصّ حين بلغ هذا الموضع من حديثه إطراقة طويلة ، حتى ظن سامعوه أنه لن يقول شيئاً فهمّوا أن يتفرقوا ، ولكنه رفع اليهم رأسه وتلا عليهم قول الله عز وجل : « ونريدُ أنْ نَمنّ على الذينَ استضْعفوا في الأرْض ونَجعلهمْ أئمة ونجعلهمُ الوَارثين وَنُمكنَ لهمْ في الأرْض ونُري فرعونَ وهامانَ وَجُنودَهمَا منهمْ مَا كانُوا يَحذَرُونَ » . ثم قال بعد أن سكت سكتة قصيرة : صَدَقَ اللهُ وَعْدَه ! لقد أورث هؤلاء المستضعفين أرضَهُ ، وأدال لهم من قيصر وَكسرَى ، وَجعلهم أئمة للناس ما عاشوا ، حتى اذا اختارهم لجواره وآثرهم بنعيمه جعل ذكرهم خالداً ، وسيرتهم رضا ، وحياتهم قدوة صالحة وأسوة حسنة ؛ فهم أئمة المسلمين حتى يَرِثَ اللهُ الأرض وَمنْ عليها .

الفتنة الكبرى

١

عثمان

هذا حديث أريد أن أخلصه للحق ما وسعني إخلاصه للحق وحده ، وأن أتحرى فيه الصواب ما استطعت إلى تحري الصواب سبيلا، وأن أحمل نفسي فيه على الإنصاف لا أحيد عنه ولا أمالىء فيه حزباً من أحزاب المسلمين على حزب ، ولا أشايع فيه فريقاً من الذين اختصموا في قضية عثمان دون فريق ؛ فلست عثماني الهوى ، ولست شيعة لعلي ، ولست أفكر في هذه القضية كما كان يفكر فيها الذين عاصروا عثمان واحتملوا معه ثقلها وجنوا معه أو بعده نتائجها .

وأنا أعلم أن الناس ما زالوا ينقسمون في أمر هذه القضية إلى الآن كما كانوا ينقسمون فيها أيام عثمان رحمه الله ؛ فمنهم العثماني الذي لا يعدل بعثمان أحداً من أصحاب النبي ﷺ بعد الشيخين، ومنهم الشيعي الذي لا يعدل بعليّ رحمه الله بعد النبي أحداً ، لا يستثني الشيخين ولا يكاد يرجو لمكانهما وقاراً ؛ ومنهم من يتردد بين هذا وذاك ، يقتصد في عثمانيته شيئاً أو يقتصد في تشيعه لعلي شيئاً ، فيعرف لأصحاب النبي كلهم مكانتهم ، ويعرف لأصحاب السابقة منهم سابقتهم،ثم لا يفضل بعد ذلك أحداً منهم على الآخر ، يرى أنهم جميعاً قد اجتهدوا ونصحوا لله ولرسوله وللإسلام والمسلمين ، فأخطأ منهم من أخطأ وأصاب منهم من أصاب ، ولأولئك وهؤلاء أجرهم لأنهم لم يتعمدوا خطيئة ولم يقصدوا إلى إساءة . وكل هؤلاء إنما يرون آراءهم هذه يستمسكون بها ويذودون عنها ويتفانون في سبيلها ؛ لأنهم يفكرون في هذه القضية تفكيراً دينياً ، يصدرون فيه عن الإيمان ، ويبتغون به ما يبتغي المؤمن من المحافظة على دينه والاستمساك بيقينه ،وابتغاء رضوان الله بكل ما يعمل في ذلك أو يقول .

وأنا أريد أن أنظر إلى هذه القضية نظرة خالصة مجردة ، لا تصدر عن عاطفة ولا هوى ، ولا تتأثر بالإيمان ولا بالدين ، وإنما هي نظرة المؤرخ الذي يجرد نفسه تجريداً كاملاً من النزعات والعواطف والأهواء مهما تختلف مظاهرها ومصادرها وغاياتها .

وقد قضى جماعة من المسلمين بل من خيار المسلمين نحبهم قبل أن تحدث هذه القضية وتثار حولها الخصومة ، فلم ينقص هذا من إيمانهم ولا من أقدارهم ، وإنما عصمهم من الشبهة وجنبهم مواطن الزلل ، فمضوا بخير ما كتب الله للمسلمين ، ونجوا من شرّ ما كتب عليهم ؛ وعاش قوم من أصحاب النبي حين حدثت هذه القضية وحين اختصم المسلمون حولها أعنف خصومة عرفها تاريخهم ، فلم يشاركوا فيها ولم يحتملوا من أعبائها قليلاً ولا كثيراً ، وإنما اعتزلوا المختصمين وفروا بدينهم إلى الله ؛ وقال قائلهم سعد بن أبي وقاص رحمه الله : لا أقاتل حتى تأتوني بسيف يعقل ويبصر وينطق فيقول : أصاب هذا وأخطأ ذاك !

فأنا أريد أن أذهب مذهب سعد وأصحابه رحمهم الله ، لا أجادل عن أولئك ولا عن هؤلاء ، وإنما أحاول أن أتبين لنفسي وأبين للناس الظروف التي دفعت أولئك وهؤلاء إلى الفتنة وما استتبعت من الخصومة العنيفة التي فرقتهم وما زالت تفرقهم إلى الآن ، وستظل تفرقهم في أكبر الظن إلى آخر الدهر . وسيرى الذين يقرأون هذا الحديث أن الأمر كان أجل من عثمان وعليّ وممن شايعهما وقام من دونهما ، وأن غير عثمان لو ولي خلافة المسلمين في تلك الظروف التي وليها فيها عثمان لتعرّض لمثل ما تعرض له من ضروب المحن والفتن ، ومن اختصام الناس حوله واقتتالهم بعد ذلك فيه .

وأكاد أعتقد أن الخلافة الإسلامية كما فهمها أبو بكر وعمر إنما كانت تجربة جريئة توشك أن تكون مغامرة ، ولكنها لم تنته إلى غايتها ، ولم يكن من الممكن أن تنتهي إلى غايتها ، لأنها أجريت في غير العصر الذي كان يمكن أن تجري فيه ، سبق بها هذا العصر سبقاً عظيماً .

وما رأيك في أن الإنسانية لم تستطع إلى الآن ، على ما جربت من تجارب وبلغت من رقي ، وعلى ما بلغت من فنون الحكم وصور الحكومات ، أن تنشىء نظاماً سياسياً يتحقق فيه العدل السياسي والاجتماعي بين الناس على النحو الذي كان أبو بكر وعمر يريدان أن يحققاه !

وقد ذهبت الإنسانية في الحكم مذاهبها المختلفة ؛ فكان فيها حكم الملوك الذين كانوا يرون أنفسهم آلهة ، وكان فيها حكم الملوك الذين كانوا يرون أنفسهم ظلالاً للآلهة ، ثم كان فيها حكم الملوك الذين كانوا يرون أنفسهم ظلالاً لإله واحد وهؤلاء الملوك جميعاً كانوا يرون مخلصين أو غير مخلصين أن سلطانهم لا يأتيهم من الناس ، وإنما يأتيهم من آبائهم الآلهة إن رأوا أنفسهم آلهة ، ويأتيهم من الإله أو من الآلهة الذين اتخذوهم

لأنفسهم ظلالاً واستخلفوهم على عبادهم من الناس ؛ فكان هؤلاء الملوك يصدرون فيما يأمرون وما ينهون وفيما يأتون وما يدعون عن أنفسهم ، لا يعنيهم أن يرضى الناس أو يسخطوا ، فليس للناس أن يرضوا أو يسخطوا ، وإنما عليهم أن يذعنوا ؛ وليس من شأن رضاهم أو سخطهم أن يغير من سيرة ملوكهم شيئاً ؛ فأنت تستطيع أن ترضى عن الشمس حين تضيء ، وتسخط عليها حين تحتجب ، فلن يغريها رضاك بالإشراق ، ولن يمنعها سخطك عن الاحتجاب .

عرفت الإنسانية حكم هؤلاء الملوك فسعدت به قليلاً وشقيت به كثيراً ، وحاولت أن تغيره فأتيح لها هذا التغيير في بعض الظروف ؛ فعرفت حكم القلة الأرستقراطية التي تستأثر بالعدل فيما بينها من دون الناس ، وعرفت حكم الطغاة الذين أقبلوا لينقذوا الشعب من ظلم هذه القلة واستئثارها ، وليشيعوا العدل بين الناس جميعاً لا يفرقون بين الأقوياء والضعفاء، ولا بين الأغنياء والفقراء ، ولا بين القادرين والعاجزين، فلم يتح لهم إلا أن يشيعوا الظلم بين الناس جميعاً ، وأن يذلوا القلة مع الكثرة ويردوها من الضعة والهوان إلى مثل ما حاولت أن تخرج منه أو إلى شرّ مما حاولت أن تخرج منه .

ثم عرفت الإنسانية بعد ذلك نظاماً من نظم الحكم ظنت أنه من خير النظم وأرقاها وأقومها وأمثلها وأجدرها أن يحقق العدل السياسي والاجتماعي بين الناس ، وهو هذا النظام الذي يرد الى الشعب أمور الشعب يصرّفها كما يشاء ويدبرها كما يحب ، ولكن الانسانية جربت هذا النظام فنالت به قسطاً من العدل ، ولم تنل به العدل كله ، بل لم تنل به من العدل إلا أيسره وأهونه شأناً ؛ فلم يتح للناس الى الآن أن يتفقوا على رأي ولا أن يجتمعوا على هوى ، ولا أن تتحد لهم كلمة أو يلتئم لهم شمل ؛ وهم من أجل ذلك يردون أمر الشعب إلى الشعب في ظاهر الأمر ثم لا يصنعون من ذلك شيئاً في حقيقة الأمر : يستفتون الشعب في أمره ؛ فاذا كان الاختلاف — ولا بد من ان يكون الاختلاف — أنفذوا أمر الكثرة وأهدروا أمر القلة ، وأتاحوا بذلك للأكثرين أن يستذلوا الأقلين ، أو أن يحكموهم على غير ما يريدون ، ولو قد ضمن للأكثرين أن يحكموا أنفسهم ، وأن يحكموا الأقلين لكان هذا النظام مقارباً للعدل مباعداً للظلم المنكر الى حد ما ؛ ولكن الاكثرين لا يحكمون بأنفسهم ولا سبيل الى أن يحكموا بأنفسهم ، فهم يكلون أمر الحكم الى ممثلين لهم يختارونهم لذلك اختياراً ، ويكلفونهم بذلك تكليفاً ، وقد يخلص هذا الاختيار في نفسه من العنف والإغراء ، ومن الرغب

والرهب ، ولا يخاص ، ولكن ليس من شك في أن هؤلاء المثالين الذين تكل الكثرة إليهم أمور الحكم ، ناس من الناس ، فيهم القوة وفيهم الضعف ، وفيهم الشدة وفيهم اللين و وفيهم القناعة وفيهم الطمع ، وفيهم الإيثار وفيهم الأثرة ؛ فهم معرضون لأن يجوروا عن القصد ، وينحرفوا عن الطريق ، ويحملوا أنفسهم ويحملوا الناس معهم على غير الجادة ، ويتورطوا كما تورط الملوك المستبدون ، وكما تورطت الأرستقراطية المستأثرة ، وكما تورط الطغاة المستملون في الظلم والجور .

هذا كله ولم نتجاوز العدل السياسي ، فكيف اذا قصدنا الى العدل الاجتماعي الذي يراد منه ان لا يجعل الناس سواء أمام الحاكم فحسب ، وإنما يجعلهم سواء أمام الثمرات التي قدر للناس أن يعيشوا عليها ؛ قد عجزت نظم الحكم التي عرفتها الإنسانية ، على اختلاف العصور والبيئات والظروف ، عن أن تحقق هذا العدل الاجتماعي تحقيقاً ينتهي بالناس الى اطمئنان لا يشوبه قلق ، ورضا لا يشوبه سخط ، وأمن لا يشوبه خوف ؛ والانسانية المعاصرة ترى من ذلك ما لا يحتاج الى أن نطيل القول فيه ، فالديمقراطية قد ضمنت للناس شيئاً من حرية وقليلاً من مساواة أمام القانون ، ولكنها لم تكد تضمن لهم من العدل الاجتماعي شيئاً ؛ والشيوعية قد ضمنت للناس قليلاً او كثيراً من العدل الاجتماعي ، فألغت ما بينهم من الفروق ، وأتاحت للعاملين منهم أن يعملوا وينتفعوا بثمرة أعمالهم ، وأتاحت للعاجزين منهم أن يعيشوا غير معرضين لذلة او ضعة او هوان ، ولكنها ضحت في سبيل ذلك بحريتهم كلها فلم تدع لهم منها شيئاً ، او لم تكد تدع لهم منها شيئاً ؛ والفاشية قد ضحت بالحرية والعدل جميعاً ، فاستذلت الناس لسلطان الدولة استذلالا بعيد المدى ، واستغلتهم لقوة الدولة أبشع استغلال وأشنعه ، ثم لم ترد عليهم من نتائج عملهم شيئاً ، ولم تحفظ عليهم من حريتهم قليلاً ولا كثيراً .

سلكت الانسانية في سبيل الحكم الصالح كل هذه الطرق ، وجربت كل هذه النظم ، فلم تنته الى غاية ، وما زالت تشكو الظلم والجور ، وتضيق بالاستذلال والاستغلال ، وتبحث عن النظام القويم الذي يضمن للناس الحرية والعدل جميعاً . وهذا النظام القويم هو الذي حاولت الخلافة الإسلامية لعهد أبي بكر وعمر أن تنشئه ، فمات أبو بكر رحمه الله ولم يكد يبدأ التجربة ، وقتل عمر رحمه الله وقد خطا بالتجربة خطوات واسعة ، ولكنه لم يرض عنها أولاً — فقد روى عنه انه كان يقول في آخر خلافته : « لو استقبلت من امري ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء » . فقد رأى عمر إذن أنه لم يبلغ من تحقيق العدل الاجتماعي ما كان يريد ، فكيف ولم

يعرف المسلمون ولا غير المسلمين أميراً حاول من العدل ما حاول عمر ، وحقق منه ما حقق عمر ، – ولم يرض الناس عن تجربة عمر في أيامه ثانياً – فقد كانوا يهابونه ويشفقون من سلطانه ، ويعطيه أكثرهم خوفاً ورهباً ؛ وكان أشد الناس حباً لعمر وأشد الناس حباً إلى عمر يبتغون إليه الوسيلة ليرفق بنفسه وبهم وبعامة الناس فلا يبلغون منه شيئاً ؛ لأنه كان يؤثر العدل على كل شيء – ثم لم يرض المغلوبون عن هذه التجربة آخر الأمر ، فقد كانوا يرون أنهم يكلفون ما لا يحبون وفوق ما يطيقون ، وكانوا يرون أنهم أصحاب سابقة في الحضارة ، وأن العرب طارئون على هذه الحضارة ، وأن مما يخالف أهواء نفوسهم أن يتسلط البادون على الحاضرين ؛ وقد قتل عمر رحمه الله نتيجة لهذا السخط ، قتله أحد هؤلاء المغلوبين الذين شكا اليه شدة سيده المغيرة بن شعبة ، فلما حقق شكاته لم يُعتبه ، فكانت نتيجة ذلك أن طعن وهو يستقبل الصلاة .

على أن من الإسراف أن نقضي في هذه التجربة الجريئة بهذه السرعة السريعة ، فمن حقها علينا أن نقف عندها وقفة فيها شيء من تمهل وأناة ، لنرى أكان من الممكن أن تبقى ، ولنرى أكان من الممكن أن تنجح وتبلغ غايتها ؛ فقد نحقق بهذه الوقفة المتمهلة المستأنية ما أخذنا به أنفسنا من الإنصاف أولاً ، وقد تعيننا هذه الوقفة المتمهلة المستأنية على أن نفقه هذه المشكلات الكثيرة التي ثارت من نفسها ، او أثيرت ايام عثمان ، لا لأن عثمان كان هو الخليفة ، بل لأن الوقت كان قد آن ليثور بعض هذه المشكلات من تلقاء نفسه ، وليثير الناس بعضها الآخر .

– ٢ –

كانت القاعدة الأساسية التي أقام ابو بكر وعمر عليها نظام حكمهما ، هي أن يسيرا سيرة النبي في المسلمين ما وجدا الى ذلك سبيلا . وسيرة النبي في المسلمين معروفة الى أبعد حد ممكن . وكان قوام هذه السيرة تحقيق العدل الخالص المطلق بين الناس ، وما نحتاج فيما نظن أن نقيم على ذلك دليلا ، وحسبنا أن نذكر من لا يذكر أن الإسلام إنما جاء قبل كل شيء بقضيتين اثنتين : أولاهما التوحيد ، وثانيتهما المساواة بين الناس ، والله عز وجل يقول : « يا أيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . وكان أغيظ ما غاظ

قريشاً من النبي ودعوته أنه كان يدعو الى هذا العدل والى هذه المساواة ، ولم يكن يفرق بين السيد والمسود ، ولا بين الحر والعبد ، ولا بين القوي والضعيف ، ولا بين الغني والفقير ، وإنما كان يدعو الى أن يكون الناس جميعاً سواء كأسنان المشط ، لا يمتاز بعضهم من بعض ، ولا يستعلي بعضهم على بعض ؛ وقد يقال إنه لم يلغ الرق ولم يمنع الناس من أن يملك بعضهم بعضاً. ولكن الذين يفقهون الإسلام ويعرفونه حق معرفته لا ينكرون أن هذه الخطوة الهائلة التي خطاها الإسلام حين سوى بين الحر والعبد أمام الله كانت وحدها حدثاً خطيراً في تاريخ الناس ، وحدثاً خطيراً له ما بعده لو مضت أمور المسلمين على وجهها ، ولم يعترضها ما اعترضها من الفتن والمحن والخطوب ؛ فالله قد فرض الصلاة على الأحرار والرقيق ، كما فرض عليهم الصوم ، وقد فرض عليهم أن يخلصوا قلوبهم له ؛ والله قد عصم دماء أولئك وهؤلاء على السواء ؛ والله قد شرع دينه واحداً لأولئك وهؤلاء ، لم يشرع بعضه للأحرار وبعضه للعبيد . وهذا وحده خليق لو مضت الأمور على وجهها أن يمحو الرق محواً ويحرمه تحريماً ؛ فكيف وقد جعل الله فك الرقبة وإعتاق الرقيق من الامور التي يتنافس فيها المسلمون يدخرون بها الأجر من الله والمثوبة عنده ، وكيف والله قد فتح في الدين ابواباً كثيرة لا يكاد يلجها الرقيق حتى يعتق ، والله قد مد في أسباب الإعتاق والتحرير لمن شاء أن يتصل بها ، فجعل الإعتاق كما قدمت آنفاً من الأعمال الصالحات التي يقصد إليها المسلم ، وجعل الإعتاق كفارة لبعض الخطايا ، ولم يدع وسيلة تيسر الإعتاق وتغرى به وتعين عليه وتفرضه على الناس فرضاً إلا دعا إليها ورغب فيها وشرعها للمسلمين .

وقد سخطت قريش أشد السخط وأعنفه على النبي لما أظهر من ذلك ، حتى لأكاد أعتقد أنه لو قد دعاها إلى التوحيد دون أن يعرض للنظام الاجتماعي والاقتصادي ، ودون أن يسوي بين الحر والعبد وبين الغني والفقير وبين القوي والضعيف ، ودون أن يلغي ما ألغى من الربا ، ودون أن يأخذ من الأغنياء ليرد على الفقراء - أقول لو قد دعاهم النبي إلى التوحيد وحده دون أن يمس نظامهم الاجتماعي والاقتصادي لأجابته كثرتهم في غير مشقة ولا جهد ؛ فما كانت قريش مؤمنة بأوثانها إيماناً خالصاً ، ولا كانت قريش حريصة على آلهتها حرصاً صادقاً ، وما كانت قريش إلا شاكة ساخرة ، تتخذ الأوثان وسيلة لا غاية ، وسيلة إلى استهواء العرب واستغلالها - أو لأجابه من قريش من أجاب ، وامتنع عليه منها من امتنع ، دون أن يلقى ذلك مشقة أو عنتاً ، إلا أن يكون حرص قريش على آلهتها نتيجة حرصها على مكانتها من العرب وانتفاعها بما

كان يجلب إليها من الثمرات ، ومهما يكن من شيء فقد سخطت قريش على النبي لأنه عرض لنظامها الاجتماعي، وفرض عليها نوعاً من العدل لا يلائم منافع سادتها وكبرائها، أكثر مما سخطت عليه لأنه عاب آلهتها ودعاها إلى أن تلغي الواسطة بينها وبين الله . والناس جميعاً يعلمون أن النبي (صلعم) ربما رفق ببعض السادة من قريش طمعاً في أن يستميله إلى الإسلام فيكون ذلك قوة للدعوة الجديدة ، وربما دعاه هذا الرفق إلى شيء من الإعراض عن بعض المستضعفين ، فلامه الله في ذلك أشد اللوم وأعنفه ، وأنزل الله في ذلك قرآناً . وما زال الناس يقرأون ما أنزل الله في قصة ابن أم مكتوم من قوله عز وجل : « عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يُدريك لعله يزّكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما مَن استغنى . فأنت له تصدى . وما عليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى . كلا إنها تذكرة . فمن شاء ذكره . في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة » .

فالتسوية بين الناس إذن هي مظهر أحد الأساسين اللذين قام عليهما الإسلام ، وهما التوحيد والعدل ؛ وقد سار النبي في أصحابه بمكة ثم بالمدينة سيرة قوامها العدل في الجليل من أمرهم والخطير ، حتى استقر في نفوس المسلمين أن العدل ركن أساسي من أركان الإسلام ، وأن الانحراف عنه انحراف عن الإسلام ، والإخلال به إخلال بالدين ؛ ومن أجل ذلك لم يتردد بعض المسلمين في أن ينكر على النبي نفسه بعض ما رأى ، ولم يفهم حين كان النبي يقسم الغنائم بعد حُنين ، ويتألف بعض ما كان يتألف من العرب فيعطيهم أكثر من حقهم في الغنيمة ، فقال له : اعدلْ يا محمد فإنك لم تعدل . وقد أعرض النبي (صلعم) عنه أول الأمر ، ولكنه أعاد كلمته وأعادها ، فظهر الغضب في وجه النبي وقال : ويحك ! فمن يعدل إذا لم أعدل ؟

وهمّ بعض المسلمين أن يبطشوا بهذا الرجل ولكن النبي كفهم عنه لأنه كان يحفظ لأصحابه حريتهم وحقهم في المشورة والاعتراض والنقد . والنبي مع ذلك لم يتألف من تألف من العرب إلا عن وحي من الله وإذن في القرآن ؛ فالله قد أذن له في سورة « براءة » أن يتألف قلوب بعض الناس من أموال الصدقة ، وجعل تألف بعض القلوب مصرفاً من مصارف الصدقة .

فهو إذن لم يجر عن القصد حين أعطى من الغنيمة جماعة من هؤلاء الذين أذن الله له في أن يتألف قلوبهم ؛ وليس أدل على أن النبي مضى في رعاية العدل إلى أبعد حد ممكن ، من هذه السنة التي استنها في نفسه فأحب الخلفاء أن يسنوها بعده في الناس فلم

يبلغوا من ذلك ما أرادوا ؛ فقد أقص النبي من نفسه ، وزعم عمر أثناء خلافته أن أي عامل آذى بعض رعيته بغير الحق فهو عرضة لهذا القصاص ، ويقال إن بعض الرعية شكا إلى عمر في الموسم أن عامله قد ضربه بغير الحق ، فلما استبان ظلم العامل لعمر قضى بأن يقتص منه شاكيه ، وفزع العمال إلى عمر يطلبون إليه أن يقيل هذا العامل من هذا القصاص ؛ لأنه يغض من هيبة السلطان ، ويطمع الرعية في أمرائها ، فلم يقبل منهم عمر على كثرة ما ألحوا ، ثم رضي آخر الأمر أن يعفي العامل من هذا القصاص إذا أرضى شاكيه ، وقد استطاع هذا العامل أن يرضي شاكيه فلم يتعرض لهذا القصاص . وكانت حجة عمر أن النبي قد أقصَّ من نفسه وهو خير أمته ، فلا على غيره من الخلفاء والولاة أن يُقصّوا من أنفسهم عن رضاً ، أو أن يقص منهم السلطان وهم كارهون . وقد احتج خصوم عثمان عليه بإقصاص النبي من نفسه ، وبما أراد عمر من إقصاص الرعية من ولاتها ، وطلبوا إليه أن يقص من نفسه ، فلم يجبهم إلى ما أرادوا . والذين قرأوا سيرة النبي وسنته يعلمون أنه لم يكن يؤثر نفسه بخير دون أصحابه ، إلا أن يؤثره الله بهذا الخير في أمر يوحيه إليه في القرآن ؛ فهو كان يشاورهم وينزل عند مشورتهم ، وهو كان يحارب معهم إذا حاربوا ويسالم معهم إذا سالموا ، وهو كان يبني معهم المسجد ويحفر معهم الخندق ويتغنى معهم وهم يتغنون ، يستعينون بالغناء على مشقة الحفر والبناء ، وهو كان يحمل معهم الأحجار والتراب ، يرى نفسه واحداً منهم قد آثره الله بالوحي والنبوة ، فلم يؤثر نفسه بأكثر مما آثره الله به ، والسيرة والسنن تروى أنه حين مرض مرضه الذي خرج به من الدنيا سأل عن شيء من ذهب كان قد بقي عنده من مال المسلمين ، فلما جيء به أخرجه إلى الناس ولم يبق منه شيئاً ، وتوفي وهو لا يملك من الدنيا بيضاء ولا صفراء . وقد اشتد على نفسه في ذلك ، واشتد الله عليه فيه أيضاً ، إذ كان لا ينطق عن الهوى ، فلم يكتف بالارتفاع عن أن يؤثر نفسه بشيء من دون أصحابه ، وإنما أبى إلا أن يسير في أهله سيرته في نفسه ، فقال : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ؛ ما تركناه صدقة » . وقد جاءت فاطمة رحمها الله تطلب إلى أبي بكر ميراث أبيها : فَدَك ، فلم يجبها إلى ما طلبت وروى لها هذا الحديث .

فقد قامت سيرة النبي إذن على العدل بين الناس فيما يكون بينهم وبين أنفسهم ، وعلى العدل بين الناس وبين نفسه ، وعلى العدل بين الناس وبين أهله أيضاً ؛ واجتهد صاحباه من بعده أن يذهبا مذهبه ويسيرا سيرته ما استطاعا إلى ذلك سبيلاً ؛ بل هم

أبو بكر أن يكلف نفسه فوق ما تطيق ، فأراد أن يكون إماماً للمسلمين ينظر في أمرهم ويقف عليهم وقته وجهده، وأن يسعى مع ذلك ليكسب قوته وقوت أهله ، ورآه المسلمون ذات يوم يحمل بعض العروض يسعى بها إلى السوق ليبيع ويشتري كما كان يفعل قبل أن يستخلف ، وكما كان المسلمون يعملون من حوله ؛ ولكن المسلمين أشفقوا عليه من ذلك ، أو أحس هو العجز عن أن يكون كاسباً وخليفة في وقت واحد ، على اختلاف في الروايات ؛ فرزقه المسلمون من بيت المال ؛ ولم يسرفوا عليه في الرزق ، وإنما أعطوه ما يقيم أوده وأود أهله .

وقد سار أبو بكر سيرة النبي نفسه ، فتحرج أن يموت وعنده من أموال المسلمين شيء ، وأوصى آل أبي بكر أن يردوا على عمر هنات كانت عنده من أموال المسلمين، وقد ردت هذه الهنات على عمر فبكى وهمّ أن يقبلها ، فأنكر عليه عبد الرحمن بن عوف ذلك ، ولكن عمر أبى إلا أن يتحرج في ذات صاحبه كما تحرّج هو في ذات نفسه ، وكره أن يلقى أبو بكر ربه فيسأله عما بقي عنده من هذه الهنات ، وكره أن يقول أبو بكر لربه : ردها أهلي وأبى عمر أن يقبلها .

وكذلك يبلغ حرص النبي وأبي بكر على العدل أن يتأثما مما لا إثم فيه ، وأن يتحرجا مما لا تتحرج منه ضمائر الأتقياء ؛ ولو قد طالت خلافة أبي بكر لرأينا منه في ذلك الأعاجيب ، ولكن خلافة عمر جاوزت عشر سنين ، فأرانا من ذلك ما لا تكاد تصدقه النفوس . ومن الناس من يزعم أن الرواة قد تكاثروا على عمر ، وأضافوا إليه من الشدة أكثر مما كان فيه ، ولكن الذين يقرأون سيرة عمر في كتب السنن والطبقات والتاريخ يفرقون في غير مشقة بين ما يمكن أن يكون الرواة قد تكلفوه وبين ما يلائم سيرة عمر وطبعه ومزاجه من الأحداث والواقعات ، فقد كان عمر شديداً على الناس إلى أقصى حدود الشدة في ذات الله ، ولكنه كان على نفسه أشد منه على الناس. وما أعرف أن التاريخ الإنساني كله يستطيع أن يجد لعمر نظيراً في هذا الضمير الحي الحساس المتحرج المتأثم الذي يخاف على نفسه ما لا يُخاف، وينكر من نفسه ما لا ينكر ، ويأخذ نفسه من ضروب الشدة والعنف بما لا يأخذ الرجل به نفسه إلا أن يكون من أولي العزم . والناس يعلمون أن عمر رأى الشدة التي نزلت بالمسلمين في عام الرمادة ، فأبى إلا أن يشارك الناس في شدتهم ، وأبى إلا أن يشارك من الناس في هذه الشدة أعظمهم حظاً من الفقر والضيق .

عرف أن عامة الناس من حوله لا يجدون السمن ، فحرّم السمن على نفسه وصبرها

على الخبز الجاف والزيت ؛ ثم شق عليه الزيت ، فخيل إليه أنه لو طبخ لانكسرت حدته ولكان أيسر إساغة وهضماً ، فتقدم إلى مولاه في أن يطبخ له الزيت ، فلما طعمه مطبوخاً كان أوجع له وأشد عليه ، وقد أثر ذلك في صحته فتغير له لونه ، وعرف المسلمون ذلك فلم يستطيعوا أن يردوه عنه ، لأنه أبى أن يخصب حتى يخصب عامة المسلمين .

ولم يؤمن عمر قط فيما بينه وبين نفسه بأنه مدبر هذه الدولة الضخمة ذات الآفاق الواسعة والفتح البعيد ، وإنما كان فيما بينه وبين نفسه يرى ولايته عجباً من العجب ، وغريبة من الغرائب ، ويقول لنفسه إذا خلا إليها : بخ بخ يا بن الخطاب ! أصبحت أمير المؤمنين ! وما يزال يذكر أنه كان قبل الإسلام ترعية يرعى على أبيه الخطاب غنيمة ، يحدّث الناس بذلك ويحدثهم بالمكان الذي كان يرعى فيه ، ويحدثهم بما كان يلقى من الخطاب في عمله ذاك من الشدة والجهد . ولم يكن عمر يبخل بنفسه على عمل من أعمال المسلمين مهما يكن عسيراً شاقاً ، وقد رئي ذات يوم في حظيرة إبل الصدقة يحصى هذه الإبل ويصفها وصفاً دقيقاً مستقصى ، يقول ذلك لعلي ويؤدي علي عنه إلى عثمان ، فيكتبه عثمان في الصحف ، حتى أعجب عليّ منه بذلك فتلا ما جاء في القرآن على لسان ابنة شعيب في موسى : « يا أبت استأجره إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين » ثم قال : هذا هو القوي الأمين . ورأى الناس عمر يطلي إبل الصدقة بالقطران يهنأ منها مواضع النقب ، كما يفعل الرعاة والمستضعفون من الناس ، لا يجد في ذلك مشقة ولا يرى منه بأساً ؛ وكان بعد شدته هذه العنيفة على نفسه يشتد على أهله حتى يرهقهم من أمرهم عسراً ، وكان إذا نهى الناس عن شيء وحذرهم العقوبة إن فعلوه ، جمع إليه أهله وقال لهم : إني قد نهيت المسلمين عن كذا وحذرتهم العقوبة إن أتوه ، وإن الناس ينظرون إليكم لمكانكم مني ؛ فلا أعرفن أن أحدكم قد أتى ما نهيت عنه الناس إلا أضعفت له العقوبة .

وكان في عام الرّمادة يتتبع طعام أهله تتبعاً دقيقاً ؛ فإن رأى عند احدهم يسراً أو سعة رده عن ذلك ردّاً عنيفاً ، ثم كان بعد أن يعنف بنفسه وبأهله هذا العنف لا يتحرج في أن يأخذ الناس بسياسته تلك التي وصفها حين قال : « شدة في غير عنف ، ولين في غير ضعف » .

روي أنه كان يقسم مالاً بين المسلمين ذات يوم وقد ازدحم الناس عليه ، فأقبل سعد بن أبي وقاص رحمه الله ، ومكانه من النبي مكانه ، وبلاؤه في فتح فارس بلاؤه ،

فزاحم الناس حتى زحمهم وخلص إلى عمر ؛ فلم يكن من عمر إلا أن علاه بالدرّة ، وقال : لم تهبْ سلطان الله في الأرض ، فأردت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك !

كذلك كان حرص عمر على أن يسوي بين الناس وبين أنفسهم ، وعلى أن يسوي بين الناس وبين نفسه وأهله . كل هذا بالقياس إلى سيرته الخاصة التي كان يسيرها في كل يوم .

ولكن هذه الناحية من حياة عمر أيسر النواحي وأهونها على ما فيها من الشدة والجهد ؛ فهناك السياسة العامة التي أخذ عمر نفسه بها وجعلها لخلافته شريعة ومنهاجاً ، وأول ذلك سياسته لهؤلاء النفر من كبار الصحابة وأعلام المهاجرين والأنصار ؛ فهؤلاء هم أصحاب السابقة في الإسلام وأصحاب المكانة الممتازة من النبي ، إليهم الحل والعقد في كل أمور المسلمين ، يؤدي إليهم عمر حسابه عن تصرفه في كل أمر من الأمور العامة ، ويستشيرهم في الجليل والخطير من المصالح ، ويرى أنه قد ولي عليهم وليس خيرهم ، فما عسى أن تكون سيرته فيهم مع ذلك ؟ ما عسى أن تكون سياسته لهم ؟ أخذهم بالحزم والرفق جميعاً ، فجعلهم نظراءه وخاصته وأصفياءه وذوي مشورته ؛ ولكنه خاف عليهم الفتنة ، وخاف منهم الفتنة أيضاً ، فأمسكهم في المدينة لا يخرجون منها إلا بإذنه ، وحبسهم عن الأقطار المفتوحة لا يذهبون اليها إلا بأمر منه . خاف منهم أن يفتتن بهم الناس ، وخاف عليهم أن يغرهم افتتان الناس بهم ، وخاف على الدولة اعقاب هذا الافتتان وما من شك في أن هذا قد شق على كثير من أصحاب النبي ومن المهاجرين منهم خاصة .

وآية ذلك ان عثمان لم يكد يتولى أمر المسلمين حتى فك عنهم هذا العقال وأذن لهم ، فتفرقوا في الأرض ، فرضوا عنه كل الرضا ، ثم لم تمض أعوام حتى ضاقوا به أشد الضيق ، وكانت الفتنة التي خشي عمر أن تكون . ثم كان عمر قد فرض لكل واحد من أصحاب النبي عطاءه على مكاناتهم وسابقاتهم في الإسلام ، وعلى منازلهم وقرابتهم من النبي ؛ وكان عمر يرى أن فيما فرض لهم من العطاء ما يغنيهم ويكفيهم السعي والاكتساب ، ولكنهم مع ذلك اكتسبوا واتجروا ، وكان منهم من ضارب ، فعظم ثراؤهم وكثرت أموالهم ، فتوسعوا في الغنى وتوسعوا في العطاء أيضاً ، ولم يستطع عمر أن يمنعهم من ذلك أو يردهم عنه ؛ فهم كانوا يتجرون ويكتسبون أيام النبي فلم يردهم النبي عن التجارة ولا عن الاكتساب ، ولكن عمر رأى ثراءهم وثراء غيرهم من المسلمين ، بفضل ما أفاء الله عليهم من غنائم الفتح ، وبفضل هذه الأعطيات التي كانت توزع عليهم كل عام ، فلم يرض عن ذلك ، ولم تطب به نفسه ، حتى كان يقول : لو استقبلت

من أمري ما استدبرت ، لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء. ولو قد مُد لعمر في أسباب الحياة لكان من الممكن أن يرى التاريخ الإسلامي منـه في ذلك عجباً .

وقد كثرت أموال المسلمين بفضل الفتح أيام عمر ، فوقف من كثرتها موقف الحيرة أولاً وشاور أصحابه ؛ فأما عليّ فأشار عليه بما يلائم السنة الموروثة ولا يلائم تطور الحياة ، فقال له : تقسم ما يرد من الأموال ، حتى إذا حـال الحول لم يبق في بيت المال درهم ولا دينار إلا ذهب إلى مستحقه ؛ وأما عثمان فقال له : أرى مالاً كثيراً ، وإذا لم يضبط خشيت أن ينتشر الأمر . ثم انتهى عمر في القصة المعروفة إلى أن دوّن الدواوين ، وفرض للناس أعطياتهم ، وأمسك في بيت المال لمصالح المسلمين العامة ما يتجاوز هذه الأعطيات .

ولم تلبث الحوادث ان أظهرت صواب هذا الرأي الذي أشار به عثمان والذي كان يلائم طبيعة الأشياء في دولة متحضرة أو تريد أن تتحضر، فلما كان عام الرمادة وجد عمر في بيت المال ما أتاح له أن يقيم أمر الناس حتى يأتيه الغوث من الأقاليم؛ وكان يقول : نطعم المسلمين من بيت المـال ، حتى إذا لم نجد فيه شيئاً أدخلنا على كل أهل بيت من الأغنياء مثلهم من المحتاجين ، وما نزال نفعل ذلك حتى يطعم المسلمون جميعاً.

على أن هذا النحو من سياسة المال كان أيسر ما ذهب إليه عمر ، وهو على ذلك قيّم له حظه العظيم في إيثار العدل والرفق بالناس، ولكن هناك مذهباً لعمر في سياسة المال ذهب إليه ومضى فيه إلى مدى بعيد ، ويخيل إلي أن الأمم المتحضرة تحـاول الآن أن تذهب اليه، فلا يتاح لها ذلك إلا في مشقة شاقة ، وعسر عسير .

فقد كان عمر يرى ويعلن ان هذا المال الذي يأتي من الفيء ومن جبـاية الجزية والخراج ، ملك للمسلمين جميعاً ، لا يستأثر به واحد دون الناس، ولا يستأثر به فريق من الناس دون غيرهم من الرعية ؛ وكان يرى أنه المسئول الأول والأخير عن حفظ هذا المال أولاً، وعن رده الى أهله ثانياً؛ وكان يقول : لو ندّ جمل من إبل الصدقة أبعد الأرض او أصابه مكروه لخشيت ان يسألني الله عنه يوم القيامة . وكان يقول : إن عشت ليأتين الراعي في جبل صنعـاء نصيبه من هذا المال .

وكان قد فرض للناس أعطياتهم من هذا المال ، للرجل عطاؤه ، وللمرأة عطاؤها، وللطفل عطاؤه ، وللشيخ الفاني وذي العاهة عطاؤه . وكان يحسب أنه بذلك قد بلغ من العدل ما أراد ، ولكنه مر ذات ليلة فسمع صبياً يبكي فمضى لشأنه ، ثم مر بـه

ثانية فسمعه يبكي ، فسأل أمه عن ذلك فأجابته جواباً ما ، ولكنه مر الثالثة فسمعه يبكي ، فلما ألح على أمه في السؤال أنبأته بأنها تريغه عن الرضاع : لأن عمر لا يفرض للأطفال إلا حين يفطمون ؛ فلما سمع عمر ذلك جزع له جزعاً شديداً ، ثم أصبح فأمر من أذّن في الناس: لا تعجلوا بفطام أطفالكم ؛ فإنا نفرض لأطفال المسلمين منذ يولدون.

وكان عمر ينفذ أمر الله في أخذ الصدقات، ولكنه كان يتحرج في أخذها وتوزيعها تحرجاً شديداً ؛ والناس يعلمون أن أعرابياً سأل النبي ذات يوم : آلله أمرك أن تأخذ هذه الأموال من أغنيائنا فتردها على فقرائنا ؟ فقال له النبي : اللهم نعم .

فكان عمر رحمه الله يعزم على سعاته أن يتحروا العدل في أخذ الصدقة من كل حي من أحياء العرب ، وأن يردوا صدقة كل حي على فقرائه حتى يستغنوا عن المسألة ، وأن يعودوا عليه بفضل ذلك ؛ فإذا عادوا عليه بهذا الفضل حبسه على المصارف التي فرضها الله في القرآن ، فأعان بهـا الفقير والمسكين وابن السبيل والغارمين ، وما الى ذلك من هذه المصارف التي ذكرها الله في آية الصدقات .

وما أذكر الاشتراكية وما أذكر الشيوعية ، فلم يكن عمر صاحب اشتراكية ولا شيوعية ؛ لأنه أقر الملك كما أقره النبي والقرآن ، ولأنه أذن في الغنى كما أذن فيه النبي والقرآن ؛ ولكن أذكر العدل الاجتماعي الذي يستطيع أن يتحقق في غير إلغاء للملك ولا تحريم للغنى ، والذي تحاول بعض الديمقراطيات الحديثة أن تحققه محتفظة للمالكين بما يملكون ، وللأغنياء بكثير مما يجمعون .

وأذكر مشروع بيفردج الذي حاول أن تكفل الدولة للنـاس حياتهم وصحتهم وحاجتهم وكرامتهم ، دون أن تضطرهم إلى أن يُستذلوا أو يُستغلوا ، ودون أن تغريهم بالتبطل والفراغ .

أذكر طموح الديمقراطية في هذا العصر وقصورها عن تحقيق ما تطمح إليه ، ثم أذكر ما حاول عمر من ذلك وما حقق ، فلا أتردد في أن الشاعر الذي رثاه إنما أثنى عليه بالحق حين قال :

جزى الله خيراً من إمام وباركت ... يـد الله في ذاك الأديم الممزق
فمن يجر أو يركب جناحي نعامة ... ليدرك ما أدركت بالأمس يُسبق
قضيت أموراً ثم غادرت بعدهـا ... بوائق في أكمامهـا لم تَفتق

ثم لم يكن عمر رفيقاً بعماله وولاته ولا مسمحاً لهم ، وإنمـا كان يراقبهم أشد المراقبة ، كان لا يولي عاملا إلا أحصى عليه ماله حين التولية وأحصاه عليه حين العزل،

فإن وجد فرقاً قاسم العامل هذا الفرق ، فترك له شطراً ورد الشطر الآخر إلى بيت المال ؛ ثم كان يتتبع سيرة هؤلاء العمال في الرعية من قريب جداً ، ويعزم عليهم سراً وإعلاناً ألا يؤذوا المسلمين في أنفسهم ولا في أبشارهم ولا في أشعارهم ولا في أموالهم ، وكان يلوم بعض ولاته في بعض ذلك فيقول : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

وكان يشاور من عنده في المدينة من أصحاب النبي فيما يلم من الخطوب كل يوم ، ويضرب لعماله موعداً إذا كان الموسم ، فيحج بالناس ويسمع من العمال في أمر الرعية ومن الرعية في أمر العمال ، ويرد الأمر في ذلك كله إلى نصابه ؛ وأكاد أعتقد أن عمر لو قد مدت له أسباب الحياة لنظم الشورى في أمر المسلمين نظاماً مستقراً باقياً ، يعصمهم من الفتنة والاختلاف ، ويكف الولاة عن الظلم والاستعلاء .

ولم أتحدث عن بلاء عمر رحمه الله فيما دبر من أمور المسلمين ، حتى فتحوا الأقطار ومصروا الأمصار وأنشأوا هذه الدولة العربية الإسلامية الضخمة ؛ فأنا لم أحاول أن أكتب تاريخ عمر ولا أن ألم بحياته إلماماً يسيراً ، وإنما أردت إلى أن أبين أن السيرة التي سارها النبي واجتهد صاحباه من بعده في أن يتبعاها ، إنما كانت سيرة قوامها العدل الخالص المطلق الذي لا يخشى في الحق لومة لائم ، والذي يعلم أن الله يراقبه من جهة في كل لحظة من لحظات الليل والنهار ، يراقب منه ما ظهر ويراقب منه ما خفي ويسأل منه عن كل شيء ، ويعلم من جهة أخرى أن الناس يراقبونه مراقبة شديدة أذن لهم فيها ، بل فرضت عليهم فرضاً ، فهم مكلفون أن يطيعوا الخليفة ما استقام ، وأن يقوموه إن اعوج ، وأن يسألوه عما يلتبس عليهم من سيرته ليتبعوه عن علم ، ويشيروا عليه عن بصيرة ، ويخالفوه عن عزيمة وإعذار .

فهل كانت هذه السيرة التي سارها النبي ، واجتهد صاحباه في أن يسيراها ما استطاعا إلى ذلك سبيلا ، ملائمة لما فطر الناس عليه من الأثرة والطمع والحرص على المنافع العاجلة ؟ وهل كانت هذه السيرة قادرة على أن تبقى حتى تغير من طباع الناس فترقى بهم إلى المثل العليا التي دعا إليها النبي وصاحباه ؟

- ٣ -

وأول ما ينبغي أن نتبينه لنستطيع الإجابة على هذا السؤال هو طبيعة هذه الحكومة التي حكمت المسلمين منذ أسست الدولة حين هاجر النبي وأصحابه إلى المدينة

إلى أن قتل عمر واستخلف عثمان ؛ فقد يظن بعض الذين تخدعهم ظواهر الأمور أن هذه الحكومة ، أو بعبارة أدق أن نظام الحكم في هذا العهد القصير ، قد كان نظاماً تيوقراطياً يعتمد قبل كل شيء وبعد كل شيء على الدين . ولما كان الدين في هذه البيئة الخاصة ديناً سماوياً منزلاً ، فقد يظن أصحاب هذا الرأي أن الحكومة التي كانت تحكم المسلمين في هذا العهد إنما كانت تستمد سلطانها من الله ، ومن الله وحده ، لا ترى أن للناس شأناً في هذا السلطان ، ولا ترى أن من حقهم أن يشاركوا فيه ، أو يعترضوا عليه ، أو ينكروا منه قليلا أو كثيراً . وقد يخيل إلى الذين يذهبون هذا المذهب أن من أصرح الدلائل على ذلك وأصدقها أن النبي هو الذي أسس هذه الدولة بأمر من الله عز وجل ؛ فالله أمره أن يهاجر إلى المدينة ، والله دعا المسلمين من أهل مكة إلى أن يهاجروا معه ، والله أوحى إلى النبي بمجملات ومفصلات من الحكم ، والله قال في سورة النجم : « ما ضلّ صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى » . والله أمر المسلمين أن يطيعوا الله ورسوله ، وبيّن لهم أنهم لن يؤمنوا حتى يحكموا النبي فيما شجر بينهم ؛ وقد يضيفون إلى ذلك أن أبا بكر كان خليفة رسول الله ، وأن عمر كان خليفة أبي بكر ؛ فقد تنزل الحكم إذن من النبي إلى هذين الإمامين الراشدين ، والنبي إنما تلقى السلطان من الله عز وجل ؛ فنظام الحكم إذن في هذا العهد إنما هو النظام التيوقراطي الإلهيّ لا أكثر ولا أقل . ولا أشك في أن هذا الرأي أبعد الآراء عن الصواب ؛ فقد كان الإسلام وما زال ديناً قبل كل شيء وبعد كل شيء ، وجه الناس إلى مصالحهم في الدنيا وفي الآخرة بما بين لهم من الحدود والأحكام التي تتصل بالتوحيد أولاً ، وبتصديق النبي ثانياً ، وبتوخي الخير في السيرة بعد ذلك ، ولكنه لم يسلبهم حريتهم ولم يملك عليهم أمرهم كله ، وإنما ترك لهم حريتهم في الحدود التي رسمها لهم ، ولم يحص عليهم كل ما ينبغي أن يفعلوا ، وكل ما ينبغي أن يتركوا ، وإنما ترك لهم عقولا تستبصر ، وقلوباً تستذكر ، وأذن لهم أن يتوخوا الخير والصواب والمصلحة العامة والمصالح الخاصة ما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

وقد أمر الله نبيه أن يشاور المسلمين في الامر ، ولو قد كان الحكم متنزلاً من السماء لأمضى النبي كل شيء بأمر ربه لم يشاور فيه أحداً ولم يؤامر فيه ولياً من أوليائه ؛ فكيف والله يقول له : « ولو كنت فظّاً غليظَ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » . ومن قبل هذه الآية التي نزلت فيما نزل من

القرآن بعد محنة أحُد ، قبل النبي مشورة أصحابه في غزوة بدر حين نزل بهم منزلاً فسأله بعضهم : أعن أمر من الله نزل بهم هذا المنزل ، أم هو الرأي والمكيدة ؟ فقال: بل هو الرأي والمكيدة . فأشير عليه حينئذ أن يمضي بالمسلمين عن هذا المنزل الذي لم يكن يلائم خطط الحرب حتى ينزل بهم في المنزل الملائم قريباً من الماء . ثم قبل رأي أصحابه بعد وقعة بدر فيما كان من أمر الأسرى ، وتعرض في ذلك لما أصابه من اللوم الذي نزل به القرآن في قول الله عز وجل : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثخنَ في الأرض تريدون عَرَضَ الدنيا والله يريد الآخرة » . وكان النبي يرى حين بلغه سير قريش إليه في وقعة أحد أن يقيم في المدينة ولا يخرج بأصحابه للقاء قريش بالعراء ، وأن يذود قريشاً إن هاجمت المدينة ؛ ولكن أصحابه ، والأنصار منهم خاصة ، ألحوا في الخروج إلى عدوهم ، فنزل النبي عند رأيهم ، ثم دخل ليلبس لأمته ، وندم المسلمون أثناء ذلك لأنهم استكرهوا رسول الله على ما لم يحب ، فلما خرج إليهم في سلاحه اعتذروا إليه واستأذنوه في الرجوع إلى رأيه ، فأبى ومضى على عزيمته ؛ ولو كان الحكم إلهياً يتنزل دائماً من السماء لما استطاع المسلمون أن يستكرهوا رسول الله على ما لا يريد ، ولما قبل النبي منهم ذلك مهما تكن الظروف . وعن المشورة والاعتماد على رأي أصحابه صدر النبي حين أمر بحفر الخندق في غزوة الأحزاب .

ففي هذه المواطن كلها وفي مواطن أخرى شاور النبي اصحابه وقبل رأيهم عن رضاً أو نزل عند رأيهم إيثاراً لرضاهم ؛ فلما كان يوم الحديبية شاور النبي أصحابه بعد أن عرضت عليه قريش ما عرضت من الرجوع عن مكة عامة ذاك دون أن يزور البيت ، فكره أصحابه إجابة قريش إلى ما طلبت ، وألحّ النبي في ذلك ، وضاق بعض أصحابه بهذا الألحاح ، حتى قال له عمر : لِمَ نُعطى الدنية في ديننا ؟! هنالك ظهر الغضب في وجه النبي ، وقال : أنا رسول الله وعبده . فعلم المسلمون أن الأمر ليس أمر مشورة ومفاوضة وإنما هو أمر قد نزل به الوحي من السماء ، فتابوا إلى الله وثابوا إلى نبيهم ، وأنزل الله في ذلك : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » إلى آخر الآية .

ولو أردنا أن نستقصي المواطن التي شاور فيها النبي أصحابه لطال بنا الحديث إلى أبعد مما نريد . ولكن في هذه الأحداث اليسيرة التي رويناها ما يكفي لإثبات أن الحكم في أيام النبي لم يكن يتنزل من السماء في جملته وتفصيله ، وإنما الوحي كان يوجه النبي وأصحابه إلى مصالحهم العامة والخاصة دون أن يحول بينهم وبين هذه الحرية التي تتيح لهم أن يديروا أمرهم على ما يحبون في حدود الحق والخير والعدل . وربما

كان من أصدق الأدلة وأقطعها على ما نذهب إليه أن القرآن لم ينظم أمور السياسة تنظيماً مجملاً أو مفصلاً ، وإنما أمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، ورسم لهم حدوداً عامة ، ثم ترك لهم تدبير أمورهم كما يحبون على ألا يتعدوا هذه الحدود ؛ وأن النبي نفسه لم يرسم بسنته نظاماً معيناً للحكم ولا للسياسة ولم يستخلف على المسلمين أحداً من اصحابه بعهد مكتوب أو غير مكتوب حين ثقل عليه المرض ، وإنما أمر أبا بكر فصلى بالناس ، وقال المسلمون بعد ذلك : رضيه رسول الله لأمور ديننا فما يمنعنا أن نرضاه لأمور دنيانا ؟! ولو قد كان للمسلمين نظام سياسي منزل من السماء لرسمه القرآن أو لبين النبي حدوده وأصوله ، ولفرض على المسلمين الإيمان به والإذعان له في غير مجادلة ولا مناضلة ولا مماراة .

وأخرى تدل على أن نظام الحكم في أيام النبي وصاحبيه لم يكن إلهيًا منزلا من السماء ، وهي البيعة التي سنها رسول الله للمسلمين حتى في أيامه هو ؛ والناس جميعاً يعلمون أنه استنفر اصحابه لوقعة بدر ولم يأمرهم بها أمراً ، وإنما دعاهم إليها ورغبهم فيها ووعدهم بأمر الله إحدى الحسنيين ؛ وكان العهد بينه وبين الأنصار ألا يخرجهم لقتال ، وان يدافعوا عنه إذا تعرض للأذى ؛ فلما كانت غزوة بدر شاور أصحابه وانتظر ان يدلوا اليه بآرائهم ، ولم يمض بهم الى القتال حتى قال له زعماء الأنصار : لو سلكت بنا هذا البحر لأتبعناك ؛ فعرف أنهم يرضون ان يخرجوا معه للقتال . والناس جميعاً يعلمون أنه لم يأمر أصحابه بقتال قريش حين بلغه أنها مكرت بعثمان يوم الحديبية ، وإنما ندبهم لذلك فبايعوه على الموت ، ولو قد شاء أحدهم ألا يبايع لكان له مخرج ، ولكنهم بايعوه جميعاً ؛ لأنهم كانوا يؤمنون به وبالله الذي ارسله ويستجيبون إذا دعاهم . وقد أنزل الله في هذه البيعة من سورة الفتح : « إن الذين يُبايعونك إنما يُبايعون الله يدُ الله فوق أيديهم » . وفي القرآن آيات كثيرة ترغب المؤمنين في الجهاد وتدعوهم اليه ، وتذكر الذين تخلفوا عن الجهاد فعذرهم الله ورسوله ، والذين تخلفوا وتكلفوا الأعذار فلم يقبل منهم ولكن النبي مع ذلك لم يعاقبهم ولم يعرض لهم بما يكرهون ، وإنما ترك أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء تاب عليهم .

وليس أقل من هذا خطراً أن أمر الخلافة كله قام على البيعة ، أي على رضا الرعية ، فأصبحت الخلافة عقداً بين الحاكمين والمحكومين ، يعطي الخلفاء على أنفسهم العهد أن يسوسوا المسلمين بالحق والعدل ، وأن يرعوا مصالحهم ، وأن يسيروا فيهم سيرة النبي ما وسعهم ذلك ؛ ويعطي المسلمون على أنفسهم العهد أن يسمعوا ويطيعوا وأن

ينصحوا ويعينوا .

وما من شك في أن خليفة من خلفاء المسلمين ما كان ليفرض نفسه وسلطانه عليهم فرضاً إلا أن يعطيهم عهده ويأخذ منهم عهدهم ، ثم يمضي فيهم الحكم بمقتضى هذا العقد المتبادل بينه وبينهم ؛ ومن أجل ذلك لم يورث السلطان عن النبي وراثة ، لم يرثه عنه أهل بيته ، ولم يرثه عنه أبو بكر نفسه ؛ وإنما تلقى هذا السلطان من الجماعة التي بايعته به وائتمنته عليه ؛ ثم لم يرث أبناء أبي بكر عنه الخلافة ، ولم يرثها عنه عمر نفسه ؛ وما كان استخلاف أبي بكر لعمر إلا مشورة على المسلمين ، وآية ذلك ان عهد أبي بكر لم ينفذ ولم يصبح عمر خليفة إلا بعد أن بايعه المسلمون رضاً برأي أبي بكر وقبولاً لمشورته ، وآية ذلك أيضاً أن عثمان خرج بعهد أبي بكر الى الناس مختوماً وأبو بكر لم يمت بعد ، فقال لهم : أتبايعون لمن في هذا الكتاب ؟ قال نعم . لأنهم كانوا يثقون بأبي بكر ويرضون رأيه ويرون أنه لهم ناصح وبهم رءوف . ولم يرث أبناء عمر عنه الخلافة ، وكره عمر أن تكون الخلافة بعده في أحد من ولده ، وأشرك ابنه عبدالله في الشورى على ألا يكون له في الأمر شيء ؛ ومن أجل ذلك أيضاً سخط عامة المسلمين على توريث السلطان في أيام معاوية ، وقال قائلهم : إنما جعلها هرقلية أو كسروية . فإذا دل هذا كله على شيء فانما يدل على ان الحكم أيام النبي لم يكن مفروضاً من السماء لا رأي للناس فيه ؛ وإذا كان الأمر أيام النبي الذي كان يتنزل عليه الوحي ، فأحرى أن يكون الأمر كذلك أيام صاحبيه بعد أن تقطع عن الناس خبر السماء .

والذين يظنون أن نظام الحكم في هذا الصدر من حياة المسلمين كان إلهياً يُخدعون عن رأيهم هذا بما يجدون في أحاديث الخلفاء وخطبهم ، وفي أحاديث الناس عنهم واليهم ومن ذكر الله وأمره وسلطانه وطاعته ، يحسبون أن هذا كله يدل على ان نظام الحكم منزل من السماء ، مع أنه لا يدل في حقيقة الأمر إلا على شيء يسير خطير في وقت واحد ، وهو أن الخلافة عهد بين المسلمين وخلفائهم ، وأن الله أمر المسلمين بأن يوفوا بعهد الله إذا عاهدوا سواء أكان هذا العهد متصلاً بشؤون الحكم أم متصلاً بالعلاقات الخارجية أم متصلاً بما يكون بين الأفراد من العهود والمواثيق ؛ فالله يأمر باحترام العهود ، والله شاهد على ضمائر الناس حين يوفون بالعهود أو ينكثونها ، والله يثيب من وفى بالعهد ويعاقب من نكثه عقاباً شديداً .

فليس بين الإسلام وبين المسيحية مثلاً فرق من هذه الناحية . فالإسلام دين يأمر

بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويوجه إلى الخير ويصد عن الشر ، ويريد أن تقوم أمور الناس على العدل وتبرأ من الجور ، ثم يخلي بعد ذلك بينهم وبين أمورهم يدبرونها كما يرون ما داموا يرعون هذه الحدود ؛ ولا تزيد المسيحية على هذا ولا تنقص منه ؛ والأمر ما قال عيسى عليه السلام للذين جادلوه من بني إسرائيل : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . وما أشك في أن عيسى عليه السلام لم يرد أن يعطى ما لقيصر لقيصر بغير حقه ، أو أن تقوم الصلة بين قيصر وبين الناس على الظلم والجور والخوف.

وسنرى في غير هذا الموضع من هذا الحديث أن من المسلمين من أنكر على بعض العمال أيام عثمان قولهم : إن ما كان يأتي من الفيء ويجنى من الخراج مال الله ، وقالوا : هو مال المسلمين ، وتعرضوا في سبيل ذلك لبعض الأذى ؛ ولو قد فهم المسلمون نظام الحكم في ذلك الصدر من حياتهم على أنه نظام إلهي لما أنكروا أن يقال مال الله . ولذلك اعتذر معاوية من هذا التعبير حين أنكر عليه ، بأن الناس وما ملكوا لله ، فهم عباد الله وماهم مال الله .

لم يكن نظام الحكم إذن أيام النبي تيوقراطية مقدسة ، وإنما كان أمراً من أمور الناس ، يقع فيه الخطأ والصواب ، ويتاح الناس أن يعرفوا منه وأن ينكروا وأن يرضوا عنه ويسخطوا عليه .

ويظن آخرون أن نظام الحكم أيام النبي وصاحبيه قد كان نظاماً ديمقراطياً . وهذا تجوز في الألفاظ وخروج بها عن الدقائق من معانيها ؛ وقد ينبغي أن نتبين معنى الديمقراطية بالدقة قبل أن نقول إن نظام الحكم هذا كان أو لم يكن ديمقراطياً . والديمقراطية لفظ يدل به على حكم الشعب بالشعب وللشعب ، أي على أن يختار الشعب حكامه اختياراً حراً ، ويراقبهم مراقبة حرة ، ليتبين أنهم يحكمونه لمصلحته هو لا لمصلحتهم هم ، ويعزلهم إن لم يرض عن حكمهم ولم يطمئن إلى الثقة بهم .

كذلك فهمت الديمقراطية في العصور القديمة عند اليونان ، وكذلك تفهم الديمقراطية في العصور الحديثة عند الأمم التي تصطنع هذا النظام ، على اختلاف مع ذلك في فهم كلمة الشعب ؛ فهذه الكلمة كانت تضيق في أيام اليونان مثلاً ، حتى لا تدل إلا على جماعة ضئيلة من المواطنين لهم وحدهم جميع الحقوق يستوون فيها أمام القانون ، على حين لا تستمتع الكثرة الكثيرة من هذه الحقوق بشيء ولا تساهم من أمور الحكم بنصيب ؛ وكان هذا اللفظ يتسع بعد الثورة الفرنسية إلى حيث يشمل عدداً ضخماً

من المواطنين يكون لهم الاستمتاع بالحقوق السياسية ولكنه لم يشملهم جميعاً ؛ فهو محدد بملك مقدار من المال ، أو أداء مقدار معين من الضرائب ، أو تحصيل قدر معين من الثقافة؛ ثم اتسع في آخر القرن الماضي حتى شمل المواطنين جميعاً من الرجال منذ يبلغون الرشد ، ثم اتسع في هذا القرن حتى شمل المواطنين من الرجال والنساء منذ يبلغون الرشد . والديمقراطية بعد ذلك ، سواء أكانت ضيقة أم واسعة ، نظم مقررة تكفل استمتاع الشعب بحقوقه واختياره لحكامه ومراقبته لهؤلاء الحكام .

فإذا فهمت الديمقراطية على هذا المعنى الدقيق ، فليس من شك في أن نظام الحكم في الصدر الأول من حياة المسلمين لم يكن ديمقراطياً ؛ فالشعب لم يكن يختار حكامه بهذا المعنى الدقيق ، وليس الشعب هو الذي اختار النبي ليبلغه رسالات ربه وليقيم الأمر فيه بالقسط والعدل ؛ ولكن الله أرسل رسوله فاتبعه من اتبعه وخالف عنه من خالف عنه ؛ وإذا قلنا إن الذين اتبعوا النبي من أصحابه قد اختاروه ليكون لهم حاكماً ، فهم لم يختاروه على النحو الذي يختار عليه الحكام في النظام الديمقراطي ، وهم لم يكونوا يراقبونه ولا يحاسبونه ، إنما كان النبي يستشيرهم فيشيرون عليهم ، وكانوا يشيرون عليه حسبة أحياناً ، وكان يقبل منهم او لا يقبل . وليس من الدقة في شيء أن يقال إن حكم أبي بكر وعمر قد كان حكماً ديمقراطياً بالمعنى الدقيق ، فليس كل المسلمين قد اختاروا أبا بكر وعمر لأمر الخلافة ، وإنما اختارهما فريق بعينه من المسلمين ، وهم أولو الحل والعقد من المهاجرين والانصار ، على ما كان بينهم في ذلك من اختلاف أول الأمر .

ولم يُستأمر العرب الذين مات النبي وهم مسلمون من أهل مكة والطائف والبادية في اختيار أبي بكر او عمر ، وانما اختارهما أهل المدينة فسمع لهما سائر المسلمين وأطاعوا ، ولذلك لم يكن غريباً قول من قال من أصحاب الردّة :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر

ثم لم يكن للشعب ، بل لم يكن لهذا الفريق من المهاجرين والأنصار ، نظام معين مقرر محدد يراقبون به سيرة الخلفاء ويحاسبونهم على ما يأتون به وما يدعون ، وإنما كان الخلفاء يستشيرونهم فيشيرون عليهم ، يستشيرونهم مجتمعين حيناً ومتفرقين حيناً آخر ، وكان لمن شاء من المهاجرين والأنصار ان يشير على الخليفة حسبة فيقبل الخليفة منه او لا يقبل ، وإذن فلم يكن نظام الحكم في ذلك الصدر من حياة المسلمين نظاما ديمقراطيا بمعناه الدقيق في الفقه الدستوري عند القدماء او المحدثين .

فإذا أطلق لفظ الديمقراطية على هذا المعنى العام الذي يفهم منه حاجة الحكام الى رضا الشعب عنهم وثقة الشعب بهم ، وأخذ الحكام أنفسهم بأن يسيروا في الشعب سيرة تقوم على العدل والمساواة ، وتبرأ من التسلط والاستعلاء ، فأنت تستطيع ان تقول إن نظام الحكم في الصدر الاول للاسلام قد كان نظاماً ديمقراطيا بهذا المعنى العام الذي ليس له مقاييس ولا معايير ولا حدود ؛ وسترى أثر ذلك فيما عرض للمسلمين من أمور الفتنة أيام عثمان .

وقوم آخرون قد يظنون أن نظام الحكم في ذلك الصدر من الإسلام قد كان نظام السلطان الفردي العادل ؛ فلم يكن للنبي ولا لصاحبيه من بعده شركاء في الحكم ، وإنما كان لهم من أصحابهم مشيرون لا يلزمون بمشورتهم أحداً ؛ ولكن النبي وصاحبيه كانوا على ذلك يتوخون العدل ولا يتوخون غيره . وهذا النحو من التفكير يقرّب نظام الحكم الى حد ما من النظام الذي عرفه الرومان أيام الملوك والقياصرة ، فقد كان ملوك روما وقياصرتها لا يتوارثون الحكم حتماً ، وإنما ينتخب اكثرهم لانتخاباً، وكان احدهم اذا انتخب ولي الامر حياته كلها إلا أن تخلعه منه ثورة او انتقاض . وكل ما يكون من الفرق بين هذا النظام الروماني وبين النظام الاسلامي أيام النبي وصاحبيه ، هو أن العدل كان وحده قوام الحكم فيما عرف المسلمون من هذا النظام ، على حين كان ملوك الرومان وقياصرتهم يتجاوزون العدل والقسط في كثير من الاحيان وليس هذا الرأي اكثر دقة من الرأيين السابقين .

فنحن نعلم أن قد كان للدين سلطانه في اختيار الملوك والقياصرة عند الرومان . وفيما يكون من سيرة هؤلاء الملوك والقياصرة . ولكن الفرق بين النظام الروماني والإسلامي هو الفرق بين دين ودين، كما انه الفرق بين جنس وجنس وبين بيئة وبيئة؛ فلم يكن للدين الذي سيطر على ملوك الرومان خاصة وعلى قياصرتهم الى حد ما ، من النقاء والسمو ما يشبه نقاء الديانات السماوية من قريب او بعيد ؛ إنما كان دين الرومان يقوم على العيافة والزجر واستطلاع ضمائر الغيب بطرق نقرأها الآن فنبتسم لها ونضحك منها ، وكان تطور الشعب الروماني من حياته الساذجة الاولى الى حياته المعقدة مباعداً كل البعد لتطور الشعب العربي من جاهليته الى إسلامه ؛ فقد كان التطور الروماني مادياً ، إن صح هذا التعبير ، نشأ من تقدم الحضارة قليلاً قليلاً ، على حين كان التطور العربي معنوياً ، نشأ من تغير النفس العربية بتأثير الإسلام ، فكأنه كان تطوراً من داخل الى خارج ، تغيرت النفس العربية فتغيرت الحياة المادية

للعرب ، على حين كان التطور الروماني من خارج الى داخل ، تغيرت ظروف الرومان الخارجية فتطورت نفوس الرومان وضمائرهم .

والبيئتان من بعد ذلك مختلفتان بمقدار ما يكون الاختلاف بين إيطاليا والحجاز . فليس غريباً ألا يكون هناك تشابه بين نظام الحكم الروماني أيام الملوك وأيام القياصرة، ونظام الحكم في الصدر الأول للاسلام .

وأكاد أتصور تشابهاً بعيداً او قريباً بين نظام الحكم الروماني أيام الجمهورية ونظام الحكم الإسلامي بعد وفاة النبي ؛ فقد كان الرومانيون يختارون قناصلهم على نحو يوشك أن يشبه اختيار المسلمين لخلفائهم؛ وإلى شيء من ذلك نحا الأنصار حين قالوا للمهاجرين: منا أمير ومنكم أمير . ثم كان سلطان القنصل بعد اختياره يشبه في عمومه وشموله سلطان الخلفاء ؛ إلا أن سلطان القنصل كان موقوتاً بسنة واحدة ، وكان سلطان الخلفاء يمتد مدى الحياة بعد اختيار الخليفة ؛ وكان سلطان القنصل مقيداً بالقوانين التي تصدرها جماعة الشعب والقرارات التي يصدرها مجلس الشيوخ ، كما كان سلطان الخليفة مقيداً بالحدود التي رسمها الدين ، وبما يرى كبار الصحابة من رأي ، وبما تميل اليه او تنحرف عنه عامة المسلمين . ولكن هذه كلها وجوه للتشابه يظهر فيها التكلف والتصنع والإبعاد ؛ فإذا أضفنا اليها مظاهر الحكم التي كانت تحيط بالقنصل ولم يكن يحيط منها بالخليفة شيء ، وإذا أضفنا الى ذلك بعض النظم التي اقتضتها ظروف الجمهورية الرومانية لتقييد سلطان القنصل وحماية العامة من تحكمه ، كنظام الزعماء الذين كانت الدهماء تنتخبهم ليكفوا عنها جور القنصل إن همّ القنصل بشيء من الجور — أقول إذا أضفنا هذه الفروق الى وجوه الشبه تلك المتكلفة ، كان من الواضح أن ليس هناك صلة قريبة او بعيدة بين نظام الحكم العربي في ذلك العهد القصير وبين نظم الرومان في عهد الملوك او عهد الجمهورية او عهد القياصرة .

ليس من شك في أن المسلمين قد اقتبسوا كثيراً من نظم القياصرة والأكاسرة في السياسة والإدارة والحرب ، ولكن هذا الاقتباس جاء متأخراً جداً عن العصر الذي نتحدث فيه ؛ فلننصرف إذن عن هذا التشابه الذي لا يقوم على أساس متين .

لم يكن نظام الحكم الإسلامي في ذلك العهد إذن نظام حكم مطلق ، ولا نظاماً ديمقراطياً على نحو ما عرف اليونان ، ولا نظاماً ملكياً أو جمهورياً أو قيصرياً مقيداً على نحو ما عرف الرومان ، وإنما كان نظاماً عربياً خالصاً بيّن الإسلام له حدوده العامة من جهة ، وحاول المسلمون أن يملأوا ما بين هذه الحدود من جهة أخرى .

وقد قلت في بعض أحاديثي عن نشأة النثر عند العرب أن القرآن ليس شعراً ولا نثراً ، وإنما هو قرآن له مذاهبه وأساليبه الخاصة في التعبير والتصوير والأداء ، فيه من قيود الموسيقى ما يخيل الى أصحاب السذاجة أنه شعر ، وفيه من قيود القافية ما يخيل اليهم أنه سجع ، وفيه من الحرية والانطلاق والترسل ما قد يخيل الى بعض أصحاب السذاجة الآخرين أنه نثر ؛ ومن أجل هذا خدع المشركون من قريش ، فقالوا انــــه شعر ، وكذبوا في ذلك تكذيباً شديداً ؛ ومن أجل هــذا خدع كذلك بعض المتتبعين لتاريخ النثر فظنوا أنه أول النثر العربي ، وتكذيبهم الحقائق الواقعة تكذيباً شديداً ، فلو قد حاول بعض الكتاب الناثرين – وقد حاول بعضهم ذلك – أن يأتوا بمثله لمــا استطاعوا إلا أن يأتوا بما يضحك ويثير السخرية .

قلت ذلك بالقياس الى القرآن ، وأريد أن أقول شيئاً قريباً منه بالقياس الى نظام الحكم العربي الاسلامي في ذلك العهد ؛ فهو لم يكن ملكـــاً ، ولم يكن يؤذي النبي وصاحبيه شيء كما كان يؤذيهم أن يظن بهم الملك ؛ وهو لم يكن جمهورياً ، فلم نعرف في نظم الجمهورية نظامــاً يتيح الرئيس المنتخب أن يرقى الى الحكم فلا ينزله عنه إلا الموت ؛ ولم يكن قيصرياً بالمعنى الذي عرفه الرومان، فلم يكن الجيش هو الذي يختار الخلفاء ؛ فهو إذن نظام عربي إسلامي خالص لم يُسبق العرب اليه ، ثم لم يقلدوا بعد ذلك فيه ؛ وهذا لا يعفينا مع ذلك من أن نحلله ونتبين دقائقه لنرى أكان قادراً على البقاء أم كان خليقاً أن يتغير متى تغيرت الظروف التي أحاطت بنشأته ثم بتطوره .

وأول ما نلاحظ من العناصر التي كان هذا النظام يأتلف منها ، العنصر الديني ؛ فلم يكن هذا النظام ، كما قلت آنفاً ، نظاماً سماوياً ، وإنما كان نظاماً إنسانيـــاً ، ولــكنه على ذلك تأثر بالدين الى حد بعيد جداً . لم يكن الخليفة يصدر عن وحي أو شيء يشبه الوحي في كل ما يأتي وما يدع ، ولكنه على ذلك كان مقيداً بما أمر الله به من إقامة الحق وإقرار العدل وإيثار المعروف واجتناب المنكر والصدود عن البغي .

وهذا الوحي الذي اتصل ثلاثة وعشرين عاماً يصابــــح المسلمين ويماسيهم ، ينزل قرآناً مرة ، وينطق به النبي حديثاً مرة أخرى ، ويجريه النبي بسيرتـه العملية سنة متبعة مرة ثالثة . قد أيقظ في نفوس المسلمين من خاصة النبي ضميراً دينياً قوياً دقيقاً حياً إلى أبعد غايات القوة والدقة والحياة ؛ فلم يكن من الممكن أن يتخلص منه المسلم في قول أو عمل أو تفكير ، بل لم يكن من الممكن أن يخلص منه في يقظة أو نوم ؛ فصلته بالرعية إن كان حاكماً ، وبالحاكم إن كان رعية ، وبنظرائه في حياتـه اليومية

متأثرة دائماً بهذا الضمير ؛ وهذا هو الذي يخيل لكثير من الناس أن نظام الحكم في ذلك الوقت قد كان نظاماً يتنزل من السماء إلى الأرض ، وليس الأمر كذلك ، وإنما هو يدور مع مقدار ما يكون لضمير الخليفة ورعيته من التأثر بالدين .

أما العنصر الثاني من العناصر التي ائتلف منها هذا النظام، فهو عنصر الأرستقراطية التي لا تعتمد على المولد ولا على الثروة ولا على ارتفاع المكانة الاجتماعية بمعناها الشائع العام ، وإنما تعتمد على شيء آخر أهم من هذا كله وهو الاتصال بالنبي أيام حياته والإذعان لما كان يأمر به وينهى عنه في غير تردد ولا شيء يشبه التردد ، والإبلاء بعد ذلك في سبيل الله في أوقات السلم والحرب جميعاً .

هذه الخصال أنشأت منذ ظهر الإسلام طبقة ممتازة من الناس ، لم تستأثر من دونهم بحق من حقوق الدنيا ، ولم تجن لنفسها منفعة عاجلة أو آجلة ، وإنما آثرها النبي بحبه وأعلن إليها وإلى الناس أن الله قد آثرها بحبه أيضاً ؛ فالذين سبقوا إلى الإسلام ، والذين عذبوا في الله والذين هاجروا بدينهم إلى بلاد الحبشة ثم إلى المدينة ، والذين آووا ونصروا ، والذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذين لزموا النبي يسمعون له ويكتبون عنه - كل أولئك كوّنوا هذه الطبقة التي أحبها الله ورسوله وأكبرتها عامة المسلمين . وهذه الطبقة لم تكن ترى نفسها أحق بالامتياز ولا أجدر بالاستعلاء ، وإنما كانت ترى نفسها كغيرها من الناس ، وكان تواضعها نفسه يزيدها حباً عند رسول الله، ويرفعها درجات عند الله، ويعلي مكانتها في نفوس عامة الناس؛ ولم تكن هذه الطبقة مؤلفة من ذوي المولد الممتاز والنسب الصريح والثراء العريض وحدهم ، وإنما كانت مؤلفة من بعض هؤلاء ومن آخرين كان منهم العبد الذي فتن في دينه حتى صادف من المسلمين من اشتراه وأعتقه ، وكان منهم الضعيف الذي أقبل مستجيراً بمكة يعيش في حمى حلف عقدها مع هذا الحي أو ذاك من أحياء قريش ومع هذا العظيم أو ذاك من عظمائها ، وكان منهم من أقبل على مكة ذات يوم فوجد فيها أمناً ومكسباً فأقام ؛ ثم كان منهم من صرح نسبه وحسن مولده ، ولكنه كان قصير اليد قليل المال ، فهو في عزة من قومه ولكنه في ضيق من عيشه يكسب حياته كما يستطيع .

وكان منهم كل هؤلاء ، وكل هؤلاء سوّى بينهم الإسلام في الحقوق والواجبات ، ولم يفرق بينهم إلا في حظوظهم من حسن البلاء في سبيل الإسلام، والصبر على المكروه حين يلم المكروه ، ومؤازرة النبي بنفسه وماله حين يحتاج النبي إلى المؤازرة

بالأنفس والأموال .

ولم يكد الإسلام ينتشر حتى امتازت هذه الطبقة في نفوس المسلمين امتيازاً طبيعياً، وحق أعطاها المسلمون من الحقوق ما لم تكن هي تعطي نفسها ، فأعضاؤها كانوا يعلمون الناس دينهم ، ويشيرون عليهم فيما يسلم بهم من الأمر . وما أكثر ما كانت أحياء العرب تطلب إلى النبي أن يرسل إليها من يفقهها في الدين ، فيختار لها من هؤلاء معلماً وفقيهاً وإماماً؛ ثم لم تكد الشهور تمضي على هجرة النبي حتى كانت غزوة بدر التي رفعت مكانة الإسلام في بلاد العرب، وجعلت له شوكة ترهب وتخاف؛ ولا يكاد الزمن يمضي حتى يصبح الذين شاركوا في هذه الغزوة طبقة ممتازة بين المسلمين؛ فإذا أتيح لهم أن يشهدوا غيرها من المشاهد مع النبي، فهم أشد امتيازاً؛ فإذا أتيح لهم أن يثبتوا في القلة التي ثبتت مع النبي يوم أحد ، فهم أشد امتيازاً ايضاً؛ فاذا أتيح لهم أن يثني النبي عليهم، ويجعلهم لغيرهم قدوة وإماماً ، ويبشرهم بالجنة ، ويعلن أنه عنهم راض ، فقد بلغوا أرقى درجات الامتياز . وليس في شيء من هذا كله غرابة أو عجب ، فهذا كله ملائم لطبيعة الأشياء ، وإنما المهم هو أن الطبقة الممتازة من أصحاب النبي على ما يكون بينها من تفاوت في الامتياز ، قد أصبحت بعد وفاة النبي صاحبة الحل والعقد في أمور المسلمين كلها بعد أن مضى النبي إلى ربه وانقطع الوحي وعاد ما بين السماء والأرض إلى البعد بعد القرب .

فمن هذه الطبقة وحدها يختار من يخلف النبي في أمته ، وعلى هذه الطبقة وحدها يعتمد الخليفة في أن يسمع له الناس ويطيعوا ، وإلى هذه الطبقة وحدها يلجأ الخليفة حين يحتاج الى التشاور وإدارة الرأي .

على ان الأمر لم يقف عند هذا بعد وفاة النبي ؛ فلم تكد تمضي أيام بل ساعات على وفاة النبي حتى عرف الإسلام نوعاً جديداً من الأرستقراطية يتصل بالحكم نفسه اتصالاً شديداً ؛ وذلك حين تحدث المسلمون في أمر الخلافة ، فقال الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، وروى أبو بكر عن النبي أنه قال : الأئمة من قريش ، ثم قال للانصار : نحن الأمراء وانتم الوزراء . وقبل الأنصار ذلك لم يكادوان يعارضو فيه ، ولم يأبه منهم إلا سعد بن عبادة رحمه الله .

منذ ذلك الوقت نشأت في الإسلام أرستقراطية قوامها القرب من رسول الله ؛ فأصبح الحكم إلى قريش وحدها ، واصبحت المشورة إلى الأنصار . والمشورة حق عام لكل مسلم ؛ فلقريش أن تحكم ، ولقريش أن تشير . وللأنصار وغيرهم من العرب أن

يشيروا ، وليس لهم أن يحكموا ؛ ومع ذلك فقد ينبغي أن نستأني في تحقيق هـــذه الارستقراطية كما فهمها أبو بكر وأصحابه من المهاجرين وكما فهمتها قريش بعد ذلــك؛ فما من شك في أن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح لم يفكروا في إطلاق الإمامـة لقريش كلها بغير تحديد، وأكبر الظن أنهم إنما فكروا في المهـــاجرين الذين سبقوا إلى الإسلام ، فآمنوا قبل أن يؤمن غيرهم ، وآزروا النبي بأنفسهم وأموالهـم على نشر دعوته في مكة أيام الجهد والشدة والضيق؛ فالكثرة العظمى من هؤلاء المهاجرين قرشية، والمهاجرون يذكرون مع الأنصـار في القرآن والحديث وعلى ألسنة الناس ، فيبدأ بهم ويثنى بالأنصار؛ وما أرى إلا أن أبا بكر إنما قصد إلى هذه الطبقة الممتازة من قريش، طبقة الذين سبقوا إلى الإسلام وجاهدوا مع النبي أثنـاء الفتنة في مكة ، ثم جاهدوا معه وجاهد معهم الأنصار أثناء القوة في المدينة .

ولو أن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة فكروا في قريش من حيث إنها الحي الذي يتصل نسبه بنسب رسول الله ، أي من حيث القرابة من النبي لاقتضاهم هذا التفكير أن يؤثروا بالخلافة أقرب قريش من رسول الله ، وان يرشحوا لها العباس عمه أو علياً ابن عمـــه وصاحب صهره وربيبه حين كان صبياً ؛ فأبو بكر واصحابه إذن لم يفهموا من قريش إلا هذا المعنى الذي يتصل بالمهاجرين ، وباصحاب السبق والفضل من المهاجرين خاصة ؛ ومن أحق الحق أن يقال قائل إن أبا بكر وأصحابه فكروا في قرابة قريش من النبي، وجعلوا هذه القرابة مصدر امتياز قريش بالإمامة ، فلو قد كان هذا لكان الطلقاء من قريش أحق بالإمامة عند ابي بكر وعمر وأبي عبيدة من الذين آووا ونصروا ، ولكان ابو سفيان او صفوان بن أمية أو الحارث بن هشام ، أحق بالإمامة من أعلام الأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان ؛ ولكن قريشاً فهمت قول أبي بكر على غير ما أراده هو وعلى غير ما فهمه أصحابه في ذلك الوقت ، فاستيقنت أن الإمامة حق لهـا لا ينبغي أن يعدوها إلى غيرها ، وأنه حق لها لمكانهـا من النبي ؛ وقد كانت قريش في هـــذا الفهم خاطئة متكلفة ما في ذلك شك ، ولو قد صح فهمها وتأويلها لظهرت عليها حجة بني هاشم ، ولكان بنو هاشم أحق المسلمين بالإمامة ما استطاعوا أن ينهضوا بأعبائها .

ذلك إلى أن الإســـلام لم يقدم أحداً على أحد بمولده ولا بمكانه الاجتماعـــي ، وإنما فاضل بين الناس عند الله بالتقوى، وفاضل بين الناس عند الناس بالتقوى والكفاية وحسن البلاء .

ويدل على صواب ما نذهب إليه أن عمر حين طُلب إليه أن يستخلف قال : لو

كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته ، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًا لاستخلفته. وسالم مولى أبي حذيفة لم يكن قرشياً ، بل لم يكن له نسب في العرب ، وإنما جلب صبياً من إصطخر ، فأعتقته امرأة من الأنصار كانت تملكه ، وتولى هو ولاء أبي حذيفة من قريش ؛ وقد كان المسلمون يقدمونه في أمور دينهم أيام النبي ؛ فهو كان يؤم المهاجرين في الصلاة ، وفيهم عمر ، أثناء انتظارهم لمقدم النبي على المدينة . وقد قتل باليمامة في حرب الردة في خلافة أبي بكر .

وما ينبغي أن يؤبه لما قيل من أن سالماً كان قرشياً بالولاء ، فلو قد عاش واستخلفه عمر لما خرجت الإمامة من قريش . فهذا كله كلام لا يستقيم ، ونحن نعلم أن الولاء على ما كان يعقد بين الموالي من الصلات لم يكن ليرفع الموالي إلى طبقة الذين يتولونهم من الأحرار . ولم تكن العرب تعرف لسالم نسباً ، حتى انهم كانوا يدعون زيد بن حارثة لأبيه حين أمر الله أن يدعى الموالي إلى آبائهم ، وكانوا يقولون إن سالماً من الصالحين لأنهم لم يكونوا يعرفون له أباً بعد أن ألغى الإسلام تبني أبي حذيفة إياه ؛ فقد كان عمر إذن يود لو استخلف على المسلمين رجلا ليس من قريش ، بل ليس من العرب إلا بالولاء ، لا يرى بذلك بأساً ؛ وكان عمر مصيباً في مذهبه هذا موافقاً لأصول الإسلام الذي لا يفضل أحداً على أحد بالنسب والمولد ، وإنما يفاضل بين الناس بالكفاية والتقوى وحسن البلاء ؛ وقد كان سالمٌ تقياً كافياً حسن البلاء .

ومهما يكن من شيء فقد نشأت هذه الأرستقراطية القرشية فجاءة على غير حساب من الناس ، وكانت أرستقراطية قد غُلط بها : أراد أبو بكر أن تكون الإمامة في المهاجرين ما وجد بينهم الكفء القوي على النهوض بها . فحولت قريش ذلك فيما بعد إلى منافعها وعصبيتها ، وخرجت بذلك عن أصل خطير من أصول الإسلام وهو المساواة بين المسلمين .

ولم تكد قريش تخطو هذه الخطوة حتى اتبعتها خطوة أخرى كان لها أبعد الأثر في حياة المسلمين ، وهي تفضيل العرب على غيرهم من الذين اعتنقوا الإسلام ، ولم يكن لهم في العرب نسب صريح . والناس جميعاً يعلمون أن استئثار قريش بالخلافة جر على المسلمين كثيراً من الفتن ، وأن استئثار العرب بالسلطان والفضل أدال من بني أمية لبني العباس بفضل من ناصرهم من الموالي .

فلنظام الحكم في هذا الصدر في الإسلام عنصران متميزان إذن : أحدهما معنوي وهو الدين الذي يأمر بالعدل والمعروف يفرضهما على الرعاة والرعية جميعاً ، والآخر

هذه الأرستقراطية الخاصة التي قام أمرها على الكفاية والتقوى وحسن البلاء والاتصال برسول الله ، والتي انحرفت بها قريش بعد ذلك عن طريقها . وواضح جداً أن هذين العنصرين لم يكن من شأنهما أن يطاولا مر الدهر ، وتقلب الخطوب وتتابع الأحداث ؛ فأما أولهما وهو هذا الضمير الديني القوي اليقظ الحي ، فشيء يتاح لأصحابه ، وليس من المكفول ولا من المحتوم أن يرثه عنهم الأبناء والحفدة ، فالذين اتصلوا برسول الله اتصالاً قريباً ، وتعلموا منه وتأدبوا بأدبه ، خليقون أن يتأثروه في سيرته وأن يتمثلوه كلما عملوا أو قالوا أو فكروا ، فأما الأجيال التي تأتي بعدهم على الأبناء والحفدة فقد يتأثرون بهم وقد لا يتأثرون ، وهم لم يتصلوا بالنبي إلا قليلاً أو لم يتصلوا به أصلاً ؛ فليس غريباً ألا يتاح لضمائرهم الدينية من اليقظة والقوة والحياة ما أتيح لخاصة النبي وصفوة أصحابه الأقربين .

وأخرى لا ينبغي أن تفوتنا ، وهي أن أمور الحكم إنما تستقيم حين يكون التعاون والتضامن بين الحاكمين والمحكومين في الأصول التي يقوم عليها النظام ؛ فليس يكفي أن يكون الحاكم يقظ الضمير مؤثراً للعدل مصطنعاً للمعروف حريصاً على رضا الله كافياً بعد ذلك لمشكلات السياسة خرّاجاً منها إذا ادلهمت ، وإنما يجب أن يكون لرعيته حظ من هذا الضمير الحي اليقظ ، ومن حب العدل وإيثار المعروف والحرص على رضا الله .

وهذه هي المشكلة الأولى التي واجهت نظام الحكم الجديد ؛ فلم يكن العرب كلهم أصحاب رسول الله ، بل لم تكن كثرة العرب قد صاحبت النبي واتصلت به ، وإنما كان أصحاب رسول الله كالشعرة البيضاء في الثور الأسود ، أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض ؛ ولم يكن إيمان العرب بالدين الجديد مطابقاً أو مقارباً لإيمان هذه الطبقة من أصحاب النبي ، وإنما كان من العرب من حسن إيمانه ، ومنهم من أسلم ولم يؤمن ؛ كما جاء في القرآن : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تُطيعوا الله ورسوله لا يَلِتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم » .

بل كان من العرب من جرت كلمة الإسلام على لسانه ولكنه احتفظ بجاهليته كاملة في قلبه ونفسه وضميره ، والله يقول في بعض هؤلاء : « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدرُ ألا يعلموا حدودَ ما أنزل الله » .

فلم يكن هناك توازن بين الحاكم والمحكوم ، ولم يكن هناك تضامن صحيح بين

الخليفة والكثرة الضخمة من رعيته العربية ، وإنما كان التضامن والتوازن قائمين بين الخليفة وهذه الطبقة الممتازة من أصحاب النبي . وبفضل هذا التضامن والتوازن استطاع أبو بكر أن يعيد العرب إلى الإسلام بعد أن ارتدوا ، وأن يشغلهم بعد ذلك بما وجههم اليه من الفتوح . وأخرى لا ينبغي أن ننساها ولا ينبغي أن يضيق بها المتحرجون الذين يغلون في حسن الظن بالانسان ، وهي أن هذا الضمير الديني الحي اليقظ قد يتعرض للفتنة والمحنة ، وقد يلقى أخطاراً كثيرة من الأحداث والخطوب ؛ فما أكثر ما يخلص الانسان نفسه وقلبه وضميره للحق والخير والعدل والإحسان ، ثم تلم به أسباب الفتنة وتلح عليه وتسرف في الإلحاح حتى تضطره الى ان يتأول في بعض الأمر ، ثم ما يزال ينتقل من تأول الى تأول ومن تعلل الى تعلل ومن تحلل الى تحلل ، حتى ينظر ذات يوم فاذا بينه وبين الإخلاص الأول أمد بعيد ؛ ومن أجل هذا ألحّ القرآن وألحّ النبي وألحّ الخلفاء والصالحون في تحذير الناس من الدنيا وغرورها ، ومما تمد لهم من أسباب الفتن وما تعرضهم له من ضروب المحن ، ومن هذه السيئات التي تذهب بالحسنات، ومن بعض النيات والأعمال التي تأكل الصالحات كما تأكل النار الحطب ؛ فليس من الغريب في شيء أن يتعرض كثير من الصالحين ومن أصحاب النبي أنفسهم لأسباب الفتن ودواعي الغرور ، وأن يطرأ عليهم من الأحداث والخطوب ما يباعد بينهم وبين عهدهم الاول حين كان الاسلام غضاً ، وحين كانوا يتصلون بالنبي مصبحين وممسين ، وحين كانوا اذا ذكروا الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آية زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون .

وسنرى أن أسباب الفتن ودواعي الغرور كانت كثيرة قوية خلابة ، لا يثبت لها إلا أولو العزم ، وأولو العزم قلة في كل زمان ومكان .

وما أريد أن أتزيد ولا أن أتكلف ، ولا أن أوذي بعض الضمائر ، ولا أن أحفظ بعض الصدور ، ولكني مع ذلك ألاحظ أن جماعة من أصحاب النبي قد حسن بلاؤهم في الاسلام حتى رضي النبي عنهم وبشرهم بالجنة أو ضمنها لهم ، ثم طال عليهم الزمن واستقبلوا الاحداث والخطوب ، وامتحنوا بالسلطان الضخم العظيم ، وبالثراء الواسع العريض ، ففسدت بينهم الامور ، وقاتل بعضهم بعضاً ، وقتل بعضهم بعضاً ، وساء ظن بعضهم ببعض الى أبعد ما يمكن أن يسوء ظن الناس بالناس ، فما عسى أن يكون موقفنا نحن من هؤلاء ؟ لا نستطيع أن نرضى عن أعمالهم جميعاً ، فلا نلغي عقولنا وحدها وإنما نلغي معها أصول الدين التي تأمر بالعدل والاحسان وتنهى عن الفحشاء

والمنكر والبغي ، ولا نستطيع أن نحكم بالخطيئة على من نظن أنه قد خطىء ، لمكانهم من النبي أولاً ، وما بشرهم به النبي من الجنة ورضا الله ثانياً ، ولحسن ظنهم بالله ورسوله وثقتهم بما وعد الله ورسوله ، وإيمانهم بالجنة التي بشروا بها ، وما نحب أن نذهب في أمرهم مذهب الذين عاصروهم من خصومهم وأنصارهم ، فنحكم على بعضهم بالخير ، ونحكم على بعضهم الآخر بالشر ؛ فالذين عاصروهم من الأنصار والخصوم كانوا شركاءهم فيما ألمّ بهم من الفتنة ، فكانوا يرضون أو يسخطون حسب مكانهم من أولئك أو هؤلاء ، أما نحن فلسنا نعاصرهم ولا نشاركهم فيما شجر بينهم من الخلاف ، وليس من المعقول لذلك أن نقحم عواطفنا في أمرهم إقحاماً ، وإنما سبيلنا أن ننظر في أعمالهم وأقوالهم من حيث صلتها بحياة الناس وأحداث التاريخ ، وأن نخطىء من نخطىء ونصوب من نصوب منهم من هذه الجهة وحدها دون أن نقضي في أمر دينهم بشيء ، فإن الدين لله ، ودون أن نستبيح لأنفسنا أن نقول كما كان يقول أنصارهم وخصومهم : هؤلاء مؤمنون وهؤلاء كافرون ، وهؤلاء في منزلة بين بين ، وهؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار ، ذلك شيء لا نخوض فيه وليس لنا أن نخوض فيه ، وإنما أمره إلى الله وحده، فأما الذي إلينا فهو أن نتبين من أعمالهم وأقوالهم وسيرهم ما يلائم الحق والعدل والصواب وما لا يلائمها ؛ وهذا في نفسه كثير ، ولكن لا بدّ مما ليس منه بد .

فالعنصر الأول إذن من عنصري نظام الحكم في ذلك الصدر من الإسلام ، وهو الضمير الديني اليقظ الحي ، معرض كما رأيت لكل هذه الأخطاء ، ولو قد عصم أصحاب النبي جميعاً من الخطأ وأمنوا التعرض للفتنة واستقامت لهم أمورهم على ما يلائم تلك العصمة وهذا الأمن ، لما كان بدّ من أن يتعرض أبناؤهم وحفدتهم لضروب الفتن والمحن والغرور .

فلم يكن بد إذن من أن يصل المسلمون في ذلك العصر إلى ما يمكنهم من ألا يتركوا أمورهم إلى حساب الضمير وحده ، أو إلى ما بين الخليفة وبين الله ، إلى ما يمكنهم من أن يضعوا النظام المقرر المكتوب الذي يبين حدود الحكم جملة وتفصيلاً ، ويبين للخلفاء ما يجب عليهم أن يفعلوا ، وما يجب عليهم أن يتركوا ، وما يجوز لهم أن يترخصوا فيه ؛ ويبين للشعب حقوقه وواجباته مفصلة ، والوسائل التي يختار بها الخليفة ويراقبه بها بعد اختياره ، ويعاقبه بها إن حاد عن الطريق ؛ كان المسلمون في حاجة إلى أن ينشئوا لأنفسهم في حدود القرآن والسنة دستوراً مكتوباً مبين الحدود والأعلام يعصمهم من الفرقة والاختلاف ؛ ولو قد فعلوا لما تعرضوا لما تعرضوا له من

الشر أيام عثمان . وانظر إلى هذا المثل الذي يقف الناس أمامه حائرين يرضى منهم الراضي ويسخط منهم الساخط ؛ فقد كُلّم عثمان فيما أعطى لذوي قرابته من بيت المال فقال : « إن عمر كان يحرم قرابته احتساباً لله ، وأنا أعطي قرابتي احتساباً لله ، ومن لنا بمثل عمر ؟ » فقد كان عمر إذن محسناً حين كان يحرم ذوي قرابته مال المسلمين ، وكان عثمان محسناً حين كان يصل أرحامه من مال المسلمين لأن الله أمر أن توصل الأرحام .

فهذا كلام قد يستقيم عند الذين يحاولون أن يتأولوا في الفقه ، فأما المصالح العامة فلا تحتمل هذا التأول ؛ فالأموال العامة إما أن تكون للشعب فلا يحل للإمام أن يتصرف فيها إلا بإذنه ، وإما أن تكون للإمام فلا يحل للشعب أن يعترض عليه إن تصرف فيها؛ فأما أن يتقرب بعض الأئمة إلى الله بحفظها على المسلمين،وأن يتقرب بعضهم الآخر إلى الله بصلة رحمه منها ، فهذا شيء لا يستقيم ؛ وواضح أنا نذهب في ذلك مذهب عمر ؛ لأنه وحده يلائم الحق والعدل وما ينبغي للأئمة من التعفف ، ويلائم فقه الأمور العامة كما نفهمه الآن .

ومثل آخر يرويه المؤرخون ، وما ندري أنقف منه موقف الإعجاب أم نقف منه موقف العجب ؛ فقد قال عثمان لخصومه حين اشتد عليه الحصار : « إن رأيتم في كتاب الله أن تضعوا رجلي في القيد فافعلوا » . أقال هذا معتباً لهم نازلاً عند حكم الله في كتابه ؟ وإذن فأين هذا الحكم الذي يبيح للمسلمين أن يضعوا رجلي إمامهم في القيد ؟ أم قال هذا متحدياً لأنه يعلم أن ليس في كتاب الله نص يبيح للمسلمين أن يضعوا رجلي إمامهم في القيد حين يخطىء أو حين ينحرف عن الجادة عن عمد لأن القرآن لم يعرض لشيء من هذا ؟ وإذن فقد كان عثمان على هذا الفرض يرى أن ليس لخصومه عليه سبيل من كتاب الله ، وأن له أن يفعل ما فعل دون أن يكون قد قارف ذنباً أو تورط في إثم ؛ ولو قد كان للمسلمين هذا النظام المكتوب لعرف المسلمون في أيام عثمان ما يأتون من ذلك وما يدعون دون أن تكون بينهم فرقة أو خلاف .

وربما كان من أوضح الأمثلة على حاجة المسلمين في ذلك الوقت إلى هذا النظام المكتوب ما يروى من أن علياً حين عرض عليه عبدالرحمن بن عوف أن يبايعه على أن يلزم الكتاب والسنة وسيرة الشيخين لا يحيد عن شيء من ذلك ، أبى أن يعطى ما طلب إليه من العهد وقال : « اللهم لا ؛ ولكن أجتهد في ذلك رأيي ما استطعت »

يريد أنه لا يستطيع أن يلتزم ما لا سبيل إلى التزامه . فالقرآن مكتوب محفوظ في الصدور ، ولكنه لم يعرض لسياسة الحكم في تفصيلها ووقائعها اليومية .

وسنة النبي معروفة في جملتها ، ولكن منها ما يجهله الحاضر ويحفظه الغائب، ومنها ما ذهب مع من ذهب من اصحاب النبي فيما كان من حرب الردة والفتوح ؛ وسيرة الشيخين كسنة النبي منها المعلوم ومنها ما قد يكون النسيان عرض له ؛ ولعليّ بعدُ الحق كل الحق في أن يخالف عن سيرة الشيخين إن تغير الزمن أو رأى في المخالفة عن هذه السيرة منفعة للرعية ونصحاً للمسلمين ؛ فلما عرض عبد الرحمن هذا العهد على عثمان قبله وأعطى مثله وقال : اللهم نعم ؛ يريد أنه سيجتهد في إنقاذ كتاب الله وسنة نبيه وسيرة الشيخين . وأنه متى اجتهد في ذلك مخلصاً فقد التزم الكتاب والسنة ونهج الشيخين . وقد أصاب عليّ ما في ذلك شك ، ولم يُبعد عثمان ؛ ولكن أنظر إلى ما حدث بعد أن مضت أعوام على إمرة عثمان : ذهب في أموال المسلمين مذهباً مخالفاً لمذهب عمر وسيرته ، فأما الذين بايعوه على التزام السيرة فيما التزم فقد رأوا أنه خالف عنها ولم يف بالعهد كاملاً ، وأما هو فرأى أنه لم يخالف بحال من الاحوال ؛ لأن قوام سيرة عمر إنما هو التقرب إلى الله ، وهو قد وصل رحمه تقرباً الى الله ؛ فهو يتقرب إلى الله كما كان عمر وأبو بكر يفعلان ، ولا عليه أن تختلف وسائل هذا التقرب إلى الله ؛ ولو قد كان للمسلمين في ذلك الوقت نظام مكتوب بيّن الحدود واضح الأعلام ، لما أبى علي أن يبايع على هذا الدستور ، ولما احتاج عثمان إلى أن يبايع ثم يتأول ، ولما انقسم الناس بعد ذلك فريقين : فريقاً يشتد ويتحرج كما تحرج عليّ ومن لاموا عثمان ، وفريقاً يتأول كما تأول عثمان .

نعم ! ولكن ينبغي ألا ننسى أن عمر قد قتل سنة ثلاث وعشرين للهجرة ، أي قبل أن يمضي على الهجرة وتأسيس الدولة ربع قرن ، وأن هذه المدة القصيرة لم تنفق في حياة هادئة مطمئنة قد استقرت فيها الأمور وفرغ فيها البال ، وإنما أنفق منها عشرة أعوام في حمل العرب على الإسلام ، ثم أنفق منها عام وبعض عام في رد العرب إلى الإسلام في اقطار الأرض : في الأدالة من الفرس ، وإخراج الروم من الشام ومصر ، ثم في تمصير الأمصار وتجنيد الأجناد ، ووضع النظم الأولى لسياسة الحرب والسلم ، وللادارة خارج بلاد العرب وداخل بلاد العرب ؛ فليس من العدل ولا من الانصاف أن يقال إن المسلمين في صدرهم ذاك قد قصروا أو تخلفوا أو تركوا ما كان يمكن أن يفعلوا دون أن يفعلوه .

فإذا أضفت إلى ذلك أن الشيخين إنما كانا يبتكران ما كانا يقبلان عليه من تنظيم أمور الحكم ابتكاراً في هذه البيئة العربية البدوية التي لم تكن لها سابقة ذات خطر في الإدارة أو السياسة أو الحضارة بوجه عام ، ثم لم يكونا يبتكران فحسب ، وإنما كانا يسوسان قوماً لم يتعودوا أن يساسوا ، ويحضران قوماً لم يتحضروا من قبل ، عرفت أن من الشطط أن يقال إن الشيخين لم يضعا للمسلمين من النظم السياسية ما كان ينبغي أن يضعا . وقد كان عمر رحمه الله يجتهد في ذلك ما وسعه الاجتهاد ، لا يكاد يعرف من نظم الأمم التي سبقت الى الحضارة شيئاً إلا استقصاه واستخلص منه ما يلائم المزاج العربي ، وما يلائم الإسلام ، وما يلائم هذه الدولة الناشئة التي أسرعت الى النمو والانتشار إسراعاً عظيماً سبقت به تفكير المفكرين وتدبير المدبرين.

أما العنصر الثاني من عناصر هذا النظام السياسي وهو هذه الارستقراطية الممتازة من أصحاب النبي ، فقد كان بطبعه معرضاً للزوال حين يمضي الزمن ويبلغ الكتاب أجله ، وتنشأ أجيال جديدة ليس لها ما كان لهذا الجيل من الامتياز . وقد كان من الطبيعي أن يوضع لهذه الاجيال النظام الذي يعلمها كيف تختار خلفاءها ، وكيف تراقبهم وتحاسبهم وتعاقبهم إن تعرضوا لما يقتضي العقاب ، ولو قد وضع هذا النظام لما تفرّق أمر المسلمين بعد مقتل عثمان على النحو الذي عرفه التاريخ ، ولما ذهب فريق من المسلمين مذهب المحافظة الهوجاء على سنة النبي والشيخين وهم الخوارج ، وفريق آخر مذهب المحافظة على أن تكون الإمامة في آل بيت النبي ، وفريق ثالث على أن تستحيل الخلافة ملكاً قيصرياً أو كسروياً ، وفريق رابع الى أن يكون الأمر شورى بين المسلمين دون أن يعرفوا لهذه الشورى نظاماً ولا حدوداً ؛ ولكن ما قلناه بالقياس الى العنصر الأول نقوله بالقياس الى هذا العنصر الثاني ، فلم يتح للشيخين وأصحابهما من الوقت ولا من الفراغ والدعة ولا من التطور والاتصال بأسباب الحضارة ما كان من شأنه أن يمكنهم من وضع هذا النظام ، إنما السبيل على الذين جاءوا بعدهم فأتيحت لهم السعة والدعة والفراغ ، ولم يفكروا مع ذلك لا في أن يضعوا نظاماً لتداول الحكم ، ولا في أن يضعوا نظاماً يكفل رعاية العدل السياسي والاجتماعي ، وإنما أهملوا ذلك إهمالاً وآثروا أنفسهم بالحكم والغلب والاستعلاء .

وبعد فهؤلاء أيضاً خليقون ألا يلاموا ، فقد ينبغي أن نسأل أنفسنا متى عرف العالم وضع الدساتير ؟ وقد ينبغي أن نلاحظ أن وضع النظم السياسية المكتوبة ذات الأعلام الواضحة والحدود البينة ظاهرة حديثة لم يكد العالم يعرفها إلا في عصور

متأخرة جداً .. وأنا أعلم أن قد كانت للمدن اليونانية القديمة نظم سياسية مكتوبة ، وأعرف كذلك أن قد كانت لروما نظم سياسية مقررة ؛ ولكني أعرف أن الملك في الشرق والغرب قد ألغى هذه الدساتير وباعد بينها وبين الناس ، حتى نسيتها الإنسانية نسياناً يوشك أن يكون تاماً ، ولم تستكشفها إلا قليلاً قليلاً بعد النهضة في هذا العصر الحديث .

على أن من الحق أن نلاحظ شيئاً أشرت اليه في بعض هذا الحديث ، وهو أن عمر رحمه الله قد كان يلقى عماله وأهل أقاليمه في الموسم من كل عام ، فيسمع من العمال في أمر الرعية ، ويسمع من الرعية في أمر العمال ، وقد جعل هذا نظاماً مقرراً ، فكان يحج بالناس طول خلافته ليلقى المسلمين في موسمهم ، لا نستثني من ذلك إلا العام الأول لخلافته ؛ فلو مدت أسباب الحياة لعمر لكان من الممكن ، وهو من نعرف في حدة الذكاء وتوقد الذهن ونفاذ البصيرة ، وبعد الرأي والنصح للمسلمين ، أن يتطور هذا الاجتماع الموسمي بين عمال الأقاليم والحجيج من أهل هذه الأقاليم الى نظام ثابت إلا يكن هو النظام البرلماني الذي عرفه القدماء أو الذي استنبطه المحدثون ، فهو قريب منه قرباً شديداً . ولم يكن عمر رحمه الله يكتفي بهذا الاجتماع الموسمي ، وإنما كان يستقصي أمور الناس ما وسعه الاستقصاء : يستقصي ذلك بنفسه في المدينة وما حولها وحين يلقى أهل الأقاليم في موسم الحج ، ويستقصي ذلك بوساطة عماله وأمنائه الذين كان يرسلهم بين حين وحين لتتبع أمور العمال ، ويستقصي ذلك بما كان يرفع اليه من أمور الناس ، يرفعه اليه العمال حيناً والرعية أحياناً ؛ ثم كان رحمه الله يفكر في آخر أيامه في زيارات تفتيشية الأقاليم ، فكان يتحدث بأن لو عاش لتنقل فأقام في كل مصر شهرين ، ويرى بنفسه كيف يعمل الولاة وكيف رضا الرعية عما يعملون ، ولكن الموت أعجله عن هذا كله؛ ولم يكد رحمه الله يوارى في قبره مع صاحبيه حتى سلكت سياسة المسلمين طريقاً غير الطريق التي سلكوها .

وقد يكون من الإنصاف إذا أردنا أن نستوفي هذا البحث أن نلاحظ سياسة عمر لهذه الطبقة الممتازة من أصحاب النبي ، فهو قد أمسكها في المدينة كما قلنا آنفاً، لم يأذن لها في أن تتفرق في الأرض ؛ خوفاً عليها وخوفاً منها. فكان راشداً في هذه السياسة كل الرشد؛ولم لا نسمي الأشياء بأسمائها ؟ أو لم لا نترجمها بلغة العصر الحديث فنقول إن عمر إنما أمسك هذه الطبقة الممتازة في المدينة ضناً بها وضناً بالمسلمين على ما نسميه في هذه الأيام باستغلال النفوذ؛فقد استقامت أمور المسلمين وأمور هذه الطبقة نفسها ما أمسكها

عمر في المدينة ووقفها عند حدود معينة من الحركة والاضطراب ، فلما تولى عثمان وخلى بينها وبين الطريق لم تلبث الفتنة أن ملأت الأرض شراً ؛ لا لأن هذه الطبقة أرادت الشر أو عمدت اليه ، بل لأنها استكثرت من المال والأنصار من جهة ، ولأن الناس افتتنوا بها من جهة أخرى ؛ فكان لكل واحد من زعمائها مواليه وأنصاره وشيعته . ولم يكن عمر يحب أن يعطي من أموال المسلمين فلاناً أو فلاناً صلة منه له أو عناية منه بـه أو تألفاً منه إياه ، وإنما كان يفرض لكل واحد منهم ومن الناس عطاءه ويبيح لهم ما أباح الله لهم من الاكتساب ؛ لا يضيق عليهم في ذلك إلا بهذا المقدار الذي عرفناه ، فلما استخلف عثمان لم يفتح لهم الطريق إلى الأقاليم فحسب ، وإنما وصلهم بالصلات الضخمة من بيت المال ، فيقال إنه أعطى الزبير ذات يوم ستمائة ألف ، وأعطى طلحة ذات يوم مائتي ألف ؛ وإذا كثر المال على هذا النحو لفريق بعينه من الناس ، وأتيح لهم أن يشتروا الضياع في الأقاليم ويتخذوا الدور في الأمصار ، ويتخذوا القصور في الحجاز ، ويستكثروا من الموالي والأتباع والأشياع في كل مكان ، فقد فتحت لهم أبواب الفتنة مصاريعها ، وكان من أعسر العسر عليهم أن يتجنبوا الولوج في هذه الأبواب ، وقـد تجنبها منهم متجنبون : تجنبها سعد بن أبي وقاص الذي لم يشارك في فتنة وإنما اعتزل الناس حين أخذهم الشر . وتجنبها عبد الرحمن بن عوف الذي يقـال إنه ندم على ما كان من اختياره لعثمان ، والذي أقـام في دار الهجرة مصرفاً تجارته في الأقاليم متصدقاً بكثير من ربحه ، كما كان يفعل أيام النبي وأيام الشيخين ،وتجنبها عليّ رحمه الله فلم نعلم أنه اتجر أو اتخذ الضياع والدور في الأقاليم ، وإنما أقام في المدينة حيث بوأه رسول الله ، وكان له مال في ينبع يذهب إليه من حين إلى حين . ولكن لعـليّ قصة أخرى كما يقول القائلون .

ومغزى هذا كله أن عمر قد حمى هذه الطبقة الممتازة وحمى المسلمين من استغلال النفوذ ، وأمسك عليهم جميعاً دينهم ، وحال بينهم جميعاً وبين الفتنة ، واتخذ من خاصة أصحاب النبي مجلساً يوشك أن يكون مجلس شوراه ؛ ولو مُدّ له في العيش لكان خليقاً أن يضطرهم إلى أن يرضوا بهذه المنزلة فيكونوا أصحاب الحل والعقد ، يشيرون على الخلفاء دون أن يدخلوا في أمور الحكم التفصيلية من قريب أو بعيد.

فهذه واحدة ؛ والثانية أن عمر رحمه الله حين أحس أنه ميت قد اقتدى بالنبي فلم يستخلف شخصاً بعينه ، واقتدى بأبي بكر فلم يترك المسلمين دون أن يشير عليهم وينصح لهم ؛ فاختار أصحاب الشورى لمكانهم من رضـا النبي عنهم ، ولمكانهم من

زعامة المهاجرين ، ولمكانهم من زعامة قريش ، ثم لمكانهم من رضا المسلمين عنهم وثقة المسلمين بهم ، ثم ترك لهم أن يختاروا من بينهم خليفة .

وسنرى أن نظام الشورى هذا كما وضعه عمر لم يكن كافياً ولا مقنعاً ، ولكن المهم هو أن عمر فكر في الشورى واتخذها أصلاً لاختيار الخلفاء ، وليس هذا بالشيء القليل . ولا ينبغي أن ننسى أن عمر إنما وضع نظام الشورى هذا بعد أن طُعن ، وضعه في هذا الوقت الذي كان يخرج فيه من الدنيا ويدخل فيه إلى الآخرة ، ويعاني فيه ما يعاني المشرف على الموت حين يكون له ضمير يقظ حي دقيق كضمير عمر من خوف الله ، والإشفاق من حسابه ومن حساب نفسه على ما قدم بين يديه من الجليل والخطير ، ثم يعاني فيه بعد ذلك ما يعاني من تدبير أمر نفسه وأهله والاحتياط لهم من أن يحتملوا من الأعباء مثل ما احتمل ، والاحتياط لنفسه من أن يلقى الله وفي ذمته شيء من مال المسلمين ؛ ثم هو يعاني بعد هذا كله ما يعاني من التفكير في الاحتياط لقبره ؛ فقد كان حريصاً على أن يدفن مع صاحبيه ، وعلى أن يدفن معهما بإذن من عائشة صاحبة البيت الذي دفن فيه ، وعلى أن يطمئن إلى أنها قد أذنت له في ذلك قبل أن يموت ، وعلى أن يطمئن إلى أن عبدالله بن عمر سيستأذن عائشة في إدخاله بيتها بعد أن يموت . في أثناء هذا كله فكر عمر في نظام الشورى ، فاحتاط للمسلمين ما وسعه الاحتياط .

وكان المسلمون خليقين بعد أن مات عمر ، وبعد أن اختاروا خليفتهم أن يفكروا في نظام الشورى ، هذا فيقيموه على أساس ثابت مطرد متين ، يؤمنهم الفرقة أولا ، ويؤمنهم أن تعجل الأحداث خليفتهم عن أن يعهد لهم كما عهد أبو بكر ، وعن أن يشير عليهم كما أشار عمر ؛ ولكن الغريب أنهم لم يفكروا في شيء من ذلك ، وإنما استخلف عثمان ، فلم يكد يستخلف حتى زاد في العطاء ، ويسر على الناس ما كان عسر عليهم عمر ، وأذن لهم فتفرقوا في الأرض ، ثم أذن لهم فاستكثروا من المال الأنصار .

ونظن أن هذا الحديث الذي قد نراه طويلا ، وما أراه إلا قصيراً مسرفاً في القصر ، قد مهد لما ينبغي أن نعرض له الآن من الحديث عن عثمان ، وما أثير في خلافته من فتنة ، وما أثير حوله من جدال ؛ وما نظن إلا أن هذا الحديث ، على طوله فيما قد ترى وعلى قصره فيما أرى ، يدل منذ الآن على أن الأحداث التي حدثت والنتائج التي ترتبت عليها كانت أكبر وأوسع وأضخم من الأشخاص الذين شاركوا فيها من قريب أو بعيد ؛ فما ينبغي أن يلام فيها هذا أو ذاك ، وإنما ينبغي أن تلام فيها الظروف إن كان من الممكن أو من المعقول أن تلام الظروف .

وعثمان كغيره من أصحاب النبي : ذهب الصدر الأول من حياتهم في الجاهلية على التاريخ فلم يكد يحفظ منه شيئاً ، ولم يخلقهم الإسلام خلقاً جديـــداً من حيث حياة نفوسهم وعقولهم وقلوبهم فحسب ، وإنما خلقهم خلقاً جديداً في تاريخهم أيضاً ؛ فجبّ ما كان من حياتهم قبل أن يسلموا ، حتى كأنهم ولدوا حين أسلموا . وكان يقال إن عثمان ولد في العام السادس بعد وقعة الفيل ، وكان يقال كذلك إنه ولد بالطائف؛ولعل هذا كل ما حفظ من تاريخه الأول على غير ثقة من الذين رووه . وليس أدل على ذلك من الاختلاف في سنه حين قتل ؛ فقد كان قوم يرون أنه قتل وهو ابن خمس وسبعين سنة وكان قوم آخرون يرون أنه قتل وهو ابن تسعين أو ثمان وثمانين أو ست وثمانين سنة ، وكان آخرون يرجحون أنه قتل في الثانية أو الثالثة والثمانين من عمره؛ ولو أنهم عرفوا تاريخ مولده بالضبط لما اختلفوا في سنه هذا الاختلاف ، بل لما قال قائل منهم إنـه قتل وهو ابن ثلاث وستين سنة . يريد بذلك أن يلحقه بالنبي وخليفتيه ؛ فقد اختارهم الله لجواره في هذه السن ، مع بعض الاختلاف في ذلك بالقياس إلى عمر .

ولا يعلم الرّواة من أمر عثمان في جاهليته إلا نسبه ؛ فهو ابن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ، فهو يلتقي مع النبي في عبد مناف من قبل أبيه ، ولكنه يلتقي مع النبي من قبل أمه لقاء أقرب من هذا ؛ فأمه أروى بنت كريز ، وأم أروى هي البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم ؛ فقد كانت أروى إذن بنت عمة النبي .

وقد تعلق الأمويون فيما بعد على عليّ وأصحابه من بني هاشم بهذه الرحم ، فلاموا علياً لأنه خذل ابن عمته وابن عمه ؛ وهو ابن عمته لما رأيت ، وهو ابن عمـه لالتقائه مع بني عبد المطلب في عبـد مناف الذي ولد هاشماً جد الهاشميين وعبد شمس جـد الأمويين . وكان عفان ، كما كان أبوه ، وكما كان بنو أمية جميعاً ، بل بنو عبد شمس ، بل كثرة قريش ، صاحب تجارة يخرج فيها إلى الشام . وقد مات في إحدى خرجاته وترك لابنه ثراء حسناً . وذهب عثمان مذهب أبيه ، بل مذهب قومه جميعاً في التجارة فأفاد منها مالاً كثيراً .

وعاد من الشام ذات يوم ، فسمع بالدعوة الجديدة التي كان النبي قد أخذ يدعوها :

سمع بذلك في أهل بيته في حديث طويل يرويه المحدثون وأصحاب السير ؛ فقد زعموا أن خالته سعدى أنبأته بأمر النبي ورغبته فيه وكانت كاهنة ، وزعموا كذلك أنه أنبىء بأمر النبي أثناء عودته من الشام مع طلحة بن عبيد الله ، سمع وهو بين النائم واليقظان منادياً ينبىء بخروج أحمد في مكة . فلما عاد إلى مكة أنبىء النبأ فوقع في قلبه منه شيء . والذي يتفق عليه الرواة هو أنه لقي أبا بكر فتحدث إليه وسمع منه ، ودعاه أبو بكر إلى الإسلام فمال قلبه إليه ، ثم صحب أبا بكر إلى النبي ، فدعاه النبي ووعظه فاستجاب له ولم يقم عنه إلا بعد أن أسلم ، ويقال إن طلحة أسلم معه في ذلك المجلس ، ويقال إنهما أسلما ، في أثر الزبير بن العوام ؛ ومهما يكن من شيء فقد كان عثمان من السابقين إلى الإسلام ، كان أحد العشرة الرابعة من الرجال الذين سبقوا إليه ، وكان إسلامه قبل أن يستقر النبي بدعوته في دار الأرقم .

ثم أصهر عثمان إلى النبي فتزوج ابنته رقية ، وأصبح بعد هذا الصهر من أقرب الناس إليه وآثرهم عنده ؛ ثم كانت المحنة ، أصابته كما أصابت غيره من المسلمين ؛ فقد قيل إن عمه الحكم بن أبي العاص لما علم بإسلامه عنفه تعنيفاً شديداً وأوثقه ، وأقسم لا يضع عنه وثاقه حتى يعود إلى دين آبائه ، فلما رأى تشدد عثمان في دينه رد إليه حريته ؛ ويقال كذلك إن أمه أعرضت عنه إعراضاً شديداً ، فلما لم يغن عنها ذلك شيئاً ثابت إليه . ولما أذن النبي لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة هاجر عثمان ومعه زوجه ، ثم عاد بها ، ثم هاجر معها الهجرة الثانية إلى الحبشة أيضاً ، ثم هاجر إلى المدينة حين اتخذها النبي للإسلام داراً ؛ فلما خرج النبي بأصحابه إلى بدر لم يخرج معه عثمان ، كانت زوجه رقية مريضة فأقام على تمريضها ، وأنزل الله نصره على المسلمين يوم بدر ، فأسهم له النبي مع الذين شهدوا الموقعة وعدّه منهم . وماتت رقية فجزع لموتها جزعاً شديداً لانقطاع الصهر بموتها بينه وبين النبي ، ولكن النبي زوّجه أختها أم كلثوم فلم تلبث عنده إلا قليلاً حتى ماتت .

وقال النبي فيما يروي أصحاب السير : لو كانت عندنا أخرى لزوجناها عثمان . وكانت رقية قد ولدت له عبد الله ، ولكنه مات في السادسة من عمره . وكذلك كاد عثمان أن يعقب من إحدى بنات النبي ؛ ولو قد عاش ابنه عبد الله لكان له ولأبيه شأن أي شأن ، ولكان أمره غير بعيد من أمر الحسن والحسين ابني فاطمة ، رحمهم الله جميعاً .

وشهدَ عثمان مع النبي أحداً ، ولكنه لم يلبث مع القلة التي ثبتت معه ، وإنما

فر مع كثرة المسلمين التي تولت فأنزل الله عفوه عنها في الآية الكريمة : « إنّ الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطانُ ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إنّ الله غفور رحيم » .

ثم شهد المشاهد كلها مع رسول الله كما شهدها غيره من كبار أصحابه ، ولكنه كان كريماً سخي النفس واليد بماله في سبيل الله ، فعل من ذلك ما لم يفعله غيره من أغنياء المسلمين حينئذ ، فهو اشترى بئر رومة من ماله بألوف كثيرة وجعلها للمسلمين يُدلي فيها كما يُدْلون ، ووعده النبي بخير منها في الجنة ؛ وهو كذلك اشترى أرضاً وسع بها النبي المسجد حين ضاق بالناس ووعده النبي خيراً منها في الجنة ؛ فلما كانت غزوة تبوك واشتد العسر وندب النبي الناس إلى الإنفاق في سبيل الله ، قام عثمان بتجهيز الجيش ، فقيل إنه حمل المسلمين على ما احتاجوا أن يحملوا عليه من الإبل والخيل ، وقيل إنه أقبل بألف دينار فوضعها في حجر النبي واستعان النبي بها على تجهيز الجيش ، ودعا لعثمان أن يغفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ووعده بالجنة .

وكان عثمان أبر الناس بالناس ، وأرفق المسلمين بالمسلمين ، وأحرصهم على صلة الرحم وأسخاهم يداً وأسمحهم نفساً وأعظمهم حلماً ؛ وكانت الخصلة التي ميزه بها النبي فيما روى المحدثون وأصحاب السير ، صدق الحياء ؛ وكان النبي يقول : إن الملائكة لتستحي من عثمان . وكان النبي يلقى اصحابه متفضلا غير متكلف ، فاذا اذن لعثمان احتشم وقال : كيف لا نستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة ! وكان النبي يعلل احتشامه حين يأذن لعثمان بأنه إن لم يفعل استحيا عثمان أن يثبت بين يديه وأن يبلغه حاجته ويأخذ حظه من التحدث اليه . ولما كان يوم الحديبية اختار النبي عثمان سفيراً إلى قريش ، لمكانه من بني أمية ، ولمنزلته من قريش ، وللينه وسماحة خلقه وحسن تأتيه لما كان يراد من الأمر ؛ فلما جاء الخبر إلى النبي بأن قريشاً قد كادت لعثمان ، بايع أصحابه على الجهاد لنصره ؛ وانزل الله في ذلك قرآناً : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يدُ الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً» . وبايع النبي بإحدى يديه عن عثمان . وقد روى المحدثون وأصحاب السير أحاديث كثيرة ، منها الصحيح الظاهر الصحة ، ومنها الموضوع الذي يظهر وضعه ، ومنها ما يتعرض لشك قليل أو كثير ؛ وكلها تحدث بأن عثمان كان عند النبي محبباً الى نفسه مقرباً إليه بين المقربين اليه من خاصة أصحابه ، وبأن النبي قد بشر عثمان بالجنة غير مرة ؛ وأنبأه برضا الله عنه غير مرة أيضاً . وقد تحدث عبدالله بن عمر

رحمه الله بأن المسلمين كانوا في أيام النبي يقدمون أبا بكر وعمر وعثمان ، ثم لا يفاضلون بين أصحاب رسول الله ؛ فهؤلاء النفر الثلاثة إن صح هذا الحديث كانوا في طليعة أصحاب النبي في أيام النبي نفسه ؛ ومهما يكن من شيء فقد كان السلف يسمون عشرة ضَمِن النبي لهم الجنة ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد بن أبي وقاص وطلحة ابن عبيد الله والزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف وابو عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد بن نفيل .

فقد كان عثمان إذن أحد هؤلاء العشرة ، وليس من المسلمين إلا من عرف لعثمان سابقته في الإسلام ، وإصهاره إلى النبي مرتين ، وحسن بلائه في الجهاد بنفسه وماله في سبيل الله .

ولما انتقل النبي إلى جوار ربه ، وكانت البيعة لأبي بكر ، كان عثمان من الذين أسرعوا إلى هذه البيعة ونصحوا للخليفة ، وهو الذي كتب عهد أبي بكر إلى المسلمين باستخلاف عمر ، أملى أبو بكر وكتب عثمان ؛ ويقال إن أبا بكر أخذته أثناء الإملاء إغماءة وقد وصل إلى قوله : «إني استخلفت عليكم» فأتم عثمان جملة أبي بكر وسمى عمر ؛ فلما أفاق أبو بكر من غشيته طلب الى عثمان أن يقرأ عليه ما أملى فقرأ حتى أتى على اسم عمر ، فكبر أبو بكر وجزاه خيراً عن الإسلام والمسلمين وقال : خشيتَ ألا أفيق فسبقتَ إلى ما أريد ، وإنك لها لأهل . فلما بويع عمر كان عثمان من أول الذين بايعوه، وأنفق أيامه ناصحاً له مشيراً عليه ، حتى إذا طعن عمر وطلب إليه المسلمون أن يعهد لهم، لم يرد أن يعهد ولم يرد أن يتركهم بغير مشورة عليهم، فاقترح عليهم نظام الشورى وجعلها في هؤلاء الستة الذين مات النبي وهو عنهم راض ، ولم يرد أن يضم إليهم ابن عمه سعيد بن زيد بن نفيل ، مع أنه من العشرة الذين كان الناس يرون أن رسول الله قد ضمن لهم الجنة ، لأنه كره أن تكون الخلافة في عديّ مرتين ؛ ولم يحضره الشورى لأنه خاف أن يميل إليه بعض أهل الشورى لرضا النبي عنه ولمكانه من عمر ، وأحضر ابنه عبدالله الشورى ولم يجعل له من الأمر شيئاً ؛ لأنه كره أن يليها من آل الخطاب رجلان من جهة، ولأنه كان يرى في ابنه ضعفاً عن النهوض بأعباء الخلافة من جهة أخرى .

وأحسب أن أبا بكر لو عُمّر وأدرك ما أتيح لعمر أن يدرك من الفتح واتساع رقعة الدولة وتشعب أمورها وتعقد المصالح فيها، وهذه المشكلات الكثيرة الخطيرة التي كانت تنشأ في كل يوم، يتصل بعضها بشؤون السياسة ، ويتصل بعضها بشؤون الادارة ، ويتصل بعضها بالمحافظة على حقائق الدين ودقائقه مع هذا التطور العنيف الذي كان

يطرأ على أمور المسلمين بين يوم ويوم – أقول : لو قد عُمّر أبو بكر وشهد من هذا كله ما شهد عمر ، لكان خليقاً أن يقف الموقف الذي وقفه عمر وأن يتردد بين الاستخلاف وترك الاستخلاف كما تردد ، ولعله كان خليقاً أن يقترح نظاماً يشبه النظام الذي اقترحه عمر لانتخاب الخليفة شيئاً قوياً او ضعيفاً ؛ فقد مات أبو بكر رحمه الله وأمر المسلمين قريب من حالهم التي تركهم عليها النبي : قد أعاد العرب الى الاسلام بعد أن ارتدت عنه ، ثم رمى بها الى الأقطار الخارجية فبدأت الفتح ولكنها لم تمعن فيه ؛ أما في أيام عمر فقد بدأ المسلمون سيرة جديدة من كل وجه ، أمعنوا في الفتح إمعاناً عظيماً ، فأخرجوا الروم من الشام والجزيرة ومصر ، ونقضوا سلطان الفرس في بلادهم نقضاً ، احتلوا جزءاً عظيماً جداً من هذه البلاد ؛ ونظروا فاذا هم مضطرون بحكم الإمعان في الفتح إلى أن يزدادوا فيه إمعاناً ، يشدّون ضغطهم على الروم حتى يخرجوا من الساحل الشرقي للبحر الأبيض ، وحتى ينشئوا بينهم وبينهم حدوداً يمكن الاطمئنان اليها ، بل حتى يبلغوا قسطنطينية ويزيلوا ملك الروم كما أزالوا ملك الفرس ، ثم ليمضوا في فتحهم بلاد الفرس حتى يحسموا أمرهم حسماً ، وحتى يبعدوا حدود الدولة في الشرق الى أقصى ما يمكن أن تصل اليه الجيوش ؛ وقد اضطرهم هذا الى أن تكون لهم سياسة حربية مستقرة مطردة تلائم التوسع في الفتح والانتشار في الارض ؛ فقد يجب أن ينشئوا لهذا الفتح المتصل أداته الدائمة ، وهي الجيوش التي تمضي للغاية التي رسمت لها ؛ وهذه الجيوش يجب أن تأتلف من هذه المادة الغريبة التي لم تألف الحرب المنظمة المعقدة بعدُ ، من هؤلاء العرب البادين الذين عرفوا الغارات وأتقنوها ، ولكنهم لم يعرفوا مقابلة الجيوش المنظمة المدربة في ارض لا علم لهم بها ولا خبرة لهم بما تملكون فيها من المصاعب والعقاب .

ونحن نقرأ تاريخ الفتح الاسلامي فنعجب به ، ويبهرنا ما أتيح للعرب فيه من قوة وسرعة ومضاء ، ثم نريح أنفسنا من البحث والتحليل والاستقصاء ، فنرد أمر هذا كله الى تصديق الوعد الذي قدمه الله للمسلمين في القرآن ، والى الايمان الذي استقر في قلوب المسلمين فدفعهم الى مواجهة المصاعب عن ثقة بالله واطمئنان الى تصديق وعده وإنزال نصره عليهم في المواطن كلها .

وما من شك في أن هذا كله حق ، وفي أن المسلمين قد اندفعوا الى فتوحهم بهذا الايمان القوي الذي يقهر المصاعب ، ويذلل العقبات ويحل المشكلات ، ولكن لكل شيء أسبابه ووسائله ، وهذه الاسباب والوسائل قد احتاجت الى كثير من الجهد ،

والى كثير من التدبير والتقدير وإعمال الرأي لتجتمع هذه القلوب المفترقــة اولاً ، ولتندفع الى مغامراتها خارج بلاد العرب ثانياً ، ولتهاجم هذه القوى الهــائلة المنظمة بقوى هائلة منظمة أيضاً ؛ فلم يكن من الامور السهلة ولا من المشكلات اليسيرة ، إنشاء هذه الجيوش القوية الضخمة المنظمة التي روى أبو بكر وعمر بهــا أقطار العالم القديم ، ولم يكن من السهل ولا من الهين إمساك هذه الجيوش في مواقفها بعد المواقع وبعد الانتصار أعواماً متصلة، مع ما نعلم عن عادة العرب في غاراتها وحروبها القديمة؛ فقد كانت تحارب لتنتصر وتغنم ، ثم لتعود بعد ذلك مسرعة الى منازلها فتنعم بالغنيمة والسلم ؛ فأما أن تقدم على حرب تعرف أولها ولا ترى آخرها ، وهي بعد ذلك لا تشبه ما ألفت من حروبها في الجاهلية ومن غزواتها مع النبي ، بل من حروبها أيام الردة ، فهذا هو الشيء الجديد الذي احتاج الى جهد لا نكاد نتصوره . وقد بذل عمر وأصحابه وقادته هذا الجهد مقدمين غير محجمين ، وحازمين غير مترددين ، فكتب لهم ما تمنوا من التوفيق ؛ ويكفي أن نصور تمصير الأمصار وإنزال الجيوش فيهـا وتنظيم المناوبات بين هذه الجيوش التي استقرت في هذه الامصار ، وأن نتصور أن هذه الجيوش قد ألفت من قوم بادين لم يألفوا الحضارة او لم يألف كثير منهم الحضارة – يكفي أن نتصور هذا كله لنقدر بعض المشكلات الحربية الخطيرة التي نفـذ منها عمر واصحابه نفوذاً حقاً .

ونحن كذلك نقرأ في التــاريخ تدوين الدواوين فنمر به مسرعين معجبين ، ولو قد وقفنا عنده وقفة قصيرة وتبينا أن هذه الكلمة القصيرة لا تدل على أقــل من إحصاء دقيق للمحاربين وقبائلهم ومنازلهم من هذه القبائل وأسرهم التي يعولونهــا أو ينبغي أن تعولها الدولة عنهم – لو قـــد فعلنا هذا لعرفنا أن هذا التجديد الخطير في حياة أمة بادية لم تعرف من قبل كتاباً ولا حسابــاً ولا إحصاء ، لم يكن من الأشياء الهينة التي يمر بها الناس مسرعين؛ فإذا صحبنا هذه الجيوش في مسيرها إلى الحروب،ثم في استقرارها بالأمصار بعد أن كانت المصادمات الكبرى بينها وبين جيوش الفرس والروم، ثم فكرنا في هذا النظام الرائع الذي وضعه عمر عن استشارة أصحابه لتنظيم المناوبة بين هذه الجيوش المستقرة في الأمصار بحيث لا يغيب الرجل في الغزو أو في الحرب العاملة عن أهله أكثر من ستة أشهر ، حتى أصبح التجمير (وهو تجاوز هذه المدد بالمحاربين) إثماً لا يصح للسلطان أن يتورط فيه – عرفنا مقدار ما كان ينبغي للخليفة وأعوانه أن ينفقوا من الجهود المادية والمعنوية المتصلة الملحة ليواجهوا مشكلات السياسة الحربية.

ولم تكن مشكلات هذه السياسة وحدها هي التي تشغل الخليفة وأعوانه ومشيريه؛ فقد كانت هناك مشكلات إدارية ليست أقل منها خطراً ولا أهون منها شأناً؛ فهذه البلاد التي فتحت على المسلمين كانت بلاداً لها سابقة في الحضارة، وتفوق في العمران، ولها نظمها المألوفة التي تتباين فيما بينها بتباين الأقطار والأقاليم؛ ولم يكن بد لهذه البلاد من أن تدار بعد الفتح كما كانت تدار قبل الفتح؛ فلم يكن الفتح الإسلامي فتح تخريب وتدمير، وإنما فتح تأمين وتعمير؛ ولم يكن من الممكن أن يصبح العرب فجأة مهرة في الإدارة متقنين للسياسة قادرين على أن يكفوا عن أنفسهم شر المغلوبين من ورائهم، ويؤمنوا هؤلاء المغلوبين على أنفسهم وأموالهم ومرافقهم، ويأخذوا من هؤلاء المغلوبين ما يمكنهم من إقرار الأمن والمضي في الحرب والاتساع في الفتح؛ فلم يكن لهم بد إذن من أن يحتفظوا بالإدارات التي وجدوها في تلك البلاد حين أخضعوها لسلطانهم، ومن أن يراقبوا هذه الإدارت مراقبة دقيقة متصلة تكفيهم ما يمكن أن تقدم عليه من غش لهم أو مكر بهم أو تأليب عليهم؛ وليس شيء من هذا كله بالأمر اليسير.

ثم هناك مشكلات أخرى تتصل ببلاد العرب نفسها؛ فقد ينبغي للسلطان أن يجد السياسة التي يضبط بها الشعب البادي الذي لم يألف الطاعة ولم يتعود الخضوع، وأن يضبطه في الوقت الذي يأخذ فيه شبابه وأولي القوة من رجـــاله ليرسلهم إلى أماكن نائية قد يعودون منها وقد لا يعودون؛ ونحن نقرأ في غير مشقة أنباء التعبئة العامة حين تفرضها الظروف على هذا الشعب الحديث أو ذاك، فنعجب لذلك ونُعجب به، ولكننا لا نتعمق دقائق التعبئة العامة ومشكلاتها، ولا نقدر أن لهذه التعبئة في الشعوب الحديثة نُظماً مقررة متقنة لم ترتجل ارتجالا، وإنما صنعت صنعاً بعد التجربة الدقيقة والمراس الطويل، فكيف بأمة بادية ليس لها في الحروب العظيمة سنة، وليس لهـــا بالتعبئة المنظمة عهد، وإنما هي تواجه هذا كله للمرة الأولى من غير تجربة ولا مغالاة ولا معاناة ولا اختبار!

هذه ألوان يسيرة من المشكلات التي واجهت عمر، وكانت خليقة أن تواجــه أبا بكر لو مدّت له أسباب الحياة، وكان من الطبيعي أن تواجه الخلفاء الذين يأتون بعد عمر؛ فأي غرابة في أن يشقى عمر بخلافته شقاء عظيماً! وأي غرابة في أن يحزم أمره ويمضي عزمه ويشمر عن جد هائل فلا ينام ولا ينيم! ثم أي غرابة بعد ذلك في أن يلتمس بين أصحابه ومعاصريه من يستطيع أن يعهد إليه بمواجهة هذه المشكلات وما هو أعسر منها عسراً وأشد منها تعقيداً، فلا يكاد يظفر به أو يطمئن إليه!

والمشكلة بعد ذلك ليست مشكلة إدارة وسياسة وحرب ليس غير، ولكنها مشكلة تتعقد بهذا التراث الديني الذي يجب أن يقوم الخليفة عليه ليحميه ويحفظه ويصونه، ويمضي به في الطريق التي مضى فيها النبي بأمر من ربه ؛ فلو قد كان الأمر أمر فتوح وإدارة وسياسة ليس غير، لمضى فيها العرب كما مضى غيرهم من الأمم التي خرجت من البداوة إلى الحضارة، ومن الضعف إلى القوة، ومن الخضوع إلى التسلط والاستعلاء؛ ولكن الأمر أمر فتح في حدود معينة قد رسمها الإسلام، وقوامها رفع المغلوبين إلى مكانة الغالبين بإذاعة العدل الكامل الشامل فيهم من جهة، وبينهم وبين الذين قهروهم من جهة أخرى ؛ فلم يكن الفتح كما صوره الإسلام وكما تصوره النبي وصاحباه فتح تغلب وجباية، وإنما كان فتح إصلاح وهداية.

فلم يكن بد للخليفة إذن من أن يجمع إلى كفايته في أمور السياسة والإدارة والحرب كفايةً أخرى هي أشق منها مشقة وأعسر منها عسراً، وهي الكفاية في حماية الدين وحياطته وصيانته من أن يكيد له المغلوب أو يستغله الغالب أو يفتر فيه القائمون عليه الذين يجب عليهم ألا يخشوا في حياطته لومة لائم مهما يكن.

أضف إلى هذا كله تراثاً آخر لم يكن بد لعمر من أن يفكر فيه ومن أن يلائم بينه وبين مصالح الناس وحقائق الدين، وهو هذه الأرستقراطية الجديدة التي أتيحت للعرب في هذه الطبقة الممتازة من أصحاب النبي أولاً، وفي هؤلاء القواد المظفرين. ثانياً : أرستقراطية جاءت من الدين لفريق من الناس، وأرستقراطية جاءت من الدنيا لفريق آخر، وأرستقراطية جاءت من الدين والدنيا جميعاً لفريق ثالث.

هذا الصحابي الذي سبق إلى الاسلام، وهاجر الهجرتين، وشهد المشاهد مع النبي، ثم أقام بعد ذلك في المدينة، له أرستقراطيته الدينية ؛ وهذا القرشي أو العربي الذي أسلم بآخرة، ثم أبلى في الفتح بلاء حسناً، وامتاز بين الفاتحين، له أرستقراطيته الدنيوية ؛ وهذا الصحابي الذي سبق إلى الاسلام، وهاجر لله ولرسوله، وشهد المشاهد مع النبي وامتاز، بعد ذلك في الفتح، له أرستقراطية الدين والدنيا جميعاً. ولا بد للخليفة إن أراد أن يعهد ويستخلف من أن يلائم بين هذه المصالح المختلفة، ويخرج من هذه المشكلات المعضلات إلى حل يرضي مصالح الدين والدنيا، وآراء الناس في أنفسهم وفي نظرائهم ؛ فليس العجيب ألا يستخلف عمر، وليس العجيب أن يتردد حين يطلب إليه الاستخلاف، وإنما العجيب هو نقيض هذا ؛ وقد اجتهد عمر ما وسعه الاجتهاد، واجتهد في أيام حرج وضيق، وأعجله الموت عن أن يطيل

التفكير ويشاور من حوله من كبار الصحابة وزعماء المسلمين .

وما من شك في أن النظام الذي وضعه للشورى قد كان نظاماً لا يخلو من نقص ، ولعله لا يخلو من نقص شديد ؛ وأول ما نلاحظه على هذا النظام ضيق مجلس الشورى؛ فقد ائتلف هذا المجلس من سبعة، أحدهم يشير وليس له في الأمر شيء ؛ وهو عبدالله ابن عمر ، فكان هو المشير الوحيد الذي لا مطمع له في شيء ؛ ولم يكد المشيرون يجتمعون حتى تبينوا الآفة الخطيرة التي كانت توشك أن تذهب بمجلسهم غير مذهب ، وهي أن ستة منهم كانوا مشيرين ، وكانوا جميعاً مرشحين للخلافة ؛ فلم يكن لهم بد من أن يحملوا أنفسهم على ما لم تتعود النفوس أن تحمل عليه؛ لا لأنهم كانوا يؤثرون أنفسهم بالسلطان حباً للسلطان وحده ، بل لأنهم كانوا يؤثرون أنفسهم بالسلطان نصحاًللإسلام والمسلمين : يرى كل واحد منهم مخلصاً أنه أقدر على احتمال العبء وأجدر أن يرعى ما ينبغي له من حق ؛ وقد فوجىء المسلمون الذين كانوا حراسة هؤلاء المشيرين مفاجأة أليمة حين رأوا هؤلاء المشيرين يختلفون في غير ائتلاف ، ويتنافسون في غير وفاق ، حتى قال أبو طلحة رئيس الحرس : لقد كنت من أن تدافعوها أخوف مني من أن تنافسوها .

كان رحمه الله في سذاجته وطهـــارة قلبه يرى كما كان يرى عمر أن الخلافة عبء ثقيل ينبغي ألا يُطمع فيه ، بل ينبغي أن يرغب الرجل عنه إيثاراً للعافية في دينه ودنياه ؛ ولكن المشيرين لم يكونوا يرون هذا الرأي،وإنما كانوا يرون أن الخلافةواجب يجب أن يتنافس المتنافسون في النهوض بأعبائه مهما تثقل ، تقرباً لله إن حسنت بهم الظنون ، ويجب أن تحسن بهم الظنون ؛ ورفقاً بالناس إن صدقت فيهم الآراء ، ويجب أن تصدق فيهم الآراء. وكان أسرع المشيرين الى التنبه لهذه الآفة ومحاولة الطلب لها، عبدالرحمن بن عوف؛فقد عرض على أصحابه أن يخلع أحدهم نفسه من الأمر وأن يختار بعد ذلك للمسلمين ، فاسكتوا جميعاً ، أو قل أسكت منهم أربعة ، هم علي وعثمان وسعد والزبير ؛ ولم يُسكت طلحة ولم يتكلم لأنه كان غائباً لم يحضر الشورى ؛ فلما رأى عبد الرحمن أنهم قد أسكتوا ، وأنهم لا تطيب نفس واحد منهم عن هـــذا الأمر ، خلع هو نفسه منه على أن يختار للمسلمين من هؤلاء الخمسة ناصحاً لله وللمؤمنين . ولم يكن من اليسير أن يرضى الأربعة منه بما عرض عليهم ؛ فقد كان عليّ يخاف أن يميل عبد الرحمن إلى عثمان لصهر كان بينهما ، وكان غير عليّ يخاف أن يميل عبد الرحمن إلى سعد لقرابة كانت بينهما ؛ ولكن القوم تعاطوا العهود والمواثيق على ألا يألو عبـــد

الرحمن المسلمين نصحاً ، وعلى ألا يميل مع الهوى ولا يتأثر بقرابة أو صهر ، وعلى أن يقبل القوم من يختارهم لهم من بينهم

ولو قد وسّع عمر مجلس الشورى وأكثر فيه من أمثال عبدالله بن عمر من أولئك الذين يحضرون الشورى ويشاركون فيها ولا يكون لهم من الأمر شيء ، لكان من الممكن ألا يتعرض مجلس الشورى لما تعرض له من الشك والاختلاف . وأكاد أعتقد أن الخير قد كان يكون لو تصور عمر مجلس الشورى لا على أنه مجلس مؤلف من المرشحين أيهم انتخب فهو خليفة ، بل على أنه مجلس مؤلف من المشيرين الذين تعرض عليهم أسماء هؤلاء الستة ليختاروا من بينهم رجلا يستخلفونه ؛ ولم يخطر لعمر رحمه الله ولم يخطر للمسلمين من بعده أن الأنصار كانوا خليقين أن يشهدوا الشورى ، وأن يكون لهم أن يقولوا رأيهم ويشاركوا في الاختيار بين المرشحين ؛ فقد نعلم أن الإمامة في قريش ما دام المسلمون قد اتفقوا على ذلك ، ولكن لا نعلم أن معنى هذه القاعدة أن قريشاً وحدها هي التي تختار الإمام ؛ فليس الإمام إماماً لقريش وحدها ولكنه إمام المسلمين جميعاً ؛ فالمسلمون جميعاً ولاة هذا الاختيار على أنهم مقيدون بأن يكون الإمام الذي يختارونه من قريش ؛ وقد استقر في نفوس المسلمين لذلك العهد وبعد ذلك العهد أن الاختيار إنما يكون لأهل الحل والعقد ، وما نعلم أن الحل والعقد قد كانا إلى قريش وحدها أيام أبي بكر وعمر ، وقد قال أبو بكر للأنصار : نحن الأمراء وأنتم الوزراء . فجعلهم من أهل الحل والعقد ، لأن الوزراء فيما نعتقد يحلون ويعقدون . كان من الطبيعي إذن أن يشهد الأنصار مجلس الشورى ويشاركوا في اختيار الإمام ، بل كان من الطبيعي أن يأتلف مجلس الشورى من جماعة تتجاوز قريشاً والأنصار وتشمل قوماً غيرهم من زعماء العرب وقواد المسلمين في الحرب وكبار الولاة والعمال ؛ فلو قد ائتلف مجلس الشورى على هذا النحو ، لكان خليقاً أن يجنب المسلمين كثيراً مما تعرضوا له من الشر ..

وآفة أخرى نراها في تنظيم الشورى على هذا النحو ، وهي أن سلطان المشيرين كان سلطاناً موقوتاً حدد له عمر ثلاثة أيام وقبل المسلمون منه هذا التحديد ، وكان من الطبيعي أن يختاروا من بينهم رجلاً وأن يستخلفوه ، وأن يبايعه من حضر من المسلمين ، وأن يكتب ببيعته إلى الأمصار ، أو بعبارة أدق ، أن يكتب هو ببيعته إلى الأمصار وينفذ فيها أمره ونهيه بحق الخلافة التي استمدها من هؤلاء الذين بايعوه .

ومعنى هذا كله أن أهل المدينة كانوا وحدهم بمقتضى هذا النظام هم الذين إذا

بايعوا ألزموا المسلمين في جميع أقطار الأرض ؛ وعلة ذلك أن المدينة كانت مستقر أصحاب النبي من المهاجرين والأنصار ، ومواطن أهل الحل والعقد ، وعلة ذلك أيضاً أن الانتظار الطويل في اختيار الامام كان خليقاً أن يثير القلق ويحدث الأحداث ؛ ولكن ليس من شك في أن بعض أصحاب النبي من أولي الرأي والبصيرة كانوا قد تفرقوا في الأمصار ، ومواطن الحرب بأمر عمر أو عن إذنه ، وكانوا خليقين لو استشيروا أن يشيروا وينصحوا .

على أن الخطر كل الخطر لا يأتي من هذه العجلة التي قد تدعو إليها المصلحة ، وما نشك في أن عمر قد قدر هذه المصلحة فأحسن تقديرها ، وإنما يأتي الخطر من أن هذا المجلس قد كان موقوتاً ينحل متى تم اختيار الامام ؛ ولو قد وسع مجلس الشورى أولاً وجعل نظاماً دائماً بعد ذلك ، بحيث يصبح مجلس مراقبة الإمام في عمله من جهة ، ومجلس اختيار للأئمة كلما احتاج المسلمون إلى اختيار الإمام من جهة أخرى ، لكان المسلمون قد سبقوا إلى النظام البرلماني ، وهم كانوا خليقين أن يسبقوا إليه ؛ فقد رأيت من سيرة عمر أنه كان يسعى إلى هذا النظام سعياً حثيثاً . ولكني أعيد ما قلته آنفاً من أن عمر قد أعجل عن التفكير في هذا النظام ، ولو قد مدّت له الحياة لكان من الممكن جداً أن يفرغ لهذا الأمر وأن يشاور فيه ، وأن ينتهي إلى نظام يشبه هذا الذي صورناه ؛ إذن لما حدثت الأحداث ، ولما نشأت هذه المشكلة الخطيرة التي نشأت بين عثمان وبين الذين ثاروا به وخرجوا عليه ، وهي : أيجوز للمسلمين أن يخلعوا إمامهم إن أنكروا سيرته أم لا يجوز ؟ بل أيجوز للامام نفسه أن يخلع نفسه إن ضاقت به الرعية أم لا يجوز ؟

ومهما يكن من شيء فقد جعل المشيرون أمرهم إلى عبدالرحمن ثم تفرقوا فأقاموا في بيوتهم ، وجعل صُهيب يصلي بالناس كما أمر بذلك عمر ، وقام أبو طلحة وأصحابه على باب عبدالرحمن ينتظرون به انتهاء الأيام الثلاثة ليختار للمسلمين إماماً . وقيل إن عبدالرحمن لم يكتف بتفكيره وتقديره واستخارته الله للمسلمين ، وإنما جعل يشاور الناس يسعى إليهم ويدعوهم إليه ، لا يستشير الرجال منهم خاصة ، وإنما يستشير ذوات الفضل من النساء وفي طليعتهن أمهات المؤمنين ؛ حتى اذا كاد يستوفي الأيام الثلاثة أرسل الى علي وعثمان فدعاهما اليه وخلا بهما واحداً في إثر صاحبه ، وسأل علياً قائلاً : أرأيتك لو لم أولك فمن تشير علـيّ أن أختار ؟ فقال له : عثمان . ثم ألقى السؤال نفسه على عثمان حين خلا به فقال : عليّ . وإن كان هذا موضع شك،

فلم يشهد أحد ما كان من الحديث بين عبدالرحمن وصاحبيه . وعلى كل حال فقد خلا عبدالرحمن إلى صاحبيه أحدهما في أثر الآخر ، ثم أمر فنودي في الناس : الصلاة جامعة ، فازدحم الناس إلى المسجد حتى اكتظ بهم ، وصعد عبدالرحمن إلى منبر النبي وجلس منه حيث كان النبي نفسه يجلس . وكان ابو بكر قد نزل عن مجلس النبي درجة ، وكان عمر قد نزل عن مجلس أبي بكر درجة اخرى ؛ فلما استخلف عثمان قال : إن هذا يطول ، ثم جلس مجلس النبي .

رقي إذن عبدالرحمن المنبر وجلس مجلس النبي ، وقد اعتم بعمامة كان النبي قد عممه بها في إحدى خرجاته ، ثم وقف فأطال الوقوف ، ودعا دعاء لم يسمعه الناس ، ثم قال : هلم إليّ يا عليّ . فقام علي فسعى إليه ، فبسط عبدالرحمن يده فأخذ بيد عليّ ثم قال له : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر ؟ قال عليّ : اللهم لا ! ولكني أحاول من ذلك جهدي وطاقتي . فأرسل يده ، وقال : هلم إليّ يا عثمان ، فأقبل عثمان حتى وقف عند المنبر ، وبسط عبدالرحمن يده فأخذ يد عثمان وقال له : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر ؟ قال عثمان : اللهم نعم . قال عبدالرحمن : اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، اللهم اشهد . ثم قام الناس فبايعوا عثمان .

وبايع علي فيمن بايع لم يتردد ، ويقال إنه تردد ، فقال عبدالرحمن : يا علي ، لا تجعل على نفسك سبيلا ، ثم تلا الآية : « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » . فأقبل عليّ فبايع . وأكاد أقطع بأن علياً لم يتردد ولم يحتج الى من يذكره بالعهد الذي اعطاه على نفسه ؛ فعليّ أوفى بالعهد وأكرم على نفسه من أن يحتاج إلى مثل هذا التنبيه ، وسيرته كلها تنبئنا بذلك.

ولم ينقض هذا اليوم ، وهو اليوم الأخير من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين ، حتى كان عثمان إماماً يستقبل بخلافته المحرم سنة أربع وعشرين في أثبت ما روى المؤرخون .

- ٥ -

وكان أول ما عرض لعثمان من الأحداث قبل أن يستتم اليوم الأول من أيام خلافته

قصة عبيد الله بن عمر الذي قتل الهرمزان وجفينة وبنت أبي لؤلؤة . وهـــي قصة امتحن بها المسلمون امتحاناً عسيراً . فأبو لؤلؤة هو قاتل عمر، طعنه بخنجر ذي رأسين حين كان يتقدم للصلاة ؛ فتكاثر الناس على أبي لؤلؤة فأخذوه، ولكنه قتل نفسه قبل أن يسأل في ذلك أو يجيب . وقال بعض الناس : إنه رأى أبا لؤلؤة ، والهرمزان وكان قد أسلم ، وجفينة وكان نصرانياً ، قد خلصوا نجياً وفي أيديهم هــذا الخنجر يقلبونه ، فلما أقبل عليهم قاموا وسقط الخنجر من أيديهم . فلما مات عمر أقبل ابنه عبيد الله شاهراً سيفه حتى أتى الهرمزان فقتله ، فيقول الرواة إنه لما أحس عض السيف قال : لا إله إلا الله . ثم أتى جفينة فقتله فيقول الرواة إنه لـــما أحس الموت صلب بين عينيه . ثم أتى منزل أبي لؤلؤة فقتل ابنته . وبلغ الخبر صهيباً وكان على صلاة الناس ، فأرسل إليه من يكفه من المسلمين ، وقد انتهى إليه سعد بن أبي وقاص فساوره وما زال به حتى أخذ منه السيف ، ثم حبس حتى يقضي الخليفة في أمره.

فلم تكد بيعة عثمان تتم حتى شاور المسلمين الذين حضروه في أمر عبيد الله هذا الذي ثأر لنفسه بنفسه وثأر لنفسه عن غير بينة ، فقتل رجلاً مسلماً وقتل ذميين بغير الحق، دون أن يخوّله السلطان قتلها . فأما أهل البصيرة والفقه وفيهم عليّ فأشاروا بالقود ؛ لأن عبيد الله قد تعدى حدود الله كما رأيت . وقــال قوم كثير من المسلمين : يقتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ؛ وزعموا أن عمرو بن العاص قال لعثمان : قد أعفاك الله من هذه القضية ؛ فقد حدث ما حدث وليس لك على المسلمين سلطان .

وقد اختلف الرواة في الحكم الذي أمضاه عثمان في هذه القضيـة : فقوم يزعمون أن عثمان قضى بالقود ودفع عبيد الله إلى ابن الهرمزان ليقتله بأبيه . وأكثر المؤرخين يزعمون أن عثمان قال : أنا وليّ الهرمزان ووليّ من قتل عبيد الله ، وقد عفوت وأدفع دية من قتل من مالي إلى بيت مال المسلمين . وهذا أشبه بسيرة عثمان - فما كان عثمان ليستفتح خلافته بقتل فتى من فتيان قريش وابن من أبناء عمر . وما كان عثمان ليهدر دم مسلم وذميين . وهو من أجل ذلك آثر العافية . فأدى دية القتلى من ماله الخاص إلى بيت مال المسلمين ، وحقن دم عبيد الله بن عمر . وفي إمضائه الحكم على هـــذا النحو سياسة رشيدة لو نظر الناس إلى القضية نظرة سياسية خالصة . فلم يبعد من قــال من المسلمين : يقتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ؛ ولو قد قتـــل عثمان عبيد الله بن عمر في القصاص لغيّر على نفسه قلوب آل الخطاب خاصة وبني عديّ عامـــة ، بل لغير قلوب قريش كلها وقلوب كثير من غير قريش . ولو قد عفا ولم يعقل القتلى لفتح باباً

من أبواب الفوضى لا سبيل إلى إغلاقه .

ولكن هذه القضية ليست قضية سياسية فحسب وإنما هـي قضية دين أولاً ، ثم قضية سياسة بعد ذلك . ومن حق الإمام أن يعفو بشرط ألا يعطل عفوه حداً من حدود الدين .

ومن هنا نفهم أن كثيراً من المسلمين المتشددين لم يرضوا عن قضاء عثمان هذا ؛ فكان من الأنصار من لبث يذكر عبيد الله بقتل الهرمزان وينذره بالاقتصاص منه ، وكان زياد بن لبيد البياضي كلما لقيه قال له :

ألا يا عبيد الله ما لك مهرب ... ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر
أصبت دماً والله في غير حله ... حراماً، وقتلُ الهرمزان له خطر
على غير شيء غير أن قال قائل ... أتتهمون الهرمزان على عمر
فقال سفيهٌ والحوادث جمة ... نعم أتهمه قد أشار وقد أمر
وكان سلاح العبد في جوف بيته ... يقلبه والأمر بالأمر يعتبر

فلما كثر ذلك من زياد شكاه عبدالله الى عثمان ، فدعا عثمان زياداً فنهاه عن ذلك فلم ينته ، وإنما قال في عثمان نفسه :

أبا عمرو عبيد الله رهنٌ ... – فلا تشككك - بقتل الهرمزان
فإنك إن غفرت الجرم عنه ... وأسباب الخطا فرسا رهان
لتعفو إذ عفوت بغير حق ... فما لك بالذي تحكي يدان

فغضب عثمان وزجر زياداً حتى انتهى . ولكن قوماً من المسلمين لم يرضوا قضاء عثمان ، ويقال إن علياً كان من هؤلاء ، ويقال إنه لو قدر على عبيد الله أثناء خلافته لأقاد منه ، ولكن عبيد الله خرج مع الغاضبين لعثمان وقاتل مع معاوية بصفين فقتل هناك . والذي أسخط هؤلاء المسلمين مراعاتهم لظاهر النص القرآني أولاً ، وتحرجهم بعد ذلك من أن يعفى عن عبيدالله لأنه ابن خليفة ، ولأنه قتل مسلماً أعجمياً حديث عهد بالإسلام وآخرين من اهل الذمة.ففي هذا العفو ما يشبه ان يكون تمييزاً بين المسلمين، تمييزاً بين العربي وهو عبيد،وبين الأعجمي وهو الهرمزان.والله لم يفرق بين المسلمين فيما ضمن لهم من حرمة دمائهم وأموالهم وأعراضهم مهما يكن آباؤهم ومهما تكن أجناسهم.وفي هذا العفو ما يشبه أن يكون إهداراً لدماء أهل الذمة على ما تقرر لهم في الدين من الحرمة ورعاية الحقوق . ولو ترك الأمر على هذا النحو وأبيح لأبناء الخلفاء وأمثالهم من أبناء كبار الانصار والمهاجرين أن يثأروا لأنفسهم بأنفسهم ، يتبعون في ذلك شهواتهم

وتزواتهم ، ولا يرفعون أمرهم الى السلطان ، ولا يقيمون البينـــة على أصحاب ثأرهم ، لفسد الأمر وضاع العدل ، وكانت الفوضى وطمست آيات الدين .

ونعود فنقول إن عثمان كان ولي أمر المسلمين ، وله بحكم هذه الولاية أن يعفو . وتزيـــد على ذلك أنه حين عفا لم يعطل حداً من حدود الله ولم يهدر دم الهرمزان وصاحبيه ، وإنما أدى ديتهم من ماله لبيت مال المسلمـــين الذي كان يرثهم وحده . ولكن هذا النحو من العفو لا يخلو مما يريب المتشددين في الدين . فعبيد الله لم يعاقب على شيء مما أتى ، وإنما احتمل العقوبة عنه عثمان حين أدى الدية من ماله هو ولو قد عفا فحقن دم عبيد الله ، ثم فرض عليه وعلى أسرته دية القتلى ، لأقام الحد في غير ريبة ، ولما استطاع أحد أن ينكر من قضائه شيئاً . ولو أنه إذ أدى الدية من ماله رفقاً بآل الخطاب أمسك عبيد الله في السجن تعزيزاً له وتأديباً ، حتى يتوب الى الله من إثمه ، ويندم على إراقة الدم في غير حقه ، وعلى الاستخفاف بالسلطان استجـابة للحفيظة الجاهلية – لو قد فعل ذلك لكان له مخرج من هذا الحرج ، ولأعلم فتيان قريش من أمثال عبيدالله أن دماء المسلمين والذميين أعظم حرمة عند الله وعند السلطان من أن تراق بغير الحق ثم لا يعاقب من أراقها عقاباً يسيراً او خطيراً ، وإنمـــا يخلى بينه وبين الحياة يحياها آمناً ، ويخلى بينه وبين طيبات الحياة يستمتع بهـــا في غير رهب ولا خوف .

ومهما يكن من شيء فقد استقبل عثمان خلافته بهذا النحو من السياسة الذي يصور رحمته ورأفته وإيثاره للعافية ، وتجنبه لما يحفظ القلوب ، قلوب العرب خاصة ، وقلوب هذه الطبقة الممتازة من المهاجرين وأبناء المهاجرين بنوع أخص . فرضي عن هـــذه السياسة قوم وسخط عليها آخرون ، وكان بدء خلافة عثمان محاطاً بشيء من هـــذا الشك والاختلاف . ولو قد كان عمر مكان عثمان وقدم اليه فتى من فتيان قريش مهما يكن أبوه ومهما تكن عشيرته ، لقام في هذا الامر مقام صاحب الجد الذي لا تأخذه في حدود الله لومة لائم . وما من شك في أن قضاء عثمان في هذه القضية قـــد رسم خلافته بما يميزها تمييزاً تاماً من خلافة عمر ، وهو الرفق واللين.

وعلى ذلك فإن الناس لم يعجلوا بالحكم على عثمان . وما كان لهم ان يعجـــلوا وهم أنفسهم قد انقسموا في هذه القضية ، لمكان عمر في قلوبهم ، ولما كانوا يرونه من رعاية حقه في أهله وبنيه . وقد أمر النبي أن تدرأ الحدود بالشبهات ، فلعـل عثمان قد درأ هذا الحد عن عبيد الله بالشبهة التي تأتي من غضبه لأبيه واندفـــاعه

مع شهوته الجامحة . والله قد حبب الى المسلمين العفو حين يقدرون وجزاهم الله خيراً .

وقد روى المؤرخون أن عثمان لم يكد يستقبل خلافته حتى أصدر إلى الأقاليم كتباً ، منها ما وجه إلى العمال ، ومنها ما وجه إلى قواد الحرب ، ومنها ما وجه إلى عامة الناس ، وأقل ما توصف به هذه الكتب أنها تصور السياسة التي كان عثمان يريد أن يأخذ بها المسلمين والتي أخذهم بها صدراً من خلافته ، فيما يقول المؤرخون . فمن حق هذه الكتب أن تروى ، وأن نقف عندها وقفة ما ، لنتبين إلى أي حد تم عثمان ما رسم لنفسه فيها من خطة .

كتب إلى عماله فيما روى الطبري في أحداث سنة أربع وعشرين للهجرة يقول: «أما بعد ، فان الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة . وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة لم يخلقوا جباة . وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة، ولا يكونوا رعاة . فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم. فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم . ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء». فهذا الكتاب الموجز اليسير الذي كتب أو أملي في غير تكلف ولا تأنق ولا تفكير في غير العدل الذي فرض على المسلمين ، يأمر العمال بخصال أربع : الأولى أن يكونوا رعاة ولا يكونوا جباة ، أي أن تكون غايتهم من الحكم الرفق بالمحكومين لا إغناء الحكومة ، ولا إرضاء حاجة الحاكمين إلى الغنى . يلح عثمان في هذه الخصلة إلحاحاً شديداً ، فيكرر كلمتي الرعاة والجباة تكريراً يصور هذا الإلحاح . ولا غرابة في ذلك ؛ فهو يريد أن يبين الغاية الأساسية التي قصد إليها الإسلام حين دفع العرب إلى الفتح ، وهو الإصلاح قبل كل شيء . فليس الفتح الإسلامي كما قدمنا فتح غلب وتسلط ، وإنما هو فتح رعاية ورفق وإصلاح .

وعثمان يقرر أن الأئمة في صدر هذه الأمة كانوا رعاة لا جباة ، وهؤلاء الأئمة هم النبي وأبوبكر وعمر. وهو يشفق بعد ذلك من أن يصبح الأئمة جباة لا رعاة، فينقطع الحياء وتقوم مقامه القحة التي تضيع الحق وتدفع إلى الإصرار على الباطل والإستهتار بالإثم . وتنقطع الامانة ويقوم مقامها الغش الذي يضيع حقوق الأئمة والرعاة جميعاً، ويشكك بعض الناس في بعض ، ويسيء ظنون بعضهم ببعض ، ويقيم الأمر بينهم على المخادعة والرياء لا على المصارحة والإخلاص. وينقطع الوفاء ، ويقوم مقامه الغدر الذي يدفع الناس إلى شر لا آخر له ، وإلى أثرة منكرة ، فلا يرعى أحد لأحد حرمة ولا

يرجو أحد لأحد وقاراً . ليس من شك في أن هذا الهدى هو هدى النبي وصاحبيه.

الخصلة الثانية ليست الا تفصيلا لما تقدم فيه عثمان إلى عماله ، وهي رعاية العدل فيما يكون من الصلة بين المسلمين وبين أئمتهم وامرائهم . فلا ينبغي أن يظلم المسلمون إرضاء للحكومة ، ولا ينبغي أن تظلم الحكومة إرضاء لعامة المسلمين . وإنما ينبغي أن يؤخذ من المسلمين ما عليهم وأن يرد إليهم ما لهم ، ، فلا ظلم في الحكم ، ولا إسراف على الناس في أخذ الصدقات وجباية الخراج ، ولا تسلط على النـاس في أي أمر من أمورهم ، وإنما هو القسط الذي لا يضار فيه حاكم ولا محكوم .

والخصلة الثالثة هي الخصلة الثانية نفسها ، ولكنها تخص المعاهدين من أهل الذمة : فهم كالمسلمين في استحقاقهم للعدل ، لهم ما للمسلمين من حق ، وعليهم ما على المسلمين من واجب . إذا نصحوا وأخلصوا وأوفوا بما عاهدوا عليه ؛ فلا ينبغي أن يؤخذ منهم أكثر من الحق فيظلموا، ولا ينبغي أن يترك لهم اكثر من الحق فيقع الظلم على المسلمين.

والخصلة الرابعة تتصل بالعدو الذي يواجه عمال المسلمين في أمصارهم ، وهي من أروع ما أوصى به الأئمة ، لم يبتكره عثمان من عنده ، ولم يكن عثمان يحب الابتكار كما سترى ، وإنما اتبع فيه ما أنزل من القرآن في سورة «براءة» وفي غيرها ، فهو يأمر عماله أن يستفتحوا عليهم ولكن بالوفاء . فليس لهم أن يغدروا حتى بالعدو، وإنما عليهم أن يعرضوا الدعوة فإن أجابوا إليها فذاك ، وأن يعرضوا الصلح فإن أجابوا إليه فذاك ، وإن لم يجيبوا أذنوا على سواء .

فهذه السياسة التي رسمها عثمان لعماله هي نفس السياسة التي نزل بها القرآن ورسمها الأئمة قبل عثمان لأنفسهم وللمسلمين . وكتب عثمان الى عماله على الخراج : « أما بعد ، فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق . والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم الى ما اكتسبتم . والوفاء الوفاء ، ولا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم » .

وهذا الكتاب الذي يمتاز بإيجازه الرائع يلح فيما ألح فيه الكتاب الأول ، ويحرص على ما حرص عليه ، ولكنه يؤدي ذلك في شيء من القوة والشدة لا تكاد نجدهما في كتابه الأول. فالله قد خلق الخلق بالحق فهو لا يقبل إلا الحق ؛ فما ينبغي للأئمة والعمال إلا أن يتقربوا الى الله بمـا يحب ، فيأخذوا الحق لا يزيدون عليه ولا ينقصون منه ، ويعطوا الحق لا يضيفون اليه ولا ينحرفون عنه . وإذا لزموا الحق على هذا النحو ، فأول ما يجب عليهم أن يرعوه إنما هي الأمانة فيما يجبون من الناس ، وفيما ينفقون على

مرافقهم ، وفيما يؤدون بعد ذلك الى الإمام لينفق في المرافق العامة للدولة كلها. وعثمان يحذّر عمال الخراج من أن يكونوا أول من ينحرف عن الأمانة فيحملوا إثم انحرافهم عنها ، وإثم من يذهب بعدهم مذهبهم في هذا الانحراف . ثم يأمرهم عثمان بعد الأمانة بالوفاء ، ويشدد عليهم فيه كما شدد عليهم في الأمانة ، ثم ينهاهم عن ظلم اليتامى وأهل الذمة ، ويحذّرهم عقاب الله الذي هو خصم لمن ظلمهم .

وهذه السياسة أيضاً هي التي أنزلها الله في القرآن وسار عليها النبي وصاحباه من بعده . فعثمان لا يزيد في هذا الكتاب كما لم يزد في الكتاب الأول على الوفاء بما بايع عليه عبد الرحمن بن عوف من كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر . وكتب عثمان الى أمراء الحرب في الثغور : « أما بعد ، فإنكم حماة المسلمين وذادتهم ، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان عن ملأ منا . ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم . فانظروا كيف تكونون ، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه » .

فانظر الى ما في هذا الكتاب من الشدة والحزم اللذين يلائمان ما ينبغي أن يكتب الى أمراء الحرب . وانظر بنوع خاص الى التزام عثمان سيرة عمر فيما رسم لأمراءالحرب من نظام ؛ لأن عمر لم يرسم هذا النظام إلا عن ملأ من المسلمين من المهاجرين والأنصار. وقد حضر عثمان رسم هذا النظام وشارك فيه بالرأي والمشورة . وهو يعزم على الأمراء ألا يغيروا ولا يبدلوا مما رسم عمر شيئاً ، وينذرهم بالعزل والعقوبة إن غيروا أو بدلوا؛ لأنه مكلف أن ينظر فيما ألزمه الله النظر فيه والقيام عليه . فعثمان إذن محافظ على سيرة عمر في الإدارة وفي سياسة المال وفي سياسة الحرب . وهو كذلك محافظ على سياسة عمر فيما كان يأخذ به عامة المسلمين من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتزام السنة الموروثة واجتناب التكلف والابتداع . يشهد بذلك كتابه الذي أصدره ليقرأ على الناس في الأمصار والأقاليم وهو : « أما بعد ، فإنكم إنما بلغتم بالاقتداء والاتباع ، فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم ؛ فان أمر هذه الأمة صائر الى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم ، وبلوغ أولادكم من السبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن . فان رسول الله ﷺ قال : الكفر في العجمة ؛ فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا » .

فعثمان في هذا الكتاب ليس أقل محافظة من عمر على السنة الموروثة ، وليس أقل تهيباً من عمر للابتداع والتكلف ؛ فهو ينبه المسلمين الى أنهم لم يبلغوا ما بلغوا من سعة

الفتح وضخامة السلطان إلا بالاقتداء والاتباع ، وهو يحذرهم من أن تلفتهم الدنيا عن أمرهم، ويخاف عليهم ثلاثة أشياء : أن يبطرهم تكامل النعم وازدياد حظهم بين يوم ويوم من الرخاء وبسطة العيش ، وأن يفسد عليهم أمرهم بلوغ أولادهم من السبايا ؛ فهذا الجيل الناشىء الذي لم يخاص دمه للعرب وإنما امتزج بدمه العربي دم الأمهات الأجنبيات، خليق أن يؤثر الابتداع والتجديد على الاقتداء والاتباع . الثالث أن يدخل على الدين ما ليس منه ، وأن يشاب العلم السمح اليسير بالجهل والتكلف اللذين يأتيان من إقبال الأعراب والأعاجم على الإسلام وقراءتهم للقرآن ، وعجزهم بعد ذلك عن أن يفهموا النص على وجهه ، واضطرارهم بعد ذلك إلى التكلف والتزيد . وما أعرف أن أحداً صور الآفات التي تعرّض المسلمون لها بعد الفتح كما صورها عثمان في هذا الكتاب . فقد كثرت النعمة ، فتعرّض المسلمون للبطر والأشر والطمع . ونشأ هذا الجيل المولد ، فكان التكلف والابتداع والتجديد وركوب الأحداث العظام . وأقبل على الإسلام قوم لم يفقهوا القرآن على وجهه ، فكان الإسراف في التهاون من جهة ، والإسراف في التشدد من جهة أخرى ، وضاع الحق أو كاد يضيع بين المتهاونين والمتشددين .

وهؤلاء العمال الذين كتب إليهم عثمان إنما كانوا عمال عمر أقرهم عثمان على أعمالهم عاماً بوصية من عمر نفسه . ولم يكن أرشد من هذه التوصية ولا أدنى منها إلى الحزم والرفق جميعاً . فقد أشفق عمر من أن يتعجل الإمام بعده الاستمتاع بالسلطان، فيعزل ويولي ويقطع بذلك ما استأنف العمال من أعمالهم ، ويضطرب لذلك أمر المسلمين في الأمصار والثغور . وقد أجاز عثمان هذه الوصية والتزمها ، وألزم العمال في عهده أو في العام الأول من عهده السياسة التي كان عمر يأخذهم بها ، وهؤلاء هم العمال الذين وجدهم عثمان على أعمالهم فاحتملهم عاماً كاملاً ، وعلق سلطانه في الولاية والعزل تعليقاً أثناء هذا العام .

فقد كان على مكة نافع بن عبد الحارث الخزاعي وهو غير قرشي كما ترى ، وكان على الطائف سفيان بن عبد الله الثقفي وهو أيضاً غير قرشي ، والطائف مدينة ثقيف، وعلى صنعاء يعلى بن منية وليس قرشياً صليبة وإنما هو حليف لبني نوفل ابن عبد مناف، وعلى الجند عبد الله بن أبي ربيعة وهو قرشي من مخزوم ، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة وهو ثقفي ، وعلى البصرة أبو موسى الأشعري وليس قرشياً ولا مضرياً ولا عدنانياً ، وإنما هو يمني ، وعلى مصر عمرو بن العاص وهو قرشي من بني سهم ، وعلى حمص عمير ابن سعد وهو أنصاري ، وعلى دمشق معاوية بن أبي سفيان وهو قرشي من بني أمية ،

وعلى فلسطين عبد الرحمن بن علقمة وهو كناني ، وعلى البحرين وما والاها عثمان بن أبي العاص الثقفي .

فكثرة هؤلاء العمال كما ترى ليست من قريش ، وليس فيهم واحد من عدي رهط عمر . ولم يقصر عمر توليته على المضرية ولا على العدنانية ، وإنما اختار عماله من العرب الذين حسن إسلامهم وثبتت له كفايتهم ، وكان يراقبهم كما علمت في أمور الدين والدنيا جميعاً . فلم يكن للعصبية إذن أثرها فيما كان عمر يمارس من التولية والعزل .

وقد وجد عثمان هؤلاء العمال على أمصارهم وولاياتهم ، ووجد الوصية بإبقائهم في مناصبهم ، ففعل ولم يباشر تولية ولا عزلاً في العام الأول من خلافته ، ولكنه باشر ما عدا ذلك من شؤون السلطان العامة . وأول ما فعل من ذلك ، بعد القضاء في أمر عبيد الله بن عمر والهرمزان ، وبعد إصدار ما أصدر من الكتب إلى عمال الصلات والخراج والحرب وإلى عامة المسلمين ، زيادته في أعطيات الناس ؛ فقد زاد الناس في أعطياتهم مائة مائة ، ولم يكن قد طرأ ما يوجب هذه الزيادة بين موت عمر واستخلافه ، أي في أيام لا تكاد تبلغ الأسبوع . فقد أراد عثمان بهذه الزيادة إذن أن يستهل خلافته بالتوسعة على الناس. ولست أدري أكان عثمان خليقاً أن يفعل هذا وأن يحمل بيت المال هذه النفقات يقتطعها من الإنفاق على المرافق العامة دون أن يطرأ على الناس ما يزيد حاجتهم إلى رفع العطاء ، أو دون أن يطرأ على بيت المال من الدخل ما يدعو الخليفة إلى أن يوسع على الناس من فضوله .

وأقل ما توصف به هذه الزيادة أن فيها شيئاً ولو يسيراً من الانحراف عن سياسة عمر في الإبقاء على بيت المال ، وفي ألا ينفق منه إلا بمقدار الحاجة إلى الإنفاق . وقد يكون في هذه الزيادة ما يكاد يشعر بأن عثمان كان يرى تشدداً في سياسة عمر المالية، وكان ينكر هذا التشدد فيما بينه وبين نفسه ، وكان يرى أن في بيت المال ما يسع الناس أكثر مما وسعهم أيام عمر ؛ فهو نقد غير مباشر لسيرة عمر في سياسة بيت المال.

وما لنا لا نسمي الأشياء بأسمائها ولا نقول إن عثمان قد تقرّب بهذه السياسة الجديدة إلى عامة الناس ، وتقرب إليهم على حسابهم ؛ فبيت المال لم يكن بيت مال الخليفة ، وإنما كان بيت مال المسلمين . وواضح جداً أن عثمان لم يتجاوز حقه في ذلك . فما دام المسلمون قد عرفوا للخليفة الحق في أن يفرض لهم العطاء ، فهم يعرفون له الحق في أن ينقص هذا العطاء إن اقتضت سياسة بيت المال نقصه ، وأن يزيد هذا العطاء إن وجد في بيت المال سعة . ولكن من الواضح أيضاً أن هذه الزيادة من العطاء قد فتحت

باباً لم يكن إلى إغلاقه من سبيل، فما دام الخليفة يستطيع أن يوسع على الناس فالتوسعة على الناس لا حد لها . وهو إذا وسع على عامة الناس اليوم فقد يستطيع ان يوسع على خاصتهم غداً . وما هي إلا أن ينشأ الايثار وتكون المحاباة ، وينشأ في أثرهما التنافس والتزاحم والتطامع إلى أموال العامة . وقد كان عثمان سخياً بماله ينفق منه بغير حساب في سبيل الله ، وينفق منه بغير حساب في صلة الرحم وبر الأصدقاء . وليس عليه في ذلك حرج ولا جناح ، بل له في ذلك ثواب الله وحسن جزائه . ولكن مال عثمان لم يكن يسع عامة الناس فلم يكن يستطيع أن يزيد عطاءهم من صلب ماله ، فليزد عطاءهم من أموالهم ، وليفتح على نفسه وعلى الناس باباً يعرفون كيف يدخلون منه ، ولكنهم لا يعرفون كيف يخرجون .

فليس صحيحاً إذن أن عثمان قد لزم سيرة عمر لزوماً دقيقاً في الصدر الأول من خلافته ؛ فليس في زيادة العطاء فجاءة – لا لشيء إلا لأنه تولى الخلافة – لزوم سيرة عمر . وطبيعي ألا ينكر الناس على عثمان زيادته في أعطياتهم ؛ فهو قد برّهم بهذه الزيادة ووسع عليهم في الرزق . والناس لا يكرهون أن يزاد حظهم من الخير ، بل طبيعي ان يتنفس الناس الصعداء حين يتولى عثمان أمورهم ويبدأ خلافته بزيادة العطاء ، فيعفيهم من شدة عمر ، ويأخذهم بالسعة ، لا أقول بعد الضيق – فلم يكن عمر يضيق على المسلمين في العطاء – وإنما أقول يأخذهم بالسعة الواسعة بعد أن كان عمر يأخذهم بالسعة المقتصدة . وقد كان عمر يتمثل فيما يظهر في كل لحظة من لحظات حياته هذه الآية الكريمة من القرآن : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » .

ثم لم يكتف عثمان بزيادة العطاء ، وإنما وفد الأمصار لأول مرة فيما يقول المؤرخون. ومعنى ذلك أنه دعا الأمصار إلى أن توفد إليه وفودها للعطاء والاجازة ، فكان هذا توسعاً في الانفاق لم يكن عمر يعمد إليه أو يفكر فيه . وكان عمر قد جعل للناس من أهل المدينة عطاء خاصاً : درهماً درهماً في كل يوم من أيام الصوم ، ولأزواج النبي درهمين درهمين ، يوسعون بها العطاء على أنفسهم وعلى عيالهم ، وفضل عمر ذلك على إطعام الناس على الموائد العامة ؛ إذ رأى في خطته تلك رعاية لكرامتهم وتيسيراً لهم فيما يحبون من البر بمن يعولون . فلما استخلف عثمان وأقبل شهر الصوم أجرى العطاء الذي كان يجريه عمر ، ولكنه مد الموائد بعد ذلك للطارئين وذوي الحاجة .

وما من شك في أن هذا إمعان في البر والرفق . ولكن ما من شك أيضاً أن في

هذا إطماعاً للناس في الأموال العامة ، وإغواء لكثير منهم بالتزيد في الانتفاع بهذه الأموال . فليس كل الناس قادراً على أن يتعفف فلا يغشى الموائد العامة إلا حين لا يكون له من غشيانهـا بد . بل إن كثيراً من الناس لا يكرهون أن يضيفوا عطاء الصوم إلى عطائهم العام ثم يغشون بعد ذلك الموائد العامة فيطعمون كما يطعم الطارئون وذوو الحاجات .

كل هذا كان توسعة من عثمان على الناس قد يكون فيها الخير ، ولكنها لا تخلو من بعض ما يخاف على السياسة والأخـلاق جميعاً . ثم هي لا تخلو مما يدعو إلى شيء من سوء الظن بل من سوء الحديث ، فمن ذا الذي كان يستطيع أن يمنع النقاد من أن يقولوا لأنفسهم ويقولوا للناس إن في هذه التوسعة نوعاً من أنواع الاذاعة يتحبب بها الامام إلى رعيته ليكتسب قلوبهم بهذا السخاء ؟

على أن سخاء عثمان لم يقف عند هذا الحد ؛ إذ لم تكد الأيام تتقدم بخلافتـه حتى أخذ يصل الأعلام من أصحاب النبي بالصلات فوق ما كان لهم من العطاء المفروض . فهو ، فيما يروي ابن سعد ، قد وصل الزبير بن العوّام بستمائة ألف ، ووصل طلحة بمائتي ألف ونزل له عن دين كان عنده ، ويقول ابن سعد إن الزبير حين قبض هذه الصلة جعل يسأل عن خير المال ليستغل صلته ، فدل على اتخـاذ الدور في الأمصار والأقاليم .

ولم يقف عثمان عند هذا الحد من تجاوز سيرة عمر في سياسته العامة ، وإنما خالف عن هذه السيرة مخالفة أشد من هذا كله خطراً ، فأذن لكبار الصحابة في أن يتفرقوا في الأرض ويخرجوا من الحجاز ويلموا بالأقاليم ، وكان عمر يحبسهم في المدينة ويأبى عليهم الخروج إلى الأقاليم إلا بإذن خاص منه . وكان يقول إنـه واقف لقريش بشعاب الحرّة فآخذٌ بحجزها فحائل بينها وبين الفتنة . فقد ألغى عثمان هذا الحجر .

وإذا زاد عثمان في العطاء ، ثم تجاوز ذلك إلى الجوائز والصلات ، ثم أذن لأصحاب هذه الجوائز والصلات أن يتفرقوا في الأرض ويتصلوا بالجند الغالبين وبالرعية المغلوبين ، فأي غرابة في أن يعظم ثراء هؤلاء الناس من جهة ، ويكثر أتباعهـم وأشياعهم من جهة أخرى ، ويصبح كل واحـد منهم رئيس حزب من الأحزاب يراه أحق الناس بولاية أمور المسلمين ، وينتهز الفرصة ليمكنه من ولاية أمور المسلمين ؟

ما عسى أن يكون مصدر هذا الانحراف عن سيرة عمر وأبي بكر في العمل بعد أن التزمها عثمان في كتبه التي رويناها آنفاً ؟ الشيء المحقق هو أن عـثمان لم يدهن في

دينه . والشيء المحقق أيضاً هو أن عثمان لم ير في سياسته تلك مخالفة خطيرة أو غير خطيرة لسيرة الشيخين ؛ فهو لم يتعمد الجور ولا المحاباة ، وإنما وسع على الناس من أموالهم ، رأى في بيت المال غنى فآثر الناس به ولم يغلُ في الادخار . وأي حرج في أن يصل أصحاب النبي بشيء من هذا المال قليل أو كثير وهم أئمة الاسلام وبناة الدولة وأصحاب البلاء الحسن أيام النبي ، وهم قد احتملوا من الشدة والحرمان شيئاً كثيراً ؛ وقد صدق الله وعده وأكثر الخير ، فأي الناس أحق من هؤلاء المهاجرين أن يستمتعوا بشيء من هذا الخير الكثير !

نعم ! لم يشكَّ عثمان في أنه لم يخالف عن السنة الموروثة ، وإنما جرى على طبعه السخي من جهة ، ووسع على المسلمين من جهة أخرى ، ووصل أصحاب رسول الله من جهة ثالثة . وليس في شيء من ذلك مأثم ، وإنما هو الخير والبر والمعروف .

ولم ير الناس — فيما يظهر — بشيء من ذلك بأساً ، خيرٌ جاءهم فلم يكرهوه ولم يردّوه وليس منهم من يرى بأساً بأن يوصل السابقون الأولون من المهاجرين وذوو المكانة من أصحاب النبي . وأحسب أن عثمان لو وقف عند هذا الحد من السخاء والتوسعة على الناس وإجزال الصلات للأعلام من أصحاب النبي لما أنكر الناس عليه شيئاً . وهذا هو السر الذي يفسر ما يقول المؤرخون مجمعين عليه غير مختلفين فيه من أن الصدر الأول من خلافة عثمان كان صدر رضا وطمأنينة ، ومن أن المسلمين أحبوا خلافة عثمان للينها ويسرها وسخائها وإسماحها أكثر مما أحبوا سياسة عمر لشدتها وقسوتها وحزمها الذي كان يحتاج إلى كثير من الصبر وحمل النفوس على ألا تطيق إلا بالجهد والعنف العنيف .

وقد يكون من الخير أن ندع عثمان في العام الأول أو في الأعوام الأولى من خلافته يباشر سياسته هذه اليسيرة السمحة التي حببته إلى الناس ، وأن ننظر إلى هؤلاء الناس الذين تألفهم عثمان بهذه السياسة الرقيقة الرفيقة ، لنرى أكان من الممكن أن يتألفوا بهذه السياسة دون أن ينتهي أمرهم إلى الاختلاط والانتشار .

— ٦ —

تحدّث الطبري عن السرّي عن شعيب عن سيف عن عمارة بن القعقاع عن الحسن

البصري قال : كان عمر بن الخطاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن وأجل ، فشكوه ، فبلغه فقام فقال : «ألا إني قد سننت الإسلام سنّ البعير ، يبدأ فيكون جذَعاً ثم ثنيّاً ثم رَباعياً ثم سديساً بازلاً . ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ؛ ألا فإن الإسلام قد بزل . ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده . ألا فأما وابن الخطاب حيٌّ فلا ؛ إني قائم دون شعب الحرّة آخذٌ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار » .

قال الطبري متحدثاً عن السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة قالا : «فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم به عمر ، فانساحوا في البلاد . فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس ، انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام فكان مغموراً في الدنيا وصاروا أوزاعاً إليهم وأملوهم وتقدموا في ذلك ، فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقرب والإنقطاع إليهم، فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام وأول فتنة كانت في العامة ليس إلا ذلك».

وتحدث الطبري أيضاً عن السري عن شعيب عن سيف بن عمر وعن الشعبي قالا : « لم يمت عمر رضي الله عنه حتى ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة فامتنع عليهم، وقال : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد. فإن كان الرجل ليستأذنه في الغزو وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين – ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة – فيقول : قد كان لك في غزوك مع رسول الله ﷺ ما يبلغك ، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك . فلما ولي عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع إليهم الناس ، فكان أحب إليهم من عمر»[1] .

فنريد أن نبدأ من رعية عثمان بقريش ، وأن نترجم إلى لغتنا الحديثة ما روي من سيرة عمر فيها . فعمر لم يخف الفتنة من أحد كما خافها من قريش ، ولم يخف الفتنة على أحد كما خافها على قريش ؛ لأنه كان يعرف هذا الحي من العرب حق المعرفة ، وكان يعرف بنوع خاص مواطن القوة القوية فيه كما كان يعرف مواطن الضعف الضعيف . فقد كانت قريش التي نشأ فيها عمر قبل أن تدعى إلى الإسلام ممتازة بالقوة والضعف جميعاً . وكانت قوتها تأتيها من مكانها حول البيت ، واستئثارها بمناسك الحج تقيمها للعرب وتتسلط عليهم بها وتتحكم عليهم فيها ، وترى لنفسها بذلك امتيازاً لا يشاركها فيه غيرها من الناس ؛ فهي تزعم لنفسها أرستقراطية متفوقة ، وقد اعترف لها العرب

(١) تاريخ الطبري في أحداث سنة خمس وثلاثين .

بهذه الأرستقراطية في جملتهم ، لا لتفوقها في الحرب ، ولا لتسلطها بقوة السيف ، فلم تكن قريش قبيلة محاربة، بل لاستئثارها بأمر الدين وامتيازها في الجليل والخطير منه. ثم كانت القوة تأتيها من تجارتها الضخمة التي تفوقت على كل تجارة في العرب أو التي تسلطت على كل تجارة في العرب. أتاح لها ذلك أمنها في الحرم واستقرارها حول البيت، ومنحها ذلك من الذكاء والدهاء ونفاذ البصيرة وبعد الهمة ما لم يتح لغيرها من قبائل العرب لا نستثني منها إلا ثقيفاً . فقد كانت قريش صلة بين الشرق البعيد والشرق القريب في التجارة ، وكانت بذلك صلة بين الشرق والغرب ، أو قل بين الروم والهند. وقد أفادت من ذلك مالاً كثيراً ، وأفادت من التجربة اكثر مما أفادت من المال . وعلمتها كثرة المال الحرص وحسن المحافظة ودقة التدبير والبراعة في الاستثمار . وعلمتها التجربة المتصلة وممارسة الأمم المختلفة وزيارة الأقطار النائية مهارة في مواجهة المشكلات والنفوذ منها والتغلب عليها ؛ فكانت قبيلة ماهرة ماكرة أمكر العرب وأمهرهم من غير شك .

وقد دفعها هذا كله إلى بعد الهمة وامتداد أسباب الطمع إلى غير حد ، والصبر على المكروه حتى تظهر عليه ، والسخر من العقاب حتى تذللها . بل دفعها هذا كله إلى ما هو أشد من ذلك خطراً ، وهو ازدراء القيم المقررة ، والاستهزاء بما تواضع الناس عليه من العقائد والتقاليد ، واستباحة كل شيء في سبيل المنفعة القريبة والبعيدة ، وسعة الحيلة التي أتاحت لها أن تظهر للعرب أمينة على الدين ، وليست من الدين في شيء . فقد كان السادة من قريش على أقل تقدير ينظرون إلى الدين على أنه وسيلة لا غاية ، وإلى هذه الأوثان المنصوبة على أنها اسباب لكسب الرزق وبسط السلطان لا أكثر ولا أقل . وكان السيد من قريش رجلاً أشراً شديد الطمع بعيد الهم عظيم المكر داهية ، كلما حزبته المشكلات عرف كيف يستقبل ما حزب من الأمر ، وكيف يخرج منه سالماً معافى موفوراً .

عرف عمر هذا كله في قريش ، فلم تستطع أن تخدعه عن نفسها ، بل لم يستطع إقبالها على الاسلام وإذعانها لسلطانه أن يغيرا رأيه فيها . وهو من أجل هذا آثر الاحتياط كل الاحتياط في سياستها ؛ فلم يلن لها ولم يرفق بها ، ولم يخل بينها وبين طمعها الشديد ، وهمها البعيد واعتدادها بنفسها ، وازدرائها لغيرها من الناس . ولعل عمر أن يكون قد عرف للمهاجرين ما عرف لهم رسول الله من الفضل ، فأنزلهم منازلهم، واختصهم بكثير من عنايته ورعايته ، ولكن هذا كله لم يدفعه إلى الاطمئنان والهدوء

والتخلية بين هؤلاء المهاجرين وبين ما كانوا يريدون حين استخلف على أمور المسلمين ، وليس أدل على ذلك من سيرته هذه في قريش وقيامه عند شعب الحرة آخذاً بحلاقيمها وحجزها أن تتهافت في النار ، وقوله لمن كان يستأذنه في الغزو من المهاجرين : لقد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك ، وخير لك من الغزو ألا ترى الدنيا ولا تراك . وربما كان من أدل الدلائل على ذلك ما كان من شدته على خالد بن الوليد رحمه الله وعزله إياه ومراقبته له ، مع ما أبلى خالد من البلاء الحسن أيام النبي وأيام أبي بكر في حرب العرب والروم جميعاً . ليس لهذا مصدر إلا علمه بقريش وسوء ظنه بحسن استعمالها لما أبيح لها من قوة ، وبحسن انتصارها على ما فرض عليها من ضعف. فقد كانت هذه القوة التي صورناها مصدر ضعف لقريش ؛ لأنها كانت تدفعها إلى ان تغالي بنفسها فتتورط في الكبرياء ، ولأنها كانت تدفعها الى حب المال والحرص عليه فتتعرض لأخذه بغير حقه، ولأنها كانت تدفعها الى ايثار نفسها بالخير فتتعرض للانهزام امام المنافع العاجلة وامام اللذات القريبة التي لا تخلو من الاثم احياناً . وكانت تدفعها الى الطمع الذي لا حد له فتعرضها لتجاوز الحد والطموح الى ما لا ينبغي الطموح اليه، كما تعرضها للظلم والاستعلاء . واذا اشفق عمر من هذا كله بالقياس الى المهاجرين الذين طالت صحبتهم للنبي ، وحسن بلاؤهم في المواطن كلها ، فأحرى ان يشفق منه بل ان يشفق من اكثر منه بالقياس الى من اسلم بآخرة من قريش ، من هؤلاء الشيوخ والفتيان الذين لم يسلموا عن رغبة ولا عن رضا ، وانما اسلموا اما طمعاً حين تبينوا ان كفة الاسلام راجحة ، واما قهراً حين دُخلت عليهم مكة من اقطارها . وأولئك وهؤلاء لم ينظروا الى الاسلام على انه دين يتصل بالقلوب والضمائر ، وترعى فيه حرمات الله وحقوقه، وانما نظروا اليه على انه صفقة خطيرة من تلك الصفقات التي كانوا يباشرونها، ومغامرة جريئة من تلك المغامرات التي كانوا يغامرونها داخل العرب وخارجها . وقد ذكروا حين اسلموا أو حين هموا بالاسلام أن النبي كان قد وعد قريشاً حين دعاها الى الدين الجديد ملك الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، ففكروا جميعاً في ملك الدنيا ، وفكر بعضهم في ثواب الآخرة ، ودفعهم هذا التفكير الى ان يسلموا ، ثم الى ان يحتملوا من أثقال الجهاد والفتح ما احتمل غيرهم من الناس ، أو أكثر مما احتمل غيرهم من الناس.

وأراد كثير منهم عن نية صادقة أو غير صادقة أن يعوضوا بحسن البلاء في الفتوح ما فاتهم من حسن البلاء مع النبي في غزواته . ومن أجل ذلك لم يبطئوا حين دفعت العرب الى الفتح ، وانما نفروا خفافاً وثقالاً ، كثير منهم يريدون عرض الدنيا ، وقليل

منهم يريدون الآخرة . وكان زعماؤهم وسادتهم يحسون أنهم الطلقاء ، وانهم اقل درجة من الذين سبقوا الى الاسلام وابلوا فيه بلاء حسناً ؛ فكان ذلك يغيظهم ويحفظهم ويشعرهم بشيء يشبه ما نسميه تعقيد النقص أو مركب النقص . ثم كانوا يعرفون رأي عمر خاصة فيهم ، فكان ذلك يغيظهم من عمر ، ويدعوهم إلى أن يحسنوا البلاء في الجهاد ، ليظهروا لعمر أن رأيه فيهم جائر عن القصد ، وليظهروا ذلك للناس ، وليظهروا ذلك لأنفسهم قبل أن يظهروه للناس.

وهذا هو تأويل ما روي من أن خالد بن الوليد أتى بعكرمة بن أبي جهل ، وقد صرع في يوم من أيام الشام ، فوضع رأسه على فخذه وجعل ينظر إليه ويقول : زعم ابن حنتمة أننا لا نستشهد ! وابن حنتمة هو عمر .

كان عمر إذن يسوس قريشاً هذه السياسة العنيفة على علم بدخائل نفوسها ، وبعد همها وحرصها على الاستمساك بما بلغت والوصول إلى ما بلغ ، حتى ولو خاضت إليه الغمرات خوضاً . وقد روي أن النبي رخص لعبد الرحمن بن عوف في لبس الحرير لحكة كانت به فيُقبل عبد الرحمن ذات يوم على عمر ومعه فتى من بنيه قد لبس قميصاً من حرير ، فينظر إليه عمر ثم يقول : ما هذا ؟ ثم يدخل يده في جيب القميص فيشقه إلى أسفله . قال عبد الرحمن : ألم تعلم أن رسول الله ﷺ قد رخص لي في لبس الحرير ؟ قال عمر : بلى ! لشكوى شكوتها ، فأما لبنيك فلا .

وعلى هذا النحو كان عمر يشفق على المهاجرين أن يتوسعوا فيما رخص لهم فيه النبي ويشفق على غير المهاجرين من قريش أن يتوسعوا حتى فيما لم يرخص فيه النبي . وقد قام عمر دون معاوية يأبى عليه غزو البحر إشفاقاً على المسلمين من هوله . وأكبر الظن أنه كان يرى غزو البحر هذا الذي كان معاوية يلح فيه مغامرة من هذه المغامرات التي لا تتردد قريش في ركوبها ، وكان يرى أن الحق عليه للمسلمين أن يجنبهم مغامرات فتيان قريش . وقد قدمت أن خلافة أبي بكر أتاحت لقريش أرستقراطية مفاجئة جديدة عوضتها من أرستقراطيتها القديمة ؛ فكان عمر يشفق من هذه الأرستقراطية ويضرب لها الحدود ، ويأبى أن تندفع إلى غير مدى .

هؤلاء بعض الرعية التي ابتلي عثمان بولاية أمرها . وكان على عثمان أن يسلك إحدى سبيلين لا ثالثة لهما : فإما أن يشتد كما اشتد عمر فيمسك زعماء المهاجرين في المدينة ، ويظهر لعامة قريش ما كان يظهر لها عمر من سوء الظن بها ، ويقف فتيان قريش وكهولهم كما كان يقفهم عمر عند حدود لا يتعدونها ، ويجعل أمور الحكم والولاية

كما كان يجعلها عمر شائعة بين العرب بل بين المسلمين ، لا ينهض بها منهم إلا القادرون على احتمال أعبائها ، وإما أن يلين فيخلي بين قريش وبين الطريق تمضي فيها إلى غير غاية ، لا حد لطمعها ولا لجشعها ولا لمغامراتها ولا لإيثارها نفسها بالخير . وسنرى أن عثمان قد اختار الثانية راضياً عنها أو مكرهاً عليها .

الفريق الثاني من رعية عثمان الأنصار ، ومكانهم في الإسلام معروف ، وثناء الله عليهم في القرآن محفوظ ، وأمر النبي برعايتهم موروث . وقد رأيت أن الخلافة قد صرفت عنهم حين روى أبو بكر أن الإمامة في قريش . وأن أبا بكر قال لهم : نحن الأمراء وأنتم الوزراء،وقد كان أبو بكر يستشيرهم كما يستشير غيرهم من المهاجرين وكان عمر يستشيرهم كذلك . ولم يقصر عثمان في استشارتهم . ولكن هؤلاء الأئمة الثلاثة إنما كانوا يستشيرون أصحاب النبي من الأنصار ، فأما الشباب الناشئون الذين لم يكن لهم خطر يذكر أيام أبي بكر ، وقد أخذوا يعقلون أنفسهم أيام عمر ، ثم عرفوا أنفسهم حق معرفتها أيام عثمان — فلم يكن لهم شأن يميزهم من سائر الناس . وقد سن عمر في تولية الولاة واستعمال العمال ألا يلتمسهم عند قريش وحدها ، وإنما يلتمسهم في العرب كافة . وكان خليقاً لو عاش أن يظهر لهؤلاء الشباب من أبناء الأنصار أنهم كغيرهم من الناس لا تقصر الدولة بهم عن بعض حقهم ، وعن حقهم في الولاية والحكم خاصة . وما من شك في أن شيوخ الأنصار وذوي المكانة منهم قد أخلصوا الرضا برأي أبي بكر وبسيرة عمر . ولكن ما من شك في أن عامة الأنصار والشباب منهم خاصة قد ضاقوا بهذه الأرستقراطية القرشية الجديدة ، وهم الذين ضربوا قريشاً على الإسلام في بدر ، وهم الذين دخلوا مع المهاجرين مكة من أقطارها . وكان يعزيهم عن هذا أن عمر كان يشتد على قريش ولا يؤثرها بشيء من دون المسلمين . فكان موقف الانصار بعد أن استخلف عثمان رهيناً بسيرة الخليفة في قريش، فإن سار فيها سيرة عمر نال الأنصار حظهم من شؤون الدنيا كما يناله غيرهم من سائر المسلمين ، وإن آثرهم وحاباهم عرف الأنصار أنها الأرستقراطية الجامحة المستأثرة ، وأن مكانهم من قريش مكان المغلوبين لا مكان الذين يشاركونهم في غير الإمامة من الأمر شركة سواء، وسترى أن عثمان آثر قريشاً راضياً أو كارهاً ، وأن إيثاره لقريش وقع من نفوس الأنصار موقعاً أليماً كان له أثره الخطير في الفتنة ، ثم فيما استتبعته الفتنة من الأحداث .

الفريق الثالث في رعية عثمان عامة العرب ، اولئك الذين أسلموا طوعاً أو كرهاً ،

ثم دفعهم ابو بكر وعمر الى الفتح فبلغوا منه ما بلغوا ، ثم استقروا في أمصارهم وثغورهم ردءاً للمسلمين يذودون عنهم العدو من جهة ، وجنداً للمسلمين يفتحون عليهم أرض العدو من جهة أخرى ؛ وهؤلاء العرب قد وعدهم الإسلام المساواة التامة بينهم، لا فضل لأحد منهم على آخر إلا بالتقوى والكفاية وحسن البلاء .

وهم بعد هذا مادة الإسلام كما كان عمر يقول، وهم الذين فتحوا الأرض ، وأذلوا العدو ، ونشروا دين الله في الآفاق ، فلهم بهذا كله الحق في ألا يستأثر بالأمر من دونهم أحد . ثم هم بعد هذا كله حديثو عهد بالإسلام وقريبو عهد بالجاهلية ، لم ينسوا ما كان بينهم من خصومة وعصبية وتفاخر وتكاثر بالاحساب والانساب ، وقد أضافوا إلى مفاخرهم التي حفظوها عن جاهليتهم مفاخر جديدة أعظم منها خطراً وأرفع منها شأناً . فالسياسة الملائمة لهؤلاء الناس هي التي تنسيهم عصبيتهم الجاهلية أولاً ، وتنشئهم تنشئة إسلامية خالصة ثانياً ، وتصدّق لهم ما وعدهم الله من المساواة بينهم والعدل فيهم . وقد سلك عمر هذه الطرق كلها، فقاوم العصبية ما وسعته مقاومتها حتى أخاف الشعراء الذين كانوا يذكرون مآثر الجاهلية فيما كانوا ينشئون ويتناشدون ، وجعل في الأمصار معلمين من أصحاب النبي يقرئون أهلها القرآن، ويبصرونهم بالسنة ويفقهونهم في الدين ، وينشئونهم هذه التنشئة الإسلامية الخالصة . ثم لم يميز منهم فريقاً على فريق، ولم يؤثر بأمور السلطان منهم حيّاً دون حي، وإنما أشاع فيهم المساواة والعدل الحازم، واختار ولاته من مضر وربيعة واليمن ، وراقب هؤلاء الولاة جميعاً أشد المراقبة. وقد رأيت فيما روينا من كتب عثمان أنه قد أخذ نفسه وولاته في هذه الكتب بسيرة عمر. ولكنك سترى أن وصية عمر بإقرار العمال على أعمالهم عاماً ، لم تكد تبلغ أجلها حتى أقبل عثمان على سياسة أخرى راضياً عنها أو مكرهاً عليها ، وإذا قريش تميز من العرب وتسلط عليهم ، وتستأثر من دونهم بأجل الأمصار خطراً وأرفع المناصب شأناً.

الفريق الرابع من رعية عثمان هم هؤلاء المغلوبون من أهل البلاد التي فتحت على المسلمين . والسنة الإسلامية في سياستهم معروفة، وهي أن يؤخذوا بما عليهم من الحق، فان أدوه فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين . وقد عرف عثمان هذه السيرة ، وأخذ نفسه وولاته بها فيما روينا من كتبه آنفاً .

ولم يظهر أثناء خلافته لأهل الذمة شأن فيما كان من الاختلاف ، لا لأن السياسة المرسومة قد اتبعت فيهم ولم يكن عنها انحراف ، بل لأنهم كانوا مغلوبين لم يتح لهم بعد أن يشاركوا في السياسة مشاركة ذات خطر ، وإلا فقد نحب أن نفهم ما كان

بين عثمان وعمرو بن العاص من الحوار ذات يوم حين قال عثمان لعمرو : « قد درّت تلك اللقاح بعدك يا عمرو » . فأجابه عمرو : «نعم وهلكت فصالها» . فليس لهذا الحديث إلا معنى واحد وهو أن خراج مصر قد عاد على بيت المال أيام ابن أبي سرح بأكثر مما كان يعود به أيام عمرو بن العاص ، هذا معنى ما قال عثمان ؛ وأن زيادة الدخل هذه لم تأت إلا عن إرهاق المعاهدين من أهل الذمة أيام ابن أبي سرح ، هذا ما أراد إليه عمرو بن العاص وليس من هذا مخرج إلا إحدى اثنتين . الأولى أن يكون عمرو بن العاص قد كان يحتجز لنفسه شيئاً من الخراج دون بيت المال. الثانية أن ابن سرح كان يأخذ من المعاهدين أكثر من الحق . وكلا الأمرين شر. ثم لا يقف الأمر في سياسة الرعية عند هذه الحدود التي رسمناها؛ فقد كان عمر شديداً على قريش كلها يسوي بينها وبين العرب لا يميزها منهم ، ثم لا يميز حياً من أحيائها على غيره ولم يستطع عثمان أن يحتفظ بهذه المساواة ، فآثر قريشاً من دون العرب عن عمد أو غير عمد . ثم لم يستطع أن يسوي بين قريش نفسها ، فآثر فريقاً منها على فريق راضياً بذلك أو كارهاً له . ويقال إن عمر قد خاف شيئاً من هذا الإيثار ، فتقدم إلى عثمان إن ولي أمور المسلمين في ألا يحمل بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس ، وتقدم إلى علي إن ولي أمور المسلمين في ألا يحمل بني عبد المطلب وبني هاشم على رقاب الناس . ولم يستطع عثمان أن يستجيب لعمر ، فحمل بني أمية وآل أبي معيط على رقاب الناس ، ما في ذلك شك . وقيل إن علياً نفسه حين ولي الخلافة لم يستجب لعمر ، فولى ثلاثة من بني عمه العباس، البصرة ومكة واليمن ، حتى قال مالك الأشتر : ففيم قتلنا الشيخ إذن ! ولكني على ذلك أفرق أشد التفرقة بين ما صنع عثمان وما صنع عليّ ؛ فقد لام عليّ نفسه عثمان في أمر الولاة ، فاحتج عثمان بأن عمر قد ولى المغيرة بن شعبة الكوفة، والمغيرة بن شعبة ليس هناك ، وبأن عمر قد ولى معاوية . فقال له عليّ : إن عمر كان يراقب ولاته ويخيفهم ، وإن ولاتك يستبدون بالأمر من دونك ، ويصدرون الأمر من عند أنفسهم ويحملونه عليك فلا تستطيع له تغييراً . فسيرة عليّ مع ولاته من بني عمه هي سيرة عمر ، كان شديداً عليهم مراقباً لهم ، لا يتحرج من عزلهم إن قصروا أو انحرفوا دون أن يكرهه على هذا العزل أحد ، على حين لم يعزل عثمان والياً من بني أمية وآل أبي معيط إلا حين أكرهته الأمصار على ذلك إكراهاً .

ومهما يكن من شيء فقد كانت رعية عثمان هي رعية عمر ، لم تكد تتغير إلا قليلاً حتى تقدم الزمن بعثمان وكانت سياسة عمر هي السياسة الوحيدة التي كانت تصلح لضبط هذه الرعية وتدبير أمرها وحملها على الجادة .

ولكن الناس كلهم لا يستطيعون أن يسيروا سيرة عمر ؛ لأنهم لم يركبوا كما ركب، ولم يتح لهم ما أتيح لعمر من هذه الشدة التي لا تعرف هوادة في الحق ، ولا تأخذها في العدل والمساواة لومة لائم . وكان عثمان نفسه يعرف ذلك حق المعرفة ؛ فكان مرة يقول لمحدثيه إذا حضروا طعامه اللين : ومن ذا يطيق ما أطاق عمر ! وكان مرة يقول للائميه في صلة رحمه من بيت المال : ومن لنا بمثل عمر ! وكان مرة أخرى يقول لعائبيه من فوق منبر النبي : لقد وطئكم ابن الخطاب برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه ، فخفتموه ورضيتم منه بما لا ترضون مني ؛ لأني كففت عنكم يدي ولساني. فهناك فرق خطير بين الرجلين في الطبيعة والمزاج وفي السن أيضاً ؛ ولكن هذا الفرق أو هذه الفروق لم تكن وحدها مصدر الشر والفرقة وإنما كان للشر والفرقة مصادر أخرى لم يكن عثمان يستطيع لها تغييراً . وسنرى بعض هذه المصادر فيما سنستأنف من الحديث.

- ٧ -

فلم يكد عثمان ينفق العام الأول من خلافته ويخرج مما التزم من وصية عمر بإقرار العمال عاماً على أعمالهم ، حتى باشر سلطته الطبيعية في التولية والعزل . وكان في مباشرته لهذه السلطة شيء من العجلة ، وكثير مع ذلك من الأناة . فهو أولاً لم يلق بالاً إلى العمال الذين كانوا ينهضون بالأمر في الولايات التي لم يكن لها خطر في سياسة أو إدارة أو حرب ، وإنما ترك عمال عمر في هذه الولايات ، ولم يغير منهم إلا قليلا حين دعت الحاجة إلى هذا التغيير . ولم يحتفل لهذا التغيير كثير احتفال ، وإنما سار فيه سيرة هينة سواء . وقد كانت الولايات تختلف فيما بينها اختلافاً شديداً ، لبعضها خطر في السياسة والإدارة والحرب ، وهي الولايات التي فتحت على المسلمين ، واقتطع بعضها من الروم وغلب الفرس على سائرها . وكانت هذه الولايات الخطيرة أربعاً : الشام ومصر والكوفة والبصرة . وكانت أمام كل واحدة من هذه الولايات ثغور يجب أن تحمى ، ودار حرب يجب أن يمعن فيها المسلمون . فكان البحر وبلاد الروم نفسها أمام الشام ، وكان البحر وشمال إفريقية بإزاء مصر ، وكان ما فتح وما لم يفتح بعدُ من بلاد الفرس أمام المصريين العراقيين : الكوفة والبصرة . وكانت هذه الولايات الأربع موطن القوة الإسلامية ، فيها الجند المقيمون ، وبإزائها الثغور التي يقيم فيها

ويخرج منها ويسعى إليها الجند المحاربون . وكانت هذه الولايات الأربع مصدر ثراء المسلمين ؛ فيها الحضارة المستقرة المترفة ، وفيها الأرض الخصبة التي تغلّ ما شاء الله أن تغل من الثمرات ، وتؤتي ما شاء الله أن تؤتي من الخراج ، وفيها المعاهدون الذين يؤدون الجزية . ثم هي بعد ذلك وجوه الفتح ومصادره ، إليها تجلب الغنائم التي يغنمها الفاتحون في كل عام ، ومنها ترسل الأخماس إلى المدينة . فإذا كان العرب مادة الإسلام ومصدر قوته العسكرية فقد كانت هذه الولايات مادة الإسلام ومصدر قوته المالية . فلا غرابة في أن يعنى بها الخليفة عناية خاصة لا تقاس إليها عنايته بغيرها من الولايات التي لم يكن لها من الخطر والامتياز وارتفاع الشأن ما كان لهذه الولايات . فمكة والطائف واليمن ولايات لها مكانتها ولها قدرها ، ولكنها لا تواجه ثغوراً للحرب ، ولا تغلّ كثيراً من مال ، وليست هي مواطن القوة والأيد التي تعتز بها الدولة الناشئة .

كان لها خطرها العظيم قبل أن تفتح حين كان النبي يجدّ في إخضاع بلاد العرب كلها للإسلام . فلما افتتحت وعُبد الله فيها وأمن الإسلام شرها ، وأصبحت ولايات ثانوية بالقياس إلى تلك الولايات الجديدة التي تكلف المسلمون في فتحها وتمصيرها من الأنفس والأموال والجهود ما لا يقاس إليه ما تكلفوا في فتح تلك الولايات العربية الأولى.

ومن أجل ذلك كله نرى المسلمين إذا أرادوا أن يخرجوا من المدينة لم يفكروا في الذهاب إلى مكة أو الطائف أو اليمن، أو لم يفكر أكثرهم في الذهاب إلى هذه البلاد، وإنما فكروا في الذهاب إلى العراق أو الشام أو مصر . في هذه البلاد كان الصالحون منهم يلتمسون ثواب الآخرة بالتزام الثغور والإمعان في الفتح ، وكان المكتسبون منهم يبتغون عرض الدنيا ، يتاجر منهم من يتاجر ، ويزارع منهم من يزارع ، ويتقلبون في ضروب الكسب والغنى على اختلافها .

وقد مات عمر وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة الثقفي ، وعلى البصرة أبو موسى الأشعري ، فأقرهما عثمان عامه الأول . فلما انقضى هذا العام عزل المغيرة عن الكوفة وولى عليها سعد بن أبي وقاص الزهري عن وصية من عمر الذي تقدّم إلى الخليفة من بعده إن أخطأت الخلافة سعداً أن يستعين به ، قائلاً : إني لم أعزله عن خيانة . ولكن سعداً لم يقم في الكوفة إلا عاماً وبعض عام حتى اضطر عثمان إلى عزله .

وقد تحدّث المؤرخون بأن عثمان قد اضطر إلى عزل سعد اضطراراً ، حدث بينه وبين صاحب المال عبد الله بن مسعود خلاف أغضب عثمان عليهما جميعاً ، فهمّ

بهما ، ثم كف عنهما واكتفى بعزل سعد .

وكان أصل هذا الخلاف غريباً حقاً ؛ فقد قيل إن سعداً اقترض شيئاً من بيت المال وأعطى به على نفسه صكاً ، فطلب إليه عبد الله بن مسعود أن يؤدي دينه . ولم يتيسر هذا المال لسعد ، فطلب النظرة إلى ميسرة ، وأبى ابن مسعود ، واستعان كل من الرجلين على صاحبه بجماعة من أهل الكوفة : يريد ابن مسعود أن يستعين بأصحابه على سعد ليؤدي دينه ، ويريد سعد أن يستعين بأصحابه على ابن مسعود لينظره إلى ميسرة . ثم يلتقي الرجلان ومع كل واحد منهما أصحابه . فيتلاحيان . ويهمّ سعد ، فيما يقول الرواة ، أن يدعو على ابن مسعود ، فيجزع ابن مسعود من ذلك ويولي مسرعاً لعلمه بأن النبي كان قد دعا الله أن يستجيب لسعد كلما دعاه . قال الرواة : إن سعداً رفع يديه وقال : اللهم رب السموات والأرض . فقال له ابن مسعود : ويلك ! قل خيراً . ثم ولى مسرعاً . وارتفع الأمر إلى عثمان فغضب عليهما جميعاً ، وهمّ بهما ، ثم كف ، وعزل سعداً وأخذ منه ما كان عليه ، وترك ابن مسعود على بيت المال ، وأرسل إلى الكوفة والياً جديداً .

والرواة متفقون على هذه القصة ، ولكني أقف منها موقف التحفظ الشديد ؛ ففيها أمور تدعو إلى هذا التحفظ . فقد تقدم عمر إلى الخليفة من بعده أن يولي سعداً وقال إنه لم يعزله عن خيانة . وأيسر ما تصور لنا هذه القصة أن سعداً قد اقترض من بيت المال ثم التوى بدينه أو ماطل في أدائه . وما هكذا يكون من اختاره عمر للشورى ورشحه للخلافة وتقدّم إلى الخليفة من بعده إن صرفت الخلافة عن سعد أن يستعين به . ولم يعرف أحد عن عمر أنه أمر أو نهى ليؤثر أحداً بخير من دون الناس ، وإنما أمر ونهى دائماً ليؤثر عامة المسلمين بالخير . فهو حين تقدم إلى الخليفة في تولية سعد لم يكن يريد أن يرضي سعداً ولا أن يحابيه ولا أن يقدّمه على غيره من أصحابه ، وإنما نصح للخليفة وللمسلمين وأمرهم أن يستعينوا بكفاية سعد ، وبكفايته في أمور الحرب خاصة . فلم تكن أمور بلاد الفرس على خير ما يحب المسلمون ، قد أزيل سلطانها جملة ولكن شوكتها لم تخضد بعد . فكسرى يزدجرد قد انهزم ؛ ولكنه لم يقتل ولم يؤسر ولم يخرج من بلاده ، وإنما هو مقيم فيها يتنقل بالفلول بين أقاليمها ومدنها ودساكرها . وفي هذه البلاد مدن كثيرة ، بعضها لم يصل إليه المسلمون بعد ، وبعضها قد صالح المسلمين ولكن على دخل ، فهو ينتهز الفرصة وينتقض كلما وجد إلى الانتقاض سبيلا ؛ فقد بدىء فتح بلاد الفرس وتقدّم مسرعاً إلى غايته ، ولكنه لم يبلغ هذه الغاية بعد .

وسعد بن أبي وقاص هو بطل القادسية ، وهو قاصم دولة الأكاسرة ؛ فليس غريباً أن يفكر فيه عمر ليتم من الفتح ما بــدأ . وأكبر الظن أن عمر لو عاش لردّ سعداً إلى الكوفة وأمره بالمضي إلى عدوه حتى يتم الله الفتح على يديه ؛ وسعد صاحب السابقة المعروفة في الإسلام ، حتى أنه كان يقول : والله لو كنت أراني ثلث الإسلام . يريد أنه أسلم بعد أبي بكر فكان ثالث ثلاثة، أولهم النبي ، وثانيهم أبو بكر ؛ أو أنه أسلم بعد أبي بكر وزيد بن حارثة، فكان ثالث ثلاثة سبقوا بالاستجابة إلى دعوة رسول الله، وسعد فيما اتفق عليه الرواة والمحدثون ، أول من رمى بسهم في سبيل الله حين خرج في سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب إلى بطن رابغ .

وسعد هو الذي فدّاه رسول الله بأبيه وأمه يوم أحد ، ولم يجمع لأحد بين أبويه غيره ، وذلك حين ثبت بين الذين ثبتوا مع رسول الله ، وجعل ينضح عنه بسهامه ، وكان أرمى الناس بسهم ، فكان النبي يقول له : « إرم سعد فداك أبي وأمي » . فمن أتيح له أن يكون ثالث ثلاثة في الإسلام ، وأول رام بسهم في سبيل الله ، وأن يفدّيه رسول الله بأبيه وأمه،وأن يرضى عنه رسول الله ويجعله في العشرة الذين ضمن لهم الجنة،وأن يقصم دولة الفرس وينتصر يوم القادسية،وأن يحضره عمر الشورى ويرشحه للخلافة،ويتقدم في توليته إن صرفت الخلافة عنه -من أتيح له هذا الفضل كله لا يمكن أن يلتوي على بيت المال بدين قلّ أو كثر،ولا أن يشك فيه ابن مسعود هذا الشك،ولا أن يغضب عليه عثمان فيهمّ به ثم يعفو عنه بعد أن يأخذ منه ما كان عليه وأكبر الظن أن عمر لم يتقدم الى الخليفة من بعده في تولية سعد ولاية ما،وإنما تقدم إليه في تولية سعد الكوفة خاصة؛ لأنها كانت المصر الذي كان يجب أن يستقر فيه سعد ، وأن يتجه منه الى إتمام الفتح في ذلك الوجه من وجوه الحرب . وإنه لغريب حقاً أن يسوء ظن بن مسعود بسعد وهو يعلم سابقته ومكانه من النبي ومن صاحبيه ورأي النبي فيه . فقد كان بن مسعود من ألزم الناس للنبي ، وأرواهم عنه للسنة ، وأحفظهم عنه للقرآن ، وأعلمهم برأيه في أصحابه . وأغرب من ذلك أن يشك فيه ويلح عليه في أداء دينه ، حتى اذا همّ سعد بالدعاء عليه أخذه الإشفاق والجزع ، فترضاه وولى مسرعاً . إنما لزم سعد موقف الحياد حين كانت الفتنة ، وأبى أن يقاتل مع أولئك أو هؤلاء من المختصمين ، حتى يأتوه بسيف مبصر عاقل ناطق ينبئه بأن هذا مسلم وهذا كافر ؛ فكان موقفه هذا مصدراً لهذه القصة الغريبة . ولو قد انحاز سعد لأنصار عليّ لدافعت عنه الشيعة، ولو قد انحاز لأنصار عثمان لدافعت عنه العثمانية ، ولكنه وقف من المختصمين موقف المعتزل ، فوقف المختصمون منه هذا الموقف نفسه .

وأكاد أعتقد أن وجه الحق في عزل سعد أن بني أمية وآل أبي معيط كانوا يتعجلون الولاية ويحتالون في الوصول إليها ، ويلحون على عثمان في أن يمهد لهم إليها الطريق . وآية ذلك فيما أظن أن عثمان حين عزل سعداً لم يول على الكوفة أحداً من كبار أصحاب النبي ، لا من المهاجرين ولا من الأنصار ، لم يرسل اليها طلحة ولا الزبير ولا عبد الرحمن ولا محمد بن مسلمة ولا أبا طلحة ، وانما أرسل اليها الوليد بن عقبة ابن أبي معيط . ولم يكن المسلمون يطمئنون الى الوليد بن عقبة؛ لانه غش النبي وكذب عليه ، وكفر بعد إسلام ، وأنزل الله فيه قرآناً فقال . « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » . كان ذلك حين أرسله النبي مصدقاً في بني المصطلق ، فعاد إلى النبي يزعم أنهم منعوه الصدقة . فخرج النبي إليهم غازياً ، ثم تبين كيد الوليد وأنبأه الله بجلية الأمر . وقد عاد الوليد إلى إسلامه حين لم يكن بد من العودة إلى الإسلام ، وأصلح من سيرته ما استطاع . وقيل إن عمر قد استعمله على صدقة بني تغلب في الجزيرة . والفرق بين أن يرسله عمر أو وال من ولاة عمر إلى صدقة حيّ من نصارى العرب البادين في الجزيرة ، وبين أن يوليه عثمان مصراً من أعظم أمصار المسلمين وأكثرها ثغوراً ، وأن يوليه مكان سعد بن أبي وقاص ، هذا الفرق عظيم جداً .

فالذين أنكروا تولية الوليد على الكوفة مكان سعد لم يبعدوا ؛ فليس من شك في أن هذه التولية كانت أمراً عظيماً .

وهناك سبب آخر يدعو إلى الشك في هذه القصة التي حملت عثمان على عزل سعد وتولية الوليد ، وهو أن عثمان نفسه قد سار في بيت المال بالمدينة سيرة أعظم خطراً مما نسب إلى سعد ؛ فهو قد أعطى رجلاً من ذوي قرابته مقداراً ضخماً من بيت المال، واستكثر عامله على بيت المال هذا المقدار فلم يخرجه ، فألح عثمان فأبى الخازن ، فلامه عثمان وقال له في قصة سنعرض لها في إبانها : « ما أنت ! إنما أنت خازن لنا » . قال صاحب بيت المال : « ما كنت أرى أني خازن لك ، وإنما خازنك أحد مواليك ، لقد كنت أراني خازناً للمسلمين » ثم أقبل بمفاتيح بيت المال فعلقها على منبر النبي وجلس في داره . فإذا سار عثمان في بيت المال هذه السيرة ، فغريب أن ينكر على سعد ما يقال من أنه اقترض من بيت المال شيئاً وطلب النظرة في أداء ما كان عليه من دين . وكما أن عمر لم يعزل سعداً عن خيانة، فقد نرى أن عثمان لم يعزل سعداً عن خيانة ولا عن شيء يتصل بالخيانة من قريب أو بعيد ، وإنما أنفذ وصية عمر ، ثم عزل سعداً ليجعل

مكانه رجلا من آل ابي معيط . ويجب أن نقرر أن الوليد قد سار أثناء ولايته على الكوفة سيرة فيها كثيراً جداً من الغنـــاء وحسن البلاء . فهو لم يقصر في سد الثغور والإمعان في الفتح ، وإنما بلغ من ذلك غاية عرفت له وتحدث بها الناس في حياتـــه وبعد موته . وهو قد ساس أهل الكوفة سياسة حزم وعزم ومضاء ، فأقر الأمن ، وضرب على ايدي المفسدين من الأحداث والذين لا يرعون للنظام حرمة ولا يرجون للدين وقاراً . عـــدا نفرٌ من الشباب على فتى من اهل الكوفة فقتلوه فأخذهم الوليد وأقام عليهم الحد فقتلهم على باب قصر الإمارة . ويقول بعض الرواة إن هذا أحفظ عليه آباء هؤلاء القاتلين المقتولين، فأخذوا يتلمسون أغلاطه ويتكلفون اتهامه ويشككون فيه الناس . ثم مـــا زالوا به ، حتى دخل عليه منهم داخل فسمر عنده وتأخر، فلم ينصرف حتى نام الوليد ،فقامفاستل خاتمه من أصبعه وذهب مع صاحب له بالخاتم إلى عثمان فشهدا عنده على الوليد بشرب الخمر .

والتكلف في هذه القصة أظهر من أن نحتاج إلى تبينه وإطالة القول فيه . فما أمير ينام وعنده سماره ، ثم يمعن في النوم حتى يستل خاتمه من أصبعه دون أن يحس ذلك أو يحسه أحد من خدامه وحجابه وشرطه !! إذا كان الأمر من التهاون والاستخفاف بحيث يستل منه خاتمه الذي يمضي به الأمر والنهي ، ويمضي به كتبه إلى الخليفة وإلى قواده في الثغور ، فما هو من الحزم والعزم والفطنة في شيء . وإنما الأشبه مـــا قاله خصوم الوليد من أنه كان يعاقر الخمر مع صديقه وشاعره أبي زبيد ، ذلك الذي عرفه في تغلب حين كان مصدقاً فيهم ، فأنصفه من أخواله بني تغلب وآثره بمودته . وكان أبو زبيد طائي الأب تغلبي الأم ، وكان نصرانياً . فلما ولي الوليد أمر الكوفة كان هو يفد عليه ، فيقيم عنده ويأخذ جوائزه . وما زال به الوليد حتى أسلم فقرب مـــا بينهما . وما أرى إلا أن إسلام أبي زبيد كان رقيقاً كإسلام الوليد . ويدل على صحة هذا المذهب في هذه القصة أن عثمان أقام الحد على الوليد ، والحدود تدرأ بالشبهات . فلو قد رأى عثمان في شهادة هذين الشاهدين شبهة قوية أو ضعيفة لتحرج من إقامة الحد عليه . وليس البأس على عثمان في أن يدرأ الحد بالشبهة ، وإنما البأس كل البأس في أن يقيم الحد والشبهة قائمة مهما يكن حظها من الضعف .

والناس يختلفون فيمن ينفذ أمر عثمان بإقامة الحد على الوليد إنفاذاً لأمر عثمان حين نكل كثير من الناس عن ضربه . فإن صحت هذه الرواية – وما نراها تصح – فعليٌ أعلم بالدين وأحفظ للسنن وأشد إيثاراً لرضا الله وإنفاذ أمره من أن يقيم الحد والشبهة

قائمة . وزعم أكثر الرواة أن الذي ضربه هو سعيد بن العاص الأموي. وسعيد قريب القرابة من عثمان ومن الوليد ، وهو صاحب عصبية واعتداد بمكان الخليفة ورهطه الأدنين والأبعدين . فلو قد رأى شبهة لكان خليقاً أن يراجع عثمان في قضائه ، ولكان خليقاً إذ لم يفلح أن يعتذر من ضرب الوليد . ولكنه ضربه ، وأورث هذا الضرب عداوة متصلة في أعقاب الرجلين .

وقد زعم خصوم الوليد — وما نحسبهم إلا متزيدين - أن الوليد أصبح ذات يوم سكران ، فصلى الصبح بالناس ثلاثاً أو أربعاً، ثم التفت إليهم وقال : إن شئتم زدناكم. فشتمه من شتمه وحصبه من حصبه من الناس ، واستعفوا عثمان منه فأعفاهم . وشاعت فيه هذه القالة حتى تندّر به المتندرون، وقال فيها الشعراء ، فقال الحطيئة فيما زعموا:

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه ... أن الوليد أحق بالعذر
نادى وقد نفدت صلاته : ... أأزيدكم ؟ ثملاً ولا يدري
ليزيدهم خيراً ولو قبلوا ... منه لزانهم على عشر
فأبوا أبا وهب ولو فعلوا ... لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك إذ جريت ولو ... خلوا عنانك لم تزل تجري

وهذه القصة مخترعة من أصلها فيما أعتقد . فلو قد زاد الوليد في الصلاة لما تبعته جماعة من المسلمين من أهل الكوفة ، وفيهم نفر من أصحاب النبي ، وفيهم القراء والصالحون ، ولما رضي المسلمون من عثمان بما أقام عليه من حد الخمر ؛ فإن الزيادة ، في الصلاة والعبث بها أعظم خطراً عند الله وعند المسلمين من شرب الخمر .

وهذا الشعر لم يقله الحطيئة ، وإنما قال الحطيئة شعراً آخر يمدح به الوليد مدح محب له حريص على رضاه ، وهو :

شهد الحطيئة حين يلقى ربه ... أنّ الوليد أحق بالعذر
خلعوا عنانك إذ جريت ولو ... تركوا عنانك لم تزل تجري
ورأوا شمائل ماجد متبرع ... يعطي على الميسور والعسر
فنزعتَ مكذوباً عليك ولم ... تردَدْ إلى عوَز ولا فقر

وقد عارض بعض الشيعة بهذا الشعر ، شعر الحطيئة في مدح الوليد .

وليس من شك في أن الحطيئة لم يقل أيضاً هذه الأبيات الأخرى :

تكلم في الصلاة وزاد فيها ... علانية وجاهر بالنفاق
ومجّ الخمر عن سنن المصلي ... ونادى والجميع إلى افتراق

أزيدكم على أن تحمدوني فما لكم ومالي من خلاق

فهذا الشعر ليس إلا تزيداً من خصوم الوليد . وللحطيئة بعد ذلك شعر جيد يمدح به الوليد أثناء إمارته ، وقبل أن يفكر أحد في الائتمار به والتشنيع عليه ، وهو :

عفا توءمٌ من أهله فجلاجله ورُدَّتْ على الحيِّ الجميع جمائله
وعالين عقلاً فوق رقم كأنه دمُ الجوف يجري في المذارع واشله
كأنَّ النعاجَ الغرَّ وسطَ بيوتهم إذا اجتمعت وسط البيوت مطافله
أبى لابن اروَى خلتان اصطفاهما قتالٌ إذا يلقى العدوَّ ونائله
فتى يملأ الشيزى ويروَى بكفه سنانُ الرُّدَينيِّ الأصمِّ وعامله
يؤمّ العدوّ حيث كان بجحفل يصمّ العدوّ جرسه وصواهله
ترى عافيات الطير قد وثقت لها بشبع من السخل العتاق منازله
إذا حال منه منزل الليل أوقدت لأخراه في أعلى اليفاع أوائله
يظلّ الرداء المعصّبُ فوق جبينه يقي حاجبيه ما تثير قنابله
نفيت الجماد الغر عن عقر دارهم فلم يبقَ إلا حية أنت قاتله
وكم من حصان ذات بعل تركتها إذا الليلُ أدجى لم تجد من تباعله
وإني لأرجوه وإن كان نائياً رجاء الربيع أنبت البقلَ وابله
لزغب كأولاد القطا راثَ خلفها على عاجزات النهض حمر حواصله

وربما كان من التكلف ما روي من أن الوليد أتي بساحر ، فاستفتى فيه ابن مسعود ، فلما تحقق ابن مسعود إيمانه بالسحر أمر بقتله ، وتعجل رجل من أهل الكوفة فقتله عن غير أمر الوليد ، ثم ذهب أهل الكوفة يشكون الوليد إلى عثمان فردّهم وقال : تقتلون الناس بالظن !

وما أستبعد أن يكون الوليد قد أتى بهذا الساحر فنظر إلى امره ، وغضب لذلك المتزمتون من أهل الكوفة ، فعدوا على ذلك المشعوذ المسكين فقتلوه . وغضب لذلك الوليد وغضب لذلك عثمان ؛ فما ينبغي للناس أن يريقوا الدماء عن غير أمر السلطان ولا أن يريقوها بالظنة .

وجملة القول أن الوليد إنما كان رجلاً من قريش أسلم إسلاماً ظاهراً واحتفظ بجاهليته كلها . فليس هو أول من شرب الخمر في هذا العصر من أمثاله الذين أسلمت ألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم إيماناً خالصاً وإنما ترددت بين الكفر والإيمان . وليس هو بدعاً من حب الدعابة والعبث والمجون يستتر به ولا يظهره . وما أستبعد

أن يكون قد لهَا بلعب هذا الساحر ، وأن تكون القصة التي زعمت تدخل ابن مسعود في أمره قد اخترعت تكلفاً للدفاع عن الوليد . على أني أعتقد أن شرب الخمر إن كان هو السبب المباشر لعزل الوليد ، فإن لعزله أسباباً أخرى لعلها أن تكون أعمق أثراً وأبعد مدى من شرب الخمر ومن اللهو بلعب الساحر ، وهي تتصل بسياسته العامة لأهل الكوفة وسيرته فيهم . فقد كان معظم أهل الكوفة من اليمانية ولم تكن المضرية فيهم إلا قلة . وكان الوليد رجلا قرشيّاً معتدّاً بقرشيته وبمكانه من عثمان ، وقد كان أخاه لأمه . فما أستبعد أن هذه الكثرة اليمانية قد ضاقت بهذا الأمير القرشي المضري الذي لم يكن يخفي اعتداده بنفسه واستعلاءه على غيره ، فتنكروا له قليلا قليلا . وأحس هو منهم هذا التنكر فلم يحتمله إلا كارهاً . ولعل الوليد قد نافس هذه الأرستقراطية فيما كانت ترى أنه مصدر عز وفخر لهم . فقد روى أن جماعة من أشرافهم كانوا ينادون : ألا إن من نزل الكوفة وليس له بها منزل فمنزله عند بني فلان ، كانوا يتنافسون في ذلك فيما يظهر ، يحيون به سنة عربية متوارثة ، هي التنافس في استقبال الضيف والاستباق إلى إيوائهم وقراهم. فأنشأ الوليد عن أمر عثمان أو من تلقاء نفسه دار الضيافة، وأغلق على هؤلاء الأشراف باباً من أبواب التنافس والتفاخر والعصبية [1] . وكان أبو زبيد يقبل فينزل دار الأضياف هذه ، ثم يتصل بالوليد ويكثر الاختلاف إليه . ومن يدري ! لعل هذا الشاعر عاد مرة أو غير مرة إلى مثواه وقد أخذت منه الخمر ، فلم يحسن أن يمسك لسانه ، فنبههم ذلك إلى التجسس على الوليد .

ثم كان الوليد وقد أحس تنكر الناس له وتبرمهم عليه يستأنف سياسة ظاهرها الرفق وإشاعة الخير والمعروف ، وباطنها التحبب إلى العامة والتقوّي بالدهماء ؛ ففرض للرقيق أعطيات يتوسعون بها : ثلاثة دراهم لكل واحد منهم في كل شهر ، دون أن ينقص ذلك من أعطيات سادتهم ومواليهم ، إنما كان يؤدّي إليهم ذلك من فضول الأموال . فقد كان للأموال إذن فضول يمكن أن تردّ على أصحاب الأعطيات من الذين قاتلوا على هذا المال وأفاء الله على أيديهم هذا الفيء ، ولم يكن الوليد يردّ هذه الفضول على هؤلاء الناس ، وإنما كان يوسع بها على العبيد والإماء ؛ فكان إذن يردّ بعض الفيء على بعضه ؛ فلم يكن العبيد والإماء إلا شيئاً من هذا الفيء ؛ فهم أسارى قد قسموا بين الفاتحين كما قسم بينهم الذهب والفضة وغير الذهب والفضة من الغنائم .

(١) انظر الطبري في أحداث سنة ثلاثين .

والذي يعرف النفس العربية التي احتملت الكثير من جاهليتها ولم يخالطها الإسلام إلا مخالطة ظاهرة ، لا يرى من العجب أن يضيق هؤلاء اليمانية بهذا القرشي الذي يأخذمن فيئهم ليردّه على فيئهم ويأخذ فضول الأموال ليوسع بها على العبيد والإماء فيتقرب إليهم بذلك ويستأثر بحبهم له وانحيازهم إليه ، ويوشك أن ينشىء منهم لنفسه قوة تعينه على سادتهم ، أو تعين السلطان على هؤلاء السادة ، إن احتاج السلطان إلى بعض المعونة . ويتحدث الرواة بأن الإماء والعبيد قد اتخذوا الحداد حين عزل الوليد ، وكانت الولائد تنشج فيما روى الطبري بهذا الرجز :

يا ويلتا قد عزل الوليدُ   وجاءنا مجوّعاً سعيدُ
ينقص في الصاع ولا يزيد   فجـــوّع الإماء والعبيدُ

وما أظن إلا أن هذا الرجز منحول متكلف ، قد اخترعه القصّاص من أنصار الوليد ؛ فلم يكن الإماء والعبيد من أسرى الفرس في الكوفة قــد بلغوا من حذق العربية وإتقانها أن يرجزوا بالوليد وسعيد ، كما كان العرب أنفسهم خليقين أن يفعلوا. ولكن هذا الرجز يدل على أن الرقيق والأحرار من الفرس كانوا يؤثرون الوليد ويحبونه ؛ لأنه يؤثرهم ويستهويهم . ولذلك قال الرواة إن أهل الكوفة كانوا فريقين في الوليد : كانت العامة معه ، وكانت الخاصة عليه .

وليس لهذا معنى إلا أن الوليد قد خفض جناحه للعامــة ، ووطىء الخاصة وطئاً شديداً . ولو قد سار الوليد في ذلك سيرة عمر لما أنكر عليه منه شيء . فقد كان عمر يرفق بالعامة ويغلظ على الخاصة ، يقاوم في هذه الخاصة نزعتها الى الأثرة واحتفاظها بالعصبية الجاهلية وطموحها الى الاستعلاء ، وما أرى الوليد ذهب إلى شيء من ذلك ، وانما طاولته الأرستقراطية فطاولها ، وقاومته فقاومها ودخل بينها وبين رقيقها من العبيد والإماء .

ومهما يكن من شيء فقد عزل الوليد وذوو الرأي في الكوفة ضيقون به ساخطون عليه ، يبغضه السادة لما قدمنا من تنكره لهم ومقاومته اياهم ومحاولته أن يفسد عليهم رقيقهم . وينكره القراء وأصحاب الصلاح والفقه لسيرته تلك الجاهلية التي لم تخل من عبث ومجون وتعدّ لحدود الله .

وقد وفق عثمان حين عزل الوليد ولم يتشدد في استبقائه ، وحين أقام عليه الحد ولم يحمه ، ولكنه كان خليقاً أن يردّ أمر الكوفة الى رجل من أصحاب النبي وأهل الكفاية من المهاجرين والأنصار ، ولو قد فعل ذلك لاستصلح هذا المصر ولم يدفع أهله عامة في الفرقة والخلاف . ولكنه عزل عن أهل الكوفـــة رجلاً من آل أبي معيط ، وأرسل إليهم رجلاً من بني أمية ، وقد حذّره عمر من أن يحمل أولئـــك وهؤلاء على رقاب الناس . وما من شك في أن أهل الكوفة كانوا يعلمون بـا تقدّم فيه عمر إلى عثمان من ذلك . وهم بعد قد عرفوا من أصحاب النبي نفراً صالحين رضوا عـــن سيرتهم وأحبوا حكمهم . وقد تبين لعثمان أنهم ضاقوا بالوليد بن عقبة بعد سعد بن أبي وقاص ، وقـد كان خليقاً أن يرسل إليهم رجلاً في منزلة سعد لا في منزلة الوليد . وكان سعيد بن العاص فتى من فتيان بني أمية ، معتدلاً مستقيم الخلق . أبلى فاحسن البلاء في فتح الشام ، كما أبلى بنو أبيه فأحسنوا البلاء أيضاً . وقد كان عثمان يربّيه ويرعاه قبل أن يستخلف . وسأل عنه عمر حين كان يتفقد قريشاً فأنبىء بأنه عند معاوية ، وبأنه مريض مشرف على الموت ؛ فأرسل الى معاوية في أن يحمله إليه في رفق وعناية . ولم يكد الفتى يبلغ المدينة حتى استرد قوة وصحة وعافية ، وقد تلقاه عمر لقاء حسناً ، فرقّ له وعطف عليه وما زال به حتى زوجه وجعله في مرتبة نظرائه من شباب قريش وأشرافها . ولكنه على ذلك كان قرشياً أموياً قريب المكان من عثمان . كان رجل صدق ما في ذلك شك ، ولكنه كان يعتدّ بقريش عامة ، وببني أمية خاصة . وقد ذهب الى الكوفة مصمّماً على أن يصلح ما أفسد الوليد ، حتى قيلت في ذلك الأقاويل ؛ فزعم بعض القصّاص أنه غسل المنبر تحرجاً من آثام الوليد ، وآذى بذلك بعض القرشيين .

والشيء المحقق هو أن أهل الكوفة قد أحسنوا استقباله ، وأحسن هو سياستهم أول الأمر ، فدرس شؤون المصر من قريب ، واختار سماره وذوي خاصته من بـــين السادة والقرّاء الذين أغضبهم الوليد . ولكنه لم يقم في الكوفـة إلا قليلا حتى بصر بحقيقة الأمر وأنبأ بها عثمان . وكان فيما بعث الى عثمان من ذلك تصوير دقيق لا لحـال الكوفة وحدها ، بل لحال غيرها من الأمصار كذلك . فهو قد رأى أن الكوفـة إنما

تتعرض للفتنة لسببين : أحدهما تضاؤل أصحاب السابقة وضعف أمرهم بمرور الزمن . وأصحاب السابقة هؤلاء هم السادة الذين سبقوا إلى الفتح واستقروا في المصر حين مُصِّر، وفيهم الشريف الذي كانت له الرياسة في قومه، وفيهم القارىء الذي كانت له المكانة الدينية لاتصاله بالنبي أو بأصحابه. وقد أخذ الموت ينتقص منهم في الحرب والسلم جميعاً.

والآخر تزايد الطارئين والناشئين جميعاً . فما أكثر الذين كانوا يطرأون على المصر من هؤلاء الأعراب الذين يقبلون من تلقاء أنفسهم أو يرسلهم الخليفة مادة للجند ! وما أكثر الطارئين من هؤلاء الأسرى الذين كان الفاتحون يأخذونهم في المواقع ويقسمون بينهم مع الغنيمة ويعودون معهم إلى المصر ليقيموا فيه ! وما أكثر هذا الجيل الجديد الذي كان يولد في المصر من الحرائر وأمهات الأولاد، ثم الذين كانوا يولدون من ابناء الأحرار غير العرب ومن أبناء العبيد ! وكل هذه الناشئة قد أخذت تنمو ويظهر أمرها ويكون لها أثرها في حياة المصر .

فالطارئون من الأعراب والطارئون من الأعاجم والناشئون من أولئك وهؤلاء قد كثروا في المصر حتى زحموا أهل السابقة، وكادوا يستأثرون من دونهم بالأمر . وكلهم حظه من الجهل أكثر من حظه من العلم، ونصيبه من الغلظة والجفوة أعظم من نصيبه من الرقة واللين . والأعراب يقبلون بما حفظوا من غلظهم وجفوتهم وعصبيتهم وجهلهم . والأسرى يقبلون بما ورثوا من حضارتهم، وبما تستتبعه الحضارة في أعقاب أمرها من الضعف والفساد، وبما تستتبعه الهزيمة والرق من انكسار النفوس وذلتها، وحسرتها على ما مضى، ويأسها مما يقبل، وبغضها لسيدها وخوفها منه ومكرها به وكيدها له . والناشئون بين أولئك وهؤلاء يأخذون بحظوظهم من أخلاق أولئك وهؤلاء، فتختلط الأمور عليهم . ويكونون مصدراً لاختلاط الأمور على غيرهم من الناس . وبهذا كله تتعقد أمور السياسة تعقداً شديداً . ويجد الأمراء والولاة أنفسهم أمام مشكلات كلما حلوا منها طرفاً نجم طرف آخر .

بشيء من هذا كتب سعيد إلى عثمان لينبئه بحقيقة الأمر في مصره . فتقدم إليه عثمان في أن يؤثر الخير والعافية ما استطاع، وفي أن يجنب نفسه والناس الفتنة ما وجد إلى ذلك سبيلا، وفي أن يقدم أصحاب السابقة وما يتصل بأسبابهم على غيرهم، ثم ينزل الناس بعد ذلك منازلهم بالحق، ولا يؤثر ولا يظلم ولا يجور .

ولكن عثمان شعر منذ ذلك الوقت بأن أمور الناس قد تغيرت، وبأن الفتنة قد أخذت تظهر، وبأن الاحتياط من هذه الفتنة قد أصبح شيئاً ليس منه بد . وقد

خطب عثمان الناس في المدينة ، فأنبأهم من ذلك بما علم وحذرهم الفتنة وخوّفهم منها، واستشارهم فيما تقدّم فيه إلى سعيد من السيرة السياسية فأقروه عليه . لكنه اقترح أمراً خطيراً فرح الناس من أهل المدينة به حين سمعوه ، وابتهجوا له ابتهاجاً عظيماً ، وظن هو أنه سيصلح بعض ما فسد ، ويجمع بعض ما انتشر ، لكنه أدى إلى النتائج العكسية لما أراد عثمان . وهذا الأمر الذي اقترحه هو أن ينقل إلى الناس فيئهم حيث أقاموا من بلاد العرب ؛ فلا يقيم في الأمصار إلا من كان له في الإقامة فيها أرب ، ما عدا الجند بالطبع . فليس من إقامتهم في الأمصار بدّ .

وقد دهش أهل المدينة حين سمعوا هذا الاقتراح من عثمان ، فقالوا له : كيف تنقل إلينا ما أفاء الله علينا من الأرض ؟ قال عثمان : — وهذا هو لب الاقتراح — نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز ففرحوا وفتح الله عليهم به أمراً لم يكن في حسابهم، فافترقوا وقد فرجها الله عنهم به [1] . معنى ذلك أن عثمان عرض على أهل الحجاز أولاً ثم عمم ذلك في بلاد العرب كلها فيما بعد ، أن يستبدلوا بما كان لهم في العراق أو في الأقاليم من الأرض أرضاً في الحجاز أو في غيرها من بلاد العرب . فإذا فعلوا ذلك أقاموا في بلادهم لم ينتقلوا عنها ، أقام معهم أهلهم وذوو أسبابهم ، فخف الضغط على الأقاليم ، وقلت هجرة الأعراب إليها . وسيحتاج هؤلاء الذين يشترون أرض الحجاز وبلاد العرب مكان أرض الأقاليم ، إلى كثير من الأيدي العاملة لاستصلاحها واستثمارها والقيام عليها ، فيكثر اجتلاب الرقيق والموالي إلى بلاد العرب ، ويخف الضغط على الأقاليم من هؤلاء الأسارى الذين كانوا يطرأون على الأمصار في غير انقطاع .

وليس من الغريب أن يفرح الناس بذلك ويبتهجوا له ؛ فأرض الحجاز أحب إلى أهل الحجاز من أرض العراق ، وأرض اليمن أحب إلى أهل اليمن من أرض الشام ومصر ؛ هي منهم قريب ، فهم يستطيعون أن يقوموا عليها في غير مشقة ولا كلفة ولا احتياج إلى السفر القصير أو الطويل ، ولا إلى الهجرة من أرض الآباء والأجداد .

وقد كتب عثمان بذلك في الآفاق ، ففتح على الناس باباً عظيماً كان له أبعد الأثر في حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعقلية جميعاً .

ولنضرب لذلك بعض الأمثال: ففريق من كبار الصحابة كانوا يملكون كثيراً من المال السائل والجامد في الحجاز ، فما أسرع ما أنفقوا مالهم هذا سائله وجامده في شراء الأرض في الأقاليم ؛ لأنهم كانوا يعلمون أن أرض الأقاليم أخصب تربة وأكثر ثمرة

---

(١) الطبري أحداث سنة ثلاثين .

وأيسر استغلالاً من أرض الحجاز . فطلحة بن عبيد الله كان قد جدّ واجتهد ودأب حتى اشترى عامة أسهم خيبر من الذين شهدوا فتحها مع النبي أو من ورثتهم . فلما فتح عثمان هذا الباب باع طلحة كل ما كان يملك من أسهم خيبر لأهل الحجاز ممن شهد فتح العراق بما كانوا يملكون هناك . ثم كان له مال آخر كثير ، فاشترى به من بعض أهـــل الحجاز أرضهم في العراق ، وباع هو نفسه أرضاً كان يملكها في العراق بأرض كان هو يملكها في الحجاز . وفعل الناس فعله ، فكلّ من كره الهجرة من الحجاز ليقيم بأرضه في الأقاليم باع أرضه تلك واشترى مكانهـــا أرضاً فيما يليه . ونشأ عن ذلك أولاً أن ظهرت الملكيات الضخمة في العراق وغيره من الأقاليم . فالذين استطاعوا أن ينتفعوا بهذا الاقتراح إنما هم أصحاب الأموال الضخمة الذين كانوا يستطيعون أن يشتروا من أصحاب الملكيات الصغيرة ما يملكون ؛ فاشترى طلحة ، واشترى الزبير واشترى مروان ابن الحكم ، وكثر النشاط المالي في ذلك العام من بيع وشراء واقتراض واستبدال ومضاربة . ثم لم يقتصر ذلك على الحجـــاز والعراق ، وانما شمل بلاد العرب كلها من جهة ، والأقاليم المفتوحة كلها من جهة أخرى . وجدّت الإقطاعات الكبيرة الضخمة ، والضياع الواسعة العريضة من جهة ، وقام فيها العاملون من الرقيق والموالي والأحرار من جهة أخرى ، فظهرت في الإسلام طبقـــة جديدة من الناس هي طبقة البلوتقراطية التي تمتـــاز إلى أرستقراطيتها التي تأتيها من المولد بكثرة المال وضخامة الثراء وكثرة الأتباع أيضاً .

ونشأ عن ذلك ثانياً أن الذين اشتروا الأرض في بلاد العرب عامة وفي الحجازخاصة قد أرادوا أن يستغلوا أرضهم ، فاجتلبوا الرقيق وأكثروا من اجتلابه . ولم يمض وقت طويل حتى استحال الحجاز إلى جنة من أجمل جنات الأرض وأحسنها ثمراً وأعودها على أهلها بالغنى وما يستتبع الغنى من الترف والفراغ . وما هي إلا أن تنشأ فيالحجاز نفسه ، في مكة والمدينة والطائف ، طبقة من هذه الأرستقراطية الفارغة التي لا تعمل شيئاً ، وإنما يعمل لها ما جلبت من الرقيق ، والتي تنفق وقتها في فنون اللهو والعبث والمجون .

ونشأ عن هذا بعدذلك أن جلبت الحضارة جلباً إلى الحجاز وغيره من بلادالعرب؛ فكان الترف والتبطل ، وكانت الفنون التي تنشأ عن الترف والتبطل ، فكان الغناء والإيقاع والرقص والشعر الذي لا يصور جدّاً ولا نشاطاً ، وإنما يصور بطالة وفراغاً وتهالكاً من أجل ذلك على اللذة أو عكوفاً من أجل ذلك على النفس وتعمقاً لما ينتابها

من الهم . وإلى جانب هذه الطبقة الأرستقراطية الفارغة عاش الرقيق الذين كانوا يملكون ساداتهم ويديرون حياتهم . وما يكون في هذه الحياة من النشاط الباطل وما يكون فيها من العواطف والأهواء . ثم إلى جانب السادة الأرقاء ، والأرقاء السادة ، عاشت طبقة أخرى من العرب البادين المحرومين لم تملك قط أرضاً في الحجاز لتبيعها بأرض في العراق ، ولم تملك قط أرضاً في العراق المشتري بها أرضاً في الحجاز .

ولم يخطر لعثمان رحمه الله حين فكر في هــذا الاقتراح ، أو فكر له فيه خاصته ومشيروه ، شيء من هذه النتائج البعيدة ، وإنما رأى شراً فأراد حسمه ، أراد أن يخفف الهجرة على الأمصــار ، ويمسك الأعراب في بلادهم ، ويجلب الأسرى والرقيق إلى بلاد العرب ويستخلص لأهــل الحجاز من أصحاب الملكيات الصغيرة في الأقاليم مالهم ليشتروا به الأرض التي تليهم ويقوموا عليهــا من قريب . ولكنه لم يبلغ من ذلك ما أراد ، وإنمــا أضاف شراً إلى شر وفساداً إلى فساد . فلست أدري أوفق لصرف الأعراب عن الهجرة إلى الأمصار أو لوقف هذه الهجرة وقتاً ما ، أم لم يوفق ، فالتاريخ لا يحدثنا بشيء من ذلك . بل أنا أشك في أن التاريخ قد فطن لمــا أراد عثمان ومشيروه بهذا الانقلاب الخطير في الحياة الاقتصادية للمسلمين . وما أشك في أنه لم يوفق في تخفيف الضغط على الأمصار من هؤلاء الرقيق والأسارى الذين كان عددهم يزداد من حين إلى حين ؛ لأن الفتوح لم تقف أيام عثمان ، وإنمــا مضت في طريقها عازمة حازمة غير مترددة كمــا سنرى ، ولأن أربعة أخماس الغنائم كانت تقسم بين الفاتحين ، وهؤلاء الفاتحون مستقرون في أمصارهم لا يخرج أحدهم إلى الثغر الذي يليه إلا مرة كل أربعة أعوام ، ولا يقيم في الثغر إلا ستة أشهر أو أقل منها قليلاً أو أكثر منهــا قليلاً ، فهذه الغنائم إذن وفيها الرقيق كانت تثوب مع أصحابها إلى الأمصار ، فكان عدد الرقيق في ازدياد متصل . ولم يكن بد من ذلك إلا أن يوقف الفتح وتعيش الدولة في ظل سلم متصل ، وهذا ما لم يتح لها أيام عثمان . فقد كان التنافس شديداً بين ولاة الأمصار أيهم يكون أبعد من أصحابه أثراً في الفتح . وكان التنافس شديداً بين قواد الثغور أيهم يسبق صاحبه إلى لقــاء العدو في هذا الميدان أو ذاك ، وإلى احتلال هذه المدينــة أو تلك ، وإلى احتياز الغنائم التي تملأ يديه فتسر جنده من جهة ، وتسر أميره على المصر من جهة أخرى ، وتسر الخليفة ومن حوله من أصحاب النبي في المدينة من جهة ثالثة . لم يستطع عثمان إذن أن يخفف ضغط المستعربين والمغلوبين على الأمصار عامة وعلى المصرين العراقيين خاصة ، ولم يتح للذين باعوا أرضهم في الأمصار

واشتروا بها أرضاً في الحجاز ، أن ينظموا أمورهم ويجلبوا ما يحتاجون إليه من الأيدي العاملة ، فيقل عدد الرقيق في الأمصار . فقد أحدث عثمان هذا الانقلاب الاقتصادي سنة ثلاثين وقتل سنة خمس وثلاثين ، واضطربت الأمور بين هاتين السنتين فلم يؤت الانقلاب ثمرته التي كانت ترجى منه في هذا الوقت القصير ، وإنما آتى ثمره البغيض الخطير في أقصر وقت ممكن ؛ لأن رؤوس الأموال كانت تنتظره في الحجاز متشوفة إليه متهالكة عليه . ولم يكن عمر حين احتبس قريشاً في المدينة قد احتبس أشخاصها فحسب ، وإنما كان قد احتبس مع هؤلاء الأشخاص رؤوس أموالهم أيضاً إلى حد بعيد. فهم كانوا يتجرون بين الحجاز والأقاليم تجارات عظيمة واسعة تغل عليهم مالا كثيراً سائلا ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون أن يستغلوا هذا المال السائل الذي لم يكن سيله ينقطع ، لم يكن من اليسير عليهم أن يوظفوه في الأعمال الكبرى ، كما يقول المحدثون . وإنما كان المال يجتمع إلى المال والنقد يضاف إلى النقد ، وكان الفقراء وأوساط الناس يرون ذلك فيعجبون له ويعجبون به ، وقد تنطلق فيه الألسنة فيضطر الأغنياء إلى أن يكفروا عن ثرائهم بالصدقات والعطاء ، يبتغي الأخيار منهم بهذا رضا الله ورضا الناس ، ويتقي غيرهم بهذا ما يكون من الحسد والحقد في بعض النفوس .

لم يمنع عمر إذن قريشاً من أن تكسب المال فلم يكن له إلى ذلك سبيل ، ولكنه استيقن أن الأغنياء يكسبون من المال أكثر مما ينبغي لهم أن يكسبوا . ولذلك قال في آخر حياته : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء » . وقد روي أن أهل المدينة أصبحوا ذات يوم فسمعوا رجة عظيمة ، فسألت عائشة عن هذه الرجة ، فقيل لها إنما هي عير لعبد الرحمن بن عوف قد أقبلت وعليها تجارة له . قالت عائشة : أما إني سمعت رسول الله (صلعم) يقول : كأني بعبد الرحمن بن عوف على الصراط يميل بـه مرة ويستقيم أخرى حتى يفلت ولم يكد . فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فقال : هي وما عليها صدقة . قال الرواة : وكان ما عليها أفضل منها . وكانت العير خمسمائة راحلة [1] .

وتحدث ابن سعد عن سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي عن خالد بن يزيد بن ابي مالك عن أبيه عن عطاء بن أبي رباح عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن رسول الله (صلعم) أنه قال : « يا ابن عوف إنك من الأغنياء ولن تدخل الجنة إلا زحفاً فأقرض الله يطلق لك قدميك . قال ابن عوف : وما الذي أقرض الله يا رسول

(١) طبقات ابن سعد طبع لندن الجزء الثالث القسم الأول صفحة ٩٣ .

الله ؟ قال : تبدأ بما أمسيت فيه . قال : أمن كله أجمع يا رسول الله ؟ قال نعم . قال : فخرج ابن عوف وهو يهمّ بذلك ، فأرسل إليه رسول الله (صلعم) فقال : إن جبريل قال : مر ابن عوف فليضف الضيف ، وليطعم المسكين ، وليعط السائل ويبدأ بمن يعول ، فإنه إذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه » .

هذه كانت ثروة عبد الرحمن أيام النبي ، وقد زادت أضعافاً مضاعفة بعد النبي بالتثمير والتوسع فيه من جهة ، وبما أفاء الله على المسلمين من جهة أخرى . وقيل إنه أوصى في سبيل الله بخمسين ألف دينار ذهباً ، وترك ميراثاً عظيماً ، فكان له ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ، وكان يزرع في الجرف على عشرين ناضحاً ، وترك أربع زوجات ، فكان نصيب كل واحدة منهن من الثمن يقوّم بما بين الثمانين ألفاً إلى مائة ألف . قال الرواة : وترك عبد الرحمن ذهباً قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال منه . ولم يكن عبد الرحمن فذّاً في ذلك ، وإنما كان أمره فيه كأمر غيره من كبار الصحابة وسادة قريش . فلما أحدث عثمان هذا الانقلاب الاقتصادي ، أتاح لهؤلاء الأغنياء أن يوظفوا أموالهم ، فأصبحوا رجال مال وأعمال معاً . وما هي إلا أن تنشأ الملكيات الضخمة كما قلنا ، ويحدث في أول صدر الإسلام ما حدث في آخر الجمهورية الرومانية من هذه « اللاتيفونديا » التي أضاعت الجمهورية . فاللاتيفونديا التي أضاعت الجمهورية الرومانية هي بعينها التي أضاعت الخلافة الإسلامية ، ملكت قلة قليلة من الرومانيين أرض إيطاليا ، فانقطع الناس إليها وأصبحوا أحزاباً وشيعاً . وملكت قلة قليلة من المسلمين أرض الأقاليم ، فانقطع الناس إليها وانقسموا بينها شيعاً وأحزاباً . ونتيجة هذا كله أن هذا النظام الذي استحدثه عثمان عن رأيه هو ، أو عن رأي مشيريه ، لم تكن له نتائجه السياسية وحدها ، من نشأة هذه الطبقة الغنية المسرفة في الغنى ، التي استهوت الناس وفرّقتهم أحزاباً وتنازعت السلطان فيما بينها بفضل هذه التفرقة ، وإنما كانت له نتائجه الاجتماعية أيضاً ، فقد بلغ نظام الطبقات غايته بحكم هذا الانقلاب ، فوُجدت طبقة الأرستقراطية العليا ذات المولد والثراء الضخم والسلطان الواسع . ووجدت طبقة البائسين الذين يعملون في الأرض ويقومون على مرافق هؤلاء السادة ، ووجدت بين هاتين الطبقتين المتباعدتين طبقة متوسطة هي طبقة العامة من العرب ، الذين كانوا يقيمون في الأمصار ويغيرون على العدو ، ويحمون الثغور ، ويذودون عمن وراءهم من الناس وعما وراءهم من الثراء . وهذه الطبقة المتوسطة هي التي تنازعها الأغنياء ففرّقوها شيعاً وأحزاباً . والذي يتتبع تاريخ المسلمين يلاحظ

أن الصراع الأول إنما كان بين الأغنياء ثم بين هذه الطبقة الوسطى وهؤلاء الأغنياء . فأما الطبقة الثالثة ، طبقة العاملين في الأرض والقائمين على المرافق المختلفة ، فلم يظهر أمرها إلا بعد ذلك ، ولها قصة أخرى .

فالفتنة إذن إنما كانت عربية ، نشأت من تزاحم الأغنياء على الغنى والسلطان، ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الأغنياء . ولم يكد نظام عثمان هذا يذاع ويسرع الأغنياء الى الانتفاع به ، حتى ظهر الشر، وظهر في الكوفة قبل أن يظهر في أي مصر آخر . وظهر في مجلس سعيد بن العاص نفسه . وقد كان ذلك سنة ثلاث وثلاثين . فقد كان سعيد ، كما قدمنا ، تخير وجوه الناس وقراءهم وذوي الصلاح منهم ليدخلوا عليه إذا لم يجلس للعامة ، وليسمروا عنده إذا كان الليل . فقال ذات يوم أو ذات ليلة : إنما السواد – سواد الكوفة – بستان لقريش. فتغاضب القوم ، وكانت كثرتهم من اليمانية ، وردّوا عليه في ذلك ردّاً غليظاً ، وقالوا له إنما السواد فيء أفاءه الله علينا ، وما نصيب قريش منه إلا كنصيب غيرها من المسلمين . وغضب صاحب شرطة سعيد؛ لأن القوم ردوا على الأمير ردّاً غليظاً فزجرهم ، فقاموا اليه فضربوه حتى أغمي عليه . فقطع سعيد سمره واحتجب عن هؤلاء الناس ، فلزموا مجالسهم وأنديتهم ، وأطلقوا ألسنتهم في سعيد وفي عثمان وفي قريش ، وتسامع الناس بهم واجتمع بعض الناس إليهم . فكتب سعيد إلى عثمان ينبئه بأمرهم ، ويذكر أنه يخافهم أن يفتنوا الناس . فأجابه عثمان أن يسيرهم الى الشام ، وكتب إلى معاوية يأمره بلقائهم واستصلاحهم . وزعم رواة آخرون أن سعيداً جلس للناس وحضر مجلسه هؤلاء النفر من الوجوه والقرّاء ، فتحدّث الناس في جود طلحة بن عبيد الله . فقال سعيد : من كان له ثراء طلحة ومثل ما يملك من الأرض خليق أن يكون جواداً ، ولو كان لي مثل ما لطلحة لأعشتكم في رغد . فقال غلام مضري من بني أسد : وددت لو كانت للأمير أرض كذا على الفرات – وكانت هذه الأرض ملكاً للدولة ، فكانت إذن من فيء المسلمين – فغضب هؤلاء النفر وزجروا الغلام وتناول الناس ، فقام هؤلاء النفر إلى الغلام فضربوه وضربوا أباه حتى اغمي عليهما ، فغضبت لذلك بنو أسد . وحاول سعيد أن يرد الأمر إلى العافية فلم يفلح . وألحّ عليه أهل الكوفة في أن يخرج هؤلاء الناس ، فأخرجهم بأمر عثمان الى الشام .

والشيء المهم هو أن سعيداً قد نفى هؤلاء الناس عن أرضهم . ولست أدري إلى أي حد يجوز للأمير أن ينفي المسلمين من أرضهم سواء كان هذا النفي من عند نفسه أم

بأمر من الخليفة . فإخراج المسلمين عن أرضهم إنما يجوز إذا قامت البينة عليهم بأنهم حاربوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فساداً ، فهنالك يجوز للإمام أن يقتلهم أو يصلبهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفيهم من الأرض .

ولم تقم بينة على أن هؤلاء الناس من القراء والصالحين وأصحاب البلاء في الفتح ، قد حاربوا الله ورسوله أو سعوا في الأرض فساداً ؛ فهم لم يخلعوا يداً من طاعة ، ولم ينكروا سلطان عثمان ولا سلطان واليه عليهم ، وإنما كانوا يشهدون الصلاة مع هذا الأمير ويؤدون ما عليهم من الحق . وكل ما يمكن أن يأخذوا به هو أنهم نقدوا سيرة الأمير أو بعض قوله ، وتجاوزوا حدهم فضربوا ذاك الغلام أو ضربوا صاحب شرطة الأمير . فأما نقدهم أعمال الأمير وأقواله فحق لهم لا ينازعهم فيه منازع ، وكان الشيخان يطلبانه إلى الناس قبل عثمان ، فما ينبغي أن يعاقبوا عليه . وأما ضربهم الغلام أو صاحب الشرطة فاعتداء يمكن أن يعاقبوا عليه بأيسر التعزير ، باللوم أو بالسجن أو بإقصاص الرجلين منهم ، فأما نفيهم من الأرض فأمر عظيم . وقد قال قائلون في العصر القديم : إن عمر قد نفى من المدينة نصر بن حجاج حين خاف منه الفتنة على النساء ، فجائز لعثمان أو لعامله أن ينفي هؤلاء النفر من الكوفة حين خاف منهم الفتنة على المسلمين . ولكن نفي نصر بن حجاج لم يكن نفياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، لم يكن عقوبة . فنصر بن حجاج لم يقترف إثماً ، ولم يمنح قدّه ما منحه الله من الاعتدال ، ولم يسبغ على وجهه ما أسبغ الله من جمال ، ولم يغر النساء بأن يتبعنه ويفتنّ به . وما أرى إلا أن عمر حبب إليه الخروج من المدينة ودعاه إليه وأعانه عليه بالمال ، وتقدم إليه في ذلك بلهجته الحازمة التي تشبه العنف وليست عنفاً ؛ وليس كل الناس قد رضي عن إزعاج عمر لهذا الفتى عن أرضه . وأعود فأقول إن عمر لم ينف هذا الفتى ولم يعاقبه ، وإنما أغراه بالخروج وأعانه عليه .

فأما سعيد فإنه لم يغر هؤلاء القوم بالخروج عن الكوفة ولم يعنهم على ذلك ، وإنما أخرجهم من أرضهم بقوة السلطان ، وأرسلهم إلى دار غربة لا يطمئنون إليها ، ولا يسكنون إلى أهلها ، وأسلمهم هو أو أسلمهم عثمان إلى معاوية ليمسك عليهم حريتهم ، وليستصلحهم كما يرى استصلاحهم . فهو قد أخرجهم من مصرهم وأزعجهم عن أهلهم ونقلهم من ديوانهم وسلبهم حريتهم ، وليس له في ذلك حق قليل أو كثير ، وقد يقال : إنه لم ينفهم من الأرض بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ؛ فهو قد أخرجهم من دار إسلام إلى دار إسلام ، والأرض الإسلامية كلها دار للمسلمين كلهم .

ولكن الذين عاصروا عثمان من أصحاب النبي ومن التابعين أنكروا هذا التسيير على كل حال ، ورأوه نفياً لا يجوز . ومهما يقل القائلون فإن للإمام أن يعاقب ، ولكن ليس له أن يتجاوز بعقوبته حدود العرف المألوف . وسنرى أن ولاة عثمان أسرفوا على أنفسهم وعلى إمامهم وعلى الناس بالنفي والتسيير .

وقد تلقى معاوية هؤلاء النفر فأنزلهم في كنيسة ، وأجرى عليهم ما يقيم أودهم ، وجعل يسعى إليهم مرة ويدخلهم عليه مرة أخرى ، يناظرهم ويؤامرهم ويعظهم فلا يبلغ منهم شيئاً . ناظرهم في فضل قريش على العرب فلم يعرفوا لقريش على العرب فضلاً . والإسلام لا يعرف لقريش فضلاً على العرب ولا على غيرهم من الناس إلا أن يكون هذا الفضل هو أن النبي قد بعث منهم . ولكن انبعاث النبي من قريش لا يبيح لها أن تتحكم في رقاب الناس ، ولا أن تمتاز من سائر المسلمين كما جعلت تمتاز في أيام عثمان . وهو على كل حال لا يبيح لأمير قرشي أن يقول : إنما السواد بستان لقريش . وناظرهم في الطاعة للإمام وولاته فلم يبلغ منهم شيئاً ؛ لأنهم لم ينكروا الطاعة للإمام ما أقام العدل وأمضى الحق وأحيا السنة وأمات البدعة ، وإنما أنكروا طاعة الإمام وولاته إن جاروا عن القصد وانحرفوا عن الطريق . وناظرهم في نفسه فلم يبلغ منهم شيئاً ، أنكروا عليه أن يعظهم وأن يسير فيهم سيرة الأمير ، وطلبوا إليه أن يعتزل الإمارة ليليها من هو أقدم منه بالإسلام عهداً ، وأكرم منه أباً ، وأجدر منه أن يقيم حدود الإسلام .

ويظهر أن معاوية لم ييأس من إصلاح هؤلاء النفر فحسب ، وإنما خافهم أيضاً على أهل الشام . وكان معاوية كثير الخوف على أهل الشام ، فكتب إلى عثمان يستعفيه من إقامتهم عنده ، فأعفاه ، وتقدم إليه في أن يردهم إلى مصرهم ، فلم يكادوا يعودون إلى الكوفة حتى أطلقوا ألسنتهم في سعيد وفي معاوية وفي عثمان ، وحتى انتشرت دعوتهم شيئاً ما . فأعاد سعيد الكتابة إلى عثمان يستعفيه من إقامة هؤلاء الناس في مصرهم ، فأعفاه عثمان وأمره أن ينفيهم مرة أخرى إلى الجزيرة عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وكان أميراً لمعاوية على حمص والجزيرة . فأرسلوا إلى عبد الرحمن ، وتلقاهم أشد لقاء وأعنفه ، وجعل يسومهم الخسف ، ويعظم لهم أمر نفسه وأمر أبيه وأمر قريش ، لا بالمناظرة والحجاج ، بل بالقول الغليظ ، والسيرة التي هي أغلظ من القول ، وجعل لا يركب إلا أمشاهم حول ركابه ، يؤنبهم ويزجرهم ويذلهم ويجعلهم للناس نكالاً ؛ فلما شق عليهم ذلك أظهروا الطاعة وأعلنوا التوبة

واستقالوه ، فأقال عثرتهم ، وأرسل الأشترَ واحداً منهم بتوبته وطاعتهم الى عثمان . وأقبل الأشتر على عثمان فقال له وسمع منه . وأذن له عثمان في أن ينزل من الأرض حيث يشاء ، فآثر الرجوع إلى أصحابه والإقامة عند عبدالرحمن . ولكن هذه الإقامة لم تطل ؛ فقدم سعيد على عثمان واستخلف على الكوفة ، فوثب أصحاب المنفيين أو المسيرين وأجمعوا أمرهم أن يحولوا بين سعيد وبين الرجوع إليهم ، وكتبوا إلى أصحابهم يستقدمونهم فأقبلوا مسرعين حتى بلغوا الكوفة ، وأقسموا لا يدخلها عليهم سعيد ما حملوا سيوفهم ثم خرجوا في جمع منهم يقودهم الأشتر حتى بلغوا الجرْعة ، فانتظروا سعيداً حتى ردوه ، وأكرهوا عثمان على أن يعزله عنهم ويولي عليهم غيره ، واختاروا أبا موسى الأشعري ، فلم يجد عثمان بدّاً من توليته عليهم . وكذلك أكره على أن يعزل عامله على الكوفة مرتين : عزل الوليد لأنه لها وعبث واستعلى وشرب الخمر ، وعزل سعيداً لأنه اشتد وقسا وأسرف في تمييز قريش . ولم يقترح عليه أهل الكوفة أحداً حين عزل الوليد ، فولى عليهم سعيداً ، فلما أكرهوه على عزل سعيد لم يتركوا له اختيار الأمير ، وإنما اختاروه هم ، واختاروا رجلاً من أصحاب النبي وهو إلى ذلك يمان ،فولي أمرهم أبو موسى الأشعري، وثابوا إلى شيء من الاستقرار ، ولكنه استقرار لم يدم إلا قليلاً .

- ٩ -

وكان أبو موسى الأشعري عامل عمر على البصرة، فأقره عليها عثمان أعواماً ، يقول بعض الرواة إنها ثلاثة ، ويقول أكثرهم إنها ستة . والكثرة من أهل البصرة مضرية، وفيهم ربعيون كثيرون ، وفيهم قلة يمانية . ولأمر ما أحب عمر أن يولي رجلاً من اليمن على البصرة وكثرة أهلها مضرية ، وأن يولي ثقفياً هو المغيرة بن شعبة على الكوفة وكثرة أهلها يمانية ، وأن يولي قرشيين مضريين على الشام ومصر ، وكثرة العرب فيها يمانية أيضاً ؛ يريد بذلك في أكبر الظن أن يقاوم العصبية حتى يزيلها ، فيخالف بين عصبية الولاة وعصبية الرعية . وقد استقامت أمور البصرة في عهد أبي موسى أيام عثمان أعواماً ، لم ينكر أهلها شيئاً من أميرهم ولم ينكر الأمير شيئاً من رعيته . وكان أبو موسى رجلاً من أصحاب النبي مقدّماً فيهم ، كريم السيرة جميـــل الهدْي ممعناً في

الفتح . ولكن العصبية ظهرت أيام عثمان ، وجعل كل حي من أحياء العرب ينظر إلى نفسه وإلى حظه . نظرت قريش وقرابة عثمان خاصة ، فإذا ثلاث من الولايات الأربع الكبرى يليها أمراء من قريش : الوليد بن عقبة في الكوفة وبعده سعيد ، ومعاوية بن أبي سفيان في الشام ، وعمرو بن العاص في مصر وبعده عبدالله بن سعيد بن أبي سرح.

فلم يبق إلا مصر واحد من هذه الأمصـــار الكبرى لم يل أمره أموي ولا قرشي ولا مصري ، وإنما وليه رجل من أهـل اليمن . فكان مركـز أبي موسى بين هؤلاء الولاة غريباً شاذاً ، هو اليمني الوحيد الذي يلي مصراً ذا خطر ، ومصراً كثرة أهله مضرية . وما من شك في أن قريشاً تنبهت لذلك . وتنبّهت له قرابة عثمان، وتنبّهت له المضرية نفسها في البصرة . فيقول بعض الرواة إن رجـــلا مضرياً من بني ضبة ، هو غيـــلان بن خرشة الضبي ، خرج إلى عثمان بن عفان فقال : أما لكم صغير فتستشبّوه فتولوه البصرة ؟ حتى متى يلي هذا الشيخ البصرة ؟ يعني أبا موسى ، وكان وليها بعد موت عمر ست سنين ، فعزله عـــثمان . ويقول آخرون : إن بعض الكور المفتوحة انتقضت على أبي موسى، فخطب في الناس فرغبهم في الجهاد وحبب إليهم أن يسعوا الى عدوهم راجلين . فقبل بعضهم ، وتلبث بعضهم حتى يرى ما يصنع الأمير . فلما خرج أبو موسى نظر الناس فإذا هو راكب وقد حمل أثقاله على أربعين من البغال ، فأقبلوا عليه فقالوا له : احملنا على هـــذا الفضول : فزجر الناس حتى ارتدوا عنه ، ولكنهم ارسلوا وفداً الى عثمان يستعفيه من أبي موسى . فلما سألهـــم عمن يحبون لم يقترحوا أحداً، وإنما قالوا : من شئت فولّه ؛ فإن في أي الناس اخترته عوضاً منه . وقالوا : ما كل ما نعـلم نحب أن نقول ! واتهموا أبا موسى بأنه يأكل أرضهم ويطعم رهطه من الأشعريين ، فعزله عثمان ، واختار لولاية البصرة ابن خاله عبد الله بن عامر ابن كريز ، فدخل البصرة والياً عليها وهو ابن خمس وعشرين سنة.

وبلغ أبا موسى تولية هـــذا الفتى فلم يحرج صدره لذلك ، وإنما قـــال للناس : « يأتيكم غلام خرّاج ولاّج كريم الجدّات والخالات والعمات يجمع له الجندان » (١).

ولم يخطىء الشيخ ؛ فقد كان عبدالله بن عامر فتى من فتيان قريش خرّاجاً ولاّجاً؛ ذا حزم وعزم وقوة وبأس ونفوذ من المشكلات ، شغل نفسه وشغل الناس معه بالفتح ، ونافس فيه سعيد بن العاص فسبقه ، وسار في الناس سيرة جدّ وكرم ومضاء ؛ فلم يلق من اهل البصرة ما لقي الوليـــد وسعيد من اهل الكوفة ، وما لقي عبد الله بن سعد

---

(١) الطبري في احداث سنة تسع وعشرين .

ابن أبي سرح من أهل مصر . ومصدر ذلك في أكبر الظن سيرته وحزمه وبعد رأيه من جهة ، وأن الكثرة الكثيرة من رعيته كانت مضرية يلي أمرها مضري ، فلم ينكروا ولم يشكوا . ومع ذلك لم يسلم مصر عبد الله بن عامر من بعض الشر . وآية ذلك أن فريقاً من أهل البصرة شاركوا في الخروج على عثمان ، وكانوا أقل من غيرهم ولكن هذا يدل على أن المصر لم يكن كله راضياً لا عن عثمان ولا عن واليه . ولم تخل البصرة من بعض ما شكت منه الكوفة ؛ فقد سير بعض أهلها إلى الشام كما سير إلى الشام بعض أهل الكوفة . ولكن تسيير من سير من أهل البصرة كان ظلماً صارخاً أخذ فيه بالظنة ، ولم يلبث معاوية أن تبين ما فيه من جور . فقد سعى ساع إلى عبدالله بن عامر بأن عامر بن عبد القيس يخالف المسلمين في امور أحلها الله لهم ؛ فهو لا يأكل اللحم ، ولا يرى الزواج ، ولا يشهد الجمعة . وكتب فيه عبدالله بن عامر الى عثمان . فقد قال بعض الرواة : ان عثمان استقدمه الى المدينة ، فلما تبين أنه مكذوب عليه رده الى مصره موفوراً . وقال آخرون إن عثمان كتب الى عامله على البصرة أن يسيره الى معاوية ، فلما أدخل على معاوية وجد عنده طعاماً فشارك فيه حين دعي إليه ، ورآه معاوية يأكل اللحم فتبين الكذب عليه ، وامتحنه فيما اتهم به ، فقال : إنه أمسك عن أكل اللحم من ذبائح القصابين منذ رأى قصاباً يعنف بشاة في ذبحها ، وإنه يشهد الجمعة في مؤخر المسجد ويخرج في أول الناس ، وانه أخرج من البصرة حين كان يخطب عليه لتزويجه . فأراد معاوية أن يرده إلى مصره ، ولكنه أبى ان يعود الى بلد يستحل أهله الوشاية والسعاية والنفي ، فأقام بالشام ، ومضى في زهده ونسكه . وأحبه معاوية ، فكان لا يراه الا سأله عن حاجته ، فيجيب : لا حاجة لي . فلما أكثر عليه معاوية ، قال له عامر : أردد عليّ بعض حرّ البصرة ؛ فإن الصوم يخف عليّ في بلدكم . وما أرى أن عثمان قد أتيح له وال استطاع أن يكفيه من قبله من الناس إلا عبدالله بن عامر في البصرة ومعاوية في الشام .

فلندع العراق بعد أن رأينا من أمر مصريه ما رأينا . ولننتقل إلى الشام بعد أن نلاحظ أن الناس لم ينقموا من عبدالله بن عامر إلا قرابته من عثمان وحداثة سنه ، وأنه جاء بعد أبي موسى ، وأنه سار في الناس سيرة قرشية لعلها لم تكن تلائم هدْي أصحاب النبي ، ولكنها لاءمت عصبية المضريين وطموحهم الى الفتح وشرههم إلى الغنيمة .

وكأن عبدالله بن عامر قد كان يعرف ما ينقم الناس من أمر توليته ، فحرص على أن يبيّن للناقمين أنه كان للولاية أهلاً وبها جديراً . ولعله أسرف بعض الإسراف في

أمور الدين . فقد قيل إنه أمعن في الفتح وبلغ منه ما أراده مرة . فقيل له : لم يبلغ أحد من الفتح ما بلغت فقال : لا جرم لأجعلن شكري لله على ذلك أن أحرم بالعمرة من حيث انتهيت . ولامه عثمان على أن أحرم من أعماق فارس على حين أن للاحرام أماكن معلومة لا يحرم قبلها إلا مسرف على نفسه . وهذه القصة نفسها تدل على مقدار ما كان عبدالله بن عامر يبذل من الجهد ليحمد الناس سيرته في الدين والدنيا جميعاً .

- ١٠ -

وكان معاوية أعظم الولاة حظاً من كل شيء أيام عثمان وكان والياً لعمر على دمشق، فلما مات أخوه يزيد بن أبي سفيان وكان والي عمر على الأردن ، ضم عمر الى معاوية عمل أخيه ، وشكر ذلك له أبو سفيان : ولكن عمر لم يحارب معاوية ولم يرد أن يعزي أبا سفيان عن موت ابنه بضم عمله الى أخيه ، وإنما رضي عن معاوية ورأى فيه كفاية وعزماً وحزماً ، فاستكفاه الأردن فكفاه ، وقد مات عمر ومعاوية على هذين الجندين ، فأقره عثمان عليهما ، كما أقر عمال عمر جميعاً عامه الأول . ولكن عبدالرحمن ابن علقمة الكناني عامل عمر على فلسطين يموت ، فيضم عثمان فلسطين الى معاوية . ثم يمرض عمير بن سعد الأنصاري عامل عمر على حمص ويستعفي عثمان من عمله ، فيعفيه ويضم حمص الى معاوية ، فتخلص له أرض الشام كلها ، ويصبح أعظم العمال خطراً وأعلاهم قدراً أيام عثمان . فهو قد اجتمعت له الأجناد الأربعة ، وأصبح بحكم مركزه الجغرافي قوياً الى حد غير مألوف . وقد وقعت ولايته بين الحجاز وفيه أمير المؤمنين ومركز الخلافة ، ومصر ، وهي والولاية التي تكاد تداني ولايته قوة وبأساً وإن زادت عليها خصباً وثراء . وهو على ساحل بحر الروم وعلى حدود الروم أيضاً يستطيع إن شاء الله أن يستمد الخليفة ، ويستطيع إن شاء الله أن يمد الخليفة ، ويستطيع كذلك أن يستمد مصر ويمدها . ثم أمامه بابان عظيمان من أبواب الجهاد : البحر من جهة ، وثغور الروم في البر من جهة أخرى . فهو يستطيع أن يرفع شأن الدولة ويرفع شأن نفسه، وأن يعلي كلمة الإسلام، ويبني لنفسه مجداً لا يستطيع أحد من العمال أن يطاوله .

وقد طال عهد معاوية بالشام ، فعرفه أثناء خلافة عمر كلها وأيام خلافة عثمان كلها وقد أحب أهل الشام وأحبه أهل الشام ورضي عنه الخليفتان جميعاً ، وأصبح

لطول ولايته وحسن مدخله الى نفوس رعيته أشبه بالملك منه بالوالي . فليس تاريخ الخلافة يعرف والياً أتيح له من طول الولاية واتصالها واستقرارها وتدرجها في الاتساع مثل ما أتيح لمعاوية . وليس غريباً أن يرضى معاوية عن نفسه وحظه حين يرى العمال من حوله يعزلون بين حين وحين أثناء خلافة عمر وعثمان ، ويرى نفسه مستقراً لا يريم ، والولايات تضم إليه واحدة في إثر الأخرى . ولو قد كان معاوية مقصراً في عمله أو جائراً على رعيته لما أقرّه عمر ولا أعفاه من العزل ، بل من العقوبة إن اقتضى الأمر أن يعاقب. وأكبر الظن أنه لم يغير سيرته في أهل الشام بعد وفاة عمر واستخلاف عثمان . رضي عن سيرته حين كان الخليفة متشدداً متحرجاً ، فلم ير بالإقامة عليها بأساً حين أصبح الخليفة هيناً ليناً سمحاً . ولهذا لم يشارك أهل الشام فيما شارك فيه أهل الأمصار الأخرى من اتهام عمالهم والتشهير بهم والخلاف على عثمان. فالذين حاصروا عثمان وفدوا من الكوفة والبصرة ومصر ولم يكن بينهم شامي واحد . ولهذا أيضاً كان عثمان إذا أراد أن يسير أحداً من المخالفين عليه والمنكرين على عماله نفاه إلى الشام، لا يستثني من ذلك أهل المدينة أنفسهم. فترى أنه حين ضاق بأبي ذرّ أمره أن يلحق بديوانه في الشام ، وكان أبو ذرّ قد خرج إلى الشام غازياً فكتب اسمه في الديوان هناك ، فرده عثمان إلى الشام خوفاً على أهل المدينة من لسانه أو من عودته . فقد كان حزم معاوية إذن هو الملجأ الذي كان عثمان يلجأ إليه إذا أراد تأديب الذين يسرفون عليه وعلى عماله في المعارضة . ويجب أن نعترف بأن معاوية كان حازماً حتى على عثمان نفسه . فهو الذي كان يتلقى المنفيين الذين يرسلهم إليه ويحاول إصلاحهم ، فإذا أعياه ذلك طلب إلى عثمان أن يعفيه من تزولهم عليه ، ولم يكن عثمان يرد له طلباً .

ولم يقصر معاوية في انتهاز ما أتيح له من حظ؛ فهو لم يقم في الشام وادعاً مطمئناً يدبر أمر ولايته ولا يزيد على ذلك ، وإنما كانت نفسه تنازعه إلى الفتوح نزاعاً شديداً، وكان في أيام عمر أشبه شيء بالفرس الذي يعض شكيمته تحرقاً إلى العدو ، ولكن عمر كان يمسكه ويأبى عليه . وكان البحر يدعو معاوية دعاء ملحاً . وكان معاوية يتوسل إلى عمر في أن يغزيه البحر ، فيشتد عمر في رفض ما كان يطلب إليه ، حتى حذّره مرة من أن يعود إليه بحديث البحر . فلما استخلف عثمان طلب إليه معاوية ما كان يطلب إلى عمر ، فأذن له على ألا يختار هو الغزاة ولا يقرع بين الجند بل يخير الناس ، فمن اختار منهم غزو البحر قبله وأعانه، ومن لم يختر أقام من أمره على عافية. وما هي إلا أن يتخذ معاوية أسطولاً ويغزو البحر في خمسين غزاة أو اكثر ، فيثير

ذلك غيرة الوالي على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فيصنع صنيع معاوية؛ حتى يقول المؤرخون : إن معاوية غزا قبرص من الشام وغزاها ابن أبي سرح من مصر ، فالتقى الجيشان في الجزيرة .

وكانت إلى معاوية حماية الثغور البرية مما يلي بلاد الروم ، فكان يغير على العدو في الشتاء والصيف . وكان هذا كله يتيح له من الغنائم والفيء ما يسر الجيش ويسر بيت المال .

وليس من شك في أن عثمان هو الذي مهد لمعاوية ما أتيح له من نقل الخلافة ذات يوم إلى آل أبي سفيان وتثبيتها في بني أمية. فعثمان هو الذي وسع على معاوية في الولاية فضم إليه فلسطين وحمص ، وأنشأ له وحدة شامية بعيدة الأرجاء، وجمع له قيادة الأجناد الأربعة ، فكانت جيوشه أقوى جيوش المسلمين . ثم مد له في الولاية أثناء خلافته كلها كما فعل عمر،وأطلق يده في امور الشام اكثر مما أطلقها عمر . فلما كانت الفتنة نظر معاوية فإذا هو أبعد الأمراء بالولاية عهداً واقواهم جنداً واملكهم لقلب رعيته .

وقد كان عثمان يستطيع ، لو أراد أن يحتفظ بسيرة عمر ، أن يقر معاوية على دمشق والأردن ، ويحتفظ بحمص وفلسطين ولايتين تتبعان المدينة مباشرة . ولو قد فعل ذلك لاحتفظ بسيرة عمر أولاً ، ولأتاح للنابهين من شيوخ الصحابة وشباب العرب أعمالاً تحول بينهم وبين الفراغ وتحول بينهم وبين السخط ، وتحول بينهم وبين الغضب والثورة أو التحريض على الثورة . ولو قد فعل ذلك لحال بين معاوية وبين ما أقدم عليه من الاستئثار حين أضرمت نار الفتنة ، ولأتاح للمسلمين أن يحتفظوا بالأمر شورى بينهم ؛ ولكن هذا الملك الضخم الواسع المتصل مكن لمعاوية في الأرض ، ويسر له أن يرسل إلى مصر من يقطعها عن عاصمة الخلافة ، وأن يرسل الى الحجاز ثم الى بلاد العرب من يحتازها من دون عليّ ، وأن ينظر عليّ ذات يوم فإذامعاوية قد استأثر من دونه بخير ما في الدولة من الأمصار والأقاليم . وليس لذلك مصدر إلا مهارة معاوية أولاً ، وضخامة ولايته ثانياً .

فإذا تركنا الشام ومضينا نحو الغرب انتهينا الى مصر . وكان عمر قد ترك عمرو بن

العاص والياً عليها ، فأقره عثمان كما أقر غيره من عمال عمر وقتاً ما. ولكن العام الأول من ولاية عثمان لم يكد ينقضي حتى جعلت قرابة عثمان تنظر الى مصر نظرة لا تخلو من طمع فيها وطموح اليها. والناس يختلفون في عزل عمرو عن مصر وتولية عبد الله بن سعد بن أبي سرح عليها : فقوم يزعمون أن المصريين شكوا عمراً الى عثمان فعزله عنهم . وآخرون يزعمون أن عمراً لم يعزل لسخط المصريين عليه أو ضيقهم به ، وانما هو الكيد عزل أميراً وولى مكانه أميراً آخر . والشيء البين من أحاديث الرواة هو أن عثمان كان يرشح عبدالله بن سعد بن أبي سرح أخاه من الرضاعة لأمر عظيم . فهم يقولون إن عمراً كان قد أغار على افريقية فأصاب شيئاً من غنيمة ثم رجع . فكان من الطبيعي أن يخلي عثمان بين واليه على مصر وبين ما قبله من الثغور يغير عليها إغارة استطلاع ثم إغارة فتح ، كما كان الشأن بالقياس إلى غيره من العمال في الكوفة والبصرة والشام . ولكن عثمان كف عمراً عن هذا الغزو ، وأرسل إلى إفريقية جيشاً لا يذعن لسلطان الوالي في مصر ، وإنما يتصل مباشرة بالمدينة متخطياً عمراً على غير المألوف ، وأمّر عثمان على هذا الجيش عبدالله بن سعد بن أبي سرح ، وقال له : إن فتحت عليك إفريقية فلك خمس الخمس من الغنيمة .

وطبيعي أن يغضب لذلك عمرو بن العاص ، لأن عثمان خصّ به عن نظرائه من العمال . فلم يكن عثمان يرسل الجيوش من قبله مباشرة الى الثغور ، وانما كان ذلك الى العمال ، يغزو معاوية الروم ويغزو عامل البصرة والكوفة بلاد الفرس ، يؤامرون الخليفة في ذلك ، ولكن لهم الرياسة والإشراف ، لا يتخطون ولا يفتأت عليهم .

وقد احتفل عثمان لفتح إفريقية فرمى عبدالله بن سعد بن أبي سرح بالرجال وسرّح معه نفراً من أصحاب النبي وجماعة من شباب قريش وعدداً غير قليل من الأنصار ، وأمره إذا فرغ من إفريقية أن يرسل فريقاً من جيشه لغزو الأندلس من قبل البحر . وقد أتيح لابن أبي سرح فتح إفريقية ، وأتيحت له غنائم كثيرة قسمها بين الناس ، وأخذ لنفسه خمس الخمس وأرسل سائره إلى عثمان. وقيل إن مروان بن الحكم اشترى خمس الخمس بمائة ألف دينار أو مائتي ألف ، وأدّى بعض الثمن ووهب له عثمان سائره . قال الرواة : فسخط الجيش لما آثر عثمان به عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وأرسلوا إلى عثمان وفداً يراجعه في ذلك . فقال لهم عثمان : أنا نفلته ما أخذ، فإن أقررتموه فذاك، وإن سخطتم فهو ردٌّ . قال القوم : قد سخطنا . قال عثمان : فهو رد إذن . قال القوم: فاعزله عنا ، فلن تحسن الصلة بيننا وبينه بعد الذي كان . فأجابهم عثمان إلى ما

أرادوا ، وكتب إلى عبد الله يأمره برد ما أخذ ويعزله عن إفريقية . وعاد عبد الله بعد ذلك إلى مصر وفي نفسه شيء من الحسرة وخيبة الأمل ، فقد فتح الله على يديه إقليماً ذا خطر ، ثم رُدّ هو عن هذا الإقليم الذي فتحه ، ولم يتح له حتى أن يحتفظ بالنفل الذي نفله عثمان إياه . وما من شك في أن قرابة عثمان غضبت لعبد الله بن سعد، وأبت إلا أن تعوّضه مما فقد خيراً منه ، فما زالت بعثمان حتى ولاّه خراج مصر ، وترك لعمرو صلاتها وحربها . ولم يكن بدّ من أن يكون الخلاف بين هذين العاملين . فجائز أن يكون عمرو قد أغرى بعبد الله وحرض عليه حتى استرد الخليفة منه مـا قد نفله وعزله عن إفريقية . ومهما يكن من شيء فقد ثار الخلاف بين الرجلين ،فكتب عبد الله إلى عثمان أن عمراً قد كسر عليّ الخراج . وكتب عمرو إلى عثمان أن عبد الله قد أفسد عليّ حيلة الحرب . وكان عثمان خليقـاً أن يدعو عبد الله إلى المدينة ويترك لعمرو ولاية مصر ؛ فقد مات عمر وهو راض عن ولايته . فإذا لم يكن بد من التغيير فقد كان عثمان خليقاً أن يعزل الرجلين جميعاً ويجعـــل أمور مصر إلى غيرهما من قريش أو من غير قريش . كان ذلك أحرى أن يخفف من حفيظة عمرو ، وأن يؤجل انقسام قريش . ولكن عثمان عزل عمراً وجمع لعبد الله صلاتمصر وحربها إلى ما كان يلي من الخراج ، فاتخذ لنفسه من عمرو عدوّاً .

ثم لم يقف أمر عثمان مع عمرو عند هذا الحد ؛ فقد اتهمه في أمانته معرّضاً مرة ومصرحاً مرة أخرى . دخل عليه عمرو ذات يوم وعليه جبة محشوة ، فقال له عثمان ما حشو جبتك ؟ قال : حشوها عمرو . قال عثمان : ما عن هذا سألتك فقد علمت انك فيها ، إنما سألتك أحشوها قطن ام غيره ؟ .

وارسل عبد الله بن سعد بن ابي سرح إلى عثمان من مصر مالاً كثيراً، فدخل عمرو على عثمان حين وافى هذا المال ، فقال له عثمان : هل تعلم ان تلك اللقاح قد درّت بعدك يا عمرو ؟ قـال عمرو : وقد هلكت فصالها . اراد عثمان ان عمراً كان يحتجن المال من دونه . وأراد عمرو أن عامل عثمان يكلف أهل مصر فوق ما يطيقون .

ولم يكن عبد الله بن سعد بن ابي سرح رجل صدق ، ولم يكن المسلمون يرضون عنه ؛ فهو كان من الذين اشتدوا على النبي وأسرفوا في السخر منه ، وقد نزل القرآن بكفره وذمه ، فقد كان عبد الله يقول ساخراً من القرآن : سأنزل مثل ما أنزل الله .

وقد أهدر النبي دم عبد الله بن سعد بن ابي سرح يوم الفتح . ولكن عثمان جاء به مسلماً إلى النبي ، فلم يجد النبي عليه سبيلاً. وما من شك في أن سيرة عبد الله في مصر

لم تكن رضاً لأهلها ؛ فهو كان يكلفهم فوق ما يطيقون ، كما عرّض بذلك عمرو بن العاص . وهو كان في أكبر الظن يظهر من الغطرسة والكبرياء على غـــير قريش من عرب مصر ما أحفظهم وأضجرهم،حتى شكوه الى عثمان،وحتى كتب اليه عثمان ينذره ويأمره أن ينزع عما تكره الرعية . فلم يحفل بذلك،وانما عاقب الذين شكوه وضرب منهم رجلاً حتى قتله[1]. هنالك لم يغضب المصريون وحدهم ، وانما غضب معهم أصحاب النبي،واشتدوا على عثمان في ذلك حتى عزله ، وكتب بعهد مصر لمحمد بن أبي بكر ، وأرسل معه جماعة من المهاجرين والأنصـــار ليحققوا ما بين عبدالله بن سعد وبين المصريين . فقد كان علي طلب اليه أن يعزله أولاً ، وأن يحقق في ما اتهم به من القتل ثانياً ؛ فإن ثبتت عليه التهمة أقاد منه . وكانت تولية عثمان لهذا الرجل مصر شؤماً على جماعـة المسلمين ؛ فمن مصر خرج الثائرون الأولون على عثمان واجتمع اليهم بعد ذلك غيرهم من أهـــل المصريين الآخرين في العراق . ومع ذلك فقد كان عبد الله بن سعد شجاعـاً جريئاً ، مقداماً موفقاً في الفتح ؛ فهو قد أخرج الروم من افريقية،وشارك في غزو قبرص وهزم أسطول الروم في ذات الصواري ، ولكنه كان صاحب دنيا ولم يكن صاحب دين .

- ١٢ -

ولن يتم الحديث عن سياسة عثمان وعامله لمصر حتى نذكر فتيين من فتيان قريش كان لهما فيما انتهت اليه هذه السياسة من الثورة أثر أي أثر ، وهما محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر . فقد كان فتى شريفـــاً لأب شريف كريم النسب في قريش عظيم المكانة بين زعمائها ؛ فأبوه عتبة بن ربيعة أبو هند زوج أبي سفيان وأم معاوية. وقد كان أبو حذيفة من السابقين الى الإسلام ، أسلم قبل أن يدخـل النبي دار الأرقم ويدعو فيها ، وهاجر بامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو الى بلاد الحبشة ، ثم هاجر الى المدينة مع غيره من المهاجرين . وهو الى سابقته وهجرته الى الحبشة ثم الى المدينة أحد الذين أبلوا في الدين أحسن البلاء وأكمله ، فقد شهد بدراً ، وشهدها في حماسة ويقين وايمان ، حتى دعا أباه في الموقعة الى المبارزة . ثم هو قد شهد المشاهد كلها مع النبي .

(١) أنساب الأشراف للبلاذري طبعة القدس صفحة ٢٦ .

ثم هو بعد ذلك قد مات شهيداً في موقعة اليمامة أيام أبي بكر . وقد ولد له ابنه محمد في الحبشة ؛ فكان اذن حديث السن حين مات عنه أبوه ، ولم يكن قد بلغ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة بعد .

وقد كفله عثمان بعد موت أبيه فكان ربيبه ، ثم تعهده أثناء شبابه. فلما استخلف عثمان ظن الفتى أن سيصيبه شيء من الولاية كما أصاب غيره من فتيان قريش ، ومن ذوي قرابة عثمان بنوع خاص . ولكن الفتى ، فيما يقول الرواة ، لم يكن شديد الاستمساك بدينه ؛ فقد يقال انه شرب الخمر وان عثمان أقام عليه الحد . قد يثبت هذا ، وقد لا يثبت ، ولكن المهم أن الفتى طلب ذات يوم الى عثمان أن يوليه عملاً . فأبى عليه عثمان ذلك،وقال له: لو عرفت فيك كفاية لوليتك ، ولكنك لست هناك. قال الفتى فأعنّي اذن على الخروج والاضطراب في الأرض، فأعانه عثمان وأعطاه مالاً، وأذن له أن يذهب إلى حيث شاء كغيره من الناس ، فذهب الفتى الى مصر . وما من شك في أنه خرج من عند عثمان مغاضباً له ، إما لأنه أقام عليه الحد إن كان قد فعل، وإما لأنه أبى عليه الولاية التي لم يبخل بها على الوليد وسعيد وعبدالله بن عامر . ولم يكد يصل الى مصر حتى أظهر المعارضة لسياسة عثمان والشغب على عبدالله بن سعد بن أبي سرح .

وأما محمد بن أبي بكر فحسبه شرفاً أن يكون ابن الصدّيق وأخا عائشة أم المؤمنين . وهو بعد هذا كله فتى قرشي يعتز بما كانت قريش تعتز به ، ويعتد بمكانته من أبيه الذي كان آثر الرجال عند النبي ، ومن أخته التي كانت آثر النساء عند النبي ايضاً . وما من شك في أنه كان يطمع في أن يعرف له عثمان هذه المكانة ويرعى حرمة أبيه وأخته ، ويكرمه ببعض الولايات التي كان يكرم بها قوماً من ذوي قرابته لم يكونوا أعز منه نفراً ولا أسبق منه سابقة ، ولكن عثمان لم يلتفت اليه ولم يحفل به . وما كان عثمان يستطيع أن يولي شباب قريش جميعاً ، ولا كان يستطيع أن يولي الكثرة من شباب قريش ، فالأعمال محدودة وطلابها كثيرون . ولكن عثمان أثار في نفوس هؤلاء الشباب من قريش ضروباً من الموجدة والغيرة والحسد حين آثر فريقاً منهم دون فريق . فخرج محمد بن أبي بكر الى مصر كما خرج اليها محمد بن أبي حذيفة والتقيا فيها أو في طريقهما اليها . ولم يكادا ينزلان مصر حتى أحس عبدالله بن سعد أنهما لم يقبلا لخير ، فأنذرهما وحذّرهما ، ولكنهما لم يحفلا بنذير ولا بتحذير . وكان محمد بن أبي حذيفة اكثرهما صراحة في النقد ، وأشدهما معارضة للخليفة وواليه.

بل كان لا يتردد في أن يواجه الوالي بما يكره ، ويواجهه بذلك على ملأ من الناس . فقد قال الرواة إنه كان يجهر بالتكبير بعد أن يفرغ الأمير من صلاته ؛ ليلفت الناس اليه من جهة ، وليتحدى الأمير من جهة أخرى. ويقال إن عبدالله بن سعد دعاه فنهاه عن ذلك فلم ينته ، فحمقه وأنذره بأن يقارب بين خطوه ، فلم يظهر الفتى عناية به او التفاتاً اليه . وخرج عبدالله للقاء الروم في ذات الصواري ، فخرج معه المحمدان ، ولكنه أشفق منهما على الجيش ، فاضطرهما إلى أن يبحرا في سفينة ليس فيها أحد من المسلمين غيرهما ، وإنما فيها معهما الأقباط . ويقال إن محمداً بن أبي بكر مرض فأقام بمصر ولم يخرج وخرج محمد بن أبي حذيفة . وأكبر الظن أن أحدهما أقام ليفسد الأمر من وراء عبدالله ، وأن الآخر خرج لينشر دعوته في الجيش .

وقد كتب النصر في هذه الموقعة للمسلمين، وعاد عبدالله ظافراً بقهر أسطول الروم. ولكنه عاد وقد أفسد عليه ابن أبي حذيفة جيشه بما أظهر من النكير عليه وعلى خليفته ، وبما كان يقول للمحاربين من انهم يسعون الى الجهاد ، والجهاد وراءهم في المدينة حيث يقوم عثمان فيسوس الامة على غير كتاب الله وسنة رسوله وسياسة صاحبيه، ويعزل أصحاب النبي عن العمل ويولي امور المسلمين جماعة من الفساق وأصحاب الجور . وانظروا الى وليكم وقائدكم الى الجهاد ، انه رجل نزل القرآن بكفره ، وأهدر النبي دمه ، ولكن عثمان يوليه أمركم على ذلك لأنه أخوه في الرضاعة . وانظروا الى سيرته فيكم ، أترونه يهتدي فيها بهدي النبي وصاحبيه؟ أترونه لا يغير ولا يبدل ولايكافكم من اموالكم واعمالكم ما لا تطيقون ؟ كان ابن ابي حذيفة يذيع هذا في الجيش، وكان ابن ابي بكر يذيع هذا في المصر . وقد اخذ المصريون بعد عودة الجيش يجتمعون اليهما ويسمعون منهما ، فأشفق منهما عبدالله بن سعد ، وشكاهما الى عثمان واستأذنه في البطش بهما . ويقال ان عثمان ارسل عمار بن ياسر الى مصر ليعلم له علم هذين الفتيين ، ولينصح لهما وردّهما الى الهدوء ، وليعلم له علم عبدالله بن سعد نفسه . فلم يكد عمار يصل الى مصر حتى انضم الى هذين الفتيين فيما يقول الرواة ، وجعل يحرّض معهما على عثمان ، حتى ضج من ذلك عبدالله بن سعد ، كتب الى الخليفة يلحّ عليه في البطش بثلاثتهم . فكتب اليه عثمان ينذره ويلومه ويأمره بأن يرفق بعمار ويرده الى المدينة مكرماً موفوراً ، وبان يترك محمد بن ابي بكر لأبيه الصدّيق واخته أم المؤمنين : وبان يترك محمد بن ابي حذيفة فهو ابنه وربيبه وفرخ قريش .

وأكاد أقطع بأن عماراً لم يرسل إلى مصر ولم يشارك هذين الفتيين فيما كانا بسبيله من

التحريض ، وإنما هي قصة اخترعها العاذرون لعثمان فيما كان بينه وبين عمار قبل ذلك أو بعده ، مما سنراه بعد حين. ولكن الشيء المحقق هو أن المحمدين نزلا مصر وحرّضا فيها على عثمان وعامله ، وهمّ عثمان أن يترضاهما بالرفق . فيقال : إنه أرسل إلى محمد بن أبي حذيفة مالاً وكسوة ، فعرض الفتى ذلك في المسجد وقال : انظروا يا معشر المسلمين إلى عثمان ! يريد أن يخدعني عن ديني بالرشوة .

وما زال المحمدان بالمصريين يذيعان فيهم دعوة المعارضة ، حتى استجاب لهما خلق كثير ، وحتى كان المصريون أشد الناس خلافاً لعثمان وانتقاضاً عليه . وليس لسخط هذين الفتيين مصدر فيما نعلم إلا ما أثار عثمان في نفوس كثير من الشباب القرشيين وغير القرشيين من الغيظ والموجدة حين آثر فريقاً من الشبان دون فريق ، وحين قصر بذوي المكانة والكفاية وحسن البلاء عن المناصب والأعمال ، واختص بالمناصب والأعمال قوماً آخرين ، مهما تكن مكانتهم وكفايتهم فهم ليسوا من أصحاب السابقة ولا من ذوي المكانة الممتازة والسيرة الجيدة دائماً. ويكفي أن تقرأ هذا الكتاب الذي أرسله الأشتر إلى عثمان حين ردّت الكوفة سعيد بن العاص وكتب عثمان إلى أهلها يعظهم ويبصرهم ويسألهم عما يريدون - يكفي أن تقرأ هذا الكتاب لترى مبلغ سخط الناس والشباب منهم خاصة على عثمان ؛ لأنه آثر بالأمور العامة فريقاً من ذوي قرابته لا يمتازون من غيرهم بقليل أو كثير .

كتب الأشتر إلى عثمان يقول : « من مالك بن الحارث إلى الخليفة المبتلي الخاطىء الحائد عن سنة نبيه النابذ لحكم القرآن وراء ظهره .

أما بعد ، فقد قرأنا كتابك ؛ فانهَ نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان وتسيير الصالحين ، نسمح لك بطاعتنا . وزعمت أنا قد ظلمنا أنفسنا وذلك ظنك الذي أرداك فأراك الجور عدلاً والباطل حقاً . وأما محبتنا فأن تنزع وتتوب وتستغفر الله من تجنيك على خيارك ، وتسييرك صلحاءنا، وإخراجك إيانا من ديارنا، وتوليتك الأحداث علينا ، وان تولي مصرنا عبدالله بن قيس أبا موسى الأشعري وحذيفة، فقد رضيناهما . واحبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك إليه الهوى من اهل بيتك إن شاء الله . والسلام »[1] .

فأنت ترى ان الأشتر لم يخلع طاعة عثمان ولم ينكر إمامته ، وإنما اتهمه بالجور والانحراف عن السنة ونبذ القرآن وراء ظهره ، وتولية الأحداث ، ونفي من نفي من

(١) أنساب الأشراف للبلاذري صفحة ٤٦ طبعة القدس .

المسلمين . وطلب إليه ان يكف عن هذا كله ، وان يولّي على صلاة الكوفة وحربها ابا موسى الأشعري وعلى خراجهما حذيفة بن اليمان ، فإن فعل فله طاعة أهل الكوفة .

وانظر إلى قوله : « واحبس عنا سعيدك ووليدك ومن يدعوك إليه الهوى من أهل بيتك إن شاء الله » ؛ فإنه يصور ما أحفظ أهل الكوفة وغاظهم من إيثار عثمان لأهل بيته ، وتنحيته ذوي المكانة من أمثال أبي موسى وحذيفة . قال الرواة : فلما قرأ عثمان هذا الكتاب ، قال : اللهم إني تائب . وكتب إلى ابي موسى وحذيفة : أنتما لأهل الكوفة رضا ولنا ثقة، فتوليا امرهم وقوما به بالحق غفر الله لنا ولكما ووصل إلى عثمان قول عتبة بن الوغل :

تصدق علينا يا بن عفان واحتسب وأمّر علينا الأشعري لياليا

فقال : نعم ! واشهراً إن بقيت (١) .

- ١٣ -

وهناك قصة أكبر الرواة المتأخرون من شأنها وأسرفوا فيها ، حتى جعلها كثير من القدماء والمحدثين مصدراً لما كان من الاختلاف على عثمان ، ولما أورث هذا الاختلاف من فرقة بين المسلمين لم تُمحَ آثارها بعدُ ، وهي قصة عبد الله بن سبأ الذي يعرف بابن السوداء . قال الرواة : كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء حبشيّ الأم ، فأسلم في ايام عثمان ، ثم جعل يتنقل في الأمصار يكيد للخليفة ويغري به ويحرض عليه ، ويذيع في الناس آراء محدثة أفسدت عليهم رأيهم في الدين والسياسة جميعاً . قالوا إنه ذهب الى البصرة ، فلم يكد يستقر فيها حتى رُفع أمره الى عبد الله بن عامر فأخرجه عنها . فذهب الى الشام ، وهناك لقي ابا ذرّ ، فلام عنده معاوية في قوله عن مال المسلمين : إنه مال الله . وتأثر ابو ذرّ بحديث ابن السوداء ، فكلم معاوية . ثم لقي عبادة بن الصامت ، وأراد ان يتحدث اليه بمثل ما تحدث به الى ابي ذرّ ، فتعلق به عبادة وقاده الى معاوية وخوّفه شره على الشام ، فأخرجه معاوية من الشام . فذهب الى مصر ، وفي مصر وجد أرضاً خصبة لكيده ومكره وبدعه ؛ فكان يتحدث الى

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري صفحة ٤٧ طبع القدس .

الناس بان النبي محمداً احق بالرجعة من عيسى بن مريم ويذكر قوله عز وجل : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » . وكان يتحدث اليهم بان لكل نبي وصياً ، وبأن وصي النبي محمد هو علي ، وبأن علياً خاتم الأوصياء كما أن محمداً خاتم الأنبياء . وإلى ابن السوداء يضيف كثير من الناس كل ما ظهر من الفساد والاختلاف في البلاد الإسلامية أيام عثمان . ويذهب بعضهم الى أنه أحكم كيده إحكاماً ، فنظم في الأمصار جماعات خفية تستتر بالكيد وتتداعى فيما بينها الى الفتنة ؛ حتى إذا تهيأت لها الأمور وثبت على الخليفة ، فكان ما كان من الخروج والحصار وقتل الإمام .

ويخيل الي ان الذين يكبرون من امر ابن سبأ الى هذا الحد يسرفون على انفسهم وعلى التاريخ إسرافاً شديداً . وأول ما نلاحظه انا لا نجد لابن سبأ ذكراً في المصادر المهمة التي قصت امر الخلاف على عثمان ؛ فلم يذكره ابن سعد حين قص ما كان من خلافة عثمان وانتقاض الناس عليه ، ولم يذكره البلاذري في أنساب الأشراف ، وهو فيما ارى اهم المصادر لهذه القصة واكثرها تفصيلاً . وذكره الطبري عن سيف بن عمر ، وعنه اخذ المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر .

ولست ادري أكان لابن سبأ خطر ايام عثمان ام لم يكن. ولكني اقطع بان خطره، إن كان له خطر ، ليس ذا شأن . وما كان المسلمون في عصر عثمان ليعبث بعقولهم وآرائهم وسلطانهم طارىء من اهل الكتاب أسلم ايام عثمان، ولم يكد يسلم حتى انتدب لنشر الفتنة وإذاعة الكيد في جميع الأقطار . ولو قد اخذ عبدالله بن عامر او معاوية هذا الطارىء الذي كان يهودياً فلم يسلم إلا كائداً للمسلمين ، لكتب احدهما او كلاهما فيه الى عثمان ، ولبطش به احدهما او كلاهما . ولو قد اخذه عبد الله بن سعد بن ابي سرح لما أعفاه من العقوبة التي كاد ينزلها بالمحمدين لولا خوفه من عثمان . والذي يكتب الى عثمان يستأذنه في البطش بابن ابي بكر وابن ابي حذيفة وعمار بن ياسر في بعض الروايات ، خليق ألا يعفي من عقوبته رجال من اهل الكتاب قد اتخذ الاسلام وسيلة لإثارة الفرقة بين المسلمين . وتشكيكهم في إمامهم بل في دينهم كله . ولم يكن أيسر من ان يتتبع الولاة هذا الطارىء ومن ان يأخذوه ويعاقبوه وهم كانوا مهرة في تتبع المعارضين وإخراجهم من ديارهم وإرسالهم الى معاوية او الى عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد .

ومن اغرب ما يروى من امر عبد الله بن سبأ هذا انه هو الذي لقن ابا ذر نقد معاوية فيما كان يقول من ان المال هو مال الله ، وعلمه ان الصواب ان يقول إنه مال

المسلمين . ومن هذا التلقين ، الى ان يقال إنه هو الذي لقن ابا ذر مذهبه كله في نقد الأمراء والأغنياء وتبشير الكانزين للذهب والفضة بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، لا يوجد أمد بعيد . وما اعرف إسرافاً يشبه هذا الإسراف . فما كان ابو ذرّ في حاجة الى طارىء محدث في الإسلام ليعلمه ان للفقراء على الأغنياء حقوقاً ، وأن الله يبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بعذاب أليم . وأن المال الذي يكسبه المسلمون حين يظهرون على العدو ، او الذي يؤديه المسلمون الى بيت المال زكاة او خراجاً ، او الذي يؤديه الذميون الى بيت المال جزية او خراجاً ، هو مال المسلمين يجب ان يضاف اليهم في القول وأن يردّ عليهم بالفعل . لم يكن ابو ذر بحاجة الى هذا الطارىء ليعلمه هذه الحقائق الأولية من حقائق الإسلام، وابو ذر سبق الأنصار جميعاً وسبق كثيراً جداً من المهاجرين الى الاسلام ، وهو قد صحب النبي فأطال صحبته ، وحفظ القرآن فأحسن حفظه ، وروى السنة فأتقن روايتها ، وشهد سيرة النبي وسيرة صاحبيه في الأموال والحقوق ، وعرف من الحلال والحرام ما عرف غيره من اصحاب النبي الذين لزموه فأحسنوا لزومه .

فالذين يزعمون ان ابن سبأ قد اتصل بأبي ذر فألقى اليه بعض مقاله يظلمون أنفسهم ويظلمون ابا ذر ، ويرقون بابن السوداء هذا الى مكانة ما كان يطمع في ان يرقى اليها .

والرواة يقولون : إن ابا ذر قال ذات يوم لعثمان بعد رجوعه من الشام الى المدينة : لا ينبغي لمن أدّى الزكاة ان يكتفي بذلك حتى يعطي السائل ويطعم الجائع وينفق من ماله في سبيل الله . وكان كعب الأحبار حاضر هذا الحديث فقال : من ادى الفريضة فحسبه . فغضب ابو ذر وقال لكعب : يا ابن اليهودية ! ما انت وهذا ؟ أتعلمنا ديننا ! ثم وجأه بمحجنه . فأبو ذر ينكر على كعب الأحبار ان يعلمه دينه ، بل ان يدخل في امور المسلمين حتى بإبداء الرأي ، مع ان كعب الأحبار مسلماً ابعد عهداً بالاسلام من ابن سبأ ، وكان مجاوراً في المدينة يصبح ويمسي بين اصحاب النبي ، وكان معاشراً لعمر وعثمان ، ثم لا يتحرج من ان يتلقى من عبد الله بن سبأ اصلاً من اصول الاسلام وحكماً من احكام القرآن ! فأعجب لرجل من اصحاب النبي ينكر على كعب ان يجادل في الدين ، ثم يتلقى الدين نفسه عن عبد الله بن سبأ !

وأكبر الظن ان عبد الله بن سبأ هذا – إن كان كل ما يروى عنه صحيحاً – إنما قال ما قال ودعا ما دعا اليه بعد ان كانت الفتنة وعظم الخلاف ، فهو قد استغل الفتنة ولم يثرها . واكبر الظن كذلك ان خصوم الشيعة ايام الأمويين والعباسيين قد بالغوا في

امر عبد الله بن سبأ هذا ؛ ليشككوا في بعض ما نسب من الأحداث الى عثمان وولاته من ناحية ، وليشنعوا على عليّ وشيعته من ناحية اخرى ، فيردوا بعض امور الشيعة الى يهودي أسلم كيداً للمسلمين . وما اكثر ما شنع خصوم الشيعة على الشيعة ! وما اكثر ما شنع الشيعة على خصومهم في امر عثمان وفي غير امر عثمان !

فلنقف من هذا كله موقف التحفظ والتحرج والاحتياط، ولنكبر المسلمين في صدر الإسلام عن ان يعبث بدينهم وسياستهم وعقولهم ودولتهم رجل اقبل من صنعاء وكان ابوه يهودياً وكانت امه سوداء ، وكان هو يهودياً ثم اسلم لا رغباً ولا رهباً ولكن مكراً وكيداً وخداعاً ، ثم اتيح له من النجح ما كان يبتغي ، فحرّض المسلمين على خليفتهم حتى قتلوه ، وفرّقهم بعد ذلك او قبل ذلك شيعاً واحزاباً .

هذه كلها امور لا تستقيم للعقل ، ولا تثبت للنقد ، ولا ينبغي ان تقام عليها امور التاريخ .

وإنما الشيء الواضح الذي ليس فيه شك هو ان ظروف الحياة الإسلامية في ذلك الوقت كانت بطبعها تدفع الى اختلاف الرأي وافتراق الأهواء ونشأة المذاهب السياسية المتباينة . فالمتمسكون بنصوص القرآن وسنة النبي وسيرة صاحبه كانوا يرون اموراً تطرأ ينكرونها ولا يعرفونها ، ويريدون ان تواجه ، كما كان عمر يواجهها ، في حزم وشدة وضبط للنفس وضبط للرعية . والشباب الناشئون في قريش وغير قريش من احياء العرب كانوا يستقبلون هذه الأمور الجديدة ، فيها الطمع وفيها الطموح ، وفيها الأثرة وفيها الأمل البعيد ، وفيها الهم الذي لا يعرف حداً يقف عنده ، وفيها من اجل هذا كله التنافس والتزاحم لا على المناصب وحدها بل عليها وعلى كل شيء من حولها . وهذه الأمور الجديدة نفسها كانت خليقة أن تدفع الشيوخ والشباب الى ما دفعوا اليه . فهذه أقطار واسعة من الارض تفتح عليهم ، وهذه أموال لا تحصى تجبى لهم من هذه الاقطار ، فأي غرابة في أن يتنافسوا في إدارة هذه الأقطار المفتوحة والانتفاع بهذه الأموال المجموعة ؟ وهذه بلاد أخرى لم تفتح وكل شيء يدعوهم إلى أن يفتحوها كما فتحوا غيرها ، فما لهم لا يستبقون إلى الفتح ؟ وما لهم لا يتنافسون فيما يكسبه الفاتحون من المجد والغنيمة إن كانوا من طلاب الدنيا ، ومن الأجر والمثوبة إن كانوا من طلاب الآخرة ؟ ثم ما لهم جميعاً لا يختلفون في سياسة هذا الملك الضخم وهذا الثراء العريض؟ وأي غرابة في أن يندفع الطامعون الطامحون من شباب قريش إلى هذه الأبواب التي فتحت لهم ليجلوا منها إلى المجد والسلطان والثراء ؟ وأي غرابة في أن يهم بمنافستهم في

ذلك شباب الأنصار وشباب الأحياء الأخرى من العرب ، وفي أن تمتلىء قلوبهم موجدة وحفيظة وغيظاً إذا رأوا الخليفة يحول بينهم وبين هذه المنافسة ، ويؤثر قريشاً بعظائم الامور ، ويؤثر بني أمية بأعظم هذه العظائم من الأمور خطراً وأجلها شأناً ؟

والشيء الذي ليس فيه شك هو أن عثمان قد ولى الوليد على الكوفة بعد أن عزل سعداً . وولى عبدالله بن عامر على البصرة بعد أن عزل أبا موسى . وجمع الشام كلها لمعاوية وبسط سلطانه عليها الى أبعد حد ممكن بعد أن كانت الشام ولايات تشارك في إدارتها قريش غيرها من أحياء العرب . وولى عبدالله بن أبي سرح مصر بعد أن عزل عنها عمرو بن العاص . وكل هؤلاء الولاة من ذوي قرابة عثمان ، منهم أخوه لأمه ، ومنهم أخوه في الرضاعة ، ومنهم خاله ، ومنهم من يجتمع معه في نسبه الادنى إلى أمية بن عبد شمس .

كل هذه حقائق لا سبيل الى إنكارها. وما نعلم أن ابن سبأ قد أغرى عثمان بتولية من ولى وعزل من عزل . وقد أنكر الناس في جميع العصور على الملوك والقياصرة والولاة والأمراء إيثار ذوي قرابتهم بشؤون الحكم . وليس المسلمون الذين كانوا رعية لعثمان بدعاً من الناس ؛ فهم قد أنكروا وعرفوا ما ينكر الناس ويعرفون في جميع العصور .

والشيء الذي ليس فيه شك آخر الأمر هو أن عصر عثمان شهد لوناً من المعارضة لم يشهده عصر عمر . وكانت هذه المعارضة تكون في الامصار البعيدة ، وهي التي صورناها لك الى الآن ، وكانت هذه المعارضة تكون في المدينة نفسها قريباً من عثمان ، وهي التي لم نصورها لك بعد ، ونريد أن نصورها فيما سنستقبل من الحديث بعد أن طوّفنا معك في الأمصار ذات الخطر ، وعلمنا معك علمها وعلم أهلها وجملة ما حدث فيها من الاحداث . والسؤال الذي ينبغي أن يلقى وأن نجتهد في الإجابة عليه هو : أين نشأت المعارضة لسياسة عثمان ؟ أنشأت في المدينة مستقر الخلافة ، أم نشأت في الامصار ؟ وبعبارة أدق : أنشأت المعارضة بين أصحاب النبي من المهاجرين والأنصار ، ثم انتقلت عنهم الى الجند المرابطين في الأمصار ، أم نشأت في الجند ثم انتقلت منهم الى اصحاب النبي في المدينة .

وواضح جداً أن للاجابة على هذا السؤال خطراً أي خطر . فإن نشأة المعارضة في المدينة معناها أن اصحاب النبي قد كانوا أول من أنكر على عثمان بعض سياسته فتبعهم الناس ، منهم من اقتصد ومنهم من اسرف في هذا الاتباع . ونشأة المعارضة في الامصار

معناها أن الجند هم الذين سبقوا الى الخلاف، ثم اقحموا فيه وفي نتائجه أصحاب النبي، منهم من رضي عن هذا الإقحام، ومنهم من سخط عليه. وسترى أنا نقف في الإجابة على هذا السؤال موقفاً وسطاً، وأن نرى المعارضة لم تنشأ في المدينة وحدهـا، وإنما نشأت فيها وفي الأقاليم، بل لعلها نشأت في المدينة ثم في أطراف الأقاليم حيث الثغور التي يواجه فيها المسلمون عدوهم. وإذا صح ماننذهب اليه - وما نراه الا صحيحاً - فقد يكون هذا دليلاً على أن هذه المعارضة - سواء أنشأت في المدينة أم في الأمصار - إنما كانت ظاهرة طبيعيـــة محتومة دعت اليها ظروف الحياة الاجتماعيـــة اولاً، وظروف الحياة السياسية ثانياً، وظروف الملاءمـة بين أصول الدين وحقائقـه، وبين طبيعة الحضارة التي اضطر المسلمون الى لقائها وممارستها آخر الامر. وما كان لعثمان ان يقاوم طبيعة الحياة، ولا أن يقهر هذه الظروف فليس من سبيل إلى أن يوجد سلطان ضخم كهذا السلطان الذي أتيح للمسلمين، ثم لا يكون فيه حكم ومعارضة لهذا الحكم، ثم لا يكون فيه صراع بين ذلك الحكم وهذه المعارضة، ثم لا يكون فيه آخر الأمر ما كان من الاصطدام الذي انتهى بالمسلمين إلى أن يسلكوا الطريق التي سلكتها الأمم من قبلهم ومن بعدهم. لأن تطور النظم السياسية والاجتماعية لم يكن قد بلغ أجله بعدُ وهو لم يبلغ أجله إلى الآن، ولأن العقل لم يكن قد بلغ حظه الأوفى من الرقي، وهو لم يبلغه إلى الآن. والذين يرون ما يحدث الآن من الصراع بـــين النظم الاجتماعية والسياسية خليقون ألا ينكروا ما كان من الصراع حول النظم السياسية والاجتماعيـة أيام عثمان في القرن الأول للهجرة، وفي القرن السابع للمسيح.

فلنعد إلى المدينة بعد هذه السياحة الطويلة في الأمصار، ولنقم بين عثمان وأصحابه وقتاً ما، لنرى كيف كانت سيرته فيهم، وماذا كان رأيهم فيه.

- ١٤ -

وأول ما نلاحظ من ذلك ما كان من الصلة بين عثمان وبين هؤلاء النفر الخمسة الذين اختاروه للخلافة وكانوا أول من بايعه بها، وهم الذين شاركوه في مجلس الشورى بعهد عمر. وكلهم سبق إلى الإسلام فكان من السابقين الأولين، وكلهم أبلى في سبيل الله فأحسن البلاء، وكلهم رضي عنه النبي حياته كلها ومات وهو عنه راض، وكلهم

كان من العشرة الذين شهد النبي لهم بالجنة . ثم هم يختلفون بعد ذلك في منازلهم من قريش وقرابتهم من النبي ومكانتهم بين الناس وحظوظهم من الدنيا ونظرهم إليها . وأولهم في رأي عمر وفي رأي عامة الناس وفي رأيهم هم أنفسهم عبد الرحمن بن عوف، وكان قريب المكانة من النبي من قبل أمه آمنة بنت وهب ، فهو مثلها من بني زهرة. وكان يسمى في الجاهلية عبد عمرو أو عبد الكعبة ، فسماه النبي عبد الرحمن . وكان في الجاهلية صاحب تجارة بارعاً فيها ، وظل بعد إسلامه صاحب تجارة بارعاً فيها ، حسن التدبير للمال ، ماهراً أي مهارة في التماسه والظفر به ، ثم في استثماره والإنفاق منه في وجوه الخير . ولما هاجر إلى المدينة نزل على سعد بن الربيع الأنصاري . فقال له سعد : أنا أكثر أهل المدينة مالاً ، فانظر إلى شطر مالي فخذه ؛ ولي زوجتان فانظر إلى أيهما أعجب إليك فأطلقها لك . قال عبد الرحمن بارك الله لك ! ولكن إذا أصبحت فدلوني على سوقكم . فلما أصبح غدا على السوق ، فباع واشترى وربح وعاد مع المساء ومعه سمن وأقط . وأقام في المدينة وقتاً ما ، ثم أقبل ذات يوم على النبي وعليه ثياب مزعفرة ، فلما سأله النبي عن ذلك قال : تزوجت . قال النبي « فما أصدقت ؟ » قال : « وزن نواة من ذهب » قال النبي : « فأولم ولو بشاة » . وكان عبد الرحمن يقول : « لقد رأيتني وما أرفع حجراً إلا ظننت أني سأجد تحته ذهباً أو فضة » . ومعنى ذلك أنه كان موفقاً في السعي الى المال مسدداً في التماسه . ثم لم تتصل إقامته في المدينة حتى أصبح من الأغنياء. وقد قدمنا ما روى من قول النبي له : « انك غني وما أراك تدخل الجنة إلا زحفاً ، فأقرض الله قرضاً حسناً يطلق لك قدميك » . وقدمنا كذلك ما روي من حديث عائشة حين أنبئت بقدم عير عبد الرحمن ، وما كان من تصدقه بالعير كلها وما حملت . وقدمنا كذلك ما روي من أن عبد الرحمن قد ترك ميراثاً ضخماً كان منه ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس وأرض كانت تزرع على عشرين ناضحاً ، ومن أن احدى نسائه الأربع أخرجت من نصيبها ، وهو ربع الثمن ، بمال بين الثمانين ألفاً ومائة الألف . فكل هذا ان صور شيئاً فإنما يصور ثروة ضخمة نامية لم تنقصها الصدقة الدائمة والبر المتصل دائماً لأزواج النبي ، ثم لذوي قرابته من بني زهرة ، ثم لغيرهم من عامة المسلمين .

ولم يكن عبد الرحمن على هذا كله مفرطاً في المال، وإنما كان يدبره ويثمره ويحرص عليه كأحسن ما يكون التدبير والتثمير والحرص . وقد روى ابن سعد بإسناده في

ترجمة عمر أن عمر احتاج الى الشيء من المال ، فأرسل الى عبد الرحمن يستقرضه منه، فقال للرسول : قل له يقترض من بيت المال . ولقيه عمر بعد ذلك فلامه في دعابة قاسية،وقال أردت أن أقترض من بيت المال فإذا أدركني الموت ولم أردّ ما اقترضت جعلتم تقولون : دعوه لعمر وآل عمر .

وكان عبد الرحمن رفيقاً بنفسه آخذاً بحظه مما أباح الله للمسلمين من طيبات الحياة، يؤدي للدين حقه كأحسن ما يكون أداء الحق،ولكنه بعد ذلك رجل من قريش يعيش كما كانت قريش تحب أن تعيش ، لا يشتد على نفسه في الزهد،ولا يأخذها بالحياة الخشنة. وقد استأذن النبي في لبس الحرير لحكة كان يشكوها ، فأذن له النبي في ذلك . وهمّ أن يستبيح الحرير لنفسه ولبنيه ، ولكن عمر كفّه عن ذلك ، وشق ثوبا من حرير كان عبد الرحمن قد ألبسه لأحد بنيه كما قدمنا . ثم كان عبد الرحمن كغيره من معاصريه كثير الزواج كثير الولد . وقد أحصى له ابن سعد بضع عشرة امرأة غير أمهات الأولاد ، وكلهن ولدن له البنين والبنات ، ومات وعنده اربع نسوة أو ثلاث نسوة ، على اختلاف في ذلك بين الرواة .

ولكن عبد الرحمن لم يكن يتزوج في حي بعينه أو حيين أو ثلاثة من أحياء العرب، وإنما كان يُصهر إلى كثير من القبائل ؛ فهو قد أصهر إلى غير حي من أحياء قريش ، وأصهر إلى غير حي من أحياء اليمن ، وأصهر إلى ربيعة في غير حي من أحيائها. فكان له من البنين والبنات من يعدّ أخواله في قريش ، ومن يعد أخواله في الأنصار ، ومن يعد أخواله في اليمانية المقيمة باليمن ، ومن يعد أخواله في اليمانية المقيمة بين الشام والعراق ، ومن يعد أخواله في تميم من مضر أو في بكر وتغلب من ربيعة .

ونظرة يسيرة إلى انساب النساء اللاتي تزوجن عبد الرحمن بن عوف ، كما رواها ابن سعد ، تكفي لإثبات أن عبد الرحمن قد أصهر الى أكثر أحياء العرب قوة وأشدها بأساً . فكان خليقاً لو نهض بالأمر بعد عمر أن يجمع حوله عصبيات كثيرة ، وأن يلائم بين هذه العصبيات ملاءمة حسنة ، ولعله أن يقرب منها بين ما كان متباعداً أشد التباعد. وكان خليقاً كذلك لو نهض بالأمر بعد عمر أن يقوم على الأموال العامة، كما كان يقوم على أمواله الخاصة ، فيدبرها ويثمرها ولا يعطي منها إلا بالحق . وقد وضعه عمر في الشورى ، وميزه من سائر أصحابه حين قال : « إن كان ثلاثة وثلاثة فاختاروا صفّ عبد الرحمن بن عوف » . ويوشك عمر أن يكون قد جعل عبدالرحمن رئيساً لمجلس الشورى ما دام قد جعل رأيه مرجحاً عند تساوي الأصوات . وكان

بين أصحاب النبي من كان يرشحه للخلافة، ويرى في استخلافه اتقاء لكثير من الشر، وتجافياً للفرقة التي كانت تنتظر أن ينهض بالأمر علي أو عثمان. ويظهر أن بين أعضاء الشورى أنفسهم من لم يكن يرى باستخلافه بأساً . ولو قد خير لآثره على عثمان لمكان عثمان من بني أمية .

ولو خير عثمان لآثره على عليّ لمكان علي من بني هاشم . وكان بين عبد الرحمن وعثمان صهر ؛ فهو تزوج أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أخت الوليد بن عقبة ، ثم كان بين عبد الرحمن وبين العبشميين صهر ؛ فهو قد أصهر إلى عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ؛ فكانت عنده إذن خالة معاوية. ثم أصهر إلى شيبة بن ربيعة بن عبد شمس . وهو قد أصهر كذلك إلى الأنصار . وأمه من بني أمية ، وهو من بني زهرة ، فكان خليقاً أن يجمع عصبية قريش والأنصار جميعاً إلى عصبيات القبائل الأخرى التي أصهر إليها . ولكنه على ذلك لم يرشح نفسه للخلافة ، ولم يسمع لمن ألح عليه في هذا الترشيح ، وإنما أسرع فأخرج نفسه من الأمر إخراجاً ، وأراد أن يكون حكماً بين المتنافسين . وقد قبل المتنافسون حكمه بعد أن أخذ عليه عليّ موثقاً من الله ليلزمن الحق غير محارب لصهر أو قرابة . فأعطى هذا الموثق عن رضا ، واستقبل الأمر على النحو الذي وصفنا فيما مضى . وكان يقول : « لإن توضع حربة على حلقي حتى تنفذ من الجانب الآخر أحب إليّ من أن ألي هذا الأمر » .

فهو إذن قد رفع نفسه عن الحكم وما يحيط به من الظنة والشبهات ، وأعفى نفسه من التبعات ، وآثر أن يكون رجلاً من الناس ، يفرغ لدينه ، ويفرغ لدنياه ، على أن تكون دنياه سبيله إلى دينه . وكان من الطبيعي بعد أن أصدر حكمه ورشح عثمان وأخذ له البيعة من أعضاء الشورى ، وحمل الناس على مبايعته أن يكون رقيباً عليه من قريب .

ولم يكن عبد الرحمن في أول خلافة عثمان معارضاً له ، وإنما كان يؤيده ويرقبه ، حتى تكلم الناس فسمع لهم وتشدد في مراقبته . ونظر الناس ذات يوم فإذا هو أحد المعارضين لعثمان في أمور الدين والسياسة جميعاً . ثم نظروا ذات يوم فإذا هو لا يقف عند المعارضة ، وإنما يقاطع عثمان فلا يزوره ولا يكلمه . وقد يغلو بعض الرواة فيزعم أنه ندم على توليته ، وأنه قال لعليّ ذات يوم : إن شئت فخذ سيفك وآخذ سيفي حتى نجاهده ، وأنه قال لبعض من حضره قبيل موته : عاجلوه قبل أن يسرف عليكم وعلى نفسه . ولكن هذه الأخبار خليقة ألا تخلو من التكلف . والشيء الذي ليس فيه

شك هو أنه عارض عثمان في أمور الدين حين أتم الصلاة حيث كان النبي وصاحباه يقصرونها ، وعارضه فيما أعطى لقرابته من الأموال .

١٥

وكان سعد بن أبي وقاص زهرياً كعبد الرحمن ، وقال النبي عنه ذات يوم وقد رآه مقبلاً : هذا خالي . وقد قدّمنا أن سعداً سبق إلى الإسلام فيمن سبق ، حتى كان يقول : لقد رأيتني وإني لثلث الإسلام ، وحتى كان يقول : لقد أسلمت وما فرض الله الصلوات . وقد أبلى فأحسن البلاء كغيره من أصحابه ، وكان أول من رمى بسهم في سبيل الله . وفداه النبي بأبويه جميعاً يوم أحد . وكان يتحدث بقصة أخيه عمير بن أبي وقاص الذي هاجر إلى المدينة غلاماً حدثاً ، فلما استعرض النبي الخارجين معه إلى بدر رأى سعد أخاه عميراً يستخفي . فسأله عن ذلك فقال : أخشى أن يراني رسول الله فيستصغرني فيردني ، وأنا أحب الخروج لعلي أن استشهد . وقد رآه النبي فاستصغره فردّه . وبكى الغلام فأذن له النبي في الخروج ، وكان سعد يعقد له حمائل سيفه لصغره ، وقد رزق الشهادة التي طلبها ، فقتل فيمن قتل من المسلمين يوم بدر .

وكان سعد أثيراً عند رسول الله ، مرض بمكة بعد الفتح فعاده النبي ودعا الله أن يشفيه حتى لا يموت في الأرض التي هاجر منها ، وتحدث إليه في مرضه ذاك بحديث الوصية الذي يأمر بألا يوصي الإنسان بأكثر من ثلث ماله . وتركه في مكة وخلف عليه رجلا من أصحابه وقال له : إن مات سعد بعدي فادفنه ها هنا ، وأشار إلى طريق المدينة . وقال لسعد : « إني لأرجو أن يرفعك الله فينتفع بك قوماً ويضر آخرين » . فهو بطل القادسية ويقال إن النبي تمنى على الله أن يستجيب لسعد إذا دعا . وقد استجاب الله دعاء النبي ، فبرىء سعد من مرضه ذاك ، وعاش حتى نكأ الله به قوماً ونفع آخرين ، فهو بطل القادسية ، وهازم جند كسرى .

وقد جعله عمر بين الستة الذين جعل إليهم الشورى في أمر الخلافة ؛ فكان مرشحاً للخلافة إذن ولكن عبد الرحمن خلعه منها كما خلع نفسه .

وقد كانت لسعد زوجات كثيرات ، ولكنهن كن متفرقات في قبائل العرب . ولم يتزوج من قريش إلا امرأة واحدة زهرية مثله . وكأن قوماً كانوا يشكّون في

نسبه ويؤذونه بذلك ، حتى أقبل ذات يوم على النبي فقال يا رسول الله : من أنا ؟ فقال له النبي : « أنت سعد بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة ، من قال غير ذلك فعليه لعنة الله » . وهذا فيما أرجح هو الذي قلل إصهاره إلى قريش . ويزعم بعض الرواة أن سعداً كان هواه مع عليّ أثناء الشورى ، وأنه تحدث في ذلك إلى عبد الرحمن . ولكن هذا قد يصح وقد لا يصح ، وقد أوصى عمر الخليفة من بعده إن ُصرفت الخلافة عن سعد أن يوليه ؛ فإنه لم يعزله عن خيانة . وقد أنفذ عثمان هذه الوصية ، فولى سعداً الكوفة عاماً وبعض عام ، ثم عزله وولى الوليد . وقد قدمنا رأينا فيما يروى من القصة التي دعت إلى عزل سعد . ونضيف إلى ما قدمنا أن الخلاف بين سعد وابن مسعود ، على ما كان سعد قد اقترض من بيت المال ، يروي أنه وقع بين الوليد بن عقبة وبين عبد الله بن مسعود . فأكبر الظن أن الذين أضافوا هذه القصة إلى سعد قد خلطوا بين الرجلين عن عمد أو عن خطأ . ومهما يكن من شيء فقد كان سعد وفياً ببيعته لعثمان . وسواء أغضب لعزله إياه أم لم يغضب فلم يكن عنيفاً في معارضته، بل لم يكد يشارك في هذه المعارضة إلا حين كانت رفيقة لا تتجاوز النصح والأمر بالمعروف . فلما خرجت المعارضة عن طورها وقاربت أن تكون ثورة ، كفّ سعد ولزم الحياد ، ولم يشارك في الفتنة ولا في أعقابها . وكان إذا كلم في ذلك وسئل لم لا تقاتل ؟ قال : حتى تأتوني بسيف ينطق فيقول هذا مؤمن وهذا كافر . وكان سعداً تحرج من أن يظهر النكير على عثمان فيتهم بأنه إنما يفعل ذلك لأنه ينقم من عثمان عزله عن الكوفة .

ومهما يكن من شيء فقد لزم سعد السيرة التي سارها أيام النبي ، فجاهد ما عرف الجهاد مع النبي وأيام عمر ، فلما أشكل الأمر عليه اعتزل وترك الناس وما هم فيه . ولما مات سنة خمسين أو سنة خمس وخمسين، طلب أزواج النبي أن تمر جنازته عليهن، فمُرّ به في المسجد وصلين عليه . ولم يترك سعد ثروة ضخمة حين مات بالقياس إلى أصحابه ، وإنما ترك بين مائتي الألف وثلاثمائة الألف . وليس هذا بالشيء ذي الخطر كما رأيت وكما سترى .

١٦

كانت قرابة الزبير بن العوام قريبة من النبي . فهو ابن عمته صفية بنت عبد

المطلب ؛ ومن خديجة أم المؤمنين ، فهو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، فخديجة عمته .. فكان هو ابن عمة رسول الله ، وكانت فاطمة بنت عمته . وقرابة الزبير من ابي بكر قريبة ايضاً ، فهو قد أصهر اليه فتزوج ابنته ذات النطاقين ، فزاد ذلك قرابته من النبي ، أصبح سلفه ، فعائشة أم المؤمنين وأسماء بنت أبي بكر أختان . وبذلك كان الزبير يوشك أن يكون من آل بيت النبي ، وكان من الغريب أن يقول له عثمان ، وقد اختصما ذات يوم ، فقال الزبير : أنا ابن صفية ، فقال عثمان : هي أدنتك من الظل ، ولولاها لكنت ضاحياً . فهي ادنته من الظل ما في ذلك شك ، ولكنه لولاها لم يكن ضاحياً .

وقد عرف الزبير منذ طفولته بالقوة والبأس والاقدام ، ثم كان من السابقين الى الاسلام ، وشهد بدراً ثاني فارسين اثنين شهدا هذه الموقعة ، ثم هو شهد المشاهد كلها مع النبي . وكان النبي يدعوه حواريه ، فدعاه المسلمون منذ ذلك الوقت حواري رسول الله .

ولسنا نعرف كيف بدأت ثروة الزبير ، ولكنا نعلم أنها لم تكن محدثة . فقد رأيت أنه كان أحد فارسين اثنين في غزوة بدر ، وقد لزم المدينة بعد وفاة النبي ، فلم يخرج منها أيام أبي بكر وعمر الا بإذن من عمر أو للحج . وقد وضعه عمر في الشورى فكان مرشحاً للخلافة ، ولم يظهر ميلا الى أحد المتنافسين عليّ وعثمان ، وانما أسلم الامر الى عبدالرحمن في غير جهد . وقد كان عثمان يؤثره بعد ان استخلف . ويروي ابن سعد أنه أعطاه ستمائة الف ، فجعل يسأل عن أحسن المال ، فقيل له الأرض ، فاشترى أرضاً في العراق في المصرين جميعاً ، واشترى أرضاً بمصر . ويقول ابن سعد إنه لم يكن يحب ان يودع الناس عنده الودائع ، وإنما كان اذا أراد احد ان يودعه مالاً قال : انما هو قرض . كان يخاف على الوديعة ان تضيع من جهة ، ويستبيح لنفسه بذلك استثمار هذه القروض من جهة أخرى . ولذلك عظمت ثروته حتى أصبحت مضرباً للأمثال ، وعظم دينه كذلك . وأوصى ابنه عبد الله يوم الجمل ان يؤدي عنه دينه من ماله ؛ فإذا فرغ من ذلك أخذ ثلث الميراث لولده ، ثم قسم سائره بين الورثة ، وتقدّم اليه إن تعسر عليه أداء شيء من الدين ان يستعين الله . فكان عبد الله بن الزبير يستعين الله مولى الزبير كلما وجد شيئاً من مشقة في أداء دين ابيه .

وهمّ كثير من الدائنين ان يتركوا دينهم للورثة ، ولكن عبد الله أبى وأدى الدين كله الى أصحابه ، وكان يبلغ مليونين ونصف مليون من الدراهم . والناس يختلفون في

مقدار ما قسم على الورثة من تركة الزبير بعد أن لبث عبد الله اربعة اعوام- ينادي في الناس بالموسم من كان له عند الزبير دين فليرفعه الينا : فالمقللون يقولون إن الورثـــة اقتسموا فيما بينهم خمسة وثلاثين مليوناً ، والمكثرون يقولون إنهم اقتسموا اثنين وخمسين مليونـاً ، والمعتدلون يقولون انهم اقتسموا أربعين مليوناً . ولا غرابة في ذلك ؛ فقد كانت للزبير خططٌ في الفسطاط وخطط في الإسكندرية وخطط في البصرة ، وخطط في الكوفة، وإحدى عشرة داراً في المدينة، وكانت له بعد ذلك غلات وعروض أخرى.

وواضح أن الزبـــير لم يشتد في معارضة عثمان أول الأمر ؛ فقد كان عثمان يؤثره ويعطيه على خصومة كانت بينهما وقتاً ما . وكان عثمان يحب عبدالله بن الزبير ويؤثره ، وقد أمّره على الدار حين كان محاصراً ، وأعطاه وصيته ليؤديها الى ابيه ، وكان عثمان قد أوصى الى الزبير . وإنما شارك الزبير اصحاب النبي فيما كانوا يوجهون الى عثمان من نقد ويسوقون اليه من نصح ، ولا نعرف أنه اشتد عليه إلا أن يكون في ذلك شريكاً لغيره من اصحاب النبي .

- ١٧ -

وكان طلحة بن عبيد الله تيمياً من رهط ابي بكر ، وكان في جاهليته تاجراً ، وكان صديقاً لعثمان، وكانا قد خرجا معاً في التجارة الى الشام في العام الذي أسلما فيه . وقد كان طلحة من السابقين الأولين كأصحابه ، ولم يصرفه الإسلام عن تجارته ، وإنما كان يخرج الى الشام بها . وقد لقي النبي في طريقه الى المدينة مهاجراً ومعه ابو بكر ، وكان هو عائداً من الشام ، فأهدى اليهما ، وأنبأهمـا بان المسلمين في المدينة يستبطئون النبي. فأغذ رسول الله السير ليخفف عليهم من هذا الانتظار . ومضى طلحة الى مكة، فأصلح أمره فيها ، ثم لحق برسول الله في المدينة ، فأقام معه بين اصحابه المهاجرين .

وقـد شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع النبي ، وأبلى فأحسن البلاء ، ودافع في أحد عن النبي دفاعاً حسناً ، وتلقى عنه سهماً بيده فأصاب إصبعاً من أصابعه فشلّت، وأصابته في أحد جراحات في جسمه كله ، حتى كان النبي يقول : « من سره ان يرى رجلاً يمشي على الأرض بعد ان قضى نحبه فلينظر الى طلحة بن عبيد الله » . يريد أن طلحة أشرف على الموت يوم احد فكان حكمه حكم الشهداء . ويشير في أكبر الظن الى

الآية الكريمة : « منَ المؤمنين رجالٌ صَدقوا ما عاهدوا اللهَ عليه فمنهم مَنْ قضى نحبه ومنهم مَنْ ينتظر وما بَدلوا تبديلاً » . فكأن النبي أراد ان يلحق طلحة بمن استشهد من المسلمين يوم أحد ومنهم حمزة ومصعب بن عمير .

وقد مضى طلحة في تجارته ، لم يصرفه عنها إلا ما كان يكون من شهوده الغزو مع النبي . وأقام في المدينة ايام ابي بكر وعمر كما اقام فيها غيره من اعلام المهاجرين . ووضعه عمر في الشورى ولكنه لم يشهدها ، كان في بعض ماله غائباً عن المدينة حين مات عمر . وقد أرسل أصحابه إليه يتعجلون مقدمه . فأقبل مسرعاً ، ولكنه بلغ المدينة وقد تمت البيعة لعثمان . وقد أغضبه أن يتم أصحاب الشورى أمرهم من دونه ، فجلس في داره وقال : مثلي لا يفتأت عليه . ويقال إن عبد الرحمن بن عوف سعى اليه فطالبه بالبيعة وحذّره عاقبة الخلاف . ويقال إن عثمان نفسه سعى اليه وقال له : إن شئت أن أرد الأمر رددته . قال طلحة : أوَتفعل ؟ قال عثمان : نعم ! قال طلحة : فإني لا أرد الأمر ، فإن شئت بايعتك في مجلسك هذا ، وإن شئت بايعتك في المسجد .

وكان بنو أمية يشفقون أن يتلكأ طلحة ببيعته ، فلما بايع اطمأنوا ، وكان عثمان يصل طلحة فيحسن صلته . قالوا إن طلحة كان اقترض من عثمان خمسين ألفاً . فقال له ذات يوم : قد حضر مالك ، فأرسل من يقبضه . قال عثمان : هو لك معونة على مروءتك . ويقال إن عثمان وصل طلحة بمائتي ألف . وكانت بين طلحة وعثمان مبايعات يبيع طلحة ويشتري عثمان في الحجاز . ويبيع عثمان ويشتري طلحة في العراق . وكان طلحة كثير الصدقة ، لا يحب أن يجتمع في داره المال السائل ، فكان اذا اجتمع في داره منه شيء كثير ، لم يسترح حتى يتخفف منه بتقسيمه في ذوي قرابته من تيم ، وفي ذوي مودته من قريش والأنصار . وكان أسرع الناس معونة لمن يحتاج الى المعونة . وأداء عمن يثقل عليه الدين . وكان أعطى الناس للمال والكسوة ، وأسخاهم بالطعام . وكانت ثروته بعد هذه النفقات الضخمة واسعة جداً ، حتى كان الحديث عن ثرائه وعطائه مصدر اختلاف على سعيد بن العاص في الكوفة كما قدمنا .

وطلحة فيما يقول الرواة أول من استنبت القمح في أرض الحجاز . ولما مات كانت تركته ثلاثين مليوناً من الدراهم ، كان النقد منها مليونين ومائتي الف درهم ومائتي الف دينار ، وكان سائرها عروضاً وعقاراً [1] .

---

(١) طبقات ابن سعد الجزء الثالث طبع لندن ص ١٥٨ القسم الاول .

وكان طلحة كما رأيت معارضاً لعثمان منذ اليوم الأول لخلافته ؛ لأن البيعة تمت وهو غائب ، ولكن عثمان ترضاه فاستقامت الأمور بينهما ، ثم وصله فازدادت الأمور استقامة ، فلما ظهر الخلاف على عثمان كان طلحة من المسرعين اليه ، فيما يقول الرواة . ولما اشتد الخلاف كان طلحة من المؤلبين . ولما حوصر عثمان كان طلحة من المشاركين في الحصار ، ولما قتل عثمان كان طلحة من الذين عجبوا لحزن عليّ على مقتل عثمان . ولما بويع عليّ كان طلحة من المبايعين مع الزبير ، ثم خرج مع الزبير مطالباً بدم عثمان، ناقضاً بيعته لعليّ ، وقد قتل في يوم الجمل ، قتله فيما يقول الرواة مروان بن الحكم ، رماه بسهم فأصابه ، فقال مروان : والله لا طالبت بعده بدم عثمان أبداً . كان مروان يرى أن طلحة أشد المحرضين على قتل عثمان . ولما أصيب طلحة وجعل دمه ينزف قال: هذا سهم أرسله الله ! اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى . فكان طلحة إذن يمثل نوعاً خاصاً من المعارضة ، رضي ما أتاح الرضى له الثراء والمكانة ، فلما طمع في أكثر من ذلك عارض حتى أهلك وهلك .

- ١٨ -

وقرابة عليّ بن أبي طالب من النبي أظهر من أن نبينها، ومكانته عنده ممتازة ما في ذلك شك ، فعطف أبي طالب على النبي معروف ، وقيامه دونه يحميه ويحمي دينه من قريش مستفيض . وكان أبو طالب قد كفل النبي في صباه ، وكان النبي قد كفل علياً في صباه حين كثر الولد على أبي طالب وضاقت ذات يده . وبُعث النبي وعلي عنده صبي ، فأسلم عليّ وهو ابن تسع سنين أو ابن إحدى عشرة سنة . وظل بعد إسلامه في حجر النبي يعيش بينه وبين خديجة أم المؤمنين . وهو لم يعقل الأوثان قط ، دخل في الإسلام قبل أن يعقلها ، فامتاز بين السابقين الأولين بأنه نشأ نشأة إسلامية خالصة ، وامتاز كذلك بأنه نشأ في منزل الوحي بأدق معاني هذه الكلمة وأضيقها . ثم استخلفه النبي حين هاجر إلى المدينة على ما كان عنده من الودائع ليردها إلى أصحابها ، فأقام في مكة ثلاثة أيام ، ثم لحق بالنبي فأدركه قبل أن يتحول عن قباء .

ويقول رواة السيرة إنه نام في فراش النبي ليلة ائتمرت قريش به لتقتله . ولما

هاجر إلى المدينة وآخى النبي بين المهاجرين ثم بينهم وبين الأنصار آخى بين عليّ وبين نفسه ، ثم آخى بين عليّ وبين سهل بن حنيف .

فعلي إذن هو ابن عم النبي في النسب وربيبه ، ثم بعد ذلك أخوه في الهجرة . وقد زوجه النبي ابنته فاطمة ، فكان منها عقبه إلى الآن . وكان عليّ صاحب لواء النبي في مشاهده كلها أثناء القتال . وكان شجاعاً مقداماً جريئاً قوياً قوة غير معهودة في الرجال . ولما خرج النبي لغزوة تبوك استخلفه في أهله ، فكره على ذلك أو خاض فيه الناس ، فقال النبي لعلي : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ! ألا إنه لا نبي بعدي » . ومات النبي ولم يبين عن أمر الخلافة بشيء من نص صريح ، وإنما قال أثناء مرضه : « مروا أبا بكر فليصلّ بالناس » . فقال الذين اختاروا أبا بكر للخلافة : رضيه رسول الله لديننا أفلا نرضاه نحن لدنيانا ! وما أريد أن أدخل فيما أثير من الخلاف بين الشيعة وخصومهم حول بيعة أبي بكر وعمر ؛ وإنما أسجل أن علياً بايع هذين الخليفتين مخلصاً ، ونصح لهما صادقاً ، وأشار عليهما كلما احتاجا إلى مشورته . ولو قد قال المسلمون بعد وفاة النبي : إن علياً كان أقرب الناس إليه . وكان ربيبه وكان خليفته على ودائعه ، وكان أخاه بحكم تلك المؤاخاة ، وكان ختنه وأبا عَقِبه ، وكان صاحب لوائه ، وكان خليفته في أهله ، وكانت منزلته منه بمنزلة هارون من موسى بنص الحديث عن النبي نفسه — لو قد قال المسلمون هذا كله واختاروا علياً بحكم هذا كله للخلافة لما أبعدوا ولا انحرفوا . ويقال : إن العباس بن عبد المطلب همّ أن يبايع علياً ، فأبى عليّ وكره الفرقة . ومضت الأمور على هذا النحو أثناء خلافة الراشدين أبي بكر وعمر . ثم وضعه عمر في الشورى ولم يعهد إليه خاصة ، مع أنه قال : لو ولّوه لحملهم على الجادّة .

ولم يعهد عمر إلى عليّ لخصلتين : إحداهما أنه لم يرد أن يتحمل أمر المسلمين حياً وميتاً كما قال . والأخرى أن الكثرة من قريش كانت تصرف هذا الأمر عن بني هاشم مخافة أن يبقى فيهم وراثة ، فلا يصيب حياً من أحيائهم إلى آخر الدهر . فكان بنو هاشم قد أبعدوا عن هذا الأمر عمداً ، أبعدتهم عنه مخافة قريش أن تظل لبني هاشم رعية ، وألا تكون الخلافة في حيّ آخر من أحيائها .

ولم يعهد عمر إلى عثمان لخصلتين أيضاً : إحداهما الإشفاق من أن يحمل أمر المسلمين حيّاً وميتاً . والأخرى خوفه أن يستأثر بنو أمية بالخلافة دون غيرهم من أحياء قريش . وقيل إن العباس أشار على عليّ ألا يدخل في الشورى ،

ضمن له إن فعل ألا يختلف عليه الناس . ولكن علياً لم يقبل هذه المشورة ، وقبل عهد عمر كما قبله من المسلمين ، فوفى ببيعته لعمر حياً وميتاً . وكان كل شيء يرشح علياً للخلافة بعد موت عمر : قرابته من النبي ، وسابقته في الإسلام ، ومكانته بين المسلمين ، وحسن بلائه في سبيل الله ، وسيرته التي لم تعرف العوج قط ، وشدته في الدين ، وفقهه بالكتاب والسنة ، واستقامة رأيه في كل ما عرض من المشكلات .

ولئن تحرّج المسلمون من تقديمه على أبي بكر لأنه كان رفيع المكانة عند النبي وثاني اثنين في الغار ، ولأنه خلف النبي على الصلاة بالناس ، ولئن تحرج المسلمون من تقديمه على عمر لمكانة عمر أولاً ولعهد أبي بكر بالخلافة اليه ثانياً ، لقد كان المسلمون يستطيعون أن يختاروا علياً للخلافة لا يجدون بذلك بأساً ولا يلقون فيه حرجاً . فعمر قد رشحه ، ومكانته ترشحه ، ثم هو كان بعد ذلك من قوة العصبية في العرب عامة وفي قريش خاصة بالمنزلة التي كان فيها عبد الرحمن بن عوف ؛ فهو قد أصهر إلى قريش ، وأصهر إلى ربيعة ، وأصهر إلى اليمانية ، وكان له بنون من نسائه على اختلاف قبائلهن . فلو قد ولي الخلافة قبل أن يفترق الناس لكان خليقاً أن يقارب بين العصبيات المتباعدة ، وأن يجمع الناس على طاعته ، وأن يحملهم على الجادة ، كما قال عمر .

ولكن المسلمين لم يختاروه لأمرين : أحدهما خوف قريش أن تستقر الخلافة في بني هاشم إن صارت إلى أحد منهم . وقد بينت الحوادث أن علياً لم يكن لينقل الخلافة بالوراثة ، فهو قد سار سيرة النبي وسيرة عمر ، فلم يعهد لأحد من بعده .

والآخر أن علياً لم يقبل ما عرضه عليه عبد الرحمن من أن يبايع على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر لا يحيد عن شيء من ذلك ، تحرّج عليّ من أن يعطي هذا العهد مخافة أن تضطره الظروف إلى أن يقصر عن الوفاء به كاملاً ، فعرض أن يبايع على أن يلزم كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين بقدر جهده وطاقته . وكان تحرجه هذا خليقاً أن يعطف الناس عليه ويرغبهم فيه ويدفعهم إلى حسن الظن به وجميل الثقة بإخلاصه ؛ لأنه لم يرد أن يلتزم إلا ما أطاق . ولكن عبد الرحمن كان كغيره من المسلمين دقيق الحس في كل ما يتصل بشؤون الخلافة ، فكأنه أشفق أن يكون تحفظ عليّ مظهراً لشيء من الأثرة . فلما أعطاه عثمان العهد على التزام كتاب الله وسنة رسوله وفعل الشيخين لا يحيد عن شيء من ذلك ، بايعه مطمئناً . وقد أظهرت الحوادث فيما بعد أن عثمان لم يطق ما أطاق الشيخان ، ولم يستطع أن يلزم

سيرتهما . كما أظهرت الحوادث أيضاً أن علياً قد أطاق أثناء خلافته القصيرة ما أطاق الشيخان وأشد مما أطاق الشيخان . فهو قد سار سيرة عمر مع رعية أشد وأعسر وأرغب في الدنيا من رعية عمر . وهو قد سار سيرة عمر مع افتراق الشمل واختلاف الرأي وانشقاق العصا وكثرة الفتن وما استتبعت من الحروب .

وقد عاش عليّ قبل الفتوح كما عاش بعد الفتوح ، عيشة هي إلى الخشونة والشظف أقرب منها إلى الرقة واللين . فلم يتجر ولم يتسع ، وإنما اقتصر على عطائه يعيش منه ويرزق أهله ، ويستثمر فضوله من مال اشتراه بينبع ، ثم لم يزد عليه . ولما مات لم تحص تركته بالألوف فضلاً عن عشراتها أو مئاتها أو الملايين ، وإنما تركته كما قال الحسن ابنه في خطبة له : سبعمائة درهم ، كان يريد أن يشتري بها خادماً .

وكان عليّ أثناء خلافته القصيرة يلبس خشن الثياب والمرقع منها ، ويحمل الدرة ويمشي في الأسواق ، فيعظ أهلها ويؤدبهم كما كان يفعل عمر . فكان هذا دليلاً على أن عمر كان صادق الفراسة حين قال : لو ولّوها الأجلح لحملهم على الجادة .

وواضح أن علياً كان بطبيعة مركزه معارضاً في جعل الخلافة إلى غير بني هاشم ، ولكنه كان ديمقراطياً بأدق المعنى الحديث لهذه الكلمة . فالخلافة لم تكن عنده شيئاً يورث ، وإنما كانت تكليفاً يتلقاه الخليفة من أولى الحل والعقد بين المسلمين عن تراض بينهم وبينه فلما لم يقدم أولو الحل والعقد اليه الخلافة وقدّموها الى أبي بكر ثم إلى عمر ، نزل عند رأيهم وبايع الشيخين ووفى لهما ومحضهما النصح وأخلص لهما في المشورة . وهمّ أن يلفت الناس إلى نفسه بعد موت عمر حين كان أصحاب الشورى يأتمرون ، ولكنه فعل ذلك على استحياء شديد ، ثم لم يلبث أن كف وجعل نفسه كغيره من الناس ، فأخذ موثق عبد الرحمن على النصح للمسلمين وأعطى موثقه على السمع والطاعة . ويقول المتكلفون من الرواة إنه تلكأ في بيعة عثمان حتى حذره عبدالرحمن وأنذره ولكن رواة آخرين يقولون ما هو أشبه بسيرة عليّ وأشد ملاءمة لخلقه ، يقولون : إنه حين أبى أن يعطي عبد الرحمن العهد الذي طلبه ، وحين أعطى عثمان هذا العهد ، قال لعبد الرحمن : قد أعطاك أبو عبد الله الرضا فبايعه . ولو قد تلكأ عليّ بالبيعة ولم يعطها إلا كارهاً لكان خليقاً أن يلزم داره وأن يقاطع عثمان وأهل الشورى وقتاً يقصر أو يطول . ولكنه لم يلزم داره ، وإنما شهد عثمان على أمر بيعته ، وأشار عليه في قصة عبيد الله بن عمر بأن يقتص منه لمقتل الهرمزان .

كان علي معارضاً للخلفاء الثلاثة ، ولكن الشيخين لم يأتيا ما يدعو إلى النقد الرفيق فضلاً عن النقد الشديد ، فلم تظهر معارضة عليّ لهما ، وإنما كان ينصح مع الناصحين ويشير مع المشيرين ، ويسمع بعد ذلك ويطيع ، كما كان يفعل غيره من المهاجرين والأنصار . فلما استخلف عثمان اشتدت معارضة عليّ شيئاً ما أثناء الشورى ثم ثاب الى سيرته مع الشيخين . فنصح وأشار وسمع وأطاع . ولكن سياسة عثمان دفعته إلى شيء من الشدة في المعارضة ؛ فهو لم ير ما رآه عثمان من العفو عن عبيد الله بن عمر . ثم لم تلبث الحوادث ان دفعته إلى معارضة جعلت شدتها تزداد شيئاً فشيئاً ، ولكنها على كل حال لم تخرج قط عن طور المعارضة الرشيدة التي تلين وتعنف ، ولكنها تلزم حدود النصح والمشورة والتخويف من عقاب الله . وما زالت الأحداث تشتد وتتفاقم حتى اضطر عليٌّ ذات يوم أن يواجه عثمان بشيء من المقاومة على ملأ من الناس ، كان ذلك حين اعلن عثمان في غير تحفظ أنه سيأخذ من هذا المال حاجته وإن رغمت أنوف الكارهين لذلك .

فقال له عليٌّ إذن تُمنع من ذلك . وعلى كل حال لم يخرج عليّ قط في سيرته مع عثمان عن النصح والمشورة والنقد الشديد أحياناً . وهو كان يتوسط بين عثمان وبين الناقمين منه والخارجين عليه ، يبصر عثمان بالحق ، ويرد الناس عن الفتنة . حتى إذا استيأس من مقاومة عثمان لأهل بيته ، لزم داره ولم يتوسط بينه وبين الناس . ثم هو مع ذلك ظل باراً بعثمان أثناء الحصار ، فأنفذ إليه الماء وأرسل ابنيه لمقاومة المحاصرين. وما ينكر أحد أن التنافس بين عليّ وعثمان قد اتصل أثناء خلافة عثمان كلها. ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أن قرابة عثمان ما زالت به حتى أخافته من عليّ الى أبعد حد ممكن . ولو قد سار عثمان سيرة عمر ، ولو لم تدخل قرابة عثمان بينه وبين الناس، لما كانت الفتنة ، ولما احتجنا إلى إملاء هذا الكتاب .

والدليل على أن قرابة عثمان هي التي أفسدت الأمر بينه وبين عليّ حتى همّ ذات يوم أن يبطش به ما رواه البلاذري في «أنساب الأشراف» بإسناده من أن العباس توسط بينهما ، فقال لعثمان : أذكرك الله في أمر ابن عمك وابن خالك وصهرك وصاحبك مع رسول الله (صلعم) ؟ فقد بلغني أنك تريد أن تقوم به وبأصحابه . فقال : « أول ما أجيبك به أني قد شفّعتك . إن علياً لو شاء لم يكن أحد عندي إلا دونه ، ولكنه أبى إلا رأيه» . ثم قال لعليّ مثل قوله لعثمان ، فقال عليّ : « لو أمرني عثمان أن

أخرج من داري لخرجت»[1] .

ولكن هذه الوساطة لم تغن شيئاً ؛ فقد مضى عثمان في سياسته ، ومضى عليّ في معارضته ، ومضت قرابة عثمان في إفساد الأمر بينهما ، حتى اشتد الحرج . فروى البلاذري بإسناده أيضاً عن عبدالله بن عباس : «أن عثمان شكا علياً إلى العباس،فقال له : يا خال إن علياً قطع رحمي وألب الناس ابنُك. والله لئن كنتم يا بني عبدالمطلب أقررتم هذا الأمر في أيدي بني تيم وعديّ ، فبنو عبد مناف أحق ألا تنازعوهم فيه ولا تحسدوهم عليه . قال عبدالله بن العباس: فأطرق أبي طويلاً ، ثم قال : يا ابن اخت لئن كنت لا تحمد علياً فما يحمدك له ، وإن حقك في القرابة والإمامة للحق الذي لا يُدفع ولا يُجحد . فلو رقيت فيما تطأطأ أو تطأطأت فيما رقى تقاربتما ، وكان ذلك أوصل وأجمل . قال : قد صيرت الأمر في ذلك إليك ، فقرب الأمر بيننا . قال : فلما خرجنا من عنده دخل عليه مروان فأزاله عن رأيه . فما لبثنا أن جاء رسول عثمان بالرجوع إليه . فلما رجع قال : يا خال أحب أن تؤخر النظر في الأمر الذي ألقيت إليك حتى أرى من رأيي . فخرج أبي من عنده ثم التفت إليّ فقال : يا بنيّ ليس إلى هذا الرجل من أمره شيء ، ثم قال : اللهم اسبق بي الفتن ولا تُبقني إلى ما لا خير لي في البقاء إليه . فما كانت جمعة حتى هلك»[2] .

فقد سفر العباس إذن سفارة الخير بين الرجلين فوفق للنجح . وهمّ عثمان أن يسفر للمرة الثانية ، وكان خليقاً أن يصيب من النجح ما أصاب في المرة الأولى ، ولكن مروان صرفه عن هذا الرأي ، فجعلت الأمور تمضي من فساد إلى فساد حتى كانت الفتنة التي توقعها العباس .

وقد رأيت في هذه الفصول الخمسة الأخيرة أطرافاً من سيرة أصحاب الشورى ومن موقفهم بإزاء عثمان بعد استخلافه . ولعل خير مما نختم به هذه الفصول ما يروى من رأي عمر في هؤلاء النفر . وسواء أصحت بذلك الرواية عن عمر أم لم تصح، فإن هذا الرأي يصور ما استقر في نفوس الناس وفي نفوس الرواة والمؤرخين وأصحاب الحديث خاصة من صوَرهم .

روى البلاذري باسناده عن ابن عباس قال : «قال عمر : لا أدري ما أصنع بأمة

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري صفحة ١٤ طبع القدس .
(٢) أنساب الأشراف للبلاذري صفحة ١٣ – ١٤ طبع القدس .

محمد ، وذلك قبل أن يطعن . فقلت : ولم تهتم وأنت تجد من تستخلفه عليهم ؟ قال : أصاحبكم ؟ (يعني عليّاً) قلت نعم ، هو أهل لها في قرابته برسول الله (صلعم) وصهره وسابقته وبلائه . فقال عمر : إن فيه بطالة وفكاهة . فقلت : فأين أنت من طلحة ؟ قال : فأين الزهو والنخوة ؟ قلت عبد الرحمن بن عوف ؟ قال : هو رجل صالح على ضعف . قلت : فسعد ؟ قال : ذاك صاحب مِقْنَب وقتال ، لا يقوم بقرية لو حمّل أمرها . قلت : فالزبير ؟ قال : لقيس مؤمن الرضا ، كافر الغضب شحيح. إن هذا الأمر لا يصلح إلا لقويّ في غير عنف ، رقيق في غير ضعف ، جواد في غير سرف . قلت : فأين أنت عن عثمان ؟ قال : لو وليها لحمل بني أبي معيط على رقاب الناس ، ولو فعلها لقتلوه(١) » .

١٩

على أن معارضة هؤلاء النفر من أصحاب الشورى لعثمان لم تكن إلا أيسر المعارضة؛ فقد كان له معارضون آخرون من أصحاب النبي بل من أعلام الصحابة ، وكانت بينه وبينهم خطوب حفظها التاريخ، وتكلم فيها الناس فأكثروا الكلام ، واختلفوا فأكثروا الخلاف . من هؤلاء المعارضين عبد الله بن مسعود الهذلي حليف بني زهرة . وكان عبد الله حين لقي النبي لأول مرة غلاماً يرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط . فأتاه النبي وأبو بكر ذات يوم فاستسقياه . قال الغلام : لا أسقيكما ، فإني مؤتمن . قال النبي : فهل عندك شاة لم يَنزُ عليها الفحل ؟ فدفع الغلام إليه شاة ، فمسح النبي على ضرعها فاحتفل ، وجاء أبو بكر بصخرة متقعرة ، فاحتلب منه وشرب وشرب أبو بكر . ثم قال النبي للضرع اقلصْ فعاد كما كان . ومنذ ذلك الوقت أسلم ابن مسعود ولزم النبي . وكان أحفظ أصحابه للقرآن وأرواهم له وأشدهم له إظهاراً بمكة . وهاجر ابن مسعود إلى بلاد الحبشة ثم إلى المدينة ، فآخى النبي بينه وبين الزبير بن العوام من المهاجرين ، وآخى بينه وبين معاذ بن جبل من الأنصار . وشهد ابن مسعود بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع النبي . وهو الذي احتز رأس أبي جهل بعد أن صرع يوم بدر . ولزم ابن مسعود النبي لزوماً متصلا في سفره وإقامته ، حتى كاد يعد من أهل بيته . فكان أثناء

(١) أنساب الأشراف للبلاذري صفحة ١٦ — ١٧ طبع القدس .

إقامة النبي صاحب إذنه ، وكان إذا قام النبي ليخرج ألبسه نعليه ومشى بين يديه بالعصا ، فإذا بلغ مجلسه خلع نعليه فوضعهما في كمه ودفع إليه العصا وقام على إذنه . وكان في السفر صاحب فراش النبي وصاحب وضوئه . وكان النبي يحبه حباً شديداً ويوصي بحبه . ورآه أصحاب النبي يرقى شجرة ذات يوم ، فضحكوا من دقة ساقيه . فقال النبي : « إنهما لأثقل في الميزان يوم القيامة من جبل أحد » . ولما توفي النبي ودفع المسلمون إلى الفتح خرج ابن مسعود غازياً إلى الشام ورابط في حمص ، فنقله عمر إلى الكوفة ، وأوصى أهل الكوفة أن يأخذوا عنه ، وقال : إني آثرتكم به على نفسي .

وقد شهد ابن مسعود مقتل عمر والبيعة لعثمان ، ثم أسرع إلى الكوفة . فلما بلغها خطب الناس فقال : إنا اخترنا خير من بقي ولم نألُ ، ثم حثهم على البيعة لعثمان .

وتولى ابن مسعود بيت المال في الكوفة حين كان سعد بن أبي وقاص والياً عليها . فلما عزل سعد عن الكوفة ظل ابن مسعود على بيت المال صدراً من أيام الوليد بن عقبة . ثم استقرض الوليد شيئاً من بيت المال فأقرضه ابن مسعود ، وكان هذا شيئاً مألوفاً . فلما حل الأجل طلب ابن مسعود إليه الأداء ، فالتوى، فألح عليه . فكتب الوليد إلى عثمان يشكو ابن مسعود . وكتب عثمان إلى ابن مسعود : إنما أنت خازن لنا ، فلا تعرض الوليد فيما أخذ من بيت المال .. فغضب ابن مسعود وألقى مفاتيح بيت المال ، وأقام في داره يعظ الناس ويعلمهم . ومنذ ذلك الوقت بدأت معارضة ابن مسعود لعثمان في أمور السياسة وفي أمور المال ، ثم ازدادت معارضته تعقداً حين وحَّد عثمان المصحف وجعل كتابته إلى نفر من المسلمين عليهم زيد بن ثابت ، وتقدّم في إحراق غيره من المصاحف . فأنكر ابن مسعود وأنكر معه كثير من الناس ما كان من تحريق المصاحف . واشتد نقد ابن مسعود لعثمان ، وكان يخطب الناس يوم الخميس من كلّ أسبوع ، وكان يقول فيما يقول : إن أصدق القول كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد (صلعم) ، وشر الأمور مُحدثاتها ، كل مُحدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار . فكتب الوليد بذلك إلى عثمان وقال : إنه يعيبك ويطعن عليك . فكتب إليه عثمان يأمره بإشخاصه إلى المدينة . فأشخص إليها ، وخرج معه إلى الكوفة مشيعين ومودعين أحسن التشييع وأحرّ التوديع . وبلغ ابن مسعود المدينة ، فدخل المسجد وعثمان يخطب على منبر النبي . فلما رأى مدخله قال : ألا إنه قد قدمت عليكم دويبة سوء من يمشي على طعامه يقيء ويسلح . فقال ابن مسعود : لست كذلك ، ولكني صاحب رسول الله (صلعم) يوم بدر ويوم

بيعة الرضوان . ونادت عائشة أي عثمان أتقول هـذا لصاحب رسول الله (صلعم) ثم أمر عثمان به فأخرج من المسجد إخراجاً عنيفاً ، وضُربت به الأرض فدُقت ضلعه. وقام عليٌّ فلام عثمان في ذلك وقال : تفعل هـذا بصاحب رسول الله (صلعم) عن قول الوليد ! فقال عثمان : ما من قول الوليد فعلت هـذا ، ولكن أرسلت زبيد بن كثير فسمعه يحلّ دمي . قال عليّ : زبيد غير ثقة ، ثم قام على أمر ابن مسعود حتى حُمل إلى منزله .

ولم يقف عثمان عند هذا الحد ، ولكنه قطع عطاء ابن مسعود وحظر عليه الخروج من المدينة . وأحب ابن مسعود أن يخرج غازياً في أهل الشام ، فأبى عليه عثمان ذلك استجابة لقول مروان : إنه أفسد عليك الكوفة ، فلا تدعه يفسد عليك الشام .

وكذلك انتقل ابن مسعود بمعارضته من الكوفة إلى المدينة، ويقول الرواة : إن عثمان عاده ، ثم يختلفون بعد ذلك ، فيقول بعضهم : إن عثمان اعتذر لابن مسعود ، ولم يفترق الرجلان حتى تراضيا واستغفر كل منهما لصاحبه ، ومات ابن مسعود فصلى عليه عثمان . ويقول آخرون : إن ابن مسعود لم يحسن لقاء عثمان حين عاده ، وسأله عثمان ما تشكو ؟ قال ذنوبي . قال عثمان : فما تشتهي ؟ قال ابن مسعود رحمة ربي . قال عثمان : أألتمس لك طبيباً ؟ قال ابن مسعود : الطبيب أمرضني. أردّ عليك عطاءك . قال ابن مسعود حبسته عني حين احتجت إليه، وتردّه إليّ حين لا حاجة لي به ، قال عثمان : يكون لأهلك . قال ابن مسعود : رزقهم على الله . قال عثمان : فاستغفر لي يا أبا عبدالرحمن . قال ابن مسعود : أسأل الله أن يأخذ لي منك بحقي . قالوا وخرج عثمان ، فأوصى ابن مسعود ألاّ يصلي عليه . ومات فلم يؤذن أحد عثمان بموته ، وإنما صلى عمار بن ياسر ثم دفن . ومر عثمان من الغد بقبر جديد ، فسأل عنه فقيل إنه قبر ابن مسعود ، فغضب عثمان وقال سبقتموني به . قال عمار : فانه أوصى ألا تصلي عليه . فأسرّها عثمان في نفسه ، وكانت من أسباب غضبه على عمار .

وظاهر أن هـذا الحديث متكلف مصنوع . والأشبه بسيرة ابن مسعود أنه عفا واستغفر لعثمان . وقد كان الذين يألفون ابن مسعود من أصحاب النبي يقولون إنه كان اشبه الناس هدياً ودلاً وسمتاً برسول الله، وابن مسعود كان من اقرأ الناس للقرآن وأعلمهم به ، وهو من غير شك قرأ قول الله عز وجل : (ولمَنْ صَبر وغفرَ إن ذلك لمن عزْم الأمُور) وهو أحرى أن يكون صبر وغفر وآثر عزم الأمور .

وكان أبو ذرّ رجلاً غفارياً من كنانة ، وكان في جاهليته منقطعاً عن الناس معتزلاً لهم ، كأنه كان يتزهد . وأقبل على مكة ذات يوم وسمع فيها حديث النبي ، فألمّ به وسمع منه وأسلم . ثم لم يطل الإقامة بمكة ، وإنما لحق بالنبي في المدينة بعد أن هاجر اليها . فهو من الذين سبقوا الى الإسلام ، ومن الذين أحبهم النبي وأثنى عليهم أحسن الثناء ؛ فكان يقول : « ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء رجلاً أصدق لهجةً من أبي ذرّ » . وكان يقول : « يبعث ابو ذرّ أمةً وحده » . وكان أبو ذر يروي أن النبي أمره أن يترك المدينة إذا بلغ البناء سلعاً . فأقام في المدينة أيام أبي بكر وعمر وصدراً من خلافة عثمان . ثم رأى البناء يبلغ سلعاً فاستأذن عثمان في أن يهاجر الى الشام غازياً . ويقال إنه خرج الى الشام أيام عمر ، فكان في الديوان هناك ، فكان أبو ذر يقدم حاجاً ، ويلمّ بالمدينة ، ويستأذن عثمان في أن يجاور قبر النبي وقتاً فيأذن له . ونظر ذات يوم فاذا عثمان يعطي مروان بن الحكم مالا كثيراً ، ويعطي أخاه الحارث بن الحكم ثلاثمئة الف درهم ، ويعطي زيد بن ثابت الأنصاري مائة الف درهم ، فينكر ذلك ويستكثره ، ويقول بشّر الكانزين بالنار ، ويتلو قول الله عز وجل : « والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » . وقد شكا مروان بن الحكم الى عثمان مقالة أبي ذر هذه ، فأرسل عثمان اليه مولى له ينهاه . فقال أبو ذر : أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك أمر الله ! لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إلي من أن أرضي عثمان بسخط الله . وقد صبر عليه عثمان ، ولكن أبا ذر ألح في نقده وعيبه ، ودعوته الى القصد والقناعة وتبغيضه جمع المال ، حتى كان يوماً عند عثمان وكعب الأحبار حاضر . فيقول بعض الرواة : إن عثمان سأل : أيحلّ للإمام أن يقترض من بيت المال ، فاذا أيسر ردّ ما اقترض ؟ فقال كعب : لا أرى بذلك بأساً . فغضب أبو ذر وقال لكعب : يا ابن اليهوديين أتعلمنا ديننا . وغضب عثمان لذلك ، فأمر أبا ذر أن يلحق بالشام . ويقول آخرون : ان أبا ذر كان يقول لعثمان : لا ينبغي لمن أدّى الزكاة أن يقنع حتى يطعم الجائع ويعطي السائل ويبرّ الجيران . فقال كعب : من أدّى الفريضة

فحسبه . فغضب أبو ذر وآذى كعباً بلسانه ويده ، فأمره عثمان أن يلحق بمكتبه في الشام .

ومهما يكن من ذلك فقد ذهب أبو ذر الى الشام ، ولكن إقامته هناك لم تطل ، جعل يقول في الشام ما كان يقول في المدينة ، وأنكر على معاوية أشياء : أنكر عليه ان يقول مال الله ، وقال : إنما هو مال المسلمين . وأنكر عليه بناء الخضراء ، وقال: إن كنت إنما بنيتها من مال المسلمين فهي الخيانة ، وإن كنت إنما بنيتها من مالك فإنما هو السرف . وكان يقول : ويلٌ للأغنياء من الفقراء ! وكان الناس يجتمعون اليه ويسمعون منه ويؤمنون له ، حتى خاف معاوية على أهل الشام من دعوة أبي ذر هذه، فكتب يشكو منه الى عثمان . وكتب عثمان أن أشخص إليّ جندباً على أغلظ مركب وأوعره . فأرسله معاوية الى المدينة غير حفيّ به . فلما بلغ المدينة مضى في دعوته ، وجعل يقول : بشر الأغنياء بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . وجعل يطعن على عثمان ، لأنه أطلق يده في مال المسلمين، واستعمل الاحداث ، وولى أبناء الطلقاء ، حتى ضاق به عثمان .

ويختلف الرواة بعد ذلك ، فيقول بعضهم : إن عثمان أمره أن يخرج من المدينة فيقيم حيث شاء ، ولكنه منعه من الذهاب الى الشام او الى أحد المصرين في العراق او الى مكة . فاختار ابو ذر ان يذهب الى الرّبذة ، فأذن له عثمان ، فذهب اليها وأقام فيها حتى مات . ويقول آخرون : إن أبا ذر لم يختر ، وإنما سيّره الى الربذة منفياً ، فأقام فيها حتى مات غريباً ، وحتى عجزت امرأته عن دفنه . فدفنه قوم من أهل العراق أقبلوا حاجّين او معتمرين. فلما بلغ عثمان موته استغفر له وضم اهله الى عياله . وأظهر عمار بن ياسر رقة لأبي ذر وعطفاً عليه، فظن عثمان أنه إنما يلومه على نفيه أبا ذر، فغضب عليه وأمره ان يذهب إلى الربذة منفياً . فلما تهيأ عمار للخروج غضبت بنو مخزوم وكان عمار لهم حليفاً ، وغضب عليّ واقبل على عثمان فلامه في نفي ابي ذر ، وطلب إليه ان يكف عن عمار . وتلاحى الرجلان ، حتى قال عثمان لعليّ : ما انت بأفضل من عمار ، وما أنت اقل استحقاقاً للنفي منه . قال عليّ متحدياً : رُمْ ذلك إن شئت . وقام المهاجرون الى عثمان فلاموه وقالوا: كلما غضبتَ على رجل نفيته . فان هذا امر لا يسوغ . فكفّ عثمان عن عمار وعن عليّ ايضاً .

فكانت معارضة ابي ذرّ كما رأيت تتصل قبل كل شيء بالنظام الاجتماعي. كان يكره ان يغني الغني حتي يكنز الذهب والفضة ، وان يحتاج الفقير حتى لا يجد ما ينفق .

ثم كان يكره ان يعطي الإمام مال المسلمين للأغنياء بغير حقه ، فيزيدهم غنى ويزيد الفقراء فقراً ، ويؤثر المال قوماً لا حاجة بهم إليه ، ويصرف هذا المال عن المصالح العامة . ثم كان لا يرى للخليفة الحق في ان يكفه عن النقد او يعاقبه على المعارضة. وكان يرى ان رضا الله بإسخاط السلطان احبُّ اليه من رضا السلطان بإسخاط الله . ثم تعقدت معارضته فأصبحت سياسية ؛ فلم يكتف بلوم الخليفة والولاة في إنفاقهم أموال المسلمين في غير وجهها ، وإنما جعل ينكر على عثمان سياسته في التولية والعزل وإيثار الأحداث وابناء الطلقاء . وهو على كل هذه المعارضة لم يكن ثائراً ولا نازعاً يداً من طاعة ، ولا ممتنعاً على الخليفة إن عاقبه او اراد به المكروه ، إنما كانت معارضته سلبية تكتفي بالنقد اللاذع والنصح العنيف . وهو من اجل ذلك ذهب إلى الشام حين امر ان يذهب الى الشام ، وسار الى الربذة حين امر أن يسير إلى الربذة ، وقال : امرت ان اطيع وان إمّر علـيّ عبد مجدَّع . وقال للذين طلبوا إليه ان يقودهم الى المقاومة الإيجابية : لو صلبني عثمان على اطول جذع من جذوع النخل لما عصيت .

كان إذن يرى أن في حقه ان يعارض ما وسعته المعارضة ، ولكن في حدود الطاعة وتجنب الخروج على الإمام . .

- ٢١ -

وكان عمار بن ياسر من المستضعفين في مكة . أبوه ياسر يمنيّ حليف لبني مخزوم . وأمه سمية أمة من إمائهم . وقد دخل عمار مع صُهيب على النبي فأسلم بعد نيف وثلاثين رجلاً ، ثم اسلم ابواه ، فأولعت قريش بتعذيبهم جميعاً . وعذّب عمار بالقيظ في رمضاء مكة وحرّق بالنار ، وكانت قريش تعذبه ولا تعفيه من العذاب حتى ينال من النبي ويذكر آلهتها بخير . وشكا ذلك الى النبي فقال له : فإن عادوا فعدْ . وانزل الله في عمار غير آية من القرآن . وكان النبي يرقّ له ولأبويه ، فيمر بهم وهم يعذّبون فيرحمهم ويستغفر لهم ويبشرهم بالجنة ، حتى قال يوماً : «اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلتَ » . وهاجر عمار الى ارض الحبشة ثم الى المدينة . وكان اول ما اتخذ في بيته بمكة مسجداً يصلي فيه . وشارك في بناء مسجد النبي مشاركة حسنة ؛ فكان

المسلمون يحمل كل واحد منهم لبنةً لبنة ، وكان هو يحمل لبنتين لبنتين . وكان في أثناء ذلك يتغنى : « نحن المسلمون نبتني المساجدا » وكان النبي يرجع عليه بعض غنائه فيقول : « المساجدا » . وشارك كذلك في حفر الخندق مشاركة حسنة ، حتى كان النبي يمسح التراب عنه . وشهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع النبي . وقاتل يوم اليمامة أروع قتال . ورآه بعض المسلمين على صخرة ذلك اليوم وهو يصيح : أيها المسلمون أمن الجنة تفرون ! وولاّه عمر بن الخطاب أميراً على الكوفة ، وجعل معه عبد الله بن مسعود على بيت المال وحذيفة بن اليمان على السواد ورزقهم شاة في كل يوم لعمار نصفها ، ولكل من عبد الله وحذيفة ربعها . ولما عزله عمر عن الكوفة سأله : أساءك عزلنا إياك ؟ فقال : أما إذا قلت ذاك فقد ساءني حين استعملتني ، وساءني حين عزلتني .

وقد بايع عمار عثمان مع غيره من المسلمين ، ولكن الأحداث لم تكد تحدث حتى ظهرت معارضته لعثمان عنيفة حادة ، فجعل يلهج به وينكر عليه ، حتى تحدّث الناس ذات يوم بأن عثمان أخذ من جوهر كان في بيت المال فحلى به بعض أهله ، فغضب الناس لذلك ولاموا عثمان فيه حتى أغضبوه . فخطب فقال : « لنأخذنّ حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقوام » . فقال له عليّ : إذن تمنع من ذلك ويحال بينك وبينه . وقال عمار بن ياسر : أشهد الله أن أنفي اول راغم من ذلك . فقال عثمان : أعلي يا ابن المتكاء تجترىء ! خذوه . فأخذ ، ودخل عثمان فدعا به فضربه حتى غشي عليه [1] . ثم اخرج محمولاً حتى أتى به منزل أم سلمة زوج النبي ، وظل مغشياً عليه سائر النهار ففاتته الظهر والعصر والمغرب . فلما افاق توضأ وصلى ، وقال : الحمد لله ! ليست هذه اول مرة أوذينا فيها في الله . ويقال : إن ام سلمة او عائشة اخرجت شيئاً من شعر النبي وثوباً من ثيابه ونعلاً من نعاله وقالت : هذا شعر النبي وثوبه ونعله لم يبلَ وانتم تعطلون سنته . وضجّ الناس ، وخرج عثمان عن طوره حتى لا يدري ما يقول .

واشترك عمار مرة اخرى مع جماعة من اصحاب النبي في كتاب كتبوه إلى عثمان يلومونه ويعظونه ، واقبل عمار بالكتاب فدخل على عثمان وقرأ عليه صدراً منه ، فشتمه عثمان وضربه برجله وهما في الخفّ حتى اصابه الفتق وكان شيخاً ضعيفاً .

وقد قدّمنا ما كان موقف عمار في شأن ابن مسعود وفي شأن ابي ذر ، وما قيل

(١) أنساب الأشراف للبلاذري صفحة ٤٨ طبع القدس .

من ان عثمان همّ بنفيه ثم كفّ عنه . ومهما يكن من شيء فقد كان عمار من اشد الناس معارضة لعثمان واكثرهم تشهيراً به وطعناً عليه ، يشارك في ذلك المعتدلين من اصحاب النبي ، ويشارك فيه الغلاة من الطارئين على المدينة ، ولقي في ذلك ما لقي من الأذى.

هؤلاء هم زعماء المعارضة في المدينة ، وكلهم كما ترى من كبار الصحابة واعلام المهاجرين . فأما الأنصار فلم يكونوا يتصدرون المعارضة لأنهم ابعدوا عن الحكم ، ولكنهم كانوا يشاركون فيها كما تشارك الجماهير . وقد يقول القائل منهم كلمة هنا وهناك ، كالذي رويناه من شعر زياد البياضي في عبيد الله بن عمر . وكانت كثرة الأنصار منحرفة عن عثمان لا يكاد يواليه منهم إلا نفر قليل ، في مقدمتهم زيد بن ثابت وكعب بن مالك وحسان بن ثابت . وكان كبار الأنصار ربما توسطوا بين عثمان ومعارضيه ، كما سترى من توسط محمد بن مسلمة بين عثمان والمصريين . وقد نشأت في المدينة ايام عثمان معارضة شعبية خفية تجري بها الألسنة ولا يعرف صاحبها ، كالذي كان حين وسع عثمان مسجد النبي ، فقال الناس : يوسع مسجد النبي ويترك سنته ، وكالذي كان حين كثر الحمام في المدينة واقبل الشباب على الرمي ، فتقدّم عثمان إلى الناس في ذبح الحمام وولى رجلاً يمنع الرمي بالبندق . فقال الناس : يأمر بذبح الحمام ويؤوي طريدي رسول الله ! يشيرون إلى إيواء عثمان للحكم بن ابي العاص وبنيه .

واظن اني قد صورت لك تصويراً مقارباً حال الناس حين حدثت الأحداث ايام عثمان ، وحال المعارضة في الأمصار وفي المدينة . وأصبح من اليسير الآن أن نستقبل هذه الأحداث نفسها ، فنعرضها ونعرض رأي القدماء فيها ، ونقول بعد ذلك فيها برأينا نحن ، لا نتوخى إلا الحق والقصد والصواب ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً .

- ٢٢ -

ويجب أن نلاحظ قبل كل شيء أن الذين عابوا عثمان ونقدوا سيرته من القدماء لم يعرضوا في عيبهم ونقدهم لسياسته في الفتح . فقد جرت هذه السياسة فيما يظهر على النهج الذي جرت عليه أيام عمر ، والذي أخذ عثمان به قوّاده حين استخلف في الكتاب الذي رويناه من قبل . والذين يتتبعون تاريخ الفتح أيام عثمان يلاحظون أن عماله وقواده قد أبلوا في ذلك أحسن بلاء ، وأغنوا فيه اجمل الغناء . فقد كانت بعض الكور والأقاليم التي فتحت ايام عمر تنتقض أو تحاول الانتقاض ، فلا يلبث العمال والقواد أن يردّوها الى الطاعة بالحرب غالباً ، وبإظهار القوة والبأس أحياناً .

ومات عمر ولم يتم افتتاح بلاد الفرس كلها ، بل مات عمر وما زال كسرى يزدجرد حياً يتنقل بالهزيمة من كورة الى كورة ومن مدينة إلى مدينة ، يجتمع الناس

اليه هنا ويتفرقون عنه هناك ، ولكنه على ذلك قائم يعتز بما ورث من حقه في الملك والسلطان ، وبما له في أعناق المغلوبين والمقاومين والذين لم تصل الحرب الى اقطارهم بعدُ من وجوب الطاعة والاعتراف بحقه . فما زال عمال عثمان وقواده في الثغور التي تلي الكوفة والبصرة يوغلون في الارض ، ويمضون في الفتح ، ويتتبعون أنصاره ويفرقونهم عنه ، ويقتطعون المدن والأقاليم التي كان له عليها سلطان فعلي أو وهمي ، حتى ألجئوه الى أن يمضي هارباً ليس له نصير ولا عون ، وانتهى امره الى أن قتل . وانقرضت بذلك دولة الأكاسرة في أيام عثمان . ثم مضى قواده وعماله حتى بلغوا أرض الترك ، وحتى كانت بينهم وبينهم خطوب ، وفي أيام عثمان فتحت إرمينية. وفي ايامه كذلك امتدّ سلطان الدولة في المغرب ، ففتحت إفريقية ، وكانت الغارة على الأندلس . وفي ايامه أقدم معاوية وعبدالله بن سعد بن أبي سرح على ما لم يكن من الممكن أن يقدم عليه وال او عامل في ايام عمر ، فغزَوَا الروم من قبل البحر حتى أخذت منهم قبرس ، وحتى بلغ اسطول المسلمين مضيق القسطنطينية ، وحتى انتصر عبدالله بن سعد انتصاراً حاسماً على أسطول الروم في واقعة ذات الصواري .

فقد أتيح لعثمان من القوة العسكرية مثل ما أتيح لعمر ، وأتيح له من التوسع في الفتح والقضاء على دولة الأكاسرة وإذلال الروم في البر والبحر ما لم يتح لعمر ، ولكن هذا نفسه كان مصدراً من مصادر الفتنة والخلاف . فقد كان الفتح يتيح للمسلمين من الغنائم والفيء شيئاً كثيراً ، وكان تصرف عثمان في بعض تلك الغنائم وهذا الفيء ربما أحفظ الجند كالذي كان من أمر عبدالله بن سعد ومروان بن الحكم في فتح إفريقية ، وربما أحفظ المهاجرين والانصار كالذي كان من تصرف عثمان في بعض ما كان في بيت المال من الجوهر والحلي ، حتى لامه المسلمون وأغضبوه ، فخطب خطبته تلك التي انتهت بضرب عمار بن ياسر . ولكن الشيء الذي ليس فيه شك هو ان سلطان الدولة لم يضعف من الناحية الخارجية ، وإنما ازداد قوة وبأساً إلى بأس ايام عثمان .

ويجب ان نلاحظ بعد ذلك ان الناس وقفوا من الاحداث التي حدثت أيام عثمان ومن نصيب عثمان منها مواقف متباينة أشد التباين : فقوم أراحوا انفسهم جملة ، وقالوا إن اكثر هذه الاحداث مكذوب مصنوع لم يصح وقوعه ، وإنما تكلفه المتكلفون ، اراد بعضهم به الكيد للاسلام ، ودفع بعضهم اليه بما كان من الخصومة العنيفة بين الاحزاب . وهم من اجل ذلك يرفضون اكثر الاحداث ، ويرون فيما يقبلون منها انها امور ليست بذات خطر ، ذهب فيها الأمام مذهب الاجتهاد ، فإن

اصاب فله أجران ، وإن اخطأ فله اجر واحد ، وهو على كل حال لم يرد الا الخير ، ولم يكن يريد ولا يمكن ان يريد الا الخير . وهم يرون مثل هذا الرأي فيما يقبلون من الروايات التي تتحدث ببعض ما كان بين عثمان واصحاب النبي من الخصومة . اكثر هذه الروايات عندهم مكذوب مصنوع ، وقليل منها يُقبلُ على ما مضى من التأول ، أي على أنه كان نتيجة الاجتهاد ، ومن اجتهد فأصاب فله أجران ؛ ومن اجتهد فأخطأ فله اجر واحد .

وأكثر الذين يذهبون هذا المذهب إنما يدفعون إليه لأنهم يقدسون ذلك العصر من عصور الاسلام ، ويكرهون ان يحملوا على أصحاب النبي ما يحمل عادة على الذين يستقبلون أمور الدنيا بما في نفوسهم من استعداد للمنافسة والاصطراع حول أعراض وأغراض لا تلائم قوماً صحبوا رسول الله ، وأبلوا في سبيل الله أحسن البلاء ، وأسسوا الدولة بما أنفقوا في ذلك من دمائهم وأموالهم وجهودهم . فهم يخطئون ويصيبون ، ولكنهم يجتهدون دائماً ، ويسرعون الى الخير دائماً ، فلا يمكن أن يتورطوا في الكبائر ولا أن يحدثوا إلا هذه الصغائر التي يغفرها الله المحسنين من عباده . وقليل من الذين يرون هذا الرأي ويذهبون هذا المذهب يدفعون إلى ذلك بحكم الكسل العقلي الذي يمنعهم من البحث والدرس والاستقصاء .

وقوم آخرون يريحون أنفسهم نوعاً آخر من الاراحة ، فيستبعدون أن تقع هذه الاحداث والفتن من أصحاب النبي ، ويرون أنها مؤامرات دبرها الكائدون للاسلام ، كعبدالله بن سبأ ومن لفّ لفه من أهل الكتاب وغير أهل الكتاب .

وواضح جداً أننا لا نستطيع أن نذهب هذا المذهب أو ذاك ؛ فنحن لا نحب الكسل ولا نطمئن إلى الراحة ، ولا نغلو في تقديس الناس إلى هذا الحد البعيد ، ولا نرى في أصحاب النبي ما لم يكونوا يرون في انفسهم ، فهم كانوا يرون أنهم بشر يتعرضون لما يتعرض له غيرهم من الخطايا والآثام . وهم تقاذفوا التهم الخطيرة ، وكان منهم فريق تراموا بالكفر والفسوق ، فقد رُوي أن عمار بن ياسر كان يكفر عثمان ويستحلّ دمه ويسميه نعثل . ورُوي أن ابن مسعود كان يستحل دم عثمان أيام كان في الكوفة ، وهو كان يخطب الناس فيقول إن شرّ الامور محدثاتها ، وكل محدث بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار . يعرّض في ذلك بعثمان وعامله الوليد .

ورُوي أن عبد الرحمن بن عوف قال لعليّ : إن شئت أخذت سيفك وآخذ سيفي ؛ فإنه خالف ما أعطاني . وروي كذلك أنه قال لبعض اصحابه في المرض الذي مات

فيه : عاجلوه قبل أن يطغى ملكه .

والذين ناصروا عثمان من اصحاب النبي كانوا يرون أن خصومهم قد خرجوا على الدين وخالفوا عن أمره . وهم جميعاً من أجل ذلك قد استحلوا ان يقاتل بعضهم بعضاً ، وقاتل بعضهم بعضاً بالفعل يوم الجمل ويوم صفين ، إلا ما كان من سعد واصحابه القليلين الذين اعتزلوا فلم يشاركوا في الفتنة ولم يدفعوا الى الحرب ، والذين كان سعد يصور رأيهم أحسن تصوير حين كان يقول : لا أقاتل حتى تأتوني بسيف يقول هذا مؤمن وهذا كافر . وإذا دفع أصحاب النبي أنفسهم الى هذا الخلاف وتراموا بالكبائر وقاتل بعضهم بعضاً في سبيل ذلك ، فما ينبغي أن يكون رأينا فيهم أحسن من رأيهم هم في أنفسهم . وما ينبغي أن نذهب مذهب الذين يكذّبون أكثر الأخبار التي نقلت الينا ما كان بينهم من فتنة واختلاف . فنحن إن فعلنا ذلك لم نزد على أن نكذب التاريخ الإسلامي كله منذ بعث النبي ، لان الذين رووا أخبار هذه الفتن هم أنفسهم الذين رووا أخبار الفتح وأخبار المغازي وسيرة النبي والخلفاء . فما ينبغي أن نصدقهم حين يروون ما يروقنا ، وأن نكذّبهم حين يروون ما لا يعجبنا . وما ينبغي ان نصدّق بعض التاريخ ونكذّب بعضه الآخر ، لا لشيء إلا لأن بعضه يرضينا وبعضه يؤذينا . وما ينبغي كذلك أن نصدّق كل ما يروى أو نكذّب كل ما يروى ، وإنما الرواة أنفسهم ناس من الناس ، يجوز عليهم الخطأ والصواب ، ويجوز عليهم الصدق والكذب . والقدماءأنفسهم قد عرفوا ذلك وتهيئوا لهووضعوا قواعد التعديلوالتجريح والتصديق والتكذيب ، وترجيح ما يمكن ترجيحه ، وإسقاط ما يمكن إسقاطه ، والشك فيما يجب الشك فيه . فليس علينا بأس من أن نسلك الطريق التي سلكوها ، وأن نضيف إلى القواعد التي عرفوها ما عرف المحدّثون من القواعد الجديدة التي يستعينون بها على تحقيق النصوص وتحليلها وفقهها .

والشيء الذي لا يمكن أن يتعرض للشك هو أن المسلمين قد اختلفوا على عثمان ، وأن هذا الاختلاف قد انتهى إلى ثورة قتل فيها عثمان ، وأن هذه الثورة قد فرّقت المسلمين تفريقاً لم يجتمعوا بعده الى الآن .

فلا بد لهذا الاختلاف من أسباب ، ولا بد لهذه الثورة من مقدمات ، فعثمان لم يقتل نفسه ولم يقدّم نفسه ضحية لقاتليه . والذين اختلفوا عليه وثاروا به وقتلوه لم يفعلوا ذلك عن غير علة او سبب ، وإنما كانت هناك أمور أنكروها مخطئين او مصيبين ، ثم دعاهم انكارها الى الإختلاف والثورة وإحداث هذا الحدث الذي لم

يسبقوا اليه ، وهو قتل الإمام عنوة واقتداراً .

ثم نلاحظ بعد هذا وذاك أن إمامة عثمان كانت صحيحة ما في ذلك شك ، فالمسلمون جميعاً قد بايعوه ورضوا إمامته وسمعوا له وأطاعوا . ومهما يقل القائلون في طريقة اختيار المسلمين لخلفائهم ، فان الاختيار نفسه كان صحيحاً مجمعاً عليه ؛ فلم يخالف في إمامة أبي بكر وعمر إلا سعد بن عبادة ولم يلتفت الى خلافه أحد ، ولم يخالف في إمامة عثمان احد ما . وقد بيّنا ان ما يروى من تلكؤ عليّ في البيعة لا يلائم سيرته ولا خلقه ولا مذهبه مع الشيخين، ولا العهد الذي أعطاه لعبدالرحمن ولا سيرته مع عثمان نفسه . وقدّمنا أن طلحة غضب وجلس في داره ، لأن البيعة تمت في غيبته، ولأن مثله لا يفتأت عليه ، ولكنه مع ذلك لم يلبث أن بايع كما بايع الناس ، وسمع وأطاع كما سمع الناس وأطاعوا : فكانت إمامة عثمان صحيحة مجمعاً عليها كإمامة صاحبيه من قبله . فكل ما صدر عنه من أمر ونهي ومن قول وفعل إنما صدر عن إمام صحّت بيعته ووجبت طاعته . ولكن البيعة كما قدمنا عقدٌ بين الإمام والرعية ؛ فهي لا تلزم الإمام وحده،وانما تلزم الطرفين المتعاقدين والعقد الذي كان بين عثمان وبين المسلمين هو أن يلزم عثمان كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر لا يحيد عن شيء من ذلك ، وأن يسمع المسلمون له ويطيعوا ما وفى بعهده وما لم يغيّر من الكتاب والسنة وسيرة الشيخين شيئاً .

فالمسألة هي بالدقة ما يأتي : أخالف عثمان عن كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين ؟ أم لزم ذلك فلم يخالف عنه في قليل ولا في كثير ؟ فإن تكن الاولى فليست له على المسلمين طاعة فيما خالف فيه عهده . وإن تكن الثانية فليس للمسلمين أن يعصوا أمراً ويقبلوا على ما نهاهم عنه او ينكروا سيرته فضلاً عن ان يختلفوا عليه ويثوروا به ويحصروه ويقتلوه .

هذه هي القضية كما ينبغي أن تصوّر وأن تعرّض، وكما تصورها القدماء وعرضوها. فلننظر كيف تصوّر القدماء هذه القضية ، وكيف عرضوها جملةً وتفصيلاً .

- ٢٣ -

وقد نظر القدماء إلى جميع الأحداث التي كان فيها عيب عثمان والاختلاف عليه نظرة

دينية خالصة كما نظر اليها الذين عاصروا عثمان سواء منهم من خاصمه ومن ناصره، لأنهم كانوا ينظرون هذه النظرة الدينية إلى كل شيء من أمور الدين والدنيا جميعاً . وهم من أجل ذلك تكلموا في الكفر والإيمان أكثر مما تكلموا في الخطأ والصواب وفي المنفعة والمضرة . وما دمنا نصور آراءهم فلننظر إلى هذه الأحداث نظرتهم ، ولكن في شيء من التمييز مع ذلك بين هذه الأحداث .

فقد كان من هذه الأحداث ما يمس الشؤون الدينية الخالصة ، ويتصل بنص من نصوص القرآن أو أثر من سنة النبي . وكان منها ما يتصل بشؤون السياسة التي يمكن أن يجتهد فيها الإمام فيخطيء ويصيب ، وليس عليه في دينه بأس إن اخطأ ما دام مجتهداً ، وله الفضل كل الفضل إن أصاب .

وكان من هذه الأحداث أيضاً أشياء تتصل بالنظام الاجتماعي ، فهي كذلك موضوع الاجتهاد يخطيء الإمام فيها ويصيب ، وله العذر إن اخطأ ، والفضل إن أصاب، والمقياس فيما يتصل بالسياسة والنظام الاجتماعي انما هو العدل من جهة ، ورضا كثرة المسلمين من جهة اخرى .

فلنبدأ من هذه الأحداث بما يتصل بالشؤون الدينية الخالصة . فقد أنكر خصوم عثمان عليه أنه لم يكد يبدأ خلافته حتى عطل حدّاً من حدود الله ، وخالف عن نصوص القرآن خلافاً خطيراً ، وذلك حين عفا عن عبيد الله بن عمر ، ولم يقتص منه للهرمزان وجفينة وبنت أبي لؤلؤة ، فيما ذكر بعض الرواة . فقد كان الهرمزان أميراً فارسياً مسلماً ، وكان الآخران ذميين ، والله قد عصم دماء المسلمين ودماء الذميين ، وبيّن الحدود التي يجب أن تقام حين يعتدي أحد على بعض اولئك أو هؤلاء؛ فقال في سورة البقرة :

« يأيُّها الذين آمنوا كُتِبَ عليكُمْ القِصاصُ في القَتْلَى الحُرُّ بالحُرِّ والعَبْدُ بالعَبْدِ والأنثَى بالأنثى فمنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أخيهِ شيءٌ فاتّباعٌ بالمَعْرُوفِ وأداءٌ إليه بإحسانٍ ذَلكَ تَخفيفٌ مِنْ رَبّكُمْ ورحمةٌ فمنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلكَ فَلَهُ عَذَابٌ أليمٌ . ولَكُمْ في القِصَاصِ حيَاةٌ يا أُولِي الألبابِ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ» وقال في سورة النساء : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أنْ يقتُلَ مُؤْمِناً إلا خَطَأً وَمنْ قَتَلَ مؤْمِناً خطأً فتَحْرِيرُ رقَبَةٍ مؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلّمَةٌ إلى أهْلِهِ إلا أن يَصّدّقُوا فإنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مؤْمِنٌ فتحريرُ رقَبَةٍ مؤْمنةٍ وإنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ بيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلّمَةٌ

إلى أهلِهِ وتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ فمنْ لمْ يجدْ فصيامُ شهرينِ متتابعينِ توبةً منَ اللهِ وكانَ اللهُ عليماً حكيماً. ومَنْ يقتلْ مؤمناً متعمّداً فجزاؤهُ جهنّمُ خالداً فيها وغضبَ اللهُ عليهِ ولعنَهُ وأعدّ لهُ عذاباً عظيماً». وقال في سورة المائدة : « مِنْ أجلِ ذلكَ كتبْنا على بني إسرائيلَ أنّهُ مَنْ قتلَ نفساً بغيرِ نفسٍ أوْ فسادٍ في الأرضِ فكأنّما قتلَ النّاسَ جميعاً ومَنْ أحياها فكأنّما أحيَا النّاسَ جميعاً ولقدْ جاءتهُمْ رسلُنا بالبيّناتِ ثمّ إنّ كثيراً منهُمْ بعدَ ذلكَ في الأرضِ لمسرفونَ» وقال في سورة الإسراء : «ولا تقتلوا النفسَ التي حرّمَ اللهُ إلاّ بالحقِّ ومَنْ قُتِلَ مظلوماً فقدْ جعلْنا لوليّهِ سلطاناً فلا يُسرفْ في القتلِ إنّهُ كانَ منصوراً ».

فالله قد بين في هذه الآيات كلها حدوداً لا يجوز ان يتعداها المسلمون ، وبعضها يتصل بالقتل عن عمد ، وبعضها يتصل بالقتل عن خطأ . وليس من شك في أن عبيدالله لم يقتل الهرمزان وصاحبه أو صاحبيه خطأ ، وإنما أراد ذلك وعمد إليه ، ولو لم يتخذ منه السيف لكان من الممكن أن يقتل قوماً آخرين . فقال المعارضون لعثمان : إن إقامة الحدّ عليه واجبة بنص القرآن . وقال عثمان قتل أبوه أمس وأقتله اليوم ! ويقال إن المهاجرين أنفسهم قالوا ذلك لعثمان . والمهم هو أن عثمان عفا عن عبيد الله. وقد أجاب عثمان نفسه على اعتراض المعترضين يومئذ وفيهم عليّ بأن الهرمزان وصاحبه لا وليّ لهما ، وبأنه هو وليهما ، لأن الإمام وليّ من لا وليّ له . والله قد أذن للوليّ في أن يعفو ، وأثابه على هذا العفو . فقد عفا عثمان إذن عن إذن الله من جهة ، وعن رعاية للمصلحة من جهة أخرى . وقد بينا فيما مضى أن علياً وغيره من المسلمين لم يقرّوا عثمان على هذا العفو ، ولم يروا أنه يملكه .

وخاض المتكلمون بعد ذلك في هذه القضية : فأما أهل السنة والمعتزلة فرأوا رأي عثمان ، وقالوا ليس عليه بهذا العفو بأس ؛ فهو وليّ المقتولين ، ومن حق الوليّ أن يعفو ، ولا سيما حين يكون العفو سياسة ملائمة للمصلحة . والعفو هنا كان سياسة ملائمة للمصلحة الداخلية والخارجية جميعاً . فأما المصلحة الداخلية فهي فيما قدّمنا من رعاية المهاجرين وقريش عامة ، إذ قالوا قتل أبوه أمس ونقتله اليوم ! وأما المصلحة الخارجية فقد قال أهل السنة والمعتزلة : لو قتل عثمان عبيد الله لشمت عدو المسلمين ، قالوا : قتلوا إمامهم أمس ثم قتلوا ابنه بعده . وأما الشيعة فيرون رأي عليّ وأصحابه ويقولون : ما كان ينبغي لعثمان أن يجتهد في شيء بيّنه القرآن بنصه تصريحاً . وقالوا:

ما كان ينبغي أن يلتفت إلى شماتة العدو ؛ فالعدو خليق أن يشمت إذا عرف أن إمام المسلمين يعطل حدود الإسلام . وقالوا : إن عمر نفسه قد أوصى بإقامة الحد على ابنه إن ثبت أنه قتل من قتل ظلماً ؛ فما كان ينبغي لعثمان أن ينقض أمراً أبرمـــه الإمام قبله وهو يملك إبرامه .

ولكنا نلاحظ أن الله قد بين الحدّ الذي ينبغي أن يقام على القاتل عمداً بالنص ، ولكنه رغب في العفو ودعا اليه بالنص أيضاً فعثمان لم يتعدّ القرآن حين عفا ، وإنما التزمه والتزم ما رغب الله فيه ودعا إليه من العفو . ولا يستقيم قول من قال إن عمر كان قد ابرم الحكم فلم يكن لعثمان أن ينقضه لأن عمر لم يرد – إن صحت الرواية – على أن أوصى بقتل ابنه إذا ثبت أنه قتل ظلماً فهو إذن لم يصدر حكماً، وإنما أمر بإنفاذ كتاب الله ، وبأن تنظر هذه القضية بالحق والعدل . ومن الحق والعدل أن يقضي الإمام بالقصاص ، ثم يعفو إن رأى في العفو مصلحة . ولو قد أصدر عمر حكماً مبرماً ثم مات دون أن يتولى إنفـــاذه ، لكان من حق الإمام الذي يأتي بعده أن يعفو ؛ لأن العفو ليس نقضاً للحكم وإنما هو إقرار له ثم نزول عن الحق في إنفاذه.

فلا ينبغي أن يقال إذن إن عثمان قد عطل الحد أو خالف عن أمر الله في هـذه القضية ، وانما يمكن أن يقال إن عثمان قد أبعد في الحكم والعفو حين أدّى الدية من ماله هو ، ولم يعزّر عبيد الله بالسجن الذي يقصر أو يطول ، فهو لم يرزأه في ماله ولا في حريته. وقد روى بعض الرواة أن الإقامة في المدينةلم تستقم لعبيد الله فأرسله عثمان الى الكوفة وأقطعه فيها أرضاً وداراً . فهذا كلـــه – إن صح – غلو في العفو والحلم ، وهو خليق أن يخيل إلى بعض الناس أن عثمان لم يحفل بدم هذين القتيلين ، وأنه كافأ القاتل فأدّى عنه الدية وحمـــاه من الناس ولم يسجنه ، وإنما أقطعه أرضاً وداراً . وهذا أيضاً خليق أن يخيل إلى الناس أن عثمان آراد أن يراعـــي السياسة ويترضى قريشاً ، فأسرف في الأمرين جميعاً .

ثم عاب المسلمون المعاصرون لعثمان عليه بعد هذه القضية مخالفته للسنة المعروفـة المستفيضة عن النبي وعن النبي وعـن الشيخين وعن عثمان نفسه في صدر من خلافته ، وذلك حين أتم الصلاة فيمنى وقد قصرها النبي والشيخانوقصرها عثمان أيضاً أعواماً . وقد ذعر المسلمون حقاً حين أتم عثمان الصلاة في منى ، فسعى بعضهم الى بعض وقال بعضهم لبعض ، ثم أقبل عبد الرحمن بن عوف على عثمان فقال له : ألم تصلّ هنا مع النبي ركعتين ؟ قال عثمان بلى . فقال عبد الرحمن : ألم تصلّ مـــع أبي بكر وعمر

ركعتين؟ قال عثمان بلى قال عبد الرحمن ألم تصلّ أنت بالناس هنا ركعتين؟ قال عثمان: فإني قد بلغني أن الأعراب والجفاة من أهل اليمن يقولون إن صلاة المقيم اثنتان؛ لأني قد اتخذت بمكة أهلاً ولي بالطائف مالٌ قد ألمّ به بعد الصَّدَر، فخشيت أن يظن هؤلاء الناس أن صلاة المقيم ركعتان. قال عبد الرحمن: أما خوفك على الأعراب والجفاة والجهال، فقد صلى النبي ركعتين ولم يكن الإسلام قد فشا بعدُ، فالآن وقد ضرب الإسلام بجرانه ما ينبغي لك أن تخاف. وأما أنك اتخذت بمكة أهلاً فإنّ زوجتك في المدينة تخرج بها إن شئت وتتركها إن شئت. وأما أن لك في الطائف مالاً فإن بينك وبين الطائف ثلاث ليال. قال عثمان هـذا رأي رأيته. قال الرواة وانصرف عبد الرحمن فلقي عبدالله بن مسعود، فقال له ابن مسعود: أرأيت إلى عثمان يصلي أربعاً وقد صلى النبي وصلى صاحباه وعثمان نفسه في هذا المكان اثنتين؟ لقد علمت ذلك فصليت بأصحابي أربعاً لأني أكره الفرقـة. قال عبد الرحمن فإني قد علمت ذلك فصليت بأصحابي ركعتين، فأما الآن فهو ما قلت.

ومعنى هذا أن الأعلام من أصحاب النبي أنكروا من عثمان إتمامـه الصلاة في منىً وناظروه في ذلك، فلما رأوا أنه لا يغير رأيه ساروا سيرته وذهبوا مذهبه مخافة الاختلاف.

وقد ينبغي ان نعلم ان مصدر هذا الذي أصاب اصحاب النبي حين رأوا عثمان يتم الصلاة بمنى، هو مخالفة السنة الموروثة أولاً، وشيء آخر عظيم الخطر جداً في نفوس المهاجرين، وهو أن النبي بعد الهجرة قد اتخذ المدينة له ولأصحابه دار إقامة، واتخذ مكة وما حولها دار غربة، وكره لنفسه ولأصحابه أن يطيلوا الإقامة بمكة، حتى لا يظنّ أنهم يرجعون أو يهمون بالرجوع إليها بعد أن هاجروا منها، وكره أن يموت بعض أصحابه من المهاجرين في مكة. أشفق عليهم من ذلك، وتمنى على الله ألا يتوفاهم في الأرض التي هاجروا منها، وأوصى من استخلفه على سعد بن أبي وقاص حين كان مريضاً بمكة ألا يدفنه فيها إن مات، وأمره أن يدفنه في طريق المدينة. فلما صلى عثمان بمنىً صلاة المقيم ذكر المهاجرون والأنصار هذا كله واشفقوا ان يغير عثمان مـا جرت به سنة النبي وأصحابه جميعـاً من اتخاذ مكة دار غربة لا دار مقام. ولكنهم على ذلك ساروا سيرة عثمان، فأتموا الصلاة بمنىً ما أتمها، مخافة أن يفـترق الناس في صلاتهم وهي ركن خطير من أركان الدين.

وليس عندنا شك في ان عثمان قد اجتهد للمسلمين، وخاف على جهالهم وجفاتهم ان

يفتتنوا . وسواء أصاب في هذا الاجتهاد أم أخطأ فهو لم يرد إلا الخير . وليس أدل على ذلك من أنه لم يتحوّل من المدينة إلى مكة ولا إلى غيرها ، ولم يقبل ما عرض عليه حين اشتدت الفتنة من الإقامة بمكة آمناً لا يجرؤ مسلم أن يصيبه فيها بما يكره ؛ لأنه لم يرد أن يستبدل بجوار رسول الله شيئاً . ولو شاء لعاذ بمكة حتى تأتيه الأمداد ، ولم يكن عليه بذلك بأس ، فالضرورة الملجئة كانت قائمة. ولو شاء لتحوّل إلى الشام كما عرض عليه معاوية ولكنه أبى. فهو إذن لم يحاول أن يجعل من مكة دار إقامة ، وإنما نصح المسلمين وقبل المسلمون ذلك منه ، فأتموا بإتمامه وان لم يقتنعوا بما احتج به لهذا الإتمام .

وأنكر خصوم عثمان عليه شيئاً آخر يتصل بركن آخر من أركان الدين ، فقالوا إنه أخذ الزكاة على الخيل ، وكان النبي قد أعفى من زكاة الخيل والرقيق ، وسار الشيخان سيرته ؛ فلما استخلف عثمان أخذ الزكاة في الخيل .

ونلاحظ أولا ان الرواية بذلك لم تتواتر ولم يكد يجتمع عليها الرواة . ونلاحظ بعد ذلك ان عثمان لم ينقص من الزكاة وإنما زاد فيها . وأكبر الظن أن النبي وصاحبيه إنما أعفوا من زكاة الخيل حين كانت قليلة ، وحين كانت جيوش المسلمين في حاجة الى الفرسان ، وحين كان المسلمون إنما يعدون ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ليرهبوا به عدوّ الله وعدوّهم . فلما كان الفتح وأقبلت الدنيا وكثر المال ، جعل المسلمون يتخذون الخيل في بلاد العرب على الأقل تجارة ومالاً ، فأنفذ فيها عثمان ما أمر الله من الزكاة في كل مال يتخذ للربح والثراء .

وعاب المسلمون على عثمان انه حمى الحمى ، والله ورسوله قد أباحا الهواء والماء والكلأ للناس جميعاً . والرواة بعد ذلك يختلفون ، فيقول بعضهم إنه حمى الحمى لإبل الصدقة ولإبله وخيله وإبل بني أمية وخيلها . ويقول بعضهم الآخر ويقول عثمان نفسه : إنه لم يحم الحمى إلا لإبل الصدقة . ثم يقال إن المسلمين لاموه في أنه حمى الحمى لإبل الصدقة ، فكانت حجته أنه إنما أراد ألا يكون هناك اختلاف بين الأفراد والدولة فيما يتصل بالمراعي ؛ فهو قد أراد العافية ، ما في ذلك شك . على انه حين رأى تحرّج المسلمين من ذلك وضيقهم به لم يتشدد فيه وإنما تركه واستغفر الله . فليس عليه بذلك بأس أيضاً .

وما دمنا بسبيل الزكاة وإبل الصدقة ، فلنذكر اعتراضاً آخر وجهه خصوم عثمان اليه ، وهو انه اخذ من اموال الصدقة فأنفق منها في الحرب وفي غير الحرب من

المرافق العامة . قال المعترضون: ان لأموال الصدقة مصارف معينة بيّنها الله في قوله : « إنمـــا الصّدَقات للفُقرَاء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم وفي الرِّقاب والغارمِين وفي سَبِيلِ الله وابْن السَّبيل فَرِيضَةً من الله والله عليمٌ حكيمٌ » . والله قد بيّن هذه المصارف بهذا القصر الذي نصه في أول الآية، وبقوله « فريضة من الله ». فلا يجوز للإمام أن ينفق من أموال الصدقة إلا في المصارف التي بينها الله عز وجل في هذه الآية .

واجاب المتكلمون من أهل السنة والمعتزلة على هذا الاعتراض بأن عثمان لم يفعـــل ذلك إلا حين رأى في أموال الصدقة سعة ، وحين رأى حاجة الحرب إلى مزيد من نفقة ، فاقترض من أموال الصدقة لينفق على الحرب ، مزمعاً أن يردّ ذلك إذا اتسع بيت المال لرده . ومن حق الإمام ان يقترض من مصرف لمصرف ، لا يخالف بذلك الدين ولا يغير بذلك سنة موروثة مـــا دام مصمماً على ان يرد على اموال الصدقة ما أخذ منها . ونقول نحن إن جواب المتكلمين ليس به بأس من ناحية الدين . ولكن البأس هو ان يأخذ الإمام من مصرف لينفق على مصرف آخر ؛ فإن ذلك أحرى ان يدل على شيء من سوء التدبير المالي ، وعلى إسراف في اموال الحرب والمرافق الأخرى بإنفاقها في غير احتياط ولا تحفظ ، وبإعطائهـــا على سبيل الهبة لمن لا يستحقها . وسنعود الى هذا الحديث في موضع آخر قريب .

وعاب خصوم عثمان عليه أنه حمل الناس على مصحف واحد ، ثم لم يحظر غير ما جاء في هذا المصحف من القراءة فحسب ، ولكنه حسم الأمر حسماً ، فحرّق ما عدا هذا المصحف من الصحف التي كتب فيها القرآن قال المعترضون على عثمان إن النبي قال : « نزل القرآن على سبعة أحرف كلها كاف شاف » . فعثمان حين حظر ما حظر من القراءة ، وحرّق ما حرّق من الصحف إنما حظر نصوصاً أنزلهـــا الله ، وحرّق صحفاً كانت تشتمل على قرآن أخذه المسلمون عن رسول الله . وما ينبغي للإمام أن يلغي من القرآن حرفاً أو يحرق من نصوصه نصّاً . وقصة جمع الناس على مصحف واحد ليست يسيرة إلى هذا الحد الذي تصوره خصوم عثمان وأنصاره . فقد روي عن النبي روايات متظاهرة أنه قال : « نزل القرآن على سبعة أحرف » . ولكن المسلمين ما زالوا مختلفين في تأويل هذا الحديث إلى الآن : فقوم يرون أن هذه الأحرف هي المعاني التي تناولها القرآن من الوعـــد والوعيد ، والأمر والنهي والوعظ والقصص . وقوم يذهبون بهذه الأحرف مذهب التصوف . وقوم يرون أن هـــذه الأحرف هي

ألفاظ تختلف فيا بينها باختلاف اللغات التي كانت العرب تتكلمها . ولم يتفق المسلمون اتفاقاً قاطعاً على معنى دقيق لهذا الحديث ؛ فلا يصح الاحتجاج به على عثمان حتى يتفق المختصمون والأنصار على معناه ، وقد تظاهرت الروايات أيضاً بأن المسلمين اختلفوا في قراءة القرآن أيام النبي نفسه ، ولم يكن اختلافهم في اللهجات ، وإنما كان اختلافهم في الألفاظ دون أن تختلف معاني هذه الألفاظ . وقد اختصم المختلفون إلى النبي نفسه فأجاز قراءتهم جميعاً لأنها لم تكن تختلف في معناها وإنما كانت تختلف في ألفاظها . وقد جمع القرآن أيام أبي بكر وعمر ، وجاءت الشكوى إلى عثمان بأن المسلمين في الأمصار والثغور يختلفون في قراءة القرآن ، ثم يختصمون حول هذا الاختلاف ، فيفضل بعضهم قرآنه على قرآن غيره ، حتى أوشكوا أن يفترقوا ، وحتى قال حذيفة بن اليمان لعثمان : أدركْ أمة محمد قبل أن تتفرق حول القرآن .

فليس من شك في أن ما أقدم عليه عثمان من توحيد المصحف وحسم هذا الاختلاف ، وحمل المسلمين على حرف واحد أو لغة واحدة يقرأون بها القرآن ، عملٌ فيه كثير من الجرأة ، ولكن فيه من النصح للمسلمين أكثر مما فيه من الجرأة . فلو قد ترك عثمان الناس يقرأون القرآن قراءات مختلفة بلغات متباينة في ألفاظها ، لكان هذا مصدر فرقة لا شك فيها ، ولكان من المحقق ان هذه الفرقة حول الألفاظ ستؤدي الى فرقة شر منها حول المعاني بعد ان كان الفتح ، وبعد ان استعرب الأعاجم ، وبعد ان أخذ الأعراب يقرأون القرآن .

ولهذا لم يتردد اهل السنة والمعتزلة في إقرار ما عمل عثمان ، وفي الاعتراف له بهذا الفضل العظيم ؛ لأنه حال بين المسلمين وبين الفرقة ، وجمعهم على الشيء الوحيد الذي لا ينبغي ان يختلفوا فيه . ولا نعلم أن علياً أنكر ذلك على عثمان ، ولا أن احداً من اصحاب الشورى انكره ، بل روي ان علياً قال في خلافته : « لو كنت مكان عثمان لحملت الناس في امر القرآن على ما حملهم عليه » . فليس على عثمان بأس في دينه من هذه الناحية . وقد يمكن ان يعترض عليه في أنه كلّف كتابة المصحف نفراً قليلا من اصحاب النبي ، وترك جماعة من القراء الذين سمعوا من النبي وحفظوا عنه وعلموا الناس في الأمصار ، وكان خليقاً ان يجمع هؤلاء القراء جميعاً ويحمل اليهم كتابة المصحف . ومن هنا نفهم غضب ابن مسعود ؛ فقد كان ابن مسعود من أحفظ الناس للقرآن . وهو، فيما كان يقول ، قد أخذ من فم النبي نفسه سبعين سورة من القرآن ولم يكن زيد بن ثابت قد بلغ الحلم بعدُ . فإيثار عثمان لزيد بن ثابت وأصحابه وتركه لابن مسعود وغيره

من الذين سبقوا الى استماع القرآن من النبي وحفظه عنه، قد أثار عليه بعض الاعتراض، وهذا شيء يفهم من غير مشقة ولا عسر .

وربما تحرّج بعض المسلمين من تحريق ما حرّق عثمان من المصحف ، ولم يقبلوا اعتذاره بحسم الفتنة وقطع الخلاف . ولو قد كانت الحضارة تقدّمت بالمسلمين شيئاً لكان من الممكن ان يحتفظ عثمان بهذه الصحف التي حرّقها على أنها نصوص محفوظة لا تتاح للعامة ، بل لا تكاد تتاح للخاصة ، وإنما هي صحف تحفظ ضناً بهـا على الضياع . ولكن المسلمين لم يكونوا قد بلغوا في ذلك العصر من الحضارة ما يتيح لهم تنظيم المكتبات وحفظ المحفوظات . وإذا لم يكن على عثمان جناح فيما فعل لا من جهة الدين ولا من جهة السياسة ، فقد يكون لنا أن نأسى لتحريق تلك الصحف ؛ لأنه إن لم يكن قد أضاع على المسلمين شيئاً من دينهم فقد أضاع على العلماء والباحثين كثيراً من العلم بلغات العرب ولهجاتها ؛ على ان الأمر أعظم خطراً وأرفع شأناً من علم العلماء وبحث الباحثين عن اللغات واللهجات .

وأنكر المنكرون على عثمان خصلة اخرى ما نعرف ان العذر يمكن ان يقوم له فيها . ذلك أنه ردّ عمه الحكم بن أبي العاص وأهله الى المدينة وكان النبي قد أخرجهم منها إخراجاً عنيفاً . وكان بيت الحكم بن ابي العاص في الجاهلية مجاوراً لبيت النبي ، فكان الحكم يؤذي جاره الكريم أشدّ الأذى وأقبحه . والحكم بن ابي العاص هو الذي أخذ عثمان حين أسلم ، فشدّ وثاقه وأقسم لا يخليه حتى يعود الى دين آبائه ، ثم لم يطلقه إلا حين استيأس منه .وقد أقبل الحكم بعد فتح مكة الى المدينة مسلماً ، ولكن إسلامه لم يكن إلا جنة يتقي بها الموت . وآية ذلك أنه ظل يؤذي رسول الله بقوله وفعله ، فكان يسعى وراءه ويغمزه ويقلد حركاته ساخراً منه . واطلع ذات يوم على النبي في حجرة من حجراته فخرج النبي مغضباً ، فلما عرفه قال : « منْ عذيري من هـذا الوزغ ! » ثم أخرجه من المدينة وقال : « لا يساكنني فيها أبداً » . وقد شفع عثمان عند النبي في إعادته فلم يعده ، وطلب ذلك الى ابي بكر فأبى عليه ، وطلب ذلك الى عمر فلم يكتف بالرفض ، وإنما زجر عثمان وحرّج عليه ألا يعاوده في امر الحكم مرة أخرى . فلما استخلف عثمان أعاد الحكم الى المدينة ، فأنكر المسلمون ذلك ، وسعى اليه أعلام الصحابة فلاموه فيه ، ولكنه زعم لهم أنه كلم النبي في ردّ الحكم فأطمعه في ذلك ، ثم توفي قبل ان يردّه . ويقول المعتذرون لعثمان من أهل السنة والمعتزلة إن عثمان قد كان يرى ان إخراج النبي الحكم وأهله من المدينة ليس ضريبة

لازب ؛ فإن حال المنفي قد تصلح على مر الزمن ، فيجوز ان يعفى عنه وأن يرَدّ الى الأرض التي نفي منها . ويقولون كذلك : إن عثمان علم أن النبى كان يريد ردّ الحكم، فلم يقبل منه ذلك أبو بكر وعمر ؛ لأنه انفرد بهذا العلم فلم تستقم شهادته . فلما استخلف قضى بعلمه ومن حق الإمام ان يقضي بعلمه .

ولكن خصوم عثمان يقولون إن سيرة الحكم في جاهليته مع النبي وسيرته بعد إسلامه المتكلف وقول النبي : « من عذيري من هذا الوزغ ! » وقوله : « لا يساكنني فيها أبداً » ، كل ذلك يحظر على عثمان أن يردّه إلى المدينة ، وليس للإمام أن يقضي بعلمه حين تكون هناك الشبهة التي توهم ان الإمام إنما قضى بما قضى إيثاراً لقرابته . فقد كان الحكم عمّ عثمان ، وكانت هذه الشبهة وحدها تكفي ليتجنب عثمان رده إلى المدينة . فإذا اضفنا إلى ذلك قول النبي : « لا يساكنني فيها أبداً » ، فقد كان أيسر الرعاية لحرمة النبي يقتضي ألا يردّه عثمان إلى المدينة ليساكن النبي فيها ميتاً بعد ان أبى النبي ان يساكنه فيها حياً .

وقد دلت سيرة عثمان مع الحكم وبنيه بعد ذلك على انه إنما ردّهم إلى المدينة إيثاراً لهم بالخير ، وتكاثراً بهم على غيره من المسلمين، واستعانةً بهم على امور السياسة والإدارة والمال . فقد اعطى عثمان الحكم مالاً كثيراً ، ولما مات الحكم ضرب عثمان على قبره فسطاطاً . وقد ولى عثمان الحارث بن الحكم سوق المدينة ، فأسرف على الناس وعلى نفسه ، وسار سيرة لا تلائم الأمانة ولا التورع ، وإنما تلائم الجشع والطمع وحب الاستكثار من المال .

ثم لم يقف عثمان عند هذا الحد ، وإنما اعطى الحارث مالاً كثيراً كما سنرى ، ثم اختص عثمان بمروان بن الحكم ، فأعطاه وحباه واتخذه لنفسه وزيراً ومشيراً ، فدل هذا كله على ان عثمان لم يدعُ الحكم وبنيه إلى المدينة رقة لهم وعطفاً عليهم فحسب، وإنما دعاهم ايضاً ليكونوا له عدّةً وأعواناً .

كل هذه امور نقمها الناقمون من عثمان في أمر دينه . وقد رأيت ان لا بأس على عثمان من اكثرها ، وان قصة الحكم وبنيه وحدها هي التي يصعب الدفاع فيها عن عثمان . وهي على كل حال ليست من الأمور التي تقدح في دين عثمان ؛ فهو قد خالف سنة من السنن ، وتأوّل في ذلك مخطئاً او مصيباً ، ولكنه على كل حال لم يغير اصلا من اصول الدين ولا هدم ركناً من اركانه ، وهو بعد ذلك رجل يخطىء ويصيب . وليس كل الأئمة يستطيع ان يسير سيرة ابي بكر وعمر وإن عاهد الناس على ان يسير

سيرة ابي بكر وعمر .

ويقيننا ان عثمان لو وقف بأحداثه عند هذا الحدّ لما زاد المسلمون على ان ينصحوا له ويشتدوا عليه في العتب ثم لا يتجاوزون ذلك إلى غيره ، وإنما يحملونه تبعة سيرته ويخلون بعد ذلك بينه وبين الله يحاسبه على ما قدّم حساباً يسيراً او عسيراً .

ولكن عثمان لم يقف بأحداثه عند هذا الحد ، وإنما تجاوزها هو وعماله إلى أشياء اخرى تمس حقوق الناس ومصالحهم وحرياتهم ، فكان هذا مصدراً لشر عظيم .

- ٢٤ -

وقد نقم المسلمون من عثمان سياسته في الإدارة وسيرته في التولية والعزل ، فقالوا إنه ولى امور المسلمين جماعة من الأحداث لا يصلحون لها ولا يقدرون عليهـــا . ولا ينصحون للدين ولا يخلصون لله ورسوله ، وعزل اصحـــاب النبي عن الأمصار ، ولم يسمع لوصية عمر ، فحمل بني ابي معيط وبني امية على رقاب الناس . وقد عوتب في ذلك فلم يعتبْ حتى ظهر فسق عماله وانحرافهم عن الجادّة ، فلم يعزل احداً منهم إلا مضطرّاً .

فهو ولى الوليد على الكوفة مكان سعد بن ابي وقاص ، وولى عبد الله بن عامر مكان ابي موسى الأشعري ، وولى عبد الله بن سعد بن ابي سرح مكان عمرو بن العاص ، وآثر معاوية بالشام كله .

وقد قدّمنا في هذا كله ما كان لنا من رأي فيه . ونلاحظ مع ذلك ان انصار عثمان من اهل السنة والمعتزلة يتكلفون في الدفاع عنه ، كما ان خصومهم يسرفون في النعي عليه . فظاهر ان قول المدافعين عن عثمان إن عذره قائم في تولية من ولى من عماله ، لأن احوالهم كانت مستورة ، ولأن ظاهر امرهم كان حسناً فليس من توليتهم بأس — ظاهر — ان هذا القول لا يستقيم . فقد كانت حال الوليد بن عقبة معروفة ظاهرة ، وكان عثمان يعلم ان الله انزل فيه قرآناً وسمّاه فاسقاً ، وان عمر ظن ان امره قد صلح فولاّه صدقات تغلب ، ثم لم يلبث ان عزله حين استبان انه ما زال على جاهليته . وكان الوليد نفسه يعلم ذلك حق العلم ؛ فقد رُوي انه حين دخل الكوفة والياً عليها مكان سعد ، قال له سعد : أزائراً يا ابا وهب ام اميراً ؟ قال الوليد :

بل اميراً يا ابا إسحاق . قال سعد : والله ما ادري احمقتُ بعدك ام كستَ بعدي . قال الوليد : ما حمقتَ بعدي ولا كستُ بعدك ، وإنما وَلِي القوم الأمر فاستأثروا . قال سعد ما اراك إلا صادقاً . فقد كان الوليد يعلم انه لم يولَّ الكوفة لأن امره حسن بعد قبح وصلح بعد فساد ، وإنما وُلِي لأن القوم ملكوا فاستأثروا . وكان عثمان يعلم حق العلم ان عبد الله بن عامر شاب حدثٌ لم تتجاوز سنه الخامسة والعشرين بعدُ ، وان في المهاجرين والأنصار وغيرهم من العرب من هم اكبر منه سناً ، واكثر منه تجربة ، واقدم منه سابقة في الدين . وكان عثمان يعلم ان الله قد انزل قرآناً في عبد الله بن سعد بن ابي سرح ، وان النبي كان قد اهدر دمه يوم الفتح . فلم تكن حال هؤلاء الناس مستورة ، وإنما كانت اظهر من ان تخفى على مثل عثمان . وظاهر كذلك ان قول اهل السنة والمعتزلة إن عثمان عزل من عماله من ظهر له فسقه او فساد امره لا يستقيم ؛ فعثمان لم يعزل الوليد إلا حين لم تكن له مندوحة عن عزله . ولسنا نزعم ان عثمان تلكأ في إقامة الحد على الوليد ولكنا نقطع بأنه لم يعزل إلا حين ظهر منه الفساد ظهوراً فاضحاً ، وشهد الشهود عليه بشرب الخمر ، وضج منه اهل الكوفة والح في عزله المهاجرون والأنصار . وعثمان لم يعزل سعيد بن العاص بعد الوليد عن رضاً ، وإنما اكره على عزله اكراهاً حين سار اهل الكوفة فردّوا سعيداً وحالوا بينه وبين دخول مصر ، وخيروا عثمان بين الثورة وبين ان يولي عليهم ابا موسى الأشعري. وعثمان لم يعزل عبد الله بن سعد بن ابي سرح عن رضاً ، وإنما أنذره المصريون بالثورة وألح المهاجرون والأنصار في عزله ، وطالب عليٌّ بأن يحقق ما اتهم به من القتل ، هنالك عزل عثمان عبد الله بن سعد ، وكتب بعهده على مصر لمحمد بن أبي بكر . كل ذلك شيء لا شبهة فيه ، وإنما تأتي الشبهة فيما كان بعد ذلك من امر الكتاب الذي ارسل بقتل المصريين .

فليس صحيحاً إذن ان حال هؤلاء العمال كانت مستورة وليس صحيحاً كذلك ان عثمان عزلهم حين استبان له اعوجاج سيرتهم .

وظاهر بعد هذا كله أن خصوم عثمان يسرفون حين يقولون إن عماله لم يكونوا اصحاب كفاية وقدرة على النهوض بأمور الحكم ، فقد كان هؤلاء العمال اولى كفاية وغناء ما في ذلك شك ، يشهد بذلك انهم جميعاً ابلوا في الفتح احسن البلاء ، ولكنهم كانوا اولى كفاية بالقياس إلى حكومة يقوم أمرها على القوة والبأس ، وعلى الجبرية والكبرياء ، لا على ما فرض الإسلام من العدل والإنصاف والمساواة والاستمساك بالعهد

الذي اعطاه عثمان على نفسه : ليلتزمن كتاب الله وسنة رسوله ، وسيرة الشيخين لا يحيد عن شيء من ذلك .

فسياسة عثمان في العزل والتولية لم تكن ملائمة للعهد الذي اعطاه . وليس من شك في ان الذين ضاقوا بهؤلاء العمال ، وثاروا عليهم ونقموا من عثمان توليتهم لم يكونوا مخطئين ·

- ٢٥ -

والسياسة المالية التي اصطنعها عثمان منذ نهض بالخلافة كلها موضوع للنقمة والإنكار من اكثر الذين عاصروا عثمان ، ومن اكثر الرواة والمؤرخين ، وإن اصبحت فيما بعد موضوعاً للجدل بين المتكلمين ، يدافع عنها اهل السنة والمعتزلة ، وينكرها الشيعة والخوارج جميعاً . ويمكن ان نختصر سياسة عثمان المالية في انه كان يرى ان الإمام الحق في ان يتصرف في الأموال العامة حسب ما يرى انه المصلحة ، وانه ما دام قد انقطع بحكم الخلافة لتدبير امور المسلمين ، فله ان يأخذ من اموالهم ما يسعه ويسع اهله وذوي رحمه لا يرى بذلك بأساً ولا جناحاً . والشيء الذي لم يوضحه المؤرخون توضيحاً كافياً ، هو ان عثمان قد كان قبل ان يلي الخلافة سخياً سمحاً معطاء ، وكان كثير المال ضخم التجارة كثير الاكتساب ، فكان ماله يسعه ويسع اهله وذوي رحمه فلما تولى الخلافة شغلته عن التجارة والاكتساب ، ولم يكن له بد من ان ينفق على نفسه واهله وذوي قرابته بعد الخلافة كما كان ينفق قبلها ، فكان يرى فيما يظهر ان الخلافة يجب الا تغير من سيرته في المال شيئاً ، فإذا لم يسعفه ماله الخاص وجب ان تسعفه الأموال العامة،لأن ماله الخاص لم يقصر به إلا لأنه صرف عن تدبيره واستثماره بتفرغه لتدبير هذه الأموال العامة .

ولم يكن لأبي بكر وعمر قبل خلافتهما من الثراء ما كان لعثمان . فلسنا نعلم ان أحداً منهما اشترى بئر رُومةَ او اشترى الأرض التي زيدت في المسجد ، او جهز الجيش لغزوة تبوك ؛ لا لأنهما بخلا بالمال ، بل لأنهما لم يكونا من ذوي المال الكثير . وهما كذلك لم يكونا يتوسعان في الإنفاق على انفسهما واهلهما وذوي رحمهما كما كان عثمان يتوسع ؛ لأن ثروتهما لم تكن تتيح لهما ذلك . فهما إذن

لم يغيرا بعد الخلافة من سيرتها قبل الخلافة إلا أن يكونا قد تشددا على أنفسها تحرجاً وتأثماً . فأما عثمان فقد مضى بعد الخلافة على سيرته الاولى . فلم يلبث ماله في أكبر الظن أن قصّر به فاستباح أن يأخذ من أموال المسلمين ما يقارب الربح الذي كان ماله خليقاً أن يدرّ عليه لو أنفق وقته وجهـــده في تدبيره وتثميره . كذلك كانت حاله اول الأمر . ثم لم يلبث أن اتسع في ذلك ، وأزلقه السلطان الى مزيد من الجود وفضل من السخاء .

وأخرى يجب أن نلاحظها في تفسير السياسة المالية لعثمان ، وهي انه لم يكن يرى فيما يظن أن للمسلمين الحق في ان يراقبوه فضلاً عن أن يعاقبوه . فهو قد أعطى العهد الذي أعطاه . وهو مسؤول عن العهد أمام الله لا أمام الناس . يدل على ذلك اقتناعه بأن الذين طلبوا اليه أن يخلع نفسه قد طلبوا اليه شيئاً عظيماً ، وقوله لهؤلاء ولغيرهم: « ما كنت لأخلع قميصاً قمصنيه الله عز وجل » . وقوله لهؤلاء ولغيرهم : « لأن أقدّم فتضرب عنقي أحب إليّ من ان انزع سربالاً سربلنيه الله عز وجل » .

فلم تكن الخلافة عنده إذن تكليفاً تلقاه من المسلمين . ويستطيع أن يردّه عليهم إن شاء هو او شاءوا هم ، وإنما كانت الخلافة عنده ثوباً أسبغه الله عليه ، وليس له أن ينزعه عنه ، وإنما الله وحده هو الذي يملك تجريده من هذا الثوب يوم يجرّده من ثوب الحياة . وعذر عثمان في ذلك أنه رأى صاحبيه من قبله قد نهضا بالخلافة ، فلم تنزَع عن احدهما ما اقام على الحياة . فهو إذن مثلهما قد نهض بالخلافة ، ويجب ان يستمسك بها ما امتدت له اسباب الحياة . وإذا كان هذا رأيه في الخلافة وفيما تتيح له من سلطان فليس غريباً ان يضيق بالذين يجادلونه في سلطانه ، ويحاولون ان يكفّوه عن بعض تصرفه في الإدارة أو السياسة او المال ؛ فهو ليس مسؤولاً امام الناس ، وإنمـــا هو مسؤول امام الله كما قدمنا . ولم يكن عثمان يتكلف هذا الرأي تكلفاً ولا يصطنعه دريئة يتقي بها لوم اللائمين ونقمة الناقمين ، وإنما كان يراه عن نية صادقة وعن بصيرة خالصة . ولعل كثيراً من المسلمين الذين عاصروه كانوا يرون في الخلافة مثل رأيـــه ، ويذهبون في السلطان مثل مذهبه . وهذا هو الذي يفسر لنا أن بعض الصحابة كانوا لا يستبيحون لأنفسهم الخلاف عن امره حتى حـــين ينحرف عن القصد او يجور عن الطريق . كانوا يأخذون الآية على ظاهر نصها ، ويكرهون أن يتأولوا في قول الله عز وجل : « يا أيها الـّذين آمنوا أطيعُوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكـُم » . وكانوا يؤثرون إن أصابهم من الأمام ظلم أن يحتملوا هذا الظلم في الدنيا ليثابوا عليه في

الآخرة ، يفضّلون ذلك على ان يقاوموا فيتعرضوا لما قد يكون فيه بعض الإثم ، ولا عليهم ان يصيبهم الظلم ، في الدنيا وينالهم الثواب في الآخرة ، وان يحتمل الإمام تبعة اعماله ويؤدي حسابه عنها إلى الله .

هذا المذهب هو الذي ذهب إليه أبو ذرّ حين سمع واطاع على إنكاره لظالم عثمان إياه . وهو الذي ذهب إليه عبـــد الله بن مسعود في امر نفسه ، وما اصابه من بطش عثمان ، وفي امر الدين حين أتم الصلاة لأن عثمان أتمها مع انه لم يوافق عثمان على إتمامه للصلاة .

وكذلك مضىٰ عثمان في إدارته وسياسته للحرب والمال،يرى ان من حقه الاجتهاد وانه مؤدّ حسابه عن هذا الاجتهاد إلى الله ، وان من الحق على المسلمين ان يسمعوا له ويطيعوا ، وان من الحق لهم ان ينصحوا له ويشيروا عليه ، فإن شاء سمع لهم وقـد فعل في بعض الأحداث ، وإن شاء أبى عليهم وقد فعل في بعضها الآخر . وهـــذا النوع من تصور السلطان جديد محدث ؛ فلم يخطر لأبي بكر ولا لعمر انه يستطيع ان يستأثر بالسلطان من دون المسلمين . وربما اشتد عمر في ذلـــك حتى ثقل على المسلمين انفسهم ، كالذي رُوي من ان ملكة الروم أهدت إلى زوجه ام كلثوم بنت عليّ بن ابي طالب عقداً من جوهر ، وكانت ام كلثوم قد اهدت إليها من طرائف بلاد العرب ، فوقع العقد في يد عمر حين اقبـــل به البريد ، فلم يشأ أن يؤديه إلى امرأته حتى امر فنودي في الناس : الصلاة جامعـــة فلما اجتمع المسلمون استشارهم في هذا العقد ، فكلهم أشار عليه بان يؤديه إلى أم كلثوم لأنه ملكها . ولكنه تحرّج من ذلك لأنه حُمل إليها في بريد المسلمين ، فأمر برده إلى بيت المـــال ، وأدى إلى امرأته ما أنفقت في هديتها لملكة الروم . ونحن نعلم أن هذه السيرة الشديدة التي كان عمر يسيرها في نفسه وفي أهله قد ثقلت على الناس، وزهدت الفتيات والنساء في التزوج من عمر ، وحملت بعضهن على رد خطبته ؛ ثم نقيس هذه السيرة الى سيرة عثمان حين حلى بعض أهله بجوهر كان في بيت المال ، فلما كلم في ذلك قال : «لنأخذنّ حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقوام » .

وقد يشق علينا أن نلاحظ أن هذا المذهب الذي ذهبه عثمان في الخلافة هو نفس المذهب الذي عرضه زياد في خطبته المشهورة حين قال : « أيها الناس ! إنا قد أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا » . ومن هنا لا نرى غرابة فيما رُوي عن عثمان من قوله : « إن أبا

بكر وعمر كانا يظلمان أنفسهما وقرابتهما تقرباً إلى الله، وأنا أصل رحمي تقرباً إلى الله ». اجتهد أبو بكر وعمر فظلما أنفسهما وقرابتهما ، واجتهد عثمان فوصل رحمه وقرابته ولم يظلم نفسه . ولسنا بعد ذلك في حاجة الى ان نناقش في صحة ما جاءت به الرواية من انه اعطى مروان بن الحكم خمس الغنيمة التي غنمها المسلمون في افريقية او خمس الخمس، او وهب له ما بقي عليه من ثمن الخمس ، ومن انه اعطى الحكم عمه ، وأعطى ابنه الحارث ثلثمائة الف ، وأعطى عبدالله بن خالد بن اسيد الأموي ثلثمائة الف ، واعطى كل واحد من الذين وفدوا مع عبدالله بن خالد مائة الف مائة الف ، حتى أبى عبدالله ابن الأرقم صاحب بيت المال ان ينفذ الأمر واستقال من عمله ، وأعطى عبدالله بن الأرقم هذا بعد استقالته ثلثمائة الف ، فلم يقبلها تورعاً وزهداً ، واعطى الزبير بن العوام ستمائة الف ، واعطى طلحة بن عبيدالله مائة الف ، واعطى سعيد بن العاص مائة الف، وزوّج ثلاثاً او اربعاً من بناته لنفر من قريش فأعطى كل واحد منهم مائة الف دينار.

فقد كان عثمان يرى لنفسه الحق في هذا العطاء ، ولم يكن يبيح لصاحب بيت المال ان يعصى امره او يجادل فيه . واذا استباح عثمان لنفسه هذا السخاء فأولى ان يستبيح لنفسه ان يقترض من بيت المال ، حتى اذا ايسر قضى . وواضح ان عمال عثمان قد ساروا في المال سيرة امامهم ، فأعطوا واقترضوا والتوى بعضهم بالدين ، فاستقال عبدالله بن مسعود في الكوفة ، كما استقال عبدالله بن الأرقم في المدينة . واذا اطلق الإمام يده واطلق العمال أيديهم في الأموال العامة على هذا النحو ، لم يكن غريباً ان يحتاج الجند إلى المال فلا يجدوه ، وان يضطر الإمام ان ينفق على الحرب من أموال الصدقة ، فيعرّض نفسه لما تعرّض له من الإنكار الذي أشرنا اليه آنفاً ، والذي ان دل على شيء فإنما يدل على ان سياسة المال ايام عثمان لم تكن دقيقة ولا محكمة .

واذا اطلق الإمام يده في الأموال العامة ، أطلق العمال أيديهم فيها على هذا النحو، لم يكن غريباً ان تمتد هذه الأيدي الى اموال الصدقة ، لا للإنفاق على الحرب بل للعطاء وصلة الرحم ، كما روي ان عثمان ارسل الحارث بن الحكم مصدّقاً على قضاعة ، فلما جاء بصدقاتهم وهبها له . بل إذا امتدت الأيدي إلى الأموال العامة على هذا النحو ، لم يكن غريباً أن يحتاج بيت المال الى ما يواجه به نفقات الحرب والسلم وسخاء الإمام والعمال ، فيدعو ذلك إلى التشدد على الرعية والعنف بها في جباية الخراج والجزية والزكاة . وهذا يفسر لنا ما رُوي من ان المصريين شكوا من ظلم عبدالله بن سعد ، ومن قول عمرو بن العاص لعثمان : وهلكت فصالها . كما يفسر لنا ما رُوي من أن عمال

الصدقة كانوا يظلمون اهل البادية ، وينسب ظلمهم الى عثمان ويبلغه ذلك فلا يغير منه. على أن عطاء عثمان لم يقتصر على السائل من المال ، وإنما تجاوزه الى الجامد ايضاً ؛ فقد نقم الناس من عثمان أنه كان يقطع القطائع الكثيرة في الأمصار لبني أمية ؛ وقد دافع أهل السنة والمعتزلة عن هذا الإقطاع بأن عثمان إنما أقدم عليه استصلاحاً لهذه الأرض فنصح بذلك للمسلمين ، ورد الشيعة عليهم بأن عثمان نفسه لم يدافع عن نفسه هذا الدفاع ؛ وكان من الممكن أن يردّ الشيعة أيضاً بأن بني أمية لم يكونوا إخصائيين من دون قريش في استصلاح الأرض ، وبأن قريشاً لم تكن إخصائية من دون العرب في استثمار الضياع ، وبأن العرب لم يكونوا إخصائيين من دون سائر المسلمين في إحياء الأرض بعد موتها . وإنما جرت الأمور على ما قدّمنا من تصور عثمان لحق الإمام وسلطانه ، وتصرفه طبقاً لهذه الأصول التي اقتنع بها ، واقتنع عماله أيضاً .

وقد قدّمنا الحديث عن ذلك الانقلاب الاقتصادي الذي أحدثه عثمان حين أذن لمن أراد من أهل بلاد العرب أن يبيعوا فيئهم في الأمصار ، ويشتروا مكانه أرضاً في جزيرة العرب، وبينّا أن هذا الانقلاب قد أنشأ الملكية العقارية الضخمة في الإسلام . فإذا أضفنا إلى ذلك سخاء الإمام وعماله بالأموال العامة لبني أمية ولقريش كلها ، وأن هذا السخاء قد أتاح لكثير من القرشيين أن يشتروا الأرض في الأمصار ، دل هذا كله على أن السياسة المالية لعثمان كانت تنتهي إلى نتيجتين كلتاهما شر: الأولى إنفاق الأموال العامة في غير حقها ، وما يترتب على ذلك من الاضطراب المالي ومن ظلم الرعية ؛ والأخرى إنشاء هذه الطبقة الغنية المسرفة في الغنى التي تستجيب لطمع لا حدّ له ، فتتوسع في ملك الارض واستغلال الطبقة العاملة ، ثم ترى لنفسها من الامتياز ما ليس لها ، ثم تتنافس في التسلط ، ثم ترقى الى التنافس في الإمارة وفي الخلافة نفسها ، ثم ينتهي بها الأمر الى ما انتهى بها إليه من هذه الفتن والخطوب التي أفسدت الأمر على المسلمين منذ قتل عثمان الى أن أديل من بني أمية الى بني العباس . وطبيعي ان بيت المال لم يكن يستطيع أن يسع الناس جميعاً بهذا السخاء . وطبيعي أن الذين لم يأخذوا حقدوا على الذين أخذوا ، ثم حقدوا على الذين أعطوا ، فساءت الصلة بينهم وبين الإمام والولاة ، ثم فكروا في هذا كله ، واستحضروا سيرة النبي وصاحبيه ، فلم يلبثوا ان تبينوا أن في سيرة عثمان مخالفة للسنة الموروثة من جهة ، وظلماً لهم من جهة أخرى ، ولذلك طلب أهل الأمصار الى عثمان ، حين ثاروا به وقبل ان يحصروه ، أن يستأنف النظر في مصارف الفيء ، وطالبوه بألا يعطي من هذا الفيء إلا الذين قاتلوا عليه هؤلاء

الشيوخ من أصحاب النبي ومعنى ذلك أنهم رأوا عثمان قد أسرف في إنفاق الأموال العامة ، فطالبوه لا بالكف عن هذا الإسراف فحسب ، بل كذلك بوضع سياسة جديدة تغير سياسة عمر نفسها ؛ فقد كان عمر يسير في الفيء سيرة معلومة : ينفذ أمر الله فيأخذ خمس الغنائم ، وينفذ أمر الله فيقسم الأخماس الأربعة الأخرى بين الذين غنموها ؛ ثم كان يجمع الى هذا الخمس ما يجبى اليه من الخراج والجزية ، وينفق من هذا كله على المرافق العامة ، ثم يفرض العطاء بعد ذلك للمسلمين ، الرجال والنساء والأطفال . وكان الجند كغيرهم من المسلمين يأخذون عطاءهم الى ما يصيب الفائزين منهم من الغنائم حين تتاح لهم الغنائم ؛ فلما رأى أهل الأمصار إسراف الإمام وعماله فيما يجتمع في بيت المال ، طالبوه بألا يفرض العطاء في الأموال العامة إلا لمن قاتلوا على الفيء من الجند سواء غزوا او لم يغزوا ، يكون عطاء الغزاة منهم أجراً لهم ، وعطاء الذين عجزوا عن الغزو شيئاً يشبه ما نسميه في عصرنا الحديث « المعاش » - وإلا لهؤلاء الشيوخ من أصحاب النبي ، لأنهم قاتلوا مع النبي وغزا كثير منهم في الفتوح ، فأصبح لهم الحق في أن يرزقوا من هذا الفيء كغيرهم من الجند الذين قاتلوا ، ثم أعجزتهم الجراحات او السن فاستحقوا المعاش ؛ فأما من عداهم من المسلمين الذين لم يقاتلوا على الفيء فليس لهم أن يأخذوا منه شيئاً . وكذلك دفعت سياسة عثمان المالية هؤلاء الثائرين إلى أن يلحوا على عثمان في تغيير سياسة عمر نفسها ، وما دام عثمان قد ذهب الى سياسة تنحرف عن سياسة عمر حتى أبعد وأنشأ طبقة « الرأسماليين » الذين أسرفوا على أنفسهم في الملك والتوسع فيه ، فليس ما يمنع الثائرين من أن يكفوا يد عثمان وعماله عن هذه السياسة وإن اقتضى ذلك الانحراف عن سيرة عمر . واذا لم يكن بدٌّ من السياسة التي تقوم على الأثرة لا على الإيثار ، وتنحرف عن هذه الاشتراكية المعتدلة التي مضت عليها امور المسلمين ، فلا أقل من أن يتحقق شيء من العدل في هذه الأثرة ، ومن أن يكون رأس المال موقوفاً على الذين اكتسبوه بأيديهم وبذلوا في سبيله جهودهم ودماءهم . والمهم هو ان الثائرين ارادوا ان تكون «الرأسمالية» التي احدثتها سياسة عثمان شاملة عادلة بمقدار ما يمكن ان تبلغ من الشمول والعدل ، ثم هم رأوا ان كثيراً من شباب قريش واهل المدينة يعيشون عيشة بطالة يعتمدون على اعطياتهم ، وقد لا يحتاجون إلى هذه الأعطيات ، فقالوا : من كان منهم غنياً فلا حق له في بيت المال ، ومن كان منهم فقيراً فليعمل وليكتسب ، ولا معنى لأن تنفق الأموال العامة على الفارغين

والمتبطلين . وقد اجابهم عثمان الى ما طلبوا ، وخطب النـــاس فقال لهم : من كان له زرعٌ فليلحق بزرعه ، ومن كان له عملٌ فليكتسب من عمله ؛ فليس لأحد عندنا عطاء إلا ان يكون من الذين قاتلوا على هذا الفيء او من هؤلاء الشيوخ من اصحاب رسول الله.

ولكن عثمان لم ينفذْ هذه السياسة ، أعجلته الفتنة عن إنفاذها . ولو قـــد سار عثمان في الأموال العامة سيرة عمر فلم ينفق المال إلا بحقه ، لجنب نفسه وجنب المسلمين شرّاً عظيماً ، ولكان من الممكن ان ينشيء الإسلام الإنسانية نظاماً سياسياً واجتماعياً صالحاً يجنبها كثيراً من الاضطراب الذي اضطرت إليه ، والفساد الذي تورطت فيه . ولكن ظروف الحياة كانت اقوى من عثمان ؛ ومن يدري ! لعلها كانت تكون اقوى من عمر نفسه لو لم يعجله الموت .

- ٣٦ -

وانكر المسلمون على عثمان موقفه من ناقديه ومعارضيه ؛ فهو قد انحرف عن سيرة عمر في ذلك انحرافاً عظيماً . فعمر لم ينهَ عماله عن شيء كما نهاهم عن ان يستعبدوا الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً ، ولم يحذّرهم من شيء كما حذّرهم من العنف بالرعية والاعتداء على ابشارها واشعارها . فلم يكن عمر إذن يبيح ضرب الناس إلا في الحدود ولم يكن يعفي عماله من القصاص إن تعدّوا على الرعية بالضرب في غير حدّ او في غير حق من الحقوق .فأما عثمان فمهما يكن اعتذار اهل السنة والمعتزلة عنه فإنه قد اسرف وترك عماله يسرفون في العنف بالرعية ضرباً ونفياً وحبساً . وهو نفسه قد ضرب او امر بضرب رجلين من اعلام اصحاب النبي : ضرب عمار بن ياسر حتى اصابه الفتق ، وامر من اخرج عبد الله بن مسعود من مسجد النبي إخراجاً عنيفاً حتى كسر بعض اضلاعه . ومهما يكن من امر هذين الرجلين الجليلين ومن نقدهمـــا له وتشهيرهما به وتشنيعهما عليه ، فما نعلم انه حاكمهما او اقام عليهما الحجة او اباح لأحد منهما الدفاع عن نفسه ، وإنما سمع فيهما قول عماله او قول خاصته ، ثم عاقبهما دون ان يقيم عليهما البينة . وليس له من هذا كله شيء . ويقول المدافعون عن عثمان من اهل السنة والمعتزلة : إن للإمام حق التعزير . وليس في ذلك شك ، ولكن بشرط ان يأتي المسلم من الأمر ما يستحق عليـه التعزير ، وان يقال له ويسمع منه وتقوم عليه

البينة . وما نعرف ان عثمان حاكم عماراً او ابن مسعود . وهو نفسه قد شق على ابي ذر حتى نفاه او اضطره إلى ان ينفي نفسه من الأرض ؛ لا لشيء إلا لأنه انكر سياسته في الأموال العامة ، وانكر النظام الاجتماعي الذي أنشأ طبقة الأغنياء ، وأتاح لهم أن يكنزوا الذهب والفضة ، ويستكثروا من المال إلى غير حد . ثم هو قد أذن لعماله أن يخرجوا الناس من ديارهم كلما آنسوا منهم بعض ما يكرهون، فجعل عماله يتقاذفون فريقاً من أهل الكوفة ، يرسلهم سعيد إلى معاوية ، ثم يردّهم معاوية إلى سعيد ، ثم يرسلهم سعيد الى عبد الرحمن بن خالد ، دون أن يحاكموا أو تقوم عليهم البينة أو يسمع منهم دفاعهم عن أنفسهم . وأذن لعبد الله بن عامر في أن ينفي عامر بن القيس إلى الشام ، فلم يكد معاوية يراه ويسمع منه حتى تبين أنه مظلوم مكذوب عليه ، وأراد أن يردّه إلى البصره فأبى . واجترأ عبد الله بن سعد بن أبي سرح على أن يضرب بعض الذين شكوه إلى الإمام حتى انتهى بأحدهم الى الموت ، واضطر المهاجرون والأنصار وأزواج النبي الى أن يلحوا على عثمان في أن ينصف المصريين من عاملهم ، فهمّ ثم لم يبلغ ما أراد .

فهذه السياسة العنيفة التي تسلط الخليفة وعماله على أبشار الناس وأشعارهم ، وعلى أمنهم وحريتهم ، ليست من سيرة النبي ، ولا من سيرة الشيخين في شيء . وقد اجترأ بعض الناس على نقد النبي نفسه ، حتى قال له : اعدل يا محمد فإنك لم تعدل ، مرة ومرة ، فلما قالها الثالثة لم يزد النبي على أن قال : « ويحك ؛ فمن ذا يعدل إذا لم أعدل ؟ » ، وهمّ المسلمون أن يبطشوا بهذا الرجل ، ولكن النبي كفهم عن ذلك . وقد يقال إن المسلمين أحدثوا في أيام عثمان أحداثاً لم تكن ، فسار فيهم سيرة تتلاءم وهذه الأحداث. وهذا بالضبط شبه ما قال زياد لأهل العراق : « وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة » . وغريب أن تذكرنا سياسة عثمان وولاته سياسة زياد مرتين .

والآن وقد استعرضنا هذه الاحداث وآراء المتكلمين فيها، فقد نستطيع أن نستقبل الفتنة منذ حدثت ، ونعرضها كما كانت الى أن انتهت الى المرحلة الأولى من مراحلها ، وهو هذا الحدث العظيم الذي قتل فيه الإمام عنوة واغتيالا .

- ٢٧ -

والمؤرخون مجمعون على أن المسلمين استقبلوا خلافة عثمان راضين عنها مطمئنين إليها،

لأنه وسع عليهم ما كان عمر يضيّق، ويسر من أمرهم مـــا كان عمر يعسّر. وهو كما رأيت قد زاد العطاء لمجرد نهوضه بالأمر ، ثم هو قد ألان للناس من جانبه ، وبسطهم يده بالعطاء ، وأحس الناس رخاء وسعة لم يكونوا يجدونهما أيام عمر ، وأحست قريش بنوع خاص حرية لم تكن تجدها أيام عمر ؛ فلم يقم لهـــا عثمان عند شعب الحرة ، ولم يأخذ بحلاقيمها مخافة أن تتهافت في النار ، وإنما خلى بينها وبين الشعب تنفذ منه إلى حيث شاءت من الأقاليم والأمصار . ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الأعوام الستة الأولى من خلافة عثمان مرّت بسلام ، فلما استقبل عثمان الشطر الثاني من خلافته ظهرت المصاعب وقامت المشكلات .

ويخيل إليّ أن المسلمين رضوا بخلافة عثمان ست سنين ، ثم احتملوها أربـــع سنين . فلما جاوز عثمان بخلافته الأعوام العشرة جعل المسلمون يضيقون به ويستطيلون خلافته ، يظهرون ذلك في شيء من الرفق أول الأمر ، ثم في شيء من الحدّة بعد ذلك ، ثم في عنف جعل يتزايد شيئاً فشيئاً حتى انتهى الى غايته المنكرة وهي قتل الإمام .

وليس معنى ذلك أن عثمان لم يلقَ معارضة أثناء هـــذه الأعوام العشرة ، فقد ظهرت المعارضة منذ اليوم الأول لخلافته بالقياس الى قضيـــة عبيد الله بن عمر ، وإنما معناه أن المعارضة لم تبلغ طور الخطورة إلا في العامين الأخيرين من حياة عثمان . وأكاد أعتقد أن شيئاً من التشاؤم قـــد شاع في نفوس الناس قليلاً قليلا منذ أضاع عثمان خاتم النبي في بئر أريس ، فقد توارث الشيخان هـذا الخاتم عن النبي وأمضيا به أمور الدولة كلها ، وكانا يجدان في ذلك خيراً وبركة وتراثاً لدخطره ، وكانا يمضيان بهذا الخاتم ما يمضيان على أنهما خليفتان لرسول الله ينفذان سنته وينهجان نهجه ، ويمضيان بخاتمه الذي كان يمضي به الأمور قبل ان يفارق الدنيا . وتلقى عثمان هذا الخاتم عن عمر كما تلقاه عمر عن ابي بكر ، وكما تلقاه ابو بكر عن اهل بيت النبي حين استخلف . فلما سقط هذا الخاتم من يد عثمان في البئر وجعل المسلمون يلتمسونه ويجتهدون في التماسه دون ان يظفروا به على قلة ما كان في البئر من ماء ، كرهوا ذلك وتطيروا به ، واستاء لذلك عثمان استياء شديداً ، وقد اتخذ خاتماً جديداً على صورة الخاتم الأول ونقش عليه ما كان منقوشاً على الخاتم الأول « محمد رسول الله » . ولكن هذا الخاتم الجديد لم يمسّ إصبع النبي ولم يمس إصبع الشيخين ، وإنما هو خاتم مصنوع لم يورث ولم تمضَ به الأمور من قبل ؛ فكأن عثمان قد استأنف منذ اتخذ هذا الخاتم عهداً جديداً . ويقول الرواة إن عبد الرحمن بن عوف كان أول من اجترأ على عثمان

فألغى بعض أمره واطمع الناس فيه . وذلك ان بعض السعاة اقبلوا بإبل للصدقة ، فوهبها عثمان لبعض اهل الحكم . فلما بلغ ذلك عبد الرحمن دعا بعض أصحاب النبي، وأرسلهم فاستردوا له هذه الإبل وقسمها في الناس ، وعثمان في الدار لم ينكر ذلك ولم يغيره ، بل لم يكلم فيه عبد الرحمن وأصحابه . فكان اجتراء عبد الرحمن وأصحابه خطراً في نفسه ؛ لأنه تغيير لأمر السلطان ، وكان سكوت عثمان على هذا الاجتراء أشد منه خطراً ؛ لأنه اعترف بالخطأ ونقص من هيبة السلطان .

وقد جعل الناس بعد ذلك يظهرون إنكارهم لما يكرهون من سياسة عثمان ، يخطئون في ذلك ويصيبون ، ولكنهم يعارضون على كل حال . ثم لم يتحرج بعضهم من أن يواجه عثمان بالمعارضة على ملأ من الناس ، ولم يتحرج بعضهم الآخر من ان يعصى امر عثمان إذا صدر اليه ، كالذي كان من ابي ذرّ حين ارسل إليه عثمان ينهاه عما كان يلهج به من ذم الأغنياء وتلاوة الآية الكريمة : « والذين يكنزونَ الذّهبَ والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم » فلم يسمع له ولم يطع ، وإنما قال : « لأن أرضي الله بسخط عثمان أحبُّ إليّ وخير لي من ان اسخط الله برضا عثمان » .

ولم تكن قصة الوليد بن عقبة خليقة ان تشعر قلوب الناس بهيبة لسلطان الخليفة . فليس مما يرفع من شأن السلطان في النفوس أن تقوم البينة على ان بعض عماله قد شرب الخمر ، وان يضطر الخليفة الى عزل هذا العامل وإقامة الحد عليه ، وأن يتحدث الناس بأنه أخطأ حين ولاّه مكان سعد ، وبأنه إنما ولاّه لقرابته مع تظاهر الأدلة على أنه لم يكن أهلاً للولاية .

ثم جعلت المعارضة تشتد في الأمصار وتصل أصداؤها إلى المدينة ، حتى اضطر عثمان إلى اصطناع النفي الإداري . وجعلت المعارضة تشتد في المدينة نفسها ، وتصل أصداؤها إلى الأمصار ، فتزيد المعارضين في الأقاليم شدة واجتراء ، حتى اضطر عثمان إلى أن يصطنع الشدة مع معارضيه أنفسهم ، فيوعد وينذر، ولا يملك نفسه أحياناً من البطش ببعض المعارضين .

وقد روى المؤرخون أن الناس كثروا على عثمان ونالوا منه أشنع ما نيل من أحد ، سنة أربع وثلاثين ، وكان أصحاب النبي يرون ويسمعون ثم لا ينهون ولا يذبون ، إلا جماعة ضئيلة : زيد بن ثابت وأبو أسيد الساعدي ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت . بل كان أصحاب النبي الذين أقاموا بالمدينة يكتبون إلى أصحاب النبي الذين تفرقوا في الثغور يستقدمونهم إلى المدينة لتقويم ما اعوجّ من أمر الخلافة ، يقولون لهم :

إنكم خرجتم تطلبون الجهاد وإنمـــا الجهاد وراءكم ، فارجعوا إلى المدينة لإقامة الدين وصيانته ؛ فقـــد عرّضه السلطان لشر عظيم . واجتمع الناس فتذاكروا الأحـداث والخطوب ، ولاموا عثمان فأكثروا لومه ، ثم كلفوا علياً أن يدخل على عثمان فيكلمه .
قال المؤرخون: فدخل عليٌّ على عثمان فقال له: الناس ورائي وقد كلموني فيك والله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه. إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، و خلونا بشيء فنبلغكه ، وما خصصنا بأمر دونك . وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ﷺ ونلت صهره . وما ابن قحافة بأولى بعمـــل الحق منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك . وإنك أقرب الى رسول الله ﷺ رحماً ، ولقد نلت من صهر رسول الله ﷺ ما لم ينالا ولا سبقاك الى شيء . فالله الله في نفسك ؛ فإنك والله ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهل، وان الطريق لواضح بيّن ، وان اعلام الدين لقائمة . تعلم يا عثمان أن افضل عباد الله عند الله إمـــام عادل هُدي وهَدى ، فأقام سنة معلومة ، وامات بدعة متروكة . فوالله ان كلًا لبين ، وان السنن لقائمة لها اعلام ، وان البدع لقائمة لها اعلام ، وان شر الناس عند الله إمـــام جائر ضَلّ وضُلّ به فأمات سنة معلومة وأحيا بدعة متروكة . واني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى في جهنم، فيدور في جهنم كما تدور الرحى، ثم يرتطم في غمرة جهنم » . واني أحذرك الله واحذرك سطوته ونقماته ؛ فإنه يقال : يقتل في هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة ، ويلبس امورها عليها ، ويتركهم شيعاً فـــلا يبصرون الحق لعلو الباطل ؛ يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً » [1] .

ولست ادري أرُوي حديث علي الى عثمان كما قـــاله ، أم روي في نص مقارب يؤدي معناه وان لم يؤد الفاظه . ولكن المهم هو ان المعارضة في المدينة قد خرجت عن طور النقد الفردي المتفرق الذي يقال هنا وهناك ثم لا يتجاوز ذلك الى ما بعده . خرجت عن هذا الطور الى طور آخر من الاجتماع والتنظيم والاتجاه الى الخليفة مباشرة، ترفع اليه نقدها لسيرته وانكارها لسياسته ، ثم تنتظر مـــا يكون منه بعد ذلك . فهي اذن قد خرجت من المعارضة السلبية الى المعارضة الإيجابية ، كما نقول نحن في هذه الأيام . وقد استمع عثمان لرسول المعارضين اليه ، ثم ردّ عليه فقال : قـــد والله علمتُ ليقولنّ الذي قلتَ . أمـــا والله لو كنتَ مكاني ما عنفتك ولا أسلمتك ولا

(١) تاريخ الطبري في أحداث سنة ٣٤ هـ .

عبت عليك ولا جئت منكراً أن وصلت رحماً ، وسددت خلة ، وآويت ضائعاً ، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولي ! أنشدك الله يا علي ؛ هل تعلم ان المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟ قال نعم . قال : فتعلم أن عمر ولاه ؟ قال نعم . قال : فلمَ تلومني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته ؟ قال عليّ : سأخبرك ان عمر بن الخطاب كان كلُّ من ولي فإنما يطأ على صماخه ، ان بلغه عنه حرفٌ جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية . وأنت لا تفعل ، ضعفت ورفقت على أقربائك . قال عثمان : هم اقرباؤك أيضاً . فقال علي : لعمري ان رحمهم مني لقريبة ، ولكن الفضل في غيرهم . قال عثمان : هل تعلم ان عمر ولى معاوية خلافته كلها ! فقد وليته . فقال عليٌّ : أنشدك الله . هل تعلم ان معاوية كان اخوف على عمر من يرفأ غلام عمر منه ؟ قال نعم . قال عليّ : فان معاوية يقتطع الأمور دونك وانت تعلمها ، فيقول للناس هذا أمر عثمان ، فيبلغك ولا تغير على معاوية [1] .

فهذا الحوار القصير يصور أدق تصوير ما كانت المعارضة في المدينة تنكر على عثمان ، وما كان عثمان يردّ به على هذا الإنكار . فقد أنكرت المعارضة عليه إيثار قرابته بالأموال والأعمال ، وضعفه أمام العمال من أقربائه . وردّ عثمان بأنه لم يزد على ان وصل رحماً وسدّ خلةً وآوى ضائعاً ، وانه سار في اختيار العمال سيرة عمر ؛ فقد ولى عمر المغيرة بن شعبة مع انه ليس هناك ، وولى معاوية خلافته كلها . وردّ عليٌّ بأن عمر كان يراقب عماله أشد المراقبة ويبطش بهم ان انحرفوا ، وبأن معاوية كان يخاف من عمر أشد مما كان يخاف منه غلامه يرفأ . وافترق الرجلان على غير اتفاق إلا ان عثمان كان قد وجد على عليّ لأنه أسلمه ولامه وعاب عليه ، وكان الحق عليه أن يرعى ما بينهما من القرابة . ثم لم يكتف عثمان بالاستماع لما سمع من عليّ وقول ما قال له ، بل أراد أن يواجه المعارضة كلها مجتمعة ، وأن ينذر ويحذّر ، فخرج حتى جلس على المنبر ثم قال : « أما بعد فإن لكل شيء آفة ، ولكل أمر عاهة ، وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون يرونكم ما تحبون ويُسِرّون ما تكرهون ، يقولون لكم ويقولون ، أمثال النعام يتبعون أول ناعق ، أحبُّ مواردها إليها البعيد لا يشربون إلا نَغَصاً ، ولا يردُون إلا عكراً ، لا يقوم لهم رائد ، وقد أعيتهم الأمور وتعذّرت عليهم المكاسب ! ألاَ فقد والله عبتم عليّ بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله وضربكم

---

(١) تاريخ الطبري في أحداث سنة ٣٤ هـ .

بيده وقمعكم بلسانه فدنتمْ له على ما أحببتم أو كرهتم . ولنتُ لكم وأوطأت لكم كتفي وكففت يدي ولساني عنكم ، فاجترأتم عليّ . أما والله لأنا أعزُّ نفراً وأقرب ناصراً واكثر عدداً وأقمن إن قلت هلمّ أتى إليّ . ولقد أعددت لكم أقرانكم وأفضلت عليكم فضولاً ، وكشرت لكم عن نابي ، وأخرجتم مني خلقاً لم أكن احسنه ومنطقاً لم اكن انطق به . فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم ؛ فإني قد كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا. ألاَ فماتفقدون من حقكم ؟ والله ما قصرت في بلوغ ما كان يبلغ منْ كان قبلي ومن لم تكونوا تختلفون عليه . فضَل فضلٌ من مال ، فما لي لا أصنع في الفضل ما أريد ؟ فلمَ كنت إماماً ؟» وهمّ مروان بن الحكم أن يتكلم فزجره عثمان قائلاً : «اسكتْ لا سكتّ ! دعني وأصحابي . ما منطقك في هذا ! ألم أتقدم إليك ألا تنطق ؟ »[1] .

وهذه الخطبة هي أعنف خطبة خطبها عثمان في خلافته كلها . وهو نفسه قد أحس ذلك واعتذر منه اعتذاراً رفيقاً يلائم خلقه وطبعه السمح فقال : « وأخرجتم مني خلقاً لم أكن أحسنه ومنطقاً لم أنطق به» . على أنه لم يكد يتم خطبته حتى رجع في رفق عذب إلى المألوف من سيرته حين قال لمروان: «دعني وأصحابي» فهو إذن يتحدث إلى أصحابه لا إلى خصومه، وهو يعنف بهم لأنهم عنفوا به حتى أخرجوه عن طوره. والحليم يغضب ثم لا يلبث أن يعود إلى ما ألف من الحلم .

وعثمان ينكر على أصحابه استماعهم لهؤلاء العايبين الطعانين الذين يظهرون لهم ما يحبون ويخفون عليهم ما يكرهون ، ويضللونهم في إمامهم ، ويطمعونهم في أشياء ليس إليها سبيل . وعثمان يشير إلى قوم بعينهم في هذا الحديث ، يرى انهم قوام المعارضة ، وأنهم يغرون به ويؤلبون عليه لتحقيق آرائهم وبلوغ آمالهم التي طالما انتظروا بلوغها. وهؤلاء بالطبع هم الذين كان عثمان يظن أنهم ينفسون عليه الخلافة ويتمنونها لأنفسهم . ولعله يشير إلى من بقي من أهل الشورى ، والى الذين كانوا يلهجون بنقده من أمثال عمار بن ياسر وغيره من المهاجرين والأنصار .

ثم يقول عثمان لأصحابه إنهم ينكرون عليه أشياء قد أتاها عمر فلم ينكروها عليه، لأن عمر اشتد عليهم فخافوه ، ولأنه هو لانَ لهم فطمعوا فيه . ثم ينذر أصحابه وينذر الذين يغرونهم ويؤلبونهم ، فيذكر أنه أعز نفراً واقرب ناصراً وأكثر عدداً وأجدر إن دعا ان يستجاب له . وما من شك في أنه يعرّض في هذا النذير بمنافسيه

---

(١) تاريخ الطبري في أحداث سنة ٣٤ هـ .

الذين لا يعدلونه قوة وبأساً . فبنو أميـة كانوا من غير شك أعز نفراً وأكثر ناصراً من سائر أحياء قريش . ثم يعود الى أصحابه فيسألهم ماذا ينكرون وماذا ينقمون ؟ لقد أدى إليهم حقهم كاملاً ، ولم يقصر بهم عما كان يبلغه أبو بكر وعمر . ثم يعطف على تصرفه في الأموال العامة فيقول: « فضّل فضلٌ من مال ، فمالي لا أصنع في الفضل ما أريد ؛ فلمَ كنت إماماً ؟ » . يريد أنه إذا أدى الى المسلمين حقهم من بيت المال فله أن يتصرف في سائره كما يريد ذلك شيء تبيحه له الإمامة ، وليس لأحد أن يجادله فيه أو ينكره عليه فقد كانت الجولة الأولى - كما يقول المحدثون - بين عثمان ومعارضيه متكافئة : أنكر المعارضون ثم نظموا إنكارهم ثم رفعوه الى الخليفـة ، فرده عليهم ثم خطبهم فأنذر وحذّر واشتد ثم ثاب الى شيء من لين ، ولكنه استمسك بموقفه لم يحد عنه ، واستمسكت المعارضة بموقفها لم تحـد عنه أيضاً . إلا أن الحوادث كانت أقوى منه ومن المعارضة فقد مضت المعارضة في انكارها ، وجاءته الأنباء من الأقاليم بأن المعارضة فيها ليست أقل ولا اهون من المعارضة في المدينة . وكان عثمان قد احتفظ بسيرة عمر ، فحـجّ بالناس أثناء خلافتـه كلها إلا العام الأول لأنه كان مريضاً ، وإلا العام الأخير لأنه كان محصوراً. وكان يلقى عماله في الموسم من كل عام فيسمع منهم ويقول لهم . فلما لقيهم في الموسم سنة أربع وثلاثـين جمعهم للمشورة . ويزعم الرواة انه احضرهم عمرو بن العاص . واشك انا في هذا ؛ فلم يكن عمرو بن العاص عاملاً لعثمان سنة اربع وثلاثين ، ولم يكن عمرو بن العاص ناصحاً لعثمان منذ عزله عن مصر ، وإنما أقحم الرواة عمراً في هذه المشورة ليصوروا مكره ودهاءه وكيده لعثمان . واكبر الظن انه لم يحضر شوراه إلا هؤلاء العمال الأربعة الذين كانوا يتولون الأمصار ذات الخطر ، وهم معاوية ، وعبدالله بن سعد بن ابي سرح ، وعبد الله بن عامر ، وسعيد بن العاص . فلما التأمت جماعتهم قال لهم عثمان : إن لكل إمام وزراء ، وإنكم وزرائي . وقد رأيتم ما ظهر من تنمر الناس لي ومطالبتهم إياي بعزل عمالي ، ومن هذه الفتنة التي أظهرت رأسها ، فأشيروا عليّ . فأما معاوية فلم يزد على ان طلب إليه ان يرد العمال إلى أمصارهم وان يكلهم إلى كفايتهم ، وان يعتمد عليهم في ان يضبط كل واحد منهم مصره ويحزم امره ، ويكفي الإمامَ من قبله من الناس . واما سعيد بن العاص فأشار عليه بأن يقتل قادة المعارضة وزعماء الفتنة . واما عبد الله بن سعد بن ابي سرح فأشار عليه ان يترضى الناس ويعطيهم من بيت المال ويأخذهم من طريق اطماعهم . واما عبد الله بن عامر فأشار عليه بأن يرسل الناس إلى الجهاد ، ويشغلهم بالحرب ، ويطيل

إقامتهم في الثغور . وبهذا الرأي اخذ عثمان ، ردّ العمال إلى امصارهم ، وامرهم ان يحسنوا السياسة ويتشددوا في حقوق الله،ويأخذوا الرعية بالحزم ويرسلوهم إلى الغزو، ويقطعوا العطاء عمن ظهر منه عوج او انحراف . وعاد عثمان إلى المدينة وصحبه معاوية في طريقه إلى الشام. وفي المدينة عقد عثمان مجلساً آخر للمشاورة شهده معاوية وشهده نفر من كبار الصحابة فيهم عليّ وطلحة والزبير وسعد. وبدأ معاوية الحديث، فأوصى هؤلاء النفر بالإمام الشيخ ، وحذّرهم من الفتنة والفرقة ، ولم يخل تحذيره من بعض النذير . فنهره عليّ ، وكان بينهما حوار لم يخلُ من جفوة . ثم تكلم عثمان كلاماً فيه كثير من لين ورفق ، واظهر انه سائر إلى ما يشير القوم به عليه . فقيل له إنك اعطيت فلاناً وفلاناً ، فاستردّ ما اعطيت ، فوعد عثمان بذلك ورضي القوم،وتفرقوا على شيء من رضا . ولم يكن شك في انّ المعارضة قـــد ربحت بعض الربح ؛ فقد استشار عثمان زعماءها واجابهم إلى بعض ما ارادوا .

وانصرف معاوية إلى المدينة بعد ان اوصى المهاجرين بالإمام الشيخ مرة اخرى ، وبعد ان لمح لهم مرة اخرى كذلك بالتحذير والنذير. وكان يظنّ ان الناس سيستقبلون سنة خمس وثلاثين بشيء من دعة وهدوء . ولكن اهل الكوفة ثاروا وردّوا واليهم سعيداً كما قدّمنا ، وطلبوا ان يولي عليهم ابو موسى ، واضطر عثمان إلى ان يجيبهم إلى ما ارادوا ؛ فكان هذا اول الفتنة : عرضت الكوفة لغيرها من الأمصار مثلاً ، فلم تلبث الأمصار ان اتبعته ، وظهر للناس ان الثورة طريق موصلة إلى ما يريـــد الثائرون .

وما هي إلا ان يذهب المصريون مذهب اهل الكوفة ، وإذا هم يرسلون في رجب من سنة خمس وثلاثين وفداً ضخماً ، خرجوا يظهرون انهم يريدون العمرة ، ولكنهم اقبلوا على المدينـــة واظهروا انهم يريدون ان يناظروا عثمان في سياسته وسياسة عماله . والرواة يختلفون : فيقول بعضهم أنهم لقوا عثمان في قريـــة خارج المدينة فناظروه وحكموا المصحف بينـه وبينهم ، فأقنعهم بأشياء حتى رضوا ، وأقنعوه بأشياء حتى اعتذر ووعد بالنزول عنهـــا . ويقول آخرون إنه ارسل إليهم جماعة من المهاجرين والأنصار فيهم عليّ ومحمـــد بن مسلمة الأنصاري ، واعطى على نفسه عهداً ليبلغنّ بالناس مـــا يرضون . فخرج السفراء ولقوا القوم فوعظوهم واعطوهم الرضا ، ثم جاءوا بوفد منهم إلى عثمان فأكد لهم العهـــد ، ثم خرج فخطب الناس وأثنى على الوفد المصريين وأعطى التوبة واستغفر الله وبكي وبكى الناس ورقت

القلوب للإمام الشيخ ، وانصرف المصريون راضين . قال الرواة إن عثمان قال في آخر خطبته تلك : « إذا نزلت فليأتني خياركم ، فلا ترفع إليّ ظلامة إلا كشفتها ، ولا تعرّض عليّ حاجة إلا قضيتها » . ولكنه لم يكد يعود إلى داره حتى حوّله مروان عما وعد به ، وخرج فردّ الناس عن الدار ردّاً عنيفاً . والشيء المحقق هو أن عثمان استطاع بما أعطى من العهد وما بذل من الرضا وما أعلن من التوبة ان يتألف الناس ويجمعهم على طاعته ومحبته وانتظار الخير منه . ولكن الأيام مضت وتبعتها الأيام ، ولم يعزل عثمان عاملاً ولم يغير ما وعد بتغييره شيئاً . وما كاد يقبل شوال من هذه السنة حتى يخرج المصريون خرجتهم الثانية في عدد يقول المقللون إنه كان ستمائة ، ويقول المكثرون إنه كان ألفاً ، ويخرج في الوقت نفسه ناس من الكوفة والبصرة ، وقد تواعدوا القوم حين استيأسوا من وفاء الخليفة لهم بما اعطى على نفسه من العهد . ويبلغ القوم ضواحي المدينة ، ويعلم عثمان بمقدمهم فيريد أن يرسل إليهم علياً ومحمد بن مسلمة ، فيأبى عليّ ، ويقول محمد بن مسلمة : لا أكذب الله في سنة مرتين . ولكن أهل المدينة على ذلك يأبون أن تدخل المدينة عليهم عنوة ، وينهضون لردّ هؤلاء الطارئين . وتقبل وفود من المصريين والكوفيين والبصريين ، فإذا هم يرون علياً وطلحة والزبير قد عسكروا ومع كل واحد منهم اصحابه يريدون ان يحموا دار الهجرة من ان تقتحم عليهم عنوةً ، فيرتدون ويظهرون العودة إلى أمصارهم ويزولون عن معسكراتهم في الضواحي . ويستيقن اهل المدينة ان قد زال الخطر ، وان القوم قد رجعوا ادراجهم ، فيستأنفون حياتهم على ما الفوا من أمن ودعة وهدوء . ثم لا يروعهم إلاّ التكبير قد ملأ المدينة من حولهم ، وينظرون فإذا القوم قد كادوهم حين اظهروا الرجوع إلى امصارهم ، حتى إذا آنسوا منهم امناً ودعة عادوا فدخلوا المدينة واحتلوها بغير قتال ، ونادى مناديهم : من لزم داره فهو آمن ، ومن كفّ عنا أذاه فهو آمن . ثم يضرب الحصار حول دار عثمان .

وهنا تأتي قصة الكتاب الذي يقول الرواة إن المصريين قد أخذوه أثناء عودتهم إلى مصر فكرّوا راجعين . فهذه القصة فيما أرى ملفقة من اصلها . وليس ادل على ذلك مما يقول الرواة انفسهم من ان اصحاب النبي لم يكادوا يجادلون القوم في كتابهم هذا ويسألونهم : كيف علم اهل الكوفة واهل البصرة بأنكم قد اخذتم هذا الكتاب وقد ذهب كل فريق منكم إلى وجه ؟ حتى عجزوا ولم يعرفوا كيف يجيبون ، وقالوا : ضعوا هذا الأمر كيف شئتم ، فلا حاجة لنا بهذا الرجل . وليس بمعقول ولا بمقبول

ان يكيد عثمان للسلمين هذا الكيد ، فيعطي فريقاً منهم الرضا ثم يرسل إلى عامله سراً من يبلغـــه الأمر ان يبطش بهم ويرهقهم من أمرهم عسراً . وليس بمعقول ولا مقبول ان يجترىء مروان على الخليفة فيكتب هذا الكتاب ويمضيه بخاتمه ويرسله مـــع غلامه على جمل من إبله . كل هذا اشبه بأن يكون ملهاة سخيفة منه بأن يكون شيئاً قد وقع . والأمر ايسر من هذا. تلقى اهل الأمصار وعداً من إمامهم فاطمأنوا إليه ، ثم تبينوا ان الخليفة لم يصدق وعده ، فأقبلوا ثائرين يريدون ان يفرغوا من هـــذا الأمر والا يعودوا حتى يفرغوا منه ، فلما بلغوا المدينة وجدوا اصحاب رسول الله قد تهيئوا لقتالهم ، فكرهوا هذا القتال وانصرفوا كائدين ، حتى إذا عرفوا ان هؤلاء الشيوخ قد القوا سلاحهم وأمنوا في دورهم ، كرّوا راجعين فاحتلوا المدينة بغير قتال.

وما كان هؤلاء الناس يريدون ان يقاتلوا اصحاب النبي ولا ان يقتلوهم ، ولا ان يثيروا حول المدينة حرباً تذكر بيوم احد او بيوم الأحزاب ، وإنما كانوا يريدون ان يحاصروا الإمام ويماجلوه حتى يصلوا إلى خلعه او الى قتله . وقد بلغوا ما ارادوا ، فدخلوا المدينة وحاصروا الإمام .

واكاد اقطع بأن قد كان لهم من اهل المدينـــة انفسهم اعوان وانصار دعوهم وشجعوهم ، ثم اعلموهم بما عزم عليه اصحاب النبي ، ثم اعلموهم بعودة المدينة إلى الهدوء والدعة ، ثم انضموا إليهم حين حاصروا عثمان . وقـــد كان الحصار في اول امره يسيراً لا يكاد يتجاوز احتلال المدينـــة والإحاطة بدار عثمان ، وكان الخليفة حرّاً يخرج من داره ويعود إليها ويصلي بالناس ويصلي خلفه الثائرون انفسهم، ويخطب الناس فيعظهم ويبصرهم ، ويسعى السفراء في اثناء ذلك بينه وبين الثائرين . يريد الثائرون ان يخلع نفسه ، ويأبى هو ان ينزع قميصاً قد كساه الله عز وجـــل إياه . ولكن الأمور تتعقد فجأة ؛ فقـــد عرف الثائرون ان عثمان قد ارسل إلى العمال في الأمصار يأمرهم بأن يرسلوا إليه الجند لينصروه ويخرجوا من المدينة هؤلاء الطارئين. وما يكاد الثائرون يعرفون هذا النبأ حتى يتغير الحصار وتتغير معه سيرتهم مع عثمان

- ٢٨ -

فقد خرج عثمان ذات يوم كما كان يخرج من قبل ، وصلى بالناس كما كان يصلي بهم من قبل ، ثم جلس على المنبر فجعل يعظ الناس ويبصرهم كما تعوّد أن يعظهم ويبصرهم ، وكان فيما قال : « يا هؤلاء العِدَى اللهَ اللهَ ! فوالله إن اهل المدينـــة ليعلمون أنـــكم

ملعونون على لسان محمد ﷺ . فامحوا الخطايا بالصواب ؛ فإن الله عز وجل لا يمحو السيء إلا بالحسن ». قال المؤرخون فقام محمد بن مسلمة فقال : أنا أشهد بذلك. فقام إليه حكيم بن جبلة فأقعده . فقام زيد بن ثابت وقال . ابغني الكتاب ، فثار اليه من ناحية اخرى محمد بن ابي قتيرة فأقعده . أراد محمد بن مسلمة أن يشهد بأن الله لايذهب السيء إلا بالحسن . وأراد زيد بن ثابت أن يثبت ذلك من المصحف، فيتلو على الناس قول الله عز وجل : «إنّ الحسنات يذْهبنَ السيئات» ، ولكن الناس أقعدوهما . وقام جبلة بن عمرو الساعدي (رجل من الأنصار) فقال يا عثمان انزل ندرّعك عباءة ونحملك على شارف من الإبل إلى جبل الدخان كما سيرت خيار الناس . قال عثمان : قبحك الله وقبح ما جئت به ! وكان جبلة هذا يعرض لعثمان وينذره بالقتل أو بأن يطرح في عنقه جامعة ويحمله على قلوص جرباء ويلقيه في جبل الدخان إن لم يترك بطانته، وكان يلومه في عماله وفي مروان وفي آل الحكم خاصة ، وكان يقول ، إذا كلم في ذلك وحاول مكلموه أن يردّوه إلى بعض الرفق : والله لألقى الله غداً فأقول إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل .

ولم يكد عثمان يردّ على جبلة هذا حتى قام جهجاه بن سعيد الغفاري (رجل من رهط أبي ذر ومن أصحاب النبي الذين شهدوا بيعة الرضوان) فوثب إلى المنبر فأخذ من عثمان العصا التي كان يخطب عليها ، وهي التي خطب عليها النبي وصاحباه من بعده ، فكسرها على ركبته . قال الرواة : فأصابت ركبته إكلة منذ ذلك اليوم، وأمر عثمان فيما بعد بشد العصا. ثم ثار الناس فتحاصبوا وحُصب عثمان حتى صرع واحتمل مغشياً عليه ، فأدخل إلى داره فلم يخرج منها إلا مقتولا .

ومنذ ذلك اليوم سار الثائرون مع عثمان سيرة منكرة حقاً ، منعوه من الصلاة في مسجد النبي ، وأقاموا منهم رجلاً يصلي بالناس، هو الغافقي زعيم المصريين. وكان طلحة بن عبيد الله ربما صلى بالناس ، وكان عليٌّ ربما صلى بهم ايضاً . ثم حال الثائرون بين عثمان وبين الماء ، حتى اشتد الظمأ عليه وعلى أهله وعياله ، وحتى أشرف عليهم ذات يوم فذكرهم بأنه اشترى بئر رومةَ بأمر النبي وجعلها سقاية للمسلمين ، ووعده النبي بها الجنة ، وهو الآن يحرَّمُ ماءها ويُفطر على ماء آجن . وذكرهم بأنه اشترى بأمر النبي أرضاً ضمها الى المسجد حين ضاق بالناس ووعده النبي بها الجنة ، وهو أول مسلم منع من الصلاة فيه . ثم ارسل الى جماعة من اصحاب النبي وأمهات المؤمنين يطلب إليهم ان يرسلوا إليه شيئاً من الماء العذب إن استطاعوا ، فاحتال عليٌّ حتى أدخل

اليه شيئاً من ماء ، وأقبل على الثـائرين فزجرهم وقال : إن الذي تصنعون ليس من صنيع المؤمنين ولا صنيع الكافرين ، وإن الفرس والروم ليأمرون فيطعمون ويسقون. وأقبلت أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي تحمل شيئاً من ماء ، فضرب الثائرون وجه بغلتها وقطعوا حقبها ، حتى كادت أم المؤمنين تسقط لولا ان تلقاهـــا الرجال فأسندوها وردوها الى دارها ، مع أنها أنبأتهم بأنها إنما اقبلت تكلم عثمان في ايتام بني أمية ، وكانت وصايا بني أمية عنده ، فلم يصدّقوها ولم يسمعوا منهـا . ولزم أكثر أصحاب النبي دورهم منذ اشتد الحصار ، وأقام الناس في بيوتهم لا يخـرج منهم أحد إلا ومعه سيفه . واشتد الكرب وشاع القتـل وعظم البلاء ، وجعل عثمان يشرف على الثائرين بين حين وحين فيعظهم ويحذرهم ويخوّفهم الفتنة ويذكرهم بآيات الله وحديث النبي فلا يسمعون له ولا يحفلون به ، وربما ردّوه ردّاً عنيفاً .

وقد اجتمع القادرون على القتال من بني أمية وانضم اليهم شاب من ابناء المهاجرين، فدخلوا الدار وقاموا يحمونها ويحمون عثمان من الثـائرين ، وكان فيهم عبدالله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ابنـــا عليّ ومحمد بن طلحة ، وأمّر عثمان عليهم عبد الله بن الزبير ، وتقدّم إليهم في ألا يقاتلوا ، وعزم عليهم في ذلك أشد العزيمة . وتحرّجت الأمور حتى منع الناس من الدخول على عثمان ، ومنع أهل الدار من الخروج منها ، وأقام الناس على ذلك أياماً . ثم جاءت الأنباء بأن أمداد العراق قـد دنت من المدينة ، وبأن أمداد الشام قـــد انتهت إلى وادي القرى . فيختلف الرواة هنا أشد الاختلاف : فأما الذين هواهم مع عثمان فيقولون : أشفق الثائرون أن تصل الأمداد إلى المدينة فتحول بينهم وبين ما يريدون ، فاحتالوا حتّى أنفذوا نفراً منهم ، عليهم محمد بن أبي بكر ، فتسوّروا الدار من خوخة بينها وبين دار عمرو بن حزم وانتهوا إلى عثمان فقتلوه . وأما الذين هواهم مع غير عثمان فيقولون إن أهل الدار هم الذين بدأوا فناوشوا الثائرين . كان عثمان مشرفاً عليهم ، وقد دعاه رجل منهم يقال له نيار بن عياض الأسلمي ، وكان شيخاً كبيراً من أصحاب النبي، دعا عثمان وجعل يعظه وينصح له بأن يخلع نفسه ، وإنه لفي ذلك إذ رمي بسهم من الدار أو ألقي عليه منها حجر فقتل . قال الثائرون لعثمان : ادفع إلينا قاتل صاحبنا فنقيد منه . فقال عثمان : ما أعرف له قاتلا فأدفعه إليكم ، أو قال عثمان : مـــا أدفع إليكم رجلاً ذبّ عني وأنتم تريدون قتلي ، ثم حجزت بينهم ليلة منكرة . فلما أصبحوا هجم الثائرون على الدار يحرّقون أبوابهـا ، وخرج لهم أصحاب الدار يقاتلونهم ، فاشتد القتال وجرح عبد الله

ابن الزبير جراحات كثيرة ، وصرع مروان بن الحكم حتى ظنّ بــه الموت ، وقتل آخرون ، واقتحمت الدار على أهلها . وفي أثنــاء ذلك فتح عمرو بن حزم بابه وأنفذ من الخوخة أولئك النفر الذين انتهوا إلى عثمان فقتلوه .

وأكبر الظن أن أنباء وصلت إلى المدينة بأن الأمداد قــد كادت تبلغها ، فأراد الثائرون أن يفرغوا من الأمر قبل أن تصل هــذه الأمداد . ولم يستطع مروان بن الحكم أن يصبر وقد بلغه من أنباء الأمداد ما بلغ الثائرين ، فتعجل الحرب وظن أنه يستطيع أن يزحزح المحاصرين عن الدار ، وأن يقاتلهم حتى تأتي الأمداد ، وكره أن يمتدّ عليه معاوية أو ابن عامر بأن جنودهما قد أدركتهم محصورين في الدار ففرّجت عنهم الحصار وردّت إليهم الحيــاة . فأراد أن تدركه الأمداد ومعه منْ في المدينة من بني أمية وهم يقاتلون ويبلون فيحسنون البلاء . وهو من أجل هذا خرج مرتجزاً يطلب المبارزة ، وخرج معه نفر من بني أمية يرتجزون ، وعثمان يأمرهم بالصبر ويكفهم عن القتال فلا يسمعون له ولا يستجيبون لدعائه ، حتى اضطر إلى أن يقسم على منْ رأى عليه له طاعه ليلقينّ سيفه ،فألقى جماعة من أصحابه سيوفهم وأبى بنو أمية أن يفعلوا. وبينا القوم يقتتلون وقد اقتحمت الدار وجعل أهلها يتفرقون ، خرج خارج فأذن في الناس : لقد قتلنا ابن عفــان ؛ ثم فتحت الأبواب ونهبت الدار ونهب بيت المال ، ولم يتفرق الناس إلا وقد وقعت الواقعة وكانت الفتنة وصُبّ على المسلمين بلاء عظيم .

ومع ذلك فقد يظهر أن عثمان مال في آخر أمره إلى شيء من العافيــة . فقد يتحدث الرواة بأن سعد بن أبي وقاص دخل على عثمان فسمع منه ، ثم خرج مسترجعاً يطلب عليّاً حتى لقيه في المسجد ، فقال له هلمّ أبا الحسن ! لقد جئتك بخبر مــا جاء به أحــد أحداً . إن خليفتك قــد أعطى الرضا فأقبلْ فانصره واسبقْ إلى الفضل في نصره . وإنهما ليتناجيان حتى جاء النبأ بقتل عثمان .

فأكاد أعتقد أن عثمان كان دعا سعداً وكلفه أن يسفر بينه وبــين عليّ ليكفّ الناس عن القتل والقتال ، على أن يردّ الأمر إلى أصحاب الشورى وأهل الحل والعقد من المسلمين ليضعوه حيث يشاءون ، ولكن هذه السفارة جاءت متأخرة ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

- ٢٩ -

وكان معاوية قد عرض على عثمان قبل ان يفارقــه في اواخر سنة اربع وثلاثين

خصلتين رفضهما عثمان رفضاً حاسماً : عرض عليه أن يسير معه إلى الشام فيكون فيها آمناً منصوراً ؛ فأبى عثمان ان يترك جوار النبي ، وان يستبدل بدار الهجرة داراً اخرى . واضمر عثمان في نفسه اشياء لم يقلها لمعاوية في اكبر الظن ، وهي انه لو ترك المدينة لنقل عاصمة الخلافة إلى بلد آخر غير البلد الذي ظهر الإسلام فيه على اعدائه ، وإلى بلد آخر غير البلد الذي اقام النبي فيه اعلام الإسلام واقام الشيخان فيه بعد ذلك مجد الإسلام ، ولم يكن ابغض الى عثمان من ان يأتي هذه البدعة ، ولم يكن ابغض إليه من ان يقول له اصحاب النبي وعامة المسلمين : نقلت امر الإسلام من حيث اقره النبي وصاحباه إلى بلد اجنبي غريب ، ثم لو فعل عثمان لكان اسيراً في يد معاوية . ولأن يكون اسيراً في يد اصحابه الذين هاجروا معه والذين آووا ونصروا والذين غزوا معه ومع النبي واستمعوا معه للنبي ، احبّ إليه من ان يكون اسيراً عند معاوية بن ابي سفيان ، على ما بينه وبين معاوية من قرابة النسب ، وعلى ما عند معاوية بن ابي سفيان من الأمن والعزة والغلب .

وعرض معاوية على عثمان ان يرسل إليه جنداً من اهل الشام يقيمون معه في المدينة ليردوا عنه العاديات ؛ فابى عثمان وقال لا اضيق على اصحاب رسول الله بجوار من يجاورهم من الجند . واضمر عثمان في نفسه اشياء أخرى في إكبر الظن لم يقلها لمعاوية : لم يرد ان يخرج عن سيرة النبي وسيرة صاحبيه ، فيفرض سلطانه بالقوة والغلب ، ويخضع دار الهجرة لهذا الاحتلال الذي عرضه عليه معاوية ، فيحدث في الإسلام هذا الحدث للأكبر : وهو إخضاع المهاجرين والأنصار ومسجد النبي ومدينته لجند يرسلهم معاوية بن ابي سفيان من قوم لم يلقوا النبي ، ولم يسمعوا منه ولم يروا سيرته وسيرة صاحبيه رأي العين . لم يرد عثمان ان يكون اول من يحوّل الخلافة إلى ملك ، ويخرجها عما ألفت من هذه السماحة السمحة إلى القهر والقسر والبأس الشديد . ولو قد فعل عثمان لكان طاغية يحكم اصحاب النبي بقوة هذا الجيش الذي يحميه من اصحابه ، ويحرس داره إن اقام فيها ، ويحرسه هو إن خرج من داره ، ويحيط به إذا قام خطيباً على منبر النبي ، ويسعى بين يديه إذا مشى في طرقات المدينة . واين هذا كله من سيرة النبي والشيخين ومن سيرة عثمان نفسه ! فقد كان يمشي في المدينة غير محروس ، ويقف على اندية القوم فيقول لهم ويسمع منهم ، وكان ينام في المسجد وقد لفّ رداءه واتخذه وساداً . وكان يجلس على منبر النبي يوم الجمعة فيتحدث إلى الناس حديث الأب والرفيق ، أو الأخ البار أو الصديق الحميم ، يسألهم عن مرضاهم

وعن شؤونهم وعن حاجاتهم وعن أسعار السوق . فإذا أذّن المؤذنون قام فخطبهم ما شاء أن يخطبهم ؛ ثم جلس فاستأنف الحديث معهم يسألهم عن مرضاهم وعن شؤونهم وعن حاجتهم وعن أسعار السوق . فإذا أذّن المؤذنون الأذان الثاني قام فصلى بهم ؛ فكيف به لو غير هذا كله فانتقل إلى الشام وترك دار الهجرة ، فلم يخطب على منبر النبي ، ولم يصلّ في مسجد النبي حيث صلى النبي وصاحباه ؟ وكيف به لو أقام في المدينة يحفّ به جند من أهل الشام يحمونه من الذين شهدوا معه ومع النبي المشاهد كلها ؟ لم يكن عثمان ليستجيب لما دعاه إليه معاوية ، ولا ليقبل ما عرض عليه معاوية من إرسال ذلك الجيش فلما قال له معاوية : إذن لتغزَيَنّ أو لتقتالنّ ، قال: حسبي الله ونعم الوكيل ! .

فقد استقبل عثمان خلافته إذن وهو يريد أن يسير سيرة صاحبيه لا يغير منها شيئاً . وسار على الجملة سيرة صاحبيه ؛ فلم يحتجب ولم يستعل ولم يتسلط ، وإنما أدركه ما قد يدرك الناس من هذا الضعف الذي لا يأتي عن نية سوء ولا عن تعمد للبغي ، وإنما يأتي عن خلق كريم وعن حب للخير ورغبة فيه .

وما ينبغي أن ننسى أن عثمان قد استقبل الخلافة وهو شيخ كبير قد بلغ السبعين من عمره ، وكان جواداً معطاء . وكان وصولاً للرحم ، وكان شديد الحياء ، وكان سمح الخلق رقيق القلب حسن الرأي في الناس . فإذا اجتمعت كل هذه الخصال في شخصه وأضيفت إليها خصال أخرى في عشيرته الأقربين هي الطمع والجشع والطموح الذي لا حد له والاستعداد للتسلط والغلبة ، كان هذا كله خليقاً أن يعرض عثمان لما تعرض له من الشر. فإذا أضفت إلى خصاله وخصال عشيرته الأقربين أن جماعة من كبار أصحاب النبي قد نازعتهم نفوسهم الى الدنيا فاندفعوا اليها، ورغبوا فيها وجمعوا منها حظوظاً ضخمة ، وألقى هذا في روعهم أنهم ليسوا أقل من عثمان استحقاقاً للخلافة وأنهم قد يكونون أقدر منه على النهوض بأعبائها وضبط أمورها ، لأنهم لم يبلغوا من الشيخوخة ما بلغ ، كان هذا كله خليقاً أن يحمل الأمر على عثمان عسيراً أشد العسر ، وأن يحمل السياسة بالقياس اليه مشكلات معضلات يتبع بعضها بعضاً، لا يخرج من بعضها إلا ليدخل فيما هو أشد منها عسراً وأعظم تعقيداً .

ثم إذا أضفت الى هذا كله أن هؤلاء الشيوخ من المهاجرين والأنصار ، قد عاشوا عيشة إلا تكن بدوية خالصة فهي إلى البداوة أقرب منها الى الحضارة ، ثم نظروا ذات يوم فاذا هم أمام دولة ضخمة بعيدة الأرجاء مترامية الأطراف معقدة الشؤون ،

تحتاج الى أن تساس سياسة الحضارة المتأصلة ذات السنن الموروثة ، والتقاليد المقررة لا الحضارة الطارئة - اذا جمعت هذه الخصال كلها بعضها الى بعض ، عرفت أن ظروف الحياة التي أطالت بعثمان كانت أقوى منه ومن اصحابه . ولا تقل إن عمر قد واجه هذه الظروف وظهر عليها ؛ فقد كان عمر من هؤلاء الأفذاذ الذين لا تظفر الإنسانية بهم إلا في القليل النادر ، والذين يتعبون من بعدهم ويرهقونهم من أمرهم عسراً. ولولا شيء من التحفظ والاحتياط لقلت إن المسؤول الأول والأخير عما تعرّض له عثمان وأصحابه من الخطوب إنما هي هذه العبقرية الفذّة التي أتيحت لعمر ولم تتح لأحد من أصحابه وفيهم عثمان .

ومهما يكن من شيء فهذه الأحداث التي حدثت ، وهذه الفتنة التي بلغت المرحلة الأولى من مراحلها بقتل عثمان ، قد تركت المسلمين وأمامهم طريقان كلتاهما مستقيمة واضحة الأعلام ليس فيها عوج ولا التواء : احداهما هي الطريق التي سلكتها الأمم من قبلهم ، وهي طريق الملك الذي يقيم أمره على الحزم والعزم وعلى القوة والبأس، ويحلّ مشكلات الدنيا بوسائل الدنيا ، فيرقى ويقوى ويزدهر ، ثم يصيبه الضعف والانحلال والذواء لينتقل من طور الى طور،ومن دولة الى دولة ، ومن شعب الى شعب.والأخرى هي هذه الطريق الجديدة التي مهدهـا النبي ورفع أعلامها صاحباه ، وهي التي لا تقيم السلطان على القوة ، وإنما تقيمه على المحبة والعدل ، وتجعل القوة أداة من أدواته ، ووسيلة من وسائله ، ولا تعرف أثرة ولا تحكماً ولا جبرية ، ولا تحل مشكلات الدنيا بوسائل الدنيا ، وإنما تحلها بوسائل الدين هذه التي تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى الرغبة في الخير والنفور من الشر ، وعلى الإيثار على النفس والتبرؤ من الأثرة ، وتعتمد قبل كل شيء على صفاء النفوس ونقاء الضمائر وطهارة القلوب، وتتخذ الدنيا كلها ، لا أقول وسيلة الى الآخرة ليس غير ، ولكن أقول وسيلة الى الآخرة من جهة ، ووسيلة الى دنيا جديدة تزداد رقيّاً ونقاء وصفاء وطهراً كلما تقدمت بها الأيام من جهة أخرى .

نظر المسلمون بعد مقتل عثمان فاذا هم على رأس هاتين الطريقين . فأما أكثرهم فسلكوا الطريق الأولى ؛ وامتحنوا فيها وما يزالون يمتحنون بما امتحنت به الأمم والشعوب ؛ وأما أقلهم فحاولوا أن يسلكوا الطريق الثانية ، ولكنهم كانوا ناساً من الناس ، فلم يكادوا يتقدمون في طريقهم تلك حتى امتحنوا في أنفسهم ودمائهم،وحتى غلبهم الاكثرون عدداً على أمرهم .

وينظر المسلمون الآن فاذا الطريق الأولى ما زالت مزدحمة بهم جميعاً يتهافتون فيها كما يتهافت الفراش في النار ، وإذا الطريق الثانية ما زالت قائمة واضحة بينة الأعلام ، ولكنها خالية لا يقـــدر على سلوكها إلا أولو العزم من الناس . وأين أولو العزم من الناس ؟!

- ٣٠ -

وهناك مع ذلك سؤال لم يجب عليه القدماء إجابة مرضية ، بل لم يحاول أكثرهم أن يجيب عنه ، ولا بدّ مع ذلك من أن نظفر له بجواب : كيف ولماذا أبطأ عمال عثمان عن نصره حتى أتيـــح للثائرين أن يحاصروه فيطيلوا حصاره وأن يقتلوه بعد ذلك ؟ فقد قيل إن الحصار اتصل أربعين يوماً . ونحن نعـــلم أن المواصلات لم تكن يسيرة ولا قريبة ، ولكنا نعلم من جهـــة أخرى أن الأخبار كانت تنتقل في سرعة مدهشة إلى الأمصار ، فعبدالله بن سعد بن أبي سرح كان يعلم أن المصريين قد خرجوا منكرين على عثمان ، وهو أنبأ معاوية بذلك من غير شك ، كما أنه كتب به إلى عثمان . وأبو موسى الأشعري قد رأى مخرج أهل الكوفة من الكوفة ، وعلم من أمرهم مثل ما علم ابن أبي سرح من أمر المصريين . وقل مثل ذلك بالقياس إلى عبدالله بن عامر مع الذين خرجوا من أهل البصرة . فما بال هؤلاء العمال لم يسرعوا إلى نصر الإمام لمجرد علمهم بخروج من خرج من أهل أمصارهم ؟ بل ما بالهم لم يسرعوا إلى نصر عثمان حين جاءتهم كتبه تطلب إليهم النجدة ؟ ولمـــاذا تلبثوا وتباطئوا حتى كان الشر وقتل الإمام قبل أن يدركوه ؟ وأكثر من هذا أن عثمان قد عوّد عماله أن يوافوه في الموسم من كل عام ، فما بالهم أقاموا في أمصارهم هذا العام ولم يشهدوا الحج حتى اضطر عثمان وقد كان محصوراً أن يأمر ابن عباس ليحج بالناس ؟ وأشد من هذا كله غرابةً أن ابن عباس حمل فيما يقول المؤرخون كتاباً من عثمان إلى عـامة المسلمين الذين شهدوا موسم الحج يعرض عليهم قضيته فيه ويدافع عن نفسه . ويقول المؤرخون إن ابن عباس قرأ هذا الكتاب في الموسم ، فكيف استمع الناس لهذا الكتاب الذي رواه الطبري كاملاً ، ثم تفرقوا بعد ذلك كأن لم يكن شيء ، لم ينهض أحـــد منهم لنصر الخليفة ، ولم تذهب جماعتهم الى المدينة ليشهدوا بعض ما كان يقع فيها من الأحداث ؟ بل كيف

قام عامل عثمان على مكة هادئاً ساكناً مطمئناً لم يستنفر النـاس لنصر الإمام ؟ ولو قد استنفر أهل مكة وجمع من أهل البادية جيشاً لاستطاع أن يشغل هؤلاء الثائرين حتى تقبل هذه الأمداد النظامية من الأمصار . فما بال شيء من هذا لم يكن ؟ ومـا بال أحد من هؤلاء العمال لم يتحرك ؟ وما بال الحجيج لم يفزعوا لنصر إمامهم ؟ أيكن أن تكون الأمة كلها قد أسلمت هـذا الإمام : فترت الرعية ، وأضمر العمال في نفوسهم أشياء فتباطئوا وتثاقلوا ، وشغل كل واحد منهم بنفسه ، وتركوا الإمام لأهل المدينة يصنعون به ما يشاءون أو يصنع هو بهم ما يشاء ؟ وقد رأيت أن أهل المدينة أنفسهم قد كانت كثرتهم مع الثائرين ، وكانت قلتهم من أصحاب النبي خاذلة لعثمان تنكر بألسنتها ولا تصنع شيئاً . ولو قد استقبل أصحاب النبي هؤلاء الثائرين منكرين عليهم وحثوا في وجوههم التراب لانصرفوا مخذولين كما قال بعض القدماء . وإذن فقد صدق عثمان حين قال إن الناس قد طال عليهم عمره فملوه . وأكبر الظن أن الناس لم يطل عليهم عمر عثمان فحسب ، وإنما طال عليهم أيضاً عمر هذه السياسة التي لم تكن سياسة خلافة كالتي عرفوها أيام عمر ، ولا سياسة ملك كالتي عرفوهـا من قيصر وكسرى ، وإنما كانت شيئاً بين بين .

- ٣١ -

أصبح عثمان غداة الليلة التي ارسل فيها سهم او القى فيها حجر من داره فقتل نيار ابن عياض الأسلمي — أصبح عثمان غداة تلك الليلة صائماً ، وتحدث إلى اصحابه بأنه مقتول من ذلك اليوم . فلما قال له اصحابه : يكفيك الله عدوك يا أمير المؤمنين ، قال : لولا أن تقولوا تمنى عثمان لحدثتكم حديثاً عجيباً . قالوا : فإنا لا نقول ذلك . قال : إني رأيت رسول الله (صلعم) ومعه أبو بكر وعمر فقال لي : أفطر عنـدنا الليلة يا عثمان .

ومضى عثمان بعد ذلك في حديثه مع أصحابه فقال لهم فيما قال : لم يقتلونني وقد سمعت رسول الله (صلعم) يقول : « لا يحل دم امرىء مسلم الا في احدى ثلاث : رجل كفر بعد إيمانه ، أو زنى بعد احصانه ، أو قتل نفساً بغير نفس » . فوالله ما زنيت في جاهلية ولا في إسلام قط ، ولا تمنيت ان لي بديني بدلاً منذ هداني الله ، ولا

قتلت نفساً ، ففيم يقتلونني [1] ؟ ثم مضى في الحديث مع اصحابه فقال : لئن قتلوني لم يصلّوا بعدي جميعاً أبداً ، ولم يقاتلوا عدوّاً جميعاً ابداً . ثم مضى بعد ذلك في حديثه مع اصحابه ينهاهم عن القتل والقتال وهم يلحون عليه في قتالهم ، فقال : إن رسول الله (صلعم) قد عهد إليّ عهداً فأنا صابر على العهد الذي عهده إلي حتى أصرَعَ في المصرع الذي كتب عليّ ان اصرع فيه . وظل كذلك يتنقل مع اصحابه بين هذه الأحاديث حتى اقبلوا عليه فقتلوه .

والناس يختلفون فيه وفي قاتليه اشد الاختلاف وأعظمه . ولكن الشيء الذي لا يقبل شكاً ولا نزاعاً ان الله لم يحلّ دم عثمان لقاتليه . فقد يكون مخطئاً في سياسته وقد يكون مصيباً ، وقد يكون اصحابه قد جاروا عن علم أو عن غير علم ، فأقصى ما يباح للمنكرين عليه والخاصمين له أن يثوروا به ويحملوا الأمـــة على هذه الثورة ؛ فإن ظفروا باجتماع الكلمة على خصومته اختاروا من المسلمين ممثلين للأمصار والأقاليم ، وكان على هؤلاء الممثلين أن يحاوروا عثمان ويناظروه ، وان يقولوا له ويسمعوا منه ؛ فإن رأوا إقراره أقروه ، وإن رأوا خلعه خلعوه ثم اختاروا للمسلمين إماماً مكانه ، ثم تركوا للإمام محاسبة عثمان على ما يمكن ان يكون لهم قبله من الأموال والدمـاء . فأما ان ينتدب الثائرون ولم يوكلهم المسلمون عنهم فيخلعوا الإمام ، فلم يكن ذلك لهم. فكيف وهم لم يخلعوه، وإنما سفكوا دمه ، وكان دمه حراماً كدم المؤمنين جميعاً، وكانت لدمه بعد ذلك حرمة أخرى هي حرمة الخلافة ؟

والناس يعتذرون عن هؤلاء الثائرين معـــاذير كثيرة ، يقولون إنهم لم يكونوا يستطيعون خلعه خوفاً من عماله في مصر والشام والعراق ، ولم يكونوا يستطيعون الانتظار به خوفاً من هؤلاء العمال، ولو لم يقتلوه لقتلهم هو أو لقتلهم عماله. ولكن كل هذه المعاذير لا تبيح لهم ان يسفكوا دماً حرّمه الله ، وأن يستبيحوا سلطان الخلافة على هذا النحو .

ولعل العذر الوحيد الذي ينهض لهم ، كما ينهض لعثمان وينهض للـــذين اختصموا بعدهم في هذه القضية فسفكوا دماءهم بأيديهم ، وأباحوا من النفوس والأموال ما حرّم الله ، هو أن ظروف الحياة كانت أقوى منهم جميعاً ، وأن الله قد كتب عليهم أن يفتنهم في دينهم ودنياهم هذه الفتنة الكبرى التي فسرها عليّ لأهل الكوفة أحسن تفسير حين قال : « استأثر عثمان فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع » .

---

(١) طبقات ابن سعد طبع ليدن الجزء الثالث القسم الأول صفحة ٤٦ .

تحدّث ابن سعد قال : « وأخبرنا الفضل بن دكين قال أخبرنا أبان بن عبدالله البجلي قال حدثني نعيم بن أبي هند قال حدثني ربعي بن حرّاش قال : إني لعند عليّ جالس إذ جاء ابن طلحة فسلم على عليّ فرحب به عليٌّ ، فقال : ترحب بي يا امير المؤمنين وقد قتلت والدي وأخذت مالي ؟ قال : أما مالك فهو معزول في بيت المال فاغدُ إلى مالك فخذه . وأما قولك قتلتَ أبي فاني أرجو أن أكون انا وابوك من الذين قال الله فيهم : « ونزّعنا ما في صدُورهمْ من غلّ إخواناً على سرُر متقابلينَ » . فقال رجل من همْدان أعور : الله أعدل من ذلك . فصاح عليٌّ صيحة تداعى لها القصر ، قال : فمن ذاك إذا لم نكن نحن أولئك ؟! » [1] .

(١) طبقات ابن سعد طبع ليدن الجزء الثالث القسم الأول صفحة ١٩٠ .

ملحقات

كتاب عثمان إلى الأمصار مستنجداً

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فان الله عز وجل بعث محمداً بالحقّ بشيراً ونذيراً ، فبلغ عن الله ما أمر به ، ثم مضى وقد قضى الذي عليه ، وخلف فينا كتابه فيه حلاله وحرامه وبيان الأمور التي قدّر فأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا. فكان الخليفة ابو بكر رضي الله عنه ، وعمر رضي الله عنه . ثم أدخلتُ في الشورى عن غير علم ولا مسألة عن ملأ من الأمة . ثم أجمع أهل الشورى عن ملأ منهم ومن الناس على غير طلب مني ولا محبّة . فعملت فيهم ما يعرفون ولا ينكرون ، تابعاً غير مستتبع ، متبعاً غير مبتدع ، مقتدياً غير متكلف . فلما انتهت الأمور وانتكث الشرّ بأهله، بدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا ترة فيما مضى، إلا إمضاء الكتاب، فطلبوا أمراً وأعلنوا غيره بغير حجة ولا عذر ، فعابوا عليّ أشياء مما كانوا يرضون ، وأشياء عن ملأ من اهل المدينة لا يصلح غيرها، فصبرتُ لهم نفسي، وكففتها عنهم منذ سنين ، وانا أرى واسمع، فازدادوا على الله عز وجل جرأةً حتى اغاروا علينا في جوار رسول الله ﷺ وحرمه وأرض الهجرة ، وثابتْ إليهم الأعراب ؛ فهم كالأحزاب أيام الأحزاب أو مَن غزانا بأحد إلا ما يُظهرون. فمن قدَرَ على اللحاق بنا فليلحق .

كتاب عثمان إلى أهل الموسم

بسم الله الرحمن الرحيم ؛ من عبدالله عثمان أمير المؤمنين الى المؤمنين والمسلمين . سلام عليكم . فاني أحمد الله اليكم الذي لا إله إلا هو .

أما بعد ، فاني أذكّركم بالله جل وعز الذي أنعم عليكم وعلمكم الإسلام . وهداكم من الضلالة ، وأنقذكم من الكفر ، وأراكم البينات ، وأوسع عليكم من الرزق ؛ ونصركم على العدوّ ، وأسبغ عليكم نعمته ؛ فان الله عز وجل يقول وقوله

الحق : « وإن تعدّوا نعمةَ الله لا تحصُوها إن الإنسان لظلومٌ كفارٌ » . وقال عز وجل : « يأيها الذينَ آمنوا اتقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بينَ قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلكَ يبيّنُ الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويَأمرُونَ بالمعرُوف ويَنهوْنَ عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيناتُ وأولئك لهم عذابٌ عظيمٌ » . وقال وقوله الحق : « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا » . وقال وقوله الحق : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتُصْبحوا على ما فعلتم نادمين . واعلموا أنّ فيكم رسولَ الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حببَ اليكم الإيمان وزَينهُ في قلوبكم وكرّه اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون. فضلاً من الله ونعمةً والله عليمٌ حكيمٌ » . وقال عزّ وجل : « إنّ الذين يشترُونَ بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاقَ لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزَكيهم ولهم عذابٌ أليمٌ » . وقال وقوله الحق :

« فاتقوا الله ما استطعتمْ واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومنْ يُوقَ شُحّ نفسه فأولئك هم المفلحون » . وقال وقوله الحق : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضُوا الأيمانَ بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضَتْ غزلها من بعد قوّة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دَخلاً بينكم أن تكون أمةٌ هي أرْبى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون . ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدَةً ولكن يضلُ من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألنّ عَما كنتم تعملون . ولا تتخذوا أيمانكم دَخلاً بينكم فتزلّ قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوءَ بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذابٌ عظيمٌ . ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إن ما عند الله هو خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون . ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنَجزينّ الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ». وقال وقوله الحق : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً » . وقال وقوله الحق : « وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وَعملوا

الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدّلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومنْ كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » . وقال وقوله الحق : « إنّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله . يدُ الله فوق أيديهم ، فمنْ نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه اللهَ فسيؤتيه أجراً عظيماً » .

أما بعد؛ فإنّ الله جلّ وعز رضي لكم السمع والطاعة والجماعة ، وحذّركم المعصية والفرقة والاختلاف ، ونبأكم ما قد فعله الذين من قبلكم ، وتقدّم إليكم فيه ليكون له الحجة عليكم إن عصيتموه. فاقبلوا نصيحة الله جل وعز واحذروا عذابه ؛ فانكم لن تجدوا أمة هلكت إلا من بعد أن تختلف ، إلاّ ان يكونَ لها رأس يجمعها . ومتى ما تفعلوا ذلك لا تقيموا الصلاة جميعاً ، وسلطَ عليكم عدوكم ، ويستحلّ بعضكم حرَم بعض ومتى يُفعلْ ذلك لا يقمْ لله سبحانه دين ، وتكونوا شيعاً. وقد قال الله جلّ وعزّ لرسوله ﷺ : « إنّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لستَ منهم في شيء انما أمرُهم الى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » . وإني أوصيكم بما أوصاكم الله ، واحذّركم عذابه ، فانّ شعيباً ﷺ قال لقومه : « يا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثلُ ما أصاب قومَ نوح أوْ قوْم هود او قوم صالح وما قومُ لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربّكم ثم توبوا اليه إن ربي رحيمٌ ودودٌ » .

اما بعد فان اقواماً ممن كان يقول في هذا الحديث اظهروا للناس انهم انما يدعون الى كتاب الله عز وجل والحق ، ولا يريدون الدنيا ولا منازّعةً فيها . فلما عرض عليهم الحق اذا الناس في ذلك شتى ، منهم آخذٌ للحق ونازعٌ عنه حين يعطاه ، ومنهم تاركٌ للحقّ رغبةً في الأمر يريد ان يبتزه بغير الحق . طال عليهم عمري وراثَ عليهم املهم في الإمرة ، فاستعجلوا القدر. وقد كتبوا اليكم انهم قد رجعوا بالذي اعطيتهم. ولا اعلم اني تركت من الذي عاهدتهم عليه شيئاً . كانوا زعموا انهم يطلبون الحدود ، فقلت اقيموها على من علمتم تعدّاها في إحدى [1] . اقيموها على من ظلمكم من قريب او بعيد . قالوا : كتاب الله يتلى فقلتُ فليتله من تلاه غير غال فيه بغير ما انزل الله في الكتاب . وقالوا : المحروم يرزَقُ والمالُ يوفى ليُستنّ فيه السنة الحسنة ، ولا يُعتدى في الخمس ولا في الصدقة ، ويؤمّر ذو القوة والأمانة ، وتردّ مظالم الناس الى اهلها ؛ فرضيت بذلك واصطبرتُ له ، وجئت نسوةَ النبي ﷺ حتى كلمتهن. فقلتُ :

(١) كذا وردت في غير نسخة الطبري . وفي العبارة نقص .

ما تأمرني ؟ فقلن : تؤمر عمرو بن العاص [٢]، وعبد الله بن قيس ، وتدَعُ معاوية فانما أمّره امير قبلك ، فانه مصلح لأرضه راض به جنده ، واردُدْ عمراً فان جنده راضون به ، وامّره فليصلح ارضه . فكلّ ذلك فعلت ، وانه اعتدى عليّ بعد ذلك وعدًا على الحقّ .

كتبت اليكم واصحابي الذين زعموا في الأمر استعجلوا القدر ، ومنعوا من الصلاة، وحالوا بيني وبين المسجد وابتزوا ما قدروا عليه بالمدينة . كتبتُ اليكم كتابي هذا وهم يخيرونني احدى ثلاث ، اما يقيدونني بكل رجل اصبته خطأ او صواباً غير متروك منه شيء ، واما اعتزل الأمر فيؤمرون آخر غيري ، واما يرسلون الى من اطاعهم من الأجناد واهل المدينة فيتبرءون من الذي جعل الله سبحانه لي عليهم من السمع والطاعة . فقلت لهم : اما اقادتي من نفسي فقد كان من قبلي خلفاء تخطىء وتصيب فلم يستقدْ من احد منهم . وقد علمت انما يريدون نفسي . واما ان اتبرأ من الإمارة فأن يكلبوني أحبّ اليّ من ان اتبرأ من عمل الله عزّ وجل وخلافته . واما قولكم يرسلون الى الأجناد واهل المدينة فيتبرءون من طاعتي فلست عليكم بوكيل . ولم اكن استكرهتهم من قبلُ على السمع والطاعة ، ولكن أتوها طائعين يبتغون مرضاة الله عزّ وجل واصلاح ذات البين . ومن يكن منكم انما يبتغي الدنيا فليس بنائل منها الا ما كتب الله عزّ وجل له . ومن يكن انما يريد وجه الله والدار الآخرة وصلاح الأمة وابتغاء مرضاة الله عز وجل والسنة الحسنة التي استنّ بها رسول الله ﷺ والخليفتان من بعد رضي الله عنهما : فانما يجزى بذلكم الله ، وليس بيدي جزاؤكم ، ولو اعطيتكم الدنيا كلها لم يكن في ذلك ثمنٌ لدينكم ولم يغن عنكم شيئاً . فاتقوا الله واحتسبوا ما عنده فمن يرض بالنكث منكم فاني لا أرضاه له ، ولا يرضي الله سبحانه ان تنكثوا عهده . واما الذي يخيرونني فانما كله النزع والتأمير. فملكت نفسي ومن معي ونظرتُ حكم الله وتغيير النعمة من الله سبحانه ، وكرهتُ سنة السوء وشقاق الأمة وسفك الدماء . فاني أنشدكم بالله والاسلام ألا تأخذوا الا الحق وتعطوه مني وترك البغي على أهله ، وخذوا بيننا بالعدل كما أمركم الله عز وجل ، فاني أنشدكم الله سبحانه الذي جعل عليكم العهد والمؤازرة في أمر الله ؛ فان الله سبحانه قال وقوله الحق . «وأوْفوا بالعهد انّ العهد كان مسئولا » . فان هذه معذرةٌ الى الله ، ولعلكم تذّكرون .

---

(٢) يلاحظ ما بين هذا النص وبين التاريخ المروى من اختلاف سنعرض له في الجزء الثاني إن شاء الله.

أما بعد ، فإني لا أبرّىء نفسي إن النفس لأمارةٌ بالسوء إلا ما رَحم رَبي إنّ رَبي غفورٌ . وإن عاقبتُ أقواماً فما أبتغي بذلك إلا الخير . وإني أتوب الى الله عز وجل ، من كل عمل عملته وأستغفره إنه لا يغفرُ الذنوب إلا هو . إن رحمة ربي وَسعتْ كلّ شيء . إنه لا يقنطُ من رحمة الله إلا القوم الضّالون . وإنه يقبلُ التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلمُ ما يفعلون . وأنا أسأل الله عز وجل أن يغفر لي ولكم ، وأن يؤلف قلوب هذه الأمة على الخير ويكرّه اليها الفسق . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيها المؤمنون والمسلمون .

الفتنة الكبرى

٢

علي

وبنوه

- ١ -

واجه المسلمون إثر قتل عثمان رحمه الله مشكلتين من أخطر ما عرض لهم من المشكلات منذ خلافة أبي بكر ، إحداهما تتصل بالخلافة نفسها والأخرى تتصل بإقرار النظام وإنفاذ أمر الله فيمن قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض .

فقد أمسى المسلمون يوم قتل عثمان وليس لهم إمام يدبّر لهم أمورهم ويحفظ عليهم نظامهم وينفذ فيهم سلطانهم ويقيم فيهم حدود الله ويرعى بعد هذا كله أمور هذه الدولة الضخمة التي أقامها أبو بكر وعمر ، وزادها عثمان سعة في الشرق والغرب . فهذه البلاد التي فُتحت عليهم ولم يستقر فيها سلطانهم بعدُ كانت في حاجة إلى من يضبط أمرها ويحكم نظامها ويُبعد حدودها التي لم تكن تثبت إلا لتتغير ؛ لاتصال الفتح منذ نهض أبو بكر بالأمر إلى أن كانت الفتنة وشُغل المسلمون بها أو شغل فريق من المسلمين بها عن الفتوح .

وكانت للمسلمين جيوش مرابطة في الثغور تقف اليوم لتمضي غداً إلى الأمام . وهذه الجيوش لم تكن مشغولة بالفتح وحده وإنما كانت مشغولة كذلك بإقرار النظام فيما فُتح عليها من الأرض ، وتثبيت السلطان الجديد على أنقاض السلطان القديم ، واستحداث نظم في الإدارة تلائم مزاج الفاتحين ، واستبقاء نظم في الإدارة أيضاً تلائم مزاج المغلوبين . وهذه الجيوش كانت محتاجة إلى من يُمدها بالجند والعتاد ويرسم لها الخطط ويدبر لها من الأمر ما تحتاج إلى تدبيره .

وواضح أن الذين قتلوا عثمان لم يكونوا هم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان نفسه من المهاجرين والأنصار ، وإنما كانوا شراذمَ من الجيوش المرابطة في ثغور البصرة والكوفة ومصر ومن ثاب إليهم من الأعراب ومن أعانهم من أبناء المهاجرين .

وكانت الجلّة من أصحاب النبي المهاجرين والأنصار قد وقفت مواقف ثلاثة مختلفة من هذه الفتنة :

فأمّا كثرتهم فكانت ترى وتُنكر وتَهُمّ بالإصلاح فلا تجد إليه سبيلا فتسكت

عن عجز وقصور لا عن تهاون وتقصير . وأما فريق منهم فقد شُبِّهت عليهم الأمور فآثروا العافية والتزموا الحيدة واعتزلوا الفتنة . وكانت قد وقعت إليهم أحاديث عن النبي تخوّف من الفتنة وتأمر باجتنابها . فلزم بعضهم البيوت ، وترك بعضهم المدينة مجانباً للناس فارّاً بدينه إلى الله . وفريق ثالث لم يُذعنوا للعجز ولم يؤثروا الحيدة والاعتزال وإنما سعوا بين عثمان وخصومه ، بعضهم ينصح للخليفة ويحاول الإصلاح بينه وبين الثائرين ، وبعضهم ينقم من الخليفة فيحرّض عليه ويُغري به ، أو يقف موقفاً أقل ما يوصف به أنه لم يكن موقف المخذّل للثائرين أو المنكر عليهم .

فلما قتل عثمان استرجع أكثر الصحابة لأنهم لم يستطيعوا أن ينصروه وفكروا في غد وأرادوا أن يستقبلوا أمورهم وتهيئوا لما يُقبل عليهم من الأحداث . وأمعن المعتزلون في اعتزالهم وحمدوا الله على أنهم لم يشاركوا في الإثم ولم يخبوا ولم يوضعوا في الفتنة . وأما الآخرون فجعلوا يترقبون ما يصنع الناس ، يفكرون في أنفسهم أو يفكرون فيمن يلوذون به من الزعماء . ولم يكن للمسلمين نظام مقرر مكتوب أو محفوظ يشغلون به منصب الخلافة حين يخلو ، وإنما كانوا يواجهون خلوّ هذا المنصب كما يستطيعون أن يواجهوه .

فأنت تعلم كيف بويع أبو بكر ، وكيف رأى عمر أن بيعته كانت فَلْتة وقى الله المسلمين شرها . وأنت تعلم ان عمر إنما بويع من أبي بكر إليه وإلى المسلمين . وقد قبل المسلمون عهد ابي بكر لم يُنكره ولم يجادل فيه منهم أحد . وقد همّ نفر من المهاجرين أن يجادلوا أبا بكر نفسه في هذا العهد فردهم عن هذا الجدال ردّاً قبلوه وأذعنوا له . وأنت تعلم أن عمر لم يعهد إلى احد وإنما جعل الامر شورى بين أولئك النفر الستة من المهاجرين الذين مات النبيّ وهو عنهم راض . فاختاروا من بينهم عثمان ولم يختلف عليه منهم أحد . ولم يعهد عثمان ، ولو قد فعل لما قبل الناس عهده لكثرة ما أنكروا عليه ولاته وبطانته من الأحداث .

أضف إلى ذلك أن الستة الذين عَهِد إليهم عمر بالشورى قد أصبحوا حين قُتل عثمان أربعة ، مات أحدهم عبد الرحمن بن عوْف في خلافة عثمان ، وقتل ثانيهم وهو عثمان ، فلم يبق منهم إلا سعد بن أبي وَقّاص والزُّبير بن العوام وطلحة بن عُبيدالله وعليّ بن أبي طالب . وكان سعد قد اعتزل مع المعتزلين وتجنّب الفتنة فيمن تجنّبها . فلم يبق إذن إلا هؤلاء الثلاثة : عليّ وطلحة والزبير . ثم أضف إلى ذلك أن كثيراً من أصحاب النبي الذين بايعوا الخلفاء الثلاثة لم يكونوا حاضرين أمر الناس في المدينة .

فريق منهم قضى نحبه مستشهداً في حروب الردّة وفتوح الفرس والروم، أو ميتاً في فراشه . وفريق منهم رابطوا في الثغور مجاهدين ما أطاقوا الجهاد ، مستقرّين في الأمصار الجديدة حين عجزوا عن الجهاد فلم تكن جماعة المهاجرين والأنصار التي شهدت مقتل عثمان في المدينة كجماعتهم تلك التي شهدت بيعة الخلفاء الثلاثة .

وكان الأمر مختلفاً بين عليّ وطلحة والزبير ليس لهم موقف واحد من الخليفة المقتول ولا من الظروف التي انتهت بقتله .

فأما عليّ فكان يُخذّل الناس عن الثورة والفتنة ما وجد إلى تخذيلهم عنها سبيلا. وقد سفَرَ بينهم وبين عثمان ، كما رأيت في الجزء الأول من هذا الكتاب وردّهم عن المدينة . وسفّرَ بينهم وبينه مرة أخرى وأخذ لهم منه الرضا ، وحاول حين استيأس من ردّهم بعد أن احتلوا المدينة على غِرّةٍ من أهلها ان يقوم دون عثمان فلم يستطع ، واجتهد في ان يُوصل إليه الماء العذب حين أدركه الظمأ لشدةِ الحصار .

وأما الزُّبير فلم يَنْشَط في رد الثائرين نشاطاً ملحوظاً ، ولم ينشط في تحريضهم نشاطاً ملحوظاً أيضاً . ولكنه ظل يترقب وهواه مع الثائرين . ولعله لم يكن يظن أن الأمر سيصير إلى ما صار إليه .

واما طلحة فلم يكن يُخفي ميله إلى الثائرين ولا تحريضه لهم ولا اطماع فريق منهم في نفسه . وكثيراً ما شكا منه عثمان في السر والجهر . والرواة يتحدثون بأنه استعان عليه بعليّ نفسه ، وبأن علياً استجاب له فذهب الى طلحة ورأى عنده جماعة ضخمة من الثائرين ، وحاول أن يرده عن خُطته تلك فلم يستجب له طلحة فخرج عليّ من عنده وعمده إلى بيت المال فاستخرج ما فيه وجعل يقسّمه بين الناس ، فتفرق اصحاب طلحة عنه ورضي عثمان بما فعل عليّ .

وزعم الرواة أن طلحة لما رأى ذلك اقبل حتى دخل على عثمان تائباً معتذراً ، فقال له عثمان : لم تجىء تائباً وإنما جئت مغلوباً والله حسيبك يا طلحة .

ومهما يكن من شيء فقد قُتل عثمان وهؤلاء الثلاثة في المدينة يرقبُون ما يصنع الناس . وكان الثائرون قد ملأوا المدينة خوفاً ورعباً ، فلم يكن دَفْن الخليفة المقتول إلا بليْل وعلى استخفاء شديد من الناس .

والرواة يختلفون في بيعة الإمام بعد قتل الخليفة ، فقوم يقولون إن علياً بويع إثر قتل عثمان مباشرة . وليس هذا بثَبْت ، وإنما الثبت الملائم لطبيعة الثورة ولطبيعة هذه الفتنة المُشبّهة أن المدينة ظلت أياماً . وليس للناس فيها خليفة يدبر أمورهم فيها

الغافقي أحد زعماء الثورة .

وقد وقع الثائرون بعد أن شفوا أنفسهم من الخليفة المقتول في حيرة حائرة . كانوا يعلمون أن لا بُدّ للناس من إمام ومن أن يُبايع هذا الإمامُ في أسرع وقت ممكن قبل أن يستبدّ عمّال عثمان بما في أيديهم ويرسل أقوامهم معاويةُ جندَه إلى المدينة ليخضعها لسلطانه ويعاقب الثائرين على ما قدّموا . وكانوا يعلمون أن احداً منهم لا يستطيع أن ينهض بإمامة المسلمين لأن أمر الإمامة إنما هو الى المهاجرين والأنصار يبايعون بها من يختارون من قريش .

ثم كانت أهواؤهم بعد ذلك مختلفة ، هوى أهل مصر مع عليّ ، وهوى اهل الكوفة مع الزُّبير ، وهوى اهل البصرة مع طلحة . وقد جعل كل فريق منهم يختلف إلى صاحبه ، وجعل الثلاثة يأبَوْن عليهم ويمتنعون من قبول الإمامة منهم . وكأنّ الثائرين استيقنوا آخر الأمر انهم لن يستطيعوا وحدهم ان يقيموا للناس إماماً وان لا بد ان يُعينهم المهاجرون والأنصار على ذلك ، يختارون احد هؤلاء الثلاثة ويُلحون عليه ويؤيدهم الثائرون في هذا الإلحاح وما يزالون به حتى يرضى فجعلوا يدورون على اصحاب النبي يدعونهم مُلحّين في الدعوة إلى ان يختاروا لأمة محمد ﷺ إماماً . وقد رأى المهاجرون والأنصار أن لا بد مما ليس منه بُد . وأدار كل منهم الأمر بينه وبين نفسه وبينه وبين من استطاع أن يلقى من أصحابه . فإذا هم يميلون إلى عليّ ويؤثرونه على صاحبيه .

وكذلك أقبلوا على عليّ يعرضون عليه الإمامة ويُلحون عليه في قبولها ، والثائرون يؤيدونهم في ذلك . وحاول عليّ أن يمتنع فلم يجد إلى الامتناع سبيلا . وما يردّه عن القبول وقد رفض الخلافة حين قدّمها إليه الثائرون ، وهؤلاء المهاجرون والأنصار يعرضونها عليه ويريدون أن يبايعوه كما بايعوا الخلفاء من قبله . فقد قَبِل الخلافة إذاً وجلس للبيعة على منبر النبيّ كما جلس الخلفاء من قبله ، وأقبل الناس فبايعوه . ولكن نفراً أبَوْا أن يبايعوا فلم يُلحّ عليهم عليّ في البيعة ولم يأذن للثائرين في إكراههم عليها . من هؤلاء النفر سعدُ بن أبي وقّاص ، وهو أحد أصحاب الشّورى ، أبَى أن يبايع وقال لعليّ : ما عليك مني من بأس . فخلّى عليّ بينه وبين ما أراد . ومنهم عبدُ الله بن عمر ، أبى أن يبايع وطلب إليه عليّ من يَكْفَلُه لأن يَلْزم العافية ويفرُغ من أمر الناس . فأبى أن يقدّم كفيلا . فقال له عليّ : ما علِمْتُك إلا سيىء الخُلق صغيراً وكبيراً . ثم قال : خلوه وأنا كفيله . وأبى

البيعة قوم آخرون من هؤلاء الذين اعتزلوا الفتنة ، فلم يُرِدْ عليّ أن يستكرههم ولا أن يعرض لهم أحد بسوء . وامتنع طلحة والزبير عن البيعة فأكرههما الثائرون عليها ولم يتركهما عليّ وشأنهما كما ترك سعد بن أبي وقاص وعبدالله بن عمر وغيرهما من الذين اعتزلوا الفتنة . فقد كان عليّ يعلم من أمرهما ما علم الثائرون . كان يعلم أن طلحة كان من أشدّ الناس على الخليفة المقتول ، وأنه كان يطمح إلى ولاية الأمر . وكان يعلم أن الزّبير لم يأمر ولكنه لم يَنْهَ ، ولم يكن أقل من طلحة طُموحاً إلى ولاية الأمر. فلم يُعفهما من البيعة ليستوثق منهما بقدر ما كان يمكن أن يستوثق منهما . وتمت البيعة لعليّ في المدينة بعد مقتل عثمان بخمسة أيام في بعض الروايات ، وبثمانية أيام في بعضها الآخر . وظهر أن الأمور قد استقامت لعليّ في الحجاز وفي ثغور الكوفة والبصرة ومصر . وكان الذي يشغله ولا يريد أن يستقيم له هو أمر الشام . ذلك أن الشام لم يشارك في الثورة من جهة ، وكان حكمه إلى معاوية ابن عم عثمان من جهة أخرى. وسنرى بعد قليل سيرة عليّ في أمر الشام ومعاوية . ولكن المهم أن علياً قد أصبح إماماً للمسلمين ، بايعه من حضر المدينة من المهاجرين والانصار ، وبايعه عن الثغور من حضر المدينة من الثائرين . فقد حلّت إذاً إحدى المشكلتين الخطيرتين ، مشكلة الخلافة والخليفة الجديد ، أو ظهر لعليّ ولكثرة الناس أنها قد حُلّت وأن الأمر صائر بعد حلها إلى العافية والرّضى والاستقرار .

ولم يكن بُدّ من أن يعرض الإمام الجديد للمشكلة الثانية ، وهي مشكلة هذا المقتول . فقد كان ينبغي أن يظهر أمر الله وحكم الدين في قتل هذا الإمام وفي قاتليه. أقُتِل الإمام ظالماً ؟ وإذاً فلا ثأر له ولا قصاص من قاتليه. أم قُتل الإمام مظلوماً؟ وإذاً فلا بُدّ من أن يثأر له الإمام الجديد وينفذ في قاتليه ما أمر الله به من القصاص.

فأما أصحاب النبي من المهاجرين والأنصار فكانوا يرون أنه قُتل مظلوماً وأن ليس للامام بُد من الثأر بدمه، وأن أمور الدين لا تستقيم إذا ضُيّعت الحقوق وأهدرت الدماء ولم تُقَم الحدود .

هذا كله لو كان المقتول إنساناً من الناس ليس غير ، فكيف وهو إمام الناس وخليفة المسلمين . وكان المهاجرون والأنصار يقولون ما يمنع الناس إن لم نقتصّ من قَتلة عثمان أن يثوروا بكل من سخطوا عليه من أئمتهم فيقتلوه .وقد تحدثوا في ذلك إلى عليّ فسمع منهم وأقرّهم على رأيهم ، ولكنه صوّر لهم الأمر على حقيقته . فالسلطان قد انتقل إليه بحكم البَيعة ، ما في ذلك شك . ولكنه ما زال في أيدي الثائرين بحكم

الواقع من الأمر . فهم يحتلون المدينة احتلالاً عسكرياً ويستطيعون أن يقضوا فيها وفي أهلها بما يشاؤون ، ولا قدرة للخليفة ولا لأصحاب النبي عليهم . فالخير إذاً في التمهل والأناة حتى تستقيم الأمور ويقوى سلطان الخليفة في الامر ثم ينظر في القضية بعد ذلك فيجري الأمر فيها على ما قضى الله ورسوله في الكتاب والسنة .

وقد رضي أصحاب النبي من عليّ بما رأى لهم . وأما الثائرون فكانوا يرون أنهم قتلوا الخليفة ظالماً فليس له ثأر ولا ينبغي للامام أن يقتل به أحداً .

ومع ذلك فقد همّ عليّ أن يحقق مقتل عثمان ، ولكنه لم يستطع أن يمضي في التحقيق الى غايته . ولهج قوم بأن محمد بن أبي بكر قد شارك في دم عثمان ، ومحمد بن أبي بكر هو ابن خليفة رسول الله وأخو أم المؤمنين عائشة، وهو ربيب عليّ نفسه ، فقد كانت أمه عند عليّ تزوجها بعد موت أبي بكر . وقد سأل عليّ محمداً : أأنت قاتل عثمان ؟ فأنكر وأقرّته نائلةُ بنت القرافصة زوج عثمان على إنكاره . ولكن الثائرين لم يكادوا يُحسّون بدء عليّ في هذا التحقيق حتى أظهروا السخط والتضامن ، فصار عليّ إلى ما قدّمنا من رأيه وانتظر معه عامة الصحابة من أهل المدينة .

ولعلك تذكر أن عثمان نفسه قد واجه في أول خلافته مشكلةً تشبه هذه المشكلة التي واجهها عليّ أول ما ولي الأمر . فكان أول مشكل عرض لعثمان هو أمر عُبيد الله بن عمر الذي قتل الهُرْمُزان مُتّهماً له بالتحريض على قتل أبيه ، وقتَله في غير تثبّت وبغير بيّنة وبغير قضاء ممن يملك القضاء . وكان المسلمون قد انقسموا في أمر هذا الفتى ، فريق يرى إقامة الحدّ عليه ، ومنهم عليّ ، وفريق يُكبر أنْ يبدأ عثمان خلافته بقتل ابن أمير المؤمنين عُمَر . وقد عفا عثمان لأن الهرمزان لم يكن له ولي من ذوي عَصَبته يطالب بدمه . فكان الخليفة هو الوليّ ، وكان يرى أنّ من حقه أن يعفو . ولم يقبل عليّ وكثير من المسلمين في ذلك الوقت قضاء عثمان وإنما رأوه ظلماً وإهداراً للدم وتفريطاً في حق الله . وكان عليّ يقول بعد خلافته : لئن ظفرت بهذا الفاسق لأقتلنه بالهرمزان .

واجه عثمانُ إذاً ابنَ خليفة من خلفاء المسلمين متهماً بالقتل في غير حقه فعفا عنه . واختلف الناس في هذا العفو .

وواجه عليٌ ابنَ خليفة آخر من خلفاء المسلمين متهماً بالقتل وبأيّ قتل! بقتل إمام من أئمة المسلمين لا بقتل رجل غريب من المغاوبين المُستأمنين . ولكن علياً لم يعفُ عن

محمد بن أبي بكر وإنما حقق أمره حتى استبان أنه لم يقتل عثمان ، ثم منعته الظروف من المضي في التحقيق إلى غايته وإمضاء حكم الدين في القاتلين .

ومن الحق أن نلاحظ أن محمد بن أبي بكر لم يقتل عثمان بيده ولكنه تسوّر الدار مع مَن تسورها عليه . فقد كان له إذاً في قتل عثمان شأن ضئيل أو خطير ، ولكن الذين كان لهم شأن في هذه الكارثة كانوا أكثر عدداً وأقوى قوة وأشد بأساً من أن يُقدَر عليهم أو يقتص منهم الإمام الجديد . ثم جرت الأمور بعد ذلك على نحو زاد قضية الخليفة المقتول عسراً وتعقيداً كما سترى .

- ٣ -

ولم يستقبل المسلمون خلافة عليّ بمثل ما استقبلوا به خلافة عثمان مِن رضى النفوس وابتهاج القلوب واطمئنان الضمائر واتساع الأمل وانبساط الرجاء ، وإنما استقبلوا خلافته في كثير من الوجوم والقلق والإشفاق واضطراب النفوس واختلاط الأمر ، لا لأن علياً كان خليقاً أن يُثير في نفوسهم وقلوبهم شيئاً من هذا ، بل لأن ظروف حياتهم قد اضطرتهم إلى هذا كله اضطراراً . فقد نهض عثمان بالأمر بعد خليفة قويّ شديد صعب المراس أرهقهم من أمرهم عُسْراً بما كان يسلك بهم إلى العدل من طريق وَعْرة خشنة لا يصبر على سلوكها إلا أولو العزم وأصحاب الجلد من الناس . وقد صوّرنا لك فيما مضى من هذا الكتاب شدة عمرَ على المسلمين عامة في ذات الله ، وقسوته على قريش خاصة ، يخاف عليهم الفتنة ويخاف منهم الفتنة أيضاً . فلما نهض عثمان بأمر الناس أعطاهم لِيناً بعد شدة وإسماحاً بعد عُنف وسعة بعد ضيق ورضاء بعد مشقة وجهد ؛ فزاد في أعطياتهم ويسّر لهم من أمرهم ما كان عسيراً حتى آثروه في أعوامه الأولى على عمر .

وأقبل عليّ بعد مقتل عثمان فلم يوسع للناس في العطاء ولم يمنحهم النوافل من المال ولم ييسر لهم أمورهم ، وإنما استأنف فيهم سيرةَ عمر من حيث انقطعت ، ومضى بهم في طريقه من حيث وقف .

وكان الناس بعد قتل عمر آمنين مطمئنين يشوب أمنهم واطمئنانهم شيءٌ من الحزن على هذا الإمام البرّ الذي اختُطف من بينهم غيلةً ، لا عن ملأ المهاجرين والأنصار ،

ولا عن الثأر به من أهل الثغور والأمصار . فكان قتله عنيفاً يسيراً في وقت واحد . لم يصوّره بأبلغ مما صوّره به عمرُ نفسُه حين تلقّى الطعنة التي قتلته ، ثم تولى وهو يتلو قول الله عز وجل : (وكَانَ أمرُ الله قدَراً مقدُوراً) .

كانت وفاة عمر إذاً قدراً من القدر لم تتألّب عليه جماعة ولم يأتمر بـه ملأ من المسلمين ، وإنما اغتاله مغتالٌ غير ذي خطر ساق إليه موتاً لم يكن منه بُدّ .

فأما مقتل عثمان فكان نتيجة ثورة جامحة وفتنة شُبّهت فيها على الناس امورهم ، إذ لم يكن أحدهم يعرف أكان مقبلاً أم مدبراً . وكان نتيجةَ خوف ملأ المدينة كلها أياماً طوالا ثم انتشر منها في اقطار الأرض فاضطربت له النفوس أشد الاضطراب ، وجهز العمّال جنودهم لا ليرسلوها الى حيث كان ينبغي أن تُرسَل من الثغور ، ولكن ليرسلوها الى عاصمة الدولة وقلّبها ليردوا اليها الأمن ويجلوا عنها الخوف وليستنقذوا الخليفة المحصور . فلم تبلغ الجنود قلبَ الدولة ولا عاصمتهـا وانما قُتل الخليفة قبل ذلك ، فعاد الجند الى أمرائهم وتركوا المدينة يملأهـا الخوف والذعر ويسيطر عليها القلق والاضطراب .

وكان أمر الثورة قد بلغ أهل الموسم في حجّهم ، وقرأ عليهم عبدُ الله بن عبّاس كتاب عثمان يبرىء فيه نفسَه من الظلم والجور ويتهم فيه الثائرين به بالخلاف عن أمر الله والبغي على خليفة الله ، فقضى الناس مناسكهم خائفـين ، وعادوا الى أمصارهم خائفين ، يحملون الخوف معهم الى من أقام ولم يأت الموسمَ من الناس .

فليس غريباً إذاً أن يستقبل المسلمون خلافة عليّ ووجوههم عابسة وقلوبهم خائفة ونفوسهم قلقة ، ويزيد في هذا العبوس والخوف والقلق ان الثائرين الذين قتلوا عثمان كانوا ما يزالون مقيمين بالمدينة متسلّطين عليها ، حتى كأن الخليفة الجديد ومن بايعه من المهاجرين والأنصار لم يكونوا في أيديهم الا أسارى.وآية ذلك أن الخليفة لم يستطع أن يمضي في تحقيق ما أصاب المسلمين من كارثة الفتنة ، لأنه لم يجد القدرة على هـذا التحقيق . وكان المسلمون من أهل المدينة يعرفون مكان العمال الذين أمّرهم عثمان على الأمصار ، ويقدرون أنهم جميعاً أو ان بعضهم على الأقل سينكرون الخلافةالجديدة ويجادلون الخليفة في سلطانه غضباً لعثمان الذي ولاّهم . وكانوا يخافون من هؤلاء العمال بنوع خاص معاويةَ ابن أبي سفيان عاملَ عثمان على الشام . يعرفون قرابته من الخليفة المقتول ويعرفون طاعة أهل الشام له لطول إقامته فيهم وإمرته عليهم منذ عهد عمر . وكانوا يعرفون مكانة معاوية من بني أمية ، ويعرفون الخصومة القديمة بين بني أمية

وبني هاشم قبل ان يظهر الاسلام وحين انتقل النبيُّ وأصحابه بدينهم الجديد الى المدينة فقد أصبح ابو سفيان قائدَ قريش بعد ان قُتل قادتها وسادتها يوم بدر ، وهو الذي أقبل بقريش يوم أحد فثأر لقتلى بدر من المشركين . وامرأته هِنْد أم معاوية هي التي أعتقت وحشياً أن قتل حمزة . فلما قتله اقبلت على ميدان الموقعة وبحثت عن حمزة حتى وجدته بين القتلى فبقرت بطنه واستخرجت كبده فلاكتها . وأبو سفيان هو الذي قاد قريشاً يوم الخندق وألّب العرب على النبيّ وأصحابه واغرى اليهود حتى نقضوا عهدهم مع النبيّ واصحابه . وابو سفيان هو الذي ظلّ يدبّر مقاومة قريش للنبي وكيدها له ومكرها به حتى كان عام الفتح ، فأسلم حين لم يكن له من الإسلام بُد . ومهما يقل الناس في معاوية من أنه كان مقرباً إلى النبي بعد إسلامه ، ومن أنه كان من كتّاب الوحي ، ومن انه اخلص للإسلام بعد أن تاب إليه ونصح للنبي وخلفائه الثلاثة – مهما يقل الناس في معاوية من ذلك فقد كان معاوية هو ابن أبي سفيان قائد المشركين يوم أحد ويوم الخندق ، وهو ابن هند التي أغرت بحمزة حتى قُتل ثم بقرت بطنه ولاكت كبده ، وكادت تدفع النبي نفسه إلى الجزع على عمه الكريم .

وكان المسلمون يسمون معاوية وامثاله من الذين أسلموا بآخرة ، ومن الذين عفا النبي عنهم بعد الفتح ، بالطُّلقاء ، لقول النبي لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

كان الناس يعرفون هذا كله ويقدرون أن الأمور لن تستقيم بين الخليفة الهاشمي والأمير الأموي في يسر ولين . وكانوا كذلك يعرفون أن قريشاً قد صَرفت الخلافة عن بني هاشم بعد وفاة النبي إيثاراً للعافية وكراهة أن تجتمع النبوة والخلافة لهذا البطن من بطون قريش . وكانوا يرون أن الله قد آثر بني هاشم بنبوة محمد ﷺ فاختصها بخير كثير ، وأن بني هاشم ينبغي لهم أن يقنعوا بما آثرهم الله به من هذا الخير الضخم والفضل العظيم .

فكان الناس إذاً لا يشفقون من فساد الأمر بين عليّ ومعاوية فحسب وإنما يشفقون من فساد الأمر بين عليّ وبني هاشم من جهة وسائر قريش من جهة أخرى . فلم يكونوا إذاً يستقبلون حياة قوامها الأمن والعافية والسعة ، وإنما كانوا يستقبلون حياة ملؤها القلق والخوف ، ويشفقون أن تنتهي بهم آخر الأمر إلى ضيق أي ضيق وتورّطهم في شر عظيم . وكانوا ينظرون فيرون جماعة من خيار المهاجرين والأنصار قد آثروا العزلة وكرهوا أن يدخلوا فيما دخل الناس فيه فاعتزلوا أمر عثمان واعتزلوا بيعة عليّ وأقاموا ينتظرون الكثرة الكثيرة من هؤلاء الناس من خيار المسلمين

واصلحهم واحقهم بالإجلال والإكبار . فيهم سعد بن أبي وقاص أول من رَمى بسهم في سبيل الله وفاتح فارس وأحد الذين مات النبي وهو عنهم راض وأحد الذين جعل عمر إليهم أمر الشورى . وفيهم عبدالله بن عمر الرجل الصالح الذي أحبه المسلمون على اختلافهم اشد الحب لفقهه في الدين وإيثاره للخير وبُعده عن الطمع ونصحه للمسلمين في في غير رياء ولا مداهنة .

ثم رأى الناس طلحة والزبير يبايعان عن غير رضى ولا إقبال . فما يمنعهم وهم يرون هذا كله ويعلمون هذا كله ويقدرون هذا كله أن تمتلىء قلوبهم خوفاً ونفوسهم قلقاً .

ومع ذلك فقد كان خليفتهم الجديد أجدر الناس بأن يملأ قلوبهم طمأنينة وضمائرهم رضى ونفوسهم أملاً . فهو ابن عم النبيّ وأسبق الناس إلى الإسلام بعد خديجة ، وأول من صلى مع النبي من الرجال ، وهو ربيب النبي قبل أن يظهر دعوته ويصدع بأمر الله. أحسّ النبي أن أبا طالب يلقى ضيقاً في حياته فسعى في أعمامه ليعينوا الشيخ على النهوض بثقل أبنائه ، فاحتملوا عنه اكثر ابنائه وتركوا له عَقيلا ، كما أحب ، واخذ النبي علياً فكفله وقام على تنشئته وتربيته . فلما آثره الله بالنبوة كان عليّ في كنفه لم يجاوز العاشرة من عمره إلا قليلاً . فنستطيع أن نقول إنه نشأ مع الإسلام . وكان النبي يحبه أشد الحب ويؤثره أعظم الإيثار ، استخلفه حين هاجر على ما كان عنده من ودائع حتى ردّها إلى أصحابها ، وأمره فنام في مضجعه ليلة ائتمرت قريش بقتله ، ثم هاجر حتى لحق بالنبي في المدينة فآخى النبي بينه وبين نفسه ثم زوّجه ابنته فاطمة ، ثم شهد مع النبي مشاهده كلها ، وكان صاحب رايته في أيام البأس . وقال النبي يوم خيبر : « لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسولَه ويُحبه الله ورسوله » . فلما أصبح دفع الراية الى عليّ . وقال النبي له حين استخلفه على المدينة يوم سار إلى غزوة تَبوك : أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي . وقال للمسلمين في طريقه الى حجة الوداع : « من كنت مولاه فعليّ مولاه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » .

وكان عمر رحمه الله يعرف لعليّ علمه وفقهه ويقول « إن علياً أقضانا » . وكان يفزع اليه في كل ما يعرض له من مشكلات الحكم . وقال حين أوصى بالشورى : « لو ولّوها الأجلح لحملهم على الجادة » إلى فضائل كثيرة يعرفها له أصحاب النبي على اختلافهم ، ويعرفها له خيار المسلمين من التابعين ، ويؤمن له بها أهل السنة كما يؤمن له بها شيعته .

وسنرى حين نمضي في سيرته وحين نبين مواقفه من المشكلات الكثيرة التي عرضت له انه كان اهلاً لكل هذه الفضائل ولأكثر منها ، وانه كان اجدر الناس بأن يسير في المسلمين سيرة عمرو ويحملهم على طريقه ويبلغ بهم من الخير والنجح والفلاح مثل ما بلغ بهم عمر لو واتته الظروف .

وكان عمر رحمه الله صاحب فراسة صادقة وحدس لا يكاد يخطيء حين قال : لو ولّوها الأجلح لحملهم على الجادّة . وكان يرى ان علياً أشبه الناس به في شدته في الحق وإذعانه للحق وغلظته على الذين ينكرون الحق أو يضيقون به . ولكن القوم لم يولّوا خلافتهم الأجلح بعد وفاة عمر،حين كانت الدنيا مقبلة والنشاط قوياً والإقدام قارحاً والبصائر نافذة والأمور تجري بالمسلمين على ما أحبوا . وإنما ولّوا خلافتهم عثمان ، فكان من أمره معهم وأمرهم معه ما كان. حتى إذا فسدت الدنيا وانتشرت الأمور واضطرب حبل السلطان وظن بعض الناس ببعض أسوأ الظن واضمر بعضهم لبعض أعظم الكيد ، هنالك فزعت كثرة منهم الى علي فبايعته ، واعتزلته طائفة لا يريدون به بأساً ، وأبت عليه طائفة اخرى لا تحبه ولا تريد أن تستقيم له طائعة . ونظر الخليفة الجديد ونظر أصحابه معه فاذا هم يواجهون اموراً عظاماً، وقد احاطت بهم فتنة مشبّهة معمّاة إذا أخرج الرجل فيها يده لم يكد يراها .

أمام هذه الأمور العظام وفي قلب هذه الفتنة المظلمة الغليظة وجد عليّ نفسه كأحسن ما يجد الرجل نفسه : صِدْقَ إيمان بالله ونصحاً للدين وقياماً بالحق واستقامة على الطريق المستقيمة ولا ينحرف ولا يميل ولا يُدهِن من أمر الإسلام في قليل ولا كثير وإنما يرى الحق فيمضي إليه لا يلوي على شيء ، ولا يحفل بالعاقبة ولا يعنيه أن يجد في آخر طريقه نجحاً أو إخفاقاً ، ولا أن يجد في آخر طريقه حياة أو موتاً ، وإنما يعنيه كل العناية أن يجد أثناء طريقه وفي آخرها رضي ضميره ورضيَ الله .

- ٣ -

كان عليّ وعمّه العباس يريان حين قُبض ﷺ أن الخلافة حق لبني هاشم لا ينبغي أن تُصرف عنهم ولا أن يقوم بها أحد من دونهم . ولولا أنّ العباس أسلم بآخرة لفكّر في نفسه أن يرشّح نفسه خليفة لابن أخيه فيتلقّى عنه تراثه في القيام بشأن

المسلمين ، ولكنه نظر في الأمر فرأى ابن أخته علياً أحق منه بوراثة هذا السلطان ، لأنه ربيب النبيّ وصاحب السابقة في الإسلام وصاحب البلاء الحسن الممتاز في المشاهد كلها ، ولأن النبي كان يدعوه أخاه حتى قالت له أم أيمن ذات يوم مداعبة : تدعوه أخاك وتزوّجه ابنتك ! ولأن النبي قال له: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي . وقال للمسلمين يوماً آخر : من كنت مولاه فعليّ مولاه . من أجل ذلك كله أقبل العباس بعد وفاة النبي على ابن أخيه فقال له : ابسط يدك أبايعك . ولكن علياً أبى مخافة الفتنة . وذكّره العبّاس بذلك بعد أعوام طوال . وكان رجل آخر من قريش أراد أن يبايع علياً بعد وفاة النبي لا حباً له ولا رضى به ولا اعترافاً بمكانته الخاصة من النبي بل عصبيّة لبني عبد مناف ، وهذا الرجل هو أبو سفيان زعيم قريش أثناء حربها للنبي ومقاومتها للإسلام ، والذي لم يُسلم إلا كارهاً حين رأى جيوش المسلمين مطبقة على مكة فأدخله العباس على النبي فأسلم كرهاً لا طوعاً . لم يتردد في الاعتراف بأن لا إله إلا الله ، لأنه لم ير بهذا الاعتراف بأساً ؛ ولكنه حين طُلب إليه أن يشهد أن محمداً رسول الله قال : أما هذه فإن في نفسي منها شيئاً . ولولا حث العبّاس له وتخويفه القتل لما اعترف بهذه الشهادة التي كان في نفسه منها شيء . ولكنه أسلم على كل حال . وعرف النبي له مكانته في قريش فجعل داره مثابة يأمن من أوى إليها من أهل مكة حين دخلها الجيش . فهو إذاً أحد هؤلاء الطلقاء الذين عفا النبي عنهم حين دخل مكة فاتحاً منتصراً . ولم يخطر له قط أن يكون خليفة للمسلمين ، ولكنه رأى النبيّ من بَني أبيه عبد مناف ، ورأى علياً أحق الناس بوراثة سلطانه ، ورأى الخلافة تُساق إلى رجل من بني تَيم هو أبو بكر ، وقدّر أنها ستساق بعد أبي بكر إلى رجل من بني عديّ هو عمر ، فآثر بني أبيه الأدنين على بني عمه . وقال لعليّ : ابسط يدك أبايعك . ولكن علياً أبى أن يستجيب له كما أبى أن يستجيب لعمه العباس . ولو قد استجاب لهذين الشيخين لأثار بين المسلمين فتنة لم يكونوا في حاجة إليها ، ولعلهم لم يكونوا قادرين على احتمالها فضلاً عن مقاومتها والخروج منها ظافرين .

فقد علمتَ ما كان من خلاف الأنصار في أمر البيعة حين قُبض النبيّ ، فكيف لو اختلفت قريش نفسها ، وقد علمتَ ما كان من ارتداد العرب في أول خلافة أبي بكر ، فكيف لو اختلف الذين وفوا للإسلام من قريش والأنصار ؟

كان عليّ موفقاً إذاً كل التوفيق ناصحاً لله وللإسلام كل النصح حين امتنع على هذين

الشيخين فلم ينصِب نفسَه للخلافة ولم ينازعها أبا بكر وإنما بايعه كما بايعه الناس وصبر نفسه على ما كانت تكره ، وطابت نفسه للمسلمين بما كان يراه حقاً له . وكأنه قدّر أن الأمر لن يعدوه بعد وفاة أبي بكر ، وعذر المسلمين في استخلاف هذا الشيخ الذي أمره النبيّ أثناء مرضه أن يصلي بالناس . على أنه لم يُسرع إلى بيعة أبي بكر وإنما تلبّث وقتاً غير قصير . ولعله وجد على أبي بكر كما وجدت عليه فاطمة رحمها الله ، لأنه أبى أن يدفع إليها ما طلبت من ميراث أبيها ﷺ وروى لها قوله : «نحن معشر الأنبياء لا نُورث ، ما تركناه صدقة » . ولكنه على كل حال أقبل فبايع واعتذر عن تلبّثه بأنه لم يُرد أن يخرج من بيته حتى يجمع القرآن . وقَبِل أبوبكر منه عذره . وكان أبو بكر شيخاً قد جاوز الستين من عمره قليلاً ، وكان عليّ ما يزال في نضرة شبابه قد نيّف على الثلاثين ، فكان يرى أن المستقبل أمامه وأمام المسلمين فسيح ، وأن حقه سيردّ إليه حين يختار الله لجواره هذا الشيخ الذي قدّمه النبيُّ لأمر من أمور الدين فقدّمه المسلمون لأمور الدنيا .

ولكن أبا بكر عهد بالخلافة إلى عمر وقبل المسلمون عهده مجمعين على قبوله لم يُمَار فيه منهم أحد . فاستبان لعليّ يومئذ أن بينه وبين المهاجرين من قريش خلافاً واضحاً ، فهو يرى لنفسه الحق في الخلافة والمهاجرون لا يرون له هذا الحق ، وإنما يرونه واحداً منهم يجري عليه من الأمر ما يجري عليهم . فأما الأنصار فقد استيأسوا من الخلافة وطابت بها نفوسهم للمهاجرين في قريش يبايعون منهم من ينصبونه للبيعة . وقد بايع عليّ ثاني الخلفاء كما بايع أولهم كراهيةَ الفتنة وإيثاراً للعافية ونصحاً للمسلمين . ولم يُظْهِر مطالبة بما كان يراه حقاً له بل لم يُجَمْجِم به . وإنما صبر نفسه على مكروهها ونصح لعمر كما نصح لأبي بكر . فلما طُعن عمر وجعل الخلافة في هؤلاء الستة من أصحاب الشورى لم يشكّ عليّ في أن قريشاً لا ترى رأيه ولا تؤمن له بحقه ورأى ألا يدعو إلى نفسه وألا يستكره الناس على ما لا يريدون . ولو قد أراد أن يستكرههم لما وجد إلى ذلك سبيلاً . فلم تكن له قوة ينصرونه ولم يكن يأوي إلى ركن شديد ، وإنما كان نفر يسير من خيار المسلمين يرون رأيه ويجمجمون بالدعوة إليه ، ولكنهم كانوا من المستضعفين الذين لم يقوَوا إلا بالإسلام . ولم تكن لهم عصبية ولا قوة ماديّة ، ومن هؤلاء الناس عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود . وقد بايع عليّ عثمان كما بايع الشيخين وهو يرى أنه مغلوب على حقه، ولكنه على ذلك لم يتردد في البيعة ولم يقصّر في النصح للخليفة الثالث ، كما لم يقصّر في النصح

للشيخين من قبله . حتى كانت الخطوب التي صورناها في الجزء الأول من هذا الكتاب.

فكان طبيعياً إذاً حين قُتل عثمان أن يفكر عليّ في نفسه وفيم غُلب عليه من حقه . ولكنه مع ذلك لم يطلب الخلافة ولم يَنْصب نفسه للبيعة إلا حين استُكره على ذلك استكراهاً ، وحين هدّده بعض الذين ثاروا بعثمان بأن يبدءوا به فيلحقوه بصاحبه المقتول ، وحين فزع إليه المهاجرون والأنصار من أهل المدينة يُلحّون عليه في أن يتولّى أمور المسلمين ليُخرجهم من هذه الفتنة المُظلمة . ثم هو حين قبل البيعة لم يُكره عليها أحداً من أصحاب النبي ، وإنما قبل البيعة ممن بايعه وترك من لم يُرد أن يبايعه . ترك سعد بن أبي وقّاص وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد ، وترك جماعة من الأنصار على رأسهم محمد بن مَسْلمة ، ولم يستثن إلا هذين الرجلين : طلحة والزبير ، خاف منهما الفتنة لموقفهما من عثمان والثائرين به ، فرضي أن يستكرههما على البيعة ، فيما يقول أكثر المؤرخين . وأكاد أعتقد أنا أنهما لم يُستكرها ، كما زعما وكما زعم كثير من الرواة ، وإنما أقبلا على البيعة راضيَيْن ثم بدا لهما بعد ذلك حين رأيا من الخليفة ما لم يكونا ينتظران . كانا يقدران في أكبر الظن أن علياً محتاج إليهما أشد الاحتياج ، لأحدهما قوة في الكوفة ولأحدهما الآخر قوة في البصرة . وقد شارك أهلُ الكوفة وأهل البصرة في الثورة مشاركة خطيرة . وكان الناس يظنون أنهم إنما شاركوا في هذه الثورة عن تحريض ، أو على أقل تقدير عن رضى من طلحة والزبير. فكانا إذاً يفكران في أن علياً سيعرف لهما مكانتهما وقوتهما وسلطانهما على حزبيهما من أهل البصرة والكوفة وسيشركهما في أمره وستكون الخلافة ثلاثية يتقاسمها هؤلاء النفر الثلاثة من أصحاب الشورى : لعليّ الحجاز ومصر وما وراءهما من بلاد العرب وما فُتح أو يُفتح في شمال إفريقيا ؛ وللزبير البصرة وما يليها ، ولطلحة الكوفة وما وراءها . وكانا يظنان أن هذه الخلافة الثلاثية إن استقامت لهم كان أمر الشام يسيراً . ولكن علياً أبى عليهما ولايةَ هذين المصرين وأراد أن يسير فيهما سيرةَ عمر فيحبسهما معه في المدينة كما كان عمر يحبس أعلام المهاجرين من قبل. إلا أن علياً لم يَعْنُف بهما كما كان عمر يَعْنف بمن يستأذنه في الخروج إلى الأقطار ، وانما قال لهما في رفق رفيق : أحب أن تكونا معي أتجمَّل بكما فإني أستوحش لفراقكما . هنالك عرف الشيخان أن ظنهما لم يصدُق وأن تقديرهما لم يكن صواباً ، وأن علياً سيستأنف سيرة عمر من حيث انقطعت يوم طعنه ذلك الغلام ، وأن أمرهما معه في المدينة سيكون كأمرهما وكأمر غيرهما من أعلام المهاجرين مع عمر ، سيقيمان

في المدينة وسيأخذان عطاءهما كل عـام ، وان يلقيا من عليّ بعض ما كان يمنحهما عثمان من الرفق والتسامح واللين ، فلم يطالبا بالكوفة ولا بالبصرة ، وإنما سكتا على مضض ودبّرا أمرهما في رويّة وأناة .

– ٤ –

ولعلهما لم يُعرضا عن المطالبة بالبصرة والكوفة إثر هذا الردّ الرفيق الحازم الذي تلقّياه من عليّ . فقد يحدثنا البلاذريّ بأن المُغيرة بن شعبة أشار على عليّ بأن يثبّت معاوية على الشام ويولّي طلحة والزبير مِصْرَي العراق ليستقيم له الأمر . وأن عبدالله ابن عباس عارض هذا الرأي بأن البصرة والكوفة هما عين المـال ومصدر الفيء فإذا وليهما هذان الشيخان ضيّقا على الخليفة المُقيم بالمدينة ، وبأن ولاية معاوية الشام تضُر عليّاً أكثر مما تنفعه . فاستمع عليّ لرأي ابن عباس ولم يقبل مشورة المُغيرة بن شُعْبة .

ولكنّ مؤرخين آخرين يروون القصة على غير هذا الوجه ، فيقولون : إن المغيرة ابن شعبة أراد أن يمتحن عليّاً ليعلم علمه ، فأشار عليه بأن يثبت عمّال عثمان على أعمالهم ، وفيهم معاوية ، عامَه الأول حتى يستقيم له الناس وتأتيه طاعة الأقاليم ثم يغيّرهم بعد ذلك كما يحب . فأبى عليّ ذلك كراهة الادّهان في دينه . ثم أقبل المغيرة من غده على عليّ فأنبأه بعدوله عن رأيه الأول واقتناعه برأي عليّ فلقي المغـيرة خارجاً من عنده ، وسأل ابنُ عباس عليّاً عما قال له المغيرة فأنبأه برأييه اللذين أشار بهما عليه . فقال ابنُ عباس : لقد نصحك أمس وغشّك اليوم . ثم ألحّ ابن عباس على الخليفة في أن يثبّت معاوية على أقل تقدير . ولكن عليّاً أبى عليه ذلك مخافة الادّهان في الدين ، وعرض عليه إمرة الشام ، فاعتذر ابن عباس .

ومهما يكن من اختلاف المؤرخين فليس من شك في أن عليّاً لم يكن يستطيع أن يستبقي عمال عثمان ، كان دينه يمنعه من ذلك لأنه طالما لام عثمان على تولية هؤلاء العمال ، وطالما أنكر على هؤلاء العمال سيرتهم في الناس ، فلم يكن يستطيع أن يطالب بعزلهم أمس ويثبتهم على عملهم اليوم . وتمنعه السياسة من هـذا ، فهؤلاء الثائرون الذين شبّوا نار الفتنة وقتلوا عثمان لم يكونوا يكتفون بتغيير الخليفة ، وإنما كانوا يريدون تغيير السياسة كلها وتغيير العمال قبل كل شيء . ولعلهم لم يكونوا يستثنون من هؤلاء

العمال إلا أبا موسى الأشعري الذي اختاره أهل الكوفة عاملاً عليهم وأقرّ عثمان اختيارهم إياه مبتغياً بذلك استصلاحهم وصدّهم عن الفتنة .

وعلى كل حال فقد كان اختيار العمال على الاقاليم اولَ شيء فكّر فيه عليّ بعد أن فرغ من بيعة أهل المدينة . وقد اختار عمّاله اختياراً حسناً : فأرسل إلى البصرة عثمان بن حُنَيف من اعلام الأنصار، وأرسل أخاه سهل بن حُنَيف إلى الشام ،وأرسل قيس بن سعد بن عُبادة إلى مصر . وهذا يدل على انه اراد ان يُرضي الأنصار بهذا الاختيار ، فهو قد اختار منهم ثلاثة لهذه الأمصار الخطيرة : البصرة والشام ومصر . أما الكوفة فيروي بعض المؤرخين أنه اختار لها عُمارة بن شِهاب ، ولكنه لقي في طريقه من أهل الكوفة منْ ردّه إلى عليّ وأنذره بالموت إن لم يرجع وأنبأه بأن أهل الكوفة لا يرضوْن بغير أميرهم أبي موسى . فرجع عمارة من حيث أتى : وأرسل أبو موسى إلى عليّ بيعته وبيعة أهل الكوفة . واختار عليٌّ ابنَ عمه عبيدالله بن عبّاس عاملا على اليمن فلما بلغها رحل عنها عامل عثمان يَعْلَى بن أمية واحتمل ما كان عنده من المال ولحق بمكة . واختار عليّ لولاية مكة أول الامر رجلا من بني مخزوم هو خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة ، ولكن أهل مكة أبوْا أن يبايعوه لعليّ . ويقال: إن فتى من فتيانهم أخذ صحيفة عليّ فمضغها ثم رمى بها فسقطت في سقاية زمزم . ولمكة أمرٌ خاصٌ سنعرض له بعد قليل .

وقد سار عمّال عليّ إلى أقاليمهم : فأما قيس بن سعد فدخل مصر في غير جهد وأخذ البيعة لعليّ من عامة أهلها إلا فريقاً اعتزلوا الناس وآووا إلى خرْبته يطلبون بثأر عثمان ، ولكنهم لا يقاتلون أحداً ولا يشقّون عصا ، وإنما ينتظرون له . وأما عثمانَ بن حنيف فدخل البصرة ولم يجد من أهلها كيداً ، وقد رحل عنها عاملُ عثمان عبدُ الله بن عامر وحمل ما استطاع حمله من المال حتى أتى مكة فأقام فيها .

وأكاد أعتقد أن علياً لم يرسل إلى الكوفة أحداً على رغم ما قدمتُ من بعض الروايات ، وإنما أثبت أبا موسى لأنه كان رضًى لأهل مصره . وذهب سهل بن حُنيف إلى الشام فلم يكد يبلغ حدودها حتى لقيته خيلٌ لمعاوية فلما سألوه من يكون ؟ أنبأهم بأنه الأمير . فقالوا له : إن كنت أميراً من قبل عثمان فدونك إمْرتَك ، وإن كنت أميراً من قبل غيره فارجع الى من أرسلك . فرجع سهل إلى عليّ . ولم يكد الناس يعلمون برجعه ذاك حتى أخذ منهم القلق كل مأخذ ، عرفوا أن معاوية محارب وأرادوا أن يعرفوا أمر عليّ : أيريد حرباً أم يريد مسالمة

وترقّباً . ولكن علياً لم يكن صاحب مسالة في الحق ، وكان يؤثر الصراحة في القول والعمل على التربّص والكيد . وهو مع ذلك لم يعجل معاوية وإنما أرسل اليه مِسْوَر ابن مَخرَمة بكتاب منه يطلب إليه فيه أن يبايع وأن يُقبل الى المدينة في أشراف أهل الشام ، ولم يذكر الكتاب أن يوليه ثغره . ويقال إنه أرسل إليه سبْرة الجهنيّ بكتابه ذاك . فلما قرأ معاوية الكتاب لم يجب الى شيء مما فيه وإنما آثر التربّص والكيد ، وجعل كلما تنجّزه رسول على جوابه يردّ عليه بهذه الأبيات :

أدِمْ إدامة حِصنٍ أو خُذا بيدي ... حرباً ضَروساً تشُبُّ الجَزْلَ والضّرما

في جاركم وابنكم إذ كان مقتلهُ ... شنعاءَ شيّبت الأصداغ واللمَما

أعيا المَسُودُ بها والسيّدُون فلم ... يُوجَد لهـا غيرُنا مولىً ولا حَكَما

حتى اذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان دعا رجلاً من بني عَبْس فدفع اليه طوماراً مختوماً عنوانه : « من معاوية بن أبي سفيان الى عليّ بن أبي طالب » . وأمره اذا دخل المدينة أن يرفع الطومار للناس حتى يقرأوا عنوانه ثم يدفعه بعد ذلك الى عليّ ، وأوصاه بما يقول لعليّ إن حاوره في بعض ما قدم فيه . وأقبل العبسيُّ حتى دخل المدينة ، فرفع الطومار حتى عرف الناس أنه يحمل رد معاوية . فثار لذلك شوقهم الى العلم بما في هذا الكتاب . وأكبر الظن أن كثيراً منهم تبعوا العبسي حتى بلغ باب عليّ فأدخل عليه ودفع اليه الطومار . فلما فضّه علي لم يجد فيه شيئاً مكتوباً إلا : « بسم الله الرحمن الرحيم » . فسأل العبسيّ : ما وراءك ؟ واستأمن العبسيُّ . فلما أمن أنبأ عليّا بأنه ترك أهل الشام وقد صمّموا أن يثأروا لعثمان ، ونصبوا قميصه للناس وجعلوا يلتفون حوله يبكون . ثم أنبأه بأن أهل الشام يتّهمونه بقتل عثمان ولا يرضون إلا أن يقتلوه به . ثم خرج العبسيُّ ، ولم يكد يُفلت من الثائرين الساخطين على معاوية إلا بعد مشقة وجهد وعناء .

ثم دعا عليّ أعلام الناس في المدينة ، وبينهم طلحةُ والزبيرُ ، فأنبأهم بما ارتفع اليه من أمر معاوية ، وأنبأهم بأنها الحرب ، وبأن الخير في أن يُميتوا الفتنة قبل أن تستشري ويعظم أمرها ، وفي أن يغزوا أهل الشام قبل أن يغير عليهم أهل الشام . وكأنه لم يجد من الناس جواباً مقنعاً ولا حماسة للحرب . وقد استأذنه طلحةُ والزبيرُ في أن يلحقا بمكة ، ولم يكونا في استئذانهما رفيقين وإنما أظهرا شيئاً من شدة وعناد ، وأنذرا بالمكابرة إن لم يأذن لهما . فقال عليُّ : سنُمسك هذا الأمر ما استمسك .

وكثير من المؤرخين يرون أن طلحة والزبير استأذنا عليّاً في الخروج الى مكة

معتمرين ، وأن علياً أظهر لهما شيئاً من الشك فيما صمما عليه ، فأكدا له أنهما لا يريدان إلا العمرة . ومهما يكن من شيء فقد خرجا الى مكة عن رضى او عن كره من عليّ وجعل علي يتجهز لحرب أهل الشام يريد أن يغير عليهم قبل أن يغيروا عليه .

وإنه لفي ذلك إذ جاءته من مكة أنباء مقلقة غيرت رأيه وخطتـه ومصير أمره كله تغييراً تاماً .

- ٥ -

وقد قُتل عثمان كما تعلم أثناء الموسم ، فكان كثير من أهـل المدينة قد مضوا إلى حجّهم ثم جعلوا يعودون بعد أن قضوا مناسكهم . وجعلت أنباء الكارثة تبلغهم في طريقهم إلى المدينة ، فمنهم من سمع هذه الأنباء ثم أقبل إلى المدينة فبايع عليّاً، ومنهم من سمعها فرجع أدراجه إلى مكة معتزلاً للفتنة أو منكراً لما كان من الأحداث مضمراً السخط والخلاف على الإمام الجديد . بل إن بعض أهل المدينة الذين شهدوا بيعة عليّ فبايعوا أو رفضوا البيعة قد جعلوا يتركون المدينة ويفرّون بما أضمروا في نفوسهم من الخلاف أو الاعتزال إلى مكة ؛ لأنهـــا كانت حرماً آمناً لا يُغار عليه ولا يُذْعَر من آوى إليه . فقد انطلق إلى مكة عبد الله بن عمرو فاراً بنفسه ودينه من الفتنة ، وهمّ عليّ أن يرسل الخيل في طلبه لولا أن أقبلت بنته أم كُلثوم ، وكانت زوجاً لعمر ، فأكدت له أنه لم يخرج لفتنة أو لخلاف . وخرج إلى مكة طلحة والزبير يظهران أنهما يريدان العمرة أو يظهران اعتزالهما لحرب معاوية ومَنْ قِبَلَه من أهل الشام . وأوى إلى مكة عمّال عثمان الذين استطاعوا أن يأووا إليها : أوى إليهـــا عبدالله بن عامر ويَعْلي بن أمية ، كما أوى إليها كثير من بني أمية ، منهم مروان بن الحكم وسعيد بن أبي العاص . وكان في مكة من أزواج النبيّ حفصة بنت عمر وأم سَلَمة وعائشة بنت أبي بكر . وقد أخذت عائشة طريقها إلى المدينة بعد أن قضت مناسكها ، وعرفت أثناء سفرها مقتل عثمان وأُخبِرت بأن طلحة قـد بُويـع له فأظهرت بذلك ابتهاجاً ، فقد كان طلحة مثلها تَيمياً . ولكنها لقيت في طريقها من أنبأها بحقيقة الأمر وبأن عليّاً هو الذي تمت له البيعة في المدينة . فضاقت بذلك ضيقاً شديداً وأعلنت أنهـــا كانت تؤثر انطباق السماء على الأرض قبل أن ترى عليّاً وقد أصبح للمسلمين إماماً . ثم

قالت لمن كان معها : ردّوني فرجعوا بها أدراجهم إلى مكة . وكان معروفاً أن عائشة رحمها الله لم تكن تحب علياً ولا تهواه ، بل كان معروفاً أنها كانت تجد عليه مَوْجدة شديدة منذ حديث الإفك حين أراد عليّ أن يواسي النبيّ ﷺ فأشار عليه بأن يطلقها وقال له : « إن النساء غيرها كثير » . وكان ذلك قبل أن يُنزل الله براءتها في القرآن. فلم تنس لعليّ قوله ذاك . وكانت عائشة شخصية من أقوى الشخصيات التي عرفها تاريخ المسلمين في ذلك العهد ، لم تكن رقيقة كأبيها وإنما كانت شديدة كعُمَرَ ، على احتفاظ منها بكثير ما ورثت العرب عن جاهليتها . فكانت تحفظ الشعر وتكثر من حفظه وإنشاده والتمثل به ، حتى انها رأت أباها وهو يحتضر ، فتمثّلت قول الشاعر:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حَشْرجت يوماً وضاق بها الصدرُ

وسمعها خليفةُ رسول الله أبوها فقال لها كالمنكر عليها : بَخٍ بَخٍ يا أم المؤمنين ! هلا تلوت قول الله عز وجل : (وجاءَتْ سَكْرَةُ الموْتِ بالحق ذلك ما كنت منه تَحيد) .

وكانت من أشد نساء النبيّ إنكاراً على عثمان ، لم تتحرج أن تصيح به من وراء سترها وهو على المنبر حين عاب عبدَ الله بن مسعود فأسرف في عيبه. ولم تكن تتحفّظ من الاعتراض على كثير من أعمال عثمان ومن سيرة عمّاله حتى ظن كثير من الناس أنها كانت من المحرّضين على الثورة به . وكانت تُنكر على عليّ فيما أعتقد أمرين آخرين : أحدهما لم يكن لعليّ فيه خيَرة ، فقد تزوّج فاطمةَ بنت رسول الله، ورزق منها الحسن والحسين ، فكان أبا الذرية الباقية للنبيّ ، ولم يُتح لها هي الولد من رسول الله، مع أنه قد أتيح لمارية القبطية أم إبراهيم في أواخر أيامالنبيّ. فكان هذا العُقْم يؤذيها في نفسها بَعضَ الشيء ، ولا سيما وهي كانت أحبّ نساء النبي إلى النبيّ .

أما الأمر الآخر فهو أن علياً قد تزوج أسماء الخثْعميّة بعد وفاة أبي بكر رحمه الله ، وأسماءُ الخثعمية هي أم محمد بن أبي بكر الذي نشأ في حجر عليّ ، فكانت عائشة تجد على عليّ لهذا كله . وقد عادت إلى مكة مغاضبةً حين عرفت أن أهل المدينة قد بايعوا له . فلما رجعت إلى مكة عمدت إلى الحِجْر فاتخذت فيه ستراً وجعل الناس يجتمعون إليها فتحدّثهم من وراء الستر : تُنكر قتل عثمان وتقول : «لقد غضبنا لكم من لسان عثمان وسوطه، وعاتبناه حتى أعتب وتاب إلى الله وقَبِل المسلمون منه ، ثم ثار به جماعة من الغوغاء والأعراب فماصُوه مَوْص الثوب الرخيص حتى قتلوه ، واستحلّوا بقتله الدم الحرام في الشهر الحرام في البلد الحرام ».

وجعل الناس يسمعون لها ويتأثرون بها . وكيف لا يتأثرون وهي أم المؤمنين وحبيبة رسول الله التي مات بين سَحْرِها ونحْرِها ، وبنت أبي بكر الصـــدّيق الذي صحب النبي في الهجرة وأنزل الله فيه ما أنزل من القرآن ، والذي لم يكن المسلمون يعدلون به احداً بعد رسول الله ﷺ .

كان الناس إذاً يسمعون لها ويتأثرون بما كانوا يسمعون منها وكان كتـــاب عليّ بتولية خالد بن العاص بن المغيرة على مكة قد وصل إلى مكة وهي أشد ما تكون من الثورة لِمَا كانت تسمع من حديث عائشة . فكان مـــا كان من رفض البَيْعة وإلقاء الكتاب الذي كتبه عليّ في سقاية زمزم. وبعد ذلك بقليل أقبل طلحة والزبير فانضموا إلى مَنْ كان من الغاضبين لعثمان المخالفين لعليّ . ومنذ ذلك اليوم أصبحت مكة مثابة من كان ينكر إمامة عليّ من غير أهل الشام .

- ٦ -

وقد جعل القوم يأتمرون ، فاتفقوا على أن هذه الفتنة قد أحدثت في الإسلام حدثاً خطيراً : قُتل الخليفة مظلوماً ، ولا بدّ من القيام في هذا الأمر بما يرأب الصدع ويُقيم دين الله كما ينبغي أن يقام ، وأول ذلك أن يُثـأر لعثمان من الذين قتلوه مهما يكونوا ، ثم يُردّ أمر المسلمين شورى بينهم فيختارون لخلافتهم من يريـــدون عن رضى النفوس وهوى القلوب واطمئنان الضمائر والنصح للإسلام والمسلمين ، لا عن عنف ولااستكراه ولا خوف من السيوف المسلطة على الأعناق. ثم جعلوا يأتمرون في الطريقة التي ينفّذون بها ما صمموا عليه . فرأى بعضهم الغارة على عليّ وأصحابه في المدينة . ولكنهم ردوا هذا الرأي إشفاقاً من قوة أهل المدينة فيما يقول المؤرخون ، وتحرّجاً من غزو مدينة رسول الله وإحياء قصة الأحزاب ، كما فعل الثـائرون بعثمان في أكبر الظن . ورأى بعضهم الذهاب الى الكوفة ونَصْب الحرب فيها لعليّ واصحابه . ولكنهم ردوا هذا الرأي أيضاً لمكان أبي موسى من الكوفة وكراهيتــه للفتنة ، لأن أشد الثائرين بعثمان والجادين في أمره كانوا من اهل الكوفة ، فكان من الطبيعي أن يمنعهم قومهم ولا يقبلوا فيهم الدنيّة . وآثروا الذهاب الى البصرة لكثرة المضرية فيهـا ولأن عبدالله بن عامر زعم لهم أن له بين اهلها صنائعَ وان له عنـد كثير منهم مودة وإلفاً ، فهم أجدر أن

يسمعوا له ويطيعوا وان يعينوه ويعينوا اصحابه على ما يريدون . ولم يخطر لهم أن يتخذوا مكة دار حرب لأنها حرم آمن لا تسفك فيه الدماء . وقد كفاهم معاوية أمر الشام وكان جديراً ان يكفيهم أمر مصر أيضاً إن غلبوا هم على العراق وما وراءه من الثغور . وقد جعلوا يستعدون الرحيل، وأمدّهم عبدالله بن عامر ويعلى بن أمية بكثير من المال والظَّهر والأداة ، وانتدب الناس للسير معهم فكانت جماعتهم قريباً من ثلاثة آلاف وقد رأى طلحة والزبير أثر عائشة واحاديثها في الناس فرغبا إليها في أن تصحبهم إلى البصرة فقالت : أتأمرانني بالقتال ؟ قالا : لا ، ولكن تعظين الناس وتحرّضينهم على الطلب بدم عثمان . فقبلت في غير تردّد ، وأقنعت حفصة أم المؤمنين بالسير معها . ولكن أخاها عبدالله بن عمر ردّها عن ان تخالف ما أمر الله به نساء النبي في قوله عز وجل : (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الاولى) الى آخر الآية . فأقامت .

وأزمع القوم الرحلة ، وجاءت أخبارهم عليًا فتحوّل عن قتال أهل الشام ليردّ هؤلاء الثائرين مما قصدوا اليه .

- ٧ -

وكذلك استقبل عليّ خلافة المسلمين بما لم يستقبلها أحد من الذين سبقوه . فلم يخالف احد من اصحاب النبيّ عن أبي بكر إلا ما كان من سعد بن عُبادة رحمه الله ، ولم يخالف أحد منهم عن عمر ولا عن عثمان، ولكن عليًا يرى جماعة من خيار اصحاب النبيّ الذين مات وهو عنهم راض وشهد لكثير منهم بالجنة يخالفون عن بيعته ، منهم من يريد اعتزال الفتنة ومنهم من يريد ان ينصب له الحرب . ولعل الحسن بن عليّ قد أصاب الحق حين تحدث الى ابيه في طريقهما الى البصرة بأنه كان قد أشار عليه ان يعتزل امر عثمان فيترك المدينة أيام الفتنة فيلحق بمكة ، في بعض الروايات ، او يلحق بماله بِيَنْبُع في رواية اخرى . فأبى عليّ إلا ان يشهد امر الناس . ثم اشار عليه بعد مقتل عثمان ان يعتزل الناس الى حيث شاء من الأرض حتى تثوب الى العرب عوازب أحلامها ، وقال له : لو كنت في جُحر ضبّ لاستخرجوك منه فبايعوك دون ان تعرض نفسك لهم . ثم هو يشير عليه في طريقه تلك بألا يأتي العراق مخافةَ ان يقتل

بضيعة لا ناصر له فيها . ولكن علياً لم يقبل من ابنه شيئاً مما أشار به : لم يكن ليترك الناس في فتنتهم دون ان يؤدي ما أخذه الله به من أمر معروف ونهي عن منكر ، فنصح للخليفة ، يلين له مرة ويخشن عليه مرة أخرى . ونصح الرعية ينهاها عن الإثم والعدوان ويعينها على أن تبلغ من خليفتها الرضَى . ثم هو لم يطلب الى الناس ان يبايعوه على ما كان يرى لنفسه من حق في الخلافة وإنما استكرهه الناس على البيعة استكراهاً ، استكرهه الثائرون بعثمان ليأمنوا بعض عواقب ثورتهم ، واستكرهه المهاجرون والأنصار ليقيموا للناس إماماً ينفّذ فيهم أمر الله .

ولم يكن يستطيع أن يبقى في المدينة منتظراً حتى يغزوه فيها معاوية وأهل الشام ، ولا ان يبقى في المدينة منتظراً حتى يبلغ طلحة والزبير العراق فيحتازا ما وراءه من الثغور وفيها من الفيء والخراج ، ثم يكرّان عليه بعد ذلك ليغزواه في المدينة . لم يكن له بدّ إذاً من أن يستعد للخروج الى الشام حين أبى معاوية عليه البيعة . وحجته على معاوية ظاهرة . فقد بايعته الكثرة الكثيرة من المسلمين في الحجاز والأقاليم وأصبحت طاعته لازمة .

وكان الحق على معاوية لو أنصف وأخلص نفسه للحق أن يبايع كما بايع الناس ثم يأتي إلى عليّ مع غيره من أولياء عثمان فيطالبون بالإقادة ممن قتله . ولكن معاوية لم يكن يريد أن يثأر لعثمان بمقدار ما كان يريد أن يصرف الأمر عن عليّ ، وآية ذلك أن الأمر استقام له بعد وفاة عليّ رحمه الله ومصالحة الحسن إياه ، فتناسى ثأر عثمان ولم يتتبع قَتَلَتَه ، إيثاراً للعافية وحقناً للدماء وجمعاً للكلمة .

ولم تكن حجة عليّ على طلحة والزبير وعائشة أقلّ ظهوراً على حجته على معاوية ، فقد بايع طلحةُ والزبيرُ، وكان الحق عليهما أن يفيا بالعهد ويُخلصا للبيعة التي أعطياها، فإن كرها الإذعان لعلي أو معونته على بعض ما كان يريد ، فقد كانا يستطيعان أن يعتزلا كما اعتزل سعد بن أبي وقاص وعبدُالله بن عمر وأسامة بن زيد ومحمد بن مَسْلَمة وغيرهم من خيار أصحاب النبي ، فلا ينصبا حرباً ولا يدفعا الناس إليها ولا يفرّقا المسلمين على هذا النحو المنكر الذي ستراه .

وأما عائشة فقد أمرها الله فيمن أمر من نساء النبيّ أن تقرّ في بيتها . وكان عليها أن تفعل أيام عليّ كما كانت تفعل أيام الخلفاء من قبله ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر دون أن تخالف عما أمرت به من القرار في بيتها لتذكر ما كان يُتلى عليها من آيات الله والحكمة ولتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة كما فعل غيرها من أمهات المؤمنين . ولو قد

أبت أن تبايع علياً أو تؤمن له بالخلافة لما وجدت منه شيئاً تكرهه ، فهي أم المؤمنين وحبيبة رسول الله وبنت أبي بكر . وكان من الطبيعي أن تلقى من عليّ مثال ما لقى المعتزلون على أقل تقدير . وآية ذلك أنها لم تلق منه بعد يوم الجمل إلا الكرامة والإكبار .

وقد يقال إن القوم لم يكونوا يغضبون لعثمان فحسب وإنما كانوا يريدون أن يُختار الخليفة عن مشورة بين المسلمين ، وكانوا يكرهون أن يفرض الثائرون بعثمان عليهم إماماً بعينه . ولكنّ أبا بكر لم يبايع بالخلافة عن مشورة من المسلمين وإنما كانت بيعته فلتة ، وقى الله المسلمين شرّها كما قال عمر ، كما أن عمر نفسه لم يبايع عن مشورة من المسلمين وإنما عهد إليه أبو بكر ، فأمضى المسلمون عهده ثقةً منهم بالشيخين وحباً منهم لهما . ولم تكن الشورى التي تمت بها خلافة عثمان مُقنعة ولا مُجزئة ، فقد اختص عمر بها ستة من قريش على أن يختاروا واحداً منهم ، فاختاروا عثمان . وأكبر الظن أنهم نصحوا للمسلمين وتجنّبوا الفتنة والخلافَ جهدهم .

فكان الحق على طلحة والزبير والمعتزلين أيضاً أن يمسكوا الأمر ما استمسك ، وأن يبايعوا لعليّ عن رضىً لا عن كره ، وأن يجتهدوا معه بعد ذلك في إصلاح ما أفسد الثائرون من جهة ، وفي وضع نظام مستقر دائم لاختيار الخليفة وتدبير أمور الدولة بحيث لا يتعرض المسلمون لمثل ما تعرضوا له من الفتنة والمحنة أيام عثمان من جهة أخرى. ولكن القوم كانوا يفكّرون بعقول غير عقولنا ، ويشعرون بقلوب غير قلوبنا ، ويجتهدون لدينهم ولأنفسهم ما استطاعوا .

وقد لقى أبو بكر في أول خلافته شيئاً يشبه من بعيد ما لقيه عليّ ، فقد انتقضت عليه عامّة العرب ورفضوا أن يؤدّوا إليه الزكاة . ولكن أبا بكر وجد من أصحاب النبي جميعاً أعواناً وأنصاراً ، فما أسرع ما أخمد الفتنة ثم رمى بالعرب وجوه الأرض فشغلهم بالفتح . وجاء عمر فدفعهم إلى الفتح دفعاً . وسار عثمان على سنة الشيخين فأمعن المسلمون في الفتح صدراً من خلافته . أما عليّ فلم يكد يرقى إلى الخلافة حتى تنكّر له قوم من الذين كانوا يُعينون أبا بكر وعمر ، ثم لم يلبث الأمر كله أن انتشر وأصبح المسلمون حرباً على المسلمين ، ووقف أصحاب الثغور عند ثغورهم لا يتجاوزونها فاتحين ، بل ترك بعض أصحاب الثغور في الشام ثغورهم ليقاتلوا إخوانهم من أصحاب عليّ ، حتى طمع الروم في استرجاع ما أخذ منهم المسلمون ، وهمّوا أن يغيروا على الشام لولا أن اشترى معاوية منهم السلم بما كان يؤدي إليهم من المال ، حتى

فرغ لهم بعد اجتماع الكلمة .

ومهما يكن من شيء فقد ارتحل طلحة والزبير وعائشة يريدون البصرة ، وصرف عليّ همه عن الشام وأزمع الخروج ليرد طلحة والزبير وعائشة عما صمّما عليه . وأتيح لمعاوية من الوقت والعافية ما مكّنه من أن يُحكم أمره ويهيء جنده ويكيد لعليّ في مصر . وقد خرج عليّ من المدينة والناس كارهون لخروجه متشائمون به . ولكن علياً لم يقدر أنه سيترك المدينة الى غير رجعة إليها ، وانما كان يظن أنه سيلقى هؤلاء القوم فيناظرهم ويبلغ منهم الرضى ويردّهم إلى الجماعة ، ويعود معهم آخر الأمر إلى المدينة فيقيم فيها كما أقام الخلفاء من قبله ، ويدبر منها أمر المسلمين كما كانوا يفعلون . ولكنه لم يكد يمضي في طريقه ليلقى القوم حتى عرف أنهم فاتوه وأنهم سيبلغون البصرة وسيفتنون الناس فيها عن بيعتهم . وهو مع ذلك لم يستيأس من الصلح ، ولكنه احتاط للحرب حتى لا يؤخذ على غرة ، فمضى في طريقه وأرسل إلى أهل الكوفة مَن يستنفرهم لنصره .

- ٨ -

وأقبل رسل عليّ إلى الكوفة فوجدوا أميرها أبا موسى الاشعريّ راغباً عن الفتنة كارها للقتال مخذّلاً للناس عن نصر إمامهم . وكانت حجته في هذا يسيرة ، فإن الإمام لم يكن يريد أن يحارب عدوّاً من الكفار وإنما كان يوشك أن يحارب قوماً مثله يؤمنون مثله بالله ورسوله واليوم الآخر ، فكره أن يقاتل المسلمون المسلمين .رأى ذلك لنفسه ثم لم يلبث أن رآه لأهل مصره جميعاً . وأيسر ما يأمر به الدين أن يحب الإنسان للناس ما يُحب لنفسه . فقد كان أبو موسى إذاً ناصحاً لنفسه ولأهل الكوفة حين نهاهم عن القتال وخذلهم عن نصر الإمام . ولكن أبا موسى كان قد بايع علياً وأخذ له بيعة أهل الكوفة ، وهذه البيعة تفرض عليه نصر الإمام بنفسه وبأهل مصره ، فإن تحرّج من ذلك استقال الإمام وترك عمله وانضم إلى أولئك المعتزلين فاجتنب من الفتنة ما يجتنبون . فإما أن يكون قد بايع علياً وقبل أن يكون له والياً ثم يأبى بعد ذلك أن ينفر مع أهل مصره حين استنفرهم الإمام فشيء لا يكاد يستقيم . ولذلك ارسل عليّ إليه يلومه ويعنفه ويعزله عن عمله ، وأرسل والياً جديداً هو قرَظة بن كعب

الانصاري ، وأرسل الحسن بن عليّ وعمّار بن ياسر يستنفران الناس . ويروي بعض المؤرخين أن الأشتر استأذن علياً في أن يلحق برسله إلى الكوفة ، فأذن له . فلما بلغ المصرَ جمع نفراً من قومه أولي بأس وأغار بهم على قصر الإمارة ، وأبو موسى يخطب للناس ، فاجتاز القصرَ وبيت المال ، واضطر أبا موسى إلى أن يعتزل العمل . ففعل وخرج من الكوفة حتى مكة فأقـــام فيها مع المعتزلين . ونفر أهل الكوفة لنصر إمامهم ، فأتوه حيث كان ينتظرهم بذي قار .

- ٩ -

وكان امر البصرة أشد من أمر الكوفة تعقيـداً ، فقد كان أهل هذا المصر بايعوا علياً واستقاموا لعامله عثمان بن حُنيف.فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى أظلّهم الزبير وطلحة وعائشة ومن معهم من الجنـــد . فأرسل اليهم عثمان بن حُنيف سفيرين من قبله، هما عمران بن حُصَين الخزاعي صاحب رسول الله وأبو الأسود الدؤلي ، فلمـــا أقبلا سألا القوم : ماذا يرون ؟ فقالوا : نطلب بدم عثمان ونجعل الأمر شورى بين المسلمين يختارون لخلافتهم من يشاءون . وهمّ السفيران أن يحـاورا القوم في هذا الأمر ، فأبى القوم أن يسمعوا منهما فعادا إلى عثمان بن حُنيف ينبئـانه أن القوم يريدون الحرب ولا يريدون غيرها ، فتأهب عثمان للقتال وخرج في أهل البصرة حتى واقف القوم ، ثم تناظروا فلم يصلوا إلى خير . خطب طلحةُ والزبير فطلبـا بدم عثمان وجَعـــل الأمر شورى بين المسلمين . فردّ عليهما من أهل البصرة مَن كانت تأتيهم كتب طلحة بالتحريض على قتل عثمان . واختلف اهل البصرة وقال قوم : صَدَقا وتكلما بالصواب . وقال قوم: كذَبا ونطقا بغير الحق . وارتفعت الأصوات واشتد الخلاف ، وجعل اهل البصرة يتسابّون.

ثم جيء بعائشة على جملها فخطبت الناس وأبلغت في الخطابة . لسان زلق ومنطق عَذْب وحجة ظاهرة القوة . تقول : غضبنا لكم من سوط عثمان وعصاه أفلا نغضب لعثمان من السيف ؟ ألا وإن خليفتكم قد قُتل مظلوماً ، أنكرنا عليه أشياء وعاتبناه فيها فأعتب وتاب الى الله ، وماذا يطلب من المسلم ان اخطأ أكثر من أن يتوب الى الله ويُعتب الناس . ولكن أعداءه سطوا عليه فقتلوه واستحلوا حُرمـــاً ثلاثاً : حُرْمة الدم وحرمة الشهر الحرام وحرمة البلد الحرام .

وقد أستمع لها الناس في صمت عميق ، ولكنها لم تكد تُتم حديثها حتى عــادت الأصوات فارتفعت يصدقها قوم ويكذبها قوم ، وأولئك وهؤلاء يتسابّون ويتضاربون بالنعال . ومع ذلك ثبت مع عثمان بن حُنيف جند قوي من أهل البصرة فاقتتلوا قتالاً شديداً وكثرت فيهم الجراحات ، ثم تحاجزوا وتـداعوا إلى الهدنة حتى يقدّم علي . وكتبوا بينهم كتاباً بذلك يُقِرّ عـثمان بن حنيف على الإمرة ويترك له المَسْلحة وبيت المال . ويُبيح للزبير وطلحة وعائشة ومن معهم أن ينزلوا من البصرة حيث يشاءون.

وعاد أمر الناس الى عافية ظاهرة . ومضى عثمان بن حُنيف على شأنه يصلي بالناس ويقسم المال ويضبط المصر . ولكن القوم الطارئين ائتمروا فيما بينهم فقــال قائلهم : لئن انتظرنا مَقدَم عليّ ليأخذن بأعناقنا . ثم أجمعوا على أن يبتوا عثمان بن حُنيف ، وانتهزوا ليلة مظلمة شديدة الريح فعدوا على عثمان وهو يصلي بالناس العشاء الآخرة ، فأخذوه ووكلوا به من ضربه ضرباً شديداً ونتف لحيته وشاربيه ، ثم عدوا على بيت المال فقتلوا من حرسه اربعين رجلاً ، وحبسوا عثمان بن حنيف وأسرفوا عليه في العذاب . هنالك غضب من أهل البصرة قوم أنكروا نقض الهدنة ، وكرهوا هذا العدوان على الأمير ، وكرهوا كذلك استئثار القوم ببيت المال ، واجتنبوا المدينـــة وخرجوا الى بعض ضاحيتها يريدون الحرب وحماية ما اتفق القوم على أنه حرام لا ينبغي أن يعرض له احد بسوء .

وكانت هذه الفتنة من رَبيعة يرأسها حكيم بن جَبَلة العبديّ . فخرج لهم طلحـة في قوم من اصحابه فقاتلوهم حتى قتلوا منهم اكثر من سبعين رجلاً ، وقتل حكيم بن جَبَلة بعد ان أبلى بلاء حسناً عظّم القصاص من امره فيما بعد . فزعموا ان رجلاً من اصحاب طلحة ضربه ضربة قطعت رجله ، فحبا حكيم حتى اخذ رجله تلك المقطوعة فرمى بها من ضربه فصرعه وجعل يرتجز .

يا نفسُ لا تراعي إن قطعوا كُراعي إنّ معي ذراعي

ثم قاتل رغم جراحته وهو يرتجز :

ليس علـيّ في الممات عارُ والعار في الحرب هو الفرار
والمجد ألاّ يُفضح الذِّمار

وما زال يقاتل حتى قتل .

وكذلك لم يكتف هؤلاء القوم بنكث البيعة التي أعطوها علياً وإنما أضافوا اليهـا نكث الهدنة التي اصطلحوا عليها مع عثمان بن حُنَيف ، وقتلوا من قتــلوا من أهل

البصرة الذين أنكروا نقض الهدنة وحبس الأمير وغصب ما في بيت المال وقتل من قتلوا من حرسه ، وكلهم كانوا من الموالي . ولم يقف أمرهم عند هذا الحد وإنما همّوا أن يبطشوا بعثمان بن حُنيف لولا أن ذكرهم بأن أخاه سهل بن حنيف يدبّر أمر المدينة من قبَل عليّ وبأنه خليق أن يضع السيف في بني أبيهم إن أصابوه بمكروه ، فخلّوا سبيله . وانطلق حتى أتى علياً في بعض طريقه الى البصرة. فلما دخل عليه قال له مداعباً : يا أمير المؤمنين ، أرسلتني الى البصرة شيخاً فجئتك أمرد .

ولم يكن من شأن هذه الاحداث التي أحدثها القومُ في البصرة إلا أن توغر صدر عليّ وأصحابه ، وتزيد الفرقة بين أهل البصرة الذين انقسموا على أنفسهم شرّ انقسام وأشده نكراً ؛ فقد غضبت عبدُالقيس لحكيم بن جَبَلة فخرجت مكابرةً حتى أتت علياً فانضمت الى جيشه . وأفلت من أصحاب حكيم حُرقُوص بن زُهير ، وهو من الذين ألّبوا أشد التأليب على عثمان ، فغضب له قومه وحموه وأبوا أن يسلموه ، ثم اعتزلوا الناس مع الأحنف بن قيس في ستة آلاف .

واشتد الخلاف بين الناس بعد ذلك ، قوم يخرجون الى علي متسللين او مكابرين ، وقوم ينتظرون مقدم علي لينضموا اليه ، وقوم ينضمون الى طلحة والزبير ليحموا ثَقَل رسول الله عائشة ولينصروا حواريّ رسول الله الزبير ، وقوم يريدون أن يعتزلوا الفتنة فراراً بدينهم ، فمنهم من يتاح له الاعتزال ومنهم من يضطر الى الفتنة اضطراراً . والرؤساء بعد ذلك ليسوا من الرضى وراحة الضمير بحيث يحبون . فطلحة والزبير يختلفان أيهما يصلي بالناس ، ثم يتفقان بعد خطوب على أن يصليا بالناس هذا يوماً وهذا يوماً . وفي ضمير عائشة قلق لا يكاد يبين ؛ مرّت في طريقها بماء فنبحتها كلابه وسألت عن هذا الماء فقيل لها إنه الحوأب . فجزعت جزعاً شديداً وقالت : رُدّوني ردوني ، قد سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه : أيتكنّ تنبحها كلاب الحوأب ؟ وجاء عبدالله بن الزبير فتكلّف تهدئتها وجاءها بخمسين رجلاً من بني عامر يحلفون لها أن هذا الماء ليس بماء الحوأب .

فرقة ظاهرة واختلاف بيّن وقلق خفيّ في الضمائر وأطماع تظهر على استحياء ثم تستخفي على كره من أصحابها ، كذلك كانت حال القوم حين أظلهم عليّ بمن معه من جند كثيف .

وكانت حال عليّ واصحابه على خلاف ذلك من جميع الوجوه ، فلم يَشُكَّ علي قط في أنه كان أحق الناس بالخلافة ، فلما جاءته الخلافة استمسك بها ورأى أن حقه قد صار إليه . وما كان الثائرون بعثمان ليُكرهوا خيار اصحاب النبي الذين كانوا في المدينة من المهاجرين والانصار على غير مـا يُحبون ، وهم الذين شهدوا المشاهد مع النبيّ وصبروا كغيرهم على الفتنة وامتُحنوا في مواطن الشدة على اختلافهـا فآثروا دينهم على دنياهم وآثروا الموت في سبيل الله على الحياة في سبيل انفسهم . وقوم مثل هؤلاء لا يُستكرهون على شيء يرونه مخالفاً لدينهم ، فهم قد بايعوا علياً إذاً راضين به مؤثرين له لا راهبين ولا راغبين . وآية ذلك أن فريقاً منهم لم يطمئنوا إلى بيعة فلم يُكرههم عليّ على بيعته وانما خلّى بينهم وبين ما أرادوا من الاعتزال وقبل منهم ما قدموا إليه من عذر ، وقام دونهم يمنع الثائرين من أن يصلوا إليهم ، وجعل نفسه كفيلا لعبدالله بن عمر حين أبى عبدالله أن يأتيَ بكفيل . ولأمر ما سكت عليٌ على استكراه طلحة والزبير على البيعة ، فقد شاركا في الانكار على عثمان والجد في أمره ، وكان كل واحد منهما ينظر إلى نفسه ، فخشي منهما وخشي عليهما الفتنة .

لم يكن عليّ إذا متردداً ولا شاكّاً ولا قلق الضمير حين هَمَّ بقتـال أهل الشام حين رفضوا البيعـة وحين تحوّل عنهم إلى أمر طلحة والزبير حين أظهرا النكث والخلاف ، ولكنه في بعض مواطنه قال كالنادم المحزون : لو علمت أن الامر يبلغ هذا المبلغ ما دخلت فيه . يريد أنه لم يكن يظنّ بهذين الشيخين وبأم المؤمنين عائشة أن يبلغ الأمر بهم مـا بلغ من تفريق كلمة المسلمين وحَمْل بعضهم على أن يسلّوا سيوفهم على بعض . ولو قد علم أن خلافته ستكون مصدر فتنة وفرقة لأعرض عنها إيثـاراً لعافية المسلمين واجتماع كلمتهم ، ولصَبرَ نفسه على ما تكره كما فعل حين بُويع للخلفاء الثلاثة من قَبْله . فأمـا وقد بايعه من بايعه من عامة المسلمين وخاصتهم فقد مضى في أمره على بصيرة ؛ وكَره أن يرجع بعد أن مضى ويُحجم بعد أن أقدم وكان كثيراً ما يقول : والله إني لعلـى بيّنة من ربي ما كَذبت ولا كُذبت ، ولا ضَلَلت ولا ضُلّ بي .

ولم يكن أصحاب عليّ في طريقه إلى البصرة شاكّين ولا مترددين ، إلا ما كان

من أمر أبي موسى ، وقد ظهر أن أهل البصرة لا يشاركونه في رأيه ، وانما أراد أفراد أن يستوثقوا لأنفسهم في أمر دينهم وفي أمر آخرتهم خاصة فسألوا عليّاً عما كان يريد من شخوصه وإشخاصه إياهم إلى البصرة ، فكان يجيبهم بأنه يريد أن يلقى بهم اخوانهم من اهل البصرة فيدعوهم الى الصلح ويبيّن لهم الحق ويناظرهم فيه لعلهم أن يثوبوا فتجتمع الكلمة وتلتئم وحدة الجماعة . وكان هؤلاء النفر يسألونه : فان لم يثوبوا الى الحق ولم يقبلوا الصلح ؟ فكان يجيب : اذاً لا أبدؤهم بقتال حتى يبدأونا . فكانوا يسألونه : فان بدأونا ؟ وهنالك كان يجيبهم : اذاً نقاتلهم على الحق حتى يرجعوا اليه . وقد أراد بعض هؤلاء أن يستوثقوا لأمر آخرتهم فسألوه : ما يكون أمر الذين يُقتلون منهم إن كانت حرب ؟ فأجابهم : بأن من قاتل صادق النية في نصر الحق مبتغياً وجه الله ورضاه فصيره مصير الشهداء . وقد سأله رجل منهم ذات يوم : أيمكن أن يجتمع الزبير وطلحة وعائشة على باطل ؟ فقال : إنك لملبوس عليك ، ان الحق والباطل لا يُعرفان بأقدار الرجال ، اعرف الحق تعرف أهله ، واعرف الباطل تعرف اهله . وما أعرف جواباً أروع من هذا الجواب الذي لا يعصم من الخطأ أحداً مهما تكن منزلته ، ولا يحتكر الحق لأحد مهما تكن مكانته ، بعد أن سكت الوحي وانقطع خبر السماء .

كان عليّ إذاً على بصيرة من أمره ، وكان أصحابه يمضون معه على بصائرهم يُشفقون من أن يَسلّوا سيوفهم على قوم من المسلمين أمثالهم ، ولكنهم لا يرون أن يُعرضوا عن ذلك اذا لم يكن منه بدّ .

وكان علي يريد ان يعارض القوم في الصلح ويناظرهم على الحق ولا يبدؤهم بقتال إلا أن يبدأوه به . فقد كان الأمر مختلفاً اذاً بين هذين الفريقين : أهل البصرة مختلفون كما قدّمنا آنفاً وأصحاب عليّ مؤتلفون ، وأهل البصرة متردّدون بحيث يُحبون . فطلحة والزبير يختلفان أيهما يصلي بالناس ، ثم يتفقان بعد خطوب على أن يصليا بالناس هذا يوماً وهذا يوماً . وفي ضمير عائشة قلق لا يكاد يبين ، مرّت في طريقها بماء فنبحتها كلابه وسألت عن هذا الماء فقيل لها إنه الحوأب . فجزعت جزعاً شديداً وقالت : رُدّوني ردوني ، قد سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه: أيتكن تنبحها كلابُ الحوأب ؟ وجاء عبد الله بن الزبير فتكلّف تهدئتها وجاءها بخمسين رجلاً من بني عامر يحلفون لها أن هذا الماء ليس بماء الحوأب .

فُرقة ظاهرة واختلاف بيّن وقلق خفيّ في الضمائر وأطماع تظهر على استحياء ثم

تستخفي على كره من أصحابها ، كذلك كانت حال القوم حين أظلهم علي بن معه من جُند كثيف .

- ١١ -

فقد أرسل إليهم القَعْقاع بن عمرو صاحب رسول الله وأمَره أن يَعلم عِلْمهم ويسألهم عما يريدون ويناظرهم فيم خرجوا من أجله . فمضى القعقاعُ حتى أذن له على عائشة ، فسألها عما أقدمها إلى البصرة . قالت إصلاح بين النـــاس . فسألها أن تدعو طلحة والزبير ليقول لهما ويسمع منهما وهي شاهدة . فأرسلت إليهما . فلما أقبلا قال لهما القعقاع : إني سألت أم المؤمنين عما أقدمها الى هذه البلدة فقالت : إصلاح بين الناس ، أفأنتما متابعان لها أم مخالفان عنها ؟ قالا : متابعان . قال القعقاع : فأنبئاني عن هذا الإصلاح الذي تريدونه ، فإن كان خــيراً وافقناكم عليه ، وإن كان شراً اجتنبناه . قال قائلهما : قُتل عثمان مظلومــاً ولا يستقيم الأمر إذا لم يُقَم الحدّ على قاتليه . قال القعقاع : فإنكم قد قتلتم من قَتَلَة عثمان ستمائة رجل في البصرة إلا رجلاً واحداً هو حُرقوص بن زُهير ، غضب له قومـــه فخالفوا عنكم ، وغَضب لمن قُتل قومُهم ، فتفرقت عنكم مُضَر وربيعة وفسد الأمر بينكم وبــين كثير من الناس ، ولو مضيتم في الأمصار تفعلون فيها مثل ما فعلتم في البصرة لفسد الأمر فساداً لا صلاحَ بعده . قالت عائشة . فأنت تقول ماذا ؟ قال القعقاع : أقول : إن هذا أمر دواؤه التسكين واجتماع الشمل حتى إذا صلح الأمر وهدأت الثائرة وأمن الناس واطمـأن بعضهم الى بعض نظرنا في أمر الذين أحدثوا هذه الفتنة . وإني لأقول هـذا وما أراه يتم حتى يأخذ الله من هذه الأمة ما يشاء ، فقد انتثر أمرها وألحّت بهـا المُلمّات وتعرضت لبلاء عظيم . فاستحسن القوم كلامه ، أو أظهروا له أنهم يستحسنون كلامه وقالوا : قد رضينا منك رأيك ، فإن أقبل عليّ بمثل هـــذا الرأي صالحناه عليه . ورجع القعقاع راضياً فأنبأ علياً بما قال وبما قيل له ، فسُرّ علي بذلك أشد السرور وأعظمه .

وكان الأفراد من أهـــل البصرة يُلمّون بمعسكر علي ، يأتي الرّبعيّ من أهل البصرة قومَه من ربيعة الكوفة ، ويأتي المُضريّ قومه المُضريّين ، ويأتي اليمنيّ قومه

اليمانية ، فلا يكون الحديث بينهم إلا في الصلح وإيثار العافيـــة ، حتى ظن أولئك وهؤلاء أن الأمر ملتئم بعد قليل . وهنا يروي الغلاة من خصوم الشيعة قصة ما أراها تستقيم ، لأنها تخالف طبيعة الأشياء ولا يُسيغها إلا أصحاب السذاجة أو الذين يتكلفون أو يريدون تصوير التاريخ كما كان بمقدار مــا يريدون تصويره كما تمنّوا أن يكون . فقد زعم هؤلاء الغلاة أن الذين تولوا كِبْر الثورة بعثمان جزعوا حين أحسّوا أن أمر الناس صائر الى الصلح وأشفقوا أن يكونوا ثمن هذا الصلح ، فاجتمع ناديهم بليل وجعلوا يُديرون الرأي بينهم على نحو ما تجد في السيرة من اجتماع قريش بدار النّدوة وائتمارهم بالنبيّ وحضور ذلك الشيخ النّجدي الذي اتخذ إبليس صورتـــه ليشهد أمر القوم ويشير عليهم .

وكان إبليسَ الجماعة في هذه القصة ذلك اليهوديُّ الذي أسلم بآخرة ومضى في الأمصار يفسد على الناس أمور دينهم وأمور دنياهم ويؤلّبهم على عثمان ، وهو عبد الله بن سبأ المعروف بابن السّوداء .

وقد جعل القوم يتشاورون وجعل إبليس القوم يُسفّه ما كان يُعرَض من الآراء حتى انتهوا الى رأي أعجب به ابنُ السوداء كما أعجب إبليس برأي أبي جهل في أمر النبيّ . وكان هـــذا الرأي الذي أعجب ابنَ السوداء هو أن يجزموا أمرهم ويكتموا سرّهم حتى إذا التقى الجمعان أنشبوا القتال عـــن غير أمر من عليّ ، فأثاروا الحرب وحالوا بين الفريقين وبين من كانوا يريدون الصلح .

وتمضي القصة فتروي أن القوم أنفذوا خطتهم كما دبروها فأنشبوا القتال على حين كان طلحة والزُّبير وعليّ قد أجمعوا أمرهم على الصلح . والتكلف في هذه القصة أظهر من أن نحتاج إلى كثير عناء في ردّها . فلم يكن علي وأصحابه من الغفلة بحيث تُدبَّر الخيانة في معسكرهم ويدبرها قوم من قادتهم وهم لا يشعرون . وإنما الوجه الذي يلائم طبيعة الأشياء هو ما رواه المعتدلون من المؤرخين من أن القوم قد التقوا عند البصرة ووقف بعضهم لبعض وتناظروا ولم تغن المناظرة عنهم شيئاً ، فكان ما لم يكن بُدّ من أن يكون .

- ١٢ -

وكان كعب بن ثَوْر حَبْراً صالحاً من أحبار المسلمين ، كان في الجاهليّة نصرانيّاً ،

فلما أسلم مضى في إسلامه متتبّعاً للخير متوخيّاً للبر متفقّهاً في الدين ناصحاً لله وللناس مرتفعاً عن صغائر الأمور وأغراض الدنيا . وقد وثّق به عمر فولاه قضاء البصرة ، وأثبته عثمان على قضائها ، ولم يعرض له عامل علي . فظل قاضياً حتى كانت الفتنة ، وأقبلت أم المؤمنين ومعها هذان الشيخان الى البصرة . وحاول كعب أن يُصلح بين الناس فلم يبلغ من ذلك شيئاً . وحاول أن يحمل قومه الأزد على اعتزال الفتنة وتَرْك البصرة فلم يبلغ من ذلك شيئاً . وقال له رئيس القوم صَبِرَة بن شَيمان : ما أرى إلا أن نصرانيّتك القديمة قد أدركتك ، أتريد أن نترك ثَقَل رسول الله ﷺ ؟ وأراد أن يعتزل الفتنة وحده بعد أن أبى قومه أن يتبعوه فلم يبلغ من ذلك شيئاً . عزمت عليه أم المؤمنين ألا يتركها ، فأقام معها مستجيباً لعاطفته الدينية من جهة ولعاطفة الجوار من جهة أخرى . كأنه قدّر أن أم المؤمنين حين عزمت عليه ألا يتركها قد أرادت أن تتخذه لها جاراً ، فأقام معها وجعل مع ذلك يحاول الإصلاح بين الناس . ولم يكن يُشفق من شيء كما كان يشفق من التقاء الجمعين ووقوف بعض القوم لبعض . كان يرى أنّ في ذلك تحريضاً على القتال ودعاءً إليه . فما أسرع ما يعزُب حِلْم الحليم وما أسرع ما يستخفّ الطيشُ سفهاء الناس في مثل هذه المواطن .

ولكنّ الجمعين قد التقيا على تعبئة ذات صباح ، وخرج علي حتى كان بين الفريقين فدعا إليه طلحة والزبير ليكلمهما . فخرجا إليه. وتواقف ثلاثتهم وسأل عليّ صاحبيه : ألم تُبايعاني ؟ قالا : بايعناك كارهين ولستَ أحق بها منّا ، فقال لطلحة : أحْرَزْتَ عِرْسك وخرجت بعرْس رسول الله ﷺ تُعرّضها لما تتعرّض له . وقال للزبير : كنّا نَعُدّك من آل عبد المطلب حتى نشأ ابنُك ابن سَوْء ففرّق بينك وبيننا . يريد ابنه عبدالله وأمه أسماء بنت أبي بكر . تعصّب لأخواله من تيْم فخرج مع عائشة خالته ومع طلحة التيميّ من عمومته ولم يحفل بأن أباه الزبير كان ابن صفيّة بنت عبد المطلب عمة رسول الله وعمة عليّ . ثم قال علي للزبير : أتذكر يوم قال لك رسول الله : إنك ستقاتلني ظالماً لي ؟ فذكر الشيخ هذا الحديث وتأثر به وتأثر كذلك بقرابته من علي والنبي ، وقال لعلي : لو ذكرتُ ذلك ما خرجتُ والله لا أقاتلك أبداً .

ورجع الى أم المؤمنين فقال لها : اني لا أرى في هذا الأمر بصيرة . قالت : فتريد ماذا ؟ قال : اريد ان اعتزل الناس . وهنا يختلف المؤرخون . فقوم يرون أنه مضى لوجهه حتى أدركه ابن جُرموز فقتله في وادي السبّاع بأمر من الأحنف بن قيس او

عن غير أمر منه . وقوم يقولون ان ابنه عبد الله عيّره الجُبْنَ وقال له : رأيت رايات ابن ابي طالب وعلمت أن تحتها الموت فجبُنْتَ . وما زال به حتى أحفظه . فقال له الزبير : ويلك ! إني قد حلفت لا أقاتل علياً . فقال عبد الله ما أكثر ما يكفّر الناس عن أيمانهم ، فأعْتِق غلامك سَرْجيس وقاتل عدوّك . ففعل وانهزم مع الناس .

ونحن الى الرواية الأولى أميل ، فقد كان الزبير رقيقَ القلب شديد الخوف من الله، شديد الحرص على مكانته من رسول الله . وكانت حيرته شديدة مذ وصل الى البصرة ورأى ما رأى من افتتان الناس واختلافهم . وازدادت حيرته حين عرف أن عمار بن ياسر قد أقبل في اصحاب علي . وكان المسلمون يتسامعون يقول النبي ﷺ لعمار : ويحك يا ابن سُمية ! تقتلك الفئة الباغية . فلما عرف أن عمار في جيش علي أصابته رعدة شديدة إشفاقاً من أن يكون من هذه الفئة الباغية . وقد تماسك مع ذلك حتى لقي علياً وسمع منه ما سمع ، وهنالك استبانت له بصيرتهُ . فانصرف عن القوم ولم يقاتل حتى قُتل غيلة بوادي السباع وقد حزن علي لمقتله وبشّر قاتله بالنار ، وأخذ سيف الزبير بيده وهو يقول : سيف طالما جلا الكَرْب عن وجه رسول الله ﷺ .

مضى الزبير اذاً ولم يقاتل ، وكان انصرافه قد فتّ في أعضاد اصحابه فلم يقتتلوا إلا ضَحْوة يومهم ذاك ثم انهزموا . وجعل طلحة يحرّضهم وهو جريح ، أصابه سهم طائش في بعض الروايات ، او سهم رماه به مروان بن الحكم ، وكان من اصحابه . وكان مروان يقول : والله لا طالبت بثأر عثمان بعد اليوم . وقال لبعض ولد عثمان : لقد كفيتُك ثأر أبيك من طلحة .

ومهما يكن من شيء فقد انهزم الناس وأصيب طلحة وعُرف أنه ميت ، فجعل ينظر الى دمه وهو ينزف ويقول : اللهم خذ لعثمان مني حتى يرضى . ثم أمر مولاه أن يأوي به الى مكان ينزل فيه . فأوى به بعد جهد الى دار خَرِبة من دور البصرة، فمات فيها بعد ساعة .

وظن الناس ان الحرب قد وضعت أوزارها وأن النصر قد كتب لعلي وأصحابه . وكان علي قد تأذن في اصحابه ألا يُجهزوا على جريح ولا يتبعوا هارباً ولا يدخلوا داراً ولا يحوزوا مالاً ولا يؤذوا امرأة . وأن علياً لفي بعض أمره يظن ان الحرب قد وضعت أوزارها وأن النصر قد أتيح له، وإذا هو يسمع عجيجاً وضجيجاً شديدين. فيسأل فيقال له : إنما عائشة تحرّض الناس وتلعن قتلة عثمان ، والناس يلعنون معها

قتلة عثمان فيقول علي : يلعنون قتلة عثمان ! والله ما يلعنون إلا أنفسهم ، فهم قتلوه. اللهم العن قتلة عثمان .

- ١٦ -

وكان عليّ صباح ذلك اليوم ، حين استيأس من طلحة وعرف أنه يأبى إلا الحرب. قد كفّ أصحابه كفّاً شديداً عن أن يبدءوا بالقتال حتى يأمرهم . وجعل شباب أهل البصرة والسفهاء منهم خاصة يحاولون إنشاب القتال فينضحون أصحاب عليّ بالنبل حتى أصابوا منهم نفراً. فجعل أصحاب عليّ يحملون من أصيب منهم إلى عليّ ويستعجلون إذنه بالقتال ، وهو مع ذلك مستأن لا يجيبهم إلى ما يطلبون . فلما كثر ذلك من أهل البصرة دفع عليّ مصحفاً إلى فتى من أهل الكوفة وأمره أن يقف به بين الصفّين وأن يدعو القوم إلى ما فيه . وأنذره بأنه مقتول إن نهض بهذه المهمة فشك الفتى غير طويل . ثم أخذ المصحف وانطلق به حتى وقف بين الصفين وجعل يدعو القوم إلى ما فيه . فرشقوه بالنبل رشقاً واحداً فقتلوه .وتكثر الرواة بعد ذلك فقالوا : رفع الفتى المصحف بيمينه فقطعوها ، فأخذ المصحف بشماله فقطعوها ، فأخذ المصحف بأسنانه أو بين منكبيه حتى قُتل .

والشيء المحقّق أن الفتى قتل وهو يدعوهم إلى ما في القرآن . فقال عليّ لأصحابه: الآن طاب الضراب . وكانت الموقعة الأولى صدرَ النهار ، وكانت الهزيمة حتى زالت الشمس . فلما انهزم الناس أقبل المتحمّسون من أصحاب طلحة والزبير ، وعلى رأسهم عبدالله بن الزبير في أكبر الظن ، فأخرجوا أم المؤمنين من بيتها في المسجد الذي استترت فيه وأدخلوها هَوْدجاً مصفحاً بالدروع ، وحملوها على جملها ذاك ، وأشهدوها ميدان الوقيعة . فثاب المنهزمون إلى أمهم ورأوا أنهم لا يحمون أمهم فحسب وإنما يحمون زوج رسول الله وحبيبته فثارت في نفوسهم عقدة غريبة . فيها الشعور الديني القويّ ، وفيها الشعور بحرمة العِرْض وحماية الأم والذود عن الذّمار . واجتمع الناس حول أمهم مستقتلين يكرهون أن تصاب أم المؤمنين بأذى في بلدهم وهم شهود .

وكان جمل عائشة ، فيما يقول بعض من شهد الوقْعة ، رايةَ أهل البصرة يلوذون به كما يلوذ المقاتلون براياتهم . وما أسرع ما أفاق المنتصرون من انتصارهم حتى أقبلوا

على خصمهم أولئك يريدون ان يهزموهم آخر النهار كما هزموهم وجه النهار . وهنا يظهر كعب بن ثوّر قاضي البصرة وقد برز بين الصفّين وعلّق في عنقه مصحفاً وجعل يدعو أولئك وهؤلاء إلى كتاب الله وما فيه وينهاهم عن الشر . ولكن أصحاب عليّ رشقوه بالنّبل رشقاً واحداً فقتلوه . فأنهم ثأروا لقتلاهم ذاك الذي قُتل وهو يحمل المصحف بين الصفين حين ارتفع الضحى .

واقتتل الفريقان قتالاً شديداً منكراً ، يريد اصحاب عليّ ألا يفلت منهم النصر بعد أن أحرزوه ، ويريد أصحاب عائشة أن يحموا أم المؤمنين ويموتوا دونها . واقتتل القوم حتى كره بعضهم بعضاً ، وحتى مل بعضهم بعضاً ، وحتى يئس بعضهم من بعض . ثم هذه صيحات ترتفع في الجو تأتي من يمين ومن شمال ، وتدعو المقاتلين إلى أن يطرّفوا ، أي إلى أن يقطع بعضهم أطراف بعض وهم يقبلون على هـذا المنكر من الأمر يقطع بعضهم أيدي بعض ويقطع بعضهم أرجل بعض . ولا يكاد أحدهم تقطع يده أو رجله حتى يستقتل إلى أن يقتل . وقد كاد أصحاب عائشة أن ينهزموا . ولكن الجمل قائم لا يريم ، وعليه هودجه لا يضطرب ، وفي الهودج أم المؤمنين تحرّض الناس فتردهم إلى الحماسة والجرأة بعد الخوف والفرق ، وهم يثبتون حول الجمل لا يريدون انتصاراً ولا يريدون فوزاً وإنما يريدون أن يحموا أمهم ، وراجزهم يرتجز :

يا أمنـا عائش لا تُراعي … كل بَنيك بطـل المِصَاعِ

وهي تتحدث إلى من عن يمينها محرّضة ، وإلى من عن شمالها محمّسة ، وإلى من أمامها مذكّرة . وأصحاب علي يلحون على هؤلاء المستقتلين وراجزهم يرتجز :

يا أمنـا أعقّ أمّ نعلم … والأم تغذو ولدها وترحم
أما ترين كم شجاع يُكلَم … وتختلى منه يدٌ ومعصم

فيجيبه راجز أصحاب عائشة :

نحنُ بني ضَبّةَ أصحاب الجملْ … ننازل القِرنَ إذا القرن نزل
والقتل أشهى عندنا من العسل … نبغي ابن عفّان بأطراف الاسل
رُدّوا علينا شيخنا ثم بجَل

وما يزال أولئك يستقتلون وهؤلاء يشتدّون عليهم حتى كان لا يأخـذ بخطام الجمل أحد إلا قُتل من دونه . وقد رأى علي هذا القتل الذريع فراعـه نُكر ما رأى وصاح بأصحابه : اعقروا الجمل فإن في بقائه فناء العرب . فيهوي إليه رجل من أصحابه بالسيف فيعقره . ويخرّ الجمل إلى جنبه وله عجيج منكر لم يسمع مثله .

وهنالك ، وهنالك فحسب يتفرق حماة الجمل كما ينتشر الجراد . ويقبل محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر فيحتملان الهودج ويُنحيانه ناحية ، ويضرب محمد على هودج أخته فُسطاطاً ، ويأمره علي أن ينظر أأصابها مكروه . فيُدخل رأسه في الهودج فتسأله : من أنت ؟ فيقول أبغض أهلك إليك . فتقول : ابن الخثعمية ، فيقول : نعم أخوك محمد . ويسألها : أأصابها مكروه ؟ فتقول : مِشْقص في عَضُدي فينتزعه . ويأتي عليٌّ مُغضباً ، ولكنه على ذلك متماسك يملك نفسه ويضبطها أشد الضبط ، فيضرب الهودج برمحه ويقول : كيف رأيت صنيع الله يا أخت إرَم . فتقول : يا ابن أبي طالب ، ملكت فأسجح . فيقول علي . غفر الله لكِ . وتجيب عائشة : وغفر لكَ .

ثم يأمر عليٌّ محمدَ بن أبي بكر أن يدخل أخته داراً من دور البصرة . فيحملها حتى يُدخلها دار عبد الله بن خَلَف الخُزاعي . فتقيم فيها أياماً .

- ١٤ -

وكذلك اقتتل الناس حول طلحة حتى انهزموا وجه النهار وقُتل طلحة . ثم اقتتلوا آخر النهار حتى انهزموا حين أقبل الليل وسَلِمت عائشة . ورأى المسلمون يوماً لم يروا مثله شناعةً ولا بشاعة ولا نُكراً . سلّ المسلمون فيه سيوفَهم على المسلمين ، وقُتل خيارُ المسلمين فيه خيارَ المسلمين فقُتِل من أولئك وهؤلاء جماعة من جِلّة أصحاب النبيّ ومن خيرة فقهاء المسلمين وقُرّائهم . وحزن عليٌّ لذلك أشدّ الحزن وأقساه. فكان يتعرف القتلى من أصحابه ومن خَصْمه ويتوجع لأولئك وهؤلاء ، ويترحم على أولئك وهؤلاء ، ويتجه الى ربه فيقول :

أشكو إليك عُجَري وبُجَري شفيتُ نفسي وقتلت مَعْشري

وكأن العرب في ذلك اليوم قد عادت الى جاهليتها الجَهْلاء وضلالتها العَمْياء ، ونسيت دينها السَّمْح أو كادت تنساه . أو كأن العرب في ذلك اليوم قد جُن جنونها وفَقَدت صوابها فلم تدر ما تأتي ولا ما تَدع . أو كأن الفتنة قد شُبّهت على العرب حتى رأى المسلمون أنفسهم في ظلمة ظلماء لا يرون ، حتى كأنهم الذين وصفَهم الله في القرآن حين قال : (أو كَصَيِّبٍ من السَّماءِ فيه ظُلُماتٌ ورعْدٌ وبَرق) الى آخر

الآيات . إلا أنهم كانوا مسلمين ، يرى كل منهم أنه يَغْضب لله ويقاتل ويُقتل ويموت في سبيل الله . ولهذا لم يُبعد عليٌّ حين قال لأصحابه حين سألوه قبل الموقعة : إن من قاتل فقُتل وهو لا يريد بقتاله إلا الحق ولا يبتغي به إلا رضى الله فهو شهيد ؟ وقد أنفذ عليّ أمره كله ، فأمّن الناس إثر سقوط الجمل ، واشتدّ على أصحابه في ألاّ يُجهزوا على جريح ولا يتبعوا فارّاً ولا يدخلوا داراً ولا يهتكوا ستراً . ولم يقسم بين أصحابه غنيمة إلا ما أجلب به أهل البصرة من خيل أو سلاح ، لم يكن ملكاً لبيت المال . بل تجاوز الى أبعد من ذلك وأمر بجمع ما ترك أهل البصرة في الميدان وحمله إلى المسجد ونادى مناديه في الناس : من عرف منه شيئاً فليأخذه .

وكأن الليل قد ردّ إلى القوم عوازب أحلامهم ، وأصبحوا جميعاً محزونين لا فرق في ذلك المنتصر والمنهزم . وأقبل عليٌّ من غده فصلّى على القتلى جميعاً من شيعته ومن خَصمه . وأذن للناس في دفن موتاهم . وجمَع الأطراف الكثيرة فاحتفر لها قبراً كبيراً ودفنها فيه . وأقام في معسكره خارج البصرة فلم يدخل المدينة إلا بعد ثلاث .

وواضح أن هذه الموقعة المُنكرة قد تركت في نفوس المسلمين أعمق الأثر وأبقاه ، وقد كانت على ذلك كله مصدراً خصباً لخيال القصّاص والشعراء ، فقصّوا حتى أسرفوا في القَصص ، وأضافوا من رائع الشعر والرجز الى المقتتلين ما لم يقولوا إلا أقلّه . وهم على ذلك لم يبلغوا وصف هذه الموقعة الشنيعة البشعة . ومتى استطاع الأدب على خِصْبه ونفاذه وقوته أن يصور ما في قتال الإخوان للإخوان ، وفَتْك الآباء بالأبناء ، والأبناء بالآباء . وتجاوُز هذه الحرمات التي لا يباحُ للناس أن يتجاوزوها ، فيُصيب بتصويره الغاية ويبلغ به المدّى ؟! وصدق من قال من أصحاب النبي حين بلغه قتلُ عثمان : لقد كنتم تحتلبونها لبناً فلن تحتلبونها منذ اليوم إلا دماً .

وقد كثُرَ القتلى والجرحى من أولئك وهؤلاء . واختلف الرواة في إحصاء القتلى، فمنهم من بلغ بهم عشرين ألفاً ، ومنهم من لا يتجاوز بهم عشرة آلاف . وفي هذا الإحصاء وأمثاله إسراف كثير . ولكن الشيء الذي ليس فيه شك هو أن كثيراً جداً من دور البصرة والكوفة قد سكنها الُحزن والثُّكل والحداد . وكان ذلك ابتداءً مشؤوماً لخلافة كان يرجى أن تكون كلها بركة ويمناً للمسلمين .

ولكن ستة أشهر لم تمض على خلافة عليّ حتى جرت دماء المسلمين غزاراً بأيدي المسلمين وأصبح بأسهم بينهم شديداً .

ودخل علي البصرة بعد الموقعة بثلاثة أيام ، فجاء المسجد فصلى فيه وجلس للناس صدر النهار ، فلما أمسى ركب لزيارة عائشة ومعه جماعة من أصحابه فبلغ دار عبدالله بن خلف الخزاعي ، وكانت أعظم دار في البصرة ، ولم يكد يدخل حتى لقيته ربة الدار صفية بنت الحارس العبدرية شر لقاء . قالت له : يا علي ، يا قاتل الأحبة ، يا مفرق الجماعة ، أيتم الله بنيك منك كما أيتمت بني عبدالله . وكان زوجها عبدالله إبن خلف وأخوه عثمان قد قتلا في الوقعة . فلم يجبها علي وإنما مضى حتى دخل على عائشة فلما جلس إليها قال : جبهتنا صفية ، أما إني لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم . ثم أخذ معها فيما كان بينهما من حديث فلما انصرف تلقته صفية فأعادت عليه مقالتها تلك . وأراد علي أن يسكتها عنه فجعل يقول ، وهو يشير الى أبواب الحجرات المغلقة : لقد هممت أن افتح هذا الباب واقتل من وراءه ، وان افتح هذا الباب واقتل من وراءه . فلما سمعت صفية ذلك سكتت عنه وخلت له طريقه . وكان في تلك الحجرات كثير من الجرحى من أصحاب عائشة آوتهم عائشة الى هذه الدار وامرت بتمريضهم حتى يبرأوا وكان علي يعلم بمكانهم . ولا شك في انه لم يكن يريد ان يقتل منهم احداً وإنما خوف تلك القرشية فخلت بينه وبين طريقه .

وهم بعض أصحاب علي ان يبطشوا بهذه القرشية ، فزجرهم علي زجراً عنيفاً وقال : لقد كنا نؤمر بالكف عن النساء وهن مشركات ، ولقد كان الرجل ينال المرأة بالضربة فيعير بذلك عقبه . فلا يبلغني ان احداً منكم قد عرض لامرأة بسوء إن آذتكم وشتمت امراءكم فأنزل به أشد العقوبة .

ولم يكد يبعد عن الدار قليلاً حتى أقبل رجل فأنبأه بأن اثنين من اهل الكوفة قاما على باب الدار فقالا لعائشة قولاً غليظاً ، يرفعان به صوتها لتسمعه .

قال احدهم : جزيت عنا أمنا عقوقا .

وقال الآخر : يا أمنا توبي لقد خطئت .

فأرسل علي من جاءه بالرجلين وبمن كان معهما من الرجال . فلما تثبت أنهما قالا مقالتهما تلك أمر بقتلهما بادىء الرأي ، ثم خفف العقوبة فأمر بأن يضرب كل واحد منهما مئة سوط .

وسار عليٌّ في أهل البصرة سيرةَ الرجل الكريم الذي يقدِر فيعفو ويملك فيسجح ، وكان يقول : سرت في أهل البصرة سيرةَ رسول الله ﷺ في أهل مكة .

ثم جلس لهم فبايعوه على راياتهم ، بايعه منهم الصحيح والجريح . ثم عمد بعد ذلك إلى بيت المال فقسّم ما وجد فيه على الناس . وقوم يرون أنه قسمه في أصحابه دون خصمه من أهل البصرة ووعدهم مثل ذلك إلى أعطياتهم إن أظفرهم الله بأهل الشام ، والأشبه بسيرة علي أنه قسم المال في الغالبين والمغلوبين جميعاً . ومن أجل ذلك غضب الثائرون بعثمان لأنه لم يفرّق بين شيعته وبين عدوّه ، وغضبوا كذلك لأنه لم يُبح لهم أن يأخذوا ما ظفروا به بعد الهزيمة . وقال قائلهم : أحلّ لنا دماءهم وحرّم علينا أموالهم .

ويقول بعض المؤرخين : إن هؤلاء الثائرين ، الذين يحب الطبري ورُواته أن يسموهم السبئية ، قد خفّوا من البصرة إلى الكوفة فأعجلوا علياً واضطروه إلى أن يلحقهم مخافة أن يحدثوا في الكوفة حدثاً . وأكبر الظن أن الأمر لم يبلغ بهم هذا الحدّ وإنما جمجموا ببعض ما وجدوا من الغضب ثم لم يزيدوا على ذلك ، كما جمجم الأشتر ، فيما يروى ، حين ولّى عليٌّ على البصرة عبدَ الله بن عباس وقال الأشتر ، فيما يروى : ففيم قتلنا الشيخ إذاً ؟ عبد الله على البصرة وعُبيد الله على اليمن وقُثَم على مكة ، وكلهم من بني العبّاس . ويزعم رواةُ الطبريُّ أن الأشتر غضب وارتحل مسرعاً إلى الكوفة . فأمر عليٌّ بالرحيل ليلحق به قبل أن يحدث حدثاً .

وما أرى إلا أن هذا كله قد تكلّفه الرواة بآخره . وما أكثر ما كان الناس ينكرون من خلفائهم هذا الأمر أو ذاك ثم لا يتجاوزون هذا الإنكار بألسنتهم . أنكروا على ابي بكر ، وأنكروا على عمر ، وأنكروا على عثمان في الصدر الأول من خلافته ، ثم لم يزيدوا على ذلك شيئاً .

والناس يختلفون في المدة التي أقامها عليٌّ بالبصرة ، قوم يرون أنه لم يقم فيها إلا شهراً أو أقل من شهر ، وقوم يرون أنه أقام فيها شهرين أو أكثر قليلاً . ونميل نحن إلى أنه لم يُطل المقام في البصرة وإنما كانت أمامه أمور دبّرها ثم ارتحل إلى الكوفة متعجلاً يريد أن يستعدّ لحرب أهل الشام بعد أن صرفته عن حربهم فتنة هؤلاء الذين كان يسمّيهم الناكثين ؛ لأنهم بايعوا ثم نقضوا البيعة . وكان من أهم هذه الأمور أن يفرغ من أمر الموقعة وأعقابها ، وأن يطمئن على أمر البصرة بعد انصرافه عنها . وقد جعل يستصلح الناس فيعفو عنهم ويُعطيهم الرضا ويؤمّن الخائف منهم ويتجاهل مكان العدو .

وقد أظهر الجهل بما كان من أمر جماعة بني أمية ، أصابتهم جراحات في الموقعة وأشفقوا ألا يؤمّنهم عليّ فشتّتوا في الأرض وطلبـوا الجوار إلى أشراف العرب ، فأجاروهم وأقاموا على تمريضهم ثم أبلغوهم مأمنهم . وعليّ يعلم هذا كله ويُخفي علمه به لأنه لم يكن يريد بأحد بعد الموقعة شراً . وكان يعلم أن عائشة قد ضمّت إليها كثيراً من الجرحى فلم يعرض لهم بسوء ولم يُخفِ علمه بمكانهم وإنما قاله اصفيّة بنت الحارس حين اعترضته شاتمـة له داعية عليه . واستخفى عبدُ الله بن الزبير بجراحاته الكثيرة ثم أرسل إلى أم المؤمنين ينبئها بمكانه وطلب إلى رسوله ألا يؤذن بذلك محمد بن أبي بكر . فذهب الرسول فأبلغ أم المؤمنين . فأرسلت إلى أخيها محمد وقالت له : اذهب إلى مكان ابن أختك فائتني به . وذهب محمد إلى ابن أخته فأتى به وجعل يتشاتمان طول الطريق ، يشتم محمد عثمان ويشتم عبدالله خاله محمداً .

وكذلك ثاب الناس إلى كثير من العافية والإسماح ، وجعلت ثورة القلوب تهدأ قليلاً قليلاً وتترك فيها حسرات تختلف قوة وضعفاً باختلاف هذه القلوب .

وكانت عائشة ، فيما يروي المؤرخون والمحدثون ، أشدُّ المغلوبين حسرة وأعظمهم ندماً وكانت تتلو : (وقَرْنَ في بُيُوتكنّ) إلى آخر الآية ، ثم تبكي حتى يبتل خِمارُها . وكانت تقول : وددتُ لو أني متُّ قبل هذا اليوم بعشرين عاماً . وكانت تقول بعد رجوعها إلى الحجاز : والله إن قعودي عن يوم الجمل لأحبّ إليّ لو أتيح لي من أن يكون لي عشرة بنين من رسول الله ﷺ .

وكان أشدُّ الناس حسرةً وأعظمهم أسى بين الغالبين عليٌّ نفسه ، فقد كان يقول : لو عرفت أن الأمر يبلغ بنا ما بلغ لما دخلتُ فيه . وكان يقول :

أشكو إليك عُجَري وبُجَري شفيتُ نفسي وقتلت مَعْشري

وكان يقول : وددت لو أني متّ قبل هـذا اليوم بعشرين سنة ، كما كانت تقول عائشة .

وكان من الأمور ذات الخطر التي أراد عليٌّ أن يفرغ منها قبل أن يترك البصرة ردُّ عائشة الى المدينة لتقرَّ في بيتها كما أمرها الله . وقد تعجّلها في الرحيل فاستأجلته أياماً ، كأنها كانت تريد أن تطمئن على الجرحى . فأجلها علي أياماً ثم جهّزها بجهاز ملائم لمكانتها ، وأرسل معها جماعة من رجال ونساء . وخرجت عائشة يوم سفرها فسلم الناس عليها وودّعوها ، وأمرتهم بالخير وأنبأتهم أنه لم يكن قط بينها وبين عليّ إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها . وصدّق عليّ أمام الناس مقالتها وشيّعها الناس معه

حتى أبعدوا ، وأمر بنيه فساروا معها يوماً كله ثم رجعوا .

وأمّر عليّ على البصرة عبدالله بن عباس ، وما نرى أنه كان يستطيع ان يؤمر غيره . فالكثرة في البصرة مضريّة ، وما ينبغي أن يؤمّر عليها بعد الفتنة إلا رجل من مضر شديد القرابة من عليّ . وأمّر عليٌّ زياداً على الخراج ، وارتحل إلى الكوفة ، فلما بلغها وجد فيها حزناً وخوفاً ، وجد الحزن عند الذين أصيب أبناؤهم وإخوانهم وآباؤهم ، ووجد الخوف عند الذين لم ينفروا معه فأشفقوا أن يسخط عليهم . ولكنه واسى أولئك واستصلح هؤلاء وجعل يستعد لحرب أهل الشام .

- ١٦ -

ولم يُضع شيئاً من وقته ولم يرفُق بنفسه ولا بأصحابه ، فلم يكد يفرغ من حرب الناكثين كما كان يسمّيهم حتى جعل يتأهّب لحرب القاسطين كما كان يسمّيهم كذلك . وصل إلى الكوفة في أواخر رجب فلم يُقم فيها إلا أربعة أشهر استعد أثناءها للحرب .

ولم يكن أصحابه يرفُقون بأنفسهم أيضاً ، فقد كان المنتصرون منهم حراصاً على أن يُضيفوا نصراً إلى نصر ، وكان المتخلّفون منهم حراصاً على أن يعوّضوا ما فاتهم به من أصحابهم الذين قاتلوا يوم الجمل ، وأن يُرضوا عليّاً عن أنفسهم بما يُبلون في الحرب المقبلة من بلاء .

وكانت الحرب المقبلة محتاجة إلى البلاء الحسن كله ، فالخصم في الشام عنيف يحيط به جُند أولو قوّة وأولو بأس شديد . فأما عنف هذا الخصم وهو معاوية فيمكن أن نقدره حين نلاحظ أنه ابن أبي سفيان الذي حارب النبيّ بعد بَدْر فأبلى في حربه أشد البلاء وأقواه ، وأظهر في هذه الحرب قوة وقسوة وكيداً ودهاء ، ولم يُسلم إلا بآخرة حين لم يرَ من الإسلام بُدّاً ، وحين لم يكن له إلا أن يختار بين الإسلام والموت . وقد ورث معاوية عن أبيه قوته وقسوته وكيده ودهاءه ومرونته كذلك . ولم تكن أم معاوية بأقلّ من أبيه تنكراً للإسلام وبغضاً لأهله وحَفيظة عليهم . وهم قد وتروها يوم بدر ، فثأر المشركون يوم أحد ، ولكن ضِغنها لم يهدأ وحَفيظتها لم تسكن حتى فتحت مكة فأسلمت كارهة كما أسلم زوجها كارهاً . وقد ولّى عمرُ

معاوية على الشام فلم يعزله عنها على كثرة ما كان عمر يحب أن يغير العمال. رضي عن سياسته للشام وجند الشام وعن ثباته للروم . وكان عمر يكفكف من غلواء معاوية وطموحه إلى الفتح ورغبته في أن يغزو البحر كما غزا البر . ثم جاء عثمان فغير عمال عمر جميعاً بعد ولايته بوقت قصير إلا معاوية ، فإنه أقره على عمله رضي عنه كما رضي عنه عمر ، وركن إليه أكثر مما ركن إلى غيره من العمال لقرابته وقوته وحسن تدبيره للأمر وحسن تصرفه في المشكلات وخروجه من المآزق ونفوذه في الخطوب حين تدلهم . وكان اذا ضاق عماله ببعض المعارضين من أهل الكوفة والبصرة أمر عامله في هـذا المصر أو ذاك بنفي هؤلاء المعارضين الى الشام حيث يتلقاهم معاوية فيؤدبهم باللين والرفق ما وسعه اللين والرفق ، ويؤدبهم بالشدة والعنف حين لا يرى من الشدة والعنف بداً .

وقد ضاق معاوية برجل عظيم الخطر من أصحاب النبي هو أبو ذر ، كما رأيت فيما مضى من هذا الكتاب ، ولم يستطع أن يبطش به لمكانه من رضى رسول الله عنـه وإيثاره إياه ولسابقته في الإسلام . ولم يستطع أن يفتنه عن دينه بالمال ، فشكاه الى عثمان، وأمره عثمان بتسييره الى المدينة. ولم يطق عثمان نفسه معارضة أبي ذر فأخرجه من المدينة واضطره الى أن يقيم في الرملة حتى مات .

ووفد معاوية على عثمان في آخر أيامه ، حين كثر قول الناس فيه وإنكارهم عليه، فاقترح فيما يروي المؤرخون أن ينتقل معه الى الشام . فكره عثمان أن يترك جوار النبي ﷺ . فاقترح عليه معاوية أن يرسل إليه جنداً من أهل الشام يحتلون المدينة ويقومون فيها دونه . فأبى عثمان أن يضيق بهؤلاء الجند على أهـل المدينة . وخرج معاوية فأوصى المهاجرين بالشيخ خيراً ، ولمح لهم بالنذير إن هم أعانوا عليه أو قصروا في ذاته .

ولكنه عاد بعد ذلك الى الشام وعرف اشتداد النكير على عثمان ، وعرف بعـد ذلك أن عثمان قد حصر فلم يخف لنصره ولم يرسل اليه جنداً . ثم جاءه كتاب عثمان يستغيثه كما استغاث غيره من العمال ، فأبطأ عن نصره كما أبطأوا وظل متربصاً حتى قتل الشيخ ، وهنالك نهض يطلب بدمه. وكان خليقاً لو أراد أن يحقن هذا الدم قبل أن يراق . ولكنه أقام في الشام مطرقاً إطراق الشجاع ينتظر الفرصة المواتية ، وقد واتته الفرصة فاهتبلها غير مقصر في اهتبالها وغير متهالك عليها أيضاً . كان مستأنياً بعيد الأناة ، وكان متحفظاً شديد التحفظ ، وكان على ذلك نشيطاً أشد النشاط يعمل

عقله وروِيَّته في غير انقطاع ، ويدعو الناس الى نصره في غير إلحاح أول الأمر . وإنما كان يعظم قتل الخليفة المظلوم ، ويَهوِّل من أمر هـذا الحَدَث المنكر حتى انقادت إليه قلوب أهل الشام وضمائرهم وإذا هم يظهرون الغضب لعثمان والطلب بدمه أكثر مما كان يُظهر ، وإذا هم يتعجّلونه في النهوض وهو مع ذلك يُبطئ بهم ويتأنّى بهم ، ويحتاط في الأمر لنفسه ولهم ، ويبلغ مـع ذلك في تألف القلوب واستهواء الضمائر والنفوس ؛ يُطمِع هؤلاء ويُخيف أولئك ، وينتظر بهؤلاء الشيوخ من أصحاب الشورى من المهاجرين والأنصار ليرى ما يصنعون . يدسّ لبعضهم من بـني أمية المُرغِّبين والمرهبين والمبشرين والمنذرين ، حتى إذا رأى الحجاز طلحة والزبير وعائشة الى مكة وائتمارهم بقتال علي غضباً لعثمان لم يَدْعُهم إليه ولم ينصرهم بجنده ، وإنما ألقى أنصارُه في رُوعهم أن معاوية سيكفيهم الشام وقد يكفيهم مصر ، وأن عليهم أن يستأثروا بالعراق من دون عليّ ليُحْصَر عليّ في الحجاز ثم يؤخذ بين من يخف لحربه من شرق الدولة وغربها .

وقد سمع الشيخان وسمعت عائشة للمُشيرين بذلك من بني أمية ، فقصدوا الى البصرة يريدون أن يحتازوها ثم يغيرون بعد ذلك بأهلها على الكوفة ، فإذا فرغوا من العراق كان التعاون بينهم وبين معاوية على عليّ ، ثم تُنظَّم بعد ذلك خلافة ثلاثية ، قوامها طلحة والزبير ومعاوية ، بعد أن أبى عليّ هذه الخلافة الثلاثية التي طلبها اليه الشيخان بعد أن بايعاه .

وقد انصرف عليٌّ عما كان يتأهب له من حرب معاوية وأهل الشام واشتغل بالشيخين وأم المؤمنين يريد أن يردهم إلى الطاعة ، ويريد إن أبوا أن يقاتلهم . ورضي معاوية كل الرضى عن اشتغال هؤلاء الشيوخ من المهاجرين والأنصار بأنفسهم ، وفرغ هو لأمره يدبره ويحكم تدبيره . وكان يرى في أكبر الظن أن هؤلاء الشيوخ إذا اقتتلوا وصار بأسهم بينهم شديداً وهنت قوتهم وذهبت ريحهم وأصبح هو أقواهم قوةً وأشدهم بأساً . فكان مثله مثل ذلك الشجاع الذي ذكره الشاعر القديم في قوله :

مُطْرِق ينفثُ سُمّاً كما أطرق أفعى ينفث السُّم صلّ

وقد اقتتل هؤلاء الشيوخ من المهاجرين والأنصار ، فقتل طلحة والزبير ، وعادت عائشة الى بيتها في المدينة فاستقرت فيه ، وكثر القتل في أهل البصرة والكوفة واستقر الحداد في كثير من دورهم .

ونظر معاوية فإذا هو قد أصبح يلقى علياً وجهاً لوجه . وهو بعد ذلك لم يتعرّض

لحرب ؛ لم يَكْلِم أحداً ولم يكلمه أحد ؛ قوّته موفورة ، وعُدته كاملة ، وأصحابه وافرون لم يُصابوا في أنفسهم ولا في اموالهم ، وهم قد اجتمعوا على حبّه ونصره حتى يثأر لابن عمه الخليفة المظلوم .

فأما عليّ فقد خاض حرباً منكرة قُتل فيها من شيعته ومن عدوه خلق كثير . فعدوُّه واجدون عليه لأنه وتَرَهم فيمن قُتل منهم ، وشيعته لا تبرأ من الواجدين عليه لأنه قتل إخوانهم في حرب البصرة .

فإذا أضفت الى ذلك ان الفرق بين علي ومعاوية في السيرة والسياسة كان عظيماً بعيد المدى ، عرفت أن معاوية كان ينتظر علياً في ثبات وثقة واطمئنان . كان الفرق بين الرجلين عظيماً في السيرة والسياسة ، فقد كان علي مؤمناً بالخلافة كما تصوّرها المسلمون ايام ابي بكر وعمر وفي الصدر الأول من خلافة عثمان، يرى أن من الحق عليه أن يقيم العدل بأوسع معانيه بين الناس لا يؤثر منهم أحداً على احد ؛ ويرى ان من الحق عليه ان يحفظ على المسلمين مالهم لا يُنفقه إلا بحقه ، فهو لا يستبيح لنفسه ان يصل النــاسَ من بيت المال ، بل هو لا يستبيح لنفسه ان يأخذ من بيت المال لنفسه وأهله إلا ما يقيم الأود لا يزيد عليه ، وإن استطاع أن ينقُص منه فعل . وكان علي لا يحب الادخار في بيت المال وانما ينفق منه على مصالح المسلمين ، فإن بقي بعد ذلك شيء قسمه بين الناس بالعدل . وكان يُحب ان يدخل بيت المال فإن وجد فيه شيئاً لا يُحتاج اليه لمصلحة عامة فرقه بين الناس بالقسط ، ثم يأمر ببيت المال فيكسح ويُنضح بالماء ثم يصلي فيه ركعتين ثم يقول : هكذا يجب ان يكون بيت المال . كان علي إذاً في إنفاق دائم على الناس ، ولكن على أساس ثابت من العدل والقسط .

فأما معاوية : فكان يسير سيرة أقلُّ ما توصف به أنها سيرة الرجل العربيّ الجواد الداهية ، يُعطي الناس ما وسعه إعطاؤهم ، ويصل الذين يريد أن يتألّفهم من الرؤساء والقادة ، لا يجد في ذلك بأساً ولا جُناحاً. فكان الطامعون يجدون عنده ما يريدون، وكان الزاهدون يجدون عند علي ما يحبون . وما رأيك في رجل جاءه أخوه عقيل بن أبي طالب مُسترفداً ، فقال لابنه الحسن : إذا خرج عطائي فسر مع عمك الى السوق فاشتر له ثوباً جديداً ونعلين جديدتين . ثم لم يزد على ذلك شيئاً . وما رأيك في رجل آخر يأتيه عقيل هذا نفسه بعد أن لم يَرْض صلة أخيه فيعطيه من بيت المال مئة الف .

كان معاوية اذاً يعتمد على مذهبه هذا في السياسة . ويعلم أنه سيضم اليه كل من كان له أرب في الدنيا . ثم لم يكن يقف صلاته على اهل الشام ، وإنما كان له على طاعة علي.

وكان له عيونه في العراق يرغّبون ويرهبون ويوصلون الأموال سرّاً . ولم يكن عليّ من هذا كله في شيء ، لم يكن يحرص على شيء كما كان يحرص على الأمانة في المال وعلى الوفــاء بالعهد وعلى ألا يدهن في الدين . ولم يكن يبغض شيئاً كما كان يبغض وضع درهم من بيت مال المسلمين في غير وضعه او انفاقه في غير حقه ، كما كان يبغض المكر والكيد وكل ما يتصل بسبب من اسباب الجاهلية الأولى . كان الحق أمامه بيّناً ، فكان يمضي اليه مصمّماً ويدعو اصحــابه الى ان يمضوا اليه مصمّمين . وكان الباطل بيّناً ، فكان يعرض عنه عازماً ويدعو اصحابه الى ان يعرضوا عنه عازمين . وكان له من اجل ذلك انصار يحبونــه ويخلصون له الحب ويذودون عن سلطانه بأنفسهم وأموالهم ، وهو لذلك لم يكد يستقر في الكوفة حتى جعل اصحابه يطلبون اليه ان ينهض بهم الى عدوّهم من اهل الشام . ولكنه على ذلك أبى ان يمضي الى الشام قبل ان يرسل السّفراء الى معاوية يدعوه الى الطاعة والدخول فيما دخل فيه الناس ، لتكون حجته ظاهرة ، وليتبعه من تبعه على بينة من امره وعلى هدى من الله .

- ١٧ -

وقد أرسل علي رجلاً من أصحاب النبي هو جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية ، يطلب إليه أن يبايع وأن يدخل فيما دخل فيه الناس ، ويبين له حجة علي فيما يطلب إليه . وانتهى جرير إلى معاوية فكلمه ووعظه وألح عليه في الكلام والوعظ .ولكن معاوية جعل يسمع منه ولا يقول له شيئاً . وإنمـــا يطاوله ويسرف في مطاولته ، ويدعو مع ذلك وجوه أهل الشام ورؤساء الأجناد فيظهر مشاورتهم فيما يطلب إليه علي ، ويعظم لهم قتل عثمان ويحرضهم على الوفاء للخليفة المظلوم والطلب بدمه .

وهنا يظهر عمرو بن العاص الذي لم يكن أقل دهاء ولا أدنى مكراً ولا أهون كيداً من معاوية . وكان عمرو بن العاص قد وجد على عثمان حين عزله عن مصر ، فلما ظهرت الفتنة كان من المعارضين لعثمان وكانت معارضته الخفية أشد من معارضته الظاهرة فكان يؤلب الناس ويحرضهم ما وسعه ذلك سراً ، على أنه مع ذلك لم يتردد أن قال لعثمان جهرة في المسجد : « إنك قد ركبت بالناس نهابير وركبناها معك فتب إلى الله نتب » . وتلقى عثمان منه ذلك أسوأ لقاء . فلما اشتدت الفتنة وعرف عمرو أنهــا

منتهية إلى غايتها آثر أن يعتزلها في طورها ذاك ، فخرج إلى أرض كان يملكها بفلسطين فأقام فيها وجعل يتنسم الأخبار .

وخرج معه إلى فلسطين ابناه عبد الله ومحمد . وكان عبد الله رجل صدق ، مخلصاً في دينه ، زاهداً في دنياه ، قد صحب النبي وأخذ عنه كثيراً من سننه ، والتزم سيرة الورع والتقوى والترفع عن الدنيّات . وكان أخوه محمد فتى من فتيان العرب ثم من فتيان قريش ، لم يعرض عن الدنيا ولم يزهد فيها ، وإنما طمع فيما يطمع فيه أمثاله من السمعة والدعة والتقدم وبُعد الصوت .

وكان عمرو وابناه على ما هم عليه في فلسطين حين جاءهم النبأ بقتل عثمان، فقال عمرو : « أنا أبو عبد الله ما حككت قرحة إلا أدميتها » . يريد أنه قد مهد للفتنة والثورة بعثمان فأحكم التمهيد وانتهى الأمر إلى غايته . ثم جاءه الخبر بأن الناس قد بايعوا علياً ، وبأن معاوية يأبى البيعة ويطالب بثأر عثمان ، وبأن أهل الشام جميعاً له ناصرون . فأدار عمرو الأمر بينه وبين ابنيه أي موقف يقف من هذين الرجلين .

فأما ابنه عبد الله فقد أشار عليه أن يعتزل الناس حتى إذا اجتمعت الكلمة والتأم الشمل دخل فيما دخل فيه المسلمون . وألحّ عبد الله على أبيه في ذلك ، وذكره بأن النبي والشيخين من بعده قد فارقوا الدنيا وهم عنه راضون ، فما ينبغي أن يضيع ما أتيح له من الفضل والمنزلة .

وأما محمد فقال له : أنت نابٌ من أنياب العرب ، وما ينبغي أن تُبرَم الأمورُ وأنت متخلّف ، وأشار عليه بأن يلحق بمعاوية .

فقال عمرو : أما عبد الله فقد أشار عليّ بما ينفعني في ديني وآخرتي . أما محمد فقد أشار عليّ بما ينفعني في دنياي . وأنفق ليلاً مسهداً يضرب أمره أخماساً لأسداس ، يكره بيعة عليّ لأنه لا ينتظر من هذه البيعة منفعة أو ولاية أو مشاركة في الحكم ، ولأنه يعلم أن علياً سيجعله رجلاً من الناس له ما لهم وعليه ما عليهم . ويُشفق من اللحاق بمعاوية لأنه يرى أن معاوية يسمو إلى شيء ليس له أهلاً ، ولأنه لم يكن يستحب بادىء الرأي أن يفرّط في أمر دينه . ولكنه فكّر وقدّر وأطال التفكير والتقدير وحاول أن يصبر نفسه على اعتزال الناس ، فلم يُطق صبرا على الخمول والانتظار .

ولم يكن عمرو قد نسي ولاية مصر التي أتيحت له أيام عمر ، ولم يكن قد طاب نفساً عن عزل عثمان إياه عن هذه الولاية ، فكان فيما يظهر يحن إلى مصر

حنيناً متصلاً . ولم يُسفر الصبح له حتى كان رأيه قد استقر على أن يلحق بمعاوية . فارتحل إلى دمشق وارتحل معه ابناه ، فلما بلغها ألفى أهل الشام يحرضون معاوية على الطلب بدم عثمان ويحضضونه على النهوض لحرب علي . فما أسرع ما انضم عمرو إلى المحرضين والمحضضين . وجعل يلقى معاوية فيعظم له أمر الخليفة المظلوم ، ومعاوية يسمع منه دون أن يظهر احتفالاً بما كان يقول له . كان يؤثر الأناة والتمهل ، وكان أهل الشام يتحرقون شوقاً إلى الحرب ، يرون في ذلك أداءً لحق الخليفة المقتول وقياماً بواجب يفرضه عليهم الدين . وكان عمرو يتعجل الحرب لتظهر حاجةُ معاوية إليه . فلما طال عليه إعراض معاوية عنه ، دخل عليه ذات يوم فتحدث إليه حديثاً صريحاً فهمه معاوية حق فهمه . فلم يلبث أن أظهر العناية بعمرو وجدّ في ان يتخذه له حليفاً . ذلك أن عمراً أظهر لمعاوية عجبه من هذا الإعراض عنه ، مع أنه إنما يضحي بشيء كثير حين ينضم اليه ويعرض عليه معونته بالرأي واليد واللسان . على ثقة منه بأن معاوية ليس على الحق ، وبأن خصمه هو صاحب الحق ، وبأن الانتصار لمعاوية واللياذ به إنما هما سبيل الدنيا لا سبيل الدين . فقد سمع معاوية ذلك وفهمه واستيقن أن عمراً إن انصرف عنه كاد له فأبلغ في الكيد، وأن من الخير أن يستصلحه ويستخلصه لنفسه ويُعطيه جزاءه من هذه الدنيا التي يطلبها ويتهالك عليها . وعمرو بعد ذلك صاحب حرب ومكيدة . فتح فلسطين وفتح مصر واطمأن اليه عمر منذ فتح مصر الى ان قُتل . وهو بعد هذا كله داهية من دواهي العرب وشيخ ذو مكانة من شيوخ قريش . ويقول المؤرخون : إن معاوية سأل عمراً عما يريده ثمناً لانضمامه إليه . فطلب اليه عمرو أن يطعمه مصر حياته . واستكثر معاوية هذا الثمن . وكان بين الرجلين شيء من مشادة، حتى كاد عمرو أن يرتحل ويعود أدراجه مغاضباً . ولكن عُتبة بن أبي سفيان دخل بين الرجلين وما زال بمعاوية أخيه حتى أرضاه بالنزول لعمرو عن مصر أثناء حياته . وكُتب بهذا الاتفاق بين الرجلين عهدٌ مؤكد .

فلما لقي عمرو ابنيه لم يرضيا عن هذا الثمن وإنما استقلاه وسخرا منه . يذهب عبدالله في ذلك إلى أن أباه قد باع دينه بثمن قليل . ويذهب محمد إلى أن أباه قد باع رأيه بثمن قليل .

ومهما يكن من شيء فقد التأم حول معاوية جمع ليس به بأس من أولي مشورته في الشام ، وهم رؤساء الأجناد وشيوخ القبائل وأهل بيته من بني أبي سفيان وبنو عمومته

من بني أمية . وانضم اليه عمرو بن العاص . وكلهم كانوا يحرضون معاوية على النهوض للحرب ويستبطئونه ، ويوشك بعضهم أن يتهمه بالعجز والقصور .

فلما اجتمع لمعاوية أمره ردّ جريرَ بن عبدالله البجَلي ، سفير عليّ ، الى الكوفة ، دون أن يُعطيه شيئاً . وعاد جرير فأنبأ علياً بامتناع معـاوية عليه ، وعظّم له من أمر أهل الشام . وكان علياً لم يرض عن سفارة جرير ، وكأن جمـاعة من أصحاب عليّ على رأسهم الأشتر أسمعوا جريراً بعض ما يكره ، فغضب وارتحل بأهله . فلحق بطرف من أطراف الشام في قِرقيسياء فأقام فيه مجانبـاً للخصمين . وبعض المؤرخين يرى انه انضم لمعاوية .

ثم أخذ معاوية يتأهب للحرب، ولكنه هو أيضاً أسفر الى علي كما أسفر علي اليه .

- ١٨ -

ويظهر ان بعض اصحاب معاوية لم تكن نفوسهم مطمئنة إلى القتال ، كما أنهـا لم تكن كذلك راضيةً عن قتل عثمان وإعفاء الذين قتلوه من العقاب . فقـد يقال إن رجلاً من أصحاب معاوية ، هو ابو مُسلم عبد الرحمن ، أو عبد الله بن مسلم الخوْلاني قام إليه أثناء تشاوره في أمر الحرب فقال له : علام تُقاتل علياً وليس لك مثـل فضله وسابقته في الإسلام ؟ فقال معاوية : إني لا اقاتله وانا ادعي ان لي مثل فضله وسابقته ، وإنما اطالبه بأن يدفع إلينا قتلة عثمان حتى أقتصّ منهم . قال أبومسلم : فاكتب إليه في ذلك ، فإنْ أجابك إلى ما تريد فقد صرفتَ عنا الحرب ، وإن أبى قاتلناه على بصيرة . وكأن معاوية أراد أن يقطع حجة أبي مسلم وامثاله من المتردّدين فكتب إلى علي كتاباً وأرسله مع أبي مسلم نفسه . وهـذا نص الكتاب كما رواه البَلاذُريّ : « بسـم الله الرحمن الرحيم . من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب . أما بعد فإن الله اصطفى محمداً بعلمه وجعله الأمين على وحيه والرسول إلى خلقه . ثم اجتبى له من المسلمين أعواناً أيـّده بهم ، فكانوا في المنازل عنده على قدر فضائلهم في الإسلام ، وكان أنصحهم لله ورسوله خليفتُه ثم خليفة خليفته ، ثم الخليفة الثالث المقتول ظلماً عثمان . فكلهم حسدتَ وعلى كلهم بغيتَ . عرفنا ذلك في نظرك الشزْر ، وقولك الهُجْر . وتنفسك الصُّعَداء ، وإبطائك عن الخلفاء . في كل ذلك

تُقاد كما يقاد الجمل المَخشوش . ولم تكن لأحد منهم أشدّ حسداً منك لابن عمك. وكان أحقهم ألا تفعل به ذلك لقرابته وفضله . فقطعت رحمه ، وقبّحت حسنه ، وأظهرت له العداوة ، وأبطنت له الغش ، وألّبت الناس عليه ، حتى ضُربت آباط الإبل إليه من كل وجه ، وقيدت الخيل من كل أفق ، وشُهر عليـــه السلاح في حرم رسول الله ﷺ . فقُتل معك في المحلّة وأنت تسمع الهائعة لا تدرأ عنه بقول ولا فعل . ولعمري يا ابن أبي طالب ، لو قمتَ في حقه مقامـــاً تنهي الناس فيه عنه ، وتُقبّح لهم ما اهتَبلوا منه مـــا عدَلَ بك مَن قِبَلنا من الناس احداً ، ولمحا ذلك عندهم ما كانوا يعرفونك به من المُجانبة له والبغي عليه. واخرى انت بها عند أولياء ابن عفان ظَنين ، إيواؤك قَتَلَتَه ، فهم عضُدك ويدك وانصارك وقـــد بلغني انك تنتفي من دم عثمان وتتبرأ منه . فإن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلته نقتلْهم به ، ثم نحن أسرع الناس إليك . وإلا فليكن بيننا وبينك السيفُ . ووالذي لا إله غيره لنطلبنّ قتلة عثمان في الجبال والرمال والبر والبحر حتى نقتلهم أو تلحق أرواحنـــا بالله . والسلام » .

وقد انتهى ابو مسلم بهـــذا الكتاب إلى علي . فجمع له الناس في المسجد وأمر فقُرىء عليهم الكتاب . فتصايح الناس في جنبات المسجد : « كلنا قَتل عثمان، وكلنا كان منكراً لعمله » . وكذلك رأى ابو مسلم نفسه ان اصحاب علي كانوا يرون قتـل عثمان صلاحاً لأمور دينهم ودنياهم ويأبون ان يسلموا احداً من قاتليه . ورأى كذلك ان علياً لو اراد ان يُسلم قتلة عثمان كلّهم او بعضهم لما استطاع إلى ذلـــك سبيلاً . ومن اجل ذلك ابى ان يدفع احداً إلى معاوية . فجعل ابو مسلم يقول : الآن طاب الضّراب .

وأنت ترى مِن كتاب معاوية انه لم يكن يريد سلماً ولا عافية ، وإنما كان يريد ان يَعذر نفسه عند اصحابه من أهل الشام وعنـــد المترددين والمتأثمين منهم خاصة . فطالِبُ السلم والعافية لا يكتب إلى خصمه ليؤذيَه ولا ليحفظه ولا ليَغيظه ويُثير في نفسه الموجدة والشنآن .

وليس من اليسير على علي ان يقرأ في كتاب معاوية اتهامه بحسد الخلفاء والبغي عليهم والتلكؤ في البيعة لهم حتى يضطر إليها اضطراراً ويُقاد إليها كارهاً .

وليس من اليسير كذلك على علي ان يقرأ في كتاب معاوية اتهامه بحسد ابن عمه والبغي عليه وقطع رحمـــه وإغراء الناس به والقُعود عن نصره حين ضُيّق عليه

الثائرون به .

ثم ليس من اليسير على علي آخر الأمر أن يقرأ هذا التحدي الواضح والدعاء إلى أن يُثبت براءته من دم عثمان بتسليم قاتليه ، فإن لم يفعل فليس بينه وبين معاوية إلا السيف .

وقد أبلغ معاويةُ في التحدي حتى زعم لعليّ أنه إن دفع إليه قتلة عثمان أسرع وأسرع معه أهل الشام إلى بيعته وطاعته . ومعاوية كان يعلم حق العلم أن علياً لن يقبل هذا التحدّي ولن يسلّم إليه قتلة عثمان ، وهو يتحدى السلطان ويُنذره على هذا النحو . وإنما كانت سبيله ، لو قد آثر السلم والعافية ، أن يبايع ويطيع أولاً ثم يتقدّم إلى الخليفة طالباً أن ينصفه من الذين قتلوا ابن عمّه ، وأن ينصف أبناء عثمان من الذين قتلوا أباهم .

ثم كان معاوية يعلم حق العلم بعد هذا كله أن علياً لو قدر على قتلة عثمان لأقاد منهم في المدينة ، حين تحدث إليه في ذلك من بايعه من المهاجرين والأنصار ، فكيف وقد صار إلى العراق وأقام بين أظهُرالكثرة التي ثارت بعثمان حتى قتلته .

كل ذلك كان معاوية يعلمه ،ولكنه أراد أن يبرىء نفسه أمام أهل الشام وأمام المتأثمين منهم خاصة مِن تبعة الحرب التي لم يكن منها بدّ . فليس غريباً بعد ذلك أن يرفض عليّ ما طلب إليه ، وان يرد على كتابه مع سفيره نفسه بهذا الكتاب الذي رواه البلاذُري أيضاً : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان . أما بعد . فإن أخا خولان قدم عليّ بكتاب منك تذكر فيه محمداً وما أكرمه الله به من الهدى والوحي ، فالحمد لله الذي صدق له الوعدَ ، ومكن له في البلاد ، وأظهره على الدين كله ، وقمع به أهل العداوة وشنآن من قومه الذين كذبوه وشنعوا عليه وظاهروا عليه وعلى إخراج أصحابه ، وقلبوا له الأمور حتى ظهر أمر الله وهم له كارهون . فكان أشد الناس عليه الأدنى فالأدنى من قومه إلا قليلاً ممن عصم الله . وذكرت أنّ الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه اختار له من المؤمنين أعواناً أيده بهم فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام، فكان أفضلهم خليفته ، وخليفة خليفته من بعده . ولعمري إنّ مكانهما من الإسلام لعظيم وإن المصاب بهما لرُزْء جليل . وذكرت أن ابن عفان كان في الفضل ثالثاً . فإن يكن عثمان مُحسناً فسيلقى رباً شكوراً يضاعف الحسنات ويجزي بها . وإن يكن مُسيئاً فسيلقى رباً غفوراً رحيماً لا يتعاظمه ذنب أن يغفره . وإني لأرجو إذا أعطى الله المؤمنين على قدر

أعمالهم أن يكون قسمنا أوفر قسم أهل بيت من المسلمين . إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم فدعا إلى الإيمان بالله والتوحيد له ، فكنا أهلَ البيت أولَ من آمن وأناب . فمكثنا وما يعبد الله في ربع سكن من أرباع العرب أحد غيرنا . فبغانا قومنا الغوائل، وهموا بنا الهموم ، وألحقوا بنا الوسائط ، واضطرونا إلى شعب ضيق وضعوا علينا فيه المراصد. منعونا من الطعام والماء العذب ، وكتبوا بينهم كتاباً ألا يؤاكلونا ولا يشاربونا ولا يبايعونا ولا يناكحونا ولا يكلمونا أو ندفع إليهم نبيّنا فيقتلوه أو يمثلوا به وعزم الله لنا على منعه والذب عنه ، وسائرُ من أسلم من قريش أخلياء مما نحن فيه ، منهم من حليف ممنوع وذي عشيرة لا تبغيه كما بغانا قومنا . فهم من التلف بمكان نجوة وأمن . فمكثنا بذلك ما شاء الله . ثم أذن الله لرسوله في الهجرة وأمره بقتال المشركين ، فكان إذا حضر البأس ودُعيت نزال قدم أهل بيته فوقى بهم أصحابه . فقتل عبيدة يوم بدر ، وحمزة يوم أحد ، وجعفر يوم مُؤته ، وتعرض من لو شئتُ أن أسميه سميته ، لمثل ما تعرّضوا له من الشهادة . لكن آجالهم حضرت ومنية أخرت . وذكرت إبطائي عن الخلفاء وحسدي لهم. فأما الحسد فمعاذ الله أن أكون أسررته أو أعلنته . وأما الإبطاء فما أعتذر إلى الناس منه . ولقد أتاني أبوك حين قبض رسول الله ﷺ وبايع الناس أبا بكر ، فقال : « أنت أحق الناس بهذا الأمر ، فابسط يدك أبايعك » . وقد علمتَ ذلك من قول أبيك . فكنتُ الذي أبيتُ ذلك مخافة الفرقة، لقرب عهد الناس بالكفر والجاهلية . فإن تعرف من حقي ما كان ابوك يعرفه تُصب رشدك ، وإلا تفعل فسيغني الله عنك . وذكرت عثمان وتألبي الناس عليه. وإنّ عثمان صنع ما رأيت فركب الناس منه ما قد علمت وأنا من ذلك بمعزل ، إلا أن تتجنى فتجنّ ما بدا لك . وذكرت قَتَلته بزعمك وسألتني دفعهم إليك . وما أعرف له قاتلاً بعينه .وقد ضربتُ الأمر إلى أنفه وعينيه فلم أره يسعني دَفع من قبلي ممن اتهمته وأظننته إليك. ولئن لم تنزع عن غيك وشقائك لتعرفنّ الذين تزعم أنهم قتلوه طالبين لا يكلفونك طلبهم في سهل ولا جبل . والسلام » .

وقد بدأ معاوية كما رأيت بالعنف في كتابه إلى عليّ . فكان ردّ عليّ على كتابه أقسى قسوة وأعظم شدة . لم يكد يذكر إنعام الله على نبيه بالهدى والوحي واتباع أهل بيته له حتى ذكر بغي قريش عليه ومكرها به واضطراره مع أهل بيته ومع بني عبد المطلب إلى شِعْب ضيق من شِعاب مكة . إلى آخر ما هو معروف من أمر الصحيفة . وعليٌ في كل هذا يعرض ببني أمية وتأخرهم عن الإسلام واجتهادهم

مع المجتهدين في التضييق على النبي ومن تبعه من أهل بيته . ثم ذكر عليّ أن الله قد اختص بيت أهل النبي بالسبق إلى الإسلام كما اختصهم بالصبر على المكروه في شعبهم ذاك الذي اضطروا إليه . على حين كان غيرهم من المسلمين في سَعة ودعة ، تمنعهم عشائرهم كما منعت تيمُ أبا بكر ، وكما منعت عديٌ عُمرَ ، وكما منعت أميةُ عثمان . أو يمنعهم حلفاؤهم إن لم يكونوا من قريش .

ومعنى ذلك أن أهل البيت احتملوا في الإسلام ما لم يحتمل غيرهم وما لم يحتمل أبو بكر وعمر وعثمان خاصة ، فهم لم يُحصروا ولم يُهجروا ولم يضيّق عليهم في الرزق . فهم إذاً أولى الناس بالنبيّ وأحقهم بالأمر بعده . ثم ذكر الهجرة وما كان من القتال في سبيل الله، وذكر أن النبيّ كان يقدّم أهل بيته لحماية أصحابه في مواطن البأس حتى استُشهد منهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب يوم بَدر ، وحمزة بن عبد المطلب يوم أحد ، وجعفر بن أبي طالب يوم مؤتة . وتعرض عليّ نفسه للشهادة التي أتيحت لغيره من أهل البيت . فأهل البيت إذاً قد جاهدوا قبل الهجرة ، وجاهدوا بعد الهجرة ، كما لم يجاهد أحد غيرهم . ثم ذكر قيام الخلفاء بعد وفاة النبي فبرأ نفسه من الحسد لهم سرّاً أو جهراً ، ولم يعتذر إلى الناس من إبطائه في بيعتهم . ثم ذكّر معاويةَ بأن أباه كان يرى حق عليّ في البيعة حين أراده عليها . وقال له بعد ذلك : إن كنت ترى ما رأى أبوك من حقي تُصب رشدك ، وإن لم تفعل يُغْنِ الله عنك . ثم ذكر عثمان وما أنكر الناس عليه وما ركبوا من أمره واعتزاله الثورة ، وبين رأيه صريحاً في عثمان ، وهو التوقف وترك أمر عثمان إلى الله يضاعف له الأجر إن كان قد أحسن ، ويغفر له الذنب إن كان قد أساء . ثم ذكر قَتَلَة عثمان ، فأنبأ معاويةَ أنه لا يعرف لعثمان قاتلاً بعينه بعد أن بحث واستقصى ، وأنه لا يستطيع أن يسلم إليه من اتهمهم ، لا لشيء إلا لأنه اتهمهم وظن بهم الظنون ، لأن أمور الحدود لا تستقيم إلا على المحاجة والمقاضاة وإحضار البينة ، وهذا كله لا يستقيم إلا بعد البيعة والدخول في الطاعة . ثم أنذر معاويةَ بأنه ليس في حاجة إلى أن يطلب في السهل والجبل ولا في البر والبحر من يتهمهم بقتل عثمان ، لأنه سيراهم ساعين إليه طالبين له جادّين في حربه .

وكذلك أخفق سفير معاوية كما أخفق سفير عليّ من قبل ، واستبان لأهل الشام كما استبان لأهل العراق أن ليس من الحرب بُدّ . يرى أهل الشام أن يثأروا للخليفة المظلوم ، ويرى أهل العراق ومن معهم من المهاجرين والأنصار أن يُكرهوا أهل

الشام على البيعة والطاعة قبل كل شيء. ويرى أهل الشام أن طاعة عليّ لا تلزمهم، لأن الناس لم يبايعوه عن رضى منهم جميعاً ولأنه عطل حداً خطيراً من حدود الله، وهو القصاص ممن قتل الخليفة المظلوم. ويرى أهل العراق ومن معهم من المهاجرين والأنصار أن كثرة المسلمين الضخمة قد بايعت علياً في الحرمين والمصرين وفي مصر أيضاً، فأصبحت طاعته واجبة وأصبح أهل الشام طائفةً باغية يجب أن تُقاتل حتى تفيء إلى أمر الله.

ولم يأت شهر ذي الحجة من سنة ست وثلاثين حتى كان عليّ قد قدّم طلائعه بين يديه وأمرهم إن لقوا أهل الشام ألا يبدءوهم بقتال حتى يدركهم، وسار هو في معظم جيشه حتى انتهى وانتهت طلائعه إلى صِفّين بعد خطوب كثيرة لسنا في حاجةٍ إلى أن نُطيل بذكرها.

- ١٩ -

وكان معاوية قد سار في جموع أهل الشام حين علم بتأهب علي للمسير، وقدّم بين يديه الطلائع ايضاً. وقد انتهى قبل عليّ إلى صفين فأنزل أصحابه أحسن منزل وأرحبه وأقربه الى شريعة الفرات. وأقبل عليّ في جيشه الضخم فأنزل أصحابه بإزاء أصحاب معاوية. ولكن أصحاب علي لم يجدوا على الفرات شريعة يستقون منها. فأرسل علي سفراءه الى معاوية يطلبون اليه أن يخلّي الماء حراً يشرب منه الجيشان. وقد ناظر السفراء معاوية في ذلك فلم يظفروا منه بجواب. وعادوا الى عليّ بغير طائل. ثم لم يلبث أصحاب علي أن رأوا معاوية يكثر من الحرص على شرعة الفرات ليقهر علياً وأصحابه بالظمأ. يريد أن يحرمهم الماء كما حرموا الماء عثمان حين كان محصوراً، ويقال ان عمرو بن العاص ألحّ على معاوية في ان يخلي بين اصحاب عليّ وبين الماء ليؤخر المناجزة، فإن اصحاب عليّ لم يظمأوا وخصمهم راوون. ولكن عصبية بني أمية غلبت مشورة اصحاب الرأي، وانقاد معاوية لهذه العصبية فلم يكن بدّ من ان يقتتل الناس على الماء. واشتد القتال على الشّرعة حتى كاد يبلغ الحرب. وأتيح النصر لأصحاب عليّ فغلبوا خصمهم على مورد الماء؛ وأرادوا ان يضطروهم الى الظمأ ويقهروهم به كما كانوا هم يريدون بهم مثل ذلك. ولكن علياً أبى عليهم ما ارادوا،

آثر العافية حتى لا يتعجل الحرب قبل الإعذار الى خصمه وقبل مناظرتهم فيما بينهم من خلاف . وكره كذلك ان يظمىء خصمه والله قد أجرى النهر ليشرب منه الناس جميعاً لا ليستأثر به فريق دون فريق .

وكذلك أتيح للقوم ان يلتقوا آمنين اياماً ، يلتقون على الماء ويسعى بعضهم لبعض، ليس بينهم قتال ولكن بينهم جدالاً وخصاماً عنيفاً . ثم رأى عليّ ان يُعذر الى معاوية واصحابه ، فاختلف السفراء بين الفريقين دون ان ينتهوا الى صلح او شيء يشبه الصلح . فلما استيأس عليّ من خصمه عبّأ اصحابه على راياتهم وجعلت فرقهم تخرج الى فرق معاوية ، تخرج فرقة في هذا اليوم من أصحاب علي فتخرج لها فرقة من اصحاب معاوية ، فتقتتل الفرقتان نهارهما او وجهاً من نهارهما ثم تتحاجزان . وعليّ لا يتجاوز ذلك الى الحرب العامة رجاء ان يثوب خصمه الى رشدهم وان يفيئوا الى امر الله ويؤثروا العافية بين المسلمين .

ومضى الأمر على هذا اياماً عشرة او اقل او اكثر من آخر ذي الحجة ، ثم أظلّ الناس شهر المحرّم ، وهو شهر حرام ، فتوادعوا شهرهم كله وآمن بعضهم بعضاً . وسعت بينهم السفراء سعياً متصلاً ، ولكنهم أنفقوا شهرهم كله دون ان يصلوا الى صلح او شيء يشبه الصلح ؛ واستبان لأولئك وهؤلاء في غير شك ولا لبس ان ليس بُدّ من ان يصطدم الجمعان .

- ٢٠ -

ومع ذلك فقد مضى القوم على حربهم بعد شهر المحرم كما كانوا قبله ، تخرج الكتيبة للكتيبة والقبيلة للقبيلة ، وربما خرج الرجل للرجل . وهم في اثناء هذا كله لا يختصمون بالسيف وحده وإنما يختصمون بالألسنة ايضاً . وربما كانت بين رؤسائهم الكُتُب ، كالذي روي ان عمرو بن العاص كتب عن أمر معاوية الى ابن عباس يستعينه على ان يثوب الناس الى العافية ويكفّوا عن الحرب ويتقوا غوائلها . ورد ابن عباس عليه ردّاً عنيفاً مؤيساً .

ثم كان القوم اذا كفوا عن القتال آخر النهار سَمَروا ، كما تعودت العرب ان تسمر . فتناشدوا الشعر وذكروا المآثر القديمة والحديثة وذكروا بلاء من حسن بلاؤه

منهم أو من عدوّهم في ايامهم تلك ، حتى مضى صدر في شهر صفر وهم على هذه الحال لا يبلغ احد الفريقين من خصمه أرباً . وكأن القوم سئموا هذه الحرب المتقطعة الفاترة وتعجلوا الكارثة . وكأن علياً سئم هذه المطاولة التي لا تغني عنه ولا عن احد شيئاً ، وإنما تزيد الفتنة امتداداً والشر انتشاراً ، وتضيف احقاداً الى احقاد وحفيظة الى حفيظة ، وتضيع ايامه وايام أصحابه في قتال لا يقدّم ولا يؤخّر، وترجىء اجتماع الكلمة والتئام الشمل الى اجل غير مسمى ولا معروف. فعبّأ اصحابه للهجوم العام . ورأى معاوية منه ذلك ففعل مثل ما فعل . وتزاحف الجيشان المظيمان فالتقوا صباح نهارهم كله وشطراً من ليلهم دون ان يبلغ احد من صاحبه ما كان يريد . ثم اصبحوا فاقتتلوا نهارهم كله اشدّ قتال واعظمه نكراً ؛ وانكشفت ميمنة عليّ انكشافاً بلغ الهزيمة او كاد يبلغها ، وتضعضع ما كان يليها من قلب الجيش ، وانحاز علي الى ميسرته من ربيعة ، فاستقتلت ربيعة من دونه وقال قائلها : يا معشر ربيعة ، لا عذر لكم بعد اليوم عند العرب إن أصيب امير المؤمنين وهو فيكم . فتحالفت ربيعة على الموت . ثم ثابت ميمنة عليّ بفضل الأشتر ومن ثبت معه من اصحابه . فالتأم جيش عليّ كعهده اول النهار . واقبل الليل فلم يكف بعض القوم عن بعض وإنما مضوا في حربهم تلك المجنونة حتى استقبلوا صباح اليوم الثالث وحتى ظهر الضعف في جيش معاوية . وكاد اصحاب معاوية يبلغون فسطاطه ، وهمّ معاوية نفسه ان يفر لولا ان ذكرَ قول ابن الإطنابة :

أبتْ لي همّتي وأبى بلائي	واخذي الحمد بالثمن الرّبيحِ
وإجشامي على المكروه نفسي	وضرْبي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت	مكانَكِ تحمدي او تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحاتٍ	واحمي بعدُ من عرض صحيح

فردّه هذا الشعر الى الثبات والصبر ، كما كان يتحدث بذلك في ايام العافية . وارتفع الضحى والقوم ماضون في حربهم تلك لا يريحون ولا يستريحون ، واصحاب عليّ لا يشكون في النصر . وإنهم لفي ذلك وإذا المصاحف قد نشرت ورفعت على الرّماح من قِبَل اهل الشام ، وإذا منادي اهل الشام يقول : هذا كتاب الله بيننا وبينكم من فاتحته الى خاتمته ، الله الله في العرب ، الله الله في الإسلام ، الله الله في الثغور . مَن لثغور أهل الشام اذا هلك اهل الشام ؟ ومَن لثغور العراق اذا تفانى اهل العراق ؟

ويرى اصحاب عليّ هذه المصاحف المنشورة ، ويسمعون هذا الدعاء الى ما فيها من

امر الله ، ويسمعون الدعاء الى العافية والبقية ، فيبهر كثرتهم ما ترى وما تسمع . وإذا الأيدي تكف عن الحرب ، واذا القلوب تتردد ثم تذكر السلم ثم تحبها ثم تطمع فيها ، وإذا رؤساء الجيش من اصحاب علي يسرعون اليه يدعونه الى قبول ما يعرض القوم . فيأبى عليهم ويبين لهم ان القوم ليسوا بأصحاب قرآن ، ولم يرفعوا المصاحف تائبين الى ما فيها وإنما رفعوها كائدين يبغون خصمهم الفتنـــة . ويبين لهم كذلك انهم لم يبتكروا رفع المصاحف ، وانما عرفوا انه رفع المصاحف لأهل البصرة قبل القتال فقلدوه ، ولكن بعد القتال وحين جزعوا من الحرب ولم يشكوا في الهزيمة . ولكن اصحاب علي يلحون عليه في الاستجابة إلى ما يدعى اليه من كتاب الله ، ويشتدون في الإلحاح حتى ينذروا علياً بمفارقته ، ومنهم من انذره بتسليمه الى معاوية .

وقوم آخرون رأوا رأي عليّ ولم ينخدعوا بكيد أهل الشام ، وقالوا : إنما حاربنا القوم على كتاب الله لا نشك في أننا على الحق ، وفي أن صاحبنا هو أمير المؤمنين ، وفي أن عدوّنا هم الفئة الباغية ، ولو قد شككنا في شيء من ذلك ما قاتلنا ولا استبحنا سفك الدماء منّا ومنهم . ولكن أصحاب عليّ قد اختلفوا ، ما في ذلك شك . قوم يرون الكف عن القتال وقوم يرون المضي فيه ، وإذا وقع الخلاف بين رؤساء الجيش وبلغ هذا الحد فليس يُنتظر من الجيش نفسه خير .

ومن أجل ذلك اضطر عليّ إلى كف القتال ، ولم يكفّ الأشترَ عن المضي فيه إلا بعد جهد متصل وعزيمة مؤكدة . ثم قاربَ معاويةَ وأرسل إليه الرسل يسألونه عما أراد إليه برفع المصاحف . فأجابهم معاوية : أردتُ إلى أن نختار منـــا رجلاً وتختارون منكم رجلاً ونأمرهما أن يحكما بما في كتاب الله فيما شجر بيننا من الخلاف .

وعاد الرسل إلى عليّ بجواب معاوية ، فرضيت كثرة أصحابه وسخطت قلتهم . ونزل عليّ عند رأي الكثرة كارهاً .

— ٢١ —

وليس من اليسير أن نقطع برأي في عدد الجيشين اللذين التقيـــا بصفّين واقتتلا قتالاً طويلاً منكراً لم يُر مثله قط في الإسلام ، أي لم يُرَ مثله قط بـــين المسلمين . فقوم يبلغون بجيش عليّ مئة ألف ، ويبلغون بجيش معاوية سبعين ألفاً . وقوم ينزلون

بهذين الرقمين إلى اقـــل من ذلك . وليس من اليسير كذلك أن نحصي عدد القتلى من أولئك وهؤلاء ، وقد زعم قوم أن القتلى من أهل الشام بلغوا خمسة واربعين ألفـاً ، وأن القتلى من أهل العراق بلغوا خمسة وعشرين ألفاً .

وليس المهم الآن أن نحصي الجيشين إحصاء دقيقاً ولا أن نحصي القتلى منهما إحصاء دقيقاً وإنما المهم هو أن نلاحظ ان الخصمين قد تأهبا كأحسن ما تكون الأهبة واقواها، واضطرهما ذلك إلى ان يكشفا ثغورهما المحاذية للعدو قليلاً او كثيراً . وآية ذلك ان الروم طمعوا في الشام وهموا بغزوها ، لولا ان معاوية وادعهم وصانعهم واشترى كفهم عنه بالمـال . ولم تكن بازاء ثغور العراق في الشرق دولة قوية منظمة كدولة الروم ، ولكن كثيراً من مدن الفرس تنكر للمسلمين وهمّ بالثورة لولا مـا كان من رجوع عليّ إلى الكوفة وتكلفه ضبط هذه الثغور . وإذا طال القتال بين جيشين عظيمين واشتد ، وبلغ من القبح والشناعة ما صوّره المؤرخون واصحاب القصص ، كثر القتلى والجرحى من الفريقين ، وإن بالغ القصاص بعد ذلك في عدد اولئك وهؤلاء .

والشيء الذي لا شك فيه هو ان جماعة من خيار المسلمين واعلامهم من اهل العراق واهل الشام قد قتلوا في هذه الحرب ، وكان قتلهم مروّعاً لمن شهده ولمن سمع الحديث بذكره بعـــد انقضاء الحرب ، وما زال مروّعاً للذين يقرءونه الآن في كتب القصص والتاريخ .

فقد قتل من اصحـــاب معاوية عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، قاتل الهرمزان ، كما قـُتل جماعة من خيار اصحابه واعظمهم شجاعة ونجدة وبأساً . وقتل من اصحاب عليّ عمـــار بن ياسر ، ومـا زال قتله من الأحاديث المأثورة بين المسلمين ، فهو ابن أول شهيدين في الإسلام قتل أبو جهل أباه ياسراً وأمـــه سُمَيّة حتى قتلهما كما هو معروف . وهو الذي قال له النبي : ويحك يا ابن سُمَيّة ، تقتلك الفئة الباغية . وقد أشفق الزبير ، كما رأيت ، من حرب عليّ حين عرف أن عمّاراً معه . وكان خُزَيمـة بن ثابت الأنصاري يتبع علياً في صفين ولكنه لا يقاتل ، وإنما يتحرى أمر عمّار ، فلما عرف أنه قـُتل قال : الآن استبانت الضلالة . ثم قاتل حتى قتل . رأى أن أهل الشام قد قتلوا عمّاراً فعرف أنهم الفئة الباغية التي ذكرها النبي في حديثه ذاك . ووقع قـَتل عمار من معاوية وأصحابه وقعاً أليماً مروّعاً ، لم يشكـّوا في أن النبي قـــال له : تقتلك الفئة الباغية ، وإنما حاولوا أن يخفوا عليهم بهذا الحديث . فلما لم يجـدوا الى ذلك سبيلاً تأولوه . وقال معاوية : أنحن قتلناه ؟ إنما قتله الذين جاءوا به .

ولم يجيء أحدٌ بعمار الى صفّين ؛ لم يستكرهه عليٌّ على الحرب ولا على الخروج معه ، وإنما كان عمّاراً شيخاً قد نيف على التسعين ، شاخ جسمه ولكنّ قلبه وعقله وبصيرته ظلّت بمأمن من الشيخوخة ، فكان شابّ الحديث ، وكان شابّ المناظرة ، وكان شاب الجهاد . وهو الذي سلم على عائشة بعد وقعة الجمل ثم قال لها كيف رأيت ضرابنا يا أمّه ! قالت : لستُ لك بأمّ ولستَ لي بابن قال متضاحكاً : بل أنت أمي وأنا ابنك وإن كرهت. يريد أن القرآن قد نزل بأن أزواج النبيّ أمهات المؤمنين، فلن تستطيع عائشة أن تغير ما نزل به القرآن . وكان عمار أشد أصحاب عليّ تحريضاً على الحرب . وكان يحارب يوماً تجاه عمرو بن العاص وهو يرتجز :

نحن ضربناكم على تنزيله والیومَ نضربكم على تأويله
ضرباً يُزيل الهامَ عن مَقيله ويُذهلُ الخليلَ عن خليله
أو يرجعَ الحقُّ إلى سبيله

وكان يقول لأصحابه يومئذ مشيراً الى راية عمرو : والله لقد قاتلت صاحب هذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاث مرّات وهذه الرابعة وما هي بأبرّهن . وكان يقول لأصحابه حين رأى بعض انكشافهم : والله لو ضربونا حتى يُبلغونا سَعَفات هَجَر لعلمنا أنّا على الحق وأنهم على الباطل .

ويقال إنه استسقى قبل أن يقدم على الموقعة التي قُتل فيها بشيء من لبن ، فلما رآه كبّر وقال : أنبأني رسول الله ﷺ أن آخر زادي من الدنيا ضَيْح من لبن . ثم شربه واندفع إلى الموقعة وهو يدعو أصحابه: مَن رائح إلى الجنة؟ الجنة تحت البوارق، الماء مورود اليوم ، غداً ألقى الأحبة محمداً وحزبه .

وكان صاحبَ الراية في الكتيبة التي كان أمْرها الى عمار هاشمُ بن عتبة بن أبي وقاص . وكان من فرسان قريش وأخيارهم وأحبهم لعليّ وأنصحهم له ، وكان أعور . فكان عمار يدفعه الى التقدّم عنيفاً به مرة فيقول : تقدم يا أعور ؛ ورفيقاً به مرة أخرى فيقول : أقدم فداك أبي وأمي . وكان هاشم بن عتبه يهدّىء عماراً ويقول له : مهلاً أبا اليقظان ، إنك رجل تستخفك الحرب وإني إنما أزحف زحفاً ولعلي أبلغ ما أريد . وكان ابن عتبة مع ذلك يقاتل وهو يرتجز :

أعور يَبغي نفسَه محلا قد أكثرَ القولَ وما أقلّا
وعالج الحياةَ حتى ملّا لا بُد أن يَفُل أو يُفَلّا
أشُلّهم بذي الكعوب شَلّا

وما زال عمّار يدفعه وهو يتقدّم حتى قُتلا جميعاً .

وقُتل من أصحاب عليّ جماعة كثيرة من قراء الناس وصلحائهم، كانوا يقاتلون على بصائرهم ، وكان الناس يرون منهم ذلك فيتأثرونهم ويفعلون فعلهم .

ولم يكن مَن قُتل من أصحاب معاوية أقلّ أخطاراً في أهل الشام ممن قُتل من أصحاب عليّ في أهل العراق . كان كثير من أولئك وهؤلاء يرون القتال ديناً ويتقرّبون به إلى الله يذكر أهلُ العراق مكان عليّ من النبيّ وقولَ النبيّ لأصحابه: ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ فلما قالوا له : بلى ، أخذ بيد عليّ وقال : من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه . اللهم والِ مَن والاه وعادِ من عاداه . ويذكرون كذلك قول الله في القرآن الكريم : (النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم) . ثم يذكرون قول الله عزّ وجل: (قُلْ إنْ كان آباؤُكم وأبناؤُكم وإخوانكم وأزْواجكم وعَشيرتكم وأموالٌ اقترفتمُوها وتجارةٌ تَخْشَوْن كَسَادَها ومساكنُ تَرْضَوْنها أحبَّ إليكم من الله ورسولِه وجِهادٍ في سبيله فتربّصُوا حتى يأتي اللهُ بأمره والله لا يَهدي القومَ الفاسقين) .

فهم كانوا يرون انهم حين يقاتلون مع عليّ كأنهم يقاتلون مع النبي نفسه جهاداً في سبيل الله . فليس الغريبُ إذاً ان يطلبوا الشهادة ويتهالكوا عليها ، وإنما الغريب ان يحجموا او يُدبِرُوا او يترددوا . وكان اصحاب معاوية يرون ان بيعة عثمان في اعناقهم وان الذين قتلوه قد احدثوا في الإسلام حدثاً خطيراً ، واستحلّوا من دمه ما حرّم الله واستحلّوا من الإمامة ما لا يحل للمسلمين ان يفرطوا فيه ، فضلاً عن ان ينتهكوا حرمته .

وكان معاويه واصحابه قد ألقوا في روع كثير من اهل الشام ان علياً يحول بينهم وبين إقامة حد خطير من حدود الله وهو القصاص ، فكان كثير منهم إذاً يقاتل لا غضباً لمعاوية ولكن غضباً للدين الذي انتهكت حرمته وعُطّلت حدوده ، ولم يقم عليٌّ في تقويم ما اعوج من امره وإصلاح ما فسد من سيرة الناس فيه . فإذا أضيفت الى هذا كله امور اخرى لا ترجع الى الدين ولا تتصل به ، وإنما ترجع الى العصبية العربية التي اخمدها عمر حيناً ، والتي شغلت عن نفسها بحرب العدوّ من الفرس والروم ، ثم فرغت لنفسها منذ شبّت نار الفتنة فعادت الى حالها في الجاهلية الأولى ، وجعلت كثيراً من العرب يذكرون قديمهم ويريدون ان يكون حديثهم ملائماً له ، واندفعوا فيما كانوا قد نُهوا عنه من التفاخر والتكاثر والاعتداد بالنفس . وترجع كذلك الى طلب الدنيا والحرص على متاعها واعراضها . اقول : إذا اضفت هذا الى الدوافع الدينية

التي كانت تدفع القوم الى القتال العنيف البشع ، لم تنكر من شناع هذه الحرب شيئاً .
غلب على قوم دينهم فقاتلوا لنصره كما يقاتل المؤمنون الصادقون ، وغلبت على قوم دنياهم فقاتلوا لاحتيازها كما يقاتل الطامعون الجامحون . وخلت في اثناء هذا كله الثغور او كادت تخلو ، فطمع اعداء المسلمين فيما لم يكن لهم ان يطمعوا فيه .

- ٢٢ -

وأكاد أعتقد ان مكيدة عمرو بن العاص تلك التي كادها برفع المصاحف لم تكن من عند نفسه ، لا لأنه قلّد فيها علياً فحسب ، بل لشيء آخر سنراه قريباً . فقد ينبغي ان نذكر ان علياً إنما رفع المصاحف بين الصفّين في حرب البصرة قبل ان ينشب القتال ، يريد ان يُعذر الى خصمه ؛ وقد ينبغي ان نذكر ايضاً ان مكان طلحة والزّبير وأم المؤمنين من النبي ؛ كان يدعوه الى ان يحتاط ويتأنى ويذكرهم بالقرآن وما فيه ، ولا يقاتلهم حتى ييئس من استجابتهم الى ما دعاهم اليه . فلما رشق اهل البصرة ذلك الفتى الذي أمره عليّ فرفع المصحف بين الصفّين بالنّبل حتى قتلوه ، قال علي : الآن طاب الضراب .
فلو قد اراد اهل الشام ان يتّقوا الفتنة والحرب حقاً لرفعوا المصاحف ودعوا الى ما فيها قبل بدء القتال . ولكنهم لم يفعلوا، وما اكثر ما ذُكّروا بالقرآن فلم يذكروه، وما اكثر ما ردّوا سفراء علي دون ان يعطوهم الرضى او شيئاً يشبه الرضى . لما كان رفعهم للمصاحف بعد ان اتصلت الحرب اياماً واسابيع ، وبعد ان توادع الجيشان شهر المحرم كله ، إلا كيداً لا يتقون به الفتنة وانما يتقون به الهزيمة .
واكبر الظن ان بعض الرؤساء من اصحاب علي لم يكونوا يُخلصون له نفوسهم ولا قلوبهم ، ولم يكونوا ينصحون له ، لأنهم كانوا اصحاب دنيا لا اصحاب دين ، وكانوا يندمون في دخائل انفسهم على تلك الأيام الهينة اللينة التي قضوها ايام عثمان ينعمون بالصلات والجوائز والإقطاع .
ولست اذكر من هؤلاء إلا الأشعث بن قيس الكندي ، ذلك الذي اسلم ايام النبي ثم ارتد بعد وفاته ، والّب قومه حتى ورّطهم في الحرب ثم اسلمهم واسرع الى المدينة تائباً ، فلم يعصم دمه من أبي بكر فحسب ، ولكنه أصهر اليه وتزوج اخته

أم فروة . ثم حمل في ايام عمر وظهر في ايام عثمان فتولّى له بعض اعماله في فارس . فلما همّ علي ان ينهض الى الشام عزله عن ولايته ، ويقال انه طالبه بشيء من مال المسلمين ، ثم استصحبه واستصلحه . فلما رُفعت المصاحف ودُعي إلى التحكيم كان اشدّ الناس على عليّ في الدعاء إلى قبول التحكيم .

ويجب ان نذكر ايضاً ان علياً لم ينهض إلى الشام بأهل الكوفة ومن تابعه من اهل الحجاز وحدهم ، وانما نهض كذلك بألوف من اهل البصرة كان منهم من وفى له يوم الجمل ، وكان منهم من اعتزل من الناس في ذلك اليوم ايضاً ، وكان منهم مع ذلك كثير من الذين انهزموا بعد مقتل طلحة والزبير .

فهم اذاً كانوا عثمانية لا يقاتلون مع عليّ عن رضى وصدق ، وانما يقاتلون معه كارهين . وهم اذاً كانوا واجدين عليه لأنه قتل منهم من قتل واضطرهم الى الهزيمة اضطراراً .

لم يكن اصحاب عليّ اذاً كلهم مخلصين له مؤمنين به ، وانما كان منهم المخلص والمدخول .

وقد قدّمنا ان الفريقين كانا يلتقيان في امن ودعة اثناء شهر المحرم الذي توادعا فيه ، ونضيف الآن ان القتلى كثروا ذات يوم ، فطلب عليّ هدنة موقوتة ليدفن الناسُ قتلاهم . واجيب الى ما طلب .

واذاً فقد كان اهل الشام واهل العراق يلتقون ويختلطون في غير موطن . ولم يكن من العسير ان يتناجوا ولا ان يأتمروا بينهم بما يشاءون . فما استبعدُ ان يكون الأشعث بن قيس ، وهو ماكر اهل العراق وداهيتهم ، قد اتصل بعمرو بن العاص ، ماكر اهل الشام وداهيتهم ، ودبروا هذا الأمر بينهم تدبيراً . ودبروا ان يقتتل القوم فإن ظهر اهل الشام فذاك ، وان خافوا هزيمة او اشرفوا عليها رفعوا المصاحف فأوقعوا الفرقة بين اصحاب عليّ وجعلوا بأسهم بينهم شديداً .

وقد تمّ لهم ما دبروا ان كانوا قد دبروا شيئاً ، واستكره الأشعثُ ومن اطاعه علياً على كفّ القتال ، فلم ير بدأ من الإذعان لما ارادوا .

واكبر الظن عندي كذلك ان المؤامرة لم تقف عند هذا الحد وانما تجاوزته الى ما هو اشد منه خطراً ، وهو اختيار الحكمين . فلأمر ما الحّ الأشعثُ ومن تبعه من اليمانية في ان يختار عليٌّ ابا موسى الأشعريّ ، ولم يطلقوا له الحرية في اختيار حكم يثق به ويطمئن اليه . وهم يعلمون ان ابا موسى قد خذل الناس عن عليّ في الكوفة

حتى عزله عن عمله. فقد كان عليّ اذاً مكرَهاً على قبول التحكيم ومكرهاً على اختيار احد الحكمين. ولم تأت الامور مصادفة وانما جاءت عن ائتمار وتدبير بين طلاّب الدنيا من اصحاب عليّ واصحاب معاوية جميعاً.

- ٢٣ -

ومهما يكن من شيء فقد اتفق الفريقان على أن يحكّموا هذين الحكمين، يحكّمون عمراً من قِبَل معاوية ويحكّمون أبا موسى من قبل عليّ. وأبَى أصحابُ عليّ على إمامهم أن يختار ابنَ عباس لأنه شديد القرب منه. وأبَوْا عليه أن يختار الأشترَ لأن اجتهاده في الحرب كان عظيماً وحرصه على الغلب كان شديداً. ولم يستطع عليّ أن يقبل ما عرضه عليه الأحنف بن قيس من أن يكون مندوبه في الحكم، بل لم يستطع أن يجعله ثانياً لأبي موسى؛ لأن أصحابه أبَوْا إلا أن يندبوا أميرهم القديم الذي كره لهم الفتنة والذي لم يشترك في الحرب مع هذا الخصم أو ذاك. ولم يذكروا أن عمرو ابن العاص قد شارك في الحرب برأيه ولسانه وسيفه، بل لعلهم ذكروا ذلك ولكنهم لم يقفوا عنده ولم يلتفتوا إليه.

واجتمع المفوّضون من الفريقين فكتبوا صحيفة سجّلوا فيها ما اتفق عليه الخصمان من وضع الحرب وإيثار الحكومة واختيار الحكمين وتحديد الزمان والمكان لاجتماعهما، وتأمينهما على أنفسهما وأموالهما مهما يكن حكمهما، واستنصار الأمة كلها على من خالف عمّار في هذه الصحيفة.

حدّدوا هذا كله تحديداً دقيقاً، ولكن شيئاً واحداً أطلقوه اطلاقاً ولم يحددوه تحديداً قريباً أو بعيداً، وهو موضوع القضية التي يجب أن يفصل فيها الحكمان. واقرأ اولاً نص هذه الصحيفة كما رواه البلاذري: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. قاضَى عليّ على أهل العراق ومَن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين: أنّا ننزل عند حكم الله، وبيننا كتاب الله فيما اختلفنا فيه من فاتحته إلى خاتمته، نُحيي ما أحيا ونميت ما أمات. فما وجد الحكمان في كتاب الله فانهما يَتبعانه، وما لم يجداه مما اختلفا فيه في كتاب الله نصاً أمضيا فيه السنة العادلة

الحسنة الجامعة غير المفرّقة . والحكمان عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص . وأخذنا عليهما عهد الله وميثاقه ليحكمان بما وجدا في كتاب الله نصّاً ، فما لم يجداه في كتاب الله مُسمّى، عملا فيه بالسنة الجامعة غير المفرّقة. وأخذا من عليّ ومعاوية ومن الجندين كليهما وممن تأمّرا عليه من الناس عهد الله ليقبلنّ ما قضيا به عليهما . وأخذا لأنفسهما الذي يرضيان به من العهد ومن الثقة بالناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما وأموالهما ، وأن الأمة لهما أنصار على ما يقضيان به على عليّ ومعاوية ، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما، وأن على عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يُصلحا بين الأمة ولا يرداهم إلى فرقة ولا حرب ؛ وإنّ أجَل القضية الى شهر رمضان ، فان أحبّا أن يعجلاها دون ذلك عجلا ، وإن أحبّا أن يؤخّراها عن غير ميل منهما أخراها . وإن مات أحد الحكمين قبل القضاء فان أمير كل شيعة وشيعته يختارون مكانه رجلاً، لا يألون عن أهل المعدلة والنصيحة والإقساط. وان يكون مكان قضيتهما التي يقضيانها فيه مكان عدل بين الكوفة والشام والحجاز، لا يحضرهما فيه إلا من أراد . فان رضيا مكاناً غيره فحيث أحبّا أن يقضيا . وأن يأخذ الحكمان من كل واحد ممّن شاءا من الشهود ثم يكتبا شهادتهم في هذه الصحيفة أنهم أنصار على مَن ترك ما فيها : اللهم نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة وأراد فيها إلحاداً أو ظلماً ..

وشهد من كل جند على الفريقين عشرة ، من أهل العراق : عبدالله بن عباس ، والأشعث بن قيس ، وسعد بن قيس الهمداني ، وورقاء بن سُمي ، وعبدالله بن طفَيل، وحُجر بن عديّ الكندي ، وعبدالله بن حَجَل الأرحبي البكري ، وعقبة بن زياد ، ويزيد بن حُجَيّة التميمي ، ومالك بن كعب الأرحبي .

ومن أهل الشام، أبو الأعور عمرو بن سفيان السُّلمي ، وحبيب بن مسلمة الفِهْري، والمُخارق بن الحارث الزُّبيدي، وزَمْل بن عمرو العُذْري، وحمزة بن مالك الهمداني، وعبدالرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي، وسُبَيْع بن يزيد الحَضْرمي، وعلقمة بن يزيد الحضرمي ، وعتبة بن أبي سفيان ، ويزيد بن الُحرّ العبسي».

وقد رويت هذه الصحيفة من غير طريق البلاذري على شيء من الاختلاف في اللفظ ليس بذي خطر ، وعلى شيء من التقديم والتأخير ليس بذي خطر أيضاً . ولكن الخطير كما قدّمنا هو ان الفريقين قد حدّدا في صحيفتهما كل شيء إلا هذا الموضوع الذي اختلفا فيه والذي يجب ان يقضي فيه الحكمان .

ففيم كانا يختلفان بالفعل ؟ كان معاوية يطلب بدم عثمان ويريد ان يسلم إليه عليّ

قتلة الخليفة المظلوم . وكان عليّ لا يعرف لعثمان قاتلاً بعينه ولا يقدر على ان يُسلم الى معاوية جميع من ثاروا بعثمان حتى قُتل .

أفكان الفريقان يريدان من الحكمين ان يفصلا في هذه القضيّة ؟ وإذاً فما بالهما لم ينصّا عليها بل لم يذكرا عثمان وقتلته في الصحيفة أصلا .

وكان معاوية يرى بعد مقتل طلحة والزبير ، وبعد ان استحصد أمره واشتد بأسه ان يكون أمر الخلافة شورى بين المسلمين . وكان علي يرى أنه قد بُويع كما بويع الخلفاء من قبله ، بايعه اهل الحرمين وهم أصحاب الحل والعقد ، وبايعه اهل الأمصار إلا الشام . فقد اجتمعت له إذاً بيعة الكثرة الكثيرة من المسلمين عامة ، ومن المهاجرين والأنصار خاصة ، ولم يبق لمعاوية إلا ان يدخل فيما دخل فيه الناس ، ويدخل معه اصحابه من اهل الشام ، فان لم يفعلوا فهم الفئة الباغية التي أمر المسلمون بقتالها إن أبت الصلح وكرهت العافية حتى تفيء الى أمر الله . وإذاً فما بال الفريقين لم ينصّا على ذلك في صحيفتهما ، بل لم يذكرا الخلافة ولا الشورى في الصحيفة أصلا . والغريب ان هذه الصحيفة التي رواها المؤرخون قد أرضت الفريقين المختصمين ، لم ينكرا فيها غموضاً ولا عموماً ولا إبهاماً ، مع أنها من اشد ما كتب المسلمون غموضاً وعموماً وإبهاماً فيما يتصل بموضوع القضية الذي كان يجب ان يحدّد تحديداً لا لبس فيه .

وأكبر الظن أن الذين كتبوا الصحيفة من الفريقين لم يحفلوا بدقة ولا بتحديد ، وانما كرهوا الحرب وسئموا القتال وتعجلوا السلم . وكان اصحاب معاوية يكفيهم ان تنحسر الحرب عنهم وأن يختلف اهل العراق . وكانت عامة اهل العراق يكفيهم ان يثوبوا الى السلم . وكان الماكرون منهم إن استقام الغرض الذي افترضته آنفاً تعنيهم ان تكون القضية غامضة غير بينة الحدود . يرون ذلك أنفع لمعاوية وأضر لعليّ ، وأحرى ان ينيلهم من السلطان ومتاع الدنيا ما يريدون .

وهذا كله يفسر لنا ما كان ، بعد ان كُتبت هذه الصحيفة ، من الاختلاف في صفوف اهل العراق والائتلاف في صفوف اهل الشام . وأكبر الظن ان عليّاً ضاق بأصحابه حين رأى انهم يعصونه في كل ما يأمرهم به او يشير عليهم فيه ، فخلّى بينهم وبين ما أرادوا وتمثل قول دُريد بن الصمّة :

أمرتُهم أمري بمُنعرج اللّوى ... فلم يَستَبينوا الرُشد إلا ضُحى الغدِ
فلما عَصَوْني كنتُ منهم وقد أرى ... غوايتهم وأنني غير مهتدي
وهل أنا إلاّ من غزية إن غوت ... غَويتُ وإن ترشد غزية أرشد

وأكاد أشهد الأشعث بن قيس وقد استقام له كل ما أراد ، فهو جذلان مسرور لا يكتفي بالرضى والغبطة ، وإنما يأخذ الصحيفة فيمشي بها في الجيش يقرؤهـا على الجند ويكلف من يقرؤها عليهم حين تجهده القراءة . والجند يسمعون فيرضى كثير منهم لأن الحرب قد كفت عنهم ، وتسخط منهم جماعة غير قليلة لأنهم يرون في هذه الحكومة وصحيفتها انحرافاً عن الدين ، ومخالفة عما أمر الله به في القرآن ، فمنهم من كان يقول : أتحاكمون الرجال في دين الله ؟ ومنهم من كان يكتفي بهذه الصيحة التي أصبحت شعاراً للخوارج فيما بعد ، « لا حكم إلا لله » . ومنهم من كان يخرجه الغضب عن طوره فلا يكتفي بالقول وانما يضيف اليه العمل ، فقد يقال إن رجلا من هؤلاء المنكرين للحكومة كره ان يشارك اصحابه فاستل سيفه وصـاح : لا حكم إلا لله . ورمى بنفسه جيش اهل الشام فقاتل حتى قتل .

ومن المحقق أن عروة بن أدية ، أخا ذلك الخارجي الذي حفظ التاريخ اسمه ، وهو مرداس ابو بلال ، لم يكد يسمع ما قرىء عليه من الصحيفة حتى ثار بالأشعث يريد ان يقتله . فنفرت دابة الأشعث وأصاب سيف عروة عجزها ، وكاد الشر ان يقع بين اليمانية اصحاب الأشعث والتميمية قوم عروة ، لولا ان مشت وجوه تميم فاعتذروا اليه حتى رضي .

وما ينبغي أن ندع جيش علي يترك صفين دون ان نبين حجة هؤلاء الذين أنكروا الصحيفة وكرهوا الحكومة ، وكان لهم بعد ذلك في تاريخ الإسلام شأن أي شأن .

وحجتهم كانت واضحة أشد الوضوح وأقواه . جاء بها القرآن صريحة لا لبس فيها ، فالله عز وجل يقول : (وإنْ طائفتان مِنَ المؤمنين اقتتلوا فأصلِحُوا بينَهما فإن بَغَتْ إحداهُما على الأخرى فقاتِلوا التي تَبْغي حتى تَفِيءَ إلى أمْرِ الله. فإن فاءَت فأصلِحُوا بينَهما بالعَدْل وأقسِطُوا إنَّ الله يُحبُّ المقسِطين. إنما المؤمنون إخوة فأصلِحوا بَيْن أخويْكم واتقوا الله لعلكُم تُرحَمون) .

وكان عليّ وأصحابه ، وهم كثرة المسلمين ، يرون أن معاوية وأصحابه قد بغوا . وقد أسفر عليّ إلى معاوية ومن معه من أهل الشام فردّوا سفراءه وأبوا أن يكون بينه وبينهم إلا السيف. ثم سبق معاوية وأصحابه إلى الماء فآثروا به أنفسهم وأرادوا تظميء عليّ وأصحابه ، فاقتتل الفريقان على الماء حتى خلص لعليّ . ثم أذن لمعاوية وأصحابه أن يردوا وأن يشربوا . فهاتان طائفتان من المؤمنين قد اقتتلوا .

ثم أرسل عليّ سفراءه إلى معاوية يعرضون عليه أن يدخل في الطاعة وألا يفرق

المسلمين ، فلم يجدوا عنده خيراً . فاقتتلوا أياماً ثم توادعوا شهر المحرم . وحاول عليّ وأصحابه الصلح فلم يجدوا من أهل الشام استجابة إليه . فاقتتلوا في صفر . وكان يجب أن يمضوا في القتال بحكم الآية الكريمة حتى يفيء معاوية وأهل الشام إلى أمر الله ، وحينئذ تكفّ عنهم الحرب ويرفع عنهم السيف ويصبحون لخصمهم أولئك إخواناً ، ويجب الإصلاح بين الأخوين .

وقد كاد جيش عليّ أن يظفر بالطائفة الباغية ويضطرها إلى أن تفيء إلى أمر الله ، ولكن المصاحف تُرفع ، وإذا الحرب تُكفّ ، وإذا القوم يدخلون في حكومة غامضة مبهمة لا حظّ لها من وضوح أو جلاء . فلم يخطىء الذين قالوا « لا حكم إلا الله » إذاً . وحكم الله هو أن يستمر القتال حتى يخضع معاوية وأصحابه . وليس أدلّ على ذلك من أن علياً نفسه ، وهو الإمام ، أبى أن ينخدع برفع المصاحف ، وقال : إن معاوية ورهطه الأدنين ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وإنما هم يكيدون ويخادعون ويتقون حرّ السيف . فقد كان الإمام إذاً يرى ألا حكم إلا الله ، وأن السبيل الى حكم الله هو القتال حتى يذعن أهل الشام ، ولكن كثرة أصحابه لم تذهب مذهبه واستكرهته على غير ما أحب ، فكانت هذه الحكومة .

إلى هنا يظهر في غير لَبْس أن الذين حكموا لم يخطئوا وإنما التزموا أمر القرآن والتزموا رأي الإمام أيضاً . ويقال إنهم ألحوا عليه في أن يمضي بهم في القتال حتى ينفذ حكم الله . ولكن علياً رآهم قلة قليلة ، ورأى أنه إن قبل مشورتهم أوقعهم بين عدوهم من أهل الشام وأصحابهم من أهل العراق ، فألقى بأيديهم إلى التهلكة ، ولذلك أبى عليهم وجعل يرفق بهم ويهدئهم ، ويدعوهم إلى اختيار ما فيه لهم ولأصحابهم العافية .

وهنا يبدأ خطأ هؤلاء الذين حكموا : كانوا على صواب حتى شاوروا الإمام فنصح لهم واستأنى بهم وأمرهم بالقصد ، وهم ليسوا أعلم بالقرآن من عليّ ولا أحفظ منه للسنة ولا أبصر منه بالمصلحة . وقد ينبغي أن يترك للإمام شيء من حرية يُمضي به الأمر بين رعيته . فهذه كثرة أصحابه تطالبه بالسلم والحكومة ، وهذه قلة أصحابه تطالبه بالحرب ورفض الحكومة ، وأولئك وهؤلاء يركبون رءوسهم ويغلون فيما يذهبون إليه . وليس للإمام خيار إلا أن يمضي مع الكثرة إلى السلم والحكومة ، والأمل في صلح يحقن الدم ويجمع الشمل . أو يمضي مع القلة إلى الحرب واليأس المُبير . وقد آثر المضي مع الكثرة ، فكان على القلة أن تؤثر ما آثرت محتفظة برأيها منتظرة

مع الإمام ، فإن كان الصلح المقنع فـــذاك ، وإن لم يكن رجعت الكثرة إلى رأي القلة وعادوا جميعاً إلى الحرب .

ولكن كلا الفريقين من الكثرة والقلة أبا أن يتبع إلا رأيه ، وانحـــاز عليّ إلى الكثرة كارهاً . ولم يمض يومان على كتابة الصحيفة، أنفقهما القوم في دفن القتلى حتى أذّن مؤذّن عليّ في أصحابه بالرحيل عن صفين ، فرجعوا إلى الكوفة شرّ مرجع . خرجوا منها أشدّ ما يكونون مودة وإلفاً وتصافياً ، وعادوا إليها أشد ما يكونون موجدة وفرقة واختلافاً ، يتشاتمون ويتضاربون بالسياط ، تقول القلـــة للكثرة : خالفتم أمر الدين وانحرفتم عن حكم القرآن وحكمتم الرجال فيما لا حكم فيه الاّ لله . وتقول الكـــثرة للقلّة : خالفتم الامـــام وفرّقتم الجماعة وابتغيتموها عوّجاً . ثم لم يدخلوا الكوفة جميعاً كما خرجوا منها جميعاً ، وإنمـــا انحازت المحكمة إلى حرُوراء فاعتزلوا فيها . وكانوا ألوفاً يصل بها المكثرون إلى اثني عشر ألفاً ويهبط بها المقلّلون إلى ستة آلاف . وقد اعـــتزلوا في حرُوراء فنسبوا إليها . وأذّن مؤذّنهم ألا إنّ على الحرب شَبيث بن ربْعيّ التميمي،وعلى الصلاة عبدالله بن الكوّاء اليَشْكريّ ، والبيعة لله عز وجل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومنذ ذلك اليوم نشأ في الإسلام حزب جديد كان له في تاريخه أثر بعيد ، ودخل عليّ الكوفة مُنْقلبه من صفّين كما دخلها مُنْقلبه من البصرة . فلم ير في مدخله هذا كما لم يرَ في مدخله ذاك فرحاً بقدومه ولا ابتهاجاً بلقائه ، وإنما رأى في مدخـــله هذا كما رأى في مدخله ذاك لوعة وحسرة وبكاء . إلا أن مـــا رأى من ذلـــك بعد عودته من صفّين كان أكثر كثرة وأشد نكراً ، فقد كان قتلى صفّين بالقياس إلى قتلى يوم الجمل أضعافاً وأضعافاً .

- ٢٤ -

والغريب أن المؤرخين الذين أكثروا من ذكر ابن السوداء عبدالله بن سبأ وأصحابه حين رووا أمر الفتنة أيام عثمان ، وأكثروا من ذكرهم بعد مقتل عثمان قبل أن يشخص عليّ من المدينة للقاء طلحة والزبير وأمّ المؤمنين . ثم أكثروا من ذكرهم حين كان عليّ يُسْفر إلى طلحة والزبير وأمّ المسلمين في الصلح . ثم زعموا أنهم أئتمروا على حين غفلة من عليّ وأصحابه بانشاب القتـــال . ثم زعموا أنهم أنشبوا القتال فجاءة حين

التقى الجمعان عند البصرة وورطوا المسلمين في شر عظيم . الغريب أن هؤلاء المؤرخين قد نسوا السبئية نسياناً تاماً ، أو أهملوها إهمالا كاملاً حين رووا حرب صفين .

فابن السوداء لم يخرج مع علي إلى الشام ، وأصحاب ابن السوداء خرجوا معه ولكنهم كانوا أنصح الناس له وأوفى الناس بعهده وأطوع الناس لأمره . لم يأتمروا ولم يسعوا بالفساد بين الخصمين ، وإنما سعوا وأطاعوا وأخلصوا الإخلاص كله ، حتى إذا رفعت المصاحف خرج بعضهم مع المحكّمة الذين أنكروا للصحيفة وما فيها ، كحُرْقوص بن زُهير ، وأقام بعضهم على طاعة عليّ ، وإن أنكر الصحيفة وكره الحكومة كالأشتر .

وأقل ما يدل عليه إعراض المؤرخين عن السبئية وعن ابن السوداء في حرب صفين أن أمر السبئية وصاحبهم ابن السوداء إنما كان متكلفاً منحولاً ، قد اخترع بآخرة حين كان الجدال بين الشيعة وغيرهم من الفرق الإسلامية . أراد خصوم الشيعة أن يدخلوا في أصول هذا المذهب عنصراً يهودياً إمعاناً في الكيد لهم والنيل منهم . ولو قد كان أمر ابن السوداء مستنداً إلى أساس من الحق والتاريخ الصحيح لكان من الطبيعي أن يظهر أثره وكيده في هذه الحرب المعقّدة المعضلة التي كانت بصفّين ، ولكان من الطبيعي أن يظهر أثره حين اختلف أصحاب عليّ في أمر الحكومة ، ولكان من الطبيعي بنوع خاص أن يظهر أثره في تكوين هذا الحزب الجديد الذي كان يكره الصلح وينفر منه ويكفّر مَنْ مال إليه أو شارك فيه .

ولكنّا لا نرى لابن السوداء ذكراً في أمر الخوارج . فكيف يمكن تعليل هذا الإهمال ، أو كيف يمكن أن نعلّل غياب ابن سبأ عن وقعة صفين وعن نشأة حزب المحكمة .

أما أنا فلا أعلل الأمرين إلا بعلة واحدة ، وهي أن ابن السوداء لم يكن إلا وهماً ، وإن وُجد بالفعل فلم يكن ذا خطر كالذي صوّره المؤرخون وصوّروا نشاطه أيام عثمان وفي العام الأول من خلافة عليّ . وإنما هو شخص ادّخره خصوم الشيعة للشيعة وحدهم ولم يدّخروه للخوارج ، لأن الخوارج لم يكونوا من الجماعة ولم يكن لهم مطمع في الخلافة ولا في الملك ، وإنما كانوا قوماً يثورون بكل خلافة وينتقضون على كل ملك ، ويحاربون الخلفاء والملوك ما وجدوا إلى حربهم سبيلا ، ثم هم لم يكونوا حزباً باقياً متصلاً عظيم الخطر ، ولا سيما بعد أن انقضى عصر بني أمية ، وإنما ضعف أمرهم وفُلّ حدّهم بعد أن تقدم الزمان بدولة بني العباس . وبقي مذهبهم معروفاً بين

المتكلمين ، ولكنه اتخذ في الحيـــاة العملية أطواراً مختلفة قد نعرض لها في غير هذا الجزء من هذا الكتاب .

فلم يكونوا إذاً حزباً تحتاج خصومته إلى الجدال الشديد المتكلّف الذي يبغّضهم إلى الناس ويزهّد فيهم أصحاب التقى والورع، كما كان أمر الشيعة الذين ظلوا ينازعون الملوك والخلفاء سياسة المسلمين إلى الآن .

أمّا البلاذريّ فقد رأينا فيما سبق من هـذا الكتاب أنه لم يذكر ابن السوداء ولا أصحابه السبئية في أمر عثمان ، وهو كذلك لم يذكره في أمر عليّ إلا مرةً واحدةً في أمر غير ذي خطر ، إذ جاء عليّاً مع آخرين يسألونه عن أبي بكر فردهم ردّاً عنيفاً لائماً لهم على تفرغهم لمثل هذا، على حين كانت مصر قد فتحت وقتلت فيها شيعة عليّ.

وكتب عليّ كتاباً يذكر فيه ما صارت إليه الأمورُ بعد تخاذل أهل العراق وأمر أن يقرأ هذا الكتاب على الناس لينتفعوا به .

قال البلاذريّ : وكانت عند ابن سبأ منه نسخة حرّفها ، وابن سبأ عند البلاذريّ ليس ابن السوداء ، وإنما هو عبد الله بن وهب الهمذاني .

والبلاذريّ يروي هذا الخبر كله متحفظاً متوخياً للصدق ما استطاع ، وهو كثيراً ما يروي بعض الأحاديث ثم يُعقّب عليها بما يظهر الشك فيها، لأنها من اختراع أهل العراق.

والواقع أن الخصومة بين الشيعة وأهل الجماعة قد اتخذت ألواناً من الجدل والإذاعة ونشر الدعوة بعد أن استقام الأمر لبني العباس ، كثر فيها المكر والكيد والاختراع ، بحيث يجب على المؤرخ المنصف أن يحتاط أشد الاحتياط حين يصوّر هذه الفتن في عهدها الأول . وأي شيء أيسر من أن يكذب أهل الشام على اهل العراق ، ومن ان يكذب اهل العراق على اهل الشام ولا سيما بعد أن يمضي الزمن ويبعد العهد ويصبح التحقيق من الوقائع الصحيحة عسيراً .

والذين استباحوا لأنفسهم أن يضعوا الأحاديث على النبي وأصحابه لا يتحرجون من ان يستبيحوا لأنفسهم وضع الأخبار على أهل الشام والعراق . ومؤرخ هذا العصر الذي نحاول تصويره يمتحن أعسر الامتحان وأشقه من ناحيتين :

إحداهما ناحية القصّاص الذين كانوا يتحدّثون بأمر الفتن في البصرة والكوفة فيرسلون خيالهم على سجيته ويتعصّبون للقبائل المختلفة من العرب ، ولعلهم كانوا يأخذون المال من أولئك وهؤلاء ليحسنوا ذكرهم ويعظموا أمرهم ويذكروا لهم من المآثر ما كان وما لم يكن ، ويرووا في هذه المآثر من الشعر ما قيل وما لم يقل . ولذلك كان كل

الناس شعراء يوم الجمل ويوم صِفّين ، ولذلك رُويت الأخبار التي لا تستقيم في العقل .

فذلك الفتى الذي أمره عليّ برفع المصحف لأهل البصرة يوم الجمل، يأخذ المصحف بيمينه ، فإذا قُطعت اخذه بشماله، فإذا قطعت اخذه بأسنانه او بمنكبيه حتى يُقتل.

ورجل آخر يُصرع وتصيبه ضربة قاتلة فينشد الشعر وهو محتضر يذمّ به هذا ويمدح به ذاك، إلى غير ذلك من الأخبار والأشعار التي يظهر فيها التكلف والاختراع.

والناحية الثانية هي ما كان من اصحاب الجدل ، ومن اولئك الذين امدوهم بالأخبار والأحاديث يؤيدون بها مذاهبهم وآراءهم . ويزداد الأمر في هذه الناحية تعقيداً وعسراً لأنه يتصل بالدين ، فالجدال بين الفرق لم يكن عند القدماء جدالاً في أمور الدنيا ، وإنما كان جدالاً في اصول الدين وفيما ينبني عليها من الفروع فكان من اليسير أن يتهم المجادلون خصومهم بالكفر والفسق والزندقة والإلحاد ، وأن يشنّعوا عليهم ما شاء الله مما يصح لهم من الحديث والسير وما يُبتكر لهم ابتكاراً.

ومهما يكن من شيء فالبلاذري لا يذكر ابن السوداء وأصحابه في شيء من الفتنة أيام عثمان وأيام عليّ . والطبري ورُواته الذين اخذ عنهم والمؤرخون الذين اخذوا عنه فيما بعد ، يذكرون ابن السوداء وأصحابه في امر الفتنة أيام عثمان وفي العام الأول من أيام عليّ ثم ينسونهم بعد ذلك . والمحدثون وأصحاب الجدل متفقون مع الطبري وأصحابه فيما ذهبوا اليه . إلا ان المحدثين وأصحاب الجدل ينفردون من دون الطبري وأصحابه بشيء آخر ، فيزعمون ان ابن السوداء واتباعه ألهوا علياً وأن علياً حرقهم بالنار . ولكنك تبحث عن هذا في كتب التاريخ فلا تجد له ذكراً. فلسنا نعرف في أي عام من أعوام الخلافة القصيرة التي وليها علي كانت فتنة هؤلاء الغلاة . وليس تحريق جماعة من الناس بالنار ، في الصدر الاول الإسلام ، وبين جماعة من أصحاب النبي ومن صُلحاء المسلمين، بالشيء الذي يغفل عنه المؤرخون فلا يذكرونه ولا يوقّتونه ، وإنما يهملونه إهمالاً تاماً .

وكل ما رواه المؤرخون هو ما ذكره البلاذري في حديث قصير وقع اليه من أن قوماً ارتدوا بالكوفة فقتلهم علي . وحُكم الإسلام فيمن ارتدوا معروف ، وهو أن يُستتاب فإن تاب حقن دمه ، وإن لم يتب قُتل. فلا غرابة إذاً في ان يقتل عليّ نفراً ارتدوا ولم يتوبوا ، إن صح هذا الخبر . وإن كان البلاذري لم يسمّ أحداً ولم يوقّت لهذه الحادثة وقتاً ، وإنما رواها مطلقة إطلاق من لا يطمئن اليها .

فلندع إذاً ابن السوداء هذا وأصحابه ، سواء أكان أمرهم وَهماً خالصاً ام أمراً

غير ذي خطر يُوائم فيه كيداً للشيعة . ولنعد الى عليّ وقد استقر بالكوفـــة ، وإلى المحكّمة وقد استقرت بحروراء .

- ٢٥ -

فلم يكن عليّ وأصحابه مطمئنين الى خروج هذه الخارجة التي انتبذت من الجماعة مكانها بحروراء . ولم تكن هذه الجماعة نفسها مطمئنة الاطمئنان كله الى ما هي مستقبلة من امرها . وآية ذلك أنهم أقاموا على حربهم شَبَث بن رِبْعي التميمي ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى رجع الى الكوفة وأقام مع الجماعة على ما كانت مقيمة عليــه . وكان علي يرجو ان يستصلح هؤلاء الناس . وكان هؤلاء الناس أنفسهم يأملون أن ينتهي الأمر بينهم وبين قومهم الى مخرج من هذا المأزق الذي تورطوا فيه . فكانوا يوفدون وفودهم الى علي يفاوضونه ويناظرونه ويدعونه الى استئناف القتال مع عدوّهم من اهل الشام. وكان علي يردّ على اولئك الوفود بأنه لم يكره القتال وإنما هم الذين كرهوه وجزعوا منه ، وبأنه قد أعطى معاوية وأصحابه ميثاقاً على القضية . فليس ينبغي له إلا أن ينزل عند ما أعطى من الميثاق . وكانت الوفود ترجع الى اصحابها بما سمعت من كلام علي فيزداد إصرارهم على القاطعة والخاصمة . ثم أرسل اليهم عليّ عبدالله بن عباس في جماعة من أصحابه . فناظرهم تلك المناظرة المشهورة عند اهل الفِرَق وأصحاب الكلام . سألهم ماذا نقموا من امير المؤمنين . فقالوا : تحكيمه الحكمين . فقال ابن عباس : إن الله قد أمر بالتحكيم في الصيد الذي يُصيبه المحرم فقال : « يأيّها الّذين آمنوا لا تَقتُلوا الصَّيدَ وأنتُم حُرُمٌ ومَنْ قَتَلَه مِنكُم مُتعَمِّداً فجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَل مِنَ النَّعَم يحكُمُ بهِ ذَوَا عَـــدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالغ الكَعْبَةِ أو كَفَّارةٌ طعامُ مَساكِين او عدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوق وَبالَ أمْرِه عَفا اللهُ عمّا سَلَفَ ومَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنهُ واللهُ عَزيزٌ ذو انْتِقام » .

وأمر بتحكيم حكمين بين الزوجين إن خيف بينهما الشقاق فقال: « وإن خِفْتُم شِقاقَ بَيْنِهِما فابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أهْلِه وحَكَماً مِنْ أهْلِها إنْ يُرِيدَا إصْلاحاً يُوفِّق اللهُ بَيْنَهُما إنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً خَبيراً » .

فالله إذاً قد حكّم الرجال في الأمور اليسيرة فكيف بالأمور الكبار الـــتي تمسّ

اجتماع الأمة وحقن الدماء .

وكان رد الخوارج عليه مُقنعاً حاسماً فقالوا : انّ ما نص الله عليه من الأحكام لا تجوز المخالفة عنه ، وما أذن للناس فيه في الرأي جاز لهم أن يجتهدوا فيه برأيهم . ألا ترى الى أمر الله في الزاني والسارق وقاتل النفس المؤمنة بغير حقها ، فليس للإمام أن يخالف عن هذا الأمر ولا أن يغير فيه ، وأمر الله في معاوية وأصحابه واضح في آية الطائفة الباغية ، فلم يكن لعليّ أن يغيّره وإنما كان الحق عليه أن يمضي في قتال هؤلاء البُغاة حتى يفيئوا الى أمر الله .

وتقدّم صَعْصَعة بن صُوحان من أصحاب ابن عباس فوعظهم وخوّفهم الفتنة . فيقال إن قوماً منهم نحو ألفين عادوا الى الكوفة مع ابن عباس . ويقال إن علياً أرسل ابن عباس وأمره ألا يناظر القوم حتى يلحقه ، فتعجّل ابن عباس هذه المناظرة وأدركه عليّ ، وقد كاد القوم يظهرون عليه ، فأخّره وتقدّم فناظر القوم حتى ردّهم الى الصواب .

وأنا أرجّح أنّ علياً اكتفى أول الأمر بإرسال ابن عباس في جماعة من أصحابه ، فلما رأى أنهم لم يُغْنوا الغناء الذي كانوا يرجوه ذهب بنفسه الى الخوارج ، بعد أن أرسل إليهم في أن يَنْدُبوا للمناظرة اثني عشر رجلاً منهم ، ويأتي هو في مثلهم . ثم خرج عليّ حتى أتى فسطاط يزيد بن مالك الأرحبيّ ، وكان الخوارج يعظمونه ويُطيفون به . فصلى في الفسطاط ركعتين ثم تقدّم فناظر الناس . سمع منهم حجتهم وهي واضحة قد قدّمناها من قبلُ غيرَ مرة ، ثم ردّ عليهم بما تعوّد أن يقول دائماً من أنه لم يكره القتال ولم يدعُ الى تركه ، وإنما كرهه أصحابه واستكرهوه على وضع الحرب كما استكرهوه على قبول الحكومة . وكأنّ الخوارج قبلوا منه أن يُذعن حين استكرهه أصحابه على ترك القتال ، ولكنهم لم يفهموا كيف استكرهوه على قبول الحكومة . فهو لا يستطيع أن يقاتل وحده ولا يستطيع أن يقاتل بالقلة من أصحابه حين ينخذل عنه أكثرهم . ولكنه في رأيهم كان يستطيع — لا أدري كيف — أن يرفض الحكومة وليس لأحد أن يكرهه عليها . فردّ عليهم بأنه كره أن يتأوّل الناس عليه قول الله عز وجل : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ) .

كما كره أن يتأوّل الناسُ عليه آية التحكيم في الصَّيد وآية التحكيم في الشقاق .

وقالوا : فلمَ لم تُثبت في الصحيفة أنك أمير المؤمنين ؟ أتراك شككت في إمرتك ؟

قال عليّ : فان رسول الله ﷺ محا من صحيفة الحديبية وصفه بأنه رسول الله وما شكّ في نبوّته ولا في رسالته .

ثم عاد عليّ الى أمر الحكمين فقال : إنه أخذ عليهما العهد أن يحكما بما في كتاب الله . فان وفّيا بما أعطيا من العهد فالحكم له ، ما في ذلك شك . وان خالفا عما في كتاب الله فلا حكم لهما . وليس بُدٌّ حينئذ من النهوض لحرب أهل الشام . وكان القوم قد تأثروا بحجج علي ورأوا منه مقاربة شديدة لهم . وأحس علي ذلك فأبلغ في مقاربتهم وقال : « ادخلوا مصركم رحمكم الله » . فدخلوا معه عن آخرهم . ولكنهم دخلوا وبينهم وبين علي شيء من سوء التفاهم كما يقال الآن ، يرى عليّ أنه قد أقنعهم بقبول الحكومة وانتظار ما ينتهي اليه الحكمان . ويرون هم ان علياً قد قاربهم اشد المقاربة ، وأنه لا ينتظر إلا ان يستريح الجيشُ ويسمن الكُراع ويجدد السلاح ثم ينهض بهم الى عدوهم .

وقد جعلوا يتحدّثون بذلك في الكوفة حتى شاع ذلك بين الناس . ولعله تجاوز الكوفة وانتهى إلى اهل الشام بواسطة عيونهم الذين كانوا يُقيمون بين اظهر الكوفيين. فقد جاء رسول معاوية يستنجز علياً الوفاء ويحذره انْ يلفته عنه اعراب بكر وتميم. وجعل عليّ يكذّب ما ارجفت به المحكمة من عدوله عن الحكومة .

ثم اشخص ابا موسى الى مكان الحكومة وارسل معه أربعمائة من اصحابه عليهم شُرَيح بن هانىء ، ومعهم ابن عباس يصلي بهم . فعاد الأمر بينه وبين المحكّمة الى الفساد . جعلوا يقاطعونه في الخطبة محكمين من جوانب المسجد ، وجعل عليّ يقول – كلما سمع قولهم « لا حاكم إلا الله » – : كلمة حق أريد بها باطل وقطع بعضهم على عليّ خطبته تالياً قول الله عز وجل : (لَئِنْ أشْرَكتَ لَيَحْبَطَنّ عَمَلُكَ ولَتَكُونَنّ مِنَ الخَاسِرين) فأجابه عليّ بآية أخرى : (فاصْبِرْ إنّ وَعْدَ اللهِ حَقٌ ولا يَسْتَخِفّنّكَ الذينَ لا يُوقِنُون) . وجعل الأمر يُمعن في الفساد بين عليّ وبينهم حتى اعتزلوه مرة أخرى، وخرجوا مغاضبين قد أكفروه وأكفروا معاوية وانتبذوا محاربين . وجعل عليّ يقول : إن سكتوا تركناهم وإن تكلموا حاججناهم وان أحدثوا فساداً قاتلناهم .

ثم لم يلبثوا أن أحدثوا الفساد في الأرض فكان القتال .

واجتمع الحكمان في دُومة الجندل أو في اذرُح ، أو في دومة الجندل أولاً ثم في أذرُح بعد ذلك ، على اختلاف في ذلك كثير . ولكنهما اجتمعا وشهدهما أربعمائة من أصحاب عليّ ، فيهم عبدالله بن عباس وأربعمائة من اصحاب معاوية . وبعض المؤرخين يزعم أن معاوية كان من أصحابه ، أو كان منهم غيرَ بعيد .

ودعا الحكمان إلى شهود أمرهما جماعةً من الذين اعتزلوا الفتنة منذ اولها منهم عبد الله بن عمر . ومن الذين اعتزلوا الفتنة بآخرة فلم يشهدوا صفين كعبد الله بن الزبير . ودعوا سعد بن أبي وقاص فلم يستجب لهم على كثرة ما ألح عليه أحد أبنائه. ودعوا سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل فلم يستجب لهم أيضاً .

ثم أخذ الحكمان في أمرهما ، ولم تكن مفاوضتهما على ملأ من الناس ، وانما كان كل واحد منهما يخلو الى صاحبه فيديران الأمر بينهما . والغريب أن مقامهما في مكان التحكيم قد طال ، وتفاوضهما في امره قد كثر . ولكن المؤرخين لا يروون من ذلك إلا أطرافاً مقتضبة فيها كثير من التناقض والاختلاف . وليس لذلك مصدر الا أن الوثيقة التي جعلت اليهما الحكم في القضية كانت غامضة غير مبينة . وقد استيقن الحكمان فيما يظهر أنهما مفوضان في أن يتناظرا في كل ما اختلف الناس فيه ، ثم يقضيان بعد ذلك برأي عدل ملائم لما في كتاب الله ولما في السنة الجامعة غير المفرقة . فاتفقا أولاً على أن عثمان قُتل مظلوماً ، وعلى ان معاوية هو وليّ دمه ، فمن حقه إذاً ان يطالب بالقصاص من قاتليه. ولكن الى من ينبغي أن يطلب معاوية هذا القصاص؟ أيطلبه من عليّ ، وهو يتهمه في التأليب على عثمان والتخذيل عنه ؟ أم يأخذه بنفسه ؟ فاذاً فهي الحرب التي أمر الحكمان ألا يردّا المسلمين اليها وإذاً فلا بدّ من اختيار إمام يرضاه الناس ويستطيع معاوية أن يطلب اليه انفاذ قول الله عز وجل : ومنْ قُتِلَ مظلوماً فَقَدْ جعَلْنَا لِوليّهِ سُلطاناً فلا يُسْرِف في القَتْلِ إنه كان منْصُوراً) .

ويقول المؤرخون إن عمرو بن العاص اقترح أن يكون هذا الإمام معاوية نفسه . وما أكاد أصدق هذا ، فما أرى أن عمراً كان يستطيع ، بعد أن أثبت أن معاوية هو ولّي عثمان ، أن يختاره للخلافة ليطلب الى نفسه إنفاذ أمر الله ، ولينفذه بعد ذلك فيُقيد من قتلة عثمان ويكون خصماً وحكماً .

وقد يقال : لو قُبل اقتراح عمرو ذاك وأصبح معاوية إماماً لتنحّى عن المطالبة بدم الخليفة المظلوم لأبناء عثمان أنفسهم . ولكن قوة معاوية إنما كانت تأتيه من النهوض في امر عثمان ، فلو قد تنحى عنه لما استطاع احد ان يفهم لماذا صار إماماً ، ولم يكن في ذلك الوقت خيرَ الأحياء من اصحاب النبي . فقد كان منهم نفر هم اعظم منه فضلاً وسابقة ، وأحسن منه بلاء وأقرب منه مكاناً من رسول الله .

كان هناك سعد بن ابي وقّاص من اصحاب الشورى ومن العشرة الذين شهد لهم رسول الله بالجنة . وكان هناك سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل أحد أولئك العشرة ايضاً . ثم كان هناك عبد الله بن عمر ، الطيّب ابن الطيب ، كما كان ابو موسى يقول .

أنا اذاً أستبعد ان يكون عمرو قد رشح معاوية . ومهما يكن من شيء فالذين يروون هذا الترشيح يروون كذلك ان ابا موسى قد رفضه . وفضل عليه علياً لسابقته وبلائه ومكانه من النبي .

ويقال كذلك إن ابا موسى جاء باقتراح معارض لاقتراح عمرو ، فذكر الطيب ابن الطيب عبد الله بن عمر ، ورأى ان في استخلافه إحياء لذكر عمر . ولكن عمراً رفض هذا الاقتراح ، لأن عبد الله لم يكن صاحبَ بأس ولا بطش ولا قوة على النهوض بهذا الأمر . وأكبر الظن ان عمراً ذكّر ابا موسى بأن عمر نفسه قد أحضر ابنه الشورى ولم يجعل له من الأمر شيئاً ، وبأن رأي عمر في ابنه معروف ، وقد كان يقول : انه لا يحسن يطلق امرأته .

ويتزيد الرواة من اهل العراق فيزعمون ان عمراً لقي عبد الله بن عمر وخلا اليه وعرض عليه الخلافة إن أعطاه مصر . فأبى عبدالله ان يشتري الخلافة بالرشوة ويعطي الدنية في دينه .

وما أرى إلا ان هذا غلوّ دفع اليه الذين ابغضوا عمراً من اهل العراق . والشيء المحقق هو ان الحكمين لم يتفقا على رجل يرشحانه للخلافة ، فاتفقا عن اقتراح ابي موسى او عن اقتراح عمرو على ان يخلعا من هذا الأمر علياً ومعاوية جميعاً ، وأن يتركا للأمة امرها شورى بينها تختار له من تشاء . ثم لم يضعا نظاماً لهذه الشورى ولا شيئاً يشبه النظام . ولم يقدّرا ان الأمة ستختلف حين تستقبل امرها ، فينحاز اهل العراق الى عليّ وينحاز اهل الشام الى معاوية ، ويتبع أولئك وهؤلاء من مال اليهم من المسلمين . وربما نهض اهل الحجاز فاختاروا سعد بن ابي وقاص ، او سعيد بن زيد ، او عبد الله بن عمر ، او غيرهم من اصحاب النبي من المهاجرين .

لم يفكّرا في شيء من ذلك ولم يحتاطا له ، وإنمــا اكتفيا بما انتهيا اليه من خلع الرجلين وردّ سلطان الأمة اليها .

وهنا تأتي المشكلة الخطيرة التي اتفق المؤرّخون عليها ، لم يكد يشذ منهم احد . فقد ظهر الحكمان للناس واعلنا أنهما قد اتفقا على ما فيه الرضى للمسلمين . ثم قدّم عمرو ابا موسى ليبدأ بإعلان ما اتفقا عليه . وكان عمرو – فيما يقال – يظهر دائماً تقديم ابي موسى وإكباره ، لسبقه الى صحبة النبي ولسنّه ايضاً . ويقال كذلك إن ابن عباس أشفق من خداع عمرو فأشار على ابي موسى ان يتأخر ، حتى اذا تكلم عمرو استطاع هو ان يتكلم بعده . ولكن ابا موسى لم يسمع لابن عباس ، وإنما قام فحمد الله وأثنى عليه ثم أعلن أنهما قد اتفقا على خلع عليّ ومعاوية ورد الأمر شورى بين المسلمين . وأمر الناس ان يستقبلوا امرهم ويختاروا لخلافتهم من يرضون .

ثم قام عمرو فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هذا قد خلع صاحبه وأنا اخلعه مثله ، ولكني أثبت صاحبي . فقال لـه ابو موسى : ما لك ، لا وفقك الله ، غدرت وفجرت . إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث . وقـال له عمرو : إنما مثلك كمثل الحمار يحمل اسفاراً .

وماج القوم ، فأقبل شريح بن هانيء رئيس الوفد من اصحاب عـليّ فقنع عمراً بسوطه . وقـام محمد بن عمرو فقنع شريحاً بسوطه ، وأقبل الناس فحجزوا بينهما . وانطلق ابو موسى فركب راحلته ورمى بهـا مكة . وعاد اهل الشام الى معاوية فسلموا عليه بإمرة المؤمنين .

وإذاً فقد غدر عمرو غدرةً منكرة ، إن صح ما كاد المؤرخون ان يجمعوا عليه . اتفق مـع ابي موسى على خلـع الرجلين ثم لم يخلع منهما إلا واحداً . جار اذاً عن العهد الذي اعطاه على نفسه في الصحيفة ، فسقط حكمه وسقط حكم صاحبه إيضاً .

وتفرق القوم على غير شيء كأنهم لم يجتمعوا . وكان الظافر في هذا كله معاوية ، فقد رُفعت الحرب عن أصحابه وأتيح له أن يريحهم وأن يستمد لاستقبال أمره أشد قوة وأمضى عزماً وأعظم بأساً. وورط أصحاب عليّ في الخلاف والفرقة ، واضطرهم الى الفتنة وجعل بأسهم بينهم شديداً .

ومن المؤرخين من زعم أن عمراً لم يبلغ بكيده إلى هـذه المنزلة من الغدر ، وإنما اكتفى بخلع الرجلين كما خلعهما أبو موسى ، فسوّى بين عليّ ومعاوية، وكان هذا ظفراً عظيماً .

ولكن هذه الرواية الشاذة لا تستقيم . فلو قد قال عمرو كما قال أبو موسى : إنهما اتفقا على خلع الرجلين جميعاً ، لما عاد أهل الشام مسلّمين على معاوية بالخلافة ، وفيهم عمرو نفسه . ولما قبل كثير من أهل العراق إمرة عليّ بعد أن خلعه الحكمان اللذان ارتضاهما وأعطاهما العم - على نفسه بأن ينفذا حكمها ولكان من الطبيعي أن يضطرب أشد الاضطراب في مكة والمدينة ، فهؤلاء قوم أعطوا على أنفسهم عهداً ليسمعنّ لحكمُ الحكمين إن لم يجورا . ثم هم ينقضون ما أعطوا من العهد ويسيرون سيرة جاهلية . فكيف يرضى عن ذلك من اعتزل الناس من أخيار الصحابة ومن بايعوا عليّاً من خيارهم أيضاً ؟

وليس لهذه الرواية معنى إلا أنها تتهم الأمة كلها بإيثار المنفعة الخاصة واتباع الهوى والمخالفة عن أمر الله عز وجل حين قال: (وأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إذا عَاهَدتم ولا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعدَ تَوْكِيدها وقد جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إن الله يَعْلَمُ ما تَفْعَلُون ولا تَكونُوا كالَّتي نَقَضَتْ غَزْلَها من بعد قُوَّةٍ أنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أيْمَانَكُم أنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى من أمَّة إنما يَبْلوكم اللهُ بِهِ وليُبَيِّنَنَّ لكُمْ يَوْمَ القِيامة ما كُنْتمْ فِيه تَخْتَلِفُون) .

وليس من المعقول أن تجتمع الأمة كلها على نقض العهد وإيثار الضلالة على الهدى والغدر على الوفاء ، ولكن أحد الحكمين ، وهو عمرو ، خدع صاحبه وهو أبو موسى. ولم يكن أبو موسى مغفلاً كما قال المؤرخون ، ولو كان مغفلا لما اختاره عمر لولاية الأمصار ، ولما اختاره أهل الكوفة لولاية مصرهم حين ظهرت الفتنة واشتدت أيام عثمان. ولكنه كان رجلاً تقيّاً ورعاً سمح النفس رضيّ الخلق يظن أن المسلمين ، ولا سيما الذين صحبوا النبي منهم خاصة ، أرفع مكانة في أنفسهم وفي دينهم من أن ينزلوا الى الغدر . فأخلف ظنه عمرو ، ولا أكثر من ذلك ولا أقل . وهو من أجل ذلك فرّ بدينه إلى مكة فاعتزل فيها مجاوراً نادماً على أنه لم يسمع لابن عباس . وعاد الوفد من أهل العراق إلى عليّ فنبأوه بما كان . ولعل النبأ كان قد سبقهم إليه في الكوفة ، فلم يدهش لذلك كأنه كان يتوقعه . وإنما ذكر تحذيره لأصحابه في صفين حين رفعوا المصاحف فقال لهم : إن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن .

وقد حَنِقَ الصالحون من أهل الكوفة على هذا الغدر وأصحابه وجعلوا يستعدون للقتال . وأخفى الماكرون من طلاب الدنيا مكرهم وجعلوا يظهرون الاستعداد للحرب كغيرهم من الناس ، ولكن الخوارج حالوا بين عليّ وبين أن ينهض بأصحابه إلى الشام.

وقـــد خطب عليّ أصحابه بعد ان أتاه امر الحكين فقال فيما روى البلاذري :
الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدَث الجليل . واشهد ان لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . امـــا بعد . فان معصية الناصح الشفيق المجرّب ُتورث الحسرة وتعقب الندم . وقـد كنت امرتكم في هذين الرجلين وهذه الحكومة بأمري ونخلت لكم رأيي لو ُيطاع لقصير رأي . ولكنكم ابيتم إلاّ ما اردتم : فكنت واياكم كما قـال اخو َهوازن :

أمرتهـــم أمـري بمُنعرج اللّوى فلم يَستبينوا الرشد إلا ُضحى الغدِ

ألا إن الرجلين اللذين اخترتموهما حكين قد نبذا ُحـكم الكتاب وراء ظهرهما وارتأيا الرأي من قبـل انفسهما ، فأماتا ما احيا القرآن واحييا ما امات القرآن . . ثم اختلفا في حكمهما فكلاهما لا يرشد ولا يسدّد . فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين. فاستعدوا للجهاد وتأهبوا للسير وأصبحوا في معسكركم يوم الاثنين ان شاء الله .

واصبح النـاس في معسكرهم في الموعد الذي ضربه لهم إمامهم . وكتب عليّ الى اهل البصرة فجاءه منهم ُجند صالح . ولم يشخص ابن عباس هذه المرة ، وانما اكتفى بتسريح الجند الى علي . ونهض علي بأصحابه يريد الشام . ولكنه لم يمض بهم إلا قليلاً حتى جـاءته انباء قلبت خطته كلها رأساً على عقب . وكانت تلك الأنباء متصلة بأمر الخوارج . فهم كانوا رجعوا مـع علي كما رأيت وظنوا انه قد عدل عن القضية . فلما رأوا انه ماض فيها عادوا الى تحكيمهم وخرجوا ارسالا من الكوفة . منهم من خرج سرّاً ومنهم من خرج مباديـاً بخروجه لا يستتر ولا يحتاط . وكتبوا الى اخوانهم من أهل البصرة فانضموا اليهم في بعض الطريق وساروا جميعاً الى النهروان .

وكان علي يعلم هذا كله ويقول دائماً مقالته المشهورة : « كلمة حق يراد بها باطل ». يقولها كلما سمع تحكيمهم او تحدث اليه أحد بهـــذا التحكيم . وكان كذلك يقول : لا نمنعهم الفيء ولا َنهيجهم ولا نبغيهم شرّاً ما لم ُيحدثوا حدثاً او ُيفسدوا في الأرض. وكان يقول : إن سكتوا تركناهم وان تكلموا حاججناهم وان أفسدوا قاتلناهم .

ويقال انه كتب اليهم ينبئهم بافتراق الحكين على غير اتفاق ويدعوهم الى ان يكونوا

مع أصحابهم للشخوص الى حرب اهل الشام . ولكنهم أبوا عليه وقالوا : قد دعوناك الى ذلك قبل القضيّة فأبيت . فأما الآن فإنا نأبى عليك لأنك لا تقاتل لله وانما تقاتل لنفسك . كنتَ تظن أن قرابتك من رسول الله ﷺ ستحمل الناس على ألاّ يَعْدِلوا بك أحداً ، فلما رأيت أنهم قد انحرفوا عنك نهضت لقتالهم تبتغي الدنيا ، فلسنا منك ولا من الدنيا التي تبتغيها في شيء، إلا أن تشهد على نفسك بالكفر ثم تتوب كما تُبنا . فان فعلت فنحن معك على عدوّك ، والا فليس بيننا وبينك الا السيف .

ومع هذا كله لم يُرد علي أن يهيجهم وانما أزمع المُضيّ الى الشام ، وقال : لعلهم يتدارسون أمرهم ويثوبون الى رشدهم . ولكنَّ الأنباء تصل اليه بأنهم قد نشروا الفساد في الأرض ، فقتلوا عبد الله بن خبّاب بن الأرتّ . وخبّاب من خيار الصحابة . وقتلوا نسوة كُنّ مع عبد الله . وجعلوا يستعرضون الناس ويُذيعون الذعر . فأرسل اليهم علي رجلاً من أصحابه يسألهم عن هذا الفساد ، ويطلب اليهم أن يسلموا اليه أولئك الذين استحلّوا قتل النفس التي حرّم الله بغير الحق . فلم يكد الرسول يدنو منهم حتى قتلوه . وجاء الخبر علياً ، فكره أصحابُه أن ينهضوا الى الشام ويتركوا من ورائهم هؤلاء الخوارج يُفسدون في الأرض ويستبيحون أموالهم وعيالهم وهم غائبون . وألحّوا على إمامهم في أن ينهض بهم الى هؤلاء الخوارج ، حتى اذا فرغوا منهم تحولوا الى عدوهم من اهل الشام فحاربوا وهم مطمئنون على ما وراءهم .

وسمع لهم علي. فسار بهم الى النهروان . حتى اذا صار بإزاء الخوارج جعل يطلب اليهم قتلة عبد الله بن خبّاب ومن كان معه ، وقتلة رسوله اليهم ، فلا يظفر منهم الا بجواب واحد هو : « كلنا هؤلاء القتلة » . وجعل عليّ يَعظهم بالكتابة مرّة وبالخروج اليهم ووعظهم مشافهةً مرة أخرى ، وقد أجدى وعظُه هذا فجعل كثير من الخوارج يتسلّلون ويعودون إلى الكوفة . وجعلت طوائف منهم تعتزل جيش الخوارج ، منهم من يعود إلى جيش عليّ ، ومنهم من يعتزل الحرب دون أن يعود إلى الجماعة ، حتى لم يبق حول عبد الله بن وَهْب الرّاسيّ ذي الثّفنات رئيس الخوارج إلا ثلاثة آلاف أو أقل من ذلك أو أكثر من ذلك قليلاً . فلما استيأس عليّ من هؤلاء عبّأ جيشه وأمر بألا يبدأوهم بقتال حتى يقاتلوا هم . ولم يكد الخوارج يرون التعبئة حتى تعبئوا. وينتصف النهار ذات يوم وإذا هذه الفئة القليلة من الخوارج تتحرّق الى الحرب تحرُّق الظمآن الى الماء ، وإذا مناديهم يصيح فيهم : « هل من رائح الى الجنة » . فيتصايحون جميعاً : « الروّاح الى الجنة » . ثم يشدون على جيش

على شدة منكرة تنفرج لها خيل علي فرقين . فرق يمضي الى الميمنة وفرق يمضي الى الميسرة . والخوارج يندفعون بين الفرقين ، فيلقاهم رماة علي بالنبل فيصرعون منهم خلقاً كثيراً ، ثم يلتئم الفرقان من الخيل . وما هي إلا ساعة حتى يقتل الخوارج عن آخرهم . وفيهم رئيسهم ذو الثفنات وكانوا قبل التحكيم من أشد الناس نصحاً لعليّ وجهاداً في سبيله ، لأنهم كانوا يرون سبيله هي سبيل الله .

وينظر أصحاب عليّ الى عليّ فاذا هو قلق لا يطمئن ، يطلب الى من حوله أن يلتمسوا ذا الثدية ، رجلاً مخدج اليد ، على عضده شامة تشبه ثدي المرأة ، وعلى هذه الشامة شعرات سود . فيبحث الناس عنه في القتلى والصرعى ثم يعودون فيقولون : بحثنا ولم نجد . ويزداد عليّ قلقاً ويقول : والله ما كذبت ولا كذبت ، ويحكم ! التمسوا الرجل فإنه في القتلى . فيبحثون ثم يأتي آت فينبىء علياً بأنهم قد وجدوه . فإذا سمع النبأ خرّ ساجداً وسجد معه من كان حوله من أصحابه ، ثم يرفع رأسه ويقول : « والله ما كذبت ولا كذبت ، ولقد قتلتم شر الناس » .

ويتحدث المؤرخون المحدثون وأصحاب السير بأن هذا الرجل المخدج ذا الثدية هو الذي قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم حين قسم الغنائم يوم حنين وتألف من تألف من العرب: « اعدل يا محمد فإنك لم تعدل » . وأعرض النبي عنه مرة ومرة. فلما أعاد مقالته للمرة الثالثة قال له النبي ، وقد ظهر الغضب في وجهه : ومن يعدل اذا لم أعدل » ؟

وهم بعض المسلمين بقتله فكفهم النبيّ عنه ، وقال فيما يروي المحدثون والمؤرخون : « يخرج من ضئضي هذا الرجل قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية يتلون القرآن لا يتجاوز تراقيهم » .

وقد فرغ علي اذاً من قتال الخوارج فقتلهم جميعاً ، الا من انسل منهم الى الكوفة أو اعتزل الحرب . وكان علي فرحاً بهذا الانتصار ولا سيما بعد أن رأى ذلك المخدج ذا الثدية الذي كان قبل ذاك من أشد الناس لزوماً له وأكثرهم حرصاً على مجالسته . وكان مما أرضى علياً أنه قد فرغ – فيما يرى – من عدوه المخالط له الذي كان خطراً على ما يترك في العراق من الأموال والعيال ، وخطراً على الجيش نفسه يستطيع أن يأخذه من وراء ، ويستطيع أن يقطع عليه رجعته الى العراق .

ظن علي أن الأمور قد استقامت له فلم يبق الا أن يرمي بجيشه هذا المنتصر أهل

الشام ، ولكن الشيء الذي لم يكن يفكر فيه علي ، ولم ينتبه اليه أحد يومئذ ، هو أن هذه الآلاف الثلاثة من الرجال الذين قتلوا كانوا كلهم من أهل العراق ، أكثرهم من أهل الكوفة ، وبعضهم من أهل البصرة ، وليس منهم الا من ينتمي الى عشيرة في أحد هذين المصرين . وكثير منهم كانت عشائرهم في جيش علي ذاك الذي قتلهم. فقد كان عدي بن حاتم مثلاً مع علي في النهروان. وكان ابنه زيد في الخوارج الذين قتلوا . وما أكثر أبناء الأعمام الذين قتل بعضهم بعضاً في ذلك اليوم . وقل ما شئت في البواعث التي دفعت أولئك وهؤلاء الى أن يقتل بعضهم بعضاً . كانوا جميعاً يخلصون في الدفاع عما كانوا يرون أنه الحق ، وكانوا جميعاً يصدرون عن شعور ديني صادق لا شك فيه . ولكنهم كانوا جميعاً ناساً من الناس يجدون في قلوبهم ما يجد الإنسان من الحزن على فقد الابن والأخ والصديق . ويجدون ما يجد العربي في نفسه من الموجدة حين يقتل ابنه أو صديقه أو أخوه ، ويشعرون كما كان يشعر ذلك الفارس الجاهلي حين قال :

فإن أكُ قد بردتُ بهم غليلي فلم أقطع بهم إلا بناني

وكما كان يشعر جاهلي آخر حين قال :

قومي هم قتلوا أُميم أخي فاذا رميتُ أصابني سهمي
فلئن عفوتُ لأعفون جللاً ولئن سطَوْتُ لأوهنن عظمي

وكما كان عليّ نفسه يشعر يوم الجمل حين كان يقول بعد أن نظر إلى القتلى من الفريقين :

أشكو إليك عُجَري وبُجري شفيتُ نفسي وقتلتُ مَعْشري

وقد ابتهج أهل الكوفة في حزن بعد يوم الجمل بانتصارهم على أهل البصرة ، وشجعهم هذا الانتصار على أن ينهضوا الى صِفّين ، أما في هذا اليوم يوم النهروان فأهل الكوفة يقتلون أهل الكوفة وأهل البصرة يقتلون أهل البصرة . فأي غرابة في أن يشيع الحزن في القلوب وتغشى النفوس كآبة لا تؤذن بخير . وأي غرابة في أن يدعوهم عليّ الى النهوض الى الشام فيعتل عليه رؤساؤهم ، منهم الصادق ومنهم الماكر الكاذب . يقولون له : قد نفدت السهام وتكسّرت السيوف ونصلت الرماح، فأعِدْنا الى مصرنا لنريح ولنجدد أداتنا ثم ننهض معك الى عدونا .

ولا يكاد علي يعود بهم الى معسكرهم في النُّخَيلة خارج الكوفة ويُحرج عليهم

ترك المعسكر ودخول المصر حتى ينظر فاذا هم يتسللون أفراداً وجماعات ، حتى لا يبقى في المعسكر إلا عدد يسير لا يُغنون عنه شيئاً ، وحتى يضطر هو إلى أن يدخل الكوفة ويفكر في الاستعداد للحرب من جديد .

وكان معاوية قد بلغه نهوضُ علي الى الشام ، فنهض في أصحابه يسبق الى صفّين ، ولكن علياً لم يقدم . فلما عرف معاوية ما كان من أمره مع الخوارج ، ومن رجوعه الى الكوفة وتخاذل أصحابه عن القتال عاد إلى دمشق موفوراً دون أن يلقى كيداً .

- ٢٨ -

وترك علي أصحابه أياماً ليريحوا ويستريحوا ويستعدّوا ، كما زعم له رؤساؤهم في النهروان . فلما ظن أنهم قد بلغوا من ذلك ما أرادوا دعاهم الى الخروج وحثهم عليه وحرّضهم على الجهاد . ولكنهم سمعوا له ثم لم يصنعوا شيئاً . فأمهلهم أياماً ثم خطبهم كالمُستيئس من نصرهم ، فقال : « يا عباد الله . ما بالكم اذا أمرتم أن تنفروا في سبيل الله اثّاقلتم الى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة بدلا ، وبالذل والهوان من العز والكرامة خلفاً ؟ أفكلما دعوتكم الى الجهاد دارت أعينكم في رءوسكم كأنكم من الموت في سَكرة وكأن قلوبكم قاسية ، فأنتم أسود الشرى عند الدعة ، وحين تُنادون للبأس ثعالب روّاغة ، تُنتقص أطرافكم فلا تحاشون ، ولا ينام عدوكم عنكم وأنتم في غفلة ساهون . إن لكم عليّ حقاً : فالنصيحة لكم ما نصحتم ، وتوفير فيئكم عليكم ، وأن أعلمكم كيلا تجهلوا وأودّبكم كيما تعلّموا . وأما حقي عليكم فالوفاء بالبَيعة ، والنصح في المغيب والمشهد ، والإجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين آمركم » .

على أن خطبته هذه بلغت أسماع أصحابه دون أن تتجاوزها الى قلوبهم فانصرفوا عنه ولم يصنعوا شيئاً . لم ينفروا للحربَ ولم يتأهبوا لها، بل لم يظهروا ميلاً الى التأهب فضلا عن أن يظهروا الميل الى النّفير . وإنما قرّوا في مصرهم وأقبلوا على حياتهم وادعين يدبّرون أمورهم في أمن وفراغ بال ، كأنهم لم يهمّوا بغزو الشام وكأنّهم لم يستأذنوا علياً في العودة الى مصرهم، ليكون استعدادهم للحرب أتمّ وتأهبهم لها أشد وأمضى ، وليس من شك في أن لهذه الظاهرة أسبابها المختلفة وعللها المتباينة .

وقد أشرنا الى بعض ذلك حين ذكرنا كآبة المنتصرين يوم النهروان، وما أندس الى قلوبهم من الحزن على من قُتل في ذلك اليوم من الخصم والوليّ جميعاً. فقد كان أولئك وهؤلاء أبناءهم وإخوانهم وصديقهم وذوي عصبتهم . فاذا أضفنا الى ذلك أن علياً منذ نهض بأمر الخلافة لم يدفع جيوش المسلمين من أصحابه إلا الى هذه الحرب الوبيلة ، التي تقطع الأرحام وتُوهي العُرى وتفسد الصلات التي يجب أن ترعى، حربِ الآباء للأبناء وحرب الإخوان للإخوان وحرب الصديق للصديق والوليّ للولي ، أقول : إذا أضفنا هذا كله عرفنا ان اهل العراق معذورون إن شاع الملل في نفوسهم وكرهوا هذا الصراع الذي لا يُعقبهم إلا حسرة وحزناً . وليس على الإمام في ذلك لوم ، وما ينبغي أن يلومه فيه لائم ، فقد كان يؤمن أشد الإيمان وأنقاه بأن على المسلمين ان ينصروا الحق مهما يكلفهم ذلك من جهد ، ومهما يجر عليهم ذلك من خطب، ومهما يدفعهم ذلك الى مكروه . وكان أصحابه يرون ذلك كما كان يراه ، يؤمنون به على أنه الدين ؛ ولذلك بذلوا نفوسهم ودماءهم يوم الجمل ، وبذلوها في صفّين ، وكانوا يهمّون ببذلها مرة أخرى ، قد نهضوا لذلك ومضوا اليه ولكنهم اضطروا الى النهروان ليحموا ظهورهم وليؤمّنوا من وراءهم وما وراءهم من الأهل والمال ، فلم يجنُوا في النهروان إلا شرّاً ، أضافوا دماء الى دماء وحزناً الى حزن وحسرات الى حسرات . وهم بعد ذلك قد ألِفوا منذ ايام ابي بكر وعمر جيوشاً أرصدت للفتح ، وعُبئت لبسط سلطان الإسلام ، واستعدت لقتال العدو من غير المسلمين . وقد امتحنوا بقتال المسلمين مرّات فلم يروا إلا شرّاً .

وهم ينظرون فيرون الفتح قد وقف ، وسلطان الدولة قد أخذ يضطرب في الثغور: طمع الروم في الشام وهمّوا بالغزو فلم يتّقهم معاوية إلا بالمال . وجعلت الثغور الشرقية تضطرب على عمّال علي نفسه ، فلا يكاد يردّها الى الطاعة إلا بعد الجهد أي الجهد والعناء اي العناء .

وهم يرون بعد هذا كله قوماً من خيار اصحاب النبي قد اعتزلوا الفتنة واجتنبوا الحرب ، وكرهوا أن يقاتلوا أهل القبلة ، وأن ينصبوا الحرب لقوم يقولون : « لا إله إلا الله » ويشهدون بنبوّة محمد ﷺ . ومنهم من كسر سيفه ، لأن سيوف المسلمين قد أرصدت لقتال العدو لا لقتال الصديق .

وليس كل الناس من اليقين وقوة الإيمان ومضاء العزم وتصميم الرأي بحيث كان عليّ رضي الله عنه . فليس غريباً إذاً أن يجتمع هذا كله على هؤلاء الناس فيثير في نفوسهم

الحزن ، ويشيع في قلوبهم الشك ، ويقر في ضمائرهم هذا الندم الغامض الذي يدفع أصحابه الى الحيرة ، والذي يفل الحدّ ويثبط الهمم .

هذا كله الى أن اصحاب علي في العراق كانوا يجدون في السلم والأمن راحة مغرية ودعة مطمعة ، فهم قارّون في أمصارهم يوفّر عليهم فيئهم في غير حرب . وقد سنّ فيهم علي سنة لم يألفوها من قبل ، أشار بها على عمر فلم يستجب له ، فكان طبيعياً أن ينفذها حين يصير السلطان اليه . فقد أشار علي على عمر حين استشار الناس في هذا المال الكثير ، الذي أخذ يُحمل اليه من الثغور ، بأن يقسّم كل ما يحمل اليه من هذا المال على الناس حتى لا يبقى منه في بيت المال شيء . فلم يقبل عمر هذا الرأي وانما قبل رأي الذين أشاروا عليه بتدوين الديوان وفرض الأعطيات للناس .

فلما صار الأمر الى علي جعل يقسم ما يأتي من المال إثر وصوله على الناس ، بعد أن يحتجز منه ما ينبغي ان يُنفق منه في المرافق العامة . ولم يكن علي يكره شيئاً كما كان يكره الادخار في بيت المال . كان يتحرج من ذلك أشد التحرج . حتى رُوي أنه كان يحب بين حين وحين أن يأمر فيُكنس بيت المال ويرش ثم يأتي فيصلي فيه ركعتين . كان يكره ان يلمّ به الموت فجأة ويترك في بيت المال شيئاً لم يردُدْه الى اصحابه . فكان يقسم على الناس الفاكهة حين تحمل اليه الفاكهة قلّت او كثرت . وكان يقسم عليهم العسل والزيت وأشباه العسل والزيت ، حتى قسم عليهم ذات يوم إبراً وخيطاً . فقد كان السلم إذاً محبّباً الى هؤلاء الناس الذين كان يحمل اليهم في الثغور وخراج ما فتح على المسلمين من أرض المشرق ، فلا يكاد يبلغ المصر حتى يصير في أيديهم قليلاً كان او كثيراً .

كان هذا السلم محبّباً اليهم ، وكان على كل حال أحب اليهم من هذه الحرب العقيم التي لا غنم فيها ، وفيها الغرم كل الغرم ، وفيها بعد ذلك قتل الوليّ والصديق .

وكذلك مضى اصحاب علي في إيثار الراحة والدعة والنكوص عن الحرب كلما دُعوا اليها .

ثم جاء مكر معاوية فأضاف مالاً الى مال ، وثراء الى ثراء ، وزاد السلم حبّاً الى سَراتهم ورؤسائهم ؛ فقد اتصلت كتب معاوية الى هؤلاء السراة والرؤساء تحمل اليهم الوعود والأماني ، وتقدم بين يدي الوعود والأماني العطايا والصلات ، يُعجل من ذلك بما يُرغب في عاجله ، وما يغري قليله المعجّل بكثرة الموعود ، حتى اشترى ضمائر هؤلاء السراة والرؤساء وأفسدهم على إمامهم ، وجعلهم بالقياس إليه منافقين ،

يُعطونه الطاعة بأطراف ألسنتهم ، ويطوون قلوبهم على المعصية والخذلان ، ويذيعون ذلك فيمن وراءهم من الناس .

ولم يكن عليّ يستبيح لنفسه مكراً ولا كيداً ولا دهاء . كان يؤثر الدين الخالص على هذا كله ، وكان يحتمل الحق مهما تثقل مؤونته ، ولا يعطي في غير موضع العطاء ، ولا يشتري الطاعة بالمال . ولا يحب أن يقيم أمر المسلمين على الرشوة . ولو شاء عليّ لمكر وكاد ، ولكنه آثر دينه وأبى إلا أن يمضي في طريقه إلى مثله العليا من الصراحة والحق والإخلاص والنصح لله والمسلمين ، عن رضى واستقامة لا عن كيد والتواء .

وقد جعل يدعو الناس بين حين وحين ، يرفق بهم كثيراً ويعنف عليهم أحياناً ، حتى قال لهم ذات يوم : « أيها الناس المجتمعة آباؤهم ، المختلفة قلوبهم وأهواؤهم . ما عزّت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم . كلامكم يوهي الصمّ الصلاب . وفعلكم يُطمع فيكم عدوكم . إذا دعوتكم إلى الجهاد قلتم كيت كيت ، وذيت ذيت ، أعاليل بأباطيل وسألتموني التأخير ، فعل ذي الدّين المطول ، حِيدي حيَاد. لا يدفع الضيم الذليل ، ولا يُدرك الحق إلا بالجد والعزم واستشعار الصبر . أي دار بعد داركم تمنعون؟ ومع أي إمام بعدي تقاتلون . المغرور والله من غررتموه . ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب . أصبحت لا أطمع في نصركم ولا أصدق قولكم . فرّق الله بيني وبينكم ، أبدلني بكم من هو خير لي منكم . أما إنكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً ، وسيفاً قاطعاً ، وأثرة يتخذها الظالم فيكم ، سنة ، فيفرّق جماعتكم ، ويُبكي عيونكم ، ويدخل الفقر بيوتكم ، وتتمنون عن قليل أنكم رأيتموني فنصرتموني . فستعلمون حق ما أقول . ولا يبعد الله إلا من ظلم » .

ولكنهم سمعوا منه وتفرقوا عنه ولم يصنعوا شيئاً حتى أيأسوه من أنفسهم ، وحتى روى بعض الرواة عمن رآه ، وقد رفع المصحف حتى وضعه على رأسه ثم قال : « اللهم إني سألتهم ما فيه فمنعوني ذلك . اللهم إني قد مللتهم وملوني . وأبغضتهم وأبغضوني . وحملوني على غير خُلقي وعلى أخلاق لم تكن تُعرف لي . فأبدلني بهم خيراً لي منهم ، وأبدلهم بي شرّاً مني ، ومِث قلوبهم مَيْث الملح في الماء » .

وقد كانت حياة عليّ بعد النهراوان محنة متصلة ، محنة شاقة إلى أقصى حدود المشقة ، كان يرى الحق واضحاً مضيئاً صريحاً له كما تضيء الشمس ، وكان يرى في أصحابه من القوة والبأس ومن العدد والعُدة ما يمكنه من بلوغ هذا الحق وإعلاء كلمته ، ولكنه كان يرى أصحابه قاعدين عن حقهم متخاذلين عن نصره . يُدعون فلا يجيبون ،

ويؤمرون فلا يطيعون ، ويوعظون فلا يتعظون . قد احبوا الحياة وكرهوا الموت ، وآثروا العافية وضاقوا بالحرب ، واستلذوا الراحة وسئموا التعب ، حتى اخذ معاوية ينتقص أطرافهم في العراق ، ويُغير على الأقاليم خارج العراق ، وعليّ يدعو فلا يُجاب ، ويأمر فلا يُطاع ، ويقول فلا يسمع له إلا قليلٌ من أصحابه لا يكادون يغنون عنه شيئاً .

وقد كان يرى انه احق الناس بالخلافة منذ وفاة النبي ، ولكنه صبر حين صُرفت عنه إلى الخلفاء الذين سبقوه . فلما جاءته الخلافة لم تجئه صفواً ولا عفواً ، وإنما جاءته بعد فتنة منكرة وكلفته وكلفت أصحابه معه أهوالاً ثقالاً ، ثم أسلمته بعد ذلك الى هذا الموقف البغيض إلى كل نفس أبيّة ، وإلى كل مؤمن صادق الإيمان . موقف الإمام الذي لا يُطاع ، والذي يريد الحق فلا يبلغه ، لا لضعف فيه ولا لقلة في أصحابه ولا لوهن في أداته ، بل لأن اصحابه لا يريدون ان يطيعوه ولا ان ينصروه ، بعد ان جربوا الطاعة والحرب ، فلم يجنوا منها إلا تقطيع الأرحام وقتل الصديق واحتمال المشقة والتعرض للهلكة في غير غنيمة . فآثروا الدعة واطمأنوا اليها . ثم لم يؤثروا الدعة وحدها وإنما فرغوا لأنواع الجدال العقيم ، يُنفقون فيه اوقاتهم وجهودهم ، حتى جاءه نفر منهم ذات يوم يسألونه عن رأيه في ابي بكر رضي الله عنه . يسألونه عن ذلك وقد جاءته من احدى نواحيه انباء ثقال ملأت قلبه حزناً وغيظاً . فقال لهم محزوناً : « أوَقد فرغتم لذلك ، وهذه مصر قد فتحها اهل الشام وقتلوا واليها محمد بن أبي بكر ؟ » .

٣٩

ثم لم تقف محنته في أصحابه عند هذا الحد ، ولكنها تجاوزته الى شر منه وأقسى ، فقد استبان له بعد قليل ان انتصاره في النّهْروان لم يُغن عنه شيئاً ، على ما كلّفه من مشقة وما أعقب في نفسه وفي نفوس أصحابه من حزن وحسرة ، فهو لم يقتل الخوارج في النهروان وإنما قتل منهم جماعة ليس غير ، وقد ظل الخوارج معه بعد ذلك يعايشونه في الكوفة ، ويعايشون عامله في البصرة ، وينبثون في أطراف السواد بين المصريين .

كانوا يعيشون موتورين لا ينسون ثأر إخوانهم الذين صرعوا في النهروان ، محتفظين

بآرائهم كلها لم تغيّر الهزيمة منها شيئاً ، وإنما زادتها قوة بعد قوة ، وأضافت اليها قوة اخرى منكرة فظيعة ، تأتي من البغض والحقد والحرص على طلب الثأر .

وقد رسمت الظروف لهؤلاء الخوارج خطة محتومة لم ينحرفوا عنها قط أثناء تاريخهم الطويل ، وهي أن يكيدوا للامام ويمكروا به ويخذلوا عنه ويحرضوا عليه ، ويدعوا الى مذهبهم حين لا تؤاتيهم القوة ولا يُسعفهم البأس . فإذا كثر عـــددهم واستطاعوا مكابرة السلطان خرجوا من أمصارهم مستخفين او ظاهرين ثم ابتعدوا مكاناً يلتقون فيه ، فإذا التقوا أظهروا المعصية وسلّوا السيف .

فقد عاش الخوارج إذاً مع عليّ في الكوفة يدبرون له الكيد ويتربصون به الدوائر ويصرفون عنه قلوب الناس وعقولهم . يشهدون صلاته ويسمعون خطبه وأحاديثه ، وربما عارضه منهم المعارض فقطع عليه الخطبة او الحديث . وهم على ذلك مطمئنون الى عدله ، آمنون من بطشه ، مستيقنون انه لن يبسط عليهـــم يداً ولن يكشف لهم صفحة حتى يبادوه . وهم يأخذون نصيبهم من الفيء وحظوظهم من المال الذي يقسم بين حين وحين ، فيتقوون به على الحرب ويستعدون به للقتال .

وكان عليّ قد أخذ على نفسه بألا يعرض لهم بشرّ حتى يبتدئوه ، وأعلن اليهم ذلك والى الناس . فأطمعهم عدله وإسماحه فيه ، وأغراهم لينه وبرّه بهم . وكان يعلم منهم ذلك حق العلم . وقـــد استقر في نفسه أنهم قاتلوه حتى لقد كان كثيراً ما يقول : « لتخضبن هذه من هذه » يشير الى لحيته ويشير الى جبهته .

وكان قد ألقي إليه من النبي ﷺ فيما يظهر بأنه سيموت مقتولاً ، وأن قاتله أشقى هذه الأمة . فكان كثيراً مايقول في خطبه حين يشتد سأمه لأصحابه وضيقه بعصيانهم ما يؤخر أشقاها ؟

ولم يكن الخوارج يتحرّجون من الجهر بآرائهم بين حين وحين ، حتى جاءه أحدهم ذات يوم وهو الخريّت بن راشد السامي ، من ولد سامة بن لؤي ، ذات يوم فقال له : والله لا أطعت أمرك ولا صليت خلفك . فقال له عليّ : ثكلتك أمك ، إذاً تعصي ربك ، وتنكث عهدك ، ولا تضرّ إلا نفسك . ولم تفعل ذلك ؟ قـال : « لأنك حكمت في الكتاب وضعفت عن الحق حين جد الجد ، وركنت الى القوم الذين ظلموا انفسهم ؟ فأنا عليك زار وعليهم ناقم » .

فلم يغضب علي لذلك ولم يبطش به ، إنما دعاه الى أن يناظره ويبين له وجه الحق لعله أن يثوب اليه . فقال له الخريّت : أعود اليك غداً . فقبل منه علي وخلّى بينه

وبين حريثه ، لم يرتهنه في سجن حتى ينظره فيسمع منه ويقول له ، وإنما ترك له الطريق . فانصرف الرجل الى قومه من بني ناجية ، وكان فيهم مطاعناً ، شهد بهم يوم الجمل وصفين ، فأخبرهم بما كان بينه وبين علي ، ثم خرج بهم في ظلمة الليل من الكوفة يريد الحرب . ولقي الخريت وأصحابه في طريقهم رجلين سألوهما عن دينهما، وكان احدهما يهودياً ، فلما أنبأهم بدينه خلوا سبيله لأنه ذمي ، واما الآخر فكان مسلماً من الموالي ، فلما أنبأهم بدينه سألوه عن رأيه في علي فقال خيراً . فوثبوا عليه فقتلوه . وأنبأ اليهودي بما رأى عاملاً من عمال علي على السواد . فكتب العامل الى علي . وأرسل علي جيشاً لتتبع هؤلاء القوم وردهم الى الطاعة ومناجزتهم إن أبوا.

وكانت بين القائد وبين الخريت مناظرة لم تجد شيئاً. فطلب اليه القائد ان يسلموا اليه قتلة ذلك المسلم . فأبى الخريت . وكان بينهم قتال شديد لم يبلغ فيه احد من صاحبه شيئاً . ثم تحاجز القوم آخر النهار وهرب الخريت باصحابه نحو البصرة .

وأرسل عليّ جيشاً آخر أعظم قوة وأكثر عدداً ، وأمره بتعقب هؤلاء القوم . وكتب إلى عبد الله بن عباس عامله على البصرة أن يمد هذا الجيش ، ففعل . والتقى الفريقان ، فاقتتلوا أشد قتال وظهر الضعف في أصحاب الخريت . ولكنه استطاع في هذه المرة أيضاً أن يهرب بأصحابه تحت الليل .

ولم يلبث أمر هذا الرجل أن استبان وظهر أنه لم يخرج غضباً للحق ولا إنكاراً للحكومة ، وإنما كان مغامراً يوهم الخوارج أنه معهم ، ويوهم العثمانية أنه يطلب بدم عثمان . وقد جعلت أخلاط كثيرة من الناس تنضم إليه ، وجعل يمضي في طريقه على ساحل البحر ، لا يكاد يتقدم إلا انضم إليه من الأخلاط والعلوج طوائف، حتى كثف جيشه وعظم أمره . وتبعه قوم من النصارى . فمنهم من كان أسلم فعاد إلى نصرانيته . ومنهم من ظل على دينه ولكنه أراد أن يتخلص من أداء الجزية وجعل جيش عليّ يتبع الخريت وأصحابه حتى أظلهم ذات يوم . وكانت بينه وبينهم موقعة قتل فيها الخريت وأخذ قائد عليّ مَن بقي من أصحابه أسرى . فمن كان منهم مسلماً مَنّ عليه . ومن كان منه قد ارتد استتابه ، فإن أسلم منّ عليه أيضاً ، وإن لم يسلم أخذه أسيراً سبيا .

وكتب بذلك إلى عليّ ، وعاد بأصحابه وأسراه نحو الكوفة. وكان هؤلاء الأسرى خمسمائة ، فمروا بخطة من خطط فارس عليها عامل لعليّ هو مَصقلة بن هُبيرة الشيباني. فجعل الأسرى يتصايحون بالدعاء لمصقلة والاستغاثة به واستعانته على تخليصهم

من أُسرهم . وكانت كثرتهم من قومه بكر بن وائل فاشتراهم مصقلة من قائـــد عليّ وأعتقهم ولكنه التوى بما شرطه على نفســه من ثمنهم .

وانتهى الجيش إلى الكوفة ، وعرف عليّ قصـــة مصقلة مع الأسرى . فأثنى على القائد وصوب رأيه ، وانتظر أن يرسل مصقلة ما عليه من دَيْن . فلما أبطـــأ طالبه وألحّ في مطالبته وإنذاره ، ثم أرسل إليه من يتقاضى منه المال ، فإن التوى به حمله إلى أمير البصرة ابن عباس .

وكان أمر مصقلة هـــذا من أوضح الأدلّة وأقواها على طبيعة الطاعة التي كان كثير من أشراف أهل العراق يبذلونها لعليّ ، فقد التوى بدَيْنه وحُمل إلى ابن عباس ، فلما طالبه ابن عباس بأداء الدين قال : « لو قد طلبت أكثر من هذا المال الى ابن عفان ما منعني اياه » . ثم احتال حتى هرب من البصرة ولحق بمعاوية . فتلقاه معاوية أحسن لقاء وأطعمه وأرضاه حتى طمع مصقلة في أن يحمل أخاه نعيم بن هُبيرة على أن يلحق به . كتب اليه في ذلك مع رجل من نصارى تغلب يقال له حُلْوان . ولكن هـــذا النصرانيّ لم يكد يبلغ الكوفة حتى عرف عليّ أمره وعرف أنـــه لا يبلغ الرسالة فحسب ، وانمـــا يتجسس أيضاً . فقطع يده ومات الرجل في اثر ذلك . فقال نعيم يخاطب أخاه :

لا تــأمننّ هداك الله عـــن ثقةٍ ... رَيْبَ الزمان ولا تبعث كحُلْوانا
ماذا أردت إلى إرساله سَفَهـــاً ... ترجو سِقاطَ امرىءٍ ما كان خَوّانا
عرضتَه لعليّ انـــه أسدٌ ... يمشي العَرَضْنَة من آساد خفانا
قد كنتَ في مَنظرٍ عن ذا ومُستمعٍ ... تأوي العراق وتُدعى خيرَ شيبانا
لو كنتَ أدّيت مالَ القوم مُصطبراً ... للحق أحييتَ بالإفضـــال مَوتانا
لكنْ لحقت بأهـــل الشام مُلتمساً ... فضلَ ابن هِنـد وذاك الرأي أشجانا
فالآن تُكثر قَرْعَ السنّ من ندمٍ ... وما تقول وقـــد كان الذي كانا
وظلتَ تُبغِضك الأحياء قاطبــةً ... لم يرفـــع الله بالبَغْضاء إنسانا

فلم تكن طاعةُ مَصْقَلة إذاً لعليّ طاعة الرجل الذي يَصْدر في كل ما يأتي عـــن معرفة الحق والإيمان به والقيام دونه والصبر على ما يكون من نتائج هذا كله ، وإنما كانت طاعته طاعة رجل من الناس لخليفة من الخلفاء ، رجـــل يؤثر العافية ويلتهز الفرصة ويبتغي لنفسه الخير مهما يكن مصدره، يعنيه أمر نفســه قبل أن يعنيه أيّ شيء آخر . ولم يكن مصقلة فَذّاً في ذلك ، وإنما كان له أشباه من أشراف الناس فضلاً عن

عامتهم في الكوفة والبصرة جميعاً .

فهو يشتري الأسرى ويُعتقهم لا يبتغي ثواب الله ولا يبتغي حسن الأحدوثة ، وإنما يستجيب للعصبيّة وحدَها ويتخذ المكر بالسلطان وسيلة الى إرضائها . فاذا عرف السلطان مكره وطالبه بالحق لم يصطبر له ولم يؤدّ منه ما لزمه ، وإنما فرّ الى الذين يحاربون الخليفة ويكيدون له فأصبح عدوّاً بعد أن كان وليّاً . ولم يكن لقاء معاوية له وترحيبه به وإيثاره إيّاه بالمعروف خيراً من التوائه هو بالدين وفراره هو الى الشام ، وانما كان كيداً من الكيد ، ومكراً من المكر ، ومكافأة على ما لا يَحسُن أن يكافأ عليه المسلم الصدوق . إنما كان ذلك يَحسُن لو قد فرّ إلى معاوية رجل من الروم ليكيد معه لقيصر ويُعينه على غزو العدو ، فأما أن يُؤوي من كاد لإمامه لا بشيء ، ونكث عهده لا لشيء ، الا لأنه قد يُعينه على افساد امر العراق ، فهذا هو الذي يُبين وجهاً خطيراً من وجوه السياسة التي أراد معاوية ان يُقيم عليها أمر السلطان الجديد، سياسة الدنيا بأعراضها وأغراضها ، وبمنافعها ومآربها ، وبأهوائها وشهواتها .

وهنا يظهر الفرق واضحاً بين مذهب علي في السياسة التي تُخلص للدين ، ومذهب معاوية في السياسة التي تخلص للدنيا .

أما علي فلم يزد حين بلغه فِرَار مَصقلة على أن قال : « ما له قاتله الله فعَل فِعْل السيد وفرّ فرار العبد » . ثم امر بدار مصقلة فهدمت .

- ٣٠ -

ومضى امتحان علي على هذا النحو المُرّ خيانةً من الوليّ وكيداً من العدو . وهو بين ذلك كله مصمم على خطته الواضحة لا يرضى الدّنيّة من الأمر ولا يُدهن في دينه، ولا يتحوّل عن سياسته الصريحة قليلاً ولا كثيراً . والمِحَنُ تتابع عليه ويقفو بعضها إثر بعض ، وهو ماض في طريقه لا ينحرف عنه إلى يمين او الى شمال . يبلغ منه الغيظ أقصاه ، ويضيق بحياته اشد الضيق ، فلا يزيد على ان يجمجم ويُظهر غيظه دون ان يلفِتَه شيء من ذلك عمّا صمّم عليه .

ولم يكد يفرغ من إمر النّهروان حتى امتُحن في دولته نفسها، فقد اخذ معاوية

يغير على اقطارها وينتقص أطرافها . وقد اطاعه اهل الشام مخلصين في الطاعة ، لا يناقشونه اذا امرهم ويقبلون عليه اذا دعاهم . وكانت نفسه قد تعلقت بمصر منذ نهض علي بالخلافة ، لقربها منه وبعدها من علي ، ولأن الثائرين من اهلها كانوا اشد اهل الأقاليم على عثمان وأسرعهم الى الفتك به وقد هم معاوية ان يصل بالكيد الى ما أراد من مصر ، وكأنه قد بلغ بكيده ما أحب بعد خطوب طوال ثقال .

كان عليٌ قد ولّى قيسَ بن سعد بن عبادة الأنصاريَ الخزرجيَّ أمرَ مصر ، وكان لهذا الأمر كُفئاً ولهذا العبء حاملا . قدِمَ مصر وقرأ على أهلها عهد علي ، فقام الناس إليه فبايعوا لعلي واستقام له الأمر . إلا أن فريقاً منهم اعتزلوا وكتبوا إلى قيس أنهم لا يريدون أن يَنصبوا له حرباً ولا ان يمنعوه خراجاً ، ولكنهم ينتظرون بالبيعة حتى يَرَوْا ما يصير إليه أمر الناس . فوادعهم قيسٌ ولم يَهِجهم . ثم كتب اليه معاوية وعمرو بن العاص يستميلانه اليهما . فرد عليهما رداً رفيقاً لم يُيئسهما من نفسه ولم يُطمعهما فيها ، وإنما أراد ان يتقي شرَّهما ويأمن مكرهما في إقليمه هذا البعيد من مركز الخلافة . ولكن معاوية لم يرض منه بذلك وإنما كتب اليه ، وكتب ليعرف الصريح من رأيه وليتبين أصديق هو أم عدو . فلما استيأس منه فسد الأمر بينهما حتى كتب اليه يسبُّه ، ويدعوه اليهوديَّ ابن اليهودي . فرد عليه قيس سبّاً بسب ، ودعاه الوثنيَّ ابن الوثنيَّ ، ووصفه وأباه بأنهما دخلا في الإسلام كارهَيْن وخرجا منه طائعين .

فعرف معاوية أن أمر قيس لن يستقيم له بالكيد الرقيق ولا بالنذير العنيف . فلم يَكِدْ له في مصر وإنما كاد له في العراق . كتب على لسانه كتاباً أظهر فيه انحرافه عن علي وغضبَه لعثمان ومطالبته بدم الخليفة المظلوم. ودسَّ الكتاب الى اهل الكوفة. فأما علي فلم يصدّق ما جاء في الكتاب ولم يزد على أن قال لأصحابه : إني أعلم بقيس منكم ، وإنما هي فَعْلَة من فَعَلاته . ولكن أصحابه صدّقوا وثاروا وألحوا في عزل قيس . وتريث علي مع ذلك وكتب الى قيس يأمره أن يناجز القوم الذين اعتزلوا ، ولا يقبل منهم إلا البيعة . فأجابه قيس متعجباً من إسراعه الى حرب هؤلاء القوم الوادعين ، طالباً اليه ان يُخلّي بينه وبين إقليمه يدبّره كما يرى لأنه قريب وعليٌّ بعيد ، ولأنه يخشى إن هاج هؤلاء الناس ان يفسد عليه الأمر ، وأن يجدوا من قومهم مَن ينصرهم ، وان يستعينوا معاوية فيُعينهم .

ولم يشكَّ أهلُ الكوفة بعد أن عرفوا ذلك من أمر قيس في انه قد اضمر الشر

وخالف عن أمر إمامه . فألحوا في عزله ، وما زالوا يلحون حتى عزله علي وولّى مكانه محمد بن أبي بكر .

وكان الفرق بين محمد بن أبي بكر وبين قيس بن سعد ان محمداً كان شاباً حدثاً ، وان قيساً كان رجلاً قد جرّب الأمور وبَلاَ حُلْوَ الدهر ومُرَّه ؛ وان محمداً كان قد شارك في امر عثمان ، وان قيساً لم يكن قد شارك فيه ؛ وان محمداً كان رجلاً تستخفه الحرب ولا يستجيب الا لعواطف نفسه وشبابه ، وان قيساً كان رجلاً يؤثر الأناة ويزن الأمور ولا يحب الحرب الا حين لا يكون منها بُدّ .

فلما وصل محمد بن أبي بكر إلى مصر رحل عنها قيسٌ الى المدينة ، فلم يُقم فيها إلا قليلاً ، ثم قدم على علي فشهد معه صِفين ونصح له في الحضر والمغيب . ودعا محمد ابن ابي بكر أولئك المعتزلة الى الطاعة ، فلما أبوا عليه اخذ في حربهم ، فأرسل اليهم جنداً لم يلبث ان انهزم ، وأرسل اليهم جيشاً آخر لم يلبث ان انهزم أيضاً. وثار لهؤلاء الناس قومٌ من أنصارهم . وظهرت الدعوة للثأر بعثمان في مصر ، واضطرب أمر الإقليم. وعرف عليٌ ذلك فولّى الأشتر النَّخَعي مصر وعزل عنها محمد بن أبي بكر. ولكن الأشتر لم يكن يصل الى القُلْزُم حتى مات . وأكثر المؤرخين يتحدثون بأن معاوية أغوى صاحب الخراج في القُلْزُم وحَطَّ عنه الخراج ما بقي ان احتال في موت الأشتر . وبأن هذا الرجل دسّ للأشتر سماً في شربة من عسل فقتله ليومه او لغده . وكان معاوية وعمر يتحدثان فيقولان : ان لله جنوداً من عَسَل .

ثم جهز معاوية جيشاً لغزو مصر وأمر عليه عمر بن العاص . واضطر علي الى ان يثبت محمد بن أبي بكر في ولايته ويأمره بالتحرز والاحتراس ويعده بارسال المال والجند . وجعل يدعو أهل الكوفة الى نصر اخوانهم في مصر ، فلم ينتدبوا لذلك . فلما اشتد عليهم في الإلحاح انتدب له جُنَيدٌ ضَئيل ، فأرسلهم علي الى مصر . ولكنه لم يلبث ان تلقى الأنباء بأن عمراً قد دخل مصر فاحتازها . وبأن محمد بن أبي بكر قد قُتل وحرقت جثته في النار .فرد جنده الضئيل وخطب اهل الكوفة لائماً مشتدّاً في اللوم كعادته . ولكن اهل الكوفة لم يزيدوا على أن سمعوا ثم تفرقوا .

ومنذ ذلك اليوم انقسمت الدولة الإسلامية شطرين : شطر المغرب ، وأمره إلى معاوية ، قوامه الشام ومصر وما فُتح على المسلمين من إفريقية وما وراء ذلك من أرض كانت تنتظر الفتح ؛ وشطر المشرق ، وأمره إلى علِيّ ، وقوامه العراق وما فُتح على الفرس وجزيرة العرب . على ان معاوية لم يقنع بما احتاز من هذا المغرب ،

وإنما أطمعه انتصاره ، واجتماع أصحابه عليه ، وطاعتهم له ، وكيده لعليّ في العراق ، ونجحه فيما كان يحاول من استهواء أصحاب عليّ ، فلم يلبث أن فكّر ثم حاول فلم يخطئه النجح فيما فكّر ولا فيما حاول ، ولم يفكّر في أقل من أن يغزو أهل العراق في عقر دارهم ، ولم يحاول أقل من أن يشيع الذعر والهلع فيما بقي لعليّ من الأرض .

- ٣١ -

وفي أثناء هذا كلّه أضاف أقربُ الناس الى علي وآثرُهم عنده محنةً الى محنه الكثيرة ، وهو ابن عمه وعامله على البصرة عبد الله بن عباس صاحبُ رأي علي ، وأعرف الناس بدخيلة أمره ، وأقدرهم على نصحه ونصره ، وأجدرهم أن يعينه ويُخلص له حين تتنكر له الدنيا ويمكر به العدو ويلتوي عليه الصديق .

ولم يقصّر عليّ في ذات ابن عمه ، لم يُخفِ عليه من أمره شيئاً ، ولم يحتجز عنه سرّاً من أسراره ، وإنما كان يراه وزيراً طبيعياً له . أقام هو في الكوفة وولّى وزيرَه وابن عمه البصرة ، وهي أعظم أمصاره وأجلّها خطراً . وكان عليّ ينتظر أن يُمتحن في الناس جميعاً الا في ابن عمّه هذا وفي بنيه .

وكان لابن عبّاس من العلم بأمور الدين والدنيا، ومن المكانة في بني هاشم خاصة وفي قريش عامة وفي نفوس المسلمين جميعاً ، ما كان خليقاً أن يعصمه من الانحراف عن ابن عمّه ، مهما تعظم الكوارث ومهما تدلهمّ الخطوب . ولكنه فيما يظهر عاد من صفّين منكسر النفس بعد ما رأى من ظهور معاوية بالكيد والمكر وطاعة أهل الشام ، ومن تفرّق أصحاب علي على إمامهم ، وانحراف كثير منهم عنه إلى الحرب الخفية ، وانحراف كثير منهم عنه إلى الحرب الظاهرة . ثم شهد أمر الحكمين فرأى تخاذل أهل العراق وتظاهر أهل الشام ، وعاد وقد استيقن أن الدنيا قد أدبرت عن ابن عمه، وأن الأيام قد تنكّرت له ، وأن الأمور تريد أن تستقيم لمعاوية . ورأى أن ابن عمه، على ذلك كلّه ماضٍ في طريقه المستقيمة لا يعوجّ ولا يلتوي ، ولا يحب اعوجاجاً ولا التواء من أحد ، وإنما يُجري سياسته سمحة هيّنة ، ويسير سيرة عمر بالرفق بالمسلمين والعطف عليهم ، ولكنه لا يشتدّ شدة عمر ولا يعنفُ بالناس ، وإنما يحارب مَن حاربه في غير هوادة ، ويُسالم من سالمه في غير احتياط ، لا يعاقب على الكيد ولا

يأخذ بالظنة ، ولا يُبادي الناس بالشر حتى يُبادوه .

وقد رأينا أن ابن عبّاس لم يَقْدم على عليّ حين أراد الشخوص إلى الشام ، ولم يشهد معه النهْروان ، وإنما أقام بالبصرة وسرّح الجند إلى عليّ كأنه قد ضاق بهذه الحرب التي لا تغني ، فقعد عنها وانتظر عاقبتها . ثم لم يلبث أن رأى عاقبتها شرّاً وفرقة وتخاذلاً ، فقد أوقع عليّ بالخوارج فلم يزد على أن قتل جماعة من أصحابه . ثم لم يمض إلى الشام بعد ذلك وإنما عاد إلى الكوفة ، ثم لم يستطع أن يخرج منها بعد أن عاد إليها . رأى ابن عبّاس نَجْم ابن عمه في أفول ونجم معاوية في صعود ، فأقام في البصرة يفكر في نفسه أكثر مما يفكّر في ابن عمه وفي هذه الخطوب التي كانت تزدحم عليه ، وكأنه آثر نفسه بشيء من الخير وسار في بيت المال سيرةً تخالف المألوف من أمر عليّ ومِن أمره هو ، حين كانت الأيام مقبلة على ابن عمه وعليه . وكأنه آنس من صاحب بيت المال في البصرة ، وهو أبو الأسود الدُؤلي شيئاً من النكير ، فأغلظ له في القول ذات يوم .

وضاق أبو الأسود بما رأى وما سمع . فكتب إلى عليّ : « أما بعد . فإن الله جعلك والياً مؤتمناً وراعياً مسؤولاً وقد بلوناك فوجدناك عظيم الأمانة ناصحاً للرعية توفّر لهم وتَظْلِف نفسك عن دنياهم ، فلا تأكل أموالهم ولا ترتشي في أحكامهم . وإن عاملك وابن عمك قد أكل ما تحت يده بغير علمك ، ولا يسعني كتمانُك ذلك . فانظر رحمك الله فيما قِبَلنا من أمرك واكتب إليّ برأيك إن شاء الله . والسلام » .

وليس من شك أن هذا الكتاب قد روّع عليّاً وأضاف همّاً عظيماً إلى همومه العظام ، وحزناً ثقيلاً إلى أحزانه اللاذعة المُمضّة . ولكنه صَبّر نفسه على ما تكره كما تعوّد أن يفعل دائماً . وكتب إلى أبي الأسود : « أما بعد فقد فهمت كتابك . ومِثلُك نصح للإمام والأمة ، ووالَى على الحق وفارق الجور . وقد كتبتُ إلى صاحبك فيما كتبتَ إليّ فيه من أمره ولم أعلمه بكتابك إليّ فيه . فلا تَدَعْ إعلامي ما يكون بحضرتك مما النظرُ فيه لِلأمة صلاح ، فإنك بذلك محقوق ، وهو عليك واجب . والسلام » .

وكتب في الوقت نفسه إلى ابن عباس : « أما بعد . فقد بلغني عنك أمر إن كنتَ فعلته فقد أسخطت ربك وأخربت أمانتك وعصيت إمامك وخُنْت المسلمين : بلغني أنك جرّدت الأرض وأكلت ما تحت يديك . فارفع إليّ حسابك واعلم أن حساب الله أشد من حساب الناس » .

وليس غريباً من عليّ أن يُشجّع أبا الأسود على أن ينبّه بحقائق مـا يكون بحضرته ، وأن يرضى منه ما فعل حين كتب إليه من أمر ابن عمه بما كتب . فقد كان عليّ في أمر المال والعمّال متحرّجاً أشد التحرّج ، أمره في ذلك كأمر عمر . وكان أحرص الناس على ألاّ يخفى عليه شيء من أمر عمّاله ، كما سترى في غير هذا الموضع .

وليس غريباً كذلك ان يكتب الى ابن عباس بما كتب ، فهو لم يتعوّد الرفق في أمر المال ولا الادهان في امر من امور المسلمين . ولكن الغريب هو ان يتلقّى ابن عباس هذا الكتاب فلا يزيد على ان يكتب الى عليّ : « اما بعد . فإن الذي بلغك باطل ، وانا لما تحت يدي اضبط واحفظ ، فلا تُصدق عليّ الأظِنّاء ، رحمك الله . والسلام » .

كتاب لا يبرىء صاحبه ولا يُرضي قارئه ، وانما يدل على غلوّ في الثقة بالنفس واستخفاف بغيره من الناس . وابن عباس بعد ذلك قد صحب عُمر وعرف سيرته وتشدّده في حساب العمّال ، وهو قد صحب ابن عمه وعرف انه لا يرقّ في امر المال ولا يلين . ومن اجل ذلك لم يقنع علي بهذا الكتاب الذي لا يغني عنه ولا عن صاحبه شيئاً .

فكتب الى ابن عباس يتشدّد في مطالبته برفع حسابه إليه مفصّلاً ما يريد من ذلك :

« اما بعد . فإنه لا يسعني تركُك حتى تعلمني ما اخذت من الجزية ومن اين اخذته وفيما وضعت ما انفقت منه . فاتق الله فيما ائتمنتك عليه واسترعيتك حفظه ؛ فإن المتاع بما انت رازىء منه قليل ، وتبعة ذلك شديدة . والسلام » .

والغريب ان ابن عباس تلقى هذا الكتاب فلم يكد يقرؤه حتى خرج عن طوْره فلم يصنع صنيع العامل الذي يرفع الى امير المؤمنين حساب ما كُلّف حفظه وضبطه من اموال المسلمين ، ولم يصنع صنيع ابن العم الذي يرعى لابن عمّه حق القرابة وإخاء الصديق ، ولم يصنع صنيع الراعي الذي يعرف للإمام حقه في ان يستقصي امر ما اؤتمن عليه من اموال الأمة ومصالحها ، فيُعينه على ما يريد من ذلك ، ويذكّره به إن نسيه ، ويعظه فيه إن قصّر في ذاته .

لم يصنع صنيع احد من هؤلاء ، وانما جعل نفسه نِدّاً لإمامه وكفئاً لخليفته ، ورأى انه اكبر من ان يسأله إمامه عن شيء او يحاسبه في شيء ، فضلاً عن ان يتهمه

أو يتظنن فيه . وابن عباس كان اعلم الناس بأن سنة الشيخين قد جرت على ان يكون لكل مسلم الحق في ان يحاسب الإمام ويسأله عما يأتي وما يدع وجرت كذلك على ان من حق الإمام ، بل من الحق عليه ، ان يحاسب الولاة والعمال عن كل ما يأتون ويدعون ، وان يشتد في ذلك ليعصم عماله وولاته من التقصير ، وليجعلهم بأمن من ان يسوء بهم ظن الرعية ويفسد فيهم رأي الضعفاء الذين لا يستطيعون ان ينقوا ظلمهم او يأمنوا غوائلهم إذا خلي بينهم وبين السلطان يصرفونه كما يحبون .

وكان ابن عباس يعلم حق العلم ان سنة عمر جرت على ان يسمع من الرعية كل ما يعيبون على ولاتهم وعمالهم بمشهد من هؤلاء الولاة والعمال او بمغيب منهم ، وكان يحقق كل ما يرفع اليه من ذلك تحرياً للعدل وإبراء لذمته أمام الله والناس . وكان يعلم ان عمر كثيراً ما قاسم الولاة أموالهم بعد اعتزالهم عمله ، وأنه كان يحصي عليهم أموالهم حين يوليهم ويحصيها عليهم بعد ان يعزلهم . وكانوا يقبلون منه ذلك في غير إنكار له او ضيق به او إكبار لأنفسهم عنه . وكان فيهم نفر من خيرة أصحاب النبي . ثم كان ابن عباس يعلم ان كثيراً من المسلمين ، وعسى ان يكون منهم ، وقد انكروا على عثمان إسرافه في الأموال العامة ، وانكروا على ولاته وعماله ما أظهروا من الأثرة وما تورطوا فيه من العبث بهذه الأموال العامة ، وان عثمان قتل في سبيل هذا كله ، وان ابن عمه إنما قام ليحيي سنة النبي والشيخين . فهو لم يتجاوز حده ولم يعد قدره حين طلب الى احد عماله ، وإن كان ابن عباس ، أن يقدم إليه حساب ما عنده من الأموال العامة .
وكان ابن عباس بعد هذا كله أعرف الناس بابن عمه وأقدرهم على ان يخاطبه الخطاب الذي يبلغ من نفسه الرضى ، دون أن يسوءه أو يحفظه أو يشق عليه . كان يستطيع أن يكتب إليه في رفق ليبين له أنه لم يأخذ من الجزية لنفسه شيئاً ، ولم يضع منها شيئاً في غير حقه . وكان يستطيع ان يلم به في الكوفة ويظهره على الجلي من أمره . ولكنه أعرض عن هذا كله وأنف أن يسير معه علي سيرته مع غيره من العمال ، فاعتزل عمله . ولكنه مع ذلك لم يستعف إمامه ، ولم ينتظر أن يعفيه ، وإنما اعفى نفسه وترك المصر . ثم لم يتركه ليعود الى الكوفة أو ليقيم في العراق ، أو في حيث يستطيع الإمام أن يأخذه بتقديم الحساب ويسأله عن عمله قبل ان يعتزله ، وانما ترك المصر ولحق بمكة حيث لا يبلغه سلطان الإمام ، وحيث لا يقدر الإمام على

أن ينهاه بالعقاب ، إن تبيّن استحقاقه للعقاب ، وانما اقام بالحرم آمناً بأس إمامه عليّ وبأس خصمه معاوية .

ثم لم يكتف بهذا الخطأ كله وانما صرح لابن عمه عما يؤذي نفسه ويترك في قلبه وضميره حزناً لاذعاً وألماً ممضاً ، فأعلن اليه انه يؤثر ان يلقى الله ، وفي ذمته شيء من اموال المسلمين ، على ان يلقى الله وفي ذمته تلك الدماء التي سفكت يوم الجمل ، والتي سفكت في صفّين ، والتي سفكت في النهروان. ثم يضيف إلى ذلك ما هو أمضّ منه واشد ايذاء ، فيزعم لابن عمه انه سفك ما سفك من دماء المسلمين في سبيل المُلك فهو اذاً لم يكن يعتقد ان علياً انما قاتل في سبيل الحق ، وقاتل قوماً كان يجب عليه ان يقاتلهم .

كتب هذا كله الى ابن عمه ولم ينس الا شيئاً يسيراً جداً خطيراً جداً ، وهو انه شارك ابن عمه في سفك هذه الدماء ، فشهد الجمل ، وشهد صفين . وقاد جيوش ابن عمه في هاتين الموقعتين فهو إذاً لن يلقى الله بما قد يكون في ذمته من أموال المسلمين فحسب ، ولكنه سيلقاه بما في ذمته من هذه الدماء التي شارك في سفكها ، مع الفرق بينه وبين عليّ ، لأن علياً سفكها وهو مؤمن بأنه يقاتل في سبيل الحق ، وهو سفكها وهو يعتقد انه يقاتل في سبيل المُلك .

ولذلك قرأ عليّ كتاب ابن عمه فلم يزد على ان قال هذه الجملة التي تصور الحزن اللاذع واليأس الممض من الصديق والعدو : « وابن عباس لم يشاركنا في سفك هذه الدماء ! » .

واقرأ كتاب ابن عباس الى ابن عمه وإمامه لترى مقدار ما فيه من الغلظة والقسوة، وجحود ما مضى من إخائه لعلي قبل الخلافة ونصحه له بعد الخلافة :

« اما بعد . فقد فهمت تعظيمك عليّ مَرْزِئة ما بلغك أني رزأته اهلَ هذه البلاد . ووالله لأن ألقى الله بما في بطن هذه الأرض من عِقيانها ولُجَينها وبطلاع ما على ظهرها ، أحبّ الي من ان القاه وقد سفكت دماء الأمة لأنال بذلك الملك والإمارة . فابعث الى عملك من احببت» . والى هنا جرت الأمور على نحو من المغاضبة بين الخليفة وبين عامله ، ثم بين رجل وابن عمه ، على نحو من العنف كان خليقاً أن يُجتنب لو ذكر ابن عباس سيرة الشيخين وسيرة عليّ ، ولو نسي ابن عباس نفسه قليلاً . ولكنه لم ينس نفسه قليلا ولا كثيراً، ولم يضعها بحيث كان يجب عليه ان يضعها منذ قبيل أن يكون والياً لعليّ على مصر من امصار المسلمين ، وبعد ان بايع علياً على

العمل بكتاب الله وسنة رسوله والعدل بين الرعية .

وأبو الأسود الدؤلي احد الرعية ، فمن حقه ان يخاصم الوالي عند الإمام : ثم هو أمين الإمام على بيت مال البصرة ، فمن الحق عليه أن يرفع اليه كل ما يَريبه من تصرفات الوالي فيما اؤتمن عليه من المال . ولكن ابن عباس لم يكتف بما بلغ من هذه المفاضبة ، ولا بما انتهى اليه من هذا التصرف الغريب ، بل أضاف اليه شراً عظيماً ، لم يَسُؤ به الإمام وحده وانما ساء به الرعية كلها وعامة أهل البصرة خاصة فهو قد أجمع الخروج إلى مكة ، ولكنه لم يخرج منها فارغ اليدين من المال كما دخلها حين ولي عليها ، وانما خرج منها وقد ملأ يديه بما كان في بيت المال مما يُنقل ، وهو يعلم ان ليس له في هذا المال حق الا مثل ما لأهل البصرة جميعاً فيه

وقد علم ان اهل البصرة لن يخلوا بينه وبين هذا المال الذي يريد أن يستأثر به من دونهم ، والذي يقدره المؤرخون بستة ملايين من الدراهم. فدعا اليه من كان في البصرة من اخواله بني هلال وطلب اليهم ان يجيروه حتى يبلغ مأمنه ، ففعلوا .

وخرج ابنُ عباس ومعه مال المسلمين يحميه اخواله من بني هلال . وثار أهل البصرة يريدون ان يستنقذوا منه ما أخذ . وكادت الفتنة تقع بين بني هلال الغاضبين لابن اختهم ، الذين ذكروا عصبية العرب القديمة وأزمعوا أن ينصروا جارهم ظالماً او مظلوماً ، وبين سائر العرب من أهل المصر الذين غضبوا لما لهم وابوا أن يغتصب وهم شهود . لولا أن تناهى حلماء الأزد وآثروا جيرانهم في الدار من بني هلال، وتبعتهم في ذلك حلماء ربيعة ، وتبعهم الأحنف بن قيس ومن معه من بني تميم . ولكن سائر تميم أزمعوا أن يقاتلوا على هذا المال حتى يستردوه . وبدأت المناوشة بينهم وبين بني هلال . وكادت الدماء تسفك بين الفريقين ، لولا أن رجع إليهم حلماء أهل البصرة ، فما زالوا ببني تميم حتى ردوهم الى المصر. ومضى ابن عباس آمناً يحميه أخواله ويحمون ما اخذ من المال حتى بلغ مأمنه في ظل البيت الحرام . ولم يكد يستقر بمكة حتى أقبل على شيء من الترف . واشترى ، فيما يروي المؤرخون، ثلاث جواري مولدات حُور بثلاثة آلاف دينار .

وعرف عليٌ ذلك فكتب اليه :

« أما بعد . فإني كنت أشركتك في أمانتي ، ولم يكن في أهل بيتي رجل أوثق منك في نفسي لمواساتي ومؤازرتي وأداء الأمانة إليّ . فلما رأيتَ الزمان على ابن عمك قد كلب ، والعدوّ عليه قد حرِب ، وأمانة الناس قد خربت ، وهذه الأمة قد

فتنت ، قلبت له ظهر المجن ، ففارقته مع القوم المفارقين ، وخذلته أسوأ خذلان الخاذلين ، وخنته مع الخائنين . فلا ابن عمك آسيت ، ولا الأمانة أديت ، كأنك لم تكن لله تريد بجهادك ! او كأنك لم تكن على بينة من ربك . وكأنك إنما كنت تكيد أمة محمد عن دنياهم او تطلب غرتهم عن فيئهم . فلما أمكنتك الغرة اسرعت العدوة ، وغلظت الوثبة ، وانتهزت الفرصة ، واختطفت ما قدرت عليه من اموالهم اختطاف الذئب الأزل دامية المعزى الهزيلة وظالعها الكبير . فحملت اموالهم الى الحجاز رحيب الصدر ، تحملها غير متأثم من أخذها ، كأنك ، لا أبا لغيرك ، إنما حزت لأهلك تراثك عن أبيك وأمك. سبحان الله ! أفما تؤمن بالمعاد ولا تخاف سوء الحساب؟ أما تعلم أنك تأكل حراماً وتشرب حراماً ؟ او ما يعظم عليك وعندك أنك تستثمن الإماء وتنكح النساء بأموال اليتامى والأرامل والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم البلاد ؟ فاتق الله ، وأد أموال القوم ، فإنك والله إلا تفعل ذلك ثم أمكنني الله منك لأعذرن الى الله فيك حتى آخذ الحق وأرده ، وأقمع الظالم وأنصف المظلوم . والسلام » .

ولست اعرف كلاماً أبلغ – في تصوير الحزن اللاذع ، والأسى الممض ، والغضب لحق الله واموال المسلمين ، في مرارة اليأس من الناس ، والشك في وفائهم للصديق ، وحفظهم للعهد ، وأدائهم للأمانة ، وقدرتهم على التزام الجادة ومعصية الهوى من هذا الكلام .

ولكن أنظر كيف رد ابن عباس على هذا الكتاب المر بهذه الكلمات ، التي إن صورت شيئاً فإنما تصور الإمعان في الثقة بالنفس والاستخفاف برأي غيره فيه :

« أما بعد . فقد بلغني كتابك تعظم علي إصابة المال الذي أصبته من مال البصرة . ولعمري إن حقي في بيت المال لأعظم مما أخذت منه . والسلام »

ولست في حاجة الى ان أطيل الوقوف عند هذا الكتاب الغريب الذي لا يثبت حقاً ولا يبرىء من تبعة ، وإنما أختم هذه المناقشة المؤلمة بين الرجلين برد علي على ابن عمه في هذا الكتاب الرائع :

« أما بعد . فإن من أعجب العجب تزيين نفسك لك أن لك في بيت مال المسلمين من الحق اكثر مما لرجل من المسلمين . ولقد أفلحت إن كان ادعاؤك ما لا يكون وتمنيك الباطل ينجيك من الإثم . عمرك الله ! إنك لأنت البعيد البعيد إذاً . وقد بلغني انك اتخذت مكة وطناً وصيرتها عطناً ، واشتريت مولدات المدينة والطائف تتخيرهن على عينك وتعطي فيهن مال غيرك . والله ما أحب أن يكون الذي اخذت

من أموالهم لي حلالاً ادعه ميراثاً ، فكيف لا اتعجب اغتباطك بأكله حراماً. فضحْ رويداً . فكأنك قد بلغت المدى . حيث ينـــادي المغتر بالحسرة ، ويتمنى المفرط التوبة ، والظالم الرجعة ، ولات حين مناص . والسلام » .

وبعض الرواة يزعمون ان عُمر همَّ أن يولي ابن عباس بعض اعماله ، , لكنه خاف منه وخاف عليه . خاف ان يتأول في أكل الفيء ، وخاف عليه أن يورطـــه ذلك في الإثم .

ويزعم هؤلاء الرواة انـ ابن عباس حين ولاه عليٌّ البصرة تأول فيما أباح لنفسه قول الله عزّ وجل : « واعلَموا أنَّ ما غَنِمتُم من شَيءٍ فانَّ لله خُمُسَه وللرّسَول ولذي القُربى واليَتامى والمساكــين وابن السَّبيل) . ومكان ابن عبَّاس من النبيّ قريب ، فله الحق في بعض هذا الخُمس الذي قسمه الله للرسول وأولي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . ولكن ابن عباس عندي اصح رأياً واعقل عقلا واعلم بدينه من هذا التأول . فهو كان يعلم من غير شك ان حقه في هذا الخمس لن يعدو أن يكون كحق غيره من ان أولي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وكان يعلم انــــه لا ينبغي له بل لا يحل له ان يأخذ حقَّه من هذا الخمس بنفسه . وإنما ينبغي أن يتلقاه من الإمام الذي نُصب ليقسم بـــين المسلمين فيئهم ، ويُنفق منه في مرافقهم ، وهو الذي يقسم بين أولي القربى واليتامى والمساكين حقهم من هذا الخمس .

ولو انـ غير ابن عباس من المسلمين عرف ان له حقاً في بيت المال فأخذه بنفسه، دون ان يعدوَه او يزيد فيه، لكان بذلك معتدياً على السلطان متجاوزاً للحد،ولكان من الحق على الإمام ان يُنزل به ما يستحق من العقاب .

وكان ابن عباس يعلم بعد هذا كله ان ابن عمّه الخليفة هو بحكم قرابتـــه وخلافته أجدر الناس أن يَخلُف رسول الله في توزيـــع الخمس على مستحقيه .

والغريب ان كثيراً من المحدثين أهملوا هذه القصة ولم يشيروا اليها تحرُجاً من ذكرها. فمكان ابن عباس من النبي ومكانه من الفقه بالدين اعظم من ان يظن به مثل هـــذا التجاوز للحق والخلاف على الإمام .

على ان رُواة آخرين يسرفون في هذه القصة نفسها بعض الإسراف ، فيزعمون أن ابن عباس رد على الكتاب الأخير لعلي قائلاً : « لئن لم تَدَعني من أساطيرك لأحملنَّ هذا المال الى معاوية يقاتلك به » . وما أحسب أن الأمر قد بلغ بابن عباس هـــذا الحد من التأليب الصريح على ابن عمه . على أن لهذه القصة نتائجها القريبة المباشرة ، التي كانت محنة لعليٍّ في أصحابه وفي سلطانه ايضاً .

وقد ظهرت هذه النتائج كأظهر ما كان يمكن أن تكون بشاعةً وشناعةً ونكراً. لم تمتحن علياً في أسرته وأصحابه وسلطانه ، وإنما امتحنت النظام السياسي الذي كان عليٌ يظن أنه نهض لصيانته وحياطته ، وهو نظام الخلافة . وامتحن الإسلام نفسه في أخصّ ما كان يحرص عليه النبي والخلفاء ، وهو محو العصبية التي ألفها العرب في عصرهم الجاهلي القديم . فقد رأى معاوية انتشار أمر علي في العراق وتفرق اصحابه وعجزهم ووهنهم وامتناعهم عليه . فلم يكد يفرغ من أمر مصر حتى طمع في اقليم آخر ليس اقل من مصر خطراً ، وهو اقليم البصرة وما يتبعها من بلاد الفرس . وقد ذكر معاوية أن العثمانية فاشية في البصرة ، وان اهلها قد ثاروا مع عائشة وصاحبيها للطلب بدم عثمان ، وأنهم لم ينسوا وقعة الجمل بعدُ ، وان لهم أوتاراً لم تشف كلومها بعد . ورأى ان ابن عباس قد ترك البصرة مغاضباً لابن عمه ، فطمع في أن يستفز أهلها ويذكرهم أوتارهم ويثيرهم للطلب بها .

واستشار في ذلك عمرو بن العاص فصوّب رأيه وحرّضه على إمضائه . فاختار رجلاً صليباً له رحم بعثمان ، وهو عبد الله بن عامر الحضرمي ، ابن خالة الخليفة المقتول . فأرسله الى البصرة وأوصاه ان يأتي بني تميم ويتحبب الى الأزد ويتجنب ربيعة ، لأنها علوية الهوى . ولم يكد عبد الله بن عامر الحضرميّ يصل الى البصرة حتى استهوى بني تميم ، إلا الأحنف بن قيس فانه عاد الى العزلة التي التزمها يوم الجمل مع جماعة من أصحابه .

وكان ابن عباس قد ترك البصرة لزياد ، فهمّ زياد ان يستجير ربيعة ، ولكنه رأى من بعض أشرافها تردُّداً واعتلالا ، فاستجار الأزد. واجاره هؤلاء على ان يترك دار الإمارة ويتحوّل الى رحالهم وينقل معه منبره وبيت المال ، ففعل . واصبحت البصرة وقد انقسم أهلها طوائف، طائفة مالت الى معاوية وقامت دون رسوله ابن الحضرميّ ، وطائفة اعتزلت الفتنة مع الأحنف بن قيس ، وطائفة جعلت تنتظر الأحداث وتترقّب الخطوب على شيء من الفرقة في صفوفها ، وهي ربيعة ، وطائفة اخرى لم تحفل بأمر علي ولا بأمر عثمان ومعاوية وانما حفلت بأمر أحسابها ،

وقامت دون جارها تحميه بعد ان لجأ الى دُورها . وعسى ان تكون قد وجدت على ابن الحضرميّ ، لأنه نزل في بني تميم واعتمد عليهم ، ولم ينزل عندها ، وهي الأزد .

وكذلك ظهرت العصبية واضحة بشعة ، وجعل جند البصرة يرعَوْن قبائلهم اكثر مما يرعون السلطان ، ويحفلون بأحسابهم اكثر مما يحفلون بالإمام ، ويغضبون لهذه الأحساب اكثر مما يغضبون للدين، ويتنافسون فيما بينهم أيّهم يكون احسن من صاحبه بلاء في حماية جاره .

وكتب زياد الى علي يُنبئه بما وقع ، فلم يَمِلْ عليٌّ الى الحرب ، وانما ارسل الى تميم رجلا منهم ، هو أعيَن بن ضبيعة ، ليردّ عليهم بعضَ احلامهم . فلم يكد أعين يناظر قومه حتى اختلفوا عليه وتفرقوا عنه ، ثم بيّتوه ذات ليلة فقتلوه . وأراد زياد ان يثأر له ، وأن يناوش القوم ، ولكن الأزد امتنعت عليه لأنها لم تحالفه على ان تكون حرباً على من حارب وسلماً لمن سالم ، وانما حالفته على ان تحميه وتحمي بيت المال .

وقد كتب زياد الى علي ينبئه بما صار اليه امر أعين بن ضُبيعة . فدعا اليه تميمياً آخر ، هو جارية بن قُدامة ، فأرسله الى قومه . ولكنه لم يرسله وحده هذه المرة وانما ارسل معه بعض الجند . وقد وصل جارية بن قدامة الى البصرة فقال لزياد وسمع منه ، وناظر قومه من بني تميم . فاستجاب له بعضهم وامتنع عليه بعضهم الآخر . فنهض بمن جاء معه الى الكوفة ومن انضم اليه من اهل البصرة لقتال ابن الحضْرمي . وما زال به وأصحابه حتى اضطرهم الى الهزيمة ، وألجأ ابن الحضرمي وسبعين من اصحابه الى دار من دور البصرة . وبعض المؤرخين يقول : الى حصن قديم من حصون البصرة . فأنذرهم جارية وأعذر اليهم . ولكنهم أبوا وتهيئوا للحصار . وهنالك أمر جارية بن قدامة بالحطب فجُمع ، وأحيطت به الدار وأضرمت فيه النار ، فاحترقت الدار بمن فيها ، لم ينج منهم احد . وتغنت العصبية الأزدية بهذا الفوز بعد ان عاد زياد وبيت المال الى دار الأمارة ، وبعد ان عاد المنبر الى مكانه من المسجد الجامع . فقال قائل الأزد عمرو بن العرَنْدس العوْديّ يفخر بأحساب قومه ، كما كان الشعراء يفعلون في الجاهلية .

رَددْنا زياداً الى داره ... وجار تميم دُخاناً ذَهَبْ
لحى الله قوماً شَوَوْا جارَهم ... وللشّاء بالدِّرْهمين الشَّصَبْ
يُنادي الخِناقَ وخنَّانَها ... قد سَمطوا رأسه باللهب
ونحن أناس لنا عادة ... نُحامي عن الجار أن يُغتَصب

حَمَيْناه إذ حلَّ أبياتَنا ... ولا يَمنع الجارَ إلاّ الحسب
ولم يعرفوا حرمــة للجوا ... ر إذا أعظم الجارَ قومٌ نُجُب
كفعلهمُ قبلنــا بالزُّبير ... عشيّةَ إذْ بَزُّه يُستَلب

فانظر الى هـذا الشاعر لم يذكر علياً ولا عثمان ، ولا أشار الى رأي او دين ، ولا حفل بطاعة الإمام او استجابة للسلطان، وانما ذكر زياداً الذي استجار قومه فأجاروه وأحسنوا جواره ، وعيَّر تميمـاً ما كان من تركهم جارهم حتى أكلته النار وذهب دخانـاً . غدروا به وخفَروا ذمته بعد أن بذلوا له الجوار والأمن ، كما غدروا بالزبير من قبل فقتلوه وابتزُّوا سَلَبه .

وقال جرير بعد ذلك بزمن غير قصير يمدح الأزد ويهجو مُجاشماً رهط الفرزدق :

غدرتمْ بالزُّبير فما وفَيْتُم ... وفاءَ الأزد إذ منعوا زياداً
فأصبح جارُهم بنجاةِ عِزٍّ ... وجارُ مُجاشع أمسى رَمادا
فلو عاقدتَ حبْل أبي سعيد ... لذاد القوم ما حَمَل النِّجادا
وأدْنى الخيلَ من رَهج المنايا ... وأغشاها الأسنّة والصِّمادا

ولو قد أقام عبدُ الله بن عباس على عهد ابن عمه لهابه معاوية ، ولما طمع في ملْك ضَيّعه اصحابه وتركوه نهباً لمن شاء ان ينهبه . بل لو أقام ابنُ عباس على عهد ابن عمه حال بين العصبية وبين هذا الظهور الفجائي البشع ، ولجنّب إمامه هذه المحنة القاسية التي تضاف الى محن قاسية اخرى فلا تُزيدها إلا نُكْراً .

وبعض المؤرخين يزعم ان هذه الأحداث حدثت حين كان ابن عباس قد ذهب الى الكوفة مواسيـاً لعلي بعد مقتل محمد بن أبي بكر ، واحتياز عمرو بن العـاص لمصر . وهذا كلام لا يستقيم . فلو قد كان ابن عباس عند عليٍّ لعاد إلى البصرة مُسرعاً حين بلغته هذه الأنباء ، ولما أقام عند عليٍّ ينتظر ان يغني عنه زيادٌ وأعْيَن بن ضُبيعة وجاريةُ بن قُدامة .

والواقعُ انّ ابن عباس قد ضعف عن امر بن عمـه بعد قضيّة الحكمين ، فهو لم ينهض معه الى الشام حين همّ بالنهوض اليها ، ولم يشهد معه النهروان ، وانما ارسل اليه جنداً من اهل البصرة ، ثم لم يزد على ذلك ، وانما اقام حتى كان من امره ما كان .

ومع ان معاوية لم ينجح فيما قصد إليه من اخذ البصرة كما اخـذ مصر ، او اثارة

الفتنة فيها والكيد لعلي ، ولم يزد علي ان ارسل ابن الحضرمي الى الموت المنكر ، فانه على ذلك قد افسد من امر البصرة شيئاً كثيراً . فليس قليلاً ان يثير فيها الفتنة وقتاً طويلا او قصيراً . وان يلجيء زياداً وبيت ماله الى حي من احياء العرب يجيرونه من سائر الناس ، صنيع العرب في جاهليتهم وان يترك المصر مضطرباً قد اختلط فيه الأمر وانتشرت فيه الضغائن والإحن وفسد بعض أهله على بعض . ثم هو بعد ذلك قد انتفع بالتجربة وعرف ان الحرب الظاهرة الجاهرة لعلي في العراق لم يئن اوانها بعد . فاتخذ لنفسه خطة أخرى ليست اقل من الحرب الظاهرة شراً ولا اهون منها شأناً . ولعلّها ان تكون اشد ترويعاً للنفوس واشاعة للذعر ونشراً للقلق . ولعلها ان تكون ابلغ في اشعار اهل العراق بالخوف المتصل والفزع المقيم ، واقناعهم بأن سلطان علي قد بلغ من الضعف والوهن وكلال الحد انه اصبح لا يُغني عنهم شيئاً ، ولا يدفع عنهم شراً ، ولا يرد عنهم مكروهاً ، وانما هم معرّضون لمعاوية يصيب من اموالهم ودمائهم ما شاء ومتى شاء وكيف شاء .

فهذه القطع الخفيفة اليسيرة من الجند يُؤمّر عليها رجل صليب مجرّب لحرب الكر والفر ، ثم تُكلف الغارة على هذا المكان او ذاك من حدود العراق ، وربما كُلّفت ان توغل في الأرض وتشيع الفساد والنكر ما وجدت الى ذلك سبيلا ، ثم تعود أدراجها بما احتوت من غنيمة ، وتترك وراءها فرقاً وهلعاً . فهي اشبه بالإبر النافذة المسمومة التي تخز هذا الجسم المستقر ، في العراق وخزاً سريعاً خاطفاً ، ثم تنصرف عنه وقد تركت فيه شيئاً من سم يجري فيه مع الدم ، فيملؤه خوراً وضعفاً وتفرقاً ويأساً ، ويضطره الى ذل لا عزّ معه ، والى ضعة ليس بعدها ارتفاع . فهو يُرسل الضحّاك بن قيس في قطعة من الجند الى هذا الطرف من بادية العراق التي تلي الشام . ويُرسل سفيان بن عوف الى طرف آخر ويأمره ان يُمعن في الأرض حتى يبلغ الأنبار فيوقع بأهلها ثم يعود موفوراً ثم يرسل النعمان بن بشير الى طرف ثالث ، وابن مسعدة الفزاريّ الى طرف رابع . وأنباء هذه الغارات تبلغ فتحفظه وتثيره ، ولكنه يدعو فلا يستجيب له أحد ، ويأمر فلا يطيعه أحد .

قد امتلأت قلوب اهل الكوفة خوفاً وذلة وانكساراً ، فتخاذلوا وتواكلوا وقنعوا بالعافية في مصرهم وفيما حولهم من هذا السواد القريب ، لا يطمعون في أكثر من أن يعيشوا . حتى بلغ الغيظ من عليّ أقصاه فخطبهم ذات يوم خطبته الرائعة التي تصور ما انتهت به المحنة اليه من همّ مقيم ، وغيظ مُمضّ ، ويأس من اصحابه لا يُبقي على

شيء من امل . قال :

« اما بعد . فإن الجهاد باب من ابواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه البسه الله الذل وسيم الخسف وديّث بالصغار . وقد دعوتكم الى حرب هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسراً واعلاناً ، وقلت لكم : اغزوهم من قبل اذ يغزوكم. فوالذي نفسي بيده ، ما غزي قوم قط في عقر دارهم الا ذلّوا فتخاذلتم وتواكلتم وثقل عليكم قولي واتخذتموه وراءكم ظهريا ، حتى شُنّت عليكم الغارات . هـذا اخو غامد . قد وردت خيله الأنبار وقتلوا حسان بن حسان ورجالاً منهم كثيراً ونساء والذي نفسي بيده ، لقد بلغني انه كان يدخل على المرأة المسلمة والمعاهدة فتنتزع احجالها ورعثها. ثم انصرفوا موفورين بكلم احد منهم كلماً . فلو ان امرءاً مسلماً مات من دون هذا اسفاً ما كان عندي فيه ملوماً ، بل كان به عندي جديراً يا عجباً كل العجب، عجب يميت القلب ويشغل الفهم بكثر الأحزان ، من تظافر هؤلاء القوم على باطلهم وفشلكم عن حقكم، حتى اصبحتم غرضاً تُرمَون ولا تَرمون ، ويغار عليكم ولا تغيرون ويعصى الله فيكم أو ترضون . اذا قلت لكم : اغزوهم في الشتاء . قلتم : هذا أوان قرّ وصرّ ، ان قلت لكم : اغزوهم في الصيف قلتم : هذه حمارّة القيظ انظرنا ينصرم الحرُّ عنا . فاذا كنتم من الحر والبرد تفرّونَ فأنتم والله من السيف افرّ ، يا اشباه الرجال ولا رجال ، ويا طغام الأحلام ، ويا عقول ربات الحجال . والله لقد افسدتم عليّ رأيي بالعصيان ، ولقد ملأتم جوفي غيظاً حتى قالت قريش : ابن ابي طالب رجل شجاع ولكن لا رأي له في الحرب . لله درّهم ، ومن ذا يكون اعلم بها مني أو اشد لها مراساً . فوالله لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، ولقد نيّفت اليوم على الستين . ولكن لا رأيَ لمن لا يطاع ، لا رأي لمن لا يطاع ، لا رأي لمن لا يطاع » .

وكانت هذه الخطبة واشباهها تثير الحفائظ في بعض النفوس التي كانت ما تزال تعرف للأحساب بعض اقدارها، فتنتدب منهم عُصبٌ يؤمّر عليها عليٌّ بعض الرؤساء ويرسلها في آثار اولئك المغيرين . فتدركهم احياناً ويفوتونها احياناً اخرى . والشيء المحقق هو ان معاوية قد طمع في عليّ واهل العراق ، فاتخذ خطة الهجوم الخاطف المتصل ، وألزم خصمه خطة الدفاع البطيء الذي لا يدفع شراً ولا يُصلح فساداً .

وقد رضي معاوية عن هذه التجارب ، فأراد ان يمعن فيها ، وان يتجاوز بغاراته

العراق الى بلاد العرب . وكانت بلاد العرب موطأة لمعاوية ، فمكة حرام لا يقاتل أهلها ولا يحب احد من الخصمين ان يقاتل حولها . وأهل المدينة وادعون يرون ان مكانهم من دار الهجرة ونزولهم حول مسجد النبي وانتقال السلطان عنهم الى الكوفة قد امنهم ان يُغير عليهم احد . ومقاتلتهم بعد ذلك قد لحق اكثرهم بعلي ولحق اقلهم بمعاوية .

وفي اليمن شيعة لعثمان يناوئون عامل علي عليها ، وهو عبيد الله بن عباس ، ولكنهم لا يلقون بمناوأته الحرب ، وانما يضطرونه الى ان يصطنع فيهم الشدة فيلقونه بالنكير .

وقد عظم امر هذه الشيعة حتى كتب العامل فيهم الى علي . وارسل علي من يحاول اصلاحهم . ويرهبهم بمقدم الجند . فكتبوا الى معاوية يستنصرونه ويستحثونه، واختار معاوية رجلاً جلداً صليباً قاسي القلب غليظ الكبد جافي الطبع من قريش ، هو بُسْر بن أرطاة ، فأمره ان يختار الجند على عينه ، ففعل . ثم وجّهه الى بلاد العرب واوصاه ان يقسو على اهل البادية من شيعة علي حتى يملأ قلوبهم ذُعراً ، وأن يأتي المدينة فيرهب اهلها حتى يروا انه الموت ، ثم يأتي مكة فيرفق بأهلها ولا يروعهم ، ثم يأتي اليمن فيخرج عنها عامل علي وينصر فيها شيعة عثمان .

ومضى بُسر بن أرطاة فأنفذ امر معاوية واضاف اليه من عند نفسه قسوة وغلظة واسرافاً في الاستخفاف بالدماء والاموال والحقوق والحرمات . فكان كثير الفتك في البادية . وجاء المدينة فروّع أهلها حتى اراهم الكارثة رَأْيَ العين . ثم أمرهم بالبيعة لمعاوية ففعلوا . وأتى مكة فلم يَرُع فيها احداً . وهَمّ ان يروع أهل الطائف ويُوقع بهم . ولكن المغيرة بن شعبة نصح له وأشار عليه . فكفّ عنهم ومضى الى اليمن . ففرّ عنها عاملُ علي وأعوانه . ونشر فيها الروع بالإسراف في القتل ، ثم اخذ البيعة لمعاوية . وبلغ خبرُه علياً فأرسل جارية بن قدامة لردّه عن اليمن في الفي رجل . ولم يكد جارية يدنو من اليمن حتى فر منها بُسر بن أرطاة ورجع الى الشام مفسداً في الأرض اثناء رجوعه، مسرفاً في القتل والنهب حتى ذبح ابني عبيدالله ابن عباس ، وكانا صبيّين . وانتهى جارية بن قدامة الى اليمن فأضاف قتلاً الى قتل بن أهلك من شيعة عثمان . ورد اليمن الى طاعة علي . وعاد الى مكة فعرف فيها ان علياً قد قُتل. فمضى راجعاً الى الكوفة بعد ان اخذ بيعة المكيين والمدنيين للخليفة الجديد في العراق .

وقد رجع بُسر بن أرطاة الى معاوية موقوراً ، ولكنه اسرف في سفك الدماء على الناس كما اسرف على نفسه ايضاً . فما رأى إلا ان نفسه قد تأثرت بكثرة ما سفك من هذه الدماء ، وما اقترف من إثم ونكر . فانطبع هذا كله في أعماق ضميره . ولعل صُوَراً منه كانت تبدو له بشعة مروعة اذا اشتمل عليه النوم وهو على ذلك قد جُنّ حين تقدمت به السنّ ، فجعل يهذي بالسيف فيما يقول المؤرخون . لا يطمئن إلا اذا اعمله فأكثر إعماله، حتى اتخذ له سيفاً من خشب كانوا يضعونه في يده ويقرّبون اليه الوسائد ، فما يزال يُعمل سيفه ضرباً لها حتى يدركه الإعياء فيغشى عليه ، فاذا افاق عاد الى مثل ما كان فيه . وما زال هذا دأبه حتى قضى .

ولم يقنع معاوية بهذه الغارات التي اشرنا اليها آنفاً ، وانما مضى في الغارات يصبها على اطراف علي . ومضى عمال الاطراف يقاومون هذه الغارات ، يُفلحون في مقاومتها حيناً ويخفقون فيها حيناً آخر ، حتى شُغل بها أهل العراق . فأرّق ليلهم واقلق نهارهم وزادهم إيثاراً للعافية ورغبة في السلم وفزعاً من الموت .

- ٣٥ -

ثم لم تكن هذه الغارات وحدها هي التي أقلقت علياً وأقضت مضاجع اهل العراق، وانما كانت هناك حروب داخلية يسيرة ، ولكنها على ذلك مُزعجة ، وكان الخوارج بالطبع هم الذين يثيرون هذه الحروب . فقد قتلهم عليّ في النّهراوان ، ولكنه لم يأت عليهم جميعاً ولم يستأصل مذهبهم . ومتى استطاعت القوة القوية ، والبأس البئيس والإرهاب الرهيب قضاءً على رأي او استئصالاً لمذهب . وعسى ان يكون هذا كله مقوياً للرأي ومعيناً على نشره وداعياً ملحاً الى نصره .

وقد ترك عليّ في نفوس مَن بقي من الخوارج، وفي نفوس احيائهم وذوي عصبيتهم اوتاراً لم يكن بُدّ من الطلب بها وقد طلبوا بها جادين في ذلك غير وانين ولا مقصرين. فخرجوا أرسالاً ، يخرج الرجل ومعه المئة او المئتان فيمضون امامهم حتى ينتهوا الى مكان يؤثرونه ، فيقيمون فيه وقتاً يقصر او يطول ، يهيئون انفسهم اثناء ذلك للقتال، فاذا تم لهم من ذلك ما يريدون نصبوا للحرب ، واخافوا الناس من حولهم، وعرّضوا الأمن العام للخطر الشديد . فيضطر عليّ الى ان يرسل اليهم رجلا من اصحابه ويجرد

معه طائفة من الجند . فيمضي هذا الرجل حتى يلقى القوم فيقاتلهم أشد قتال، حتى اذا قتلهم أو فضّ جمعهم عاد الى عليّ . ولم يكن يعود حتى يخرج رجل آخر ، ومعه قوم آخرون من الخوارج وتتجدد القصة ثم لا تنقضي الا لتتجدد .

وكذلك خرج أشرس بن عوف الشيباني . فلما قُتل وقتل معه اصحابه خرج هلال بن عُلّفة التيمي ، من تيم الرّباب . فلم يكن عليّ يفرغ من امره حتى خرج الأشهب بن بشر البَجَلي . فلما قُتلَ خرج سعيد بن قُفل التيمي ، من تيم الله بن ثعلبة بن عُكابة . فلم يكد يعود الذين حاربوه وقاتلوه من اصحاب عليّ حتى خرج ابو مريم السعدي ، من سعد مَناة بن تميم . وقد امتاز هذا الرجل بأنه لم يخرج في اصحابه من العرب وحدهم وانما تبعه كثير من الموالي .

ومعنى ذلك أن مذهب الخوارج قد تجاوز العرب الى غيرهم من المغلوبين الذين كانوا الى الآن يستظلون بظل الفاتحين ، يُسلم منهم من يُسلم فيظل جديداً في اسلامه يؤدي ما يجب عليه من حق ، لا يكاد يتجاوز ذلك الى ما يكون بين العرب من خلاف .

ولكنا نراهم الآن قد اخذوا ينكرون التحكيم ويخرجون على الإمام . وجعل العرب من الخوارج لا يكرهون الاستعانة بهم على حرب نظرائهم . اصبحت العصبية العربية عندهم اقل خطراً واهون شأناً من الرأي والمذهب . وقد عيّر أصحاب علي ابا مريم ، حين لقوه في كثرته من الموالي ، قتاله للعرب مع هذه الطبقة غير ذات الشأن من الناس . فلم يحفل بما قالوا له، وانما شدّ عليهم مع هؤلاء الناس غير اولي الشأن شدةً منكرة كشفتهم عن اماكنهم ، واضطرتهم الى ان يرجعوا منهزمين الى الكوفة ، الا قائدهم ، فانه اقام في نفر يسير ينتظر المدد .

وقد خرج عليّ نفسه لقتال ابي مريم الذي كان قد دنا من الكوفة . فلما قتله وقتل اصحابه رجع محزون النفس مكلوم القلب تساوره الهموم . وما له لا يجد هذا كله وهو يقضي حياته بين امرين ليس احدهما اقل نُكراً من الآخر . حرب داخلية قد اصبحت نظاماً مستقراً فهو لا يفرغ منها إلا ليعود اليها ، وغارات تُصب على اطرافه من اهل الشام قد اصبحت هي الأخرى نظاماً مستقراً . فهو لا يسد ثغرة الا فتحت له ثغرة اخرى ، واصحابه على رغم ذلك يُمعنون في العجز مغرقون فيما احبوا من العافية ، قد فُلّ حدُّهم ، وكُسرت شوكتهم ، وطمع فيهم العدو البعيد منهم ، واغرى بهم العدو المقيم بين اظهرهم ، كأنّ حلفاً خفية قد انعقدت بين الخوارج وبين أهل الشام على غير علم من اولئك ولا من هؤلاء ، وقوام هذه الحلف ان يجرّعوا علياً

الغصص ويرهقوه من امره عسرا

وقد اقام معاوية في الشام يرى ويسمع من امر خصمه ما يزيده فيه طمعاً، وها هو ذا قد طمع في ان يرسل من قبله من يقيم للناس الحج في الموسم . وما له لا يفعل وقد بايعه اهل الشام بالخلافة ، ودانت له مصر واستقام له كثير من اهل البادية . وضعف خصمه على النهوض لحربه ، بل ضعف حتى عن الدفاع عن سلطانه في داخل حدوده نفسها .

وكذلك ارسل معاوية يزيدَ بن شَجَرة الرهاوي اميراً على الموسم يُقيم للناس حجهم، وكان يزيد عثمانياً مخلص الحب لمعاوية ، ولكنه كان يكره القتال في المكان الحرام والشهر الحرام فلما استيقن ان معاوية لا يرسله للحروب وانما يرسله لأمر ظاهره الدين ومن ورائه السياسة مضى لمهمته . ولم يكد يدنو من مكة حتى خافه قُثم بن العباس ، عامل عليّ عليها ، فاعتزل امره . ودخل يزيد مكة فأمّن الناس ووسّط أبا سعيد الخدْريّ في ان يختار الناس لهم رجلاً غير عامل عليّ ، يقيم لهم الصلاة ليصلي المسلمون جميعاً غير مفترقين، فاختار الناس عثمان بن ابي طلحة العبْدريّ . فأقام للناس صلاتهم ، وانقضى الموسم في عافية . وعرف عليٌّ مسير يزيد بن شجرة الى مكة ، فندب الناس لردّه عنها ، فتثاقلوا . وانتهى عليّ آخر الأمر الى ان ارسل مَعْقل بن قيس في جند من اصحابه ، فلم يبلغوا غايتهم. فقد كان يزيد أتم الحج وعاد الى الشام ، وانما ادرك معقل واصحابه مؤخرة اصحاب يزيد . فأسروا منهم نفراً وعادوا بهم الى الكوفة .

- ٣٦ -

وقد انتهت كل هذه الأمور بعلي الى عزيمة اتمها الله له ، فيها كثير من اليأس وفيها كثير من المغامرة . ولكنها كادت ان تُبلغه مأربه لولا ان الناس يدبّرون وأمر الله غالب ، والكلمة الأخيرة للقضاء المحتوم لا لما يدبّرون . فقد خطب عليٌّ اصحابه داعياً لهم ان يتجهزوا لقتال أهل الشام ، محرّضاً لهم على ذلك اشدّ التحريض ، كما تعود ان يفعل . فسمعوا منه وانصرفوا عنه ولم يصنعوا شيئاً ، كما تعوّدوا ان يفعلوا .

فلما استيأس منهم دعا اليه رؤساءهم وقادتهم وأولي الرأي فيهم ، وتحدث اليهم

حديثاً صريحاً لا لَبْس فيه : وجعل تبعاتهم امامهم يَرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم إن امكن ان تُرى التبعات بالعيون وتُلمس بالأيدي. بيّن لهم انهم ارادوه على الخلافة دون ان يطلبها اليهم ، وعرضوا عليه بيعتهم دون ان يعرض عليهم نفسَه ، ثم هم الآن يُظهرون طاعة ويُضمرون نكثاً . وقد طاولهم حتى سئم المُطاولة ، وانتظر نشاطهم لما يدعوهم اليه حتى ملّ الانتظار . وعظهم في غير طائل ، وحرّضهم في غير غناء ، وقد ازمع ان يمضي لحرب خصمه في الشام مع من تَبعه من اهله ومن قومه ، فإن لم يتبعه منهم احد مضى وحيداً فقاتل حتى يُبلى في سبيل الله ويلقى الموت في ذات الحق .

ولست ارى بدّاً من ان اثبت هنا نصّ حديثه اليهم كما رواه البلاذري ، ففيه الحجة البالغة على هؤلاء الذين افسدوا عليه رأيه بالعصيان حتى ظنت قريش به الظنون ، وقالت فيه الأقاويل ، وحتى عُصي الله وهم ينظرون لا يغضبون لحق ولا دين .

قال : « اما بعد . ايها الناس ، فإنكم دعوتموني الى هذه البيعة فلم اردكم عنها . ثم بايعتموني على الإمارة ولم اسألكم اياها . فتوثّب عليّ متوثبون كفى الله مؤونتهم ، وصرعهم لخدودهم ، واتعس جدودهم ، وجعل دائرة السوء عليهم . وبقيت طائفة تحدث في الإسلام حدثاً . تعمل بالهوى وتحكم بغير الحق ، ليست بأهل لما ادعت . وهم اذا قيل لهم تقدّموا قدماً تقدّموا . واذا اقبلوا لا يعرفون الحق كمعرفتهم الباطل ، ولا يُبطلون الباطل كإبطالهم الحق . اما اني قد سئمت من عِتابكم وخطابكم فبيّنوا لي ما انتم فاعلون . فإن كنتم شاخصين معي الى عدوّي فهو ما اطلب وما احب ، وان كنتم غير فاعلين فاكشفوا لي عن امركم أرَ رأيي . فوالله لئن لم تخرجوا معي بأجمعكم الى عدوكم فتقاتلوهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، وهو خير الحاكمين ، لأدعونّ الله عليكم ثم لأسيرنّ الى عدوكم ولو لم يكن معي الا عشرة . أأجلافُ اهل الشام وأعرابُها اصبر على نصرة الضلال واشد اجتماعاً على الباطل منكم على هداكم وحقكم ؟ ما بالكم وما دواؤكم؟ان القوم امثالكم لا يُنشرون ان قتلوا الى يوم القيامة » .

وكأن الرؤساء والقادة قد استَحَوْا من علي ، واستخزوا في انفسهم ، واشفقوا ان يُنفذ ما صمّم عليه فيمضي وحده او في قلة من الناس لقتال اهل الشام ، فيَلحقهم بذلك عار اي عار ، وتصيبهم المحنة في دينهم وفي نفوسهم وفي امورهم كلها ، فقام خطباؤهم الى علي فأحسنوا له القول واخلصوا له النصح ، ثم تفرقوا عنه فتلاوموا ،

ومضوا لإنجاز ما وعدوا به علياً .

فجمع كل رئيس قومه فوعظهم وحرضهم ، حتى اجتمع لعلي جيش صالح قد تعاقد الجندُ فيه على الموت . ثم أرسل عليّ معقلَ بن قيس يُعبّىء له أهل السواد ليضمّهم إلى من اجتمع له في الكوفة . وأخذ يرسل إلى عماله فيما وراء العراق من شرق الدولة يدعوهم إلى النهوض إليه ليكونوا معه في حربه . وأرسل زياد بن خصفة في جماعة من أصحابه طليعةً بين يديه، وأمره أن يغير على أطراف الشام ليروّع أهلها.

وإن علياً لفي هذا الاستعداد وقد تراءت له غايته ، وإذا القضاء يقول كلمته ، فينقضُ عليه وعلى أهل العراق كلَّ تدبير .

- ٣٧ -

لم تستغرق أمور الحرب على كثرتها واختلاطها وقتَ عليّ كله ولا جهده كله أثناء إقامته في الكوفة ، وإنما كان يقسم وقته بين شؤون الحرب وشؤون السياسة وشؤون الدين ، لا يصرفه عما يجب عليه في ذلك كله صارف ، مهما يكن ، ولا يشغله عنه هم مهما يثقل . وقد رأيت من نشاطه في الحرب ما رأيت ، فأما نشاطه في أمور الدين فلم يكن قليلاولا فاتراً ، وإنما كان يرى من الحق عليه، شأنه في ذلك شأن غيره من الخلفاء الذين سبقوه ، أن يقيم للناس صلاتهم وأن يعظهم ويفقههم في دينهم ويبصرهم بما يحب الله من المسلمين وما يحب لهم ، وبما يكره الله من المسلمين وما يكره لهم . وكان يعظهم جالساً على المنبر أو قائماً ، وكان يجلس لهم في المسجد فيسألهم عن أمورهم ويُجيب من سأله منهم عما يهمه من أمر دينه أو أمر دنياه . ثم لم يكن يعظهم ويعلمهم بما كان يقول لهم حين يخطبهم أو يحاورهم فحسب ، وإنما كان يعلمهم ويعظهم بسيرته فيهم . كان لهم إماماً ، وكان لهم معلماً ، وكان لهم قدوة وأسوة . وكان يسير فيهم سيرة عمر فيمن حضره من أهل المدينة ، لا يلقاهم إلا في يده درّته يخيفهم بها ، كما كان عمر يخيف بدرّته الناس عظيمَهم وصغيرهم . وكان يخالطهم حين كانوا يضطربون في حياتهم، فكان يمشي في الأسواق ويأمر الناس بتقوى الله ويذكرهم الحساب والمعاد، ويرقبهم حين كانوا يبيعون ويشترون . وكان يمشي في الأسواق وهو يقول بأرفع صوته: اتقوا الله وأوفوا الكيل والميزان ولا تَنْفخوا في اللحم . وكان يؤدب بالزّجر والدّرة

من رأى منه انحرافاً عما ينبغي له في بيع أو شراء أو حديث . وكأنه رأى أن درّة عمر لا تُرهب هذا الخلَف الذي خلّف من الناس ، تطوروا وغلظت أخلاقهم وانحرفت طباعهم عما ألف المسلمون أيام عمر . فاتخذ الخيزرانة ، رآها أوجع من الدرّة ، ثم استبان له أن الخيزرانة لا ترهبهم : فكان يقول لأشرافهم ولعامتهم : إني لأعرف ما يصلحكم ، ولكن لا أصلحكم بفساد نفسي .

رأى أنهم في حاجة إلى أن يؤخذوا بأكثر من الدرّة والخيزرانة والزجر ، وكره أن يضربهم بالسياط . أشفق أن يُدفع من القسوة والتجبر إلى ما لا يلائم خلقه ودينه ، وما لا ينبغي للخليفة الراشد من الرفق والوداعة والحلم والإسماح . وخرج يوماً من داره فرأى جماعات ضخمة من العامة قد ازدحمت على بابه فجعل يفرقهم عن نفسه بالدرّة حتى خلص منهم الى بعض أصحابه ، فسلم عليه ثم قال : إن هؤلاء ليس فيهم خير ، لقد كنت أظن الأمراء يظلمون الناس فقد علمت أن الناس يظلمون الأمراء .

ثم لم يكن يكتفي بهذا كله ، وإنما كان يحتاط لنفسه من مُغريات الإمرة . وكان إذا أراد أن يشتري شيئاً بنفسه تحرّى بين السوقة رجلاً لا يعرفه ، فاشترى منه ما يريد . يكره أن يُحابيه البائع إن عرف أنه أمير المؤمنين .

ثم كان لا يرضى عن نفسه إلا إذا أدى للناس حقهم عليه في دينه ، فأقام لهم صلاتهم ، وعلمهم بالقول والعمل ، وقام على إطعام فقرائهم طعام العشاء ، وتحرّى ذوي الحاجة منهم فأغناهم عن المسألة . وإنما كان يخلو الى نفسه اذا كان الليل فينصرف الى عبادته الخاصة مصلّياً متهجداً حتى يتقدم الليل فإذا أخذ بحظه من النوم غلّس بالخروج الى المسجد فجعل يقول ، كأنه يريد أن يوقظ من أوى الى المسجد من الناس فنام فيه : « الصلاة الصلاة يا عباد الله » .

وكذلك لم يكن ينسى الله لحظةً من ليل أو نهار ، وإنما كان يذكره إذا خلا لنفسه او دبّر أمور الناس على اختلافها . وكثيراً ما كان يحرّض الناس على ان يسألوه في أمور دينهم .

وقد رأيتَ طرَفاً من سيرته في أموال المسلمين ، وعرفت أنه لم يكن ينفك يقسم فيهم كل ما يصل إليه من الولايات او من السواد ، قلّ او كثر ، عظم او حقر . وكان يعتذر اليهم إن قسم فيهم شيئاً قليلاً ، فيقول : إن الشيء ليَرِدَ علينا فنراه كثيراً فإذا قسمناه رأيناه يسيراً .

وكان شديد الحرص على أن يحقّق المساواة بين الناس في قوله وعمله وفي وجهه ،

وفي قسمته لما كان يقسم فيهم من المال ، بل كان يحرص على هذه المساواة حين يُعطي الناس اذا سألوه . جاءته امرأتان ذات يوم تسألانه وتبينان فقرهما . فعرف لهما حقهما وأمر من اشترى لهما ثياباً وطعاماً وأعطاهما مالاً . ولكن إحداهما سألته أن يفضلها على صاحبتها لأنها امرأة من العرب وصاحبتها من الموالي . فأخذ شيئاً من تراب فنظر فيه ثم قال : ما أعلم أن الله فضّل أحداً من الناس على أحد إلا بالطاعة والتقوى .

كذلك كانت سيرة عليّ ، وكذلك كانت سيرة النبي والشيخين . ولكن عليّاً خالف عن سيرة عمر كما رأيت في شيء واحد ، وهو أمر المال .

خالف عن سيرة عمر ، ولكنه وفى لرأيه الذي أشار به على عمر ، فقد أشار عليه حين كثر المال أن يقسم كل ما يرد عليه بين الناس حتى لا يترك في بيت المال شيئاً . كان يؤثر ذلك لتبرأ ذمة الخليفة من أي حق قد يتعلق بالمال الذي يدخر او يستبقى. ولكن النوائب تنوب والخطوب تُلمّ وما ينبغي لبيت المال أن يفاجأ بالأحداث حين تحدث . فكان عمر أحزم في سياسته وأنظر للمصلحة العامة ، وكان عليّ أشد احتياطاً لنفسه إن أمكن أن يحتاط إمام لنفسه أكثر مما احتاط لها عمر .

- ٣٨ -

أما سيرة عليّ في عمال الأقاليم وولاتها فلم تنحرف عن سيرة عمر قليلاً ولا كثيراً ، وإنما هي سُنة سنها النبيّ والشيخان ، وأحياها عليّ بعد أن أدركها شيء من الضعف والإهمال في الأعوام الأخيرة لخلافة عثمان .

كان علي شديد المراقبة لعمّاله ، يشدّد عليهم في الحساب ، وفي استيفاء ما يلزمهم من حقوق الناس ، ويشدّد عليهم في سيرتهم العامــة والخاصة فيعطي كل واحد منهم عهداً يقرؤه على الناس حين يتولّى أمرهم . فإذا أقرّوه بعد قراءته عليهم فهو عقد بينهم وبين حاكمهم ، لا يجوز لهم ولا له أن ينحرفوا عنه أو يتأوّلوه . فان انحرفوا عنه وجبت عليهم العقوبة وأنفذ الحاكم في المخالفين هذه العقوبة . وإن انحرف الحاكم عنه وجبت عليه العقوبة وأنفذها فيه الإمام نفسه .

ثم كان علي يُرسل الأرصاد والرقباء ليظهروا على سيرة العمّال ويرفعوا منها إليه ما يجب أن يرفعوه ، يَستخفي بعض هؤلاء الأرصاد والرقباء بمهمتهم ، ويظهر بهـا

بعضهم . وكان كل رجل من أهل الأقاليم رصداً ورقيباً على حاكمه ، يستطيع أن يشكوه إلى الإمام كلما انحرف عن العهد الذي أخذ عليه .

وربما توسّط علي لأهل إقليم من الأقاليم عند أميرهم في بعض ما يرون لأنفسهم من مصلحة تنفعهم أو تسوق إليهم خيراً .

جاءه أهل ولاية من الولايات فزعموا له أن في بلادهم نهراً قد عفا ودرس ، وأن في حَفْره وإعادته لهم وللمسلمين خيراً . وطلبوا إليه أن يكتب إلى الوالي في أن يسخرهم في احتفار هذا النهر . فقبل منهم احتفار النهر وكره منهم ما طلبوا من التسخير . وكتب إلى عامله قَرَظَة بن كعب :

« أما بعد . فإن قوماً من أهل عملك أتوني فذكروا أن لهم نهراً قد عفا ودرس ، وأنهم إن حفروه واستخرجوه عمرت بلادهم ، وقووا على كل خراجهم ، وزاد فيء المسلمين قِبَلهم . وسألوني الكتابَ إليك لتأخذهم بعمله وتجمعهم لحفره والإنفاق عليه ولست أرى أن أجبر أحداً على عمل يكرهه ، فادعهم إليك فإن كان الأمر في النهر على ما وصفوا فَمَن أحب أن يعمل فَمُره بالعمل . والنّهر لمن عمل دون من كرهه . ولأن يَعمروا ويقووا أحب إلي من أن يضعفوا . والسلام » .

وشكا إليه أهل ولاية أخرى أن عاملهم يزدريهم ويقسو عليهم . فنظر في أمرهم فاستبان له أنهم ليسوا أهلاً للازدراء . فكتب في أمرهم إلى عامله عمرو بن سَلَمة الأرحبي :

« أما بعد . فان دهاقين بلادك شَكَوْا منك قسوةً وغلظة واحتقاراً . فنظرت فلم أرهم أهلاً لأن يُدْنَوْا لشِرْكهم . ولم أر أن يُقْصوا ويُجفوا لعهدهم . فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة . في غير ما أن يُظلموا . ولا تنقض لهم عهداً . ولكن تفرغ لخراجهم وتقاتل مَن وراءهم . ولا يؤخذ منهم فوق طاقتهم . فبذلك أمرتك والله المستعان والسلام » .

وكان أمراؤه يهابونه وربما حاولوا أن يخفوا عليه اليسير من أمرهم فراراً من ملامته . فإذا عرف ذلك من أمرهم تجاوز لومتهم إلى الاتهام والتقريع والنذير .

وقد روى أنه أرسل إلى زياد حين كان خليفة لابن عباس على البصرة ، قبل اعتزاله أو بعد اعتزاله العمل ، مَن يحمل إليه ما عنده من المال .

فقال زياد للرسول فيما قال : إن الأكراد قد كسروا شيئاً من الخراج ، وإنه يداريهم . وطلب إليه ألاّ ينبيء بذلك أمير المؤمنين فيتهمه بالاعتدال عليه في بعض

الحق . وكان الرسول أميناً لمُرسله . فأنبأه بكل ما قاله زياد . فكتب عليٌّ إلى زياد :

« قد بلغني رسولي عنك ما أخبرته به عن الأكراد واستكتامك إياه ذلك . وقد علمت أنك لم تُلق ذلك إليه إلا ليبلّغني إياه . وإني أقسم بالله عز وجلّ قسماً صادقاً لئن بلغني أنك خنت من فيء المسلمين شيئاً ، صغيراً أو كبيراً ، لأشدنّ عليك شدة تدعك قليل الوَفْر ثقيل الظهر . والسلام » .

وأقل ما يدل عليه هذا الكتاب هو أن علياً لم يكن من السذاجة بحيث يظن بعض خصمه ، ولم يكن سهل التغفّل كما يظن به بعض المسرفين عليه وعلى أنفسهم . وإنما كان من بُعد الغور ونفاذ البصيرة والوصول إلى أعماق النفوس بحيث كان غيره من مهرة العرب ودُهاتهم . ولكنه كان يؤثر الصراحة والصدق ومواجهة الحقائق على نحو مُستقيم من التفكير ، وكان يرفع نفسه عن المكر والكيد والدهاء نصحاً لدينه واستمساكاً بأخلاق الرجل الكريم .

فهو قد فهم أن زياداً انما اراد ان يعتذر عن قلة ما حمل اليه من المال ، وان يلطف للرسول في ذلك فينبئه بأمر الأكراد ويُوصيه بإخفاء ذلك على الخليفة مخافة ان يُتّهم عنده . وقدر ان الرسول سيتعلق عليه بهذه التعلة ويُنبىء بها امير المؤمنين . وقد رأيت شدة علي على زياد في النذير والتحذير . وأكبر الظن انه لم يقف عند النذير والتحذير ، وانما كلّف من يتلطف حتى يحقق من أمر الأكراد ما زعم زياد .

وبلغته هَنَات عن المُنذر بن الجارُود ، عامله على اصطخر . فكتب اليه هذا الكتاب الذي يعزله به عن ولايته ويستقدمه إلى الكوفة :

« ان صلاح ابيك غرّني فيك . وظننت انك متبع هديَه وفعله . فاذا انت فيما رُقي اليّ عنك لا تدع الانقياد لهواك ، وإن ازرى ذلك بدينك ؛ ولا تسمع الى الناصح وان اخلص النصح لك . بلغني انك تدع عملك كثيراً وتخرج لاهياً متنزّهاً متصيداً ، وانك قد بسطت يدك في مال الله لمن أتاك من اعراب قومك ، كأنه تراث عن ابيك وامك . واني اقسم بالله لئن كان ذلك حقاً لجمل اهلك وشسع نعلك خير منك . وان اللعب واللهو لا يرضاهما الله . وخيانة المسلمين وتضييع اموالهم مما يسخط ربك . ومن كان كذلك فليس بأهل لأن يُسدّ به الثغر ويُجبى به الفيء ويؤتمن على مال المسلمين . واقبل حين يصل كتابي هذا اليك » .

فلما قدم حقق علي امره مع من اتهمه من الناس . فظهر ان عليه من مال المسلمين

ثلاثين الفاً ، فطالبه بها ، وجحدها المنذر ، فطالبه علي باليمين ، فنكل . والقاه علي في السجن حتى شفع فيه وضمنه صَعْصعة بن صُوحان ، وكان من اتقى اهل الكوفة ومن آثر الناس عند علي ، فأطلقه .

وأرسل علي بعض مواليه الى زياد يستحثه على حمل ما عنده من المال ، وكأن هذا المولى اثقل على زياد في الإلحاح ، فنهره زياد فرجع الى الخليفة مُنكراً لأمر زياد وقال فيه فأكثر القول . فكتب علي إلى زياد واعظاً مؤدباً :

« ان سعداً ذكر لي انك شتمته ظلماً وجبهته تجبراً وتكبراً . وقد قال رسول الله ﷺ : الكبرياء والعظمة لله . فمن تكبر سخط الله عليه . واخبرني انك مستكثر من الألوان في الطعام ، وأنك تَدهّن في كل يوم . فماذا عليك لو صمت لله اياماً وتصدقت ببعض ما عندك محتسباً ، وأكلت طعامك في مرة مراراً او اطعمته فقيراً . أتطمع وانت متقلب في النعيم ، تستأثر به على الجار المسكين والضعيف الفقير والأرملة واليتيم ، ان يجب لك اجر الصالحين المتصدقين . وأخبرني انك تتكلم كلام الابرار وتعمل عمل الخاطئين . وان كنت تفعل ذلك فنفسك ظلمت وعملك أحبطت . فتب الى ربك واصلح عملك واقتصد في أمرك ، وقدّم الفضل ليوم حاجتك اذا كنت من المؤمنين ، وادّهن غبّاً ولا تدهن رِفْهاً . فان رسول الله ﷺ قال : ادَّهنوا غبّاً ولا تدهنوا رفهاً . والسلام » .

وقد كره زياد هذه الوشاية به الى الخليفة وحرص على ان يبرىء نفسه مما رمي به ، فكتب الى علي :

« ان سعداً قدم علي فعجل ، فانتهرته وزجرته وكان أهلا لاكثر من ذلك. فأما ما ذكر من الاسراف في الاموال والتنعم واتخاذ الطعام . فان كان صادقاً فأثابه الله ثواب الصادقين ، وان كان كاذباً فلا أمّنه الله عقوبة الكاذبين . وأما قوله اني اتكلم بكلام الابرار واخالف ذلك بالفعل . فاني اذا من الاخسرين عملا . فخذه بمقام واحد قلت فيه عدلاً ثم خالفت الى غيره . فاذا اتاك عليه بشهيد عَدْل والا تبين لك كذبه وظلمه » .

ومعنى ذلك أن زياداً يرى نفسه قد قُذف ظلماً ويطلب إلى علي إنصافه من قاذفه وأخذه بإقامة البينة على ما ادعى .

وكتب إلى أشعث بن قيس يعزله عن أذْرَبيجان ، وكان قد وليها أيام عثمان . وبعض الرواة يقول : إن عثمان كان قد ترك له خراجها :

« إنما غرّك من نفسك إملاء الله لك . فما زلت تأكل رزقه وتستمتع بنعمه وتُذهب طيباتك في أيام حياتك . فأقبل واحمل ما قِبَلك من الفيء ولا تجعل على نفسك سبيلا » .

وواضح أن هذا الكتاب لم يقع من نفس الأشعث موقعاً حسناً ، وإن من اليسير بعد ذلك أن نفهم مواقف الأشعث من علي فيما عرض من الخطوب .

ولم يكن علي مؤنبـاً لعماله ، ولا سيىء الظن بهم دائماً ، وانما كان يثني على المحسن منهم فيبلغ في الثناء ، يعرف لهم بذلك حقهم ويشجعهم على ما أظهروا من الإخلاص لإمامهم ، وحسن البلاء في النصح للمسلمين .

وانظر ما كتبه الى عمر بن أبي سَلَمة عامله على البحرين حين عزله عن عمله ليصحبه في شخوصه الى الشام :

« اني قد وليت النعمان بن عجلان البحرين من غير ذمّ لك ولا تهمة فيما تحت يدك . ولعمري لقد أحسنت الولاية وأديت الأمانة . فأقبل اليّ غير ظنين ولا ملوم . فاني أريد المسير الى ظلمة اهل الشام ، وأحببت ان تشهد معي امرهم . فانك ممن أستظهر به على إقامة الدين وجهاد العدو . جعلنا الله واياك من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون » .

وكذلك سار علي في عماله هذه السيرة الحازمة ، يشجّع المحسن منهم ويشتد على المسيء ، لا يحابي في شيء من ذلك ولا يداجي ، ولا يعرف مداراة ولا مجاراة ، وانما هو النصح للمسلمين والعدل في الرعية واقامة الحق في أولئك وهؤلاء .

وقد رأيت سيرته مع ابن عمه عبد الله بن عباس ، وشدّته على زياد ، وعقابه بالعزل لمن لا يحسن القيام بأمره ، وبالحبس لمن يتعلق بذمته حق من حقوق الناس . فليس غريباً ألاّ ينظر العمّال اليه ولا الى عمله إلا في كثير من التحفظ والتحرج والاحتياط . وليس غريباً ان يلتوي عليه أحد عماله مصقلة بن هبيرة ببعض الحق ، ثم يشفق منه فيفرّ الى معاوية ويلقى عنده ما رأيت آنفاً من الرضى والإيثار .

وهذه السيرة التي سارها عليّ في عمّاله هي نفس السيرة التي سارها في الناس ، فلم يكن يطمع الناس في نفسه ، ولم يكن يؤيسهم منها ، وانما كان يدنو منهم أشد الدنو ما استقاموا على الطريق وأدوا الحق ، فان انحرفوا عن الجادة او التووا ببعض مايجب عليهم بَعُد عنهم اشد البعد ، وأجرى فيهم حكم الله غيرَ مصطنعٍ هوادةً او رفقاً .

وقد روى المؤرخون ان اناساً من اهل الكوفة ارتدوا فقتلهم ثم حرقهم بالنار .

وقد لِيمَ في ذلك من ابن عباس . وأظن ان هذه القصة هي التي غلا خصومُ الشيعة فيها ، فزعموا ان هؤلاء الناس ألّهوا عليّاً .

ولكن المؤرخين ، والثقاة منهم خاصة ، يقفون من هذه القصة موقفين : فمنهم مَن يَرويها في غير تفصيل كما رويتُها ، ومن هؤلاء البلاذري ومنهم من لا يرويها ولا يُشير اليها كالطبري ومن تبعه من المؤرخين .

وانما يُكثر في هذه القصة اصحابُ المِلَل والخاصمون للشيعة . وما أرى إلا ان القوم يتكثرون فيها ويحمّلونها اكثر مما تحتمل كما فعلوا في امر ابن السوداء .

وربما بيّنت هذه الصورةُ الشعرية ، التي تركها أعرابيٌّ من طيء ، عما كان في قلوب الناس من المهابة لعلي . وكان هذا الرجل يُفسد في الطريق . فأرسل علي رجلين ليأتياه به . ففر منهما وقال :

ولمّا أن رأيت ابنَي شُميطٍ … بسكة طيء والباب دوني
تجلّلت العَصا وعلمت أني … رهينُ مُخيّسٍ إن يثقفوني
فلو أنظرتهم شيئاً قليلاً … لساقوني الى شيخٍ بَطينِ
شديد مجامع الكتِفَين صلب … على الحَدثان مجتمع الشؤون

ومخيس : سجن بناه علي . والعصا : فرس لهذا الأعرابي . فهذا الشيخ البطين ، والعظيم المنكبين ، الصلب على الحوادث ، ذو الرأس الضخم هو الذي هابه الأعرابي ، كما كان عامة الناس من أمثاله يهابونه ويشفقون من بأسه .

ثم كان عليٌّ بعد ذلك لا يستكره الناس على أمرين :

أحدهما البقاء في ظل سلطانه ، فما أكثر الذين كانوا يرحلون من العراق ومن الحجاز ليلحقوا بمعاوية ، مؤثرين دنياه على دين علي فلم يكن علي يعرض لهم ، ولا يستكرههم على البقاء معه ، ولا يصدّهم عن اللحاق بالشام . كان يرى أنهم أحرار يتخذون الدار التي تلائمهم ، فمن أحب الهدى والحق أقام معه ، ومن رضي الضلال والباطل لحق بمعاوية .

وقد كتب عاملُه على المدينة سهلُ بن حُنيف يذكر أن كثيراً من أهلها يتسللون الى الشام . فكتب اليه علي يُعزّيه عن هؤلاء الناس وينهاه عن أن يعرض لهم أو يُكرههم على البقاء في طاعته .

وكانت هذه سيرته مع الخوارج ايضاً ، يُعطيهم نصيبهم من الفيء ولا يَعرض لهم بمكروه ما أقاموا معه ، ولا يردّ أحداً منهم عن الخروج ان هَمّ به ، ولا يأمر

أحداً من عمّاله بالتعرض لهم في طريقهم . فهم أحرار في دار الإسلام يلبوءون منها حيث يشاءون ، بشرط ألا يُفسدوا في الأرض أو يعتدوا على الناس . فإن فعلوا أجرى فيهم حكم الله في غير هوادة ولا لين . وربما أنذره أحدهم بأنه لن يشهد معه الصلاة ولن يُذعن لسلطانه ، كما فعل الخِرّيت بن راشد فيما مضى من خبره ، فلم يبطش به ولم يعرض له وخلّى بينه وبين حريته . فلما خرج مع أصحابه لم يَحُل بينهم وبين الخروج . فلما أفسدوا في الأرض أرسل إليهم من أنصف منهم .

كان إذاً يعرف للناس حقهم في الحرية الواسعة الى أبعد آماد السعة ، لا يستكره الناس على طاعة ولا يُرغمهم على ما لا يحبون ، وإنما يشتد عليهم حين يعصون الله أو يخالفون عن أمره أو يفسدون في الأرض .

الأمر الثاني ، الذي لم يكن علي يستنكره الناس عليه ، هو الحرب .

كان يرى ان حرب الناكثين والقاسطين والمارقين حقّ عليه وعلى المسلمين، كجهاد العدو من المشركين وأهل الكتاب . ولكنه لم يكن يفرض ذلك عليهم فرضاً ولا يدفعهم اليه بقوة السلطان ، وإنما يندبهم له ؛ فمن استجاب منهم رضي عنه وأثنى عليه ومن قعد منهم وعظه ونصحه وحرّضه وأبلغ في الوعظ والنصح والتحريض . وهو لم يُكره أحداً على حرب الجمل ولا على حرب صفّين ولا على حرب الخوارج ، وإنما نهض لهذه الحروب كلها بمن انتدب معه على بصيرة من أمره ومعرفة لحقه . ولو شاء لجنّد الناس تجنيداً ، ولكن هذا النحو من الخدمة العسكرية التي يُجبر الناس عليها لم يكن قد عُرف بعد . ولو شاء لرغب الناس بالمال في هذه الحرب حين نكلوا عنها ، ولكنه لم يفعل هذا أيضاً . كره أن يشتري نُصح أصحابه له بالمال وأراد أن ينصروه عن بصيرة وإيمان . بل هو قد فعل أكثر من هذا ، فخاض بأصحابه غمرات هذه الحروب ، ثم لم يقسم فيهم غنيمة إلا ما كان يُجلب به العدوّ من خيل أو سلاح . وقد ضاق أصحابه بذلك وقال قائلهم كما رأيت فيما مضى : أباح لنا دماء العدو ولم يُبح لنا أموالهم .

وكان رأيه في هذا أن حرب المسلم للمسلم غير حرب المسلم للكافر ، لا ينبغي أن يراد بحرب المسلم إلا اضطراره الى أن يفيء الى أمر الله . فان فعل ذلك عصم نفسه وماله . ولا ينبغي أن يُسترقّ ولا أن يُصبح ماله غنيمة . وليس كذلك حرب غير المسلمين .

فليس غريباً أن يتثاقل أصحابه عن حرب أهل الشام بعد ما جرّبوا من سيرته

فيهم ، فهي حرب تكلفهم عناء وتعرضهم للموت ثم لا تغني عنهم شيئاً ، لأنها لا تتيح لهم الغنيمة . ونحن نعلم أن العربي يفكر في الغنيمة كلما فكر في الحرب . ولأمر ما حرّض الله المسلمين على الجهاد مع نبيه فقال : (وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا) الآية .

ففي هذين الأمرين : الخضوع لسلطانه وحرب عدوه من المسلمين كان علي يترك أوسع الحرية وأسمحها لأصحابه .

ومن الحقّ أن معاوية لم يكن يجنّد الناس كرهاً لحرب علي، ولم يكن يستبقيهم في الشام وهم للبقاء فيها كارهون . ولكن الحقّ أيضاً أنه كان يعطي فيحسن العطاء ويشتري من الناس طاعتهم له وحربهم مَن دونه، ويُنفق على هذا كله من بيت المال، يرى أن ذلك مُباح له ، ويرى علي أن ذلك عليه حرام .

- ٣٩ -

ليس من شك في أن علياً قد أخفق في بسط خلافته على أقطار الأرض الاسلامية، ثم هو لم يخفق وحده وإنما أخفق معه نظام الخلافة كله . وظهر أن هذه الدولة الجديدة التي كان يُرجى أن تكون نموذجاً للون جديد من ألوان الحكم والسياسة والنظام لم تستطع آخر الأمر إلا أن تسلك طريق الدول من قبلها . فيقوم الحكم فيها على مثل ما كان يقوم عليه من قبل من الأثرة والاستعلاء ونظام الطبقات ، الذي تُستذل فيه الكثرة الضخمة ، لا من شعب واحد بل من شعوب كثيرة ، لقلة قليلة من الناس ، عسى أن تكون من شعب بعينه بين هذه الشعوب ، وهو الشعب الذي استقر أمر الحكم فيه . بل لم يُخفق عليّ ونظام الخلافة وحدهما ، وانما أخفقت معهما الثورة التي قامت أيام عثمان لتحفظ ، فيما كان أصحابها يقولون ، على الخلافة الاسلامية إسماحها وصلاحها ونقاءها من شوائب الأثرة والعبث والطغيان والفساد .

فأولئك الثائرون إنما ثاروا ، فيما كانوا يزعمون ، لأن عثمان لم يحسن سياسة أموالهم ومرافقهم عجز عن هذه السياسة ، على أحسن تقدير ، فركب بنو أمية رقاب الناس، وعبث العمال بالولايات والفيء ، وأسرف الخليفة في بيت المال يؤثر به ذوي رحمه والمقربين اليه من سائر الناس . فهم كانوا يريدون أن يردّوا أمر الخلافة الى مثل

ما كان عليه أيام الشيخين بحيث يتحقق العدل وتمحى الأثرة ، ولا توضع أموال الناس إلا في مواضعها ، ولا تنفق إلا على مرافقهم ، ولا تؤخذ إلا بحقها .

ولكن زعماءهم وقادتهم قُتلوا في سبيل هذه الثورة قبل أن يتموا تثبيتها : قُتل حكيم بن جبلة في البصرة قبل أن تقع موقعة الجمل . وقُتل زعيم البصري حرقوص ابن زهير في النهروان . وقُتل محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر في مصر ، ومحمد ابن أبي حذيفة في الشام : ومات الأشتر مسموماً في طريقه الى مصر . وقُتل عمار ابن ياسر بصفين .

فهؤلاء زعماء الثورة ، منهم من قُتل قبل أن تشب الحروب على علي ، ومنهم من قتل أثناء هذه الحروب ، ومنهم من خالف إمامه ثم قتل أثناء الخروج عليه ، ومنهم من قتله معاوية وأصحابه جهرة او سراً .

وواضح أن الذين ثاروا بعثمان حتى حصروه وقتلوه لم يقتلوا عن آخرهم ، وإنما بقي منهم خلف كانوا أتباعاً لأولئك الزعماء الذين ذكرنا قتلهم والمهم أن قادة الثورة قد ماتوا من دونها ، وأن الثورة قد فقدت بموتهم عقولها المفكرة المدبرة ، فأدرك سائر أصحابها الفشل والتخاذل والتواكل ، وألقوا بأيديهم وآثروا العافية . وكانت الظروف التي أرادوا أن يقاوموها بثورتهم أقوى من أن تقاوَم .

ولكن كلمة الظروف هذه غامضة تحتاج الى شيء من الوضوح . وأول هذه الظروف وأجدرها بالعناية والتفكير : الاقتصاد . فقد كان نظام الخلافة ، كما تصوره الشيخان ، يسيراً سمحاً لا عسر فيه ، أخص ما يوصف به أنه لا يستطيع أن يستقر ولا ان يستقيم إلا إذا آمن به أشد الايمان وأعمقه أولئك الذين أقيم لهم من المسلمين. والايمان بهذا النظام يقتضي قبل كل شيء إيماناً خالصاً بالدين الذي أنشأه ، إيماناً يتغلغل في أعماق القلوب ، ويسيطر على دخائل الضمائر والنفوس ، ويسخر لسلطانه عقول الناس حين تفكر ، وأجسامهم ، وألسنتهم حين تقول. إيماناً لا يقبل شركة مهما يكن لونها، إيماناً بالله لا شريك له من الآلهة والأنداد ، وإيماناً بالدين لا شريك له من المنافع والأهواء . وهذا النوع من الايمان ، إن تحقق للكثرة من أصحاب النبي ، فانه لم يخلص من بعض الشوائب ، لا بالقياس الى الذين أسلموا بأخرة ، ولا بالقياس الى الذين كان النبي يتألفهم بالمال ، ولا بالقياس الى كثير من الاعراب الذين قال الله فيهم:

« قَالَتِ الاعْرابُ آمَنَّا . قُلْ لَمْ تُؤمِنُوا ولكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ولَمَّا يَدْخُلِ الايمانُ في قلوبِكم » .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين من أهل المدينـــة ومن غيرهم ، يدلّه الوحي عليهم وينبئه بأمرهم ، وربما أنبأه الله بأن منهم قوماً لا يعلمهـــم هو وإنما يستأثر الله وحده بعلمهم . فلما قُبض النبي انقطعت او كادت تنقطـــع وسائل العلم بهؤلاء المنافقين . فكان المؤمنون المخلصون كالشعرة البيضاء في الثور الاسود ، كما قال النبيّ . كانوا قِلّة قليلة . وليس أدلّ على ذلك من ارتداد العرب بعـــد وفاة النبيّ ، وجهاد أبي بكر وأصحابه حتى ردّوهم إلى الطاعة بعد تلك الخطوب الكثيرة التي نعرفها . ثم تجاوز الإسلام بلاد العرب وبسط سلطانه على ما فُتح من الأرض أيام الشيخين وأيام عثمان، فكاثر الذين خضعوا لهذا السلطان غيرَ مؤمنين به ولا مُخلصين له، وإنما الخوف وحده قوام ما كانوا يَبذلون من طاعة .

وكذلك كان الفتح مصدر قُوة ومصدر ضعف الدولة الجديدة في وقت واحد كان مصدر قوة ، لأنه بسط سلطانها ومَدّ ظلها على أقطار كثيرة من الأرض. وكان مصدر ضعف لأنه أخضع لها كثرة من الناس لا يؤمنون بها وإنما يخافون منها ويرهبون سطوتها. وكان مصدر قوة لأنه جبى لها كثيراً من المال الذي لم يكن يخطر لها على بال . وكان مصدر ضعف لأن هذا المال أيقظ منافع كانت نائمة ، ونبّه مآرب كانت غافلة ، ولفت إليه نفوساً كانت لا تفكر إلا في الدين. ثم خلق حاجات لم تكن معروفة ولا مألوفة. أظهر للعرب فنوناً من الترف وخَفْض العيش فأغراهم بهـــا ودعاهم إليها ، ثم عوّدهم إياها ، ثم أخذهم بهـــا أخذاً ، إلا قلة قليلة جداً استأثر الدين بها من دون الدنيـــا ، وشغلها التفكير في الله عن التفكير في المال والمنافع والحاجات .

وقد لقي عُمر العناء كل العناء في سياسته للعرب أيام خلافته ، ثم لم يَشْق وحده بهذا العَناء الذي لقيه ، وإنمـــا شقي به العرب كلهم . ضاقوا بسياسته ضيقاً شديداً . شقّ عليهم العـــدل الذي يسوّي بين القوي والضعيف . وشق عليهم الشَّظف الذي كان يريد أن يُمسكهم فيه ويضطرهم إليه . فلمـــا مات سُرّي عنهم وابتسموا للدنيا وابتسمت الدنيا لهم . ولكن هذا الابتسام لم يتصل إلا ريثما استحال إلى عبوس عابس وشرّ عظيم .

فالابتسام للمال يُغري بالاستزادة منه ، والاستزادة منه تفتح أبوابـــاً من الطمع لا سبيل إلى إغلاقها . وإذا وجد الطمع وجد معه زميله البَغْي ، ووجد معه زميل آخر هو التنافس ، ووجد معه زميل ثالث هو التباغض والتهالك على الدنيا . وإذا وجدت كل هذه الخصال وجد معها الحسد الذي يحرق قلوب الذين لم يُتح لهم من الثراء مـــا

أتيح لأصحاب الثراء. وإذا وجد الحسد حاول الحاسدون إرضاءه على حساب المحسودين، وحاول المحسودون حماية أنفسهم، وكان الشر بين أولئك وهؤلاء.

وهذا كله هو الذي حدث أيام عثمان، وهو الذي دفع أهل الأمصار إلى أن يثوروا بعمالهم، ثم إلى أن يثوروا بخليفتهم، ثم إلى أن يحصروه ويقتلوه.

وقد همّ عليّ أن يرد العرب إلى مثل ما كانوا عليه أيام عمر. ولكن أيام عمر كانت قد انقضت ولم يكن من الممكن أن تعود.

ملك المالُ قلوبَ أصحاب المال فقاتلوا عليه في العراق وقاتلوا عليه في الشام، وانتصر عليّ في العراق ولكنه انتصار لم يكد يتمّ حتى نسيه المغلوبون والغالبون جميعاً. فما أسرع ما ذكر أهل البصرة عثمانيَّتهم بعد الجمل. وعثمانيّتهم هذه ليس معناها حُبّ عثمان والطلب بدمه فحسب، وإنما معناها أوسع من ذلك وأشمل. معناها هذا النظام الذي عرفوه فألفوه، نظام الطمع والجشع والتنافس في المال والتهالك عليه، والضيق بتلك الحياة التي فرضها عمر على العرب والتي كان عليّ يريد أن يعود إلى فرضها عليهم.

وقد شكا ابن عبّاس أهلَ البصرة إلى عليّ أنهم بعد خروجه عنهم إثر وقعة الجمل عادوا إلى شيء من الاضطراب لم يرْضه منهم ابنُ عباس. لم يرَ منهم ما كان ينتظر أن يرى من الانقياد والطاعة السمحة. فكتب إليه عليٌّ هذا الكتاب الذي إن دل على شيء فإنما يدل على أن علياً قد فهمهم حق فهمهم، وأراد أن يستصلحهم ما وجد إلى ذلك سبيلاً:

«أتاني كتابك تذكر ما رأيت من أهل البصرة بعد خروجي عنهم. وإنما هم مقيمون لرغبة يرجونها أو عقوبة يخافونها. فأرغب راغبهم واحلل عقدة الخوف عن راهبهم بالعدل والإنصاف له ان شاء الله».

هم مقيمون على رغبة يرجونها أو عقوبة يخافونها، هذا حق ليس فيه شك. ولكن الدواء الذي اقترحه عليّ لم يكن ميسوراً، فهو أراد أن يرغّب الراغب ويحلّ عقدة الخوف عن الخائف. ولكنه أراد أن يكون هذا كله في حدود العدل والإنصاف.

والعدل لا يرغّب راغباً وان حل عقدة الخوف عن الخائف. وليس أدلّ على ذلك من أن عبدالله بن عباس لم يبلغ ما أراد عليٌّ من السياسة، وإنما أراد ان يرغّب الراغبين فرغبَ معهم. فلما شكاه أبو الأسود الى عليّ ولامه عليٌّ فيما فعل، حمل ما قدَر عليه من بيت المال وفرّ به إلى مكة فأقام فيها بماله الكثير. وهمّ أهل البصرة أن يستجيبوا لمعاوية وان يثوروا بزياد، لولا ان علياً زاد عقدة الخوف عليهم تعقيداً،

فأرسل اليهم جارية بن قدامة الذي حرق فريقاً منهم بالنار تحريقاً .

ثم لم يكن المنتصرون مع عليّ يوم الجمل خيراً من المغلوبين . طمعوا في مال أهل البصرة بعد ان انتصروا عليهم ، فلما ردهم عليّ عن ذلك جمجموا ، وقال قائلهم : يُبيح لنا دماءهم ثم لا يبيح لنا أموالهم .

ثم ذهب أهل الكوفة مع عليّ إلى صفّين فقاتلوا وكادوا ينتصرون . ولكن المال أفسد على أشرافهم ورؤسائهم امرَهم كله ، فكان رفع المصاحف وكان إكراه عليّ على قبول التحكيم .

ومنذ ذلك اليوم ظهر ان الثورة قد أخفقت ، وظهر ان علياً لن يبلغ من إحياء سيرة عُمر ما كان يريد. ثم لم يكن عليّ وحده هو الذي ظهر إخفاقه ، فهذا أبوموسى الأشعريّ الذي اختاره أهل اليمن حكماً على غير رضىً من إمامهم، تبيّن في وضوح واضح انه كان يرى رأياً مخالفاً اشد الخلاف لرأي الذين اختاروه . كان يريد أن يبايع للطيّب ابن الطيب عبدالله بن عمر ليحيي اسم عمر وسيرته . ولم يكن أهل اليمن يريدون عمر ولا ابنه ولا أحداً من الذين يُشبهونهما ، وإلا ففيما كانت خيانة عليّ وفيما كان استكراهه على ما لا يريد .

ثم تبين أن أهل الحجاز لم يكونوا خيراً من أهل البصرة والكوفة ، فكثيراً منهم كانوا يتسللون الى الشام إيثاراً لدنيا معاوية ، حتى شكا أميرُ المدينة سهل بن حنيف إلى عليّ من ذلك . فعزّاه عليّ عن هؤلاء المتسللين كما رأيت .

وليس من شك في ان كثيراً من أهل مكة كانوا يفعلون فعل نظرائهم من أهل المدينة . بل ليس من شك في ان كثيراً من الذين كانوا يقيمون في الحرمين ويؤثرون البقاء في الحجاز على الذهاب الى الشام كانوا يتلقون منمعاوية هداياه ومنَحه ، لا يرون بذلك بأساً ولا يجدون فيه حرجاً .

والغريب أنّا نستعرض ما روى البلاذريّ لنا من كتب عليّ إلى عماله على المشرق، فلا نرى من هذه الكتب كلها إلا كتابين اثنين يُثني فيهما عليّ على عاملين اثنين ثناء لا تحفظ فيه . وقد روينا لك أحدُ هذين الكتابين الى عمر بن أبي سلمة حين عزله عن البحرين . فأما كتابه الثاني فقد أرسله الى سعد بن مسعود الثقفيعامله علىالمدائنوهو:

« اما بعد . فقد وفرت على المسلمين فيئهم وأطعت ربك ونصحت إمامك ، فعل المتنزه العفيف . فقد حمدت أمرك ورضيت هديك وأبنت رشدك . غفر الله لك . والسلام » .

فأما سائر كتبه إلى أولئك العمال، ففي بعضها التأنيب والتوبيخ ، وفي بعضها العتاب والتخويف ، وفي بعضها الآخر الوعظ والتأديب وقد علمت ما كان من مَصْقلة بن هبيرة ومن المُنذر بن الجارود . أحدهما يلتوي بالمال حتى يفر الى الشام . والثاني يلتوي بالمال حتى يُحبس فيه . وليس أمر ابن عباس منك ببعيد .

بل لم يكن كل الذين اعتزلوا الفتنة بمأمن من هذه النكسة التي اصابت المسلمين بعد الفتح حين كثر عليهم المال . فاذا كان سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مَسلمة قد فرّوا بدينهم من الفتنة فلم يدخلوا في حرب مع احد الفريقين الخصمين ، وصمّموا على عزلتهم كما ارادوها خالصة لله ودينه ، فقد كان المُغيرة بن شُعبة مثلاً معتدلاً ، يؤثر العافية في الطائف ، ولكنه كان ضيقاً بهذه العافية ، وكان يتحرّق شوقاً الى العمل ، ولعله لم يكن يضيق بشيء كما كان يضيق بما أتيح لعمرو بن العاص من نُجح ، على حين ظل هو يعلكُ لجامه كالجواد القارح الذي حيل بينه وبين النشاط .

وكان ابو هُريرة يقيم في المدينة ولا يكره ان تناله النافلة من مال معاوية بين حين وحين . وقد نُشط المُغيرة بن شُعبة في أمر معاوية بعد أن صار اليه الأمر كله، على حين احتفظ الشيخان سعد وابن عمر بعزلتها الوادعة .

ولم يكن أهل الحرمين يُحبون القتال بعد ما بَلوْا من الأحداث ، فكانوا وادعين يقبلون ما يُساق اليهم من خير مهما يكن مصدره ، ويبايعون لصاحب السلطان والبأس كانوا على طاعة عليّ . ثم بايع أهل المدينة لمعاوية حين أخافهم بُسْر بن أرْطاة . فأما أهل مكة فأجابوا بُسراً في غير ما خوف ولا رهب ، لأن معاوية أوصاه بهم خيراً . فلما ألمّ بهم قائد علي بعد أن طرد بُسْراً ، بايع أهل مكة لمن بايع له أهل الكوفة ، دون أن يتبينوا مَن هو . وبايع أهل المدينة لمن بايع له أهل الكوفة ، بعد أن عرفوا أنه الحسن بن عليّ .

كل شيء إذاً كان يدل على أن سلطان الدين على النفوس لم يكن من القوة في المنزلة التي كان فيها أيام عمر ، وعلى أن سلطان المال والسيف كان قد استأثر بالقلوب والنفوس . وكل شيء يدل على أن علياً ، والذين ذهبوا مذهبه من المحافظة على سيرة النبي والشيخين ، إنما كانوا يعيشون في آخر الزمان الذي غلب الدين فيه على كل شيء .

فقلْ إذاً في غير تردّد : إن أول الظروف التي كانت تقتضي أن يُخفق علي في سياسته هو ضعف سلطان الدين على نفوس المحدثين من المسلمين ، وتغلُّب سلطان

الدنيا على هذه النفوس .

وكان العرب إلى أيام عمر لا يعرفون من شؤون غيرهم إلا قليلاً ، يحمل إليهم التجار منهم ، حين يعودون بتجارتهم ، أخباراً مختلطة عن الفرس والروم والحبشة ، وعن الشام ومصر والعراق خاصة . وينقل إليهم الوافدون عليهم من التجار الأجانب المجلوبون لهم ومن الرقيق أخباراً عن هذه البلاد ، لعلها كانت في نفوسهم واضحة ، ولكنها كانت لا تكاد تنتقل إلى نفوس العرب حتى تختلط ويشوبها كثير من الإبهام والغموض ، حتى كان علم العرب بشؤون هذه البلاد أقربُ إلى الأعاجيب وأنباء الأساطير منه إلى الحقائق الصحيحة والوقائع الصادقة .

فلما كان الفتح رأت جيوش المسلمين الكثيرَ من حقائق هذه البلاد . ثم استقرّت فيها واستقر المستعمرون من العرب فيها كذلك . فعرفوا هذه البلاد معرفة صحيحة ، وبلوا من أمورها وأمور أهلها أشياء لم يكونوا يحقّقونها .

وقد أخذهم شيء من الدهش أول الأمر لما رأوا وما سمعوا ، ولكنهم ألفوا هذه الأشياء وهؤلاء الناس ، ثم جعلوا يختارون مما رأوا من الأخلاق والسير وضروب الحياة ما يستطيعون اختياره ، مما يلائم أمزجتهم وطبائعهم وأذواقهم .

وجعلت نفوس تتغير تغيراً بطيئاً أول الأمر ، ولكنه جعل يسرع ويقوى كلما طالت إقامتهم في الآفاق . وقد رأوا حضارةً راعتهم ، وفنوناً من الترف سحرت عيونهم ، وألواناً من خفض العيش ورقته لم تكن تخطر لهم على بال . وقد تعلّقت نفوس كثير منهم بهذه الطرائف التي رأوها ، وتمنت ضمائرهم ، شاعرةً بذلك أو غير شاعرة به ، أن تأخذ من هذه الحياة أطرافاً . وأثر هذا كله في نظرها إلى الأشياء وحكمها عليها وتقديرها لقيم الحياة .

وقد بهرهم أول ما بهرهم جلالُ الملك الذي أزالوه في بلاد الفرس ، والذي نقصوه من أطرافه في بلاد الروم . وقارن الأذكياء وأصحاب المطامع منهم ، بين ما أقبلوا عليه من ذلك وما تركوا وراءهم في المدينة أو في غيرها من حضر البلاد العربية وباديتها، فأكبروا هذا الجديد وصَغُر قديمهم في أنفسهم ، واستحيا أكثرهم من إظهار ذلك . فتناجت به ضمائرهم ، وهوت إليه قلوبهم ، وجعلوا ينظرون إلى من وراءهم من أولئك الشيوخ أصحاب النبيّ في كثير من الإجلال والإكبار ، ولكن في كثير من الرفق والرثاء أيضاً . يُجلّونهم ويكبرونهم لمكانهم من النبي وسابقتهم في الدين ، ويرفقون بهم ويرثون لهم لأنهم يمثلون جيلاً قديماً قد انقضت ايامه أو أوشكت أن تنقضي .

وكان الذين يعودون منهم إلى المدينة يلقون عمر فيتكلّفون التجمل بسيرته ويحتالون في ألا يظهر على دقائق أمرهم وحقائقه . يلقونه مُظهرين الشظف وغلاظة الحياة وخُشونة العيش ليرضى عنهم ويطمئن إليهم فإذا خلوا إلى أنفسهم ، أو خلا بعضهم إلى بعض ، أخذوا بما ألفوا من لين الحياة ، وأشفقوا على عمر من حياته الخشنة تلك ، في كثير من الإكبار له والإعجاب به .

فلما كانت خلافة عثمان خفّت عليهم مؤونة هذا التكلف ، فلم يكن عثمان يحب الشظف ولا خشونة العيش ، فأظهروا من أمرهم ما كانوا يكتمون . ورقّت الحياة في المدينة نفسها حتى دخلها الترف واستقر فيها ، وحتى جعلت الدور والقصور ترتفع في المدينة وما حولها ، وحتى جعل الشباب يُقبلون على ألوان من اللعب لم يكن للعرب عهد بها من قبل . وحتى اضطر عثمان نفسه ، على إسماحه وإيثاره الدعة ، إلى أن يقاوم هذه الألوان من الفتنة المجلوبة التي جعلت تسلك سبيلها إلى النفوس .

ثم رأى العرب جماعةً من شيوخ الصحابة وأصحاب السابقة والمكانة يستكثرون من المال ويُقبلون على شيء من اللين ، فأقبلوا على ما أقبل عليه أئمتهم ومعلّموهم . ثم جلب الفتحُ إلى الحجاز وإلى بلاد العرب عامةً أعداداً ضخمة من الرقيق ، على اختلاف أجناسهم وعلى اختلاف طبقاتهم ، في حياتهم القديمة التي كانوا يحيونها في بلادهم قبل الفتح. فلم يترك هؤلاء الرقيقُ من الرجال والنساء أخلاقهم وطباعهم وأمزجتهم وراءهم عند حدود البلاد العربية ، وإنما حملوها معهم وأظهروا سادتهم على كثير منها ، ثم أغروا سادتهم بكثير منها . فلم يجدوا من سادتهم مقاومة ولا امتناعاً ، وإنما وجدوا استجابة وإقبالاً ، فافتتنوا فيما أحب سادتهم من هذا كله .

ثم لم يكن هذا كله مقصوراً على الرقيق الذين حُملوا إلى الأرض العربية ، وإنما كان شاملاً كذلك الرقيق الذين استقروا مع سادتهم في الأقطار المفتوحة . وكل هذا جدّد النفس العربية تجديداً يُوشك أن يكون تاماً ، وباعد بينها وبين الحياة الخشنة القديمة أشد المباعدة .

فلما قُتل عثمان وأقبل الخليفة الرابع يريد أن يحملهم على الجادّة ، وأن يردّهم إلى السيرة التي ألفها المسلمون أيام النبيّ والشيخين ، لم ينشطوا لذلك ولم يطمئنوا إليه ، وإنما نظروا فرأوا خليفة قديماً يدبّر جيلاً جديداً ، ويريد أن يدبّره تدبيراً يناقر أشد المنافرة ما أحب من حياة الخفض واللين .

ثم نظروا بعد ذلك فرأوا أميراً آخر قد أقام في الشام ، وقد جدّد نفسه مع هذا

الجيل الجديد . ثم لم يكتف بتجديد نفسه والملاءمة بينها وبين رعيته ، إنما يغري رعيته بالتجديد ويُعينها عليه بالمال . ويحتج لذلك بما شاء الله من الحجج . فهو مقيم في بلاد مجاورة لبلاد الروم ، وهو يريد أن يُلقي في رُوع الروم أنه ليس أقل منهم أبهة ولا أهون منهم شأناً ولا أرغب منهم عن طيبات الحياة ، وأن أصحابه يشبهونه في ذلك . ثم هو يحارب هؤلاء الروم فينبغي أن يحاربهم بمثل أسلحتهم ثم هو يحارب خصمه في العراق فينبغي أن يكيد له ويغري به ويخذل عنه ويفرق الناس من حوله .

كل الوسائل إلى ذلك مستحبة ، بل مفروضة لا ينبغي أن يتردد في اتخاذها .

وكذلك جعل معاوية يُنفق المال ويتألف الرجال ويكيد للذين يمتنعون عليه . وكل هذه الظروف مجتمعة كانت خليقة أن تُقِرّ في نفس عليّ أنه غريب في العصر الذي يعيش فيه ، وبين هذا الجيل الذي يريد أن يدبر أمره من الناس ، وأن تُلقي في روعه كذلك أنه يحاول أمراً ليس إلى تحقيقه من سبيل .

هذا ابن عمه يخالف عنه إلى حيث يعيش ناعماً رضيَّ البال بمكة . وهؤلاء العمّال يستخفون بما يستأثرون به من المال إلا أقلهم ، وهؤلاء الأشراف يتلقون المال من معاوية ويهيئون له الأمر في العراق . وهؤلاء العامة يؤثرون العافية على الحرب وما تجلب من البلاء والهول . وعليّ بين هؤلاء جميعاً يدعو فلا يُجاب ، ويأمر فلا يُطاع ، حتى يفسد عليه رأيه ، وحتى يملّ قومه ويملّوه ، وحتى يسأل الله أن يبدّله بهم خيراً منهم وأن يبدلهم به شرّاً منه ، وحتى يتعجل أشقى هذه الأمة الذي ألقي إليه أنه سيقتله ، فيقول : ما يؤخّر أشقاها ؟ وحتى ينتظر القتل بين ساعة وأخرى فيكثر التمثل بهذا الشعر :

اشدد حيازيمك للموت	فإن الموت لاقيكَ
ولا تجزع من الموت	إذا حل بواديك

وحتى يقول أثناء وضوئه بين حين وحين : لتُخضبنّ هذه من هذه . مشيراً إلى لحيته وجبهته .

ولو قد أطاع عليّ ضميره الخفي لاستعفى أصحابه من بيعتهم ، وأنفق ما بقي من أيامه يعبد الله وينتظر الآخرة . ولكن هيهات ! قد آمنت نفسه بالحق ، وبأن القعود عن نصره جبن ومعصية . وليس هو بالرجل الذي يُسرع إليه اليأس أو يفشل عن حرب عدوّه مهما تكن الظروف. ولذلك قال لأصحابه حين ضاق بتخاذلهم وعصيانهم:

« لتنهضُنّ معي لقتال أهل الشام أو لأمضين لقتالهم مع من يتبعني مهما يكن عددهم قليلا » .

كانت ظروف الحياة الجديدة كلها إذاً مؤاتية لمعاوية مناقرة لعليّ ، ولكنها على ذلك لم تُضعف عليّاً عن الحق ولم تخرجه عن طَوْره في يوم من الأيام فاحتفظ بمزاجه معتدلاً ، وبسيرته مستقيمة في جميع أطواره وأيامه .

وكان بينه وبين معاوية اختلاف آخر يغري الناس به ويجمعهم لخصمه . كان يدبّر أمور أصحابه عن ملأ منهم ، لا يستبد من دونهم بشيء ، وانما يستشيرهم في الجليل والخطير من أمره ، وكان يرى لهم الرأي فيأبونه ويمتنعون عليه ويضطرونه الى ان ينفذ رأيهم هم ويحتفظ برأيه لنفسه . وكان ذلك يغريهم به ويطمعهم فيه .

ولم يكن معاوية يعطي أصحابه بعض هذا الذي كان يعطيهم عليّ ، لم يكن يستشيرهم ، وإنما كان له المشيرون من خاصته الأدنين. فكان اذا أمر أطاعه أهل الشام دون أن يُجمجموا فضلاً عن أن يجادلوا ؛ ثم كان معاوية يحتفظ بسرّه كله لا يظهر عليه إلا من أراد أن يظهره عليه من خاصته . وكانت أمور علي كلها تدبَّر وتبرم على ملأ من الناس ، لا تخفى على أصحابه من أمره خافية مهما يكن خطرها .

كان عليّ يدبّر خلافة وكان معاوية يدبّر ملكاً ، وكان عصر الخلافة قد انقضى وكان عصر الملك قد أطلّ .

— ٤٠ —

وبينما كان عليّ يجاهد المرّة تلك ويجاهد أصحابه ليحملهم على النهوض معه الى حرب الشام ، ويبعث البعوث لرد غارات معاوية على أطرافه في العراق والحجاز واليمن ، ويجاهد الخوارج الذين يجاهرونه بالعداء وينشرون الروع في الناس ، ويَلين للخوارج الذين كانوا يعيشون معه في الكوفة يتربصون الفرص للخروج ، ويجاهد عمّاله ليأخذهم بالأمانة في أعمالهم . بينما كان عليّ في هذا كله ، كان ناس من الخوارج يشهدون الموسم ويرون اختلاف الحجيج من أصحاب علي ومعاوية ، كان يأبى أن يصلي بصلاة أمير خصمه ، حتى اختار الناس رجلاً ليس بالأمير هذا او ذاك ليقيم للناس صلاتهم .

فضاق هؤلاء النفر من الخوارج بما رأوا ، وذكروا مصارع اخوانهم الذين قُتلوا في

النهروان، وفيما كان بينهم وبين علي وأصحابه من المواقع الأخرى، وائتمروا أن يريحوا الأمة من هذا الاختلاف الذي تشقى به ، وأن يقتلوا هؤلاء الثلاثة الذين هم أصل هذا الاختلاف : عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص ، من جهة ، وأن يثأروا لإخوانهم بقتل علي ، من جهة اخرى .

فانتدب أحدهم عبدالرحمن بن مُلجم الحِميري ، حليف مُراد ، لقتل علي . وانتدب الحجّاج بن عبدالله الصّريمي ، من تميم لقتل معاوية . وانتدب عمرو بن بكر ؛ او ابن بكير ، التميمي صليبة او بالولاء ، لقتل عمرو بن العاص . واتفقوا على يوم بعينه ينفذون فيه ما صمموا عليه ، وأقتوا ساعة لاغتيال هؤلاء الثلاثة ، وهي ساعة الخروج لصلاة الصبح من اليوم السابع عشر من شهر رمضان لعامهم ذاك سنة أربعين .

وأقاموا في مكة أشهراً ثم اعتمروا في رجب ثم تفرقوا ؛ مضى كل واحد منهم لينفذ نصيبه من هذه الخطة.

فأما صاحب معاوية فعرض عليه في الساعة الموقوتة من اليوم الموقوت فلم يبلغ منه شيئاً ، لأنه كان دارعاً ، فيما يقول بعض المؤرخين ، او لأنه لم يُصب منه مقتلا ، فيما يقول بعضهم الآخر . ولكنه هو اصاب حَتْفَه .

وأما صاحب عمرو فعرض له في الساعة الموقوتة كذلك ولكنه لم يُصبه ، لأن عمراً لم يخرج للصلاة في ذلك اليوم ، منعته العلة ، فأناب صاحب شرطته خارجة ابن حذافة العدويّ وأصابه السيف فقتله وقتل عمرو بعد ذلك هذا المقاتلَ الذي أراد عمراً فأراد الله خارجةَ .

وأما عبد الرحمن بن مُلجم فأقام في الكوفة يرقب يوم الموعد وساعته. ثم أقبل من آخر الليل ومعه رفيق له استعانه على ما أراد فانتظرا خروج علي للصلاة ، فلما خرج تلقّياه بسيفهما وهو يدعو الناس لصلاتهم . فأصابه سيف بن مُلجم في جبهته حتى بلغ دماغه . ووقع سيف صاحبه في جدار البيت ، وخرّ عليّ حين أصابته الضربة وهو يقول : لا يفوتنكم الرجل .

وقد أُخذ عبد الرحمن بن مُلجم وقُتل صاحبه وهو يحاول الفرار . وحُمل علي الى داخل داره ، فأقام فيها يومين وليلة بينهما ، ثم مات في ليلة اليوم الثاني .

ويروي المؤرخون أن قاتل عليّ لقيه بالسيف وهو يقول: الحكم لله يا عليّ لا لك. وعلي نفسه يقول : الصلاة عباد الله .

ويروي المؤرخون كذلك أن علياً أمر من حوله أن يُحسنوا طعام ابن مُلجم

ويُكرموا مثواه ، فإن بَرئ من ضربته نظر ، فإما عفا وإما اقتص . وأمرهم إن مات أن يُلحقوه به ولا يعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .

ويروي المؤرخون كذلك أن آخر كلام سُمع من علي قبل أن يموت هو قول الله عز وجل : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه ، ومن يَعْمَلْ مِثْقَال ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه) .

ويزعم الرواة من أصحاب الجماعة أن علياً لم يستخلف على المسلمين أحداً ، وأنه سُئل عن رأيه في بيعة الحسن ابنه بعده ، فقال : لا آمركم ولا أنهاكم .

ويزعم الشيعة أنه أوصى بالخلافة للحسن نصاً ، وهذا خلاف يطول القولُ فيه وليس من شأننا أن نعرض له .

والشيء المحقق هو أن ولاة الدّم لم ينفّذوا وَصية علي في أمر قاتله ، فهو قد أمرهم أن يلحقوه به ولا يعتدوا ، ولكنهم مثّلوا به أشنع تمثيل . فلما مات حرقوه بالنار .

والرواة يختلفون بعد ذلك في قبر علي ، يقولون : إنه دُفن في الرحَبة بالكوفة وعُمّي قبره حتى لا ينبشه الخوارج . وقوم يقولون : إن الحسين نقله بعد ذلك الى المدينة فدفنه الى جانب فاطمة زوجه . والغلاة من خصوم الشيعة يزعمون أنه نقل الى الحجاز في تابوت وضع على بعير ، ولكن ناقليه أضلّوا بعيرهم ذاك ، فأخذه جماعة من الأعراب ظنّوا أن عليه مالاً في ذلك التابوت ، فلما رأوا أن فيه جثة قتيل دفنوه في مكان مجهول من الصحراء .

والكلام في هذه الروايات المختلفة لا ينقضي وليس فيه طائل أو غناء .

وقد انتهى النبأ بموت علي الى أهل المدينة ، وبلغ عائشةَ فتمثلت قول الشاعر :

وألقت عصاها واستقرت بها النّوى   كما قَرّ عيناً بالإياب المُسافرُ

كأنها أرادت أن تقول : إن علياً قد أراح بموته واستراح . وليس من شك في أنه استراح بموته من شقاء كثير . ولكنّ الشكّ كل الشك في أنه أراح . بل اليقين كل اليقين هو أن موت علي رحمه الله لم يُرح أحداً ، وإنما أورث المسلمين عناء وخلافاً لم ينقضيا بعد . وما أرى أنهما سينقضيان قبل وقت يعلم الله وحدَه أيقصر أم يطول .

– ٤١ –

وإلى هنا ينقضي حديث التاريخ عن عليّ رحمه الله ويبدأ حديث القصّاص وأصحاب

السِّيَر والأساطير . وقد ذهب هؤلاء جميعاً كلّ مذهب فيما أرادوا اليه من التعظيم والتفخيم ومن التهويل والتأويل . وخلطوا كل ذلك بالتاريخ خلطاً عجيباً ، حتى أصبح من أعسر العسر أن يخاص المؤرخ الى الحق الواضح في أيسر الأمور من كل ما يتصل بشأن من شؤون عليّ فهم لم يكتبوا حديث عليّ متجردين فيه من شهوات القلوب ونزوات النفوس ، ولا متبرئين من الهوى الذي يفسد الرأي ، ولا من عبث الخيال الذي يخفي حقائق التاريخ .

منهم من أحبّ عليّاً في غير قصد فأفسد الحب عليه أمرَه كله ، وقال بما أوحى إليه خياله لا بما صحّ لعقله من الحوادث والأخبار . ومنهم من أبغض عليّاً وأسرف في بغضه فأفسد البغض عليه أمره ، وصور فيما كتب أو روى ما أوحى اليه الحقد وأملى عليه الخيال المضطغن ، لا ما ألقى اليه الثقات من حقائق التاريخ . منهم العراقيّ الذي لا يحب عليّاً وحده وإنما يتعصب لأهل العراق عامة ، ويتوخى في كل ما يكتب ويروي أن يكون لأهل العراق الفضل المحقَّق على أهل الشام في كل قول وفي كل عمل وفي كل مشهد من المشاهد . ومنهم الشامي الذي لا يبغض عليّاً فحسب ، ولكنه يتعصب لأهل الشام ويرى لهم الفضل كل الفضل والتفوق كل التفوق .

وقد أسرف أهل الشام حين انتهت الأحداث باستقامة الأمر لمعاوية وخلفائه من الأمويين ، وإن كان إسراف أهل الشام لم يكد يبقى لنا منه شيء بعد أن تغيّر مجرى التاريخ وانتقل السلطان الى بني العباس فلوّنوا التاريخ بما يلائم أهواء السلطان الجديد .

فاذا أضفت الى هذا كله أن أهل الشام وأهل العراق عرب لم يبرءوا قط من العصبيّة الجاهلية ، لم تجد بدّاً من ان تقدر تأثير هذه العصبية في وصف ما كان للقبائل من بلاء في الحرب وموقف في السلم كل قبيلة تريد أن تؤثر نفسها بأعظم حظ ممكن من الفضل والسابقة .

ثم إذا أضفت الى هذا ايضاً ان اولئك وهؤلاء لم يستطيعوا في تلك العصور أن يفرقوا بين السياسة والدين ، وإنما رأى أهل العراق أنهم يحبون عليّاً في الله ، فحبه دين ، وأنهم شاركوا في الثورة بعثمان في سبيل الله أيضاً ، فأرضوا الله بثورتهم ، وأرضوه بقتل ذلك الخليفة الذي لم يُجْرِ أمور الخلافة في رأيهم كما كان ينبغي أن تجري .

وأهل الشام يبغضون عليّاً في الله لأنه ، فيما زعم لهم قادتهم ، قد شارك في قتل

الخليفة المعصوم ، فأحل ما حرّم الله من هذا الدم الحرام في الشهر الحرام والبلد الحرام، وأبى على أقل تقدير أن يسلم قتلة عثمان إلى وليّ دمه ، فحمى العصاة المجرمين .

أقول إذا أضفت هذا كله عرفت أن التاريخ لم يبرأ في أمر هذه الفتنة من أثر العواطف الجامحة التي تسدل دون الحق أستاراً أيّ أستار ، عواطف العصبية للوطن والعصبية للقبيلة ، وعواطف الدين ، ثم عاطفة الطمع الذي يغري بالتقرب الى الخلفاء والرغبة فيما عندهم ، واتخاذ القصص والتكثر والكذب على التاريخ وسيلةً إلى رضى السلطان وطريقاً إلى أخذ ما عنده من المال .

والأمور تتعقد بعد هذا تعقيداً عجيباً ولكن أمره ليس عسيراً ولا مشكلاً . فقد امتُحن اهل العراق بعد موت عليّ رحمه الله أشد امتحان وأقساه . عارضوا خلفاء بني أمية ، فأرسل اليهم هؤلاء الخلفاء من يقمع معارضتهم أعنف أنواع القمع وأغلظها. فكانوا اذاً مضطهدين .

وليس شيء يدعو إلى التكثر والاختراع أكثر من الاضطهاد الذي يملأ القلوب روعاً وفرقاً ، ويشيع في النفوس بعد ذلك من البغض والحقد والضغينة ما ينطق الألسنة ويجري الأقلام بالشكاة المرة والأحاديث التي ليس بينها وبين الحق صلة أو سبب .

وامتحن أهل الشام حين انتقل السلطان الى العباسيين أشق امتحان وأمضّه فساروا سيرة أهل العراق من قبل . وكذلك نُسجت كل هذه الأستار الكثاف التي ألقيت بيننا وبين حقائق التاريخ فجعلت مهمة المؤرخ الصادق من أعسر المهمات عسراً وأقساها قسوة .

وما رأيك في قوم قعدوا عن نصر عليّ بعد صفّين حتى بغّضوا اليه الحياة وأرهقوه من أمره عسراً ، فلما فارقهم وفارقتهم بموته سماحة الخلافة ولين العيش ، كلفوا بذلك الذي قعدوا عن نصره أشد الكلف ، وهاموا في حبه اعظم الهُيام ، وقالوا في تعظيمه وإجلاله اعظم القول ، وغلا بعضُهم في ذلك بآخرة حتى رأوا في علي عنصراً من الألوهية يرفعه فوق غيره من الناس .

وما رأيك في قوم آخرين يرون من أهل العراق هذا كله ، ويرون منهم اسرافهم فيما يُضيفون الى علي من الخصال ، وتجاوزهم القصد في كل ذلك . فلا يكتفون منهم بما يسمعون عنهم او بما يرون من سيرتهم ، وانما يضيفون اليهم اكثر مما قالوا وأكثر مما فعلوا . ثم لا يكتفون بذلك وانما يحملون هذا كله على عليّ نفسه وعلى معاصريه ، فيتحدثون بأن قوماً من اهل الكوفة ألّهوا علياً وأعلنوا اليه ذلك ، ثم يزعم الصالحون

المصلحون ، الذين يُحسنون الظن بعلي كما يحسنون الظن بغيره من اصحاب النبي ، أن علياً ضاق بهذا التأليه وحرق القائلين به تحريقاً .

والغريب أن هذا التأليه استمر بعد موت علي وبعد تحريقه مَن حرق من مؤلّهيه ، كأن هؤلاء الناس من شيعة علي قد ألّهوه على رغمه وعلى عِلْم منهم بأنه يُنكر ذلك ويُبغضه ويعاقب عليه بالتحريق .

ثم يغلو خصوم الشيعة فيزعمون أن الذين حرقهم علي بالنار قد ازدادوا تأليهاً له حين رأوا النار ورأوا أنهم يُدفعون اليها ويلقون فيها . فقال قائلهم : لا جرم ، لا يُعذّب بالنار إلا خالقُ النار .

وكل هذا خاط من الخلط ومِراء من المراء ، وتكثُّر دعا اليه الإغراق في اللجاج والغلو في الخصومة والإسراف في هذا البغض المعقّد . والأمر بين علي وأصحابه أيسر من هذا كله يسراً ، وأهون من كل هذا التكلف والإغراق . فقد حمل علي اصحابه كما رأيت على ما حَمَلهم عليه من تلك الحروب المُبيرة غير المُغنية . وأفسد معاوية عليه رؤساء اصحابه بالمال والكيد فقعدوا عن نصره وفشلوا عن حقه وحقهم . وتنبأ لهم علي بأن قعودهم هذا سيجر عليهم الشر كل الشر وسيورّطهم في النكر الذي لا حد له ، فلم يسمعوا له حين قال ، ولم يستجيبوا له حين دعا . فلما قُتل واستقامت أمور العراق لمعاوية وخلفائه من بني أمية صَحّت لأهل العراق نُذر علي كلها ، وتحققت فيهم نبوءته لهم ، فسامهم ولاة الأمويين الخسف كل الخسف ، وحملوهم على أشد ما كانوا يكرهون ، وامتحنوهم في أموالهم وأنفسهم ، وفي سرهم وعلانيتهم ، وفي كل دينهم ودنياهم ، فذكروا أيام علي وندموا على ما فرّطوا في جنبه وما قصروا في ذاته . فدُفعوا الى ما دُفعوا اليه من الغلو في حب علي والإسراف في الهيام به ، والافتنان في تكبيره وتعظيمه ، يرون في ذلك كله عزاء عما قدّموا اليه من الإساءة اليه أثناء حياته .

وقد رأيت أن حياة علي في العراق قد كانت محنة كلها . فإذا علمت أن علياً نفسه كان يرى ان حياته في الحجاز بعد وفاة النبي ﷺ قد كانت محنة ايضاً ، لأنه كان يرى نفسه أحق بالخلافة ، فامتحن بصرف الخلافة عنه الى الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه . وقد صبر على محنته تلك فأجمل الصبر ، وأطاع الخلفاء الثلاثة فأحسن الطاعة ، ونصح لهم فأبلغ في النصح فلما ارتقى الى الخلافة او ارتقت الخلافة اليه لم يَجن منها إلا شراً ، وإلا شراً كان يزيد ويتضاعف كلما تتابعت أيامه في العراق ، حتى كاد ينتهي به الى اليأس ، لولا أنه أجمل الصبر في العراق ، كما أجمل الصبر في الحجاز .

فقد امتحن إذاً أشد الامتحان وأعسره ثلاثين عاماً من حياته ، ثم انتهى آخر الأمر الى أن ُقتل أثناء خروجه للصلاة . لم يقتله عبد أعجمي مأسور ، وانما قتله ُحرٌّ عربي عن استتار بينه وبين قوم مثله أحرار عرب . فميتته كانت أشق وأشنع من ميتة عمر .

ثم امتحن بنوه من بعده كما سترى ، وامتحن اهل العراق بعد موته كما سترى ايضاً . فأي غرابة في أن تقسو كل هذه المِحَن الجسام المتتابعة على أهل العراق وَمن إليهم ، فيرون في عليّ وبنيه غير ما يرى منهم سائر الناس ، ويرفعونهم من أجل هذه المحن نفسها الى هذه المكانة الممتازة التي رفعوهم إليها ، ويغلو غلاتهم بعد ذلك ، وبعد أن عرفوا من أمر اليهود والنصارى ما عرفوا ، وبعد أن عرفوا كذلك من أمر الفرس ما عرفوا ، فيضيفون اليه والى بنيه من خصال التقديس ما لا يضاف عادة الى الناس. وخصومهم واقفون لهم بالمرصاد يُحصون عليهم كل ما يقولون ويفعلون ، ويُضيفون اليهم أكثر مما قالوا وما فعلوا ويحملون عليهم الاعاجيب من الاقوال والافعال .

ثم يتقدم الزمان وتكثر المقالات ويذهب أصحاب المقالات في الجدال كل مذهب ، فيزداد الأمر تعقداً واشكالا ، ثم تختلط الأمور بعد ان يبعد عهد الناس بالاحداث ، ويتجاوز الجدال خاصة الناس الى عامتهم ، ويتجاوز الذين يُحسنونه الى الذين لا يُحسنونه ، ويخوض فيه الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، فيبلغ الأمر أقصى ما كان يمكن أن يبلغ من الإبهام والإظلام ، وتصبح الأمة في فتنة عمياء لا يهتدي فيها الى الحق الا الأقلون .

والشيء الذي ليس فيه شك فيما أعتقد هو ان الشيعة ، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة عند الفقهاء والمتكلمين ومؤرخي الفِرق ، لم توجد في حياة علي وانما وُجدت بعد موته بزمن غير طويل .

وانما كان معنى كلمة الشيعة أيام علي هو نفس معناها اللغوي القديم الذي جاء في القرآن في قول الله عز وجل من سورة القصص: (وَدَخَلَ المَدِينَةَ على حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أهْلِها فَوَجَدَ فيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذا مِنْ شِيعَتِه وهَذَا مِنْ عَدُوِّه . فاسْتَغَاثَه الذي مِن شيعته على الذي من عدوه فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضى عليه) الآية . وفي قول الله عز وجل من سورة الصافات : (وإنَّ من شِيعته لإبْراهِيم).

فالشيعة في هاتين الآيتين وغيرهما من الآيات معناها الفِرقة من الاتباع والانصار الذين يوافقون على الرأي والمنهج ويشاركون فيها . والرجل الذي كان من شيعة

موسى كان رجلاً من بني إسرائيل ، والرجل الذي كان من عدو موسى كان رجلاً من المصريين .

بذلك قال المفسرون القدماء الذين تلقوا التفسير عن الفقهاء من أصحاب النبي . وابراهيم كان من شيعة نوح ، أي على سُنته ومنهاجه ، يرى رأيه ويدين بدينه ، كما قال هؤلاء المفسرون أيضاً. فشيعة علي أثناء خلافته هم اصحابه الذين بايعوه واتبعوا رأيه، سواء منهم مَن قاتل معه ومن لم يقاتل . ولم يكن لفظ الشيعة أيام علي مقصوراً على أصحابه وحدهم ، وانما كان لمعاوية شيعته أيضاً . وهم الذين اتبعوه من اهل الشام وغيرهم من الذين كانوا يرون المطالبة بدم عثمان والحرب في ذلك حتى يقام الحدّ على قاتليه . وليس أدل على ذلك من نص الصحيفة التي كتبت للتحكيم بعد رفع المصاحف في صفّين . فقد جاء في هذه الصحيفة : « هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان . قاضى علي على أهل العراق ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين . وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين » .

فلفظ الشيعة هنا لا يضاف الى علي ومعاوية كما ترى ، وانما يضاف الى اهل العراق وأهل الشام . يريد كاتب الصحيفة أن يذكر من يناصر علياً وأهل العراق من المؤمنين والمسلمين في البلاد الاسلامية كلها ، ومن يُناصر معاوية وأهل الشام من المؤمنين والمسلمين في البلاد الاسلامية كلها أيضاً . ومعنى ذلك أن الصحيفة تلزم الفريقين المُختصمين بما فيها ، ولا تلزم هذه الفئة القليلة من المعتزلة الذين أبَوا أن يشاركوا في الفتنة من قريب أو بعيد .

لم يكن للشيعة اذن معناها المعروف عند الفقهاء والمتكلمين منذ أيام علي ، وإنما كان لفظاً كغيره من الالفاظ يدلّ على معناه اللغوي القريب ، ويستعمل في هذا المعنى بالقياس الى الخصمين جميعاً . ولست أعرف نصاً قديماً أضاف لفظ الشيعة الى علي قبل وقوع الفتنة فلم يكن لعلي قبل وقوع الفتنة شيعة ظاهرون ممتازون من غيرهم من الأمة .

والرواة يحدثوننا بأن العباس أراد علياً على أن يبسط يده ليبايعه ، فأبى عليّ أن يُحدث الفرقة بين المسلمين .

والرواة يحدثوننا أيضاً ويحدّثنا عليّ نفسه في بعض كتبه إلى معاوية بأن أبا سفيان أراد علياً على أن ينصب نفسه للخلافة حتى لا يخرج الأمر من بني عبد مناف،

فأبى عليّ ذلك عليه كما أباه على عمّه العباس .

ولكنّ أحداً لم يقل إن العباس كان شيعةً لعليّ ، ولا إن أبا سفيان كان شيعة لعليّ أيضاً ، وإنما عرض لهما هذا الرأي ، فلما لم يستجب لهما عليّ بايعا أبا بكر ودخلا فيما دخل فيه الناس ، كما فعل علي نفسه مع الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه .

ويحدثنا الرواة كذلك أن المقداد بن الأسود وعمار بن ياسر ، وربما ذُكر سلمان الفارسي ، أظهروا الدعوة لعليّ أثناء الشورى حتى خاف بعض أهل الشورى تفرق الناس،فطلب الى عبدالرحمن بن عوف أن يتعجل القضاء في الأمر . فلما بايع عبدالرحمن عثمان دخل المقداد وعمّار فيما دخل فيه الناس ، كما فعل علي نفسه . ولو لم يقل أحد في ذلك الوقت ان المقداد أو عمّاراً كان شيعة لعلي ، وانما رأيا رأياً ثم انصرفا عنه ليونا مع جماعة المسلمين .

ومعنى هذا كله أن علياً لم تكن له شيعة ممتازة من الأمة قبل الفتنة ، ولم تكن له شيعة بالمعنى الذي يعرفه الفقهاء والمتكلمون أثناء خلافته ، وانما كان له أنصار وأتباع ، وكانت كثرة المسلمين كلها له أنصاراً وأتباعاً ، حتى كانت موقعة صفين ، وحتى افتتح معاوية مصر ، وحتى جعل معاوية يُغير على أطراف عليّ في العراق والحجاز واليمن .

وقد قتل علي وليس له حزب منظم ولا شيعة مميزة ، بل لم ينظم الحزب العلوي ولم توجد الشيعةالمميزة الا بعد أن تم اجتماع الأمر لمعاوية وبايعه الحسن بن عليكما سترى.

- ٤٢ -

وكان الحسن رجل صدق قد كره الفرقة وآثر اجتماع الكلمة وخاض غمرات الفتنة على كره منه في أكبر الظن . قاوم الفتنة ما وسعته مقاومتها أيام عثمان فلم يخض فيما خاض الناس فيه من حديثها ، ولم يشارك في المعارضة حين عظم الشر . وكان من الذين أسرعوا الى دار عثمان فقاموا دون الخليفة يريدون حمايته . ولكن الخليفة قُتل على رغم ذلك ، لأن خصمه تسوروا عليه الدار . ولم يكن الحسن يرى أن يشترك أبوه في شيء من أمر الفتنة من قرب أو من بعد ، وانما أشار عليه أن يعتزل الناس وأن يترك المدينة فيقيم في ماله بينبع . فلم يسمع علي له ، وانما رأى أن مكانه في المدينة

حيث يستطيع أن يأمر بمعروف أو ينهي عن منكر او يصلح بين الناس .

فلما قتل عثمان لم يرَ الحسن لأبيه أن يقيم في المدينة ولا أن يتعرض للبيعة ولا أن يقبلها وإن عُرضت عليه . ولو استطاع الحسن لاعتزل الفتنة اعتزالاً كما فعلت تلك المعتزلة من أصحاب النبي . ولكن عرف لأبيه حقه عليه ، فأقام معه وشهد مشاهده كلها ، على غير حب لذلك او رغبة منه فيه .

ثم لم يكن الحسن يرى لأبيه أن يترك مُهاجره في المدينة ، وأن يرحل الى العراق للقاء طلحة والزبير وعائشة ؛ وإنما كان يؤثر له أن يبقى في مُهاجره مجاوراً للنبي ، ويكره له أن يذهب الى دار غُربة ويتعرض للموت بمَضْيَعة وكان أبوه يعصيه في كل ما كان يشير عليه من ذلك ، حتى بكى الحسن ذات يوم حين رأى ركاب أبيه تؤمّ العراق ، فقال له أبوه : إنك لتحن حنين الجارية .

ولم يفارق الحسنَ حزنه على عثمان ، فكان عثمانياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، إلا أنه لم يسلّ سيفاً للثأر بعثمان ، لأنه لم يرَ ذلك حقاً له ، وربما غلا في عثمانيته حتى قال لأبيه ذات يوم ما لا يحب .

فقد روى الرواة أن علياً مرّ بابنه الحسن وهو يتوضأ فقال له : أسبغ الوضوء . فأجابه الحسن بهذه الكلمة المرة : « لقد قتلتم بالأمس رجلا كان يُسبغ الوضوء » . فلم يزد عليّ على أن قال : لقد اطال الله حزنك على عثمان .

وقد شهد الحسن مع أبيه ، مشاهده في البصرة وصفّين والنهروان . واكاد اعتقد مع ذلك انه واخاه الحُسين قد شهدا هذه الحروب دون ان يشاركا فيها . بل نحن نعلم ان اباهما كان يَضن بهما على الخطر مخافةَ ان يُصيبهما شر فتنقطع ذريّة النبي ﷺ . كان يقيهما بنفسه وبأخيهما محمد بن الحنفية ، وكان يشتد على محمد هذا ويعنف به إن رأى منه في الحرب أناة أو تقصيراً حتى كلمه في ذلك بعض اصحابه .

فقد كان عليّ إذاً أشد الناس إيثاراً للحسن والحسين لمكانهما من النبيّ ، وكان أصحابه يصنعون صنيعه في ذلك فيؤثرونهما بالخير والبرّ .

ويُروى ان رجلا اهدى الى الحسن والحسين وترك محمداً فلم يُهد إليه شيئاً ، فلما رأى عليّ ذلك من الرجل وضع يده على كتف محمد وتمثل :

وما شرّ الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تُصبحينا

فذهب الرجل فأهدى إلى محمد كما أهدى الى أخويه .

كان الحسن إذاً كارهاً للفتنة منذ ثارت. وقد روى الثقات من اصحاب الحديث ان

النبي اخذ الحسن وهو صبيّ فأجلسه الى جانبه على المنبر ، وجعل ينظر اليه مرة ، وينظر الى الناس مرة اخرى ، يفعل ذلك مراراً ، ثم قال : إن ابني هذا سيّدٌ ، ولعل الله ان يصلح به بين فئتين كبيرتين من المسلمين .

فإذا صح هذا الحديث - واكبر الظن انه صحيح - فقد وقع هذا الحديث من نفس الصبي موقعاً اي موقع . وكأنه ذكّره حين ثارت الفتنة ، وكأنه حاول بمشورته على ابيه ، في مواطنه تلك التي ذكرتها آنفاً ، ان يصلح بين هاتين الفئتين من المسلمين فيحقق نبوة جده ﷺ .

وكأن بكاءه حين بكى لم يكن رفقاً بأبيه وإشفاقاً عليه فحسب ، وانما كان إلى ذلك حزناً ، لأنه لم يحقق ما توسّم به جدُّه فيه .

والمسلمون يختلفون كما حدّثتك من قبل ، فأما المؤرخون والمحدثون من أهل السُّنة فينبئوننا بأن علياً ابى ان يستخلف حين طلب اليه ذلك بعد ان اصيب .

يقول قوم : إن الناس طلبوا إليه ان يستخلف الحسن . فقال: لا آمركم ولا انهاكم. ويقول قوم آخرون : ان الناس طلبوا اليه ان يتخلف . فأبى وقال : اتركُكم كما تركَكم رسول الله .

وأما الشيعة فيزعمون ان علياً استخلف الحسن نصاً . ومهما يكن من شيء فلم يعرض الحسن نفسه على الناس ، ولم يتعرض لبيعتهم ، وإنما دعا الى هذه البيعة قيسُ بن سعد بن عُبادة . فبكى الناس واستجابوا . وأُخرج الحسن فأجلس للبيعة ، وطفق - كما يقول الزهري - يشترط على الناس أن يسمعوا ويطيعوا ، ويحاربوا من حارب ويسالموا من سالم. فلما سمع الناس منه تكراره لأمر السلم ارتابوا وظنوا أنه يريد الصلح. وقال بعضهم لبعض : ليس هذا لكم بصاحب وانما هو صاحب صلح .

وقد مكث الحسن بعد البيعة شهرين او قريباً من شهرين لا يذكر الحرب ولا يظهر استعداداً لها ، حتى ألحّ عليه قيس بن سعد وعُبيد الله بن عباس ، وكتب اليه عبد الله بن عباس من مكة يحرّضه على الحرب . ويلحّ عليه في أن ينهض فيما كان ينهض فيه أبوه .

فنهض للحرب وقدم بين يديه اثنى عشر ألفاً من الجند ، جعل عليهم قيس بن سعد ، وجعل معه عُبيد الله بن عباس . وقوم يقولون إنه جعل على هذا الجند ابن عمه ، وامره ان يستشير قيس بن سعد وسعيد بن قيس الهمداني ولا يخالف عن رأيهما .

فمضى الجند وخرج الحسن في اثرهم في عدد ضخم من اهل العراق ، وكأنه خرج يُظهر لهم الحرب ويدبّر امر الصلح فيا بينه وبين خاصته . حتى اذا بلغ المدائن تسامع الجيش ببعض ذلك ، فاضطرب الناس وماج بعضهم في بعض ، واقتحموا على الحسن فسطاطه وعنفوا به عنفاً شديداً حتى انتهبوا متاعه. فخرج الحسن يريدالمدائن وطعنه رجل فلم يصب منه مقتلا . يقول بعض المؤرخين : إن هذا الرجل كان من اصحابه ، ويقول بعضهم الآخر : انه كان من الخوارج وأنه قال للحسن وهو يهم به : أشركت كما أشرك أبوك .

وقد اقام الحسن في المدائن حتى برىء من جرحه ، وتعجل السلم في اثناء ذلك ثم رجع إلى الكوفة فاستقبل فيها سفراء معاوية الذين أعطوه كل ما اراد . اعطوه الأمان له ولأصحابه كافةً ، وأعطوه خمسة ملايين من الدراهم كانت في بيت المال بالكوفة ، وأعطوه خراج كورتين من كور البصرة ما عاش .

وبينما كان الحسن يفاوض في الصلح كان عُبيد الله بن عباس يتعجل السلم لنفسه ويترك جيشه إلى معاوية دون أن يستخلف عليه أحداً . رشاه معاوية بالمال ، فلم يستطع أن يعصى بالمال . وكذلك انحرف عبد الله بن عباس عن عليّ ، وانحرف عبيد الله بن عباس عن الحسن . كلاهما ينحرف عن صاحبه في أشد الأوقات حرجاً وأعسرها عسراً .

ونهض قيس بن سعد بأمر هذا الجند ، حتى جاءه أمر الحسن بالدخول في طاعة معاوية . فأظهر الناس على ذلك وخيّرهم بين أن يدخلوا فيما دخل فيه إمامهم أو يقاتلوا عدوّهم على الحق بغير إمام . فاختاروا العافية ، ووضعت الحرب أوزارها . وفتحت الطريق لمعاوية إلى الكوفة ، فدخلها موفوراً ، وبايع له الناس ولم يبايع قيس بن سعد إلا بعد خطوب .

- ٤٣ -

ولا بد من وقفة قصيرة عند حديث الصلح وما جرى بين الحسن ومعاوية من المفاوضة فيه . فقد يُظهرنا التأمل في هذا كله على اتجاه نفوس الناس وقلوبهم في ذلك الوقت إلى الدنيا أكثرَ من اتجاهها إلى الدين . وقد يظهرنا ذلك على أن الحسن وأباه ، وهذه القلة القليلة من أشباههما ، إنما كانوا يعيشون غرباء في هذه البيئة الجديدة القديمة ،

أو في هـذا الخلاف الذي خلف من المسلمين . جماعة من هـذه القلة كرهوا الفتنة واستيأسوا من بيئتهم فعرّوا بدينهم إلى العزلة وآثروا الله على الناس ، وآخرون رأوا أن الدين لم يوحَ به إلى النبي ليؤثر به نفسه ويفر به من البيئة التي ملأها الفساد ، وإنما أوحي به ليصلح من أمر الناس ما فسد ، ويقوّم من حياتهم مـا اعوج ، ويحملهم على الجادة ، ويهديهم الصراط المستقيم . وقـد نهض النبي بأمر ربه ، لم يفر بدينه إلى غار حراء ، ولم يعتزل به أهل مكة ، وإنما واجه قومه بما كرهوا ، عَنُف بهم وعنفوا به ، وألحّ في دعائهم الى الخير وألحّوا في المكر بـه والكيد له والتأليب عليه ، حتى أخرجوه من وطنه ، فلم يثبط ذلك من همته ، ولم يَفل من حده ولم يكن يحفـل في سبيل الدين بأن يضع خصمُه الشمسَ في يمينه والقمر في يساره ان استطاعوا ، وكانت له العاقبة . فحمل الناس على الخـير وهداهم الى الدين ، لم يشفق من تبعة ، ولم يخف مكروها .

وقد رأى عليّ وأمثاله القليلون أن النبي قد سن لهم سنة في إنفاذ أمر الله وحَمْل الناس على الحق ، فمضوا على سنة النبي وصاحبيه من بعده ، واحتملوا في ذلك مـا احتملوا من البلاء والعناء والقتل في ميادين الحرب ، أو القتل غيلة أثنـاء الخروج الى الصلاة .

ولم يكن بد من أن تصير أمور الناس الى ما صارت اليه ، فقد لقي العرب غيرَهم من الأمم ، ورثوا ملكهم وعرفوا حضارتهم وبلوا ما في حياتهم من خير وشر ، ومن حلو ومرّ . وكان من الطبيعي أن تنتهي الأمور الى احدى اثنتين : فإمـا أن يقهر الغالبون فيعرّبوا هـذه الأمم المغلوبة ، وامـا أن يقهر المغلوبون فيفتنوا هذه الأمة الغالبة . وقد فُتنت الأمة الغالبة عن كثير من أمرها ، فأعرضت عـن خلافتها وعن سنتها الرشيدة ، ودفعت الى الملك تقلد فيه قيصر وكسرى أكثر ممـا تقلد النبي والشيخين .

ويكفي أن تلاحظ ما قدمته آنفاً من أن أشراف أهل العراق كانوا يتصلون بمعاوية في أيام علي ، يتلقون ماله ويمهدون له أمره . وأن تلاحظ بعد ذلك ان الحسن لم يكد يفرغ من البيعة حتى فرغ جماعـة من الأشراف الذين بايعوه الى معاوية ، منهم من سار إليه فبايعه وأقام معه حتى عادوا في صحبته الى العراق ، ومنهـم من أرسلوا إليه الكتب ينبئونه بضعف الحسن وانتشار أمره واختلاف الناس عليه ، ويتعجلون قدومه الى العراق ، حتى لم يتحرج معاوية من أن يتأذّن في أصحابه من أهل الشام :

أن كتب أهل العراق قد تواترت إليه يدعونه فيها إلى أن يسير إليهم ، وأن أشراف أهل العراق قد جعلوا يُقبلون عليه ليبايعوه .

وقد غير معاوية سياسته فجأة تغييراً تاماً ، فأعرض عن العنف ومال الى الرفق وأمعن فيه . وكأنه كان يعرف عثمانية الحسن وبغضه للفتنة وتحرجه من سفك الدماء كما كان يعرف كغيره من عامة الناس مكان الحسن من النبي وتزوع نفسه الى الخير وعزوفها عن الشر .

فلم يكد الحسن يكتب إليه مع جُندب بن عبد الله الأزدي ينبئه بأن الناس قد بايعوه ويدعوه الى الطاعة ، حتى ردّ عليه معاوية ردّاً رقيقاً ليس فيه شيء مما كان في كتبه الى علي من الشدة والغلظة والتأنيب والامتناع .

وإنما كتب إليه ينبئه : أنه لو كان يعلم أنه أقوم بالأمر وأضبط للناس واكيد للعدو واحوط على المسلمين واعلم بالسياسة واقوى على جمع المال منه لأجابه الى ما سأل، لأنه يراه لكل خير اهلاً . ويقول له إن امري وامرك شبيه بأمر ابي بكر وامركم بعد وفاة رسول الله ﷺ . يريد أن أبا بكر وأصحاب النبي معه عرفوا لأهل البيت مكانتهم من النبي واستحقاقهم لكل كرامة ، ولكنهم مع ذلك صرفوا الخلافة عنهم إلى من هو أقدر على النهوض بأمرها من المسلمين .

وقد عاد الأمر إلى مثل ما كان عليه بعد وفاة النبي ، لم تتغير مكانة أهل البيت ولم يتغير استحقاقهم لكل كرامة ، ولكن غيرهم – وهو معاوية – أقدر منهم على النهوض بأمر الخلافة وأعباء السلطان .

ثم وعده أن يسوغه ما في بيت مال العراق ، وأن يجعل له خراج ما يختار من الكور ، يستعين به على مئونته ونفقاته ما عاش .

وقد عاد جُندب بكتاب معاوية إلى الحسن ، وأنبأه باجتماع اهل الشام وكثرتهم وتأهبهم للمسير إليه ، واشار عليه أن يغزوهم قبل أن يغزوه ، ولكنّ الحسن ظلّ ساكناً لا ينشط للحرب حتى علم أن معاوية قد سار إليه ، وكاد أن يبلغ حدود العراق . هنالك نهض للقائه وجرى له ما علمت من الأحداث .

ولم يكن قعود الحسن عن الحرب جُبناً أو فَرَقاً ، وإنما كان كراهية لسفك الدماء من جهة ، وشكّاً في أصحابه من جهة أخرى . وقد تبين له بعد مسيره وما كان من أمره مع الناس حين بلغ المدائن أنه لم يكن مخطئاً : ولا سيما بعد أن عرف وفود الأشراف من أهل العراق على معاوية ، وأن الذين لم يفدوا عليه كتبوا إليه .

فكان يقول لأهل العراق : أنتم أكرهتم أبي على الحرب وأكرهتموه على التحكيم ، ثم اختلفتم عليه وخذلتموه. وهؤلاء وجوهكم وأشرافكم يفدون على معاوية أو يكتبون إليه مبايعين . فلا تغرّوني عن ديني .

ثم تعجل الصلح . فأرسل إليه معاوية عبدَ الله بن عامر عامل عثمان على البصرة ، وعبدَ الرحمن بن سمرة فعرضا عليه الصلح وألحّا عليه فيه ، ورغّباه بما رغّباه به مما علمت .

فقبل مبدأ الصلح وأرسل سفيرين إلى معاوية ، هما عمرو بن سَلَمة الهمداني ومحمد ابن الأشعث الكندي ، ليستوثقا من معاوية ويعلما ما عنده . فأعطاهما معاوية هـــذا الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم . هـــذا كتاب للحسن بن عليّ من معاوية بن ابي سفيان . إني صالحتك على أن لك الإمر من بعدي، ولك عهد الله وميثاقه وذمته وأمة رسوله محمد ﷺ ، وأشد ما أخذه الله على أحد من خلقه من عهد وعقد . لا أبغيك غائلة ولا مكروهاً . وعلى ان اعطيك في كل سنة ألف ألف درهم من بيت المـــال . وعلى ان لك خراج بَسَا ودارا بجرد تبعث إليهما عمالك وتصنع بهما ما بدا لك . شهد عبد الله بن عامر وعمرو بن سلمة الكندي وعبد الرحمن بن سَمُرة ومحمد بن الأشعث الكندي وكتب في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين .

ونلاحظ أن معاوية لم يبدأ هذا الكتاب كما كان يبدأ كتبه إلى علي : « من معاوية ابن ابي سفيان إلى علي بن ابي طالب » ، وإنما قدم الحسن فكتب : « إلى الحسن بن علي من معاوية بن ابي سفيان » يُظهر بذلك تكريم الحسن وأنه يسير معه سيرة غـير سيرته مع أبيه .

وقد عرض معاوية على الحسن ثلاثة أشياء : أن يجعله وليّ عهده . وأن يجعل له مرتباً سنوياً من بيت المال ألف ألف درهم ، وان يترك له كورتين من كور فارس يرسل إليهما (عُمّاله) ويصنع بهما ما يشاء .

ثم اعطى على نفسه العهد المشدد المؤكد ان يؤمن الحسن من كل غائلة . ولم يكتف الحسن بهذه الشروط ، لأن فيها شيئاً لا يملكه معاوية في رأيه ، وهو ولاية العهـد . ولأن ما عدا هذا من الشروط المالية نوع من الإغراء وليس بذي خطر عند الحسن . فبيت مال العراق في يده ، وكور فارس كلهـا في يده أيضاً ، وقد أهمل معاوية في كتابه شيئاً هو اخطر من كل ما ذكر ، وهو تأمين أصحاب الحسن الذين حاربوا مع علي وهموا بالحرب مع الحسن نفسه .

ولذلك احتفظ الحسن بكتاب معاوية عنده وأرسل إليه رجلاً، من بني عبدالمطلب من جهة ، وبينه وبين معاوية قرابة قريبة من جهة أخرى ، وهو عبد الله بن الحارث ابن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وأمه اخت معاوية . فقال له إئت خالك وقل له : إن أمّنت الناس بايعتك .

وكأن الحسن اراد ان يصطنع شيئاً من اللباقة ، فاحتفظ بشروط معاوية وطلب إلى معاوية مزيداً هو تأمين الناس . ولكن معاوية كان ادهى من ذلك وأبرع كيداً . فقد اعطى ابن اخته طوماراً ختم في اسفله وقال له : اكتب ما شئت .

فجاء عبد الله بن الحارث بهذا التفويض المطلق إلى الحسن ، فكتب فيه الحسن : « هذا ما صالح عليه الحسنُ بن علي معاوية بن ابي سفيان . صالحه على ان يسلم إليه ولاية امر المسلمين على ان يعمل فيها بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين . وعلى انه ليس لمعاوية ان يعهد لأحد من بعده ، وان يكون الأمر شورى ، والناس آمنون حيث كانوا على انفسهم واموالهم وذراريهم ، وعلى ألا يبغي الحسن بن علي غائلة سراً ولا علانية ولا يخيف احداً من اصحابه . شهد عبد الله ابن الحارث وعمرو بن سلمة » . ثم رد عبد الله بن الحارث إلى معاوية بكتابه هذا ليُشهد عليه من شاء من اصحابه ، ففعل .

وتم الصلح ، ولكنه لم يتم دون ان يترك بين الرجلين شيئاً من اختلاف الرأي وسوء التفاهم ، كما يقال في هذه الأيام .

اكان الكتاب الأول الذي ارسله معاوية إلى الحسن قائماً يكفل للحسن ما اعطاه معاوية من الشروط ، ما عدا ولاية العهد التي لم يرضها الحسن . ام سقط بهذا الكتاب الذي كتبه الحسن وامضاه معاوية .

اما الحسن فقد رأى ان كتاب معاوية الأول ظل قائماً ، وان معاوية قد التزم فيه ما وعد به من مرتب في كل عام ، ومن خراج هاتين الكورتين للحسن ما عاش. واما معاوية فقد رأى ان الكتاب الثاني قد الغى الكتاب الأول إلغاء فليس للحسن عنده إلا ما طلب من ان يكون الأمر شورى بعد موت معاوية ، ومن تأمين الناس على انفسهم وعلى اموالهم وذراريهم ، ومن ألا يبغي الحسن غائلة سرّاً او جهراً ، ومن ان يعمل في امر المسلمين بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الصالحين .

ومن اجل اختلاف الرأي هذا طلب الحسن إلى معاوية ، بعد ان استقام له الأمر ان يفي له بشروطه المالية . فأبى عليه معاوية وقال له : ليس لك عندي إلا ما

شرطت لنفسك . وكأن الحسن اراد تحكيماً ، وكأنه اراد ان يحكم سعد بن ابي وقاص فلم يقبل معاوية تحكيماً ولكنه على ذلك ارضى الحسن بما اعطاه وما فرض له من المال .

وتكثر المؤرخون والرواة بعد ذلك ، فزعم قوم ان معاوية وفّى بالشروط للحسن ثم اغرى اهل البصرة سرّاً ، فطردوا عمّال الحسن من الكورتين ، وأبوا ان يدفعوا إليه شيئاً من خراجها ، وقالوا : هذا فيئنا وليس لأحد غيرنا فيه حق .

والأمر كما رأيت ايسر من ذلك . والشيء الذي ليس فيه شك ، هو ان معاوية قد بسّر الحسن وارضاه بالمال ، فلم يجد في حياته عسراً ولا ضيقاً ، وإنما عاش في المدينة عيشة الغنيّ السخي ، الذي ينفق عن سعة ولا يحسب للمال حساباً .

ومهما يكن من شيء فقد سار معاوية إلى الكوفة مطمئناً راضي البال ، ينشر من حوله الرضى والطمأنينة واستقبله الحسن فبايعه وبايعه الناس . وكأن معاوية أراد أن يعلن الحسنُ رضاه عن هذا الصلح واطمئنانه إلى النظام الجديد .

وهذا طبيعي لا يحتاج فهمه وقبوله إلى تكلّف منتكلّف من الرواة والمؤرخين ، الذين زعموا أن عمرو بن العاص هو الذي أغرى معاوية بدعوة الحسن إلى أن يتكلم ؛ ليظهر للناس عجزه وضعفه أو ليسوءه أمام أنصاره وشيعته . فالحسن لم يختلس الصلح اختلاساً ، ولم يستخف به من الناس ، والحسن قد خطب الناس غير مرة في حياة أبيه وبعد وفاته ، فلم يعرف منه عيّاً أو حصَراً وهو بعد ذلك أو قبل ذلك من أهل بيت لم يُعرفوا قط بعيّ أو حصَر ، وإنما كانوا معدن الفصاحة واللّسن وفصل الخطاب . وقد خطب الحسن فقال خير ما كان يمكن أن يقال وأصدق ما كان يمكن أن يقال أيضاً ، قال : « أيها الناس إن أكيس الكيس التُّقى ، وأحمق الحمق الفجور . إن هذا الأمر الذي سلمته لمعاوية إما أن يكون حق رجل كان أحق به مني فأخذ حقه ، وإما أن يكون حقي فتركته لصلاح أمة محمد وحقن دمائها . فالحمد لله الذي أكرم بنا أوّلكم وحقن دماء آخركم » .

والرواة يزعمون أن هذا الكلام قد أغضب معاوية ، وأنه لام عمرو بن العاص لأنه هو الذي ألحّ في أن يتكلم الحسن .

ثم هم بعد ذلك يزيدون في كلام الحسن ما عسى أن يكون منه وما عسى ألا يكون .

ومهما يكن من ذلك فقد سخط على الحسن جماعة من أصحابه الذين أخلصوا له

ولأبيه ، وأخلصوا في بغض معاوية وأهل الشام . ورأوا في هذا الصلح نوعاً من التسليم لم يكن يلائم ما بذلوا أيام عليّ من جهد ، ولم يكن يلائم كذلك ما كان في أيديهم من قوة . فمنهم من كان يقول للحسن : يا مُـــذلّ المؤمنين ، ومنهم من كان يقول له : يا مُذل العرب ، ومنهم من كان يقول له : يا مسود وجوه العرب .

ولكن الحسن لم يحفل بشيء من ذلك ، وإنمـا رضي عن خطته كل الرضا ، رأى فيها حقناً للدماء ووضعاً لأوزار الحرب وجمعاً لكلمة الأمة . وتمكيناً للمسلمين من أن يستقبلوا أمورهم مؤتلفين لا مختلفين ومتفقين لا مفترقين ، ومن أن يفرغ أهـل الثغور لثغورهم يردون عنها طمع العدو فيها وفيما وراءها، ومن أن يفرغ الجند للفتح يستأنفونه من حيث وقفته الفتنة .

ويقول الرواة : إن الحسين بن عليّ رحمـــه الله لم يكن يرى رأي أخيه ولا يُقرّ ميلَـه إلى السلم ، وإنه ألحّ على أخيه في أن يستمسك ويمضي في الحرب ، ولكن أخاه امتنع عليه وأنذره بوضعه في الحديد إن لم يُطعه .

وليس في هذا شيء من الغرابة : فقد كان عليّ نفسه يتنبأ ببعض ذلك ، يتحدث بأن الحسن سيخرج من هذا الأمر ، وبأن الحسين هو أشبه الناس به ، وربما قسا على الحسن شيئاً فقال : إن الحسن فتى من الفتيان صاحب جفان وخوان .

وقد فرغ الحسن من هذا الأمر كله وارتحل بأهل بيته إلى المدينة ، وترك معاويةَ في الكوفة يدبر أمر دولته الجديدة كما يشاء . ولكن الحسن لم يكد يبعد عن الكوفة حتى أدركه رسول معاوية يريد أن يرده إلى الكوفة ليقاتل طائفة من الخوارج خرجت عليه . فأبى الحسن أن يعود، وقال : لقد صالحته وما أريد إلا حقن الدماء واجتناب الحرب . وانتهى الحسن إلى المدينة فلقي من أهلها إثر وصوله إليها مَن لامه في الصلح كما لامه فيه أهل الكوفة ، فكان يقول للائميه : كرهت أن ألقى الله عز وجل فإذا سبعون ألفاً أو أكثر تشخب أوداجهم دماً ، يقول كل منهم : يا ربي ، فيم قُتلت ؟

ولم يكد الحسن يترك الكوفة في طريقه إلى المدينة حتى أظهر معاوية لأهل العراق شدةً بعد لين ، وعنفاً بعد رفق فأعلن إليهم أول الأمر ألاّ بيعة لهم عنـــده حتى

يكفوه بوائقهم . ويردّوا عنه خوارجهم هؤلاء الذين خرجوا عليه . فمضى أهل الكوفة الى الخوارج فقاتلوهم كما كانوا يقاتلونهم أيام عليّ . واستبان لهم أن أمرهم لم يتغير وأنهم كانوا يقاتلون أبناءهم واخوانهم وأولي مودتهم ليطيعوا علياً ، ثم هم الآن يقـــاتلونهم ليطيعوا معاوية .

ثم أعرب لهم معاوية بعد ذلك عن خطته التي رسمها وسياسته التي سيتوخاها فيهم. فأنبأهم بانه نظر فرأى أمور الناس لا تصلح إلا بخصال: أولها أن يأتي المسلمون عدوّهم في بلادهم قبل أن يأتيهم هؤلاء العدو في بلاد الإسلام ، ولهم على ذلـــك أن يأخذوا أعطياتهم في إبّانها . والخصلة الثانية أن يبعوثهم الى الثغور القريبة عليها أن تقيم في ثغورها ستة أشهر ، فإذا بعدت الثغور فعلى البعوث أن تقيم فيها سنة . والخصلة الثالثة أن تُصلح البلاد وترعى مرافقها حتى لا يصيبها الجهد . ثم اعلن اليهم انه كان قد حرص على ان يخرج الناس من الفتنة ، ويضع عنهم أوزار الحرب ، ويكف بأس بعضهم عن بعض ، ويجمع كلمتهم . وفي سبيل ذلك اشترط شروطاً ووعد عِدات ومنّى آماني، وانه الآن يضع هذا كله تحت قدمه .

ثم أعلن اليهم آخر الأمر أن ذمته بريئة ممن لم يقبل فيُعطي البيعة . وأجّلهم ثلاثاً فأقبل الناس من كل أوب يبايعون . وهـــذا كله ان دلّ على شيء فإنما يدل على أن معاوية صانع أهـــل العراق ورفق بهم ، حتى يتم له الصلح ويستقيم له الأمر ويخرج الحسن من العراق . فلما تم له مـــا أراد اصطنع الحزم وساس اهل العراق سياسة لم يكونوا يعرفونها من قبل .

فأخرجهم من الدعـة التي ألفوها ، وعلمهم أن طاعة الأمراء فرض لا ينبغي التردد فيه أو الالتواء به، وأن من لم يُعط الطاعة فلا أمان له، وقد برئت منه ذمة السلطان. هنالك عرف أهل العراق ان حياتهم قد تغيّرت ، وانهم سيستقبـلون من امرهم اشد وأقسى مما كانوا يظنون .

وقد ولّى معاوية المغيرةَ بن شُعبـة أمر الكوفة . وولّى عبدالله بن عامر امر البصرة ، فعاد اليها بعد ان كان قد فارقها بقتل عثمان . وعاد معاوية الى الشام يدبّر أمر دولته من دمشق .

وقد جعل اهل العراق يذكرون حياتهم ايام عليّ فيحزنون عليها ، ويندمون على ما كان من تفريطهم في جنب خليفتهم ، ويندمون كذلك على ما كان من الصلح بينهم وبين اهل الشام ، وجعلوا كلما لقي بعضهم بعضاً تلاوموا فيما كان ، وأجالوا الرأي

فيما يمكن أن يكون، ولم تكد تمضي اعوام قليلة حتى جعلت وفودهم تفد الى المدينة للقاء الحسن والقول له والاستماع منه .

وقد اقبل عليه ذات يوم وفد من اشراف اهل الكوفة ، فقال لهم متكلمهم سليمان ابن صُرَد الخزاعي : « ما ينقضي تعجبنا من بيعتك معاوية ومعــك اربعون ألف مقاتل من اهل الكوفة كلهم يأخذ العطاء ، وهم على ابواب منازلهم ، ومعهم مثلهم من ابنائهم واتباعهم ، سوى شيعتك من اهل البصرة واهل الحجاز . ثم لم تأخذ لنفسك ثقة في العقد ولا حظاً من العطية . فلو كنت إذ فعلت ما فعلت أشهدت على معاويــة وجوه اهل المشرق والمغرب ، وكتّبت عليه كتاباً بأن الأمر لك بعده ، كان الأمر علينا أيسر ، ولكنه اعطاك شيئاً بينك وبينــه ، ثم لم يلف به ، ثم لم يلبث أن قال على رؤوس الناس: إني كنت شرطت شروطاً ووعدت عدات إرادة لإطفاء نار الحرب ومداراة لقطع هذه الفتنة . فأما إذ جمع الله لنا الكلمة والألفة وأمّننا من الفرقة فإن ذلك تحت قدمي . فوالله ما اغترني بذلــك الا ما كان بينك وبينه ، وقد نُقض . فاذا شئت فأعد الحرب جـذَعة وأذَن لي في تقدّمك الى الكوفة فأخرج عنها عامله وأظهر خلعه ، وتنبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين» .

وقال الآخرون مثل ما قال سليمان بن صُرد . فهم إذاً إنمــا جاءوا المدينة ولقوا الحسن ليعاتبوه أولاً ، لأنه جنح إلى السلم على رغم مــا كان عنده من قوة وعدد . وليعاتبوه ثانياً ، لأنه حين أمضى الصلح لم يُشهد عليه وجوه الناس من أهــل المشرق والمغرب ، ولم يشترط لنفســه ولاية العهد ، ثم لينبئوه ثالثاً بأن معاوية قد نقض الصلح وأعلن نقضه على رؤوس الأشهاد . ثم ليطلبوا اليه بعد ذلك أن يعيد الحرب جَذَعة وأن يأذن لهم في أن يسبقوا الى الكوفة فيعلنوا فيها خلع معاوية ويخرجوا منها عامله وحينئذ ينبذ الحسن الى معاوية على سواء إن الله لا يحب الخائنين .

وقد قبل الحسن منهم شيئاً ورفض شيئاً. وكان فيما قبل منهم أبيّاً عليهم ناصحاً لهم رفيقاً بهم مؤثراً السلم وحقن الدماء ، ولكنه على ذلك لم يُؤئسهم وإنما أبقى لهم شيئاً من أمل . فقال لهم فيما روى البلاذري : « أنتم شيعتنا وأهــل مودتنا . فلو كنت بالحزم في أمر الدنيا أعمل ولسلطانها أعمل وأنصب ، ما كان معاوية بأبأس مني بأساً ولا أشد شكيمة ولا أمضى عزيمــة . ولكني أرى غير ما رأيتم . وما أردت فيما فعلت إلا حقن الدماء ، فارضوا بقضاء الله وسلّموا الأمر والزموا بيوتكم وأمسكوا وكفوا أيديكم حتى يستريح برّ أو يستراح من فاجر » .

فقد أعطاهم الحسن كما ترى الرضى حين أعلن إليهم أنهم شيعة أهل البيت وذوو مودتهم . وإذاً فمن الحق أن يسمعوا له ويأتمروا بأمره ويكونوا عندما يريد منهم . ثم بين لهم أنه لم يصالح معاوية عن ضعف ولا عن عجز ، وإنما أراد حقن الدماء . ولو قد أراد الحرب لما كان معاوية أشد منه قوة ولا أعسر مراساً . ثم طلب إليهم أن يرضوا بقضاء الله ويطيعوا السلطان ويكفوا أيديهم عنه ، وأنبأهم بأنهم لن يفعلوا ذلك آخر الدهر ، ولن يسالموا عدوهم في غير مقاومة ، وإنما هو انتظار إلى حين ، هو انتظار إلى أن يستريح الأبرار من أهل الحق أو يريح الله من الفجار من أهل الباطل .

فهو إذاً يهيئهم للحرب حين يأتي إبانها ويحين حينها ، ويأمرهم بالسلم المؤقت حتى يستريحوا ويحسنوا الاستعداد . ومن يدري لعل معاوية أن يريح الله منه ، فتستقبل الأمة أمرها على ما يحب لها صالحو المؤمنين .

وأعتقد أنا أن اليوم الذي لقى الحسن فيه هؤلاء الوفد من أهل الكوفة ، فسمع منهم ما سمع وقال لهم ما قال ورسم لهم خطتهم ، هو اليوم الذي أنشىء فيه الحزب السياسي المنظم لشيعة عليّ وبنيه . نظم الحزب في المدينة في ذلك المجلس ، وأصبح الحسن له رئيساً ، وعاد أشراف أهل الكوفة إلى من وراءهم ينبئونهم بالنظام الجديد والخطة المرسومة ، ويهيؤونهم لهذا السلم الموقوت ولحرب يمكن أن تثار حين يأتي الأمر بإثارتها من الإمام المقيم في يثرب .

وكان برنامج الحزب في أول إنشائه كما ترى واضحاً يسيراً لا عسر فيه ولا تعقيد ، طاعة الإمام من بني عليّ والانتظار في سلم ودعة حتى يؤمروا بالحرب فيثيروها .

ومضى أمر الحزب على ذلك ، فجعل الشيعة يلقى بعضهم بعضاً يتذاكرون أمورهم ، ويسجلون على معاوية وولاته ما يتجاوزون به حدود الحق والعدل ، وينتظرون أن يأمرهم الإمام بالخروج .

ولكن الإمام لم يأمرهم بالخروج ، ولعله كان يأمرهم بالعافية ويتقدّم إليهم بين حين وحين ، إذا لقيهم أثناء وفودهم على موسمهم ، بأن يؤثروا البقيا ويصطنعوا الرفق ، ولا يعرّضوا أنفسهم لبطش السلطان .

ولم تكن شيعة أهل البيت مقصورة على الكوفة ولكنها كانت منتشرة في آفاق البلاد ، تقلّ في بعضها وتكثر في بعضها الآخر . وكانت أمزجتها تختلف في المعارضة باختلاف كثرتها وقلّتها ، وباختلاف سياسة الولاة لها ، فكانت تتفق قبل كل شيء على أن ولاية معاوية شرّ ليس من احتماله بدّ ، حتى تتهيأ الفرصة للتخلص منه ، إمّا باستراحة الأبرار وحسن استعدادهم للخروج وقدرتهم عليه ، وإما بموت الفجّار وعودة الأمر شُورى بين المسلمين . وكانت الشيعة تنشط أشد النشاط في نشر الدعوة للإمام من أهل البيت بحيث يؤول الأمر إليه ، حين يُستشار المسلمون في أمر خلافتهم. فكانوا يدعون إلى إمامهم في السلم ، يلينون في هذه الدعوة ويشتدّون ، حسبما يكون لهم الأمزجة وما يُتاح لهم من الفُرص والظروف . وكان الحسن نفسه وفيّاً لمعاوية ببيعته ، حفيظاً له على عهده ، مستعيناً به إن احتاج إلى المعونة مهما يكن نوعها ، ولكنه على ذلك كان معارضاً ولم يكن يستخفي بمعارضته ، وإنما كان يُظهر منها ما يشاء في المدينة حيث كان يقيم ، وفي مكة حين كان يُلم بها أثناء الموسم . وكانت الفُرص تواتيه أحسن المواتاة وأيسرها . فهو كان عذب الروح حلو الحديث كريم المعاشرة حسن الألفة محبباً إلى الناس ، يحبه أترابه من شباب قريش والأنصار لهذه الخصال ، ويحبه الشيوخ من أصحاب النبي لهذه الخصال ولمكانه من النبي ، ويُحبه عامة الناس لكل هذا ولسخائه وجوده وإعطائه المال حين يُسأل وحين لا يسأل . وكان يُصبح فيصلي الصبح ويجلس في مكانه ، حتى إذا ارتفعت الشمس طاف بأمهات المؤمنين زائراً لهن متحدّثاً إليهن ، يبرّهن ويبررْنه ، ويُهدي إليهن ويُهدين إليه ، ثم يفرغ لبعض شأنه . فإذا صُليت الظهر جلس للناس في المسجد فأطال الجلوس يسمع منهم ويقول لهم ، يعلم من احتاج منهم إلى العلم ، ويؤدّب من احتاج منهم إلى الأدب، ويسمع من شيوخ الصحابة من يفيده علماً وأدباً . وكان في أثناء هذا كله إذا ذكر السلطان أو ذكر السلطان عنده يعرف الخير ويُنكر الشر في أرقّ لفظ وأعذبه . ولكنه كان يشتد حتى يبلغ القسوة إن ذكر أبوه بغير ما يحب ، أو لقى من يغى أباه الغوائلّ أو سعى إليه بمكروه . وكان بعد هذا كله يُحسن كما أحسن الله إليه ، ولا ينسى نصيبه من الدنيا . فكان ، فيما اتفق المؤرخون والرواة عليه ، مِزْواجاً مطلاقاً، حتى أنكر أبوه عليه ذلك ، ونهى الناسّ عن تزويجه ، فلمْ ينتهوا وكابروا أباه في ذلك مداعبين له . كانوا يرون في الإصهار إلى سِبْط النبي وابن أمير المؤمنين شرفاً أي شرف .

وكان معاوية رفيقاً بالحسن أعظم الرفق ، واصلاً له أحسن الصلة . ولكن معارضة الحسن كانت تبلغه ، فيعاتبه فيها ليناً حيناً وشديداً حيناً . ولكن مكان الحسن من معاوية لم يكن محبَّباً إليه ، فقد كان معاوية رجلاً بعيد النظر ، لم يكد يطمئن إلى الخلافة ويرى أنها قد اطمأنت إليه ، حتى فكر في أن يجعلها تراثاً بعده لآل أبي سفيان ، وكان يفكر في ابنه يزيد دائماً ، فيرى أن الحسن هو الحائل بينه وبين ما يريد من ذلك . فهو قد تعجل الصلح مع الحسن فعرض عليه ولاية الأمر من بعده .

ومن الحق أن الحسن لم يقبل منه ذلك ، وإنما اشترط عليه أن تكون الخلافة بعده شورى بين المسلمين ، يختارون لها من أحبوا . وكان الحسن في أكبر الظن يرى أن المسلمين لن يعدلوا به بعد وفاة معاوية أحداً . وكانت الشيعة تؤمن بذلك أشد الإيمان ، وتدعو له فتلح في الدعاء .

وهنا يختلف المؤرخون والرواة ، فقد توفي الحسن رحمه الله سنة خمسين للهجرة .

فأما الشيعة فيرون أن معاوية قد دسّ إليه من سمّه ليخلو له ولابنه وجه الخلافة. وأما مؤرخو الجماعة من أهل السنة فيروون ذلك ويكثرون من روايته ، ولكنهم لا يقطعون به . ومن المحدثين من يرويه ولكنه يراه بعيداً ، لا لشيء إلا لأن معاوية قد صحب النبي فلا يليق به أن يأتي مثل هذا الأمر البغيض .

ومؤرخو أهل السنة مع ذلك يتحدثون بأن الحسن نفسه قال لبعض عائديه في مرضه الأخير : « لقد سُقيت السم مرات ، ولكني لم أُسْق قط سمّاً أشد عليّ من هذا الذي سُقيته هذه المرة . ولقد لفظت آنفاً قطعة من كبدي » .

ويتحدثون كذلك بأن أخاه الحسين رحمه الله سأله عمن سقاه السم ، فأبى أن ينبئه به مخافةَ أن يقتص منه بغير حجة قاطعة عليه . يئس الحسن من الحياة وكره أن يلقى الله وقد اقتص له بالشبهة ، فآثر أن يكل هذا القصاص إلى الله عز وجل .

وبعض المؤرخين يزعم أن جَعدة بنت الأشعث بن قيس زوج الحسن هي التي اختارها معاوية لتدسّ السم للحسن في بعض شرابه أو طعامه ، ورشاها في ذلك بمائة ألف دينار ومنهم من يزعم أنه وعدها بأن يتخذها لنفسه زوجاً . فلما مات الحسن وفى لها معاوية بالمال وكره أن يتزوجها ، مخافةَ أن تفعل به ما فعلت بالحسن . والتكلف في هذه الرواية ظاهر ، ذهب بها أصحابها إلى ما عُرف من كيد الأشعث ابن قيس لعليّ فأرادوا أن تكون ابنته هي التي كادت للحسن حتى أوردته الموت .

وبعض المؤرخين يرون أن معاوية لم يُبعد في الاختيار بين زوجات الحسن ، وإنما

اختار لسمّه قرشية هي هند بنت سهيل بن عمـــرو ، ذلك الذي سفر عن قريش إلى النبي في صُلح الحديبية .

ولست أقطع بأن معاوية قـد دس إلى الحسن منْ سمّه ، ولكني لا أقطع كذلك بأنه لم يفعل ، فقد عُرف الموت بالسم في أيام معاويـــة على نحو غريب مريب . مات الأشتر – فيما يقول المؤرخون – مسموماً في طريقه إلى ولاية مصر ، فخلصت مصر لمعاوية وقال معاوية وعمرو : « إن لله لجنداً من عسل » ومات عبد الرحمن بن خالد بن الوليد مسموماً بحمْص في خبر طويل . ومات الحسن بين هذين الرجلـــين مسموماً كذلك في أكبر الظن ، وخلصت الخلافة لمعاوية وابنه يزيد .

وما ينبغي أن يُذكر أمر الحسين بن عليّ ، فإن الحسين لم يكن قـد نصب نفسه للبيعة ولم يكن إماماً للمسلمين ، ولم يكن معاوية قد صالحه ولا وعده ولا شرط له . ومع ذلك فقد همّ معاوية أن ينحّي الحسين عن مكانه شيئاً لتخلص له الطريق من ابني فاطمة وسبطي النبي . فقال ذات يوم لعبد الله بن عباس مازحاً وهو يريد الجد : « أنت سيد قومك بعد الحسن » ، ولكن عبد الله بن عباس لم ينخدع له وإنما أجابه في صرامة : « أمّا وأبو عبد الله حيّ فلا » .

ومع ذلك فلم يتردّد معاوية – كما سترى – في أن يبايع بولاية العهد لابنه يزيد ، وأكره الحسين كما أكره غيره من شباب المهاجرين على أن يسكتوا عن هذه البيعة ، التي كانوا ينكرونها في أنفسهم أشد الإنكار .

ومهما يكن من شيء فقد صارت رياسة الشيعة إلى أبي عبـــد الله الحسين بن عليّ رحمه الله ، بعد وفاة أخيه .

- ٤٦ -

وكان الاختلاف بين هذين الأخوين في الطبع والمزاج والسيرة شديداً ، كان الحسن كما رأيت صاحب أناة ورفق ، كرّهما إليه الحرب وسفك الدماء وحملاه على أن يؤثر السلم ويترك خلافة تكلفه مثل ما كلفت أباه من أهوال الحرب .

وكان الحسين كأبيـه صارماً في الحق لا يحب الرفق ولا الهوادة ولا التسامح فيما لا ينبغي التسامح فيه . كره صلح أخيه وهمّ أن يعارض ، فأنـذره أخوه بأن يشدّه في

الحديد حتى يتم الصلح .

وكان الحسين يعيب الصلح لأنه إنكار لسيرة أبيه . ثم لم يكن الحسين مِزْواجاً مطلاقاً ، ولم يكن ميسّراً على نفسه في أمر الدنيا ، ولا متبسّطاً في الحديث ، ولا متحبباً الى الناس ، وإنما كان صارماً على نفسه صارماً على غيره ، يتجرع مرارة الصبر على ما لا يحب ؛ رأى الوفاء لأخيه حقاً عليه فوفى له وأطاعه كما أطاع أباه من قبله ، وما أشك في أنه أثناء هذه السنين ، التي قضاها في المدينة بعد صلح أخيه ، كان يتحرّق تشوقاً الى الفرصة التي تتيح له استئناف الجهاد من حيث تركه أبوه .

وقد أتيحت له هذه الفرصة شيئاً ما ، حين صارت اليه رياسة الشيعة . وأقول : شيئاً ما ، لأن الفرصة لم تتح له كاملة ، فقد أصبح سيد قومه ورئيس حزبه ، ولكنه بايع معاوية وما كان له أن ينقض بيعته أو ينحرف عما أعطى على نفسه من العهد والميثاق .

وكان الحسين صاحب فطنة ، حسن النظر في الأمور ، رأى الدولة منقادة لمعاوية قد ضبطت له أمصارها ، وعرف هو كيف يسوس الناس بالحلم والرفق والسخاء ، وكيف يولي في الأمصار من يسوسون أهلها بالقوة الصارمة والخوف المخيف ، فلم يحاول الخروج حين أتيحت له الفرصة بما كان من نقض معاوية لما بايع الناس عليه ، من الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله .

وقد نقض معاوية هذه البيعة ما في ذلك شك ، ونقضها مرتين: إحداهما حين قتل من قتل من أهل الكوفة كما سنرى ، والثانية حين بايع بولاية العهد لابنه يزيد ، وجعل الخلافة وراثة ينقلها لابنه كما ينقل اليه ماله ، مع أن أمر الخلافة ليس ملكاً خاصاً للخليفة ، وإنما هو ملك عام لجماعة المسلمين .

وكان إسراف معاوية في أموال المسلمين وتوليته الجبابرة على الأمصار ، وإسراف أولئك الجبابرة في أموال الناس ودمائهم ، كل ذلك كان نقضاً منه للبيعة التي أعطاها للناس ، تبرىء ذمة الحسين لو أراد الخروج .

وقد همت عائشة نفسها أن تخرج بعد قتل من قتل معاوية من أهل الكوفة ، ولكنها أشفقت أن تثير فتنة عقيمة كالتي أثارتها حين خرجت مع صاحبيها مطالبة بدم عثمان ، فكفّت نفسها عن الخروج .

وقد رأى الحسين أن الأمر لا يستقيم له إن همّ بالثورة فصبر نفسه على ما تكره . ولكنه غيّر سياسة أخيه التي ساس بها الحزب ، فأطلق لسانه في معاوية وولاته حتى

أنذره معاوية ، ثم أغرى حزبه بالاشتداد في الحق والإنكار على الأمراء ففعلوا .

وكانت الكوفة خاصة مركز المعارضة العنيفة لمعاوية وعامله زياد .

ونلاحظ أن آثار هاتين السياستين ظاهرة أشد الظهور ، فلم يؤذ الشيعة في أنفسهم ولا في أموالهم ما عاش الحسن ، كانوا يعارضون في لين وينكرون في رفق ، وكان معاوية وولاته يسمعون منهم ويكفون عنهم ، وربما استصلحوهم بالقول والعمل . فلما صار أمر الشيعة إلى الحسين عنفت المعارضة وكادت تصبح ثورة في الكوفة ، فلقيها معاوية وولاته بالشدة بل بالإسراف في الشدة، حتى تجاوزوا في قمعها كل حد معقول .

وكانت سياسة الحسين مقوية للشيعة ومضعفة لها في وقت واحد . كانت مضعفة لها لأنها جرّت على كثير من أنصار أهل البيت محناً قاسية . وكانت مقوية لها لأنها جعلت الشيعة مضطهدين أشد اضطهاد وأقساه .

وليس شيء من سياسة الناس يروّج للآراء ويُغري الناس باتباعها كالاضطهاد الذي يعطف القلوب على الذين تُلم بهم المحن ، وتصبّ عليهم الكوارث، وتُبسط عليهم يد السلطان ، والذي يصرف القلوب عن هذا السلطان الذي يدفع إلى الظلم ويُمعن فيه، ويُرهق الناس من أمرهم عسراً .

ولذلك عظم أمر الشيعة في الأعوام العشرة الأخيرة من حكم معاوية . وانتشرت دعوتهم أي انتشار في شريعة الدولة الإسلامية وفي جنوب بلاد العرب . ومات معاوية حين مات وكثير من الناس وعامة أهل العراق بنوع خاص يرون بُغض بني أمية وحب أهل البيت لأنفسهم ديناً.

- ٤٧ -

ولم يكن لين الحسن وشدة الحسين هما وحدهما مصدرَ ما أصاب الشيعة في العراق من يسر وعسر ، وإنما أعان ولاةُ معاوية في العراق على الأمرين جميعاً . فأما البصرة فكانت عثمانية ، وقد رأيت من أمرها ما رأيت ، وعرفت أنها لم تستقم لعليّ إلا كارهة . وأما الكوفة فكانت موطن الشيعة ومستقر دعوتهم .

وقد ولي أمر هذين المصرين ، بعد أن استقام الأمر لمعاوية ، رجلان لم يُحبا العنف ولم يذهبا اليه . ولي البصرة عبدالله بن عامر فاستأنف فيها سيرته أيام كان عاملاً

لعثمان . نظر الى نفسه ولم ينظر الى الناس ، فجمع من المـــال ما استطاع ان يجمع ، وأرسل للناس أعنتهم يخبّون في الشر ويوضعون. وكانت الفتن قد غيّرت من أخلاقهم ، وطرأ عليها كثير من الأعراب ، وكثر فيها الموالي ، ونشأ فيهـا جيل جديد مختلط ، ففشا فيهم الفسق ، وفسد أمر السلطان ، وسقطت هيبة الوالي في نفوسهم ، لانه كان مشغولاً عنهم بنفسه ، ولأنه كان فيما زعم يتألف الناس ويكره أن يقطع يد سارق ، ثم يرى أخاه أو أباه بعد ذلك . وأقام على هذه السياسة حتى عُصي السلطان جهرة ، وفزع أهل المصر إلى معاوية فعزله عنهم ، في قصة طويلة .

وولّى على البصرة عاملا آخر لم يُقم فيها الا شهراً ثم عزله، وولي زياداً كما سترى. فحارب الشر بالشر ، وأزال نكراً ليضع مكانه نكراً آخر .

وكان عامل معاوية على الكوفة رجلا آخر داهية من دواهي العرب هو المغيرة ابن شعبة . وأمر المغيرة بن شعبة غريب كله ، اختلط فيه الخـير بالشر حتى أصبح مشكلة من المشكلات . غدر في شبابه بجماعة من أهل الطائف ، قتلهم جميعاً بعد أن سقاهم حتى ذهبت الخمر بعقولهم وناموا لا يعقلون، فوثب عليهم فقتلهم. وكانوا اثني عشر أو ثلاثة عشر رجلاً. ولم يستطع ان يعود إلى وطنه في الطائف، فاستاق مالاً كثيراً كان هؤلاء الناس قد قدموا به من مصر ، فمضى به حتى أتى المدينة فأسلم وعرض ما ساق من المال على النبي فأبى أن يقبله ، لأنه نتيجة الغدر وليس في الغدر خير وسأله المغيرة عن مصيره ، وقد أسلم بعد أن فعل فعلته تلك ، فقال له النبي : « إن الإسلام يجُبّ ما قبله » وقد نصح للنبيّ بعد ذلك وتعرض لأخطار كثيرة في حرب الردّة وفي فتح الشام ، حتى فقد إحدى عينيه في وقعة اليرموك . ثم شارك في فتح فارس فأبلى أحسن البلاء . وقـــد أمّره عمر على البصرة . وكأن إسلامه لم يكن عميق الأثر في نفسه ، فقد شهد عليه نفر بالزنى عند عمر ، وأوشك عمر أن يقيم عليه الحد ، لولا أن لجلج أحد الشهود وهو زياد . فأقيم حـــدّ القذف على الشهود الآخرين وعُزل المغيرة عن البصرة . ولكن عمر ولاه الكوفة بعد ذلك . أقام عاملاً عليها حتى قتل عمر ، واستبقاه عثمان على عمله وقتاً قصيراً ثم عزله . وقد اعتزل الفتنة . أو قل اعتزل أول الفتنة ، فلم يشارك في الثورة بعثمان ولم يبايع عليّاً ولم يشهد الجمـــل ولا صفّين ، ولكنه شهد اجتماع الحكمين. وعسى أن يكون قد لعب في هذا الاجتماع بعض اللعب . فلما تفرق الحكمان استبان له أن الدنيا قد أدبرت عن عليّ ، فأظهر الاعتزال فيما كان يرى من سيرته ، ولكنه مال إلى معاوية ميلاً واضحاً . فلما قتل عليّ كان من أسرع الناس إلى معاوية ، وأقبل معه من الشام حتى دخل الكوفة ، فشهد فيها صلح

الحسن وبيعه الناس لمعاوية ، واختطف ولاية الكوفة اختطافاً ، فيما يقول المؤرخون . فقد روي أن معاوية همّ أن يولي على الكوفة عبد الله بن عمرو بن العاص ، أو يولي على الكوفة عمراً ويجعل ابنه على مصر ، فقال له المغيرة بن شعبة : وتقيم أنت بين فكّي الأسد ، هذا في العراق وهذا في مصر ! فعدل معاوية عن رأيه وجعل المغيرة والياً على الكوفة .

وزعم الرواة أن عمراً عرف كيد المغيرة فجزاه بمثله . قال لمعاوية : تجعل المغيرة على الخراج ؟ هلاّ وليت رجلاً آخر عليه يكون أقدر على جمع الخراج وضبطه ؟ . وعرّض له بأن في المغيرة ضعفاً للمال . فاكتفى معاوية بتولية المغيرة على الحرب والصلاة وجعل الخراج على غيره . ولقى عمرو المغيرةَ . فقال له : هذه بتلك .

وكانت سياسة المغيرة للكوفة كسياسة عبد الله بن عامر للبصرة ، نظر فيها المغيرة إلى نفسه أكثر مما نظر إلى غيره ، فرفق بالناس وأسمح لهم ، وترك لمعارضي بني أمية من أنصار عليّ ومن الخوارج قدراً حسناً من الحرية .

وكان معاوية قد تقدم إليه في أن يتعقب أنصار عليّ ويشدّد عليهم ، فكان يلائم بين ما أراد معاوية وبين ما كان هو يحب من العافية . وأمْره وأمْر عبد الله بن عامر أيسر مما ظن المؤرخون ، كلاهما ولى الأمصار للخلفاء السابقين ، فتعود في سياسة الناس سيرة من الرفق والدعة والأناة ، لم يكن من اليسير عليه أن يخالف عنها .

ومعاوية بعد ذلك رجل من أصحاب النبي ، فكان من الطبيعي أن تكون سياسته وسياسة ولاته على الأمصار للناس في حياتهم اليومية شبيهة إلى حد بعيد بسياسة الخلفاء والولاة من قبلهم . وقد كانت كذلك في مصر أيام عمرو بن العاص وابنه عبد الله . وكانت كذلك في مصري العراق ، إلا أن الناس أحدثوا أحداثاً لم تكن ، كما قال زياد . فأحدث معاوية وولاته لهذه الأشياء سياسة تلائمها . ولم تتغير سيرة المغيرة في الخوارج من أهل الكوفة ، وإنما سار فيهم سيرة عليّ . تركهم أحراراً يلقى بعضهم بعضاً ويجتمعون ويتذاكرون أمرهم ، وأبى أن يعرض لهم إلا أن يحدثوا شرّاً ، أو يبادوه بعداوة .

وكان المغيرة أشد احتياطاً من عليّ ، فكان له من يُعلمه علم الخوارج ، وكان يحاول أن يمنع خروجهم قبل وقوعه . وربما دفعه ذلك إلى أخذهم أثناء اجتماعاتهم وإلقائهم في السجن . فإذا خرجت منهم خارجة ونصبت له الحرب ، أو أفسدت في الأرض ، أرسل إليها من أهل الكوفة من يقاتلها حتى يكفيه شرها .

وكانت سيرته في الشيعة أيسر من ذلك وأسمح ، لم يعرض لهم بمكروه وربما بادوه

بالكلام القاسي الغليظ فنصح لهم ورفق بهم ، وحبب اليهم العافية ، وخوّفهم بطش السلطان ، ثم لم يؤذهم بعد ذلك في أنفسهم ولم يرزأهم من أموالهم شيئاً .

وقد انتفع الشيعة بهـــذه السياسة الرفيقــة فنظّموا أمورهم ، وعارضوا سياسة الأمويين معارضة حرة،كان معاوية يكرهها ولكنه لم يكن يجد على أصحابها سبيلاً. وقد أقام المغيرة والـيـــاً على الكوفة لمعاوية عشر سنين . لم ينكر الشيعة فيها منه شيئاً ذا خطر إلا أن يكون عيبه لعليّ. وقد كان مضطرّاً إلى ذلك بحكم السياسة الجديدة. وكانت الشيعة تلقى ذلك منه بالإغضاء مرة وبالنكر مرة أخرى .

وقد حرص المغيرة أشد الحرص على أن يُرضي معاوية عن نفسه ليستديم ولايته على الكوفة . توسط بـــين معاوية وزياد حتى ضمن الأمان من معاوية لزياد ، وضمن الطاعة من زياد لمعاوية . وعسى أن يكون له أثر فيما كان من استلحــاق زياد ، فأدى بذلك حق زياد ، وعرف له ما قدم إليه من جميل حين لجلج في الشهادة بـــين يدي عمر فأعفاه من الحد . ثم هو بعد ذلك قد أرضى معاويــه حين أراحه من كيد زياد له ومكره به ، وحين حول زياداً من العدو الكائد المــاكر إلى الوليّ الناصح الأمين . والقى المغيرة في نفس معاوية فكرة ولاية العهد . ولعل معاوية لم ينتظر بهذه الفكرة مشورة المغيرة . ولكن المغيرة جرّأه على التفكير فيها والجهر بها . وضمن له أهل الكوفة . وألقى هذه الفكرة نفسها في قلب يزيد ، ففتح له أبوابـــاً من الطمع لعلها لم تكن تخطر له على بال .

وكذلك عاش المغيرة هذه الأعوام العشرة مستريحاً مريحاً، ارضى السلطان وارضى الرعية وارضى نفسه ، وإن لم يكن إرضاء نفسه يسيراً . فقد كان صاحب لذة ومسرفاً على نفسه وعلى الناس،كثير الزواج كثير الطلاق، لم يكن يتزوج واحدة واحدة ويطلق حين يجتمع لة أربع زوجات وحين يريد ان يستزيد ، وإنما كان كثـيراً ما يطلق أربعاً ويتزوج أربعاً ، حتى أسرف المؤرخون عليه بعد ذلك . فزعم المكثرون انــه تزوج ألف امرأة في حياته الطويلة . وزعم المقللون انه تزوج مائة او تسعاً وتسعين . وتوسط المعتدلون فزعموا انه تزوج ثلثمائة . وليس من شك في انه كان يؤدي إلى هؤلاء الزوجات مهوراً . وليس من شك كذلك في انه كان يُرضي كثـيراً منهن عن الطلاق السريع . وما احسب ان ثروته الخاصة كانت تقوم له بهذا السرف الكثير .

فحياة المغيرة كما ترى كانت خليطاً من العمـــل الصالح والعمل السيىء ، وأمره وأمرها بعد ذلك إلى الله . ولكن المهم هو ان سياسته ، حين ولى الكوفة لمعاويــة ،

قد يسرت للشيعة أمرها تيسيراً ، حتى كان أهل الكوفة يذكرونه بالخير كلما بلوا بعده قسوة الأمراء .

- ٤٨ -

ولكن الأمور تتغير في البصرة حين يليها زياد سنة خمس واربعين . ثم تتغير في الكوفة حين يُضاف امرها إلى زياد بعد موت المُغيرة سنة خمسين . ولم تكن حياة زياد اقلّ غرابة من حياة المغيرة ، كما لم يكن زياد نفسه اقلّ ذكاء ودهاء ، ولا أدنى مكراً وكيداً من المُغيرة . بل المحقق انه قد تفوّق على المُغيرة في هذا كله .

وكان زياد ذا شخصيتين مزدوجتين ، عاش بأولاهما ايام الخلفاء الراشدين ، وعاش بالثانية بعد ان صالح معاوية . وكانت الشخصيتان متناقضتين إلى اقصى حدودالتناقض وابعد غاياته . وكان راشداً حين عمل للخلفاء الراشدين ، وكان طاغية جبّاراً حين عمل لمعاوية . وكان يرى نفسه في الحالين ناصحاً للمسلمين . وكان يظن اثناء طغيانه انه أحيا سياسة عمر . ولكن سياسة عمر اصلحت الناس ، وسياسة زياد ايام معاوية ملأت حياة الناس وقلوبهم شرّاً ونكراً وفساداً .

وكان زياد ايام الخلفاء الراشدين رجلاً من موالي ثقيف ولدته أمةٌ للحارث بن كَلَدة ، هي سُمية . ولعلها كانت فارسية او هندية . فأما ابوه فقد كان عبداً روميّاً لصفية بنت عبيد ، زوج الحارث بن كلدة ايضاً . وكان اسمه العربي عُبيد . فقد كان زياد إذاً مولى لآل الحارث بن كلدة من ثقيف . وكان حدثاً ايام النبي ، فقد وُلد – فيما يقال – عام الهجرة أو بُعيد الهجرة بقليل . ومن الناس من يقول عام الفتح .

وقد سار إلى العراق فيمن سار إليه مع عُتبة بن غَزْوان . وكان عتبة قد تزوج بنت الحارث بن كلدة ، وامرأته صفية . فأقام مع مواليه الذين شاركوا في الفتح . ومضى أمره كما استطاع أن يمضي ، لا نعلم من أمر صباه وشبابه الأول شيئاً . ولكنا نراه كاتباً لأبي موسى الأشعري حين كان أميراً على البصرة . ونراه رسولاً إلى عمر ببعض الحساب . ونقرأ أن عمر قد أعجب بذكائه وفصاحته وحفظه للعدد وتصرفه فيه . وقد أمره ان يعرض الحساب على الناس كما عرضه عليه ، ففعل .

وأعجب هؤلاء العرب من أصحاب النبي بهـــذا الفتى الفصيح الجريء الذي يلعب بالارقام لعباً لا عهد لهم به ، ولم يُخف عمر هذا الإعجاب .

ويزعم بعض الرواة أن أبا سفيان َهمس في ذلـك اليوم بأن زياداً ابنه ، ولم يجهر بذلك مخافة عمر . وأكبر الظنّ أن هذا الخبر اختُرع بآخرة .

والمؤرخون يحدثوننا بأنّ عمر أعطى زياداً ألف درهم، فلما عاد إليه من قابل سأله: ماذا صنعت بالألف ؟ قال : اشتريت بها أبي عُبيداً فاعتقته .

فقد عرف عمر إذاً أن لزياد أباً هو عُبيد . وكان عُبيد هذا من الخمول بحيث لا يكاد الناس يعرفونه . فكانوا يُضيفونه إلى أمه فيقولون : زياد بن سُمية . وربمـــا لم يُضيفوه الى أمه ولا الى أبيه فقالوا : زياد الأمير . وربما قال خصومه ومعارضوه من الشيعة والخوارج بعد عمله لمعاوية : زياد بن أبيه .

وقد ظل زياد في البصرة يكتب لأمرائها أيام عمر وعثمان ، فلما كان يوم الجمـل وانتصر عليّ سأل زياد ، فانبىء بأنه مريض ، فعاده . واستبان استعداده للنصح له ، فهمّ علي أن يوليه البصرة ، ولكن زياداً أشار عليه أن يحمل على هذا المصر رجلاً من أهل بيته يهابه الناس ويطمئنون اليـه وذكر له ابنَ عباس ، فـــولاه عليّ . وعمل زياد لعبد الله بن عباس كما عمل للولاة من قبله . فلما انصرف ابن عباس عن البصرة ، في قصته تلك التي ذكرناها آنفاً، قام زياد مقامه وأحسن الحيلة والبلاء في الاحتفاظ بهذا المصر لعليّ ، على رغم ما كاد معاوية لانتزاعها منه .

ولما قُتل علي واستبان أن الأمر صائر الى معاوية تحول زياد الى فارس . وكان قد استصلحها وأحبَّه أهلها . فاعتصم بقلعة هناك عُرفت باسمه فيما بعد ، وظل ينتظر حتى إذا استقام الأمر لمعاوية وبايعت له جماعة الناس . وكان زياد وحده متربّصاً في قلعته تلك يكره أن ينزل على حكم معاوية ، أو أن يدخل فيما دخل فيه الناس دون عهد من معاوية له بالأمان . وكان معاوية ضيّقاً بمكان زياد في قلعته تلك . كان يعلم مكره وكيده وبُعد غوْره في الدهاء وسعة حيلته ، وكان يعلم أن عنده مالاً كثيراً ، وأن له أنصاراً يتعصبون له من أهل فارس . وكان يكره أن ينتقض عليـه وأن يبايع لرجل من أهل البيت ، فيفسد عليه الجماعة ويُخرجه من العافية الى الحرب وسفك الدماء . وكانت لزياد يـدٌ عند المُغيرة بن شُعبة سبقت إليه أيام عمر ، حين لَجّلج زياد في الشهادة فأعفاه من الحدّ . فتوسط المغيرة بين معاويـــة وبين زياد حتى أصلح بينهما ، وأخذ لزياد ما أراد من الأمان . وقنع منه معاوية بمال قليل أداه إليه مما كان

عنده من الخراج ، وأذن له معاوية في أن ينزل من بلاد المسلمين حيث يشاء ، فإن أحب العراق أقام فيها ، وإن أحب الشام تحول اليها .

ولأمر ما خطر لزياد أو لمعاوية أو للمغيرة أن يتصل نسبُ زياد ببني أمية وبأبي سفيان خاصة ، كأن أبا سفيان قد عرف سُمية في بعض زيارته للطائف .

ويقال ان زياداً احتال حتى دس الى معاوية من زعم له أن أهل العراق ينسبون زياداً الى أبي سفيان فانتهز معاوية هذه الفرصة ودعا اليه زياداً ، ثم جمع الناس ، فشهد الشهود بأن أبا سفيان قد عرف سُمية . واكتفى معاوية بذلك، فألحق زياداً بأبي سفيان وجعله أخاه .

وواضح جداً ما في هذا الاستلحاق من التكلف والاحتيال. وقد أنكره الصالحون من المسلمين ، حين أعلنه معاوية . وحرص عليه زياد أشد الحرص ، وغضب له موالي زياد من بني ثقيف .

ويحدثنا البلاذري بأن معاوية أرضى سعد بن عبيد أخا صفية عن هذا الاستلحاق بما أعطاه من المال . ولكن يونس بن سعد لم يرض وأراد أن يصل الى معاوية ليحاجه في هذا الاستلحاق ، فلم يستطع الوصول اليه. فلما حضرت الصلاة من يوم الجمعة ذهب يُونس الى المسجد وقطع عليه معاوية خطبته قائلاً له :

« اتق الله يا معاوية ، فإن رسول الله ﷺ قضى بأن الولد للفراش وللعاهر الحجر، وأنت قد جعلت للعاهر الولد وللفراش الحجر ، وان زياداً عبدُ عمّي وابن عبدها ، فاردد الينا ولاءنا » . فقال له معاوية : والله يا يونس لتكفّن أو لأطيرنّ بك طيرة بطيئاً وقوعها . قال يونس : أليس المرجع بعدُ بك وبي الى الله عز وجل .

وقال الشاعر في ذلك :

وقائلة إمّا هلكت وقائل ... قضى ما عليه يونس بن عبيد

قضى ما عليه ثم ودّع ماجداً ... وكلّ فتى سمح الخليقة مُودي

وقال يزيد بن مفرّغ يعيب معاوية بهذا الاستلحاق فيما زعم الرواة :

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... مُغَلْغَلَةً عن الرجل اليمان

أتغضب أن يُقال أبوك عفٌ ... وترضى أن يقال أبوك زاني

وكان معاوية شديد الإيثار لزياد ، لا يحتمل أن يقول فيه أحد ما يكره ، حتى عرف ذات يوم أن عبد الله بن عامر عاب زياداً وقال فيما قال: لهممت أن أجمع خمسين رجلاً من قريش يحلفون بالله ما عرف أبو سفيان سُمية . فغضب معاوية لذلك أشد

الغضب وقال لحاجبه : « إذا جاء عبد الله بن عامر فاضرب وجه دابته عن أقصى الأبواب » . لم يكتف بأن يحجبه وإنما منعه من دخول القصر . وقد أنفذ الحاجب أمر معاوية ، وضاق عبد الله بن عامر بهذه الجفوة . فشكا أمره إلى يزيد ، وتوسط يزيد . فلم يرض معاوية عن عبد الله إلا بعد أن ذهب إلى زياد فاعتذر إليه وأرضاه . ومكان عبد الله بن عامر من عثمان ومن معاوية معروف .

ولم يكن زياد أقل حرصاً على نسبه الجديد من معاوية ، حتى روى المؤرخون أن رجلاً أتى عبد الرحمن بن أبي بكر ، وطلب منه أن يكتب في حاجة له الى زياد. فكتب عبد الرحمن ولم ينسب زياداً إلى أبي سفيان . فأبى الرجل أن يذهب بالكتاب الى زياد . وجاء عائشة أم المؤمنين فكتبت له : « من عائشة أم المؤمنين الى زياد بن أبي سفيان » . فلما رأى زياد هذا الكتاب قال للرجل : إذا كان الغد فاحضر . فلما حضر الرجل أمر زياد بالكتاب فقرىء على الناس . وإنما أراد بذلك الى أن يعلم أهل البصرة أن أم المؤمنين قد اعترفت بنسبه هذا الجديد .

وكان أبو بكرة صاحب رسول الله أخا زياد لأمه ولدته سمية للحارث بن كلدة ، ولكن الحارث نفاه ، فظل عبداً . فلما كانت غزوة الطائف نزل فيما نزل من العبيد إلى النبي ﷺ ، فأعتقه فيمن أعتق من هؤلاء العبيد وقال عنه :

« إنه طليق الله وطليق رسوله » . فكان أبو بكرة يقول : إنه مولى رسول الله.

وقد وجد أبو بكرة على زياد حين لجلج في الشهادة بين يدي عمر ، فصرف الحد عن المغيرة وعرض أبا بكرة لحد القذف . فلما عرف سعي زياد في الاستلحاق وتدبير معاوية له ، نهاه عن ذلك وحرّج عليه فيه . فلم يسمع له زياد . فلما تم الاستلحاق حلف أبو بكرة لا يكلمه أبداً ، ثم لم يكلمه حتى مات .

وكان أبو بكرة يحلف — فيما زعم الرواة — ما كانت سمية بغياً ولا عرفت أبا سفيان .

وبلغه ، فيما يقول البلاذري ، ان زياداً طمع بعد الاستلحاق في أن يحج ، وكأنه أراد ان يكون أمير الحج. وقد استأذن معاوية في الحج فأذن له. فأقبل ابو بكرة حتى دخل على زياد وعنده بعض بنيه ، فوجه الحديث الى احد بنيه وهو يسمع ، فقال: إن أباك هذا أحمق ، قد فجر في الإسلام ثلاث فجرات . أولاهن كتمان الشهادة على المغيرة ، والله يعلم انه قد رأى ما رأينا . والثانية في انتفائه من عبيد وادعائه الى ابي سفيان . واقسم إن أبا سفيان لم يرَ سمية قط . والثالثة انه يريد الحج ، وأم حبيبة زوج رسول الله ﷺ

هناك ، وإن أذنت له كما تأذن الأخت لأخيها فأعظمْ بها مصيبةً وخيانة لرسول الله ﷺ . وإن هي حجبته فأعظمْ بها عليه حجة فقال زياد : ما تدع النصح لأخيك على حال . وعدّل عن الحج في هذا العام ، واستعفى معاوية منه فأعفاه ، وانتظر بالحج ، فلم يأت الحجازَ حتى ماتت أم حبيبة رحمها الله .

-٤٩-

وقد لقي معاوية وزياد في هذا الاستلحاق شططاً ، فأما معاوية فقد احتاج إلى أن يعنُف بقومه ، من بني أمية خاصة ومن قريش عامة ، ليُدخل عليهم هذا النسب الجديد . وما أراهم احتملوا منه ذلك إلا خوفاً من بطشه أو رغبة في ماله . وكثير منهم أظهر القبول وأضمر الإنكار . وكثير منهم تحفظ فلم يستطع أن ينسب زياداً الى أبي سفيان ، فاكتفى بذكر اسمه أو نسبه إلى أمه سُمية .

وأما زياد فقد لقي الشطط كل الشطط يوم اعلن هذا الاستلحاق بمشهد من الجماعة في دمشق ، فقد أجلسه معاوية على المنبر الى جانبه . ثم دعا من شهد على سُمية بأنها عرفت أبا سفيان معرفة الإثم ، وسمع في أمه ما لا يحب الرجل الكريم ان يسمع في أمه . وبلغ من ضيقه بذلك أن خرج عن طوره فقال لبعض الشهود : لا تشتم أمهات الرجال فتُشتم أمك . وقال لبعضهم الآخر : إنما دعيت شاهداً لا شاتماً . وهو على ذلك قد رضي بهذا الاستلحاق كل الرضى ، بل سعى فيه فأحسن السعي . وهو قد خطب في البصرة فحمد الله الذي رفع منه ما وضع الناس ، كأنه رأى انتسابه الى رجل من أشراف قريش ، ارفع واعظم خطراً من انتسابه الى عبد رومي . فكيف وهذا الرجل من اشراف قريش هو أبو معاوية الذي صار اليه سلطان المسلمين .

وهذا أول تغيير ظاهر في سيرة زياد ، وأول جهر منه بما لم يألفه المسلمون أيام النبي والخلفاء . فقد قام الاسلام كما عرفت على التسوية بين السادة والعبيد ولم يفرق بين الناس إلا بالتقوى .

والغريب من أمر زياد أنه خطب الناس خطبته تلك البتراء ، فقال فيها كما سترى: « وإياي ودعوى الجاهلية . فإني لا أوتَى برجل دعا بها إلا قطعت لسانه » . وهو أول من دعا بدعوى الجاهلية ، بل عسى أن يكون هو معاوية أول من انحرف عما شرع الاسلام وأمر به القرآن وأكدته السنة تأكيداً ، وعاد الى عُرف جاهلي غيّره الدين الجديد .

فقد ينبغي أن نقف وقفة تأمل واستقصاء عند هذا الاستلحاق الذي فرضه سلطان معاوية على المسلمين فرضاً . وأول ما نلاحظ من ذلك أن في هذه السيرة ، التي رواها المؤرخون والمحدثون لزياد ، شيئاً من النقص وكثيراً من الغموض . فقد وُلد زياد عبداً للحارث بن كلدة ، الذي كان يملك أمه سُمية او كان أبوه عبداً لصفية زوج الحارث كما رأيت ، ونحن لا نرى زياداً في التاريخ الذي حُفظ لنا إلا حُرّاً . فمتى عتق ؟ ومن أعتقه ؟ وأين كان هذا العتق ؟ وهو نفسه قد أنبأ عُمر ، حين أعطاه ألفاً ثم سأله عنها من قابل ، بأنه اشترى بها عبيداً أباه فأعتقه ، فلم يصر عُبيد إذاً الى الحرية إلا بآخرة . فهل صار زياد اليها قبل أبيه . كل هذه أمور لم يقف عندها المؤرخون والمحدثون . وهي مع ذلك أيسر ما في سيرة زياد من الغموض .

والمشكلة العسيرة حقاً في هذه السيرة هي مشكلة الاستلحاق ، فقد نحب أن نعلم على أي أصل من أصول الدين او الدنيا قام هذا الاستلحاق .

فأما الدين فنحن نعلم أن للتبني شروطاً قررها الفقهاء ، اولها ان يكون الذي يقع عليه التبني من السن بحيث يمكن أن يولد لمن وقع منه هذا التبني ، أي أن يكون الفرق بينهما في السن ملائماً لما يكون بين الآباء والأبناء من اختلاف الأسنان ، وليس من شك في أن زياداً كان أصغر من أبي سفيان . وكان يمكن أن يكون له ابناً . الشرط الثاني ألا يكون لمن يقع عليه التبني أب معروف ، فليس ينبغي أن يُدعى الرجل لغير أبيه ، لقول النبي ﷺ : « من ادعى لغير أبيه متعمداً حُرمت عليه الجنة » . وقد كان لزياد أب معروف ، هو عبيد الرومي ذاك . اعترف بذلك زياد نفسه حين خطب في مجلس الاستلحاق نفسه فقال : أيها الناس قد سمعتم قول أمير المؤمنين وقول الشهود . ولست أعلم حق ذلك من باطله . وهم أعلم بذلك مني . وقد كان عبيد أباً مبروراً ووالياً مشكوراً .

وقد رأيت من حديث أبي بكرة أخي زياد لأمه أن زياداً انتفى من عُبيد حين انتسب الى ابي سفيان . ورأيت كذلك في حديث أبي بكرة أنه أقسم ما عرف أبو سفيان سُمية قط .

فزياداً إذاً قد انتفى من أبيه المعروف حين ادعى لأبي سفيان . ومعاوية قد أراده على ذلك . وليس شيء من هذا لها مجال من الأحوال .

وهناك شرط ثالث لصحة التبني ، وهو أن يقبله من يقع عليه التبني . وقد سعى زياد في ذلك حتى أغرى معاوية به ورغّبه فيه . ولكنه حين أريد على أن يعلن

قبوله إلى الناس أعلنه على استحياء وتردد ، كما رأيت في كلمته التي رويناها آنفاً .
والإقرار ببنوة زياد لأبي سفيان لم يصدر بعدُ بصفة قاطعة عن أبي سفيان نفسه ، وإنما زعم الزاعمون أن أبا سفيان لمح به ولم يجرؤ على إعلانه مخافة عمر . ولكن أبا سفيان عاش صدراً من خلافة عثمان ، يقول المقللون إنـه ست سنين ، ويقول المكثرون إنه عشر سنين. وكان عثمان ألين جانباً من عمر، وكان يظهر لبني أمية من لين الجانب أكثر مما يظهر لعامة قريش وعامة المسلمين . فلو قد كان أبو سفيان مؤمناً حقاً بأن زياداً ابنه لأقرّ بذلك أيام عثمان إلا أن يكون قد عرف أن هـذا الإقرار لا يباح له ، وأن عثمان لا يمكن أن يجيزه ، لأن لزياد أباً معروفاً ، هو عبيد ، ذلك الرومي .

فقد انتظر معاوية باستلحاق زياد أن يموت أبوه، ثم يستلحقه اثر موت أبيه ، حين كان قريب المكان من عثمان عظيم الشأن في نفسه ، بل لم يستلحقه في أيام عليّ حين كان يعمل في البصرة لعبد الله بن عباس أو حين قام في البصرة مقام ابن عباس ، بل لم يستلحقه أيام الحسن، ولم يستعن به على الصلح ولم يفكر في استلحاقه الا بعد أن خلص له السلطان من جهة ببيعة الحسن ، وحين امتنع عليه زياد في فارس من جهة أخرى .

وعسى أن يكون الاستلحاق شرطاً من شروط الصلح بينه وبين زياد . فهو اقرار سياسي ليس المرجع فيه الى الدين ولا الى أصل من أصوله ، وانما المرجع فيه الى الدنيا وتحقيق مصلحة سياسية ، وهذه المصلحة السياسية واضحة كل الوضوح .

فقد كان زياد أعلم الناس بأهل العراق، وأقدر الناس على سياستهم وحملهم على الطاعة عن رضى أو عن كره ولم يكن ذكاؤه ودهاؤه يخفيان على معـاوية ، بل لم يكونا يخفيان على أحد ، فقد اصطنعه معاوية إذاً ليكفيه شرق الدولة ، وليستطيع هو أن يفرغ لغربها . ولم يكن بدّ لصحة هذا الإقرار من أن يقبله اخوة معاوية ، وسائر من ورث أبا سفيان . وواضح أن هؤلاء لم يكـونوا يستطيعون إلا أن يذعنوا طائعين أو كارهين .

وهذا الاستلحاق لمصلحة من مصالح الدنيا قد كان معروفاً في الجاهلية . وقد حرّمه القرآن بالآيتين الكريمتين من سورة الأحزاب :

(مَا جَعَلَ اللهُ لرجُلٍ من قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ . ومَا جَعَلَ أزواجَـكم اللائي تُظاهرون مِنْهُنّ أمهاتِـكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحقّ وهُو يهدي السبيل . ادْعُوهم لآبائهم هو أقْسَطُ عند الله. فإن لم تعْلَموا آباءهم فإخوانكم في الدّين ومَواليكم وليس عليكم جُناح فيما أخطأتم بهولكن ما تعَمّدت

قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً) .

وقد اتفق المسلمون على ان هاتين الآيتين قد ألغتا بُنوة زيد بن حارثة من النبي ﷺ. وكان قد تبنّاه قبل النبوة في قصته تلك المعروفة ، لم يكن يرجو بهذا التبني مصلحة من مصالح الدنيا، وإنما تبناه حباً له وعطفاً عليه وعملاً بعُرْف كان مألوفاً عند العرب، وألغت الآيتان كذلك بُنوة سالم من أبي حُذيفة . فعدل النـاس عن زيد بن محمد إلى زيد بن حارثة. ولم يعرفوا لسالم أباً ، ولم يعرف سالم لنفسه أباً . فقال الناس : سالم مولى ابي حذيفة وكان ابو بكرة يقول : لا اعرف لنفسي أباً ، فأنا أخوكم في الدين. وكان ربما قال : « أنا مولى رسول الله» أو «أنا مولى الله ورسوله». لأن النبي أعتقه فيمن نزل اليه في غزوة الطائف من عبيد ثقيف .

وكان هذا النحو من الاستلحاق معروفاً عند الرومان أيضاً . وكان كثير من قياصرتهم يتبنون الرجال ويجعلون إليهم ولاية العهد من بعدهم. ومن يدري لعل معاوية عرف ذلك فيما عرف من أمر الروم ، فلم يستلحق زياداً بنفسه وإنما استلحقه بأبيه ، وجعله من رهطه ، واستعانه على سياسة العراق وما وراءه من الأقطار .

وما أريد أن أدخل فيما أكره الدخول فيه دائماً من القول في رضى الله عن هذا الاستلحاق أو غضبه عليه ، فأمر ذلك إلى الله وحده . وإنما أحب ألا أتجاوز السياسة والتاريخ . وقد ألف المسلمون منذ عهد النبي ألا يتبنّى رجلٌ مَن كان له أب معروف . أمر بذلك القرآن ، وحرّج النبي في ذلك على المسلمين أشد التحريج ، كما رأيت في حديث عبد الله بن عمر وأبي بكرة : من ادعى لغير أبيه متعمّداً حرمت عليه الجنة .

ويزيد أمرَ هذا الاستلحاق تعقيداً أن معاوية لم يُرد الى الاستلحاق الغامض العام ، وانما أراد ان يضع النقط فوق الحروف ، كما يقول الناس في هذه الأيام ، وأن يثبت أن زياداً هو ابن أبي سفيان لصُلبه فأشهد الشهود على أبيه بأنه عرف سُمية في موطن من مواطن الإثم . وزاد بعضُ الشهود فقال : انه راود سُمية عن ان تُلم بأبي سفيان . فقالت له : اذا جاء عبيد الرومي من غنمه ووضع رأسه فنام أتيته . فورط معاوية نفسه وورّط زياداً معه في نكر عظيم ، وجرأ يونس بن عبيد على ان يقول له : قضى رسول الله ﷺ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وقد جعلت الولد للعاهر وللفراش الحجر.

فقد خالف معاوية إذاً مخالفة ظاهرة عما ألف المسلمون من حكم دينهم ، وشاركه زياد في هذه المخالفة . وكان قد بايع المسلمين على أن يعمل فيهم بكتاب الله وسُنة

ورسوله . فهو بهذا الاستلحاق عمل بغير ما أمر الله ورسوله . فلا غرابة في أن يرى جماعةٌ من صالحي المسلمين أن بيعته قد أصبحت لا تلزمهم ، وأن يخضعوا له كارهين لا طائعين ، وساخطين لا راضين ، وأن يتربّصوا الدوائر وينتهزوا الفرص ليخرجوا حين يتاح لهم الخروج .

- ٥٠ -

ولم يكد زياد يلي البصرة حتى سار في الناس سيرة تناقض كل المناقضة سيرته فيهم حين كان عاملا لعليّ ، وحتى اعتمد في سياسته لهم على الارهاب أكثر مما اعتمد على أي شيء آخر .

وليس من شك عندي في أن مرجع ذلك ليس الى حاجته وحاجة معاوية الى ضبط العراق وحمل أهله على الطاعة فحسب، ولكن الى عُقدة نفسيّة أدركته وأفسدت عليه أمره بعد الاستلحاق . فهو كان يعرف رأي المسلمين في نسبه هذا الجديد ، وكان يعرف انكارهم له واستهزاءهم به ، وكان يعلم أن العرب لا تسخر من شيء كما تسخر ممن يُدعى لغير أبيه . وقد حمله ذلك على أن يسوس الناس بالخوف والذُعر ، ويحول بينهم وبين أن يجمجموا بما في نفوسهم من نسبه واستلحاقه وسيرته وسيرة معاوية في أمور المسلمين ، فوفق الى ذلك أشنع التوفيق وأشدّه نُكْراً . خاض اليه دماء الناس ، وأهدر في سبيله حقوقهم وكرامتهم، وأحدث فيهم من ألوان الحكم ما لم يعهدوه من قبل . وزعم كما سترى في خطبته ، أن الناس أحدثوا أشياء لم تكن ، وانه احدث لكل ذنب عقوبة . ومعنى ذلك أن ما بيّن الله ورسوله للمسلمين من الحدود وما ساس به الخلفاء الراشدون أمور الناس ، لم يكن في رأي زياد كافياً لحمل أهل البصرة وأهل الكوفة على الجادة ، والرجوع بهم الى الصراط المستقيم .

وقد رأينا بعض هذه الأشياء التي احدثها الناس بعد ان لم تكن ، والتي استحدث لها زياد عقوبات غير مألوفة . فهو رأى الناس يحرقون الدور على من فيها . فقال : من حرق قوماً حرقناه . وعسى أن يكون زياد قد شارك في إحداث هذا التحريق في البصرة ، حتى رضي عن تحريق جارية بن قُدامة للدار التي أوى اليها ابن الحضرمي وأصحابه، على مَن فيها . ورأى الناس يغرق بعضهم بعضاً

فقال : من غرّق قوماً غرقناه . ورأى الناس ينقبُون البيوت فقال : من نقب على قوم نقبنا عن قلبه . ورأى الناس ينبشون القبور فقال : مَن نبش قبراً دفناه حيّاً فيه . وقد كان في ضبط الأمر بما وضع الله ورسوله للناس من حدود ، وفي التشدّد في هذا الضبط ، ما يُغنيه عن الشناعات . ولكنه شرع ألواناً من الحكم العُرفي لم يُقرها الإسلام ولم يألفها المسلمون ، ثم أسرف على نفسه وعلى الناس ، فعاقب بالموت على دَالّج الليل ، ولم يقبل لأحد عذراً ، حتى إذا استبان صدقه .

واقرأ إن شئت خطبته تلك ، فسترى أنها أول خطبة جَهر فيها أمير من العقوبات بما لم يعرفه الإسلام من قبل ، وبما لم يعرفه أمير من أمراء معاوية في عصره. ولم يصدق الناس نذير زياد حين سمعوا ، لأنهم أعظموا ذلك . وقدّروا أنه لا يريد إلا الإرهاب ، مع أنه قال لهم في خطبته تلك : « إن كذبة المنبر بَلْقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم عليّ بكذبة فاغتمزوها فيّ ، واعلموا أن عندي أمثالها » . ولكن الناس رأوا أنه يصدق قوله بفعله ، فيقتل المُدلج وإن كان له عذر صادق مقبول ، ويأخذ الجارَ بالجار والوليّ بالوليّ والبريء بالمسيء ، ويُسرف في قتل الناس حتى يقول بعضهم لبعض : انج سعد فقد هلك سُعيد .

ومات المغيرة بن شُعبة سنة خمسين . فعمل زياد حتى وُلي الكوفة مكان المُغيرة ، وسار في أهل الكوفة سيرته في البصرة ، فملأ قلوبهم رُعباً ورهباً . وأغربُ من هذا كله أنه ظن أنه يسوس الناس سياسة عُمر ، لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، مع أن أهل العراق لم يروا منه بعد انتسابه في بني أمية ليناً أو شدة ، وإنما عرفوا منه عُنفاً لا حد له ، وإسرافاً في الدماء والحقوق لا صلة بينه وبين الإسلام .

ولم يحتمل زياد تبعة أعماله وحدها، وإنما سَن لغيره من أمراء بني أمية في العراق، وللحجاج منهم خاصة ، أشنع السنن وأشدها نكراً . واقرأ خطبته هذه التي أشرتُ إليها غير مرة ، والتي رواها المؤرخون روايات مختلفة ، واقتصر أكثرهم على أطراف منها . ورواها الجاحظ على نحو من الترتيب والتأليف لا يخلو من أثر الصنعة ، ولكنه يصور أدق تصوير سيرة زياد ، شأن الجاحظ في ذلك شأن غيره من رواة العراق ، في أكثر ما رووا من خُطب هذا العصر الذي نحن بصدده . قال زياد : « أما بعد . فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغيء المُوفي بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام . ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير. كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ،

والعذاب الأليم لأهـــل معصيته ، في الزمن السرمدي الذي لا يزول . أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدّت مسامعه الشهوات ، واختار الفانيـــة على الباقية . ولا تذكرون أنكم أحدثـــتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه ، من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله . هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر، والعدد غير القليل . ألم تكن منكم نهـــاة تمنع الغُواة من دَلَج الليل وغارة النهار . قرّبتم القرابة وباعدتم الدين . تعتذرون بغـير العذر وتغضون على المختلس ، كل امرىء منكم يذب عن سفيهه ، صنيعَ من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلماء ، ولقد أتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون ، من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كُنوساً في مكانس الريب . حرام عليّ الطعـــامُ والشراب حتى أسوّيها بالأرض هدماً وإحراقاً . إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بمـا صلح بـه أوله : لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف وإني أقسم بالله لآخذنّ الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر : والمطيع بالعاصي ، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سُعيد أو تستقيم لي قناتكم . إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي ، فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها فيّ ، واعلموا ان عندي امثالها . مَنْ نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه . فإياي ودلج الليل ، فإني لا أوتـى بدلج إلا سفكت دمه . وقد أجّلتكم في ذلـك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم . وإياي ودعوى الجاهلية ، فاني لا أجد احداً دعا بهـا إلا قطعت لسانه . وقد احدثتم احداثاً لم تكن ، وقـــد احدثنا لكل ذنب عقوبة . فمن غرّق قوماً غرّقناه ، ومن احرق قوماً احرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه حيـاً فيه ، فكفوا عن أيديكم وألسنتكم أكففعنكم يدي ولساني . ولا تظهر من احد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين أقوام إحن ، فجعلت ذلك دَبْر أذني وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ، ومن كان منكم مسيئـاً فلينزع عن إساءته . إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السلّ من بغضي لم اكشف له قناعـاً ولم أهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته ، فاذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسرّ ، ومسرور بقدومنا سيبتئس .

أيها الناس . إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ،

ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا . واعلموا أني مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل ، ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إبّانه ، ولا مُجمّراً لكم بعثاً . فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فانهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذي اليه تأوون، ومتى يصلحوا تصلحوا . ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم، ولا تدركوا له حاجتكم مع انه لو أستجيب لكم فيهم لكان شراً لكم . اسأل الله أن يعين كلاً على كل . واذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله . وايم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاي » .

فهذه الخطبة الرائعة ، مهما يكن فيها من أثر الصنعة وتأليف المتأخرين ، تصور شيئين متناقضين أشد التناقض : أحدهما هذا الجمال الفني الذي يأتي من رصانة اللفظ وقربه وإصابته لما أراد زياد من المعاني ، وإثارته لما أراد أن يثير من عواطف الفزع والطمع والخوف والأمل . والثاني هذه السياسة المنكرة التي أعلن أنه سيسوس بهـا الناس ، والتي لا يعرفها الإسلام ولا يرضاها ، ولم يعرفها المسلمون ولم يألفوها ، والتي لا تدل على شيء وإن دلت فإنما تدل على أن صاحبها طاغية يريد ان يحكم الناس بالبغي، الذي يملأ القلوب رعباً ورهباً ، ويغتصب منها الطاعة والخضوع للسلطان اغتصاباً .

فالإسلام لا ينقب عن قلب السارق ، وإن نقب عن أهل البيوت . والاسلام لا يدفن الناس في القبور أحياء وإن نبشوا عن الموتى في قبورهم. والاسلام لا يقيم الحدود بالشبهة وإنما يدرؤها ، ولا يقتل الناس على الريبة، ولا يبيح للسلطان أن يعاقبهم بما كسبت قلوبهم وما دبرت نفوسهم وما أدارت رؤوسهم ، وإنما يُبيح له أن يُعاقبهم بما كسبت أيديهم ، ويترك حساب الضمائر لله الذي يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور . والاسلام لا يبيح لوالٍ ولا لخليفة أن يقول : إنه يسوس الناس بسلطان الله الذي أعطاهم وفيء الله الذي خولهم ، وإنما يفرض عليه أن يقول : إنه يسوس الناس بسلطان الله الذي رفعه الشعب اليه ومنحه له عن رضى منه ، لا عن عنف ولا عن استكراه . يفرض عليه كذلك أن يقول : إن الفيء ملك للشعب يأتمن عليه خلفاءه وولاتهم ليضعوه مواضعه ، ويُنفقوه بحقه فيما يجب أن ينفق من الوجوه .

والاسلام لا يُبيح لوالٍ ولا لخليفة أن يُقسم على أن له في المسلمين صرعى ، لأنه لا يعلم من ذلك شيئاً حتى يقترف الناس من الجرائم والآثام ما يوجب عليه أن يصرعهم بما كسبوا .

وقد وقعت هذه الخطبة من نفوس الذين سمعوها مواقع مختلفة ، تصوّر ما صارت اليه حالهم : فأما عبدالله بن الأهتم فقال لزياد : « أشهد أيها الأمـــير لقد أوتيت الحكمـــة وفصل الخطاب » . أتراه فُتن بجمال الخطبة وروعتهـــا ، فلم يلتفت إلى ما افرغ فيها من المعاني وما ابتكرت للناس من سياسة لا عهد لهم بها ؟ أم تراه أراد إلى أن يتملّق السلطان ويرضى منه بما أحب ومـــا كره ؟ أم تراه أراد إلى الأمرين جميعاً ؟ وقد رد عليه زياد ردّاً لاذعاً فقال : كذبت ، ذاك نبي الله داوود .

وأما الأحنف بن قيس فقـــد صوّر حَيدةَ الحايدين الذين لا يريدون أن يبادوا السلطان بما يكره ، ولا أن يردوا عليه مقالته ، ولا أن ينزلوا عـن مروءتهم في غير طائل ، فقال لزياد : « إنمـا الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء . وإنا لن نثني حتى نبتلي » . كلمة مسالم يريد العافية . فقال له زياد : صدقت .

وأما ابو بلال مِرْداس بن أُدية فقال له كلام المحتفظ بدينه الحريص عليه المستعد للجهاد في سبيله ، الذي لا يكـره أن يموت دونه ، والذي مات دونه بالفعـــل بعد ذلك ، وقد كان زعيماً من زعماء الخوارج في البصرة: «وأنبأنا الله بغير ما قلت ، قال الله : (وإبْراهيم الـّذي وفـّى . ألا تزر وازرَةٌ وزْرَ أُخْرى . وانْ لـَيْسَ الإنْسَانَ إلاّ مَا سَعَى) وأنتَ تزعم أنك تأخذ البريء بالسقيم ، والمطيع بالعاصي ، والمقبل بالمدبر» . فقال له زياد : « إنا لا نبلغ ما تريد فيك وفي أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً ».

ولم يبلغ زياد فيه وفي أصحابه ما أراد ، ولم يبلغ في غيره وغير أصحابه من شيعة عليّ وصالحي المسلمين ما أراد ايضاً ، ولكنه على ذلك خـاض اليهم الباطل خوضاً ، وخاض اليهم مع الباطل دماء غزاراً .

- ٥١ -

ولست في حاجة إلى أن أطيل فيما سفك زياد من دماء الناس في البصرة ، ومـا سفك نائبه سمرة بن جندب حين كان زياد يصير الى الكوفة ، حين اصبح لها أميراً . فأخبار هذا شائعة مشهورة في كتب الأدب والتاريخ ، والإطالة بذكرها مملّة لا تغني عن أحد شيئاً . ولكني أقف عند محنة بعينها امتحن بها زيادٌ الإسلام والمسلمين، وشاركه

معاوية في هذا الامتحان ، فتركت في نفوس المعاصرين لها أقبح الأثر وأشنعه، وكانت صدمة عنيفة لمن بقي من خيار الناس في تلك الأيام، وهي محنة حُجْر بن عديّ واصحابه من اهل الكوفة .

وقصة هذه المحنة مفصلة في كتب المحدثين والمؤرخين ، ما نشر منها وما لم يُنشر ، وإنما أوجزها أشد الإيجاز وأعظمه ، لأن مغزاها اعظم خطراً من تفصيلها فما أكثر الذين قتلوا في الفتنة الكبرى ، منذ ثار الناس بعثمان الى ان استقام الأمر لمعاوية . وما اكثر الذين قتلوا بعد أن ولي معاوية في اعقاب هذه الفتنة ، وفيما ثار بين المسلمين من فتن ، وما ألمّ بهم من خطوب . ولكن محنة حُجْر تصوّر المذهب الجديد في الحكم بعد ان استحالت الخلافة الى ملك ، وتغيرت سياسة الملوك والأمراء الذين يعملون لهم في الأقاليم ، وأصبح تثبيت الملك ودعم السلطان والاحتياط للنظام آثَرَ في نفوس الملوك والأمراء من النصح للدين والبقاء على المسلمين .

وقد رأينا الخلفاء الراشدين يدرأون الحدود بالشبهات ، ويحرّجون على عمالهم في أن يؤذوا الناس في أبشارهم وأموالهم ، فكيف بنفوسهم ودمائهم . وقد رأينا عمر رحمه الله يشجع زياداً نفسه على ان يلجلج في الشهادة ، حين قذف بعض الناس عند المغيرة بن شعبة ، مخافة ان يفضح رجل صحب النبيّ ﷺ. ورأينا عثمان يتكلف ما تكلف من العذر ليعفو عن عُبيد الله بن عمر ، فيما كان من قتل الهرمزان ، ويُغضب في ذلك مَنْ أغضب من عامة المسلمين ومن خيار الصحابة أنفسهم .

فأما الآن في ايام معاوية وزياد فالناس يؤخذون بالشبهة ، ويقتلون بالظنة ، والنظام آثر عند الولاة والملوك من النفوس المؤمنة التي أمر الله ألا تزهق إلا بحقها .

وقد كان حجر بن عديّ الكندي رجلا من شيعة علي المخلصين له الحبّ ، شهد معه الجمل وصفين والنهروان ، وكره صلح الحسن ، ولام الحسن في هذا الصلح ، ولكنه بايعَ معاوية كما بايعه غيرُه من الناس ، ووفى ببيعته دون أن يضطره ذلك الى ان يرفض عليّاً او يبرأ من حُبه ، بل دون أن يضطره ذلك الى ان يؤمن لمعاوية وعُماله بكل ما كانوا يفعلون . وكان حُجر رجلاً من صالحي المسلمين ، وفد على النبي ﷺ مع أخيه هانىء بن عديّ فيمن وفد عليه من قومهما . ثم شارك في حرم الشام واحسن فيها البلاء ، وكأنه كان في مقدّمة الجيش الذي دخل مرج عذْراء قريباً من دمشق ، ثم تحوّل الى العراق فشارك في غزو بلاد الفرس وابلى احسن البلاء في نهاوند، ورابط في الكوفة مع المرابطين بعد الفتح . وكان رجلا حُرّاً صادق الدين يأمر

بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويرضى عن السلطان إن احسن ، ويسخط عليه ان أساء . وكان بعد صلح الحسن معارضاً لسلطان معاوية وعامله المغيرة بن شعبة ،ولكنه لم يخلع يداً من طاعة وإنما كان ، كما كانت عامة اهل الكوفة ،يُذعن للسلطان وينتظر كما قال الحسن : ان يستريح بر او يموت فاجرٌ . وكان ينكر اشد الإنكار سنة بني امية في شتم علي واصحابه على المنبر ، ولم يكن يخفي إنكاره ، وإنما كان يبادي به المغيرة بن شعبة ، وكان المغيرة يعفو عنه وينصح له ويحذّره بطش السلطان .

وكأن موت الحسن ومصير الأمر الى الحُسين قد رفع اهل الكوفة الى ان يشتدّوا في معارضتهم اكثر مما كانوا يفعلون من قبل . وكان حُجر رأس المعارضين . وقد خطب المغيرةُ ذات يوم واخذ في شتم علي واصحابه كما تعوّد ان يفعل ، فوثب حجر فأغلظ له في القول وطالبه بأن يؤدي الى الناس ما أخر من عطائهم ،فهذا انفع لهم وأجدى عليهم من شتم الأخيار والصالحين . ووثب قوم من اصحاب حُجر فصاحوا بمثل صياحه وقالوا بمثل مقالته ، حتى اضطر المُغيرة أن يقطع حديثه وينزل عن المنبر ويدخل داره . وقد لامه في هذا اللين قومٌ من أصحابه - فزعم المُغيرة انه قتل حُجراً بحلمه عنه ، لأنه سيطمع في الأمير الذي سيخلفه ، فيقتله هذا الأمير لأول وهلة . وكره المغيرة أن يقتل خيارَ أهل المصر ليسعد معاوية في الدنيا ويشقى هو في الآخرة .

وأقبل زياد والياً على الكوفة ، وكان لحجر صديقاً، فقرّبه ونصح له بإيثار العافية وحذّره من الفتنة وخوفه من بأسه ، ان جعل على نفسه سبيلاً . ولكن الأمر لم يلبث أن فسد بين حُجر وزياد . وظهر هذا الفساد حين قتل عربيّ مسلم رجلاً من أهل الذمة ، فكره زياد أن يقيد من العربيّ المسلم لذميّ ، وقضى بالدية . وأبى أهل الذمّي قبول الدية وقالوا : كنا نخبر ان الإسلام يسوّي بين الناس ولا يفضل عربيّاً على غير عربي . وغضب حُجر لقضاء زياد وأبى ان يسكت على امضائه . وقام الناس معه في ذلك حتى أشفق زياد من الفتنة إن أمضى قضاءه . فأمر بالقصاص على كُره منه ، وكتب في حُجر وأصحابه الى معاوية يشكو صنيعهم . فكتب اليه معاوية أن ينتظر به وبأصحابه أول حُجة تقوم عليه .

ويحدث المؤرخون ان حجراً وأصحابه انتهزوا عودة زياد الى البصرة ، فجعلوا يشغبون على نائبه اذا شتم علياً وأولياءه في خطبته وجعلوا ينكرون عليه كثيراً من أعماله ويشدّدون في النكير ، حتى أحس النائب عمرو بن حُريث شيئاً من الحرج . وكتب الى زياد يتعجل عودته الى الكوفة ويذكر له صنيع المعارضين ؛ فلما قرأ زياد

كتابه قال : ويل أمك يا حجر ، وقع العشاء بك على سرحان .

ثم أقبل مسرعاً إلى الكوفة فأنذر وحذّر ، ولم يعجل بالتعرّض لحجر واصحابه ، حتى إذا خطب ذات يوم فأطال الخطبة اظهرت الشيعة مللا ، وصاح حجر : الصلاة. فمضى زياد في خطبته . فصاح حجر مرة اخرى : الصلاة . وصاح معه اصحابه . وهمّ زياد ان يمضي في خطبته ، ولكن حجراً وقف وهو يصيح : الصلاة . ووقف معه اصحابه يصيحون كما كان يصيح . فقطع زياد خطبته ونزل . فصلى وتفرق الناس .

وارسل زياد إلى جماعة من وجوه الكوفة فأمرهم ان يأتوا حجراً ، وان يكفّوا عنه من يطيف به من عشائرهم ، وان يردّوه عن هذه الطريق الذي اخذ في سلوكها. ولكن هؤلاء الوجوه من اهل الكوفة لم يبلغوا من حجر شيئاً . فعادوا إلى زياد فأنبئوه من أمر حجر بأشياء وكتموه أشياء أخرى ، فيما يقول المؤرخون ، وطلبوا إليه ان يستأني بحجر فلم يسمع منهم ، وإنما ارسل من يدعو له حجراً ، فامتنع عليه .

فأمر الشرطة ان يأتوه به ، فكان بين الشرطة واصحاب حجر تناوش، واستخفى حجر فلم يقدر عليه زياد ، حتى اخذ محمد بن قيس بن الأشعث ، زعيم كندة ، وأمر بسجنه ، وتوعده بالقتل والمثلة إن لم يأته بحجر . فجاءه بعد ان اخذ منه أمان حجر على نفسه حتى يرسله إلى معاوية فيرى فيه رأيه . فاعطى زياد هذا الأمان .

واقبل حجر ، فأمر زياد بإلقائه في السجن ، وجدّ في طلب من قدر عليه من اصحابه ، حتى جعل في السجن مع حجر ثلاثة عشر رجلاً بعد خطوب ومِحَن .

ثم طلب الى اهل الكوفة ان يشهدوا عليهم ، فشهد قوم بانهم تولّوا علياً وعابوا عثمان ونالوا من معاوية . فلم يرض زياد هذه الشهادة وقال : انها غير قاطعة . فكتب له ابو بردة بن ابي موسى الأشعري شهادة بأن حجراً واصحابه قد خلعوا الطاعة ، وفارقوا الجماعة ، وبرئوا من خلافة معاوية ، وهمّوا بإعادة الحرب جذعة فكفر كفرة صلعاء.

هنالك رضي زياد وطلب الى الناس ان يمضوا هذه الشهادة . فأمضاها خلق كثير، حتى بلغ الشهود سبعين رجلا ، فيما قال المؤرخون . وكان منهم جماعة من ابناء المهاجرين ، بينهم ثلاثة من بني طلحة ، وعمر بن سعد بن ابي وقاص والمنذر بن الزّبير . ولم يتحرج من ان يكتب اسماء نفر لم يشهدوا ولم يحضروا هذه الشهادة . فمن هؤلاء من برأ نفسه امام الناس ، ومنهم من كتب الى معاوية يبرىء نفسه من هذه الشهادة . وهو شريح القاضي ، الذي شهد ان حجراً رجل صالح من المسلمين ، يقيم

الصلاة ويؤتي الزكاة ويصوم ويحج ويعتمر ، وان دمه حرام . فلما قرأ معاوية كتاب شريح لم يزد على ان قال : اما هذا فأخرج نفسه من الشهادة .

وقد حُمل حُجر واصحابه الى معاوية ، فأمر الا يدخلوا دمشق وان يُحبسوا بمرج عذراء . ويقول المؤرخون إن حجراً لما عرف انه بهذه القرية قال : والله إني لأول مسلم نبحته كلابها واول مسلم كبَّر بواديها .

وقد قرأ معاوية كتاب زياد وشهادة الشهود ، وامر فقرىء هذا كله على الناس . ثم استشار في امرهم من حضره من اشراف قريش ووجوه اهل الشام . فمنهم من اشار عليه بحبسهم ، ومنهم من اشار عليه بتفريقهم في قرى الشام . واقام معاوية وقتاً لا يقطع في امرهم برأي . فكتب الى زياد يتوقفه في امرهم . وكتب إليه زياد يعجب من تردده ويقول له : إن كانت لك حاجة بالعراق فلا تردّهم الي .

هنالك استبان الرأي لمعاوية ، فأرسل الى هؤلاء الرهط من يعرض عليهم البراءة من علي ولعنه وتولي عثمان ، فمن فعل منهم ذلك أمن ، ومن ابى منهم ذلك قُتل .

وقام جماعة من اشراف اهل الشام فشفعوا عند معاوية في بعض هؤلاء الرهط ، وقبل معاوية شفاعتهم ، حتى لم يبق منهم إلا ثمانية ، عُرضت عليهم البراءة من علي فأبوا ، فأخذ في قتلهم في قصة طويلة . ورأى اثنان السيوف المشهورة والقبور المحفورة والأكفان المنشورة ، كما قال حجر قُبيل موته ، فطلبا ان يُحملا الى معاوية واظهرا انهما يريان رأيه في علي وعثمان . فأجيبا الى طلبهما ، وقتل الآخرون ، وهم ستة . وكانوا اول من قُتل صَبراً من المسلمين .

وحُمل الرجلان الى معاوية ، فأما احدهما فأظهر البراءة من علي بلسانه ، وشفع فيه شافع من اهل الشام ، فحبسه معاوية شهراً ثم الزمه الإقامة حيث اراد من الشام ، وحرم عليه ارض العراق . فأقام في الموصل حتى مات .

واما الآخر فأبى ان يبرأ من علي واسمع معاوية في نفسه وفي عثمان ما يكره . فردّه معاوية الى زياد وامره ان يقتله شر قتلة . فأمر به زياد فدُفن حياً .

وكذلك انتهت هذه المأساة المنكرة التي استباح فيها امير من امراء المسلمين ان يُعاقب الناس على معارضة لا إثم فيها ، وان يُكره وجوه الناس واشرافهم على ان يشهدوا عليهم زوراً وبهتاناً ، وأن يكتب شهادة القاضي على غير علم منه ولا رضى ، حتى قال حُجر حين قدم لتضرب عنقه : الله بيننا وبين امتنا ، شهد علينا اهل العراق وقتلنا اهل الشام .

استباح امير من امراء المسلمين لنفسه هذا الإثم ، واستحلّ هذا البدع . واستباح إمام من ائمة المسلمين لنفسه ان يقضي بالموت على نفر من الذين عصم الله دماءهم ، دون ان يراهم او يسمع لهم او يأذن لهم في الدفاع عن أنفسهم . وما أكثر ما أرسلوا إليه أنهم على بيعتهم لا يُقيلونها ولا يستقيلونها .

وقـــد ذعر المسلمون في اقطار الأرض لهذا الحدث . وآية ذلك ان عائشة علمت بتسيير هؤلاء الرهط من الكوفة، فأرسلت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام الى معاوية يراجعه في أمرهم . فوصل عبد الرحمن الى الشام فوجد القوم قد قُتلوا . فقال لمعاوية : كيف ذهب عنك حلم ابي سفيان . فأجابه معاوية حين غاب عني أمثالك من حلمـــاء قومي . وقد حملني زياد فاحتملت .

وآية ذلك أيضاً أن الخبر بقتل هؤلاء النفر قد انتهى الى المدينة ، وسمعه عبد الله ابن عمر فأطلق حبوته ، وتولى والناسُ يسمعون نحيبه وأن معاوية بن خُدَيج انتهى اليه الخبر في افريقية فقال لقومه الذين كانوا معه من كندة : ألا ترون انا نقاتل لقريش ونقتل انفسنا لنثبت ملكها ، وأنهم يثبون على بني عمنا فيقتلونهم .

وكان للخبر صدى مثل هذا الصدى في خُراسان عند عاملها الربيع بن زياد . وقالت عائشة : انها همت ان تثور لتغير ما كان من امر حُجر ، ولكنها خافت ان تتجدد وقعة الجمل ، وأن يغلب السفهاء ويصير الأمر الى غير ما أرادت من الإصلاح .

وقال الكوفيون في ذلك شعراً كثيراً نجده في كتب السير والتاريخ .

وأغرب من هذا كله ان قتل حُجر وأصحابه كان صدمة لمعاوية نفسه ، تردد في قتلهم أول الأمر ، ثم لما أمضى فيهم حُكمه ظن أنه قد أبلى فأحسن البلاء . ولـكن الأيام لم تكد تتقدم حتى عاوده الندم وأصابه قلق مُمضّ .

ويقول البلاذري : إن معاوية كتب الى زياد : « انه قد تلجلج في صدري شيء من امر حجر . فابعث اليّ رجلاً من اهل المصر له فضل ودين وعلم » ؛ فأشخص اليه عبدَ الرحمن بن ابي ليلى ، وأوصاه ألا يُقبح له رأيه في امر حجر ، وتوعّده بالقتل ان فعل . قال ابن ابي ليلى : فلما دخلت عليه رحب بي وقال : اخلع ثيابَ سفرك والبس ثياب حضرك . ففعلت . وأتيته فقال : أما والله لوددت أني لم أكن قتلت حُجراً ، ووددت أني كنت حبسته وأصحابه وفرّقتهم في كور الشام فكفَتْنِيهم الطواعين ، او مننت بهم على عشائرهم . فقلت : وددت والله أنك فعلت واحدة من هـذه الخلال . فوصلني . فرجعت وما شيء أبغض اليّ من لقاء زياد ، وأجمعت على الاستخفاء . فلما

قدمت الكوفة صليت في بعض المساجد ، فلما انفتل الإمام اذا رجل يذكر موت زياد. فما سررت بشيء سروري بموته .

بل زعم الرواة أنّ قتل حجر كان له صدى حتى في اعماق دار معاوية . فقد حدثنا البلاذري : أن معاوية صلى يوماً فأطال الصلاة وامرأته تنظر اليه . فلما فرغ من صلاته قالت له امرأته: ما أحسن صلاتك يا امير المؤمنين لولا أنك قتلت حجراً وأصحابه.

فقد كان قتل حجر اذاً حدثاً من الأحداث الكبار . لم يشك أحد من الأخيار الذين عاصروا معاوية في أنه كان صدعاً في الإسلام ، بل لم يشك معاوية نفسه في انه كان كذلك ، فهو لم ينسه قط منذ كان الى أن انقضت ايامه ، ثم هو لم يذكره قط كما ذكره في مرضه الذي مات فيه ، فقد كان يقول أثناء مرضه ، فيما زعم الرواة والمؤرخون: ويلي منك يا حجر ! وكان يقول كذلك. إن لي مع ابن عدي ليوماً طويلاً.

- ٥٢ -

وأمر آخر استحدثه معاوية في الإسلام فغير به السنة الموروثة تغييراً خطيراً، وهو استخلاف ابنه يزيد بعده على سلطان المسلمين . ولم يكره المسلمون شيئاً في الصدر الأول من أيامهم كما كرهوا وراثة الخلافة . فقد عهد أبو بكر إلى عمر ولم يخطر له أن يعهد إلى أحد من بنيه . وزجر عمر مَن طلب اليه أن يعهد لعبدالله ابنه . ولم يخطر لعثمان أن يعهد إلى أحد . ولا ينبغي أن يقال أعجل عثمان عن ذلك : فقد لبث في الخلافة اثني عشر عاماً . وأبى عليّ أن يستخلف وقال لأصحابه حين سألوه ذلك أتركُكم كما ترككم رسولالله . وسأله الناس : أيبايعون الحسن ابنه ؟ فقال : لا آمركم ولا انهاكم .

وكان المسلمون يذكرون الكسروية والقيصرية ، يريدون بذلك حكم القياصرة والأكاسرة ، ولم تكن وراثة الملك إلا لوناً من الحكم الأعجمي .

ولو وقف أمر معاوية عند هذا الحد ، لكان من الممكن ان يقال : اجتهد للناس فأخطأ أو اصاب . ولكنه قاتل علياً على دم عثمان من جهة ، وعلى ان يرد الخلافة شورى بين المسلمين . ومن جهة اخرى فلما استقام له السلطان نسي ما قاتل عليه ، أو أعرض عما قاتل عليه . ولما اراد مصالحة الحسن عرض عليه ان يجعل له ولاية الأمر

من بعده ، فأبى الحسن ذلك واشترط فيما اشترط ان يعود الأمر بعد معاوية شورى بين المسلمين يختارون لخلافتهم من أحبوا . فقبل معاوية ذلك فيما قبل من الشروط .

فهو إذاً كان يرى الشورى في أمر الخلافة قبل ان يستقيم له امر الناس . وقبل اصل الشورى اثناء الصلح حين همّ امر الناس ان يستقيم له ، ثم نسي هذا كله بآخرة . ويقال إن المغيرة بن شعبة هو الذي ألقى في قلبه هذا الخاطر . فمال إليه وشاور فيه زياداً ، فأشار عليه بالاناة وبأن يصلح من سيرة يزيد .

وكان يزيد فتى من فتيان قريش صاحب لهو وعبث ، محباً للصيد مسرفاً على نفسه في لذاته ، مستهتراً لا يتحفظ ، وكان ربما أضاع الصلاة. فأخذه أبوه بالحزم ، واغزاه الروم وأمره على الحج، يمهد بهذا كله لتوليته العهد . فلما رأى من سيرة يزيد ما أرضاه حزم أمره واعلن تولية يزيد عهده ، وكتب في ذلك إلى الآفاق . فأجابه الناس الى ما أراد . وهل كانوا يستطيعون إلا ان يجيبوه الى ما اراد. ثم استوفد الوفود من الأقاليم، فوفدت عليه واعلنت البيعة ليزيد، وامتنع أربعة نفر من قريش ، هم الحسين بن عليّ ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن الزبير . وعبد الرحمن بن ابي بكر . فذهب معاوية إلى الحجاز معتمراً ولقي هؤلاء النفر ، فلم يبلغ منهم شيئاً بالوعد ولا بالوعيد . صارحه بعضهم والتوى عليه بعضهم الآخر . فحذرهم عواقب الخلاف عن أمره ان أظهروه.

وزعم بعض المؤرخين انه اقام على رؤوسهم شُرطاً حين خطب الناس ، وتقدم إلى هؤلاء الشرط في ان يضربوا عنق أيهم كذّبه فيما يقول. ثم خطب الناس فذكر بيعة يزيد بولاية العهد ، وان الناس اجمعوا على قبول ما اختار لهم . وان هؤلاء النفر من أعلام قريش وسادتها قد دخلوا فيما دخل الناس فيه . فبايع النـــاس وانصرف هؤلاء النفر يحلفون لمن لامهم ما بايعوا ولا قبلوا .

وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح. فالشيء المحقق هو أن معاوية قد استكره هؤلاء النفر على الصمت بعد ان لم يستطع ان يستكرههم على البيعة . وهو بعد ذلك لم يؤامر الأمة فيمن اختار لخلافتها على اي نحو من المؤامرة ، وإنما شاور قوماً من خاصته والطامعين فيه ، فكلهم أغراه بذلك وحببه اليه . ولم يستطع احد من خاصة الناس ولا من عامتهم ان ينكر على معاوية مما اراد شيئاً .

وكذلك استقر في الإسلام لأول مرة هذا الملك الذي يقوم على البـــأس والبطش والخوف ، والذي يرثه الأبناء عن الآباء ، واصبحت الأمة كأنها ملك لصاحب السلطان ينقله إلى من أحب من ابنائه ، كما ينقل اليه ما يملك من سائل المال وجامده .

وقد تمّ ذلك سنة ست وخمسين للهجرة، اي قبـــل ان ينتصف القرنُ على وفاة

رسول الله ﷺ . ورحم الله الحسن البصري فقد كان يقول فيما روى الطبري : « أربع خصال كنّ في معاوية ، لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت مُوبقة : انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم ، وفيهم بقايا الصحابة وذو الفضيلة ؛ واستخلافه ابنه بعده سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير ؛ وادعاؤه زياداً ، وقد قال رسول الله ﷺ : الولد للفراش وللعاهر الحجر ؛ وقتله حُجر ، ويلٌ له من حُجر وأصحاب حُجر ! ويل له من حُجر وأصحاب حُجر ! » .

وما أريد أن أشارك الحسن فأقول : إن هذه الخصال كلها أو بعضها قد أوبقته ، فأمر ذلك الى الله وحده والله عز وجل يقول : (إنّ الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دُون ذلك لمن يشاء) .

وليس يعنيني الآن ما كان من أمر يزيد ، فلست أؤرخُ ليزيد ولا أبحث عن استئهاله للخلافة ، وإنما الذي يعنيني هو أن معاوية قد استحدث في المسلمين بدعة جديدة طالما أنكروها من قبل ، وهي توريث الملك . وكانت عاقبة هذه البدعة وبالاً على المسلمين أي وبال ، فما أكثر إما استحل الملوك من المحارم ، وما أكثر ما سفكوا من الدماء ، وأهدروا من الحقوق ، وضحوا بمصالح الأمة في سبيل ولاية العهد . وما أكثر ما كاد بعض الأمراء من أبناء الملوك لبعض في سبيل هذا التراث الذي لم يبحه لهم كتاب ولا سنة ، ولا عُرْف مألوف من صالحي المسلمين .

وإنما القول في معاوية وملكه قول رجل من خيار الصحابة اعتزل الفتنة ، ولم يشارك فيها من قريب أو بعيد ، وهو سعد بن أبي وقاص رحمه الله . فقد تحدث البلاذري عن رواته أنه دخل على معاوية فقال : السلام عليك أيها الملك . فضحك معاوية وقال : ما كان عليك يا أبا إسحاق رحمك الله لو قلت : يا أمير المؤمنين . فقال : أتقولها جذلان ضاحكاً ؟ والله ما أحب أني وليتها بما وليتها به » .

- ٥٣ -

ولم يكن نشاط الخوارج أيام معاوية أقل ولا أخفّ من نشاطهم أيام عليّ ، وإنما مضوا على سنتهم تلك فلم يُريحوا ولم يستريحوا . وكان الخوارج أيام عليّ يخرجون من

الكوفة ، فإذا تهيئوا للحرب لحق بهم إخوانهم من أهل البصرة . فأما أيام معاوية فقد نصب خوارج الكوفة لأمراء الكوفة ، ونصب خوارج البصرة لأمراء البصرة . وكان أمر الخوارج في الصدر الأول من ملك معاوية متصلاً ، ولكنه كان يسيراً كما كان في أيام عليّ . سار فيهم المغيرة وعبد الله بن عامر سيرة عليّ ، فكانا لا يَهيجانهم إن سكنوا ، ولا يعرضان لهم بمكروه حتى يُظهروا خلع الطاعة وينشروا الفساد في الأمر . فلما صار الأمر إلى زياد في العراق اشتد في أمر الخوارج فلم ينتظر بهم أن يخرجوا ، وإنما احتاط لخروجهم قبل أن يكون ، فجعل يستقصي أمورهم ويتتبع أفرادهم حيث يكونون ، ويأخذ من قدر عليه منهم بالشبهة ويقتلهم بالظّنة .

وعرف الخوارج ذلك من أمره ، فاحتالوا في التخلص منه والاستخفاء من شرطه وعيونه . كما احتال هو في الظفر بهم والوصول إليهم . وكان بطشه بهم شديداً وكيده لهم عظيماً . وقد أخاف زياد الناس جميعاً ، فاستتروا منه أشد الاستتار ، ومكروا به أعظم المكر .

وكثر القعود بين الخوارج في أيامه ، وظهر الخلاف بينهم أيضاً ، وانتشر مذهبهم أشد انتشار في طبقات من الناس لم يكن يبلغها من قبل . وتشجع النساء فملن الى هذا المذهب وشاركن فيه ، وخرج بعضهن فيمن خرج من أهل الكوفة ، وتعرض بعضهن للقتل والمثلة في البصرة .

وكانت عاقبة الخوارج معروفة ، لا تكاد تخرج منهم خارجة في أحد المصرين حتى يرسل إليها الأمير جنداً أكثر منها عدداً وأشد منها بأساً ، فيكون بين هذا الجيش وهذه الخارجة شيء من قتال ، ثم يعود الجيش إلى المصر وقد قتل الخارجة كلها أو أكثرها .

فكان خروج الخوارج تضحية بالنفس ، يُقدمون عليها وهم عالمون بها ، مطمئنون إليها راغبون فيها . قد باعوا نفوسهم من الله واشتروا بها الجنة . فكان حزبهم حزب التضحية التي لا تنقضي ، وكانوا يرون قتلاهم شهداء . وكان خصومهم من الشيعة وأهل الجماعة يرونهم مارقين من الدين ، كما قال فيهم ذلك عليّ مستنداً الى الحديث المعروف. ولكن الأمراء الظالمين من ولاة معاوية جعلوا بعض هؤلاء الخوارج شهداء ، لا بالقياس الى الخوارج وحدهم ، ولكن بالقياس الى كثير غيرهم من الناس ، حين أخذوهم بالشبهة وقتلوهم بالظنة ، وحين سلكوا في قتالهم سياسة الغدر التي نهى عنها الإسلام أشد النهي ، كالذي كان من أمر أبي بلال مِرْداس بن أُدَيّة الذي وقع قتله وقتل أصحابه

موقع المحنة القاسية ، لا من الخوارج وحدهم بل من خلق غيرهم كثير . حتى لقد يحدثنا المبرد بأن الفرق تنافست في أبي بلال هذا ، عدته المعتزلة من اوائلهم ، وزعمت الشيعة أنه كان منهم . وما أشك في أن الأخيار الصالحين من معاصريه رأوه رجلاً من أكرم المسلمين وأتقاهم .

وكان أبو بلال صاحب زهد في الدنيا وتنزه عنها مؤثراً للخير ناصحاً للمسلمين ، براً بمن عرف ومن لم يعرف من الناس ، وكان كثير العبادة قليل الخوض فيما يخوض الناس فيه عادة . شهد صفين مع علي، وأنكر الحكومة وخرج مع أصحاب النهروان، ثم اعتزل الشر وأقام في مصره بالبصرة خارجي الهوى ، مشيراً على الخوارج ناقداً لبعض أعمالهم ، منكراً لنشر الفساد في الأرض ، زارياً على اعتراض الناس وقتلهم بغير ذنب ، حتى اذا ولي زياد البصرة وخطب خطبته تلك البتراء ، كان الرجل الوحيد الذي أنكر عليه قوله : « لآخذن البريء بالمسيء والصحيح بالسقيم » ، وذكره قول الله عز وجل : (وإبراهيم الذي وفّى ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) . ولكنه على ذلك أقام في مصره يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويشيع الدعوة الى الخير من حوله ، هلك زياد وولي البصرة ابنه عبيد الله بن زياد ، فأسرف في تتبع الخوارج حتى أخافهم ، يرصد لهم المراصد ، ويلقيهم في السجن ، ويمثل بمن قدر عليه منهم .

وكان ابو بلال محبباً الى الناس بصلاحه وحسن سيرته، وقد سجن مرة فيمن سجن من الخوارج ، فأحبه سجانه لما رأى من عبادته وحسن تلاوته للقرآن ، فكان اذا جن الليل اطلقه وربما أطلقه النهار أيضاً . فكان يلم بأهله ويعود الى سجنه . وقد بلغه ذات يوم وهو مطلق أن عبيد الله بن زياد أزمع قتل الخوارج المسجونين ، فلما أقبل الليل تنكر حتى عاد الى سجنه ، وآثر القتل على أن يخون السجان في نفسه ويعرضه لغضب السلطان .

واخرجهم ابن زياد فقتل منهم فريقاً واطلق فريقاً بشفاعة من شفع فيهم من الناس. وكان أبو بلال ممن نجا فاستأنف سيرته ، ولكن غيظه من ظلم السلطان كان قد بلغ أقصاه ، حتى إذا رأى ابن زياد قد أخذ امرأة خارجية فقطع يديها ورجليها وعرضها في السوق ، لم يطق صبراً على مجاورة الظالمين . فخرج في عدد قليل من أصحابه لا يتجاوزون الثلاثين ، ورسم لنفسه ولأصحابه برنامجاً واضح الحدود ، وهو أن يخرجوا منكرين للظلم داعين الى العدل والإصلاح ، لا يستعرضون الناس ولا يستبيحون أموالهم

ولا يفسدون في الأرض ولا يبدأون أحداً بقتال ، وإنما يدافعون عن أنفسهم اذا قوتلوا. ولحق بهم عشرة من أصحابهم فصاروا أربعين ، ومضوا في طريقهم فلقيتهم أموال قد جاءت الى ابن زياد من خراسان، فأخذ بلال من هذه الأموال نصيبه ونصيب أصحابه، كما كان يقسم عليهم في البصرة لو أقاموا ، وأمّن الرُّسل على أنفسهم وعلى ما يحملون، وخلى بينهم وبين الطريق الى البصرة .

وعرف ابنُ زياد خروجهم فأرسل في إثرهم أسلم بن زُرعــة في ألفين من الجند فاتبعوهم حتى لقوهم بآسَك . فدعوهم الى العودة والبقاء على الطاعة. فأبوا أن يعودوا الى طاعة فاسق ظالم يأخذ بالشبهة ويقتل بالظّنة ويشق على الناس في أموالهم وحرماتهم. ثم أمسكوا عن جند ابن زياد لم يبادوهم بشر حتى بدأوهم بالقتال . هنالك شدّ ابو بلال وأصحابه على هؤلاء الجند شدة الشُّراة المستبسلين ، فهزموهم. ورجع أسلم بن زُرْعة في أصحابه الى البصرة مُستَخزين . فلام ابن زياد أسلم في ذلك أشد اللوم . وعيّره الناس بهذه الهزيمة ، حتى تصايح به الصبيان في الطُّرقات يخوّفونه أبا بلال . وقال قائل الخوارج في ذلك :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلكم بآسك أربعون
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكنّ الخوارج مؤمنون
همُ الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة يُنصرون

يشير إلى قول الله عز وجــل : (وكَمْ مِن فئةٍ قَليلةٍ غَلبت فِئةً كثيرة بإذن الله) .

وأرسل ابن زياد إلى أبي بلال وأصحابه عبّاد بن أخضر في أربعة آلاف . فلقوهم في بعض طريقهم وطلبوا إليهم العودة والبقاء على الطاعة . فردوا عليهم مثل ردهم على اسلم بن زُرْعة ، وأنشب عبّاد معهم القتال . فقاتلوهم قتالاً عسيراً طويلاً حتى رأى أبو بلال أنّ صلاة العصر قد كادت تفوت القوم . فطلب إليهم الموادعــة حتى يصلي الفريقان ، وأعطاه عبّاد ما طلب . وأقبل الفريقان على صلاتها . ولكن عبّاداً عجّل صلاته وصلاة أصحابه أو قطعها . وشدّ على الخوارج فألفاهم في صلاتهم بين قائم وراكع وساجد . فقتلهم جميعاً لم ينحرف لقتاله أحد منهم إيثاراً للصلاة على القتال . ووقــع هذا الغدر من هذه الفئة الضخمة على هذا العدد اليسير وقتلهم وهم يصلون في قلوب الناس أسوأ موقع . فأما الخوارج فهاجوا وجدّوا له في الثـأر لإخوانهم . وأما عامة الناس فكرهوا ثم صبروا على ما يكرهون .

أكان المسلمون راضين عن سياسة معاوية أم كانوا عليها ساخطين ؟ .

ما ينبغي أن نلقي هذا السؤال ونحن ننتظر الجواب عليه من المتاخرين من أهل الفرق ، فهؤلاء يتأثرون بمذاهبهم أكثر مما يتأثرون بحقائق التاريخ . وإنما الشيء الذي ليس فيه شك . وهو أن الذين عاصروا معاوية من المسلمين في شرق الدولة وغربها ، لو رُدّت إليهم أمورُهم وطُلب إليهم أن يختاروا لأنفسهم إماماً ، وأن يختاروه أحراراً غير مستكرهين ولا مُبتغين شيئاً إلا صلاح دينهم ودنياهم ، لما اختاروا معاوية بحال من الأحوال ، لأنهم بلوا سياسته وخبروا عُمّاله ورأوا أن أمورهم تصير إلى شر عظيم ، إذا قاسوها إلى ما كانت عليه في تاريخهم القريب . فهم يُحكمون بالخوف لا بالرضى ، ويُساسون بالرعب والرهب ، لا بما ينبغي أن يُساس به المسلمون من كتاب الله وسنة رسوله ، وأموالهم العامة ليست إليهم ، وإنما هي إلى ملكهم وولاتهم يتصرفون فيها على ما يشتهون ، لا على ما يقتضيه الحق والعدل والمعروف .

فالصلات الضخمة تُعطى لكثير من الناس تشجيعاً لبعضهم على المضي في الطاعة والإذعان ، وإغراء لبعضهم الآخر بالسكوت عن الجهر بالحق والقيام دونه . أشراف الحجاز غارقون في الثراء من هذه الصلات ، التي تشترى بها طاعة ضعفائهم ويُشترى بها سكوت أقويائهم . وأهل الشام غارقون في الثراء موسّع عليهم في السلطان لأنهم جند الملك وحماة دولته . وأهل العراق مضطهدون لأنهم بين شيعة لعلي وبين خارج على الجماعة ، وبين قوم آخرين يُصنع بهم ما يُصنع باهل الشام والحجاز وأهل الأقطار الأخرى مستغلون مستذلون ، تجبى منهم الأموال لتحمل إلى الشام فتنفق فيما يحب الملك أن ينفقها فيه .

ودماؤهم ليست حراماً على الملك ولا على عماله ، وإنما يستحل منها الملك والعمال ما حرم الله ، لا إقامةً لحدود الدين ، ولكن تثبيتاً لسلطان الملك .

وما أشك في أن معاوية كان داهية من دهاة العرب وعبقريّاً في السياسة ، ولكن المسلمين الذين عاصروه قد عرفوا قبله أئمة جمعوا ، إلى العبقرية في السياسة والدهاء في قهر العدو والكيد له ، عدلاً بين الناس ونصحاً لهم وصيانة لأموالهم وعصمة لدمائهم ، لم يخالفوا عن الدين ولم ينحرفوا عنه قيد شعرة .

وما أشك كذلك في أن الظروف التي أحاطت بمعاوية قد أعانته أو اضطرته إلى سياسته تلك ، ولكني كما قلت غير مرة : لا أحاول الحكم لمعاوية أو الحكم عليه ،

وإنما أحاول أن أتعرف حقائق الحياة في أيامه . ومن هذه الحقائق حقيقة لا ينبغي أن نهملها أو نشك فيها ، وهي أن المسلمين بعد الفتح ، وبعد أن قوي اتصالهم بالأمم المغلوبة وخالطوهم في دقائق حياتهم ، كانوا بين اثنتين : إما أن يغيروا طبائع هذه الأمم كلها ويفرضوا عليها طبائعهم ، وليس الى هذا سبيل ، فامور الناس لا تجري على هذا النحو ، وهي لم تجر عليه في وقت من الأوقات . وإما أن يغير المغلوبون طبيعة الغالبين ويفرضوا عليهم طبائعهم الأعجمية المتحضرة ، وهو شيء كذلك لا سبيل إليه ، لم نره كان في وقت من الأوقات .

فلم يبق إلا شيء ثالث هو المنزلة المتوسطة بين هاتين المنزلتين ، هو أن يعطي المسلمون للمغلوبين شيئاً من طبائعهم ، ويُعطي المغلوبون للمنتصرين شيئاً من طبائعهم ايضاً . وتنشأ من ذلك طبيعة قوام بين الطبيعتين ، ليست بالاسلامية الخالصة ، او قل ليست بالاسلامية العربية الخالصة ، ولا بالرومية او الفارسية الخالصة ، ولكنها شيء بين ذلك .

ولم تكن الفتنة الكبرى ، التي عرضنا لها في هذا الجزء وفي الجزء الذي سبقه من هذا الكتاب ، إلا صراعاً بين هذه الطبيعة الاسلامية العربية ، وطبائع الامم المغلوبة التي ظهر عليها المسلمون .

كان الاسلام يريد أن يحمل الناس على طريق من العدل والقسط والحرية ، لا يشقى فيها أحد لفقر او ضعف او خمول ، ولا يسعد فيها أحد لقوة او ثراء او نباهة شأن ، وانما يعيش الناس فيها كراماً قد وفرت عليهم حقوقهم بالمعروف ، ليس فيها تفوّق او امتياز إلا بالدين والتقوى وحسن البلاء .

وكان الاسلام يريد ان يكون الخلفاء والولاة أمناء للناس على حقوقهم وأموالهم ومرافقهم . يدبرونها على ملأ منهم وعن مشاورة ومؤامرة ، ويُمضونها في غير تجبر ولا تكبر ولا أثرة ولا استعلاء ، ويدبرونها كذلك لا على أنهم سادة يمتازون من الناس بأي لون من ألوان الامتياز ، بل على أنهم قادة يثق بهم الناس ويطمئنون اليهم ويرونهم كفاة للقيام على امورهم ، فيعهدون اليهم بهذه الامور عن رضى واختيار ، لا عن قهر او استكراه ، ثم يراجعهم في هذه الامور من شاء منهم ان يراجعهم فيها . فإن استبان لهم أنهم أخطأوا كان الحق عليهم أن يعودوا الى الصواب ، وإن استبان لهم انهم انحرفوا كان من الحق أن يستقيموا على الطريقة . وعلى هذا النحو الذي كان الاسلام يريده من أنحاء الحكم ومن أنحاء الصلة بين الحاكمين والمحكومين مضى النبي ﷺ

حتى اذا اختاره الله لجواره مضى خلفاؤه على سنته لم ينحرفوا عنها إلا قليلاً من أمر عثمان ، حين غلبه بنو أمية على رأيه ، وما اكثر ما راجعه الناس في ذلك فصار الى ما أحبوا وأعطى النصفة من نفسه ومن عماله غير مرة . وأعلن التوبة او استغفر بمشهد من المسلمين ، وعلى منبر رسول الله ﷺ .

فقد كان عثمان يريد الحق فيقدر عليه احياناً ويعجز عنه بعض عماله وخاصته احياناً اخرى . وكان المحقق أن عثمان لم يتعمد تجبراً ولا تكبراً ولا استعلاء ولا استئثاراً ، وأقصى ما يمكن أن يقال فيه إنه اخطأ احيانا غير عامد الى الخطأ . وعلى رغم هذا كله ثارت به طائفة من المسلمين وطلبت اليه ان يخلع نفسه ، بعد أن ظهر أنه لا يحسن مقاومة الطغاة من خاصته وعماله . فلما أبى أن يخلع نفسه قتلوه .

وسار عليّ سيرة الشيخين وعسى أن يكون قد تحرّج في بعض أمره اكثر مما كان الخلفاء الذين سبقوه يتحرجون . فلشدّده في أن يقسم في الناس كل ما ورد عليه من المال ، وأن يرى الناس بيت مالهم بين حين وحين خالياً من البيضاء والصفراء ، قد كنس ورش ، وقام أمينهم فيه فصلى ركعتين . وعَلِم الناس أن أمينهم لم يحتجز من دونهم شيئاً ولم يستأثر عليهم بشيء . وكان لعليّ مال قبل أن يلي الخلافة يُغلّ عليه دخلاً حسناً ، فخرج منه وجعله صدقة وفارق الدنيا ولم يترك فيها إلا مئات من دراهم اقتصدها من عطائه ليشتري بها خادماً ، كما قال الحسن حين خطب الناس بعد موت أبيه . ولسنا نعلم ان أحداً من الخلفاء الاربعة قتل مسلماً بالشبهة او عاقبه على الظنة ، وإنما نعلم انهم كانوا يقتصون من عمالهم ، وأن عثمان أقام الحد على الوليد بن عقبة عامله على الكوفة ، حين شهد الشهود على أنه شرب الخمر ، وأن عمر أقام الحد على احد بنيه حين شهد عليه بشرب الخمر أيضاً . وأنه همّ برجم المغيرة بن شعبة ، لولا أن لجلج زياد في الشهادة بين يديه ، فدرأ الحد بالشبهة .

كل هذا واكثر من هذا كان يصنعه الخلفاء السابقون . فأين نحن من هذا كله او بعضه ؟ وقد زعم الرواة ان معاوية سأل ابنه يزيد ذات يوم عن السياسة التي يريد أن يختطها لنفسه . فزعم له انه يريد ان يحاول سياسة عمر . فضحك معاوية وقال : هيهات ! لقد حاولت سيرة عثمان فلم استطعها فكيف بسيرة عمر .

والشيء الذي ليس فيه شك هو ان احداً من الخلفاء السابقين لم يأخذ السلطان بالسيف ، ولم يقتل حُجراً ولا أشباه حجر ، ولم يورث الخلافة احد بنيه ، ولم يستلحق زياداً او أشباه زياد ، ولم يقل ما قال معاوية ذات يوم بمحضر صعصعة بن صوحان :

« الأرض لله ، وأنا خليفة الله ، فما أخذت فلي وما تركته للناس فبالفضل مني » . إلا ما كان من عثمان حين زعم على المنبر أنه سيأخذ من بيت المال حتى يرضى وإن رغمت أنوف . فقال له عمار بن ياسر : أشهد أن أنفي أولُ راغم . وقال له علي : إذَنْ تمنع من ذلك . وقد رد صعصعة بن صُوحان على معاوية بما يشبه كلام علي فقال : ما أنت وأقصى الأمة في ذلك إلا سواء . ولكن مَن ملك استأثر . فغضب معاوية وقال : لهممت . قال صعصعة : ما كل من همّ فعل . قال : ومن يحول بيني وبين ذلك . قال صعصعة : الذي يحول بين المرء وقلبه ، وخرج وهو ينشد قول الشاعر :

أريغوني إراغَتَكم فإنّي ... وحذْفة كالشَّجا تحت الوَريد

على هذه السياسة سخطت الشيعة ، وعارضت في كثير من الجلبة حتى قُتل منها حُجر وأصحابه ، وعلى هذه السياسة سخط الخوارج ، وعارضوا بسيوفهم وألسنتهم فقَتَلوا وقُتلوا . وعلى هذه السياسة سخط الصالحون من أصحاب رسول الله والتابعون لهم بإحسان ، ولكنهم كانوا ينكرون في أنفسهم ، وربما جمجموا ببعض النكير . وكان عامة المسلمين ، الذين يرون هؤلاء الصحابة والتابعين ويسمعون منهم ، ينكرون مثلهم ويُجمجمون . ومن يدري لعل معاوية نفسه كان ينكر كثيراً من أمره ، حين يثوب إليه فضل من حلمه وعقله ، فيذكر سيرة رسول الله وخلفائه ويوازن بينها وبين سيرته .

ويحدثنا المؤرخون بأن معاوية لم يتلقَّ الموت مطمئناً اليه حين ألمّ به ، وإنما كان يتوجع ويُظهر الجزع ويكثر من ذكر حُجر ، ومن ذكر إسرافه في أموال المسلمين . ومع ذلك فقد استقبل المسلمون بعد معاوية ملوكاً ودّوا حين بلوا سيرتهم لو ان معاوية عاش لهم الى آخر الدهر . وكان ابنه يزيد أول هؤلاء الملوك .

فقد كان معاوية رجلاً نشأ نشأة قرشية جاهلية ، فيها كثير من الشظف الذي ليس منه بُدّ لقوم يسكنون وادياً غير ذي زرع ، وان غلّت لهم التجارة ربحاً كثيراً . ثم أسلم ورأى النبي ﷺ وكتب له ، وتأثر بصحبته وبصحبة من خالط من خيار المسلمين وأبرارهم ، وعمل لعمر فتأدب بكثير من أدبه . وكان لهذا كله أثره في سيرته

حين استقامت له الجماعة الى حدٍّ ما ، حتى أحصيت عليه أغلاطه ومخالفاته عن السنة الرشيدة التي ألفها المسلمون .

فأما ابنه يزيد فقد نشأ نشأة تغاير هذه النشأة أشد المغايرة . ولد في الشام في قصر إمارة كثر فيه الترف وكثر فيه الرقيق ، وورث عن امه شيئاً من بداوة كَلْب وغلظتها ، وعن أبيه شيئاً من ذكاء قريش ودهائها وسعة حيلتها وحبها للمال والتسلط ، وتهالكها على اللذة حين تُتاح لها الوسائل اليها . فشبّ فتى من فتيان قريش لم يعرف خشونة ولا شظفاً ، ولم يتكلف لحياته اكتساباً ، ولم يعرف في أثنائها شقاء ولا عناء ، ولم يبذل جهداً الا في سبيل ما يرضيه ويلهيه .

فكانت سيرته حين وُلي أمر المسلمين مناقضة لسيرة أبيه أشد المناقضة ، ثم مناقضة بعد ذلك لسنة النبي وخلفائه الراشدين أشد المناقضة أيضاً .

كان قبل ولايته لعهد أبيه مسرفاً على نفسه في طلب اللذة والعكوف عليها والاستهتار بها ، حتى كثر حديث الناس فيه ، وحتى أشار زياد عليه أن يتحفظ ويحتاط ، وأشار على أبيه أن يأخذه بسيرة أرشد من سيرته ومذهب في الحياة يلائم ما كان يرشحه له من ولاية العهد والنهوض بعده بأمر هذه الدولة الضخمة . فأخذه أبوه بشيء من الحزم وأغزاه بلاد الروم ، وتتبع سيرته على نحو ما ، ولكنه لم يبلغ من تأديبه وتقويمه ما أحب ، كان مشغولاً عنه بسياسة الدولة ، وكان الفتى مشغولاً عن أبيه بسياسة شهواته الجامحة .

وقد مات أبوه وهو عنه بعيد ، حتى احتاج الضحاك بن قيس إلى أن يقوم مقامه ، فيعلن موت معاوية الى الناس ونهوض ابنه يزيد بالأمر من بعده .

ثم أقبل الفتى فتلقى دولة عريضة غنية معقدة السياسة ، لم يبذل في تشييدها جهداً ، ولم يحتمل في تأييدها مشقة ولا عناء . وقد أقبل على الملك دون ان ينصرف اليه عن لذاته او يقلع عما كان عاكفاً عليه من العبث واللهو والمجون . أقبل على الملك واثقاً بأن الدنيا قد أذعنت له ، وبأن أموره ستجري على طريق سواء . ولم ينس إلا شيئاً واحداً ، وهو الجهد العنيف الذي بذله أبوه لتستقيم له هذه الدنيا وليمهد ملكها لابنه .

ولم يكن يزيد يحتمل ان يلتوي عليه أحد بطاعة ، وانما كان يرى ان طاعته حق على الناس جميعاً ، فمن التوى بها عليه فليس له عنده إلا السيف .

وقد عرفتَ أمر أولئك النفر الذين أكرههم معاوية اكراهاً على ان يسكتوا عن

بيعته بولاية العهد ، حين لم يستطع ان يحملهم على قبولها . وقد كانوا اربعة ، مات منهم واحد قبل معاوية ، وهو عبد الرحمن بن ابي بكر ، وبقي منهم ثلاثة في المدينة هم : الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر .

فأما الحسين وابن الزبير فقد اعتلا بالبيعة ليزيد على الوليد بن عُتبة حين طلبها اليهما ، وجعلا يراوغانه ويستمهلانه حتى فرّا منه بليل لاجئين الى مكة . وأما عبد الله بن عمر فلم يكن يحب ان يفارق جماعة الناس . فبايع مع عامة اهل المدينة ، وقد كانت بين يزيد وبين ابن الزبير خطوب طوال ثِقال لا يعنينا من امرها شيء في هذا الكتاب ، وهي بعدُ لم تنقض بموت يزيد ، بل لم تنقض حتى أرهقت جماعة المسلمين من أمرها عسراً .

وأمّا الحسين بن علي فقد أقام بمكة رافضاً بيعة يزيد . وجعلت الرسل تتصل بينه وبين شيعة اهل البيت في الكوفة ، وهم اكثر اهلها . وقد استجابت هذه الشيعة للحسين . ويقول المؤرخون انها هي التي بدأت فدعته الى ان يأتي الكوفة ليكون إمامهم فيما أزمعوا من خلع يزيد واخراج عامله النعمان بن بشير . وقد كثرت هذه الكتب وكثر الذين أمضوها من أشراف الناس ورؤوس القبائل وقرّاء المصر ، حتى منحها الحسين كثيراً من عنايته . وأراد ان يستقصي امر هؤلاء الناس ، فأرسل ابن عمه مسلم بن عَقيل الى الكوفة ليلقى أهلها ويعلم علمهم ، فإن آنس منهم نيّة صادقة وعزيمة مصممة على الخروج ونصحاً لآل علي أخذ منهم البيعة مستسرّاً بذلك ، حتى اذا رأى ان قد بايعه منهم من يستطيع ان ينهض بهم الى ما يريد من خلع يزيد كتب اليه بذلك ليرحل الى الكوفة ، فمضى الفتى متنكراً ولقي في طريقه بعض الجهد ، فكتب الى الحسين يستعفيه . فأبى الحسين ان يعفيه ، وسار الفتى حتى أتى الكوفة.

فاستخفى بأمره عند بعض أهلها وجعل يلقى وجوه الناس ورؤساءهم حتى اذا استوثق منهم جعل يأخذ البيعة عليهم للحسين . وعرف النعمان بن بشير بعض ذلك ، فلم يحاول ان يصل الى مسلم ولا ان يعنف بالناس ، وانما سار فيهم سيرة رجل من اصحاب النبي ، سار سيرة علي في الخوارج ، وسيرة المغيرة بن شعبة في الخوارج والشيعة جميعاً . وجعل يرفق بهم وينصح لهم ، ويحبب اليهم العافية ويدعوهم الى الوفاء بما أعطوا على أنفسهم من البيعة ليزيد ، ويأبى على خاصته الذين كانوا يأمرونه بالحزم ، حتى كتب كاتبهم بالأمر كله الى يزيد فلم يكد يزيد يعرف ذلك من أمرهم حتى استشار سَرجون مولى أبيه . فأشار عليه بأن يضم الكوفة الى ابن زياد عامله

على البصرة ، ويأمره بالشخوص اليها من فوره ، ففعل . وأقبل عُبيد الله بن زياد الى الكوفة فدخلها ، وقد اضطرب أمر المصر اضطراباً شديداً ، حتى اضطر النعمان بن بشير الى ان يلزم قصر الإمارة لا يكاد يخرج منـــه . فنهض ابن زياد بالأمر في حزم لا يعرف أناة ولا بقيــة ولا تردداً ، وكان مسلم بن عقيل قد أخذ البيعة على أكثر من ثمانية عشر الفاً ، وكتب بذلك الى الحسين وألح عليه في القدوم الى الكوفة .

ولم يكد ابن زياد يستقر في سلطانه الجديـــد حتى طلب مسلماً سرّاً وعلانية ، وجدّ في الطلب حتى عرف مــكانه عند رجل من أشراف مذحج يقال له هانىء بن عُروة . فلم يزل بهانىء هذا حتى أحضره بين يديه . ثم لم يزل به حتى قرّره بأن مسلماً مختبىء في داره ، ثم حبسه وهاج الناس لحبسه فلم يبلغوا بهياجهم شيئاً .

وثار مسلم آخر الأمر ونادى بشعاره ، فثارت معه ألوف من اهل الكوفة ، فمضوا حتى بلغوا المسجد ولكنهم لم يثبتوا ، ولم يكد الليل يتقدم حتى كانوا قد تفرقوا عن الفتى وتركوه وحيداً يهيم في سِـكك المدينة يلتمس داراً ينفق فيها بقية الليل . وقــد جيء بـــه عبيد الله بن زياد آخر الأمر فقتله في أعلى القصر وألقى رأسه ، ثم ألقى جسمه الى الناس . وقَتَل هانىء بن عُروة ، وصلب القتيلين معاً ليجعلهما نكالا .

- ٥٥ -

وقد وصل كتاب مسلم إلى الحسين بمكة ، فجعل يتأهب للسير إلى الكوفة ، وجعل الناس يُلحون عليه في ألاّ يفعل . يخوّفونه بأس يزيد وبطش ابن زياد وغــدر أهل الكوفة . ونصح له ابن عباس في أن يمضي الى اليمين فيقيم في شِعْب من شعابها بعيداً عن يد السلطان وقريباً من شيعته هناك . ونصح له عبد الله بن جعفر ، ورفق بـــه عاملُ يزيد على مكة سعيد بن العاص ، فأرسل في إثره من يلح عليه في الرجوع إلى مكة ، ويؤمّنه على نفسه وماله وأهل بيته ويرغبه في الصّلات ، ولكن الحسين مضى لوجهه ولم يمض وحده ، وإنما احتمل معـــه أهل بيته ، وفيهم النساء والصبيان ولم يسمع لمشورة ابن عباس الذي أشار عليه إن لم يجد بدّاً من المسير أن يترك أهل بيته وادعين آمنين ، وأن يدعوهم إليه إن استقامت له الأمور ، ولكنـــه أبى . وما أراه أبَى عناداً أو ركوباً لرأسه ، وإنما كان يعلم أن يزيد سيأخذه بالبيعة أخذاً عنيفــاً ،

فإن بايع غَشَّ نفسه وخان ضميره وخالف عن دينه ، لأنه كان يرى بيعة يزيد إثماً ، وإن لم يبايع صنع به يزيدُ ما يشاء .

ولم يكن الحسين مخطئاً فيما قدّر ، فهو قد عرف ما كان من غضب يزيد على ابن الزبير حين امتنع عن البيعة . وأقسم ألا يرضى حتى يحمل إليه ابن الزبير في جامعة يقاد إليه كما يقاد الأسير . ولم يخطىء الحسين حين أبى أن يترك أهل بيته بالحجاز ، فلم يكن يأمن أن يأخذهم يزيد بمسيره هو إلى العراق منابذاً للسلطان .

وقد مضى مع الحسين نفر من بني أبيه ومن بني أخيه الحسن ، واثنان من بني عبد الله بن جعفر ، ونفر من بني عمه عقيل ، ورجال آخرون حرصوا على أن ينصروه. ولما رأت الأعراب قدومه الى العراق منابذاً ليزيد طمعوا في صحبته وانتظروا منها الخير ، فتبعه منهم خلق كثير .

ودنا الحسين من العراق وقد أرصد ابن زياد له الأرصاد وأمّر رجلاً من أشراف الكوفة ، يقال له الحُرّ بن يزيد ، على ألف من الجند ، وأمرهم أن يلقوا الحسين في مقدمه ذاك فيأخذوا عليه طريقه ويحولوا بينه وبين الذهاب في أي وجه من وجوه الأرض ، ولا يفارقوه حتى يأتيهم أمره . ولما عرف الأعراب أنها الحرب تفرقوا عنه فلم يبق معه منهم أحد .

ولقي الحسينُ الحرّ بن يزيد في أصحابه، فلما علم علمهم أراد أن يَعظهم ويذكرهم، فسمعوا منه ورضوا قوله ، ولكنهم لم يطيعوه وإنما أطاعوا أميرهم ابن زياد . ثم ندب ابن زياد لحرب الحسين رجلا من أقرب الناس اليه ، هو عمر بن سعد بن أبي وقاص فاستعفاه عمر فلم يُعفه . وأرسل معه جيشاً من ثلاثة آلاف أو اربعة آلاف ، فمضى عمر حتى لقى الحسين فسأله : فيم قدم ؟ قال الحسين : كتب إليّ أهل المصر يستقدمونني ويبذلون لي نصرهم ، وأظهر كـتبَهم لعمر. فعرضت هذه الكتب على بعض من أمضاها ممن حضر . فكلهم أنكرها . وكلهم جحدها مقسماً أنه لا يعلم من أمرها شيئاً .

وقد عرض الحسين على عمر أن يختار خصلة من ثلاث ، فإما أن يخلُّوا بينه وبين طريقه الى الحجاز ليعود الى المكان الذي جاء منه ، وإما ان يسيّروه الى يزيدبالشام، ليكون بينه وبين يزيد ما يكون . واما ان يخلّوا بينه وبين الطريق الى ثغر من ثغور المسلمين ، فيكون هناك كواحد من الجند الذين يرابطون بإزاء العدو ، له مثل ما لهم من العطاء عليه مثل ما عليهم من الجهاد . فأما عمر بن سعد فرضي : وقال أوامر ابن زياد ؟

وكتب الى ابن زياد بما عرض عليه الحسين ، فأبى إلا أن ينزل الحسين على حكمه ، وكتب بذلك الى عمر ، وأرسل الكتاب اليه مع شمر بن ذي الجوشن ، وقال له : أقرئه الكتاب وانظر ما يصنع ، فان نهض لقتال الحسين فأقم معه رقيباً عليه حتى يفرغ من أمره ، وإن أبى أو تثاقل فاضرب عنقه وكن أمير الجيش . ولم يكد عمر بن سعد يقرأ كتاب ابن زياد ويعلم ما أمر به حامل الكتاب حتى نهض لقتال الحسين ، وطلب اليه أن ينزل على حكم ابن زياد . فأبى الحسين وقال : أما هذه فدون دونها الموت . ثم زحف عمر بجيشه على الحسين وأصحابه ، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً ، فقاتلوهم أكثر من نصف النهار . وأبلى الحسين وبنو أبيه وبنو عمومته ومن كان معه من أنصاره القليلين أعظم البلاء وأقساه ، فلم يُقتلوا حتى قتلوا أكثر منهم . ورأى الحسين المحنة كأشنع ما تكون المحن ، رأى إخوته وأهل بيته يُقتلون بين يديه وفيهم بنوه وبنو أخيه الحسن وبنو عمه ، وكان هو آخر من قُتل منهم بعد أن تجرع مرارة المحنة فلم يبق منها شيئاً .

وكان نفر يسير من أصحاب عمر بن سعد قد ضاقوا برفض ابن زياد ما عرض عليه الحسين من الخصال ، ففارقوا جيشهم وانضموا إلى الحسين ، فقاتلوا معه حتى قُتلوا بين يديه . ونظر المسلمون فإذا قوم منهم — على رأسهم رجل من قريش من أبناء المهاجرين ، أبوه أول من رمى بسهم في سبيل الله ، وأحد العشرة الذين شهد النبي لهم بالجنة ، وقائد المسلمين في فتح بلاد الفرس ، وأحد الذين اعتزلوا الفتنة فلم يشاركوا فيها من قريب ولا من بعيد — نظر المسلمون فإذا قوم منهم ، عليهم هذا القرشي عمر بن سعد بن أبي وقاص ، يقتلون أبناء فاطمة بنت رسول الله ، ويقتلون أبناء علي ، ويقتلون ابني عبد الله بن أبي طالب الطيار شهيد مؤتة ثم يحزون رؤوسهم ثم يسلبونهم ، ويسلبون الحسين حتى يتركوه متجرداً بالعراء ، ويصنعون بهم ما لا يصنع المسلمون بالمسلمين . ثم يَسْبُون النساء كما يُسبى الرقيق ، وفيهم زينب بنت فاطمة بنت رسول الله ، ثم يأتون بهم ابنَ زياد فلا يكاد يرفق بهم إلا حياءً واستخذاء ، حين قال لهم عليّ بن الحسين وقد كان صبياً وهمّ ابن زياد بقتله فقال له : إن كانت بينك وبين هؤلاء النساء قرابة فأرسل معهن الى الشام رجلاً تقياً رفيقاً . هنالك ذكر عبيد الله أن أباه يدّعي لأبي سفيان ، فاستحيا ولم يقتل الصبي ، وإنما أرسله مع سائر أهل الحسين الى يزيد ، وقدّم رؤوس القتلى بين أيديهم وفيها رأس الحسين . وقد دخل به على يزيدَ فوُضع أمامه ، فجعل ينكت في ثغره بقضيب كان في يده وينشد :

يفلّقن هاماً من رجال أعزّة　　علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

وزعم الرواة أن أبا بَرْزة صاحب النبي كان حاضراً هـذا المجلس، فقال ليزيد: لا تفعل هذا فربما رأيتُ شفتي رسول الله ﷺ على هذا الثغر مكان هذا القضيب، ثم قام فانصرف.

وأدخل السبي على يزيد فأغلظ لهم أول الأمر، ثم لم يلبث أن رفق بهم وبرّهم وأدخلهم على أهله، ثم جهزهم بعد ذلك إلى المدينة وردّهم إليها كراماً.

والرواة يزعمون أن يزيد تبرأ من قتل الحسين على هذا النحو، وألقى عبء هذا الإثم على ابن مُرجانة عبيد الله بن زياد. ولكنا لا نراه لامَ ابن زياد ولا عاقبه ولا عزله عن عمله كله أو بعضه. ومن قبله قَتَل معاوية حُجْرَ بن عديّ وأصحابه ثم ألقى عبء قتلهم على زياد وقال: حمّلني ابن سُمية فاحتملت.

- ٥٦ -

وكذلك أصبح للشيعة ثأر عند الخوارج لأنهم قتلوا عليّاً غيـلة، وللخوارج عند الشيعة ذُحول لأن عليّاً قتل من قتل منهم في النهروان وفي غير النهروان من المواقع، وأصبح للشيعة ثأران عند بني أمية، لأن معاوية قتل حُجْراً وأصحابه، ولأن يزيد قتل الحسين وأهل بيته وجماعة من أصحابه.

وكان بنو أمية يزعمون أن لهم عند الشيعة ثأراً، أو قل عند الشيعة والخوارج، لما كان من قتل عثمان بأيدي الثائرين الذين وفى بعضهم لعليّ وخرج بعضهم عليه. ثم لبني أمية ذُحول أخرى عند عامـة المسلمين، لقتـل من قتل منهم يوم بدر. وقد ذكر يزيد فيما زعم بعض الرواة، هذه الذُحول في هـذا الموطن حين أنشد بعد وقعة الحُرة:

ليت أشياخي ببَدْرٍ شهدوا　　جزَعَ الخزرج من وقع الأسل

ومهما يكن من شيء فقد أصبح الخلاف بين هذه الجماعات لا يقوم على تباعد الرأي في الدين وحده، وإنما يقوم على الذحول والأوتار والدماء.

لكل جماعة من هذه الجماعات ثأر عند الجماعتين الأخريين. ومعنى هذا كله أن العصبية أصبحت أساساً من أسس الفتنة، التي دفعت المسلمين إلى كثير من الشر، والتي

لم تَنْقَضِ بقتل الحسين ولا بموت يزيد ، وإنما اتصلت بعد ذلك دهراً طويلاً وبقيت آثارها في حياة المسلمين إلى الآن .

والشيء الذي ليس فيه شك ، هو ان اهل العراق لم يكونوا وحدهم هم الذين قرّبوا القرابة وباعدوا الدين ، كما قال لهم زياد في خطبته البتراء ، وإنما عَمَّت المحنة بذلك أهل العراق وأهل الشام وأهل مصر وأهل الحجاز كما سترى .

وقد يقال إن الحسين قد ثار بيزيد ورفض بيعته ، وثار إلى الكوفة يريد أن يُخرج أهلها عن طاعته ويفرق جماعة الناس ، ويرد الحرب بين المسلمين إلى ما كانت عليه أيام أبيه . فلم يكن يزيد وأميره في العراق بادئين في الشر مثيرين للفتنة ، وإنما ذادا عن سلطانهما وحافظا على وحدة الأمة . وقد كان هذا يستقيم لو ان الحسين مضى إلى حربه مصمّماً عليها ، لا يقبل فيها مفاوضة ولا يقبل عنها رجوعاً ، ولكن الحسين عرض خصاله الثلاث تلك التي عرضها . وكانت العافية في كل واحدة منهن ، فلو قد خلّى بينه وبين الرجوع إلى الحجاز لعاد إلى مكة التي لم يكن يحب ان تسفك فيها الدماء ، لأنها بلد حرام ، ولأنها لم تُحَلّ لرسول الله نفسه إلا ساعة من نهار . ولو قد خلّى بينه وبين اللحاق بيزيد لكان من الممكن أن يبلغ يزيد منه الرضى على أي نحو من الأنحاء ، أو أن يقيم عليه حجة ظاهرة لا تقبل مراء ولا جدالاً . ولو قد خلى بينه وبين المسير إلى ثغر من ثغور المسلمين لكان رجلاً من عامة الناس يجاهد العدو ويشارك في الفتح ، لا يؤذي أحداً ولا يؤذيه أحد من المسلمين . ولكن أصحاب ابن زياد أبوا إلا أن يستذلوه ويستنزلوه على حكم رجل لم يكن الحسين يراه كفؤاً ولا ندّاً . فلم يكن ما وقع من الشر إلا طغياناً وإسرافاً في التجبّر والبغي ، وكأن ابن زياد ظن أنه سيجتث الفتنة من أصلها بقتل الحسين ، فيوئس الشيعة من أمرها ، ويضطرها إلى أن تنحرف عما كانت تعلل نفسها به من الآمال والمنى إلى الإذعان لما ليس بدّ من الإذعان له .

ولكنك سترى ، في غير هذا الجزء من أجزاء الكتاب ، أن ابن زياد لم يزد الفتنة إلا استعاراً ، وأن الشر يدعو إلى الشر . والدماء تدعو إلى الدماء ، وهذا الإسراف في القتل والتنكيل بالمقتولين وبمن تركوا من الأطفال والنساء . فقد سلب القتلى وفيهم ابن فاطمة وأحفادها ، وسلب أبناء علي وغيرهم من أصحاب الحسين ، ونزع من النساء كل ما كان معهن من حليّ وثياب ومتاع . واضطر يزيد بعد ذلك إلى أن يعوضهن ما أخذ منهن .

وكان علي رحمه الله يتقدم إلى أصحابه في حروبه ألا يتبعوا هاربـاً ، ولا يجهزوا على جريح ، ولا يأخذوا من المنهزمين إلا ما أوجفوا به من خيل أو سلاح . وكان الأمر يجري على ذلك في صفين . فسيرة ابن زياد هذه التي سارها في الحسين وأصحابه كانت بدعاً منكراً مما ألف المسلمون حتى في فتنهم الشنيعة. ثم هو لم يلق من يزيد في ذلك عقابا ولا لوماً ، وإنما لقي منه رضى وإيثاراً .

وقد تمت بهذه الموقعة محنة لعلي في أبنائه لم يمتحن بمثلهـا مسلم قط قبل هذا اليوم ، فقد قتل من بنيه الحسين بن فاطمة والعباس وجعفر وعبد الله وعثمان ومحمد وأبو بكر ، فهؤلاء سبعة من أبنائه قتلوا معاً في يوم واحد . وقتل علي بن الحسين الأكبر وأخوه عبد الله ، وقتل عبد الله بن الحسن وأخواه أبو بكر والقاسم ، وهؤلاء الخمسة من أحفاد فاطمة . وقـتل من بني عبد الله بن جعفر الطيّار محمد وعون ، وقتل نفر من بني عقيل بن أبي طالب في الموقعة ، بعد أن قتل مسلم بن عقيل في الكوفة كما رأيت .

وقـتل غير هؤلاء سائر من كان مع الحسين من الموالي والأنصار . فكانت محنة أي محنة للطالبيين عامة وأبناء فاطمة خاصة . ثم كانت محنة أي محنة الإسلام نفسه إذ خولف فيها عما هو معروف من الأمر بالرفق والنصح وحقن الدماء بحقها وانتهاك أحق الحرمات بالرعاية ، وهي حرمة رسول الله ﷺ التي كانت تفرض على المسلمين أن يتحرّجوا أشد التحرج ، ويتأثموا أعظم التأثم ، قبل أن يمسوا أحداً من أهل بيته .

كل ذلك ولم يمض على وفاة النبي ﷺ إلا خمسون عاماً . فإذا أضفت إلى ذلك أن الناس تحدثوا فأكثروا الحديث ، وألحوا فيه بأن الحسن قـد مات مسموماً لتخلو الطريق ليزيد إلى ولاية العهد ، عرفت أن أمور المسلمين قد صارت أيام معاوية وابنه الى شر ما كان يمكن أن تصير اليه .

ولم يلبث هذا النكر أن أحدث آثاره الأولى ، ولم تكن أقل منه نكراً . فقد انتهت محنة الحسين الى الحجاز فكانت صدمة لأهله ، وللصالحين منهم خاصة ، وجعل الناس يتحدثون بها ، فيكثرون الحديث ، وجعلوا يعظمون أمرها لما أكبروا منها ما تحدثوا

قلوبهم اليهم ، وما أكثر ما تحدث بعضهم الى بعض حين كانوا يتخلون ، بأن سلطان يزيد قد أمعن في الخلاف عن أمر الله ، فلم تصبح طاعته لازمة ، بل أصبح الخروج عليه واجباً حين يمكن الخروج عليه .

وقد عظم في الحجاز أمر عبد الله بن الزبير ، وكثر أصحابه وأشياعه ، وجعل يزيد يَجِدّ في أن يفرغ منه كما فرغ من أمر الحسين وانتهى الخبر الى يزيد بأنّ أمرَ المدينة قد اضطرب ، وبأن أهلها يظهرون النكير عليه ولا يَستَخْفُون به . فطلب الى عامله أن يرسل اليه وفداً منهم ففعل ، وأقبل الوفد فلقيه يزيد أحسن لقاء ، ووصل اعضاءه فأعطى كل واحد منهم خمسين ألفاً . وظن أنه قد أسى بإحدى يديه مـــا أفسد بالأخرى . ولكن الوفد يعودون الى المدينة فيقولون لأهلها جهرة : جئناكم من عند فاسق يشرب الخمر ويضيع الصلاة ويتبع شهواته ويضرب بالطنابير وتغني عنده القيان .

وتصل هذه الأحاديث الى عبد الله بن الزبير بمكة فيلهج بيزيد أشد اللهج ، ويضيف اليه من الشر والنكر والموبقات ما يشاء . ثم يثور أهل المدينة ويُخرجون عامل يزيد ، ويؤمّرون عليهم رجلاً منهم هو عبد الله بن حنظلة الغسيل ويحصرون بني أمية . ويُضطر يزيـــد آخر الأمر الى أن يرسل اليهم النعمان بن بشير الأنصاري ليستصلح قومه ، فلا يبلغ النعمان منهم شيئاً . فيرسل اليهم يزيد جيشاً قوامه اثنا عشر ألفـــاً من أهل الشام ، ويؤمّر على هذا الجيش مسلم بن عقبة المُرّي ، ويرسم له خطة أولها حق وآخرها باطل ، وهي أن يأتي المدينة فيدعو أهلها الى الطاعة ويعذر اليهم وينظر بهم ثلاثاً ، فإن أطاعوا فذاك ، وان أبوا قاتلهم.

والى هنا لا يتجاوز يزيد ما ينبغي له من الحق في رد الخارجين عليه الى طاعته . ولكن يزيد لا يكتفي بهذا وانما يمضي الى الباطل من خطته ، فيأمر مسلماً اذا انتصر على خصمه من أهل المدينة ان يبيحها ثلاثاً لأهل الشام ، يصنعون بأهلها ما يشاؤون وينهبون من أموالهم ومتـــاعهم ما يحبون . لا يحرّج عليهم في شيء من ذلك ولا يحرم عليهم شيئاً منه .

وقد جاء مسلم الى المدينة فقاتل أهلها بعد ان أعذر اليهم ، وقـُتل منهم في الموقعة خلق كثير . ثم أباح المدينة ثلاثاً لجنده فقتلوا ونهبوا ، واستباحوا من محارم النـــاس ما عصم الله . ثم أخذ مَن بقي من أهل المدينة بالبيعة ، لا على كتاب الله وسنة رسوله كما تعود المسلمون ان يبايعوا ، ولكن على أنهم خَوَل ليزيد ، فمن أبى منهم هـــذه

البيعة المنكورة أمر به فضربت عنقه .

وكذلك عُصي الله وخولف عن الدين جهرة في مدينة النبي ، وظن يزيد وأعوانه أنهم قد انتقموا بذلك لعثمان . ثم تحول الجيش عن المدينة الى مكة فحاصروا فيها ابن الزبير ، ومات مسلم في الطريق . فقام بأمر الجيش بعده الحُصين بن نُمير السكوني . وقد شدد أهل الشام الحصار على مكة ، ثم لم يقفوا عند ذلك وانما رموها بالمجانيق وحرقت الكعبة ، واتصل الحصار حتى جاءهم موت يزيد فقفلوا راجعين الى الشام دون أن يلقى ابن الزبير منهم كيداً .

وكان في حصار ابن الزبير بمكة والمضي في هذا الحصار حتى يستسلم ابن الزبير مَقنع ليزيد وأصحابه ، ولكن جيش يزيد أبى إلا ان ينتهك حُرمة مكة كما انتهك حرمة المدينـــة . وأسخط يزيد على نفسه بذلك أهلَ الحجاز وعامة المسلمين ، كما أسخطهم بقتل الحسين .

والغريب المنـــكر من هذا كله هو تجاوز الحد والغلو في الإثم . فقد كانت السياسة تقتضي ان يقـاتل الخارجون على يزيد حتى يقتلوا او يفيئوا الى طاعته . فأما المثلة وانتهـــاك الحرمات ففظائع لا ينكرها الدين وحده ، وانما تنكرها السياسة أيضاً ، وتنكرها السنة العربية المعروفة ، وهي بعد ذلك تُحفظ الصدور وتملأ القلوب ضغينة وحقداً . وقد أحفظ يزيد أهل الجماعة أنفسهم بعد ان أحفظ قلوب غيرهم من الشيعة والخوارج .

ثم لم تـــكن عاقبة هذا كله على آل ابي سفيان إلا خروج المُلك منهم وانتقاله الى غيرهم . فقد مات يزيد ولمّا يملك إلا أربـع سنين ، قتلته لذته أشنع قتلة ؛ فقد كان فيما زعم الرواة ، يسابق قِرْداً فسقط عن فرسه سقطة كان فيها الموت .

- ٥٨ -

وقد انتهت هذه الفتنة ، التي شبت نارها في المدينة سنة خمس وثلاثين بقتل عثمان ، الى هذه المرحلة من مراحلها بعد أن اتصلت ثلاثين عاماً او نحو ذلك ، وبعد ان أثارت من الخطوب الجسام ما رأيت ، وبعد أن سفك فيها ما سفك من الدماء ، وأزهق فيها ما أزهق من النفوس ، وانتهك فيها ما انتهك من الحرمات ، وقضي فيهـــا على سنة

الخلافة الراشدة ، وفرّق فيها المسلمون شيعاً وأحزاباً ، وأسس فيها ملك عنيف لا يقوم على الدين وإنما يقوم على السياسة والمنفعة . وكان يظن ، حين استقام أمر هذا الملك لمؤسسه عشرين عاماً ، أنه سيمضي في طريقه وادعاً مطمئناً مستقراً في بني أبي سفيان دهراً على أقل تقدير ، ولكنه لم يستقر فيهم إلا ريثما تحوّل عنهم .

ثم لم يتحول عنهم في يسر ولين ، لأن الفتنة لم تنقض بموت يزيد ، وإنما قطعت مرحلة من مراحلها ، ثم استأنفت عنفها وشدتها بعد موت يزيد ، فعرضت المسلمين ودولتهم لخطوب ليست أقل جسامة ولا نكراً من الخطوب التي صورنا بعضها فيما قرأت من هذا الكتاب .

وقد أصبح للمسلمين مثل بعينه من هذه المثل العليا الكثيرة التي دعا اليها الإسلام ، وجعلت الفتنة تدور حول هذا المثل الأعلى لتبلغه فلا تظفر بشيء مما تريد ، وإنما تسفك الدماء وتزهق النفوس وتنتهك المحارم وتفسد على الناس أمور دينهم ودنياهم . وهذا المثل الأعلى هو العدل الذي يملأ الأرض وينشر فيها السلام والعافية ، والذي تقطعت دونه أعناق المسلمين قروناً متصلة دون أن يبلغوا منه شيئاً . حتى استيأس من قربه بعض الشيعة ولم يستيئسوا من وقوعه ، فاعتقدوا أن إماماً من أئمتهم سيأتي في يوم من الأيام فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً .

ولله حكمة أجرى عليها أمور الناس ، والله بالغ أمره ، قد جعل لكل شيء قدراً .